
كافكا
مكتبة
Telegram Network
2019
الأعمال الكاملة

مقدمة المكتبة

يسر مكتبة Telegram Network، أن تقدم لجمهور متابعيها الأعزاء وكافة القـراء العـرب، مجموعة الأعمـال الكاملة لفرانز كافكـا بصـيغة نصية في أربعة أجزاء.

وفي حين تتألف النسخة الورقية من الأجزاء الثلاثة الأولى فقط؛ ارتـأت المكتبة، تعميماً للفائدة وتسهيلاً على القراء إضـافة جـزء رابع يضم بين دفتيه «استعدادات لعقد قران وقصص أخرى»، «رواية أمريكـا»، «بنـات آوي وعرب»، و«رسائل الى ميلينا».

إننا إذ نقـدم هـذا العمل الجديد نشـكر كل من سـاهم في إنجـاز هـذا العمل، كما نشكر كل المتابعين والقراء الأعزاء على تفـاعلهم المسـتمر والذي يدفعنا للذهاب عميقاً في مشروعنا المستمر هذا.

حسن العاملي،

«فريق الكتب النادرة»

فرانز كافكا

الأعمال الكاملة

ترجمها عن التشيكية (الجزء الأول والثاني)

د. خالد البلتاجي

ترجمها عن الألمانية (الجزء الثالث)

د. يسري خميس

ترجمة (الجزء الرابع)

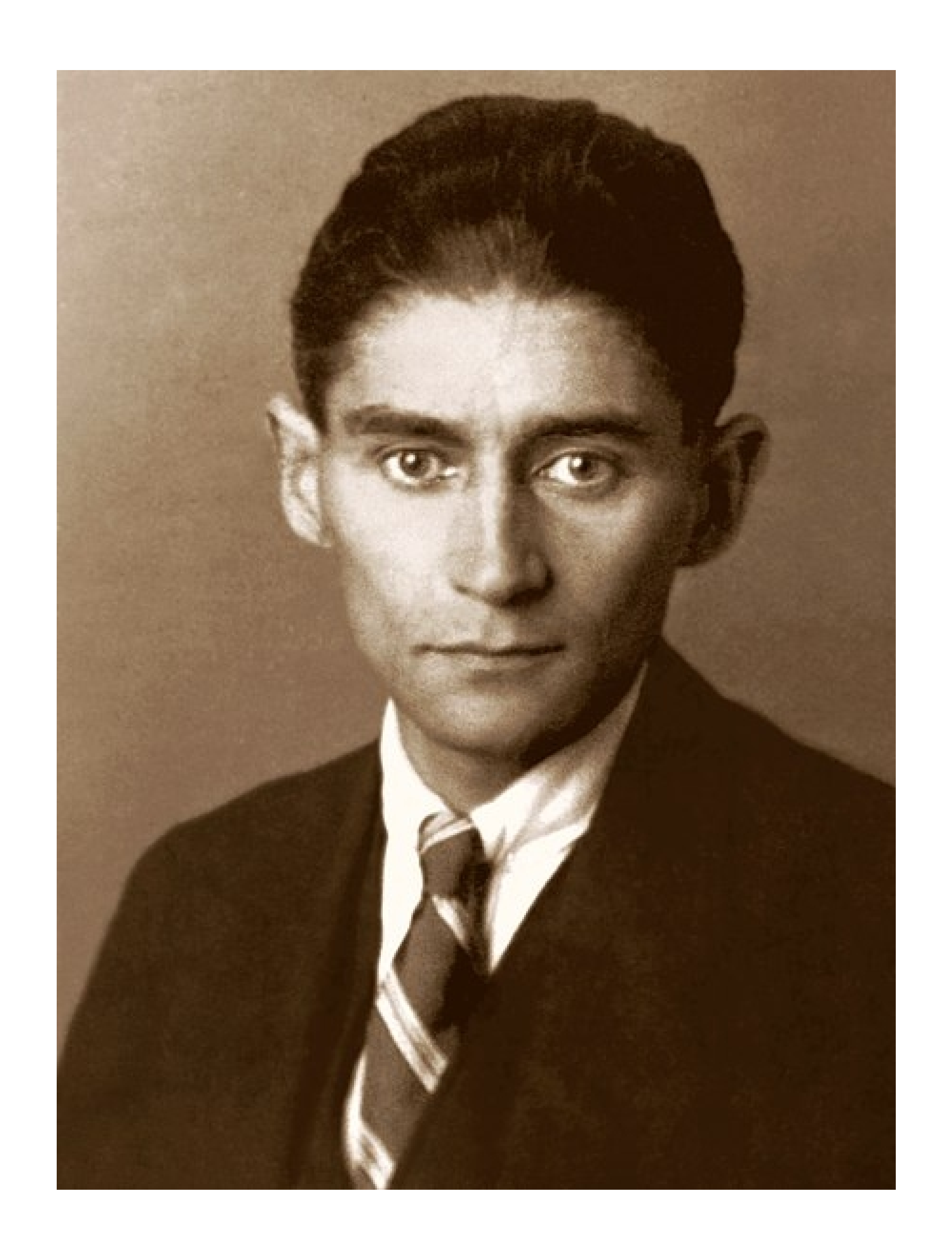
الدسوقي فهمي



كافكا سنة 1906



كافكا سنة 1910



كافكا في سنة 1923

1883–1924

توقيعه:

مخطوطة "المحاكمة"

Liebster Vater, Schelesen 1

Du hast mich letzthin einmal gefragt, warum ich behauptete, ich hätte Furcht vor Dir. Ich wußte Dir, wie gewöhnlich, nichts zu antworten, zum Teil eben aus der Furcht die ich vor Dir habe, zum Teil deshalb, weil zur Begründung dieser Furcht zu viele Einzelheiten gehören, als daß ich sie im Reden halbwegs zusammenhalten könnte. Und wenn ich hier versuche Dir schriftlich zu antworten, so wird es doch nur sehr unvollständig sein, weil auch im Schreiben die Furcht und ihre Folgen mich Dir gegenüber behindern und weil überhaupt die Größe des Stoffs über mein Gedächtnis und meinen Verstand weit hinausgeht.

Dir hat sich die Sache immer sehr einfach dargestellt, wenigstens soweit Du vor mir und, ohne Auswahl, vor vielen andern davon gesprochen hast. Es schien Dir etwa so zu sein: Du hast

اول صفحة من كتابه رسالة إلى الوالد



الطبعة الأولى سنة 1912 كتاب

تأملات كافكا

فرانز كافكا

«الأعمال الكاملة»

الجزء الأول

ترجمة

د. خالد البلتاجي

مقدمة المترجم

ظهرتْ في العقود الأخيرة العديد من الدراسات حول أعمال «فرانز كافكا»، وهي في الحقيقة تشرح وتُحَقِّق كتابات كافكا من نواحي متعددة. ولكن خطورة هذا الأمر تكمن في أن تعدد التأويلات غالبًا ما يُغلق الباب أمام فهم النص بطريقة غير مُنْحَازة؛ مما يجعله عُرضَة لأن يفقد التأثير الذي أراده الكاتب.

بدأت أعمال كافكا تصدر مُحَقَّقَة في عام 1982 من دار فيشر للنشر في فرانكفورت. وحتى عام 1990، صدرت منها روايات: «القلعة، 1982»، و«المفقود، 1983»، و«المحاكمة، 1990» التي تبعها في العام نفسه صدور «اليوميات» وأطلق الناشر على كل مجلد اسم «كتابات، ويوميات، وخطابات» وكانت تضم نصوصًا لأعمال بناءً على مخطوطات الأديب، ثم صدر مجلد أو مجلدان مصحوبان بتعليقات وشروح.

وهنا نُقَدِّم لك عزيزنا القارئ الجزء الأول من (فرانز كافكا، الأعمال الكاملة) بمناسبة مرور تسعين عامًا على رحيل هذا الأديب التشيكي المتميز عن الدنيا. وهي أول ترجمة لأعماله من اللغة التشيكية، رغم أنه لم يكتبها بلغة البلد الذي وُلِدَ وعاش ومات فيه، وهي جمهورية التشيك.

استندنا في ترجمتنا هذه إلى نسخة المترجم التشيكي «فلاديمير كافكا» عن الألمانية التي ظهرت في ستينيات القرن الماضي. وجمعنا في هذا المجلد أهم الأعمال التي صدر بعضها في حياة «كافكا» والبعض الآخر بعد وفاته. وقد حاولنا أن نُغطي مساحةً زمنيةً كبيرةً في حياة هذا الأديب الإبداعية من خلال القصص الطويلة أو بالأحرى الروايات القصيرة التي كتبها. ورأينا أنه قد يكون من الأفضل رؤية كل إبداعات «فرانز كافكا» قدر الإمكان متجاورة أو متتابعة، بغض النظر عن كونها أعمالاً مُكتملة مثل: «فنان الجوع» و«أبحاث كلب»، و«وطن الفئران»، و«التحول ـ المعروفة أيضًا باسم المسخ»؛ أو أجزاء من أعمال لم تكتمل مثل: «صراع»، و«في مستعمرة العقاب». وغيرها.

تُعَد قصة «صراع» أول أعمال «كافكا» المعروفة، وهي بوابة الدخول إلى عالم فرانز كافكا؛ حيث يُوَثِّق فيها الكاتب نهاية حقبة الكتابة الجمالية. لقد اتجه «كافكا» إلى اللغة الطبيعية المهجورة وقتها التي بَلْوَرَها لاحقًا وحَوَّلها إلى لغة رصينة وصارمة، ظهرت في أعماله منذ حوالي عام 1912. وكانت بمثابة وسيلة للغوص إلى عالم الإنسان الداخلي، أو أسفل سطح التركيبة الاجتماعية في زمنه. وقد صارت لغة كافكا هذه مُمَيَّزة له.

وكان أكثر ما يُمَيِّز أعماله عن غيره من الأدباء هو شمولها. فلا يمكن فهم أي نص له إلا في إطار مُجْمَل أعماله. وأي تأويل له خارج هذا الإطار يؤدي إلى الإرباك، أو التفسير المصطنع، أحادي النظرة. فكل كتاباته وكل صوره وتشكيلاته اللغوية تُشَكِّل عالمًا خاصًا ومستقلًا.

تضم أعمال «كافكا» الأولى، وخاصةً قصة «صراع»، العديد من القضايا الرئيسية والمشاكل التي عالجها في كل إنتاجه الأدبي اللاحق. إن الصراع الذي يصفه الكاتب في هذه القصة الطويلة تخوضه كل أبطاله وشخصياته التي ظهرت في أعماله اللاحقة. إنه صراع من أجل الفهم الكامل والحقيقي لجوهر الأشياء، صراع من أجل فهم العالم في مُجْمَله. إنها الأشياء التي تحمل في طياتها وجودنا الحقيقي، وتتساقط من حولنا، كما يقول كافكا «مثل عاصفة ثلجية» لكن نظرة البشر لا تسمح لهم بفهم الأمور على حقيقتها الجميلة الهادئة. إنهم يُشَوِّهون الحقيقة، وينزعون عنها الحياة، فيصبح الطريق إليها مُغْلقًا بفضل التباس المسميات التي يُطلقونها عليها. إن كل فعل يقوم به أحد أبطاله يُقَدِّم «دليلًا على أن الحياة مستحيلة»؛ ورغم هذا يجاهد في التعرف عليها. فطالما أراد الإنسان أن يسعى إلى الكمال، عليه أن يغوص في التيار. من هذا المنطلق تواصلت تحليلات «كافكا» لكل جوانب الأشياء واحتمالاتها التي لم يستطع رفضها بشكل مطلق، لكنها سرعان ما تُغلق أبوابها أمامه. من هنا جاءت قضية المتابعة المستمرة لكل فكرة، ولكل حكم أصدره وصاغه بلغةٍ رصينة؛ فنجد في تراكيبه اللغوية صورة العالم، حتى في أشد صورها تطرفًا وانفصامية كما في قصة «العرين»

من هذا الوعي بالتَّحَوُّل الدائم، وباحتمالات الأشياء التي لا تنتهي، نشأ شعوره بالانفصام عن ذاته؛ حيث نجد أن كل كلمة، وكل حركة تتحول إلى مشكلة، تصل إلى درجة تعذيب الذات.

لا يوجد في عالم «كافكا» مكان للرمز الذي يُشير إلى جوهر الوجود بشكل قاطع. ويخلو أسلوبه السردي من عقد المقارنات. إنه أسلوب يسعى بكل تركيز إلى الفهم المباشر للأشياء من خلال وصفها. هدفه الوحيد والأوحد هو مادية الأشياء المطلقة. بهذا الأسلوب استطاع «كافكا» أن يجعل الأشياء حية، تُعَبِّر من تلقاءِ نفسِها عن نفسِها دون الحاجة إلى تعليق منه عليها؛ فنرى الراوي يختفي تمامًا حتى في قصة «العرين»، وبالرغم من أنه كتبها بصيغة المتحدث إلا أنها تخلو من الراوي.

لكن القصة، أو لنقل الحالة في هذا العمل تتحدث من تلقاء نفسها. فلا توجد مسافة يقف فيها الراوي بين الشيء والحدث. إنه لا يحتاج إلى فجوة كهذه.

د. خالد البلتاجي

صراع[1]



الناس يرتدون ملابسهم

يترنحون هنا وهناك فوق الرمال

تحت الأفق الواسع

وبعيدًا عن الهضاب

1تـاريخ كتابـة هـذه القصـة غـير مُتَّفَق عليـه فـي المصـادر. «مـاكس بـرود» يُؤَكِد أن «كـافكا» كتبـها بـين عـامي 1902 و1903. النسـخة التـي بـين أيـدينا هي واحـدة مـن نسختين؛ النسخة الأولى ومنها هذه الترجمة كتبها «كافكا» بخط الكورنت الألماني الذي كان مُستَخدمًا في الأراضي التشيكية حتى بداية القرن العشرين. أما النسخة الثانية فظهرت بالخط اللاتيني في عامي 1909 وحتى أكتوبر 1910.

يميل الأفق من جديد

على الروابي البعيدة

1

نهض بعضهم عند الساعة الحادية عشرة، وانحنوا، وتصافحوا، وأثنوا على اللقاء، ثم خرجوا عبر بوابة ضخمة إلى الدهليز لأخذ معاطفهم. كانت صاحبة الحفل تقف مُنحنية وسط الغرفة، وتنورتها تتأرجح في الهواء بثنياتها المزركشة.

جلستُ عند ترابيزة صغيرة، لها ثلاثة أرجل رفيعة مستقيمة. ارتشفتُ ثالث كأس نبيذ وقد نسيت لفة صغيرة من الخبز اخترتها بنفسي ورصصتها فوق بعضها.

وهنا رأيتُ أحد معارفي الجدد، بدا منزعجًا وثائرًا وهو يقف عند عتبة إحدى الغرف المجاورة. أردتُ أن أشيح بنظري عنه، فأمره لا يهمني. لكنه تَوَجَّه نحوي مباشرةً، مال عليّ وهو يبتسم، وقال بذهن شارد: «اسمح لي أن أحادثك. حتى الآن كنتُ جالسًا في الغرفة المجاورة مع فتاتي منذ الساعة العاشرة والنصف. اسمع يا سيدي! يا لها من سهرة! أعرف أنه من غير اللائق أن أتحدث معك في هذا الأمر. فنحن تعارفنا على بعضنا للتو. في الحقيقة لقد التقينا مساء اليوم على درجات السلم، وتبادلنا بعض الكلمات كضيوف في هذا البيت. والآن أرجوك أن تسامحني، فلا أستطيع أن أخفي سعادتي، وأحتاج لمن أتحدث إليه. وأنا لا أعرف أحدًا غيرك هنا»

نظرتُ إليه بحزن كان طعم كعكة الفواكه عاديًّا وقلت له وأنا أرفع رأسي لأنظر إلى وجهه المتورد: «أنا سعيد أن تراني أهلًا للثقة، لكني لا أرحب بأن تحكي لي عن أمورك الخاصة. فلولا ارتباكك لعرفت بنفسك أنه من غير اللائق أن تحكي عن حبيبتك لشخص يجلس وحيدًا مع كأس من الخمر»

وما إن انتهيت من كلامي حتى جلس فجأةً، واتكأ على المقعد ومَدَّ ذراعيه. ثم حَرَّكَ المقعد إلى الخلف وقد ثنى ذراعيه، وبدأ يتحدث بصوتٍ عالٍ وكأنه يتحدث مع نفسه:

«قبل لحظات قليلة كنا وحدنا في هذه الغرفة. أنا وأنيتشكا. وقَبَّلتها، قَبَّلتها على شفتيها، وعلى أذنيها، وعلى ذراعيها. يا إلهي! يا إلهي!»

بدأ بعض الضيوف الذين رغبوا في حديث أكثر حيوية يتقدمون نحونا وهم يتثاءبون. فهممتُ واقفًا، وقلتُ بصوتٍ يسمعه الجميع:

«حسنًا، سأذهب معك كما تريد، لكنني مُصِرّ على أنه من العبث أن نذهب الآن أثناء الليل وفي فصل الشتاء إلى منطقة باترشين. فالجو أصبح باردًا، والطرق في الخارج زلقة لأن الثلوج بدأت تسقط، لكن حسنًا، كما تريد»

حملق فيّ مندهشًا، وفتح فمه بشفتيه العريضتين، وعندما رأى الرجال يقفون بالقرب منا، ابتسم وهَمَّ واقفًا، ثم قال:

«لا عليك، البرد سيفيدنا كثيرًا، فملابسنا مُشَبَّعة بالحرارة والدخان، كما أشعر أنني ثمل قليلًا رغم أني لم أشرب كثيرًا، لنودع الآخرين ثم

نصرف»

تقدمنا من صاحبة الحفل، فقال وهو يُقَبِّل يدها:

«أنا سعيد للغاية أن أراكِ اليوم بهذه السعادة»

أعجبته كلماتها الرقيقة، فقَبَّلَ يدها مرةً أخرى، فابتسمتْ له. اضطررتُ أن أسحبه من أمامها. وفي دهليز البيت وقفت إحدى السيدات التي نراها لأول مرة.

ساعدتنا على ارتداء معاطفنا، ثم حملت مصباحًا صغيرًا حتى تضيء لنا درجات السلم. كانت رقبتها عارية إلا من وشاح حريري أسود لفته أسفل ذقنها. كان جسمها يتأرجح خلف الرداء الفضفاض. كانت تتمهل في مشيتها وهي تتقدمنا على درجات السلم وتحمل مصباحًا في يدها. كان وجهها متوردًا من شرب النبيذ، وشفتاها تنتفضان في ضوء المصباح الذي انتشر في منطقة الدرج.

وفجأة وضعتْ المصباح على إحدى الدرجات، ثم تقدمتْ خطوة من الرجل الذي تعرفتُ عليه، واحتضنته وراحت تُقَبِّله، ثم استقرت بين أحضانه. وعندما دسست في كفها بعض النقود خفقت برأسها، ثم فتحت باب البيت الصغير بهدوء، وانصرفنا وسط الظلام.

كان قرص القمر الكبير يطل بنوره على شارع مضيء مستقيم وخالٍ من المارة وسط سماء تظللها بعض الغيوم. كان السير على الأرض الزلقة يتطلب الحذر والسير بخطوات قصيرة.

ووصلنا بصعوبة إلى أرض فضاء. ساد السرور ونحن مُفعمون بالحيوية. رفعتُ قدمي عاليًا حتى سمعت صوت طرقعة مفاصلي، وصحتُ باسم أحدهم عاليًا، وكان أحد أصدقائي قد اختفى عند ناصية أحد الشوارع، ورميت بقبعتي بعيدًا وأنا أقفز في الهواء، ثم التقطتها من جديد بصورة استعراضية.

كان صديقي الجديد يسير بجانبي غير منتبه إلى ما أفعله. مطأطئ الرأس، لا يتحدث. تعجبتُ من هذا الأمر، كنتُ أعتقد أنه سيطير من الفرحة عندما نبتعد عن هذا الحفل.

التزمت أنا الآخر الهدوء. ولكزته في ظهره أستحثه على الانتباه. كان تَغَيّر مزاجه فجأة أمرًا غريبًا. لكني سحبتُ يدي، ودسستها في جيب المعطف عندما وجدت أنني لست في حاجة إليها.

سرنا صامتين. أنصت إلى وقع خطواتنا وأنا أتعجب من أنني غير قادر على ضبط إيقاع خطواتي مع خطوات صاحبي الجديد هذا. لكني كنت أرى قدميه. من وقت لآخر يظهر أحدهم خلف النافذة ويتطلع إلينا.

عندما وصلنا إلى شارع فرديناند، بدأ صاحبي يصفر بهدوء بلحن من فيلم «اختطاف أميرة الدولار» كنتُ أسمعه جيدًا. ما معنى هذا؟ هل يتعمد إهانتي؟ إن موسيقى كهذه يمكن أن تزعجني في هذه اللحظة، وتفسد عليّ التمشية بأكملها. لماذا لا يتكلم معي؟ لو لم يكن في حاجة لصحبتي لماذا لم يتركني وشأني، وسط الدفء مع كأسي وطعامي؟ أنا لم أقترح تمشية كهذه. كان في إمكاني الخروج بمفردي. لقد كنت في

حفلة وسط الناس، لكني أنقذته من موقف مُشين. والآن أسير مع القمر. حتى هذا ليس أمرًا سيئًا. فالنهار أقضيه في العمل، والمساء في السهرات، والليل في الشوارع، مبالغة في كل شيء. إنها حياة طبيعية وتتخطى كل الحدود.

كان صديقي هذا يسير خلفي، لكنه أسرع من خطواته عندما وجد نفسه متأخرًا عني. لم ينطق بكلمة واحدة. لا يمكن القول بأننا كنا نهرول. فكرتُ في أن ألج إلى أحد الشوارع الجانبية، فلم يَدْعُني أحد إلى التمشية معه. كان بإمكاني أن أعود إلى البيت وحدي، ولن يمنعني أحد من ذلك. ثم نظرتُ لأجد صديقي هذا يلج إلى الشارع نفسه دون أن يعرف ما أفكر فيه. مع السلامة يا صديقي العزيز! سيكون الجو دافئًا في غرفتي، وعندما أصل سوف أشعل المصباح وأضعه فوق قاعدته الحديدية، ثم أنسل إلى سريري الذي يقف فوق سجادة شرقية بالية. مشاهد جميلة! ولِمَ لا؟ لكن ماذا بعد؟ لا شيء. في غرفتي الدافئة سيضيئ المصباح على صدري. ثم يسري البرد في جسدي وأقضي ساعات وساعات وحيداً بين حوائط مُزَيَّنة بأشجار النخيل، وفوق أرضية تظهر مائلة في مرآة معلقة فوق الحائط في إطار ذهبي.

كنت أشعر بالإرهاق يشتد في قدمي وقررتُ أن أعود إلى البيت بأية طريقة، وأستلقي في فراشي طالما وجودي هنا أصبح عديم النفع، لكن عليّ أن أودع هذا الرجل قبل أن أنصرف، أم لا؟ لقد كنتُ مترددًا في أن أذهب دون أن أُوَدِّعه، لكني أشعر بضعف يمنعني من رفع صوتي عند

وداعه. تسمرت في مكاني، ثم اتكأت على جدار أحد البيوت التي يسطع عليها ضوء القمر، ورحت أنتظر.

توجه صديقي فوق الرصيف نحوي مباشرةً، وبسرعة، وكأنني أريد أن أمسك به، طَرَفَ بعينيه في إشارة إلى اتفاق بيننا يبدو أنني نسيته.

سألته: «ماذا هناك؟»

قال: «لا شيء، أردتُ فقط أن أسألك عن رأيك في تلك السيدة التي قَبَّلَتني في مدخل البيت. ماذا تعرف عنها؟ هل التقيتما من قبل؟ لا؟ أنا أيضًا لم أرها من قبل.

هل هي عذراء فعلًا؟ أردت أن أسألها عندما تقدمتنا فوق السُّلَّم»

«إنها عاملة غرف وليست حتى مُشرفة غرف، لاحظت ذلك من يديها المتوردتين، وعندما دسست النقود في يدها شعرت بخشونة بشرتها»

«لكن هذا دليل على أنها تعمل منذ مدة طويلة، هذا ما أعتقده»

«ربما أنت مُحق. لم يكن بالإمكان معرفة أشياء كثيرة في مثل هذا الضوء الخافت، إنها تُذَكِّرني أيضًا بابنة أحد معارفي من الضباط»

قال: «الأمر بالنسبة لي ليس كذلك»

«هذا لا يعني ألا أعود إلى البيت، لقد تأخر الوقت، وعليّ أن أستيقظ للعمل مُبَكرًا. وأنا لا أنام جيدًا في البيت» ثم مددتُ له يدي لأُوَدِّعه.

صاح: «أُف، يدك باردة جدًا، لا يمكن أن يعود أحد إلى البيت بمثل هذه اليد الباردة. كان عليك يا عزيزي أن تُقَبِّلها أنت أيضًا. هذا شيء أهملت

فيه، مازال بإمكانك تعويضه، لا أن تذهب للنوم في هذه الليلة. ماذا دهاك؟ فكِّر في نوعية الأفكار التي تراودك وأنت نائم تحت الغطاء في السرير وحدك. وكم من الأحلام المزعجة قد تراودك تحت هذا الغطاء»

قلت له: «أنا لا يزعجني شيء، ولا يراودني شيء. كفّ عن هذا الكلام، أنت شخص مُثير للسخرية» وانتهى الحوار. واصلتُ السير وأنا أتابعه عن غير قصد، لأن كلماته تركت أثرًا في نفسي.

يبدو أنني فهمت من هذا الكلام أن صاحبي يتوقع مني ما ليس في، وما يستدعي من وجهة نظره الاحترام ويتوقعه مني. جيد أنني لم أعد إلى بيتي بعد. من يدري، فهذا الإنسان الذي يقف بجواري ويتصاعد البخار من فمه ويتبخر وسط الصقيع يتحدث عن أمور تخص عاملات الغرف. ربما سيعطيني هذا أمام الناس قيمة ما دون أن أسعى لتحقيقها. المهم ألا تفسده هذه الفتاة! دعهن يُقبِّلنه ويُعانقنه كيفما يشأن، فهذه هي مهمتهن وهذا هو حقه. لكن غير مسموح لهن أن يُغرينّه.

وعندما يُقبِّلنه فكأنهن قبَّلنني ولو قليلًا، من جانب فمي حتى أكون دقيقًا. لكن عندما يُغرينّه، فعندها سوف يسرقنه مني. ويجب أن يكون معي باستمرار، نعم، باستمرار. فمن سيحميه غيري! صحيح أنه رجل غبيّ. عندما قال له أحدهم في شهر فبراير: اسمع! تعال معي إلى منطقة بترشين، فجرى وراءه. لكن كيف هو الحال لو أنه سقط في الاختبار، ولو أن الجو كان باردًا، ماذا لو هاجمه أحد الغيورين في شارع

بوشتوفني؟ وماذا عني، هل سأختفي من هذا العالم؟ سنرى، ولن أتركه من الآن.

غداً سيتكلم مع الآنسة آنَّا، سيحكي لها في البداية عن أمور عادية بالطبع، لكنه لن يتحمل، وسيقول فجأة: بالأمس يا آنَّا التقيت أثناء الليل بعد أن انصرفت من الحفل، أتسمعين! التقيتُ برجل لم أر مثله في حياتي من قبل. شكله — كيف أصفه لكِ — شكله مثل عامود يهتز، هذا هو شكله، لحيته سوداء في نصفها العلوي.

جسمه مغلف بخرقات كثيرة بالية، تغطي جسمه كله، كانت ملتصقة به تمامًا في الهواء الساكن مساء أمس. ماذا دهاكِ، هل ذهبت شهيتكِ؟ حسنًا، إنها غلطتي! فأنا أتحدث بطريقة غير لائقة. لو أنكِ رأيته وهو يسير بجواري على استحياء، وهو يرى مدى غرامي، وهو أمر عادي. وحتى لا يقاطعني وأنا أتحدث عنها تقدمني بعدة خطوات. أعتقد يا آنَّا أنك كنتِ ستضحكين، وتخافين بعض الشيء، لكني كنت سعيداً أنه معي. لكن أين كنتِ؟ كنتِ في سريرك، تحلمين بأفريقيا.

كنت أحيانًا أشعر أن السماء والنجوم تبتعد بسبب تنهدات صدره المسطح. أتعتقدين أني أبالغ في الأمر؟ أنا لا أبالغ يا آنّا، أقسم بروحي، أقسم بروحي التي في يديكِ أني لا أبالغ.

لن أغفر لصاحبي هذا ما سببه لي من خجل وأنا أستمع إلى كلماته تلك. رحت أخطو بمحاذاة ضفة النهر في منطقة فرانتيشك، والأفكار تجيش في عقلي واحدةً بعد الأخرى، فنهر «فلتافا» والأحياء الموجودة

على الضـفة المقابلـة غارقـان في الظلام إلا من بعض المصـابيح الـتي تضيء وتداعب عيني.

مررنا بخطوط الترام وتوجهنا نحو سـور النهـر، ثم توقفنـا عنـده. عـثرت على شجرة أتكئ عليها. ارتديت قُفَّازي لأن الهواء البـارد كـان يهب من جهة الماء، ثم تنهدت كما يفعل الإنسـان عـادةً وهـو يقـف أثنـاء الليـل عند النهر، بعدها أردت أن أواصل السير. لكن صاحبي ظل واقفًا يتطلع إلى المـاء. ثم اقـترب أكـثر من سـياج النهـر، ورفـع قدميـه على حديـد السور، ووضع عليه معصمه، ووضع جبينه بين راحتيه. ماذا ينتظر؟ أكاد أتجمـد من الـبرد، فـرفعت ياقـة معطفي إلى أعلى. مـدّ صـاحبي ظهـره وكتفيــه ورقبتــه ونصــف جســمه الأعلى، ثم انكفــأ فــوق ذراعيــه المشدودتين من فوق السور. قلت له: «إنها الـذكريات، أليس كـذلك؟» «نعم إنها الذكريات، إن استرجاع الذكريات في حد ذاته أمر حزين، فما بالـك بالـذكريات نفسـها! لا عليـك من هـذه الأمـور، إنهـا بلا فائـدة لي ولـكَ. إنهـا تحـط من همـة الإنسـان — وهـذا أمـر واضـح كالشـمس — ومكانته الآنية، دون أن تنفعه فيما مضـى، بغض النظـر عن أن مـا مضـى لا يحتاج إلى أيّ دعم. أتعتقد أنني ليس عندي ذكريات؟ آه، إنها عشـرة أضـعاف ذكرياتـك! الآن على سـبيل المثـال يمكنـني أن أتـذكر عنـدما أجلس في مكان ما على الدكـة. كـان هـذا في المسـاء، أيضًـا على ضـفة النهر. وكان ذلك في الصيف. من عاداتي أني أضم ركبـتيّ إلى بعضـهما وأحتضنهما بيدي. في مسـاء كـذلك المسـاء أسـندت رأسـي على مسـند الدكة الخشـبي، ونظـرت إلى الجبـال وسـط السـحاب على ضـفة النهـر

المقابلة. كانت أنغام الكمان تنتشر ناعمة من أحد الفنادق على ضفة النهر. وعلى جانبي النهر تظهر القطارات من وقتٍ لآخر ويتصاعد منها دخان يتلألأ»

قاطعني صاحبي والتفت حوله وكأنهم يحسدونه على مرافقتي له. قلت له: «آه، أريد أن أسهب في الحديث» ولم أضف على ذلك.

بدأ هو الحديث، وقال: «الأمور تبدأ هكذا. وأنا أنزل اليوم على سلم البيت لأذهب للتمشية قبل أن يحل المساء، تعجبتُ عندما شعرتُ بيدي تهتز هنا وهناك بطريقة عجيبة. فقلت لنفسي على الفور: حسنًا، شيء ما سوف يحدث اليوم، أو حدث بالفعل» قال هذا ونحن نسير، ثم نظر إليّ بعينيه الكبيرتين وهو يبتسم.

أطلقت له العنان ليتحدث. حكى لي أشياءَ كثيرة والابتسامة مرسومة على وجهه وهو ينظر إليّ بعينيه الكبيرتين. رحتُ أقاوم نفسي كي لا أضع ذراعي على كتفيه لأُقَبِّله في عينيه ليتوقف عن الكلام. أسوأ ما في الأمر أنه حتى تصرف كهذا لن يُغَيِّر من الأمر شيئًا، فأنا على أي حال سوف أنصرف بعيدًا، سأرحل فورًا.

رحتُ أبحث عن وسيلة تساعدني على البقاء فترة أخرى مع صاحبي، ولاحظت أنه ربما تزعجه قامتي الطويلة، فهو يبدو بجواري صغيرًا. هذه الحقيقة أزعجتني — كان الوقت بالطبع متأخرًا، ولم نر تقريبًا أيّ شخص لدرجة أني حَنيتُ ظهري حتى كادت يداي تلامسان ركبتيّ. شددتُ جسدي من جديد على مهل حتى لا ينتبه صاحبي إلى الأمر. لذا

قمتُ بلفت نظره بعيداً عني بكل الطرق، فطلبت منه أن ينظر نحو النهر، وأشرتُ له بيدٍ مستقيمة نحو الأشجار التي تقع في جزيرة سترشلاتسكي، وإلى مصابيح الجسر التي تنعكس صورها على سطح النهر.

لكنه استدار بحدة، ونظر إليّ — لم تكن قامتي منتصبة بالكامل بعد — وقال: «اسمع، ما هذا؟ إنك محنيّ تمامًا. ما هذا الذي تفعله؟»

قلت له ورأسي بمحاذاة مئزر بنطلونه، وغير قادر على النظر إلى أعلى: «أنت محق تمامًا! أنت حادّ البصر»

«انهض إذن، اعدل قامتك! يا لها من سخافات!»

قلت وأنا أنظر إلى الأرض القريبة مني: «ماذا تقول، سأظل كما أنا»

«يجب أن أقول لك إنك ماهر جداً في إثارة غضب الآخرين. تعرقل سيرنا بلا طائل. كف عن هذه الأمور!»

قلت له: «لا ترفع صوتك في ليلةٍ هادئة كهذه»

أضاف: «عمومًا، كما تشاء» ثم قال بعد لحظات: «إنها الواحدة إلا الربع» رفعت رأسي لأتحقق من الوقت على ساعة برج الطاحونة.

ثم رفعت قامتي على الفور وكأنه جذبني إلى أعلى من شعري. وتركت فمي مفتوحًا حتى أنفث منه غضبي. لقد فهمته، إنه يطلب مني الرحيل. يبدو أن لا مكان لي عنده، ولو كان عنده مكان ما فلن أجده بسهولة. وبالمناسبة، لماذا أنا حريص على البقاء معه. لا، لا، عليّ أن أذهب —

وفـورًا – إلى أقربـائي وأصـدقائي الـذين ينتظرونـني. ولـو لم يكن لـديّ أصـدقاء أو أقربـاء، فيجب أن أعتمـد على نفسـي (ومـا فائـدة النـواح!)، لهذا فقط عليّ أن أنصرف فورًا. فهو يعتقد أنه لا شـيء يدفعـه لتحملـني بجـواره، ولا حـتى قـامتي الطويلـة، ولا القبـول الـذي أتمتـع بـه أو يـدي الباردة. ولو كنت أرى أن عليّ البقاء معـه، فإنهـا سـتكون رؤيـة محفوفـة بالمخاطر.

قلت له: «أنا لست في حاجة إلى أن تقول لي هذا صراحة» وهذا بالفعـل حقيقي.

«الحمد لله أنك تقف بقامة منتصبة أخيرًا. أنـا لم أقـل سـوى أن السـاعة الواحدة إلا ربعًا»

قلت له: «حسنًا، حسنًا»، ثم دسست ظفرين من أصابعي بين تجويفـات أسناني المرتعشة. «طالما أنى لست في حاجة إلى أن تقولها لي صـراحةً، فأنـا لا أحتـاج إلى شـرح. لا أحتـاج إلا لطفـك. من فضـلك، أرجـوك اسحب كلامك!»

«إن الساعة الواحدة إلا ربعًا؟ بكل سرور، إن السـاعة تجـاوزت الواحـدة إلا الربع»

رفع ذراعه الأيمن، وهز يـده في الهـواء ليسـمع صـوت حلقـات سلسـلة يحملها حول معصمه. بات من الواضح أنه سيرتكب جريمة قتل. بقيت بجواره، فتحسس سكينًا. كان يمسك بقبضته في جيبه ثم سحبه وصوبه ناحيتي. أتوقـع أنـه سـيتعجب من أن الأمـر سـيكون في منتهى البسـاطة،

وربما لن يتعجب، الله أعلم. لن أصرخ، سوف أنظر إليه فقط، وأظل أتطلع إليه قدر استطاعتي.

قال: «يا إلهي؟»

انطلق أحد الحرَّاس فوق الرصيف وكأنه يركب زلاجات خارجًا من مقهى بعيد، نوافذه معتمة. تعثر في سيفه، فأمسكه بيده، ثم واصل هرولته، وفي النهاية استدار بشكل دائري. سعل بصوت منخفض وواصل هرولته ورأسه مُفعم بالموسيقى.

انتابني خوف شديد من ذلك الحارس الذي يبعد مسافة مائتي خطوة عن جريمة قتل مقبلة، ولا يرى أو يسمع سوى نفسه. كنتُ على أي حال متأكدًا من أن أمري قد انتهى، سواء تركته يطعنني أو هربت. أو ليس من الأفضل الهروب ومواجهة موت تدريجي أكثر إيلامًا؟ لم تكن لدي أسباب وجيهة وجاهزة لهذا النوع الثاني من الموت، لكني لا أحب أن أُضَيِّع اللحظات الأخيرة المتبقية لي في الحياة في البحث عن أسباب. سيكون لدي لاحقًا المزيد من الوقت حتى أصل إلى قرار، وها أنا قد توصلت إلى قرار.

كنتُ مضطرًا إلى الهرب، وكان هذا أمرًا سهلاً للغاية. يمكنني بعد أن نتجه يسارًا ناحية جسر الملك كارل أن أهرب إلى شارع كارل على اليمين. إنه شارع متعرج، وتوجد هناك مداخل بيوت وبارات معتمة، مازالت مفتوحة. فلا يوجد سبب لليأس.

عندما خرجنا من الممر المقنطر عند نهاية كورنيش النهر ووصلنا إلى ميدان كريشوفنيتسكا، هرولتُ إلى داخل الشارع وأنا أرفع يديّ إلى أعلى. لكني سقطت أمام باب كنيسة سيمينارشسكي الصغير، فقد كان هنا دَرَج لم أنتبه إليه. تسبب هذا في ضوضاء، وسقطت وسط الظلام، بعيدًا عن أقرب مصباح.

خرجتْ من إحدى الحانات سيدة بدينة وهي تحمل مصباحًا صغيرًا لترى ما يحدث في الشارع. كان صوت البيانو لايزال يتردد بصوت هادئ، لكن عازف البيانو بدأ يعزف بيدٍ واحدة، لأنه استدار ناحية الباب الذي كان لايزال مواربًا. ففتحه رجل يرتدي معطفًا، ورفع ياقته حول عنقه، وبصق على الأرض، ثم ضم إليه تلك المرأة بقوة حتى اضطرت إلى رفع المصباح الصغير كي يحميها منه. صاح الرجل وهو يدير رأسه صوب الغرفة، وقال: «لا يوجد شيء هنا» ثم استدارا ودخلا، وأغلقا الباب خلفهما.

كلما حاولتُ النهوض أسقط على الأرض من جديد. قلت لنفسي: «إن الأرض زلقة» شعرت بألم في ركبتيّ. لكني في الوقت نفسه كنت سعيدًا لأن رواد هذا المقهى لم يروني، ويمكنني أن أظل مستلقيًّا هنا بكل هدوء حتى الصباح.

يبدو أن صاحبي وصل إلى الجسر دون أن يلاحظ غيابي، فبعد لحظات وصل إليّ. لم ألحظ أية دهشة على وجهه عندما رآني — فقط مال برأسه مثل الطائر، وبدأ يمرر يده عليّ بلمسات رقيقة. مررها على عظام

وجنتي هنا وهناك، ثم وضع كفه على جبينه، وقال: «هل أصبت بأذى؟ إن الأرض زلقة، ويجب أن تتوخى الحذر — ألم تقل لي هذا؟ هل تشعر بألم في رأسك؟ كلا. آه، إنها ركبتك. إنه شيء بغيض»

لكنه لم يقو على مساعدتي كي أنهض. فأسندت رأسي على ذراعي الأيمن — واستقر كوعي على أرض الشارع — وقلت: «ها نحن اجتمعنا من جديد» لكن الخوف عاودني، فدفعته بكلتا يدي نحو عظام ركبتيّ حتى يبتعد عني، وأنا أقول له: «انصرف! ابتعد عني!»

كان يضع يديه في جيبيه ويتطلع إلى الشارع الخالي من المارة تارة، وإلى كنيسة سمينارشسكي، وإلى السماء تارة أخرى. انتبه لي عندما صدر من الشوارع الجانبية ضجيج إحدى السيارات، وقال: «لماذا لا تقول شيئًا يا عزيزي؟ هل أنت على ما يرام؟ لماذا لا تنهض؟ هل أبحث عن سيارة لتقلك؟ إن أردت، سأحضر لك كأس نبيذ من البار. لكن لا يجب أن تظل مستلقيًّا هنا في هذا البرد. كنت تريد أن تذهب إلى منطقة بترشين»

قلت له: «بالطبع» ثم نهضتُ وأنا أشعر بألم شديد وبدأت أترنح. رحت أمعن النظر في تمثال الملك تشارلز الرابع حتى أتيقن من المكان الذي أقف فيه. لكن هذا لم يساعدني، لولا أني تخيلت أن فتاة تضع وشاحًا أسود قد وقعت في حبي، ليس هيامًا، لكنه حب حقيقي. كنت سعيدًا بالقمر الذي نشر ضوءه عليّ. أردت أن أتوارى خجلًا في الممر المقنطر

عند برج الجسر عندما انتبهت إلى أن القمر ينشر ضوءه في كل مكان. بسطت ذراعي من السعادة لأتذوق ضوء القمر بكل ما أملك.

شعرت بخفة، ورحت أحرك يدي المنبسطة وكأنني أسبح، وتقدمت إلى الأمام وأنا لا أشعر بأي ألم أو إرهاق. لماذا لم أجرب هذا من قبل؟ رأسي تسبح في الهواء البارد، وكوعي الأيمن يتحرك بكل مرونة، ورحت أربت عليه مثنيًا. تذكرتُ أني وقتها لم أستطع مجاراة صاحبي في السير، وهو الآن يسعى للحاق بي. أكثر ما أسعدني في هذا الموقف أن ذاكرتي مازالت جيدة وتحتفظ بهذه الأشياء. لا يجب أن أرهق نفسي بالتفكير، وأن أواصل السباحة حتى لا أسقط في القاع. وحتى لا يقول أحدهم لاحقًا إنه في مقدور كل شخص أن يسبح على الرصيف وأن الأمر لا يستحق الذكر. نهضتُ بحركةٍ واحدة، وتحركتُ نحو السور أحتضن كل تمثال يقابلني من تماثيل القديسين.

أمسك صاحبي بيدي وأنا عند التمثال الخامس، وكنت في الواقع أسير فوق الرصيف بإيقاع لافت للنظر. توقفتُ فوق أرض الشارع وأنا أشعر بألم في ركبتي.

قال صاحبي وهو يمسكني بيد ويشير بيده الأخرى إلى تمثال القديسة لودميلا: «دائمًا ما تعجبني يد هذا الملاك الموجود في يسار التمثال. انظر! إنهما يدين شديدتي النعومة! يدان ملائكيتان بالفعل. هل رأيت شيئًا كهذا من قبل؟ لم تر، لكني رأيت، لأنني اليوم قبَّلت يد إحداهن»

جاءتني الآن الإمكانية الثالثة. كيف أموت على طريقتي. لم أكن في حاجة إلى أن يطعنني أحد، لم أكن في حاجة إلى الهرب، يكفيني أن أخرج في الهواء. فليذهب هو إلى حي باترشين هذا، لن أمنعه، ولن أزعجه بهروبي.

صرختُ فيه قائلًا: «دعك من حكاياتك هذه! لا أريد أن أسمع مجرد أشياء منقوصة. احكِ لي عن شيء، من البداية وحتى النهاية. أؤكد لك أني لن أستمع إلى أقل من هذا. أنا أعشق الحكايات الكاملة» توقفتُ عن الصراخ بمجرد أن التفت إليّ، وقلت: «لا عليك من صمتي، احكِ لي كل ما يجيش في صدرك. أنت لم تقابل مستمعًا قليل الكلام مثلي من قبل»

وقلت له بصوت منخفض بالقرب من أذنه: «لا يجب أن تخاف مني، إنه خوف غير مبرر» فضحك الرجل.

قلت له وأنا ألكزه في ساقه عندما حَرَّرَ أصابعي: «نعم، نعم. أنا أصدقك. لا أشك فيما تقول» لكنه لم يشعر بأي شيء. وقلت لنفسي: «لماذا ترافق شخصًا كهذا؟»۔

أنت لا تشعر نحوه لا بالحب ولا بالكراهية، فسعادته في يد فتاة واحدة، وفي الوقت نفسه ليس متأكدًا من أنها عذراء. فصاحب كهذا لا فائدة منه — كرر ورائي — لا فائدة منه. صحيح أنه مُسَالِم كما رأيت. اذهب معه إلى باترشين طالما الليلة جميلة، لكن دعه يتحدث، ورَفِّه أنت عن

نفسك بطريقتك. بهذه الطريقة – كرر ورائي بهدوء – ستكون في حماية أفضل.

2

لهو أو دليل على أن الحياة مستحيلة.

<u>(1) ركوب الخيل</u>

نهضت — بحركة واحدة وكأنني لم أفعلها أول مرة — لطمت صاحبي فوق كتفه وضربته بقبضة يدي على ظهره كي أستحثه على الهرولة. راح يخبط بقدميه معترضًا، وظل واقفًا في مكانه للحظات لا يتحرك، فصوبت قدمي إلى بطنه أستحثه عدة مرات. فنهض، ووصلنا بسرعة نسبية إلى قلب منطقة متسعة غير مأهولة تمامًا.

كان الطريق الصاعد الذي سرنا عليه مكسوًا بالأحجار، وهذا ما أعجبني. لو كنت مكانهم لجعلت الطريق أكثر ارتفاعًا والأحجار أكثر حِدَّة. وكلما تعثَّر صاحبي أسحبه به من ياقته لينهض، وكلما تأوه أضربه بقبضة يدي على رأسه. كنت أشعر وقتها بالسعادة من نزهة كهذه في الهواء الطلق، ولكي أجعله يتحمس بصورة أفضل جعلت الرياح تهب في مواجهتنا في هبّات طويلة قوية.

كنت أبالغ أنا أيضًا بحركة واثبة على كتفي صاحبي العريضين، أدرت رأسه وأنا ممسك رقبته بقوة، ورحت أتابع السحب المتنوعة التي تتحرك متثاقلة وسط الرياح، لكن بخفة أكثر مني.

ابتسمت وأنا أشعر بقشعريرة من الجرأة تملكتني. كان معطفي يتطاير وهو مفتوح ويمدني بمزيد من القوة. أحكمت قبضتي، وبالطبع كدت

أختنق صاحبي. لم أنتبه إلا عندما غطت السماء أفرع الأشجار التي جعلتها تنمو بمحاذاة الطريق.

صحت بصوت مكتوم: «لا أعرف، أنا لا أعرف إن كان أحد سيأتي. ولن يأتي أحد. أنا لم أؤذ أحداً، ولم يؤذني أحد، لكن لا أحد يريد أن يساعدني، لا أحد على الإطلاق. لكن الأمر ليس كذلك. كل ما في الأمر أن أحداً لن يساعدني — لولا ذلك لكان كل شيء جميل. لا وجود لأحد يساعدني. ما رأيكم؟ أن أذهب في رحلة برفقة هؤلاء المعدمين. رحلة إلى الجبال بالطبع، وليس إلى مكان آخر. سوف يتزاحم هؤلاء المعدمون، وتتشابك أذرعهم الكثيرة، واحدة فوق الأخرى، أو تمسك ببعضها، واحدة بالأخرى، كثير من الأقدام المتباعدة عن بعضها قيمة خطوة صغيرة! مفهوم بالطبع أن كلاً منهم يرتدي بدلة. نسير جميعًا، وتهب علينا الرياح فتصنع فجوات بيننا وبين أعضاء أجسادنا. وتتسع الممرات الضيقة بين الجبال. غريب أننا لا نغني»

وهنا سقط صاحبي، وعندما نظرت إليه وجدته مصابًا في ركبته. ولأن وجودي كان مثل عدمه، تركته عن عمد فوق الأحجار، ورحت أصفر بفمي نحو مجموعة من النسور التي هبطت عليه بكل أدب وبأسنان حادة لكي تتفحصه.

(2) تمشية

واصلتُ السير بكل راحة. لكن لأنني كنت خائفًا من مشقة السير فوق طريق شديد الانحدار، قمتُ بتسوية الطريق، وجعلته يهبط بالتدريج نحو الوادي. اختفت الأحجار كما أردت، وهدأت الرياح.

مشيتُ برشاقة وخفة. رفعتُ رأسي إلى أعلى وأنا أنزل من فوق المنحدر، وشددت قامتي، ووضعت ذراعي خلف رأسي. ولأنني أحب غابات الصنوبر، فقد جعلت نفسي أسير في تلك الغابات، ولأنني أحب متابعة النجوم بصمت، تلألأت النجوم في السماء كما هي عادتها. لم أر سوى بضع سحب متناثرة، دفعتها حركة الرياح التي تهب فقط عند السحب لتثير دهشتي.

أمرت بظهور جبل ضخم عالٍ أمامي بعيدًا عن الطريق — لم يكن قد ظهر هناك نهر بعد. نبتت الخمائل على سطحه العالي المنبسط لتلامس السماء. كنت أرى بوضوح أغصانها الصغيرة وهي تتمايل. هالني هذا المشهد وإن كان عاديًّا، فنسيت أن أجعل القمر يشرق بنوره فوق أغصان تلك الخمائل الحزينة البعيدة. وكان القمر يسطع خلف ذلك الجبل وهو منزعج من تباطؤي.

لكنه نشر نوره البارد على سطح الجبل قبل أن يظهر، وفجأة ظهر القمر من خلف الشجيرات المتململة. لكني وقتها كنت أنظر في اتجاه آخر. وقفتُ أنظر أمامي بعينين تعلوهما الكآبة وأنا أراه يظهر أمامي مباشرةً

ويشع نورًا من قرصه المكتمل. فقد اعتقدت بأن طريقي المنحدر يصل مباشرةً إلى ذلك القمر الخائف.

وبعد لحظة اعتدت المشهد، ورحت أتأمله وهو يصعد بصعوبة وعلى مهل. وبعد أن قطعنا معا جزءًا كبيرًا من الطريق، بدأت أشعر برغبة شديدة في النوم، كانت على ما يبدو نتيجة الإرهاق من نزهة غير معتادة. واصلت السير للحظات وأنا أغمض عيني، وأصفق بيدي بصوت عالٍ بصورةٍ منتظمة كي أبقى مستيقظًا.

وعندما بدأتُ أشعر أن الطريق يضيع من تحت قدمي، وبدأ كل شيء يختفي، مثلي بسبب الإرهاق، أسرعت من خطواتي، أتسلق بكل ما أوتيت من قوة تلاً على يمين الطريق حتى أصل في الوقت المناسب إلى أدغال غابة داكنة، بها أشجار الصنوبر العالية. فهناك أردت أن أقضي ما تبقى من الليل.

كنتُ بالفعل مُضطرًا لأن أسرع من خطواتي. فقد بدأت النجوم المختفية خلف السحب تطفئ نورها، ورأيت القمر الواهن يغوص وسط السماء وكأنه يسقط في ماء عَكِر. سيطر الظلام على الجبل، واختفى الطريق في المكان الذي انعطفت منه فوق التل، وجاء صوت من أعماق الغابة ينبئ عن تدافع أشجار تسقط. كان يمكن أن أرتمي فورًا فوق العشب وأستسلم للنوم. لكني كنت أخاف من النوم في الغابة على الأرض مباشرة، فتسلقت شجرة تتهادى وسط الهواء الساكن. وانزلق جذعها بين دوائر ذراعي وقدمي، واستلقيت فوق أحد الأفرع،

وغالبني النعاس على الفور، بينما استقر سنجاب فوق طرف غصن يهتز، وراح يتأرجح بشكل عمودي بذيله المنتصب.

نمت بملء عيني في هدوء رغم أنه كان نومًا بلا أحلام. كنت أسمع طوال الليل أثناء نومي صوت أحدهم يتحدث بجواري. لم أنصت إلى الكلمات نفسها، ولا أذكر منها إلا على سبيل المثال «مقعد على ضفة النهر»، «جبال وسط السحاب»، «قطارات بأدخنة لامعة» أتذكر طريقة نطقها. وأتذكر أني في نومي ضممت يدي سعيدًا بأنني لم أفهم الكلمات التي أسمعها وأنا نائم.

قلت بصوت عالٍ حتى أقنع نفسي بما أقول: «إن حياتك بلا معنى. وكان ضروريًّا أن تذهب إلى مكان ما. يجب أن تكون سعيدًا، فالسعادة تنتشر في كل مكان، والشمس ساطعة»

هنا أشرقت الشمس، وصارت السحب الممطرة فجأةً بيضاء وخفيفة وهشة وسط السماء الزرقاء، تقفز فيها وتتلألأ. رأيتُ النهر في الوادي.

واصلت كلامي وكأن أحدهم يجبرني على ذلك: «نعم، كانت حياتك بلا معنى، وتستحق استجمامًا كهذا» لكني سمعت أحدهم بالقرب مني، يقول مُهددًا: «ألم يكن مُعَرَّضًا للخطر هو الآخر؟»

أردتُ أن أنزل من فوق الشجرة سريعًا، لكني سقطتُ على الأرض عندما اهتز الغصن وكأنه يد بشرية صغيرة. لم أصب بأذى، ولم أشعر بأي ألم. لكني شعرت بالوهن والحزن لأن وجهي لامس أرض الغابة. لم أحتمل رؤية الأشياء الملقاة على الأرض من حولي. كنت على قناعة

بأن كل حركة وكل فكرة تُفرض عليّ، ويجب أن أحذر منها. لكن أكثر الأمور بساطة هي أن ترقد وسط الحشائش، يدك ملقاة بجوار جسدك ووجهك مغطى. رأيتُ أن هذا أمر يبعث على السعادة وأنا أرقد هكذا في وضع طبيعي، وإلا لاحتجت الكثير من الجهد والمشقة، وكثيرًا من الحركات والكلمات حتى أعطي له انطباعًا مختلفًا.

كان النهر مُتسعًا، واستقر ضوؤه بين ثنيات موجاته وحسيسها الهادئ. وعلى ضفة النهر الأخرى انتشرت المروج وامتلأت بالشجيرات، ومن خلفها خطوط أشجار الفاكهة الساطعة التي تتجه نحو التلال.

تمددتُ وأنا أستمتع بهذا المشهد، وغطيتُ أذني خوفًا من سماع النحيب، ورحت أفكر في سعادتي وأنا هنا. فأنا هنا وحدي والجو رائع. لا تحتاج هنا إلى الكثير من الشجاعة حتى تعيش. وحتى هنا سيعاني الإنسان مثلما يعاني في أي مكان، لكنه لن يضطر إلى أن يسعى ويجاهد. لن يكون هذا ضروريًا. فليس هنا سوى الجبال، والنهر الكبير. وأنا مازلت أحتفظ بذكاء يجعلني لا أعتبرها أشياء خالية من الحياة. وعندما أنزل من فوق التل وأسير وسط المروج سأصبح وحيداً مثل هذ الجبل، وسيتملكني هذا الشعور. لكني أعتقد أنني سأتجاوز هذا أيضًا.

هكذا رحتُ أفكر في حياتي في المستقبل، وسعيت إلى أن أغلفها بكل إصرار. وظللت أتطلع إلى السماء التي بدت سعيدة ومزركشة. لم أرها هكذا منذ وقت طويل، كنت مأخوذاً بها، وتراودني تلك الأيام القلائل

التي سأتذكرها وأتذكر ما رأيته فيها. وضعتُ كفي فوق أذني، وفردت ساعدي وانطلقت وسط الحشائش.

سمعتُ صوت أحدهم يتنهد بهدوء من بعيد. اشتدت الرياح وتطايرت أوراق جافة كثيرة لم أرها من قبل، ونشرت حفيفها في الهواء. وتساقطت الثمار الفجة من أشجارها بكثافة. وظهرت سحب قبيحة من خلف أحد التلال. وراحت أمواج مياه النهر تصرخ، وتتدافع أمام الرياح.

نهضتُ مسرعًا وأنا أشعر بألم في قلبي. فقد بدا واضحًا أنه من المستحيل أن أبرح آلامي. أردت أن أنصرف وأغادر هذه المنطقة، وأعود إلى حياتي السابقة عندما سيطرت عليّ هذه الفكرة: «عجيب جدًا أنه في يومنا هذا مازال هناك أشخاص يعبرون النهر بهذه الطريقة الصعبة» لا يمكن تفسير الأمر إلا على أنه عادة قديمة»

هززتُ رأسي مُتعجبًا.

3

رجل سمين

(1) مخاطبة المكان

ظهر على ضفة النهر المقابلة أربعةُ رجال عراة، ممتلئين الجسم، ويحملون على أكتافهم حَمَّالة خشبية. ويجلس على تلك الحَمَّالة رجل شديد البدانة في وضع شرقي. كانوا يسيرون به عبر الأدغال فوق طريق غير مُمَهد، ورغم ذلك لم يُلق من على جسمه الأغصان الشائكة، لكن كان جسمه الساكن يشق الهواء بكل هدوء. كانت كتل الدهن منبسطة بعناية فوق الحمَّالة وغطتها بالكامل، وتدلت على أطرافها وكأنها أطراف سجادة ضاربة للصفرة، ولكنه لم ينزعج لأمر كهذا.

كانت جمجمة رأسه العارية صغيرة، وتلمع بلون مائل للصفرة. كَسَتْ وجهه تعبيرات بكماء لإنسان يفكر ولا يجهد نفسه في إخفاء الأمر. كان يغلق عينيه من وقت لآخر: وعندما يفتحهما يعوّج ذقنه.

قال بصوت منخفض: «هذا المكان يمنعني من التفكير. تتأرجح أفكاري مثل جسور من السلاسل الحديدية وسط تيار ماء هائج. إنه مكان جميل، ويريد أن يراه الناس»

أغمضتُ عيني، وقلت: يا أيها الجبل الأخضر عند النهر، يا صاحب الأحجار التي تسبح ضد التيار، كم أنت جميل.

لكنه مكان غير راض، فهو يرغب في أن أفتح عيني وأتطلع إليه.

ومرة أخرى أقول وأنا مغمض العينين: «أيها الجبل، أنا لا أحبك، لأنك تُذكّرني بالسحب، وبحمرة الغسق وبالسماء المرتفعة. إنها أمور تدفعني للبكاء، لأنني لن أطالها يومًا ما، حتى ولو تركتهم يحملوني على الحمَّالات. وعندما تريني أيها الجبل الماكر كل هذا، فأنت تحول دون أن أنظر إلى بعيد؛ حيث أجد هناك سعادتي.

فهناك أرى أشياء جميلة يمكنني الوصول إليها. لذلك لا أحبك، يا أيها الجبل القابع عند الماء، أنا لا أحبك»

لكن هذه الكلمات كانت كسابقتها بلا قيمة طالما تكلمت وأنا مغمض العينين. لذلك كان المكان غير راضٍ.

لماذا لا نسعى لتلبية طلبه حتى نحافظ على المكان ليظل قائمًا. المكان الذي يتمتع بهواية مرحة على ضفاف عقولنا؟ فقد ينقض عليّ بظله المسنون، ويطلق عليّ جدرانه العارية المخيفة، وسيتأرجح حملة نقالتي فوق أحجار الطريق الصغيرة.

ليس الجبل وحده من أصابه الغرور، ليس وحده من أصبح مملًا ومغرورًا، كل شيء صار هكذا. لذلك عليّ أن أترك عيني مفتوحة عن آخرها — آه، كم هو مزعج أن أُكَرِّر على الدوام، وأقول:

نعم، كم أنت جميل أيها الجبل! تنشر الغابات على ضفتك الغربية السعادة في نفسي. كم أنا سعيد بك أيتها الزهرة! لونك الوردي ينشر السعادة في روحي. أنتِ أيتها الحشائش في المروج! كم أنتِ عالية

وقويـة، تلطفين الجـو. وأنت أيها الـدغل العجيب، وخزاتـك المفاجئة تجعل أفكارنا تقفز. — فيك أيها النهـر أجـد حبًا كبيرًا، يجعلـني أتـرك نفسي لتحملني مياهك أينما شاءت»

وبعد أن كَرَّرَ هذا الدعاء بصوت عالٍ لمدة عشر مـرات بجسـد ينتفض خاضعًا، أسدل رأسه، وقال وهو مغمض العينين:

«الآن أرجوكم أيها الجبل، وأيتها الزهـرة، وأيهـا الـدغل، وأيهـا النهـر أن تمنحوني الفرصة كي ألتقط أنفاسي»

وهنا حدثت حركة حثيثة حول الجبال الشامخة القابعة خلف الضـباب. انتصبت الأشجار وانبسطت حول الطـرق، وحـافظت على بقـاء الطريـق متسـعًا. وظهـرت في الأفـق سـحابة ممطـرة أطرافهـا مضـيئة. حجبت الشمس، وغاص المكان في ظلها، وفقدت الأشياء حدودها الجميلة.

كان وقع خطوات الرجال الـذين يحملونـه يصـل إلى الضـفة الـتي أقـف فيها. لم أتمكن من التعرف على وجوههم في ضـوء الشـفق الـداكن. لم أرهم إلا وهم يميلون برؤوسهم على الحائط ويحنون ظهـورهم من ثِقَـل الحمل. أصابني منظرهم بـالهم. ولاحظتُ أنهم مُرهقـون. رحتُ أراقبهم بكل حماس وهم يدوسون الحشـائش على ضـفاف النهـر، ثم يتقـدمون عبر الرمال المبللة بخطوات منتظمة، ثم يغوصون بكل هدوء في أدغـال الخـيزران الموحلـة. انحـنى الحَمَلـة في المـؤخرة بصـورة أكـثر حـتى يحافظوا على الحمَّالة في وضع مستقيم. عقدتُ راحتي. كـانوا يرفعـون أقدامهم عاليـةً في كـل خطـوة، ولمعت أجسـادهم من العـرق في الهـواء

البارد في ظهيرة طقس مُتَغَيّر. كان الرجل البدين الجالس فوق النقَّالة هادئًا، يضع يديه فوق فخذيه، وتحتك بجسده قمم الخيزران المدببة التي ترتد عندما يمر بها الرجال.

كانت خطواتهم تزداد توترًا كلما اقتربوا من النهر، والحمَّالة تتأرجح بين أيديهم وكأنها تسبح فوق الأمواج. تجاوزوا أو تخطوا الأماكن الموحلة وسط الخيزران. ربما كانت بِرَكًا عميقة.

ظهر سرب من البط البريّ، وقفز عموديًا وسط السحابة الممطرة. وهنا استطعت بحركة بسيطة أن أرى وجه الرجل البدين؛ كان شديد التوتر. نهضت من مكاني، وانطلقت بخطوات مرتبكة على السفح الحجري الذي يفصلني عن النهر. لم أهتم بالمخاطر، كل ما كنت أفكر فيه هو مساعدة ذلك الرجل السمين عندما يعجز رجاله عن حمله. وبتهور جعلني لا أستطيع التوقف عند المياه، خطوتُ عدة خطوات وسط الماء المتطاير. لم أتوقف إلا عندما وصلت المياه إلى ركبتي.

وضع العبيد الحمَّالة فوق الماء على الجانب الآخر وهم يتساقطون من الإعياء. أمسكوا الحمَّالة بإحدى أيديهم فوق الماء الهائج، ورفعوها إلى أعلى بأربع أذرع يعلوها شعر كثيف، فرأيت عضلاتهم المفتولة.

وصل الماء حتى ذقونهم، ثم امتد إلى شفاههم. دفع الحمَلة رؤوسهم إلى الخلف، واستقرت أذرع الحمَّالة على أكتافهم. كان الماء يطوق أنوفهم، وهم يجاهدون وهم في وسط النهر. غمر الماء رأسيّ اثنين

منهم، فغاص الرجال الأربعة في الماء، وسحبوا الحمَّالة تحت سطح الماء بأيديهم القوية في صمت. وفجأة اشتدت المياه.

تسللت أشعة شمس الأصيل من خلف أطراف السحابة الكبيرة، فأضاءت الهضاب والجبال عند حدود الأفق، وغرق النهر والمكان من حوله في ضوء خافت تحت السحابة.

كان الرجل البدين يتقلب وسط تيار الماء في النهر الذي يحمله وكأنه تمثال إله مصنوع من خشب أبيض عديم الجدوى فألقوه في الماء. وراح يسبح فوق الماء، تظلله السحابة الماطرة. تزايدت السحب، واشتدت الأمواج، وراحت تتأرجح حول ركبتي وعلى أحجار الشاطئ.

صعدتُ سريعًا فوق التل حتى أتابع الرجل السمين وهو يتحرك، فقد أعجبني بالفعل. ربما أعرف شيئًا جديداً عن مخاطر ذلك المكان الذي يبدو آمنًا. مشيت فوق مدق صغير من الرمال. كان يجب أن أتعود المشي في ممر ضيق كهذا وأنا أضع يدي في جيوبي، ورأسي يلتفت يمينًا نحو النهر حتى كاد ذقني يلامس كتفي.

كانت العصافير تقف على الأحجار بجوار النهر. قال الرجل السمين: «أيها الرجل الواقف على ضفة النهر، لا تحاول أن تنقذني. إنه انتقام الماء والرياح؛ ولا أمل في إنقاذي. نعم، إنه الانتقام، لأننا، أنا وصديقي المؤمن هجمنا على هذه الأشياء، هجمنا عليها بصوت الجرس، وأنغام آلة القانون، وروعة صوت الترمبون، ووهيج المِرجل المرح»

طارت بعوضة صغيرة بجناحيها المفرودين فوق بطنه، وتجاوزتها بسرعة.

واصل السمين حديثه:

(2) بداية الحديث مع صديق متدين

«في وقت من الأوقات كنت أتردد كل يوم على الكنيسة، لأني كنت أحب إحدى الفتيات، وكانت تجثو على ركبتيها هناك كل مساء وتصلي. أردت أن أراقبها هناك بكل هدوء. وعندما تأخرت الفتاة ذات يوم، وأنا أتفحص بكل حزن السيدات اللواتي يقفن هناك للصلاة، وقع نظري على شاب صغير، انكفأ بكل جسمه النحيل على الأرض، وضع رأسه فوق راحتيه الساكنتين فوق أحجار الأرض. وبعد لحظة راح يضرب رأسه في كفيه بكل ما أوتي من قوة.

لم يكن بالكنيسة سوى بضع سيدات عجائز، ينظرن هنا وهناك برؤوسهن المغطاة بأوشحة، ويتطلعن نحو الرجل ذلك الشاب المتدين. يبدو أن اهتمامهن به أعجبه، فقد كان يتلفت حوله عند كل حركة يقوم بها ليرى كم من الحاضرين ينظر إليه.

لم يعجبني هذا الأمر، فقررت أن أتحدث معه عندما يخرج من الكنيسة. سأسأله بكل بساطة عن سبب صلواته بهذه الطريقة. فمنذ قدومي إلى هذه المدينة كان وضوح الأشياء أهم ما يعنيني. أمَّا ما أزعجني الآن فهو غياب تلك الفتاة.

لكنه نهض من مكانه بعد ساعة، وظل طويلًا ينفض سرواله، حتى كدت أصيح فيه قائلًا: «كفى! كفى! لقد رأينا جميعًا أنك ترتدي سروالاً» رسم في الهواء شكل الصليب بكل حرص، ثم توجه بهدوء نحو وعاء الماء المقدس وكأنه بحّار.

تقـدمت ووقفت بين وعـاء المـاء المقـدس والبـاب وأنـا عـازم على ألا أتركه قبل أن يفسر لي الأمر. ثنيت فمي، وكانت هذه أفضل طريقة لبدء حديث معين، ثم وضعت كل ثقلي على قدمي اليمني الممدودة للأمام، ووقفت على أطراف أصابع قدمي اليسرى. وهو ما تأكـد لي عـدة مـرات بأن هذا الوضع يمنحني الثبات.

ربما كان هذا الشاب يسترق النظـر إليّ وهـو يـرش المـاء المقـدس على وجهه، ربما شَعَرَ بنظراتي التي كنت أوجهها إليـه، وربمـا هـذا مـا جعلـه فجأة يهرول نحو الباب ويخـرج. فأسـرعت على الفـور حـتى ألحـق بـه، لكن البـاب الزجـاجي أُغلِـق. وعنـدما خـرجتُ من البـاب لم أتمكن من العثور عليه، فقد كانت توجد خارج المبنى الكثير من الشـوارع الضـيقة والكثير من المارة.

لم يظهر الشاب في الأيام التالية، لكن الفتاة كانت تأتي وتصلي في أحد أركان الكنيسـة الجانبيـة. كـانت غالبًـا ترتـدي فسـتانًا أسـود، مُزَيَّنًـا على ذراعيه وفي منطقة الرقبة بقطعة من قماش شـفاف — من تحتهـا تتـدلى ذراعه على شكل هلال ـ ، تنتهي أطرافه بياقـة حريريـة مُحْكَمـة الصـنع. جعلتني تلك الفتـاة الـتي تـتردد على الكنيسـة أنسـى ذلـك الشـاب بكـل سرور، فأنا لم أهتم لأمره في البداية ولا حـتى عنـدما انتظم حضـوره إلى الكنيسة ليصلي بطريقته الخاصة.

كان دائمًا يمر من حولي متعجلًا وهو يميـل بنظـره عـني، رغم أنـه كـان ينظر إليّ كثيرًا أثناء صلاته. فَسَّرتُ الأمر على أنه ربما يكون غاضبًا مني

لأني لم أتحدث إليه في تلك المرة، وكأنه كان يعتقد أنه عليّ إتمام المحاولة التي بدأتها ذات يوم للحديث معه. أعتقد أنه عندما كنت أتابع تلك الفتاة ذات مرة بعد انتهاء الخطبة، ونظرت إليه في العتمة، وجدته يبتسم.

بالطبع لم أكن مضطرًا إلى أن أتحدث إليه، كما لم تكن لدي رغبة في ذلك. ترددت في مخاطبته حتى في ذلك اليوم، عندما كنتُ أسير في أحد الميادين الصغيرة عند الكنيسة، وكانت الساعة تعلن السابعة، وهو ما يعني أن الفتاة لم تكن في الكنيسة وقتها، ولم يكن هناك أحد غيره عند السياج أمام المذبح.

الأكثر من ذلك أنني تسللتُ ناحية باب الخروج فوق أطراف أصابعي، ورميتُ ببعض النقود لذلك المتسول الجالس هناك، ثم تقوقعت بجواره خلف أحد جناحي الباب. وعلى مدى ثلاثين دقيقة جلستُ أنتظره حتى أرى وقع المفاجأة على وجهه. لكني لم أتحمل البقاء هناك كثيرًا. تركتُ العنكبوت يمر فوق ملابسي بضجر شديد، أحني جسمي بصعوبة في كل مرة يخرج أحدهم من الكنيسة في الظلام وهو يتنفس بصوت مسموع.

وهنا اقترب هو، ويبدو أن صوت الأجراس الضخمة الذي انطلق منذ لحظات، أزعجه. كان دائمًا يتلمس الأرض أولًا بأطراف أصابعه بخفة قبل أن يدوس عليها بقدميه.

هممتُ واقفًا، وخطوتُ خطوة واسعة حتى وصلتُ إليه، وقلتُ له: «مساء الخير!»، ثم أمسكته من ياقته ودفعته أمامي على السلم ناحية الميدان المضيء.

عندما نزلنا من على السلم، وكنت مازلت أمسكه من ياقته، التفت إليّ، ووقفنا وجهًا لوجه. قال: «حرر رقبتي من فضلك! لا أعرف بماذا تتهمني، لكني إنسان بريء»، ثم أضاف: «فعلاً لا أعرف بماذا تتهمني»

«الأمر لا يتعلق باتهام أو ذنب. أرجوك، لا تُكَرِّر هذا الكلام. لا يعرف أحدنا الآخر، ومعرفتنا لا تتجاوز ارتفاع درجات هذا السلم. إلام سنصل لو بدأنا الحديث عن براءتنا الآن»

قال: «هذا هو بالضبط ما أعتقده. لكنك قلت «براءتنا» أتقصد أنني لو أثبت براءتي، عليك أن تثبت براءتك أنت أيضًا؟ هل هذا ما قصدته؟»

قلت له: «إلى حد ما. لقد جئتك لأني أريد أن أسألك عن شيءٍ ما، تَذَكَّر هذا جيدًا»

قال وهو يستدير بوهن: «أريد أن أنصرف إلى بيتي»

«بالطبع، لماذا أردت الحديث معك؟ لا تعتقد أنني جئت إليك من أجل جمال عينيك»

«ألا تعتقد أنك صريح بشكل مبالغ فيه؟ ألا تعتقد؟»

«هل عليّ أن أُذَكِّرك مرةً أخرى أن الأمر لا يتعلق بأمور كهذه؟ ما علاقة الأمر هنا بالصراحة أو غيرها؟ أنا أسألك وأنت تجيب، وينتهي الأمر. ثم

يمكنك أن تذهب إلى البيت كما تشاء، وبالسرعة التي تريدها»

«أليس من الأفضل أن نلتقي في مكان آخر؟ في وقت مناسب؟ في أحد المقاهي مثلًا؟ كما أن الآنسة خطيبتك قد انصرفت منذ عدة دقائق، ومن الأفضل أن تلحق بها، فهي لم تنتظر هنا طويلًا»

صحتُ، فاختلط صياحي بضجيج الترام الذي مَرَّ من حولنا، وقلت: «لا تهرب مني! إن إعجابي بك يزداد مع الوقت. أنت ضحية جيدة لي. أهنئك»

وهنا قال لي: «يا إلهي! لديك، كما يقولون، قلب من حجر، ورأس صلبة. تنعتني بالضحية الجيدة، يا لك من رجل سعيد! فتعاستي هي تعاسة متقلبة، ولو اقترب منها أحدهم، ستقع عليه. لذلك: تصبح على خير»

قلت له وقد أمسكت بيده: «حسنًا، طالما لن تجيبني من تلقاء نفسك، سوف أجبرك على ذلك. سألاحقك في كل مكان تذهب إليه، يمينًا ويسارًا، فوق سلم بيتك، وسأجلس في غرفتك. بكل تأكيد، انتظرني، وسأتحمل كل المشاق من أجل ذلك. من أين لك ــ اقتربت منه حتى صرت ملاصقًا له. كان أطول مني، وصارت رأسه فوق رأسي، فتحدثت وفمي في رقبته «من أين لك كل هذه الشجاعة كي تقف أمامي؟»

وهنا بدأ يتراجع، وراح يقبل كلتا يدي على التوالي، ويهمرهما بدموعه. «لا يمكن أن أرفض طلبك. فكما تعرف أني أردت أن أعود إلى البيت، تعرف أيضًا أني لا أستطيع أن أرفض طلبك. فقط أرجوك، دعنا نذهب

إلى شارع جانبي» أومأت برأسي، وانصرفنا إلى هناك. كان عندما تفصلنا عن بعضنا إحدى السيارات يرفع كلتا يديه مُلَوِّحًا ليحثني على اللحاق به.

لم يكفه ظلام الشارع، حيث المصابيح متباعدة عن بعضها، وعلى ارتفاع طابق تقريبًا، لكنه أخذني إلى ممر منخفض في أحد البيوت القديمة، ووقفنا أسفل مصباح صغير يصدر ضوءًا خفيفًا على درجات خشبية.

فرَدَ منديلًا على تجويف إحدى الدرجات البالية، ودعاني للجلوس قائلًا: «يمكنك أن تسأل وأنت جالس، فهذا أفضل. وأنا سأظل واقفًا، هكذا أستطيع أن أُجيب بطريقة أفضل. لكن لا ترهقني بأسئلتك!»

جلستُ عندما وجدتُه يأخذ المسألة بجدية، لكني لم أمنع نفسي من السؤال: «تأخذني إلى مكان مهجور كهذا، وكأننا متآمران. في حين أن ما يربطني بك هو مجرد فضول، وما يربطك بي هو الخوف. في الواقع لقد أردتُ فقط أن أسألك، لماذا تصلي بهذه الطريقة في الكنيسة؟ إنك تتصرف هناك وكأنك مجنون بالفعل! إنه أمر شاذ، ومُرْبِك لكل من يراك، وغير مقبول من المتدينين!»

أسند جسمه إلى الحائط، وترك رأسه تتحرك بحرية في الهواء، وقال: «أنت مخطئ تمامًا، فالمتدينون يعتبرون ما أفعله أمرًا طبيعيًّا، والآخرون يعتبرونه أمرًا يدل على الورع. وهو يطفئ غضبي»

«غضبك هذا، لو اعتبرنا أنه غضب حقيقيّ، يدل على أنك لا تنتمي لا للمؤمنين ولا لغيرهم»

«أنت على حق، كنت أبالغ قليلًا عندما قلت إن سلوكك أغضبني. لم يكن كذلك، لقد أثار في نفسي بعض الفضول كما قلت منذ قليل. لكن ماذا عنك، إلى من تنتمي؟» «آه، ما يسعدني هو أن أرى الناس ينظرون إليّ، لو جاز لي القول، وأنا مُنكب على المذبح»

قلت له وأنا عاقد الحاجبين: «يسعدك هذا؟»

«كلا، لو أردت أن تعرف، هذا لا يسعدني. المعذرة، لقد أخطأت في التعبير. لا يسعدني، بل أنا أحتاج إلى ذلك، أحتاج إلى تلك النظرات ترمقني وأنا هناك وكل المدينة من حولي»

صرختُ فيه ردًا على ملاحظته في هذا الدهليز المنخفض قائلًا: «ماذا تقول؟!» ثم التزمت الصمت، وواصلتُ بصوتٍ منخفض: «أخبرني، ما هذا الذي تقوله؟ أرى أنني كنت على حق منذ البداية عندما لاحظت حالتك. أهي حُمىّ أم مرض من أمراض البحر ظهر وأنت على اليابسة، أم شيء مثل البرص؟ أليس الأمر هو أنك لست راضيًا عن الحمي التي ألمَّت بك وعن حقائق الأمور، لست راضيًا بما هو عندك، فتعطيه أسماء عشوائية؟ فقط تريد الهرولة، وبمجرد أن ابتعدت عنها، نسيت أسماءها. نبات الحور في الحقول الذي أطلقت عليه «برج بابل» لأنك لا تريد أن تعرف أن اسمه حور. ولأنه صار يتأرجح بدون اسم، فأطلقت

عليه اسم «نوح السكير» قاطعني قائلًا: «أنا سعيد لأنني لم أفهم شيئًا مما قلت»

قلت له على الفور وأنا غاضب: «سعادتك هذه تؤكد أنك فهمت»

«ألم أقل لك هذا؟ لا يمكن لأحد أن يُعَارضك» وضعتُ يدي فوق الدرج الأعلى، واتكأت إلى الخلف، في وضع يصعب مهاجمته، وهو آخر طوق نجاة. سألته:

«عفوًا! هذه مراوغة منك، فأنت تُكَرِّر التفسير نفسه الذي قدمته لك»

وهنا اشتدت شجاعته، وعقد ذراعيه حتى يمنح جسده نوعًا من التوحد، وقال بنبرة تحدٍ خفيفة: «أنت نفسك استبعدت الحديث عن مسألة الصراحة منذ البداية. وما يهمني في الحقيقة هو أن تفهم طريقتي في أداء الصلاة. أتعرف أنت لماذا تصلي بطريقتك تلك؟»

حاولت، لكنني لم أعرف السبب، ولم أكن أريد معرفة السبب. فأنا لم أرغب في الذهاب إلى هناك من الأساس. وكنت نويت ذلك، لكن هذا الإنسان اضطرني إلى أن أسمعه وأستجوبه. كان يكفي أن أهز رأسي، وتسير الأمور كما هي، لكنني في تلك اللحظة لم أتمكن من هذا.

راح هذا الإنسان الواقف أمامي يبتسم. ثم مال عليّ وهو يتكئ على ركبته، وبدأ يحكي لي بعيون ناعسة: «الآن فقط يمكنني أن أخبرك لماذا تركتك تتحدث معي. إنه الفضول، وكذلك الأمل. إن نظراتك إليّ كانت تبعث في نفسي السرور منذ البداية. كذلك أتمنى أن أعرف منك

طبيعة الأشياء التي تنهار من حولي مثل العاصفة الثلجية، بينما كأس الكحول يقف ثابتًا على ترابيزة الآخرين وكأنه نصب تذكاري»

لزمتُ الصمت، وسَرَتْ في وجهي رعشة مباغتة. سألني: «ألا تعتقد أن الآخرين يفعلون الأشياء نفسها؟ حقًا لا تعتقد ذلك؟ آه، اسمعني إذن! ذات مرة عندما كنت طفلًا صغيرًا فتحت عيني بعد سبات خفيف بعد ظهيرة أحد الأيام، سَمِعْتُ أمي — وأنا لا أدرك معنى للحياة بعد — تسأل بنبرة طبيعية وهي تنظر من شرفة المنزل: «ماذا تفعلين يا عزيزتي؟ إن الجو جار»، أجابتها سيدة ما تقف في الحديقة: «أتناول وجبة خفيفة هنا وسط الحشائش» تحدثتا بدون أدنى تفكير، وبكل وضوح، وكأن تلك السيدة كانت تنتظر سؤالًا كهذا، وأمي تنتظر مثل هذه الإجابة»

اعتبرت أنه سؤال مُوَجَّه لي، فمددت يدي إلى جيب بنطلوني الخلفي وكأنني أبحث عن شيءٍ ما.

لكني في الواقع لم أكن أبحث عن أي شيء. فقط أردت أن أُغَيِّر من هيئتي حتى أظهر مشاركتي في الحوار. وقلت إن هذه حالة شديدة الغرابة، وصرت عاجزًا عن فهمه. وأضفت أني لا أثق في حقيقة ما يقول، وأنه حدد هدفًا أنا غير قادر على فهمه. ثم أغلقت عيني حتى أتجنب هذا الضوء اللعين.

«اسمع! يجب أن تتحلى بالشجاعة. فنحن متفقان في الرأي، لقد استوقفتني بدون أي غرض في نفسك حتى تسألني. أنا هنا أفقد أملًا، وأعثر على أمل جديد. مِمَّ أخجل وأنا أتردد على الكنيسة منتصب

القامة، واثق الخطوات، لا أخبط بعصا على الأرض، ولم ألمس يومًا ملابس الزوار الذين يعجون من حولي؟ ألم يكن لي أن أتمرد وأتذمر من أني أتحرك بين البيوت مثل ظل لا حدود له، ويختفي فوق زجاج نوافذ العرض؟»

يا لها من أيام أقضيها هنا! لماذا بُني كل شيء هناك على نحو سيء. في كل لحظة تتهاوى بيوت سامقة بلا سبب؟ أزحف فوق أكوام الحطام، وأسأل كل من أقابله:

«كيف حدث هذا! تخيَّل، بيت جديد في مدينتنا، لا أدري كم بلغ عددهم اليوم. ولن أجد إجابة من أحد. يحدث كثيرًا أن الناس يتساقطون في الشوارع، ويتحولون إلى جثث هامدة. ثم يفتح التجار متاجرهم المتخمة بالبضائع، يهرولون، ويحملون الجثث إلى المنزل، ثم يعودون والابتسامة تعلو وجوههم وملء عيونهم، ويواصلون الحديث: طاب يومك — السماء غائمة جزئيًّا، هناك طلب على الملابس — آه، إنها الحرب. وأنا، أعود إلى بيتي، أرفع يدي عدة مرات مترددًا، وأثني أصبع السبابة لأطرق على نافذة حارس البيت، وأقول: صباح الخير! يبدو لي أنهم أحضروا عندك منذ لحظات جثة أحد الموتى. هل تسمح لي أن أراه؟ وأضيف عندما أراه يهز رأسه وكأنه لا يعرف ماذا يفعل: احترس! أنا من الشرطة السرية، وأريد معاينة الجثة في الحال. فيتخذ قراره، ويصيح: «انصرف! هذا الرجل معتاد التسكع هنا من يوم لآخر! ليس عندنا جثث، ربما في البيت المجاور» فأحييه وأنصرف.

بعد ذلك أنسى كل ما حدث وأنا أعبر الميدان الكبير. وبما أنهم ينفقون ببذخ في بناء ميادين كبيرة كهذه، لماذا لا يبنون فيها أسوارًا أيضًا؟ اليوم تهب رياح غربية، وتمثال القرد الموجود على برج مبنى البلدية يقف في وضع تأهب. كل النوافذ تهتز، والشمعدانات تتراقص وكأنها مصنوعة من الخيزران. رداء ماريا العذراء فوق العامود يتقلص، والرياح تعصف بهما. ألا يرى أحد هذا؟ السيدات والسادة يتطايرون بدلًا من أن يسيروا فوق الطرقات. وما إن تتوقف الرياح سيتوقفون جميعًا، يتبادلون بعض الكلمات، ثم يحيي كل منهم الآخر مُوَدِّعًا. عندما تهب الرياح من جديد، لن يصمدوا أمامها، وسيرفعون جميعًا أقدامهم. لكن يجب أن يمسكوا جيداً بقبعاتهم، وأيضًا يرسمون السعادة في أعينهم، ولا يعترضون إطلاقًا على حالة الطقس. وأنا الوحيد الخائف بينهم»

كان يمكن أن أرد عليه، وأقول له: «حكاية أمك هذه مع صديقتها في الحديقة تبدو لي طبيعية جداً. ليس فقط لأني سمعت كثيرًا من هذه الحكايات، لكني أيضًا كنت جزءًا من بعضها. إنه أمر طبيعيّ للغاية. هل تعتقد أنني لو كنت في الصيف في الشرفة نفسها لن أسألها السؤال نفسه، ولو كنت في الحديقة لما أجبت بنفس الإجابة؟ إنها حالة عادية للغاية»

عندما قلت له هذا ظهر عليه الرضا أخيرًا. قال إن ملابسي أنيقة وإن رابطة عنقي تعجبه، وإن بشرتي ناعمة، وإن العقيدة تصبح أمرًا واضحًا للغاية طالما ارتكزت على مرجعية ما.

(2) حكاية الرجل المتدين

ثم جلس بجواري عندما وجدني أُظهر قدرًا من الحياء، وأملتُ رأسي جانبًا، وأفسحت له مكانًا بجواري. رغم ذلك لم يغب عني أنه هو الآخر جلس مُرتبكًا، وحرص على أن يحافظ على مسافة قليلة بيني وبينه، وتحدث بصعوبة.

«يا لها من أيام أقضيها هنا! كنت مساء أمس في إحدى الحفلات، وعلى ضوء أحد المصابيح انحنيتُ لإحدى الفتيات، وقلت لها: «بالفعل أنا سعيد باقتراب فصل الشتاء» هكذا خاطبتها وأنا أنحني أمامها، ثم انتابني الغضب عندما شعرت أن عظمة فخذي تحركت قليلًا من موضعها على المفصل، وتحرر المفصل قليلًا.

لذلك جلست، وقلت: أحاول دائمًا أن أنتقي كلماتي، ولأن الشتاء لا يتطلب جهدًا كبيرًا، وتصبح كل الأعمال سهلة، فلا أضطر فيها إلى إجهاد نفسي في انتقاء الكلمات. «ألا تعتقدين ذلك يا عزيزتي؟ أعتقد أني مُحق في هذا الأمر» كانت قدمي تؤلمني وأنا أتحدث معها. في البداية شعرتُ بأنها تفككت، ورحتُ أدلكها تدريجيًا حتى أعدتها إلى حالتها الطبيعية إلى حد ما.

هنا سمعتُ الفتاة التي جلست كنوع من التعاطف، تقول بهدوء: «أنت لا تعجبني على الإطلاق، لأن..» قلت لها بكل هدوء وترقب: «انتظري! أنتِ يا آنستي العزيزة لم تحاولي أن تبذلي من وقتك ولو خمس دقائق لتتحدثي معي. أرجوك، كُلِي شيئًا وأنت تتكلمين» ثم مددت يدي في

طبق برونزي حتى ألتقط حبة عنب ملتصقة بالعنقود. أمسكت بها في الهواء للحظة، ثم وضعتها في طبق صغير له حواف زرقاء، وقدمته للفتاة بطريقة لا تَخْلُ من الرشاقة.

قالت: «أنت لا تعجبني على الإطلاق، كل ما تقوله ممل وغامض، وأيضًا غير حقيقي. أعتقد يا سيدي، ـ لماذا تناديني دائمًا بآنستي العزيزة؟ ـ أعتقد أنك لهذا لا تقول الحقيقة لأنها ثقيلة»

صحتُ قائلًا: «يا إلهي! هذا أمر أسعدني بالفعل! نعم يا آنستي. معك حق! آنستي العزيزة! افهميني، إن السعادة تجعل الأمور تختلط على الإنسان دون أن يدري»

«يا سيدي، يبدو أن الحقيقة تمثل لك عبئًا ثقيلًا. انظر إلى نفسك! إنك مصنوع من ورق حريري، من ورق حريري أصفر، تبدو مثل صورة ظليّه، ويصدر منك حفيف وأنت تمشي. لذلك من الخطأ الشعور بالإهانة من تصرفاتك ومن آرائك لأنك تحني قامتك لتفادي تيار الهواء الذي يندفع في الغرفة»

«أنا لا أفهمكِ. يوجد هنا في الغرفة كثير من الناس. يسندون أياديهم على أذرع المقاعد، أو يتكئون على البيانو، أو يرفعون الكؤوس في تردد إلى أفواههم، أو ينصرفون بحذر إلى الغرفة المجاورة. تصطدم أكتافهم اليمنى بخزائن البيت، يقولون وهم يقفون عند النافذة المفتوحة يطالعون السماء: هذا هو كوكب الزهرة، نجم السماء. لكني هنا وسط الناس. لو أن هذا له علاقة بالأمر، فأنا لا أفهم هذه العلاقة. وأنا لست

متأكدًا من وجود علاقة بما يحدث. — اسمعي يا آنستي العزيزة! أنا الوحيد من بين هؤلاء الناس الذين يتصرفون بتردد وغموض، بل وبسخافة، الوحيد القادر على أن يسمع شيئًا واضحًا عن نفسه. لكن يجب أن يكون شيئًا مقبولًا. أنت تتحدثين بسخرية، لكن دائمًا ما يبقى هناك شيء، تمامًا مثل البيت الذي احترق من الداخل، تبقى حوائطه ذات أهمية. فلا عوائق تمنعك من النظر، وأثناء النهار ترين السحب في السماء من خلف فتحات النوافذ الواسعة، وفي الليل تطالعين السماء. لكن السحب تتكسر وسط الأحجار الباهتة، والنجوم تصنع صورًا مصطنعة. — ماذا لو أني على سبيل العرفان أخبرتك أن كل الناس الذين يرغبون في الحياة سيصبحون يومًا مثلي أنا، وكأنهم مصنوعون من ورق حريري أصفر، مثل الصورة الظليه — كما وصفتيهم ـ وسيصدرون حفيفًا وهم يمشون. لن يختلفوا عمَّا هم عليه الآن، بل سيكونوا كما هم، وحتى أنت يا آنستي العزيزة»

لاحظت أن الفتاة لم تعد تجلس بجواري. وانصرفت مبكرًا بعدما قالت آخر كلماتها، وهي تقف الآن بعيدًا عني عند إحدى النوافذ العالية مُحاطة بثلاثة من الشباب الذين يتحدثون والابتسامة تعلو وجوههم خلف ياقاتهم البيضاء العالية.

شربتُ كأس النبيذ بسعادة، ثم توجهت نحو عازف البيانو المستغرق في عزف مقطوعة حزينة، ويهز رأسه. ملت عليه بحرص حتى لا أزعجه، وقلت له أثناء العزف:

«من فضلك يا سيدي، اسمح لي أن أعزف مقطوعة. فأنا على أبواب السعادة»

لم يسمعني الرجل، فتسمرت في مكاني مرتبكًا للحظات، ثم تنقلت بين الضيوف لأتغلب على خجلي، وأنا أقول «بالمناسبة، سأعزف اليوم على البيانو. نعم»

يبدو أن الجميع كانوا يعرفون أنني لا أجيد العزف على البيانو. لكنهم ابتسموا بدماثة فقط لأنني قاطعت حديثهم بطريقة لطيفة. لكنهم انتبهوا جميعًا عندما صحت في عازف البيانو بصوت عالٍ، وقلت: «من فضلك يا سيدي، اسمح لي أن أعزف مقطوعةً. فأنا على أبواب السعادة. إنه الانتصار»

توقف الرجل عن العزف، لكنه لم يبرح مكانه على المقعد البني، وكان واضحًا أنه لم يفهمني. التقط أنفاسه وغطى وجهه بأصابعه الطويلة.

شعرت نحوه ببعض التعاطف، وكدت أدعه يواصل العزف، بعد أن ظهرت صاحبة الحفل وسط مجموعة الناس.

قالوا: «يا لها من صدفة كوميدية». وراحوا يبتسمون وكأنني أوشك على فعل شيء غير طبيعيّ. وجاءت أيضًا تلك الفتاة، وألقت عليّ نظرة احتقار، وقالت: «من فضلك يا سيدتي، دعيه يعزف!» يبدو أنها أرادت أن تساهم في المرح. إنه لأمر جدير بالثناء. من فضلك يا سيدتي»

تعالتْ أصواتهم بسعادة، يبدو أنهم اعتقدوا — وكذلك أنا — أنها تقصد من وراء ذلك السخرية. لكن عازف البيانو ظل صامتًا. أسدل رأسه،

وراح يمر بسبابته على المقعد الخشبي، وكأنه يرسم فوق الرمل. بدأ جسمي ينتفض، فدسست يدي في جيوبي حتى أُخفي هلعي. لم أكن في حالة تسمح لي بالحديث الواضح، وكَسَتْ وجهي رغبة في البكاء. كان يجب أن أختار كلمات تجعل شعوري وكأني على وشك البكاء وتبدو للحاضرين غير مُتعمّدة.

قلت: «يا سيدتي، يجب أن أعزف الآن، لأن...» نسيت السبب، فتوجهت بهدوء نحو البيانو. وهناك أدركت الموقف الذي أنا فيه. نهض عازف البيانو، ثم تجاوز المقعد برقة بعد أن عرقلت طريقه. ورفعت قامتي، وقلت «أطفئوا الأنوار من فضلكم! أنا لا أعزف إلا في الظلام»

وهنا حمل رجلان المقعد، وحملاني بعيداً عن البيانو، عند ترابيزة الطعام وهما يصفران بإحدى الأغنيات، ويهزان المقعد بخفة.

راح الجميع يتابعونهما وهم يثنون على ما فعلاه، وقالت الآنسة: «أترين يا سيدتي! لقد عزف بطريقة جيدة، وأنا كنت واثقة من ذلك، بينما كنتِ أنتِ خائفة»

فهمْتُ ما يدور، وشكرتهم بانحناءة احترام.

صبوا لي عصير ليمون، وأمسكت إحدى الفتيات ذات شفاه حمراء الكأس لكي أشرب منه. وقدمتْ لي صاحبة الحفل قطعة من الحلوى على طبق فضي، فدستها في فمي فتاة ترتدي فستاناً ناصع البياض. وأمسكت فتاة عامرة الصدر ذات شعر فاتح كثيف عنقود عنب فوق رأسي، فأخذت منه وهي تتطلع إلى عيني الزائغتين.

لكني تعجبت عندما منعوني بحزم وأنا أتقدم من جديد ناحية البيانو، رغم أنهم تعاملوا معي بطريقة طيبة للغاية.

قال صاحب الحفل الذي لم ألحظ وجوده من قبل: «هذا يكفي!» ثم خرج، وعاد على الفور وهو يحمل أسطوانة ضخمة، ويرتدي معطفًا ضيقًا نحاسي اللون، وقال: «هذه أشياؤك»

لم تكن هذه الأشياء لي، ورغم ذلك لم أرغب في أن أجهده في البحث عن صاحبها. ألبسني صاحب الحفل المعطف بنفسه، وكان مناسبًا لي تمامًا، وبدا ممسكًا بجسدي النحيف. وقامت سيدة ذات ملامح لطيفة بغلق أزرار المعطف زرًا بعد الآخر وهي تموج بجسمها.

قالت صاحبة الحفل: «أتمنى لك وقتًا طيبًا وأن نراك هنا قريبًا. فنحن نسعد دائمًا بلقائك، وأنت تعرف ذلك» وهنا انحني كل الحضور، وكأنهم مضطرون إلى ذلك. حاولت أنا أيضًا أن أنحني أمامهم، لكن المعطف كان ضيقًا للغاية. أخذت القبعة، وتوجهتُ مُرتبكًا نحو الباب.

وبمجرد أن ابتعدت عن البيت عدة خطوات حتى استقبلتني السماء، والقمر، والنجوم، والقبة الضخمة، والميدان الذي يقف فيه مبنى البلدية، وساري مريم العذراء، والكنيسة.

خرجتُ بكل هدوء من ظل البيت إلى ضوء القمر، فتحتُ أزرار المعطف، ونفختُ في راحتي لأشعر بالدفء، ثم رفعت يدي لآمر الليل كي يخفض صوت همهمته، وبدأت أفكر:

«ما هذا الذي تفعلونه وكأنكم حقيقيون. تريدون أن تجبروني على أن أعتقد أنني لست حقيقيًّا، وغريبًا وأنا أقف فوق هذه الأرض الخضراء. لكن فات الأوان، الحقيقة أيتها السماء وأيها الميدان، أنت لم تكن يومًا حقيقيًا»

«صحيح أنكم تتفوقون عليّ، لكن فقط عندما أغفل عنكم. أحمد الله أيها القمر أنك لست قمرًا، لكنه ربما يكون خطأ. يا من تُسَمَّى القمر، إنني مازلت أُسميك قمرًا. ماذا ستفعل عندما أسميك المصباح المنسيّ ذا اللون الغريب؟ لماذا تندهش عندما أُسميك عامود العذراء مريم، ولا تكف عن تهديدك يا عامود العذراء مريم عندما أسميك القمر الساطع بنوره الأصفر؟»

«يبدو لي بالفعل أنكم تنزعجون عندما يفكر فيكم أحد. هذا الأمر ينزع عنكم الشجاعة والصحة. يا إلهي! كم يكون الأمر ناجحًا عندما يتعلم المفكر من السّكير!»

لماذا هجعت الأصوات؟ أعتقد أن الرياح توقفت، والبيوت التي كانت تدور في الميدان وكأنها تسير على عجلات توقفت من الذهول— بهدوء— اختفى حتى ذلك الطوق الرفيع الأسود الذي يفصلها عن الأرض»

انطلقتُ مهرولًا، أطوف ثلاث مرات بالميدان الكبير، لا يعوقني شيء. اندفعت في السير لأني لم أجد أي سِكّير به، لم أتمهل، ولم أشعر

بالتعب. توجهتُ نحو شارع كارل. يرافقني ظل أصغر مني بجواري على الحائط، وكأنه وادٍ صغير بين الحائط والطريق.

سمعتُ وأنا أمر بمبنى المطافئ ضجيجًا قادمًا من ميدان صغير، وعندما اتجهت إلى هناك رأيت رجلًا مخمورًا يقف بجوار نبع، يحافظ على ذراعه مستقيمة في وضع أفقي، ويضرب الأرض بنعل خشبي ينتعله في قدميه.

توقفتُ قليلًا حتى ألتقط أنفاسي، ثم تقدمت منه، أنزلت الأسطوانة من على كتفي، وقدمت له نفسي:

«مساء الخير! أيها الرجل النبيل! أبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا، ولا أعرف اسمي بعد. بينما أنت قادم من مدينة باريس الكبيرة وتحمل معك أسماء جديدة لها إيقاع موسيقي. تحيطك رائحة الفناء الفرنسي المضطرب شديدة الغرابة»

«من المؤكد أنك رأيت بعينيك الملونتين هؤلاء السيدات اللواتي يقفن في الشرفة البيضاء العالية، يتمايلن بأردافهن الرفيعة، وأطراف فساتينهن الملونة والمنبسطة فوق درجات السلم مازالت في رمال الحديقة. والعبيد يتسلقون الأعمدة العالية التي انتشرت في كل مكان وهم يرتدون بزات رسمية باهتة اللون متأنقة وبنطلونات بيضاء، أقدامهم ملتفة حول الأعمدة، يميلون جذع الأعمدة إلى الخلف أحيانًا، وإلى الجوانب أحيانًا أخرى. مهمتهم هي رفع أغطية الأَسِرَّة بأحبال سميكة

طويلـة من على الأرض وشـدها إلى أعلى، فالسـيدات يحببن أن يـأتي الصباح ضبابيًّا»

تجشأ الرجل، فقلت بنوع من الخوف: «هل صحيح يا سيدي أنك قـادم من بـاريس، من بـاريس العاصـفة، آه، من تلـك العاصـفة الأسـطورية الباردة؟»

وعندما تجشأ من جديد قلت بتردد: «أنا أعرف أنني نلت شرفًا عظيمًا»

حَرَّرتُ أزرار المعطف بخفة من أصابعي، ثم بـدأتُ أتحـدث بـودّ وعلى استحياء: «أنـا أعـرف، لا تعتـبرني رجلًا جـديرًا بـالرد، لكـني قـد أقضـي حياتي كلها في البكاء لو لم أسألك اليوم»

«أرجوك أيها الرجل الجليـل، أجبـني، هـل صـحيح مـا قـالوه لي؟ إن في باريس أُناسًا مصنوعين فقط من الأزياء البسيطة، وإن هناك بيوتًـا مجـرد بوابـات، وهـل حقيقي أن السـماء فـوق المدينـة يكسـوها اللـون الأزرق الملكي في أيام الصيف، وتُزَيِّنها سحب بيضاء على شـكل قلـوب؟ هـل صحيح أن هناك تمثالًا من الشمع حوله ازدحام شـديد، وأشـجار عليهـا أسـماء مشـاهير الأبطـال والمجـرمين والمحـبين، كُتبت على لوحـات صغيرة؟» «شيء آخر! شـيء يبـدو غـير حقيقي! هـل صـحيح أن شـوارع باريس تتشعب، وأن ضجيجها لا يهدأ، أليس هـذا صـحيحًا؟ ليس كـل شيء على ما يـرام، كيـف حـدث هـذا! حادثـة مـا تحـدث هنـا وهنـاك، الناس يتجمعون، يـأتون من الشـوارع الفرعيـة بخطـوات أهـل المدينـة، التي بالكاد تلمس أرض الشارع. الكل مفعم بالفضول، وبالخوف أيضًـا

من خيبة الأمل، تتسارع أنفاسهم، ويدفعون رؤوسهم الصغيرة إلى الأمام. ولو لمس أحدهم شخصًا آخر، ينحني له ويسأله المغفرة: «أنا آسف جدًا — لم أكن أقصد — فالزحام هنا كبير، سامحني من فضلك، إنها حماقة كبيرة مني — أعترف لك بذلك. اسمي هو — اسمي هو جيروم فاروشيه، أبيع التوابل في رودي كابوتين —اسمح لي أن أدعوك غدًا على الغداء، وسوف تسعد زوجتي بك جدًا» هكذا يتحدثون، والشوارع تعج بالمارة، ودخان المداخن يسقط بين البيوت. هذا هو الوضع. ومن الممكن أن تتوقف سيارتان في جادة أخرى في أحد الأحياء الراقية. الخدم يفتحون الأبواب بوجوه صارمة. وتندفع ثمانية كلاب ذئبيه من سيبيريا بخطوات راقصة، وتثب عبر الطريق. وهنا يقول أحدهم إنهم شباب باريس المتأنقين»

كانت عيناه مغمضتين. وعندما انتهيت من كلامي دس كلتا يديه في فمه وشَق فكه السفلي. كانت ملابسه كلها متسخة. ربما أنهم طردوه من الحانة، ومازال لم يدرك الأمر بعد.

ربما كانت تلك الاستراحة القصيرة والهادئة بين النهار والليل، الوقت الذي تُعلق فيه رؤوسنا دون أن ندري على مؤخرة عنقنا، ويتوقف فيه كل شيء دون أن نلاحظ ذلك. فيختفي لأننا لم ننتبه إليه. ونظل وحدنا مع جسد محنيّ. ثم نلتفت حولنا لكننا لا نرى شيئًا، ولا نشعر بمقاومة الهواء. لكن نتمسك في داخلنا بذكرى أن بيوتًا ما توجد على مسافة منّا، بيوت لها أسقف ودفايات ذات زوايا، يتسلل الظلام إلى داخل البيوت، ثم من غرف العلية إلى مختلف حجرات البيت.

سعادة هي أن غداً سيكون يومًا نرى فيه كل شيء، حتى وإن كان هذا شيئًا لا يصدق.

هنا رفع هذا السكير حاجبيه حتى لمع ما بينهما وبين عينيه، وبدأ يفسر الأمر بكلمات متقطعة: «إنه بالفعل كذلك — أشعر برغبة في النوم، لذلك سأذهب للنوم ــ عندي صهر يسكن في ميدان فاتسلاف — سأذهب إلى هناك، لأنني أعيش هناك، فهناك لدي سرير — والآن انصرف! في الواقع أنا لا أعرف اسمه، وأعرف أين يسكن — ربما نسيت — لكن لا يهم، لأني في الأصل لست متأكدًا أن لي — صهرًا سأذهب الآن ــ أتعتقد أني سأعثر عليه؟

قلت له بدون تردد: «بالتأكيد ستعثر عليه. لكنك قادم من بلاد أجنبية، وليس لديك خَدم. اسمح لي أن أرافقك إلى هناك»

لم يرد. ففردتُ له ذراعي كي يتأبطه»

(4) متابعة حوار الرجل السمين والشاب المؤمن

لكني حاولت مرات عدة أن أستعيد وعيي. فنفضت جسمي، وقلتُ لنفسي: «لقد حان الوقت كي أتحدث. إنك في حيرة من أمرك. هل تشعر بضعف في معنوياتك؟

انتظر! أنت تعرف مثل هذه المواقف. تَفَكّر جيدًا في الأمر دون تعجل! وكل ما حولك سينتظر»

«إنه يشبه ما حدث في تلك الحفلة الأسبوع الماضي. قرأ أحدهم شيئًا ما في أحد المستندات. قمت بنسخ صفحة من المستند بناءً على رغبة أحدهم. يتملكني الرعب وأنا أقرأ الكلمات التي كتبها. لا فائدة من هذا. الناس يجلسون مُنكبين على المستند من ثلاث نواحي حول الترابيزة، وأنا أقسم والدموع تنهمر من عيني بأنه ليس خطي»

«لكن لماذا يجب أن يكون مُشَابهًا لما هو بين أيدينا اليوم؟ الأمر يعود إليك كي تضع حدودًا للحوار. بكل هدوء. لكن حاول يا عزيزي! — بالتأكيد ستصل إلى حجة ما — يمكنك أن تقول: يغالبني النعاس، ورأسي تؤلمني. إلى اللقاء. بسرعة، بسرعة. اجعلهم ينتبهون إليك! — ما هذا؟ عقبات وعقبات؟ ماذا تتذكر؟

ـ أتذكر إحدى الهضاب التي ارتفعت أمام السماء الكبيرة وكأنها لوحة للكرة الأرضية. نظرتُ إليها من فوق الجبل العالي وعزمت على أن أتحول إليه. وبدأتُ أغني»

كانت شفتاي جافتين وعصيتين على الكلام عندما قلت: «لا يجب أن يحاول الإنسان تغيير حياته»

قال متسائلًا والابتسامة على وجهه: «لا؟»

سألته وأنا أرى أن كل ما بنيته بيني وبينه في نومي حتى الآن قد تداعى تمامًا: «لكن لماذا تصلي في الكنيسة كل مساء؟»

«لا، لماذا يجب أن نتحدث في هذا الأمر؟ في المساء لا يوجد من يعيش وحده، وليست لديه أي مسؤولية. ويسيطر عليه الخوف. ربما ينتهي الوجود الجسدي، ويصبح الناس في الحقيقة كما تراهم وقت الأصيل، ولن يستطيع أحد السير بدون عصا، وسيكون مناسبًا الذهاب إلى الكنيسة والصلاة بطريقة صاخبة حتى يراه الناس، ويستعيد هو جسده»

حديثه بهذه الطريقة ثم صمته جعلني أسحب منديلي الأحمر من جيبي، وأنخرط في البكاء وأحني ظهري.

نهض، وقبَّل يدي، ثم قال:

«لماذا تبكي؟ أنت رجل ضخم، وأنا سعيد بهذا. يداك طويلتان، ولا تفعلان إلا ما تمليه عليهما إرادتك. لماذا لا يسعدك شيء كهذا؟ أنفك داكن وعلى أكمامك حواش من القماش. أنصحك! — كلا، ـ أنا هنا أتملقك، وأنت تبكي؟ تتحمل كل هموم الحياة هذه، وبشكل معقول للغاية»

«نحن نبني آلات حربية غير ضرورية، ونبني أبراجًا وحوائط وستائر حريرية، ولو كان لدينا مزيد من الوقت لتعجبنا من هذا كله. نحن معلقون في الهواء، لا نسقط، نرفرف عاليًا، رغم أننا أكثر قبحًا من الخفافيش. يصعُب أن يمنعنا أحد في يوم جميل من أن نقول: يا إلهي! يا له من يوم جميل! لأننا تأقلمنا مع أرضنا، ونعيش بكامل إرادتنا»

«نحن مثل جذور الأشجار وسط الثلوج. يبدو لنا أنها تنام في هدوء، وتعتقد أنه يكفي أن تدفعها قليلًا فتزيحها عن مكانها. لكن إلى أين؟ مستحيل! إنها ملتصقة بالأرض بقوة. لكن اسمع! هكذا نرى نحن الأمور»

أفسدت الأفكار عليّ البكاء: «إنه الليل، ولن يوبخني أحد في الصباح على ما أقوله الآن، لأنه يمكن أن يكون مجرد كلام رجل نائم»

ثم قلت: «نعم، هذه هي الحقيقة، لكن عمَّا كنا نتحدث؟ لا يمكنني أن أتكلم عن السماء المشرقة وأنا أقف في عمق الدهليز. لا، رغم ذلك يمكننا أن نتحدث عن هذا، أَوَلسنا مستقلين في حوارنا؟ نحن لا نبغي تحقيق هدف معين، ولا نبحث عن الحقيقة، بل إنها مزحة وتسلية. هل يمكنك أن تحكي لي مرةً أخرى حكاية تلك السيدة في الحديقة؟ كم هي امرأة مثيرة للإعجاب وعاقلة! يجب أن أتخذها مثالًا لي. كم أحب تلك المرأة! كما أنه كان أمرًا طيبًا أنني التقيتك، وأنني عثرت عليك.

كان شرفًا عظيمًا أنني تكلمت معك. سمعت الكثير من الأمور التي لم أكن أعرفها، ربما عن عمد. أنا سعيد»

بدا عليه الرضا. وجدتُ نفسي أحتضنه رغم نفوري الدائم من ملامسة أي جسد بشري غريب.

ثم خرجنا من الدهليز إلى الفضاء الواسع. شَتَّت صديقي بعض السحب المتفرقة بنفخة من فمه، فظهرت السماء مفروشة بالنجوم. وسار صديقي بخطى متثاقلة.

4

موت الرجل السمين

سيطرت السرعة هنا على كل شيء، واختفى بعيدًا. تقلصت مياه النهر وكأنها تقاوم، وتأرجحت عند حوافه المتكسرة، وحملت الأبخرة والدوامات كل شيء.

لم يستطع الرجل السمين أن يواصل كلامه، اضطر إلى الانصراف، واختفى وسط تساقط المياه السريع الهادر.

أما أنا، الرجل الذي عرف الكثير من حكايات اللهو، وقفت عند الشاطئ ورأيت كل شيء. رحتُ أصرخ وأصرخ: «ما عسى رئتانا أن تفعلا! لو تنفسنا بسرعة لاختنقتا من سم داخلي، ولو تنفسنا ببطء لاختنقتا من الهواء الفاسد ومن الأمور الجامحة. وإن أرادتا البحث عن إيقاع لهما فسيفنيهما البحث»

اتسعت ضفتا هذا النهر بشكل هائل، وأنا ألمس براحتي لوحة معدنية صغيرة تشير إلى الطريق. لم أقتنع بالأمر. فقد كنت صغيرًا، أصغر من العادة، تجاوزتني شجيرة ذات أشواك بيضاء تهتز بقوة. رأيت هذا بنفسي، فمنذ قليل كانت قريبة مني.

لكني كنتُ مُخطئًا، لأن يديّ كانتا طويلتين مثل سحب أمطار هطلت لأربعة أيام كاملة، لكنها سحب وحشية. لا أعرف لماذا أرادت أن تسحق رأسي الصغيرة. كانت رأس صغيرة مثل بيضة النملة، ومشوهة

قليلًا، فلم تكن مستديرة. كنت أحركها باستجداء، فتعبيرات عيني كانت صغيرة، لا يمكن أن يلاحظها أحد.

لكن قدميّ، قدميّ الكبيرتين تقفان فوق الجبال وأدغالها، تظللا وادي القرية. تكبران وتكبران! وتبرزان في فضاء فسيح يتجاوز البلاد. ابتعدتا عني، وصارتا خارج مرمى بصري.

لكن لا، ليس الأمر هكذا – صحيح أنني صغير، صغير حتى الآن ـ، أتدحرج – وأتدحرج، أنا كرة ثلج وسط الجبال! من فضلكم، أيها السائرون! أخبروني من فضلكم! ما هو طولي؟ قيسوا لي ذراعي وقدمي!

5

قال صاحبي الذي خرج معي من الحفـل، وسـار بجـواري في هـدوء في إحدى طرقات منطقة بترشين: «كيـف سـارت الأمـور إذن؟ قـف لحظـة حتى أستوعب ما تقولـه، ـ أتعـرف، يجب أن أقضـي شـيئًا مـا. إنـه أمـر شاق— ليلة شاقة ومضيئة كهذه، باستثناء هذه الرياح الثـائرة الـتي يبـدو أنها غَيَّرت من شكل أشجار السنط هناك»

انتشر ظـل بيت عامـل الحديقـة تحت ضـوء القمـر على طريـق مقنطـر، مفروش بحبات الثلج. مددتُ يـدي، وأشـرت إلى أحـد المقاعـد بجـوار بـاب الـبيت. لم تكن عنـدي الشـجاعة الكافيـة فـانتظرت النصـح من صاحبي، ووضعت يدي اليسرى على صدري.

جلس متأففًـا دون أن ينظـر إلى ملابسـه الجميلـة، وأسـند مرفقيـه على فخذيه، وجبينه على أطراف أصابعه المعقودة.

«أريد الآن أن أقول لك. أنا أعيش حياة محترمة، لا شـيء أسـتحق اللـوم عليه، وكل ما أقوم به ضروريًا ومقبولًا. واجهت الكثير من العثرات التي تحدث عادة في المجتمع الذي أتواجد فيه. وهي أشياء أتلقاها وكل من حولي بكل الرضى. وحتى الأمور الطيبـة جـاءتني من تلقـاء نفسـها، ولم أستطع الحديث عنها في محيطي الضيق. حسنًا، حـتى الآن لم أصـادف حبًا حقيقيًا. أشبع رغباتي من وقت لآخـر، لكنـني عنـد الضـرورة أسـلك الطريق المعـروف. ويجب أن أخـبرك الآن: نعم، لقـد وقعت في الحب،

لقد هام بي الحب في كل وادٍ. أنا حبيب مليء بالوهج الذي تتمناه كل فتاة. لكن ألا ينبغي عليّ أن أفكر في أن ما عانيته من نقص في السابق أعطاني طابعًا مميزًا وسعيدًا، سعيدًا للغاية؟» قلت له دون أن أشاركه ما قال، وأنا غارق في أفكاري: «الهدوء، تمهل! إن حبيبتك بالتأكيد امرأة جميلة، كما يبدو من كلامك»

«نعم، إنها جميلة. عندما جلست بجوارها كنت أفكر دائمًا في شيء واحد: إنها جرأة كبيرة — وأنا بمثل هذه الجرأة توجهت نحو البحر، أشرب النبيذ. إنها عندما تضحك لا أرى أسنانها كما هي العادة، لم أر سوى فتحة فمها المستديرة سوداء ضيقة. هذا المنظر بالطبع يبدو خادعًا، وتبدو وكأنها امرأة عجوز، فهي مثلًا عندما تضحك تدفع رأسها إلى الخلف»

قلت وأنا أزفر: «أعترف لك بهذا، ربما مر بي شيء مشابه. إنه أمر لافت بالطبع. لكنها ليست القضية الوحيدة. إنه الجمال الأنثوي! عندما أرى الملابس وثنياتها الغنية وكشكشاتها وأهدابها وهي تضم جسدًا رشيقًا أفكر في أنها لن تبقى هكذا طويلًا. سوف تتجعد وسيصعب تسويتها، وسيلتصق بها التراب، ويتغلغل إلى ثناياها، ولن يخرج منها. لن يسمح أحد أن يجعل من نفسه أضحوكة، فيرتدي في صباح كل يوم ملابسه ثم في المساء يخلع مثل هذه الملابس الثمينة. أقابل فتيات جميلات بالفعل. يتمتعن بعضلات وكواحل ساحرة، وبشرة مشدودة وطوفان من الشعر الناعم. لكنهن يظهرن كل يوم يرتدين نفس الملابس، ويضعن في كل مرة نفس الوجه في نفس الراحتين، ويطالعنه في مرآتهن.

وعندما يعدن متأخرات في المساء من إحدى الحفلات تبدو وجوههن في المرآة مبتذلة، ومنتفخة، ومُحَمَّلة بالأتربة، وجوه صارت مبتذلة من كثرة الناظرين إليها، وبالكاد يتحملن النظر إليها»

«سألتك أثناء السير عدة مرات إن كنت تعتقد أن تلك الفتاة جميلة، لكنك تدير لي ظهرك في كل مرة دون أن تجيبني. أخبرني! هل لديك نوايا سيئة تجاهي؟ لماذا لا تحاول أن تبعث في نفسي البهجة؟» غمرت قدمي في الظل، وأجبته بكل اهتمام: «أنت لست في حاجة إلى ثنائي. فأنت رجل غارق في الحب» كنت وأنا أجيبه أضع فوق فمي كي لا أصاب بالبرد منديلًا مُزَيَّنًا بصور حبات العنب الزرقاء.

التفت ناحيتي، وأسند وجهه المنتفخ على ذراع المقعد القصير، وقال: «في الواقع أنا لا أتعجل الأمر. مازال في إمكاني أن أنهي هذه العلاقة العاطفية بعمل خسيس أو خيانة، أو أسافر إلى إحدى البلاد البعيدة. فأنا مازلت غير متأكد من أنني أريد أن أستسلم لهذه الرغبة. لا يوجد شيء مؤكد هنا، لا يمكن أن تعرف بكل ثقة إلامَ ستنتهي هذه العلاقة وإلى متى ستصمد. عندما أذهب إلى الحانة في المساء كي أثمل قليلًا أعرف أنني في هذا المساء سأكون ثملًا. لكن في حالةٍ كهذه! نريد بعد أسبوع أن نذهب في رحلة مع أسرة صديقة، ألن يحرك هذا قلبي لمدة أربعة عشر يومًا؟ إن القبلات في تلك الأمسية بعثت في نفسي حالة من الخمول حتى تصنع لنفسها مكانًا في أحلام جامحة. أقاوم هذا الأمر، فأقوم بنزهات ليلية. هنا سأتغلب على الأمر. أنا لا أخرج حبًا في الخروج، فوجهي يصير باردًا، ويتورد من خبطات الرياح. أضطر دائمًا

إلى التقاط شـرائط وردية من جيبي، صرت أخاف على نفسي كثيرًا، وغير قادر على أن أستجيب لمخاوفي تلك، وأتحمل رجلًا مثلك، يا سيدي! لو كنت في ظروف غير هذه الظروف لما تحدثت مع رجل مثلك في حياتي»

كنت أشعر بالبرودة الشديدة، وبدأت السماء تتخذ لونًا باهتًا. قلت له وأنا أضحك: «هنا لن يساعدك أي عمل خسيس، أو خيانة، ولا حتى رحلة إلى بلاد بعيدة. ليس أمامك إلا أن تنتحر»

كانت توجد شجرتان صغيرتان أمامنا على الجانب الآخر من الزقاق، وخلفهما تقع المدينة. ومازالت بعض المصابيح تضيء.

صاح صاحبي: «حسنًا» ثم خبط بقبضة يده الصغيرة القوية أحد المقاعد. وتركها ملقاه كما هي. «لكنك ستبقى حيًّا، لن تقتل نفسك. فلا أحد يحبك. ولن تحقق أي شيء. أنت عاجز عن أن تمتلك اللحظة المقبلة. ورغم ذلك تتحدث معي بهذه الطريقة أيها الإنسان الوقح! أنت غير قادر على أن تحب أحدًا، ولا شيء يُثيرك سوى الخوف. انظر إلى صدري!»

وهنا فتح بسرعة معطفه، وصدريته وقميصه. كان صدره بالفعل عريضًا وجميلًا.

بدأت أتحدث: «بالفعل، نوبات المقاومة هذه أحيانًا تعترينا. كنت في هذا الصيف في إحدى القرى التي تقع بجوار النهر. مازلت أذكر هذا جيدًا. كثيرًا ما كنت أجلس على المقعد عند النهر وأنا حزين. كان

هناك أيضًا فندق على جانب النهر. كنت كثيرًا ما أسمع صوت الكمان يأتي منه. وشباب يجلسون حول الترابيزات في الحديقة يتحدثون وهم يشربون البيرة عن الصيد، وعن المغامرات. وعلى الجانب الآخر من النهر كانت توجد جبال غارقة وسط السحاب»

وهنا نهضت وأنا أقبض قليلًا على فمي، وتقدمت ناحية مسطح الحشائش الخضراء خلف المقعد. تحطمت أسفل قدمي بعض الفروع التي غطاها الثلج، وقلت لصاحبي في أذنه: «أحب أن أخبرك بأن عندي خطيبة»

لم يتعجب صاحبي من أنني وقفت، وقال: «عندك خطيبة؟» ثم جلس بتأنٍ وهو يتكئ على ذراع المقعد. بعدها خلع قبعته، فرأيت شعره الذي كان يفوح عطرًا، شعر مُصفف بطريقةٍ لطيفة، وجانبان مستديران جميلان ومُصففان بدقة يفصلان رأسه المستدير عن رقبته السمينة، وكانت هذه التسريحة منتشرة في ذلك الصيف.

كنت سعيدًا بأنني أجبته بهذه البراعة. قلت لنفسي: «عجيب! يتردد على الحفلات برأس متحررة وذراعين منبسطين. قادر وسط القاعة على أن يدير حوارًا جذابًا مع إحدى السيدات، ورغم ذلك لا يزعجه إطلاقًا أن السماء تمطر أمام البيت، أو أن شخصًا خجولًا يظهر هناك أحيانًا، أو أن أمرًا مؤلمًا يحدث هناك. هذا ممكن، فهو يجيد الانحناء أمام السيدات. وهو الآن يجلس في هذه الحالة»

مرر صاحبي شالاً قطنيًّا رقيقًا على جبينه، وقال: «من فضلك! ضع يدك على جبيـني قليلًا، أرجـوك!» ولمـا لم أفعـل مـا طلبـه على الفـور، عقـد ذراعيه.

وكأن همومنا نشـرت سـحابةً داكنـةً على كـل شـيء، جلسـنا فـوق التـل وكأننا في حجرة صغيرة، رغم أننـا شـاهدنا قبـل ذلـك شـروق الشـمس واستنشقنا نسيم الصباح.

جلسنا متجاورين تمامًا رغم أن كلاً منا لا يحب الآخر، لكننا لم نتحمل أن يبتعد كل منا عن الآخر. فالحوائط كانت ضيقة، وقوية. كان كل منـا يتصرف بطريقة تثير الضحك، لم نُلق بـالًا للمهابـة. فلم نكن مضـطرين إلى أن نخجل من الأغصان من فوقنـا، ولا من الأشـجار الـتي اصـطفت أمامنا.

وفجأةً سحب صاحبي سكينًا من جيبه، وفتحه وهو يتأمله، ثم غرسه في ذراعه الأيمن فوق المرفـق، ولم يسـحبه. تـدفق الـدم على الفـور. ذبلت وجوهه المستديرة.

فسحبت السكين، وفصلت كُم معطفـه السـميك وكُمّ سـترته، وفصـلت الكُمّ عن القميص. وهـرولت بعـدها في الطريـق صـعودًا وهبوطًـا حـتى أبحث عن أحدهم كي يساعدني. كل الأغصان واضحةً تمامًـا وسـاكنة. رحت أمتص هـذا الجـرح العميـق قليلًا. وهنـا تـذكرت بيت مسـؤول الحديقة. أسرعت فوق السُّلَّم، ناحيـة مسـطح الحشـائش المرتفـع على يسـار المـنزل الصـغير، وعلى عجلـة حـاولت الطـرق على النوافـذ وعلى

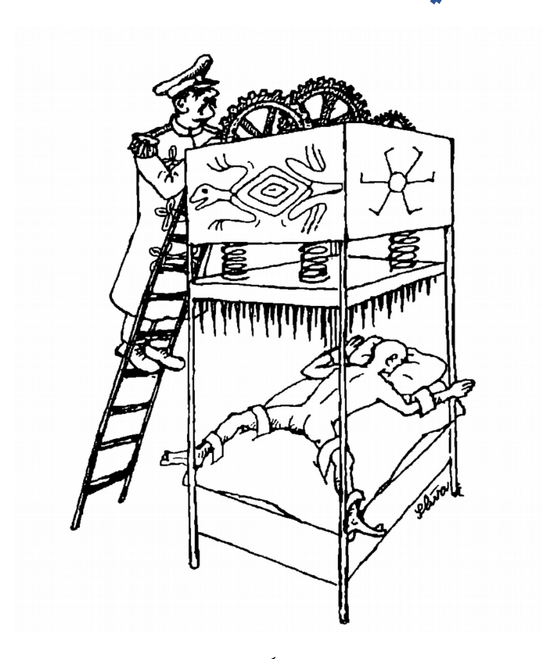
الباب، ضغطت على الجرس بعنف وأنا أخبط بقدمي على الأرض رغم تيقني من أن البيت لم يكن به أحد. ثم ألقيت نظرة على الجرح الذي تسيل منه الدماء بغزارة. بللت ملابسه في الثلج، ثم لففت ذراعه بشكل مُرتبك.

قلت له: «عزيزي، يا عزيزي! لقد آذيت نفسك من أجلي. إنك رجل ذو مكانة، مُحَاط بأجواء الألفة. يمكنك أن تتجول في وضح النهار، بين الترابيزات، أو ترى على الطرقات فوق الهضاب كثيرًا من الناس، يرتدون ثيابًا أنيقة. تَذَكّر! في الربيع سوف نذهب إلى حديقة القصر. كلا، لن نذهب نحن، بل ستذهب أنت مع أنيتشكا سعيدًا ومُنتشيًا. نعم، صدقني! وسترافقكما الشمس في أبهى صورها. يا صاحبي! ها هي الموسيقى. أسمعُ من بعيد وقع أقدام الخيول. لا تحزن! هناك صياح، وأرغون يعزف في طريق الأشجار»

قلتُ: «يا إلهي!»، ثم نهضت. اتكأ عليّ، ومشينا معًا: «لن نجد هنا من يساعدنا، للأسف. أعذرني! هل فات الوقت؟ ربما كان عليّ أن أفعل شيئًا في الصباح الباكر. يا إلهي!»

أضاء مصباح عالٍ بالقُرب من أحد الحوائط، وأطلق فوق الطريق وعلى الثلوج البيضاء ظلال الأحجار. وعلى جانب التل نامت ظلال أغصان كثيرة مُتكسرة ومُعوجة.

في مستعمرة العقاب[2]



«إنه جهاز غريب»، قال الضابط للرحَّالة وهو يلقي نظرة إعجاب على الجهاز الذي يعرفه جيدًا. قَبِل الرحَّالة من باب اللياقة فقط دعوة القائد له للمشاركة في إعدام أحد الجنود الذي أُدين بتهمة مخالفة الأوامر وإهانة قائده. لم يكن هناك اهتمام كبير بعملية الإعدام هذه حتى في معسكر العقاب، خاصة في ذلك الوادي الرملي الصغير والعميق، المحاط من كل جوانبه بتلال قاحلة. لم يكن موجودًا سوى الضابط

2أقام كافكا مع والديه حتى عام 1915. كتب كافكا قصة «في مستعمرة العقاب» في خلال ثلاثة أيام، في الفترة من 15 - 18 أكتوبر عام 1914، وبعدها بقليل اندلعت الحرب العالمية الأولى. اضطر بعدها إلى مغادرة منزل الأسرة وهو في الواحدة والثلاثين من عمره. تنقل بين العديد من الشقق المستأجرة نتيجة لحساسيته المفرطة تجاه الضجيج.

والرحَّالة والشخص المحكوم عليه، وهو إنسان ينظر بطريقة بليدة، له فم كبير وشعر ووجه بائسان. كان أحد الجنود يمسك الجاني بسلسلة ثقيلة تتصل بها سلاسل أصغر حجمًا، كان المحكوم عليه مقيدًا بها عند كاحليه ومعصميه وحول رقبته. وكانت تلك السلاسل متصلة ببعضها بحلقات حديدية. بدا الجاني مستسلمًا، كان في إمكانهم أن يتركوه يجري حرًا طليقًا فوق التلال، ويكفي قبل الإعدام أن ينادوا عليه كي يأتي.

لم يكن الرحَّالة على دراية كاملة بالجهاز، يتحرك هنا وهناك خلف الجاني، بينما الضابط يضع اللمسات الأخيرة على التجهيزات. ينزل أسفل الجهاز المطمور في عمق الأرض، أو يصعد سلمًا كي يرى أجزاءه العليا. كان يمكنه أن يترك هذا العمل لأحد مُشَغِّلي الآلات، لكن الضابط كان يعمل بكل حماس، ربما لأنه كان من أشد المتحمسين لهذه الآلة، أو أن عملًا كهذا لم يكن ممكنًا أن يُوَكِّله لشخص آخر. وأخيرًا صَاحَ وهو ينزل من فوق السلم: «أصبح كُلُّ شيء جاهزًا الآن!» بدا عليه الإرهاق الشديد، فجلس يستريح وهو يفتح فمه عن آخره. كان يضع خلف ياقة بِزَّتِه منديلين ناعمين من النوع الذي تستخدمه السيدات. وبدلًا من أن يسأل الضابط عن الجهاز، قال الرحَّالة: «هذه البِزَّة تبدو ثقيلة جدًا» أجابه الضابط وهو يغسل يديه الملوثتين بالشحم والزيت في وعاء به ماء: «بالطبع، لكنها تَعْنِي الوطن، لا نريد أن نفقد الوطن»، وأضاف: «لكن انظر الآن إلى هذا الجهاز» ثم جفف يده في خرقة، وأشار إلى الجهاز، وقال: «حتى الآن كان يعمل يدويًّا، لكنه منذ

اليوم سوف يعمل من تلقاء نفسه» أومأ الرحَّالة، وراح يتابع الضابط الذي أضاف من باب الاحتياط: «بالطبع قد تحدث أعطال. لكني أتمنى ألا تحدث اليوم، ورغم ذلك يجب أن نتوقع حدوثها. فالجهاز يجب أن يكون جاهزًا للعمل مدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة. لكن لو حدثت أعطال، فإنها غالبًا ما تكون أعطالًا بسيطة، ويتم إصلاحها فورًا»

وأخيرًا سأله: «ألا تريد أن تجلس؟» ثم جذب مقعدًا من بين كومة مقاعد من الخيزران، وقَدَّمَه للرحالة الذي لم يستطع رفض دعوته. جلس على حافة إحدى الحفر، وألقى عليها نظرة عابرة. لم تكن حفرة عميقة. انتصبت على أحد جوانب الحفرة كومة من الطين المحفور، ووقف على الجانب الآخر الجهاز. قال الضابط:

«لا أعرف إن كان القائد قد قَدَّمَ لك شرحًا حول الجهاز» صنع الرحَّالة بيده حركةً بلا معنى، وكان هذا ما يُريده الضابط. جاءته الفرصة لكي يُقَدِّم عَرْضًا حول الجهاز. قال: «هذا الجهاز...»، ثم أمسك عصًا مكسورةً واتكأ عليها، «هو من اختراع قائدنا السابق. وأنا عملت معه منذ البداية في التجارب، وشاركت في العديد من الأعمال حتى انتهى. لكن الفضل في اختراع الجهاز يعود إليه وحده. هل سمعت من قبل شيئًا عن قائدنا السابق؟ كلا. حسنًا، لن أبالغ لو قلت لك إن الفضل في تجهيز معسكر العقاب بالكامل يعود إليه. ونحن، أصدقاءه، كنا نعرف في اللحظة التي توفي فيها أن تنظيم المعسكر يعتبر وحدة متكاملة تجعل من خليفته 29%- 167 دقيقة متبقية من «فرانز كافكا الجزء 1» غير قادر على تغيير أي شيء مما هو قائم حتى ولو كان في رأسه آلاف

الخطط المماثلة. وحدث ما توقعناه، واضطر القائد الجديد أن يعترف بذلك. خسارة أنك لم تعرف قائدنا السابق! لكني أقول..» توقف الضابط لحظة، ثم قال: «وجهازه يقف هنا أمامنا، يتكون، كما ترى من ثلاثة أجزاء. ومع الوقت أُطلق على كل جزء منها أسماء شعبية. الجزء الأول اسمه السرير، والجزء الأعلى يُسَمَّى الرسَّام، وهذا الجزء الأوسط المعلق يُسَمَّى البوابة» سأله الرحَّالة: «البوابة؟» لم يكن ينصت إليه جيدًا. مالت الشمس في الوادي دون أن تخلف ظلًا، وكان من الصعب التركيز. ومع ذلك واصل الضابط حديثه. كان يشرح بكل حماس وهو يرتدي معطفًا عسكريًّا ضيقًا وأنيقًا، فوق كتفيه ثقل من نسيج مُقصب يتدلى من خيوطه، وكان يعبث وهو يتكلم بمفك البراغي في أحد المسامير. كان الجندي يُشارك الرحَّالة شعوره.

يلف حول كِلا معصميه سلسلة الجندي المحكوم عليه، ويتكئ بإحدى يديه على البندقية، وينظر نحو الأرض، فلم يكن يلاحظ شيئًا مما حوله. لم ير الرحَّالة في ذلك شيئًا غريبًا، فقد كان الضابط يتكلم باللغة الفرنسية التي لا يفهمها الجندي ولا المحكوم عليه. كان المحكوم عليه رغم ذلك يجاهد في متابعة كلام الضابط، وينظر بعينيه المجهدتين بكل مثابرة إلى كل مكان يشير إليه الضابط. وعندما قاطع الرحَّالة الضابط بسؤال، نظر هو الآخر إلى الرحَّالة شأنه شأن الضابط.

قال الضابط: «نعم، بوابة. إنه اسم مناسب تمامًا. إن الإبر مُرَتَّبة تمامًا وكأنها في بوابة، وكل شيء يتحرك مثل البوابة رغم أنه يتحرك في مكان واحد وبطريقة بارعة للغاية. بعد قليل سيتضح لك الأمر. نضع هنا

المحكوم عليه فوق السرير في البداية أحب أن أصف لك الجهاز، ثم أشرح لك كيف يعمل. وعندها ستحكم على الجهاز بطريقة أفضل. إحدى عجلات التروس في جزء الرسَّام متآكلة بصورة واضحة: وتصدر صريرًا عاليًا أثناء دورانها، فلا تسمع أحدًا من حولك. للأسف لا يمكن الحصول على قطع غيار هنا بسهولة. وهنا السرير كما قلت لك. وكله مُغَطى بطبقةٍ من القطن، وستعرف لاحقًا السبب. نضع على هذه الطبقة القطنية المحكوم عليه ببطنه، عاريًّا بالطبع. وهنا أربطة اليد، وهنا أربطة القدمين، وهنا أربطة العنق حتى يمكن ربطه بها. وهنا في أطراف السرير، كما قلت لك، المكان الذي يستلقي فيه المحكوم عليه على وجهه في البداية، يُوجد عصا من اللباد يمكن تحريكها بسهولة لتدخل إلى فم الرجل مباشرة. ووظيفتها هنا هو منع المحكوم عليه من الصراخ، أو من عض لسانه. وطبعًا يجب على الرجل أن يمسك اللباد بفمه كي لا ينكسر عنقه من حركة السيور» مال الرحَّالة وسأله: «وهذه قطعة قطنية؟» قال الضابط وهو يبتسم: «نعم، بالتأكيد. تحسسها بيدك!» مد الرحَّالة يده ومررها على السرير. «إنها مصنوعة بطريقة خاصة، لذلك لا تبدو كأنَّها من القطن. سأخبرك فيما بعد عن وظيفتها» بدأ الرحَّالة يهتم بالجهاز، وراح ينظر إلى أعلى وهو يظلل عينيه بيده ضد الشمس. كان جهازًا ضخمًا. كان السرير والرسام بنفس الحجم الكبير، وبدوا مثل صندوقين داكنين. كان الرسام مُعَلَّق فوق السرير بحوالي مترين تقريبًا، وكانت جوانبهم متصلة بأربع عصي نحاسية تكاد

تلمع في ضوء الشمس. توجد بين الصندوقين البوابة معلقة على حبل من الفولاذ.

لم ينتبه الضابط كثيرًا إلى عدم الاكتراث الذي أبداه الرحَّالة في البداية، وبدأ يتفهم اهتمامه المتزايد الذي ظهر الآن. لذلك توقف عن الشرح كي يعطي الرحَّالة وقتًا للنظر إلى كل شيء دون إزعاج. راح المحكوم عليه يُقَلِّد الرحَّالة، ويطرف بعينيه إلى أعلى دون أن يظللهما لأنه لم يستطع أن يفعل ذلك.

قال الرحَّالة وهو يتكئ على المقعد، ويضع ساقًا فوق الأخرى: «إذن المحكوم عليه يستلقي على السرير» قال الضابط: «نعم»، ثم حَرَّكَ البيريه إلى الخلف، ومرر يده على وجهه الملتهب من الشمس: «الآن اسمعني! كل من السرير والرسام يعملان ببطارية كهربائية. السرير يحتاجها ليتحرك هو نفسه، والرسام لتحريك البوابة. وبعد توثيق المحكوم عليه يتحرك السرير. يهتز محدثًا رعشة خفيفة وسريعة من جانب إلى آخر، وإلى أعلى وإلى أسفل. ربما رأيت أجهزة مماثلة في المستشفيات. لكن حركات سريرنا محسوبة بدقة. ويجب أن تكون مُنسجمة تمامًا مع حركة البوابة. وتقوم هذه البوابة بدورها بتنفيذ الحكم»

سأل الرحَّالة: «لكن ما هو نص هذا الحكم؟» اندهش الضابط وقَضَمَ شفتيه، ثم قال. «اعذرني إن كان كلامي غير متسق، أرجوك أن تسامحني. في السابق كان يقوم القائد بالشرح، لكن القائد الجديد

اعتذر عن أداء هذه المهمة الجليلة، لكن عند تشريفكم لنا بزيارة كهذه» دفع الرحَّالة يديه ليعترض على كلمة التشريف، لكن الضابط أصـر على كلماتـه، وأضـاف «لكنـه أمـر جديـد ألا نقـوم أثنـاء زيـارة هامـة كهـذه بـالتعريف بشـكل القـرار الـذي اتخـذناه. وهـو أمـر...» كـادت كلمـات السباب تنطلق على لسانه، لكنه انتبه وقال: «لم يخبرني أحد، وهذا ليس ذنبي. لكنني بالتأكيد مُخَوَّل بأن أشرح أنواع الأحكام التي نصدرها هنـا، فأنا هنا...» ثم ضغط على زر موجود على صـدره— «أحمـل رسـومات بخط يد القائد السابق»

سأل الرحَّالة: «رسومات بخط يد القائد السابق؟ هل كان خبيرًا في كـل شيء؟ هل كان جنديًّا وقاضيًّا، ومُصممًا، وكيميائيًّا، ورسَّامًا؟»

«بالطبع»، قال الضابط وهو ينظـر أمامـه متـأملًا، بعـدها تطلـع إلى يديـه يتفحصـهما، لم يرهمـا نظيفـتين بالقـدر الكـافي حـتى يمسـك بهمـا التصـميمات. لـذلك توجـه نحـو الـدلو، وغسـلهما فيـه مـرةً أخـرى. ثم سحب لوحات صغيرة، وقـال: «أحكامنـا هنـا ليسـت صـارمة. إن الأمـر الذي خالفه المحكوم عليه تقوم البوابة بكتابته على جسمه.

على سبيل المثال في حالة هذا المذنب» — أشار الضـابط إلى الرجـل — «ستكتب على جسمه: احترم قائدك!»

ألقى الرحَّالـة نظـرةً عـابرةً على الرجـل عنـدما كـان الضـابط يُشير إليـه. كانت رأسه مُسدلة، ويعـير الحـديث أذنًـا صـاغية كي يلتقـط أي كلمـة. لكن حركة شفتيه المنتفختين والمعقودتين كـانت تشـي بأنـه لم يتمكن

من فهم أي شيء. أراد الرحَّالة أن يسأل عن أشياء كثيرة، لكن بمجرد أن نظر إلى الرجل، اكتفى فقط بسؤال واحد: «هل هو يعرف قراركم؟» قال الضابط: «كلا» وهَمَّ الضابط بمواصلة شرح الجهاز، لكن الرحَّالة قاطعه، وقال: «لا يعرف الحكم الذي صدر ضده؟» كَرَّرَ الضابط الإجابة: «كلا»، ارتبك الضابط للحظة، وكأنه يحتاج إلى أن يقوم الرحَّالة بتفسير سؤاله، ثم قال له: «ربما يكون من غير المفيد إبلاغه بالحكم الصادر ضده.

فهو في النهاية سيراه مكتوبًا على جسده» أراد الرحَّالة أن يلتزم الصمت، وشعر بأن المحكوم عليه يُحَدِّق فيه النظر، وكأنه يسأل إن كان يمكنه أن يعرف سير المحاكمة. لذلك انحنى الرحَّالة من جديد وكان قد اتكأ على المقعد، وسأل الضابط مرةً أخرى: «لكن هل يعرف أنه قد صدر في حقه حكم؟» قال الضابط: «هذا أيضًا لا يعرفه»، ثم ابتسم للرحَّالة وكأنه يتوقع إجابة غريبة منه. قال الرحَّالة وهو يخبط على جبينه: «لا، إذن هذا الرجل لا يعرف حتى الآن إن كان دفاعه قد قُبِلَ أم لا؟» قال الضابط: «لم تكن لديه فرصة للدفاع عن نفسه»، ثم نظر من حوله، وكأنه يتحدث مع نفسه، ولا يريد أن يشعر الرحَّالة بالخجل من شرح أشياء يعتبرها بديهية. قال الرحَّالة: «كان يجب أن يُمنح الفرصة للدفاع عن نفسه»، ثم نهض من على المقعد.

بدأ الضابط يشعر بالخطر من أن وصفه للجهاز سيطول، فتقدم من الرحَّالة، وجذبه من ذراعه، وأشار إلى المحكوم عليه الذي انتبه عندما وجد أن الأنظار مُصَوَّبَة نحوه — كذلك جذب الجندي السلاسل —

وقال: «هكذا تسير الأمور. أنا هنا في معسكر العقاب، أسير وفق أوامر القاضي. رغم أنه صغير السن. لقد ساعدت القائد السابق في كل الأمور التي تتعلق بالأحكام، وكذلك أعرف الجهاز أفضل من أي شخص غيري. القاعدة التي اتخذ قراراتي بناءً عليها تقول: الذنب دائمًا واضح.

محاكم أخرى لا يمكنها اتباع هذه القاعدة، لأنها متعددة الأعضاء، وفوقها محاكم أخرى. الأمر هنا مختلف، أو على الأقل كان مختلفًا أيام القائد السابق. ألمح القائد الجديد بالطبع إلى أنه يرغب في التدخل في قراراتي، لكني استطعت حتى الآن أن أمنعه من ذلك. وسأتمكن من ذلك أيضًا في المستقبل. — أنت أردت أن نشرح لك هذه القضية، وهي بسيطة مثل باقي القضايا. تقدم أحد النقباء بشكوى صباح اليوم، يقول فيها إن هذا الرجل الذي تم تكليفه ليقوم على خدمة ذلك النقيب، ويقضي ليلته أمام بابه، نام أثناء الخدمة. إن مهمته هي الاستيقاظ عند دقة كل ساعة، ويلقي التحية أمام باب النقيب. بالطبع هي مهمة شاقة، لكنها ضرورية، لأن جندي الخدمة يجب أن يظل يقظًا حتى يؤدي مهامه. أراد النقيب ليلة أمس أن يعرف إن كان الجندي يؤدي مهامه، ففتح الباب عندما دقت الساعة، فوجده متقوقعًا ونائمًا. فانصرف يحضر سوطه، وضربه به على وجهه. وبدلًا من أن ينهض، ويطلب المغفرة، أمسك الجندي بقدمي سيده، وراح يهزها ويصيح: «ارمِ هذا السوط، وإلا قتلتك!» هذه هي القضية. جاءني النقيب منذ ساعة، فأخذت بياناته، ثم كتبت فورًا منطوق الحكم. وأمرت بتقييد هذا

الرجل بالسلاسل في الحال. كل هذا تم بمنتهى البساطة. ولو أنني استدعيت هذا الرجل لسماع أقواله فلن تكون هناك سوى الفوضى. قد يكذب، ولو لم ينجح في كذبته الأولى سيأتي بكذبة أخرى، وهكذا. الآن هو في قبضتي ولن أتركه. هل وضحت الأمور الآن؟ لكن الوقت يمر، وكان يجب أن يتم البدء في تنفيذ حكم الإعدام منذ وقت مضى، وأنا لم أنته بعد من شرح الجهاز»، ثم بدأ: «وكما ترى، شكل البوابة يشبه الإنسان، هنا بوابة لهيكل الجسم، وبوابة للأقدام. وهذه إبرة صغيرة مخصصة للرأس. هل فهمت الأمر؟» أومأ بأدب للرحَّالة وهو على استعداد أن يشرح كل شيء بالتفصيل.

تطلع الرحَّالة إلى البوابة وهو عاقد جبينه. لقد أزعجه ما سمعه عن إجراءات التقاضي. لكنه قال لنفسه: إنه معسكر للعقاب، وإن الإجراءات هنا مختلفة ولا مفر منها، وإنه من الضروري تطبيق الإجراءات العسكرية بحذافيرها. رغم ذلك كان يضع أملًا في القائد الجديد الذي ينوي على ما يبدو تطبيق نظام جديد، لكن تدريجيًّا. هذا الضابط ضيق الأفق غير قادر على استيعاب هذا الأمر. سأله الرحَّالة وهو غارق في تلك الأفكار: «هل سيحضر القائد تنفيذ الإعدام؟» قال الضابط وقد بدا عليه الانزعاج من سؤاله، وتجهَّم وجهه الهادئ: «ليس هذا أمرًا مؤكدًا. لذلك يجب أن نسرع في التنفيذ. وسأضطر إلى اختصار الشرح رغمًا عني. لكن غدًا وبعد تنظيف الجهاز هذا هو العيب الوحيد، وهو أنه يتلوث — يمكنني أن أكمل الشرح ببعض التفاصيل. والآن أشرح لك فقط الأمور الضرورية. وما إن يستلقي الرجل على السرير، ويبدأ

السرير في الاهتزاز، نُطلق البوابة على جسمه؛ فتتوقف من تلقاء نفسها، بحيث تكاد أسنانها تلامس جسمه. وما إن تتخذ مكانها الصحيح حتى يشتد هذا الحبل الفولاذي ويصير كالعصا، ويُطلق البوابة. الشخص العادي لا يمكنه أن يعرف الفرق بين تنفيذ أنواع العقوبات، ويعتقد أن البوابات تعمل بطريقة واحدة في كل حالة، بأن تدك الأسنان المهتزة جسم الجاني الذي يهتز هو الآخر فوق السرير. صنعنا البوابات من الزجاج كي يمكن لكل من أراد معرفة كيفية تنفيذ الأحكام. حدثت مشاكل تقنية تتعلق بتثبيت الإبر، ولكن بعد عدة محاولات تمكنّا من حلها، ولم نوفر في ذلك جهداً. والآن بإمكان كل شخص أن ينظر عبر الزجاج ليرى العبارات وهي تكتب على الجسم. تعال من فضلك! اقترب وانظر إلى الإبر!»

نهض الرحَّالة على مهل، وتقدم من البوابة ومال عليها. قال الضابط: «أنت ترى نوعين من الإبر المصطفة بأساليب مختلفة. توجد دائمًا بجوار كل إبرة طويلة واحدة قصيرة. الطويلة تكتب والقصيرة ترش الماء الذي ينظف الدم. فلذلك تبقى الكتابة واضحة. يتدفق الماء إلى تلك القنوات الصغيرة حتى يصل إلى هذه القناة الرئيسية التي ينزل الماء منها إلى الحفرة عن طريق أنبوب صرف» أشار الضابط بإصبعه ليحدد على وجه الدقة المكان الذي يتدفق منه الماء المختلط بالدم. رفع الرحَّالة رأسه وهو يتحسس المكان من خلفه، وأراد أن يعود إلى المقعد عندما كاد الضابط أن يُلامس الماء عند فتحة أنبوب الصرف بكفه إمعانًا في التوضيح. وهنا انتابه الفزع هو والمحكوم عليه عندما

صاح الضابط يدعوه لرؤية جزء البوابة عن قُرب. جذب المحكوم عليه الجندي الناعس من السلاسل، وانكب يتطلع إلى الزجاج. كان واضحًا أنه يبحث بنظرة تائهة عمَّا يتابعه الرجلان، لكنه فشل في هذا نظرًا لأنه لا يفهم الشرح. راح يميل هنا وهناك. ثم مر بعينيه من جديد على الزجاج. أراد الرحَّالة أن يصرفه عما يفعل، لأن ما يفعله هو قطعًا أمر مخالف للتعليمات. لكن الضابط أمسك الرحَّالة بإحدى يديه، وأخذ بيده الأخرى حفنةً من الطين من فوق الكومة وألقاها على الجندي. رفع الجندي بصره على الفور، ورأى ما فعله المحكوم عليه، فترك البندقية، ودك كعب حذائه في الأرض، وراح يجر السلاسل إلى أن سقط المحكوم عليه. ثم نظر إليه وهو يتقدم متعثرًا في السلاسل التي تجلجل. صاح الضابط: «ساعده على أن يقف على قدميه!»، فقد لاحظ أن المحكوم عليه يجذب إليه أنظار الرحَّالة. مال الرحَّالة بجسده على البوابة، ولم يعد يهتم بها، وراح يتابع ما يحدث للمحكوم عليه. صاح الضابط من جديد:

«تصرف معه بعناية!» دار حول الجهاز، وأمسك بالمحكوم عليه من ذراعه، وساعده هو والجندي على أن يقف على قدمه التي انزلقت منه عدة مرات.

قال الرحَّالة عندما عاد إليه الضابط مرةً أخرى: «الآن فهمت كل شيء» قال الضابط: «بقي أهم شيء في الموضوع»، وأمسك بالرحَّالة من ذراعه، وأشار بيده إلى أعلى: «توجد في جزء الرسام تروس تنظم حركة

البوابة. ونضبط هذه التروس طبقًا للتصميم المكتوب عليه قرار الإدانـة. أنا مازلت أستخدم تصميمات القائد السابق.

وهي هنـا»، سـحب من بضـع أوراق من ألـواح جلديـة «للأسـف لا يمكنني أن أعطيها لـك، فهي أغلى مـا أملـك. اجلس! سأعرضـها عليـك من بعيد بحيث يمكنك رؤيتها» عرض عليه الورقة الأولى. كان الرحَّالـة يود أن يقول شيئًا من قبيل الثناء، لكنه لم يـر سـوى متاهـة من الخطـوط التي تتعارض بشكل عشـوائي، وتغطي الصـفحة بكثافـة بحيث يصـعب العثور على بقعة بيضاء وسطها. قـال الضـابط: «اقـرأ!»، أجابـه الرحَّالـة: «لا أسـتطيع» قـال الضـابط: «لكنـه واضـح» قـال الرحَّالـة: «إنـه مصـنوع بمهارة شديدة، لكني غير قادر على فك رموزه» قال الضـابط: «نعم»، ثم ابتسـم ووضـع اللوحـات في جيبـه، وأضـاف: «إنـه ليس درسًـا في فن الكتابـة لتلاميـذ المـدارس. إنـه يحتـاج إلى وقت لقراءتـه، وفي النهايـة ستتمكن بالتأكيد من فهمـه. لا يجب أن يكـون النص بسيطًا وواضـحًا، فهو لا يؤدي إلى الموت الفوري، لكنه يسـتمر لمـدة اثنـتي عشـرة سـاعة تقريبًا. ويحدث تحـول في السـاعة السادسـة طبقًـا لمـا هـو مخطـط لـه. ويجب أن تكون حول النص مجموعـة كبيرة من الزخـارف، فالكلمـات الحقيقيـة تطـوق الجسـم بحـزام ضـيق، أمَّا بـاقي الجسـم فهـو مجـرد زخـارف. هـل أصـبحت قـادرًا الآن على فهم قيمـة عمـل البوابـة وبـاقي أجزاء الجهاز؟ ـ اسمع!»، صـعد فـوق السّـلم، وأدار إحـدى العجلات، وصاح من أعلى: «انتبه! تنحى جانبًا!» وبدأ كـل شـيء يعمـل. ربمـا بـدا المشهد جميلًا لولا صوت صرير العجلة. ظهرت على الضابط علامات

الدهشـة من صـوت تلـك العجلـة المـزعج، فرفـع قبضـة يـده نحوهـا ليتوعدها، ثم مد ذراعه نحو الرحَّالة معتذرًا، ونزل على الفور حتى يتابع حركة الجهاز من فـوق الأرض. شـيء مـا لـم يكن يعمـل بصـورة جيـدة، وهو ما لم يلاحظه أحد غيره، فارتقى السلم من جديد، ومـد كلتـا يديـه إلى داخل الرسام، ثم انزلق إلى أسفل فوق أحد الأعمـدة، ولـم يسـتخدم السّلم حتى ينزل بسرعة أكبر. وصرخ بصوتٍ عالٍ في أذن الرحَّالة حـتى يفهم ما يقوله جيدًا وسط ذلك الضجيج: «هل فهمت خطـوات تشـغيل الجهاز؟ تبدأ البوابة في الكتابة، وبمجـرد أن تنتهي أول جـرة للنص على ظهـر الرجـل، تتحـرك طبقـة القطن، وتقلب الجسـم على جانبـه لتجـد البوابة مكانًـا تكتب عليـه. ثم تضـع المكـان الـدامي الـذي حُفِرَتْ عليـه الكلمات فوق القطن الذي يوقف الـنزيف على الفـور بفضـل المعالجـة الجيدة، ويجهِّز ظهر الرجل لحفر أعمق للكلمـات. تقـوم تلـك الأسـنان الموجـودة على جـانب البوابـة بجـذب قطـع القطن من الجـرح بعـد أن يقلب الجسـم مـرةً أخـرى، وتُلقي بهـا في الحفـرة، ثم تواصـل البوابـة عملها؛ فتواصل الكتابـة على عمـق أكـبر مـدة اثنـتي عشـرة سـاعة. أثنـاء الساعات الست الأولى يكون المحكوم عليه قد فقد وعيه تمامًا، إلا أنـه يظل يعاني من الألم. نُزيل اللبـاد بعـد مـرور سـاعتين لأن الرجـل يفقـد عندها قدرته على الصياح. نضع في هذا الوعاء السـاخن الموجـود عنـد الرأس عصـيدة الأرز السـاخنة الـتي يمكن أن يأكـل منهـا الرجـل إذا أراد بالقدر الذي يطوله لسانه. ولا يفوت أحد فرصـة كهـذه. لا أعـرف أحـدًا لم يفعلها من قبل، وأنا لدي خـبرات كـبيرة في هـذا الأمـر. وبعـد مـرور

ست ساعات تقريبًا يفقد شهيته. عندها أجثو عادةً على ركبتيّ لأرى هذه اللحظة النادرة. نادرًا ما يستطيع الرجل ابتلاع آخر ما في فمه، فيلوكها في فمه ويلفظها في الحفرة. وأضطر إلى أن أنتحي بعيدًا كي لا يبصقها في وجهي. وحوالي الساعة السادسة يصمت الرجل تمامًا! ويبدأ الشحوب ينتشر في جسمه.

يبدأ في الظهور حول عينيه. ثم ينتشر منه إلى باقي جسمه. إنه استعراض يُغري أي إنسان أن يستلقي تحت البوابة. بعد ذلك لا يحدث أي شيء سوى أن الرجل يبدأ في محاولة فهم مغزى الكلمات، ويعقد شفتيه وكأنه يسمعها. رأيت بنفسك أنه ليس سهلًا فهم مغزى الكلمات بمجرد النظر إليها. لكن المحكوم عليه يفهم مغزاها من خلال جراحه. هذا يتطلب بالطبع مجهودًا كبيرًا، وست ساعات من المحاولة. بعد ذلك تقوم البوابة بوخزه بالكامل، وتلقي به في الحفرة، فيسقط فيها وسط الماء المخضب بالدم وقطع القطن. وبهذا تنتهي المحاكمة، فأقوم أنا والجندي بدفنه»

كان الرحَّالة يميل بأذنه على الضابط ويتابع طريقة عمل الجهاز وهو يضع يديه في جيوب معطفه. كان المحكوم عليه ينظر هو الآخر، لكنه لم يفهم شيئًا. انحنى قليلًا، وراح يتابع الإبر المرتعشة. قام الجندي بناءً على أوامر الضابط بشق قميص وسروال الجاني من ظهره بالسكين، فسقطا من على جسمه. أراد الجاني أن يمد يده إلى الملابس ليغطي بها جسمه، لكن الجندي رفعه إلى أعلى، ونفض عنه ما تبقى من ملابسه. أوقف الضابط الماكينة، ثم وضع المحكوم عليه في صمت تحت

البوابة. خلعوا عنه السلاسل، ووضعوا الأحزمة مكانها. بدا من الوهلة الأولى أن الجاني شعر بالارتياح. ثم حركوا البوابة قليلًا لأن الرجل كان نحيفًا. انتفض الرجل بمجرد أن لمست الأسنان جسمه. كان الجندي مُمسكًا بيد الجاني اليمنى، بينما رفع الرجل يده اليسرى وهو لا يدري أين يضعها، فتحركت في الاتجاه الذي يقف فيه الرحَّالة. لم يتوقف الضابط عن متابعة الرحَّالة بطرف عينه وكأنه أراد أن يقرأ على وجهه تأثير عملية الإعدام التي حاول أن يشرحها له الآن.

انقطع الحزام المخصص للساعد، ويبدو أن الجندي قد بالغ وهو يوثقه. تحرك الضابط للمساعدة، وأشار الجندي إلى الجزء المقطوع. مر الضابط من خلفه إلى الجانب الآخر، وقال وهو ينظر إلى الرحَّالة: «إن الجهاز معقد للغاية، وطبيعي أن ينقطع أو ينكسر به شيء ما من وقت لآخر. لكن هذا لا يجب أن يؤثر في الحكم النهائي عليه. فمن السهولة تبديل السير على الفور. أستخدم قطعة من السلسلة، غير أن نعومة الاهتزازات في اليد اليمنى تتأثر بها» أضاف وهو يوثق يد الرجل بالسلسلة: «إن قِطع صيانة الجهاز غير متوافرة بشكل كبير في الوقت الحالي. أيام القائد السابق كان عندنا ميزانية مفتوحة خصيصًا لهذا الغرض. وكان يوجد مخزن ممتلئ بقطع الغيار المختلفة. أعترف أنني كنت أُسرف في استخدامها، أقصد من قبل وليس الآن. فالقائد الجديد يبحث عن أي ذريعة كي يلغي الإجراءات المعتادة. هو الآن يُدير بنفسه الميزانية المخصصة للجهاز. وعندما أرسل في طلب طوق جديد يطلب الطوق المقطوع كدليل، ولا يأتي الطوق الجديد إلا بعد عشرة أيام،

ويكون بجودة سيئة ولا قيمة له. ولا يهتم أحد بكيفية تشغيل الجهاز بدون طوق»

راح الرحَّالة يقول لنفسه: من الخطورة التدخل بصورة كبيرة في ظروف عمل غريبة عنه. فهو لم يكن يومًا مواطنًا من مواطني معسكر العقاب، ولا مواطنًا من مواطني الدولة التي يوجد بها معسكر العقاب. ولو أراد أن يعارض عملية الإعدام أو يحبطها سيقولون له: أنت غريب، لا تتكلم! ساعتها لن يجد ما يرد به، بل سيضيف أنه لا يفهم ما يفعله. فهو يسافر فقط من أجل أن يرى، وليس بالتأكيد بغرض تغيير الأحكام القضائية. لكن الموقف هناك يُغريه كثيرًا. فمن المؤكد أن المحاكمة غير عادلة، وعملية الإعدام غير إنسانية. فلا يمكن أن يتهمه أحد بالمحاباة. فالمحكوم عليه رجل غريب عنه، وليس من أبناء بلده، ولا يشعر تجاهه بأي نوع من التعاطف. كما أن الرحَّالة يحظى بدعم من الجهات العليا، لذلك استقبلوه بكل احترام. ودعوته لحضور عملية الإعدام هذه ربما تشير إلى أن عليه أن يقول رأيه في أحكام من هذا النوع. وهو في الغالب السبب الذي جعل القائد، كما سمع الآن بكل وضوح، ليس من أنصار مثل هذه الأجهزة، ويتعامل مع الضابط بشكل عدواني على ما يبدو.

وهنا سمع الرحَّالة الضابط وهو يصرخ بغضب. لقد وضع للتو عصا اللباد — بصعوبة — في فم المحكوم عليه، فارتبكت معدة الجاني ولم يتحكم فيها، فأغلق عينيه وتقيأ. أبعد الضابط رأسه عن عصا اللباد على الفور ورفعها، وأراد أن يوجهها نحو الحفرة، لكن بعد فوات الأوان.

فتناثر القيء على مختلف أجزاء الجهاز. صرخ الضابط: «القائد هو السبب في كل هذا!»، وراح يلطم عصا نحاسية بكل غضب: «لقد صارت الماكينة مثل الزريبة» وراح يشير بيديه ليُنبّه الرحَّالة إلى ما حدث:

«وكأنني لم أحاول أن أوضح للقائد بأن عليه ألا يُقَدِّم طعامًا للجاني في اليوم السابق لإعدامه. لكن الاتجاه المعتدل له رأيٌ آخر. نساء القائد يطعمن كل رجل الحلوى قبل أن يأتي إلى هنا. طوال حياته لا يأكل سوى الأسماك المتعفنة، والآن يجب أن يأكل الحلوى! أيًّا كان الأمر، أنا لا أعترض على هذا، لكن لماذا لم يحضروا عصا لباد جديدة، أطالب بها منذ ثلاثة أشهر؟ وكيف لا ينفر أحدهم من وضع عصا لباد في فمه، لعقها وقضمها من قبله أكثر من مائة رجل حكم عليهم بالإعدام؟»

أرخى المحكوم عليه رأسه، وبدا عليه الرضا، بينما انشغل الجندي بتنظيف الجهاز بقميص المحكوم عليه. توجه الضابط نحو الرحَّالة الذي ارتاب فيه، فتراجع خطوة للخلف. لكن الضابط أمسك بيده، وسحبه جانبًا، وقال: «أريد أن أتحدث معك في أمر خاص. هل تسمح لي؟» قال الرحَّالة: «بالتأكيد»، وراح يستمع إليه وهو مسدل العينين.

«هذا الجهاز وطريقة الإعدام تلك التي جاءتك الفرصة لتراها، لم يعد اليوم أحد في معسكرنا يرحب بها. أنا الوحيد الذي يتحمس لها، وأنا أيضًا الداعم الوحيد لميراث القائد السابق. لم يعد أحد يفكر في تطوير

الجهاز على الإطلاق. أستهلك كل طاقتي في صيانة ما هو قائم. أيام القائد السابق كان هناك الكثير من المتحمسين للجهاز. وظللت أحمل في نفسي قناعات القائد السابق، لكن تنقصني السلطة التي كان يتمتع بها، لذلك توارى المؤيدون. إن عددهم كبير، لكن لا يعترف أحد منهم بذلك. لو ذهبت اليوم، يوم تنفيذ حكم الإعدام، إلى البوفيه واستمعت إلى ما يقولونه هناك، ربما تسمع تخبطًا في كلامهم. إنهم جميعاً من أنصار الجهاز، لكن تحت إدارة القائد الجديد وفي ضوء آرائه الحالية صار وجودهم بالنسبة لي مثل عدمه. والآن أسألك: هل ذهب سدىً هذا العمل الذي قضينا فيه حياتنا بسبب القائد الجديد ونسائه اللائي لهن تأثير كبير عليه؟» وأشار إلى الجهاز. «هل يمكن أن يحدث هذا؟ وخاصةً أن عندنا هنا، في هذه الجزيرة، رجلًا غريبًا لمدة أيام قلائل؟

لا يجب أن نُضَيِّعَ الوقت، إن أحدهم يتعدى على سلطتي القانونية، وتُعقد في رئاسة المعسكر اجتماعات لا يدعوني إليها أحد. وأيضًا أعتبر أن زيارتك اليوم حاسمة في هذه المسألة. إنهم جبناء كي يرسلوك إلى هنا، أنت الرجل الغريب. كيف كانت تُنَفَّذ أحكام الإعدام من قبل! قبل الإعدام بيوم كان الوادي يمتلئ بالناس، يأتي الجميع فقط ليشاهدوا. ثم يظهر القائد في الصباح الباكر مع نسائه. أصوات النفير تملأ كل أرجاء المعسكر. ثم يصدر إعلان بأن كل شيء صار جاهزًا، فيجلس الحاضرون حول الجهاز لم يكن مسموحًا أن يتغيب أيٌ من كبار الموظفين وتلك الكومة من مقاعد الخيزران ما هي إلا بقايا بائسة من تلك الفترة. كان الجهاز وقتها يشع من النظافة. وكنت أضع قطعًا

جديدة تقريبًا عند كل حالة إعدام. كان القائد يضع بنفسه المحكوم عليه تحت البوابة أمام مئات الأعين. كان جميع المشاهدين يقفون على أطراف أصابعهم عند ذلك المرتفع. وما يمكن أن يفعله جندي عادي أقوم به بنفسي، أنا الذي كنت رئيس المحكمة، وكان هذا شرفًا لي. ثم تبدأ عملية الإعدام. لم يحدث أن ظهر صوت نشاز واحد في الجهاز. بعض الحاضرين وقتها لم ينظروا، بل استلقوا في الرمل وأغمضوا أعينهم. كان الجميع يعرفون أن العدالة تتحقق الآن. لم يكن يُسمع سوى صوت أنين المحكوم عليه الذي كتمه اللباد. اليوم أصبح الجهاز غير قادر على إجبار المحكوم عليه على إصدار زفرات قوية حتى لا يخنقه اللباد. لكن في ذلك الوقت كان يتساقط من إبر الكتابة سائل حارق، ممنوع استخدامه اليوم. ثم تحين الساعة السادسة! لم يكن ممكنًا تلبية رغبات كل من أراد النظر عن قرب. فقد أمر القائد من باب الحيطة أن تكون الأولوية للأطفال. أمَّا أنا فبحكم وظيفتي كان مسموحًا لي بالتواجد باستمرار.

كنت غالبًا أجلس في المقدمة مُمْسِكًا بطفلين في يدي. كان شكل التحول في وجه الجاني المكروب ينطبع على وجوهنا. كنا نعرض وجوهنا لضوء العدالة التي تحققت في النهاية! يا لها من أيام، يا صديقي»! يبدو أن الضابط نسى من يقف أمامه. احتضن الرحَّالة، ووضع رأسه على كتفه. ارتبك الرحَّالة، وأدار وجهه بتململ بعيدًا عن الضابط. انتهى الجندي من التنظيف، وصب من إحدى العلب عصيدة الأرز في الطبق. استرد المحكوم عليه وعيه، وما إن لاحظ العصيدة

حتى بدأ يلعقها بلسانه. لكن الجندي كـان يُبعـده عنهـا، فهي مخصصـة لمرحلة لاحقـة. لكن الشـيء القـبيح أن الجنـدي نفسـه كـان يضـع يديـه القذرة في العصيدة ويأكل منها أمام المحكوم عليه الجوعان.

انتبه الضابط بسرعة، وقال: «لم أكن أقصـد أن أجعلـك تشـعر بالشـفقة. أعرف أن تلك الأوقات لا يمكن أن تصـفها لأحـد اليـوم. إلا أن الجهـاز مازال يعمل، وإنجازاتـه هي الـتي تتكلم. إنجازاتـه تتكلم رغم أنـه يقـف وحيداً هنا، في هذا الوادي. ودائمًا ما تستقر الجثة في الحفرة بنعومـة لا تصـدق، رغم اختفـاء مئـات البشـر الـذين تجمعـوا يومًـا مـا هنـا مثـل الذباب. وقتها كنت مجبرًا على تركيب سور ضخم حول الحفرة. لكننـا أزلناه منذ زمن»

أراد الرحَّالة أن يتفادى نظرات الضابط، فالتفت حوله بدون هدف. كان الضابط يعتقد أنه يتطلع إلى الوادي المـوحش، فأمسـك بيـده، واسـتدار حوله كي يلفت نظـره إليـه، ثم سـأله: «أتـرى هـذا العـار؟» لكن الرحَّالـة لازم الصمت. تركه الضابط للحظات، ووقف ينظـر إلى الأرض منفـرج الساقين ووضع يديه حول خصره. ثم ابتسم إلى الرحَّالة ليشجعه، وقال: «كنت بالأمس قريبًا من القائد عنـدما دعـاك. سـمعت دعوتـه لـك. أنـا أعرف القائد. عرفت على الفـور إلام يـرمي بهـذه الزيـارة. رغم أنـه لديـه صلاحية كبـيرة تُمَكِّنـه من اتخـاذ إجـراءات ضـدي، لكنـه لم يتمكن من ذلك بعد. ويبـدو أنـه يريـد أن يتخـذ من رأيـك دليلًا، رأي رجـل أجنـبي محترم. لقد حسبها جيداً. أنت هنا في الجزيرة لليوم الثاني.

لا تعرف القائد القديم ولا دائرة معارفه. وأنت متأثر بالآراء الأوروبية، وربما تكون من كبار المعارضين لعقوبة الإعدام، وبخاصة الإعدام على آلة كهذه. فضلًا عن أنك ستشاهد عملية إعدام عادية دون مشاركة العامة. تتم على جهاز به الكثير من العطب، ألا يمكن أن يحدث مثلًا كما يعتقد القائد أنك ستعتبر هذه الآلة غير مناسبة؟ ولو اعتبرتها غير مناسبة، فبالتأكيد لن تصمت حيال هذا أنا مازلت أتحدث من وجهة نظر القائد فأنت تؤمن بآرائك التي بنيتها عن خبرةٍ طويلة. بالتأكيد فأنت تعرفت على الكثير من عادات الشعوب المختلفة، وتعرف كيف تعطيها قدرها. فلن تقول رأيك المعارض لهذه الآلة بدافع من العجلة كما تفعل مثلًا في بلدك.

لكن حتى هذا لا يهم القائد. يكفيه كلمة واحدة بسيطة، فقط كلمة واحدة غير دقيقة. وليس بالضرورة أن تتفق مع قناعاتك. يكفي أن تتفق مع قناعاته هو. أنا متأكد من أنه سوف يسألك بكل دهاء. وستلتف نساؤه حولكما منصتات. ربما ستقول: إن نظام القضاء عندكم مختلف، أو تقول: إن المتهم عندنا يُستجوب قبل إصدار الحكم، أو تقول: توجد عندنا عقوبات أخرى غير عقوبة الإعدام، أو تقول: إن الإعدام كان موجودًا عندنا في العصور الوسطى. كلها ملاحظات سليمة، وتبدو لك بديهية. وهي ملاحظات بريئة لا تتعلق بالنظام المطبق عندي. لكن كيف سيتقبلها القائد؟ أكاد أراه، أرى قائدنا الطيب وهو ينحي مقعده جانبًا، وينصرف إلى الشرفة على الفور. أراه ونساءه يهرولن خلفه، أسمع صوته النساء يسمينه صوتًا هادرًا ، ثم يقول

«الباحث الغربي الكبير، الباحث المخول ببحث الأنظمة القضائية في كل بلاد العالم، قال للتو إن نظامنا القديم غير آدمي. وبناء على رأي هذا الرجل فلا يمكنني أن أتحمل وجود نظام كهذا. وأُعلِن اليومَ... إلخ. تريد أن تتدخل، فأنت لم تقل شيئًا مما أعلنه، لم تصف جهازي بأنه غير آدمي، بل على العكس، أنت على قناعة تامة بأنه أكثر الأجهزة إنسانية، وأكثر الأجهزة التي تحترم آدمية الإنسان، إنك معجب بهذه الآلة لكن سيكون الوقت قد فات، ولن تصل إلى الشرفة التي صارت مليئة بالسيدات، ستسعى إلى أن تلفت الأنظار إليك، وستحاول أن تصرخ، لكن يد إحدى السيدات ستغطي فمك ونضيع أنا والجهاز الذي ابتكره القائد السابق»

اضطر الرحَّالة إلى كتمان الابتسامة. إن المهمة التي كان يعتبرها صعبة تبدو سهلة للغاية. قال بنوع من الإنكار: «أنت تبالغ في تأثيري. لقد قرأ القائد خطاب التوصية، ويعرف أني لست خبيرًا على الإطلاق في شؤون المحاكمات. لو كان لي أن أقول رأيي، فلن يكون سوى رأي من شخص عادي لا يختلف في شيء عن رأي أي رجل آخر، وبالتأكيد أقل أهمية بكثير من رأي القائد الذي لديه على حسب علمي صلاحيات واسعة في معسكر العقاب هذا. ولو كان له رأي واضح في هذه الآلة كما تعتقد؛ فأخشى أن تكون نهاية هذه الآلة قد حانت دون أي تأثير مني»

هل فهم الضابط ما قلته؟ لا، لم يفهم بعد. هز رأسه بكل حماس، وألقى نظرة خاطفة على المحكوم عليه وعلى الجندي، وكانا

يتشاجران، ونسيا الأرز. اقترب تمامًا من الرحَّالة، لم ينظر في وجهه، لكنه نظر إلى مكان ما على معطفه، وقال بصوت أهدأ من ذي قبل: «أنت لا تعرف القائد، علاقتك به وبنا جميعًا أعذرني على هذا اللفظ علاقة سطحية إلى حد ما. لا يمكن المبالغة في أهمية رأيك، صدقني. كنت سعيداً جداً عندما سمعت أنك ستشارك في عملية الإعدام. قرار القائد هذا سيؤثر فيّ. لكني سأوظفه لصالحي. لقد سمعت شرحي، ولم تقاطعك أثناء الشرح همسات غير لائقة، ولا أية نظرات ازدراء محتملة لو شارك في المحاكمة مزيد من المشاهدين. لقد رأيت الجهاز بنفسك، وبعد لحظات ستشاهد عملية الإعدام. ومن المؤكد أنك كَوَّنت رأيًّا محددًا. ولو أنه مازالت هناك بعض الأمور البسيطة الغامضة فسوف تتضح بعد مشاهدتك لعملية الإعدام. والآن ألتمس منك الآتي: ساعدني في مواجهة هذا القائد!»

قاطعه الرحَّالة، وقال: «لا يمكنني أن أفعل شيئًا كهذا» صاح «مستحيل. أنا بهذا أساعدك، لا أسبب لك أي ضرر»

قال الضابط: «يمكنك أن تساعدني» لاحظ الرحَّالة وهو خائف أن الضابط أحكم قبضته. كرر الضابط مرةً أخرى بإلحاح: «يمكنك. عندي خطة بالتأكيد ستنجح».

أنت تعتقد أن تأثيرك غير كافٍ. وأنا أعرف أنه كافٍ. لكن لِنَقُل أنك على حق، أليس من الضروري محاولة كل ما هو ممكن كي أحافظ على هذه الآلة؟ اسمع خطتي الآن! من أجل تنفيذها عليك أن تكون اليوم في

المعسـكر حريصًـا في حكمـك على هـذا الجهـاز قـدر الإمكـان. ولا تتحدث عنه من تلقاء نفسك مـالم يسـألك أحـد عنـه مباشـرةً. يجب أن تكون كلماتك مختصرة وغـير واضـحة. من الضـروري أن يلاحظـوا أنـه من الصعب عليك الحديث في الأمر، وأنك غاضب، لأنك لـو تحـدثت بصراحة فلن تتوقف عن السباب. لا أريـد منـك أن تكـذب، بالتأكيـد لا أريد. فقط أجب باختصار، قل مثلًا: نعم، لقد رأيت عمليـة الإعـدام، أو قل «نعم، لقد استمعت إلى الشرح الكامل» قـل فقـط هـذا، لا أكـثر ولا أقل. هناك الكثير من أسباب الغضـب الـذي ستبديه لهم، حـتى وإن لم يكن في السـياق الـذي ينتظـره القائـد. هـو سـيفهمه بـالطبع على نحـو خاطئ، وسيفسره بطريقته. وهذا هو جوهر خطتي. غدًا سيُعقد اجتمـاع كبير لكل القادة الإداريين الكبار برئاسة قائـد المعسـكر. بالتأكيـد تمكن القائد من نيل إعجابهم خلال مثل تلك الاجتماعات السابقة. فقـد أقـام معرضًـا يمتلئ دائمًـا بـالزائرين. أنـا مضـطر إلى المشـاركة في تلـك الاجتماعات رغم القرف الـذي أشـعر بـه أثناءهـا. على أي حـال، سـوف يدعوك للحضور في كل الأحوال. ولو لم تكن لسببٍ غير معلوم مـدعوًا يجب أن تطلب الدعوة، ولا شك بأنك سوف تتلقاها.

فغدًا سـتجلس مـع نسـاء القائـد في مسـكنه. سـينظر من وقت لآخـر إلى أعلى ليتأكد من وجودك. وبعد مناقشـة بنـود الاجتمـاع المختلفـة، وهي تافهة، وموجهة للعامة — وهي في الغالب تدور حـول بنـاء مرفـأ، دائمًـا، دائمًا، دائمًا يناقشون بناء المرفـأ! — سـيأتي الحـديث عن المحاكمـات. ولو لم يعرض القائـد الموضـوع، أو إذا لم يكن هنـاك متسـع من الـوقت

سأتولى أنا الأمر لكي نناقشه. ثم أقوم وأُعطي تقريرًا عن حكم الإعدام الذي تم اليوم، بكل اختصار، ولن أقول شيئًا آخر سوى هذا التقرير.

قراءة تقرير كهذا ليس أمرًا معتادًا، لكني رغم ذلك سأقرأه. وسوف يشكرني القائد كالعادة بابتسامةٍ لطيفة، ولن يتحمل، سوف يستغل أول فرصة مناسبة، ويقول «لقد سمعنا تقريرًا عن عملية الإعدام» أو شيئًا من هذا القبيل، «وأحب أن أضيف إلى هذا التقرير أن باحثًا كبيرًا شهد هذه العملية، وتعرفون جميعًا أنه في زيارة عندنا، وهو شرف كبير لكل المعسكر. وازدادت أهمية اجتماعنا بتشريفه لنا بالحضور. ماذا لو سألنا الباحث الكبير عن رأيه في تنفيذ حكم الإعدام طبقًا للتقاليد القديمة وفي المحاكمة التي تسبقه؟» سيعلو التصفيق من كل اتجاه إعلانًا عن موافقة جماعية، سوف أكون أول المتحمسين. سينحني القائد أمامكم، ويقول: «إذن باسم الجميع أطلب منه...» وهنا تتقدم من الدرابزين، وتضع يدك عليه كي يراها الجميع، وإلا سيمسكها السيدات ويلعبن بأصابعك.

والآن يحين دورك لتتحدث، لا أعرف كيف ستتحمل تلك الساعات حتى تحين تلك اللحظة. لا يجب أن تسمح لأحد بأن يقاطعك وأنت تتكلم. دع الحقيقة تأخذ مجراها، انحنِ على الدرابزين وتحدث بصوتٍ عالٍ، نعم، عَبِّر عن رأيك للقائد بصوت عالٍ، عن رأيك الحاسم. لكن ربما لا تريد أن تفعل هذا، فهو لا يناسب طبيعتك. ربما تتصرف في بلدك بطريقة مختلفة في مثل هذه المواقف. لكن لا عليك، هذا يكفي. لست مضطرًا لأن تقف، فقط قل بضع كلمات، قلها

بصوت منخفض بحيث يكـاد يسـمعها الموظفـون أمامـك. هـذا يكفي. لست مضطرًا لأن تتحدث عن الاستعدادات غير الكافية أثنـاء الإعـدام، أو عن صرير العجلة، أو عن الحزام الـذي انقطـع، أو عن اللبـاد الكريـه، لست مضطرًا لهذا. سأتولى أنا كـل هـذه الأمـور. ثـق بي! لـو لم تجعلـه كلماتي ينصرف من القاعة فستجعله يسقط على ركبتيه، وسوف يضطر إلى القول: أيها القائد السابق! ها أنا أنحني أمامك!. — هذه هي خطـتي. هـل تريـد أن تسـاعدني في تنفيـذها؟ بـالطبع ستسـاعدني، ليس أمامـك خيـار آخـر» أمسـك الضـابط الرحَّالـة بكلتـا يديـه وهـو يلتقـط أنفاسـه بصعوبة، وراح يتطلع إلى وجهه. صرخ وهو ينطق الجملة الأخيرة، حتى إن الجندي والمحكوم عليه بدآ يلتفتان نحونـا، رغم أنهمـا لم يفهمـا أي شيء. لكنهما توقفا عن تناول الطعام، وراحا ينظـران إلى الرحَّالـة وهمـا يلوكان الطعام في فمهما.

لم يكن الرحَّالـة يشـك منـذ البدايـة فيمـا سـيقوله. لقـد مـر في حياتـه بتجارب كثيرة لا تسمح له بأن يتردد. كان في الواقـع رجلًا شـريفًا، ولم يخف أحدًا. رغم ذلك ساوره التردد قليلًا وهـو ينظـر إلى الجنـدي وإلى المحكـوم عليـه. لكنـه في النهايـة قـال مـا عليـه أن يقولـه: «لا» طـرف الضابط بعينيه عدة مرات وهو يحملق في الرحَّالة. سأله الرحَّالة: «أتريـد تفسيرًا؟» هزّ الضابط رأسه دون أن يتكلم. قـال الرحَّالـة: «أنـا ضـد هـذه الآلة. لقد فكرت في هذا الأمـر حتى قبـل أن تفتح لي قلبـك لكن هـذه الثقة لن أستغلها تحت أي ظروف ، هذا إن كان لي الحق في الاعتراض على هذه الآلة، أو كان هناك أيـة فرصـة لنجـاح تـدخلي في الأمـر. كنت

أعـرف من يجب عليّ أن أخاطبـه أولًا، إنـه القائـد بـالطبع. وصـار الأمـر أكـثر وضـوحًا بعـد كـل مـا قلتـه لي. لكن هـذا لا يعـني أن كلامـك قـد جعلني أصـر على قـراري، بـالعكس، إن مـا قلتـه أثـر فيّ، ورغم ذلـك لا يمكنه أن يُغَيِّر من قراري»

واصـل الضـابط صـمته، واتجـه نحـو الجهـاز، وأمسـك أحـد الأعمـدة النحاسية، ثم نظر إلى أعلى نحو الرسام بعـد أن انحـنى قليلًا. بـدا وكأنـه يتأكـد من أن كـل شـيء في موضـعه. كـان من الواضـح أن الجنـدي والمحكوم عليه قد صارا أصـدقاء. كـان المحكـوم عليـه يُعطي للجنـدي إشـارةً مـا. وعنـدما صـار من الصـعب عمـل تلـك الإشـارة، حيث كـان المحكـوم عليـه مثبت بالجهـاز بصـورة قويـة، انحـنى عليـه الجنـدي، وهمس له المحكوم عليه بشيء في أذنه، فأومأ له الجندي.

تقدم الرحَّالة من الضابط، وقال له: «لم تعرف بعد ما الـذي أنـوي فعلـه. بـالطبع سـأخبر القائـد بـرأيي في هـذه الآلـة، لكن هـذا لن يكـون أثنـاء الاجتمـاع. بـل سـيكون بيـني وبينـه. كمـا أنـني لن أبقى لأشـارك في أي اجتماع. فأنا سأرحل صباح غد، أو على الأقل سأصـعد إلى السـفينة في هذا الوقت»

يبدو أن الضابط لم يكن يستمع إليه، فقال محدثًا نفسـه: «لم تقتنـع إذن بالجهاز» ثم ابتسم وكأنه عجوز يبتسم لطفـل أحمـق، وهـو يخـبئ آراءه الحقيقية خلف تلك الابتسامة.

نطق أخيرًا، وقال: «لقد حان الوقت إذن»، ونظر فجأة إلى الرحَّالة بعينين بارقتين، تنمان عن استدعاء ما، عن دعوة للمشاركة.

سأله الرحَّالة بقلق: «ما هو الذي حان وقته؟» لكنه لم يتلق ردًا.

قال الضابط على طريقته للمحكوم عليه: «أنت حر الآن» لم يُصَدِّق الرجل في البداية ما سمعه. قال الضابط: «هل سمعت! أنت حر!» دبت حياة حقيقية لأول مرة في وجه الرجل. هل هذا معقول؟ هل مجرد نزوة من نزوات الضابط التي سرعان ما يتجاهلها؟ هل ساعده هذا الرحَّالة الأجنبي ليحصل على العفو؟ ماذا حدث؟

كلها تساؤلات ظهرت على وجه الرجل. لكنه لم يبق هكذا طويلًا. أيًّا كان الأمر، فهو يريد الحرية طالما سُمِحَ بهذا. وبدأ يتزعزع من مكانه بالقدر الذي سمحت به البوابة.

صاح الضابط: «إنك تُمزق أربطة الجهاز. نَم واهدأ، وسوف نفك الأربطة عنك» ثم بدأ الجندي بإشارة من الضابط في مساعدته على النهوض. وراح المحكوم عليه يبتسم لنفسه بصمت، ودون أن ينبس بكلمة. ثم التفت مرةً على يساره صوب الضابط، ومرةً أخرى على يمينه نحو الجندي، ولم ينس أن ينظر نحو الرحَّالة.

أمر الضابط الجندي قائلًا: «أخرجه بعيدًا!» كانوا يتصرفون بحذر شديد بسبب البوابات. وتسبب المحكوم عليه لنفسه في بعض الخدوش السطحية على ظهره بسبب تسرعه.

منذ هذه اللحظة توقف الضابط عن الاهتمام بـأمره. تقـدم من الرحَّالـة، وأخرج الأسطوانات الجلدية الصغيرة، وراح يعبث بها. وأخيرًا عثر على الورقة التي كان يبحث عنها، ثم عرضها على الرحَّالة، وقال: «اقرأ» قـال الرحَّالة: «لا يمكنني قراءتها. لقد أخبرتك من قبل أني لا أستطيع قـراءة هذه الأوراق» قال الضابط: «فقط انظر جيداً إلى هذه الورقـة»، ثم تقـدم بجوار الرحَّالة حتى يقرآ الورقة معًا. وعندما فشل أشار بإصـبعه الأصـغر إلى أعلى الورقة، وكأنه ممنوع أن يلمس الورقة على الإطلاق. أراد فقـط أن يُسَـهِّل على الرحَّالـة قراءتهـا. حـاول الرحَّالـة هـو الآخـر كي يثبت للضابط حُسن نيته، لكنه لم ينجح. وهنـا بـدأ الضـابط في هجـاء عنـوان الوثيقة، ثم قرأها مرةً أخرى باسترسـال، وقـال: «كن عـادلًا! — هـذا هـو المكتوب هنا. الآن يمكنك أن تقرأها بنفسك» انحنى الرحَّالة بقـوة على الورقـة حـتى خـاف الضـابط أن يلمس الورقـة فـتراجع قليلًا. لم يقـل الرحَّالة شيئًا، لكن كـان واضـحًا أنـه غـير قـادر على قـراءة الورقـة. قـال الضابط مرة أخرى: «كن عادلًا! — هذا هو المكتوب فيها. قال الرحَّالـة: «ربما. أنا واثق أن هذا هو المكتوب في الورقـة» قـال الضـابط: «حسـنًا» صار على الأقل هادئًا إلى حدٍ مـا، ثم صـعد السـلم وهـو يمسـك الورقـة بيده. وضع الورقة بحرص شديد بجوار الرسام، وراح يُرَتِّب التروس في وضع جديد تمامًا كما يبـدو. بـذل في هـذا مجهـودًا كبـيرًا. كـان الأمـر بالطبع يتعلق بعجلة صغيرة للغاية.

اختفت رأس الضـابط بالكامـل وسـط جـزء الرسـام. هكـذا كـان ينبغـي فحص التروس بكل دقة.

لم يتوقف الرحَّالة عن متابعة ما يحدث من مكانه أسفل الجهاز حتى تصلب عنقه، وتألمت عيناه من ضوء الشمس الساطع في السماء. انشغل كُلٌّ من الجندي والمحكوم عليه بنفسيهما. سحب الجندي قميص المحكوم عليه وسرواله من داخل الحفرة بحربة البندقية. كان القميص شديد الاتساخ، فغسله المحكوم عليه في ماء الدلو. ضحك الجندي عندما ارتدى الرجل القميص والسروال، وشاركه المحكوم عليه الضحك بصوتٍ عالٍ، فكلٌّ من القميص والسروال كانا ممزقين من الخلف. يبدو أن المحكوم عليه كان يشعر أن عليه تسلية الجندي، فاستدار أمامه عدة مرات بملابسه الممزقة، بينما الجندي يضرب بقدميه على الأرض ويخبط على ركبتيه من شدة الضحك. لم يُبَالِغَا كثيرًا في الأمر بحكم موقعهما.

عندما انتهى الضابط مما يفعله فوق الجهاز، تفحص الآلة مرةً أخرى بابتسامة، جزءًا بعد جزء. خبط غطاء الرسام الذي كان لا يزال مفتوحًا، ثم نزل من على السلم، ونظر إلى الحفرة، ثم إلى المحكوم عليه. ظهرت علامات الرضا على وجهه عندما وجد أن المحكوم عليه قد ارتدى ملابسه. ذهب لغسل يديه في ماء الدلو. لم يكتشف إلا متأخرًا أن الدلو ممتلئ بالقذارة. أحزنه أنه لا يستطيع أن يغسل يديه، فدسهما في النهاية في الرمل، إلا أن هذه الطريقة البديلة لم تكن كافية، لكنه كان مضطرًا إلى الاكتفاء بها. نهض بعدها وبدأ يفك أزرار معطف بِزَّتِه الرسمية. ووقع في يده المنديلان اللذان كان يضعهما خلف ياقة المعطف. قال:

«امسك منديليك!»، وقذف بهما إلى المحكوم عليه. وقال للرحالة موضحًا: «إنهما هدية من نسائه»

خلع المعطف وباقي ملابسه بتعجل واضح، ورغم ذلك كان يتعامل مع كل قطعة من الملابس بعناية كبيرة، وخاصةً الحبل الفضي. مرر عليها أصابعه، وهزهز الشُّرابة كي تستقيم. وهكذا راح يُرَتِّب الملابس بكل هذا الحرص. وكلما انتهى من طي قطعة يُلقي بها إلى الحفرة غاضبًا. وفي النهاية لم يتبق سوى سيف صغير في حزام مُعَلّق. أخرج السيف من غمده، وكسره، ثم قذف كل شيء قِطَع السيف، والغمد، والحزام بقوة في الحفرة. فتلاطمت الأجزاء ببعضها في القاع.

وقف عاريًّا تمامًا. راح الرحَّالة يعض على شفتيه دون أن ينطق بكلمة. لم يكن من حقه أن يمنع الضابط مما سيفعله رغم أنه كان يعرف ما سيحدث. إن المحاكمة التي كان الضابط يُصِرّ عليها كانت على وشك أن تُلغَى ربما بتدخل من الرحَّالة، وهو ما اعتبره واجبًا عليه، وها هو الضابط قد تصرف بطريقةٍ سليمةٍ تمامًا. ولو كان الرحَّالة مكانه لما فعل غير ذلك.

لم يفهم الجندي ولا المحكوم عليه ما يحدث، ولم ينظرا من البداية إليه. كان المحكوم عليه سعيدًا بعدما حصل على المنديلين مرةً أخرى. لكنه لم يهنأ بهما طويلًا، فقد خطفهما منه الجندي بحركة سريعة ومباغتة. وراح المحكوم عليه يحاول أن ينتزع منه المنديلين المخبأين تحت الحزام، لكنه لم يفلح. فراحا يتشاجران مازحين.

انتبها عندما صار الضابط عاريًّا تمامًا، وخاصةً المحكوم عليه الذي بدت عليه علامات ترقب لحدوث تحول كبير. فما حدث معه يحدث الآن للضابط. وربما سيستمر إلى أن يبلغ نهايته القصوى. غالبًا ما حدث هذا بناءً على أمرٍ من الرحَّالة الغريب كنوعٍ من القصاص. ورغم أنه لم يعش المعاناة حتى آخرها، لكنه سيرى القصاص حتى نهايته. ظهرت على ملامحه الابتسامة، وتجمدت على وجهه لا تفارقه.

توجه الضابط نحو الآلة. ورغم أن معرفته بالآلة كانت واضحة منذ البداية، إلا أن الأمر الآن مدهش وهو يتعامل معها، وهي تستجيب له. فما إن اقترب بيده من البوابة حتى بدأت تصعد وتهبط حتى اتخذت مكانها الصحيح لتستقبله. وبلمسة خفيفة لحافة السرير بدأ يهتز، ودخل ذراع اللباد إلى فمه مباشرةً. كان واضحًا أن الضابط يأنف منه، لكن تردده لم يستمر سوى لحظات قليلة، ثم استسلم ووضعه في فمه. كان كل شيء جاهزًا إلا الأربطة، ظلت مدلاة على الجوانب. لكن يبدو أنها لم تكن ضرورية. فلم يكن ضروريًّا ربط الضابط بها. لاحظ المحكوم عليه أن الأحزمة مُحَرَّرة، فاعتبر أن عملية الإعدام لن تكون كاملة بدون تلك الأحزمة، فأشار بيديه على الجندي بحماس، وهرولا ليربطا الضابط فوق السرير. كان الضابط قد مَدَّ قدمه ليدفع الذراع الذي يحرك الرسام. وهنا رأى الرجلين يقفان بجواره، فأنزل قدمه، وتركهما يشدان الأحزمة حوله. بعدها بالطبع لم يتمكن من الوصول إلى ذراع التشغيل. ولا يمكن أن يعثر عليه لا الجندي ولا المحكوم عليه.

وكذلك قرر الرحَّالة ألا يبرح مكانه. لم يكن هذا ضروريًّا. وبمجرد أن أوثقاه بالأحزمة بدأت الآلة في العمل، راح السرير يهتز، والإبر تتراقص فوق جسمه، والبوابة تصعد وتهبط. تسمرت عينا الرحَّالة في البداية على ما يحدث، إلى أن تذكر أن عجلة ما في الرسام يجب أن تصدر صريرًا. لكن كل شيءٍ دار بهدوء، لم يسمع أي خشخشة ولو ضعيفة.

لم يلق أحد بالًا للآلة التي كانت تعمل بهدوء شديد. نظر الرحَّالة إلى الجانب الآخر حيث يقف الجندي والمحكوم عليه. كان المحكوم عليه يبدو مفعمًا بالحيوية.

كان مُهتمًا بكل أجزاء الآلة، فتارةً يحني قامته، وتارةً يفردها، ويشير بإصبعه ليُنَبِّه الجندي لشيءٍ ما. شعر الرحَّالة بالضيق. قرر أن يبقى عند الجهاز حتى النهاية.

لكنه لم يكن يتحمل النظر إلى هذين الرجلين، فصاح: «انصرفا من هنا!» كان الجندي يرغب في الانصراف، لكن المحكوم عليه اعتبر أمر الانصراف بمثابة عقاب له.

فعقد يديه وراح يتوسل إليه أن يبقى، ثم سقط على ركبتيه عندما هزّ الرحَّالة رأسه ورفض السماح له بالبقاء. رأى الرحَّالة أنه لا طائل من الاكتفاء بأمرهما بالرحيل، فأراد أن يذهب إلى الجانب الآخر ويطرد الرجلين. وهنا سمع صوت جلبة قادم من الرسام في أعلى الجهاز. رفع رأسه. هل علق أحد التروس؟ لكن مصدر الجلبة كان شيئًا آخر. رفع ببطء غطاء الرسام حتى كشفه عن آخره. ظهرت أسنان التروس

وارتفعت، ثم ظهرت عجلة التروس كلها، وكأن قوة كبيرة قد ضغطت على الرسام، فلم تترك مكانًا تسقط فيه عجلة التروس، فتدلت على جانب الرسام وسقطت على الأرض وهي تهتز وسط الرمال، ثم استقرت عليها. تبعتها عجلة تروس كبيرة، وأخرى صغيرة لا تكاد تُرَى، وحدث معهما ما حدث مع العجلة الأولى. كان واضحًا أن الرسام قد صار الآن فارغًا تمامًا، وهنا ظهرت مجموعة جديدة وكبيرة من التروس، سقطت على الأرض وهي تدور وسط الرمال إلى أن استقرت عليها. نسي المحكوم عليه تمامًا ما أمر به الرحَّالة بعد أن شهد ما يدور هنا.

كان مشغولًا بعجلات التروس، ويحاول في كل مرة أن يلمس إحداها، ويطلب من الجندي أن يساعده. لكنه سرعان ما يسحب يده خائفًا كلما سقطت عجلة تروس أخرى، أثارت في نفسه الرعب من الوهلة الأولى وهي تتدحرج نحوه.

كان الرحَّالة راضيًّا تمامًا وهو يرى ما يحدث. يبدو أن الماكينة تتهاوى، والهدوء الذي أظهرته في البداية كان مجرد وهم. انتابه شعور بأن عليه أن يرى ما يحدث للضابط الذي لم يعد قادرًا على الاهتمام بنفسه. لكن كل تركيزه كان منصبًا على عجلات التروس التي تتساقط، فانشغل بها عن متابعة ما يحدث في باقي أجزاء الآلة. سقطت من الرسام آخر عجلة تروس، ومال الرسام ناحية البوابة، ثم حدثت مفاجأة جديدة أسوأ من التي سبقتها. توقفت البوابة عن الكتابة، وراحت فقط توخز في جسده. لم يستدر السرير، بل أخذ يرتفع ناحية الإبر وهو يهتز. أراد

الرحَّالة أن يتدخل ويُوقف كل هذا قدر الإمكان. فليس هذا هو الإعدام الذي أراده الضابط، فلم يكن سوى عملية قتل صريحة. بسط الرحَّالة ذراعيه. لكن البوابة ارتفعت وهي تحمل الجسد العالق في الإبر، ومالت إلى أحد جوانب الجهاز، وهو ما كان يحدث من قبل ولكن بعد مرور اثنتي عشرة ساعة. انبثق الدم من مئات الفتحات دون أن يكون مختلطًا بالماء. فقد حدث عطب في أنابيب الماء من قبل، وها هو يحدث هذه المرة أيضًا. انفصل الجسم عن الإبر الطويلة يلفظ الدم من داخله، لكنه بقى عالقًا فوق الحفرة ولم يسقط فيها. أوشكت البوابة على العودة إلى وضعها الطبيعي، لكنها وكأنما شعرت بأنها لم تتخلص من العبء الذي تحمله على كاهلها، فتسمرت فوق الحفرة. صرخ الرحَّالة في الجندي والمحكوم عليه:

«ساعداني!»، وأمسك الضابط من قدمه، وأراد أن يستند عليها. وكان على الرجلين في الناحية الأخرى الإمساك برأس الضابط وفصلها عن الإبر بحرص. لكنهما لم يجرؤا على التقدم، وتراجع المحكوم عليه تمامًا. اضطر الرحَّالة إلى التوجه إلى الناحية الأخرى حيث يقفا ويُجبرهما على الإمساك برأس الضابط. وقع بصره عن غير قصد على وجه الضابط. بدا وكأنه على قيد الحياة، خاليًا من أي علامة على الخلاص الذي كان يطلبه. ولم يعثر الضابط في الماكينة على ما عثر عليه كلٌّ من مات قبله في الماكينة: كانت شفتاه مغلقتين بإحكام، وعيناه جاحظتين، وبهما آثار الحياة. كانت نظرته هادئة وواثقة، وعلى جبينه ثقوب من رؤوس الإبر الحديدية.

عندما وصل الرحَّالة يتبع الجندي والمحكوم عليه إلى أول بيت من بيوت المعسكر أشار الجندي إلى أحد الأبواب، وقال: «هذا هو البوفيه»

كانت توجد غرفة عميقة ذات سقف منخفض في الطابق الأرضي للبيت، تشبه كهفًا بحوائط وسقف التصق عليها غبار الدخان. كانت الغرفة تطل على الشارع بمدخل عريض. لم يكن البوفيه يختلف كثيرًا عن باقي مباني المعسكر باستثناء مباني القيادة الفخمة المتهدمة، رغم ذلك شعر الرحَّالة وكأنها آثار تاريخية، فراوده شعور بقوة الأيام الماضية. اقترب من المقهى يتابعه الرجلان، ودار بين الترابيزات الخاوية في الشارع أمام البوفيه، واستنشق هواءً باردًا، كريه الرائحة قادمًا من الداخل. قال الجندي: «إن القائد القديم مدفون هنا. لم يسمح الكاهن بدفنه في المقابر. وظلّوا لوقت طويل لا يعرفون أين سيدفنونه، إلى أن قرروا دفنه هنا.

بالتأكيد لم يخبرك الضابط بشيءٍ كهذا، لأنه كان من أكثر الأمور التي يخجل من ذكرها. حاول عدة مرات أثناء الليل أن يفتح القبر ليأخذ جثة القائد السابق، لكن أمره كان يُفتضح في كل مرة» سأل الرحَّالة وهو متشكك في مقولة الجندي: «أين هذا القبر؟» وعلى الفور تقدمه كل من الجندي والمحكوم عليه وهما يمدان أيديهما ليشيرا إلى مكان القبر. قادا الرحَّالة حتى الحائط الخلفي حيث يجلس بضعة ضيوف حول الترابيزات. كانوا على ما يبدو عمالًا في الميناء، رجالًا أقوياء بِلِحَى سوداء قصيرة ولامعة. لم يكن أحدٌ منهم يرتدي معطفًا، يلبسون قمصانًا بالية، إنهم أُناس فقراء ومقهورون. نهض بعضهم واقفًا عندما

تقدم منهم الرحَّالة، والتصقوا بالحائط ينظرون إليه. سمعهم الرحَّالة يهمسون من حوله، ويقولون: «إنه الرجل الغريب، يريد أن يرى القبر» حركوا إحدى الترابيزات، فظهرت من تحتها بالفعل بلاطة القبر. كانت لوحة حجرية بسيطة رفيعة، كادت تختفي أسفل الترابيزة. وجد عليها نقشًا من أحرف صغيرة للغاية. اضطر الرحَّالة إلى أن يسقط على ركبتيه حتى يتمكن من قراءتها. وجد نَصًّا يقول: «هنا يرقد القائد السابق. حفر هذا القبر أتباعه الذين لا يجب أن تذكر أسماؤهم، ووضعوا عليه شاهد القبر. بعد بضع سنوات سيُبعث القائد من جديد وسيقود أتباعه من هذا المنزل كي يغزوا المعسكر. آمنوا وترقبوا هذه النبوءة!» وما إن قرأ الرحَّالة النَّص وهَمَّ واقفًا حتى وجد الرجال يقفون حوله ويبتسمون، وكأنهم كانوا يقرأون النص معه، فوجدوه نَصًّا سخيفًا، ويستحثونه على أن يشاركهم الرأي. تظاهر الرحَّالة أنه لم يلاحظ ما على وجوههم، ووزع عليهم بضعة قروش معدنية. انتظر بضع لحظات حتى أعدوا الترابيزة فوق القبر، ثم خرج من المقهى وتوجه نحو المرفأ. التقى الجندي والمحكوم عليه مع من يعرفونهم في المقهى، فانشغلا بهم. لكنهما سرعان ما تركوهم عندما صار الرحَّالة في منتصف الدرج العالي الذي يؤدي إلى القارب، وأسرعا خلفه. ربما أرادا أن يجبرا الرحَّالة على أن يأخذهما معه في اللحظة الأخيرة. وبينما كان الرحَّالة يتحدث مع المراكبي كي يحمله إلى السفينة، كان الرجلان يهرولان فوق الدرج صامتين، عاجزين عن الصياح. وما إن وصلا إلى أسفل الدرج حتى

كـان الرحَّالـة قـد اسـتقل القـارب، وانصـرف بـه المراكـبي بعيـدًا عن الشاطئ.

كان في إمكانهما أن يقفزا في المركب، لولا أن الرحَّالة رفـع حبلًا ثقيلًا مليئًا بالعقد من القاع، وحَذَّرَهما؛ فَحَالَ دون أن يقفزا إلى القارب.

بلومفيلد العانس[3]



صَعَدَ بلومفيلد الأعزب ذات ليلة إلى شقته. كان صعوده إليها أمرًا شاقًا، فهو يعيش في الطابق السادس. كان كعادته في الآونة الأخيرة وهو يرقى درجات السلم يُفكر كثيرًا في وحدته القاتلة المقيتة، وفي درجات الطوابق السّت التي عليه أن يرقاها خِلسةً حتى يصل الى غرفته

3جاءت هذه القصة في مخطوطات كافكا بدون عنوان. لكنها في طبعة ماكس برود ظهرت تحت عنوان «بلومفيلد، العجوز العانس» بدأ كافكا كتابة القصة في 8/2/1915، لكن النص الكامل للقصة ظهر تقريبًا في شهر مارس من العام نفسه.

الخاوية. هناك يرتدي ملابس الفراش أيضًا خِلسةً، ويشعل غليونه، ثم يقرأ قليلًا في مجلة فرنسية اشترك بها منذ سنوات. يرتشف براندي محلي الصنع، ثم يذهب للنوم بعد نصف ساعة، بعد أن يُعيد ترتيب أغطية الفراش. فخادمته التي لا أمل في إصلاحها تُرَتِّب الغرفة في كل مرة على طريقتها الخاصة. كان بلومفيلد على استعداد أن يُرحب بأي رفيق، أي شاهد على ما يقوم به. فكّر جديًّا في أن يقتني كلبًا صغيرًا. فهذه الحيوانات تتمتع بالمرح، وحافظة للجميل، ووفيَّة. كان لدى أحد من زملاء بلومفيلد كلب. كان لا يتبع أحدًا غير سيده. كان عندما يغيب عن ناظريه لبضع دقائق يُحييه بنباحٍ عالٍ، ليُبرهن على سعادته بأنه وجد سيده، وولي نعمته. لكن الحقيقة أن الكلب لا يخلو من العيوب. حتى لو قمت على نظافته قدر استطاعتك، فمن المؤكد أنه سينشر الفوضى في الغرفة، وهذا أمر لا مفر منه. فلا يمكن للمرء أن يُعطيه حَمَّامًا ساخنًا في كل مرة قبل أن يسمح له بدخول الغرفة، كما أن حالته الصحية لا تسمح له بذلك. لكن لا يمكن لبلومفيلد أن يتحمل القذارة في غرفته، فنظافة الغرفة شيء أساسي له، وتدفعه إلى الشجار مع خادمته عدة مرات في الأسبوع الواحد، فهي للأسف لا تهتم بهذا الأمر كما ينبغي، مما يجعله يسحبها من ذراعها ليُريها الأماكن التي يجب أن تنظفها كما يريد. هذا الانضباط الصارم حقق له في غرفته نظافة تتناسب إلى حد ما مع رغباته. لو أنه أحضر كلبًا إلى الشقة فسوف يتسبب طوعًا في نشر القذارة في غرفته، وهو أمر يرفضه بكل قوة. سوف تظهر البراغيث، رفقاء الكلب. ولو ظهرت البراغيث

سيتخلى بلومفيلد على الفور عن غرفته المريحة للكلب، وسيبحث عن غرفة أخرى. فالقذارة هي عيب الكلاب الوحيد. كما أنها غالبًا ما تصاب بأمراض لا يعرفها أحد. عندها ينزوي هذا الحيوان في إحدى الزوايا، أو يترنح في أرجاء المنزل، ويسعل، ويعاني من ألم ما. عليه عندها أن يضعه في البطانية، ويصفُر له بفمه ببعض الموسيقى، أو يقدم له حليبًا. ببساطة سيهتم به، على أمل أن تكون وعكة صحية طارئة. في حين أنه قد يكون مرضًا خطيرًا ومقرفًا، ومعديًا. ولو تمتع الكلب بحالة صحية جيدة، يومًا ما سيصبح مُسِنًّا. لن يطاوعه قلبه في تلك اللحظة على التخلص من حيوانه المخلص. ثم تأتى اللحظة التي يطل فيها تقدم العمر من عين رشحه لكلب مُسِنّ. يجد نفسه أمام كلب شبه أعمى، وضعيف، وغير قادر على الحركة من كثرة الدهون. سيدفع ثمنًا باهظًا مقابل ما أعطاه له الكلب من سعادة. بقدر ما كان بلومفيلد يرغب في الحصول على كلب في تلك اللحظة، إلا أنه فضل أن يصعد السُّلَّم بمفرده لثلاثين عامًا أخرى على أن تكون حياته مُثقلة بكلب مُسِنّ، يسير بجواره وهو يجر قدميه فوق درجات السلم، ويتنهد بصوت أعلى من صوت بلومفيلد نفسه.

لذلك سيظل بلومفيلد وحيداً. فليس لديه تطلعات عذراء عجوز، تسعى إلى مرافقة كائن حي لتفرض عليه سيطرتها، وتقوم على رعايته كل يوم، وتُوَفِّر له الحماية وقد تعامله برفق — ربما تفي بهذا الغرض قطة ما، أو عصفور كناري، أو ربما سمكة ذهبية — وحتى لو لم تتمكن من هذا فستكفيها بعض الزهور عند النافذة. لكن بلومفيلد كان يريد رفيقًا،

حيوانًا لا يحتاج إلى الكثير من الرعاية، ولا تضره رفصه هنا أو هناك، ويمكنه في أسوأ الأحوال أن يقضي ليلته في الشارع.

يريد بلومفيلد رفيقًا يكون تحت تصرفه فورًا وقتما يحب، بنباحه وقفزاته ولعقه لليدين. هذا هو ما أراده بلومفيلد تحديدًا. لكنه منذ أن أدرك أن هذا لن يحدث بدون عيوب خطيرة، توقف عن التفكير في الأمر. لكن نظرًا لطبيعته المتيقظة ظلت تلك الأفكار تُراوده من وقت لآخر، تمامًا كما حدث في ذلك المساء.

فاجأه صوت قادم من الداخل وهو يُخرج المفتاح من جيبه أمام الغرفة، صوت خشخشة غريبة، صوت واضح تمامًا، لا يتوقف. فمنذ أن فكر بلومفيلد توًّا في الكلب، ذَكّرَه ما سمعه بوقع أقدام حيوان فوق أرض الغرفة، ولكن أقدام الحيوانات لا تُصدر صوت خشخشة. فلا يمكن أن تكون أقدام حيوان. فتح الباب على عجل، وأضاء النور. فاندهش لما رأى. كانت مفاجأة كبيرة! رأى كرتين بيضاوين صغيرتين من المطاط بخطوط زرقاء تقفزان إلى الأعلى وإلى أسفل جنبًا إلى جنب على أرضية الغرفة الخشبية، وما إن تلمس واحدة منهما الأرضية تكون الأخرى في السماء، ظلا هكذا بدون توقف. حدث ذات مرة، في أحد أيام المدرسة، أن رأى بلومفيلد كرات كهذه تقفز في إحدى التجارب الكهربائية المعروفة، ولكن هذه الكرات بالمقارنة كبيرة نسبيًا. وتقفز بحرية في الغرفة دون أي تجربة كهربائية. تقدم بلومفيلد منهما ليتفحصهما عن قرب، إنهما بلا شك كرتان عاديتان. ربما توجد في داخلهما كرات أخرى أصغر حجمًا، وهذا ما يصنع صوت الخشخشة.

مد بلومفيلد يديه في الهواء ليرى إن كانت هاتان الكرتان تتدليان من خيوط — لم يكن الأمر كذلك، إنهما تتحركان من تلقاء نفسيهما. لم يكن بلومفيلد المسكين طفلًا صغيرًا كي يسعد برؤية هاتين الكرتين. انتابه على العكس شعور مزعج. كم هي حياة عديمة القيمة أن يعيش في الخفاء كأعزب مُهمل، والآن شخص ما، لا يهم من يكون، اكتشف هذا السر، وأرسل له هاتين الكرتين الغريبتين.

حاول أن يمسك بواحدة منهما، ولكنها تراجعت أمامه، فاستدرجته ليتابعها في أرجاء الغرفة، إنه أمر سخيف حقًا أن يجرى هكذا خلف الكرة. توقف عن الجري وهو ينظر إليهما. استقرتا في مكانهما بلا حراك بمجرد أن توقف عن ملاحقتهما. قال لنفسه: سوف أحاول الإمساك بهما معًا، ثم تقدم نحوهما، فهربا بسرعة.

مد بلومفيلد قدميه المنفرجتين، وأجبرهما على أن يظلا في زاوية الغرفة. وأمسك بإحداهما بجوار حقيبة السفر الموجودة في ركن الغرفة. إنها كرة صغيرة باردة، تقلبت في يده وكأنها تريد أن تنزلق منها. شَعَرتْ الكرة الأخرى بأن رفيقتها في خطر، فصارت تقفز بقوة أكبر من ذي قبل. أسرعت من قفزاتها حتى وصلت إلى يد بلومفيلد، فضربته في يده، وزادت من ضرباتها بقفزات أسرع، ثم غَيَّرتْ أماكن الهجوم. قفزت إلى أعلى بعد أن عجزت عن فعل أي شيء في مواجهة اليد التي احتضنت الكرة تمامًا. ربما أرادت أن تصل إلى وجه بلومفيلد. استطاع بلومفيلد أن يمسك بتلك الكرة أيضًا. أراد أن يحبسهما في مكان ما. لكنه رأى أن هذا الإجراء الذي اتخذه ضد هاتين الكرتين الصغيرتين

غير لائق. فمن الجميل أن يكون لديه كرتان مثلهما، وسرعان ما سيصيبهما الإرهاق، وعندها سيدسهما أسفل حافظة الملابس وينتهي الأمر. مع ذلك تملك بلومفيلد الغضب، فألقى بالكرة على الأرض. الغريب في الأمر أن كرة مطاطية رقيقة وشفافة تقريبًا كهذه لم تنكسر. استأنفت الكرتان بدون تردد قفزاتهما المتناغمة على ارتفاع منخفض، تمامًا كما فعلتا من قبل.

خلع بلومفيلد ملابسه بهدوء. رتبها في دولاب كان يتفقده دائمًا ليتأكد من أن الخادمة وضعت كل شيء في مكانه الصحيح. التفت من وراء كتفيه مرة بعد مرة ناحية الكرتين اللتين بدأتا تقتربان منه وهما تتبعانه، وبدأتا تثبان خلفه مباشرة. ارتدى بلومفيلد رداء النوم، وذهب إلى ناحية الحائط المقابل ليجلب غليونًا من الغلايين الموجودة فوق الرف. قبل أن يستدير بجسده ضرب بساقه للخلف بشكل عفوي. لكن الكرتين تمكنتا من التنحي وتفاديا الضربة. تتبعته الكرتان على الفور عندما ذهب ليُحضر غليونه. كان يمشي متثاقلًا، مرتديًا خفه، ويسير بخطوات مضطربة. كل خطوة منه ترافقها خطوة من الكرتين اللتين تتابعانه. استدار بلومفيلد فجأة ليرى كيف استطاعت الكرتان أن تفعلا ما فعلتاه. لكن بمجرد أن استدار رأى الكرتين تُشَكِّلان نصف دائرة، وتقفان خلفه. وكانتا تكرران هذا في كل مرة يلتفت فيها إلى الخلف، مثل صحبة تابعة تتجنب الظهور أمام بلومفيلد. كانت محاولاتهما هذه تنم على أنهما يسعيان إلى أن يُقَدِّما نفسيهما إليه على أنهما صارتا منذ الآن في خدمته.

كان بلومفيلد معتادًا في المواقف الطارئة التي لا يستطيع فيها السيطرة على الموقف، تبني وسيلة مساعدة، وهي أن يتظاهر وكأنه لا يرى شيئًا. كانت هذه الطريقة تنجح في كثير من الأحيان، أو على الأقل تجعل الوضع أفضل. وهو يتصرف الآن بنفس الطريقة، يقف أمام رف الغلايين، ويختار واحدًا منها وهو عاقد شفتيه، ويدس التبغ في فتحة الغليون التي يمسكها بين أصابعه، ويسمح للكرتين بأن تستمرا في القفز خلفه وكأنه أمر طبيعي. لكنه تردد في أن يذهب إلى الترابيزة؛ حيث إن سماع صوت قفزات الكرتين مع وقع قدميه يجعله يشعر بشيء من الألم. لذلك وقف هناك، وبالغ في الوقوف ليملأ غليونه ويُقَدِّر المسافة التي تفصله عن الترابيزة. أخيرًا تغلب على تردده وقطع المسافة وهو يضرب بقدميه على الأرض فلم يسمع صوت قفزات الكرتين، ولكنه بالطبع عندما جلس بدأت أصواتهما خلف المقعد تعلو كما كانت.

كان يوجد أعلى الترابيزة رف في متناول يده، مُثبت على الحائط، وعليه زجاجة من البراندي، حولها مجموعة من الأكواب الصغيرة، وبجانبها كومة من نسخ عديدة من إحدى المجلات الفرنسية. اليوم وصل إليه العدد الأخير، فمد يده ليأخذه، ونسي البراندي تمامًا، كان لديه شعور بأن عليه أن يمضي قُدُمًا في أنشطته المعتادة لتعزية نفسه. لم يشعر بأي رغبة حقيقية في القراءة، وعلى العكس من عادته بأن يُقَلِّب الصفحات، واحدةً تلو الأخرى. فتح المجلة بشكل عشوائي، فرأى صورة كبيرة، أجبرته على أن يتفحصها بروية. يظهر في الصورة اجتماع

بين قيصر روسيا والرئيس الفرنسي، كان الاجتماع فوق إحدى السفن. يُحيط بهما بها عن بُعد العديد من السفن الأخرى. الدخان المنبعث من مداخنها يتلاشى في السماء الصافية، كلاهما، الرئيس والقيصر، يتجه نحو الآخر بخطوات واسعة، ويمد يده للآخر. يقف خلف القيصر والرئيس رجلان. مقارنةً بالنظرة السعيدة التي ارتسمت على وجهي الرئيس والقيصر، كانت وجوه المرافقين لهما صارمة، ونظرات كل مجموعة مصوبة على سيدها. أسفل الصورة قليلًا ـ ويبدو أن المشهد يجري فوق سطح واحدة من أكبر السفن ـ اصطفت طوابير طويلة من البحارة المرحبين بالرجلين وغير مكتملة بنهاية طرف الصورة السفلي.

بدأ بلومفيلد يتأمل الصورة باهتمام متزايد، ثم أبعدها قليلًا، وراح يُحَدِّق فيها النظر. كان دائمًا يتمتع برغبة في النظر إلى تلك المشاهد التي تتسم بالفخامة. كان يعتبر طريقة تصافح الزعماء أمرًا طبيعيًّا للغاية، وحقيقيًّا تمامًا، وغير مُتكلف، ونابعًا من القلب، فوجد كل شيء نابضًا بالحياة. يحرص منظمو اللقاء والوفود المرافقة ـ وهي بالطبع مُكَوَّنة من رجال ذوي مكانة رفيعة ودُوِّنَتْ أسماؤهم أسفل الصورة — على إظهار أهمية اللحظة التاريخية من خلال وقفتهم.

بدلاً من أن يأخذ ما يحتاجه من على الرف، جلس في هدوء، يُحَدِّق في وعاء غليونه الذي مازال مشتعلًا. كان مستلقيًّا ينتظر. فجأةً تخلى عن لامبالاته، وانتفض، ثم استدار من على الكرسي. انتبهت الكرتان كما هو مُتوقّع، أو بحكم القانون الذي يتحكم فيهما. غَيَّرَتَا من مكانهما في اللحظة التي استدار فيها بلومفيلد.

واختبأتا خلف ظهره. جلس بلومفيلد والترابيزة من خلفه، والغليون البارد في يده. بدأت الكرتان تقفزان أسفل الترابيزة. امتصت السجادة التي تقفزان عليها وقع ضرباتهما. أسعده أنه لم يسمع إلا أصواتهما المكتومة. لكي يسمعهما عليه أن ينصت جيدًا. كان بلومفيلد شديد الحرص، مما جعله يسمعهما بوضوح على الأقل حتى الآن. فبعد لحظات لن يعيرهما اهتمامه. كان بلومفيلد يرى أن نقطة الضعف الكبيرة لهاتين الكرتين هي أنهما لا تلفتان إليهما الكثير من الانتباه. يكفيه أن يضع من تحتهما سجادة أخرى أو ربما سجادتين فتصبحان عاجزتين تقريبًا. ربما فقط لفترة قصيرة. فمجرد وجودهما يعني أن لديهما قوة ما.

ربما كان وجود كلب لديه مفيد في لحظة كهذه. حيوان صغير ولطيف في استطاعته أن ينهي أمر هاتين الكرتين على الفور. تخيل الكلب وهو يطاردهما، ويقبض عليهما بأقدامه، ويطردهما من أماكنهما، أو يطاردهما في كل أرجاء الغرفة حتى تقعا بين أسنانه. يبدو أن بلومفيلد سيتدبر كلبًا في أقرب فرصة مُتاحة.

كانت الكرتان في حالة خوف من بلومفيلد، لكن لم يكن لديه أدنى رغبة في أن يدمرهما. ربما تنقصه فقط العزيمة ليفعل ذلك. عاد مساءً من العمل مرهقًا. وبدلًا من أن يأخذ حقه في الراحة وجد هذه المفاجأة في انتظاره. زاد هذا من شعوره بالإجهاد. من المؤكد أنه سيدمر هاتين الكرتين في أقرب وقت. لكنه لن يفعلها الآن. ربما غدًا. إذا نظرنا إلى هذا كله بشكلٍ مُحَايد؛ سنجد أن هاتين الكرتين تتعاملان بكل تواضع.

في إمكانهما أن تقفزا إلى الأمام من وقت لآخر لتعلنا عن نفسيهما، ثم تعودان إلى مكانهما مرةً أخرى، يمكنهما أن تقفزا إلى أعلى، وتضربا على الترابيزة، ثم تكافئان نفسيهما بالاستقرار على السجادة. لكنهما لم تفعلا ذلك. لم ترغبا في استفزاز بلومفيلد بلا طائل، واقتصرتا فقط على الحركات الضرورية.

مثل هذه الحركات الضرورية كانت كافية لأن تجعله ينصرف عن الجلوس عند الترابيزة. لم يجلس هناك سوى بضع دقائق، ثم بدأ يفكر في الذهاب للنوم. من بين الأسباب التي دعته للجلوس هو أنه لا يمكنه أن يدخن هناك لأنه ترك علبة الكبريت على المنضدة بجوار السرير، وعليه أن يذهب لإحضارها. وطالما سيذهب إلى هناك ربما يكون من الأفضل أن يظل هناك، ويستلقي على السرير. راودته فكرة على هامش أفكاره هذه. فكَّرَ في أن الكرتين في هوسهما الأعمى بملاحقته سيقفزان فوق السرير عندما يذهب إلى هناك، وسيمسك بهما رغمًا عنه وهو نائم. رفض فكرة مثلًا أن يقوم ما سيتبقى من الكرتين بالقفز. فهناك حدود حتى للأشياء الغريبة. صحيح أن الكرتين الكاملتين تقفزان بصورة غير متكررة، لكن بقايا الكرتين لن تستطيع القفز على الإطلاق، ولن تفعلاها هنا.

صاح: «قم!» ابتهج من هذه الأفكار، وانصرف نحو السرير تلاحقه الكرتان. حدث ما توقعه. عندما تقدم بالقرب من السرير قفزت إحداهما فوق السرير. ثم حدث شيء مفاجئ. انصرفت الكرة الثانية إلى أسفل السرير. لم يفكر بلومفيلد أن الكرتين يمكنهما أن تثبا حتى أسفل

السرير. غضب من تلك الكرة لأنه شعر بأن ما فعلته ليس عدلًا، فالكرة التي تثب أسفل السرير تؤدي عملها على نحو أفضل من تلك التي فوق السرير. سينتظر الآن ليرى أين ستستقر كل منهما. كان بلومفيلد يشك في أنهما سيظلان هكذا منفصلتين طويلًا. وبالفعل، بعد لحظات قفزت الكرة من على الأرض، واستقرت فوق السرير. قال بلومفيلد لنفسه: وقعتما في قبضتي! غمرته السعادة. خلع رداء النوم حتى يدلف إلى السرير. وهنا قفزت الكرة مرة أخرى إلى أسفل السرير. أصيب بإحباط كبير، وكاد أن يُصاب باليأس. يبدو أن الكرة ألقت نظرة على الوضع فوق السرير، فلم يُعجبها. تبعتها الكرة الأخرى، وبالطبع ستبقى معها هناك، لأن الوضع أسفل السرير أفضل. قال بلومفيلد لنفسه: «ستظلان تنقران طوال الليل!»، ثم ضم شفتيه وهز رأسه.

كان حزينًا، فهو لا يمكن أن يتنبأ بما قد تفعله الكرتان أثناء الليل. إنه يغرق في النوم، وسوف يتحمل ذلك الضجيج الخفيف. من أجل مزيد من الاطمئنان قام بوضع سجادتين أسفلهما، كما تعلم من خبراته السابقة. بدا الأمر وكأن لديه كلب صغير، أراد أن يجعله ينام في فراش ناعم. تضاعفت قفزات الكرتين ضعيفة وبطيئة، وكأنهما أصيبتا بالإرهاق، وغلبهما النعاس. نزل بلومفيلد على ركبتيه بجوار السرير، وأشعل بطاريته، ووجهها تحته. رأى الكرتين ساكنتين فوق السجاد، تتمايلان بهدوء، وتتكوران قليلًا ببطء. ثم ترتفعان من جديد كالعادة لتواصلا مهمتهما. ربما عندما يتفحصهما بلومفيلد تحت السرير في الصباح الباكر قد يجد الكرتين ترقدان في هدوء وبراءة كالأطفال. لكن

يبدو أنهما لن تتحملا الوثب حتى الصباح. فعندما استلقى بلومفيلد في السرير لم يسمع أي صوت. كان يسترق السمع، ويميل من فوق السرير ليستمع، لكنه لم يسمع شيئًا. لا يمكن أن يكون تأثير السجاد بهذه القوة. التفسير الوحيد أن الكرتين توقفتا عن الحركة. أو أن السجاد الناعم يعوقهما عن الارتداد بدرجة كافية، لذلك توقفتا عن الوثب، أو أنهما، وهذا هو الغالب، لن تعودا للقفز مرةً ثانية. كان يمكنه أن ينهض وينظر ليتأكد من الأمر، لكنه ارتضى بالهدوء الذي عَمّ أخيرًا. فَفَضَّلَ أن يظل مستلقيًا في سريره. لم يرغب حتى في أن تقع عيناه على الكرتين الهادئتين. أيضًا فَقَدَ رغبته في التدخين. وانقلب على جنبه، ونام على الفور.

تمنى ألا يزعجه شيء. نام يومها وهو في شدة الإرهاق. لكن القلق الشديد لم يفارقه. فزع من نومه أكثر من مرة وهو يعتقد أن شخصًا ما يطرق بابه. إنه يعرف جيدًا أن أحدًا لن يأتي. من سيأتي في الليل، ويدق باب رجل عانس وحيد! ورغم أنه يعرف كل هذا جيدًا، كان يثب من فوق السرير، ينظر في ترقب إلى الباب، ثم يفتح فمه عن آخره، وعيناه جاحظتان، وأطراف شعره ترتجف فوق جبينه الرطب. حاول أن يحصي عدد المرات التي استيقظ فيها أثناء نومه، لكن النعاس غلبه وسط ذهوله من كثرة المرات التي استيقظ فيها. خَمَّنَ المكان الذي يأتي منه صوت الطَّرقات. إنها ليست طرقات على الباب، لكنها صادرة من مكان آخر. كان عاجزًا عن التثبت من الأمر وهو ناعس. كل ما يعرفه أن خبطات كثيرة وخفيفة ظهرت في البداية، ثم سرعان ما تحولت إلى

طرقـات قويـة وكبـيرة. كـان على اسـتعداد أن يتحمـل إزعـاج تلـك الخبطات الخفيفـة، لكنـه لم يتحمـل الطرقـات. لم يتمكن من فعـل أي شيء، وكان دائمًا متأخرًا لسبب ما. لقد تأخر، وعجز لسانه عن الكلام.

فمه مفتوح كانفراجه من يتثاءب. دس وجهه بغضب في الوسائد. هكذا قضى ليلته.

أيقظته في الصباح طرقات الخادمة. تلقى تلك الطرقـات بزفـرة ارتيـاح. كان دائمًا يشكو من ضعف خبطاتها على البـاب، ومـا يتلوهـا من كلمـة «ادخل!» عنـدما يسـمعها أكثر حيويـة. صـحيح أنهـا خبطـات ضـعيفة، لكنهـا تنم عن إصـرار. الكرتـان مازالتـا تحت السـرير. هـل اسـتيقظتا، واسـتجمعتا قواهمـا على خلاف مـا حـدث معـه؟ أجـاب بلومفيلـد الخادمة، وقال: «حالًا!» نهض مسرعًا من فوق السرير مع بعض الحـذر كي يبقى الكرتين خلف ظهره. تقدم وهو يـدير لهمـا ظهـره. أدار رأسـه، ونظـر خلفـه فـوق الأرض لـيرى الكـرتين — كـاد يسـب ويلعن. أزاحت الكرتـان السـجادة بعيـدًا أسـفل السـرير مثل أطفـال نـزعت عن نفسـها الغطاء في الليل وهي تصدر تشنجات خفيفـة تصـنعها طـوال الليـل. ثم تحركتـا إلى أن أصـبحتا فـوق أرضـية الغرفـة الخشـبية العاريـة، وبـدأتا تصـدران ضـجيجهما. قـال بلومفيلـد بوجـه عـابس: «ارجعـا إلى أسـفل السـجادة!» دعـا الخادمـة للـدخول بعـدما هـدأ صـوت الكـرتين أسـفل السجادة. تقدمت الخادمة السمينة، الغبية بخطوات متثاقلة.

وضـعت طعـام الإفطـار على الترابـيزة، ثم قـامت ببعض الأعمـال الضرورية. وقف بلومفيلـد سـاكنًا لا يتحـرك، مُرتـديًا معطـف النـوم. لا يبرح مكانه عند السرير كي يمنع الكـرات من الحركـة، ويتـابع الخادمـة بنظراته ليرى إن كانت قد لاحظت شيئًا مـا. لكن نظـرًا لطرَشـها لم يكن هذا الأمر واردًا. خُيّـل إليـه أنـه يـرى الخادمـة وقـد تـوقفت هنـا وهنـاك، وتمسك بقطعة أثاث، ثم ترفع حاجبيهـا، وتسـترق السـمع. لكنـه أرجـع هذا إلى أنه لم ينل قدرًا كافيًـا من النـوم. ربمـا كـان من الأفضـل لـو أنـه أجبر الخادمة على أن تسـرع من وتـيرة عملهـا قليلًا. لكنهـا كـانت أكـثر بطئًا من أي مـرة سـابقة. كـانت تجمـع ملابس بلومفيلـد وأحذيتـه بين يديها بضجر، ثم خرجت إلى الدهليز. بقيت هنـاك طـويلًا. وصـلت إلى مسامعه خبطات رتيبة يعرفهـا قادمـة من الـدهليز وهي تـرتب الملابس. اضطر بلومفيلد طوال تلك المدة إلى أن يقف في مكانه بجـوار السـرير، لا يبرحه طالما أراد ألا تسير خلفـه هاتـان الكرتـان. اضـطر إلى أن يـترك القهوة التي يحبها ساخنة حتى صارت باردة. لم يكن في استطاعته شيء آخر سوى النظر إلى الستارة المسدلة، والضباب الذي ينقشع من خلفهـا في ضوء النهار. أخيرًا أنهت الخادمـة عملهـا، فتمنت لـه صـباحًا سـعيدًا وهمت بالانصـراف. وقبـل أن تختفي بعيـدًا تـوقفت عنـد البـاب، ثم حركت شفتيها قليلًا وألقت نظرة طويلة على بلومفيلد. أراد بلومفيلد أن يستحثها على أن تتكلم، لكنها غادرت الشقة أخيرًا. كـان بلومفيلـد يـود أن يسعى خلفها، ويصرخ فيها موبخًا. يا لها من امرأة عجوز غبية.

لكن عندما فكّر في الأمر، ليبحث عما فعلته لينزعج منها إلى هذه الدرجة لم يجد إلا سببًا تافهًا، وهو أنها لم تلاحظ شيئًا على الإطلاق. أرادت رغم ذلك أن تُعطي انطباعًا بأنها ترتاب في شيء ما. يا له من تشويش في أفكاره! كل هذا من ليلة وحيدة لم يحظَ فيها بالنوم الكافي! تفسير صغير يوضح له أرقه في تلك الليلة، وهو أنه مساء أمس انحرف عن عاداته، فلم يدخن ولم يشرب الكحول. ما توصل إليه هو الآتي: أنا أُصاب بالأرق كلما توقفت عن شرب الكحول!

سيهتم من اليوم فصاعداً بصحته أكثر من قبل. سيأخذ من علبة الدواء المنزلية الموجودة فوق ترابيزة صغيرة بجوار السرير قطعة قطن طبي، وسيصنع كرتين من القطن ليضعهما في أذنيه. ثم ينهض، ويقوم بخطوة على سبيل التجربة. صحيح أن الكرتين كانتا تلاحقانه، لكنه لم يسمع شيئًا تقريبًا. قطعة أخرى من القطن ولن يسمعهما على الإطلاق. قام بلومفيلد ببضع خطوات أخرى. قام بها دون أية مشاكل على الإطلاق. صار كل منهما معزولًا عن الآخر. بلومفيلد والكرتين.

الكرتان مرتبطتان ببعضهما، ورغم ذلك لا تزعج إحداهما الأخرى. عندما استدار بلومفيلد بسرعة، ولم تستطع إحداهما القيام بحركة سريعة مماثلة، اصطدمت ببلومفيلد عند ركبته. كانت هذه الحادثة الوحيدة. تناول بلومفيلد قهوته في هدوء. بعدها شعر بالجوع. بدا وكأنه لم يذق طعم النوم في تلك الليلة تقريبًا، وكأنه عائد من رحلة طويلة. اغتسل بماء بارد منعش، ثم ارتدى ملابسه. لم يسحب الستائر، وفضل أن يبقى في الفراش من باب الاحتياط. فهو لا يريد أن يرى إحدى

الكرتين. لكن عندما هم بمغادرة الشقة كان عليه أن يهتم بالكرتين كي لا يتابعانه في الشارع أيضًا، وهو أمر غير معقول. جاءته فكرة جيدة، ففتح خزانة الملابس الكبيرة، ووقف أمامها بظهره. وكأن الكرتين تنبأتا بما يخطط بلومفيلد له، فانتبهتا حتى لا تدخلا إلى الخزانة، وراحت تستفيد من الفراغ بين الخزانة وبين بلومفيلد. ولو اضطرتا فسوف تقفزان إلى داخل الخزانة، ثم تهربان على الفور من الظلام الدامس في داخلها. فلا يمكن الخروج إلا من جانب الخزانة. ومخالفة للنظام الذي تلتزمان به تقفان بجانب بلومفيلد. لكن حيلهما الصغيرة لم تساعدهما في أكثر من ذلك. فقد تراجع بلومفيلد إلى داخل الخزانة، واضطرا إلى ملاحقته هناك بالطبع. هكذا انتهى أمرهما. ففي قاع الخزانة توجد أشياء مختلفة صغيرة، مثل الأحذية، والصناديق، والحقائب الصغيرة، وهي مُرتبة بطريقةٍ جيدة — وهو ما أسف له بلومفيلد — لكنها تعوق الكرتين بصورة كبيرة. فَتَحَ بلومفيلد باب الخزانة قليلًا، ثم غادر الخزانة بقفزات واسعة لم يفعلها منذ أعوام طويلة. وصفع باب الخزانة من خلفه، ثم أغلقه بالمفتاح. هكذا صارت الكرتان محبوستين. قال لنفسه: «لقد نجحت!» جفف عرقه من على وجهه. صدر ضجيج مرتفع من داخل الخزانة! أعطى هذا المشهد انطباعًا بأن اليأس قد حل بهما. لكن بلومفيلد كان سعيدًا. ترك الغرفة. وبدا له الدهليز الخالي واحة جميلة. نزع قطع القطن من أذنه. أثار الضجيج العالي الذي انتشر في أرجاء البيت الحماس في نفسه. لم يكن في الشارع إلا بعض المشاة في هذا الوقت المبكر من الصباح.

وقف صبي يبلغ من العمر عشر سنوات أسفل البيت في الدهليز أمام باب قصير يؤدي إلى شقة الخادمة بالدور الأرضي. يشبه أمه كثيرًا. لا يحمل وجهه الطفولي أي علامة من علامات تقدم العمر الكريهة. يقف مُقوَّس الساقين، يضع يديه في جيبيه، ويلهث. فهو يعاني من التهاب في الغدة الدرقية ويتنفس بصعوبة. في أوقات أخرى كان بلومفيلد يُسرع الخطى عندما كان يقابل الصبي في طريقه حتى لا يضطر إلى رؤية هذا المشهد. أما اليوم فلديه الرغبة في أن يذهب نحوه. ورغم أن هذا الصبي قد جاء إلى العالم لأم كهذه، ويحمل كل السمات التي تُشير إلى أصله، إلا أنه مازال طفلًا، يحمل في رأسه الصغيرة هذه أفكار الأطفال. ولو خاطبه أحدهم بلغة مفهومة وسأله عن أي شيء فغالبًا سيجيبه بكلمات بريئة وبكل الاحترام. عندها قد يجهد الإنسان نفسه، ويمد يده على وجهه ليلاطفه. هكذا راح يفكر بلومفيلد وهو يشق طريقه. اكتشف بعد أن صار في عرض الشارع أن الجو صحوًا أكثر مما يبدو خلف النافذة. انقشعت شبورة الصباح، وكشفت عن بقع زرقاء في سماء غسلتها رياح قوية. كان عليه أن يشكر الكرتين على أنه خرج من الشقة قبل موعده المعتاد. نسي الجرائد التي لم يقرأها على الترابيزة. في كل الأحوال أصبح لديه المزيد من الوقت كي يمشي متمهلًا. أمر جميل أن تتقلص همومه منذ أن انفصل عن تلك الكرات. عندما كانتا تلاحقانه بدا الأمر كأنهما جزء منه، لا ينفصل عنه، وعند الحكم على شخصه ستكونان جزءًا من هذا الحكم. لكنهما صارتا الآن مجرد لعبة في البيت، في خزانة الملابس. ورغم هذا رأى بلومفيلد أنه

قد يبطل عمل هاتين الكرتين بصورة أفضل لو أنه أعادهما إلى مهمتهما الأصلية. كان الصبي مازال يقف في الدهليز. قد يعطيهما بلومفيلد له كهدية أو يعيرهما إياه. لو أهداهما له فسيكون هذا بمثابة أمر بتدميرهما. ستكون قيمتهما في يدي الصبي أقل من قيمتهما وهما في الخزانة، حتى ولو حافظ عليهما. سيرى كل سكان البيت الصبي وهو يلعب بهما. سينضم إليه أطفال آخرين. ستتحول الكرتان في النهاية وإلى الأبد إلى مجرد كرات للهو، وستتوقفان عن كونهما رفقاء بلومفيلد. عاد بلومفيلد إلى البيت مرة أخرى. نزل الصبي على الدرج المؤدي إلى القبو، وهمّ بفتح الباب. نادى بلومفيلد على الصبي، ونطق اسمه الذي يدعو إلى السخرية مثل كل شيء يخص ذلك الصبي، وقال له: «يا ألفريد، يا ألفريد!» تردد الصبي طويلًا. أضاف بلومفيلد: «تعال! سأعطيك شيئًا!» خرجت من الباب المقابل اثنتان من أولاد الخادمة، ووقفتا على يمين وعلى يسار بلومفيلد تتابعانه بفضول. فهمتا الأمر بسرعة أكبر من ذلك الصبي، وتعجبتا من أنه لم يذهب معه على الفور. أومأتا لبلومفيلد وهما تراقبانه، وتتطلعان بشغف إلى الهدية التي تنتظر ألفريد. كاد الفضول يقتلهما، تقفزان من قدم إلى قدم. ابتسم لهما بلومفيلد وللصبي أيضًا.

أخيرًا انتبه الصبي للأمر، وبدأ يصعد السلم ببلادة وبخطوات ثقيلة. لم يُلقِ بالاً إلى أمه التي ظهرت خلفه أسفل الدرج عند باب القبو. رفع بلومفيلد صوته كي تسمعه الخادمة، وتنصاع إلى أوامره عند الضرورة. قال بلومفيلد: «إنهما عندي هناك، في الغرفة. كرتان جميلتان.

أتريدهما؟» قبض الفتى على شفتيه، ولم يعرف ماذا يفعل. استدار نحو أمه أسفل الدرج، ونظر إليها متسائلًا. التفّت الطفلتان حول بلومفيلد على الفور، تقفزان من حوله، وتناشدانه بأن يعطيهما الكرتين. قال بلومفيلد لهما وهو ينتظر ردًا من الصبي: «أنتما أيضًا يمكنكما اللعب بهما» كان يمكن أن يعطي الكرتين للفتاتين في الحال. لكنه رأى أن هذا قد يكون تصرفًا غير مسؤول، وأن ثقته بالصبي قد زادت الآن. تشاور الصبي مع أمه دون أن ينطق بكلمة واحدة، ثم أومأ بالموافقة على طلب بلومفيلد المتزايد. قال بلومفيلد الذي تغاضى بكل سرور عن أنه لن يلقى عرفانًا منه مقابل هذه الهدية: «احترس إذن. مفتاح غرفتي مع والدتك. يجب أن تأخذه منها، وأنا سأعطيك مفتاح الخزانة، وهناك ستجد الكرتين. بعد أن تأخذهما، أغلق الخزانة وباب الغرفة جيدًا! يمكن أن تفعل بالكرتين ما تشاء. ولست مضطرًا إلى أن تُعيدهما لي. هل فهمت؟» لكن الصبي للأسف لم يفهم. أراد بلومفيلد أن يشرح لهذا الصبي الأبله كل شيء بوضوح. لذلك كَرَّرَ عليه ما قاله عدة مرات. كَرَّرَ له الحديث عن المفاتيح، وعن الغرفة، وعن الخزانة. رغم ذلك ظل الصبي يُحَدِّق فيه، وكأنه ليس رجلًا يعطيه هدية، بل رجل يُغرِّر به. بالطبع فهمت الفتاتان الأمر. وراحتا تعبثان في المفاتيح بأيديهما. قال بلومفيلد وهو مضطرب: «انتظروا!» كان الوقت يمر بسرعة، وعليه أن يتصرف بسرعة. كان يُفضل أن تدرك الخادمة الأمر، وتجيبه بأنهما فهمتا ما قاله، وأنها ستتولى الأمر بطريقة سليمة بدلاً من الصبي. بدلاً من هذا لم تبرح مكانها بجوار الباب أسفل الدرج،

وراحت تبتسم بخجل، وكأنها لم تسمع ما قاله. ربما تعتقد أن بلومفيلد تحمس لابنها فجأةً، ويطلب منه أن يُعَلِّمه جدول الضرب. لكن بلومفيلد لا يمكنه أن ينزل على الدرج، ويذهب إليها، ويصرخ في أذنها ليسألها الرحمة بأن تخلصه من هاتين الكرتين. جاهد نفسه كثيرًا كي يأتمن هذه الأسرة على مفتاح الخزانة يومًا كاملًا. أعطى الصبي المفتاح، بدلًا من أن يأخذه إلى أعلى ويُعطيه له هناك. لم يقصد بهذا أن يوفر على نفسه العناء. لكن لا يمكنه أن يُعطي الصبي الكرتين ثم يأخذهما منه مرة أخرى — وهو أمر وارد بالتأكيد — عندما تتبعانه وكأنهما حاشيته. راح بلومفيلد يشرح الأمر للصبي من جديد، ثم سأله بجزع: «أمازلت لا تفهم ما أقوله؟» لكن تعبيرات وجه الطفل الخاوية استوقفته وهو ينظر إليه وجهًا لوجه. مثل هذه التعبيرات الجوفاء تُصيب الإنسان بالشلل: من شأنها أن تجعل الإنسان يقول أكثر مما ينبغي، فقط لكي يملأ هذا الفراغ بالاستيعاب.

قالت الفتاتان: «نحن سوف نُحضر له الكرتين» إنهما فتاتان ذكيتان. عرفتا أنهما سيحصلان على الكرتين من خلال ذلك الصبي، وأن عليهما تدبر هذه الوساطة.

دقت الساعة في غرفة الخادمة، ودعت بلومفيلد إلى الهرولة. قال بلومفيلد: «خذا إذن المفتاح» فالتقطتا المفتاح من يده قبل أن يعطيه لهما. إنه كان سيعطي المفتاح للصبي وهو أكثر ثقة. قال بلومفيلد: «خذا مفتاح الغرفة من السيدة في القبو. ويجب أن تعيدا لها المفتاح بعد أن تحضرا الكرتين» صاحت الفتاتان: «نعم، نعم»، ثم نزلتا على

الفور فوق الدرج. كانتا تعرفان كل شيء، كل شيء، وصار بلومفيلد وكأنه أُصيب بعدوى البلادة من ذلك الصبي، فلم يفهم كيف استطاعت الفتاتان أن تفهما كل ما قاله بهذه السرعة.

راحت كلاهما تجذبان الخادمة من تنورتها أسفل الدرج. كان مشهدًا يثير الفضول، لكن بلومفيلد لم يكن قادرًا على مواصلة النظر إليهما وهما تنفذان المهمة.

ليس فقط لأنه قد تأخر عن موعده، بل لأنه لم يرغب في أن يكون متواجدًا وهما تُحَرِّرَان الكرتين. أراد أن يكون بعيدًا عن الحدث، تفصله عنه بضعة شوارع، حتى تفتح الفتاتان باب غرفته. فهو لا يمكن أن يتكهن بما ستفعله الكرتان. خرج للمرة الثانية إلى الشارع. ألقى نظرة خاطفة عليهم، ليرى أمهم وهي تحاول أن تمنعهما، بينما تقدم الفتى بقدميه المقوستين ليساعد أمه. لم يفهم بلومفيلد السبب الذي يجعل أسرة مثل أسرة الخادمة هذه سعيدة، وتتكاثر أيضًا.

بدأت أفكار تتعلق بالعمل تُسيطر على بلومفيلد وهو في طريقه إلى مصنع الملابس الذي يعمل به. أسرع من خطواته. كان أول من وصل إلى المكتب رغم تأخره بسبب ذلك الصبي. كان المكان عبارة عن غرفة محاطة بالزجاج. بها ترابيزة واحدة يجلس عليها بلومفيلد، ومكتبان صغيران مخصصان لمرؤوسيه المتدربين. المكتبان صغيران وضيقان للغاية وكأنهما مخصصان لأطفال المدارس. كانت الغرفة

ضيقة لدرجة لا تسمح للمتدربين بالجلوس. ولو جلسوا لما تبقى مكان لمقعد بلومفيلد.

لذلك كانوا يقفون طوال اليوم محشورين خلف ترابيزاتهم. من المؤكد أن ظروف عمل كهذه لا تعجبهم. كذلك كان يصعب على بلومفيلد مراقبتهم. صحيح أنهم كانوا منكفئين بحماس فوق الترابيزة لوقت طويل، لكن ليس بسبب العمل، بل كانوا يتهامسون وأحيانًا يغطون في النوم. لم يكن بلومفيلد راضٍ عنهم، لم يكونوا عونًا له، ويمكنه الاعتماد عليهم في عمل شاق يقع على عاتقه. كان مسؤولًا عن تشغيل وتمويل عاملات حياكة، تقمن بإعداد منتجات معينة ودقيقة لصالح المصنع. كان من الضروري متابعة كل شيء عن قرب من أجل التحكم في حجم الأعمال. منذ أن مات رئيس بلومفيلد المباشر منذ عدة سنوات لم يعد أحد يجيد العمل مثله. لذلك لم يسمح بلومفيلد لأي شخص أن يعطي لنفسه الحق في تقييمه. على سبيل المثال، كان السيد أوتومار مدير المصنع يُحقّر بشكل ملحوظ من العمل الذي يؤديه بلومفيلد. هو بالطبع يعترف بدوره على مدة عشرين عامًا، وما فعله للمصنع. لم يكن احترامه لهذا الدور نابعًا من التزام عليه، بل كان بالفعل يعتبر بلومفيلد رجلًا أمينًا، ومحل ثقة. رغم ذلك كان يحُطّ من قدره في كل ما يقوم به. كان يعتقد أن العمل يمكن إنجازه على نحو أكثر بساطة، وبطريقة أكثر فعالية من الطريقة التي يتبعها بلومفيلد. هناك اعتقاد لا يستطيع إلا أن يصدقه، وهو أن السيد أوتومار لا يظهر كثيرًا في القسم الذي يعمل فيه بلومفيلد كي يوفر على نفسه الغضب الذي ينتابه وهو يرى طريقته

في العمل. لم يكن بلومفيلد سعيداً بمثل هذا الجحود، لكنه أُسقِط في يده. فلم يكن في مقدوره إجبار أوتومار على أن يبقى مثلًا لمدة شهر كامل في القسم الذي يعمل به بلومفيلد. يجرب طُرقًا مختلفة للعمل تناسب ما يقومون به في القسم، ويستخدم أنظمته المزعومة والتي يعتبرها جيدة، حتى يتأكد مما تأكد منه بلومفيلد بأن الطرق الجديدة ستجعل الأمور تسوء في القسم، وهو أمر لا جدال فيه. لذلك كان بلومفيلد يواصل عمله كالمعتاد. أحيانًا يتملكه الخوف عندما يظهر أوتومار في القسم بعد غياب طويل. فيقوم، بحكم التزامه تجاه رئيسه، بمحاولة كسولة بشرح عمل حائكة هنا أو هناك للسيد أوتومار الذي يومئ له ببلادة وبعينين مسدلتين، ثم يواصل السير. لم يكن مشغولًا بمثل هذا الإنكار أكثر من تفكيره في أنه يومًا ما سيكون عليه ترك هذا العمل، وما سيتبع ذلك من فوضى كبيرة لن تنتهي. لم يكن بلومفيلد يثق في أن أحدًا في كل المصنع يمكنه أن يحل محله، ويؤدي المهام بالطريقة نفسها التي حالت دون حدوث المشاكل الكبيرة على الأقل في الشركة على مدى أشهر طويلة. وطالما قلل رئيس العمل من قيمة موظف عنده فيجب على الأقل أن يتفوق عليه في شيء ما. لذلك كانوا جميعهم يقللون من قيمة عمل بلومفيلد. لم يؤمن أحدهم يومًا بضرورة أن يعمل لوقت ما في القسم التابع لبلومفيلد. عندما كانوا يُوظفون أشخاصًا جددًا، لم يفكر أحدهم في أن يعمل عنده طوعًا. لذلك كان القسم المسؤول عنه بلومفيلد في حاجة إلى دم جديد. مرت أسابيع من الحروب الكبيرة، يطالب فيها بتعيين مُتدرّب واحد جديد. عندما أخذ

بلومفيلد على عاتقه كل أعمال القسم، لم يكن يساعده فيها سوى موظف واحد.

كان يتردد يوميًا على مكتب أوتومار. يشرح له بهدوء وبإسهاب أسباب الحاجة الملحة لمثل هذا المتدرب الجديد في قسمه. لم تنبع هذه الحاجة من رغبته في أن يستريح من العمل. لم يكن هذا ما يعنيه. إنه يعمل فوق طاقته، ولا يفكر في أن يتوقف عن هذا. كان يريد أن يدرك السيد أوتومار أن الشركة نمت مع الوقت، وبالتالي تَوَسَّعتْ معها جميع أقسامها. رغم ذلك لم يأخذ مدير المصنع القسم الذي يعمل به بلومفيلد في الاعتبار. زادت عنده المهام. عندما بدأ بلومفيلد العمل في القسم يومًا ما — لا يمكن أن يتذكر السيد أوتومار تلك الفترة — كان به ما يقرب من عشرة عاملات حياكة. صار عددهم اليوم يتراوح بين خمسين وستين عاملة.

عمل كهذا يتطلب مزيداً من المساعدين. كان بإمكان بلومفيلد أن يُراهن على أن يفعل كل ما في وسعه من أجل سير العمل على ما يرام، لكنه من الآن فصاعداً لا يمكنه أن يضمن هذا. لم يرفض السيد أوتومار يومًا مطالب بلومفيلد بشكل مباشر. فلا يمكن لموظف محنك مثله أن يفعل شيئًا كهذا. لكن كان يعطيه وعودًا منقوصة. فيتحدث مع أُناس آخرين بينما بلومفيلد يعرض عليه طلباته، وسرعان ما ينسى الأمر برمته بعد عدة أيام. كان أسلوبًا مهينًا في معالجة الأمر. لم يأخذه بلومفيلد على هذا المحمل، فهو ليس بواهم على الإطلاق. إن مشاعر الاحترام والتقدير مهمة، ولا يمكن له أن يستغني عنها. رغم كل شيء ظل في

مكانه قدر استطاعته. إنه على أية حال صاحب حق، ويومًا ما سيحصل على التقدير الذي يستحقه حتى ولو تأخر كثيرًا. في الواقع أن بلومفيلد حصل على اثنين من المتدربين في النهاية. لكن يا لهم من متدربين! فبدلًا من أن يرفض طلبه، عَبَّرَ عن عدم تقديره للقسم بأن أعطاه هذين المتدربين. ماطل بلومفيلد طويلًا وهو يبحث عن مثل هذين المتدربين، ولم يعثر عليهما بالطبع إلا بعد عناء وبحث طويل. لم يستطع بلومفيلد وقتها أن يشكو. كان يتوقع الإجابة. فها هو قد حصل على اثنين من المتدربين رغم أنه كان يطالب بواحد فقط. هكذا تدبر أوتومار الأمر بكل دهاء. لكن بلومفيلد رغم ذلك كان يشتكي منهما. دفعه إلى ذلك الموقف الحرج الذي كان فيه، وليس الأمل في أن يتم تدارك الأمر. لم تكن شكواه صريحة، بل كانت عرضية وكلما سنحت الظروف بذلك. شاع بين الخبثاء من زملائه أن أحدهم تساءل باستنكار أمام أوتومار: كيف لبلومفيلد أن يشكو وقد حصل على دعم غير عادي! يُقال إن أوتومار كان يجيب بأن بلومفيلد بالفعل مازال يشكو، وهو على حق. نظر أوتومار في الأمر، وقرر أن يمنح بلومفيلد بالتدريج عاملًا لكل حائكة، وهو ما يعنى قُرابة ستين عاملًا. وحتى لو لم يكفِ هذا العدد فسيرسل المزيد، ولن يتوقف حتى يرى هذا النمو الكبير على مدار الأيام في القسم الذي يعمل به بلومفيلد، قد صار مثاليًا. بالطبع هذا التعليق يليق تمامًا بطريقة أوتومار في التعبير. لم يشك بلومفيلد في هذا على الإطلاق، لكنه كان أبعد ما يكون عن أن يقول أوتومار شيئًا كهذا عن بلومفيلد. لم تكن سوى ترهات من بنات أفكار هؤلاء

المتنطعين في مكـاتب الطـابق الأول. كـان بلومفيلـد يتجـاوز تلـك الأقاويل، وليته استطاع أن يتجاوز وجود المتدربين عنده. فيومًا ما جاءا عنـده ولا يمكنـه بعـدها التخلص منهمـا. يـا لهمـا من طفلين شـاحبين، وهزيلين! طبقًا للأوراق من المفترض أنهمـا أنهيـا مرحلـة التعليم. لكنـه في الواقـع لم يسـتطع تصـديق هـذا. لا يمكن حـتى أن تـأتمن مدرسًـا عليهما. بالكاد يحتاجان إلى مربية أطفال. لم يتمكنا من الحركة بطريقة منطقية. عندما يتركهما الإنسان للحظة دون مراقبة، ينتشر الـوهن فجـأة في أوصالهما، ويقفان مائلين محنيين في أحـد الأركـان. كـان بلومفيلـد يحاول استفزازهما، ويدعو لهما بأن يصبحا كسـيحين إلى الأبـد طالمـا استسلما لهـذا الكسـل. كـانت جـرأة كبـيرة أن تطلب منهمـا القيـام بـأي عمل. ذات مرة وقف أحدهما على بعد خطوات من شيء كـان عليـه أن يحضـره، فـانطلق بحمـاسٍ مُبـالغ فيـه، وارتطمت ركبتـه بالمنضـدة فانكسرت. كانت الغرفة وقتها مليئة بعاملات الحياكة، والأرفف زاخـرة بالبضـاعة. اضـطر بلومفيلـد إلى تـرك كـل شـيء، وأخـذ المتـدرب وهـو يبكي إلى المكتب، وضـع لـه هنـاك بعض الأربطـة على الجـرح. ذلـك الحماس من المتدربين كان مجرد حماس شكلي. كانا يريدان أحيانًا أن ينالا بعض الاستحسان مثل الأطفال. لكنهما غالبًا، أو دائمًـا مـا أرادا أن يُضللا رئيسـهما ويخـدعاه. ذات مـرة ذهب عنـدهما بلومفيلـد في ذروة وقت العمل وهو غارق في عرقه. وجدهما مختبئين بين أربطة البضاعة، ويتبادلان طوابع البريـد. ودّ لـو ضـربهما بقبضـة يـده في رأسيهما. إنهـا العقوبة الوحيدة الملائمـة على تصـرف كهـذا. لكنهمـا كانـا طفلين، ولا

يمكن أن يـؤذي بلومفيلـد طفلًا. تواصـلت معاناتـه معهمـا على هـذا المنـوال. كـان بلومفيلـد يتخيـل في البدايـة أن المتـدربين سيكونان لـه بمثابة مساعدين مباشرين، يحتاجهما وقت توزيع البضاعة الـتي تتطلب الكثير من الجهد واليقظة. كان يتصور أنه سيقف بمفـرده في مكـان مـا خلف الترابيزة، يتابع بالطبع ما يحدث، ويقوم بتسجيل البضاعة، بينمـا يسعى المتدربان هنا وهناك بناءً على أوامره، ويُصَنِّفان كـل شـيء. كـان يرى أن نظرَه الـذي رغم قوتـه لا يمكن أن يصـل إلى كـل شـيء في هـذا الزخم الكبير، سوف يُعَوِّضَه بمساعدة المتدربين، وأن هـذين المتـدربين سيكتسـبان الخـبرة مـع الـوقت، وسيتصـرفان باسـتقلالية في الأمـور التفصيلية دون الحاجة إلى أوامره. بمرور الوقت سـيتعلمان التفرقـة بين عاملات الحياكة، خاصـةً فيمـا يتعلـق باحتياجـات البضـاعة ومصـداقية كـل منهن. لكن هـذين المتـدربين برهنـا على أنهـا كـانت مجـرد آمـال عقيمـة. قـرر بلومفيلـد في وقت مبكـر أنـه لا يجب أن يسـمح لهمـا بالتحدث مع عاملات الحياكة. في الواقع أنهما لم يقتربا منذ البداية من بعض عـاملات الحياكـة لأنهمـا كانـا ينفـران منهن، أو يخافـان منهن. أُعجِبا ببعضهن، وكانا كثيرًا ما يقتربـان من أبـواب غُـرفهن، يلبيـان لهن رغباتهن، ويدسان لهن الأشياء سرًا في أيديهن.

كان مسموحًا لعاملات الحياكة تقبل كل شيء. كان المتدربان يجمعان فوق أحد الرفوف الفارغة قصاصات الأقمشـة، وبقايـا القمـاش، وأيضًـا بعض الأشياء التافهة المستهلكة ويعطيانهـا للمعجبـات منهن. يُلَوِّحـان لهن من بعيـد بسـعادة دون أن يراهمـا بلومفيلـد. وكانـا يتلقيـان منهن

الحلوى مكافأةً لهما على ما يقومان به. كان بلومفيلد يقاوم هذين المعتوهين من البداية. كان دائمًا يصرفهما إلى خلف الترابيزة عند قدوم العاملات. كان المتدربان يعتبران أن هذا تصرفًا ظالمًا، فيعبسان، ويثنيان شفاههما بتمرد. كانا أحيانًا يطرقان على الحوائط الزجاجية بصوت مسموع كي ينبها العاملات إلى المعاملة السيئة التي يلقيانها من بلومفيلد على حد قولهما.

لم يفهما أنهما يرتكبان أخطاءً. كانا يحضران إلى العمل متأخرين دائمًا. كان بلومفيلد، رئيسهما في العمل، يعتبر منذ شبابه أنه من الطبيعي أن يحضر إلى مكان عمله نصف ساعة قبل بداية الدوام على الأقل — لم يكن هذا خنوعًا أو مبالغة في أداء عمله، بل كان يفعله من باب اللياقة. كان ينتظر مرؤوسيه المتدربين أكثر من ساعة غالبًا.

جاء إلى العمل، ثم وقف كالعادة خلف الترابيزة في صالة العمل وهو يلوك الطعام في فمه، ثم حمل ورقة الحساب في كتيبات صغيرة وأعطاها للعاملات. ثم سرعان ما استغرق في العمل تمامًا، ولم يفكر في أي شيء غيره. انطلق أحد المتدربين إلى داخل الصالة، بدا وكأنه سيسقط على الأرض في أية لحظة. يمسك بإحدى يديه شيئًا ما، ويضغط بيده الأخرى على صدره وهو يتنفس بصعوبة. لم يكن هذا يعنى إلا محاولة لاختلاق عذر على حضوره إلى العمل متأخرًا. كان عذرًا سخيفًا تجاهله بلومفيلد عن عمد. لو أنه لم يتصرف بهذه الطريقة لكان عليه أن يدفع لهذا الفتى بعد انتهاء وقت الخدمة. نظر للحظات إلى ذلك الفتى، ثم أشار بيده في هدوء نحو الترابيزة، وعاد بعدها

للعمل. كان المتوقع أن يعترف المتدرب بالفضل لرئيسه ويُسرع عائدًا إلى مكتبه. لكنه لم يفعل. تلكأ في سيره، وهو يمشي على أطراف أصابعه، يضع قدمًا أمام الأخرى بكل هدوء. هل كان يسخر من رئيسه؟ لم يكن الأمر كذلك على ما يبدو. إنه مجرد خليط من الرضا بالنفس والخوف، الذي يقف الإنسان أمامه عاجزًا. لم يكن عنده تفسير آخر. جاء بلومفيلد يومًا متأخرًا عن العمل على غير العادة. لمح فجأةً وسط سحابة التراب التي نشرها عامل بسيط في الهواء بالمكنسة المتدربين يسيران في الشارع، ويتوجهان إلى المصنع. كان ينتظر ليسجل حضوره — لم يكن يحب إطلاقًا تسجيل نفسه في كشف الحضور.

كان أحدهما يتأبط ذراع الآخر، يبدو أنهما يناقشان أمورًا هامة، من الواضح أنها أمور هامة، وتتعلق بالعمل. كانا يبطئان من خطواتهما كلما اقتربا من الباب الزجاجي. ثم أمسك أحدهما بمقبض الباب، لا يفتحه وهو يواصل الحديث، ويسترقان السمع ويبتسمان. صاح بلومفيلد على أحد العمال وهو يمد ذراعه: «افتح الباب لهذين السيدين!» دخل الرجلان إلى المبنى. لم يكن بلومفيلد يرغب في الشجار. لم يرد التحية، وتوجه إلى مكتبه. بدأ عملية الإحصاء وهو يسترق النظر من وقت لآخر ليرى ما يفعله الرجلان. كان الإرهاق الشديد باديًا على أحدهما، فراح يفرك عينيه. وبعد أن علّق معطفه فوق الحمَّالة، استغل الفرصة وأسند جسمه على الحائط. كان نشيطًا وهو يسير في الشارع، لكن وجوده في العمل الآن أصابه بالإرهاق! كان المتدرب الثاني على العكس مقبلًا على العمل، لكن بشكل انتقائي.

كانت أمنيته منذ البداية أن يجمع القمامة. غير أن عملًا كهذا ليس من اختصاصه، فجمع القمامة من مهام عامل القمامة. لم يعترض بلومفيلد أن يقوم المتدرب بتنظيف المكان، فليفعل إن أراد. لن يكون أسوأ من عامل النظافة على أي حال. لكن عليه أن يحضر إلى العمل قبل الموعد طالما أراد التنظيف، وقبل أن يشرع عامل النظافة في عمله. عليه ألا يهدر الوقت المخصص للأعمال المكتبية. لكن بما أن هذا الصبي لا يعي قولًا، فليترك له عامل النظافة ـ ذلك العجوز الأعمى، الذي لا يتحمله مديره في أي قسم آخر، والذي يعيش فقط من رحمة الله ورأفة مديره به ـ فليترك له مكانه، وليعطِ المقشة لصبي أخرق مثله. من المؤكد أنه سيكف عندها عن التنظيف. سيهرول خلف عامل النظافة وهو يحمل المقشة، وسيحاول إقناعه لكي يتولي هو التنظيف. لكن يبدو أن عامل النظافة كان يأخذ عمله بكل الجدية.

أمسك المقشة بقوة بيديه المرتعشتين، وما إن اقترب منه الرجل حتى توقف فورًا عن التنظيف كي يُوَجِّه كل انتباهه للإمساك بالمقشة. لم يكن المتدرب يخاطبه، فهو يخاف بلومفيلد الذي يقوم بالإحصاء. ولن تكون الكلمات مفيدة على أية حال، لأن عامل النظافة لم يكن يسمع إلا الصراخ القوي. قام المتدرب بجذب العامل من ذراعه. كان العامل يعرف ما يريده، فتطلع إلى المتدرب بغضب، وهز رأسه، وسحب المقشة، ثم وضعها على صدره. عقد المتدرب يديه يتوسل إليه. لكن بلا طائل.

لم تسفر توسلاته عن أن شيء. لكنه كان يجب أن يتوسل، مجرد رغبة في نفسه في أن يتوسل. كان المتدرب الثاني يتابع كل شيء بضحكات مكتومة، وهو يعتقد على ما يبدو أن بلومفيلد لا يسمعه، وهذا أمر غريب. لم تؤثر توسلات المتدرب في عامل النظافة على الإطلاق. استدار وهو يرى أن في إمكانه مواصلة عمله بكل هدوء. لكن المتدرب راح يقفز على أطراف أصابعه، يلاحقه من جانب إلى آخر وهو يفرك راحتيه توسلًا. تكررت حركات عامل النظافة وقفزات المتدرب مرات عدة.

شعر عامل النظافة أنه مُطوَّق من كل الجهات، وأنه سيُصاب بالإرهاق قبل ذلك المتدرب – وهو ما كان عليه أن يدركه منذ البداية بكل بساطة. لذلك راح يطلب المساعدة، ويهدد المتدرب بإشارة من أصبعه نحو بلومفيلد، بأنه سوف يشكوه عنده ما لم يتوقف على الفور. أدرك المتدرب أنه طالما عزم على أخذ المقشة فعليه أن يُسرع. مد يديه بقسوة وحاول انتزاعها منه. صرخات عفوية من المتدرب الثاني أنبأت باقتراب القرار. راح العامل يُدافع عن المقشة، فتراجع خطوة للخلف وهو يسحبها معه. لكن المتدرب لم يستسلم. قفز إلى الأمام بفم مفتوح وعينين لامعتين. أراد العامل أن يهرب، لكن ساقيه الضعيفتين لم تسعفاه. جذب المتدرب المقشة، لم يمسك بها على الفور، لكنه على الأقل تمكن من أن يسقطها على الأرض. وهكذا فقدها العامل، والمتدرب أيضًا. فما إن سقطت على الأرض حتى تسمر الثلاثة في مكانهم: المتدربان والعامل. وها هو بلومفيلد يرى أمامه الموقف برمته.

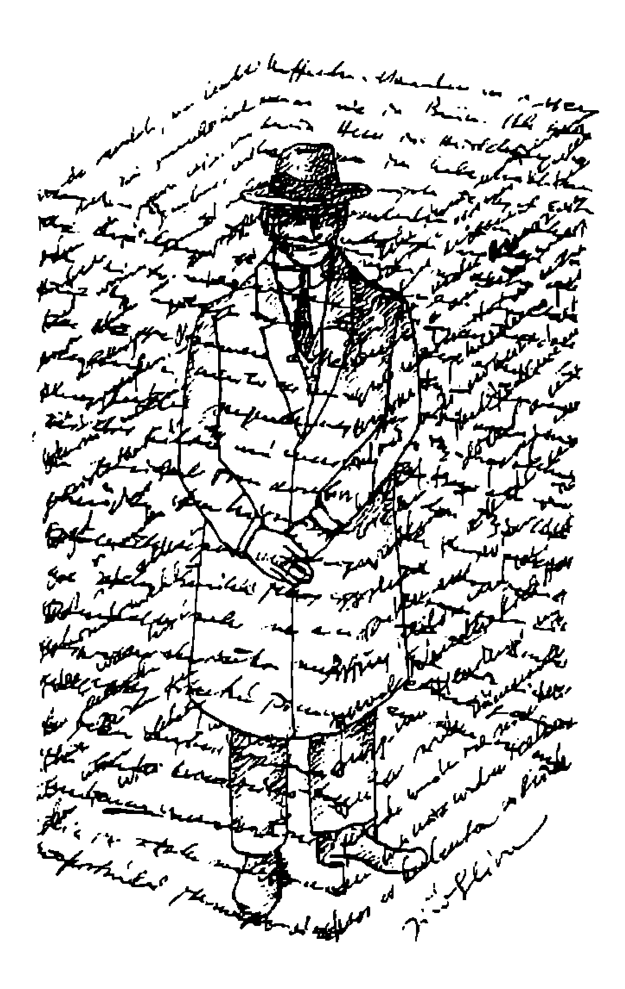
نظر بلومفيلد من نافذته الصغيرة وكأنه لم ينتبه لما يحدث إلا الآن. رمقهم واحداً بعد الآخر بنظرة حادة مُتفحصة، ثم نظر إلى المقشة الملقاة على الأرض. ساد الصمت فترة طويلة، لكن المتدرب المُتهم بكل ما حدث لم يستطع كبت رغبته في حمل المقشة، فتحرك رغم كل شيء، بحذر بالطبع، وكأنه مقبل على الإمساك بحيوان وليس بمقشة. التقط المقشة، ثم راح يحركها فوق بلاط الأرضية. لكن سرعان ما ألقاها على الأرض عندما هَمَّ بلومفيلد، وخرج إليهم. صاح بلومفيلد: «أنتما! انصرفا إلى عملكما، وكفا عن الإزعاج!» ثم مد يديه ليشير لهما نحو ترابيزاتهما.

استجابا على الفور. لم تكن استجابة خجولة، برأس متدلية، بل مَرّا ببلومفيلد بكل قسوة، وألقيا عليه نظرة تحدٍ وكأنهما أرادا أن يمنعاه من أن يعاقبهما. كان من المفترض أن يتعلما من خبراتهما بشكلٍ كاف، ويستفيدا من تسامح بلومفيلد معهما. لكنهما كانا يُبَالغان في قلقهما، ويسعيان إلى الدفاع عن حقوقهما الحقيقية أو المصطنعة بلا هوادة.

التحول[4]

4في الفترة من عام 1909 وحتى 1915، حاول «كافكا» التخلص من العزلة التي كان يعيشها في براج؛ فسافر مع صديقه «ماكس برود» إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا.

ورغم ذلك فشلت محاولات الخروج من تلك العزلة. وبدأ، أثناء هذه الفترة، في كتابة روايات لم يُكملها لاحقًا مثل: «المحاكمة» و«القلعة» التي أعدها ماكس برود للطباعة بعد ذلك. من بين القصص التي كتبها في تلك الفترة، العام 1915، كانت قصة «التحول»



1

أفـاق «رشـيهورش سامسـا» صـباح ذات يـوم من أحلامٍ مزعجـة ليجـد نفسه مستلقيًا على الفـراش وقـد تَحـوَّلَ إلى حشـرة متوحشـة. ينـام على ظهرٍ صلبٍ كالفولاذ. ورأى وهو يرفـع رأسـه قليلًا بطنـه البنيـة المحدبـة وقـد تقسـمت إلى أجـزاء مقنطـرة الشـكل، فوقهـا غطـاء بالكـاد يغطي بعضها، ويكاد ينزلق من عليها. رأى أمام عينيه أقدامًا رفيعـة لا تتناسـب مع باقي جسده وهي تهتز بقوة.

قـال لنفسـه: «مـاذا أصـابني؟» لم يكن هـذا حلمًـا. كـانت حجرتـه، نعم حجرته التي بالكاد تكفي لجسد بشري وتقع بين أربعة حوائط تقليديـة. توجد فـوق الترابـيزة الـتي تبعـثرت عليهـا عينـات لبضـاعة من الصـوف الناعم – فقـد كـان سامسـا بائعًـا متجـولًا – صـورة اجتزهـا مـؤخرًا من إحدى المجلات المصـورة، ووضـعها في إطـار ذهـبي جميـل وجـذاب. راح يتذكر سـيدة ترتـدي قبعـة جلديـة ووشـاحًا جلـديًّا، تجلس منتصـبة القامة، وتُلبِس أحد المشاهدين فراءً جلـديًّا ثقيلًا وقـد اختفى سـاعداها بين ثناياه.

وَجَّه «سامسا» ناظريه نحو النافذة ليطالع الطقس الكئيب. سمع طرقات حبات المطر وهي تتساقط على إفريز من الصفيح عند النافذة؛ فانقبض صـدره. فكَّرَ في أن يواصـل نومـه، وينسـى كـل هـذا العبث. لكنـه لم يستطع. فقد اعتاد النوم على جانبه الأيمن، ولا يمكنه أن ينام كمـا يريـد وهو في هذه الحالة. فكلما دفع جسده بكل قوة ناحيـة الجـانب الأيمن،

عاد مرةً أخرى كما كان. حاول مرات عديدة وهو يغلق عينيه كي لا يرى سيقانه المتشابكة. ثم توقف بعدما شَعَرَ بوخزٍ خفيف في جنبه، لم يشعر بمثله من قبل.

يا إلهي! يا لها من مهنة شاقة امتهنتها! أمشي في الشوارع كل يوم. إن مشقة ذلك العمل أصعب بكثير من العمل في البيت، فضلًا عن مشقة السفر، والتنقل بين القطارات، والأكل السيئ غير المنتظم، والعلاقات المتعاقبة غير الثابتة التي لا تتحلى بالعاطفة. اللعنة على كل هذا! شَعَرَ في أعلى بطنه بِحَكَّةٍ خفيفة. جَرَّ ظهره على مهل نحو مقدمة السرير حتى يتمكن من رفع رأسه بصورة أفضل، فرأى مكان الحكَّة؛ حيث تناثرت كثيرٌ من البقع الصغيرة البيضاء. لم يتمكن من معرفة طبيعتها. حاول أن يلمس المكان بقدميه؛ لكنه سحبهما على الفور عندما شعر بقشعريرة فور ملامسته له.

انزلق عائدًا إلى الوضع الذي كان عليه من قبل. راح يقول لنفسه إن الاستيقاظ مبكرًا يُصيب الإنسان بالجنون. فهو بحاجةٍ لأن يأخذ حقه من النوم. تُجَّارٌ غيره يعيشون حياةً هانئةً كالجواري في حريم السلطان. فمثلًا عندما أعود بعد الظهيرة إلى الحانة كي أكتب قائمة الزبائن الجدد، أجد هؤلاء السادة لا يزالون يتناولون طعام الإفطار. كم أحب أن أُجَرِّب هذا الأمر مع رئيسي في العمل، إنه ليصعق لو سمع هذا. لكن من يدري، ربما لا يمكنني أن أُطيق حياةً كهذه. ولولا والدي لتركت العمل منذ زمن بعيد، ولذهبت إلى رئيسي، وأخبرته بكل ما يدور في صدري، عندها قد يسقط من فوق المكتب المرتفع! أسلوب عجيب أن

يجلس فوق المكتب، ويتحدث من هذا الارتفاع مع مرؤوسه الذي يضطر إلى أن يقترب تمامًا من المكتب بفضل صَمَم رئيسه. حسنًا، لم أستسلم بعد تمامًا، مازلت أنتظر حتى أجمع مالًا كثيرًا كي أدفع له ديون والدي — ربما استغرق الأمر عدة سنوات أخرى، ست سنوات ربما — لكني سأفعله يومًا ما، وأحسم الأمر. لكن حتى ذلك الوقت يجب أن أستيقظ في الخامسة كي ألحق بالقطار.

نظر إلى ساعة المنبه الذي يدق فوق خزانة الملابس. يا إلهي! إنها السادسة والنصف، وعقارب الساعة تواصل التقدم، ها هي تجاوزت منتصف الساعة، وقاربت على السابعة إلا الربع. ألم يدق المنبه؟ يرى من فوق السرير أنه كان مُعَدًّا ليدق في الساعة الرابعة. من المؤكد أنه دق في ذلك الوقت. لكن هل كان ممكنًا تعطيل ذلك الرنين الذي يهز أثاث البيت؟ كلا، إن المنبه لم يتعطل، بل كان رنينه قويًّا. وماذا سيفعل الآن؟ القطار التالي يأتي في الساعة السابعة. وكي يلحق به يجب أن يسرع، فتشكيلة البضاعة غير جاهزة بعد، وهو لا يشعر بالنشاط والاستعداد. لو أنه لحق بالقطار فلن ينجو من تعنيف رئيسه له؛ فعامل المتجر الذي ينتظره عند القطار في الساعة الرابعة والنصف لابد أنه أبلغهم أنه لم يأت. إنه رئيس متوحش، ليس له عزيز ولا عقل. ماذا لو أخبرهم أنه مريض؟ سيكون أمرًا مُرْبكًا مشكوكًا فيه.

«سامسا» لم يمرض مرةً على مدار خمسة أعوام في هذا العمل. وسيحضر رئيسه بالتأكيد ومعه الطبيب، وسيوبخ والديه بأن ابنهم كسول، وسيدحض أي حجة معتمدًا على رأي طبيب المتجر الذي يرى

دائمًا أن جميع الناس يتمتعون بالصحة، ولا يرغبون في العمل. وهل سيكون في هذه الحالة مذنبًا؟ شعر «رشيهورش» ببعض الخمول غير الضروري، والذي يحدث عادةً بعد كل نوم طويل، باستثناء ذلك كان يشعر أنه في حالة جيدة للغاية، ويشتهي الطعام.

وبينما هو غارق في أفكاره المتلاحقة، وعاجز عن النهوض من السرير، دق جرس المنبه ليعلن السابعة إلا الربع. سَمِعَ طرقات حَذِرة على الباب القريب من السرير، ونادى الصوت — كان صوت أمه: «رشيهورش! إنها السابعة إلا الربع. ألن تذهب إلى العمل؟» يا له من صوت رقيق! فزع رشيهورش عندما سمع الصوت الذي أجابها به. إنه صوته الذي اعتاده من قبل، لكنه كان مصحوبًا بصوت زقزقة كبيرة قادمة من أعماقه، ومصحوبًا بألم. كان صوته في الوهلة الأولى واضحًا مع تلك الزقزقة، التي شوشت على الكلمات، فلا يعرف الإنسان إن كان قد سمع الكلام جيدًا. أراد رشيهورش أن يجيبها بإسهاب ويشرح لها الأمر. لكن إجابته في هذه الظروف كانت مقتضبة: «نعم، نعم يا أمي، شكرًا، ها أنا أنهض» لم يكن ممكنًا عبر الباب الخشبي ملاحظة التغيير الذي حدث على صوته، فقد رضيت أمه بتلك الإجابة وانصرفت. لكن الحوار المقتضب نَبَّه باقي أعضاء الأسرة إلى أن رشيهورش مازال في البيت على غير المتوقع. خبط أباه على أحد الأبواب المجاورة بضربة خفيفة من قبضة يده، وقال: «رشيهورش! رشيهورش! ماذا حدث؟» عاود الطرق بعد لحظات بطريقة أكثر إلحاحًا، ونادى بصوتٍ أكثر عمقًا: «رشيهورش!، رشيهورش!» ثم جاءه من ناحية باب جانبي آخر

صوت هادئ ينتحب: «رشيهورش؟ هل أنت بخير؟ هل تحتاج إلى مساعدة؟» أجاب رشيهورش في كلا الجانبين، وقال «ها أنا قادم»، حاول جاهدًا أن ينطق الكلمات بوضوح، ويُبعد عن صوته كل ما هو غريب بوقفات بين الكلمات. عاد أبوه لتناول طعام الإفطار، لكن أخته راحت تهمس، وتقول: «رشيهورش! افتح الباب، أستحلفك بأعز ما لديك» لكن رشيهورش لم يفكر في فتح الباب، وراح يثني على حرصه، فقد تعود أثناء رحلاته أن يغلق جميع أبواب البيت أثناء الليل.

كان يريد أن ينهض في هدوء وبدون إزعاج، ليرتدي ملابسه ثم يتناول فطوره، وبعدها يفكر فيما سيفعله. لأنه كان يعرف تمامًا أن الأفكار التي تراوده وهو في الفراش لا جدوى منها. تذكر أنه كثيرًا ما كان يشعر وهو في السرير بألم خفيف نتيجة نومه في وضع غير مناسب. عندما يستيقظ بعد ذلك سيكتشف أنه كان يُوهم نفسه بهذا التفسير. هو الآن يريد أن يعرف إلامَ ستأخذه أفكاره. فتَغَيُّر صوته لا يدل إلا على أنه مصاب ببرد شديد، وهو مرض التجَّار الرحَّالة. لم يشك في تفسير كهذا على الإطلاق.

أزاح الغطاء بكل سهولة، كان يكفيه أن ينفخ فيه بفمه حتى يسقط. لكن دون ذلك كان ثقيلًا؛ خاصةً وأن جسده كان عريضًا للغاية. كان يكفيه ساعداه حتى ينهض، لكنه بدلًا منهما كان لديه أقدام كثيرة تتلوى بطريقة غريبة، لم يكن قادرًا على التحكم بها. كلما حاول أن يثني إحداها، تنفرد تلقائيًّا مرةً أخرى. حتى عندما تمكن أخيرًا من أن يثني إحداها، كانت باقي الأرجل تضطرب بشكل مؤلم وبصورة جنونية.

قال رشيهورش لنفسه: «من العبث البقاء في السرير»

حاول في البداية أن ينهض من السرير بالجزء الأسفل من جسمه الذي لم يره بعد، ولم يتمكن حتى من تخيل شكله. لكنه شَعَرَ أن هذا الجزء ثقيل للغاية. ثم تمكن منه ببطء شديد عندما دفعه إلى الأمام بكل ما أوتي من قوة وهو غاضب. اختار الاتجاه الخاطئ، وارتطم بعارضة السرير الأمامية. فشعر بألم شديد، وعرف أن الجزء السفلي من جسمه هو أكثر أعضائه حساسية.

حاول أن ينهض من السرير بالجزء العلوي من جسمه. التفت بحذر ناحية لوح السرير الأمامي. فتمكن من ذلك بسهولة، وتحركت كتلة جسمه العريضة الثقيلة ببطء في نفس اتجاه رأسه. عندما برزت رأسه أخيرًا خارج السرير، وعَلِقت في الهواء، انتابه الخوف من التقدم بالطريقة نفسها. لو أنه نهض بهذه الطريقة، فالمعجزة وحدها هي التي قد تنقذ رأسه من ألا تتأذى. وليس عليه الآن سوى ألا يفقد ثقته بنفسه تحت أي ظرف، وإلا، فليبق في السرير.

لكنه عاد واستلقى في السرير بعد محاولات عديدة، واسترخى كما كان من قبل. رأى مرةً أخرى أقدامه الصغيرة وهي تتشاجر على نحو أعنف من ذي قبل. لم يكن بالإمكان التحلي بالهدوء والنظام وسط هذا الجنون. قال لنفسه إنه من المستحيل أن يظل في السرير، ومن المنطقي أن يضحي بكل شيء طالما كان هناك أمل في أن يتحرر من هذا السرير. راح يفكر ويمعن في التفكير المتعقل الهادئ بدلًا من أن يتخذ

قرارًا يائسًا. في لحظات كهذه كان يشخص ببصره نحو النافذة، لكن النظر إلى شبورة الصباح التي تغطي الجانب المقابل للشارع الضيق لا تبعث على الكثير من الثقة والنشاط.

قال لنفسه عندما رن جرس المنبه مرة أخرى: «الساعة الآن السابعة، أصبحت الساعة السابعة ومازال الضباب عالقًا» ظل مستلقيًّا وهو يتنفس بضعف وكأنه ينتظر أن يُعيد الهدوء الكامل الأوضاعَ إلى طبيعتها وحقيقتها.

ثم قال لنفسه: «يجب أن أنهض من السرير تحت أي ظرف قبل أن تدق السابعة والربع» على أية حال سيأتي أحدهم من المتجر ليسأل عني؛ لأن المتجر يفتح قبل السابعة» راح يجتهد في أن يسحب جسمه بالكامل وبانتظام من على السرير. لو أنه سحب جسمه من فوق السرير بهذه الطريقة فلن يبقى سوى رأسه، وهو مستعد لأن يرفعها بقوة أثناء سقوطه قبل أن تُصَاب بمكروه. إن ظهره يبدو صلبًا، وقد لا يحدث له شيء أثناء سقوطه على السجادة. من أكثر الأمور إزعاجًا سيكون الضجيج العالي الذي سيحدث بالتأكيد، وسينشر الفزع خلف الباب، أو الخوف بالتأكيد. يجب أن يأخذ هذا في الاعتبار.

عندما دفع «رشيهورش» نصف جسده خارج السرير — صارت الطريقة الجديدة لعبة أكثر منها إجهادًا، وكان يكفيه أن يسحب جسده شيئًا فشيئًا ـ، كان يرى أن الأمور ربما تكون أبسط من ذلك بكثير إذا جاءوا لمساعدته. شخصان قويان — كان يقصد أبيه والخادمة — يأتيان، وكل

ما عليهما أن يفعلاه هو أن يضعا أيديهما خلف ظهره الأحدب، ويرفعانه فوق السرير، ثم يسحبانه ببعض الجهد وينتظران حتى يسقط على الأرض، وهنا قد تهدأ أرجله. لكن، نظرًا لأن الباب موصد، هل يجب أن يطلب المساعدة؟ لم يستطع أن يخفي ابتسامته رغم الحالة التي هو فيها.

كان متماسكًا، ويحافظ على توازنه وهو يترنح بقوة، والآن عليه أن يتخذ قرارًا نهائيًّا في أسرع وقت، فبعد قليل ستبلغ الساعة السابعة والربع. رن جرس الشقة، فتسمَّر في مكانه بينما حركة أرجله تزداد توترًا، وقال لنفسه: «إنه رجل من المتجر» هدأ كل شيء للحظات، ثم قال رشيهورش وهو يشعر ببعض الأمل الخادع:

«لن يفتحوا الباب» لكن الخادمة تقدمت بخطوات ثابتة نحو الباب، وفتحته. سمع «رشيهورش» بصعوبة أولى كلمات الترحيب بالزائر، وعرف منها من هو — إنه المدير المالي للشركة. لماذا رشيهورش وحده يضطر للعمل بشركة تثور فيها على الفور شكوك كبيرة من مجرد تقصير بسيط؟ هل كل الموظفين آثمون، أليس بينهم رجل واحد يتمتع بالوفاء والولاء، رجل لمجرد أنه لم يعمل عدة ساعات في الصباح لصالح الشركة، يؤنبه ضميره، رغم أنه عاجز بالفعل عن النهوض من سريره؟

ألم يكن يكفيهم أن يرسلوا موظفًا مبتدئًا كي يسأل — طالما أنهم حريصون على أن يسألوا ، هل كان يجب أن يأتي المدير المالي بنفسه،

ويقول للأسرة البريئة كلها إن التحقيق في تلك الملابسات المريبة لا يقوى عليه سوى رجل بعقلية المدير المالي؟ انتفض «رشيهورش» من على سريره منزعجًا من تلك الأفكار التي راودته، وليس لقرار عادي اتخذه. علا صوت فرقعة، لكنه لم يكن ضجيجًا كبيرًا. امتصت السجادة وقع الصدمة قليلًا. كان ظهره مرنًا أكثر مما توقع، وأصدر صوتًا مكتومًا وضعيفًا. لكنه لم يحرص على رأسه بالصورة الكافية فارتطمت؛ أدارها، وجعله الغضب والألم يلقي بها على السجادة.

سمع صوت المدير المالي من الغرفة الموجودة على يساره يقول: «هل سقط شيء ما هناك؟» حاول رشيهورش أن يتخيل شيئًا مماثلًا يمكن أن يحدث للمدير المالي كما حدث معه اليوم. وهذا أمر وارد بالطبع. وكرد فعل وقح على تساؤله؛ تقدم المدير المالي الجالس في الغرفة المجاورة بضع خطوات ثابتة وهو يصدر صريرًا من نعل حذائه الجلدي. سمع رشيهورش من غرفة على يمينه صوت شقيقته، تقول له: «رشيهورش! المدير المالي هنا» قال رشيهورش لنفسه: «أنا أعرف»، لكنه نطق الجملة دون أن يدري بصوتٍ مسموع، وصل إلى شقيقته.

قال أبوه من الغرفة التي على يساره: «يا رشيهورش! لقد جاء السيد المدير المالي ليسأل، لماذا فاتك قطار الصباح، ولا نعرف ماذا نقول له؟ وأيضًا أريد أن أتكلم معك شخصيًّا. افتح الباب من فضلك! فهو سيسامحنا على الفوضى الموجودة بالغرفة»

قال المدير المالي بدماثة: «صباح الخير يا سيد سامسا!» قالت أمه: «إنه ليس بخير يا سيدي المدير المالي، صدقني! كيف تفسر أن رشيهورش لم يلحق بقطار الصباح بغير هذا؟ إن هذا الشاب لا يفكر في شيء غير العمل. وكدت أنزعج منه لأنه لا يخرج في المساء، فقد كان يتردد على المدينة، لكنه الآن يبقى في البيت كل مساء.

يجلس معنا حول الترابيزة، ويقرأ الجريدة بهدوء، أو يراجع جدول السفر. وأحيانًا من باب التغيير يقطع الأخشاب بالمِبرَد. صنع على سبيل المثال إطارًا صغيرًا على مدى ثلاث ليال، إنه جميل! وهو معلق في الغرفة عنده، وستراه بعد قليل، بمجرد أن يفتح رشيهورش الباب. أنا سعيدة جدًا يا سيدي لأنك هنا عندنا، وبدونك لن نتمكن وحدنا من أن نُجبر رشيهورش على أن يفتح الباب. إنه عنيد، وبالتأكيد ليس في حالة جيدة، رغم أنه قال غير ذلك في الصباح»

قال رشيهورش على مهل وبحذر: «أنا قادم على الفور»

لم يتحرك كي لا تفوته كلمة من الحوار. قال المراقب المالي: «نعم يا سيدتي، أنا لا يمكن أن أفسر الأمر بغير ذلك. أتمنى ألا يكون الأمر خطيرًا. لكني من ناحية أخرى يجب أن أقول إننا كتُجَّار — للأسف أو لحسن الحظ، كما تشائين — يجب أن نتغلب على الوعكات الصحية البسيطة لخدمة التجارة»

سأله والده المتبرم وهو يطرق على الباب من جديد: «هل يمكن أن يدخل السيد المدير المالي الآن؟» أجابه رشيهورش: «لا» وساد صمت

غريب في الغرفة التي على اليسار، وفي الغرفة اليمنى بدأت شقيقته تنتحب.

لماذا لم تنضم للآخرين؟ ربما استيقظت الآن من النوم، ولم تُغَيِّر ملابسها بعد. لكن لماذا تبكي؟ لأنه لا يريد أن ينهض ويفتح الباب للمدير المالي، لأنه معرضٌ للخطر، وسيفقد وظيفته، وبعدها سيطارد رئيسه أسرتهم من جديد بديونهم القديمة؟ قد تكون كلها مجرد هواجس لا داعي لها. «رشيهورش» لايزال هنا، وهو لا يفكر على الإطلاق في التخلي عن أسرته. إنه في هذه اللحظة يستلقي على السجادة، ولا يمكن لأحد في حالته تلك أن يطلب منه السماح للمدير المالي بالدخول.

لكنهم لن يغفروا لرشيهورش هفوةً صغيرةً كهذه، يمكن أن تجد لها بسهولة عذرًا مناسبًا. كان «رشيهورش» يرى أنه قد يكون من الأفضل أن يتركوه في حاله، ولا يزعجونه بالبكاء والإلحاح. لكن انعدام اليقين أزعج الآخرين، وبَرَّرَ سلوكهم.

قال المدير المالي بصوتٍ عالٍ: «يا سيد سامسا! ماذا يحدث؟ أنت تتحصن في غرفتك، ولا تجيب إلا بنعم أو لا، وتتسبب لأهلك في قلق لا داعي له، وتهمل — وهذا بالمناسبة فقط — واجبات العمل بأسلوب غير مقبول. أنا أتحدث هنا باسم والديك وباسم رئيسك في العمل، وأطالبك بكل جدية أن تقدم لي تفسيرًا واضحًا لما يحدث. أنا مندهش، أنا بالفعل مندهش. لطالما عهدتك رجلًا هادئًا وعاقلًا، وأنت

الآن وفجأة تريد أن تقوم بأعمال شديدة الغرابة. لقد ألمح لي رئيسك اليوم إلى شيء قد يفسر إهمالك — وهذا الأمر يتعلق بالعهدة المالية التي عهد بها إليك مؤخرًا — لكني أقسمت له بشرفي أن هذا التفسير غير صحيح. ولكني إذ أرى تصرفاتك الغامضة تلك بدأت أفقد أي رغبة في الدفاع عنك. كما أن موقفك ضعيف. كنت أنوي أن أقول لك هذا الكلام كله وجهًا لوجه. لكن بما أنك تتركني هنا أُضَيِّع وقتي عبثًا، فأعتقد لا أعرف أن والديك يجب أن يعرفا بهذا الأمر. إن أداءك في الفترة الأخيرة غير مُرضٍ تمامًا، صحيح أنه ليس موسم التجارة الناجحة، ونحن نعترف بهذا، لكن لو لم نقم ببعض الأعمال التجارية، سنخسر هذا الموسم تمامًا يا سيد سامسا، ولن يكون له وجود»

صاح رشيهورش منفعلًا وقد نسي كل ما يتعرض له: «لكنى يا سيدي المدير المالي، سأفتح الآن على الفور، إنها وعكة بسيطة، فقد منعني الدوار من الاستيقاظ، ومازلت في الفراش. ولكني صرت الآن بخير. وها أنا أنهض من السرير. انتظرني لحظة! لا تبدو الأمور جيدة تمامًا كما كنت أعتقد. لكني في حالة أفضل الآن. كيف يتعرض الإنسان فجأة لشيءٍ كهذا! بالأمس كنت على ما يرام، ووالديّ يعرفان ذلك. في الواقع لقد شعرت مساء أمس بأن شيئاً سيحدث. مؤكد أن شكلي كان ينبئ بهذا. لا أعرف لماذا لم أخبر المتجر بشيء كهذا! لكن هكذا الإنسان يعتقد خطأً أنه سيتغلب على المرض، وليس من الضروري البقاء في البيت. يا سيدي المدير المالي، أرجوك ألا تزعج والدي! فلا سبب إطلاقًا لكى توبخني عليه، فلم يتحدث معي أحد بكلمة واحدة

عن شيء كهذا. ربما لم تقرأ بعد الطلبيات التي أرسلتها. وسوف أسافر على أي حال في قطار الساعة الثامنة. إن بضع ساعات جعلت حالتي تتحسن. لا تُعَطِّل نفسك يا سيدي المدير المالي، سأكون في المتجر على الفور، لكن من فضلك أبلغ هذا للسيد المدير ورئيسي في العمل!»

كان رشيهورش وهو يفرغ ما بجعبته على عجل؛ بالكاد يدرك ما يقوله. واقترب بسهولة من خزانة الملابس بفضل التدريب الذي حصل عليه في السرير، وحاول أن يقف على قدميه بناءً عليه. في الواقع أراد أن يفتح الباب، وأراد أن يرى المدير المالي ويتحدث معه. فقد كان شغوفًا بأن يعرف رأي الآخرين الذين ينادونه فيما يحدث عندما يرونه، وإذا ما كانوا سيُصابون بالفزع. لن يكون لدى رشيهورش أي إجابة، ويمكنه أن يبدو هادئًا. لو أنهم استقبلوا الأمر برمته بهدوء، فلن يكون لديه سبب للانزعاج، ولو أنه هَمَّ فيمكنه أن يكون في المحطة تمام الساعة الثامنة. في البداية انزلق عدة مرات وهو يستند على الخزانة الناعمة، ثم قفز بكل قوته حتى وقف منتصبًا. لم يُلق بالًا للألم في أسفل معدته، رغم أنه كان ألمًا شديدًا. ثم سقط على ذراع مقعد قريب وهو يمسكه بأقدامه الصغيرة. وبدأ يتمالك نفسه، والتزم الهدوء حتى يسمع ما يقوله المدير المالي.

سأل المدير المالي أبويه: «هل فهمتم كلمةً مما قاله؟ هل هو يعبث معنا؟» صاحت أمه وهي تبكي: «يا ويلي! ربما يكون مريضًا، ونحن نعذبه. «ثم نادت قائلة «يا مركيتا! يا مركيتا!» أجابتها شقيقته من الجانب الآخر: «نعم يا أمي» كانتا تتبادلان الحديث عبر غرفة

رشيهورش «لتذهبي حالًا لإحضار الطبيب، إن رشيهورش مريض. اذهبي على الفور. ألم تسمعي كيف تكلم رشيهورش الآن؟» قال المدير المالي بصوتٍ منخفض مقارنةً بصوتِ أمه: «لقد كان صوت حيوان» صاح أبوه في وسط الدهليز المؤدي إلى المطبخ وهو يصفق بيديه: «نعم! نعم!. واحضري النجَّار فورًا!» وهرولت كلتا السيدتين وهما تصدران حفيفًا من تنورتيهما — كيف استطاعت شقيقته أن ترتدي ملابسها بهذه السرعة؟ وغادرتا المنزل. لم يسمع أحد صوت ارتداد الباب. ربما تركتاه مفتوحًا، كما هي العادة في الشقق عندما يحدث أمر جلل.

صار رشيهورش الآن أكثر هدوءًا. فهم لم يفهموا ما قاله رغم أن كلماته كانت واضحة للغاية، أوضح من أي وقت مضى. ربما لأن أذنه اعتادت عليها. لكنهم بالتأكيد أصبحوا واثقين بأن حالته سيئة، وأنهم على استعداد لمساعدته. الثقة واليقين، أولى الخطوات التي بدأ بها وجعلته يشعر بالارتياح. شَعَرَ بأنه عاد من جديد إلى جنسه البشري؛ حيث الطبيب والنجار — في الواقع لم يعرف الفرق بينهما — فراح ينتظر تدخلًا حاسمًا. سَعَلَ قليلًا حتى يستعد لحديث قادم بصوت أكثر وضوحًا. كان يجتهد ألا يسمع أحد صوته وهو يسعل، فلعل صوتًا كهذا يختلف عن صوت البشر وهم يسعلون، وهو لا يستطيع بنفسه أن يحكم على الأمور.

هدأت الأصوات في الغرفة المجاورة. ربما تجلس الأسرة مع المراقب المالي حول الترابيزة يتهامسون. أو ربما يستندون جميعًا على الباب

ويسترقون السمع.

تحرك «رشيهورش» ببطء نحو الباب مستندًا على الكرسي، ثم حَرَّرَ الكرسي، وسقط فوق الباب، وتعلق به وهو منتصب الجسد – كانت أقدامه لزجةً قليلًا – وقف هناك يستريح بعد هذا العناء. حاول أن يدير المفتاح بفمه، لكن للأسف يبدو أنه ليس لديه أسنان – بماذا سيمسك الآن مفتاح الباب؟ لكن فكيه كانا قويين للغاية. وبفضلهما استطاع أن يحرك المفتاح دون أن يلقي بالًا لأنه سيؤذي نفسه بالتأكيد. فقد بدأ ينساب من فمه سائل بني، وسال على المفتاح، ثم تساقط على أرضية الغرفة. قال المدير المالي من الغرفة المجاورة: «اسمعوا! إنه يدير المفتاح» شَجَّعَ هذا رشيهورش، أراد أن يسمعهم جميعًا؛ حتى أبيه وأمه يقولان: «إلى أعلى يا رشيهورش، استمر! ادفع المفتاح بقوة داخل الباب!» ضغط على المفتاح بين فكيه بكل ما أوتى من قوة وهو يتصور أنهم جميعًا يتابعون محاولته بترقب. وبمجرد أن بدأ المفتاح يتحرك ويهتز في فتحة الكالون حتى بدأ يشد من فمه، يتعلق تارة بالمفتاح، وتارة أخرى يدفعه إلى أسفل بكل قوة. وانطلق صوت المِغلاق وارتد أخيرًا إلى الخلف. انتبه رشيهورش من جديد، والتقط أنفاسه، وقال: «لم أكن في حاجة إلى النجَّار» ثم وضع رأسه على مقبض الباب حتى يفتحه على مصراعيه.

انفتح الباب بالفعل على مصراعيه؛ لأنه اضطر إلى فتحه بتلك الطريقة. لكنه لم يظهر لهم بعد. اضطر إلى أن يدور حول أحد جناحي الباب بكل حذر حتى لا يسقط على ظهره أمام مدخل الغرفة. كان متأثرًا بتلك

الحركة الصعبة، ولم يكن لديه وقت لملاحظة ما يدور حوله. وهنا سمع صوت مراقب الحسابات يصيح بصوتٍ عالٍ: «يا إلهي!» — كان صياحًا يشبه صرير الرياح. فها هو يراه — وكان أقربهم إلى الباب — وهو يضغط بيده على فمه المشدوه، ويتراجع إلى الخلف ببطء، وكأن قوةً خفيةً تطارده شيئًا فشيئًا. نظرت إليه أمه — وكانت تقف في مواجهة المدير المالي بشعرها المبعثر المنتصب كما هي العادة في الصباح — وقد أمسكت والده بذراعيها، ثم تقدمت خطوتين نحو رشيهورش، ومالت على الأرض حتى انثنت التنورة التي ترتديها. وسقط وجهها حتى صدرها، وغابت عن الوعي. قبض أبوه على قبضته وعلت وجهه تعبيرات قاسية، وكأنه يريد أن يدفع رشيهورش إلى داخل الغرفة. تجول بنظره في غرفة الاستقبال، ثم غطى وجهه بيديه، وأجهش بالبكاء، فاهتز صدره القوي.

لم يدخل «رشيهورش» إلى الحجرة، واتكأ على جناح الباب ممسكًا بالقفل، فلم يروا منه إلا الجزء العلوي من جسمه ورأسه المائلة على صدره وهو ينظر بها إليهم. انتشر نور الصباح، وظهر بيت داكن اللون امتد بلا نهاية على الجانب المقابل للشارع — كان مبنى أحد المستشفيات — به نوافذ متساوية تتخلل واجهته. المطر مازال ينهمر، وتتساقط حباته كبيرة واضحة، وترتطم بالأرض. أطباق طعام الإفطار الكثيرة مازالت على الترابيزة. فأبوه كان يعتبر وجبة الإفطار من أهم وجبات اليوم. يقضي بعدها ساعات وهو يتصفح مختلف الجرائد. وعلى الحائط المقابل عُلِّقَت صورة رشيهورش وهو في الخدمة

العسكرية، يظهر فيها وهو يرتدي زي ملازم أول، ويمسك بيده سيفًا وهو يبتسم ابتسامة صافية. إنها صورة تجبرك على احترام رتبته وزيّه. كان الباب المؤدي إلى الدهليز مفتوحًا عن آخره، وكذلك باب الشقة كان هو الآخر مفتوحًا، ويظهر منه الدهليز الكائن أمام الشقة، وبداية درجات السلم المؤدي إلى خارج البيت.

قال رشيهورش وهو يعلم جيداً أنه الوحيد الذي يلتزم الهدوء: «حسنًا، سأرتدي ملابسي على الفور، وأحزم البضاعة، وأنصرف. هل مازلت تريدني، هل مازلت تريديني أن أذهب؟ كما ترى يا سيدي المدير المالي، أنا لست متعنتًا، وأحب عملي. أنا خبير في السفر، ولا يمكنني أن أعيش بدونه. إلى أين ستذهب يا سيدي المراقب المالي؟ أنت ذاهب إلى المتجر؟ نعم؟. هل ستخبرهم هناك بالحقيقة؟ ربما يكون الإنسان غير قادر على العمل في الوقت الحالي، لكنها اللحظة المناسبة كي يتذكر ما أنجزه من قبل، ويعلم أن العوائق سوف تزول لاحقًا، وأنه سوف يمارس عمله بكل همة وتركيز. وأنا مدين للسيد صاحب العمل، وأنت تعرف هذا جيداً. كما أنني أعيل والديّ وأختي. أنا الآن في أزمة، وسوف أتخطاها. لا تجعل حياتي أسوأ مما هي عليه. قف بجانبي في المتجر! إن الموظف الرحَّالة لا يحبه الناس، وأنا أعرف ذلك.

الناس تعتقد أنه يجني مالًا حرامًا، ويعيش حياةً هانئةً، ولا يشغلون بالهم كثيرًا في مراجعة مثل هذه الأحكام المسبقة. لكنك، يا سيدي المدير المالي، تعرف أكثر من باقي الموظفين كل التفاصيل، ويمكنني أن أقول بأنك الوحيد بيننا الذي يعرف الأمور أكثر من السيد صاحب

العمل نفسه، فهو بصفته رب العمل يسهُل أن يتنازل لصالح موظف عنده. وأيضًا تعرف جيداً أنه من السهل أن يصبح الموظف المتجول الذي يقضي العام كله تقريبًا خارج المتجر ضحية للشائعات والصدف والشكاوى غير المبررة، وهو عاجز عن أن يدافع عن نفسه، لأنه غالبًا لا يعرف شيئًا عنها. فهو يعود من رحلته مرهقًا، وفي البيت يُحاسب بنفسه على تبعات أعمال لا يعرف لها سببًا. يا سيدي المدير المالي! قل لي قبل أن تنصرف كلمةً واحدةً حتى أعرف أنك توافقني الرأي ولو جزئيًّا»

لكن المدير المالي أدار وجهه بعد أن بدأ رشيهورش يتكلم، وراح ينظر إليه من خلف كتفيه وهو يضم شفتيه. لم يتوقف عن الحركة لحظة بينما كان رشيهورش يتكلم، وتراجع ناحية الباب، وعيناه لا تفارقان رشيهورش، ثم خرج من الباب متسللًا وكأنه يغادر مكانًا ممنوع عليه مغادرته. وصل الردهة، ثم جر قدميه من غرفة الاستقبال بسرعة. يعتقد من يراه أن قدمه قد التهبت. وفي الدهليز مد يده اليمنى أمامه ناحية السُّلَّم وكأنه في انتظار قوة خارقة ستنقذه.

كان «رشيهورش» يعتقد أنه لا يجب بأي حال من الأحوال أن يترك المدير المالي ينصرف وهو في هذه الحال؛ حتى لا يتعرض عمله في المتجر لأي تهديد. لم يفهم أبواه الأمر جيداً، كانا على قناعة طوال هذه السنوات بأن عمل رشيهورش في المتجر مُؤمَّنًا مدى الحياة. وهما الآن غارقان فيما يريانه، وفقدا كل ما لديهما من حكمة.

لكن رشيهورش مازال يتحلى بتلك الحكمة. من الضروري منع المدير المالي من الانصراف، ومحاولة إرضائه وإقناعه بأن يقف إلى جانبه. فمستقبل رشيهورش وكل العائلة يتوقف على هذا الأمر! ليت شقيقته كانت هنا! إنها إنسانة ذكية، كانت تبكي عندما كان رشيهورش مستلقيًّا على الأرض، وكان في إمكانها إقناع المدير المالي الذي يُعتبر صديقًا للنساء. كانت ستغلق باب الشقة، وستخفف عنه الفزع وهو في ردهة الشقة. لكن شقيقته ليست هنا، وعلى رشيهورش أن يتولى الأمر بنفسه.

فاته أنه لا يعرف كيف سيتحرك في هذه اللحظة، وفاته أيضًا أنهم ربما لم يفهموا ما قاله. فترك جناح الباب، وتحرك خارجًا من فتحة الباب، وهَمَّ بالتوجه نحو المدير المالي الذي كان يمسك سور السُّلَّم في الردهة بكلتا يديه بطريقة تُثير الضحك. لكنه سقط فورًا على الأرض وهو يبحث عن شيء يتعلق به، واستقر على أقدامه الصغيرة، وأطلق صرخات خفيفة. غريب أن يحدث هذا، لأول مرة يشعر بصحة جيدة صباح هذا اليوم. كانت الأرض صلبة تحت أقدامه الصغيرة التي تطاوعه بكل إذعان، وهو يتطلع إليها بسعادة. كانت تحاول أن تحمله إلى حيث يريد. وبدأ يشعر أن كل آلامه سوف تتحول إلى راحة. استقر على الأرض قريبًا من أمه وفي مواجهتها تمامًا. وعلى الفور راح يتأرجح بحركات غريبة، فانتفضت أمه فجأةً رغم أنها كانت غارقة في أحزانها، وصرخت وهي تمد ذراعيها أمامها وأصابعها متباعدة: «النجدة، يا إلهي! النجدة!» كانت تحني رأسها وكأنها تريد أن ترى رشيهورش بطريقة أفضل. لكنها على العكس تراجعت وهربت من أمامه. نسيت أن

خلفها ترابيزة مفروشة بالطعام. وعندما ارتطمت بالترابيزة؛ جلست عليها شاردة الذهن. كان يبدو أنها لم تر القهوة وهي تسقط بشدة على السجادة من القدر المقلوب بجوارها.

قال رشيهورش وهو يرفع رأسه نحوها: «أمي! أمي!» نسي تمامًا المدير المالي، ولم يتمالك نفسه، فراح يفتح فكيه ويضمهما فارغين مراتٍ عِدَّة. ارتفع صراخ أمه، ونزلت من على الترابيزة، ثم ارتمت في أحضان والده الذي أسرع نحوها. لكن رشيهورش لم يكن يسعى نحو والديه. كان المدير المالي قد أصبح فوق سلم البيت، يلتفت خلفه للمرة الأخيرة وقد أسند ذقنه على عمود الدرابزين. انطلق رشيهورش خلفه كي يحاول اللحاق به. يبدو أن المدير المالي قد تنبأ بشيء كهذا، فتجاوز بحركة واحدة عدة درجات من السلم، واختفى وهو يصرخ: «يا ربي!» تردد دوي صوته في كل أرجاء منطقة السُّلَّم. هروب المدير المالي أصاب أباه بالارتباك الشديد، وكان حتى تلك اللحظة هادئًا نسبيًّا. وبدلًا من أن يهرول وراء المدير المالي، أو يحاول أن يمنع رشيهورش من أن يطارده، التقط بيده اليمنى عصًا تركها المدير المالي على المقعد مع قبعته ومعطفه، وأمسك بيده اليسرى جريدة، وراح يهز العصا والجريدة وهو يخبط بقدميه على الأرض ليدعو رشيهورش إلى العودة إلى غرفته.

توسلات رشيهورش التي لم يفهمها أحد لم تساعده، رغم أنه ظل يهز رأسه بكل تواضع، بينما خبطات أبيه فوق الأرض تتزايد. دفعت أمه النافذة في الجهة المقابلة بقوة لتفتحها، رغم أن الجو كان باردًا في

الخارج، ومالت برأسها خارج النافـذة وهي تضـع وجههـا بين راحتيهـا. هب تيـار هـواء شـديد بين الشـارع والسُّـلَّم، وتطـايرت السـتائر، وعلا حفيف أوراق الجرائد على الترابيزة، وانزلقت بعض أوراقهـا على أرض الغرفـة. ظـل أبـوه يلاحقـه بكـل قـوة وهـو يهـدر كـالمجنون. لم يكن رشيهورش قد تدرب بعد على التراجع للخلـف بصـورة جيـدة، فتحـرك ببطء شديد. لو أنه استطاع أن يستدير لدخل إلى غرفته على الفور. لكنـه خشي أن ينفد صبر أبيه وهو يستدير ببطء شديد، ففي كل لحظة تهـدده عصـا أبيـه ويخشـى أن يُصـاب بجـرح قاتـل في رأسـه أو في ظهـره. في النهاية لم يكن أمام رشيهورش مفر من أن يـتراجع. وراح يتـابع خطواتـه بهلع وهو عاجز عن تحديد الاتجاه أثناء تراجعه، وأخذ يسـتدير بأقصـى سـرعة لـه — وكـان في الواقـع شـديد البطء وهـو ينظـر في كـل لحظـة بخوف صوب أبيه. يبدو أن والـده لاحـظ محاولتـه الجـادة، فلم يزعجـه وهو يستدير، بل راح يُوَجّهه بطرف عصاه عن بُعد ويُشير له هنا وهناك. كان صراخ أبيه غير محتمل. وكاد «رشيهورش» يفقد عقله تمامًـا. كـاد يستدير تمامًا لولا صراخ أبيه الدائم. ارتبك «رشـيهورش» فارتـد جسـمه إلى الأمام قليلًا مـرةً أخـرى. واكتشـف عنـدما وصـل برأسـه عنـد فتحـة الباب أن جسمه أكبر من أن يدخل من فتحة البـاب. لم يخطـر على بـال أبيـه وهـو في حالـة الهيـاج هـذه أن يفتح جـانب البـاب الثـاني، ويُمَكِّن «رشـيهورش» من الـدخول. اعـتراه هـاجس وحيـد وهـو أن يصـل رشيهورش إلى غرفته بأسرع مـا يمكن. لم يسـتجب لحاجـة رشـيهورش للاستعداد المتـأني حتى ينتصـب جسـده ويمـر من البـاب. وكأنـه ليس

عائقًا على الإطلاق، وكل ما فعله هو أنه راح يلاحق رشيهورش بضجيج غريب حتى يتقدم إلى الأمام. لم يكن الصوت الذي يسمعه رشيهورش خلفه كصوت أبيه الذي يعرفه. وهنا نفد صبره، فدفع رشيهورش جسده في فتحة الباب دون مراعاة للنتائج. دخل جانب من جسده في فتحة الباب وانحشر فيه مائلًا، وتخضب جنبه كله بالدم، وانتشرت على جسم الباب الأبيض بقع قبيحة، ثم علق جسده بالكامل، وصار عاجزًا عن الحركة تمامًا. تدلت أقدامه الصغيرة في الهواء وهي تتلوى في أحد الجوانب، وفي الجانب الآخر كانت مضغوطة فوق الأرض بطريقة مؤلمة — وهنا تلقى من الخلف ضربةً قويةً من أبيه، جعلته يتحرر ويطير بعيداً داخل حجرته. أغلق أبوه الباب بعصاه، ثم ساد الصمت أخيرًا.

2

استيقظ «رشيهورش» من نوم عميق وثقيل عند الأصيل. ربما كان ليستيقظ قبل ذلك دون حاجة إلى أن ينبهه أحد. شعر بالراحة والحيوية، لكنه أحس وكأن خطوات حثيثة أيقظته أو صوت أبواب تُغلق في الردهة بكل حرص. انتشر على سقف الغرفة وعلى أجزاء الأثاث العليا ضوء باهت مُقبل من مصابيح الشوارع. لكن الظلام انتشر في الجزء السفلي حيث يرقد رشيهورش. تحرك نحو الباب على مهل وهو يتلمس طريقه عن طريق قرون الاستشعار التي صار الآن يعرف قيمتها، وأخذ ينظر إلى ما حدث. بدا جانبه الأيمن وكأنه جرح واحد طويل، وضيق، وغير مستقيم. كان رشيهورش يعرج على صفي أقدامه بصورة واضحة. تعرضت إحدى قدميه لجرح بالغ جراء أحداث الصباح — وكانت معجزة أن قدمًا واحدة فقط تعرضت للإصابة — فراح يجرها خلفه.

لاحظ عند الباب شيئًا أثار شهيته. إنها رائحة الطعام. رأى فوق الترابيزة وعاءً مليئًا باللبن المحلى، تطفو فوقه قطع الخبز الأبيض الصغيرة. كاد يطير من السعادة، لأنه يشعر بالجوع أكثر من الصباح. غمر وجهه حتى عينيه في وعاء اللبن. لكنه سرعان ما رفعها بخيبة أمل. فجنبه الأيسر المجروح يؤلمه — ولم يتمكن من تناول الطعام إلا بتعاون من كل أعضاء جسده ، كما أنه لم يعجبه مذاق اللبن الذي كان يومًا مشروبه المفضل، وكانت تعده له شقيقته. ابتعد بنفور عن الوعاء، وزحف عائدًا إلى منتصف الغرفة.

رأى «رشيهورش» من فرجة الباب الضوء ينتشر في غرفة الاستقبال، لكنه لم يسمع أي صوت، وكان أبوه معتادًا في ذلك الوقت أن يقرأ لأمه ولشقيقته أحيانًا شيئًا من الجرائد المسائية. حسنًا، ربما أقلعوا عن تلك القراءات التي طالما حكتها له شقيقته وكتبت له عنها. لكن الصمت كان يلف المكان رغم أن أحدهم لابد أن يكون في البيت. قال رشيهورش لنفسه وهو جاحظ العينين في الظلام: «يا له من هدوء تعيش فيه هذه الأسرة» لكن ماذا لو أن كل هذا الهدوء وكل هذا السرور وكل هذه السكينة تنبئ بنهاية مؤلمة؟ وحتى لا يسقط فريسة لمثل هذه الأفكار، بدأ رشيهورش في الزحف والتحرك في أرجاء الغرفة.

كانت فرجة ضيقة تُفْتَح أثناء ذلك المساء الطويل ثم تُغْلق مرةً أخرى بسرعة. تارة من الباب الجانبي، وتارة أخرى من الباب الآخر. يبدو أن أحدهم كان يريد الدخول إلى الغرفة، لكنه يتراجع. تقدم «رشيهورش» مباشرةً نحو الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال. كان ينوي أن يشجع ذلك الزائر المتردد على الدخول، أو على الأقل يتأكد من هويته. لكن الباب لم يُفْتَح، وراح رشيهورش ينتظر عبثًا. من قبل عندما كان يوصد الباب خلفه كانوا جميعًا يرغبون في الدخول عنده، أما الآن، وعندما فتح هو بنفسه الباب، وكان الباب الآخر مواربًا طوال اليوم، لم يأت أحد، وأصبح المفتاح موجودًا في الباب من الخارج.

لم ينطفيء النور في غرفة الاستقبال إلا أثناء الليل، وصار سهلًا الآن التأكد من أن والديه وشقيقته كانوا مستيقظين حتى ذلك الوقت. كان يسمع بوضوح وقع خطواتهم جميعًا وهم ينصرفون على أطراف

أصابعهم. بالتأكيد لن يأتي إليه أحد حتى الصباح. وصار لديه المزيد من الوقت ليفكر في هدوء كيف سيُعيد ترتيب حياته من جديد. لكن الخوف اعتراه من الغرفة الفارغة ذات السقف العالي، التي أُجبر على النوم منبطحًا فوق أرضيتها. لكنه لم يعرف سبب هذا الخوف، فلطالما كانت غرفته التي عاش فيها خمسة أعوام — التف بنصف جسده، وسحب نفسه ببعض الخجل إلى أسفل الأريكة؛ حيث شَعَرَ على الفور براحة كبيرة، رغم أن ظهره كان مضغوطًا قليلًا، ولم يتمكن من رفع رأسه. كل ما أزعجه أن جسده بالكامل لم يستقر تحت الأريكة بسبب حجمه الكبير.

ظل هناك طوال الليل، قضى بعضه لا ينام إلا إغفاءة، أحيانًا يوقظه الجوع، وأحيانًا القلق والآمال الغامضة التي جعلته يصل إلى قناعة بأن عليه أن يتحلى بالهدوء والصبر، وأن يحاول مساعدة أسرته بكل ما يستطيع على أن تتجاوز المحنة التي تتعرض لها بالتأكيد وهو في حالته تلك.

وفي الصباح الباكر، ولم يكن الظلام قد انقشع بعد، جاءته الفرصة ليُجرب مدى صلابة القرار الذي اتخذه عندما جاءت شقيقته بكامل ملابسها، وفتحت الباب المؤدي إلى الدهليز، وراحت تنظر بتوجس إلى داخل الغرفة. لم تعثر عليه على الفور. لكن عندما رأته أسفل الأريكة — فبالتأكيد إنه هنا في مكانٍ ما، فلا يمكنه أن يطير؛ فزعت ولم تتمالك نفسها، وصفعت الباب وراءها وأغلقته من الخارج. لكنها سرعان ما فتحت الباب مرةً أخرى وكأنها ندمت على ما فعلت، ودخلت إلى

الغرفة وهي تمشى على أطراف أصابعها وكأنها تتجه نحو مريض بمرض عضال، أو نحو رجل غريب. حَرَّكَ رشيهورش رأسه نحو حافة الأريكة، وراح يراقبها. هل ستنتبه إلى أنه لم يشرب اللبن رغم أنه جوعان، وهل ستحضر له طعامًا أفضل منه؟ لو لم تفعل هذا من تلقاء نفسها لتمنى الموت جوعًا قبل أن ينبهها إلى ذلك!

رغم ذلك شَعَرَ برغبة كبيرة في أن يخرج من أسفل الأريكة، ويرتمي تحت قدمي شقيقته، ويرجوها أن تحضر له شيئًا يأكله. لاحظت شقيقته على الفور أن وعاء اللبن مازال كما هو ممتلئًا. فقط القليل منه قد انسكب حول الوعاء، فرفعته على الفور بخرقة وليس بيد عارية، وحملته بعيدًا. كان رشيهورش متشوقًا إلى ما قد تحضره له بدلًا منه. وراحت تراوده تصورات مختلفة. لم يكن يتوقع على الإطلاق ما فعلته أخته. أحضرت أصنافًا مختلفة من الأطعمة، ووضعتها فوق ورق الجريدة حتى يختار ما قد يطيب له. أحضرت خضراوات متعفنة، وعظامًا من بقايا العشاء مغطاة بصلصة بيضاء لزجة، وبعض حبات العنب والمكسرات، وقطعة من الجبن، كان رشيهورش قبل أسبوعين قد أخبرها بأنه لا يمكن أن يأكلها، وخبزًا جافًا، خبزًا مدهونًا بالزبد، خبزًا مملحًا بالزبد. ووضعت بجوار هذا كله وعاء كان مخصصًا ل «رشيهورش» فقط، وصبت فيه ماء. وانصرفت بسرعة كنوع من الحنكة لأنها كانت تعرف أن رشيهورش قد لا يأكل أمامها. وأدارت المفتاح في الباب حتى يعلم رشيهورش أنه يمكنه أن يتصرف كيفما يشاء. بدأت سيقانه تهتز عندما رأى الطعام. التأمت جراحه تمامًا ولم تعد

تؤلمه. تعجب من الأمر، وتذكر أنه منذ أكثر من شهر خَدَشَ أصبعه بالسكين، وكان الخدش مازال يؤلمه حتى مساء أمس. قال لنفسه: هل قَلّ شعوري بالألم؟ بدأ يمتص الجبن بنهم وقد أعجبته من بين كل الأنواع الأخرى. التهم الجبن والخضراوات والصلصة مرةً واحدة، والدموع تلمع في عينيه من الفرحة. كان لا يحب الطعام الطازج، ولا يتحمل رائحته، حتى الأشياء الطازجة نحّاها جانبًا بعدما شرع في تناولها. انتهى بسرعة من تناول كل شيء، ثم استلقى في مكانه نفسه. أدارت شقيقته مفتاح الغرفة بحذر لتبلغه أن كل شيء على ما يرام. أفزعه صوت المفتاح بعد أن كاد يستسلم للنوم، وذهب عائدًا إلى أسفل الأريكة. كانت مشقة كبيرة أن يبقى أسفل الأريكة في الوقت القصير الذي ظهرت فيه شقيقته في الغرفة، لأنه أسرف في تناول الطعام وانتفخت بطنه، فراح يتنفس بصعوبة أسفل الأريكة. شَعَرَ بضيق في التنفس وهو يتابع شقيقته بعينين جاحظتين وهي تُزيل بالمقشة بقايا الطعام، والأنواع التي لم يمسسها رشيهورش وكأنها زائدة عن حاجته. كان يراقبها وهي ترمي على عجل كل البقايا في سلة، ثم أغلقتها بغطاءٍ خشبي، وحملت كل شيء إلى الخارج. وما إن استدارت حتى سحب رشيهورش جسمه من أسفل الأريكة، وتمدد وهو يزفر أنفاسه.

هكذا كان رشيهورش يتناول طعامه كل يوم. مرة في الصباح أثناء نوم والديه والخادمة، والمرة الثانية في وقت الغداء، حين كان والداه يغفوان قليلًا بعد الطعام، وكانت شقيقته ترسل الخادمة لقضاء أمر ما

خارج البيت. مؤكد أنهما لم يتمنا له الموت جوعًا، لكن ربما أرادا أن يطمئنا على طعامه فقط من خلال شقيقته التي كانت تسعى إلى أن تجنبهما المزيد من الحزن، فما عاناه لم يكن بالقليل.

لم يتمكن رشيهورش من أن يعرف كيف استطاعوا أن يقنعوا الطبيب والنجار في ظهيرة اليوم الأول بالانصراف من الشقة. إنهم لا يفهمون كلامه، لكن لم يخطر على بال أحدهم ولا حتى شقيقته أنه يفهم كلام الآخرين. كان يكتفي بسماع شقيقته وهي عنده في الغرفة تتأوه وتدعو له. لاحقًا، وبعد أن اعتادت الأمر قليلًا — بالطبع لم يكن ينتظر أن تعتاد الأمر تمامًا كان رشيهورش أحيانًا يسمعها وهي تبدي ملاحظات على الطعام. كان واضحًا أنها تقولها بحُسن نية، أو هكذا يمكن أن يفسر الأمر. كانت عندما تجد أن رشيهورش قد أكل الطعام كله تقول: «اليوم أعجبه الطعام» وخلاف ذلك عندما كان يترك الطعام ويكرر هذا كثيرًا، كانت تقول بحزن: «لم يأكل شيئًا من الطعام اليوم أيضًا»

لم يستطع رشيهورش أن يتابع كل ما يستجد في البيت، وكان يسترق السمع للصوت المقبل من الغرف المجاورة. وفي كل مرة يسمع فيها صوتًا يسرع نحو الباب المقبل من خلفه الصوت، ويلتصق خلسة بكل جسده فوق الباب. على مدى يومين كاملين كان يسمعهم يتناقشون أثناء الطعام في أمره. حتى بين الوجبات المختلفة كانوا يتحدثون في الموضوع نفسه. دائمًا ما تواجد في البيت اثنان على الأقل من الأسرة. فلم يرغب أحد في البقاء بمفرده في البيت، وكان من المستحيل أيضًا مغادرة الشقة دون أن يبقى فيها أحد. ألحت الخادمة في أول يوم — لا

أحد يعرف كيف فهمت الأمر بالتحديد — على أمي وناشدتها أن تسمح لها بمغادرة البيت وأثنت على فترة وجودها بالبيت. ودون أن يطلب منها أحد أقسمت بكل عزم على أن تبقي الأمر سرًا، وأنها لن تتفوه بأي كلمة عما حدث.

وصارت شقيقتي وأمي تقومان على أمور الطهو. لم يكن الأمر صعبًا، لأنهم كانوا لا يأكلون تقريبًا. كان «رشيهورش» يتوجس من صوتهم على الدوام عندما يدعو أحدهم الآخر لتناول الطعام، ولا تصله سوى إجابة واحدة: «شكرًا، لقد شبعت»، أو شيء من هذا القبيل. يبدو أنهم كانوا لا يشربون أية خمور. كانت شقيقته تسأل أباها باستمرار إن كان يريد بعض البيرة، كانت تعرض عليه بكل جدية أن تذهب لتشتريها له بنفسها. لكن عندما كان أبوه يلوذ بالصمت، وحتى تُبدد أي شكوك لديه كانت تقول له إنها يمكن أن ترسل البواب ليشتريها، لكنه كان يقول بكل حزم: «لا»، ثم يتوقف الحديث عند هذا الأمر.

في أول يوم أخرج والده كل ما يمتلكه، وعرضه على شقيقته ووالدته. كان ينهض من عند الترابيزة ويتحرك هنا وهناك. وأحضر من صندوق صغير استطاع أن يحافظ عليه بعدما أفلست تجارته قبل خمسة أعوام، مستندًا ما ومفكرة. كان رشيهورش يسمعه وهو يفتح قفلًا ثقيلًا ثم يغلقه مرةً أخرى بعد أن أخرج منه ما يبحث عنه. كان حديث والده أول شيء يسمعه ويبعث في نفسه السرور ولو جزئيًّا منذ بداية حبسه في الغرفة. كان يعرف أن والده فَقَدَ كل شيء في تجارته، أو على الأقل لم يُخبره أبوه خلاف ذلك. ولم يسأله رشيهورش بعدها عن الأمر. كان

كل ما يهم «رشيهورش» وقتها هو أن يسعى بكل قوته كي تتجاوز أسرته بسرعة تلك الكارثة التجارية التي أصابت الجميع باليأس والقلق. لذلك انصرف إلى العمل بكل همة، حتى تحوَّل بين ليلة وضحاها من بائع صغير إلى تاجر متجول، ذي إمكانيات كثيرة لكسب العيش، وتحوَّلت نجاحاته في العمل فورًا إلى أموال سائلة في صورة عمولات. كان يضع هذه الأموال تحت تصرف الأسرة السعيدة المذهولة بنجاحه. كانت أوقاتًا جميلة لم تتكرر بعد ذلك، أو لم تظل بذلك البريق رغم أن رشيهورش كان يتكسب لاحقًا نقودًا كثيرة، جعلته قادرًا على توفير نفقات الأسرة، وبالفعل وفرها لهم. لقد اعتادوا جميعًا على هذا، اعتادت عليه الأسرة وأيضًا رشيهورش. كانوا يتقبلون منه الأموال بكل العرفان، وكان يعطيها لهم بكل سعادة. لكن كان هذا ينقصه الحنان الحقيقي. الوحيدة بينهم كانت شقيقته التي تزداد قُرْبًا منه. كان يُخطط سرًا أن يرسلها العام المقبل إلى معهد الموسيقى متحملًا أي نفقات كبيرة مقابل ذلك؛ لأنها كانت على عكس رشيهورش تحب الموسيقى وتعزف على الكمنجة بمهارة. عندما يكون في المدينة لبعض الوقت كانت تأتي في أحاديثه مع شقيقته إشارة إلى معهد الموسيقى. كان يبدو كأنه مجرد حلم جميل لا يمكن أن تأمل في أن يتحقق يومًا ما. لم يكن والداه يرحبان بالاستماع إلى مثل هذه الإشارات الساذجة. لكن رشيهورش كان يفكر فيها بكل جدية، وكان يُخطط لأن يعلن عن هذا في أعياد الميلاد بشكل احتفالي.

مثل هذه الأفكار التي لا طائل منها وهو في حالته هذه، عصفت برأسه وهو يقف مشدودًا وملتصقًا بالباب ليستمع إليهم. أحيانًا كان يصيبه الإرهاق، لا يستطيع مواصلة الاستماع إليهم؛ فتسقط رأسه فوق الباب من غلبة النعاس. لكنه سرعان ما يستفيق. مثل هذا الضجيج الخافت الذي يسببه كان يسمعه الآخرون في الغرفة، فيصمتون. قال أبوه بعد لحظة وهو يتوجه على ما يبدو نحو الباب: «ماذا يفعل هذا الشاب؟» ثم يعاود الحديث معهم.

أصبح رشيهورش الآن على قناعة — كان أبوه يكرر ما يحكيه مرارًا، إما لأنه لم يتحدث عن هذه الأمور من قبل، وإما لأن أمه لم تفهم الأمر من الوهلة الأولى — بأنه قد بقيت رغم كل المصاعب ثروة صغيرة من أيام الرخاء، زادت قيمتها بفوائدها التي لم يمسوها. كما كان رشيهورش يقتطع لنفسه بعضًا من الأموال التي كان يحملها إلى الأسرة شهرًا بعد الآخر. ولم ينفقها كلها، وادخر منها مبلغًا صغيرًا. كان «رشيهورش» يومئ برأسه بحماس وسعادة من هذه الحكمة وهذا الاقتصاد.

كان قادرًا على أن يدفع لرئيسه في العمل الديون المتبقية لوالده من تلك الأموال التي وفرها، ويصبح اليوم الذي يترك فيه تلك الوظيفة قريبًا للغاية. لكن والده تكفل بالأمر بصورة أفضل بلا شك.

لكن هذه الأموال ليست كثيرة حتى تعيش الأسرة من فوائدها. فهي قد تسد حاجات الأسرة لمدة عام، أو عامين على الأكثر. إنه مبلغ من المال لا يمكن الاقتراب منه، ويجب الاحتفاظ به فقط لوقت الأزمات. لذا

يجب العمل من أجل توفير نفقات الحياة. ورغم أن أباه كان يتمتع بصحةٍ جيدة، لكنه كان مُسِنًّا، ولم يعمل منذ خمسة أعوام، ولا يجب أن يغامر بكل تأكيد. فبعد خمسة أعوام قضاها كأول إجازة في حياته الشاقة المليئة بالإخفاقات، ترهل جسده وصار صعب الحركة.

هل أمه الآن هي التي ستعول الأسرة وهي تعاني من الربو، ومجرد التنقل بين الغرف يصيبها بالإجهاد، وتستلقي يومًا بعد يوم فوق الأريكة بجوار النافذة المفتوحة ينازعها الألم؟ هل شقيقته هي التي ستعول الأسرة وهي مازالت طفلة في السابعة عشرة من عمرها، وتحتاج إلى الكثير حتى تعيش حياتها كما عاشتها حتى الآن، فهي تحتاج إلى الملابس الأنيقة، والنوم الطويل، وأن تساعد في أعمال البيت، وتتمتع ببعض الترفيه المتواضع، والأهم من ذلك أن تعزف على الكمان؟ عندما يتطرق الحديث إلى ضرورة توفير الأموال. كان «رشيهورش» دائمًا يسحب نفسه بعيدًا عن الباب، ويسقط مغتمًا فوق أريكة جلدية بجوار الباب وهو يحترق خجلًا وحزنًا.

كان يرقد هناك كثيرًا على مدى ليالٍ كاملة وطويلة دون أن يغمض له جفن. ساعات طويلة لا يفعل فيها شيئًا سوى حك جلده، أو إجهاد نفسه بتحريك المقعد نحو النافذة، ثم يتسلق عتبة النافذة وهو مستند على المقعد، ثم يميل عليها، ويتذكر شعورًا بالحرية كان يتمتع به من قبل عندما كان يتطلع من النافذة. يبدو أن الأشياء البعيدة كانت تبدو له أقل وضوحًا يومًا بعد يوم، فلم يعد يرى نهائيًّا المستشفى المقابل له والذي كان يراه من قبل كثيرًا حتى ضاق به. لم يكن متأكدًا من أنه

يسكن في المدينة في شارع شارلوت الهادئ. فهو ينظر من النافذة ولا يرى سوى أرض جرداء، سماء وأرض باهتة لا يميزهما شيء. عندما رأته شقيقته التي تسهر على رعايته أكثر من مرة يقف بجوار النافذة، ومن وقتها وهي تضع المقعد قريبًا من النافذة في كل مرة تدخل فيها إلى الغرفة؛ حتى إنها كانت تترك أبواب النافذة الداخلية مفتوحة.

هَمَّه كثيرًا ما تفعله معه شقيقته. كان سيتقبل اهتمام شقيقته به بكل سهولة، لو أنه استطاع أن يتحدث معها ويشكرها على كل ما تفعله معه. كانت شقيقته تحاول أن تخفف من وقع الحادثة، ونجحت في ذلك مع الوقت. كما أن رشيهورش أصبح يدرك ما يحدث بصورةٍ أكثر وضوحًا يومًا بعد الآخر. أصيب بهلع عندما دخلت إلى الغرفة. فقد دخلت شقيقته عنده، وعلى الفور أغلقت الباب خلفها، كانت حريصة تمامًا على ألا يرى أحد ما يحدث في غرفة رشيهورش، ثم توجهت على الفور ناحية النافذة، وفتحتها مُتعجلة على مصراعيها وكأنها على وشك الاختناق. توقفتْ للحظات عند النافذة؛ حيث كان الجو مائلًا إلى البرودة، وراحتْ تتنفس بعمق. كان رشيهورش يفزع من هرولتها وضجيجها اللذين يحدثان مرتين في اليوم، بينما هو مُستلقٍ يرتعد أسفل الأريكة طوال هذه المدة. كان يعرف جيدًا أنها كانت ستتوقف فورًا عن هذه الأفعال لو أنها تحملت البقاء في الغرفة عند رشيهورش والنوافذ مغلقة.

مر شهر على التحوُّل الذي أصاب رشيهورش، ولم تر شقيقته سببًا للاندهاش من منظره. وجاءت ذات مرة مبكرة قليلًا على غير عادتها،

فرأت رشيهورش وهو ينظر من النافذة منتصبًا في وضع مخيف. لو أنها لم تدخل لما اندهش رشيهورش. لم تستطع الوصول إلى النافذة لأنه يقف عندها. لكنها دخلت، وأنهت أعمالها، وخرجت، ثم أغلقت الباب خلفها. أي شخص غريب قد يعتقد أن رشيهورش هجم عليها وأراد أن يلتهمها. لكن رشيهورش اختبأ بالطبع على الفور أسفل الأريكة.

واضطر للانتظار حتى الظهيرة إلى أن عادت شقيقته، وكان القلق الشديد باديًا عليها أكثر من أي وقت مضى. لاحظ أن النظر إليه مازال يمثل لها صعوبة شديدة، وسوف يظل ثقيلًا عليها على الدوام، وأن عليها أن تجاهد كثيرًا حتى لا تهرب من النظر إلى جزء صغير من جسمه يظهر من أسفل الأريكة. وحتى يوفر عليها مشقة هذا المشهد، حمل ذات يوم على ظهره غطاءً ووضعه على الأريكة — تطلّب هذا أربع ساعات من العمل — وأعد الغطاء بحيث يغطيه تمامًا. لن تتمكن شقيقته من رؤيته حتى وإن مالت بجسمها. لو اعتقدت أن هذا الغطاء غير ضروري يمكنها أن ترفعه. كان واضحًا أن رشيهورش لم يكن يختبئ بغرض المزحة. لكنها تركت الغطاء كما هو. واعتقد رشيهورش أنه رأى علامات الامتنان على وجهها عندما رفع الغطاء ذات مرة بحذر، وأومأ برأسه لينظر كيف تقبلت شقيقته هذا الأمر.

لم يجرؤ والداه خلال الأربعة عشر يومًا الأولى من الدخول إليه. كان «رشيهورش» يسمعهما وهما يتحدثان كثيرًا بامتنان عما تقوم به شقيقته من رعاية له، رغم أنهما كانا أحيانًا ينهرانها، لأنهما كانا على قناعة بأنه لا طائل من وراء ما تفعله. لكن كليهما، أباه وأمه، كانا

ينتظران أمام غرفة رشيهورش بينما ترتب شقيقته له الغرفة، وبمجرد أن تخرج يسألانها لكي تحكي لهما بالتفصيل عن شكل الغرفة من الداخل، وما الطعام الذي تناوله رشيهورش، وما سلوكه، وهل هناك تحسن ولو بسيطًا في حالته أم لا. كانت أمه تريد أن تزوره منذ وقت بعيد، لكن أباه وشقيقته كانا يمنعانها لأسباب منطقية، استمع إليها رشيهورش بإنصات وأقرها تمامًا. لكنهما اضطرا إلى منعها بالقوة في وقت لاحق، عندما صاحت فيهما: «اتركوني أدخل عنده، إنه ابني المسكين. ألا تفهمان أني لابد أن أذهب إليه؟» اعتقد رشيهورش أنه قد يكون طيبًا أن تأتي إليه والدته، ليس كل يوم بالطبع، لكن مرة في الأسبوع مثلًا. إنها تفهم الأمور على نحو أفضل من شقيقته التي رغم كل شجاعتها، مازالت طفلة. حملت على عاتقها عبئًا ثقيلًا، ربما كان دافعها الرئيسي هو عفوية الطفولة.

تحقق ما كان رشيهورش يتمناه، وزارته أمه. لم يعد يظهر بجوار النافذة خلال النهار احترامًا لرغبة والديه، ولم يرغب في الزحف على أرضية الغرفة في مساحة بضعة أمتار مربعة، وأثناء الليل لم يكن يتمكن من البقاء ساكنًا، ولم يعد الطعام يروقه كما كان. وحتى يقتل الوقت اعتاد على الزحف فوق الحوائط، جيئةً وذهابًا، وعلى السقف. كان يحب البقاء فوق السقف بصفة خاصة. كان شيئًا مختلفًا عن الاستلقاء على أرض الحجرة. هناك يتنفس براحة أكبر، وانتفاضة خفيفة تسري في جسده. ويحدث أن يشرد ذهنه وهو على السقف وترتخي عضلاته فيترك نفسه يسقط ويرتطم بأرض الغرفة. صار الآن يتحكم بجسده

على نحو أفضل من السابق، وحتى بعد هذا السقوط الكبير لا يُصاب بأي أذى. لاحظت شقيقته طرق اللهو الجديدة التي ابتدعها — كان يترك خلفه آثار مادة لزجة على جسده في كل مكان ، وخطر لها أن تساعد رشيهورش على الزحف في مساحة أكبر، بأن تزيل الأثاث الذي يعوقه؛ وخاصةً خزانة الملابس، وترابيزة الكتابة. لكنها لم تتمكن من هذا وحدها، ولم تستطع أن تطلب المساعدة من أبيها، ومن المؤكد أن الخادمة لن تساعدها، لأنها فتاة في السادسة عشرة من عمرها تقريبًا. صحيح أنها تقبلت الأمر بشجاعة، على عكس الخادمة السابقة، إلا أنها طلبت أن يسمحوا لها بأن تغلق على نفسها المطبخ طوال الوقت، وتفتح الباب فقط عندما يطلبها أحدهم. فلم يكن أمام شقيقته إلا أن تدعو والدتها لمساعدتها عندما يغيب أبوها عن البيت يومًا ما. جاءت أمه، وصاحت بكل سعادة وحماس. لكنها صمتت عندما وصلت إلى باب حجرة رشيهورش. بالطبع نظرت شقيقته في بادئ الأمر لتتأكد أن الأمور في الغرفة طبيعية. ثم دعت والدتها للدخول. وبسرعة سحب رشيهورش الغطاء إلى الأرض أكثر مما هو معتاد، وهَذَّبَه أكثر. ظهر المشهد وكأن أحدهم ألقى الغطاء على الأريكة مصادفة. لكن رشيهورش راح يختلس النظر من خلف الغطاء، وأصر على ذلك حتى يرى أمه. إنه سعيد أنها جاءت أخيرًا. قالت شقيقته وهي على ما يبدو تجرّ أمها من يدها: «تعالي! إنه مختبئ» سمع رشيهورش كيف تدفع هاتان السيدتان الضعيفتان الخزانة القديمة الثقيلة، ولاحظ أن شقيقته دائمًا تطلب أن تقوم بمعظم الأعمال بنفسها متجاهلة تحذيرات والدتها

لها بألا تُرهق نفسها. استغرق الأمر وقتًا طويلًا. بعد مرور ما يقرب من ربع الساعة قالت أمه إنه من الممكن ترك خزانة الملابس في مكانها، لأنها أولًا ثقيلة جدًا ولن يتمكنا من تحريكها إلى مكان آخر قبل وصول والده، وأن الخزانة سوف تعوق رشيهورش عند وضعها في منتصف الغرفة، إضافة إلى أن نقل الأثاث لن يعجب رشيهورش. كانت تعتقد العكس تمامًا، فرؤية حائط خاوٍ قد يُصيبه بالحزن. ومن يضمن أن رشيهورش لن يحزن، فهو اعتاد على الأثاث في الغرفة منذ زمن بعيد، وسوف يشعر بالوحدة لو أفرغنا الغرفة تمامًا من الأثاث. راحت تتحدث بصوت خافت، وتكاد تهمس وكأنها كانت تخشى أن رشيهورش الذي لا تعرف مكانه في الغرفة على وجه الدقة قد يسمع صوتها، فهو لا يفهم الكلمات، وكانت مقتنعة بذلك، وقالت: «ألن يبدو الأمر عندما نُفرغ الغرفة من الأثاث كأننا فقدنا الأمل تمامًا في تحسن حالته، لذلك نتركه وحيدًا؟ أعتقد أنه من الأفضل أن نحافظ على الغرفة في حالتها كما هي، حتى عندما يعود إلينا رشيهورش مرةً أخرى يجد كل شيء كما هو، وبذلك سينسى بسرعة ما حدث له»

عرف «رشيهورش» وهو يسمع كلمات أمه أن قلة تواصله مع البشر، وحياته الرتيبة وسط الأسرة خلال الشهرين الماضيين، أفسدت عقله تمامًا. لم يستطع تفسير رغبته الحقيقية في أن تصبح الغرفة خاوية. هل يريد بالفعل أن تتحول هذه الغرفة الدافئة بأثاثها المريح إلى ما يشبه العرين؛ حيث يستطيع الزحف بلا عائق في كل مكان، فينسى بسرعة

إلى الأبد ماضيه كبشر؟ إنه في الواقع كاد ينسى، ولم ينبهه إلى هذا إلا صوت أمه الذي لم يسمعه طويلًا. فليتركا كل شيء في مكانه.

يجب أن يبقى كل شيء في مكانه. لا يمكن أن يظل هنا بدون أثاث يبعث الراحة في نفسه. ولو عاقه الأثاث عن أن يلهو هنا وهناك؛ فلا ضرر في هذا على الإطلاق. بل على العكس، ربما يكون مفيدًا.

لكن شقيقته كان لها للأسف رأي آخر. فقد اعتادت دائمًا أن تتصرف أمام والديها فيما يتعلق ب «رشيهورش» على أنها خبيرة في هذا الشأن، رغم أنها لم تكن كذلك بكل تأكيد. وكانت نصائح أمها كفيلة بأن تجعلها عازمة على إفراغ الغرفة، ليس فقط من خزانة الملابس والمكتب، وهو ما كانت تنويه في بادئ الأمر، بل من كل الأثاث الموجود فيها، باستثناء الأريكة. لم يكن العناد الطفولي والثقة بالنفس وراء ذلك الإصرار فقط، لكنها لاحظت بالفعل أن رشيهورش عندما يزحف فهو في حاجة إلى مكان أكثر اتساعًا، وأن الأثاث كما ترى لا يستخدمه على الإطلاق. لكن الأمر بدا وكأنه نوع من المثالية المعروفة عند فتاة في سنها، تبحث عن إشباع الرغبات في كل مناسبة. هذه الميول سيطرت على «ماركيتا» لتضفي على الحالة التي يعاني منها رشيهورش مزيدًا من البشاعة، وتُمَكِّنها من القيام بالمزيد من الأعمال له. فلن يتمكن أحد غير «ماركيتا» من الدخول إلى الغرفة التي يسيطر فيها رشيهورش على حوائطها العارية.

وهكذا لم تسمح لأمها أن تـؤثر في قرارهـا. كـانت أمهـا تشـعر في هـذه الغرفة بالقلق، وفقدت كل يقين لـديها، فـالتزمت الصـمت. وسـاعدت ابنتها قدر المستطاع على إخراج الخزانة خارج الغرفـة. في الحقيقـة، إن رشـيهورش يمكنـه في أسـوأ الأحـوال أن يسـتغني عن الخزانـة، لكن المكتب لا بد أن يبقى في الغرفة. وما إن خرجت السـيدتان مـع الخزانـة إلى الخـارج وهمـا يسـتندان عليهـا ويلهثـان من التعب؛ حـتى أخـرج رشيهورش رأسه من أسفل الأريكة ليرى ماذا سيفعل بكل حذر وحرص ممكن. لكن لسوء الحظ عادت أمه إلى الغرفة قبـل شـقيقته الـتي كـانت مازالت تطوق الخزانة بذراعيها خـارج الغرفـة، وتحـاول عبثًـا تحريكهـا هنـا وهنـاك. لم تكن الأم معتـادة على شـكل رشـيهورش، وقـد تسـقط مغشيًّا عليها من منظره، فتقهقر رشيهورش مذعورًا نحو طرف الأريكـة، ولم يستطع أن يحول دون تحرك الغطاء عنه قليلًا. وكـان هـذا كافيًـا أن تراه أمـه. ارتبكت وظلت واقفـة في مكانهـا لا تتكلم، ثم انصـرفت نحـو «ماركيتا»

ورغم أن رشيهورش كان يقول لنفسه مـرارًا وتكـرارًا إن المـرء لا يتعلـق بعمل كبير، فهما تُعيدان ترتيب بعض قطع الأثاث، لكنه سرعان ما أقـر بأن حركات السيدتين، وهديرهما، وصرير الأثـاث فـوق أرضـية الغرفـة يُحدث ضجيجًا كبيرًا من كل اتجاه. ورغم أنه ضم رأسـه وأقدامـه فـوق جسده، وضغط بطنه فـوق أرض الغرفـة، إلا أنـه كـان يعلم جيـدًا أنـه لن يتحمل هذا الوضع كثيرًا. فهما تُرتبان له الغرفـة، ستأخذان معهمـا كـل مـا يحبـه، وهمـا الآن يتأرجحـان مـع المكتب الـذي غـاص في أرضـية

الحجرة. على هذا المكتب كان يكتب واجباته بصفته تاجرًا أكاديميًّا، وتلميذ إحدى مدارس المدن، وأيضًا كتلميذ في مدرسة عامة — وصار الآن غير قادر على التكهن بنوايا هاتين السيدتين، وقد كاد ينسى أمرهما، لأنهما كانتا متعبتين إلى درجة جعلتهما تعملان في صمت، ولا يسمع سوى خبطات أقدامهما الثقيلة.

خرج من تحت الأريكة، وكانت السيدتان تستندان على المكتب بجوار الغرفة لتستريحا قليلًا، غَيَّرَ اتجاه حركته أربع مرات، بالفعل لم يكن يعرف ما الذي عليه أن ينفذه أولًا. وهنا رأى أن الحوائط عارية تمامًا إلا من صورة سيدة ترتدي المعطف الجلدي نفسه؛ فزحف إلى أعلى، والتصق بزجاج الصورة الذي تحمله، وبث شعورًا طيبًا على بطنه الملتهبة. على الأقل لن يأخذ أحد هذه الصورة التي يغطيها رشيهورش الآن بالكامل. التفت نحو باب غرفة الاستقبال كي يرى السيدتين وهما عائدتان.

عادتا إلى الغرفة بعد راحة قصيرة. كانت «ماركيتا» تمسك بذراع أمها وكادت تحملها. قالت ماركيتا وهي تنظر حولها: «ماذا سنأخذ الآن؟» وهنا وقعت عيناها على رشيهورش وهو عالق فوق الجدار. تمالكت نفسها بفضل وجود أمها، ثم مالت على والدتها بوجهها حتى تخفي عنها المشهد، وقالت دون تردد وهي ترتعد:

«تعالي! سنذهب للحظات إلى غرفة الاستقبال. هل ستأتي معي؟» فهم رشيهورش ما تعنيه ماركيتا. كانت تريد أن تأخذ أمها إلى مكان آمن

حتى ينزل من فوق الحائط. لتفعل ما تشاء! رشيهورش يجلس فوق اللوحة ولن يعطيهما إياها. ولو حاولتا سوف يقفز على وجه ماركيتا.

بعثت كلمات ماركيتا الطمأنينة في قلب أمها، فطاوعتها. رأت بقعة بنية ضخمة فوق ورق الحائط الملون. وقبل أن تدرك أن تلك البقعة التي تراها هي رشيهورش نفسه؛ صاحت بصوت أجش: «يا إلهي! يا إلهي!» وسقطت على الأريكة هامدة وهي باسطة يديها من اليأس. قبضت ماركيتا كفها، ونظرت إليه بحدة، وصاحت:

«احترس يا رشيهورش!» كانت هذه هي المرة الأولى التي تخاطبه فيها مباشرة منذ أن تَحَوَّل. أسرعت إلى الغرفة المجاورة لتحضر عطرًا تساعد به أمها على أن تستفيق من غيبوبتها. كان رشيهورش يريد أيضًا أن يساعدها — فلديه المزيد من الوقت ليدافع فيه عن لوحته لاحقًا ـ لكنه كان ملتصقًا بقوة بالزجاج، فسحب نفسه عنوة، وأسرع إلى الغرفة المجاورة، وكأنه يستطيع أن ينصح شقيقته بشيء، كما كان يفعل في السابق. أمسكت بعض القارورات الصغيرة، وانصرفت مهرولة، فوقعت إحداها على الأرض وانكسرت. تطايرت كسرة على وجه رشيهورش فأصابته. كان بالقارورة دواء ما خبيث سقط عليه. لم تتوقف ماركيتا، فأخذت كل ما عثرت عليه من الزجاجات في يدها، وانطلقت نحو أمها، ثم خبطت الباب بقدمها. صار رشيهورش الآن معزولًا عن أمه التي ربما تشرف على الموت بسببه. لا يمكنه أن يفتح الباب حتى لا تهرب شقيقته التي يجب أن تبقى مع أمه. لم يكن أمامه سوى الانتظار حزينًا، وملومًا، وخائفًا. أراد أن يزحف، فزحف فوق كل شيء؛ فوق

الحوائط، وعلى الأثاث، وعلى السقف، وأخيرًا سقط يائسًا فوق الترابيزة الكبيرة، عندما بدأ يشعر بأن الغرفة كلها تدور به.

مرت لحظات ورشيهورش يجلس مُترهلًا. الهدوء يعم المكان، ربما كانت هذه علامة جيدة. وهنا رن جرس الباب. الخادمة تغلق على نفسها باب المطبخ، فأسرعت ماركيتا لتفتح الباب. إنه والده. كانت أول كلمة قالها: «ماذا حدث؟» يبدو أنه قرأ كل شيء على وجه ماركيتا. أجابته ماركيتا بصوت مختنق وهي مسدلة الرأس:

«أغمي على أمي، لكن حالتها تحسنت. لقد هرب رشيهورش» قال أبوها: «توقعت هذا. كنت دائمًا أقول لكم هذا. لكنكم، أيتها السيدات، وكأنكم أصبتم بالطرش» فهم رشيهورش أن والده فَسَّرَ كلام ماركيتا الموجز بأن رشيهورش ارتكب أعمالًا عنيفة. لذلك يجب أن يسترضي أباه، فلا وقت لشرح الأمر، كما أن ذلك غير ممكن. انصرف نحو باب غرفته ودفعه كي يرى أباه وهو يخرج إلى الردهة أن رشيهورش ينوي بالفعل العودة طواعية إلى غرفته، وليس عليه أن يطارده، بل يكفي أن يفتح له الباب، وسيختفي على الفور.

لكن أباه لم يكن في حالة نفسية تسمح بمثل هذه الرقة. صاح عندما دخل الردهة: «آه!»، كان في صوته نبرة غضب وسعادة أيضًا. أدار رشيهورش رأسه من عند الباب ورفعها ناحية أبيه. لم يكن يتخيل أباه على هذه الهيئة التي يقف بها أمامه الآن. في الفترة الأخيرة انشغل بأموره الجديدة وبالزحف، ونسى أن يتابع ما يحدث في الشقة. كان

يجب أن يكون مستعداً لمواجهة التغيرات في أحوال الأسرة. لكن ورغم هذا كله، هل هذا حقًّا هو والده؟ هو ذلك الرجل الذي كان يستلقي في سريره متعبًا بينما رشيهورش يسافر في رحلات العمل، هل هذا هو الرجل الذي كان يستقبله في المساء وهو عائدٌ إلى البيت، يرتدي ثوبًا فضفاضًا فوق الأريكة، وغير قادر على النهوض، ويرفع له يده سعيداً بعودته، وعندما كانوا يخرجون معًا من آنٍ لآخر بضع مرات في العام، أيام الأحد أو الأعياد للتنزه، كان يمشي بين رشيهورش وأمه مستنداً عليهما. وكانا يضطران من أجله إلى السير على مهل. فقد كانت خطواته دائمًا بطيئة وهو ملفوف في معطفه القديم، ويتكئ على عصاه التي يضعها بحذر فوق الأرض. وكان كلما أراد أن يقول شيئًا، يقف ويجمع الناس من حوله. الآن يقف منتصبًا، ويرتدي زيًّا حديثًا مهندمًا بأزرار ذهبية. يشبه زيّ عاملي البنوك. وفوق ياقة المعطف الصلبة تتدلى لحية ثنائية كثيفة، وأسفل حاجبيه الكثيفين تشع نظرة متألقة من عينين سوداوين. وشعر أشيب مصفف على جانبي رأسه بإتقان، بعد أن كان يومًا مبعثرًا. ألقى قبعة عليها أحرف ذهبية لأحد البنوك فوق الأريكة وهو يقف بعيداً عنها، ثم تقدم نحو رشيهورش متجهمًا وذيل معطفه الطويل يرفرف في الهواء، واضعًا يديه في جيوب بنطلونه. لم يعرف هو نفسه ماذا سيفعل، لكنه رغم ذلك رفع قدميه عاليًا. تعجب رشيهورش من نعل حذائه العالي. لم يكن يبالي، فمنذ اليوم الأول من حياته الجديدة وهو يعرف أن أباه يعتبر أن التعامل معه يجب أن يكون صارمًا للغاية. فهرب أمام أبيه. ثم توقف عندما رأى أبيه لا يبرح مكانه، ثم

انطلق من جديد عندما رآه يتحرك. دارا في الغرفة مراتٍ عدة، دون أن يحدث أي شيء؟ بل على العكس، لم يظهر الأمر على أنه مطاردة نظرًا لإيقاعهما البطيء. لذلك ظل رشيهورش على الأرض، وخشي لو أنه صعد فوق الحائط أو السقف فقد يعتبر أبوه ذلك نوعًا من سوء النية.

اضطر رشيهورش في النهاية أن يعترف أن مثل هذه الحركة المتصلة قد أرهقته، فكان كلما يخطو أبوه خطوة، يتبعها هو ببضع حركات. بدأ يفقد أنفاسه. لم تكن رئتاه حتى قبل التَّحَوُّل في حالة جيدة. جرى أمامه وهو يترنح ويستجمع كل قواه للمواصلة، وعيناه مغمضتان جزئيًّا. كان في حالة لا تسمح له بالفرار من أبيه إلا بالجري أمامه، ونسى أن هناك حوائط مكسوة بقطع الأثاث، والعديد من التجاويف والنتوءات — وهنا تطاير بجواره مباشرةً شيء ثم تدحرج أمامه مما أثار في نفسه الذعر. شيء يشبه التفاحة، ثم تبعه بواحدةٍ أخرى. توقف «رشيهورش» مذعورًا، كان من العبث مواصلة الهرب أمام أبيه، لأن أباه قرر أن يقذفه بالأشياء.

ملأ جيوبه من وعاء فوق الخزانة، وراح يقذفه بتفاحة تلو الأخرى دون أن يُصيبه. كانت تلك التفاحات الحمراوات الصغيرات تتدحرج فوق أرض الغرفة وتتصادم مع بعضها وكأن بها تيارًا كهربائيًّا. لمست إحدى التفاحات ظهر رشيهورش بخفة، ثم انزلقت، ولم تُصبه بأذى. وطارت أخرى نحوه، وارتطمت بظهره، أراد رشيهورش أن يواصل زحفه وكأنه سيتجاوز ذلك الألم الكبير لو غَيَّرَ مكانه، لكنه تسمر في مكانه، وتمدد على الأرض وقد سقط في حالة من الارتباك الكبير. وفي اللحظة

الأخيرة رأى باب غرفته يُفتح بقوة، وتخرج منه أمه، وخلفها شقيقته التي تصرخ. كانت أمه ترتدي فقط قميصًا لأن ابنتها كانت أزالت عنها ملابسها حتى تتنفس بحرية بعد أن أُصيبت بالإغماء. أسرعت أمه نحو أبيه وتنورتها المرتخية تتساقط منها، دفعتها بقدمها وتقدمت منه واحتضنته — زاغت عينا رشيهورش — وأمسكت بيديه خلف رأسه وراحت تتوسل إليه ألا يقتل رشيهورش.

3

عانى «رشيهورش» لأكثر من شهر من جروح خطـيرة — ولم يتمكن من التخلص من إحدى التفاحات التي التصقت بجسده وبقيت ذكرى حية لما حـدث، تلـك الجـروح نَبَّهَتْ والـده إلى أنـه رغم الحالـة الكريهـة المؤسفة الـتي هـو عليهـا الآن فلا يجب أن ينسـى أن رشـيهورش مـازال عضـوًا في الأسـرة، ولا يجب أن يتعامـل معـه على أنـه عـدوّ لـه، بـل واجبـات الأسـرة تفـرض عليـه أن يمتص غضـبه، ويتحلى بالصـبر، ولا شيء غير الصبر.

يبـدو أن «رشـيهورش» أُصـيب بعجـز كبـير عن الحركـة نتيجـة جراحـه، وكـان المـرور بالغرفـة يتطلب منـه بضـع دقـائق وكأنـه مُعَـاق عجـوز — وبالطبع توقف عن الزحف فوق الأماكن المرتفعة، ومقابل هذه الحالـة السيئة حصل على تعويض، سَبَّبَ له الرضا الكامل. فقـد كـانوا يـتركون له باب الحجرة المؤدي إلى غرفة الاستقبال مفتوحًا، وكان يبقى لسـاعة أو سـاعتين لا تبرحـه عينـاه. يجلس في غرفتـه المظلمـة، حيث لا يـراه أحد، وينظر إلى الأسرة المجتمعة حول الترابيزة المضـيئة، ويسـتمع إلى ما يقولونه بنوع من الرضا، على عكس ما كان في السابق.

لم يكن لحديثهم روح السمر نفسها التي اتسم بها من قبل، والذي كـان رشيهورش يتوق إليه وهـو يتنقـل بين غـرف الفنـادق، ويسـتلقي مُرهقًـا فوق أَسِرَّة رطبة. كان أغلب حديثهم يدور همسًا. وكان أبوه يغلبـه النـوم وهو جالس فوق الأريكة بعد العشـاء مباشـرةً. أمَّا أمـه وشـقيقته فكـانت

كل منهما تُنَبّه الأخرى إلى أن تخفض من صوتها. كانت أمه تجلس غارقة في الضوء، وتحيك رداءً رقيقًا لإحدى مسابقات الموضة. وبدأت شقيقته العمل في وظيفة بائعة. وفي المساء تذاكر دروس الكتابة بالاختزال ودروس اللغة الفرنسية باجتهاد، على أمل أن تحصل يومًا ما على وظيفة أفضل. كان والده يستفيق أحيانًا من نومه ويخاطب أمه وكأنه لم ينم، ويقول: «لماذا تحيكين حتى الآن؟»، ثم ينام من جديد. فتنظر أمه وشقيقته إلى بعضهما، ويبتسمان بضجر.

كان أبوه يُكابر ويرفض أن يخلع رداء العمل حتى وهو في البيت. ظل رداء البيت معلقًا فوق الحامل مهملاً. كان يغفو في مكانه وهو في كامل ملابسه، وكأنه في حالة تأهب للعمل، فهو في البيت يترقب سماع صوت رئيسه. والنتيجة هو أن زيَّه الذي لم يكن في الأصل جديدًا، صار متسخًا رغم حرص شقيقته وأمه على تنظيفه. كان رشيهورش كثيرًا ما يقضي المساء يتطلع إلى هذا الزي المليء بالبقع وبالأزرار المصقولة اللامعة، وينام العجوز بكل هدوء وهو يرتديه رغم أنه لم يكن مريحًا.

دقت الساعة العاشرة، فحاولت أمه إيقاظ أبيه بمحاولات هادئة لتجعله ينصرف كي ينام، فالمكان على الأريكة ليس مخصصًا للنوم الذي يحتاجه، وعليه أن يكون في عمله في الساعة السادسة. لكن العناد الذي حَلَّ عليه منذ أن أصبح عاملًا كان يدفعه إلى أن يصر على البقاء قليلًا عند الترابيزة رغم أن النوم يغلبه هناك. كانا يجتهدان كثيرًا لإجباره على

الذهاب للنوم في سريره بدلًا من المقعد، رغم إلحاح شقيقته وأمه، كان يهز رأسه مدة ربع ساعة وهو مغمض العينين ولا يبرح مكانه.

فتجره أمه من كُمّه وهي تداعبه في أذنه بكلمات معسولة، وتترك شقيقته واجباتها وتساعد أمها. لكن أباه يصر على ما هو عليه، ويغوص أكثر في الأريكة. ولا يفتح عينيه إلا عندما تجذبه السيدتان من ذراعه، فينظر إلى كل منهما للحظات، ويقول: «إنها الحياة. هذا هو الهدوء الذي انتظرته عندما يتقدم بي العمر» ثم ينهض متثاقلًا وهو يتكئ على السيدتين وكأنه صار عبئًا على نفسه. تسيران به نحو الباب. وهناك يومئ لهما بأن يذهبا، ثم يمضي وحده بعد أن تركت أمه الحياكة وألقت شقيقته بالقلم ونهضتا لمساعدته.

مَنْ في هذه الأسرة المثقلة بالأعمال المرهِقة لديه وقت لكي يهتم ب «رشيهورش» بالقدر الكافي؟ تقلصت ميزانية الأسرة بشكل كبير يومًا بعد يوم. خادمة طويلة وهزيلة كانت تأتي صباحًا ومساءً للقيام بالأعمال الشاقة في البيت. باقي الأعمال كانت أمه تتكفل بها، إضافة إلى أعمال الحياكة. عَلِمَ «رشيهورش» ذات مساء أنهم باعوا المجوهرات التي كانت تلبسها أمه وشقيقته بكل سعادة وهما يترددان على حفلات السمر والأعياد. عرف هذا عندما سمعهم يتحدثون عن المقابل الذي حصلوا عليه مقابل تلك المجوهرات. كانوا يشتكون باستمرار من عدم قدرتهم على مغادرة هذه الشقة التي أصبحت كبيرة عليهم في ظل الأوضاع الجديدة، وأصعب ما في الأمر كان انتقال رشيهورش منها. كان رشيهورش على قناعة بأنه لن يكون عائقًا عند

انتقـالهم، ويمكنهم أن يضعوه بكـل بسـاطة في صـندوق مناسـب، ويصنعون فيه بضع فتحات لدخول الهـواء. مـا يمنعهم من الانتقـال إلى شقة أخرى هو بـالأحرى اليـأس الكامـل، والتفكـير بالكارثـة الـتي حَلَّتْ بهم بصـورة لم تحـدث لأحـد من أقـاربهم أو معـارفهم. قـاموا بكـل مـا يتوقعه المرء من أسرة بائسة. كان والده يحمـل طعـام الإفطـار للعـاملين في البنك، واشتغلت أمـه في غسـيل الملابس للغربـاء، وكـانت شـقيقته تهرول خلف ترابيزة المتجر لخدمة الزبائن. ولم يبقى لـدى الأسـرة قـوة لأعمال إضافية. عاودت رشيهورش آلام ظهره من جديد.

عندما عـادت أمـه وشـقيقته إلى الـبيت بعـد أن أوصـلتا أبـاه إلى العمـل، انصرفتا عن أية أعمال، وعانقت كل منهما الأخـرى بوجههـا، وأشـارت أمه إلى غرفة رشيهورش، وقالت: «أغلقي هذا البـاب يـا ماركيتـا» ومـرة أخرى غرق رشيهورش وسـط الظلام، بينمـا اختلطت دمـوع السـيدتين، وتسمر وجهاهما على الترابيزة بعد أن جفت دموعهما.

قضـى رشـيهورش أيامًـا وليـاليَ دون أن ينـام تقريبًـا. أحيانًـا كـان يقـول لنفسه إنهم حين يفتحون الباب في المرة المقبلة، سـيتولى أمـور الأسـرة مرة أخرى، تمامًا كما كان يفعل من قبـل. ولأول مـرة بعـد وقت طويـل بدأت تتراءى لـه صـورة رئيسـه في العمـل، والمـدير المـالي، والموظـف الصغير الذي يعمل معه، وباقي زملائـه، وعامـل الفنـدق البليـد، واثـنين من أصـدقائه يعملان في متـاجر أخـرى، وعاملـة الفنـدق في القريـة. ذكريات جميلة خاطفة. تَذَكَّرَ بائعة في متجر القبعات؛ كـان يومًـا يفكـر في الزواج بها مع شيء من التردد.. تراءت صور كـل هـؤلاء أمـام عينيـه

مختلطة بأناس آخرين غرباء. كل هؤلاء ابتعدوا عنه، بدلًا من أن يقدموا له ولأسرته يد العون. لكنه كان سعيدًا لاختفائهم على أية حال. ثم تقلص اهتمامه بأحوال الأسرة، وكانت الخدمة السيئة هي كل ما يزعجه. ورغم أنه لم يكن يعرف على وجه التحديد ما الذي يشتهيه، كان يبتدع خططًا للوصول إلى مخزن المؤن، ويأخذ منه ما يعجبه، رغم أنه لا يشعر بالجوع. توقفت شقيقته عن إجهاد نفسها لإرضاء رشيهورش. ففي كل صباح، وعند الظهيرة، قبل أن تغادر إلى العمل تدفع له الطعام بقدمها على عجلة، لا يهم أي طعام. وفي المساء تزيل بقاياه بالجاروف، غير عابئة بتناوله إياه — وكان هذا غالبًا ما يحدث — أم عدم تناوله. لم يعد تنظيف الغرفة الذي تقوم به في المساء سهلًا. فلطخات قذرة انتشرت على الحوائط، وتراكمت أكوام التراب والفضلات في كل مكان. كان رشيهورش في البداية يقف في أحد أركان الغرفة عندما تأتي شقيقته، ويُوَجِّه لها نظرات عتاب. كان يمكنه أن يقف هكذا لأسابيع دون أن تلتفت إليه شقيقته، فقد كانت ترى القذارة مثله تمامًا، لكنها قررت أنها لن تهتم بها. كانت تحرص بكل الحدة التي لم يعهدها فيها، والتي سيطرت على كل أفراد الأسرة، على أن يكون تنظيف غرفة رشيهورش من مهامها هي وحدها. ذات مرة قامت أمها بنوبة تنظيف كبيرة في غرفة رشيهورش، استهلكت فيها كمية كبيرة من المياه — عاش بعدها رشيهورش في حالة من الرطوبة الشديدة، فجلس فوق الأريكة منزعجًا وساخطًا لا يتحرك. لكنها لم تسلم من العقاب، فما إن لاحظت شقيقته التغيُّر الذي حدث في غرفة

رشـيهورش حـتى هـرولت إلى غرفـة الاسـتقبال وهي تشـعر بالإهانـة. أقسمت لها والدتها بأغلظ الأيمان في حالة من اليأس، إلا أنها انفجرت في بكاء شديد. كان والداها يتابعانها — وخاصة أبوها الـذي انتفض من مقعده — باندهاش العاجز، حتى أصابهما الغضب هما أيضًا. أبوهـا من ناحية يعاتب أمها بأنه كان عليها أن تترك غرفة رشيهورش لكي تتولاهـا شقيقته، ومن ناحية أخرى يصرخ في شـقيقته ويهـددها بأنـه لن يسـمح لها أن تنظف حجرة رشيهورش بعد اليوم. بينما أمها تسعى إلى مساعدة أبيها كي يذهب إلى غرفته، وهي التي لم تره من قبل في هذه الحالـة من الهيـاج، أمـا شـقيقته الـتي تنتفض من الغضـب فتخبـط بقبضـة يـدها الصغيرة على الترابـيزة. و«رشـيهورش» يصـفُر مسـتاءً من أنهم نسـوا أن يغلقوا الباب حتى ينقذوه من هذا المشهد وهذا الضجيج.

لم يكن صـحيحًا على الإطلاق أن تـدافع عنهـا أمهـا. ورغم أن شـقيقته المرهقـة من العمـل في المتجـر، تـوقفت عن الاهتمـام بـه كمـا كـانت تفعل من قبل، فلا يجب أن يهملوا رشيهورش. كانت الخادمة موجـودة باستمرار. إنهـا أرملـة عجـوز، تحملت في حياتهـا بفضـل بنيتهـا القويـة الكثير من المتاعب، لـذلك لم تكن تشعر تجـاه رشـيهورش بـأي نفـور. ذات مرة فتحت باب غرفته صدفةً دون أن تُبـدي أي نـوع من الفضـول، ومـا إن رأت رشـيهورش وقـد أُصـيب بدهشـة كبـيرة وراح يجـري هنـا وهنـاك رغم أن أحـدًا لم يطـارده من قبـل؛ حـتى وضـعت يـديها حـول خصرها، ولم تبرح مكانهـا. ومنـذ ذلـك الـوقت لم تُفـوّت يومًـا. كـانت تـأتي صـباحًا ومسـاءً وتفتح البـاب للحظـات، ثم تلقي على رشـيهورش

نظرة وتنصرف. كانت تناديه في البداية بكلمات تعتبرها على ما يبدو لطيفة، فتقول له مثلًا: «تعال هنا أيها الحثالة العجوز!»، أو «فلنلق نظرة على هذا الحثالة العجوز!» لم يكن رشيهورش يستجيب لتلك الكلمات على الإطلاق، وكان يلازم مكانه ولا يتحرك، وكأنها لم تأت أصلًا. ألم يكن من الأفضل أن يطلبوا من هذه الخادمة أن تنظف له غرفته يوميًّا، بدلًا من أن يتركوها تأتي بلا داعٍ لتزعجه وقتما تشاء! بدأت تلك الخادمة ذات يوم، في الصباح الباكر — كانت قطرات المطر الشديد تصفع النافذة بقوة، ربما كان هذا إيذانًا بقدوم الربيع — في ترديد كلماتها المعهودة، وهو ما أثار غضب رشيهورش، فاستدار نحوها بهدوء، وكأنه يريد أن يهجم عليها. بدلًا من أن تفزع، رفعت مقعدًا بجوار الباب إلى أعلى، ووقفت بفمها المفتوح عن آخره، وصار من المؤكد أنها لا تنوي غلق الباب قبل أن يسقط المقعد الذي تحمله في يدها على ظهر رشيهورش. ولما استدار رشيهورش مرةً أخرى، قالت: «أهذا كل شيء عندك؟» ثم أعادت المقعد إلى ركن الغرفة مرةً ثانية.

لم يتناول رشيهورش في ذلك اليوم أي نوع من الطعام. عندما مر صدفة بجوار الطعام الموجود على الترابيزة، التقط فقط قطعة من الخبز ليلهو بها. وضعها في فمه ساعات عدة، ثم بصقها في النهاية. كان يرى في بادئ الأمر أنه فقد شهيته للطعام حزنًا على ما حدث لحجرته، لكنه سرعان ما اعتاد التغيُّرات التي حدثت فيها. واعتاد الآخرون أن يلقوا في غرفته بالأشياء التي لا يحتاجونها، وكانت كثيرة؛ خاصةً عندما أسكنوا في إحدى الغرف ثلاثة رجال. كان الرجال الثلاث جميعًا من

ذوي اللحى، وكانوا يحرصون جميعًا على النظافة الشديدة، ليس فقط في غرفتهم، بل في كل أنحاء البيت الذي يعيشون فيه؛ وخاصةً في المطبخ. كانوا يكرهون الأشياء الزائدة عن الحاجة، أو الأشياء القذرة. كما أنهم أحضروا كل أمتعتهم معهم. لهذا السبب ظهرت في الشقة أشياء زائدة عن الحاجة، لم يتمكنوا من بيعها، وأرادوا أن يحتفظوا بها. كل هذه الأشياء انتهى بها المطاف في غرفة رشيهورش، وكأنها طفاية سجائر، أو سلة لفضلات المطبخ. وكل ما زاد عن حاجتهم كانوا يعطونه للخادمة؛ فتلقيه بكل بساطة في غرفة رشيهورش.

لم يكن رشيهورش لحُسن الحظ يرى سوى الشيء الذي ينقلونه إلى غرفته واليد التي تحمله. ربما كانت الخادمة تنوي أن تأخذ هذه الأشياء مرةً أخرى بعد فترة عندما تصبح الظروف ملائمة، أو أن تتخلص منها مرةً واحدة. لكنها في الواقع ظلت في مكانها كما أحضروها. وعندما كان رشيهورش ينهض ويكافح وسط هذ النفايات، كان يدفعها عن مكانها في حالة الضرورة فقط؛ لأن المكان ضاق عليه، لكنه فيما بعد كان يفعل ذلك بكل سعادة رغم الإرهاق الذي كان يحل به بعد عمليات الرفع العنيفة، وبعدها يسقط حزينًا من الإرهاق، ويظل لساعات بدون حراك.

كان المستأجرون أحيانًا يتناولون طعام العشاء في البيت في غرفة الاستقبال الجماعية، لذلك كان الباب المؤدي إلى الغرفة يظل موصدًا طوال الليل. استطاع «رشيهورش» أن يتحمل هذا الأمر بكل سهولة، فلم يكن يستغل كل الوقت عندما يكون مفتوحًا في المساء، وكان يظل

مستلقيًّا في أكثر أركان الغرفة ظلامًا دون أن تلاحظ أسرته هذا الأمر. وذات مرة تركت الخادمة الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال مواربًا. وظل الباب هكذا إلى أن دخل السادة المستأجرون إلى الغرفة وأضاءوا الأنوار. جلسوا عند الترابيزة، في المكان الذي كان يجلس فيه من قبل أبوه وأمه ورشيهورش نفسه. بسطوا مفرشًا على الترابيزة، وأمسكوا سكينًا وشوكة. وعلى الفور ظهرت أمه عند الباب وهي تحمل وعاءً من اللحم، وتبعتها شقيقته تحمل وعاءً آخر ممتلئًا بالبطاطس. كان البخار يتصاعد من الطعام بطريقة تثير الشهية.

انحنى السادة المستأجرين على الأطباق التي وضعت أمامهم لينظروا إليها قبل أن يشرعوا في الطعام. كان الرجلان يعاملان ثالثهما الجالس في المنتصف وكأنه ذو سلطة عليهما. قطع أحدهم قطعة من اللحم الموجود في الوعاء كي يرى إن كان اللحم قد نضج، أم سيُعيده إلى المطبخ ثانيةً. كان يبدو راضيًا، فانفرجت أسارير أمه وشقيقته اللتين كانتا تنظران بكل ترقب.

تناولت الأسرة طعامها في المطبخ. دخل أبوه إلى الحجرة قبل أن ينصرف إلى المطبخ، وانحنى لهم باحترام وهو يمسك قبعته في يده، ثم جال حول الترابيزة. نهض السادة المستأجرون وهمهموا له ببعض الكلمات. وعندما صاروا وحدهم واصلوا طعامهم في صمت تام. تعجب رشيهورش من أنه كان يسمع في كل لحظة من بين الأصوات المختلفة أثناء الطعام صوت أسنانهم وهي تمضغ. نبهه هذا إلى أن الطعام يحتاج إلى أسنان، وأن الفكين بدون أسنان لا فائدة منهما.

وصاح رشيهورش بجزع: «أنا أشتهي الطعام، لكن ليس طعامًا كهذا. أطعموا هؤلاء المستأجرين! أطعموهم! وأنا هنا أتضور جوعًا!»

في ذلك المساء سمع أصوات آلة كمان مقبلة من المطبخ. وهو لا يتذكر أنه سمع صوت إحداها طوال هذه المدة. فرغ السادة المستأجرون من عشاءهم، وأخرج أوسطهم الجريدة، وراح يناولهم إياها ورقة بعد الأخرى. وراحوا جميعًا يقرأون وهم جالسون فوق مقاعدهم ويدخنون. انتبهوا عندما سمعوا صوت الكمان.

نهضوا، واتجهوا على أطراف أصابعهم نحو الباب المؤدي إلى ردهة البيت. وقفوا هناك متلاصقين، واحدًا وراء الآخر. كانوا يسمعون الأصوات المقبلة من المطبخ. نادى أبوه: «هل أعجب السادة عزف الموسيقى؟ يمكننا أن نتوقف فورًا لو أردتم» قال أوسطهم: «بالعكس. ألا تريد الآنسة أن تأتي عندنا، وتعزف هنا في الغرفة، فالمكان هنا أكثر راحةً وهدوءًا. أجابهم الأب: «تحت أمرك!»، وكأنه هو من يعزف. تراجع السادة إلى الغرفة ينتظرونهم. أول من دخل كان الأب، يحمل في يده حامل النوتة الموسيقية، ثم تبعته الأم في يدها وريقات النوتة، ومن بعدهما ابنتهما ومعها الكمان. أعدت شقيقته كل شيء لتبدأ العزف. بالغ والداه كثيرًا في إظهار الاحترام للسادة المستأجرين، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يُؤَجِّرون فيها غرفة لأحد. لم يقبلا أن يجلسا على المقعد. فوقف الأب متكئًا على الباب، ووضع يده اليمنى بين زرارين في معطفه. قدمت الأم مقعدًا لأحد الرجال، وتركته حيث يقف، ثم جلست في ركن الغرفة.

بدأت شقيقته العزف. وراح أبوه وأمه يتابعانها، كل منهما يراقب من ناحيته حركات يديها. أعجب رشيهورش العزف، فتجرأ وتحرك من مكانه حتى صارت رأسه في غرفة الاستقبال. لم يدهشه أنه في الآونة الأخيرة لا يحسب للآخرين حسابًا إلا قليلًا. كان احترامه للآخرين في السابق من دواعي فخره. والآن صار هناك سبب يجعله يتوارى. فالتراب الذي انتشر في كل أرجاء الحجرة هَبَّ عليه وغطاه هو أيضًا. علقت الخيوط وبقايا الشعر والطعام على ظهره وعلى جوانبه. صار لا يهتم لأي شيء، المهم هو أن يستلقي على ظهره، ويتمرغ فوق السجادة كما كان يفعل من قبل مرات عدة في اليوم. ورغم مظهره هذا، لم يتردد في أن يتقدم زاحفًا على أرضية غرفة المعيشة النظيفة.

غير أن أحدًا لم يره. كانت الأسرة مفتونة بالعزف على الكمان، وقف السادة المستأجرون في البداية وهم يضعون أيديهم في جيوب بناطيلهم خلف حامل النوتة مباشرةً، فكانوا يرون جميعًا النوتة عن قُرب، الأمر الذي أزعج شقيقته بالتأكيد، ثم حنوا رؤوسهم جميعًا وهم يتهامسون، ثم تراجعوا بسرعة نحو النافذة.

وظلوا واقفين هناك. كان أبوه يتابعهم بقلق. أعطوه انطباعًا واضحًا بأنهم بالغوا كثيرًا في توقعاتهم بعزف جميل ومُسَلٍ على الكمان، وأنهم سئموا من هذا العزف، ويضحون بلحظات من الهدوء من باب اللياقة فقط. الطريقة الغريبة التي كانوا ينفثون بها الدخان من غلايينهم عبر أنوفهم وأفواههم في الهواء؛ تُنبئ عن حالة من العصبية الكبيرة. لكن

شقيقته رغم ذلك كانت تعزف بمهارة. كان وجهها مائلًا تمامًا فوق كتفها، وعيناها تتابعان بكل حزن وتدقيق صفوف النوتة.

قَطَعَ رشيهورش مسافة أخرى زحفًا وهو يحافظ على رأسه ملتصقة بأرضية الحجرة حتى يستطيع رؤيتها. أهو حيوان يطرب لسماع الموسيقى؟ انتابه شعور بأن طريقًا إلى طعام مجهول بحث عنه طويلًا ينفتح أمامه. اتخذ قرارًا بأن يتقدم نحو شقيقته، ويجذبها من يدها ويطلب منها أن تأخذ الكمان وتذهب إليه في غرفته، فلن يكافئها على عزفها هنا أحد أكثر منه. ولن يتركها تغادر غرفته، طالما ظل حيًّا على الأقل، وسوف يُحَوِّل شكله البشع إلى شيء مفيد ولو لمرةٍ واحدة. وسوف يحرس الغرفة عند كل الأبواب، ويواجه من يهاجمها. لكن شقيقته يجب أن تبقى عنده مُخَيَّرة غير مُصَيَّرة. ستجلس بجواره على الأريكة، تميل عليه بأذنها، وسيخبرها بأنه كان عاقد العزم على أن يرسلها إلى معهد الموسيقى، وكان يخطط أن يخبر الجميع بهذا الأمر في عيد الميلاد، لولا هذه الحادثة — هل مرت الأعياد؟ ، ولن يُلقي بالًا لأي اعتراضات. ستنفجر شقيقته بعد هذه الكلمات في البكاء من التأثُّر، وعندها سينهض رشيهورش ويستند على كتفيها ويُقَبِّلها من رقبتها، التي خلت من أية أشرطة من القماش أو ياقات منذ أن بدأت تذهب للعمل في المتجر.

نادى الرجل الأوسط على الأب: «يا سيد سامسا!»، وأشار بإصبعه نحو رشيهورش دون أن ينطق كلمة. تقدم رشيهورش على مهل. توقف صوت الكمان. ابتسم الرجل الأوسط في بادئ الأمر لأصدقائه وهو يهز

رأسـه، ثم حملـق في رشـيهورش مـرةً أخـرى. وبـدلًا من أن يصـرف رشيهورش، اعتبر أبوه أن من الواجب تهدئـة السـادة المسـتأجرين، رغم أنهم لم يغضـبوا كثـيرًا من الأمـر. جـذبهم شـكل رشـيهورش أكـثر من موسـيقى الكمـان. هـرول الأب نحـوهم، وحـاول أن يـدفعهم بيديـه المنبسـطتين إلى داخـل غـرفتهم، وهـو يعـوق بجسـده النظـر ناحيـة رشيهورش. غضب الرجال كثيرًا. لم يكن واضـحًا إن كـانوا غضـبوا من سـلوك الأب، أم لأنهم علمـوا الآن فقـط أن لهم جـارًا مثـل رشـيهورش طوال الـوقت، ولم يخبرهم أحـد بـذلك. طـالبوا أبـاه بتفسـير، ثم رفعـوا أيديهم من تلقـاء أنفسـهم، وأمسـكوا بلحـاهم، وتراجعـوا على مهـل إلى داخل غرفتهم. استفاقت شقيقته من التفكير الذي انغمست فيه بعـد أن قاطعوا العزف أكثر من مرة، انتبهت فجأةً بعد أن كانت تمسك بالكمان والقـوس بيـديها المسـدلتين وتنظـر إلى النوتـة وكأنهـا مـازالت تعـزف، وضـعت الآلـة في حِجـر أمهـا الـتي كـانت لاتـزال تجلس على المقعـد، وتجاهد في التقاط أنفاسها التي انقطعت بعد أزمة الربـو، وأسـرعت إلى الغرفة المجاورة التي يتجـه إليهـا السـادة المسـتأجرون بسـرعة بنـاءً على طلب أبيها. وهنـاك تطـايرت الأغطيـة والوسـائد على الأَسِرَّة، واسـتوت بفضـل يـدي ابنتهم المـاهرة. رتبتهـا قبـل أن يصـلوا إليهـا، ثم انسـلت خارجها. يبدو أن عناد أبيه جعله ينسى أية مظاهر تقدير عليه أن يُظهرها للسـادة المسـتأجرين. وراح يـدفعهم، ويُلح في دفعهم، ممـا جعـل أوسطهم يضـرب بقدمـه بقـوة، فتوقـف أبـوه. ورفـع أوسـطهم يـده وهـو يبحث بعينيه عن الفتاة وأمها، وقـال: «أعلن أنـه نظـرًا للأوضـاع الشـاذة

السائدة هنا في هـذه الشـقة — وبالتأكيـد بصـق وهـو يتكلم — أعلن أني سأترك فورًا الغرفة التي استأجرتها هنا. ولا أنـوي أن أدفـع مقابـل الأيـام الـتي قضـيتها هنـا أيـة مبـالغ، بـل على العكس، أفكـر في أن أطـالبكم — صدقوني — بالتعويضات المناسـبة» وصـمت الرجـل وهـو يتطلـع أمامـه مباشرةً وكأنه ينتظر شيئًا ما. وعلى الفـور تبعـه صـديقاه، وقـالا: «ونحن أيضًـا سـنغادر الـبيت على الفـور» ثم أمسـك أوسـطهم بقبضـة البـاب وصـفعه وراءه. راح والـده يتهـدج ويتحسـس طريقـه نحـو المقعـد، ثم سقط عليه. بدا وكأنه يريد أن يمدد جسـده ويستسـلم للنعـاس كالعـادة. لكن هزات رأسـه العنيفـة وكأنهـا لا يقـوى على حملهـا، أفـادت بأنـه لم يكن نائمًـا. ظـل رشـيهورش طـوال هـذه الفـترة صـامتًا، وهـو قـابع في المكان الذي رآه فيه السادة المستأجرون. كـان مُحْبَطًـا من أن محاولاتـه باءت بالفشل، وربما الوهن نتيجة الجوع المتكرر جعلـه غـير قـادر على الحركـة. كـان ينتظـر مُتوجسًـا أن يهجمـوا عليـه جميعًـا في اللحظـات التالية، وراح ينتظر. لم يُخفه صوت الكمان الهادر الـذي سـقط من بين أصابع أمه المرتعشة.

قالت شقيقته بعد أن خبطت بيدها على الترابيزة: «والـديّ العزيـزان! لا يمكن أن تستمر الأمور كما هي عليه. لو أنكما لم تدركا بعد ما حـدث، فأنا أدركه. لا أريد أن أنطق اسـم شـقيقي على مسـمع من هـذا المسـخ، ولن أقول سوى هذا: يجب أن نتخلص منه. لقـد حاولنـا بكـل مـا أوتينـا من قوة كبشر أن نهتم بـه، وتحملنـاه بصـبر، وأعتقـد أن أحـدًا لن يلومنـا على ما سنفعله على الإطلاق»

قال أبوها يخاطب نفسه: «عندها ألف حق!» كانت أمها، التي لم تلتقط أنفاسها بعد، تسعل في راحتيها وهي زائغة البصر.

أسرعت الابنة نحو أمها، ووضعت يدها فوق جبينها. وراح الأب يفكر فيما قالته ابنته، استوى على المقعد، وراح يعبث بقبعة العمل بين أطباق الطعام التي بقيت فوق الترابيزة منذ آخر عشاء للسادة المستأجرين، ومن وقت لآخر يتطلع نحو رشيهورش.

قالت الابنة لأبيها بكل وضوح بينما أمها تسعل ولا تسمع: «لابد أن نجد طريقة للتخلص من هذا المسخ. سوف يقتلكما، هذا ما أراه. لا يمكن لأسرة مثلنا أن تعيش في البيت في هذا العذاب وهي تعمل ليل نهار. وأنا لم أعد أحتمل» ثم انهمرت دموعها وسالت على وجه أمها، فمسحتها بيدها بحركة تلقائية.

قال الوالد بنبرة تعاطف وتفهّم واضح: «يا أولادي! ماذا سنفعل إذن؟» هزت الابنة كتفيها علامة على الحيرة التي انتابتها رغم كل الثقة التي امتلكتها من قبل.

«لو أنه يفهم ما نقوله»، قال أبوه متسائلًا، بينما هزت شقيقته يدها وهي غارقة في الدموع لتخبره أن هذا غير وارد على الإطلاق.

كَرَّرَ أبوها السؤال، وهو يومئ بعينيه ليُؤَمِّن على ما تقوله ابنته من أنه لا يفهمهم: «لو أنه يفهم ما نقوله لكان من الممكن الاتفاق معه، لكن في حالته تلك..»

قالت الابنة: «يجب أن يخرج من الأسرة، إنها الطريقة الوحيدة يا أبي! يجب أن تتوقف عن اعتباره رشيهورش. إن مصيبتنا تكمن في أننا اعتقدنا طوال الوقت أنه كذلك. لكن كيف يمكن أن يكون رشيهورش؟ لو كان رشيهورش لاعترف منذ البداية أن الناس لا يمكنها أن تعيش مع حيوان كهذا، وكان سينصرف من تلقاء نفسه. وكنا سنعترف أنه ليس منا، ولاستطعنا مواصلة الحياة، وإحياء ذكراه بكل احترام. لكن هذا المسخ يتعقبنا، يستفز المستأجرين، ويخطط على ما يبدو لملاحقة كل الأسرة، ويجعلنا ننام في الشارع. انظر يا أبي!»، ثم صرخت فجأة: «ها هو قد بدأ من جديد!» ثم انصرفت الابنة من عند أمها في هلع، وهو الأمر الذي لم يفهمه رشيهورش، ثم انتفضت من فوق المقعد وكأنها تريد أن تضحي بأمها بدلًا من الوقوف بالقرب من رشيهورش، واختبأت خلف أبيها الذي انزعج من تصرفها، فنهض هو الآخر ورفع يديه أمام ابنته وكأنه يحاول أن يدافع عنها.

لكن رشيهورش لم يكن يقصد أن يُرهِب أحدًا، أو على الأقل شقيقته. كل ما فعله أنه استدار حتى يستطيع العودة إلى حجرته، لكن حركته كانت قوية، ففي حالته البائسة تلك كان مضطرًا إلى أن يستعين برأسه التي رفعها مرات عدة، وألقى بها على الأرض. توقف عن الحركة وتطلع حوله. كان واضحًا أنهم فهموا حُسْن نواياه، وكان هذا مجرد خوف مؤقت. وراح الجميع ينظرون إليه بحزن وفي صمت. جلست الأم فوق المقعد، ومددت قدميها وهما متلاصقتان، كانت عيناها

مسبلتين بتأثير الإغماء. جلس الأب والابنة متجاورين، وطوَّقت الابنة رقبة أبيها بيديها.

قال رشيهورش لنفسه: الآن يمكنني أن أستدير، ثم عاود المحاولة وهو يلهث من الإرهاق دون أن يتمكن من كتمان صوته، ثم توقف قليلًا ليلتقط أنفاسه. لم يتعجله أحد منهم، وتركوا له الأمر بالكامل. وانطلق عائدًا إلى غرفته بمجرد أن استدار. هالته المسافة الطويلة التي تفصله عن حجرته. لم يدرك على الإطلاق أنه ضعيف إلى هذا الحد، رغم أنه قطع كل هذه المسافة قبل قليل دون أن يلحظ ذلك. لم يفكر إلا في أن يزحف سريعًا. لاحظ أن أسرته لم تزعجه لا بكلمةٍ ولا بصرخةٍ واحدة. عند الباب أدار رأسه قليلًا، شَعَرَ بأن رقبته قد تيبست، لكنه رأى أن شيئًا من خلفه لم يتغير. مجرد أن شقيقته كانت تقف. ألقى نظرته الأخيرة على أمه، التي استسلمت تمامًا للنوم.

وبمجرد أن دخل إلى حجرته؛ صفع أحدهم الباب خلفه وأحكم إغلاقه. أثار صوت الضجيج الفزع في نفس رشيهورش حتى كادت سيقانه تسقط منه. كانت شقيقته تترقبه، ثم نهضت من على المقعد، وانتظرت قليلًا، بعدها تقدمت بكل حيوية. لم يدرك رشيهورش أنها كانت تتجه نحوه، ثم صاحت تخاطب والديها وهي تدير المفتاح في الباب: «أخيرًا!»

قال رشيهورش لنفسه متسائلًا وهو يلتفت حوله: «ماذا سيحدث الآن؟» وسرعان ما تأكد من أنه لا يستطيع الحركة على الإطلاق. لم يستغرب

الأمر كثيرًا، بل بالأحرى كان يرى أن من غير الطبيعي أنه تمكن من المشي على أقدامه الرفيعة هذه حتى الآن. باستثناء ذلك كان يشعر بأنه في حالة جيدة، ألم خفيف يسري في أجزاء جسمه، رغم ذلك كان يشعر أن الألم يتقلص تدريجيًّا حتى يختفي تمامًا. بدأ يشعر بالتفاحة المتعفنة التي التصقت بظهره وما حولها من محيط ملتهب تراكم عليه تراب ناعم وغطاه تمامًا. راح يفكر في أسرته مُفعمًا بالحب تجاههم. كان مُقتنعًا أكثر من شقيقته بأن عليه أن يختفي. ظَلَّ في هذه الحالة من التأمل الهادئ المسترسل إلى أن دقت ساعة البرج الثالثة صباحًا. انتشر نور الصباح خلف النافذة في كل مكان، وكان لايزال على قيد الحياة. ثم سقطت رأسه تمامًا من تلقاء نفسها، وخرج ضعيفًا آخر نفس من صدره.

في الصباح جاءت الخادمة — بنفس الهرولة والحيوية، رغم أنهم طلبوا منها مرارًا ألا تفعل هذا وراحت تصفع الأبواب. ولم يستطع أحد في البيت أن ينام بمجرد وصولها. لم تجد أثناء زيارتها الخاطفة المعتادة ل «رشيهورش» شيئًا غريبًا. اعتقدت أنه مُستلقٍ، ولا يتحرك عن عَمد ليُعَبِّر لها عن انزعاجه. كانت متأكدة من أنه قادر على ابتكار أفكار مختلفة. كانت تمسك بالصدفة في يدها مقشة ذات ذراع طويلة، فأرادت أن توخز به رشيهورش وهي تقف عند الباب. ولما لم يسفر هذا عن شيء، غضبت وزادت من وخزها له. وعندما رأت أنها استطاعت أن تُحَرِّكه من مكانه دون أية مقاومة منه؛ انتفضت في مكانها. وبعد أن تأكدت مما حدث، جحظت عيناها وصفرت بفمها،

ولم تهدر وقتًا، ففتحت الباب المؤدي إلى غرفة النوم بقوة، وصاحت بصوتٍ عالٍ وسط الظلام: «تعالوا انظروا! لقد مات، لقد سقط مفارقاً الحياة!»

وقف الزوجان منتصبين فوق اللزوجة، جاهدا حتى يستفيقا من الفزع الذي سببته الخادمة قبل أن يدركا ما قالته لهما. نزلا من فوق السرير، كُلٌّ من ناحيته، وضع السيد سامسا الغطاء فوق كتفيه، وخرجت زوجته مرتدية لباس النوم، ثم دخلا إلى غرفة رشيهورش. وانفتح الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال التي كانت ماركيتا تنام فيها منذ قدوم المستأجرين. كانت في كامل ملابسها وكأنها لم تنم على الإطلاق. وكان وجهها الشاحب ينم عن هذا... قالت الأم وهي تنظر إلى الخادمة متسائلة: «مات؟» كانت الأمور كلها واضحة، ولم تكن بحاجة إلى أن يقنعها أحد بما حدث. أجابتها الخادمة: «أعتقد ذلك» ثم أزاحت جثة رشيهورش عن مكانها قليلًا لتؤكد ما تقوله. تحركت زوجة السيد سامسا وكأنها تريد أن تمسك بالمقشة، لكنها لم تفعل. قال السيد سامسا: «حسنًا، علينا أن نحمد الله على هذا»

رسم الصليب بيديه على صدره، وكذلك فعلت النساء الثلاث من بعده. قالت ماركيتا التي لم تفارق عيناها الجثة: «انظروا! كم كان نحيفًا. لعله لم يأكل شيئاً منذ مدة طويلة. كنت أحمل الطعام من عنده كما هو» بالفعل كان جسد رشيهورش هزيلًا وجافاً تمامًا. كان هذا واضحًا منذ صارت أقدامه لا تقوى على حمله، وفَقَدَ تركيزه تمامًا.

قالت السيدة سامسا: «تعالي يا ماركيتا، تعالي هنا عندنا دقيقة واحدة»، فذهبت ماركيتا إلى غرفة نوم والديها وعلى وجهها ابتسامة ألم. لم تنس أن تلقي نظرة على الجثة. أجواء هادئة اختلطت بهواء الصباح المنعش رغم أن الوقت كان لايزال مبكرًا. وكان شهر مارس يشرف على نهايته.

خرج الرجال الثلاثة المستأجرون من غرفتهم، ونظروا بدهشة إلى طعام الإفطار. لقد نسوا أن يعدوه لهم. سأل أوسطهم الخادمة بغضب: «أين الفطور؟» لكن الخادمة وضعت إصبعها على فمها، وأومأت بصمت للرجال كي يدخلوا إلى غرفة رشيهورش. دخلوا، ووقفوا في الغرفة التي ملأها الضوء، يضعون أيديهم في جيوب معاطفهم البالية حول جثة رشيهورش.

وهنا انفتح الباب المؤدي إلى غرفة النوم، وظهر السيد سامسا بزِيّه، التصقت به من ناحية زوجته، ومن الناحية الأخرى ابنته. كانت عيونهم جميعًا دامعة، مالت ماركيتا بوجهها على كتف أبيها.

قال السيد سامسا وهو يشير بيده نحو الباب ومن حوله السيدتان: «اخرجوا من بيتي حالاً!» سأل أوسطهم مُندهشًا: «ماذا تقصد؟»، ثم ابتسم بعدها. عقد الرجلان الآخران أيديهما خلف ظهورهما وهم يفركونها باستمرار انتظارًا لمشاجرة وشيكة، من المؤكد أنها لن تنتهي لصالحهم. أجابه السيد سامسا: «أقصد ما قلته على وجه الدقة» ثم توجه ومعه السيدتان نحو السيد المستأجر. ظل المستأجر واقفًا في مكانه بلا حراك وهو ينظر إلى الأرض، وكأن الأمور بدأت تتبدل في

رأسه بصورة جديدة. ثم قال: «حسنًا، سوف ننصرف»، ثم رفع رأسه ونظر إلى السيد سامسا وكأنه ينتظر في نوبة التواضع هذه موافقة جديدة على هذا القرار. حملق فيه السيد سامسا عدة مرات بنظرات حادة قصيرة. وعلى الفور تَوَجَّه الرجل بخطوات واسعة إلى الردهة. استمع صديقاه لما حدث ولم تظهر على أيديهما أية علامة على الانفعال، وتبعاه مباشرةً، ربما خوفًا من أن يسبقهم السيد سامسا إلى الردهة ويقطع عليهما اتصالهما بقائدهما. أخذ الثلاثة قبعاتهم من فوق الحامل، وحملوا عصيهم من حامل آخر، ثم انحنوا في صمت، وغادروا الشقة. خرج السيد سامسا مع السيدتين إلى دهليز البيت في حالة من الشك غير المبرر كما حدث، وراحوا ينظرون وهم متكئون على سور السلم إلى الرجال الثلاثة وهم ينزلون درجات السلم على مهل وبلا توقف يختفون مع كل انحناءة للسلم في كل دور، ثم يظهرون من جديد بعد لحظات. وكلما تعمقوا إلى أسفل كلما فتر اهتمام عائلة سامسا بهم. وعندما مر بهم عامل من محل جزارة وهو يصعد منتصب القامة ويحمل فوق رأسه نقَّالة، غادر السيد سامسا والسيدتان سور السلم، وعادوا جميعًا إلى المنزل وهم يشعرون بالراحة.

قرروا أن يستريحوا في هذا اليوم ويذهبوا للتنزه. كانوا جديرين بمثل هذه الإجازة من العمل، وأيضًا في حاجة ماسة إليها. فجلسوا جميعًا حول الترابيزة، وكتبوا ثلاثة خطابات اعتذار. كتب السيد سامسا لرئيسه في العمل، وزوجته لعملائها، وماركيتا لمديرها. جاءت الخادمة وهم يكتبون الخطابات وأخبرتهم أنها سوف تنصرف بعد أن أنجزت أعمالها

الصباحية، أومأوا لها جميعًا برءوسهم دون أن ينظروا إليها. وقبل أن تنصرف الخادمة؛ نظروا إليها جميعًا بتجهم. سألها السيد سامسا: «ماذا؟» وقفت الخادمة عند الباب وهي تبتسم لهم وكأنها تحمل خبرًا سارًّا للأسرة، وأنها سوف تكشف عنه فقط بعدما يلحون عليها بالسؤال. كانت ريشة النعام الصغيرة تتهادى فوق قبعتها في كل اتجاه، وهي الريشة التي لم ترق للسيد سامسا طوال مدة خدمتها عندهم. سألتها زوجة السيد سامسا التي كانت الخادمة تكن لها كل الاحترام: «ماذا تريدين؟» أجابتها الخادمة بضحكات لطيفة، وقالت: «حسنًا، لا تشغلوا بالكم بالتخلص من هذا الشيء هناك. لقد اهتممت بالأمر» انكفأت الأم وابنتها على الخطابات، وأرادتا أن يواصلا الكتابة. لكن السيد سامسا الذي لاحظ أن الخادمة تود الإسهاب في شرح الأمر أشار إليها بيده لتتوقف. تَذَكَّرتْ أنها على عجلة من أمرها بعد أن رأت أنه لا يمكنها الحديث، فصاحت غاضبة: «ألقاكم على خير!» ثم استدارت بحدة، وصفعت الباب بشدة، وانصرفت.

قال السيد سامسا: «في المساء سأطردها من العمل»، لكن لم يرد عليه أحد، لا زوجته، ولا ابنته. إذ يبدو أن الخادمة قد عَكَّرَتْ عليهم الهدوء الذي استعادوه.

وهَمَّتْ السيدتان وتوجهتا نحو النافذة، ووقفتا هناك متعانقتين. التفت السيد سامسا إليهما من على مقعده، وراح يتطلع إليهما للحظات، ثم قال: «تعاليا هنا!

دعكما مما حدث، واهتما بي ولو قليلًا» على الفور استجابت السيدتان، وأسرعتا نحوه، داعبتاه قليلًا، ثم واصلتا كتابة الخطابات.

وبعد أشهر عدة خرج الثلاثة مجتمعين من البيت، واستقلوا الترام إلى خارج المدينة. كانت الشمس تبث حرارتها في كل أنحاء العربة التي يجلسون فيها. جلسوا منبسطين على المقاعد، يتحدثون عن خطط المستقبل. لم يبدُ مستقبلهم القريب سيئًا تمامًا؛ فكلٌّ منهم لديه وظيفة جيدة للغاية ومستقرة لفترة مقبلة، وهو أمر لم يتكلموا فيه بعد. ويُعتبر تغيير الشقة هو أفضل وأسرع وأسهل محاولة لتحسين الوضع. سيأخذون شقة أصغر وأرخص، في مكان أفضل، وتكون عملية أكثر من شقتهم الحالية التي اختارها رشيهورش يومًا ما. نظر السيد سامسا وزوجته إلى ابنتهم التي تزداد حيوية يومًا بعد يوم، ثم خطر لهما أنها في الفترة الأخيرة رغم كل المعاناة التي تركت آثارها على وجهها الشاحب، أصبحت فتاة جميلة وعامرة الصدر. التزما الصمت وهما يتبادلان سِرًّا نظرات ذات مغزى، وفكَّرَا في أنه حان الوقت كي يجدا لها زوجًا طيبًا. وعندما نهضت الفتاة وانتصب جسدها النابض كان هذا بمثابة تأكيد لأحلامهما الجديدة ولصدق نواياهما.

فرانز كافكا

«الأعمال الكاملة»

الجزء الثاني

ترجمة

د. خالد البلتاجي

كافكا وبراج بقلم- يوسف تشيرماك[5]

ذاع صيت الأديب التشيكي/ الألماني «فرانز كافكا» المولود بمدينة «براج» في كل أنحاء العالم؛ رغم أنه ظل ما يقرب من ربع القرن في طي النسيان، ولم يعرفه سوى عدد قليل من المهتمين بالأدب الألماني، وذلك في دوائر قليلة بمنطقة وسط أوروبا. ثم بدأ الاهتمام بأدبه ينتشر بقوة بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا الغربية. وغزت أعماله سريعًا كل أرجاء أوروبا ومنها إلى كل أنحاء العالم الثقافي. أدى هذا الانتشار الواسع للأديب إلى أن تحتل «براج» بؤرة اهتمام الجميع، وهي المدينة التي قضى فيها «كافكا» كل حياته باستثناء بعض الرحلات الخارجية التي أجبرته عليها حالته الصحية. وأصبحت «براج» مُرَادِفًا رمزيًا لكافكا، وصارت بفضله هدفًا منشودًا من قبل السياحة الثقافية.

وفي هذا الصدد يمكننا القول إن «كافكا» ليس من نوع كُتَّاب براج الذين كتبوا عن المدينة بشكل مباشر كما ظهر عند العديد من الأدباء التشيك، فلم تظهر مدينة «براج» في كتاباته بواقعها المعاصر أو حتى التاريخي. كافكا ليس أديبًا مُرتبطًا بالتقاليد. لذلك جاءت «براج» في أعماله بصورة مُستترة، وبشكل رمزي مُعَقد. فقد ظهرت المدينة بصورة جزئية من خلال قصة حُفِظت من كتاباته الأولى وهي قصة «صراع» كما أن الشخص العارف بجغرافية مدينة «براج» سيكتشف بسهولة

5يوسف تشيرماك (1931 – 1970) مؤرخ أدبي ومترجم تشيكي، وأحد أشهر المترجمين الذين نقلوا إنتاج كافكا إلى اللغة التشيكية.

موقع «براج» الرمزي في مكانين من رواية «المحاكمة» وهي: كاتدرائية القديس فيت، وشاهد ضريح القديس يان نيباموتسكي، وكذلك المكان الذي جرت فيه أحداث قصة «أمام القانون» في الفصل المعنون ب«في المعبد» الحالة الثانية التي جاء فيها ذكر لمدينة «براج» كان في سياق الطريق إلى الإعدام في أحد المحاجر خارج المدينة.

باستثناء ذلك ظهرت «براج» بصورة عامة من خلال تفاصيل في أعمال كافكا، وخاصةً في قصصه القصيرة، وبصورةٍ رمزية. كان «كافكا» يضع تفاصيل الواقع في أعماله النثرية بصورة رمزية كما رآها في لحظة كتابتها مباشرةً. كان يهوى الكتابة بهذه الطريقة. وقد أشار إلى هذا الأمر في أكثر من موضع في مخاطباته. كما احتوت العديد من قصصه الأوضاع في مدينة «براج» وظهرت على سبيل المثال من خلال الأوضاع المعيشية والاجتماعية لأبطال أعماله، بدءًا من أسلوب حياتهم، وهمومهم اليومية، وعلاقاتهم الاجتماعية، وانتهاءً بوصف الأماكن التي يتحركون، ويعيشون فيها. كانت شخصيات تنتمي إلى الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى، وتجار صغار، وموظفين، أو رجال عوانس. ويظل «كافكا» رائدًا في الوصف. تشعر من خلال أعماله بموهبته الفنية، وميله إلى الوصف الذي يتجلّى أيضًا من خلال لوحاته التعبيرية التي رسمها.

كل تلك السمات نجدها منتشرةً في إنتاج كافكا القصصي. تظهر في مراحلها الأولى، وتنتهي بمرض عضال. تتميز بإصرار واضح على رسم صورة كاملة. كان «كافكا»، على سبيل المثال، على قناعة بأنه من

الصعب التعبير عن الشيء نفسه مرةً أخرى بالطريقة نفسها وبالقدر نفسه. لذلك يتغير الطريق إلى النص في المرحلة الثانية التي تستمر حتى نهاية الحياة، وتظهر فيها محاولة للتعبير عن الأفكار بصورة أكثر دقة. هذا بالطبع ينطبق فقط على المستوى الأول السطحي لإبداع كافكا القصصي. ثم يأتي المستوى الثاني الأعمق وهو مستوى جوهر العمل، وهذا ما تتصارع فيه الدراسات التي تتعرض إلى أعمال كافكا حتى اليوم.

استمر «كافكا» يكتب بكل اجتهاد وإصرار لمدة عشر سنوات قبل أن يكتشف نفسه بمساعدة صديقه «ماكس برود»، ثم وافق بعدها على نشر أول أعماله. كثير من أعماله التي كتبها خلال السنوات العشر تلك التهمتها النيران، ولم يتبق منها إلا القليل. نشر «كافكا» خلال حياته ست مجموعات قصصية بكل تردد ورهبة. أما رواياته الثلاث، والغالبية العظمى من قصصه لم تصدر إلا بعد وفاته بأعوام.

تمثّل رواية «المحاكمة» مُنعطفًا مهمًا في إنتاج كافكا الأدبي. كتبها في إحدى ليالي شهر أغسطس عام 1912. وتكاد تكون العمل الوحيد الذي نال إعجاب كافكا نفسه دون أية ملاحظات. أصدر في العام نفسه مختارات لأعمال نثرية قصيرة كتبها في أوقات سابقة تحت عنوان «تأملات» في العام نفسه أيضًا صدرت قصة «الوقّاد»، وهي في الواقع عبارة عن الفصل الأول من رواية «أمريكا» التي لم تكتمل، وصدرت بعد وفاته. بعد عامين من ذلك التاريخ كتب «كافكا» القصة الأكثر شهرة وانتشارًا، وهي «التحول» وبعد توقف استمر أربعة أعوام صدرت

المجموعـة القصصـية «طـبيب القريـة» (طـبيب الأريـاف)، وهي أكـبر مجموعة قصصية نُشِرَتْ في حياة فرانز كافكـا. كمـا صـدرت أيضًـا في حياة كافكا عام 1919 القصة الطويلة «في مستعمرة العقاب»

في الختام يجب التنويـه إلى أن اسـم مدينـة «بـراج» ظهـر عنـد «كافكـا» بصـورةٍ سـلبية، وهـو الأمـر الـذي اعتـبره البعض دليلاً على أن «بـراج» كانت بالنسبة له مدينةً كريهةً.

لكن هذا الرأي جاء نتيجة لقراءة سطحية للأمر. الواقع أن كلمـة «بـراج» ظهرت في كتابات كافكا بصـورة مجازيـة، ولا تتعلـق بالمدينـة نفسـها، بل تُشير إلى طريقة الحياة التي اضطر إلى الخضوع لها في مدينـة بـراج. عَبَّرَ بهذه الطريقة عن الضغوط الكئيبة التي تعرض لها في تلك المدينة، وحاول عبثًا أن يهرب منها: إنها ضغوط أسرة يتحكم فيها والـده والـذي سعى هـو طـوال حياتـه إلى العثـور على لغـة مشـتركة بينهمـا، لكن دون جدوى؛ ولعنة الحياة المزدوجـة، بين عمـل في شـركة تـأمين ينفـر منـه، وبين رغبـة جامحـة في الكتابـة، بين الحاجـة إلى الوحـدة من جـانب والرغبة في الحياة الاجتماعية، وتأسـيس أسـرة من جـانب آخـر. حاجتـه إلى الهدوء بينما الضجيج يُطارده في كل مكان ومن كل مكان.

يوسف تشيرماك

سور الصين العظيم[6]



بُني سور الصين في أقصى شمال البلاد. امتد البناء من جنوب غرب البلاد وجنوب شرقها، والتقى هنا في الشمال. التزَمُوا بهذا النظام بكل تفاصيله وأدقها داخل جيشي العمل الكبيرين؛ الجيش الشرقي والجيش الغربي. تَكَوَّنَتْ كل مجموعة من حوالي عشرين عاملًا، كان من

6أقام «كافكا» في الفترة من 1915 وحتى 1917 في بيت شقيقته «أوتيللا» بالعاصمة «براج». كان يحب ذلك المنزل كثيرًا، وهناك كتب العديد من القصص. استأجر بعدها شقة في أحد القصور بوسط العاصمة، وفيها كتب قصة «سور الصين العظيم». بدأ «كافكا» في كتابة هذه القصة ـ على ما يبدو ـ في الأسبوع الأخير من فبراير عام 1917 وأنهاها في الأسبوع الأخير من مارس في العام نفسه.

المفترض أن تقوم هذه المجموعات ببناء سور طوله خمسمائة متر تقريبًا، وشَيَّدَتْ المجموعة المجاورة حائطًا فرعيًّا مُقَابلًا له بالطول نفسه. يبدو أنه عندما التحم طرفا السور لم يتواصل البناء من نهاية السور الذي يبلغ ألف متر؛ لأن مجموعات العمَّال تم إرسالها للبناء في أماكن أخرى. بهذه الطريقة نشأت العديد من الثغرات الكبيرة التي قاموا بسدَّها تدريجيًّا. بقى بعضها مفتوحًا إلى أن أعلنوا عن اكتمال بناء السور. حتى أن ثغرات في السور لم يكتمل بناؤها على الإطلاق. وهذه واحدة من الأساطير الكثيرة التي انتشرت حول تشييد السور والتي لا يمكن على الأقل من قِبَلِ الأفراد التحقق منها بشكل شخصي نظرًا لاتساع المبنى.

في نهاية المطاف يمكن القول إنه ربما كان من الأفضل من نواحٍ عديدة مواصلة البناء بشكل متصل، أو على الأقل مواصلته بصورة متصلة في أجزاءه الرئيسية. بُني السور حسب ما تردد وحسب ما هو معروف لتوفير الحماية من الشعوب الشمالية. لكن كيف يوفر الحماية سور لم يُبْنَى بشكل متصل؟ سور كهذا لا يمكنه أن يوفر الحماية، كما أن قوة السور كانت مُعَرَّضة للخطر الدائم. فالأجزاء المهجورة من الحائط والتي تقع في مناطق مُوحشة كان يمكن أن تتعرض للتدمير من قِبَلِ القبائل الرُحَّل. خاصةً وأن سورًا كهذا بث الرعب في نفوس تلك القبائل. فَغَيَّروا من أماكن إقامتهم بسرعة فائقة، وبالتالي أصبح لديهم تصور عن مراحل تطور البناء أكثر منا شخصيًا، نحن البناة. رغم ذلك

لم يكن في الإمكان بناء السور بطريقةٍ أخرى غير التي بُني بها. لكي نفهم الأمر يجب أن نأخذ الأمور التالية في الاعتبار:

كان من المفترض أن يوفر السور الحماية لمدة قرون، ومقومات العمل الضرورية كانت تكمن في بناء متقن للغاية، واستخدام خبرات البنائين الحكماء من كل العصور والشعوب المعروفة، والشعور الدائم بالمسؤولية من قبل البنَّائين. ورغم أنهم استعملوا في الأعمال العادية كل من قَبِلَ العمل بمقابل مالي جيد من الرجال والنساء والأطفال. كان رئيس كل أربعة عمَّال رجلًا حكيمًا، وعلى دراية بالعمارة. كان رجلًا قادرًا على أن يشعر في أعماق قلبه بالمهمة التي يقوم بها. وكلما صعبت المهمة، صعبت متطلباتها. كانت أعداد مثل هؤلاء الرجال كبيرة للغاية، رغم أنها لم تبلغ العدد الذي يحتاجه السور بالفعل.

لم يبدأ العمل في الجدار اعتباطًا. فقبل خمسين عامًا من الشروع فيه تم الإعلان في كل الأراضي الصينية التي قررت بناء سور فيها عن أن فن العمارة ومن بعده التشييد من أهم العلوم، وأن أهمية العلوم الأخرى تتحدّد بمدى ارتباطها بهما. مازلتُ أتذكر جيدًا وأنا طفل صغير، بالكاد تَعلَّم المشي، عندما وقفنا في حديقة أستاذنا، وبدأنا نبني من الحصى شيئًا يشبه السور. أتذكر أنه خلع معطفه، وأسرع نحو الحائط، ودمر كل شيء بالطبع، ثم راح يُوبخنا نتيجة ضعف البناء الذي قمنا به. انفجرنا جميعًا في البكاء، وانطلق كل منا تجاه والديه. موقف عادي، لكنه يُمَيِّز تلك الفترة.

كنتُ سعيد الحظ لأن الشروع في تشييد السور بدأ وأنا في سن العشرين، بعد أن اجتزت أكبر امتحان في مدرسة عادية للغاية. أقول سعيد الحظ لأن كل من حصل من قبل على أعلى درجة علمية ممكنة لم يستفد على مدى أعوام كثيرة بالمعارف التي تلقاها. كانوا يرتحلون عبثًا في كل مكان وهم يحملون في رؤوسهم خططًا معمارية عظيمة بلا فائدة. لكن كل من اشترك لاحقًا في التشييد في وظيفة رئيس عمال، حتى ولو في مرتبة أقل، كان بالفعل مُفيدًا للغاية.

كان هؤلاء رجالًا بنّائين، يفكرون كثيرًا في أعمال البناء، ولا يملون من التفكير فيها ليلًا ونهارًا. إنهم رجال شعروا أنهم ترعرعوا مع أول حجر وضعوه في الأرض. إضافة إلى رغبتهم في إتمام عملهم بكل دقة، كانوا يتعجلون رؤية المبنى يقف مُكتملًا. لكن صغار العمال لم يكونوا بالحماس نفسه. لم يتعجلوا سوى وقت الحصول على رواتبهم.

كان المديرون وحتى الرؤساء المتوسطون يشعرون مع نمو السور في كل اتجاه بدفعة نفسية تكسبهم المزيد من القوة، وتُنبههم إلى ضرورة الاهتمام بالعمال الأقل درجة الذين يتجاوز الإنجاز أعمالهم البسيطة. فلم يكن مسموحًا على الإطلاق تركهم في أطراف نائية خالية من السكان وبعيدة آلاف الأميال عن موطنهم الأصلي لمدة شهور طويلة أو ربما أعوام، يضعون حجرًا على حجر. فاليأس من هذا العمل الشاق الذي لا يصل إلى هدف محدد خلال حياتهم البشرية المديدة قد يملأهم بخيبة الأمل والإحباط، ويُؤثر سلبًا على أداءهم. لذلك تبنَّوا نظام البناء المتقطِّع. كانوا يكملون كل خمسة أعوام تقريبًا بناء

خمسمائة متر، وبعدها يصبح رؤساؤهم في العادة مُرهقين، ويفقدون الثقة بأنفسهم وفي البناء وفي العالم. لذلك كانوا يرسلونهم وهم لايزالون في حالةٍ نفسيةٍ مرتفعة وعند احتفالهم بتوصيل ألف متر من الجدار إلى أماكن نائية للغاية، فيرون بين الحين والآخر في أثناء الطريق أجزاءً مُكتملة من الجدار، ويتوقفون في أماكن إقامة الرؤساء الذين نالوا شارات التكريم، ويستمعون إلى تهليل جيوش العاملين الجدد الذين يأتون إلى هنا من داخل البلاد. كانوا يرون الغابات التي اجْتُزت لعمل سقالات للبناء، والجبال التي تحوَّلت إلى أحجار لبناء الجدار، ويسمعون أناشيد حماسية في الأماكن المقدسة عن اكتمال السور. كل هذا كان يشد من أَزْرِهم. كانت الحياة الهادئة داخل الوطن؛ حيث يقضون بعض الوقت، تمدهم بالقوة. الصرامة التي امتاز بها جميع البنائين، والتفاني والتواضع الذي كانوا يستقبلون به أخبارهم، والإيمان الذي تمتع به المواطن البسيط الهادئ في اكتمال السور في المستقبل. كل هذا شد من أوتار أرواحهم. بعدها يودعون الوطن. كانت رغبتهم الجامحة في العودة إلى العمل من جديد في المشروع القومي تجعلهم مثل الأطفال في حماسهم الشديد للعودة. كانوا يغادرون بيوتهم حتى قبل الموعد. يرافقهم نصف سكان القرية مُصْطَفين في طابور طويل. وتنتشر في الطرقات مجموعات من السكان والأعلام والرايات الصغيرة. لم يروا من قبل وطنهم بمثل هذه العظمة والثراء والجمال، الوطن الذي هو جدير بحبهم له. كان كل فلاح بمثابة شقيق لكل منهم، يبنون السد من أجله، ويُكافئهم على ذلك بكل ما

يملك. الاتحاد! الاتحاد! يد بيد، رقص وابتهاج من الشعب، دم ليس محبوسًا في دورة جسد صغير، بل دم يتدفق ناعمًا، ذهابًا وإيابًا في كل أرجاء الصين المترامية.

لهذا السبب كان هناك نظام البناء المتقطع. ربما كانت هناك أيضًا أسباب أخرى لوجوده. ليس غريبًا أن أتوقف طويلًا عند هذه المسألة، فهي مسألة جوهرية متعلقة ببناء السور، وإن بدت من الوهلة الأولى غير ذلك. كلما أردت أن أُعَبِّر بوضوح عن فكرتي وذكرياتي عن تلك الفترة، فدائمًا ما كان الاهتمام بهذه القضية يحتاج إلى مزيد من التعمق.

يجب أن أقول في البداية إن الجهود التي كانت تُبذل في ذلك الوقت، والتي تكاد تُضَارِع تلك التي بُذِلَتْ في بناء برج بابل، تجاوزت البناء نفسه. أقول هذا لأن أحد الباحثين أَلَّفَ عند بداية الإنشاء كتابًا، يتناول فيه تلك المقارنة بالتفصيل المسهب. حاول أن يثبت أن الأسباب التي جعلت «برج بابل» يتجاوز الهدف الذي بُني من أجله ليست هي نفسها التي انتشرت بين الناس، أو على الأقل لا تُذكر الأسباب الأصلية بين بقية الحجج المعروفة. استمد البراهين من السجلات والتقارير. فقد قام بأبحاث في المكان نفسه، وتأكد لديه أن المبنى تَهدَّمَ، وكان يجب أن يسقط نتيجة ضعف أساساته. من هذه الناحية فإن العصر الذي نعيش فيه قد تجاوز كثيرًا العصور الماضية. وأصبح كل شخص متعلم تقريبًا يمتهن البناء، وخبيرًا في قضية الأساسات. لم يكن هذا هو ما يقصده ذلك الباحث بالطبع. فقد أكد أن السور العظيم صار لأول مرة

في تاريخ البشرية أساسًا متينًا لبناء برج بابل جديد. أي أن السور هو الأصل ومن بعده البرج. كان هذا الكتاب موجودًا في كل بيت تقريبًا، لكني أعترف أنني مازلت حتى اليوم لا أفهم ما الذي كان يقصده ببناء البرج. هل من المفترض أن يكون السور الذي لا يُشكِّل حلقةً مكتملةً، بل مجرد ربع أو نصف حلقة، أساسًا لبناء برج؟ ربما كان هذا ممكنًا من منظور ديني فقط. لكن ما هي الجدوى من سور كان بالفعل قائمًا، بُذِلَتْ في سبيله جهود وزُهقت أرواح مئات الآلاف؟ وما هي جدوى وجود تخطيط لبناء برج في ذلك الكتاب هو بالطبع تخطيط ضبابي، غير واضح المعالم والاقتراحات المسهبة لتركيز جهود البشر في عمل ضخم جديد؟

كان هناك الكثير من الفوضى في عقول الناس وهذا الكتاب مجرد مثال على ذلك، ربما كانت هذه الفوضى نابعة من محاولة جمع العديد من الناس حول هدف واحد. الإنسان بطبيعته متراخي، مثل التراب العالق في الهواء، لا يحب القيود، ولو أخذ على عاتقه شيئًا بنفسه، سرعان ما يبدأ في تكسير قيوده بجنون، وتدمير السدود والقيود، وتدمير نفسه بكل ما أوتي من قوة.

ربما لم تغفل إدارة السور التي قررت تَبنّي فكرة العمل المتقطع هذه الأفكار التي تقف عائقًا أمام بناء السور نفسه. ونحن أتحدث هنا ربما باسم العديد من الناس عندما نُكرر أوامر القيادة العليا كلمة وراء كلمة، فنحن بهذا نتعرف على أنفسنا. نعترف بأنه بدون قيادة لن تساعدنا الحكمة التي تعلمناها في المدارس ولا الذكاء البشري على

القيام بواجباتنا. في غرفة القيادة حيث لم يجبني أحد ممن سألتهم عن مكانها ولا عمن كان يجلس بها في هذا المحراب تطايرت جميع الأفكار والرغبات البشرية، وتشابكت جميع الأهداف والإنجازات البشرية. وهبطت من النافذة صورة العوالم الإلهية على أيدي القادة الذين رسموا الخطط.

لذلك فإنه من الصعب على المراقب الموضوعي أن يفهم أن الإدارة لم تستطع تخطي العقبات التي وقفت في طريق بناء حائط متصل، حتى لو كانت حاولت. ولا يبقى سوى رأي واحد، وهو أن الإدارة كانت تُخطط منذ البداية لأعمال البناء المتقطعة.

لكن البناء المتقطع كان مخرجًا من أزمة وليس هدفًا في حد ذاته. النتيجة هي أن القيادة أرادت شيئًا بلا هدف – نتيجة عجيبة! – بالتأكيد، لكنها نتيجة لها من ناحية أخرى وجاهتها. يمكننا اليوم أن نتحدث عن هذا الأمر بكل اطمئنان. كانت القاعدة السرية للعديد منهم، وبخاصة لأفضل عناصرهم هي الآتي: حاول بكل ما أوتيت من قوة أن تفهم أوامر القادة، لكن بالطبع في حدود معينة، ثم كف عن التفكير! إنها قاعدة منطقية للغاية، كان لها فيما بعد تفسير آخر في مواقف مُشابهة تكررت كثيرًا فيما بعد. لا تعتقد أن التوقف عن التفكير قد يؤذيك، فلا يوجد ما يؤكد هذا. ولا مجال هنا للحديث عن الأذى، أو عدمه. ستزدهر حياتك مثل النهر في أوقات الربيع. ترتفع أمواجه ويقوي ويحيي الأرض بقوة على امتداد شواطئه الطويلة. وسوف

يحافظ على طبيعته ويستمر حتى يصل إلى البحر، بل سيناطح البحر ويفوز عليه ومن هنا يمكنك أن تفكر.

لا تناقش أوامر القادة عندها سيفيض النهر من شطآنه، وسيفقد حدوده ومظهره، وستهدأ سرعة تياره، وسيحاول أن يصنع، على عكس طبيعته، بحارًا صغيرة في داخل البلاد، فيضر الأرض، ويعجز عن البقاء في تلك المنطقة، فيعود إلى شطآنه، لكنه سيجف من الحزن خلال موجة حارة تالية فلا تُناقش أوامر القادة كثيرًا.

ربما كانت هذه المقارنة في موضعها تمامًا عند بناء السور، لكنها بالنسبة للتقرير الذي أُعدّه حاليًا ليست على الأقل حقيقة مطلقة. فالبحث الذي أنا بصدده هو بحث تاريخي بحت. فيمكنني بعد أن توقف منذ وقت بعيد وميض البرق من خلف السحب العاصفة والمتناثرة أن أبحث عن تفسير للسور الفرعي الذي امتد إلى أبعد مما أرادوا. إن الحدود التي تُطَوِّق قدراتي الذهنية ضيقة للغاية، في حين أن الفضاء الذي يجب أن أتجاوزه لا نهاية له.

من هو العدو الذي كان السور سيحمينا منه؟ إنها شعوب الشمال. أنا من جنوب شرق الصين. ولا يوجد هناك أي شعب شمالي يهدد حياتنا. أقرأ عنهم في كتب الأجداد، ونُصَاب بالهلع من الأعمال المروعة التي يرتكبونها نتيجة طبائعم التي يحكون لنا عنها في حلقات الدراسة الهادئة. نرى في لوحات كبار الفنانين وجوهًا ملعونة، وأفواهًا مُنفرجة، وأشداقًا بها أسنان مُدَبَّبة، وعيونًا جاحظة، تنظر شَزْرًا إلى الفريسة وعلى

وشك أن تلتهمها وتسحقها بأقدامها. وعندما تُزعجنا الأطفال نُريهم تلك الصور، فيُقبلون علينا باكين، ويتعلقون في رقابنا. ولا نعرف أكثر من ذلك عن شعوب الشمال تلك. لم نرهم، ولو بقينا في قريتنا لن نراهم مدى الحياة، حتى لو جاءونا فوق خيولهم الوحشية، وتوجهوا إلينا مباشرة. إن بلادنا مترامية الأطراف ولن تسمح لهم بالمجيء إلينا، سوف يبقون عالقين في الهواء الخاوي.

وبما أن الوضع هكذا، لماذا أترك بيتي، ونهري، وجسوري، وأمي وأبي، وزوجتي وأطفالي الذين يحتاجون للتربية، وأرافقهم إلى مدرسة في مدينة بعيدة، والأبعد منها أفكاري التي تتعلق بالسور في الشمال؟ اسأل القيادة! هي تعرفنا. القيادة التي تهتم بنا كثيرًا، تعرف عنا كل شيء، تعرف وظيفتنا البسيطة، ترانا ونحن جالسين معًا جميعًا في كوخ صغير، ربما تعجبها أو لا تعجبها الصلاة التي يؤديها صاحب البيت مساءً في صحبة المقربين. وبما أنني سمحتُ لنفسي بالحديث عن القيادة فيجب أن أقول إن القيادة موجودة منذ زمن بعيد، لكنها لم تكن تجتمع مثل كبار موظفي الصين عندما يدعون إلى اجتماع عاجل بعد حلم في صباح جميل، وينهونه على الفور، وفي مساء اليوم نفسه يُجبرون المواطنين على النهوض من فراشهم لكي يُنَفِّذوا ما اتخذوه من قرارات. حتى ولو كان حفل أضواء على شرف أحد الآلهة التي تجلت لهم بالأمس. وفي اليوم التالي، وبمجرد أن تُطفأ الأنوار يُوسعونهم ضربًا في أحد الأركان المظلمة. فالقيادة موجودة منذ القدم، وكذلك قرار بناء السد. وماذا عن شعوب الشمال البريئة التي نعتقد أنها كانت السبب في

القرار، وفخامة الإمبراطور البريء الذي اعتقد أنه أمر ببناء السد! نحن البناة نعرف الحقيقة، لكننا نرفض الحديث عنها.

في ذلك الوقت عندما تم الانتهاء من تشييد السد، ولاحقًا، وحتى اليوم تخصصتُ تقريبًا في شيء واحد، وهو تاريخ الشعوب المقارن لا يمكن التوصل إلى جوهر بعض القضايا إلا بهذه الوسائل تقريبًا وتوصلتُ إلى أن مؤسسات قومية وحكومية معينة تتمتع عندنا في الصين بدرجة كاملة من الوضوح، والبعض الآخر على العكس يتميز بالضبابية الكاملة. ودائمًا ما جذبني تتبع أسباب ظاهرة ما وفحصها. كل هذه الأمور تتعلق بشكل أساسي ببناء السور.

من بين أجهزتنا الأكثر وضوحًا بالطبع مقر الإمبراطورية. فالأمور المتعلقة بهذا الشأن في بكين، وخاصةً في مجتمع بلاط الإمبراطور واضحة تمامًا، رغم أنها قد تكون خيالية وتتجاوز الحقيقة. يَدَّعي أساتذة إدارة الدولة والتاريخ في الجامعات أنهم فقهاء كبار في هذا الأمر، وأنهم يمكنهم نقل معارفهم هذه إلى طلبتهم. وكلما نزلنا إلى المدارس الأدنى تختفي الشكوك حول المعرفة الشخصية بصورة أكبر. وتتمحور أمواج أنصاف المتعلمين المتكسرة حول بضع معلومات بسيطة، تُطبع في العقول على مدار قرون. وهي معلومات لا تخلو من حقائق مطلقة، لكنها تظل غير واضحة المعالم وسط أبخرة ضبابية.

أعتقد أنه قد يكون من المفيد أن نسأل الناس في مقر الإمبراطورية، فالناس هي الدعامة الأخيرة التي تقوم عليها الإمبراطورية. ويمكنني هنا

بالطبع الحديث فقط عن وطني. فضلًا عن آلهة الحرب وطقوس عبادتها والتي تتنوع وتتكرر على مدار العام، نمنح كل أفكارنا للإمبراطور وحده. ليس لإمبراطور اليوم، وربما منحناها أيضًا لإمبراطور اليوم لو أننا عرفناه، أو عرفنا عنه شيئًا محددًا. دائمًا ما حاولنا أن نعرف شيئًا وحب الاستطلاع هو الشيء الوحيد الذي تبقى لنا في هذا الشأن، لكننا، رغم أن هذا يبدو غريبًا، لم نتمكن من معرفة أي شيء، ولا حتى من ذلك المسافر الذي يجوب بقاع الأرض، ولا في القرى القريبة أو النائية، ولا حتى من البحارة الذين يُبحرون في أنهارنا أو في المياه المقدسة. ورغم أننا سمعنا الكثير، لكننا لم نتمكن من أن نستخلص أي شيء منها.

إن بلادنا متسعة لدرجة أن أية قصة خيالية لا يمكنها أن تغطي اتساعها، ليس هناك سوى الأفق الذي يحتويها وبكين ما هي إلا نقطة صغيرة، وقصر الإمبراطور نقطة أصغر. صحيح أن الإمبراطور رجل عظيم، يعلو كل درجات العالم. لكن الإمبراطور كإنسان حي ليس سوى إنسان مثلنا، ينام في فراش مثلنا، فراش وثير، لكنه قد يكون فراش صغير وقصير. إنه مثلنا، يُمَدد أعضاء جسده، ويتثاءب أيضًا لو اعتبرنا أنه يُصَاب بالإرهاق بفمه المستدير برقة. وكيف لنا أن نعرف عن هذا الأمر ونحن على حدود جبال التبت آلاف الأميال سيرًا من هنا. فضلًا عن أن كل خبر لو وصل إلينا أصلًا قد يكون متأخرًا جدًا وقديمًا. تدور في فلك الإمبراطور جموع رائعة وغامضة أيضًا. حقد وعداوة في صورة خدم وأصدقاء ثقل مقابل للإمبراطورية، تُحَاول أن تقتل

الإمـبراطور وتُسـقطه من كفـة المـيزان. إن الإمبراطوريـة خالـدة، لكن إمـبراطور واحـد يسـقط، ويُقتَـل، وتختفي معـه كـل الأسـرة الحاكمـة، ويلفظون آخر أنفاسهم. لن يعـرف الشـعب يومًـا مـا عن تلـك الحـروب وتلك الآلام.

سوف يتسكعون مثل رجل في آخر القافلة، مثل الأجانب في المدينة في أطراف شوارع جانبية مزدحمة بالمارة، يقتاتون على المؤن القادمة بكـل رضـى، في الـوقت الـذي يُعـدمون فيـه سـيدهم في السـوق، هنـاك في المقدمة.

هناك أسطورة تُعَبِّر بصـورة جيـدة عن هـذه الحالـة. يُقَـال إن الإمـبراطور أرسل لك، أيهـا المـواطن، أيهـا الظـل الخاضـع المسـكين التافـه، الـذي هرب من شمس الإمبراطور إلى أبعد مكان، أرسل لك الإمبراطور رسالة من على سرير الموت. وأمر الرسـول أن يـدنو من فراشـه، وهمس لـه في أذنه بهذه الرسالة. كان حريصًا على أن يُكررهـا في أذنـه مـرات ومـرات. فأومأ له مؤكدًا صحة مـا قالـه. وأرسـل الرسـول أمـام كـل الـذين وقفـوا يراقبـون لحظـة موتـه أُزيلت كـل الحوائـط، واصـطف كـل النبلاء فـوق درجات السـلم طـولًا وعرضًـا. انطلـق الرسـول على الفـور، وكـان رجلًا قويًّا لا ينال منه الإرهاق، يمد أمامه ذراعًا بعد الآخر، يشق الطريق، وإن صادفه عائق يُشير إلى صـدره الـذي يحمـل علامـة الشـمس، يتقـدم إلى الأمام بسهولة لا يُبَاريه فيها أحد. لكن الحشد كبير، والحشـود لا تنتهي. وكـان ليطـير لـو انفتحت أمامـه الأراضـي الخاويـة، وكنت لتسـمع على الباب صوت طرقات قبضته الرائعة. لكنه بدلًا من هذا ظل يجاهد عبثًا،

يبحث عن طريقه وسط غرفات القصر الداخلي، غير قادر على تجاوزها، وحتى لو تجاوزها فلن يفيده هذا في شيء. كان عليه أن يجاهد حتى يهبط عبر الدرج، ولو تمكن من هذا فلن يفيده في شيء. كان عليه أن يتجاوز الأفنية، وخلفها القصر الآخر الذي يطوق القصر الأول، وهناك تظهر أفنية ودرجات جديدة، وقصر جديد، وهكذا عبر آلاف السنين. ولو استطاع أن يخرج من آخر بوابة وهو ما لا يمكن أن يحدث سيجد أمامه مدينة مأهولة بالسكان، منتصف العالم، وأكوام من الرواسب. لا يمكن لأحد المرور منها، فما بالك برجل يحمل رسالة رجل ميت.

لكنك تجلس بجوار النافذة، تحلم بوصول الرسالة، والمساء يقترب.

هكذا، بكل هذا الأمل، وكل هذا اليأس يرى شعبنا الإمبراطور. لا يعرف حتى أي إمبراطور يحكمه، وغير متأكد من اسم الأسرة الحاكمة. ففي المدرسة يُعلّمون التلاميذ الكثير من هذه الأشياء، لكن الالتباس في هذا الشأن عظيم، لدرجة أن أفضل تلاميذ المدرسة يقع ضحية له. ففي قُرانا صار الملوك الذين ماتوا من قديم الأزل يعتلون العرش. والملك الذي لا يذكر اسمه إلا في الأغاني يصدر مرسومًا يقرأه الكاهن أمام المذبح. إن أخبار أقدم المواقع الحربية التاريخية لم يعرفها جاري إلا الآن، يحكيها بوجه مشتعل بالحماس. إن نساء الإمبراطور المتخمات فوق وسائد حريرية، المنصرفات عن أخلاق النبلاء بفضل رجال البلاط الماكرين المفعمين بالسلطة وبشهوة الجنس الجامح، يتمرغن بفسوق في جنة جرائمهم المخزية. وكلما مر الوقت، ازدادت

بشاعة كل الألوان، ويومًا ما تحكي كل القرية بكل الأنين أن زوجة الإمبراطور تجرعت دم زوجها منذ آلاف السنين.

هكذا يتذكر الناس الملوك السابقين، ويخلطون بين الأموات والأحياء منهم. ولو حدث يومًا ما، ولو لمرةٍ واحدةٍ في تاريخ البشر، أن جاء صدفة إلى قريتنا موظف من قِبَلِالإمبراطور، في رحلة عبر المحافظة سيبلغنا باسم الحكومة عن بعض المطالب، ويُرَاجع سجلات الضرائب، وسيَحْضر حصةً في إحدى المدارس، وسيسأل الكاهن عن سلوكنا وعما نفعله، وقبل أن يستقر على أكتاف حامليه، سيُوجز كل شيء في أحاديث مُطَوَّلة أمام القرية المجتمعة. فينظر أحدهم خلسة على الآخر، ثم ينحني على الأطفال حتى لا يراه مبعوث الإمبراطور، ويقول لنفسه: ما هذا؟ إنه يتحدث عن رجل ميت وكأنه على قيد الحياة، إن هذا الإمبراطور قد مات منذ زمن قديم، واندثرت أسرته. إن هذا الموظف يهزأ بنا، لكننا نتصرف وكأننا لا نعرف بهذا الأمر كي لا يغضب. في الحقيقة لن نستمع إلا لسيدنا هنا، وكل ما عدا ذلك ذنب كبير. وخلف خطوات ثقيلة من حملة الموظف الذي يتباعد؛ يظهر من صندوق مُتهدم رجل من بين الأموات على أنه سيد قريتنا.

كذلك لا يتأثر أهلنا كثيرًا بالانقلابات في السلطة والحروب المعاصرة. أتذكر حكاية من طفولتي. فقد حدثت انتفاضة في إحدى المحافظات المجاورة لنا والنائية هي الأخرى. لا أتذكر أسبابها، وهي ليست مهمة على أي حال. إن الانتفاضات تحدث هناك مع صباح كل يوم جديد، إنه شعب ثائر. في ذلك الوقت أحضر لنا في البيت أحد المتسولين

الذين يمرون بقريتنا منشورًا للثوار. في ذلك اليوم كان عندنا بالصدفة عيد، وكانت الحجرة ممتلئة بالضيوف، وكان الكاهن يجلس في منتصفها ويُطالع هذا المنشور. وانفجر جميع الحاضرين في الضحك فجأةً، وتمزق المنشور في وسط الزحام، وحصل المتسول بالطبع على عطايا سخية، وخرجوا من الغرفة، وتفرقوا جميعًا لقضاء يوم جميل. لماذا؟ لأن لهجة المحافظة المجاورة تختلف عن لهجتنا، ويظهر هذا في بعض صيغ اللغة الفصحى التي تبدو لنا لغة قديمة. وما إن قرأ الكاهن صفحتين من الصحيفة حتى عرف الجميع: أمورًا قديمة، سمعنا عنها من قبل، وعانينا منها من قبل. ورغم ذلك وهذا ما يعنيني من هذه الذكرى فإن المتسول راح يحكي عن أمور حياتية مؤلمة. هزوا جميعًا رؤسهم من الضحك، وفقدوا رغبتهم في سماع أي شيء آخر. هكذا نحن قادرون على محو الحاضر.

لو أراد أحد أن يستنتج من هذا أننا بدون امبراطور فلن يكون قد ابتعد كثيرًا عن الحقيقة. ويجب أن أكرر مرات ومرات: لا يوجد شعب وفيّ لامبراطوره أكثر من شعبنا في الجنوب، لكن الوفاء لا يكفي الإمبراطور. هناك تنين مقدس مُعَلَّق يقف فوق عامود صغير في نهاية القرية كرمز للاحترام ويتقد من الحماس تجاه بكين، لكن بكين غريبة عن أهل القرية، كغربة يوم الحساب. هل يمكن أن نجد بالفعل قرية، البيوت فيها متراصة فوق بعضها في كل الحقول، وأبعد من أن نراها من فوق تل قريتنا، وبين تلك البيوت تتراص رؤوس فوق بعضها ليلًا ونهارًا؟

أسهل من تصور مدينة كهذه هو التصديق بأن بكين والإمبراطور شيء واحد، سحابة تطوف الأفق تحت الشمس على مر العصور.

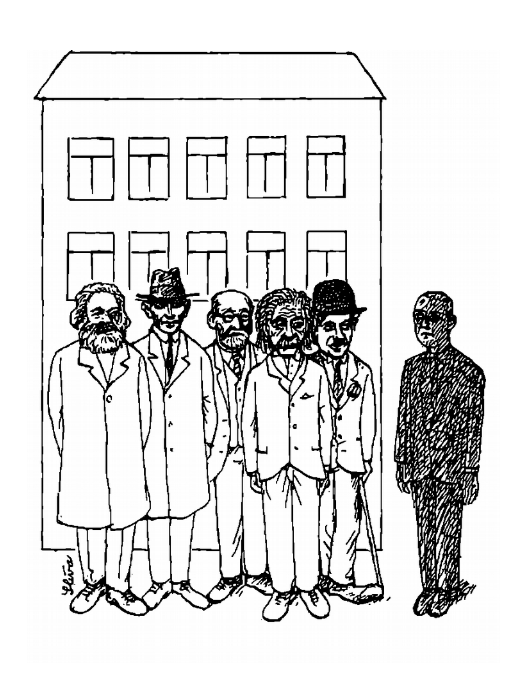
نتيجة مثل هذه الآراء هي حياة حرة طليقة. حياة فاسدة تمامًا. لم أجد العفة الخالصة في أي مكان سافرتُ إليه مثلما وجدتها في وطني لكن رغم ذلك فالحياة لا تخضع فيه لأي من القوانين المعاصرة، فنحن نتبع تعاليم وتحذيرات تأتي إلينا من العصور الماضية.

أتخوف تمامًا من التعميم، ولا أؤكد أن هذا الأمر يسري بنفس القدر في عشرات الآلاف من القرى في محافظتنا، فما بالك بخمسمائة محافظة من محافظات الصين. لكن يمكنني مع ذلك بناءً على العديد من المخطوطات التي قرأتها في هذا الشأن، وبناءً على ملاحظاتي الخاصة وخاصةً أنه العنصر البشري الذي عند تشييد السد قَدَّمَ للإنسان المرهف الحس فرصةً لكي تسافر روحة إلى كل المحافظات ، بناءً على هذا كله يمكنني القول إن الرأي السائد حول الإمبراطور يُدَلل دائمًا وفي كل مكان على وجود سمة أساسية مُتفق عليها مع الرأي السائد عندنا. لا أُريد على الإطلاق أن أقدم هذا المفهوم عن غيره، بل على العكس. عيب هذا المفهوم هو حكومتي التي لم تكن قادرة في أقدم مملكة على وجه الأرض وحتى اليوم على أن تصون مؤسسة الإمبراطور بالوضوح المطلوب حتى تُؤثر على الدوام حتى في أقصى حدود المملكة. لكن هذا من ناحية أخرى يُعَد دليلًا على ضعف الخيال، وضعف الثقة بالوطن الذي يعجز عن انتشال الإمبراطورية من فساد بكين ويحتضنها

بماضيها وحاضرها فوق صدره الخنوع الذي لا يتطلع إلى شيء أفضل من أن يشعر يومًا ما بهذه اللمسة، ويموت بها.

إذن لا يوجد تفضيل مُطلق لهذا المفهوم. وبالتالي يصبح من الواضح أن نقطة الضعف هذه تبدو واحدةً من الحلقات المهمة في وطننا، بل إنها لو سمحتُ لنفسي أن أتمادى في الوصف الأرض التي نعيش عليها. إن البداية بذكر الأسباب التفصيلية والانتهاء بإلقاء اللوم يعني ليس فقط زعزعة ضمائرنا، ولكن أيضًا الأرض من تحت أقدامنا. لذلك لا أنوي البحث في هذه المسألة أكثر من ذلك.

تقرير إلى الأكاديمية[7]



السادة أعضاء الأكاديمية المحترمون!

تشـرفتُ بتلقي دعـوتكم الكريمـة لي لكي أقـدم للأكاديميـة تقريـرًا عن حياتي السابقة كقرد.

للأسـف لا يمكنـني قبـول الـدعوة على هـذا الأسـاس. فمـا يقـرب من خمسة أعوام تفصلني عن حياة القرود. ربما تكون فترة قصيرة بحسـاب الزمن، لكنها طويلة جدًا لو أنكم قضيتموها عَدْوًا كما فعلتُ أنا. مُحَاطًا

7فـي الفتـرة مـن عـام 1915 وحتـى 1917، أقـام «كـافكا» بعـض الـوقت عنـد شـقيقته «أوتـيللا» فـي بيتـها الصـغير، ثـم انتقـل لاحـقًا للإقامـة فـي شـقة اسـتأجرها بقصـر شونبورن بالعاصمة «براج». في تلك الشقة كتب «فرانز كافكا» قصتي: «تقرير إلى الأكاديمية» و «سور الصين العظيم».

من وقتٍ لآخر بأُناس رائعين، وبالنصائح والتصفيق وعزف الأوركسترا، لكني كنت في الواقع وحيداً، لأن كل المرافقين حتى أبقى في الموضوع وقفوا بعيداً عن الحائط العازل. لم يكن في استطاعتي إثبات هذا لولا إصراري على أصلي بكل حسم، على ذكرياتي من فترة الشباب. فالتخلي عن العناد كان من أكثر التعليمات التي ألزمتُ نفسي بها. أخذتُ على نفسي، أنا القرد الحر، هذا العهد. لكن ذكرياتي بدأت تُغْلَق أمامي شيئًا فشيئًا. ليت بوابة ذكرياتي لو أراد الناس كانت منذ البداية مفتوحة عن آخرها لتسمح لي بالعودة، لكن هذه البوابة ضاقت وانخفضت، وكأن السماء المقنطرة اقتربتْ من الأرض، وراح التطور يضربني بالسوط لأتقدم إلى الأمام. انتابني شعور لطيف بالأمن في حياة البشر. هدأتْ العاصفة التي تطاردني من الماضي. صارت اليوم مجرد تيار هواء خفيف يُبرد قدمي. ضاقت الفجوة البعيدة التي تهب منها، الفجوة التي نفذت منها أنا أيضًا. لو كان لدي المزيد من القوة والرغبة، وأردتُ أن أعود إلى هناك، فعلي أن أنزع شعري من فوق جلدي حتى أنسل منها. بصراحة أحب دائمًا أن أتحدث عن هذه الأشياء بصورة تعبيرية. بصراحة، حضرات القرود، سادتي، لو مررتم بتجربة كتلك، فلن تكون بعيدة عنكم أكثر من بُعدي عن الحياة في مجتمع القرود. فهي تُدغدغ قدم كل من يسير على الأرض، بدءًا من الشمبانزي الصغير وحتى (آخيل) الكبير.

لكني ربما أُجيبكم على سؤالكم في أضيق الحدود، وسوف يُسعدني ذلك. كان أول ما تعلمت هو مد يدي، ومد اليد يعني الصراحة، رغم أن

الكلمة الصادقة اليوم، وبعد أن بلغت من حياتي ما بلغت تساوي مد اليد. أنا لا أضيف للأكاديمية بهذا شيئًا جديدًا، وسأظل دائمًا أقوم بما هو مطلوب مني، وما لست قادرًا على الحديث عنه ومع ذلك أتمنى أن يكون فيما أقوله اتجاه واضح، جاء منه قرد سابق إلى عالم البشر واستقر فيه. لكن هذا القليل الذي سوف تسمعونه لم يكن بإمكاني قوله ما لم أكن واثقًا تمامًا منه، وهو بفضل مكانتي التي تدعمت بصورة راسخة في كل الأشكال المتعددة للعالم المتحضر.

أنا قادم من ساحل الذهب. لا أعرف شيئًا عن اصطيادي إلا من التقارير الأجنبية. كانت بعثة الصيد التابعة لشركة(هاجينبيك) ـ تناولتُ مع أحد مُدَرائها كأسًا من النبيذ الأحمر وقتها تستلقي على الشاطيء في أحد الأدغال. تترقب فريسةً عندما جئتُ في المساء مع كل القطيع إلى مورد الماء. سمعتُ صوت طلقات نار، ولم يُجرح أحد من القطيع إلا أنا، فأُصبت بجرحين. أحدهما في وجهي. كان جرحًا خفيفًا. لكنه ترك ندبة غائرة حمراء. أطلق عليّ أحد القرود اسم (بيتر الأحمر) بسبب هذه الندبة الغبية والكريهة. صرت لا أتميز إلا بتلك الندبة الحمراء، وكأنني لم أكن يومًا ما إلا ذلك القرد المُسَمَّى (بيتر الأحمر). هذا فقط على هامش الحديث.

أصابتني الطلقة الثانية في مفصل الركبة. كانت ضربة قوية، تسببت في أني مازلت أعرج حتى اليوم. قرأتُ في وقتٍ لاحق في مقالة لأحد الصحفيين الذين أشاعوا عني في الجرائد أن طبيعتي كقرد لم تَخْتفِ حتى الآن. يُقَال إن الدليل على ذلك هو أنه عندما تأتيني زيارة أخلع

البنطلون بكل سرور، وأشير إلى المكان الذي أصابتني فيه الطلقة. يجب قطع أصابع هذا الشاب والتي كتبت المقالة، كلها، إصبعًا بعد الآخر. أنا، أنا يمكنني أن أخلع البنطلون أمام أي شخص كما أريد، لكنه لن يرى سوى شعر كثيف، وندبة من طلقات المجرمين أستخدم هنا الكلمة الدقيقة لهدف معين، وأتمنى ألا تُفهم خطأ. كل شيء بديهي، ولا يوجد ما يستدعي الإخفاء.

لو كنا نسعى إلى الحقيقة، فكل إنسان محترم عليه أن ينبذ تلك الأساليب النخبوية. فلو أن ذلك الكاتب خلع بنطلونه أمام الضيوف، سيكون الأمر مختلفاً. لكني أعتقد أنه سيكون من الفطنة ألا يفعل ذلك. لكن فليكف عن إزعاجي، وليتوقف عن حساسيته المفرطة!

بعد تلك الإصابات وهنا تبدأ ذاكرتي الخاصة في العمل وجدت نفسي في أحد الأقفاص على متن الباخرة(هاجينبيك). لم يكن قفصًا شبكيًّا بأربعة حوائط. بل كانت ثلاثة حوائط مُعَدّة لصُنْع صندوق ما. كان الصندوق بمثابة الحائط الرابع. كان كل هذا قصيرًا للغاية، فلم يُسمح لي بالوقوف، وضَيِّقًا بحيث منعني من الجلوس.

فجلستُ القرفصاء، وحنيتُ ظهري، واتكأتُ على ركبتيّ المنتفضتين. في البداية لم أرغب في رؤية أحد، أردتُ فقط أن أظل جالسًا في الظلام. أسندت وجهي على الصندوق والشِّباك تقطع في لحم ظهري. يعتبرون أن هذا مناسبًا لتربية حيوان بريّ في الفترة الأولى، ولا يمكنني اليوم بعد تلك التجارب أن أُنفي أن هذا من المنظور البشري صحيح.

لم أفكر وقتها في هذا الأمر. كنتُ وقتها لأول مرة في حياتي بدون مخرج. فلم يكن هناك طريق مباشر على الأقل. لم يكن أمامي مباشرة غير الصندوق، كل لوح فيه مُثبت بقوة بلوح آخر، وتُوجد بين الألواح فتحة بطول كل لوح. عندما اكتشفتها ألقيتُ عليها التحية بنباح مخلوق جاهل. لكن تلك الفتحة لم تكن تسمح بخروج ذيلي، ولم يكن ممكنًا توسيعها بأي قوة يمتلكها قرد.

لم أصنع ضجيجًا كبيرًا على غير المعتاد، كما قالوا لي لاحقًا. استخلصوا منه أنني إما أن أموت سريعًا، أو أنني سأكون مناسبًا تمامًا للتدريب لو تجاوزت الفترة الأولى الحرجة. تجاوزتها. نشيج مكتوم، وتنظيف جسدي من البراغيث وما صاحبه من ألم، ولعق ثمار جوز الهند بكل إرهاق، وضرب برأسي على الصندوق، وإظهار لساني لكل من يقترب مني. كانت هذه أول الأفعال في حياتي الجديدة. رغم كل هذا ظل الإحساس الوحيد الذي تملكني، هو أنه لا مفر مما أنا فيه. كل ما شعرتُ به وقتها كقرد يمكنني الآن أن أصفه بالطبع بكلمات بشرية فقط، وبهذا لا يكون وصف ما حدث دقيقًا. لكن رغم أنني عاجز عن وصف حقيقة القرد العجوز، لكنه على الأقل في الاتجاه نفسه. وهذا أمر مؤكد.

كان لدي في الواقع العديد من المخارج، رغم أني لا أملك واحدًا منها الآن. لقد وقعت في الفخ. لو أنهم ثبتوني بمسامير لما أثر ذلك في تطلعي إلى الحرية على الإطلاق. لماذا؟ يمكنك أن تُمزق اللحم بين أصابع قدميك، ولن تفهم. يمكنك أن تضغط بظهرك على الشِّباك حتى

يتفسّخ، ولن تفهم. لم يكن هناك مخرج. لكن كان عليّ أن أجـده، لأني بدونـه لن أتحمـل الحيـاة. سـألقى حتفي لا محالـة عنـد حائـط ذلـك الصـندوق. كـان السـائد فـوق البـاخرة هاجينبيـك أن تُوضـع القـرود في صـندوق. لهـذا تـوقفتُ عن كـوني قـردًا. إنهـا مسـيرة فكريـة واضـحة وجميلة، قمتُ بتجربتها في معدتي، لأن القرود تفكر ببطنها.

أخشى أن ما أقوله حول ذلك المخرج ليس واضحًا بالقدر الكافي.

أنـا أسـتخدم هـذه الكلمـة بمعناهـا الطـبيعي والكامـل. لا أسـتخدم لفـظ الحرية عن عمد. لا أعني ذلك الشعور الكبير بالحرية متعـددة النـواحي. ربما كنت أعرفها كقرد، وكنت أعرف البشر الـذين يتوقـون إليهـا. فيمـا يتعلـق بي، فأنـا لم أشـتق إلى الحريـة، لا في ذلـك الـوقت ولا اليـوم. بالمناسـبة: إن الحريـة بين البشـر غالبًـا مـا تكـون وهمًـا كبـيرًا. وبمـا أن الحرية تُعَد من أسـمى المشـاعر، فـإن الـوهم النـاتج عنهـا هـو أيضًـا من أَسْمَّى الأوهام. كنتُ كثيرًا ما أرى في مختلف المسرحيات الهزلية الـتي تسبق ظهوري اثنين من الفنـانين العـالقين فـوق أرجوحـة البهلـوان عنـد السـقف يتمرنـان. كانـا يثبـان ويتأرجحـان ويتسـاقطان في أحضـان بعضهما، يمسك أحدهما بشـعر الآخـر بين أسـنانه. قلت لنفسـي: «هـذه هي حرية البشر. حرية الحركة» يا لها من سخرية من الطبيعـة الشـامخة! لا يمكن لأي مبـنى أن يتحمـل قهقهـة جنس القـرود وهي تـرى ذلـك المشهد.

لا، لم أسـع إلى الحريـة. لا يمكن أن أسـتغني عن هـدوئي الـداخلي. وبالفعـل أدين بالفضـل للهـدوء على كـل مـا حـدث لي. الهـدوء الـذي شعرت به فجأة بعد أول أيامي على متن الباخرة. كذلك أشكر من كـانوا على متن الباخرة على هذا الهدوء بالطبع.

كـانوا جميعًـا أُناسًـا طيـبين. مـازلت حـتى اليـوم أتـذكر بسـعادة صـوت خطـواتهم الثقيلـة الـتي كنت أسـمعها وأنـا نـائم. كـانوا معتـادين على التعامل المتمهِّل جدًا مع كل شيء. عندما كـان أحـدهم يريـد أن يفـرك عينيه، كان يرفع يده مثل الميزان المعلق. كانت مزحاتهم عنيفة، لكنهـا كانت تتسم بالود. كانت ضحكاتهم تختلط بالسعال الـذي بـدا خطـيرًا، لكنه لم يكن يعني شيئًا. كانوا دائمًـا يضـعون شـيئًا مـا في أفـواههم، ولا يهمهم أين سيلفظونه. يشتكون على الـدوام من أن الـبراغيث الموجـودة في شعري تقفز عليهم. رغم ذلك لم يغضبوا مني بحدة يومًـا مـا. كـانوا يعرفون أن البراغيث تحيـا بسـعادة بين ثنايـا الفـرو على جسـدي، وأنهـا حشرة وثّابة. فتعايشوا مع الأمر. كان بعضـهم يتجمَّع حـولي في أوقـات فراغهم. يجلسون في نصف دائرة، لا يتحدثون تقريبًا، فقط يتهامسـون، ويتمرغون فـوق الصـناديق، ويـدخنون الغليـون. يلطمـون بعضـهم فـوق أرجلهم بمجرد أن أقوم بأية حركة. يمسك أحدهم من وقت لآخر بعصا ما، ويوخزني بها في أماكن أشعر معها بالراحة. لو دعـاني أحـدهم اليـوم لكي أعـود إلى السـفينة لرفضـت الـدعوة بكـل تأكيـد. لكن من المؤكـد أيضًا أن ذكرياتي هناك لم تكن كلها سيئة.

صرفني الهدوء الذي تمتعتُ به وسط هؤلاء البحارة عن أي محاولة للهرب. اليوم أرى الأمر وكأنني توقعتُ وقتها أني يجب أن أعثر على مخرج طالما أردت البقاء على قيد الحياة، لكني لن أعثر على هذا المخرج بالهرب. لا أعرف حتى إن كان الهروب وقتها ممكنًا، لكني أعتقد أنه كان كذلك. القرد يستطيع دائمًا الهرب. اليوم عليّ أن أكون حريصًا بأسناني الحالية عند شق ثمرة البندق. لكني وقتها كنت قادرًا على قرض قصر كامل بأسناني. لكني لم أفعل. ما هي جدوى شيء كهذا؟ كنت بالكاد سأُخرج رأسي، وسوف يمسكونني مرةً أخرى، ويضعوني في قفص أسوأ مما كنت فيه. أو أهرب خلسةً عند حيوانات أخرى، مثل الحيَّات التي كانت أمامي على سبيل المثال، وألفظ أنفاسي الأخيرة في أحضانها، أو أتمكن في النهاية من الزحف إلى ظهر الباخرة وأقفز في الماء، أتهادى قليلًا في المحيط ثم أغرق. أفعال لا يقوم بها إلا يائس. لم أفكر بطريقة بشرية كما أفكر الآن، لكني تصرفتُ تحت تأثير الظروف تمامًا وكأنني تدبرتُ الموقف.

لكني لم أفكر، وبقيتُ أتابعهم بكل هدوء. رأيتهم يتحركون هنا وهناك، نفس الوجوه، نفس الحركات. كثيرًا ما كان يُهيّأ لي أنه رجل واحد. هذا الرجل أو هؤلاء الناس كانوا يروحون ويجيئون، ولم يتوقفوا عن ذلك. بدا لي الهدف الأكبر. لم يُعدني أحد أنهم سيرفعون الشِّباك عندما أصير مثلهم. إنهم لا يُقَدِّمون مثل هذه الوعود التي لا يمكن تحقيقها. لكن لو تحققت ستظهر الوعود في مكان بحثنا فيه من قبل طويلًا وبلا طائل. لم يكن لدى هؤلاء الناس أي شيء مُمَيِّز يمكن أن يلفت نظري.

لو أنني كنت من أنصار الحرية المذكورة لكنت فضلت المحيط عن ذلك المخرج الذي انعكس على نظرات هؤلاء الناس العابسة. لكن المؤكد هو أنني كنت أراقبهم قبل أن أفكر في مثل هذه الأمور. دفعني ما تَجَمَّع لدي من هذه الملاحظة إلى اتجاه بعينه.

كان من السهل تقليد البشر. تعلمتُ كيف أبصق في الأيام الأولى. صار كل منا يبصق في وجه الآخر. الفرق بيننا هو أنني كنت ألعق وجهي بعدها، وهم لا. سرعان ما تعلمتُ تدخين الغليون مثل أي رجل كبير. عندما كنت أسوي الدخان في رأس الغليون بإصبعي كانت البهجة تنتشر في الطابق على الباخرة. لكنني ظللتُ لفترة طويلة لا أفهم الفرق بين الغليون الفارغ والمملوء.

أكثر ما أعجبني هو عندما كنت أبلل نفسي من زجاجة الكحول. كانت رائحة الكحول تزعجني. أجبرتُ نفسي على القيام بكل ما أستطيع. مرت أسابيع قبل أن أتغلب على الأمر. ما أثار دهشتي هو عندما كان الناس يأخذون هذا الصراع الداخلي بجدية كبيرة، أكبر من أي شيء آخر أقوم به. لم أكن قادرًا على التفرقة بين هؤلاء الناس في مُخَيِّلتي. لكن كان بينهم رجل يأتي دائمًا معهم. مع أصدقائه ليلًا ونهارًا، وفي ساعات مختلفة، ثم يتقدم مني ويعطيني دروسًا. لم يفهمني، أراد أن يفهم الغموض في حياتي. كان ينزع سدادة الزجاجة على مهل، ثم يتفحصني بعينيه ليتأكد من أني كنت أفهم ما يقوله. أعترف أني كنت دائمًا أستمع إليه بكل إنصات وتهور واستغراب. لن يجد مدرس بشري طالبًا مثلي في كل الكرة الأرضية. كان يرفع الزجاجة إلى فمه بعد أن

يُزيل السدادة، وأنا أتابعه بنظري، وأُتابع الشراب وهـو يـنزلق في حلقـه. كان يُومِيء برضى، ثم يضع الزجاجة على فمـه، وأنـا منتشٍ من المعرفـة المتصـاعدة الـتي أحصـل عليهـا، أصـرخ وأثرثـر، أروح وأجيء قـدر استطاعتي. فيضع الزجاجة بسعادة ويشرب منها. أحاول أن أقلده بيـأس وبتعجـل، فتثـور ثـائرتي في القفص. وهـو مـا يسـتدعي شـعوره بالرضـا الكبير، فيبسط ذراعيه عن آخرهما وهو يحمـل الزجاجـة، ثم يُقَرِّبهـا من فمه وهو يصنع قوسًا في الهواء، ويشرب الزجاجة حتى آخـر قطـرة فيهـا بنفس واحد. ثم يرتد إلى الخلف بشكل استعراضي مبالغ فيـه. أرهقتـني الرغبـة الجامحـة، فلم أسـتطع متابعتـه. تعلقت بين الشِّـباك مُستسـلمًا للإرهاق. لكنه واصل شرح نظرياته وهو يمرر يده على بطنه، ويضحك.

وهنا بدأت التـدريبات العمليـة. ألا يكفي مـا أصـابني من إرهـاق بسـبب النظرية؟ بالطبع، إرهاق شديد. هذا هو قـدري. رغم ذلـك مـددت يـدي قدر اسـتطاعتي لأمسـك بالزجاجـة الـتي يقـدمها لي. أنـزع غطاءهـا بيـد مرتعشـة وأنـا أشـعر بقـوة جديـدة تسـري في جسـدي، فـأرفع الزجاجـة بالطريقة نفسها التي رفعها بها الرجل. أضعها على فمي ثم ألقيها بعيدًا بكل اشمئزاز. فرغم أنها فارغة، إلا أن رائحة الكحول تفوح منها. رميتها على الأرض بكل قرف. انتـاب مدرسـي الحـزن وانتـابني حـزن أكـبر. لم يخفـف منـه أنـني لم أنس أن أتحسـس بطـني وأضـحك بعـد أن رميتُ الزجاجة بصورةٍ لافتة.

كـانت حصـص التعليم تتكـرر كثـيرًا بهـذه الصـورة. لم يغضـب مـني مدرسي، وهو ما أعجبني فيه. كـان أحيانًـا يضـع الغليـون المشـتعل على

فرو جسمي، في مكان يصعب عليّ الوصول إليه، ويبدأ في التدخين. ثم سرعان ما يطفئه بيده القوية. لم يكن يغضب مني. فَهِمَ أن كل منا يحارب في الجبهة نفسها ضد طبيعة القرود، وأن نصيبي في هذه المعركة أصعب بكثير.

كان ما حدث نصرًا كبيرًا لي وله. فذات مساء انطلقت فيه الموسيقى من جهاز الفونوجراف أمام عدد كبير من المشاهدين. ربما كان هذا احتفالًا كبيرًا، وجاء أحد الضباط يتجول بين الناس. في ذلك المساء أمسكت زجاجة الخمر التي تركها لي فوق القفص دون أن يدري، ونزعتُ عنها السدادة وسط انتباه الحاضرين الواضح.

وضعتها على فمي مثل أي طالب نجيب، وبدون أي تردد، أو اشمئزاز، أفرغتُ الزجاجة في جوفي. أقسم لكم! شربتها كلها مثل أي مدمن على الشراب، بعينين جاحظتين. ثم رميتُ الزجاجة بعيدًا، ليس من يأس، بل بإيماءة فنان. نسيتُ أن أملس على بطني. ولكن في المقابل صرختُ قائلًا: «مرحى!» لم أستطع أن أفعل شيئًا آخر، لأنني شعرت برغبة في قول ذلك، لأن كل حواسي كانت منتشية. لهذا انطلق من داخلي صوت بشري واضح. بهذه الصرخة قفزتُ وسط الناس. سمعتُ صيحاتهم: «اسمعوا! إنه يتكلم» وكأنها قبلة على كل جسدي المشبع بالعرق.

أكرر: لم يكن لدي دافع لتقليد البشر. قلدتهم لأني كنت أبحث عن مخرج، وليس لسببٍ آخر. لكن الفوز لم يكن يعني لي الكثير. سرعان

ما ضاع مني صوتي، ولم يعد إليّ إلا بعد بضعة أشهر. ازداد اشمئزازي من زجاجة الخمر. لكن الهدف قد تحدد، وإلى الأبد.

عندما خصصوا لي في مدينة «هامبورج» أول مدرب، عرفت على الفور أن أمامي خيارين: حديقة الحيوان، أو المسرح الهزلي. لم أتردد. قلت لنفسي: استجمع كل قواك حتى تصل إلى المسرح الهزليّ. هذه هي نقطة الانطلاق. فحديقة الحيوان ليست سوى قفص كبير. ولو ذهبت إلى هناك فأنت ضائع لا محالة!

تعلمت أيها السادة! عندما لا يوجد طريق آخر، فعليك أن تتعلم. عليك أن تتعلم. إن أردت أن تعثر على بوابة الخروج، عليك أن تتعلم دون النظر إلى أي اعتبارات أخرى. تصحو والسيف فوق رقبتك. تعترف من تلقاء نفسك عند أول محاولة للمقاومة. اختفت طبيعة القرود من نفسي، وانطلقتُ إلى الخارج هائجًا. كاد مدرسي الأول يتحول إلى قرد مما رآه، فترك التعليم، ونقلوه إلى إحدى المصحات. لكن من حُسن الحظ أنه شفي سريعًا مما ألمّ به.

لقد تناوب عليّ الكثير من المدرسين، وأحيانًا كانوا يأتون معًا. عندما صرت أكثر ثقة في قدراتي، عندما راح العامة يتابعون ما يحدث لي من تقدم. بدأ المستقبل يتضح أمام عيني، بدأت أختار المدرسين بنفسي. أستقبلهم في خمس غرف متجاورة، وأتعلم منهم جميعًا في الوقت نفسه. فأتنقل باستمرار بين الغرف.

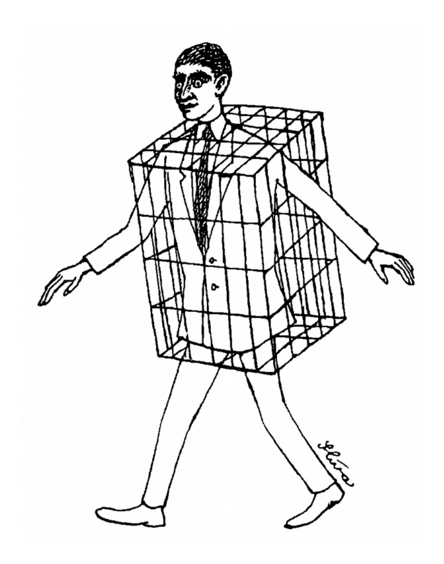
كم كانت نجاحات كبيرة! تدفقت أشعة العلم إلى عقلي المتيقظ من كل جانب! لا أنكر أن هذا الأمر أسعدني. لكني أعترف أنني أيضًا لم أبالغ في تقدير ما وصلتُ إليه. لم أفعلها وقتها، ولا حتى اليوم. لقد حصلتُ على معدل متوسط من معارف المواطن الأوروبي بمجهود لا يُقَارن بأي مجهود غيره على وجه الأرض. ربما أن هذا لا يعني شيئًا في حد ذاته، لكنه ساعدني في أن أخرج من القفص، وأَمَّنَ لي طريق خروج خاصًا، أَمَّنَ لي مخرجًا إنسانيًّا. هناك قول مأثور يقول: بوابة الخروج.

وقد صنعتها. لقد هربت. لم يكن أمامي طريق آخر، على اعتبار أن الحرية ليست خيارًا مطروحًا.

عندما أنظر إلى التطور الذي مررتُ به، وإلى الهدف الذي حققته حتى الآن، أجد نفسي راضيًا، ولست راضيًا في الوقت نفسه. أستلقي غير مستقر، وأجلس غير مستقر في مقعد هزَّاز، وأنظر من النافذة، وأضع يدي في جيوبي، وأضع زجاجة النبيذ على الترابيزة. لو جاءتني زيارة أستقبلها كما يليق. راعي الحفل يجلس في الدهليز، يأتي إليّ عندما أدق الجرس، ويستمع إلى ما أريد أن أقوله له. أقدم عرضًا في كل ليلة تقريبًا. نجاحاتي تتصاعد بصعوبة. عندما أعود إلى بيتي في المساء بعد انتهاء الولائم، وبعد الاجتماعات العلمية، وبعد اللقاءات الجيدة، أجد شمبانزي صغيرًا مدربًا إلى حد ما ينتظرني، ألاطفه على طريقة القرود. لا أحب رؤيته أثناء النهار. فعيناه تلمعان بجنون حيوان مشوش يتدرب. أنا أعرف هذا الشعور، وأمقته. لقد بلغت بلا شك كل ما كنت أصبو إليه. لا تقولوا لي أن الأمر لم يكن يستحق كل هذا العناء. لكني لست

مَعْنيًّا بما يقوله الناس. فقط أريد أن أنشر المعرفة. وما أُقَدِّمه ليس سوى تقرير. ولم أُقَدِّم لكم، حضرات السادة أعضاء الأكاديمية، سوى مجرد تقرير.

هو[8]
(مذكرات من عام 1920)



لا يمكن أن يكون مستعداً بشكلٍ كافٍ لأي موقـف. لـذلك لا يمكنـه أن يشعر بـاللوم. من لديـه الـوقت للاسـتعداد في هـذه الحيـاة الـتي تتطلب الاستعداد التام في كل لحظة؟ لـو تـوافر الـوقت، هـل يكـون الاسـتعداد ممكنًا، ونحن لا نعرف ما هـو مطلـوب منـا؟ هـل من الممكن أن نقـف وجهًا لوجه أمام مهمة ما طبيعية، ليست مُعَدة بشكل جيد؟ لذلك نجـده

8أقـام «كـافكا» فـي عـام 1920 فـي إحـدى المصـحات العلاجيـة فـي مـدينة «مـورانو». كتـب خلالـها قصـة «هـو» وغيرهـا مـن القصـص. فـي ذلـك الـوقت أيـضًا بـدأ الاتصـال بصديقته «ميلانا ياسنسكا بولاكوفا» التي أعطاها ـ وقتها ـ كل يومياته كدليل على ثقته الكبيرة بها. كانت متزوجة من رجل آخر رغمًا عنها. لكن «كافكا» كان يعلم أن وقت الحب قد ولى، لهذا لم تتجاوز علاقتهما بعض اللقاءات العابرة.

مسحوقًا منذ القدم. من الغريب، من دواعي سروره أيضًا أنه لم يكن مستعدًا لهذا الانسحاق.

كل ما يفعله يبدو له جديدًا تمامًا. لكنه أيضًا نظرًا لاستحالة وجود الكثير من الأشياء الجديدة بسيط للغاية. يفعل أشياءً من الصعب قبولها، أشياء عاجزةً عن أن تصبح جزءًا من التاريخ. تمزق سلسلة الجيل، وتضخ في عمق الأعماق موسيقى العالم الذي يؤمنون بوجوده. أحيانًا يدفعه الغرور إلى الخوف على العالم أكثر من خوفه على نفسه.

إنه قد يتكيف مع السجن. وينتهي به الحال كسجين وقد يصبح هذا هدفًا لحياته. لكن السجن لم يكن سوى قفص عليه شِبَاك، يتدفق منه ضجيج العالم، ويتردد هنا وهناك بكل فتور وكبرياء. صار السجين حرًا، في استطاعته أن يُشارك في كل شيء. لم يكن يفوته شيءٌ في الخارج. استطاع أن يغادر القفص. فلم تكن أسلاك الشِبَاك تبعد عنه إلا مترًا واحدًا، لم يكن حتى سجينًا.

شعر بأنه يعوق الطريق بوجوده على قيد الحياة. لكن هذا العائق كان دليلًا على أنه مازال حيًّا.

إن عظام جبينه تقف عائقًا في طريقه، فيخبط جبينه بجبينه حتى تسيل منه الدماء.

يشعر بأنه سجين في هذه البلاد. يشعر بالضيق، يعتصره الألم والوهن والمرض، وأفكار السجناء الجنونية. لا عزاء يبعث في نفسه السرور. لأنه مجرد عزاء هش.

عزاء يعصف برأسه ليُقاوم به حقيقة السجن القاسي. لو سأله أحدهم عما يريده، لن يعرف الإجابة، لأن هذه هي أحد الأدلة الدامغة على أنه لا يعرف شيئًا عن الحرية.

البعض يرفض الآلام التي تُسَبِّبها الشمس، أما هو فيرفض الشمس التي تُسَبِّب الآلام.

حركة الحياة المتلاطمة التي تُعَذِّب ذاتها، حركة ثقيلة، تتعثر كثيرًا، لكنها لا تهدأ. حركة تعذب نفسها وغيرها لأنها تقدم دعوة إلى التفكير لا تَكِلّ. أحيانًا يعتقد أن هذا الحزن يسبق الأحداث. وعندما يعرف أن صديقه سيُرزق بطفل يُدرك أنه سيُعاني من أفكاره عن قريب.

يرى أمرين: الأول تفكير، ودراسة، وتدبر، وتدفق هادئ ممتلئ بالحياة، لا يتحقق إلا بنوع من الراحة. أمور لا تُحصى، وإمكانيات لا تُعَد. وحتى نبات القُرَّاص، كي يصنع لنفسه جذرًا يحتاج إلى فتحة كبيرة في الحائط. لكن تلك الأنشطة لا تحتاج إلى مكان. يمكنها أن تنمو حيث لا وجود لأي فتحة. يمكنها أن تعيش بالآلاف متشابكة ومتناغمة. هذا هو الأمر الأول. الأمر الثاني: إن اللحظة التي يُستدعى فيها الإنسان كي يسدد ديونه. لا يصدر منه صوت واحد. يعود من جديد إلى التفكير، إلخ. لكنه الآن وهو لا يملك أي رؤية لا يمكنه أن يتخبط هكذا بلا طائل. يصير ثقيلًا ثم يغرق مصحوبًا باللعنة.

القضية هي أنني منذ أعوام كثيرة مضت كنت أجلس مبتئسًا فوق مرتفع في منطقة «باترشين» أسأل نفسي عما أريد من الحياة. اتضح لي أن أهم

وأعـذب أمنيـاتي هـو أن أُكـوِّن رؤيـة عن الحيـاة (وأتمكن من إقنـاع الآخرين بها كتابةً وهما أمران مرتبطـان ببعضـهما لا ينفصـلان)، رؤيـة تحافظ فيها الحياة على غلظة سقطاتها وارتفاعاتها، لكنها في الـوقت نفسه تظهر بجلاء وكأن شيئًا لم يكن. وكأنها حلم، وكأنها ارتقـاء. قـد تكون أمنية جميلة لو أنني تمنيتها على نحو سليم. مثلًا مثل أمنيـة أن تـدق على الترابيزة بكـل حـرص الحـرفي وتدقيقـه، وفي الـوقت نفسـه تتظاهر وكأنك لا تفعل شـيئًا. لكن ليس على طريقـة أن يقـول أحـدهم: «إن هذا الرجل يعتبر عمله بالمطرقة وكأنه لا يعـني شـيئًا»، لكن «النص يعتبر العمـل بالمطرقـة عملًا حقيقيًّا، وفي الـوقت نفسـه لا شـيء» بهـذا يظل العمل بالمطرقة أكثر جرأة وأكثر حسـمًا وأكـثر واقعيـة، ويمكن أن نقول أكثر جنونًا.

لكنه لم يجرؤ على أن يتمنى شيئًا كهذا، لأن أمنيته لم تكن أمنية. كـانت مجرد دفاع، مجرد ترويض للعدم، وهو بنشاطٍ مـا، أراد أن يُضْـفِيه على العدم الذي خطا فيه بالكاد أولى خطواته الناضجة. الخطوات التي شـعر بها وكأنها أحد عناصره. كان الأمـر وقتهـا مجـرد توديـع لعـالم الشـباب الخـادع. لم يـترك نفسـه يومًـا لأن ينخـدع فيـه. لم يستسـلم إلا لخُطب منمقة وهمية عن قامات هنا وهناك. ومن هنا جاءت ضرورة «الأمنية»

إنه ليس دليلًا إلا على نفسه. هو نفسـه الـدليل الوحيـد على نفسـه. كـل أعدائه سيتغلبون عليه على الفور، ليس لأنهم قد ينحونـه جانبًـا (فهـو لا يتزعزع) لكن لأنهم يُبرهنون على أنفسهم بأنفسهم.

إن الترابط الإنساني قائم على أن الفرد بوجوده القوي يَرُدّ غيره من الأفراد. فهم في حد ذاتهم لا يمكن ردهم. يعد هذا الأمر مصدرًا للمتعة والسعادة لمثل هؤلاء الأفراد، لكن تنقصه الحقيقة، والأهم هو المثابرة الدائمة.

كان في السابق جزءًا من مجموعة تذكارية. تصطف حول مركزها المرتفع بشكل بديع رموز لكفاءات عسكرية، وأعلام الفن، والعلوم، والمهن. كان واحدًا من تلك القامات. هذه المجموعة تداعت منذ زمن، أو أنه غادرها. وراح يناضل في الحياة. فقد وظيفته القديمة، ونسى حتى ما كان يفعله من قبل. ربما أن ذلك النسيان كان سببًا في حزنه، وتشككه، وقلقه، وشوقة إلى الأيام المنصرمة التي دنسها الحاضر. هذا الشوق هو أهم عناصر قوة الحياة، إن لم يكن القوة نفسها.

إنه لا يحيا من أجل حياته هو نفسه، فهو لا يفكر من أجل أفكاره الخاصة. إنه يشعر وكأنه عاش وفكر تحت وطأة أسرة ما، كانت رغم هذا تمتلئ بقوة فكرية وحياتية. هذه القوة كانت تُمَثِّل لها، لقانون لا يعرفه، ضرورة لا جدال فيها. من أجل تلك الأسرة المجهولة وتلك القوانين المجهولة لا يمكنه أن يكون حُرًا.

إنه ذنب وراثي، إثم قديم ارتكبه الإنسان. ويتوقف الأمر على اللائمة التي تقع على الإنسان. والتي لا يريد أن يتخلى عنها؛ أي أنه ارتكب إثمًا، وأنه بُلِي بذنبٍ موروث.

وقـف طفلان أمـام نافـذة عـرض في متجـر كاسـينيللي. يبلـغ الولـد من العمر حوالي ستة أعوام، والبنت حوالي سبعة أعـوام. كـل منهمـا يرتـدي ملابسَ فاخرةً. يتحـدثان عن اللـه وعن الـذنوب. ظللتُ واقفًـا خلفهمـا. يبـدو أن البنت كـانت كاثوليكيـة، واعتـبرَت أن الكـذب على اللـه هـو الذنب الحقيقي الوحيد. ربما كان الولـد بروتسـتانتيًّا، راح يسـألها بكـل عناد الأطفال عن معنى الكذب على الناس، وعن السـرقة. قـالت البنت: «إنه ذنب كبير. لكنه ليس من الكبائر. إن الـذنوب الـتي ترتكبهـا معصـيةً لله هي من أكبر الكبائر. أما الذنوب التي ترتكبها معصيةً للبشر فعلينا أن نعترف بها في الكنيسة. وعندما أعترف سيرافقني ملاك، وعندما أرتكب ذنبًا سيلاحقني الشيطان، لكننا لا نراه» وعندما أصابها الإرهاق من هـذا الحـديث الـذي لا يخلـو من الجديـة، التفتت إليـه، وقـالت لـه مازحـة: «أترى، لا أحد يقف هنـا خلفي» التفت الولـد أيضًـا خلفـه، فـرآني. قـال دون أن يشـغل بالـه إن كنت أسـمعه أم لا، أو ربمـا لم يفكـر في شـيء كهذا: «أترين! إنـه يقـف خلفي» قـالت البنت: «أنـا أيضًـا أراه. لكنـني لم أقصد هذا»

إنه لا يبحث عن أي سلوى. ليس لأنه لا يريدها ومن يرفض السلوى؟! لكن لأن البحث عن السعادة يعني أن تهبها حياتـك، وتعيش دائمًـا على حافة وجودك، وربما خارجه، لا تعرف تقريبًـا لمن تبحث عن السـعادة. ثم تعجز عن العثور على السـعادة الفعَّالـة، وليسـت السـعادة الحقيقيـة. فهذه لا وجود لها.

راح يتجنب نظرات جيرانه إليه. الإنسان، حتى لو كان بلا عيوب، لا يرى من الآخر إلا الجزء الذي يظهر له، ويتناسب مع رؤيته للأمور. حتى هو، وشأنه في ذلك شأن الآخرين، مع بعض العاطفة المتدفقة، يسعى إلى التوقع في إطار يمكن للآخر أن يراه من خلاله. لو أن «روبينسون» لم يغادر أعلى نقطة في الجزيرة، أو بالأحرى أكثر النقاط وضوحًا، سواء كان ذلك طلبًا للسلوى أو تواضعًا، أو خوفًا، أو جهلًا للموقف، أو حتى مجرد رغبة منه، كان سيلقى حتفه سريعًا. لكنه بقي على قيد الحياة لأنه بدأ يستطلع الجزيرة، ويسعد نفسه برؤيتها. بغض النظر عن السفينة ومناظيرها الضعيفة. جعلهم يعثرون عليه في النهاية مع بعض الحذر الذي يتطلبه المنطق.

«تصنع من مأساتك عبرة»

«أولًا هذا ما يفعله كل إنسان، وثانيًا أن لا أفعل شيئًا كهذا. مشكلتي ستظل مشكلتي أنا، فأنا لا أجفف المستنقعات، لكني أعيش على بخارها المحموم»

«من هنا تصبح عبرة»

«كما قلت، مثل كل إنسان. لكني لا أفعل هذا إلا من أجل نفسي. أتحمل جرحًا في نفسي كي أحافظ على تواضعي»

كان مسموحًا له أن يفعل كل شيء إلا أن ينسى نفسه. فاستغرق في كل شيء، إلا في شيء واحد، شيء يُعَد في هذه اللحظة ضروريًّا لكل شيء.

قضية الضمير مطلب اجتماعي.

إن كل الفضائل شخصية، وكل الرذائل اجتماعية. إن كل ما يُحسب على فضائل المجتمع من حب وتواضع وعدل وتضحية ليست إلا رذائل اجتماعية منحطة.

الفرق بين الموافقة والرفض الذي يُعْرِب عنه لأقرانه، وبين الموافقة والرفض الذي عليه أن يُبْلِغ به أقرانه، ربما يكون هو نفسه الفرق بين الحياة والموت. ولا يمكنه أن يتوقع غير ذلك.

إن السبب الذي يجعل الخَلَف قادرين على أن يُصدروا أحكامًا على الآخرين أكثر صوابًا من أحكام المعاصرين يتوقف على الرجل الميت. فالإنسان لا يتطور إلا بعد الموت، عندما يصبح وحيداً. إن الرجل الميت هو تمامًا مثل عامل المداخن في أمسيات أيام السبت حيث يُزيل السخام من على جسده. يعرف إن كان المعاصرون قد آذوه أكثر من أذيته لهم، وفي الحالة الثانية سوف يُصبح رجلًا عظيمًا.

دائمًا ما نتمتع بقوة الإنكار، إنكار الشكل الطبيعي للجسد البشري المناضل، دائم التغير والتجدد، الجسد الذي يحيا بالموت. لكننا لا نملك الشجاعة، رغم أن الحياة هي الإنكار، والإنكار هو التأكيد.

إنه لا يموت بموت أفكاره. فما الموت إلا ظاهرة في إطار العالم الداخلي (الذي يظل كائنًا حتى ولو مجرد فكرة). مجرد ظاهرة طبيعية مثل كل الظواهر الأخرى. مجرد ظاهرة لا تسبب سعادة ولا حزنًا.

إن التيار الذي يسبح ضده تيار هائج، إلى درجة تجعل الإنسان شارد الذهن يقنط من جموده، ويتعثر فيه، ويرتد إلى الخلف. هذا التيار

يتراجع في لحظة الفشل.

إنـه عطشـان، ولا تفصلـه عن مـورد المـاء إلا الأحـراش. لكن أوصـاله تقطّعت إربًا. جزء منها يُشرف على بـاقي الأجـزاء. يـرى أنـه يقـف هنـا، وبجواره مباشرةً يوجد مصـدر المـاء. لكن الجـزء الثـاني لا يُتـابع شـيئًا، فقط يتنبأ بأن الجزء الأول يرى كل شـيء. رغم ذلـك لا يـرى شـيئًا، ولا يمكنه أن يروي ظمأه.

إنه ليس جريئًا ولا مستهترًا. ليس جبانًا. لا يخاف من حياة الحرية. لكن حياةً كهذه لم تُتَح له. وحتى أمـر كهـذا لا يشـغل بالـه. إنـه غـير منشـغل بنفسه على الإطلاق.

لكنَّ هناك شخصًـا مـا، شـخصٌ لا يعرفـه على الإطلاق. هـذا الشـخص مهتم بـه بـه دون غـيره بشـكل لا ينقطـع. هـذا الاهتمـام من ذلـك الشخص، وخاصةً اهتمامه الدائم يُسَبِّبُ له أحيانًا في لحظـات الصـمت آلامًا شديدة بالرأس.

إنه يواجه عدوين. أحدهما يأتيه من خلفه منذ البداية. والثاني يمنعـه من التقدم إلى الأمام. يحارب عدوين. أولهما يسانده في صراعه مع الآخـر، لأنـه يريـد أن يدفعـه إلى الأمـام، والثـاني يسـانده في صـراعه مـع الأول، فيدفعه إلى الخلف. لكنّ كل هذا نظريٌّ فقط. فلا وجود لأيٍ من هـذين العدوين. إنه وحده، ومن غيره يعرف نواياه؟ رغم ذلك يحـدث أحيانًـا، أن ينصرف في لحظة سهو من حلبة الصراع يحتاج لكي يفعل هـذا إلى

ليلةٍ مظلمةٍ، حالكة الظلام ويتم ترقيته إلى درجة قاضٍ نتيجةً لخبراته في الصراعات. يتم رفعه فوق عدوين، يحارب كل منهما الآخر.

ثم عثر على نقطة أرشميدس، لكنه استخدمها ضد نفسه، وهكذا، وبهذه الطريقة استطاع العثور عليها.

14 يناير 1920. إنه يعرف نفسه، يثق بالآخرين. هذا التناقض يُفكِّك كل شيء. يعيش في حالة تشتت. العناصر التي يتكون منها ذلك القطيع الذي يتحرك بحرية، تتجول في العالم. ينظر أحيانًا إلى بعيد فقط لأن هدوءه جزءٌ من العالم. كيف يمكنه أن يتحمل عنه المسئولية؟ هل هذه هي المسئولية؟

باب شقته غريب. عندما يُغْلَق هذا الباب بالمحبس لا يمكنه فتحه. أزال المحبس، وصار الباب مفتوحًا. كان يضع بين جناحي الباب الموارب لوحًا خشبيًّا حتى لا ينغلق. هكذا فقد الشعور بالراحة في البيت. صحيح أنه كان يثق في جيرانه، لكنه اضطر إلى أن يحمل أشياءه الثمينة معه في الحقيبة. كان عندما يستلقي فوق الأريكة في الحجرة يشعر كأنه يجلس في دهليز البيت. كان الهواء الخانق صيفًا والبارد شتاءً يهب عليه وهو في بيته.

كان يضطر إلى القيام بكل الأشياء بمساعدة الشرطة، وحتى تلك الأشياء العادية، مثل الخدمة في المطعم. وهو ما حرمه من كل راحة في حياته.

كان لديه العديد من القضاة، مثل سرب طيور فوق الشجرة. يتكلم أحدهم مع الآخر. تشابك مراتبهم وجهات عملهم لا يمكن فضه. إنها تُغَيّر أماكنها في كل لحظة. لكن بعضهم كان يسهل تمييزه. منهم على سبيل المثال من يعتقد أنه يكفي أن يتحول الإنسان إلى الخير، فيصبح محميًّا بغض النظر عن الماضي وعن المستقبل أيضًا. إنه رأي، من شأنه أن يؤدي إلى شر، ما لم يتم شرح التحوّل إلى الخير بطريقة صارمة للغاية. إنه بالطبع لا يشرح، فهذا القاضي حتى الآن لم يعترف بحالةٍ واحدةٍ تناسبه. حوله الكثير ممن ينتظر، بما فيهم وطن يثرثر، يردد أفراده من ورائه ما يقول، يستمعون إليه بلا توقف...

2 فبراير 1920. يتذكر لوحة تُصَوِّر يومًا ما من أيام الأحد في وقت الصيف في منطقة «تمجي» كان النهر ممتلئًا عن آخره بقوارب تنتظر حتى تُفتح بوابة السد.

القوارب ممتلئة عن آخرها بشباب سعيد، يرتدي ملابس بيضاء خفيفة، يرقد فوق القوارب تمامًا ليستمتع بالهواء الدافيء والماء البارد. كان هناك شيء يجمعهم، ولم يقتصر جو الأنس على قوارب معينة. كانوا يتبادلون النكات والضحكات بين قارب وآخر.

هنا تَخَيَّلَ نفسه في أحد المروج على ضفة النهر كانت الشواطئ غير واضحة المعالم في اللوحة، وكانت حشود القوارب تغطي على كل شيء ويقف وحيداً. شاهد احتفالًا لم يكن بالاحتفال، لكن لنقل إنه كان كذلك. كانت لديه رغبة كبيرة في أن يُشَارِك فيه. تَمَنَّى أن يفعل

ذلك. لكنه رضي بأنه مُسْتَبعد من احتفال كهذا. كـان من المسـتحيل أن يُشَارِك فيه، لأنه يتطلب استعدادات كبيرة لا يكفيها أسبوع واحـد، لكن سـنوات، وربمـا عمـره بالكامـل. لـو أن الـزمن هنـا توقـف لمـا تَغَيَّرت النتيجة.

إنها تتطلب منه أن يكون من أصلٍ مختلف، وبتربية مختلفـة، وبتـدريب بدني مختلف.

ظل بعيدًا عن هؤلاء الشباب الذين يمضون في رحلتهم. رغم ذلك كان قريبًا منهم للغاية. هذا أمر يصعُب فهمه. كانوا بشـرًا مثلـه، يفعلـون كـل ما يفعله البشر.

ولو تفحصهم الإنسان لتأكد من أن الشعور الذي يُسـيطر عليـه، ويحـول دون مشاركتهم رحلتهم هو نفسه الشعور الـذي يملأهم. لكن لا يُسـيطر عليهم، بل يُصيبهم بالفزع في قرارة أنفسهم.

سجني هو قلعتي.

«عـائق يمنعـه من أن ينهض، شـعور بـالأمن على أي حـال. تنبـأ بأحـد الأسِرّة في انتظاره، سرير يخصه هو وحده. يمنعه هاجس ما من أن ينـام فيـه بهـدوء. هـاجس يُبعـده عن الفـراش، يمنعـه من نفسـه، ويضـرب باسـتمرار على قلبـه. خـوف من المـوت ورغبـة في مقاومتـه. كـل هـذا يحول بينـه وبين الاسـترخاء، فينهض من جديـد. إنهـا الحيـاة. النهـوض والاستلقاء، والملاحظات العرضية السريعة، واللاشعورية الـتي قـام بهـا أثناء جولاته»

«إن لوحتك يائسة، لكنها مفيدة في التحليل الذي يشير إلى خطئها الرئيسي. هكذا تسير الأمور؛ ينهض الإنسان، ثم يسقط، ثم ينهض. هكذا على الدوام. لكن الحقيقة الأكثر وضوحًا هو أن الأمر ليس كذلك. إنها كل شيء معًا. في الطيران، وفي السقوط. ففي السقوط طيران. ثم يتحدان من جديد في كيانٍ واحد. ويلتحم الاتحاد مع كل شيء، والاتحاد بالاتحاد، إلى آخره. إلى أن يصل إلى الحياة الحقيقية. ورغم ذلك فهذه اللوحة زائفة، وربما أكثر زيفًا من لوحتك. لا يوجد طريق في هذه البلدة يؤدي إلى الحياة، لكن من المؤكد أن هناك طريقًا يؤدي إلى هنا قادمًا من الحياة. وهكذا ضللنا طريقنا تمامًا»

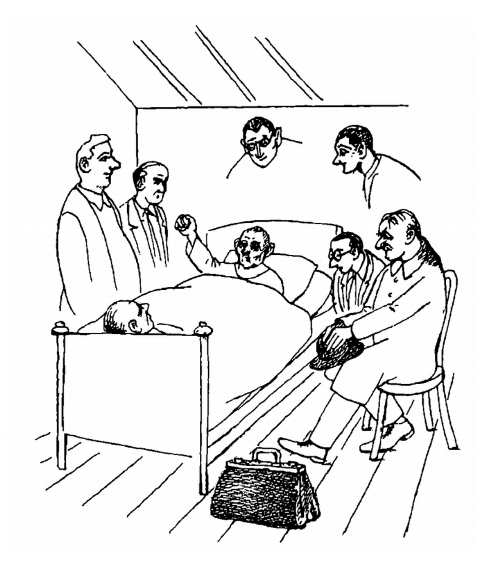
يفهم أن الحياة فيها الخوف، والحزن، والوحدة، لكن هذا لا يتعلق إلا بالمشاعر بشكل عام، وعلى نحو غامض وسطحي. إنه يرفض المشاعر الأخرى. إن ما نُسميه مشاعر ليس سوى وهم، وخيال، وانعكاس لخبرات وذكريات.

يفكر، كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ونحن لا يمكننا أن ندرك الأحداث بمشاعرنا، فما بالك بتجاوزها. تنتابنا هذه المشاعر قبل وبعد الأحداث الحقيقية التي تمر بسرعة جنونية. إنها خيالات حالمة، قاصرة على الزمن. نحن نعيش في هدوء منتصف الليل، نشاهد شروق الشمس وغروبها بأن نلتفت نحو الشرق، أو نحو الغرب.

قوة هشة، وتربية خاطئة، وحياة عزوبة لا تُوَرّث إلا الشك، لكن ليس بالضرورة. إن أي رجل عازب يتزوج لكي يتخلص من الشك، على

الأقل نظريًّا، ثم يصير بعدها مؤمنًا.

الزوجان[9]



كان الوضع العام في المتجر سيئًا. عندما كنتُ أرغب في توفير الوقت وأنا في المكتب، كنتُ آخذ حقيبة بها عينات، وأذهب شخصيًّا لزيارة الزبائن. قررتُ أن أذهب إلى أحدهم بالتحديد، فذهبتُ إلى السيد «ن» الذي كانت تربطني به علاقة عمل طويلة يومًا ما. لكن علاقتنا في العام الأخير توقفت تقريبًا لأسباب لا أعرفها. مثل هذه المواقف لا تعود بالضرورة لأسباب معينة. تُؤثر فيها في هذه الأيام المضطربة غالبًا مواقف تافهة ومزاج الإنسان. كلمة تفاهة بالتحديد هي الكلمة الوحيدة التي يمكن أن تُعيد الأمور إلى ما كانت عليه. لكن الوصول إلى السيد «ن» كان صعبًا إلى حد ما. فهو إنسان مُسِنّ، يمرض كثيرًا في الفترة

9يعود تاريخ كتابة هذه القصة إلى عام 1922، وهي الفترة نفسها التي كتب فيها رواية «القلعة». وفي إحدى الترجمات «القصر».

الأخيرة. لكنه مازال يمسك بزمام الأمور التجارية رغم أنه لا يظهر شخصيًّا في المتجر. ومن أراد الحديث معه عليه أن يذهب إلى بيته، ولقاءات عمل كهذه يُحَاوِل الإنسان تأجيلها.

رغم ذلك توجهتُ إليه بالأمس. لم يكن بالطبع وقتًا مناسبًا للزيارات، لكن كان يجب أن نناقش الأمر بصورة عملية وليست اجتماعية. كنتُ محظوظًا، لأن السيد «ن» كان في المنزل. وقد عاد لتوه مع زوجته من نزهة كما أخبروني في غرفة الانتظار. وهو الآن في غرفة ابنه الذي تعرض لوعكة صحية ويرقد في الفراش. دعوني للذهاب إليه في الغرفة. ترددتُ في البداية، ثم غلبتني رغبتي في إنهاء هذه الزيارة غير المتوقعة في أسرع وقت، فتوجهت مُرتديًا معطفي وقبَّعتي وأحمل في يدي عينات البضاعة عبر غرفة مظلمة إلى غرفة أخرى، كان ضوءها خافتًا، يتجمع فيها أهل البيت.

وقع نظري ربما بالغريزة على أحد عملائي التجاريين الذي أعرفه جيدًا، وهو نسبيًّا يُعد بمثابة منافس لي أيضًا. تقدم مني، ثم اعتدل في جلسته فوق سرير المريض.

وحيث إنه كان طبيبًا، فقد جلس بجلال وهو يرتدي معطفًا جميلًا منفوشًا وقد حلّت أزراره. كانت وقاحته لا تُقارن، ربما هذا ما اعتقده أيضًا الرجل المريض الذي كان يرقد على السرير، كان وجهه مائلًا للاحمرار بسبب الحمى ويشيح بوجهه نحو الطبيب. لم يكن ابنه هذا صغيرًا في السن، كان رجلًا يُقاربني في السن، ذو لحية قصيرة، طالت

قليلًا نتيجة مرضه. كان السيد «ن» رجلًا متقدمًا في السن، عريض المنكبين، لكنه نحيف، يمشي منحنيًا ويتعثر في حركاته. ولايزال يرتدي معطفه الذي جاء به، ويهمهم بشيء لابنه المريض. كانت زوجته امرأة نحيفة البدن ورقيقة، لكنها مفعمة بالحيوية، وخاصةً في علاقتها بزوجها، كانت بالكاد تدرك الآخرين من حولها. خلعت عنه المعطف. كانت بالتأكيد مهمة صعبة، نظرًا لاختلاف طوليهما، لكنها في النهاية تمكنت من ذلك. لكن ربما كان الأصعب هو أن السيد «ن» كان ضيق الصدر إلى حد كبير. راح يطلب بإلحاح وهو يشير بيديه المرتعشتين أن تُحضر له مقعدًا ذا ذراعين، فأحضرته له زوجته بعد أن خلعت عنه المعطف على الفور. حملت بنفسها المعطف وهي تكاد تختفي خلفه، وضعته خارج الغرفة.

وأخيرًا وجدتُ أن اللحظة قد سنحت، أو ربما لم تسنح، وربما لن تسنح هنا على الإطلاق. فلو أردت عمل محاولة في شيء ما فعليّ أن أقوم بها على الفور، لأنني شعرت أن ظروف إجراء حوار تجاري ما يمكنها أن تسوء مع مرور الوقت. والجلوس هنا إلى الأبد، وكان واضحًا أن هذا ما يريده عميلي هذا، ليست هذه طريقتي في العمل. أيضًا لم أرغب في أن أصرف نظري عنه ولو للحظة. ورحتُ أرتب الأشياء في يدي قليلًا، رغم أن السيد «ن» كان يُظهر رغبة في مواصلة الحديث مع ابنه.

للأسف عندي عادة، وهي أنني عندما أستغرق في الكلام قليلًا وهذا الأمر سرعان ما يحدث، وقد حدث أسرع من العادة في هذه الغرفة التي

يرقد بها هذا الرجل المريض، أهم واقفًا، وأتجول هنا وهناك أثناء الحديث. هذا الأمر مناسب تمامًا عندما أكون في مكتبي، لكنه أمر مزعج إلى حد ما عندما أكون في بيت غريب. لكني لم أتمالك نفسي، وخاصةً بدون سيجارتي المعتادة. على أي حال، كل إنسان لديه عاداته السيئة، وعاداتي السيئة هذه لا تُقارن بعادات هذا العميل. أذكر منها على سبيل المثال أنه يضع قبعته على ركبته، ويروح يعبث بها من وقت لآخر، وأحيانًا يضعها فوق رأسه. صحيح أنه يخلعها فورًا وكأنه فعل هذا سهوًا، لكنه فعلها في لحظة، وكان يُكرر هذا من وقت لآخر. يجب أن أقول إن تصرف كهذا غير مقبول تمامًا. أنا لا يُزعجني هذا الأمر، فأنا أروح وأجيء، مشغولًا بقضيتي، ولا يهمني ما يفعله. لكن هناك أُناس ينزعجون بشدة من حركة القبعة هذه. لا ألتفت وأنا منهمك في حديثي إلى مقاطعة كهذه، ولا أهتم لأي شخص. أرى بالطبع ما يحدث، لكني أتجاهله تقريبًا على الأقل حتى أُنهي كلامي، مالم يعترضني أحد. لاحظتُ بجلاء على سبيل المثال أن السيد «ن» كان غير قادر تمامًا على فهم أي شيء، كان مُرتبكًا ويهز يديه فوق ذراعي المقعد. لم يلتفت حتى إليّ؛ بل كان ينظر ببلاهة وفضول إلى الخواء. كان وجهه خاليًا من أية علامة على الحضور بيننا، وكأنه لم يسمع أي كلمة مما قلت؛ بل كأنه لم يُلاحظ وجودي من الأصل. لاحظتُ مثل هذا السلوك المريض الذي قلّص الأمل في نفسي، لكنني واصلتُ كلامي وكأني أمام فرصة أخرى، ومطاوعتي له أنا شخصيًّا دُهشتُ من هذه المطاوعة التي قمتُ بها والتي لم يطلبها مني أحد ستؤدي إلى أن

تستقيم الأمور في النهاية. كما كنتُ على قناعة أكيدة وهذا ما لاحظته بنفسي بأن هذا العميل قد نسي أمر القبعة، ووضع يديه على صدره. تسبب العرض الذي قدمته له في إزعاج واضح، وجعله يُغَيِّر من خططه. ولو أنني استرسلت مدة أطول فيه وأنا أشعر بالنشوة تملأ نفسي؛ لنهض من فوق الفراش ووَجَّه لي ضربةً بقبضةٍ يده ليُجبرني على الصمت، لولا وجود ابنه الذي تجاهلته على أنه شخص غير مهم بالنسبة لي. كان واضحًا أنه يُريد أن يقول شيئًا، أو يُريني شيئًا ما، لكنه لم يقو على المواصلة. اعتبرتُ هذا نوعًا من الهذيان، لكني حين نظرتُ دون أن أدري إلى السيد «ن» فهمتُ الأمر بصورةٍ أفضل.

كان السيد «ن» يجلس وعينيه جاحظتين ومنتفختين، جسده ينتفض وهو محني إلى الأمام وكأن أحدهم يمسكه من مؤخرة عنقه أو يُوَجِّه له ضربات. شفة فمه السفلي أو ربما فكه السفلي كله بلثته العارية يتدلى بشكلٍ خامد. وجهه متهدم بالكامل، ويتنفس بصعوبة. ثم سقط على ظهره فوق المقعد مُستسلمًا، وأغلق عينيه. وسَرَتْ على وجهه علامات الإرهاق الشديد، وانتهى الأمر. توجهتُ نحوه مُسرعًا، وأمسكتُ يديه الباردتين المعلقتين. تملكني الرعب وأنا لا شعر فيهما بأي نبض. لقد مات. بالتأكيد، إنه رجل عجوز. فليخفف الله عنا لحظات الموت. لكن ماذا عليّ أن أفعل الآن، بماذا أبدأ؟ رحتُ أجول بنظري باحثًا عن أي مساعدة.

جذب ابنه غطاء السرير وغطى به رأسه، لم أكن أسمع سوى نشيج ثقيل، بينما كان أبوه مُستلقيًا فوق المقعد، جسده بارد كجسد

الضفدعة، على بُعد خطوتين من ابنه، لا يلوي على شيء وينتظر ما سيحدث له. وصرتُ وحيداً. ولكي أفعل شيئًا ما، وهو أصعب ما في الأمر، أردتُ أن أخبر زوجته بالخبر، بأسلوب مقبول، بطريقة لا جود لها في العالم. وعلى الفور سمعتُ في الغرفة المجاورة خطوات حثيثة ومتثاقلة.

أحضرَتْ ملابس نومه الدافئة والتي كانت تنوي أن تعطيها لزوجها ليُغَيِّر ملابسه. كانت لاتزال ترتدي معطفها، لم يكن لديها وقت لتغيير ملابسها بعد. قالت بابتسامة وهي تهز رأسها عندما لاحظتْ الصمت الذي حَلَّ بنا: «لقد نام» أمسكتْ بكل ثقة يده التي كنتُ مُمسكًا بها بخوف وجفاء، ثم قَبَّلتها بكل الحب، فتحرك السيد «ن» ونحن الثلاثة نتطلع نحوه! تثاءب بصوتٍ مسموع، وتركها تُغَيِّر له ملابسه، وظهرت على وجهه الشاحب علامات السخرية من توبيخ زوجته له على نزهاته الطويلة المرهقة، فراح يحدثنا عن الملل لكي يفسر لنا أسباب غفوته هذه. وحتى لا يتعرض للبرد وهو في طريقه إلى غرفته، تمدد بجوار ابنه على السرير.

ثم وضع رأسه بجوار قدمي ابنه فوق وسادة أحضرتها له زوجته على الفور. لم أجد شيئًا غريبًا في هذا التصرف خاصةً بعد كل ما رأيت. ثم طلب منها الجريدة، وفتحها بغض النظر عن وجود ضيوف في البيت، لم يشرع في القراءة، لكنه تجول بعينيه هنا وهناك، وراح يُطلق تعليقات سخيفة تنم عن دهاء تجاري واضح بخصوص العرض الذي قدمته له، ويقوم بحركات اعتراضية مستمرة من إحدى يديه. كانت خبطات

لسانه تقول بأنه يشعر بطعم كريه في فمه سببه حديثنا عن التجارة. توقف العميل عن ملاحظاته غير اللائقة، ربما أدرك بفهمه الثقيل أنه بعد كل ما حدث هنا يجب أن يخلق جوًا من الألفة. بالطبع لم يُوفق تمامًا في إحداث هذه الألفة. استأذنته سريعًا في المغادرة، وأنا مُمتن لهذا العميل، ولولاه لما انصرفتُ بهذه السرعة.

لحقتُ بزوجة السيد «ن» في غرفة الاستقبال، وقلتُ لها وأنا أنظر إلى قامتها المهلهلة إنها تشبه والدتي. وأضفتُ عندما لم ترد على ملحوظتي قائلًا: «أيًّا كانت الظروف، فقد كانت تصنع المعجزات. وكل ما كنا نُدمره تُصلحه هي. لقد فقدتها وأنا مازلت طفلًا» كنتُ أتحدث بطريقة مبالغ فيها وعلى مهل وبكل وضوح؛ لأن العجوز تعاني من مشاكل في السمع. لكن يبدو أنها كانت صمَّاء تقريبًا، لأنها انتقلت إلى موضوع آخر بدون مقدمات، وسألتني: «ماذا تقول عن زوجي، كيف ترى حالته؟» فهمتُ من بضع كلمات تبادلناها عند انصرافي أنها كانت تخلط بيني وبين زوجها، وإلا لأظهرت نوعًا من الثقة.

نزلتُ درجات السلم، كان النزول أصعب من الصعود رغم أن الصعود لم يكن سهلًا. يا إلهي! كثير من رحلات العمل الفاشلة، وعلى الإنسان أن يُوَاصِل تَحَمُّل هذا العبء.

فنان الجوع[10]



خَفَت في العقود العشر الأخيرة الاهتمام بفنان الجوع. في حين أنه في السابق استحق مثل هذا النوع من الفن تنظيم عروض كبيرة على نفقة المنظمين الخاصة. هذا الأمر أصبح اليوم مستحيلًا. كانت أيامًا مختلفة. في ذلك الوقت كانت المدينة كلها مشغولة بفنان الجوع. كانت المشاركة تزداد في كل دقيقة من أيام الجوع. أراد كل شخص رؤية فنان الجوع مرةً واحدةً على الأقل مرةً في اليوم. كان العرض في الأيام التالية ببطاقات اشتراك، وكان الناس يجلسون للحصول عليها أيام كاملة أمام نافذة صغيرة محصنة بشبكة حديدية. كانت المسابقات

10في عام 1924 ساءت حالة «كافكا» الصحية، وأُصِيب بالحمى على فترات متقاربة. فتم نقله إلى «براج» من قِبَلِ صديقه «ماكس برود». وهناك كتب آخر قصتين له: «وطن الفئران أو المطربة يوسفينا»، وقصة «فنان الجوع».

تُعقد حتى في المساء. ولزيادة التأثير كانوا يُضيئون المشاعل. كانوا يضعون القفص في الهواء المفتوح في الأيام التي يكون فيها الجو صحوًا. وهناك يتعرف الأطفال بصفةٍ خاصةٍ على فناني الجوع. كانت العروض بالنسبة للكبار بمثابة رحلة، وكانوا يترددون عليها من باب الموضة. كانوا يشاهدونها مع أطفالهم باندهاش. يمسكون أطفالهم بأيديهم من باب الحيطة وأفواههم مشدوهة. يتابعون الفنان وهو يجلس شاحب الوجه فوق عيدان القش المنشورة، يرتدي ثوبًا أسودَ، وضلوعه بارزة بشكل لافت للنظر، ويرفض الجلوس فوق المقعد. يومئ باحترام هنا وهناك، ويجيب بابتسامة مُنهكة على الأسئلة، ثم يمد يده من خلف الشبَاك حتى يتحسسها الناس ليروا مدى نحافتها. ثم ينكبّ على نفسه، ويتجاهل الحاضرين، وينسى أن الساعة، الجهاز الوحيد الموجود في القفص تدق لتعلن عن وقت له أهمية خاصة عنده. كل ما يفعله هو أنه ينظر أمامه بعينين مغمضتين، ويشرب الماء من وقت لآخر من كأس صغيرة مُحدثًا صوتًا حتى يبلل شفتيه.

كان هناك مشاهدون دائمون فضلًا عن المشاهدين المتعاقبين، ومراقبون يختارهم الجمهور. ما يدعو للدهشة أنه كان بين المراقبين جزارون، وكان عددهم دائمًا ثلاثة. كانت مهمتهم مراقبة فنان الجوع ليلًا ونهارًا حتى لا يتناول سرًا بعض المأكولات. لكنه كان مجرد إجراء شكلي لإرضاء الجماهير. فالمشاهدون الدائمون كانوا يعرفون جيدًا أن فنان الجوع لا يمكنه تحت أي ظرف من الظروف، ولا حتى بالإجبار، أن يتناول أي شيء أثناء فترة الجوع. فشَرف المهنة لا يسمح له بهذا.

بالطبع لم يستطع كل مشاهد أن يفهم هذا الأمر. حدث أحيانًا أن بعض مجموعات المراقبة الليلية كانت تقوم بالمراقبة بطريقة غاية في الإهمال. كانوا يجلسون عن عمد في أحد الأركان البعيدة، ويلعبون الورق حتى يمنحوا الفنان بتعمد واضح فرصة لتناول بعض المرطبات البسيطة، التي يمكن أن تكون معه مخبأة في أحد أماكن الطعام السرية. لم يُزعج الفنان شيء في عمله أكثر من مثل هؤلاء المشاهدين. كان منزعجًا منهم، وكانوا يصعبون عليه عملية الجوع بشكل كبير. كان أحيانًا يغني أثناء عمليات المراقبة هذه قدر استطاعته ليتغلب على ضعفه، ولكي يثبت لهؤلاء المشاهدين أنهم يرتابون فيه ظلمًا. لكن هذا لم يساعده كثيرًا. كانوا يتعجبون لقدرته على الغناء وهو يأكل. من المشاهدين المحببين إليه أكثر كان هؤلاء الذين يجلسون بجوار الشبكة الحديدية، غير مكتفين بالضوء الخافت في الصالة أثناء الليل، فيشعلون المصابيح التي يحصلون عليها من رعاة الحفل، ويصوبونها نحوه. كان الضوء اللامع لا يزعجه كثيرًا، فهو لا ينام على أي حال. وكان يمكنه النوم في أي وقت وتحت أي إضاءة وفي كل ساعة، وحتى في الصالة الصاخبة والمزدحمة بالحاضرين. كان يحب قضاء الليل في صحبة مثل هؤلاء المشاهدين دون أن ينام.

كان يحب أن يداعبهم ويقص عليهم حكايات من حياة الترحال التي يعيشها. ثم يستمع إلى حكاياتهم، كل هذا حتى يظل مستيقظًا، وليثبت لهم مرارًا وتكرارًا أنه ليس لديه طعام في القفص، وأنه يتحمل الجوع أكثر من أي واحد فيهم. أكثر ما كان يسعده عندما يحضر لهم في

الصباح على حسابه الخاص وجبة إفطار غنية جداً، فينقضّون عليها بنهم الفحول، بعد ليلة شاقة من السهر. كان بينهم من يعتقد أن وجبة الإفطار هذه هي للتأثير الخاطئ على الحرَّاس. لكنها كانت آراء مبالغ فيها للغاية. وعندما يسألهم أحد إن كانوا على استعداد لأن يقوموا بالحراسة الليلية دون تناول الإفطار كانوا يتهربون من الإجابة. ورغم ذلك لم يتوقفوا عن الارتياب. وكان هذا أيضًا من دواعي الشك الذي ارتبط بشكل وثيق بعملية الجوع. لم يتمكن أحد من مراقبة فنان الجوع على مدار أيام وليالٍ، لم يتمكن أحد بناء على تجربته الخاصة من معرفة إن كان بالإمكان الامتناع الدائم عن الطعام دون أن يُصاب بأذى. لم يكن يعرف هذا سوى فنان الجوع نفسه. كان هو المشاهد الوحيد الراضي بجوعه. لكنه لم يكن راضيًا يومًا ما، ولسبب آخر. قد لا يكون الجوع هو السبب في كونه نحيفًا إلى درجة جعلت البعض يحجم عن المشاركة في العرض أسفًا عليه. لأنهم لم يقْدِروا على النظر إليه. ربما يكون سخطه على نفسه هو السبب. فهو الوحيد ولا أحد من المتطوعين الذي يعرف أن التوقف عن تناول الطعام أمر سهل. كان أبسط شيء في العالم. ولم يكن يخفي هذا، لكن أحداً لم يُصدقه، واعتبروه على الأقل رجلًا مُتقشفًا، أو رجلًا يسعى للشهرة، وأحيانًا رجلًا مُحتالًا، يسهل عليه الامتناع عن الطعام، لأنه قادر على أن يخفف من عبء هذا الأمر، أو أنه رجل وقح لا يخجل من الاعتراف بوقاحته. كان يتقبل كل هذا، واعتاد عليه على مدار أعوام، لكن الحزن الذي بداخله كان يُنغص عليه حياته على الدوام، فهو لم يغادر القفص

مُختارًا بعد كل مرة يمتنع فيها عن الطعام، ويجب أن نعترف له بهذا. كان راعي العرض قد حدد أطول مدة يمتنع فيها عن الطعام بأربعين يومًا. لم يكن مسموحًا له أن يتجاوز هذه المدة، ولا حتى في عواصم العالم، وهذا لسبب وجيه. طبقًا للخبرة كان من الممكن لفت أنظار أهل المدينة من خلال دعاية متصاعدة تدريجيًّا لمدة أربعين يومًا تقريبًا. بعدها يفتر اهتمام العامة، وتقل أعداد الزائرين إلى درجة كبيرة. صحيح أنه كانت هناك فروق أكيدة من هذه الناحية بين المدن والقرى. لكن القاعدة العامة هي أن أربعين يومًا هي المدة القصوى. كانوا في اليوم الأربعين يفتحون أبواب القفص المزينة بالورود، ويمتلئ المسرح بالمشاهدين المتحمسين، وتعزف الموسيقى العسكرية، ثم يدخل الأطباء إلى القفص حتى يقوموا بالفحوص المطلوبة لرجل الجوع. يُعلنون بعدها النتائج في الصالة من مُكبر الصوت، وتأتي من بعدهم فتاتان سعيدتان بأنهما كسبتا الرهان، وتقومان بإخراج فنان الجوع من القفص، وتقودانه عبر درجات السلم إلى ترابيزة وضعوا عليها أطعمة مخصصة للمرضى، اختاروها بعناية. كان فنان الجوع دائمًا في لحظة كهذه يشد جسده، ويضع ذراعيه النحيفتين طواعية بين أيادي السيدتين المنبسطة، فتنحنيا نحوه، لكنه يرفض الوقوف. لماذا يجب عليه أن يتوقف الآن في اليوم الأربعين؟ فهو قد يتحمل الجوع لفترة أطول، أطول بكثير. فلماذا يتوقف الآن وهو مازال في أفضل حالاته، بل ربما لم يصل إلى أفضل حالاته بعد وهو بدون طعام؟ لماذا يريدون أن يمنعوا عنه الشهرة بمزيد من الجوع، وشرف أن يكون أفضل فنان جوع

على مـر العصـور، رغم أنـه وصـل إلى هـذا على مـا يبـدو، لكن لمـاذا لا يسـمحون لـه أن يتفـوق على نفسـه، فهـو يشـعر أن قدرتـه على تحمـل الجوع لا حدود لها. لماذا كل هذا الجمهـور من المعجـبين بتحملـه إلى هذا الحد رغم أنه يمكنه مواصلة الجوع لماذا هـذا الجمهـور مُتعجـل؟ كما أنـه مُرهـق، كـان يشـعر بالراحـة وهـو يجلس على القش، لكن الآن عليه أن يشـد جسـمه، وينهض ويـذهب لتنـاول الطعـام، رغم أنـه يشـعر بـالنفور من مجـرد التفكـير فيـه. يحـاول بصـعوبة إخفـاء علامـات هـذا النفور حتى لا تراه السيدتان. يرفع عينيه إلى أعلى لينظر في عيني هاتين السيدتين اللتين تبدو عليهما الطيبة، لكنهما في الواقع قاسـيتان، ثم يهـز رأسه الثقيلة فوق عنقه الضعيف. لكن حدث فيما بعد ما يحدث دائمًا.

جـاء راعي العـرض. ورفـع ذراعيـه دون أن ينبس بكلمـة من الصـعب التحدث في صخب الموسيقى فوق الفنان وكأنه يدعو الله أن ينظر إلى عبده فوق القش، إلى هذا الشهيد المثير للشفقة، الذي هو بـالطبع فنـان الجوع. كان دعاؤه يعني شيئًا آخر. كان يمسك بفنان الجوع من خصـره النحيف، ويُسلمه للسـيدتين الشـاحبتين، ولم يفتـه أن يهـزّه قليلًا، حـتى تكاد تتكسر قدماه وهيكله العظمي. لكن فنان الجـوع كـان يتحمـل كـل شيء. فوضع رأسه على صـدره. بـدت وكأنهـا على وشـك أن تتـدحرج، لكنها لأسـباب غير مفهومـة اسـتقرت في مكانهـا. كـان جسـده هـزيلًا، والتصقت قدماه بقوة من ناحية الركبة بدافع من غريزة البقاء، لكنه كان يحفر بهمـا في الأرض، وكأنهـا ليسـت أرضًـا حقيقيـة، وأنـه يبحث عن الأرض الحقيقية. ووضع ثقل جسـمه بالكامـل، وهـو ثقـل بسـيط، على

إحدى السيدتين التي ارتبكت فهي لم تتوقع مثل هـذا الشـرف وراحت تلهث وهي ترفع رأسها كي لا يلمس وجهها فنـان الجـوع. لكن بعـد أن فشلت في ذلك، وبعـد أن أحجمت صـديقتها السـعيدة عن مسـاعدتها، بـل اكتفت بحمـل فنـان الجـوع الـذي صـار حزمـة من العظـام بيـدها المرتعشة انفجـرت في البكـاء على صـوت ضـحك شـديد في الصـالة، وتركت مكانها لأحد العاملين الذي كان يقف على أهبـة الاسـتعداد. ثم ذهبوا لتناول الطعام عندما حَثَّ راعي الحفل فنان الجـوع النـاعس على التقدم إليه وهـو يتحـدث بسـعادة حتى يصـرف النظـر عن الحالـة الـتي عليها الفنان. بعد ذلك شربوا نخب الحاضرين، وهمس فنان الجوع في أذن راعي الحفل يدعوه للشرب. ثم أعلن الأوركسترا عن نهاية العـرض بعزف قوي. انصرف الناس. لم يكن لدى أحـد سـبب يجعلـه غـير راضٍ عما رآه، إلا فنان الجوع، هو فقط لم يكن سعيداً.

عاش حياته كلها في أضواء وهميـة، تخللتهـا وقفـات اسـتراحة قصـيرة، تمتع فيها بحب العالم. لكن حالته النفسية كانت سيئة، وازدادت سـوءًا يومًا بعد يوم. لأن أحداً لم يلق لها بالًا. وماذا كـان مصـدر سـعادته؟ مـا الذي كان يتمناه؟ كان عندما يظهر من بينهم رجـل طيب، يشـفق عليـه، ويُحـاول أن يُفَسِّـر لـه أن حزنـه سـببه الجـوع بالتأكيـد. وهـو في مرحلـة متقدمة من الجوع كان فنان الجوع يجيبـه بثـورة غضـب، ويبـدأ في هـز الشِبَاك مثل حيوان ثائر ليُضيف مزيداً من الرعب على الموقف.

كـان راعي الحفـل يُنَفِّذ في مثـل هـذه المواقـف عقابـه المفضـل. كـان يعتذر نيابةً عن فنان الجوع أمام جموع الحاضـرين، ويقـول إن مـا يُبَـرِّر

سلوكه هو الغضب الذي يسببه الجوع، وهو أمر لا يمكن أن يفهمه أُناس لم يجربوا الجوع من قبل. وفي هذا الإطار وبالطريقة نفسها كان يُفَسِّر تأكيد فنان الجوع بأنه قادر على مواصلة الجوع لفترة أطول. ثم يُثني على جهوده الضخمة، وقوة إرادته، وإنكاره لذاته. كل هذه أمور تُبَرِّر رغبته في مواصلة الجوع. لكنه يحاول تفسير رفضه لهذه الرغبة بأن يُقَدِّم صورًا فوتوغرافية، ويعرضها للبيع في الوقت نفسه، توضح صورة فنان الجوع في اليوم الأربعين، وهو يرقد في السرير من شدة الوهن. كان فنان الجوع يعرف جيداً هذا التلاعب بالحقيقة. رغم ذلك كان لا يحتمل سماعها في كل مرة، وكان أمرًا فوق طاقته. كان راعي العرض يُدَلل على كلامه بقطع فنان الجوع مدة العرض قبل نهاية الأربعين يومًا. لم يكن مُمكنًا مُجابهة مثل هذه الحماقات، وهذا العالم المليء بالحماقات. كان دائمًا يستمع إلى راعي الحفل عند شِبَاك القفص بكل ثقة واهتمام، لكن عندما يأتي الدور على الصور الفوتوغرافية، كان ينصرف دائمًا من عند الشِبَاك، ويستلقي على القش يزفر أنفاسه. يعود إليه المشاهدون بعدها بكل رضا ويقتربون منه ليتابعوه.

عندما كان شهود هذه الأحداث يتذكرونها بعد أعوام، كانوا لا يكادون يصدقونها. ويعودون من جديد إلى المقولة المشار إليها: حدث هذا مرةً واحدةً تقريبًا، وربما كانت هناك أسباب أعمق لما حدث. لكن من يتحقق من الأمر سيجد أنها إما أن تكون حقيقية أو غير حقيقية. ويومًا ما وجد فنان الجوع المدلل أن الحشد الذي يرغب في الترفيه قد انصرف عنه، وفَضَّل أن يذهب لمشاهدة عرض آخر. ومرة أخرى

يتجول به راعي العرض في نصف القارة الأوروبية سعيًا وراء إقبال على عرضه كما كان من قبل. لكن بدون جدوى. وكأنهم اتفقوا مع بعضهم سرًا، وانتشر رفض عروض الجوع في كل مكان. بالطبع لم يحدث هذا مرةً واحدة. وأتذكر الآن بصورة واضحة بعض الإشارات التي لم ينتبه إليها أحد بالقدر الكافي في وقت نشوة النجاح. ولم ينكرها كلها أيضًا أحد. لكن فات الوقت لأن يتخذ الإنسان أي شيء حيالها. كان من الواضح أن وقت الجوع سيأتي يومًا ما، لكن هذه الفكرة لم تلق ترحيبًا من المعاصرين وقتها. ما الذي كان يجب أن يفعله فنان الجوع؟ الإنسان الذي كان مُحَاطًا بتهليل الآلاف. لم يستطع الظهور في حلبات السيرك المتنقلة بين الأسواق. كان قد تقدم به العمر وأصبح غير قادر على إيجاد وظيفة أخرى، والأهم من ذلك أنه كان مُغرمًا بالجوع بطريقة غير معقولة. التحق بالعمل في سيرك كبير، لم يناقش شروط العقد حتى لا يُعرِّض مشاعره للأذى.

سيرك كبير كهذا، بهذا العدد غير المحدود من العاملين الذين يتنافسون فيما بينهم، ويكمل بعضهم البعض، بكل هذا العدد من الحيوانات والمعدات، يمكنه أن يحتوي أي شخص بمن فيهم فنان الجوع طالما كانت شروطه للعمل معتدلة نسبيًا. إضافة إلى أنه في حالة خاصة كهذه لم يكن وجود فنان الجوع بشخصه فقط، لكن أيضًا بشهرته وتاريخه. لا يمكن القول مع خصوصية هذا النوع من الفن الذي لم يتلاشَ مع الزمن، إن هذا الفنان المتقاعد الذي لم يعد يحتل قمة المجد ينوي الانزواء في مكان هادئ في السيرك، بل على العكس. كان فنان الجوع

متأكدًا، ولم يكن هناك ما يجعله يعتقد غير ذلك، أنه يتحمل الجوع أكثر من ذي قبل. كان يؤكد أنهم لو تركوا له الاختيار، كما وعدوه راضين، لقَدَّمَ عرضًا يُدهش به العالم. لكن رغبة كهذه كانت تُثير السخرية من الخبراء نظرًا للذوق السائد الذي نسيه فنان الجوع بكل سهولة وهو في قمة حماسه.

غير أن فنان الجوع لم يتجاهل الأوضاع الحقيقية، واعتبر أنه من البديهي أن يضعوه هو وقفصه في الخارج، في مكان يسهل الوصول إليه بجوار زريبة الحيوانات، وليس في منتصف الحلبة كفقرة مُبهرة. انتشرت حول القفص لوحات كبيرة باهرة الألوان، كُتبت عليها العروض التي تُقدم في السيرك. وعندما كان الزائرون يأتون في أوقات الاستراحة بين الفقرات لرؤية الحيوانات في الزرائب، كانوا بالضرورة يمرون بفنان الجوع، فيتوقفون للحظات عنده. ربما توقفوا عنده فترة أطول لولا وجود زائرين آخرين يتزاحمون خلفهم في دهليز ضيق، ولا يفهمون سبب بطء الطريق الذي يؤدي إلى الزرائب التي يتطلعون إلى مشاهدتها، ويمنعونهم من مشاهدته في هدوء. كان هذا أيضًا سببًا للرعشة التي تنتاب فنان الجوع قبل وقت الزيارة، رغم أن حياته كانت قائمة على هذا الأمر، ورغم أنه كان يتطلع إلى الزيارة. في بداية عمله هناك لم يكن يتحمل انتظار أوقات الاستراحة. كان يتطلع بابتهاج غامر إلى تدفق الجمهور، غير أنه تأكد في وقت متأخر لم يكن يقاوم التجربة بنوع من خداع الذات، وليس بالثقة المعهودة إن هؤلاء الناس يأتون خصيصًا لمشاهدة الحيوانات وليس شيئًا آخر. لكن شكلهم وهم

قادمون من بعيد كان أجمل ما في الأمر. فبمجرد أن يصلوا إليه يعلو الضجيج، وترتفع الشتائم من أشخاص يريدون أن يشاهدوه بكل راحة، ليس بسبب تقدير منهم لما يقدمه، لكن كنوع من النزوة والمقاومة وهذه المسألة كانت من أكثر ما يُزعج فنان الجوع ، ومن أشخاص آخرين كانوا يريدون الذهاب لمشاهدة الزرائب لا غيرها. كان بعدما يمر الحشد يظهر المتأخرون منهم. يهرولون من حوله بخطوات سريعة بالطبع، رغم أنه لم يكن هناك ما يمنعهم من التوقف عنده كيفما شاءوا. لا يلتفتون حولهم، لا يمينًا ولا يسارًا. كل همهم أن يصلوا إلى الحيوانات في الموعد. لم يكن يسعده كثيرًا أن يأتي رب أسرة مع أطفاله، ويشير لهم بإصبعه نحو فنان الجوع. يشرح لهم باستفاضة ماذا يفعل، ويحكي لهم ذكرياته عندما كان يتردد على عروض مشابهة، كانت أكثر إثارة، ولا يمكن مقارنتها بهذا العرض. لكن بريق عيونهم الفضولية التي لم تفهم ما هو الجوع، فلا المدرسة ولا الحياة أعدتهم لشيء كهذا، كان يوشي بشيء من أزمنة جديدة مقبلة، أكثر إنسانية. أحيانًا كان فنان الجوع يقول لنفسه إن الوضع كان ليتحسن قليلًا لو لم يكن قريبًا من الزرائب. فهذا قد يسهِّل كثيرًا على الناس الاختيار. فضلًا عن أنه كان يشعر بالإهانة، ويتأذى كثيرًا من الروائح المتصاعدة من الزرائب، وهرج الحيوانات في الليل، ورائحة اللحم النيء الذي يوزعونه على الحيوانات، وزئيرها أثناء تناول الطعام. لكن لم تكن له حيلة في إيصال شكواه إلى الإدارة. في نهاية الأمر كان عليه أن يشكر الحيوانات على حشود الزائرين. قد يظهر بينهم من وقت لآخر من جاء خصيصًا

من أجله. ومن يدري ماذا سيفعلون لو أنه لفت الأنظار إلى نفسه، خاصةً وأنه يقف بالفعل عائقًا في الطريق المؤدي إلى الحيوانات.

هو يُشكِّل بالطبع عائقًا بسيطًا، يتضاءل مع الوقت. لقد اعتاد الناس على هذا الشيء الغريب، إلى درجة أنه قد يأتي أحدهم في الوقت الحالي ليُطالب بالالتفات إلى فنان الجوع. وبما أنهم اعتادوا عليه، فقد تم إصدار حُكم عليه. ليجوع كما شاء، وهو ما يفعله في الواقع، لكن لن يستطيع أي شيء إنقاذه. لم يلتفت إليه أحد.

حاولوا أن تشرحوا لأحدهم ما هو المقصود بفن الجوع! لا يمكنك أن تشرحه لمن لا يشعر به. أكلت القذارة الكتابات الجميلة على اللوحات، وصارت غير واضحة، وأزالوها، ولم يفكر أحد في أن يستبدلها بغيرها. لم يتغير لوقت طويل جدول الأيام التي جاع فيها، والذي كانوا في البداية يحرصون على تعديله كل يوم. فبعد مرور بضعة أسابيع صار هذا العمل البسيط يُرهق العمال. لهذا صار فنان الجوع يُواصل امتناعه عن الطعام كما كان يفعل أحيانًا في الماضي. كان يقدر عليه بدون أية مشقة كما توقع ذلك يومًا ما. لكن لم يكن هناك من يحصي له الأيام، لا أحد، ولا حتى فنان الجوع نفسه لم يكن يعرف كيف يبدو. بدأ يشعر بثقل حول قلبه.

وعندما مر به ذات مرة أحد المتسكعين، سخر من الرقم القديم، وراح يتحدث عن الاحتيال، لكنها كانت من هذه الناحية أغبى عملية احتيال نتيجة الإهمال، والشر الطبيعي. لأن من قام بالاحتيال لم يكن الفنان،

فهو كان يؤدي عمله بكل إخلاص، لكن العالم احتال عليه وحرمه من راتب شهر.

مرت عدة أيام، وبعدها انتهى الأمر. وذات يوم جاء أحد المشرفين فلاحظ القفص. سأل أحد العمال عن سبب تركهم لقفص كهذا في حالة جيدة صالحة للاستخدام وبه قش متعفن. لم يعرف أحد الإجابة، إلى أن انتبه أحدهم بفضل جدول إحصاء الأيام، وتذكر فنان الجوع. فنبشوا القش بالعصي، وعثروا على فنان الجوع في أسفله. سأله المشرف: «هل مازلت ممتنعًا عن الطعام؟ متى ستتوقف؟» همس فنان الجوع، وقال: «اعذروني جميعًا» الوحيد من بينهم الذي فهم ما قاله كان المشرف الذي اقترب بأذنه من الشِبَاك. قال المشرف: «بالطبع!»، ثم خبط بإصبعه على جبينه كي يُنَبِّه العمال إلى حالة الفنان، وقال: «لقد سامحناك»

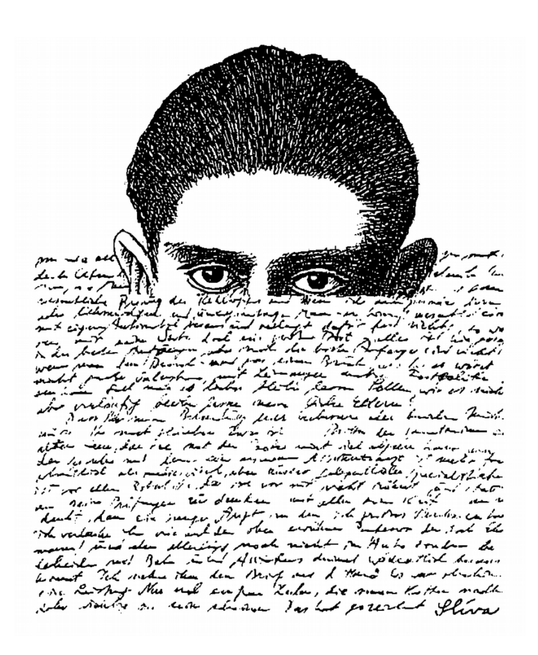
قال فنان الجوع: «كل ما أردته هو أن يعجبكم امتناعي عن الطعام» قال المشرف بدماثة: «لقد أعجبنا» قال فنان الجوع: «لكن ما كان يجب أن تعجبوا به» قال المشرف: «لماذا لا نعجب به؟» قال فنان الجوع: «لأني مجبر على الجوع، ولا أستطيع غير ذلك» قال المشرف: «شيء غريب! لماذا لا يمكنك فعل شيء آخر؟»

«لأني...»، قال فنان الجوع وهو يرفع رأسه الصغير قليلًا، وكانت شفتاه مضمومتين وكأنه سيُقبِّل أحدهم، وتحدث إلى المشرف في أذنه مباشرةً حتى لا تضيع منه الكلمات: «لأنني لم أعثر على الطعام الذي أشتهيه،

لو أني كنت عثرت عليه، صدقني، لما أحدثت ضجة، ولأكلت منه حتى أشبع مثلك ومثل الباقين» كانت هذه آخر كلماته. لكن نظراته الكسيرة كانت تنم عن قناعة ربما تخلو من الفخر، لكنها قناعة قوية بأنه سيواصل الجوع.

قال المشرف: «عليكم الاهتمام بتنظيف المكان» دفنوا فنان الجوع وسط القش، ووضعوا مكانه في القفص نمرًا مُرقطًا صغيرًا. راحت الأرواح البليدة تمتع نظرها ومشاعرها بمشاهدة هذا الحيوان البري الذي يتمرغ في قفص ظل مهجورًا لوقتٍ طويل. لم يكن يعوزه شيء. كان الحرَّاس يحملون له الطعام الذي يشتهيه دون أي تردد، وحتى حريته لم يفقدها، فهذا الجسد الممشوق، الممتلئ بكل ما يحتاجه وما يفيض عن حاجته يبدو وكأنه يحمل الحرية في داخله، وكأنها التصقت بعظامه. كانت متعته بالحياة تشع بقوة من فمه لدرجة يعجز الزائرون عن مقاومتها. لكنهم تغلبوا عليها، والتفوا حول القفص، ورفضوا أن يبرحوا أماكنهم.

أبحاث كلب[11]



كم تغيَّرت حياتي كثيرًا، لكنها لم تتغير تمامًا! فعندما أعود بذاكرتي للخلف، وأستدعي تلك الأوقات التي عشت خلالها في وطن الكلاب، أشترك في كل همومه ككلب وسط الكلاب، أكتشف بنظرة متأملة أن هناك منذ البداية شيئًا غير مستقيم. ثمّة نقطة غامضة، مثل ضيق خفيف حَلَّ بي وأنا وسط أكثر احتفالات البشرية فخامة، حتى في دائرة أصدقائي الضيقة. لم يحدث هذا بشكل مُتقطع، بل بصورةٍ متواصلة

11في عام 1923 تَعَرَّف «كافكا» على «دورا ديامنت» التي ظلت بجواره حتى وفاته. كانت سيدة نشيطة ومُفعمة بالحيوية. كان «كافكا» يستمد منها نشاطه وحماسه للكتابة. كما كانت السيدة الوحيدة التي عاش معها «كافكا» بعد فشله في كل علاقاته السابقة بالنساء. كان يُرَحِّب بجلوسها إلى جواره وهو يكتب. وفي عام 1923 كتب قصتي: «أبحاث كلب» و«العرين».

ومتكررة. فنظرة على أحد أصدقائي المقربين من الكلاب، محض نظـرة جديدة كانت تُصيبني بالارتبـاك، والـرعب، والضـعف، واليـأس أيضًـا. حـاولتُ أن أشـجع نفسـي قليلًا. سـاعدني في ذلـك أصـدقائي الـذين تحـدثت معهم. مـرت بعـد ذلـك فـترة أكـثر هـدوءًا. فـترة لم تخـل من مفاجآت مماثلة. لكني تقبلتها بكثير من الهدوء. ربما سـببت لي الحـزن والإرهاق، لكنها بصفةٍ عامةٍ لم تُغَيِّر من الأمر كثيرًا.

صحيح أني أصبحتُ باردًا قليلًا، ومُتحفظًا، وهائبًا، وأنانيًّا، لكـني بقيتُ على الأقل كلبًا طبيعيًّا. تمنيتُ أن أصل إلى سن الشيخوخة، تلـك السـن التي تمنيت كثيراً بلوغها، بدون وقفات الاستراحة تلك. كيـف يمكنـني أن أملك مثل هذا الهدوء كي أواجه الكـوارث في شـبابي، وأتحملهـا في شيخوختي؟ كيف لي أن أستخلص نتـائج من طبيعـتي البائسـة أعـترف أنها كذلك أو لنقل بتعبير أكثر حرصًا غير السعيدة إلى حد كبير. كيف لي أن أعيش متوافقًا تمامًا مع هذه الطبيعة؟ أنـا أعيش مُنعـزلًا، وحيـدًا، مُنشغلًا فقط بأبحاثي الصغيرة مُنقطعة الأمل، التي رغم ذلك لا غنى لي عنها. لكنها لا تمنعني من متابعة ما يحدث في وطني عن بُعـد. إذ كثـيرًا مـا تـأتيني أخبـاره، وأطمئنهم على نفسـي من وقت لآخـر. فجميعهم يتعاملون معي بكـل احـترام. هم لا يفهمـون طريقـتي في الحيـاة، لكنهم رغم ذلك لا يُعَكِّرون عليّ صفوها.

فحتى الكلاب الصغيرة التي أراها عن بُعد من وقتٍ لآخر وهي تمـر من هنا الجيل الجديد الذي أتذكر طفولته بصورة مُشَوَّشـة لا تحرمـني من تحية احترام.

مهما حدث يجب الأخذ في الاعتبار أني رغم الأمور الغريبة التي أقوم بها، وهي واضحة، لم أفسد تمامًا. إن شعب الكلاب في الواقع، وبما أني أتحدث في هذه القضية، ولدي الكثير من الوقت والرغبة والقدرة على ذلك، شعب مُنَظَّم على نحوٍ غريب. فبالإضافة إلينا نحن الكلاب تعيش أيضًا مخلوقات أخرى بائسة، وتافهة، وخرساء، لا تفعل شيئًا سوى إطلاق صرخات معينة. كثير من الكلاب عندنا تقوم بدراستها. تطلق عليها أسماءً، وتحاول أن تساعدها، وتربيها، وترتقي بها، إلخ. إنها كائنات ليست على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لنا، فأنا لا أكاد أراها، وأتجاهلها طالما لم تحاول إزعاجي. لكن هناك شيء واضح، لا يمكنني تجاوزه، وهو أنها على العكس منا نحن الكلاب، غير مُترابطة، تسير حول بعضها، واجمة، غريبة عن بعضها، ويحمل كل منها للآخر ضغينة. الشيء الوحيد الذي يربطها ظاهريًا ببعضها إلى حد ما هو المصلحة التافهة. حتى هذه المصلحة لا تؤدي إلا إلى ضغينة وصراع. أما نحن الكلاب! فيمكننا أن نقول بكل بساطة إننا نعيش جميعًا في جماعة متحدة، وحيدة ومترابطة. وكلنا، رغم اختلافاتنا العميقة والكثيرة التي تراكمت مع الوقت، نعيش في تلاحم! في رباط يجمعنا، ولا يمكن لأي شيء أن يمنعنا من الحفاظ على هذا التلاحم. إن كل قوانيننا التي لا أعرف منها إلا القليل، ونسيتُ منها الكثير تدعم تلك الرغبة في تحقيق أقصى قدر من السعادة والتضامن الحميم. لكن من ناحية أخرى هناك الكثير من التناقض. إذ لا يوجد على حد علمي مخلوق آخر يعيش مشتتًا مثلنا نحن الكلاب. فلا توجد مثل تلك

الاختلافات العديدة والمربكة في الطبقات والأنواع والوظائف كتلك التي توجد بيننا نحن الكلاب التي ترغب في حياة متناغمة ومتحدة. ورغم كل هذا نُوفق في تحقيقها من وقتٍ لآخر، خاصةً في لحظات التوتر. نحن نعيش في عزلة عميقة، ونقوم بوظائف غريبة، غالبًا ما تبدو غير مفهومة حتى لأكثر الكلاب ترابطًا.

نعيش مُكبلين بتعليمات؛ ليست من تعليمات شعب الكلاب، بل هي موجهة ضده. يا لها من قضايا شائكة، قضايا لا أحب الحديث عنها. أنا أتفهم هذا الأمر، أتفهمه أكثر من غيري من أبناء عشيرتي، لكنها قضايا فشلت فيها بكل صراحة. لماذا لا أمارس الحياة مثل غيري، لماذا لا أعيش متوافقًا مع شعبي، لماذا لا أتقبل ما يُعَكِّر صفو هذا التوحد في صمت، لماذا لا أعتبره مجرد خطأ بسيط في كيان كبير، لماذا لا أبحث عمَّا يربطنا بشكل إيجابي، بدلًا من أن أبحث باستمرار عما ينتزعني قسرًا من أحضان الوطن؟

مازلت أتذكر حادثة من أيام الشباب. كنتُ أعيش وقتها في حالة من حالات النشوة الهانئة التي لا أجد لها تفسيرًا، وربما عاشها كل طفل. كنت وقتها لا أزال جروًا صغيرًا. كان الجميع يحبونني، وكان الاهتمام مُنصبًا عليّ. اعتقدتُ أن أشياءَ عظيمةً تحدث من حولي، وأنا السبب فيها، أشياء يجب أن أمنحها صوتي، ويجب أن تبقى مُلقاة على الأرض طالما لم أصل إليها، وأنزلق نحوها بكل جسمي. إنها ببساطة أوهام الطفولة التي تلاشت مع مرور السنين. لكنها حينئذٍ كانت قوية بالطبع.

وآمنتُ بها تمامًا، لكن حدث لاحقًا شيء غير عادي، شيء بَـرَّرَ على مـا يبدو ترقبي الكبير له. لم يكن في حد ذاته شـيئًا غـير عـادي، فقـد رأيتُ الكثير من تلك الأشياء غير العاديـة فيمـا بعـد. لكنـه تـرك في نفسـي في ذلـك الـوقت ولأول مـرة انطباعًـا قويًّا لا يمكن نسـيانه. وكـان انطباعًـا حاسـمًا بالنسـبة للآخـرين. إذ التقيتُ ببسـاطة بمجموعـة صـغيرة من الكلاب. في الواقـع أنـا لم ألتـق بهـا، بـل هي الـتي جـاءت نحـوي. فقـد جريتُ يومها طويلًا في ظلام الليل على أمل حدوث أشـياء كبـيرة لكنـه كان أملًا خادعًا. أمل كان يراودني كثيرًا، فجريتُ طويلًا وسـط الظلام، هنـا وهنـاك، لا أرى ولا أسـمع شـيئًا، تُسـيطر عليّ فقـط تلـك الرغبـة الغامضة. وفجأةً توقفتُ.

انتـابني شـعور بـأني أقـف في المكـان الصـحيح. تطلعتُ حـولي فـرأيت ضوء النهار ساطعًا، مُفعمًا ببعض الرطوبة، وانتشرت فيـه روائح مُسْكِرة ونَفَّاذة في كل مكان.

ألقيتُ التحية على الصباح بأصوات جنونيـة. وهنـا وكـأنني اسـتدعيتهم خرجَت إلى النـور من أحـد الأركـان المظلمـة سـبعة كلاب وهي تصـدر صوتًا مُخيفًا، لم أسمع مثله من قبل. ولـولا أني كنت أعـرف جيـدًا أنهـا كلاب، وأنهم هم من أصدر ذلك الصوت، لهربت على الفـور، رغم أني لم أعـرف كيـف اسـتطاعوا أن يصـدروا صـوتًا كهـذا. لـذلك بقيت في مكاني. لم أعـرف في ذلـك الـوقت أي شـيء بعـد عن الموهبـة الخاصـة بالموسيقى الـتي يحظى بهـا جنس الكلاب. تـاهت مـني هـذه المعلومـة نظـرًا لأن قـدراتي على الملاحظـة كـانت لا تـزال في طـور النمـو. كنت

مُحَاطًا بالموسيقى منذ نعومة أظافري باعتبارها عنصرًا أساسيًّا وبديهيًّا للحياة. لم يُجبرني شيء على فصلها عن حياتي. انتبهتُ إليها من خلال التلميحات التي كانت تتناسب مع سني كطفل. لذلك أدهشني جدًا وهالني صوت هؤلاء العازفين السبعة الكبار. لم يتكلموا، ولم يغنوا، بل صمتوا بكل إصرار، غير أن الموسيقى انطلقت من الفضاء الخالي. كان كل شيء عبارة عن موسيقى، وهم يرفعون قوائمهم ويضعونها على الأرض، وهم يُديرون رؤوسهم بطريقةٍ معينة، وهم يهرولون ويستريحون، وهم يقفون متجاورين، وهم يتصلون ببعضهم على طريقة الرقص في دائرة، عندما يتكيء أحدهم بقدميه على ظهر الآخر، في حين يصطف الآخرون بحيث ينتصب أولهم ليحمل ثقل الآخرين، أو عندما يتهادون بأجسادهم على الأرض ليصنعوا أشكالًا متداخلة دون أن يُخطئ أحد منهم. ولا حتى آخرهم الذي لم يكن واثقًا تمامًا من حركته، ولم يتناغم مع حركة الآخرين، وكان أحيانًا يخطيء الحركة الدقيقة على أنغام الموسيقى، ومع ذلك كان مُرتبكًا فقط في اصطفافه مع حركة الآخرين الواثقة والرائعة. لم يكن بإمكانه أن يُفسِد شيئًا حتى وهو بهذا الارتباك الكبير والصارخ أحيانًا. لأن الآخرين، وهذا ما يقوله المتخصصون، كانوا متماسكين بصورة صارمة. لكنهم وأثناء ذلك بدوا غير مرئيين، كانوا جميعًا غير مرئيين تقريبًا. ثم ظهروا، حييتهم في نفسي بصفتهم كلابًا. كنت مضطربًا من الضجيج الذي صاحبهم، لكنهم في النهاية كلاب، كلاب مثلي ومثلك. كنت أراقبهم بحكم العادة، أراقبهم ككلاب تقابلهم في الطريق، وأردتُ أن أقترب منهم،

وأتبادل معهم التحية. لكنهم كانوا أيضًا قريبين مني. كانوا كلاباً، ربما أكبر مني سنًا، وليسوا من النوع نفسه ذي الشعر الطويل المتعرج. لكنهم لم يكونوا أغرابًا عني تمامًا، خاصةً فيما يتعلق بالحجم والبنية. ربما قلت إنها كلاب قريبة مني. لقد عرفت الكثير مثلهم أو مما يشبههم. وبينما كنت غارقًا في هذه الأفكار، ارتفع صوت الموسيقى، وهز كياني. انفصلتُ عن تلك الكلاب الصغيرة، ولم أستطع رغمًا عني وأنا أقاوم وأعوي وكأن الموسيقى سببت لي ألمًا أن أهتم بشيء آخر غير هذه الموسيقى القادمة من كل جهة، من أعلى ومن أسفل، من كل مكان لتستولي عليّ تمامًا، وتجعلني أغرق فيها، موسيقى تسحقني. كانت جعجعتها صارخة من تلك المسافة القريبة، ثم ابتعدت، حتى أصبحتُ بالكاد أسمعها. بعدها تحررتُ من جديد، فقد تملكني التعب، والإرهاق، والوهن، فلم أتمكن من مواصلة الاستماع إليها. تحررتُ، ثم بدأت أنظر إلى مسيرة الكلاب السبعة الصغار، وإلى قفزاتهم. أردتُ أن أنادي عليهم، على الرغم من نفورهم مني، أردتُ أن أسألهم النصيحة، وأن أسألهم عما يفعلونه هنا. كنت ما أزال جروًا، واعتقدتُ أنه بالإمكان أن أسأل أي أحد في أي وقت. لكني بمجرد أن قمتُ بأول حركة بدأت أشعر براحة وطمأنينة كلب اتصل للتو بهؤلاء السبعة. عادت الموسيقى من جديد. أصابتني بالجنون، استدرت معها في الدائرة وكأنني واحد من هؤلاء الموسيقيين. ورغم أني كنت مجرد ضحية لهم فقد حملتني الموسيقى هنا وهناك، ولم تفلح توسلاتي. إلى أن أنقذتني هي نفسها رغمًا عني، فألقتني في إحدى أكوام الخشب التي

تراكمت في تلك المنطقة هنا وهناك. ودون أن أدري أمسكتْ بي بقـوة، ودكتْ رأسي في الأرض.

لم يتوقـف هـدير الموسـيقى في الفضـاء، إلا أنهـا أتـاحت لي فرصـة للاسـترخاء قليلًا. الحقيقـة أن مـا أدهشـني أكـثر من الفن الـذي يقدمـه هؤلاء الكلاب السبعة وكان بالنسبة لي غير مفهومًا، ومُسـتغلقًا، وفـوق قـدراتي هي جـرأتهم على تعـريض أنفسـهم تمامًـا وبكـل قـوة لتلـك الموسيقى. كانت قوتهم تتحمل كل هـذا، ولم يُصـب أحـد منهم بكسـر في عمـوده الفقـري. وجـدتُ من خلال ملاحظـتي الدقيقـة من مخبـأي أنهم لا يعملون بهدوء، بل بتوتر كبير. كانت أقدامهم المتحركـة بـالطبع ترتجف عند كـل حركـة، وتصـنع تشـنجات مضـطربة. كـانت أقـدامهم تهـتز بصـعوبة. ينظـر كـل منهم للآخـر بقنـوط، ألسـنتهم مُلجمـة على الـدوام، ثم سـرعان مـا تسـترخي بتـأثير الموسـيقى. مـا الـذي أشـعل حماسهم إلى هذا الحد؟ ألا يمكن أن يكون الحرص على نجـاح الأمـر؟ لكن من يجرؤ على القيام بعمل كهذا، من يقـوم بشـيء كهـذا لا يمكنـه أن يخاف لمـاذا الخـوف إذن؟ من أجـبرهم على فعـل مـا فعلـوه. ومـاذا كانوا يفعلون هنـا؟ لم أسـتطع أن أتحمـل، وخاصـةً الآن بعـدما ظهـر لي أنهم عـاجزون بصـورة لا تُصـدق. بـدأت أصـيح بصـوتٍ عـالٍ، وأطـرح أسـئلتي المزعجـة وسـط هـذا الضـجيج. لكنهم أمـر لا يُصـدق! أمـر لا يُصدق! لم يجيبوني، وتظاهروا كـأنّي غـير موجـود. كلاب لا تـرد على نداء كلب! إنها خطيئة تُخَالِف كـل مبـاديء الأخلاق، خطيئـة لا تُغتفـر بأي حال من الأحوال لو ارتكبها أي كلب، كبيرًا كان أو صغيرًا.

أليسوا هؤلاء كلابًا؟ لكن كيف لا يكونون كلابًا وأنا أسمع صيحات مكتومة بينما أنصت إليهم. إنها صيحات تمنحهم المزيد من الجرأة، وتنبههم إلى المناطق الصعبة.

إنها أصوات يستعملونها عند التحذير من الوقوع في الخطأ. أنا أرى هذا الأخير وأصغرهم، وأرى تأثير الأصوات عليه. أراه وهو يرمقني خفية وكأنه يسعى جاهدًا أن يجيبني، لكنه يتمالك نفسه في كل مرة لأن هذا ممنوع. لكن لماذا هو ممنوع، لماذا كانوا يمنعون ما تُطالب به قوانيننا دائمًا وبلا حدود؟ أزعجني أن أرى ما يحدث، فنسيت الموسيقى تقريبًا. إن هؤلاء الكلاب هنا ينتهكون القانون. ورغم أنهم قد يكونون سَحَرَةً، لكن حتى السحرة ينطبق عليهم أيضًا القانون. كان هذا أمرًا واضحًا كالشمس لطفل مثلي. رأيت المزيد من أفعالهم من مكاني هذا. كان لديهم بالفعل سبب يمنعهم من الكلام لو اعتبرنا أنهم امتنعوا عن الكلام لشعورهم بالذنب.

لكن ما هذا التصرف! أنا لم ألحظ شيئًا كهذا حتى الآن فيما يتعلق بالموسيقى. لقد خلعوا بُرقع الحياء. هؤلاء المساكين يفعلون هنا ما هو أكثر إسفافًا وأكثر مدعاةً للخجل، إنهم يمشون على قوائمهم الخلفية. ما هذا القرف! يتعرّون ويتباهون بعريهم: يجدون فيه المتعة، وعندما يستمعون إلى ضمائرهم الحية للحظة ويقفون على قوائمهم الأمامية يهربون فورًا وكأنهم ارتكبوا خطأً، وكأن الطبيعة صارت خطأً. ثم يرفعون أرجلهم على الفور، وتعلو وجوههم نظرات كأنهم يطلبون المغفرة، لأنهم اضطروا إلى التوقف عن سلوكهم المعيب. هل انقلب

العـالم رأسًـا على عقب؟ أين نحن الآن؟ مـاذا حـدث؟ لم أتـردد لحظـة بـدافع من الحفـاظ على الـذات، نهضـتُ من وسـط الأخشـاب الـتي أحـاطتني، وقفـزتُ منهـا إلى الخـارج حـتى أصـل إلى هـؤلاء الكلاب. وتحولتُ أنا التلميـذ الصـغير إلى مـدرس. كـان يجب أن أشـرح لهم مـا يفعلونه. كـان يجب أن أمنعهم من ارتكـاب المزيـد من الخطايـا. رحتُ أقـول لنفسـي، وأكـرر: «أنتم كلاب كبـار، أنتم كلاب كبـار!» ومـا إن تحررت ولم يعد يفصلني عن الكلاب سوى ثلاث خطوات حتى انطلق الضـجيج من جديـد. ربمـا تحملته هـو أيضًـا، فقـد صـرتُ أعرفـه لـولا النغمة المستمرة الدائمة التي تصدر باستمرار من بعيـد. نغمـة مخيفـة لا يمكن مقاومتهـا جـاءت وسـط طوفـان الضـجيج. ربمـا كـانت لحنًـا مـا وسط الضجيج، جعلتني أسقط على ركبتي. يا لها من موسـيقى سـاحرة تعزفهـا تلـك الكلاب! لم أسـتطع المواصـلة. فقـدتُ الرغبـة في سـماع موسـيقاهم. فليمـدوا أرجلهم كيفمـا شـاءوا، ولـيرتكبوا من الخطايـا مـا شاءوا! وليغرروا بغيرهم لارتكاب ذنب من مجرد النظر الصـامت إليهم! أنـا مـازلت جـروًا صـغيرًا، من ذا الـذي يطلب مـني شـيئًا صـعبًا كهـذا؟ تظـاهرتُ بـأني أصـغر ممـا أنـا عليـه، ورحتُ أعـوي. لـو سـألتني تلـك الكلاب عن رأيي فيمـا أراه لأخـبرتهم بالحقيقـة. لكن سـرعان مـا تغيَّـر الأمـر، واختفت الكلاب وكـل مـا صـاحبهم من ضـجيج وضـوء وسـط الظلام الذي جاءوا منه.

كما قلتُ من قبـل: لم يكن هنـاك شـيء غـير عـادي في كـل مـا حـدث. فهناك أشياء كثيرة تحدث لنا خلال كل هـذا العمـر، وهي أشـياء بعيـدًا

عن السياق وبعيون طفل أكثر غرابة من هذه الحادثة. لكن بالطبع يجب كما يُقَال «الثرثرة» حولها شأن كل شيء. ثم يتضح بعد ذلك أن سبعة كلاب اجتمعوا هنا في هدوء الصباح لكي يغنوا، وانضم إليهم جرو صغير، مستمع متطفل، حاولوا للأسف دون جدوى أن يستفزوه بموسيقى فخمة أو مخيفة. فقاطعهم بأسئلته. كيف لا يزعجهم مجرد وجود أجنبي بينهم، هل كان يعوزهم التفاعل مع هذا الإزعاج، وجعل الأمور أسوأ مما هي عليه بالرد على أسئلته؟ حتى وإن كان القانون يلزمنا بالإجابة على كل من يسأل، فإن هذا ليس سوى جرو صغير متسكع، هل يستحق أن نعتبره سائلًا أصلًا؟ ربما لم يفهموا ما قاله، أو أنهم أجابوه، لكن هذا القزم غير المعتاد على الموسيقى لم يفرق بين الإجابة والموسيقى. وفيما يتعلق بالأرجل الخلفية، ربما مشوا عليها بشكل استثنائي. إنها خطيئة، طبعًا هي كذلك! لكنهم كانوا وحدهم، أصدقاء وسط أصدقاءِهم، في لقاء خاص، شيء مثل لقاءهم بين أربعة جدران، يمكن اعتباره بطريقة ما لقاءً مُنفردًا. فالأصدقاء ليسوا من العامة.

واللقاء غير المخصص للعامة لا يجب أن يظهر فيه كلب فضولي ومُتسكع، خاصةً في هذه الحالة. ألا يبدو الأمر وكأن شيئًا لم يحدث؟ ليس كذلك تمامًا، لكن يكاد يكون كذلك. وعلى الآباء ألا يتركوا أولادهم يسيرون في الشوارع كثيرًا، ويجب أن يعلموهم الصمت واحترام الكبير.

بما أننا وصلنا إلى هذه النقطة، فهذه القضية إذن تُعتبر مُنتهية. لكن الشيء المنتهي بالنسبة للكبار ليس كذلك بالنسبة للصغار. كنتُ أمشي في كل مكان، أحكي وأسأل، وأنوح وأستجوب الآخرين، وأذهب إلى المكان الذي وقعت فيه الحادثة، وأشير لمن أريد إلى المكان الذي كنتُ أقف فيه، والمكان الذي كانت الكلاب السبعة تقف فيه، وأين وكيف رقصوا وعزفوا الموسيقى. ولو ذهب أحد إلى هناك معي بدلًا من أن يدفعني للذهاب وحدي ويقف يسخر مني؛ لضحيتُ ببراءتي، ولوقفتُ على قدمي الخلفيتين فقط لأشرح له الموقف بكل دقة. إن الأطفال يُلامون على كل شيء، لكن يُغْفَر لهم أيضًا كل شيء في النهاية. غير أنني حافظتُ على هذه الطبيعة الطفولية، إضافة إلى أنني أصبحت كلبًا عجوزًا. غير أنني وقتها لم أتوقف عن الحديث علنًا عمَّا جرى هناك. وهي حادثة لا أضع لها اليوم وزنًا كبيرًا. ولم أتوقف وقتها عن وصف ما حدث بكل تفاصيله، وأقارنه بالواقع بغض النظر عن المجتمع الذي كنتُ أعيش فيه وقتها، وأحلل باستمرار تلك المسألة التي أزعجتني كثيرًا كما أزعجت الآخرين، الذين هم في الواقع أنا نفسي وكان ذلك هو الفارق لذلك أردتُ من خلال بحثي أن أنسلخ عن العالم حتى تتحرر رؤيتي أخيرًا لبناء حياة يومية عادية، وهادئة، وسعيدة. تمامًا كما فعلت وقتها، رغم أنني أستعمل الآن وسائل لا تخلو من الطفولية وفي هذا لا يوجد فرق كبير فعلتُ هذا أيضًا في الأوقات التالية، وأواصل البحث اليوم بالطريقة نفسها.

بدأ كل شيء بذلك الحفل الموسيقي. أنا لا أشكو ممَّا حدث. فهنا تغلب عليّ طبيعتي التي لولا ذلك الحفل الموسيقي لبحثت عن فرصة أخرى تناسب طبيعتي تلك.

غير أن تلك الحادثة وقعت في وقتٍ مبكرٍ من حياتي. كنتُ أشعر أحيانًا بالأسف على ما حدث، وهو ما حرمني من جزء مهم من طفولتي، ومن حياةٍ هانئةٍ لجرو صغير، يمكن لأيٍّ من كان أن يُطيل تلك السنوات، لكن سنوات الطفولة تلك لم تستمر سوى بضعة أشهر. على أي حال هناك أمور أهم بكثير من الطفولة. وربما في سن الشيخوخة تتراءى لي الكثير من لحظات الطفولة السعيدة، التي تطلبت عملًا شاقًا فوق طاقة أي طفل عادي. لكن هذه الطاقة ستظل عندي.

بدأت أبحاثي حينئذٍ في أشياء بسيطة للغاية. لم تكن تنقصني وقتها المواد اللازمة للأسف، على العكس، كان الفائض فيها يبعث في نفسي اليأس عندما يشتد بي الحزن. بدأت بالوسيلة التي توفر بها الكلاب قوت يومها. إنها بالطبع لو تحققت ليست مسألة بسيطة على الإطلاق. فنحن نقوم على هذا الأمر منذ نعومة أظافرنا. إنها القضية الرئيسية التي نفكر فيها. هناك ملاحظات غير محدودة، ومحاولات وآراء في هذا المجال. أسفر كل ذلك عن علم كامل يتجاوز باتساعه الهائل أفكار مُتعلم واحد، وربما أفكار المتعلمين جميعًا. لا يحمله أحد سوى جنس الكلاب بشكل جماعي، وحتى هذا يتم بصعوبة وبصورة غير مكتملة. شيوخ هذا العلم الذين يمتلكون ثروة من المعلومات منذ القدم صاروا يتهاوون، وأصبح من الصعب إضافة شيء جديد إليه. فما

بالك بالمصاعب والافتراضات التي تتحقق بصعوبة من خلال أبحـاثي. ربما يأخذ البعض هـذا الأمـر ليُوَجِّه لي اللـوم. أنـا على علم كامـل بكـل هذا، أكثر من أي كلب عاديّ آخـر. أنـا لا أنـوي إقحـام نفسـي في علـوم حقيقيـة. أتعامـل معهـا بكـل الاحـترام الـواجب، لكنـني لكي أطـور هـذه النظريـات تنقصـني المعرفـة، والمثـابرة، والهـدوء وأخـيرًا وليس آخـرًا وخاصـةً في السـنوات الأخـيرة الشـهية. أنـا أبلـع الطعـام، لكن لا أجهـد نفسي في أن أتأمل فيـه مُسبقًا وبطريقـة سـليمة وزراعيـة. أنـا أكتفي من هذه الناحية بما أستخلصه من كل العلوم، أكتفي بالقاعدة البسيطة الـتي تفطم بهـا الأم أطفالهـا الصـغار، وتُبعـدهم عن ثـدييها ليبـدؤوا الحيـاة: اذهب! وبلل كل ما يقابلك» ألا يحمل هذا في طياته بالفعل كـل شـيء تقريبًا؟ ما الشيء المهم الذي أضافته كل الأبحـاث الـتي بـدأها أجـدادنا إلى هذه العلوم؟ تفاصيل، مجرد تفاصيل وهي أمور غـير مؤكـدة: لكن هذه القاعدة مازالت سارية ما دمنا أحياء، نحن الكلاب. إن الأمر يتعلـق بطعامنا الرئيسي: الحقيقة أن لدينا وسائل مساعدة أخرى. وعندما تسوء الأحـوال، ويكـون طعـام السـنة سـيئًا يمكننـا أن نعيش على هـذا الطعـام الرئيسي. هذا الطعام الرئيسي نعثر عليه في الأرض، لكن الأرض تحتاج إلى مياهنا، إنها تعيش عليها، ومقابل هذا تعطينا ما نحتاجـه من طعـام. يمكننا تسريع نمو هذا الطعـام لا يجب أن ننسى هـذا الأمـر من خلال مقولات معينة، وعن طريق الغناء والحركة. هذا على ما أعتقـد هـو كـل شيء. ولا يمكنني أن أُضيف شيئًا آخر من هذه الناحيـة. ويتفـق معي في كل هذا الأغلبية العظمى من جنس الكلاب، ولا أقبـل على الإطلاق أيـة

هرطقة في هذا الموضوع. الأمر بالنسبة لي لا يتعلق بشيء غير اعتيادي، فأنا لا أتناول الأمور على نحو شخصي. أنا كلب سعيد. أعيش في تناغم تام مع أبناء عشيرتي. لكن مشاريعي الخاصة تأخذ منحىً آخر تمامًا. أرى منذ الوهلة الأولى أن الأرض تعطي الغذاء طالما تم حرثها وريها بناء على قواعد علمية. عندها يكون الغذاء جيداً ووفيرًا وفي كل مكان، وفي أي وقت، تمامًا كما تقول القوانين التي تكون متوافقة جزئيًّا أو كليًّا مع العلوم. أنا أتقبل هذا، لكن سؤالي هو: «من أين تأتي الأرض بهذا الغذاء؟» إنه سؤال غالبًا ما يتظاهر الجميع أنهم لا يفهمونه، وفي أفضل الأحوال يجيبونني قائلين: «إن لم يكن لديك ما تأكله نعطك مما لدينا» انظر إلى هذه الإجابة. أنا أعرف جيداً أنه ليس من أولويات جنس الكلاب أن نقوم بتقسيم الغذاء الذي نحصل عليه يومًا ما فيما بيننا. الحياة صعبة، والأرض لا تجود إلا بما هو ضروري. العلوم غنية فقط بالمعلومات، لكنها فقيرة تمامًا في نتائجها العملية. ومن لديه طعام يحتفظ به لنفسه. إنها ليست أنانية، بل على العكس تمامًا، إنه القانون. إنه قرار حاسم من شعب جاء نتيجة تخطيه الأنانية، فأعداد أصحاب الأملاك قليلة. لذلك فإن الإجابة «إن لم يكن لديك ما تأكله نعطك مما لدينا» هي من العبارات المستخدمة على سبيل المزحة أو السخرية. هذا أمر أضعه دائمًا في اعتباري. لكن أكثر ما يهمني هو عندما تجولت يومها في العالم وأنا أحمل معي أسئلتي، لم يجعل مني أحد مادة للسخرية. صحيح أن أحداً لم يُقَدِّم لي الطعام ومن أين له بمثل هذا الطعام ، ولو سمع صوتًا ما صدفة، فإن شدة الجوع تجعله ينسى على

الفور كل الاعتبارات الأخرى؛ حيث إن عرض الطعام يكون جادًا، وبذلك أحصل من هنا أو من هناك على شيء ولو بسيط. يجب أن أكون سريعًا كي ألتهمها.

لماذا تصرفوا معي بهذا الشكل، وأطعموني، ومنحوني عطفهم؟ هل لأنني كنتُ نحيفًا. هل لأنني كنتُ كلبًا ضعيفًا وسيئ التغذية، ولا أهتم كثيرًا بقضية الطعام؟

لكن هناك الكثير من الكلاب النحيفة تتحرك هنا وهناك، وغالبًا ما تظهر لهم بعض الأطعمة البسيطة أمام أنوفهم فيلتهمونها. ليس من باب الشراهة بالطعام، لكنها في الغالب مسألة مبدأ. ببساطة أطعموني. لا يمكنني أن أسهب في الحديث عن الموضوع. فقط ترك عندي انطباعًا معينًا. هل كان هذا بفضل أسئلتي، هل سببت لهم نوعًا من السعادة، فاعتبروها أسئلة ذكية؟ كلا، لم تسبب لهم أي نوع من السعادة، ورآها الجميع أسئلة غبية. لكنها رغم ذلك أسئلتي وحدها هي التي لفتت أنظارهم إليّ. يبدو أن الآخرين فضّلوا أن يقوموا بسد فمي بالطعام لم يفعلوا شيئًا بالطبع، لكن ربما أرادوا ذلك، بدلًا من أن يتحملوا أسئلتي. وحتى هذا لم يرغبوا فيه، لم يرغبوا في الاستماع إلى أسئلتي، لكن بسبب تلك الأسئلة لم يطردوني. ورغم أنهم سخروا مني، ورغم أنهم تعاملوا معي على أني حيوان صغير غبي، ورغم أنهم كانوا يدفعونني هنا وهناك. لقد كانت أيامًا، كنت وقتها أسعى إلى تحقيق أقصى درجات الجدية. ولم يتكرر شيء كهذا فيما بعد. كنت أدخل إلى كل الأماكن. لم يمنعني أحد. كنتُ أشعر بالتملق تحت ستار التعامل الخشن. كل

هـذا كـان بفضـل أسـئلتي، بفضـل تململي وفضـولي. هـل حـاولوا استرضائي، وقاموا بإبعادي عن الطريق الخطأ دون عنف، وبكل الحب. هل أرادوا أن يُبعدوني عن الطريـق الـذي كـان محـل شـك إلى درجـة لا تسمح باستعمال العنـف؟ بالتأكيـد مـا منعهم من اسـتعمال العنـف هـو نوع من الاحترام. ظننت وقتها أن الأمر كذلك. أمَّا اليوم فأنا واثق تمامًـا من أنـه كـان كـذلك بالفعـل. أكـثر ثقـة من أولئـك الـذين تعـاملوا معي وقتها. هذه هي الحقيقة، أرادوا أن يثنوني عن طريقي. لكنهم فشـلوا. مـا حدث كان عكس ذلـك، فقـد زادوا اهتمـامي بـه. وأدركتُ أيضًـا أن من يريد أن يثني أحدًا عن طريقه هو أنـا وليس هم. وأعتقـد أنـني وُفّقت في هـذا في الحقيقـة. بـدأت أفهم أسـئلتي بمسـاعدة جنس الكلاب. عنـدما سـألتهم على سـبيل المثـال: من أين تحصـل الأرض على الغـذاء هـل كنت أقصـد كمـا فهمـوا الأرض نفسـها، أم وظيفـة الأرض؟ لا يهم، لم تكن هذه المسألة تعنيني كثيرًا، وهذا ما تأكدتُ منه سريعًا. كل ما كـان يهمني هي الكلاب، وليس شيئًا آخر. هل يوجد ما هو أهم من الكلاب؟ ومَنْ غيرهم يمكنـني مُخَاطبتـه في هـذا العـالم الواسـع الخـالي؟ إن كـل المعارف، وكل الأسئلة، وكل الإجابات تجدها عند الكلاب. ليت هـذه المعارف تجد طريقها لتكون فاعلة، ليتها تجد طريقهـا إلى نـور العـالم، ليت الكلاب تجيد أشياء أخرى غير الاعتراف بنفسها! إن أكـثر الكلاب ثرثرة مُنغلـق على نفسـه أكـثر من أمـاكن تواجـد أفضـل الأطعمـة. كلب يتسـلل حـول كلب آخـر من أبنـاء جنسـه، ثم يثب بـدافع من رغبتـه الخاصة، ويضرب بذيله ويسأل، ويطلب، ويعـوي، ويعض، ثم يحصـل

على ما قد يحصل عليه دون أي مجهود: يجد من يستمع إليه بكل الحب، ويحصل على لمسات ترحيب، وتنهد يتسم بالاحترام، وأحضان حارة. يصبح عوائي وعواءك شيئًا واحدًا، ستجد كل شيء هنا، النشوة والنسيان والعودة. لكن الشيء الوحيد الذي سعيتُ إلى الوصول إليه هو المعرفة. المعرفة هي الشيء الوحيد الذي لم أحصل عليه. كانوا في أفضل الأحوال يجيبونني، سواء بالصمت أو بصوتٍ عالٍ، بسحنةٍ بليدةٍ، وبنظرةٍ من طرف أعينهم، وعيون تائهة وكدرة. لا يختلف كثيرًا عما رأيته وأنا طفل حين ناديتُ على الكلاب التي كانت تعزف الموسيقى، وكان ردها الصمت.

يمكن أن يقول لي أحد الآن: «أنت تشكو من أبناء عشيرتك الكلاب، تشكو من صمتهم في الأمور المهمة. تؤكد أنهم يعرفون أكثر مما يعلنون، وأكثر مما يفعلون به في حياتهم. تقول إن هذا الكتمان الذي لا يتحدثون أيضًا عن أسبابه ولا عن سره، يفسد حياتك كما تعتقد، ويجعلها غير مُحتملة. تود على يبدو أن تُغَيِّره أو تتخلى عنه. حسنًا، ربما أنت مُحق، لكنك أنت نفسك كلب أيضًا، لك نفس معارف الكلاب، قلها إذن، ليس فقط في صورة أسئلة، لكن في صورة إجابة. من سيمنعك لو قلت الحقيقة؟ سيسقط جنس الكلاب فورًا، وكأنه ينتظر هذه اللحظة. وعندها ستعرف الحقيقة، والوضوح، والعقيدة التي تتمناها. سيُفتح أمامك سقف هذا العالم القريب الذي تقول عنه أشياء غير طيبة. سوف نصعد جميعًا، كلبًا وراء الآخر، إلى رحاب حرية أكبر. ولو لم تُوَفَّق في هذا الأمر الأخير، وصار كل شيء أسوأ مما كان من

قبل، وصارت الحقيقة كلها عصية على أن نتقبلها أو نتقبل نصفها، وتأكد لنا أن الصامتين كونهم حماة الحياة فهم على حق. لو تحول الأمل الصامت الذي مازلنا نملكه إلى يأس كامل. إن الكلمة جديرة بالمحاولة، لأنك لا تريد أن تعيش كما قُدِّر لك. حسنًا، لماذا تلوم الآخرين على صمتهم وأنت نفسك صامت؟» الإجابة بسيطة: لأنني كلب. شأني شأن الآخرين، أتقوقع على نفسي عندما يتعلق الأمر بالقضايا الأساسية، أقاوم صمتي بطرح الأسئلة. إن الخوف يجعل مني كلبًا قويًّا. هل أسأل شعب الكلاب، خاصةً منذ أن أصبحتُ كلبًا بالغًا، وأنتظر إجابةً؟ هل بذلك أرعى في نفسي أملًا سخيفًا؟ أنا أرى قواعد حياتنا، أتخيل عمقها. أرى العمال في مواقع البناء، وفي أعمالهم الغامضة. هل مازلت رغم ذلك أنتظر أن تنبئني الإجابة على أسئلتي عن انتهاء كل هذا، عن تدميره واختفاءه؟ لا، أنا لا أنتظر شيئًا من هذا. أنا أتفهمهم، دمي هو دمهم؛ دمهم البائس، الصغير دومًا، والفضولي دومًا. لكن ليس الدم فقط هو ما يربطنا، لكن المعرفة أيضًا، وليست المعرفة وحدها، لكن مفتاح المعرفة. لا يمكنني أن أمتلك المعرفة بدون الآخرين، لا يمكنني أن أمتلكها بدون مساعدتهم. لا يمكن قهر العظام الحديدية التي تحتوي على أفضل أنواع النخاع إلا بعضات جماعية من أسنان كل الكلاب. كل هذا ليس سوى صورة مبالغ فيها. فلو كانت كل الأسنان بالفعل مستعدة، لما اضطرت الكلاب إلى أن تلعق العظام. فالعظمة قد تُفتح من تلقاء نفسها، ويسقط منها النخاع، ويصبح في متناول الجميع، في متناول أضعف كلب فيهم. لو توقفنا عند هذه

الصورة، سنجد أن كل مقاصدي، وأسئلتي، وكل أبحاثي تتجه نحو شيء رهيب. أريد أن أدفع الأمور نحو اتحاد جميع الكلاب، أريد أن تُفتَح العظمة من تلقاء نفسها تحت ضغط إصرارهم. وعندئذٍ أريدهم أن ينطلقوا إلى الحياة التي يرغبون فيها. ثم أرتشف وحدي، وحدي تمامًا ذلك النخاع. يبدو هذا رهيبًا. إنه تقريبًا وكأنني لا أريد فقط أن أعيش على نخاع عظمة واحدة، لكن على نخاع جنس الكلاب كله. إنها مجرد صورة. إن النخاع الذي نتحدث عنه لا يُعتبر طعامًا على الإطلاق. بل على العكس، إنه سُمّ.

أنا لا أزعج بأسئلتي إلا نفسي. أريد أن أستفز نفسي بالصمت. إنه الوحيد الذي يرد على أسئلتي. إلى متى ستظل تتحمل وجنس الكلاب يلتزم الصمت، كما أثبتت لي الأبحاث، وسوف يظلون هكذا دائمًا؟ إلى متى ستقاوم هذا الأمر. هذا هو سؤالي المحوري الذي يعلو فوق باقي الأسئلة الفرعية الأخرى: إنه سؤال أوجهه إلى نفسي، ولا أزعج به أحدًا آخر. الإجابة عليه للأسف أسهل من الإجابة عن باقي الأسئلة الفرعية: سوف أتحمله على ما يبدو حتى نهاية حياتي. إن هدوء الشيخوخة يُقَاوم دائمًا الأسئلة القلقة. يبدو أني سوف أموت وأنا صامت، مُحَاطًا بالصمت، سأموت في هدوء، وأنتظر هذه اللحظة بكل هدوء. يبدو أننا نحن الكلاب قد حظينا عن سوء نية بقلب قوي بصورة عجيبة، ورئتين لا يمكنهما أن تبليا بسهولة. نحن مضادون لكل الأسئلة، وحتى التي نطرحها بأنفسنا. نحن حصن الصمت.

أفكر كثيرًا في الآونة الأخيرة في حياتي، أبحث عن الخطأ الكبير الذي ارتكبته، وتسبب في كل شيء. أقف عاجزًا عن العثور عليه. لكنني بالتأكيد ارتكبتُ خطأً كهذا.

فلو أنني لم أرتكبه، ورغم ذلك لم أتوصل إلى ما سعيتُ إليه طوال حياتي بالعمل الجاد، لكان من المؤكد أن ما أسعى إليه أمر مستحيل، وسيؤدي إلى يأس كامل.

انظر! مشروع حياتك! في البداية بحث حول سؤال: من أين تأتي الأرض بالغذاء الذي توفره لنا؟ أنا كلب صغير، مُتعطش في أعماقه للحياة. رفضت كل المتع، وتجنبتُ كل أمور اللهو، وخبأتُ رأسي بين أقدامي أقاوم كل إغراء، ولم أصبر إلا على العمل. لم يكن هذا عملًا علميًّا، لا من الناحية المعرفية، ولا من ناحية الطريقة أو الهدف. ربما كانت مجرد أخطاء، لكنها ليست بالتأكيد أخطاءً قاتلةً. لم أتعلم الكثير، لأني هجرتُ أُمي منذ زمن بعيد، ودَرَّبتُ نفسي على الاستقلال.

عشتُ الحياة أتمتع بالحرية. والاستقلالية المبكرة قبل الأوان ليست دليلًا على التَّعلُّم المنتظم. لكني رأيت وسمعت الكثير، وتحدثت مع العديد من الكلاب من كل الأنواع والوظائف. ولا أعتقد أنني أخطأت في فهم كل هذا، ولا أظن أيضًا أنني أخطأت في ربط ملاحظاتي المختلفة ببعضها، وهي ملاحظات من شأنها تحقيق سعة الاطلاع، وفضلًا عن ذلك أعتبر الاستقلالية ربما تكون غير مناسبة للتعليم من أهم الأشياء التي تخدم أبحاثي. لقد كانت في حالتي ضرورية. فأنا لم

أستطع اتباع الطرق العلمية المستخدمة في العلوم؛ أي لم أستفد من أعمال من سبقوني، ولم أربطها بالأبحاث المعاصرة. لكني كنتُ مُعتمداً تمامًا على نفسي فقط. بدأت من نقطة الصفر. انطلقتُ من قناعة سعدتُ بها وأنا طفل، وضقتُ بها وأنا في شيخوختي، وهي أن النقطة الأخيرة التي سأتوصل إليها عشوائيًّا ستكون أيضًا حاسمة.

هل أعيش الآن كما عشتُ من قبل، وحيداً، غارقًا في أبحاثي؟ نعم، ولا. من المستحيل القول إن بعض الكلاب لم تتعرض لموقف مثل موقفي هذا يومًا ما. لا يمكن اعتبار حالتي سيئة. فأنا لم أتجاوز طبيعة الكلاب بأي حال. إن كلبًا مثلي مدفوع بالرغبة في توجيه الأسئلة، وشأني شأن كل كلب مدفوع إلى التزام الصمت. كل فرد لدية الدافع إلى توجيه الأسئلة. لكن ما الذي يمكنني تحقيقه بأسئلتي هذه سوى تلك الهزات الخفيفة والكثيرة التي يُصاحبها نشاط مبالغ فيه بالطبع، وقُدِّر لي أن أراها. ألم يكن بإمكاني أن أصل إلى أكثر من ذلك لو أن طبيعتي كانت مختلفة عمَّا أنا عليه؟ إن الدافع الذي يجعلني أصمت لا يحتاج إلى أي دليل. أنا لا أختلف عن أي كلب آخر في أي شيء. لذلك سأظل رغم كل الخلافات والاختلافات في وجهات النظر أحظى باعتراف الآخرين، أكثر من اعترافي أنا بأي كلب آخر. لكن خليط العناصر المتعددة يظل غير متجانس، وهو أمر من الناحية الشخصية واضح للغاية، ويُمَثِّل من الناحية القومية خلافًا عديم القيمة. هل أدَّى خليط تلك العناصر الموجودة دائمًا، في الماضي والحاضر، إلى إحداث الأثر نفسه عند الآخرين كما حدث معي يمكنني أن أعتبر أنه كان

بالنسبة لي خليطًا تعيسًا وربما أكثر بكثير؟ لكن هذا قد يتعارض مع كل الخبرات الأخرى. نحن الكلاب نقوم بأكثر الوظائف غرابة. وظائف لا يمكن أن تُصَدِّقها حتى ولو صدرت بشأنها تقارير في غاية المصداقية.

دائمًا ما أتذكر هنا مثال الكلاب الهوائية. ضحكتُ عندما سمعتُ عنها لأول مرة. لم أسمح لنفسي أن أنخدع بالأمر. وكيف لي هذا؟ يُقَال إنه يوجد كلب من نوع صغير للغاية، لا يزيد حجمه عن حجم رأسي بكثير. كما أنه لا يبلغ عمرًا أكبر من عمري بكثير. وهو كلب ضعيف البنية، يبدو من الوهلة الأولى وكأنه كلب صناعي، غير ناضج، مخلوق صغير هش، عاجز عن القيام بقفزةٍ واحدةٍ طبيعية. هذا الكلب، كما تقول الرواية، يتحرك غالبًا في الهواء، لكنه على ما يبدو لا يعمل، بل يسترخي. ما هذا العبث، قلتُ لنفسي إن محاولة إقناعي بأمر كهذا أعتبرها استغلالًا مبالغ فيه لسذاجة كلب صغير مثلي. لكن بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ سمعتُ حكاية عن كلب هوائي آخر من مصدر مختلف. هل اتفقوا جميعًا على أن يُصيبوني بالجنون؟ بعدها رأيتُ تلك الكلاب الموسيقية. ومن وقتها وأنا أعتبر أن كل شيء ممكن. لم أضع نفسي أسيرًا لأية أحكام مسبقة. رحتُ أبحث عن كل الأساطير الغريبة. أتابعها قدر استطاعتي. فوجدتُ أن أكثر الخرافات عبثية في هذا العالم التافه منطقية تمامًا، ومُثمرة بالنسبة لأبحاثي بصفةٍ خاصةٍ. كلاب هوائية. عرفتُ عنها الكثير. لكني حتى اليوم لم أر أيًّا منها، إلا أني كنتُ مُقتنعًا تمامًا بوجودها في الواقع منذ وقت طويل. وتحظى بمكانة مهمة في

تشكيل رأيي حول هذا العالم. وكما هو الحال دائمًا، لم تعد هذه الأشياء غريبة هنا، وهو ما يدعوني إلى التفكير. لا يمكن أن ينكرها أحد. فمن المثير للدهشة أن تلك الكلاب تستطيع الطيران في الهواء. شاركني الدهشة من هذا الأمر كل جنس الكلاب. لكن الأكثر إثارة للدهشة هيتلك السخافة، السخافة الصامتة لهذه المخلوقات. لا يوجد ما يُبرهن على شيء، إنهم يرتفعون في الهواء، وانتهى الأمر. وتسير الحياة في طريقها، ثم يتحدثون هنا وهناك عن الفن والفنون. هذا كل ما في الأمر. لكن عشيرتي من الكلاب، لماذا هذه الكلاب التي تنتمي إليها تطير دون غيرها؟ ما الغرض من وظيفتهم تلك؟ لماذا يصعب استخلاص كلمة واحدة تُفَسِّر ما يفعلون؟ لماذا يرتفعون في الهواء هناك، ويتركون أقدامهم تضمر، ويدنسون كبرياء كل كلب. إنهم بعيدون عن مكان عائلهم، لا يتغوطون، ورغم ذلك ينظفون حولهم. وفضلًا عن ذلك تبدو عليهم مظاهر التغذية الجيدة، على حساب كل جنس الكلاب. يمكنني أن أُثني على نفسي وأقول إنني بأسئلتي هذه حَرَّكتُ مثل هذه الأمور قليلًا. سيبدأ البحث عن الأسباب. سيبدأون البحث عن شيء ليكون سببًا، لكن لم يتجاوز أحدهم هذه البداية. لكنها محاولة على الأقل. صحيح أنهم لن يصلوا إلى أية حقيقة، أو إلى أية نتائج لكن ربما على الأقل سيجدون شيئًا من قلب التباس الكذب.

فدائمًا يمكن التوصل إلى أسباب لجميع المظاهر العبثية في حياتنا، وخاصةً تلك المظاهر الأكثر جنونًا. لن تكون أسبابًا حاسمة بالطبع، لكنها تكفي إنها مجرد مزحة غبية للحيلولة دون الإجابة عن الأسئلة

الغريبة. نعود مرة أخرى إلى المثال. تلك الكلاب الهوائية ليست متكبرة كما تبدو من الوهلة الأولى. إنها تحتاج بشدة إلى أبناء عشيرتها من الكلاب. يمكننا أن نفهم هذا الأمر لو وضعنا أنفسنا مكانها. إنها تحاول بطريقة مختلفة طالما لا يمكنها أن تفعل ما تريده بشكل مباشر، وهو الأمر الذي يتعارض مع ضرورة التزام الصمت أن تحصل على الغفران من أسلوب الحياة التي يعيشونها، أو على الأقل تصرف عن نفسها الانتباه، أو تسعى إلى نسيانه. فتفعل ما تفعله، كما سمعتُ، بواسطة ما يشبه ثرثرة لا تُحتمل. لديها دائمًا ما تقوله عن بعض أفكارها الفلسفية التي لا تكف عن التفكير فيها، طالما أنها رفضت الإجهاد البدني تمامًا، أو تُفصح عن بعض الملاحظات التي تجمعها من مكان مرتفع. رغم أنها لا تتميز بقوة روحية خاصة، وهو أمر طبيعي في حياة حقيرة كهذه. أفكارها الفلسفية وملاحظاتها تلك لا قيمة لها، ولا تُفيد العلوم بأي شيء تقريبًا. كما أن العلوم لا تعتمد إطلاقًا على مثل هذه المصادر المساعدة البسيطة. رغم ذلك، لو سألتم: ما جدوى هذه الكلاب الهوائية، سوف تحصلون دائمًا على هذه الإجابة: إنها تُعَدّ إضافة جيدة للعلوم. ستردون على ذلك، وتقولون: «هذا حقيقي، لكن إسهاماتهم هذه عديمة القيمة، وتافهة» أو قد تكون الإجابة بهز الكتفين، أو تغيير مجرى الحديث، أو التجهم أو الضحك. وعندما تعاودون السؤال مرةً أخرى، ستعرفون من جديد أنها تُقَدِّم إسهامًا للعلوم. وبذلك عندما يُوَجِّه لكم أحدهم في المستقبل سؤالًا كهذا، وتعجزون عن الإجابة، ستجيبون بالإجابة نفسها. ربما من المفيد ألا نبالغ في العناد، ونتأقلم

مع الوضع. ليس المطلوب الاعتراف بوجود كلاب هوائية لها حق الحياة، وهو أمر مستحيل، لكن يجب تقبلها. لن يطلب أحد أكثر من ذلك، وإلا لصار مُبَالغ تمامًا. لكنه مطلوب. مطلوب تحمل وجود الكلاب الهوائية الجديدة التي تطير في الهواء. ليس معروفًا على وجه الدقة المكان الذي جاءت منه. لكن هل تتكاثر على الأقل؟ هل لديها القدرة على التكاثر، وهي ليست سوى شعر جميل، وبماذا ستتكاثر؟ ولو أن شيئًا عبثيًّا كهذا صار ممكنًا، فماذا سيحدث؟ إنها لا تظهر إلا بعيدة عن بعضها، راضية باستقلالها هناك في الهواء. ولو حدث وهبطت إلى الأرض، تركض قليلًا، للحظات قليلة جدًا. تخطو فقط بضع خطوات مصطنعة، وتظل دائمًا منعزلة. كل منها غارق في أفكاره المزعومة، ولا يمكنها، وإن حاولت بكل عزيمة، أن تخرج من هذه الحالة. على الأقل هذا ما يؤكدونه. وإن لم تكن تتكاثر، فهل من المنطقي وجود كلاب ضاقت ذرعًا بالحياة على الأرض، وصارت طوعًا كلابًا هوائية. وتنازلت عن الراحة والبراعة، واختارت تلك الحياة العقيمة هناك فوق الأسلاك؟ لا يوجد أي منطق في هذا، ولا حتى في التكاثر ولا في الالتحام الطوعي. لكن الحقيقة تقول إن كلابًا هوائية جديدة تظهر على الدوام. نستخلص من هذا أنه رغم أننا نعتقد أن العقبات لا يمكن تجاوزها، فإن فصيل الكلاب الذي ظهر يومًا بكل خصوصيته لن يندثر، أو على الأقل لن يختفي بسهولة. فيوجد في كل نوع من المخلوقات شيء ما يستطيع أن يُدَافِع به عن نفسه وبنجاح.

هـل عليّ أن أتوقـع أن يحـدث لي مـا حـدث مـع هـذا النـوع السـاقط، الأحمق، غريب الشكل، العاجز عن مواصـلة الحيـاة؟ رغم أنـني لا أبـدو من شكلي غريبًا على الإطلاق. فشكلي مقبول، وعـادي، ويوجـد الكثـير من أمثالي على الأقل في هذه المناطق. لا أتميز في أي شي، ولا جـدوى مـني. فعنـدما كنت شـابًا، وخاصـةً في سـن الفحولـة كنت كلبًـا لطيفًـا للغاية، ولطالما اعتنيتُ بنفسي، وأكـثرتُ من الحركـة. وشـكلي، خاصـةً من الناحية الأمامية، كان مصدر إطراء. أقدامي نحيفـة، ورأسـي منتصـبة بطريقـة جميلـة. لـون شـعر رأسـي خليـط من البـني والأبيض والأصـفر، وأطراف شعري وخصلاته المتجعـدة كـانت تبـدو رائعـة. لكن كـل هـذا يُعَـدّ أمـرًا عاديًّا. أمَّا الغـريب فهي طبيعـتي. وحـتى هـذه الطبيعـة يجب الإشارة إلى هذا دائمًا نابعة من طبيعة الكلاب المعروفة. ولن يكون هذا الكلب الهـوائي هـو الوحيـد، فـدائمًا مـا سـيظهر غـيره في عـالم الكلاب الكبير من وقت لآخر. وسيخلفه دومًا جيـل جديـد. وبالتـالي لا يمكنـني أن أفقد الأمل بـأن حـالتي ليسـت سيئة إلى هـذه الدرجـة. لكن المصـير الغـريب هـو من نصـيب أفـراد كـل جنسـي. ومن الواضـح أن الحيـاة لن تُقَدِّم لي العـون. فأنـا أعرفهـا جيـداً. نحن من أعيـاهم الصـمت. وغيرنـا يعجبهم الصمت.

لكنـه ليس إلا وهم، تمامًـا مثـل الكلاب الموسـيقية. أرادت أن تُظهـر نفسها بأنهـا تعـزف الموسـيقى بهـدوء، لكنهـا في الحقيقـة كـانت ثـائرةً للغاية. لكنه وهم قوي. نحاول أن نصل إلى جوهره، لكنه يسخر من كـل محاولة للهجوم عليه. كيف يتحمـل أبنـاء عشـيرتي هـذا؟ بـأي أسـلوب

يحاولون الحياة رغم هذا كله؟ ربما سيختلف الأمر من واحد للآخر. لقد حاولتُ هذا بتوجيه الأسئلة عندما كنتُ صغيرًا. يمكنني إذن أن أقف الآن بجوار من يسألون كثيرًا، وعندها سأجد من بينهم رفقاء لي. لقد حاولتُ هذا مراتٍ عِدَّة بدافع من إنكار الذات. نعم، إنكار الذات، لأن ما يهمني في المقام الأول هم من سوف يُجيبونني على أسئلتي. لكن غالبًا لا أجد إجابة على أسئلة من أفراد يُزعجونني بها على الدوام، ولا أحبهم. لكن من لا يحب طرح الأسئلة وهو صغير، كيف لي أن أجد وسط كل تلك الأسئلة أسئلةً حقيقية؟ إن كل سؤال يشبه الآخر. الأمر يتوقف على الغرض من السؤال، وهذا الغرض خفي حتى عن السائل. طرح الأسئلة بصفة عامة من طبيعة الكلاب. الكل يسأل من خلال غيره، وكأنه بذلك يخفي أثر الأسئلة الصحيحة. ليس الأمر كذلك، فلن أجد وسط السائلين الصغار رفقاء لي، ولا بين الصامتين، أي العجائز الذين أنتمي لهم الآن. لكن لماذا السؤال وقد تَحَطَمْت معهم. إن رفقائي أكثر مني ذكاءً كما هو واضح، ولديهم وسائل مختلفة ورائعة لكي يتحملوا بها هذا العالم. إنها وسائل أقول هذا من واقع تجربتي الخاصة تساعدهم في أحلك الظروف. تُهَدِّأ من روعهم، وتُهدهدهم، وتُغَيِّرهم. لكنها في الواقع عديمة النفع مثل وسائلي. وكلما نظرتُ وأمعنتُ النظر، لا أرى أي نجاح. أخشى من أنني أُمَيِّز أبناء عشيرتي بأشياء كثيرة، إلا النجاح. لكن من هم رفقائي؟ موجودون في كل مكان، ولا جود لهم. ربما يكون جاري الذي يبعد عني ثلاث خطوات. دائمًا ينادي كل منا الآخر. فيأتي عندي، لكني لا أذهب عنده. هل هو

من رفقائي؟ لا أعرف، رغم أني لم أرَ فيه شيئًا يشبهني. لكن ربما يكون من رفقائي. ربما يكون. كل شيء جائز. فقط عندما يخرج إلى الشارع أستطيع من باب التسلية والفانتازيا أن أكتشف لديه شيئًا يُقَرِّبني منه. لكن بمجرد أن يقف أمامي تصبح كل أوهامي مُضحكة. إنه كلب عجوز، جسمه أصغر من جسمي قليلًا، وجسمي متوسط. لونه بني، شعره قصير، له رأس مترهلة ومرهقة. يتمهل في سيره، وفوق ذلك يجر قدمه الخلفية اليسرى ربما لمرض ما. لم ألتقِ عن قُرب بكلب مثله منذ وقت طويل. أنا سعيد بأنني مازلت أستطيع تحمله إلى حد ما. أصرخ فيه بطريقة لطيفة عندما يبتعد عني، ليس عن حب له بالطبع، بل لغضب من نفسي. لأني حتى لو ذهبت وراءه سأكون في غاية الاشمئزاز منه وهو يجر قدمه المتصلبة بمؤخرته المتدلية. أحيانًا أسخر من نفسي عندما أنعته سرًا بالرفيق. فهو لا يذكر شيئًا أثناء أحاديثنا عن رفقةٍ ما. ورغم أنه حصيف، ومتعلم مقارنة بغيره هنا، ويمكنني أن أتعلم منه الكثير. لكن هل أبحث أصلًا عن الحكمة والتَّعَلُّم؟ نحن نتحدث عن القضايا المحلية، وأتعجب لأني بفضل وحدتي أصبحتُ من هذه الناحية أكثر إدراكًا للأمور وأتساءل، كم من الحكمة يحتاجها الكلب العادي في أوضاع غير ملائمة إلى حدٍ ما كي يعيش الحياة، ويحمي نفسه من المخاطر الكبيرة المنتشرة. رغم أن العلوم تُقَدِّم لنا القواعد، لكن يصعُب فهمها وفهم سماتها العامة على الأقل، وخاصةً عن بُعد. ولو فهمتموها، تبدأ المشكلة الكبرى، وهي تطبيقها في ظل الأوضاع السائدة. لن يساعدك أحد هنا، فكل ساعة تحمل معها واجبات جديدة،

وكل مكان على الأرض له سماته الخاصة. لا يمكن أن يقول أحد عن نفسه بأنه تأقلم معها إلى الأبد، وأن حياته تسير إلى حد ما من تلقاء نفسها. ولا حتى أنا، رغم أن احتياجاتي تقل يومًا بعد يوم. ما فائدة كل هذا الإجهاد المتزايد؟ من أجل أن نغرق أكثر وأكثر في الصمت الذي لن يُخرجنا منه أحد يومًا ما.

غالبًا ما يُشيدون بالتقدم العام لجنس الكلاب على مر الأيام، ويقصدون بذلك التقدم الذي حدث في العلوم. من المؤكد أن العلوم تخطو إلى الأمام، ولا يمكن منعها. تسير بسرعة إلى الأمام، وتزداد سرعتها كل يوم. لكن ما الذي يستحق الإشادة في هذا؟ إن الأمر يبدو وكأننا نمتدح أحدهم على أنه يطعن في السن بمرور السنوات، ويقترب الموت منه أكثر فأكثر. إنها عملية طبيعية وحقيرة للغاية أيضًا. لا أرى فيها ما يستحق الإشادة. لا أرى فيها سوى الانحطاط. لكني رغم ذلك لا أعتقد أن الأجيال السابقة كانت أفضل حالًا. كانت فقط أصغر سنًا، وهذه هي ميزتهم الوحيدة. لم تكن ذاكرتهم مُثقلة مثل ذاكرة الأجيال الحالية. كان يسهل إجبارهم على الدخول في حديث، ورغم أن أحدًا لم يتمكن من هذا. لكن كانت هناك دائمًا فرصة كبيرة لهذا الأمر. هذه الفرصة الكبيرة هي ما يعجبنا عندما نستمع إلى الشيوخ، وإلى قصصهم التافهة بالطبع. نسمع بين الحين والآخر كلمة بها تلميحات بسيطة، وعلى الفور نكاد نقفز في الهواء لولا شعورنا بعبء الألفية. لا، رغم أن لدي الكثير من التحفظات على عصرنا، لم تكن الأجيال السابقة أفضل من الجيل الحالي. بل كانت أسوأ بكثير وأكثر ضعفًا. لم تكن

المعجزات تمشي بينهم في الشوارع حتى يمسك بها أحدهم. فلم تكن الكلاب كلابًا لا أجد كلمةً أفضل من هذه كما هي اليوم. كان التضامن بين جنس الكلاب أكثر ليبرالية. كانت الكلمة الحقة حينئذٍ لها تأثير، وكان من شأنها تحديد البناء وتغييره، وتكييفه لكل الرغبات، أو تغييره إلى الاتجاه العكسي. كانت هناك الكلمة، أو كانت قريبة على الأقل، كانت على اللسان، وكان يمكن أن ينطقها أي فرد. أين هي اليوم. اليوم يمكننا أن نبحث عنها في كل أجسامنا، ولن نجدها. إن جيلنا ضائع، لكنه أكثر براءة من الجيل السابق. يمكنني أن أفهم التردد الموجود في جيلي. فهو في الواقع ليس ترددًا، إنه نسيان حلم حلمناه منذ ألف ليلة. حلم نسيناه ألف مرة. فمن سيغضب منا من أجل آلاف الليالي المنسية؟ أعتقد أني أفهم تردد أجدادنا أيضًا. وكنا سنتصرف مثلهم غالبًا. لكن يمكن أن أقول: إننا سعداء بأننا لم نكن في مكانهم، لم نكن الجيل الذي اضطر إلى تحمل الذنب، والتكيف بصمت بريء مع الموت في العالم الذي أظلمه الآخرون. عندما ضَلَّ أجدادنا الطريق، لم يفكروا في الضياع اللانهائي، لكنهم كادوا يرون مفترق الطرق. وكان بإمكانهم العودة في أي وقت. وإن كانوا ترددوا فذلك لأنهم أرادوا الاستمتاع ولو قليلًا بحياة الكلاب، رغم أنها كانت لا تزال حياةً عاديةً. لكنهم كانوا يرونها حياةً جميلةً ورائعةً. ثم واصلوا السير ليبحثوا عن شكل الحياة التالي، الذي ربما سيظهر بعد لحظات. لم يعرفوا كما عرفنا من متابعة حركة التاريخ أن الروح تتغير قبل الحياة، وأنه في اللحظة التي سيبدئون فيها التَّمَتُّع بحياة الكلاب، ستكون أرواحهم قد

شاخت، وأنهم قد اقتربوا من نقطة الخروج دون أن يدروا، وخدعوا أعينهم الغارقة في ولائم الكلاب. مَنْ مازال اليوم يريد الحديث عن الشباب. لقد كانوا الكلاب الشابة الحقيقية، لكنهم بطمعهم للأسف صاروا كلابًا عجائز. الشيء الذي فشلوا فيه هو إظهار أفضل ما عندهم لكل الأجيال المقبلة ولجيلنا الأخير.

أنا بالطبع لا أتحدث في كل هذه الأمور مع جاري. لكن غالبًا ما أضطر إلى التفكير فيها وأنا جالس أمامه. أمام كلب تقليدي عجوز، أو عندما أغوص بأنفي في شعره الذي تفوح منه رائحة الجلد المسلوخ. من العبث الحديث معه أو مع غيره في مثل هذه الأمور. كيف سيكون شكل حديث كهذا. سيعترض من وقت لآخر على شيء تافه، وفي النهاية سيتفق معي الاتفاق هو أفضل سلاح وتدفن القضية. لماذا إزعاجها الآن وإخراجها من المقبرة؟ ورغم هذا كله فلابد من وجود شيء نتفق عليه أنا وجاري، شيء يتخطى مجرد الكلمات. يجب أن أظل مُتمسكًا به سواء أردت أم لم أُرد، رغم أني لا أملك عليه دليلًا واحدًا، وأستسلم لمجرد وهم ساذج. فهو الكلب الوحيد الذي ألقاه منذ وقت طويل. ويجب أن أحافظ عليه. «هل أنت رفيقي بالحالة التي أنت عليها؟ هل تخجل من أنك فشلت في كل شيء؟ اسمع! أنا أيضًا فشلت في كل شيء. أبكي لهذا عندما أكون وحدي. تعال! معًا سيكون الحال أفضل» أحيانًا أفكر بهذه الطريقة وأنا أنظر في وجهه بثبات. وهو لا يخفض بصره هو الآخر، لكن لا يمكن أن أقرأ في عينيه أي شيء. ينظر إليّ ببلاهة، ويتعجب لماذا لا أتكلم، ولماذا توقفت عن اللهو.

لكن ربما تكون هذه النظرة هي طريقته في السؤال، وأنا أصبته بخيبةِ أمل، كما أحبطني هو الآخر. لو أنني في شبابي، ولو لم تكن لدي أسئلة أخرى أكثر أهمية، ولو أنني اكتفيت بنفسي، لكنتُ طرحتُ عليه سؤالًا بصوتٍ عالٍ، ولتلقيت موافقة باهتة؛ أي أقل بهتانًا من اليوم حيث يلتزم الصمت. لكن ألا يصمت الجميع بهذا الشكل؟ ما الذي يجعلني أُصدق أن كل أبناء عشيرتي متشابهون، ألا يوجد هناك في مكانٍ ما كلب آخر يُشَاركني البحث، ويكون اختفى بنتائجه البسيطة وطواه النسيان، ولا يمكنني الوصول إليه بأي طريقة عبر ظلمات الزمن أو ازدحام العصر الحالي؟ فمنذ فترة طويلة وأنا أعرف من أهل عشيرتي من يحاول بطريقته الخاصة، وكلهم انتهوا بالفشل، كلهم انتهوا بالصمت أو باللغو المضلل بأنه يحمل بحثًا لا أمل فيه. لذلك لم أضطر إلى أن أتميز عن الآخرين. فبقيتُ بينهم بلا مشاكل، ولم أضطر أن أتصرف مثل الأطفال وأسعى للخروج عبر التزاحم في طوابير الكبار الذين يريدون أن يخرجوا مثلي. لكن ما يُربكني هو عقلهم الذي يقول لهم: لن يخرج أحد وكل هذا التزاحم ليس إلا جنون.

من الواضح تأثير جاري الكبير في هذه الأفكار. لقد بَعَثَ في نفسي الفوضى، وجعلني سوداويًّا. في حين كان هو سعيداً للغاية. على الأقل سمعته يصيح ويغني إلى درجة أزعجتني. قد يكون من الأفضل التخلي عن هذا اللقاء الأخير، وألا أستسلم لأوهام غامضة تتولد بالضرورة عند أي لقاء بالكلاب. ومهما اعتقدنا أننا عاصون على التأثر يجب أن أستغل الوقت البسيط المتبقي لي فقط لصالح الأبحاث التي أقوم بها.

عندما يأتي في المرة المقبلة سوف أرقد وأتظاهر بأنني نائم، سأكرر هذا كثيرًا إلى أن يتوقف عن المجيء.

حَدَثَتْ كذلك فوضى في الأبحاث التي أُجريها. فصرتُ أتباطأ، وأُصَاب بالإرهاق، وأذهب بشكل تلقائي إلى المكان الذي كنا نحب الذهاب إليه من قبل. أتذكر عندما بدأتُ البحث بتوجيه سؤالي «من أين تحصل الأرض على الغذاء؟» كنت وقتها أعيش وسط البشر. أزج بنفسي في الأماكن المزدحمة. أردتُ أن أجعل الجميع شهودًا على ما أقوم به. حتى صارت هذه الشهادة أهم من عملي نفسه. كنتُ أتوقع نوعًا من التواجد العام، وهذا الأمر شجعني كثيرًا بالطبع. لكن كل هذا انتهى إلى الأبد. كنت وقتها قويًّا إلى درجة أني كنت أفعل أمورًا بشعة تتعارض مع كل مبادئنا. وبالتأكيد أي شاهد عيان من وقتها يتذكرها الآن على أنها كانت أعمالاً مُنَفِّرة.

وجدت في العلوم التي تتجه نحو التخصص غير المحدود تبسيطًا غريبًا. تقول العلوم إن الأرض تُخرج لنا من باطنها الغذاء. وعندما أقرت العلوم هذه القاعدة، أشارت إلى الطرق التي يمكن بها الحصول على هذا الغذاء بأفضل جودة وأكثر كمية. صحيح أن الأرض تمنحنا الغذاء، وهذا لا شك فيه، لكنه ليس أمرًا سهلًا كما يُقَال (وهو ما يستبعد إجراء أبحاث أخرى). لنأخذ فقط أكثر الحالات بدائية والتي تتكرر يوميًّا. لو كنا غير فاعلين تمامًا، مثل حالتي الآن تقريبًا، ولو تقوقعنا على اعتبار أن شيئًا سوف يحدث بعد تمهيد الأرض بشكل سريع، وانتظرنا ما سيأتي، سنجد الغذاء في الأرض. لكن هذا ليس

صحيحًا بالمرة. من تَحَامَل قليلًا على العلوم وعدد هؤلاء قليل، لأن الدوائر التي تهتم بالعلوم تزيد يومًا بعد يوم لعرف بسهولة، ما لم يقم بتسجيل أي ملاحظات خاصة، أن الجزء الرئيسي من الغذاء الذي يوجد فوق سطح الأرض يأتي من أعلى. ونحن نأخذ بأنفسنا معظم هذا الغذاء بما أننا نتمتع بالمهارة والجشع. أنا بهذا لا أقول شيئًا ضد العلوم، فمن الطبيعي أن الأرض تلد هذا الغذاء. ولو أنها تمنحنا من باطنها بعض الأطعمة وتستدعي الباقي من السماء فلا فرق جوهري في هذا. العلم الذي أكد أنه في كلتي الحالتين يجب أن نمهد الأرض، لا يهتم بمثل هذا الفرق. ويُقَال: «لو كان في فمك طعام، فقد حللت كل مشاكلك» لكن يبدو لي أن العلم يهتم بهذه الأشياء ولو جزئيًّا، وبصورةٍ خفيةٍ، لأنه يفرق بين طريقتين في الحصول على الغذاء. الأولى معالجة الأرض ثم العمل التكميلي على شكل طقس، في صورة سحر، ورقص، وغناء. أنا أجد في هذا ازدواجية غير كبيرة، لكنها واضحةً تمامًا، وتتناسب مع تصنيفي. إن فِلاحَة الأرض تؤدي على ما أعتقد إلى الحصول على كلا النوعين من الغذاء. أما السحر، والرقص، والغناء فلا يتعلق بالغذاء القادم من التربة، لكنها طقوس تساعد على استدعاء الغذاء من أعلى. نظريتي هذه تُخَالِفُ التقاليد.

فهي تبدو وكأن الشعب قد عَدَّلَ من العلوم دون أن يدري، ودون أن تستطيع العلوم الدفاع عن نفسها. لو أن الطقوس كان من شأنها كما تريد العلوم مساعدة الأرض حتى تمنحها مثلًا القوة على اجتذاب الغذاء من أعلى، فيجب أن تتم هذه الطقوس فقط على الأرض بطريقة

صحيحة، فتهمس للأرض بكل شيء، وترقص لها وتتدرب. والعلوم على حسب ما أرى لا تريد أكثر من هذا. والآن توجد قضية مهمة: يتجه الشعب بكل طقوسه إلى أعلى. وهذا ليس خَطأً في حق العلوم. فهي لا تحظر هذا. وتترك للفلاح الحرية. وطالما استمع الفلاح للتعليمات المتعلقة بالأرض سوف تكون العلوم راضية. لكن أسلوبها في التفكير يجب أن يتطلب على ما أعتقد أكثر من هذا. وأنا بحكم أنني لم أتعمق في العلوم يومًا ما لا أتخيل على الإطلاق كيف سيتحمل العلماء أن شعبنا يصرخ بتمائمه إلى أعلى بكل حماس. إن أغانينا الشعبية تُطلق نواحًا في الفضاء، ويؤدي رقصاته وكأنه يريد أن يصعد إلى الأعالي وينسى الأرض. لقد انطلقت من التأكيد على تلك التناقضات. وبناءً على ما أكدته العلوم فكلما اقترب موسم الحصاد اقتصر تفكيري فقط على الأرض، أنبش فيها وأنا أرقص، أُدير رأسي كي تكون قريبة من الأرض بقدر الإمكان. قمتُ فيما بعمل حفرة لأنفي، ثم رحتُ أغني وأنا أعتقد أن الأرض وحدها هي التي تسمعني، وليس شخصًا بجواري أو فوقي.

كانت نتائج البحث بسيطة. كنتُ أحيانًا لا أحصل على الطعام. لكن عندما كنتُ أحتفل باكتشاف ما، كان الطعام يأتي. وكأن العمل الذي قمتُ به أحدث حالةً من الارتباك في البداية، لكن أهميته قد ظهرت واستسلموا لصيحاتي وقفزاتي. كان الطعام يأتي غالبًا بوفرة وقبل الموعد. لكن فيما بعد توقفوا تمامًا عن إحضاره. كنتُ أُسَجِّل محاولاتي بكل دقة وبكل المثابرة غير المعهودة التي تتمتع بها صغار

الكلاب. كان يُهَيأ لي من وقت لآخر أنني قد عثرت على خيط ما، لكنه سرعان ما يختفي، ولا يظهر مرةً ثانيةً. كان نقص الاستعداد العلمي يعوقني كثيرًا. لكنني كنتُ واثقًا من أن السبب في غياب الطعام المنتظر على سبيل المثال لم يكن تجاربي، بل فِلاحَة الأرض بطريقةٍ غير علمية. ولو كان هذا هو السبب فمن الصعب تبرير كل النتائج التي أتوصل إليها. كان يمكنني القيام بتجارب دقيقة للغاية في ظروف معينة لو أنني تمكنت بدون فِلاحَة الأرض أن أحصل على الطعام بواسطة الطقوس الموجهة إلى السماء. وأحصل على غياب الطعام بواسطة الطقوس المخصصة للأرض فقط. قمتُ بتجربة هذا الأمر، لكن بدون أية عقيدة رئيسية، لكن بواسطة تهيئة ظروف بحثية لا عيب فيها. لأني على قناعة راسخة بأن فِلاحَة الأرض بطريقةٍ ما هي دائمًا ضرورية. ولو أن الكفرة الذين لا يؤمنون بهذا كانوا على حق فلن يستطيعوا إثبات ذلك، لأن رش الأرض يتم بطريقةٍ ملزمة، وضرورية في حدود معينة. تمكنت من إجراء تجربة مختصرة إلى حد ما، وانتهت بطريقةٍ أفضل، ولفتت الانتباه. لقد قررتُ في إطار التقاط الطعام من الهواء ألا أترك الطعام يسقط، ولكن لا أمسكه. لهذا كنت في كل مرة يقترب فيها الطعام أقوم بقفزةٍ صغيرةٍ، كانت محسوبة دائمًا كي لا تكفي. وغالبًا ما كان الطعام يسقط بلامبالاة غبية على الأرض، فأنقض عليه مسعورًا، ليس بهياج الجائع، بل بهياج المحْبَط. لكن في حالات معينة كان يحدث شيء آخر، شيء سحري. لم يكن الطعام يسقط، بل يتابعني وهو في الهواء. الطعام يتتبع الجائع. لم يستمر هذا الأمر طويلًا. كان

يتحرك لمسافةٍ صغيرة، ثم يسقط، أو يختفي تمامًا. أو أن شراهتي وهذا ما حدث غالبًا كانت تُنهي التجربة، وألتهم هذا الشيء. مع ذلك كنتُ وقتها سعيدًا. ينتشر الضجيج من حولي، ويزداد الهرج والمرج. لقد انتبهوا لما أقوم به. بدأ معارفي يتقبلون أسئلتي. كنت أرى في عيونهم الرغبة في المساعدة التي تبحث عن الحقد. لكن ربما كان هذا انعكاس نظرتي أنا. لم أتمن شيئًا آخر، وكنتُ سعيدًا.

عرفتُ بعد ذلك وعرف الآخرون أيضًا أن وصف هذه التجربة جاء من قبل في العلوم، وكانت أكثر نجاحًا من تجربتي. صحيح أنها لم تحدث لفترة طويلة نتيجة لصعوبة التحكم في الذات المطلوب لإنجاح التجربة، لكن نظرًا لعدم جدواها العلمية فلم يكن من الضروري تكرارها. فهي تُثبت شيئًا معروفًا من قبل، وهو أن الأرض لا تجذب الغذاء القادم من أعلى بشكل عمودي، بل بشكلٍ مائل، وأحيانًا لولبي. أصابني الإحباط مرةً أخرى، لكنني لم أفقد الشجاعة. كنتُ مازلت صغيرًا، بل على العكس، تحمستُ لأكبر عمل في حياتي. لم أثق في تقليل العلم من شأن تجربتي. فهنا لا فائدة من أية عقيدة، بل المهم هو البرهان. وهذا ما كنتُ أنوي القيام به. فعرضت تجربتي الارتجالية نوعًا ما في ضوء العالم، في بؤرة البحث نفسه. أردتُ أن أثبت أنني لو انحنيت أمام الطعام فلن تقوم الأرض بجذبه نحوي بطريقة عمودية لأنني سأقوم شخصيًّا بتوجيهه نحوي. لم أتمكن بالطبع من تطوير هذه التجربة. فلن تتحمل طويلًا أن ترى الطعام أمامك وتتركه لتُجري تجارب علمية. أردتُ أن أفعل شيئًا آخر. أردتُ أن أصوم لو تحملت

هذا تمامًا، وأتجنب النظر إلى الطعام، وإلى أي شيء يُغريني به. وعندما أترك كل شيء، أظل مستلقيًا وأترك عيني مفتوحة، ليلًا ونهارًا. لن أقـوم بجمع الطعام أو الإمسـاك بـه وهـو مـا لـم أتمكن من الالـتزام بـه، لكـني تمـنيت أن أفعـل هـذا في نفسـي، وبـدون جميـع الإجـراءات الأخـرى باسـتثناء الـرش اللازم للأرض وترديـد التعاويـذ والأغـاني (اسـتبعدت الرقص كي لا أضعف) في صمت، لن يسقط الطعام من تلقاء نفسه.

سيطرق على جسدي ليدخل إليه مُتَجَاهِلًا الأرض. عنـدما يحـدث هـذا سـتكون العلـوم قـد انتفت، لأنهـا تتمتـع بقـدر من المرونـة لتقبـل الاستثناءات والحالات الفردية.

لكن ماذا سيقول الشعب الذي لا يتمتع لحُسن الحظ بالقدر الكـافي من المرونـة؟ لن تكـون هـذه حالـة اسـتثنائية من النـوع الـذي يحـدث عـبر التاريخ، مثل أن يرفض أحدهم إعداد الطعام نتيجـة لمـرض عضـوي أو نفسـي، ويـرفض البحث عنـه، أو تقبلـه. وهـو الأمـر الـذي يُوَحِّد جنس الكلاب في إجراء التعاويـذ، وبـذلك يُجبر الطعـام على أن ينحـرف عن طريقـه المعتـاد، ويسـقط في فم المـريض مباشـرةً. لكـني على العكس كنتُ أتمتع بكل الصحة والقوة. كانت شهيتي للطعـام كبـيرة، فلم أفكـر طول الوقت في شيء آخر غير الطعام. لقد أمسـكت عن الطعـام طوعًـا، صدق أو لا تصـدق! كنت قـادرًا بمفـردي على إنـزال الطعـام، وبالفعـل أردتُ أن أفعـل هـذا. أيضًـا لم أكن في حاجـة إلى مسـاعدة من جنس الكلاب، حتى أنني منعت نفسي من ذلك بكل حسم.

بحثتُ عن مكان في أحد الأحراش النائية؛ حيث لا أسمع فيه أي شيء عن الطعام. كفاني عض العظام وشقها. ومرة أخرى أكلتُ حتى الشبع، ثم تمددتُ هناك.

أردتُ أن أقضي أكبر وقت ممكن وعينيّ مغمضتين قبل أن يصل الطعام. ستكون ليلة طويلة، حتى لو استمرت أيامًا وأسابيع. ومع ذلك لم أنم إلا قليلًا، أو بالأحرى لم أنم على الإطلاق، لأنني كنتُ مضطرًا إلى استدعاء الطعام بقراءة التعاويذ، والانتباه حتى لا يفوتني مجيء الطعام. من ناحيةٍ أخرى كنتُ في حاجةٍ شديدةٍ إلى النوم. ففي النوم أستطيع أن أجوع لفترةٍ أطول من اليقظة. قررتُ لهذه الأسباب أن أوزع الوقت بحذر، وأنام كثيرًا، لكن لمدة قصيرة للغاية. تحقق لي ما أردت عندما كنتُ أضع رأسي دائمًا أثناء النوم على أحد الأغصان الضعيفة التي سرعان ما تنكسر، فتجعلني أستيقظ. وهكذا تمددت، ونمت، أو استيقظت.

حلمت، أم رددت بعض الأغاني بهدوء. في البداية لم يحدث أي شيء. يبدو أن المكان الذي يأتي منه الطعام لم يلاحظ بعد أني أترقب الأمور، لذلك ظل الطعام في مكانه. أزعجتني وأنا في محاولاتي الحثيثة مخاوف من أن الكلاب ستلاحظ اختفائي، وستعثر عليّ قريبًا، وسيتخذون إجراءً ما ضدي. مخاوف ثانية من أن الأرض قد تنبت عند رشها رغم أنها كانت كما تقول النظرية أرضًا بورًا ما يُسَمَّى بالغذاء العفوي، وسيغريني برائحته. لكن شيئًا من هذا لم يحدث حتى الآن، واستطعتُ مواصلة الجوع. كنتُ في البداية هادئًا رغم تلك المخاوف

إلى درجة لم ألاحظها على نفسي من قبل. ملأتني السكينة رغم أني كنتُ أعمل على إبطال النظرية العلمية، وسيطر عليّ هدوء نسبي يتميز به كل مُشتغل بالعلوم. تخيَّلت أن العلوم قد صفحت عني، وعثرتُ فيها على مكان لأبحاثي. ترددتْ في أذني كلمات طيبة بأنه لو قُدِّرَ لأبحاثي النجاح، خاصةً في ذلك الوقت فلن أضيع في عالم الكلاب. فقد صارت العلوم تقف إلى جانبي. ستقوم بنفسها بشرح نتائج أبحاثي. هذا الوعد يعني تحقيق ما أصبو إليه. سوف يستقبلوني بكل الاحترام، بعد أن كنتُ أشعر في قرارة نفسي بأني منبوذ، وبعد أن هاجمت ثوابت وطني بكل غضب. سيلفني دفء أجساد الكلاب المتجمعة. الدفء الذي طالما اشتقتُ إليه. سوف يرفعونني عنوة إلى أعلى، وسيحملني شعبي فوق أكتافه. هذه هي أولى النتائج المبهرة للجوع. بدا لي ما أفعله عظيمًا، فانفجرت في البكاء على نفسي وسط تلك الأحراش الهادئة، مُتَأَثرًا بانفعالاتي وشعوري بالتعاطف. وكان هذا أمرًا غير مفهوم تمامًا. فلو كنت أتطلع إلى مكافأة أستحقها فلماذا إذن البكاء؟ ربما من الشعور بالسعادة. كنتُ دائمًا عندما أكون في حالةٍ جيدة، وهو ما لم يحدث إلا نادرًا، كنتُ أبكي. لكني سرعان ما تجاوزت هذه الحالة. فالصور الجميلة سرعان ما تخبو. اختفت بسرعة عندما اشتد بي الجوع، واختفت كل الأوهام وكل العواطف. وصرتُ وحيدًا وسط دموع الجوع الذي يدب في أوصالي. رحتُ أُكَرِّر وقتها مرات ومرات: «إنه الجوع!» وكأنني أردت أن أُقنع نفسي بأنني والجوع صرنا متلازمين، ويمكنني أن أتخلص منه كما أتخلص من حبيب غير

مرغوب فيه. لكننا كنا في الواقع نُمَثِّل اتحاد الألم. لو أنني أعلنت أمام نفسي، وقلت: «إنه الجوع»، فمن قال ذلك هو الجوع نفسه.

كان يسخر مني. كانت أيام سيئة! سيئة! أشعر بقشعريرة في ظهري عندما أفكر فيها. ليس فقط بسبب المعاناة التي عشتها في ذلك الوقت، لكن بسبب أن الأمر لم ينته عند هذا الحد. كان عليّ أن أعاني من هذه التجربة كلما أردت أن أحصل على أي شيء. فحتى اليوم أعتبر الجوع آخر وسيلة ناجحة في وسائل أبحاثي. الوسيلة الوحيدة هي الجوع، يمكن الوصول إلى أقصى الغايات فقط بالعمل الكبير، طالما كان الوصول إليها ممكنًا. هذا العمل الكبير هو الجوع الاختياري. وطالما أنني أتذكر تلك الأيام وأنا سعيد بأنني أبحث فيها حتى آخر يوم في حياتي فمازلت أتذكر الأوقات التي أُصِبت فيها بالهلع. يبدو أن حياتي ستنقضي قبل أن أفيق من هذه المحاولة. يفصلني عن ذلك الجوع عُمْرٌ كامل، ولم أتعافى بعد. لو امتنعت عن الطعام في المستقبل ستكون إرادتي أقوى من ذي قبل، بفضل الخبرات الكبيرة، والفهم الأفضل لضرورة المحاولة. لكن قواي أضعف مما كانت حينئذٍ. يُصيبني الوهن من مجرد انتظار حالات الرعب المعروفة. لا شيء ينفع مع شهيتي الضعيفة للطعام. وهي تضعف من المحاولة إلى حد ما، وتجعلني أجوع لفترةٍ أطول مما كان ضروريًّا في ذلك الوقت. أعتقد أن مثل هذه الأمور وغيرها واضحة لي. من المؤكد أنه كانت هناك محاولات أخرى في تلك الفترة الانتقالية الطويلة. تحملت الجوع تقريبًا أكثر من مرة. لكني في المرة الأخيرة لم أقو عليه. وعدائية الشباب كانت مازالت

موجودة بالطبع. لكنها اختفت وقتها أثناء الجوع. وعـانيت من مختلـف الأفكار. كان أجدادي يُمَثِّلون لي تهديداً. رغم أني لا يمكنني أن أتحدث عن هـذا في العلن، فأنـا أُحَمِّلهم جميعًـا مسـئولية مـا حـدث لحيـاة الكلاب. كان باستطاعتي أن أواجه تهديداتهم بتهديدات مضـادة. لكـني أنحني احترامًا أمام معارفهم. إنهـا معـارف جـاءت من منـابع لا نعرفهـا. ربما لهـذا أيضًـا أشـعر برغبـة قويـة في مقاومتهـا. لا يمكـنني أن أتجـاوز قوانينهم بشكلٍ مباشـر. لكـني أسـتغل الثغـرات الموجـودة في القـوانين. وهي ثغرات أبرع في العثور عليهـا. سـوف أشـير إلى الهـدف من الجـوع من خلال حوار شهير أَعْـرَبَ خلالـه أحـد حكمائنـا عن نيتـه في تحـريم الجوع. عَقَّبَ عليه حكيم آخر، وقال: «من ذا الذي سـيمتنع عن الطعـام ومـتى؟»، فتشـجع الأول وأيـد منـع الجـوع. وهنـا ظهـر سـؤال، يقـول: «أوليس الجـوع ممنوعًـا هنـا؟» أجـابت الأغلبيـة العظمى من المعلقين بالنفي، واعتبرتْ أن الجوع مسموح به. كانت قد قاطعت الحكيم الثاني في الكلام، ولم تخف من أن التعليقات الخاطئة قـد تكـون لهـا عـواقب وخيمة. كنتُ أعرف كل هذا قبل أن أشـرع في الجـوع. لكـني هنـا كنت أهز رأسي، وأنظر وأنا مشوش الحـواس إلى قـدميّ الخلفيـتين بحثًـا عن الحماية. أقوم بلعقها بيأس، وأقرضـها، ثم أواصـل لعـق مـؤخرتي. كـان تفسـيري المبـدئي لـذلك الحـوار أنـه مُصـطنع. كـرهتُ عِلْمَ التعليـق، وكرهتُ نفسي لأنني تركت نفسي أنخدع به.

فلطالما تضـمن الحـوار هكـذا يعتقـد كـل طفـل أكثر من مجـرد قـرار واحـد بمنـع الجـوع. الحكيم الأول أرد أن يمنـع الجـوع. مـا يريـده أحـد

الحكماء يجب أن يكون. فتم منع الجوع. وافق الحكيم الثاني على هـذا لأنه اعتبر أن الجوعَ أمرٌ مستحيل. فانضم إلى مؤيدي المنع حكيم آخـر. فكان المنع، هذه هي طبيعة الكلاب. أيـده الحكيم الأول، وأصـدر قـرار المنع. وهذا يعني منع الكلاب من استيضاح الأمر حتى يتدبروه. فمنعوا بدورهم الجوع. منع مضـاعف ثلاث مـرات بـدلًا من مـرةٍ واحـدة. وأنـا خالفتـه. ليتـني أسـتطيع الآن بعـد أن فـات الأوان أن أنصـاع للأوامـر وأتوقف عن الجوع! لكن إغـراء الجـوع تغلغـل إلى آلامي، وتابعتـه بنهم وكأنني أطارد كلبًا مجهولًا.

لم أسـتطع التوقـف، ربمـا أنـني كنت ضـعيفًا إلى درجـة تمنعـني من النهوض، والبحث عن قوت يومي في الأقطار المأهولة. كنتُ أتمرغ من جانب إلى جانب آخـر فـوق أوراق الشـجر المدببـة، لكـني لم أتمكن من النوم. كنت أسمع ضجيجًا قادمًا من كل اتجاه، أسمع العالم الذي كـان نائمًا خلال حياتي وقتها. وكأنه شَعَرَ بجوعي.

سيطرت عليّ فكرة أني لن أستطيع التهام الطعـام بعـد اليـوم. فلـو فعلت سأكون مضطرًا إلى إسكات العالم الذي انتشـر ضـجيجه، ولن أسـتطيع. سمعتُ هذا الضـجيج الكبـير قادمًـا بـالطبع من معـدتي. كنتُ كثـيرًا مـا أضـع أذني فـوق معـدتي، وأنـا أحملـق بعيـني هلعًـا. لم أكن قـادرًا على تصديق ما أسمعه. كان الوضع سيئًا للغاية، وبدا وكأن الدوار يتملكـني، ويجعلـني أقـوم بمحـاولات عبثيـة لأنقـذ نفسـي. بـدأتُ أشـعر بالطعـام، طعام مختار لم آكله منذ زمن طويل. إنها أنماط عـالم الطفولـة. شـعرتُ

حتى برائحة ثديي أمي. نسيتُ أني أريد أن أقاوم الروائح، أو بمعنى أدق، لم أنس الروائح. فيبدو أن النية في مقاومتها كانت ترتبط بنيةٍ أخرى.

رحتُ أزحف هنا وهناك. فقط لبضع خطوات في كل مرة. رحتُ أشم الرائحة وكأنني أردتُ أن أصل إلى الطعام فقط لكي أحمي نفسي منه. لم يحبطني أني لم أعثر على شيء. إن هذه الأطعمة كانت موجودة هناك. لكنها كانت في كل مرة على بعد عدة خطوات مني، بعيدة جداً. انهارت أقدامي قبل أن أصل إليها. كنتُ أعرف في الوقت نفسه أنني لم أفعل شيئًا. كل ما فعلته هو حركات بسيطة بسبب الخوف من الانهيار الأخير في المكان الذي لن أبرحه. اختفتْ آخر الآمال، آخر الفتن. سألقى حتفي هنا وحيداً. ما فائدة كل أبحاثي، الأبحاث الطفولية من أيام الطفولة السعيدة. الأمور الآن وهنا تصل إلى منتهاها. إن الأبحاث يجب أن تثبت جدواها. فأين هي؟ لم يكن هنا سوى كلب ينظر بيأس إلى الخواء. كلب يهرول مُتشنجًا، ويرش الأرض بلا توقف وبدون قصد. لكنه لم يستطع أن يجد في ذاكرته المرتبكة من فوضى التعاويذ أي شيء، ولا حتى بيت شعري صغير تقوله الكلاب الوليدة وهي تزحف نحو ثدي أمهاتهم. شعرتُ وكأنه لا تفصلني عن أشقائي مجرد خطوات قليلة، لكن شعرت أني بعيداً جداً عن الجميع، وكأن من سيقتلني ليس الجوع، بل الوحدة. كان واضحًا أن أحداً لا يهتم بأمري، لا أحد تحت الأرض، ولا أحد فوق الأرض، ولا أحد في السماء. سأموت بسبب إهمالهم لي. يقول لهم إهمالهم: إنه يموت وهذا ما سوف يحدث. وهل أعترض على هذا؟ ألم أقل بنفسي الكلام نفسه؟

ألم أختر بنفسي الوحدة؟ بالتأكيد أيتها الكلاب! لكن ليس لأن حياتي هنا بهذه الطريقة. لكن لكي أصل إلى الحقيقة في هذا العالم الكاذب؛ حيث لا تجد أحدًا يمكنك أن تعرف منه الحقيقة. ولا حتى مني أنا، مواطن الكذب الفطري. ربما إن الحقيقة ليست بعيدة إلى هذه الدرجة، وإنني لست منبوذًا كما أعتقد. فلم يهجرني رفقائي، بل أنا من هجرهم. أنا من فشل، وأنا من يموت.

لكن الموت لا يكون سريعًا هكذا كما يعتقد الكلب المتململ. كل ما حدث هو أنني فقدت وعيي، وعندما انتبهت وفتحت عيني وجدتُ كلبًا غريبًا يقف أمامي. لم أشعر بالجوع على الإطلاق. كنت قويًّا للغاية، ومفاصل جسمي مرنة كما تخيلتها، رغم أني لم أحاول تجربتها، وأنهض لأقف عليها. في الواقع لم أرَ شيئًا مختلفًا عمًّا كان من قبل. مجرد كلب غريب يقف أمامي، لا أكثر ولا أقل. رغم ذلك خُيِّل لي أنني أراه أفضل من أية مرة سابقة. كان هناك دم أسفل جسدي. اعتقدت من الوهلة الأولى أنه طعام، لكني سرعان ما لاحظت أنه دم تقيأته. أدرت وجهي بعيدًا عن ذلك الكلب الغريب. كان كلبًا نحيفًا، سيقانه طويلة، ولونه بني، مُخضب ببقع بيضاء. كان جميل الطلعة، قويًّا، ثاقب البصر. قال: «ماذا تفعل هنا؟ يجب أن تنصرف» قلت له: «لا أستطيع الانصراف الآن»، ولم أُضف على ذلك. كيف لي أن أشرح له كل شيء وهو يبدو لي في عجلة من أمره. قلت بقلق وأنا أرفع قدمًا بعد الأخرى: «انصرف من فضلك، اتركني. اذهب، ولا تهتم بأمري، فالآخرون لا يهمهم أيضًا أمري» قال: «أرجوك، هذا لصالحك» قلت:

«ارجني كما تشاء، فأنا لا يمكنني الانصراف حتى وإن أردت» قال وهو يبتسم: «ليس هذا هو المهم.

يمكنك الانصراف لأنك تبدو ضعيفًا. أرجوك أن تنصرف بهدوء. ولو ترددت، سوف تضطر لاحقًا أن تهرب» قلت: «إنه أمر يخصني» قال وهو حزين من عنادي:

«ويخصني أيضًا» يبدو أنه أراد أن يتركني هنا مؤقتًا، ويستغل الفرصة لينضم إليّ كنوع من التعاطف. في ظروف غير هذه كنت لأقبل الحديث مع كلب جميل مثله، لكن هذه المرة لم أفهم ما يحدث تملكني الرعب. صرختُ فيه بكل قوتي: «انصرف!»، لم تكن لدي وسيلة أخرى للدفاع سوى صوتي. قال وهو يتراجع على مهل: «سأنصرف. أنت كلب غريب، هل شكلي لا يعجبك» قلت له: «سيعجبني أكثر لو انصرفت وتركتني» لكنني رغم ذلك لم أكن واثقًا من رغبتي في الحديث معه. شيء ما لاحظته عليه، أو سمعته من خلال جوعي وحواسي المستنفرة. كان مازال في البدايات، وراح ينمو ويقترب، فاتضح لي الأمر. هذا الكلب مُكَلَّف بأن يجعلك تنصرف، رغم أنك لا تعرف كيف ستستطيع النهوض. لقد هز رأسه فقط عندما سمع إجابتي القاسية، وأنا أنظر إليه بمزيد من الحماس. سألته: «من أنت؟» قال: «أنا صائد» سألته: «لماذا لا تريد أن تتركني هنا؟» قال: «لأن وجودك هنا يزعجني. ولا أستطيع الصيد وأنت هنا» قلت له: «حاول مرةً أخرى، ربما تستطيع الصيد» قال: «لا، أنا آسف، لكنك لا بد أن تنصرف» قلت له راجيًا: «دعك من الصيد اليوم!» قال: «لا، أنا

مضـطر أن أصـطاد» قلت: «أنـا مضـطر أن أنصـرف، وأنت مضـطر أن تصطاد. نفس كلمة مضطر. أتفهم، لماذا نحن مضطرون؟» قال: «لا، لا شيء في هذا يحتاج إلى فهم. إنها أمور بديهية، أشياء طبيعية»

قلت: «لا، ليست كذلك، أنت تأسف لأنك مضطر إلى طـردي من هنـا، وتفعل ذلك» قال: «هو كـذلك بالفعـل» كَـرَّرتُ مـا قالـه بغضـب: «هـو كذلك بالفعل! هذه ليست إجابة. ما هو الأسهل بالنسـبة لـك: أن تكـف عن الصيد، أم تصرفني من هنا؟» قال بلا تردد: «أن أتوقف عن الصـيد» قلت له: «أترى، هناك تنـاقض واضـح في موقفـك» قـال: «أي تنـاقض؟ أنت يا عزيزي، أيهـا الكلب الصـغير، ألا تفهم أني مضـطر إلى هـذا؟ ألا تفهم الأمور البديهية؟» لم أرد عليـه لأني لاحظت وأنـا أشـعر بـأن حيـاةً جديـدةً تسـري في كيـاني، حيـاة ناجمـة عن الـرعب لاحظت بنـاءً على تفاصـيل لا يمكن وصـفها، تفاصـيل خارجـة عـني ولا يمكن لأحـد أن يراها أن هذا الكلب في أعماق أعماقه قد اسـتعد للغنـاء. قلت لـه: «أنت سوف تغني» قال بكل جدية: «نعم، سأغني قريبًا، لكن ليس الآن» قلت: «ها أنت قد بدأت» قال: «كلا» قلت بهياب: «لم تبدأ بعد، لكن اسـتعد. ها أنا أسمع الغنـاء رغم أنـك تنفيـه» الـتزم الصـمت. شـعرتُ وقتهـا أني أعرف شيئًا لم يعرفه كلب قبلي، على الأقل لم تنقل لنا الحكايات شـيئًا كهذا. غمستُ وجهي بسرعة في بركة الدم التي أمامي وأنا أشـعر بضـيق وخجل لا نهاية لهما. شعرتُ أني أعـرف أن هـذا الكلب بـدأ الغنـاء دون أن يعرف بذلك هو نفسه. والأكـثر من هـذا أن الموسـيقى الصـادرة منـه تنطلـق بنـاءً على قوانيـني الخاصـة إلى الفضـاء، وتتطـاير بعيـداً عنـه،

وكأنها ليست منه، بل مني أنا، وتتجه نحوي أنا. لكني اليوم أرفض هذا النوع من المعلومات، وأُرجعها إلى حدة طبعي في ذلك الوقت. ورغم أن هذا كان وهمًا، لكنه انطوى على نوع من الفخامة. إنها الحقيقة الوحيدة التي استطعت حمايتها لهذا العالم من أيام الجوع. تشير على الأقل إلاَمَ سينتهي بنا المطاف عندما نكون خارج أجسادنا تمامًا.

وكنتُ بالفعل وقتها خارج جسدي تمامًا. ففي الظروف العادية كان من المفترض أن أكون مريضًا بشدة، عاجزًا عن الحركة. لكني لم أقاوم الموسيقى التي اعتبرها الكلب على ما يبدو خاصةً به. كانت تزداد قوة. صارت تعلو بلا حدود، حتى كادت أذني تنفجر. أسوأ ما في الأمر أني تخيلت أنه جاء هنا من أجلي هذا الصوت الذي صمتت الغابة أمام عظمته من أجلي فقط. مَنْ أنا حتى أتجرأ وأصر على البقاء هنا، وأنشر أمامه قذارتي ودمي؟ هممتُ من مكاني مُرتعشًا، ونظرتُ إلى نفسي، وقلت: كائن كهذا لا يمكنه أن يجري. لكن الموسيقى جعلتني أطير وأقفز أروع القفزات. لم أحكي لأصدقائي عمًّا حدث. كان طبيعيًّا أن أحكي عن كل شيء بعد عودتي مباشرةً. لكنني كنت ضعيفًا للغاية، ورأيتُ فيما بعد أن ما حدث أمر لا يمكن الحديث عنه. واختفت الإشارات التي لم أستطع كتمانها في ثنايا الحوار.

تحسَّنت حالتي الجسدية بعد ساعات عدة. لكن العواقب النفسية مازلت أعاني منها حتى اليوم.

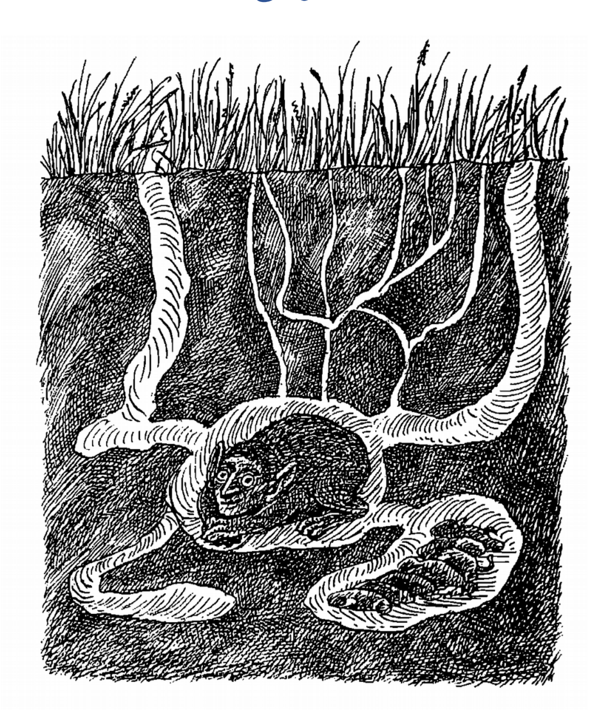
وَسَّعتُ أبحاثي لتطال موسيقى الكلاب التي لم تغفلها العلوم أيضًا. إن علوم الموسيقى على حد علمي أكثر اتساعًا من علوم التغذية، وتتمتع بأسس قوية بكل تأكيد. يمكن تفسير هذا بأنه يجب العمل في هذا المجال بعاطفة أقل من غيرها. فالأمر يتعلق بمجرد المتابعة والتعقل، في حين أنه في الحالات الأخرى يتعلق بالنتائج العملية. يرتبط بهذا احترام علم الموسيقى على نحو أكبر من علم التغذية. فالعلم الأول لا يمكنه أن يتغلغل في الشعب بالعمق الذي عليه العلم الثاني.

كانت علاقتي بعلم الموسيقى أبعد من علاقتي بغيره من العلوم إلى أن سمعت ذلك الصوت في الغابة. صحيح أنها استدعت تجربتي مع الكلاب الموسيقية، لكني كنت وقتها مازلت صغيرًا للغاية. كذلك ليس من السهل الاقتراب من هذا العلم. فهو يُعد علمًا صعبًا، وعصي على عامة الشعب. أيضًا رغم أن الموسيقى كانت بالنسبة للكلاب في ذلك الوقت من الأمور المهمة، لكن الأهم منها هي طبيعتهم الصامتة. لم أجد مثيلًا لموسيقاهم المخيفة في أي مكان آخر. فانصرفت عنها، وصرتُ منذ ذلك الوقت أرى طبيعتهم تلك في جميع الكلاب وفي كل مكان. عندما كنت أريد أن أتعمق في طبيعة الكلاب كنت أرى أن أبحاث الغذاء أهم، وأنها تحقق هدفًا ما بشكلٍ واضح. ربما كنت مخطئًا في هذا. إن تجاوز كلا العِلْمَين استنفز على ما يبدو طبيعتي المتشككة وقتها. إنه علم حول الغناء الذي يستدعي الطعام من أعلى. ومن جديد صار عدم اهتمامي الجاد بعلم الموسيقى يُمَثِّل عائقًا كبيرًا. فلا أستطيع من هذا المنطلق أن أحسب نفسي حتى على أنصاف

المتعلمين، الـذين احتقـرهم العلم دائمًـا. يجب أن أتـذكر هـذا دائمًـا. سـيكون من الصـعب للغايـة أن أتبـارى مـع أي طـالب علم في أسـهل امتحان علمي. ولدي للأسف دلائل على هذا.

السبب في ذلـك يعـود، بغض النظـر عن ظـروف الحيـاة الـتي تحـدثت عنهاـ إلى عدم كفاءتي العلمية، وقدراتي الضـعيفة على التفكـير، وسـوء ذاكرتي، وفوق كل ذلك عدم قدرتي طـول الـوقت على أن أضـع نصـب عيني هدفًا علميًّا. أعترف أمام نفسي بكل هذا وبمنتهى الصراحة، وبكل سعادة أيضًا. أعتقد أن السبب الدفين في عدم كفاءتي العلمية هو غريزة ما. الواقع أنها غريـزة ليسـت سـيئة تمامًـا. يمكنـني من بـاب التفـاخر أن أقول إن هذه الغريزة قد دمرت قدراتي العلمية. ومع أنـني أثبتّ في أمـور الحياة العاديـة الـتي ليسـت بسيطة إلى هـذه الدرجـة مقـدارًا مقبـولًا من التعقل، وخاصة أنني فهمت العالم بصورة جيدة جدًا، وليس العلم. وهو مـا يمكن التأكـد منـه من خلال نتـائج أبحـاثي. قـد يكـون من المثـير للعجب على أقل تقدير أنـني وقتهـا لم أكن قـادرًا على أن أضـع قـدمي على أولى درجات العلم على الأقل. كانت هذه هي الغريزة التي منحتني مزيدًا من الاحترام للحرية أكـثر من أي شـيء آخـر، ربمـا لصـالح العلم، لكن عِلْم آخر غـير العلم الـذي يدرسـونه اليـوم، أو لصـالح أتفـه العلـوم. الحرية! بالطبع، إنها الحرية التي ربما تكون اليوم عشبًا ذابلًا. لكنهـا مـع ذلك تظل حرية، تظل نوعًا من المتاع.

العرين[12]



بنيتُ عرينًا. وأظن أنه عرينٌ جيد. به من الخارج فتحة لا تؤدي في الواقع إلى أي شيء، وتصطدم على بعد خطوات بصخرةٍ طبيعيةٍ صلبة. لا أنوي ادّعاء الفخر بأني قمت بهذه الحيلة عن عمد. فما هي سوى بقايا إحدى المحاولات العديدة الفاشلة في البناء. اعتقدتُ وقتها أنه من المناسب أن أترك تلك الفتحة، ولا أردمها. فمن المؤكد أن بعض الحيل تكون ماهرة إلى درجة أنها تدمر نفسها بنفسها. أعرف جيدًا هذا الأمر أكثر من غيري. هذه الفتحة أيضًا يمكنها أن تُنَبِّه شخصًا ما إلى أن هناك ما يستحق الملاحظة. لكن لا يعرفني من يعتقد أني جبان، وأني

12كتبها في عامي 1923 -1924.

قد صنعت العرين بسبب جبني هذا. على بُعد نحو ألف خطـوة من هـذا العرين يوجد مدخل مكسو بطبقة من الطحالب سهلة الإزالة. إنـه عـرين مُحَصَّن بأفضل طرق التحصـين. يمكن أن يحـدث، وهـذا أمـر وارد، أن يـدوس أحـدهم على هـذه الطحـالب بقدميـه، أو يتعـثر فيهـا، وعنـدها يصبح الطريق إلى داخل العرين مفتوحًا. يمكن لكل من أراد فقـط أُنبّـه أنه لا يحتاج إلى قـوة غـير عاديـة أن يـدخل العـرين، ويـدمر كـل شـيء هناك، وإلى الأبد. أعرف هذا الأمر جيـدًا، لكـني لم أعـرف وأنـا في قمـة عنفواني ساعة واحـدة من الراحـة. هنـاك في مكـان مـا، وسـط الطحلب الداكن تجدني جريحًا إلى درجة لا تُوصـف. يطـاردني في أحلامي على الدوام حيوان نَهِم. ربما يقول أحـدهم إن في اسـتطاعتي أن أغلـق فتحـة الدخول هذه، وأضع فيها طبقة خفيفة من الطين، ثم أضـع طبقـة أخـرى أكثر صلابة وأدكهـا فيهـا. هكـذا أسـتطيع أن أؤمن خـروجي من العـرين دون مشقة كبيرة. حتى هذه الطريقة مسـتحيلة، فالحـذر يتطلب أن أجـد طريقة سريعة للخروج. الحذر كما هو الحال غالبًا للأسـف يتطلب أن تُغَامِر بحياتك. إنها حسابات معقدة، وغالبًا ما تكون سعادة الإنسان من دهائـه الشخصـي هي السـبب الوحيـد الـذي يجعلنـا نواصـل عمـل الحسـابات. يجب أن أوفِّر إمكانيـة للخـروج الفـوري، لكن أليس ممكنًا رغم كل هذا الحـرص أن أكـون عُرضـة لهجـوم مبـاغت؟ أنـا أعيش في هـدوء في أعمـق أعمـاق بيـتي، لكن عـدوٌّ لي يتسـلل إليّ بهـدوء وعلى مهل. أنا لا أدَّعي أنه أكثر دهاءً مني، بل ربما يعرف عني أقل مما أعـرف أنا عنه. لكن هناك لصوص متحمسون، ينبشون الأرض بلا وعي. ونظـرًا

للمساحة الشاسعة للعرين سوف يُراودهم الأمل هم أيضًا في أن يعثروا على ممر من ممرات عريني. أتمتع بالطبع بميزة أني في بيتي، وأني أعرف جميع الطرق والاتجاهات. يمكن أن يسقط اللص بمنتهى السهولة فريسة في يدي، ويصبح لقمة سائغة لي. لكن العمر تقدم بي، وهناك من هو أكثر مني قوة، وأعدائي كُثر. من الممكن أن أهرب من أحد أعدائي، وأنقض على آخر. يا إلهي! كل شيء ممكن. في كل محاولة هجوم يجب أن أتحقق من أن المدخل مفتوح أو يسهل الوصول إليه، فلا أضطر إلى الاجتهاد حتى أخرج من العرين. لن أضطر إلى الحفر العبثي، حتى ولو كان السد الترابي بسيطًا، وأقع لا قدر الله في براثن من يُلاحقني. ليس فقط العدو الخارجي هو من يهددني. فالأعداء موجودون في داخل البلاد. لم أرهم بعد، لكن الحكايات عنهم منتشرة، وأنا أصدقها تمامًا. إنهم كائنات متواجدة داخل البلاد، لكن الحكايات المعروفة عنهم لا يمكنها رسم صورة لهم. كل من وقع ضحية لهم لم يتحقق من رؤيتهم. سيأتون. فأنا أسمع وقع أقدامهم تحت أقدامي، في الأرض التي تضمهم، وصرنا جميعًا في مأزق. وهنا لا يجوز القول بأننا نعيش في بيتنا؛ بل نحن على العكس نُقيم في بيتهم. ولن يحميني منهم ذلك المخرج، لن يحميني منهم، بل سيكون سببًا في موتي، لكن مازال لدي أمل فيه، فبدونه لا يمكنني أن أعيش. وفضلًا عن هذا الممر الكبير مازال يربطني بالعالم الخارجي ممرات أخرى ضيقة للغاية وخطيرة، لكنها تُؤَمِّن لي الهواء الذي أتنفسه. هذه الممرات بنتها جرذان الغابة. وكل ما فعلته هو أنني ألحقتها بالعمل في

بناء العرين. فهي تُؤَمِّن لي استطلاع الأمور عن بُعد، وتُوَفِّر لي الحماية. وأيضًا تحضر لي بعض الطعام الذي أقتاته، فأتمكن من القيام ببعض الأمور مثل صيد ما يكفيني لسد رمقي دون أن أغادر العرين، وهذا أمر شديد الأهمية.

أكثر ما يُمَيِّز العرين هو الهدوء. وهو بالطبع هدوء خادع. يمكن أن يُعَكِّر صفوه أحدهم فجأةً وينتهي كل شيء. لكن الهدوء على أي حال مازال سائدًا. أستطيع أن أتسلل إلى كل تجاويف العرين عبر ممراته، فلا أسمع سوى حفيف حيوان ما صغير يظهر من وقت لآخر. وسرعان ما ينتهي هذا الحيوان بين أسناني، أو أسمع صوت هبوط في أرضية العرين، وهو ما يستدعي إجراء الترميمات اللازمة، باستثناء ذلك فإن الهدوء يسود العرين. يهب عليه هواء فاتر وبارد قادم من الغابة.

أحيانًا أتمدد في إحدى الطرقات، وأتقلب في سعادة. شيء جميل أن تستقبل شيخوختك في هذا العرين، وأن تلقى خريف العمر في هذا الملجأ. حفرتُ في كل مئة متر تجاويف مستديرة صغيرة في ممرات العرين، أتقوقع فيها بسعادة، أدفيء جسدي وأستجم. يغشاني فيها نوم معسول هادئ، وأنا سعيد بما حققت، وبلوغي هدفي بامتلاك بيت. لا أعرف إن كانت هذه عادة من الماضي المنصرم، أم أن المخاطر المحيطة بهذا المنزل كانت عظيمة. أفزع من وقت لآخر من نوم عميق، وأرهف أذني وسط الهدوء الذي يسود العرين ليلًا ونهارًا. ثم أبتسم في هدوء، وأسلم نفسي بعدها لنوم أكثر عُمقًا. يا لهم من تعساء عابرو السبيل المشردون المنتشرون في الطرق والغابات. إنهم في أفضل

الأحــوال يلتحفــون أوراق الأشــجار، أو يتقوقعــون حــول أقــرانهم، ومُعرَّضون لكل أنواع المخاطر في الأرض والسماء! أما أنا، فأنام هنا في مكانٍ آمن من كل جوانبه ومثل هذه الأماكن المؤمنة في عريني هذا يتجاوز عددها الخمسين وبين الغفاء والنوم تمر الساعات التي أختارها للنوم وقتما أشاء.

يوجد مكان رئيسي في العرين اخترته بعناية، وأستخدمه في حالة الخطر وليس الملاحقة، بل في حالة مُحَاصرة العرين. يقع هذا المكان قريبًا من منتصفه. هذا العرين هو نتيجة عمل بدني شاق، استخدمت فيه كل أعضاء جسدي. أما الأمور الأخرى فهي مجرد مجهود ذهني لا أكثر. كثيرًا ما يصيبني اليأس نتيجة الإجهاد، وأريد أن أترك كل شيء، وأسقط على ظهري ألعن العرين، وأغادره، وأتركه مفتوحًا. كان في استطاعتي أن أفعل هذا، لأنني لم أكن أرغب في العودة. لكن بعد ساعات وأيام أعود مرةً أخرى تائبًا، أكاد أرفع صوتي حمدًا على سلامة العرين، ثم أواصل العمل فيه بسعادة غامرة. كان العمل في فناء العرين يبدو صعبًا بصورة عبثية (العبثية هنا تعني أن العرين لم يحصل على عائد مباشر من عملي هذا). فالمكان المخصص حسب الخطة لبناء الفناء كان سهلًا ورمليًّا، وكانت الأرض وكأن أحدهم سَوَّاها بمطرقة، فتكَوَّن مكان مستدير مقنطر بشكل رائع. لم يكن لدي لمثل هذا العمل سوى جبيني. فرحت أخبط بجبيني على الأرض آلاف المرات، ليلًا ونهارًا. كنت أسعد كلما نزف الدم من جبيني، فكان هذا دليلًا على أن الأرض بدأت تشتد صلابة، وهكذا كما اعترف لي الجميع بذلك

صرتُ مُستحقًا لهذا الفناء. أحفظ فيه المؤن، وكل ما أصطاده داخل العرين. أحفظ هنا كل ما يفيض عن حاجتي وكل ما أصطاده من خارج بيتي هذا. الفناء كبير جدًا، لا يملؤوه ولا حتى خزين نصف عام كامل. أستطيع هنا أن أبسط خزائني وأمر بينها، أعبث بها، أسعد بها وبكميتها وبروائحها المختلفة، وأصنع لنفسي قائمة تفصيلية بما أمتلكه في هذا البيت. وأستطيع في أي وقت أن أعيد تسوية كل شيء هنا، وأجري إحصاءات حسب فصول السنة، وخطة صيد مستقبلية. هناك أوقات تكون فيها خزائني ممتلئة، ولا أفكر في الطعام على الإطلاق، فلا أمد يدي على أي حيوان يتجول حولي هنا، وهو سلوك من ناحية أخرى يفتقد إلى الحيطة. أهتم كثيرًا بالاستعدادات الدفاعية، والنتيجة أن آرائي حول أغراض استخدام هذا العرين تتغير أو أقوم بتعديلها، في إطار محدد بالطبع. أحيانًا أرى أنه من الخطر تأمين الدفاع عن العرين في فناءه فقط. فالتنوع الموجود بالعرين يُقَدِّم لي إمكانات كثيرة. وأعتقد أنه من باب الحرص قد يكون من الأفضل أن أقسِّم المؤن، وأضعها في أماكن أصغر، ثم أحدد مثلًا مكانًا من بين كل ثلاثة مخازن ليكون رصيدًا احتياطيًّا، أو أخصص مكانًا من بين كل أربعة ليكون مخزنًا رئيسيًّا، ومن بين كل مكانين يكون أحدهما مخزنًا مؤقتًا، وهكذا. أستثني بعض ممرات العرين من التخزين بغرض خداع العدو، أو أختار عدة أماكن صغيرة حسب موقعها من المدخل الرئيسي. تتطلب خطة جديدة كهذه الكثير من العمل الشاق في الرفع والنقل. فيجب أن أعيد حساباتي في كل شيء، ثم أنقل المخزون هنا وهناك.

أستطيع بالطبع أن أفعل كل هذا بهدوء وعلى مهل، ولن يكون سيئًا أن أمسك الأشياء الجيدة من المؤن بين أسناني، ثم أستريح وقتما أشاء، أتذوق كل ما أريده.

الأسوأ هو عندما أفكر فجأةً وهذا يحدث غالبًا عندما أستيقظ فجأةً من نومي في أن التوزيع الحالي به بعض الأخطاء، وقد يسبب خطرًا واضحًا، وأن عليّ أن أصححه، بغض النظر عن حالة النعاس، والإرهاق الذي أعاني منه. وعلى الفور أنهض وأهرول، أبحث عن حساباتي، ومن أجل وضع خطة جديدة أكثر دقة، ألتقط بصورة عشوائية كل ما يقابلني، وأضعه بين أسناني، وأحمله وأنا أتنفس الصعداء تعبًا، وألهث وأتساقط من الإعياء، حتى أطمئن لأي تغيير عشوائي في الحالة القائمة التي أراها شديدة الخطورة. ثم ينجلي الشك وأنا غارق في عرقي، فلا أكاد أفهم سبب هذه الهرولة. أستنشق بعمق رائحة السَّكينة التي تلف بيتي، والذي قمت بتعكير صفوه، فأعود إلى جُحري، ويغلبني النعاس على الفور من كثرة الإرهاق. وعندما أستيقظ أجد فأرًا مازال عالقًا بين أسناني، ليكون دليلًا دامغًا على ما قمت به من أعمال أثناء الليل، أتذكرها وكأنها حلم. هناك أوقات أرى فيها أن أفضل ما يمكن عمله على الإطلاق هو تجميع كل المؤن في مكان واحد. فما هو الغرض من وضعها في كل تلك الأماكن الصغيرة التي لا تتسع للكثير من المؤن، وكل ما أنقله إليها يُعرقل الطريق، وسوف تكون عائقًا أمامي يومًا عندما أدافع عن العرين، أو أضطر للهرب. ربما يكون أمرًا غبيًّا، لكنها الحقيقة؛ إن ثقتي بنفسي تتأثر لو لم أرَ كل مؤني مجتمعة في مكانٍ

واحد، لو لم ألق نظرة واحدة على كل ما أملكه. ألا يمكن أن يختفي الكثير من المؤن أثناء هذا التوزيع الكبير؟ لا يمكن أن أمر عليها هنا وهناك بشكل منتظم، وأدور في كل الممرات لأتأكد من أن كل شيء في مكانه الصحيح. إن الفكرة الأساسية من عملية توزيع المؤن صحيحة، فقط عندما يكون لدي المزيد من تلك الأماكن، مثل فناء عريني هذا. المزيد منها!

بالطبع! لكن من في استطاعته القيام بأمر كهذا؟ فلن أستطيع الآن أن أجد لها مكانًا في خريطة العرين. أعترف أن هذه هي إحدى عيوب العرين، وهو ظهور عيب ما كل يوم في الأماكن التي لا يوجد لها مثيل بالعرين. كما أعترف لكم بأن خطة بناء العرين عنت لي بصورةٍ غير واضحة ربما كانت أكثر وضوحًا لو كان لدي المزيد من الإرادة فكرة وجود المزيد من الأفنية بالعرين، لكنني لم أهتم بالفكرة، وشعرت وقتها بالضعف الشديد أمام مهمة شاقة كهذه. نعم، شعرت بالضعف أمام ضرورة عمل كهذا. رحت أُمَنِّي نفسي بمشاعر أكثر وضوحًا: أن ما لا يكفي في بعض الحالات سوف يفي في حالتي بالغرض بشكل استثنائي، من باب الرأفة، لأن حُسن الإدارة يتطلب الحفاظ على جبهتي، هذه المطرقة. لكن ليس لدي الآن سوى فناء واحد. اختفت المشاعر الغامضة بأن هذا الفناء الواحد يومًا ما سيصير غير كافٍ. أيًّا كان الأمر، لابد أن أقتنع بشيء واحد، وهو أن الأماكن الصغيرة لن تكون بديلًا عن الأفنية الكبيرة. عندما تنضج هذه الفكرة في داخلي، سوف أشرع من جديد في نقل كل مخزوني من تلك الأماكن الصغيرة

إلى الفناء الكبير. سيسعدني لفترةٍ مقبلة أن عندي أماكن كثيرة وطرقات فارغة، وأني أرى أكوام اللحوم الكثيرة متجمعة في الفناء، تنشر روائحها المختلفة إلى أقصى ممرات العرين. كل ممر من ممراته يبث إليّ رائحته على طريقته الخاصة، فأستطيع تمييزها عن بُعد. عادةً ما تحين أوقات من الهدوء الخاص والسلام، عندما أقوم بنقل عريني على مهل وبالتدريج من الدوائر الخارجية إلى الداخل، ثم أغوص في الروائح حتى تصير غير محتملة. وذات ليلة أهرول إلى الفناء، وأنقض على المؤن، وأدس في فمي بشكل مذهل أفضل ما أشتهيه. أوقات سعيدة، وخطيرة أيضًا؛ فكل من يستطيع استغلالها، بإمكانه أن يدمرني بسهولة دون أن يُغامر بأي شيء. إن عدم وجود فناء ثاني أو ثالث يُعتبر خسارة كبيرة، إن هذا التراكم الكبير والغريب لكل شيء يزعجني. أحاول السيطرة عليه بطريقة أو بأخرى، فتوزيع المؤن في الأماكن الصغيرة واحد من تلك الإجراءات. لكن للأسف يؤدي هذا كما هو الحال في كل الإجراءات المماثلة إلى حدوث فاقد، وإلى مزيد من الشراهة التي تُسيطر على العقل، وتُغَيِّر بشكل عشوائي من الخطط الدفاعية بغرض تحقيق أهداف تلك الإجراءات.

حتى أظل في الموضوع، فبعد تلك الأوقات أبدأ في مراجعة شؤون العرين. غالبًا ما أغادره عندما أقوم ببعض الإصلاحات الضرورية، لكن لفترات وجيزة. تبدو لي العقوبة المتمثلة في مغادرة العرين لفترة طويلة قاسية إلى حد كبير. لكنني أعترف بضرورة القيام برحلات من وقت لآخر. عندما أقترب من مدخل العرين تكون لحظة تاريخية. ففي أوقات

الحياة العادية داخل العـرين أتجنب الاقـتراب من المـدخل، ولا أقـترب من مرتفعات الممر المؤدي إليه. فليس سـهلًا الـذهاب إلى هنـاك، لقـد صنعت متاهـة صـغيرة من الممـرات، ومنهـا يبـدأ العـرين. لم أكن حتى أحلم عندما شرعت في بنـاءه بـأني سـوف أنهيـه بنـاءً على الخطـط الـتي وضـعتها لـه. لقـد بـدأت البنـاء في هـذه الناحيـة بـدون مجهـود كبـير، واحتفلت بعملي وأنا أراه يتحـول إلى متاهـة، اعتبرتهـا في ذلـك الـوقت قمة الإبداع المعماري، لكني اليـوم لا أرى فيـه سـوى بنـاء تافـه وحقـير. ربما يكون رائعًا من الناحية النظرية قلت لنفسي وقتهـا سـاخرًا: إن هـذا هـو مـدخل بيـتي، وأنـا أخـاطب عـدوًا خفيًّا أراه مسـحوقًا عنـد متاهـة الـدخول، في الحقيقـة هـو ألعوبـة ذات حوائـط رقيقـة لا تكـاد تتحمـل هجومًا كبيرًا من عدو يحارب بيأس من أجل البقاء. هل يجب أن أعيـد بناء هذا الجزء من العرين؟ أجلت اتخاذ القرار، وغالبًا سيبقى كمـا هـو. بغض النظر عن العمل الشاق الـذي سأضـعه على كـاهلي، فهـذا العمـل شديد الخطورة، أخطر مما يمكن تصوره. عندما شرعت في بناء العرين كـان العمـل هادئًا نسـبيًّا، ولم يكن هنـاك أي نـوع من المخـاطر غـير المعتادة في أماكن أخرى، اليـوم قـد يبـدو الأمـر وكأنـك تريـد أن تخـبر العالم كله عن كل عرين. اليوم صـار الأمـر صـعبًا. وهـذا أمـر يسـعدني، فأنـا أنمي في نفسـي شـعورًا بالبدائيـة. أي مخطـط للمـدخل يمكنـه أن يحميني لو حدث أي هجوم كبير؟ المـدخل يمكنـه أن يُربـك المهـاجم، ويصرفه عني، ويسبب له معاناة، وهـذه في أسـوأ الأحـوال مهمـة يمكنـه القيام بها. لكن بالفعل يجب أن أُجَابِه أي هجوم كبـير بجميـع الوسـائل

في المبنى، وبكل ما أوتيت من قوة في بدني وفي روحي وهذا أمر بديهيّ. فليبق هذا المدخل إذن كما هو. إن العرين به العديد من مناطق الضعف التي مَنَحَته إياها الطبيعة. فليكن به هذا العيب الذي صنعته أنا بيدي، والذي أعرفه جيدًا. هذا لا يعني أن هذا العيب لا يسبب لي إزعاجًا من وقتٍ لآخر.

وإن كنت أتجنب هذا الجزء من العرين أثناء جولاتي المعتادة، فالسبب يعود إلى أني لا أحب رؤيته، ولا أحب أن أنظر على الدوام إلى عيب العرين الذي يُثير في نفسي المخاوف. فليبق هذا العيب عند المدخل كما هو، لا يراه أحد، وسأظل أتجنب النظر إليه قدر المستطاع. وعندما أسير باتجاه المخرج ولا تفصلني عنه سوى الممرات والفراغات أشعر بأني في مكان شديد الخطورة، وكأن شعر جسمي قد سقط من فوقه، وأقف منذ الأزل كلحم حي عاري، فيستقبلني أعدائي بالزئير مرحبين. الحقيقة أن مثل هذه المشاعر تنتاب المدخل نفسه، وهو من نُوكل إليه حماية البيت، لكن ما يُعذبني هو الجزء الأمامي للمبنى. أحيانًا أرى في المنام أني أعدت بناء المدخل، وغَيَّرته بالكامل بسرعة وبقوة خارقة في ليلة واحدة، ولم يرني أحد، فصار مُحَصَّنًا. في ليلة كهذه، يراودني فيها حلم كهذا يكون النوم من أجمل اللحظات، وأجد دموع السعادة والخلاص تتلألأ على لحيتي عندما أستيقظ.

يجب أن أتغلب جسديًّا على عذاب المتاهة أيضًا عندما أرغب في الخروج. يزعجني ويسعدني في الوقت نفسه عندما أتوه أحيانًا وللحظات في العرين الذي صنعته بنفسي، وكأنه يسعى إلى أن يثبت لي

أنا الذي أعرف الأمر منذ زمن بعيد حقه في الوجود. فأجد نفسي أسفل سقف من الطحالب، أتمنى له مزيداً من الوقت عندها سأظل قابعًا في العرين لينمو ويلتحم بأرض الغابة. والآن يكفيني المرور فيه برأسي، لأصبح في أرضٍ غريبة. ترددتُ كثيرًا في القيام بهذه الحركة البسيطة.

ولو كان ممكنًا أن أبني هذه المتاهة من جديد، لما صنعتها. ولانصرفت إلى شيءٍ آخر. وكيف هذا؟ بيتك مَحميّ، ومُغلق على نفسه. أنت تعيش في سلام، وفي دفء، صحتك جيدة، أنت السيد، السيد الوحيد لكل هذه الطرقات والفراغات، وتريد أن تخاطر بكل هذا لا تضحي به بالطبع، ثم تتمنى أن تحصل عليه من جديد.

أستبدأ في لعبة كبيرة، لعبة ضخمة؟ هل عندك أسباب منطقية لذلك؟ كلا، لا توجد أسباب منطقية للقيام بشيء كهذا. كل ما سأفعله إذن هو رفع الباب الساقط بحرص، ثم أنطلق إلى الخارج، وأتركه يسقط على مهل. ثم أنصرف مسرعًا، بكل قوتي، بعيداً عن هذا المكان الخادع.

لكني لست معتادًا على الحرية. ورغم أني لا أصطاد في طرقات العرين بل في غابة فسيحة إلا أنى أشعر بقوة جديدة تسري في جسدي، لا يتسع لها العرين، ولا فناء العرين حتى ولو كان أكبر من ذلك عشرة أضعاف. حتى الطعام خارج العرين أفضل. ورغم أن الصيد أكثر صعوبة والتوفيق ليس في كل مرة، إلا أن النتيجة على أية حال لها قيمتها. أنا لا أنفي كل هذا، وأستطيع أن أفهم هذا وأن أتقبله، على الأقل مثل أي رجل آخر. وربما أكثر من غيري، فأنا لا أصطاد باستهتار، أو بدافع من

اليأس مثل أي متسول، بل أنتقي ما أصطاده وبروية. كما أني لست ممن خُلقوا للحياة الحرة، أهيم فيها بلا هدف، بل أعرف أن وقتي محسوب، وأني لن أواصل الاصطياد إلى الأبد، وأن شخصًا ما يدعوني عندما أقرر أني سئمت من هذه الحياة شخص أعجز عن رفض دعوته. لذلك أستمتع بهذا الوقت هنا قدر المستطاع، وأقضيه بلا مشاكل. أقصد أني أستطيع أن أكون كذلك، لكني لا أريد. الحياة في العرين تأخذ كل وقتي. انصرفتُ بعيدًا عن المدخل، وسأعود عما قريب.

أبحث عن مأوى جيد لأراقب مدخل بيتي هذه المرة من الخارج أيام وليالي. ربما يكون هذا عمل أحمق، لكنه يسبب لي سعادة غامرة، ويبعث الهدوء في نفسي.

أشعر وكأنني لا أقف أمام بيتي، بل أمام نفسي وأنا نائم. وكأنني حظيت بفرصة النوم العميق، وفي الوقت نفسه أسهر أحرس نفسي. إنها إشارة لي بأني في استطاعتي رؤية أشباح الليل، ليس فقط وأنا عاجز أثناء النوم، لكن أيضًا أواجههم في الواقع في الوقت نفسه، وبكل ما أوتيت من قوة، وأنا في كامل يقظتي وانتباهي. أكتشف أنني في وضعٍ جيد، تمامًا كما أعتقد دائمًا وسأظل أؤمن بهذا عندما أعود إلى بيتي. من هذا المنطلق وربما من منطلق آخر، ولكن من هذا المنطلق بالذات أعتقد أن هذه الرحلات ضرورية بالفعل. الحقيقة أنه رغم أني اخترت أن يكون مدخل العرين بعيدًا عن الضجيج، باختصار لو لخصت لكم ملاحظاتي خلال أسبوع واحد، نجد أن الحركة في هذه الأماكن كبيرة بشكل ملحوظ. وربما يكون الأمر كذلك في كل البقاع المأهولة،

والمفيد التعرض لمثل هذه الحركة النشطة التي تدفع نفسها للأمام، أفضل من الوحدة القاتلة وأن أكون تحت رحمة أول قنَّاص يبحث عن فريسة. فهنا العديد من الأعداء بمعداتهم، لكنهم يتصارعون فيما بينهم ويتدافعون حول العرين. لم أر طوال هذه المدة أحدًا يتوجه مباشرةً ناحية مدخل العرين، وهذا من حُسن حظي وحظه، وإلا لأمسكته من عنقه بدون تردد دفاعًا عن العرين. الحقيقة أن بعضهم ظهر بجوار المكان، ولكني لم أجرؤ على الاقتراب منهم، واضطررت إلى الهرب بعيدًا عنهم.

ترقبتهم عن بُعد بصعوبة، وتنبأتُ بما قد يفعلونه بالعرين، فلم أستطع قول أي شيء. لكن ما هَدَّأ من روعي أني عندما عدت مبكرًا لم أر أيًّا منهم، وكان المدخل سليمًا. كانت هناك أوقات سعيدة، كنت أقول فيها لنفسي: إن معاداة العالم لي ربما انقضت، أو هدأت، أو أن قوة العرين تحول بيني وبين نزاع طاحن. ربما أن العرين يوفر الحماية على نحوٍ أفضل مما توقعتُ يومًا ما، حتى وأنا داخل العرين. ذهبتُ بالأمر بعيدًا؛ بأنني أحيانًا تمنيت كالأطفال ألا أعود إلى العرين مرةً أخرى، بل أظل هنا بالقرب من المدخل، وأقضي حياتي في مراقبة مدخل العرين، وأتأكد بنفسي وأبحث في هذا الأمر عن السعادة من أنني استطعت تأمين العرين بشكل أقوى من وجودي بداخله. حسنًا، غالبًا ما أستفيق سريعًا من أحلام الأطفال هذه. ما هو التأمين الذي أراه من هنا؟ أيمكنني أن أُقَيِّم المخاطر التي أتعرض لها وأنا في العرين بناءً على ملاحظاتي هنا خارجه؟ هل يمكن لأعدائي أن يَشكّوا في أني لست في

العرين؟ سوف يَشكّون ولـو قليلًا في وجـودي خـارج العـرين، ولكن لن يكونوا متأكدين من ذلك. وهل يُعَد وجود شكوك مؤكدة أساسًا لوجـود خطـر حقيقي؟ إن مـا أفعلـه هنـا مـا هـو إلا محـاولات منقوصـة، لكنهـا مفيـدة في طمـأنتي. لكن هـذه الطمأنـة المزيفـة تقـودني إلى مخـاطر محتملـة. غـير أن الأمـر ليس كـذلك. أنـا لا أراقب نفسـي، كمـا كنت أعتقد، وأنا نائم، بل أنا بالفعل نـائم، بينمـا من يريـد تـدميري مُستيقظ. ربما يكون هو أحد الذين يتسكعون حول عريني دون أن يلاحظهم أحد، ليتأكـد في كـل مـرةٍ، مثلي تمامًـا، من أن البـاب مـازال مُغلقًـا، وينتظـر لحظـة الهجـوم. يـأتون إلى هنـا ليتأكـدوا من أن سـيد المـنزل ليس بالداخل، أو لأنهم يعرفون أنه يتجول وسط الأيكة بكـل ارتيـاح. سـأترك مكان المراقبة، لقد سئمت من الحياة في الفضاء الواسع. أشعر أنني غير قادر على تعلُّم شيء جديد هنا، لا الآن ولا فيما بعد. تساورني رغبـة في ترك كـل هـذا والعـودة إلى العـرين، وألا أخـرج منه مـرةً أخـرى، ولتبـق الأمـور كمـا هي، وألا أزعج نفسـي بمراقبـة لا طائـل منهـا. لقـد أرهقت نفسي بمتابعة طويلة لكل ما يحدث عند المدخل. تنتظـرني الآن معانـاة طريـق العـودة إلى الـداخل، ومـا تسببه من اضـطراب، فلن أعـرف مـا سـيحدث في محيـط العـرين خلـف ظهـري، وخلـف الأبـواب الـتي سـأغلقها من خلفي. سـأحاول في الليـالي عاصـفة أن أدفـع فريسـة مـا بسرعة إلى داخل العرين. يبـدو أني سـأتمكن من هـذا الأمـر لـو قُـدر لي هذا. سوف أتأكد منه عنـدما أعـود إلى العـرين، سـأتأكد منه بنفسـي أو ربمـا أحـد غـيري، لكن بعـد فـوات الأوان. سأنصـرف من مكـاني، ولن

أدخل العرين. سأحفر خندقًا تجريبيًّا على مسافة مناسبة بعيدًا عن المدخل الحقيقي، ولكن سيكون الخندق أكبر من جسمي، وسوف يُغلق هو الآخر بالطحالب. سأنسل إلى داخله، ثم أغطيه وأنتظر، وأحسب الأوقات، طويلة كانت أو قصيرة أثناء ساعات اليوم، ثم أزيل الطحالب، وأخرج، وبعدها أُسَجِّل ملاحظاتي. سأكتسب خبرات مختلفة، منها الجيد ومنها السيء. لكني لن أجد قانونًا عامًا أو طريقة آمنة للنزول إلى الخندق. لذلك لن أنزل إلى العرين من مدخله الرئيسي، وسوف أضطر إلى هذا عاجلًا. صرتُ على وشك اتخاذ قرار بأن أنصرف بعيدًا، وأن أبدأ حياةً جديدةً، حياة ألفتها، حياة لا معنى لها، حياة خالية من أي يقين، حياة كانت عبارة عن خليط من المخاطر التي لا يمكن تمييزها عن بعضها. حياة لم تسمح لي بتمييز الأخطاء عن بعضها. حياة أخشاها كما تعلمت من المقارنة المستمرة لعريني الآمن بالحياة الأخرى. مثل هذا القرار قد يكون ضربًا من الجنون سببه الحياة الطويلة في حرية عبثية. مازال العرين عريني، ويكفيني خطوة واحدة وأصبح في أمان. وأصبح حرًا في حركاتي، وأنطلق في وضح النهار على طريق مستقيم نحو الباب حتى أفتحه بحرص، لكني غير قادر، أدور حوله وأدوس متعمدًا على الأشواك حتى أعاقب نفسي على ذنب لا أعرفه. وفي النهاية يجب أن أقول إنني على صواب، وأنه من غير الممكن العودة إلى العرين قبل أن أغامر ولو للحظة بأغلى ما عندي، وأصبح عُرضة لكل ما هو حولي على وجه الأرض وعلى الأشجار وفي الهواء. لن ألتمس الأعذار بالمخاطر، فهي حقيقة ناصعة. ليس

بالضرورة أن يكون عدوًا أثير شهيته حتى يلاحقني، ربما يكون أيضًا مخلوقًا، أيًّا كان هذا المخلوق، كريهًا وساذجًا، سيلاحقني من باب الفضول ويصير دون أن يقصد زعيمًا لكل من سيلاحقونني، وليس بالضرورة أن يكون كذلك. لكنه لا يقل خطورة عن غيره، بل يمكن أن يكون أخطرهم على الإطلاق، وربما يكون شخصًا مثلي، يُمَارِس هواية بناء الخنادق، متجول في الغابة، ومحب للهدوء، لكنه شرير، يحب السكن دون البناء. ليته يأتي الآن، ليته يكتشف مدخل العرين، ويكشف عن جشعة، ليته يشرع في هذا الفعل، ويرفع الطحالب، ليته يتمكن من ذلك، ليته يأتي ليبحث عني في العرين، ليته يأتي وتظل مؤخرته عالقة عند مدخل العرين للحظات، ليت كل هذا يحدث حتى أنقض عليه دون تردد وبكل ضراوة، أقطعه إربًا، وأُمزق جسده وأشرب دمه، وألقي بجيفته جوار فرائسي الأخرى. والأهم من ذلك كله بالطبع أن أكون وقتها في عريني، أتطلع بسعادة إلى متاهتي. بعدها أسحب الطحلب فوق السقف لأغطي به جسدي. ثم أستلقي مسترخيًا طوال ما تبقى من حياتي. لكن أحدًا لن يأتي، وسأظل وحيدًا. سأفقد الكثير من هيبتي طالما بقيت أفكر في المتاعب التي تلاحقني، لم أعد أتجنب الدخول إلى العرين، أدور الآن حوله من الخارج، أسترق إليه النظر وكُلّي ولع به. مازال الوقت مبكرًا حتى أصبح كالعدو الذي يترقب اللحظة المناسبة؛ ليتمكن من التسلل إلى العرين. لو أن لي صديقًا أأتمنه على نفسي، يقف بدلًا مني على ربوة المراقبة، لدخلت بكل هدوء إلى العرين، ولا تفقت معه على أن يراقب الموقف ساعة دخولي إلى العرين وبعدها،

حتى إذا ظهرت علامات خطر، يخبط على السقف المغطى بالطحالب. هذا كل ما أنتظره منه. ولو أنه موجود لحرصت على أن تكون الترابيزة نظيفة، لا أترك عليها أي أثر للطعام، لكن أين هو! ألن يطلب شيئًا في المقابل، ألن يرغب في إلقاء نظرة على عريني؟ سيكون من الصعب السماح له طواعية بالدخول إلى العرين. لقد بنيته لنفسي، وليس للزائرين، أعتقد أنني لن أسمح له بالدخول. لن أسمح له حتى لو ساعدني في الدخول إليه. لا يمكنني أن أدعه يدخل، لأنني إما أن أتركه يدخل بمفرده إلى العرين، وهذا أمر لا يمكنني تصوره، أو أنني سأدخل معه، وفي هذه الحالة تسقط أهميته في حماية ظهري وأنا أدخل. وماذا عن الثقة؟ هل يمكن أن أثق في ذلك الشخص حتى وأنا لا أراه، وعندما يفصلنا سقف الطحالب عن بعضنا؟ من السهل نسبيًّا الثقة في شخص نُؤَمِّن له نحن أيضًا الحماية، أو يمكننا فعل ذلك. ربما قد يكون من السهل الثقة في إنسان عن بُعد، لكن أعتقد أنه ليس في الإمكان الثقة في إنسان وأنا بداخل العرين، أي إنسان من عالم آخر. ليس بالضرورة وجود مثل هذه الاحتمالات، يكفي التفكير بأنه أثناء دخولي إلى العرين أو بعده يمكن أن تمنع ذلك الصديق أمور طارئة كثيرة من أداء مهمته. وأمر من هذه الأمور الطارئة يمكن أن ينجم عنه نتائج وخيمة عليّ. ولو جمعنا هذا كله فلن يكون عليّ أن أشكو من وحدتي، ولا يوجد من أأتمنه على نفسي. ولن أخسر الكثير، بل ربما أحمي نفسي من وقوع خسائر. يكفيني أني أثق في نفسي وفي العرين. كان يجب أن أنتبه إلى هذا الأمر، وأقوم بكل ما يلزم لتحقيق المهام التي هي على عاتقي الآن.

كان هـذا ممكنًا في بداية بناء العرين، كـان عليّ بناء الممر الأول في العرين بحيث يؤدي إلى مدخلين بعيدين عن بعضهما بمسـافة مناسـبة، بحيث أدخل من أحدهما بهدوء، أو بسرعة إن تطلب الأمر ذلك. أجـري في بدايـة الممـر نحـو المـدخل الثـاني، أرفـع قليلًا السـقف المغطى بالطحالب، الذي يجب أن يكون مُعَدًّا لهذا الغرض. وبهـذا أحـاول على مدى بضع ليالٍ أن أراقب الموقف. هـذا هـو الحـل الأمثـل. صـحيح أن وجود مدخلين قد يضاعف من المخاطر، لكنني يمكن أن أتجاهل هـذه الحجة، خاصةً أن المدخل المبني بغرض المراقبة يمكن أن يكون ضـيقًا تمامًا.

وهكذا أغرق في التفاصـيل الفنيـة. وأبـدأ من جديـد أحلم بعـرين مثـالي تمامًا، وهذا أمر ينشر في نفسي السكينة، وأتطلع وأنا مغلـق العيـنين إلى إمكانيـات معماريـة غـير واضـحة تمامًـا ومن شـأنها تسـهيل الـدخول والخروج من العرين.

عَلَّقت على تلك الإمكانيات أهمية بالغة وأنا اسـتلقي وأفكـر فيهـا. إنهـا مجرد إضافة تقنية، وليست إضافة حقيقية. فلا أرى ضرورة من الدخول والخروج المتعاقبين.

إنه لا يدل إلا على تفكير متململ، وعلى تقدير للـذات لا يتسـم بالثقـة، وعلى نزوات فاسدة، وصفات مذمومة، تصبح أكثر سوءًا عنـد مقارنتهـا بالعرين الـذي يسـتطيع أن يملؤنـا بالسـلام، عنـدما نفتح لـه قلوبنـا على مصراعيها. لكنني الآن خارج العـرين، أبحث عن وسـيلة للعـودة، وهـذا

الإجـراء التقـني قـد يكـون ضـروريًّا. لكنـه من جـانب آخـر ليس بهـذه الضرورة. ألا تُعَد مثل هذه الأفكـار في ظـل هـذا التـوتر العصـبي تقليلًا من شأن العـرين، وخاصـةً إذا نظرنـا إليـه على أنـه مجـرد وكـر، نريـد أن ندخله بأكثر الطرق أمانًا؟ بالطبع هو كذلك، ويجب أن يكون هذا الوكر آمنًا. عندما أتصور أني أتعـرض لخطـر داهم، أرغب بكـل مـا أوتيت من قوة وعزم ألا يكون الوكر شيئًا آخر غـير تجويـف للحفـاظ على حيـاتي، وأن يقوم بهذه المهمة الواضحة على أفضل وجه، وأصبح على اسـتعداد للتغاضي عن أي مهمة أخرى قد يؤديها.

لكن رغم أنه في الواقع وهذا الواقع لا نراه وقت الشدائد الكبيرة، ولكن علينا ساعة الخطـر أن نتعلم كيـف نـراه يـوفر الأمن الكامـل، لكن ليس بالقدر الكافي. لكن هل تتقلص فيه الهمـوم؟ إنهـا همـوم من نـوع آخـر، هموم أعلى مكانة وقيمة، هموم مكبوتة بقوة في الغالب، لكن تأثيرها قد يكون بنفس تأثير الهموم التي تسببها الحياة خارج العرين. لو أنني بنيت العـرين ليحمي حيـاتي فقـط، فعنـدها ربمـا لن أتعـرض للخيانـة، لكن سـتكون العلاقـة بين العمـل الشـاق والأمن الحقيقي غـير متكافئـة. من الصعب الاعتراف بهـذا الأمـر، لكـني سـأفعل. سـأفعله مباشـرةً مـع هـذا المدخل الذي يحميني أنا، فأنا من بنـاه ومن يمتلكـه. لكن العـرين ليس فقط وكرًا للحماية. عندما أدخل إلى فنائه، وأجد نفسـي مُحَاطًـا بـأكوام من خزائن اللحوم، وأنظر إلى عشر ممرات تتفرع من هـذا الفنـاء، وكـل ممر منهم يتناغم مع المكان، صعودًا وهبوطًا، استقامةً وتعرجًا يتسـع أو يضـيق، كلهـا هادئـة وفارغـة، كـل ممـر منهم مسـتعد أن يقـودني إلى

فراغات متعددة، هادئة أيضًا وخالية أنسى كل الأفكار التي تراودني عن الأمن. وأعرف بعدها جيدًا أن قلعتي هنا، قلعتي التي حفرتها بأظافري وبأسناني وبقدمي في أرض صلبة، قلعتي التي لا يمكن أن يسلبني إياها أحد، قلعتي التي قد أتقبل بكل ترحاب أن أتلقى جرحًا قاتلاً من عدوي بسببها، لأن دمي سوف يسيل في أرضي ولن يضيع. وليس أجمل من ساعات جميلة أقضيها هنا، مقسمة بين النوم الهادئ واليقظة السعيدة، أتجول في طرقاتها التي صُممِّتْ لكي تناسبني، لأتمدد فيها بسعادة، أتمرغ فيها كالأطفال، وأتسكع فيها، وأنام بكل سعادة. كل الأماكن الصغيرة التي أعرفها جيدًا رغم أنها متشابهة أُمَيِّزها جميعًا من حدبات حوائطها وأنا مغمض العينين. حوائطها تحتضنني بسلام ودفء مثل عش يحتضن طائره. وكل شيء، كل شيء هادئ وفارغ. ولكن مادام الأمر هكذا، لماذا إذن أتردد، لماذا أخاف من دخيل، ولا أخاف من إمكانية ألا أرى العرين بعد اليوم؟ يا إلهي! هذه الفرضية الأخيرة لحُسن الحظ غير واردة على الإطلاق. أنا لست مضطرًا إلى الإسهاب في الحديث عن أهمية العرين لي؛ فأنا والعرين صرنا جزءًا واحدًا، إلى درجة أني على استعداد أن أظل قابعًا بكل هدوء في مكاني هذا رغم كل الخوف الذي أشعر به. لن أسعى رغم هلعي الشديد إلى أن أفتح باب العرين. يكفيني تمامًا أن أنتظر هنا، ولا أفعل شيئًا، فلا توجد قوة في الكون يمكنها أن تفرقنا عن بعضنا. سأجد في كل الأحوال طريقةً للنزول إلى العرين. لكن كم من الوقت سأنتظر حتى تحين لحظة دخولي إليه، وماذا يمكن أن يحدث خلالها هناك فوق

الربوة، أو هنا في العرين؟ الأمر في يدي لكي أجعلها قصيرة، وأفعل على الفور كل ما يجب أن أفعله.

أقترِب من مدخل العرين غير قادر على التفكير من شدة الإرهاق، رأسي متدلية، وخطواتي مترددة، بين اليقظة والنوم، أتهادى في خطواتي. أرفع الطحلب، وأدلف على مهل إلى الداخل. دفعني شرود ذهني إلى أن أترك مدخل العرين مفتوحًا، إلى أن تذكرت ما أهملت فيه، فصعدت من جديد لأصلح خطأي. لكن لماذا الصعود؟ يكفي أن أجذب السقف الطحلبي. حسنًا، أهبط من جديد وأنا أسحب السقف الطحلبي من خلفي. في هذه الحالة فقط، فقط في هذه الحالة أستطيع أن أقوم بشيء كهذا. ثم أستلقي تحت الطحلب، فوق فريستي التي أحضرتها، ملطخًا بالدماء وبمرق اللحم. وبعدها يمكن أن أستسلم للنوم المعسول. لا يزعجني شيء، ولا يلاحقني أحدهم. فالوضع فوق الطحلب يبدو هادئًا. ولو لم يكن كذلك لما توقفت عن المراقبة، ولما غيرت مكاني وتركت العالم العلوي، ثم نزلت إلى العرين. وعلى الفور بدأت أشعر بتأثير هذا التغيير. إنه عالم جديد، يُزَوِّدني بقوةٍ جديدة، وما يُسَمَّى إرهاق خارج العرين، ليس إرهاقًا في داخله. عدت من الطرقات، لا أشعر بجسدي من الإرهاق والكد، لكن العودة إلى الموطن القديم، والعمل على تحسينات جديدة تنتظرني، وضرورة تفقد جميع القاعات ولو سريعًا، وقبل كل شيء زيارة سريعة للفناء كل هذا يُحَوِّل الإرهاق إلى قلق جامح. يبدو الأمر وكأنني استيقظت من سبات عميق وطويل عند دخولي إلى العرين. دائمًا ما يكون العمل الأول صعبًا، ويشغل كل

وقتي؛ ألا وهو جَرّ الفريسة عبر ممرات المتاهة الضيقة، ذات الحوائط الهشة. أدفعها أمامي بكل قوتي، فتسير الأمور على ما يرام. لكن ببطء. وحتى أُسرع من وتيرة العمل أقتطع قطعة من هذا اللحم الكثيف، وألقيها فوق الفريسة، ليتبقى أمامي جزء صغير يسهل دفعه. لكنني محشور مع هذا الكم الكبير من اللحم في تلك الممرات الضيقة، أحتك بها لدرجة الشعور بأنني سأختنق وسط مؤني. كثيرًا ما أتجنب عبئها بأن أسرف في أكلها أو شربها.

لكن نقل الفريسة يتم في النهاية، لا يستمر هذا طويلًا، فالمتاهة قوية. أجد نفسي بعدها في ممر طبيعي. أدفع الفريسة عبر الدهليز القصير إلى أحد الممرات الرئيسية التي أعددتها لهذا الغرض والتي تنحدر بشدة لتصب في الفناء. وهنا لا أفعل شيئًا، فكل شيء يتم من تلقاء نفسه، يتدحرج ويسقط في الفناء. وأخيرًا أجد نفسي في فناء العرين! أخيرًا أستطيع أن أستريح. كل شيء كما هو. لا يوجد أثر لحدوث أي شيء غير متوقع. مجرد خسائر بسيطة ألاحظها من أول نظرة.

وسأصلحها على الفور، لكن يجب أن أمرّ سريعًا على باقي الممرات، وهذا لا يتطلب جهدًا يُذكر. فهو كحديث مع الأصدقاء، اعتدت عليه في الأيام الخوالي أنا في الواقع لست مُسنًا إلى هذه الدرجة، لكنى بصعوبة أتذكر عندما كنت أفعل هذا، أو أسمع أن شيئًا كهذا يحدث. أبدأ الآن بالدهليز الثاني وأنا أتعمد تفقده على مهل بعدما رأيت الفناء. لدي المزيد من الوقت فدائمًا عندي المزيد من الوقت وأنا في العرين. كل ما أفعله يكون جيدًا ومهمًا، وأستمتع به. أبدأ بالدهليز الثاني،

أتوقـف عن فحصـه، ثم أدخـل إلى الـدهليز الثـالث، الـذي يقـودني إلى الفناء. وعليّ الآن بالطبع أن أعود من جديد إلى الـدهليز الثـاني، وهكـذا تستمر لعبة العمل، وتتزايد، وأنا أبتسـم بسـعادة حـتى أُصـاب بالارتبـاك من كثرة العمل. لكني لا آبـه بـالأمر. من أجلكم أنتم، من أجـل الـدهاليز والفراغـات، من أجـل تلـك الأمـور، من أجـل الفنـاء أتيت، غـامرتُ بحياتي، وقد كنت قبل ذلك غبيًّا طوال الوقت لأني استسلمت للخوف، وأبيت العودة إليكم. والآن زال الخطـر وأنـا بينكم. أنتم مـني وأنـا منكم، مصيرنا واحـد في كـل مـا قـد يحـدث لنـا، فليـدبّ فـوق العـرين قطيـع كامـل، وليـتربص الغـازي، ويقتحم البـاب الطحلـبي. الآن يصـافحني العرين بصمته وخوائه ليؤكد ما أقوله. لكن التعب حَلَّ بي الآن، وسوف أتقوقع في إحدى قاعاتي الحبيبة. لم يحدث منذ زمن أن تفحصت كـل ما في العـرين مـرةً واحـدة، لكن يجب أن أُنهي جولـتي، لا أريـد أنـا أنـام هنا. لكني سوف أستسلم لرغبتي، سـوف أسـتلقي هنـا وكـأني أرغب في النوم طالما كان الأمر على ما هو عليه من قبل. نعم، هـو كـذلك، لكـني غير قادر على النهوض، سوف أُسلم نفسي لنوم عميق.

يبـدو أني نمت طـويلًا، واسـتيقظت من نـومي الأخـير. ربمـا كـان نومًـا خفيفًا، لأن حفيفًا خفيفًا أيقظني. إنه حيوان صغير لم أنتبه له، أو ألق له بالًا، حفر طريقًا جديـدًا في غيـابي، فـالتقى الطريـق الجديـد مـع طريـق قديم يهب منه الهواء، لذلك أسمع هذا الحسـيس. لـو كـان هـذا حيوانًـا حثالة نشطًا، ولو كانت همته هذه تتسم بالعدوانية، سوف أسترق السمع في بادئ الأمر من وراء حوائط دهليزي لأتأكد بحركات استطلاعية من

مصدر الحفيف، وبعدها يمكنني أن أعـالج الأمـر. عـدا ذلـك، يمكن أن يصبح هذا الدهليز الجديد فتحة تهويـة جديـدة طالمـا توافـق ولـو قليلًا مع طبيعة العرين. لكن يجب أن أهتم بهذه الكائنـات الصـغيرة أكـثر من ذي قبل، فلا يجب أن أهمل أي شيء.

وبما أنني مُدَّرَب جيدًا على تلك الدوريات، فبـالطبع لن يسـتغرق الأمـر وقتًا طـويلًا، ويمكن أن أبـدأ على الفـور، فتنتظـرني أعمـال أخـرى، لكن هـذا عمـل طـارئ، ويجب أن يسـود الهـدوء في أرجـاء دهـاليزي. هـذا الصوت غير ضار نسبيًّا، لم أسـمعه على الإطلاق عنـدما أتيت إلى هنـا، لا يمكن أن تلحظه إلا أذن مرهفة. ليس صوتًا دائمًا كمـا هي عـادةً مثـل هذه الأصوات، لكنه صوت مُتقطّع، يبدو أنها وقفات بين تجمع الهواء. سأبدأ في استكشاف الأمر، لكنـني عـاجز عن العثـور على المكـان الـذي يجب أن أعالجه، سأقوم ببعض أعمال التنقيب، لكن بصـورة عشـوائية، وهذا بالطبع عمـل بسـيط، فلا داعي للحفـر والـردم والتسـوية. لكـني لم أقترب بعد من مصدر هذا الحفيف، فمـازال يصـدر ضـعيفًا بلا توقـف وعلى فترات، تارةً أسمعه كصوت فحيح وتارةً أخـرى كصـفير. حسـنًا، يمكنني أن أتغاضى عن الأمر ولو مؤقتًا، صحيح أنه صوت مـزعج، لكن توقعي لمصدره أمر غير مشكوك فيـه. سـوف يتزايـد بصـعوبة، بـل ربمـا يختفي من تلقاء نفسه، فلم أنتظر طويلًا هكذا من قبل. مازال الحفيـف يتردد مثل المثقاب الصغير بغض النظر عن أنه قد يتوقف فجـأةً، بينمـا البحث الدؤوب المستمر قد لا يسـفر عن شـيء. سـوف يسـعدني هـذا، والآن من الأفضـل أن أواصـل تجـوالي في طرقـات العـرين، وأزور

القاعات، فلم أُلق التحية حتى الآن على العديد منها. وحتى الآن مازال الصوت يتردد في أرجاء الفناء، ولا أرغب في التوقف، يجب أن أواصل البحث. هذا الأمر أخذ مني الكثير من الوقت الذي يجب أن أستغله على نحو أفضل. في مثل هذه الظروف تجذبني أكثر المسائل الفنية. فعلى سبيل المثال وبناء على الصوت الذي أستطيع تمييزه بأذني بكل وضوح ودقة؛ أتصور مصدره وسببه. والآن أشعر بضرورة التأكد إن كان هذا مطابقًا للواقع. وهذا سبب وجيه، لأني لو لم أصل إلى نتيجة محددة لا يمكنني أن أشعر بالأمن حتى ولو تعلق الأمر بمعرفة مكان حبة رمل سقطت من فوق جدارٍ متداعٍ.

ويُعَد مثل هذا الحفيف، من وجهة النظر هذه، أمرًا عديم الأهمية. أو ربما يكون مهمًا، سأواصل إذن البحث مرات ومرات، ولن أعثر على شيء، أو ربما أكتشف الكثير. قلت لنفسي: هل كان ينقصني هذا في مكاني المحبوب؟ سأنصرف بعيدًا، إلى منتصف الطريق المؤدي إلى أقرب غرفة. كل شيء هنا مزحة. أريد أن أثبت لنفسي أن هذا الصوت لم يشغلني عن مكاني المحبوب، وأني أسمعه بابتسامة. لكن سرعان ما تختفي الابتسامة، لأن سماع الصوت نفسه هنا يؤدي إلى ذلك. لكن دعنا من هذا، أعتقد أن أحدًا لا يسمع هذا الصوت غيري. أسمعه بأذنيّ المدربتين بصورة أوضح مع مرور الوقت. كيف يمكنني أن أقتنع بأنه موجود رغم أن الصوت نفسه في الحقيقة منتشر في كل مكان. أعتقد أنه صوت ضعيف وأنا أحاول أن أسمعه وسط الدهليز وليس بأذنيّ خلف الحائط. وبالكاد، بتركيز بالغ أحاول أن أُخَمِّن مصدر الصوت

دون أن أسمعه. لكن ما يزعجني حقًا هو أنه بالقوة نفسها في كل مكان، ولا يتفق على الإطلاق مع ما توقعته له في البداية. ولو أنني تنبأت بشكل سليم بسبب الصوت فلابد أنه يصدر قويًّا من مكان محدد يمكن العثور عليه، ثم يضعف الصوت كلما ابتعدت عنه. فماذا لو أني أرى الأمر بطريقة غير صحيحة؟ تبقى إمكانية واحدة، وهي وجود مصدرين للصوت، وأن ما أسمعه كان بعيدًا عن كلا المصدرين، وأنني لو اقتربت من أحد المصدرين، فإن حفيفه سيقوى، ولكن نظرًا لضعف الصوت من المصدر الثاني، فإن المحصلة النهائية هي أن قوة الصوت تظل كما هي تقريبًا. يبدو لي أنني أفرق بين الصوتين بصعوبة بالغة عندما أرهف أذني، وهو ما يتفق مع رؤيتي الجديدة. على أية حال يجب أن أُوَسِّع صالة التجارب بصورة أكبر. لذلك سأهبط من الدهليز حتى أصل إلى الفناء، وأبدأ في استراق السمع هناك. شيء غريب. فهنا أيضًا صوت الحفيف. حسنًا، إنه حفيف ناتج عن عملية حفر تقوم بها بعض الحيوانات التافهة التي استغلت غيابي بشكل معيب، إنها بالتأكيد لا تضمر لي عداوة، بل هي منهمكة في عمل يخصها، وطالما لا يعوقها شيء في سبيل تحقيقه ستبقى مسالمة كما هي. كل هذا أعرفه، أتعجب رغم ذلك مما يحدث، ويزعجني، ويربكني وأنا في مهمة ضرورية للغاية أنها تجرأت على الاقتراب من فناء قلعتي. لا فرق عندي، لقد أعاق هذه الجرذان عمق الفناء الكبير، أعاقتها مساحته الشاسعة، وحركة الهواء الشديدة به. هل دار برأسها الغبي أصلًا أن هذا هو فناء العرين؟ بكل تأكيد لم أسمع من قبل على حوائط الفناء حتى الآن أية

أصـوات نبش. ورغم أن رائحـة البخـار النفـاذة جـذبت العديـد من الحيوانات إلى هنا، وكنت أطاردها على الدوام. فكانت تلك الحيوانات تنسل إلى داخل الممرات بعـد نبشـها، كـانت تـأتي بعزيمـة واهنـة، لكن برغبة جامحة، وتنزل إلى هنا عبر ممرات العرين. وها هي الآن تنخر في الدهاليز.

ليتـني أسـتطيع تنفيـذ خططي المهمـة الـتي كنت أقـوم بهـا في شـبابي وفحولـتي، أو ليت لـدي القـوة لتنفيـذها، فـالإرادة موجـودة. من أكـثر خططي المحببة إلى قلبي كانت فصل الفناء عن المنطقـة المحيطـة. أي بناء حوائط بسمك يبلغ طول قامتي تقريبًا غير أن قاعدة الفناء الصغيرة لا يمكن للأسف فصلها عن الأرض وعمـل خنـدق متسـاوي الأبعـاد، يلف الفناء من كل جانب مثل الحائـط. دائمًـا مـا تخيلت هـذا الخنـدق ربما خطأً على أنه أجمل مكان يمكن أن أُقيم فيه. أضع فوقـه حدبـة، ثم أسـحب نفسـي إلى أعلى وأنزلـق عليـه إلى أسـفل، وأتـدحرج، فأشـعر بالأرض تحت قدمي من جديد، وأُمَارِسُ كل هذه الألعـاب فـوق جسـم الفنـاء وليس في سـاحة الفنـاء، يمكنـني أن أتجنب الفنـاء، يمكنـني أن أصرف نظري عنه لأجعل عيني تستريح. أؤجل سعادتي بالنظر إليـه، إلى أوقات لاحقة؛ ففي كل الأحوال لن أفتقـده، لأنـه تحت تصـرفي تمامًـا، وليس واردًا أن أفقده طالمـا كـان هنـاك مـدخل وحيـد عـادي ومفتـوح، لكني أستطيع تأمينه، وأتحمل صرف نظـري عنـه، لـو خُيِّرت بين البقـاء في الفناء وبين البقاء في الخندق، لاخترتُ بالتأكيـد الخنـدق، أبقى فيـه مدى الحيـاة، فهنـاك يمكنـني أن أتحـرك بسـهولة إلى أعلى وإلى أسـفل،

وأحمي الفناء. وقتها سيختفي الحفيف في الحوائط، سيختفي صوت النبش الكريه حتى من القاعات، ويسود السلام، وأُصبح حاميًا له. ولن يزعجني الإنصات إلى صوت الحفر؛ بل سأستمع إلى شيء يعوزني الآن، وهو همهمة الصمت في فناء العرين.

لكن جمالًا كهذا ليس حقيقيًّا، ويجب أن أنصرف إلى العمل. ويجب أن أكون سعيدًا أن هذا العمل سيتم في الفناء، لأن هذا أمر يشجعني على العمل. يجب أن أكون سعيدًا بالطبع، وصار الأمر أكثر وضوحًا، بذل كل الجهد في عمل ظهر في البداية بسيطًا للغاية. أتفحص بأذني حوائط الفناء، أسمع الصوت نفسه في كل مكان، هنا وهناك، على الحوائط وعلى الأرض، عند المدخل وداخل العرين، في كل مكان. كم من الوقت والجهد سوف يستمر سماع هذا الصوت المتواصل. عندما أبعد أذني عن أرضية العرين لا أسمع أي شيء هنا في العرين، وهو أقل ما يمكنني أن أفعله حتى أخدع نفسي عندما أريد لأشعر بالراحة المؤقتة. هذا على عكس الممرات حيث ينتشر الصوت في الفراغات الواسعة. وحتى أهدأ وأعود إلى نفسي، كثيرًا ما أُمَارِس تجارب؛ كأن أنصت بانتباه وأقنع نفسي بأني لا أسمع أي شيء.

لكن ماذا حدث؟ إن تفسيري الأول للأمر فشل تمامًا. يجب أن أرفض كل التفسيرات الأخرى المطروحة. يمكنني أن أظن ما أسمعه أثناء العمل مجرد شيء بسيط.

لكن هذا يُنَافي الحقيقة، مستحيل أن أسمع فجأة شيئًا لم أكن أسمعه من قبل رغم أنه كان موجودًا طوال الوقت. ربما أن حساسيتي تجاه الأشياء الغريبة في العرين تزايدت بمرور الوقت. لكن قدرتي على السمع بالتأكيد لم تتحسن. هل من طبيعة هذا الحيوان الصغير أن صوته غير مسموع؟ وهو أمر بالتأكيد يمكنني تفهمه. فأنا كنت لأقتله إذا تعرضت للجوع. أمر وارد، حتى هذه الفكرة بدأت تتسلل إلى عقلي، بأن ما هنا هو حيوان لا أعرفه من قبل. ربما كان الأمر كذلك.

صحيح أنني أراقب الحياة هنا في العرين منذ وقت طويل وبكل انتباه، لكن العالم يزخر بالعديد من الأشياء ولا يخلو من المفاجآت. لكن في هذا الحالة لن يكون حيوانًا واحدًا، بل قطيع كامل سقط من السماء إلى أرضي، قطيع ضخم من الحيوانات الصغيرة، التي يزيد حجمها عن الحشرات فصوتها منتشر في أرجاء المكان لكنها تزيد عنها قليلًا في الحجم لأن حسيسها غير واضح تمامًا. ربما لا تكون حيوانات أو قطيع متجول ويصدر صوتًا يزعجني وصل إلى هنا في حملةٍ ما سرعان ما تنتهي. ويمكنني أن أنتظر ولا أقوم بأي عمل لا جدوى منه. لكنها لو كانت حيوانات غريبة، لماذا لم أرها حتى الآن؟ لقد بحثتُ كثيرًا عنها حتى أمسك ببعضها، لكني لم أعثر على أيٍّ منها. أعتقد أنها ربما تكون حيوانات صغيرة للغاية، أصغر من تلك التي أعرفها، وأن الحسيس الذي تصدره أعلى صوتًا. أفتش عنها في الأرض التي قمت بنبشها، ألقي بكتل الطين في الهواء، فتسقط لتتفتت إلى حبات صغيرة، دون أن أعثر بها على أي شيء. كدت أصل إلى قناعة بأنني لن أصل إلى شيء

بهذه الحفائر العشوائية الصغيرة. كل ما أفعله أني أثقب في حوائط العرين، أحفر على عجل هنا وهناك، يداهمني الوقت فلا أتمكن من تغطية الحفر، وتنتشر أكوام الطين في أماكن كثيرة، فتسد الطرق، وتغطي الرؤية. كل هذا بالطبع يزعجني، يعوق حركتي ورؤيتي، حتى استراق السمع يصبح غير ممكن. كثيرًا ما يغلبني النعاس أثناء العمل وأنا في داخل إحدى الحفر وإحدى قدميّ عالقة وسط الطين قبل أن أجتز بها قطعة طين قبل أن يداهمني النوم. سوف أُغَيِّر الآن الطريقة. سأقوم بشق حفرة كبيرة باتجاه صوت الحسيس، ولن أتوقف عن الحفر حتى أصل إلى مصدر الصوت، بغض النظر عن كل النظريات. ثم أقضي عليه إن استطعت، وإن لم أستطع فعلى الأقل أكون قد تحققت من الأمر. هذا التحقق سيوفر لي الهدوء أو اليأس، لكنه في كل الأحوال، سيكون أمرًا واضحًا وسيحقق الغرض منه. هذا القرار سَبَّبَ لي نوعًا من الراحة. فكل ما قمت به حتى الآن يبدو لي عملًا متهورًا، نتيجة حماس العودة، وبقايا هموم العالم الخارجي وافتقاد السلام الذي يرفرف في العرين، ونتيجة حساسيتي المفرطة نتيجة افتقادي العرين لفترة طويلة؛ ففقدت توازني بسبب الظاهرة التي أعترف بأنها غريبة. ماذا يحدث بالتحديد؟ صوت حسيس خفيف. أسمع على فترات متباعدة، أمر تافه لا يمكن القول بأنني سأعتاد عليه، على العكس، لا يمكنني أن أعتاد عليه. ربما يجب أن أراقبه لفترة ما دون أن أفعل شيئًا بشأنه على الإطلاق. هذا يعني أن أواصل استراق السمع إليه كل بضع ساعات بشكلٍ عشوائي، وأُسَجِّل النتائج بصورةٍ دقيقةٍ، ليس على الفور

كما أفعل، أسير في الدهاليز وأضع أذني على حوائطها، وكلما أسمع صوت الحسيس أقوم بثقب الأرض، ليس بغرض البحث عن شيء، لكن أثقبها حتى يحدث شيء يتناسب مع القلق الداخلي الذي أشعر به. أتمنى أن كل شيء قد يتغير من الآن فصاعدًا. أو لا أتمنى هكذا أعترف لنفسي وأنا مغمض العينين وغاضب من نفسي لأن القلق يسري في كل كياني طوال الوقت، ولو أنني لم أتمالك نفسي لشرعت على الفور بكل رعونة واستنفار في الحفر، في مكان محدد، ليس مهمًا أين، المهم أني أسمع فيه صوتًا ما، أو لا أسمع. المهم أحفر بغرض الحفر، تمامًا مثل ذلك الحيوان الصغير الذي ربما يحفر بدون هدف، أو لأنه يأكل الطين. تعجبني الخطة الجديدة، ولا تعجبني في الوقت نفسه. لا يمكن أن أعترض على شيء فيها، فليس عندي أي اعتراض منطقي واحد عليها، على ما أعتقد. لكنني رغم ذلك لا أثق بهذه الخطة، أثق فيها بشكل ضعيف، ولن أندهش من أي نتائج سلبية متوقعة، كما أنني لا أثق حتى في النتائج. أعتقد أنه من اللحظة الأولى لسماع صوت الحسيس فكرتُ في مسألة الحفر، وفي أنني لم أبدأ فيها لأنني لم أكن على ثقة كبيرة في نتائجها. ورغم ذلك سأبدأ في الحفر، فليس أمامي طريق آخر، لكنني لن أبدأ على الفور، سوف أرجئ العمل قليلًا. لم أبدأ في العمل بدون تعقل، وسوف أنتظر حتى أتفكر في الأمر وأتمنى أن يحدث هذا قريبًا. في البداية سأقوم بإصلاح الخسائر التي تسببت فيها داخل العرين بسبب الحفائر التي قمت بها، سيتطلب هذا وقتًا كثيرًا، لكنه أمر لا مفر منه، طالما أردتُ أن تؤدي الحفائر الجديدة إلى نتائج

محددة، ستطول هذه الحفائر، ولو لم تؤد إلى شيء فستكون حفائر بلا نهاية، هذا العمل يعني في كل الأحوال غيابي عن العرين لفترة طويلة في العالم العلوي. وعندما أريد يمكنني أن أتوقف عن العمل وأعود إلى البيت لأزوره، وحتى لو لم أفعل، سيهب عليّ هواء الفناء ويحيطني أثناء العمل. لكني سأضطر إلى الخروج من العرين وأستسلم لقدر غير معلوم. لذلك أريد أن أترك العرين في حالة جيدة حتى لا يُقَال إنني، أنا، من حارب من أجل توفير الهدوء في العرين، قد أفسدت العرين ولم أصلحه. سأبدأ بإعادة الطين إلى الحفر مرة أخرى. إنه عمل أعرفه جيدًا، وقمت به مرات ومرات دون أن أنتبه إلى أنه عمل يستحق الثناء خاصةً فيما يتعلق بدق الطين وتسويته. أنا شخص لا يُسحق، هذه هي الحقيقة. لكن هذه المرة أبدو ضعيفًا، فأفكاري مشتتة، في كل لحظة وأثناء العمل أضع أذني على الحائط وأستمع، لا يهمني أن الطين يتدحرج إلى الدهليز مرة أخرى. إن الأعمال الزخرفية النهائية التي تتطلب اهتمامًا خاصًا فوق طاقتي. لم يتبق سوى نتوءات قبيحة، وتشققات مزعجة. إضافة إلى أن مثل هذا الحائط الذي تنتشر عليه البقع لن يعود إلى حالته القديمة. أحاول أن أقنع نفسي بأنه عمل مؤقت. وعندما أعود، وبعد أن يعم السلام سأجعل كل شيء أفضل. وستكون كل الأمور على ما يرام. نعم، في القصص الخيالية تكون كل الأمور على ما يرام. ومثل هذه السلوى لا توجد إلا في القصص الخيالية. قد يكون من الأفضل القيام بعمل مُكتمل من الآن، قد يكون من الأفضل أن أقوم بإجراء تحسينات متوالية، والتردد عبر الدهاليز،

والبحث عن أماكن جديدة يصدر منها صوت الحسيس. وهذا أمر بالتأكيد سهل للغاية، فهو لا يحتاج سوى إلى التوقف في أي مكان بصورة عشوائية والاستماع إلى الصوت. وسأقوم باكتشافات جديدة. يبدو لي أحيانًا أن صوت الحسيس قد هدأ، وازدادت فترات توقفه، أحيانًا يفوتني سماع الصوت، وهدير الدم يعلو في أذني عاليًا، ثم يتحد هدوء صوت الحسيس والدم وأعتقد أن صوت الحسيس قد انتهى إلى الأبد. فأتوقف عن البحث عن الصوت، وأقفز، فها هي لحظة فارقة قد حدثت في حياتي، وكأن نبعًا ما انفتح وتدفق منه الهدوء إلى العرين. أنتبه حتى أدقق في هذه الظاهرة، أبحث عن شخصٍ أستطيع الوثوق به إلى أقصى درجة. أسرع نحو فناء العرين، أتذكر أني لم أتناول شيئًا منذ وقت طويل لأني سعيت طوال حياتي من أجل حياةٍ جديدة. ألتقط شيئًا من المؤن التي غطاها الطين، ألتهمها وأنا عائد إلى مكان الاكتشاف المذهل. أريد أثناء تناولي الطعام أن أتأكد من شيءٍ ما، أسترق السمع، لكني سرعان ما يخيب ظني، وأسمع حسيسًا واضحًا قادمًا من بعيد. ألفظ الطعام وتنتابني رغبة في دكه بالأرض، وأواصل العمل. لأن أي عمل عليّ مواصلته، في مكان ما أراه ضروريًا. ومثل هذه الأماكن كثيرة. سأبدأ بعمل روتيني. وكأنني أمام أحد المراقبين ويجب أن أؤدي أمامه عملًا شكليًّا. لكن من الصعب العمل بهذه الطريقة، فربما يظهر اكتشاف جديد. وكأن صوت الحسيس ازداد، ليس كثيرًا بالطبع، فالأمر يتعلق بفروق بسيطة، لكنه ازداد، وأنا أستطيع تمييز الأمر بوضوح. وهذه الزيادة في قوة الصوت تبدو وكأن شيئًا ما يقترب. هو بالأحرى

صوت أقدام حسيس يقترب بقوة أكثر من كونه صوت حسيس. أنتفض من عند الحائط، ثم أحاول أن أستطلع بناظري جميع النتائج المترتبة على هذه الظاهرة. أشعر وكأنني لم أؤسس هذا العرين للحماية من هجوم محتمل، لكني أسسته لهذا الغرض، لكن رغم كل خبراتي أرى أن مخاطر الهجوم وإجراءات الدفاع غير واردة أو واردة (كيف هذا!)، لكنها بعيدة، تتقدمها إجراءات تأمين حياة هادئة، وهي إجراءات لها دائمًا الأولوية داخل العرين. هناك العديد من الأمور التي يمكن القيام بها دون أن تتأثر الخطة الأصلية. كنتُ سعيدًا على مدى سنوات، رفرفت عليّ السعادة بجناحيها، كنتُ أحيانًا قلقًا، لكن القلق وسط السعادة لا يؤدي إلى شيء.

ما يجب أن أفعله الآن هو تفقد العرين بصورة دقيقة، ومراجعة دفاعاته وكل ما يتعلق بها، وعمل خطة دفاعية والقيام بكل إجراءات وأعمال تنفيذها على الفور بكل حيوية، تمامًا كما كنت أفعل أيام شبابي. إنه عمل ضروري، تأخر كثيرًا، لكنه ضروري وليس مجرد حفر نفق كبير وظيفته الوحيدة هو توفير الحماية لي بأي طريقة وأنا أشعر هنا بالخطر، والخوف الشديد من أن الخطر ليس وشيكًا. وفجأةً أتشكك في خطتي السابقة. أفتقد المنطق في خطة منطقية، فأتوقف عن العمل، البحث عن مصدر الصوت. فلم يعنني بعد الكشف عن صوت حسيس يتعالى، لدي العديد من الظواهر وسأهملها كلها. ومن أجل تحقيق السكينة لنفسي يجب أن أتخلص من التناقض الداخلي في نفسي. ومن جديد أتجول في الطرقات، أدخل طرقات بعيدة لم أرها منذ عودتي. ولو

تلمستها قدماي، تتأهب عند قدومي إليها، وتُرَحِّب بي. لكني لا أستسلم لها وأواصل تجولي دون أن أعرف عمَّا أبحث، بل أؤجل ما يجب عليّ أن أفعله. أذهب بعيدًا حتى أصل إلى متاهة العرين، يغريني البحث عن الصوت عند السقف الطحلبي. الأشياء البعيدة تبدو لي في هذ اللحظة بعيدة، وتعوق خططي. أصعد إلى أعلى وأسترق السمع. الصمت مطبق.

المكان هنا جميل، ولا أحد هنا يرعى العرين، الكل مشغول بهمومه التي لا تعنيني، وكل ما يهمني هو الوصول إلى مصدر الصوت. وهنا أسفل السقف الطحلبي هو المكان الوحيد في عريني الذي يمكنني عبثًا من استراق السمع لساعات طويلة. حدث تحول كبير في أوضاع العرين، وصار المكان الخطير مكانًا آمنًا وهادئًا، في حين اجتاح الفناء الهياج الخطر. والأسوأ من ذلك أن ما أشعر به هنا ليس سلامًا حقيقيًّا، لم يتغير شيء هنا، فالخطر يطل هنا برأسه، بهدوء أو بصخب. لكني فقدت الشعور به، وتملكني الحسيس المنتشر في حوائط المكان. هل تملكني فعلًا؟ إنه يزداد قوة، ويقترب، وأنا أجوب المتاهة وأبحث عن مصدر الصوت تحت الغطاء الطحلبي. أوشك أن أترك بيتي لهذا الحسيس وأكتفي بأن أجد هناك في الأعلى ولو قليلًا من الهدوء. أتركه لهذا الحسيس؟ هل عندي أصلًا رؤية جديدة بخصوص مصدر الصوت؟ إن هذا الصوت يأتي عبر الأخاديد التي صنعها ذلك الحيوان الصغير؟ أوليس هذا هو رأيي؟ لكني لم أتحقق من هذه النظرية بعد؟ هل يأتي من الأخاديد مباشرةً أو بصورةٍ غير مباشرة. لو أن الصوت لا علاقة له بتلك الأخاديد، فليس من الممكن التنبؤ بشيء آخر. ومن

الضروري الانتظار حتى يظهر مصدر الصوت من تلقاء نفسه أو أعثر عليه. يمكنني أن أعمل على هذه التكهنات من الآن، ويمكن القول بأن الماء قد تسرب من مكانٍ ما، وأن ما أعتبره حسيسًا أو صفيرًا ما هو إلا خرير الماء. وبما أنه لا خبرة لي بهذا الأمر؛ فالمياه الجوفية التي وجدتها في بداية الأمر قمت بتجفيفها، ولم تظهر هنا في هذه الأرض الرملية مجددًا منذ ذلك الوقت. ونظرًا لهذه الحقيقة فالصوت لن يكون سوى حسيس، ولا يمكن اعتباره خريرًا. ولن يتوقف خيالي عن العمل والبحث عن كل الوسائل التي تُعيد الهدوء للمكان. وصرتُ على وشك الوصول إلى قناعة بأن ما لم تظهر شكوك أخرى حوله هذا الحسيس يصدر من حيوان ما. لا يصدر من حيوانات كثيرة أو صغيرة، بل حيوان وحيد. لكن هناك شيء يحول دون هذه النظرية وهو أني أسمع صوت الحسيس في كل مكان وبالقوة نفسها، فضلًا عن أنه متواصل ليلًا ونهارًا.

من المؤكد أنني في البداية كنت أتوقع بوضوح وجود مجموعة صغيرة من الحيوانات، لأنني قد أعثر عليها أثناء عمليات الحفر، لكني لم أعثر على شيء، ولم يبق أمامي سوى توقع وجود حيوان ضخم، خاصةً وأن ما يتناقض مع هذا الافتراض مجرد أشياء لا تجعل من ذلك الحيوان وهمًا بل خطرًا حقيقيًّا في المقام الأول.

لذلك استبعدت مثل هذا الافتراض. سأتوقف عن خداع نفسي. قديمًا شغلتني فكرة أن هذا الصوت يصل إلى مسافة بعيدة لأن الحيوان يعمل بهياج شديد، ويحفر في الأرض بسرعة كبيرة، وكأن شخصًا ما يمر

بدهليز واسع والأرض تنتفض بسبب أعمال الحفر التي يقوم بها رغم أنه تجاوزها. وهذا الاهتزاز وآثار العمل يتحدان ويصلان إلى مسافة بعيدة. وأصداء الحسيس تصلني في نهايتها فأسمعها في كل مكان بالقوة نفسها. ورغم ذلك تبدو وكأن الحيوان لا يتقدم مني، لأن الحسيس لا يتغير، بل يسير وفق خطة غير واضحة المعالم. فقط أتكهن أن الحيوان يحاصرني في دائرة وأنا لا أريد أن أصدق أنه يعرف بوجودي وأنه حَاصَرَ عريني مرات عِدَّة عندما كنت أراقبه. يشغلني كثيرًا صوت الحسيس وطبيعته، هذا الصفير والهدير. لكن عندما أحفر وأدق في الأرض على طريقتي، يكون الصوت مختلفًا.

كل ما أستطيع تفسيره بخصوص هذا الحسيس هو أن أداة الحفر الوحيدة التي يستخدمها ليست مخالب قدميه، ربما يستخدمها للمساعدة، لأن المخالب أو الأظافر، بغض النظر عن قوتها الهائلة، يجب أن تكون حادة. ربما يدك مخالبة في الأرض بضربةٍ واحدةٍ قوية، فيقتلع منها قطعة كبيرة، ثم يتوقف الصوت، ويحين وقت الاستراحة، ثم يلتقط أنفاسه من جديد ليقوم بضربةٍ جديدة. استنشاقه للهواء وما يسببه من ضجيج تهتز معه الأرض، ليس لأن الحيوان قوي؛ بل لأنه في عجلة من أمره، ومنهمك في العمل. فيصلني هذا الضجيج على أنه صرير فحيح ضعيف. بالطبع لا أفهم كيف يمكنه العمل المتواصل، ربما يستريح قليلًا أثناء الوقفات، لكنه لم يعط نفسه فترة راحة طويلة حتى الآن. يواصل العمل ليلًا ونهارًا، بنفس الحماس والقوة، يضع نصب عينيه مهمة عليه أن ينهيها بأسرع ما يستطيع، ولديه كل القدرة

على إنهائها. يا إلهي! لم أكن أتوقع خصمًا كهذا. ونظرًا لطبيعته هذه سيحدث بالتأكيد شيء ما كنت أخشاه طوال الوقت، وكان عليّ أن أستعد له على الدوام. شخص ما يقترب! لقد مر كل شيء طوال الوقت في هدوء وسعادة. من قاد الأعداء حتى جعلهم يُطَوِّقون بيتي؟ لماذا نعمت بكل هذه الحماية طويلًا لتحطّ عليّ الآن هذه اللعنة؟ لا يمكن أن تُقَارن الأخطار البسيطة التي قضيت كل الوقت أفكر فيها بهذا الخطر الداهم.

هل كنت أعتقد بصفتي مالك هذا العرين أنني سوف أتفوق على كل من يأتي إليه؟ الواقع أني بصفتي مالك هذا البناء الضخم الرقيق، بالطبع، أقف عاجزًا أمام أي هجوم حقيقي. شغلتني متعة امتلاكه. جعلني لطف العرين مُتساهلًا. أي أذىً يتعرض له كأنه أنا. كان يجب أن أتنبأ بشيء كهذا، ما كان يجب أن أفكر فقط في حماية نفسي يا له من تفكير ساذج وعبثي! بل في حماية العرين أيضًا. كان يجب أن أتخذ الإجراءات التي تمكنني من فصل أجزاءه المختلفة، أو أكبر قدر منها، في أقصر وقت عن باقي أماكن العرين الأقل عرضة للمخاطر، وذلك بأكوام شاهقة من التراب، وبذلك أفصلها بشكل متقن حتى لا يعرف المهاجم أن عرينًا ما يوجد خلف هذه الأرض. وهذه الأكوام لن تحمي العرين فقط، بل ستكون أيضًا مقبرة للأعداء. لكنني لم أفعل أيّ شيء لتحقيق هذا الغرض، لم أقم بخطوة واحدة لتحقيق هذا الغرض. كنت متهاونًا مثل الأطفال. قضيتُ أعوام فحولتي في ألعاب طفولية.

كنت أستخف بأفكار المخاطر، ونسيتُ أن أفكر في المخاطر الحقيقية، رغم ما ظهر من دلائل عليها.

لم يحدث قبل ذلك شيء يمكنني أن أقارنه بالوضع الحالي. لكن شيء مماثل قد حدث عندما شرعت في بناء العرين. الفرق الرئيسي هو أنها كانت مجرد بدايات لبناء هذا العرين... كنت وقتها أعمل كمبتدئ صغير في الدهليز الأول، وكانت المتاهة مجرد اقتراح مبدئي. حفرت وقتها حفرة صغيرة. لم تكن الأبعاد والحوائط واضحة المعالم. ببساطة كان كل شيء في بداياته، ولم يرتق إلى درجة وصفه بالمحاولة. كان يمكنني فجأة التوقف عن كل شيء في حال نفاد صبري دون أي شعور بالندم. حدث ذات مرة وأنا في وقت الراحة كنت دائمًا في حياتي أقوم بالكثير من وقفات للراحة كنت أستلقي بين أكوام الطين، وفجأة سمعت من بعيد صوت حسيس. كنت وقتها ما أزال شابًا. أثار هذا الصوت في نفسي الفضول، وليس الخوف. توقفت عن العمل، ورحت أسترق السمع. بدأت أنصت. لم أصعد بالتأكيد نحو المدخل لأهرب وأختبئ أسفل الطحلب كي أتمرغ هناك بعيدًا عن الصوت. لكني على الأقل بقيت لأسمعه. استطعت وقتها أن أتحقق من أنه صوت حفر، يشبه ما أفعله، صحيح أنه كان ضعيفًا، لكن ربما ساعد على ذلك بُعد المسافة. كنت شغوفًا بالأمر، لكني بقيت باردًا وهادئًا. قلت لنفسي وقتها، إنني ربما أكون في عرين أحدهم، وأن صاحبه يحفر ليصل إليّ. لو تأكدت وقتها من أن هذه الفكرة حقيقية، لكنت انصرفت لأبني عرينًا في مكان آخر، فلم يكن لدي يومًا ما ميول هجومية أو عدوانية.

لكني بالطبع كنت وقتها مازلت صغيرًا، ولم أكن أمتلك عرينًا خاصًا. لذلك كنتُ باردًا وهادئًا. ما حدث بعد ذلك كان طبيعيًّا. لكن لم يكن من السهل تفسير الأمر. يبدو أن من كان يحفر وقتها كان يسعى للوصول إليّ لأنه سمعني أحفر، ثم قام بتغيير اتجاهه. وهو ما حدث بالفعل. لم أتمكن من معرفة إن كان قد غَيَّر اتجاهه لأني أثناء فترة الاستراحة من العمل جعلته يفقد اتجاهه نحوي، أو أنه غَيَّر من خططه. ربما أنني كنت على خطأ، وأنه لم يكن يحفر باتجاهي أصلًا. على أية حال، ظل صوت الحسيس يعلو لفترة، وكأنه يقترب مني. وقتها ربما لم أكن لأغضب كشاب صغير لو رأيت من يحفر هذا يخرج من الأرض فجأةً. لكن شيئًا كهذا لم يحدث. في لحظة معينة بدأ صوت الحفر يضعف، ويتضاءل ويتراجع، وكأن ذلك الحفّار يُغَيِّر اتجاهه بالتدريج. إلى أن توقف الصوت تمامًا وكأنه قرر أن يحفر في الاتجاه المعاكس، وانصرف عني إلى مكان آخر. بقيت أسترق السمع فترة طويلة وسط الهدوء، ثم واصلت العمل من جديد. كان هذا تحذيرًا واضحًا. لكنني سرعان ما نسيته، غير أنه ترك أثره على خطة البناء التي أعددتها.

هل تقع رجولتي بين ذلك الوقت وبين الحاضر، أم أن الأمر ليس كذلك، وأن لا شيء بينهما؟ مازالت فترة الاستراحة الطويلة مستمرة، وأنا أُقبل بسمعي على الحوائط، لكن هذا الحفَّار غَيَّر من جديد خطته، وأدار ظهره، وانصرف عن طريقه وهو يعتقد أنه يمنحني المزيد من الوقت حتى أستعد لاستقباله. لكنني أقل استعدادًا عن ذي قبل. العرين

الكبير هنا، يقف عاجزًا عن الدفاع، ولم أعد ذلك التلميذ المبتدئ، بل صرت بَنّاءً مُخَضْرَمًا. تظهر آخر قوة لدي عندما أصل إلى قرار. أيًّا كان العمر الذي أمر به فأعتقد أني سأكون سعيدًا لو كنت أكثر هرِمًا مما أنا عليه، عجوزًا لدرجة أني غير قادر على النهوض من فراشي أسفل الطحالب.

ولأنني لن أتحمل البقاء هنا، سأنهض، ليس لأنني قد أخذت حقي من الهدوء، بل أخذت المزيد من التقدم في العمر، وأنصرف عائدًا إلى بيتي. كيف كانت الأشياء في آخر مرة رأيتها؟ هل هدأ صوت الحسيس؟ كلا، لم يهدأ، بل ازداد. أتوجس الصوت بشكل عشوائي في عشر أماكن، وأتأكد من أنه مجرد وهم. فالحسيس ظل كما هو، ولم يتغيَّر أي شيء. هناك على الجانب الآخر لم يتغيَّر شيء، الهدوء يسود، ويتعالى كل شيء فوق الزمن. أعود مرة أخرى عبر الطريق الطويل إلى الفناء، يبدو لي أن كل شيء حولي يتداعى، وكأن شخص ما يراقبني، وكأنه صرف نظره عني حتى لا يزعجني، وكأنه يحاول أن يقرأ أفكاري وقرارات النجاة. أهز رأسي، فلا قرارات عندي بعد. وأنا لم أذهب إلى الفناء للقيام بعمل ما. أدور حول المكان الذي أردت أن أصنع فيه خندقًا، أتفحصه من جديد. كان اختيارًا جيدًا لمكان الخندق الذي يُفترض أن يسير في هذا الاتجاه حيث يوجد كثير من تيارات الهواء الخفيفة، من شأنها تخفيف العمل. ربما لم أكن مضطرًا إلى إجراء أعمال حفر كثيرة إلى مسافات بعيدة. ربما لم أكن في حاجة إلى الحفر حتى مصدر الحسيس. وربما كان يكفي الإنصات إلى تيارات الهواء.

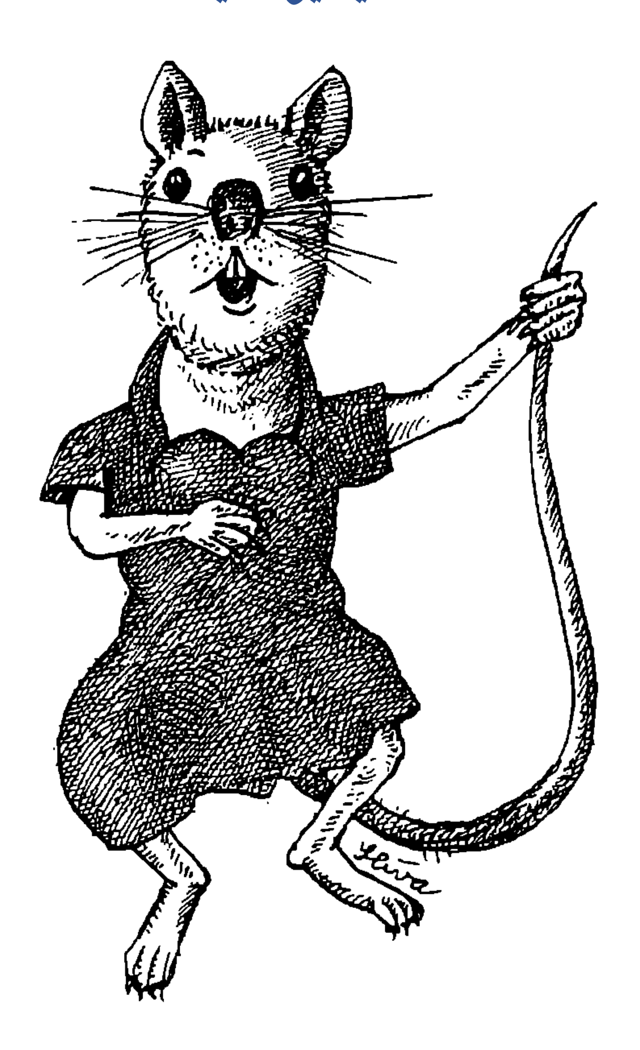
لكن كل الأفكار ضعيفة، ولا تشجعني على الشروع في الحفر. هل سيوفر لي هذا الخندق اليقين؟ لقد تجاوزت الأمر، ولم أعد أرغب في أي يقين. سآخذ قطعة كبيرة من اللحم الأحمر المقدد الموجود في الفناء، وأنصرف بها إلى كومة من الطين، على الأقل سأجد هناك الهدوء لو كان مازال هنا هدوء بالفعل. سألعقها وأقضمها، وأنا أفكر في ذلك الحيوان الغريب الذي يواصل طريقه بعيدًا. أفكر من جديد في أن أتناول المزيد من الطعام المخزون طالما هناك إمكانية. هذه هي الخطة الوحيدة القابلة للتنفيذ والتي أعرفها. وسوف أحاول حل لغز الخطط التي يفكر فيها ذلك الحيوان. إنه يواصل طريقه، لكن هل يبني لنفسه عرينًا؟ وإن كان على سفر فيمكن الاتفاق معه. ولو كان يتقدم نحوي بالفعل سأعطيه بعض المؤن وسينتهي الأمر. نعم، سينتهي الأمر. يمكنني بالطبع أن أحلم كما شئت وأنا قابع في كومة الطين، أحلم بالاتفاق رغم أني أعرف جيدًا أنه لا وجود لشيء كهذا، وأنه لحظة أن نلتقي، أو بمجرد أن نشعر باقتراب أحدنا من الآخر، سيجز كلانا على أسنانه وسنقف على أقدامنا بكل اهتياج، متجاهلين ما سبق وما هو آت، وسيتحكم بنا نوع جديد ومختلف من الجوع، ربما سيكون شَبَعًا لكن من نوع آخر. وكما هي العادة، وخاصةً في هذا الوقت، ورغم أنه قد يكون متجهًا إلى مكان ما، سيُغَيِّر من خطط الترحال وخطط المستقبل وهو يرى نفسه أمام هذا العرين وجهًا لوجه. لكن ربما يكون هذا الحيوان يحفر لبناء عرين خاص به. عندها لا يمكنني حتى أن أحلم بأي نوع من الاتفاق. فلو كان حيوانًا شاذًا يعتقد أن عرينه قد يتحمل

جارًا له، فعريني لا يقبل بهذا الجار، وخاصةً لو كان جارًا يجأر بصوته. يبدو لي بالطبع أن هذا الحيوان بعيد عني للغاية. ربما تحسنت الأمور وتعود كما كانت من قبل لو أنه ابتعد قليلًا، واختفى ذلك الصوت.

وستبقى كذكرى سيئة وأيضًا مفيدة، ستجبرني على إجراء بعض التحسينات. فلو توفر الهدوء وزال الخطر لاستطعت القيام بمهام كبيرة. نظرًا لإمكاناته الهائلة وهو أمر واضح من همته العالية في العمل ربما صرف هذا الحيوان النظر عن توسعة عرينه باتجاه عريني، وسار في اتجاه آخر. فلا يمكن التوصل إلى قرار كهذا عن طريق المفاوضات، بل بتعقل هذا الحيوان، أو بضغطٍ ما يمكن أن أمارسه أنا من جهتي. في كلتا الحالتين سيكون أمرًا حاسمًا ما يعرفه عني هذا الحيوان. كلما فكَّرتُ في الأمر ازددتُ قناعة بأن هذا الحيوان لا يعرف شيئًا عن وجودي. ربما سمع عني وهذا أمر لا أتصوره لكن بالتأكيد لم يسمع صوتي في هذا العرين. بما أنني لم أعرف بوجوده فلا يمكنه أن يكون قد سمع صوتي. فأنا أتصرف بكل هدوء، ولا شيء أهدأ من ساعة لقائي بعريني. ربما سمع صوتي عندما قمت بإجراء الحفريات التجريبية؛ رغم أن طريقتي في الحفر لا تسبب ضجة كبيرة. لو أنه سمع صوتي لكنت لاحظت أنا أيضًا ذلك، ولتوقف عن العمل ليستمع إليّ. لكن شيئًا لم يتغيَّر.

وطن الفئران

(المغنية يوسفينا)[13]



13في عام 1924 ساءت حالة كافكا الصحية، وأُصِيب بالحمى على فترات متقاربة. فتم نقله إلى (براج) من قِبَلِ صديقه ماكس برود. وهناك كتب آخر قصتين له: «وطن الفئران أو المطربة يوسفينا»، و«فنان الجوع».

مطربتنا تُسَمَّى يوسفينا. من لم يسمعها من قبل لن يعرف مقدار قوة صوتها وهي تغني. ليس هناك من لم يُفْتَن بغنائها. وإن وُجِد فهذا يعني أن جنسنا لا يحب الموسيقى بصفةٍ عامة. إن الموسيقى بالنسبة لنا هي الصفاء الهادئ. إن حياتنا صعبة. نحاول أحيانًا أن نلقي عن كاهلنا جميع هموم الحياة اليومية. رغم ذلك لا نستطيع أن نصل إلى تلك الأشاء البعيدة عن حياتنا الأخرى مثل الموسيقى. إننا نعتبر الذكاء العملي الذي نحتاجه أكثر من أي شيء، من أهم أولوياتنا. والابتسامة التي تنتج عن هذا الذكاء تمنحنا دائمًا السعادة. لا نشكو كثيرًا، ولا ننتبه إلى السعادة التي قد تسببها الموسيقى لو أننا بحثنا فيها عن السعادة وهو ما لا يحدث.

لكن يوسفينا استثناء. فهي تحب الموسيقى، وتجيد صناعتها. إنها الوحيدة، وربما برحيلها الله أعلم متى ستختفي الموسيقى من حياتنا.

كثيرًا ما فكرت في أمر الموسيقى. فنحن لسنا موسيقيين تمامًا. كيف نفهم غناء يوسفينا، أو لو كانت يوسفينا تعترض على أننا نفهمها، كيف لنا أن نعتقد أننا نفهمها؟ الإجابة البسيطة تمامًا ربما تكمن في أن جمال هذا الغناء رائع، إلى درجة أن الحس البليد لا يمكنه مقاومته. لكن هذه الإجابة ليست كافية. لو أن الأمر كذلك بالفعل فيجب أن نكون على قناعةٍ أكيدة وشعور دائم وغير عادي بأن شيئًا لم نسمع مثله من قبل يخرج من هذه الحنجرة، شيء نحن غير قادرين على سماعه، شيء يوسفينا وحدها القادرة على إيصاله لنا، وليس أحد آخر. لكن هذه حسب رأيي ليست الحقيقة. فأنا لا أشعر بهذا، ولم ألحظ شيئًا كهذا

عند الآخرين. فنحن كأصدقاء مقربين يعترف كل منا للآخر بأن غناء يوسفينا ليس شيئًا غير عادي.

هل هذا حقًّا غناء؟ لدينا تقاليد غنائية، رغم غياب الحس الموسيقي عندنا. فالغناء موجود في وطننا منذ القدم. تحكي عنه الأساطير، وحفظته الأغاني التي لم يتمكن أحد من ترديدها. نعتقد أنه غناء، ولا يمكننا أن نقارن هذا الاعتقاد بالفن الذي تقدمة يوسفينا. هل هذا حقًّا غناء؟ أليس مجرد صراخ؟ كل منا قادر على أن يصرخ في الآخرين. إنها المهارة الحقيقية في وطننا. أو ربما ليست مهارة، لكنها مظهر مميز من مظاهر الحياة. كلنا نصرخ، لكن لا أحد يجرؤ على أن يُسَمِّي الصراخ فنًا. نصرخ دون أن نفكر في أمر كهذا، وحتى دون أن نلاحظه. يوجد بيننا من لا يعرف أن الصراخ يُعَدّ من سماتنا. لو أن الأمر كذلك، وأن يوسفينا لا تغني، بل تصرخ فقط، وأن الصراخ، على ما أعتقد على الأقل يتخطى الحدود المعروفة إنها حتى لا تكتفي بالصراخ الطبيعي مستعملة قواها، هذا الصراخ الذي يُطلقه كل عمَّال المناجم طوال اليوم أثناء العمل دون أي مجهود لو أن هذه هي الحقيقة، فلن يكون فن يوسفينا فنًّا، بل سيكون من الأفضل مناقشة لغز تأثيرها القوي.

لكن ما تصدره ليس مجرد صراخ. لو ابتعدتم عنها قليلًا، وأنصتم، أو بالأحرى جربتم من هذا المنطلق مثلًا عندما تغني يوسفينا بين أصوات أخرى أن تتحروا صوتها. لن تسمعوا بالتأكيد سوى صراخ عادي تمامًا، وسيكون ظاهرًا قليلًا برقته وضعفه. لكن لو أنك وقفت أمامها، ستجد أنه ليس مجرد صراخ. من الضروري لكي نفهم الفن الذي تؤديه ألا

نسمعها فقط، ولكن أن نراها أيضًا. قد يكون غناؤها مثل صراخنا اليومي، لكن الشيء المختلف في الأمر أن أحدهم صعد إلى المسرح بشكل استعراضي، وبدأ يؤدي شيئًا عاديًا. إن شق ثمرة البندق ليس فنًّا بالتأكيد. لذلك لن يجرؤ أحد على دعوة الجمهور ليشق أمامهم حبات البندق. ولو فعل هذا، وتحقق له ما أراد، فلن يكون الأمر مجرد شقّ حبة بندق. أم أن شق حبات البندق فن، واكتشفنا أننا لم نعط هذا الفن الاهتمام اللازم، لأننا نجيد هذا الأمر بكل سهولة. برهنت كسارة البندق الجديدة على حقيقة الأمر، وأنها تُساعد على نجاح العمل لو أنه كان أقل كفاءة في شق البندق من معظمنا.

إن الأمر مُشَابِه لو قارنّاه بغناء يوسفينا. ما يعجبنا فيها هو ما لا يعجبنا في أنفسنا. وهذا منسجم معنا تمامًا. كنت ذات مرة حاضرًا عندما نبهها أحدهم هذا يحدث كثيرًا إلى الصراخ القومي المعروف. هذا أمر طبيعي تمامًا، لكنه بالنسبة ليوسفينا شيء يتخطى الحدود. ارتسمت على وجهها ابتسامة وقحة، مليئة بالزهو، لم أرَ مثلها من قبل. هي في الظاهر إنسانة رقيقة، رقيقة بشكل واضح. بلادنا غنية بمثل هذه الشخصيات النسائية. لكنها في تلك اللحظة ظهرت وقحة تمامًا. لكنها سرعان ما شعرت بذلك، ربما بسبب ملاحظتها العالية، فاستدركتْ الأمر. هي على أية حال ترفض الربط بين الفن والصراخ. من يحكم على الأمر بطريقة مُغَايرة لن يُصَاب إلا بالغضب الدفين، وسيشعر بالازدراء. ليس هذا غرورًا عاديًّا. لأن المعارضين، وأنا منهم نوعًا ما، لا يقلون في إعجابهم بها عن جمهورها. لكن يوسفينا لا تكتفي فقط

بالإعجاب، بل تريد أن يعجب بها الناس على طريقتها، وليس مجرد الإعجاب العادي. عندما تجلس أمامها ستفهمها، وستدافع عنها. إلا إذا كنت بعيداً عنها وأنت تجلس أمامها ستعرف أن صراخها ليس ككل صراخ.

بما أن الصراخ يُعَدّ من عاداتنا التلقائية، قد يعتقد البعض أن هناك من يصرخ بين مستمعي يوسفينا ليقول إنه سعيد وهو يستمع إلى فنها. عندما نكون سعداء نصرخ أحياناً. لكن جمهورها لا يصرخ. إنه جمهور هادئ مثل الفئران. نحن نلتزم الصمت وكأن سلاماً نشتهيه قد حَلَّ علينا ونحن مسلحون بصراخنا الخاص. هل يصيبنا غناؤها بالنشوة، أم هو ذلك الهدوء الاحتفالي الذي يرافق صوتها الضعيف؟ حدث ذات مرة أن بعض الحمقى بدأوا يصفرون عبثاً عندما كانت يوسفينا تغني. كان هو الصوت نفسه الذي نسمعه من يوسفينا. جاء من الأمام. كان رغم كل الابتذال صراخاً ضعيفاً هنا وسط الجمهور الذي نسي صفير الأطفال. لا يمكن التفرقة بينهما. لكننا استوقفنا المرأة التي اعترضتها، وجعلناها تصمت بتذمرنا وصفيرنا. رغم أن هذا لم يكن ضرورياً. فهي على أية حال كانت ستُصاب بالخوف، ويعتريها الخجل عندما تطلق يوسفينا صوتها الاحتفالي، وتغرق في الطرب بذراعيها المفرودتين، وحنجرتها التي تنطلق بأقصى طاقتها.

هذا ما كان يحدث دائماً. كان حدوث أي شيء بسيط، أو عارض، أو ظهور أي عائق، أو سماع طقطقة في العمود الفقري، أو صرير أسنان، أو عطل في أجهزة الإضاءة، يجعلها ترفع من صوتها. ما يجعلها تفعل

ذلـك هـو أنهـا تغـني وفي أذنيهـا ضـجيج. لا ينقصـها الحمـاس ولا التصـفيق. أمـا الفهم الحقيقي لفنهـا كمـا تفهمـه هي فقـد أعـربت عنـه قديمًا. كانت كل مقاطعة لها تناسبها تمامًا. إن أي شـيء خـارجي يعكـر صفو غنائها يمكنها القضاء عليه في معركة سهلة، أو بـدون أي معركـة، وهو بالنسبة لها مجرد تحدٍّ. إنه يُجبر الجمهور على الانتباه والتوقف، لا عن الفهم بل عن الهيام.

إن كانت هذه الأمور البسيطة تساعدها، فمـاذا عن الأشـياء الكبـيرة. إن حياتنا متقلبة بصورة كبيرة. كل يوم يحمل لنا مفاجـآتٍ وهمومًـا، آمـالًا ومخاوفَ لا يقوى الفرد على تحملها لو لم يتمتع بـدعم من أحبائـه ليلًا ونهارًا. حتى مع هذا الدعم تظـل الأمـور شـديدة الصـعوبة. نجـد أحيانًـا آلاف الأذرع ترتجف تحت عبء مخصص لفرد واحد. كانت يوسـفينا تعتقد أن أوانها قد آن. فهي تقف هنا، كائنًا رقيقًا، مُصَابًا برعشة وقلـق، خاصةً أسفل قفصها الصدري. وكأنها تضع في تلك اللحظة كـل قوتهـا في الغناء، وكأن كل ما يمنعها من الغناء فقد كل قواه، فقـد تقريبًـا كـل إمكانيات الحياة، وكأنها صارت عارية، تغامر بوجودهـا. صـارت تحت حمايـة أرواح خَيِّرَة. وكـأن دَفعـة نَفَس بـارد تكفي لقتلهـا وهي منفصـلة عن نفسها، مستغرقة في الغناء. أما نحن، المعارضون المزعومون نقـول في تلـك اللحظـات: «إنهـا لا تجيـد حـتى الصـراخ. عليهـا أن تحـاول، وتبذل مجهودًا أكبر حتى تخـرج من داخلهـا شيئًا لا نتحدث هنـا عن الغناء شبيهًا بالصرخات القومية» هكذا نرى الأمور. رغم أن هذا أمـر لا مفر منه كما يُقَال، لكنه انطباع عـابر، وسـريع الـزوال. وسـنغرق عـاجلًا

وسط مشاعر جمهور يستمع إليها بكل إنصات، أجسادهم متلاصقة ويتنفسون بكل حذر.

لكي تجمع حولها مثل هذا الحشد من شعبنا الذي يتحرك ويتدافع هنا وهناك لأسباب غير معلومة تمامًا يكفي يوسفينا غالبًا أن تومئ برأسها، بشفتيها المواربتين، وبعينين تنظران إلى أعلى كي تتخذ وضعًا ينم عن أنها تستعد للغناء. يمكنها أن تفعل ذلك في أي مكان. لكن يجب أن يكون مكانًا سهل الرؤية. قد يكون مناسبًا أيضًا أحد الأركان الخفية التي نختارها صدفة في لحظة تَجَلِّي. كانت أخبار حفلاتها الغنائية تنتشر على الفور، وعلى الفور تبدأ المسيرات إلى هناك. أحيانًا تظهر عقبات، لكن يوسفينا تحب الغناء في أوقات الإثارة. عندما تستجدّ بعض أمور الحياة لتزعجنا وتُجبرنا على السفر، فتمنعنا رغمًا عنا من التجمع السريع، كل ما تفعله يوسفينا هو أن تبقى في وضعها المهيب، أحيانًا بدون جمهور كبير ثم تثور بالطبع، وتخبط بقدميها، وتسب بطريقة لا تليق بامرأة، وأحيانًا تَعُضّ.

لكن سلوكًا كهذا لا يُؤثر في سمعتها. وبدلًا من أن نُروض تطلعاتها المفرطة، يقوم كل منا بما يستطيع لكي يُلبي تلك التطلعات. فيرسلون الرُّسل لإحضار المستمعين. يُخفون عنها إجراءً كهذا. يظهر الحرَّاس في الطرقات، يحثون القادمين على الإسراع. يستمر هذا إلى أن يصبح عدد الحاضرين مقبولًا.

ما الذي يدفع الشعب على أن يهتم بيوسفينا كل هذا الاهتمام؟ القضية سهلة ولا تتجاوز صوت يوسفينا، بل تتعلق به. من الممكن أن نتجاوز هذا تمامًا، ونربطها بقضية أخرى مختلفة لو استطعنا أن نؤكد أن الشعب مُنقاد تمامًا لصوتها. لكن الأمر غير ذلك. إن شعبنا لا يعرف الانقياد غير المشروط. إن هذا الشعب الذي يحب الموهبة الطبيعية أكثر من أي شيء آخر، والصراخ الطفولي، والغناء البريء فقط، ذلك الذي ينسال من الشفاه. شعب كهذا لا يمكنه أن ينقاد بدون شروط.

هذا ما تعرفه يوسفينا، وتقاومه بكل ما تملك من قوة في جسدها الضعيف.

لا يجب أن نُبالغ كثيرًا في تلك الأحكام العامة. فالشعب مُنقاد وراء يوسفينا، لكنه ليس انقيادًا غير مشروط. فلا يمكنه على سبيل المثال أن يسخر من يوسفينا.

لكن دعنا نعترف أن هناك أشياءَ في يوسفينا تدعو إلى السخرية. ونحن، بصفة عامة شعب ساخر. نعتبر السخرية رغم كل المآسي في حياتنا هي ملاذنا الدائم. لكننا لا نسخر من يوسفينا. لديّ انطباع بأن الشعب يعتبر نفسه في علاقته بيوسفينا، ذلك المخلوق الرقيق، الذي يتطلب الحرص، المخلوق الموهوب بشيء ما، بالغناء على ما أعتقد، يعتبر نفسه مؤتمنًا عليها، ويجب أن يحافظ على الأمانة. لا يعرف أحد سببًا لهذا. كل ما أعرفه أن هذا هو الواقع. ولا نسخر من شيء هو أمانة عندنا. فالسخرية منه تعني خيانة الأمانة، وقمة الإثم الذي يرتكبه أي

عابث في حق يوسفينا هو أن يقول يومًا يغلبني الضحك عندما تظهر يوسفينا»

إذن الشعب يرعى يوسفينا وكأنه أب يرعى طفله الذي يمد إليه يده ليس واضحًا إن كان يمدها رجاءً أم تحديًا. ويفزعنا ألا يكون شعبنا غير كفء للقيام بواجبات الأبوة. لكنه في الحقيقة يقوم بتلك الواجبات، على الأقل في هذه الحالة، وبصورةٍ مثالية. لا يمكن لأي فرد أن يقوم بما يقوم به الشعب كله في هذا السياق. الفرق بين قوة الفرد وقوة الشعب شاسع بالطبع. يكفي أن يضع الشعب من يحميه في أحضانه الدافئة لكي يصبح آمنًا. لا يجرؤ أحد بالطبع على أن يتكلم مع يوسفينا عن أمر كهذا. ستقول عندها: «سحقًا لحمايتكم!» سنقول لها في أنفسنا: نعم، نعم، سحقًا! لكن بغض النظر عن هذا فهي لا تنفي شيئًا من هذا. فلو أنها ثارت، فلن تكون سوى أساليب طفولية، وامتنان على طريقة الأطفال. على الأب ألا يلقي بالًا لأمر كهذا.

لكن هناك أشياء أخرى لا يمكن شرحها بسهولة فيما يتعلق بعلاقة يوسفينا بالشعب. فهي ترى الأمر بطريقة مغايرة، تعتقد أنها هي من يحمي الشعب. تعتقد أن غناءها يحمينا في المواقف السياسية والاقتصادية. فهو قادر على شيء كهذا، وليس أقل من هذا. لو أنه لم يمنع الكارثة؛ سيمنحنا القوة على تحملها على الأقل.

إنها لا تقول هذا ولا ذاك. تتكلم قليلًا، وتصمت أمام كل لغو. لكن بريق عينيها ينم عنه، ويمكن أن نقرأه من فمها المغلق. قليل منا

يستطيع أن يبقي فمه مُغلقًا، لكنها تستطيع. عندما تتلقى خبرًا سيئًا ففي بعض الأيام تصلها الأخبار متلاحقة، بعضها أخبار باطلة، وبعضها يحمل نصف الحقيقة تنتفض على الفور، وفي أحيان أخرى تسقط من الإعياء. تنتفض، وتمد عنقها، وتحاول أن تتفحص قطيعها، كراعي الماشية قبل العاصفة. من المؤكد أن الأطفال أحيانًا يقومون بمثل هذه التصرفات على طريقتهم الغريبة والتلقائية. لكن تصرفات يوسفينا ليست بلا سبب مثل تصرفاتهم. إنها بالطبع لا تحمينا، ولا تمنحنا القوة. من السهل أن تلعب دور حامي هذا الوطن الذي تأقلم مع الألم، ولا يدِّخر جهدًا حيال نفسه. إنه شعب سريع في اتخاذ قراراته. يعرف الموت جيدًا، ويبدو من الوهلة الأولى هائبًا في مناخ من الجرأة الجنونية التي يعيش فيها على الدوام. لكنه رغم ذلك شعب مبدع وجريء أؤكد مرة أخرى أنه من السهل أن تلعب دور حامي هذا الوطن الذي طالما حمى نفسه، رغم الضحايا الذين يُصيبون المؤرخين بالفزع نحن بصفة عامة لا نهتم كثيرًا بالتاريخ. ورغم ذلك تظل الحقيقة أننا في لحظات الضيق نستمع إلى صوت يوسفينا بكل إنصات. نقف أمام الخطر الداهم صامتين، بكل تواضع وامتثال لسيطرة يوسفينا. نحن نحب اللقاءات، ونرحب بالتزاحم. يدفع أحدنا الآخر، خاصةً عندما يكون الدافع إلى هذا شيء خارج الموضوع الرئيسي المزعج. إنه شيء وكأننا شربنا معًا على عجل نعم، من الضروري الإسراع، وهذا ما تنساه يوسفينا غالبًا كأس السلام قبل بداية المعركة. إنه ليس عرضًا غنائيًّا، بل بالأحرى تجمعًا للشعب. هذا التجمع الذي يصاحبه هدوء رهيب،

لا يقطعه سوى صوت صراخ رقيق في المقدمة، يُعَدّ لحظةً مهمـةً، أهم من أن نسخر منها.

مثل هذه العلاقة لا يمكن أن تُرضي يوسفينا. رغم كل الاستياء الذي تثيره فيها مكانتها غير الواضحة دومًا، هناك شيء ما لا تراه بنفسها بسبب ضيق أفقها. يمكن إجبارها بدون جهد كبير على أن ترى أكثر مما تراه في هذا الاتجاه، أي اتجاه الصالح العام يوجد قطيع من المتملقين يعمل بلا توقف لكن من المؤكد أنها لن تضحي بغنائها، وتكتفي فقط بالغناء دون أن يلتفت إليها أحد، في أحد أركان التجمع البشري، الذي هو في حد ذاته ليس بالشيء البسيط.

حتى هذا ليست مضطرة إلى فعله. لأن فنها لن يكون مجهولًا رغم وجود الكثير من الأمور التي تشغل بالنا. إن الهدوء الذي يسود هنا لا يرجع إلى الغناء فقط.

فكثير منا لا يرفع إليها عينيه، لأنه غارق بوجهه في معطف جاره، وتبدو يوسفينا وكأنها تحاول فوق المسرح عبثًا. رغم ذلك لا يمكننا إلا أن نعترف أن شيئًا مما تغنيه يصل إلينا بالضرورة. إن هذا الصراخ الذي يعلو في اللحظة التي يلزم فيها الآخرون الصمت، يصل إلى كل فرد وكأنه رسالة وطن. إن صراخ يوسفينا وسط القرارات الصعبة يشبه تقريبًا كفاح شعبنا للبقاء وسط هدير عالم الأعداء. إن يوسفينا تحرز نجاحًا. هذا الصوت التافه، وهذا الأداء التافه يحرز نجاحًا، ويرشدنا إلى الطريق. إن التفكير في أمر كهذا يبعث على السرور. إننا قد لا

نتحمل مغنيًا حقيقيًّا في هذه اللحظة، لو كان له وجود عندنا من الأساس. سنرفض بكل قوة وجود عرض غنائي مُشَابه، وسنعتبره سخافة. ليت يوسفينا تتحلى بالمعرفة، وتدرك أننا إن كنا نسمعها، فهذه شهادة ضد غنائها. ربما تشعر بشيء كهذا، وإلا فلماذا تشكو دائمًا بأننا لا نستمع إليها. إلا أنها تغني وتغني، وتقاوم هذا الشعور بالصراخ.

لكن من ناحية أخرى قد يكون هذا الأمر مصدر سعادة لها. فنحن إلى حد ما نستمع إليها، وعلى ما يبدو بالأسلوب نفسه الذي نستمع به إلى المغني الفنان. إنها تحقق التأثير نفسه الذي يسعى المطرب الفنان إلى تحقيقه وهو مسلح بوسائلها غير الكافية. ربما أن هذا يرتبط بأسلوبنا في الحياة.

نحن لا نعرف في وطننا فترة الشباب. بالكاد نعرف مرحلة الطفولة القصيرة. رغم وجود مطالبات دائمة بأن ينال أطفالنا نوعًا من الحرية، نوعًا من الراحة. نُطالب بالاعتراف بحقهم في حياةٍ خاليةٍ من الهموم، وبحقهم في اللهو الطائش، وفي بعض الألعاب. نطالب أن يحظى هذا الحق بالاحترام. تظهر مثل هذه المطالب، ويُؤَمّن عليها الجميع، ولا تحظى مطالب غيرها بمثل هذا التوافق. لكن في الوقت نفسه لا يتحقق منها شيء على أرض الواقع. يُقرون الطلبات، وتجري محاولات لتحقيقها، ولكن سرعان ما تعود الأمور إلى ما كانت عليه. إن حياتنا هكذا؛ عندما يبدأ الطفل في المشي ولو قليلًا، ويبدأ في التعرف على العالم من حوله، يجب أن يهتم بشؤون نفسه مثل الكبار. إن الأرض التي اضطررنا للعيش فيها مُشتتين لأسباب اقتصادية متسعة للغاية.

أعداؤنا كثيرون، والمخـاطر الـتي تطـل علينـا من كـل مكـان لا تُعَـدّ ولا تُحصـى لا يمكننـا أن نبعـد أطفالنـا عن الصـراع الوجـودي. لـو فعلنـا سيكون هذا نذيرًا بقرب نهايتهم. إضافة إلى كـل هـذه الأسـباب الكئيبـة يوجد سـبب واحـد مُشَجِّع: إبـداع الجنس البشـري. جيـل واحـد وكـل جيل متعدد يُلِحّ على الجيل الآخـر، ليس لـدى أطفالنـا الـوقت ليكونـوا أطفالًا. لو كان الأطفال في بلاد أخرى يلقون الرعاية الجيدة؛ يبنون لهم المدارس، ويتدفق الأطفال، مستقبل الوطن، من تلـك المـدارس يوميًّا، فستجد هناك دائمًا أطفـالًا يخرجـون يومًـا بعـد يـوم لفـترة طويلـة. نحن ليس لـدينا مـدارس، ورغم ذلـك تتـدفق من وطننـا على فـترات زمنيـة قصيرة حشود لا تُحصى من الأطفال التي تصفر وتزقـزق، إلى أن يحين وقت الصراخ، تتدحرج وتتهادى إلى الأمـام إلى أن يحين وقت الجـري. تبعثر كل شيء في طريقها بطريقـة خرقـاء إلى أن تبـدأ الإبصـار. أطفـال بلـدنا! إنهم ليسـوا كهـؤلاء الأطفـال في المـدارس. لا، أطفـال جـدد، وجديـدة. أطفـال لا نهايـة لهم، لا يتوقفـون. بمجـرد أن يظهـر طفـل، يتوقف على الفـور عن كونـه طفلًا. تتبعـه وجـوه أطفـال أخـرى لا تكـاد تُمَيِّزها عن بعضها وسط هذا العدد الكبير وهـذه الهرولـة، وجـوه ورديـة اللون مبتهجة. رغم أن هذا شـيء جميـل، ويحسـدنا الآخـرون عليـه، إلا أننا غير قادرين على أن نضمن لأطفالنا طفـولتهم. ولهـذا عواقبـه. هنـاك سـذاجة تنتشـر في وطننـا لا تنتهي، ولا يمكن اقتلاعهـا. نحن نتصـرف أحيانًـا بحماقـة، على نقيض أفضـل مـا فينـا، وضـد المنطـق العملي

السديد. نتصرف بحماقة وغفلة، وتهور، وسخاء، وإهمال تمامًا مثل الأطفال. كل هذا لا يصلح إلا في جلسة سَمَر بسيطة.

وعندما تصبح سعادتنا خالية من زخم الطفولة، يبقى فيها شيء ما. تستمد يوسفينا بقاءها منذ أن بدأت من هذه السذاجة.

إن وطننا بالكامل ساذج، وشاخ قبل الأوان. السذاجة والكهولة تظهران عندنا على غير ما تظهران في الشعوب الأخرى. تعوزنا فترة الصبا، فنحن نبلغ سريعًا سن الرشد، ونظل راشدين لفترة طويلة للغاية. يترك الإرهاق واليأس أثرًا كبيرًا على طبيعة شعبنا منذ تلك اللحظة. تلك الطبيعة القوية والمتعلقة بالأمل. ترتبط بهذه الطبيعة الميول غير الموسيقية. تَقَدَّم بنا العمر، ولم نعد نتفاعل مع الموسيقى. إن ما بها من إثارة وسمو لا يمكن أن يجتمع مع العبء الذي نحمله. نهز لها أيدينا.

لقد اكتفينا بصراخنا. الصراخ من وقت لآخر. هذا هو كل ما نفعله. ربما يكون بيننا من هو موهوب في الموسيقى. لو كانوا موجودين بالفعل فإن طبيعة أبناء وطننا سوف تقاوم هذه الموهبة قبل أن تتطور. يمكن أن تصرخ يوسفينا على النقيض كما تشاء، أو تغني، أو تسميه ما تشاء. إن ما تفعله لا يزعجنا، بل يعجبنا. نحن نتقبله تمامًا. لو أن ما تفعله ينطوي على نوع من الموسيقى، فإنها ستكون في أضيق الحدود. من المؤكد أنها تحافظ على بعض التقاليد الموسيقية، لكن هذا لا يهمنا على الإطلاق.

يوسفينا تعطي لشعب بهذه العقلية شيئًا آخر. ففي حفلاتها الغنائية، وخاصةً في الأوقات المهمة لا أحد يهتم بمطربة كهذه إلا الشباب الصغار. هم فقط يتابعونها بكل الإعجاب، وهي تحرك شفتيها، وهي تطلق الهواء من بين أسنانها الأمامية الجميلة، وهي تصغي بإعجاب إلى النغمات التي تصدرها بنفسها، وهي تتحمس لحركات جديدة، لا تدركها هي نفسها. لكن جمهورها يتراجع، وهذا أمر واضح. هنا، في تلك الوقفات بين الفقرات، يغرق الوطن في الأحلام. كأن أجسادهم تسترخي، وكأن الكائن الثائر سمح لنفسه بعد العرض أن يتمدد ويسترخي في سرير الوطن الكبير الدافئ. يتردد في تلك الأحلام صراخ يوسفينا من وقت لآخر. إنها تطلق عليه صراخًا فائرًا، ونحن نسميه صراخًا تشنجيًّا. لكنها بالتأكيد هنا في مكانها الصحيح، مثل الموسيقى التي تعثر على اللحظة التي تنتظرها. في هذا شيء من الطفولة البريئة القصيرة، شيء من السعادة المفقودة التي لن يجدها أحد. لكن في هذا أيضًا شيء من حياة العمل المعاصرة. شيء من حيوية خفية وغامضة، وأيضًا دائمة، ولا تقهر. لا تُعَبِّر عن كل هذا بأنغام ضخمة، بل بأنغام انسيابية، وهامسة، وحميمية، وأحيانًا بصوت أجش. هذا بالطبع صراخ، أليس كذلك؟ إن الصراخ هو لغة شعبنا، إنه يصرخ طوال حياته وهو لا يعرف. لكن الصراخ هنا متحرر من قيد الحياة اليومية، ويُحَرِّرنا للحظات قليلة. بالفعل لا نريد أن نخسر هذه العروض.

لكننا مازلنا بعيدين عمَّا تؤكده يوسفينا بأنها تدعمنا في تلك اللحظات، إلخ، إلخ. للشخص العادي بالطبع، وليس للمتملقين من أنصار

يوسـفينا. يقولـون كثـيرًا بجـرأة تلقائيـة: «لا يمكن أن يكـون إلا كـذلك. كيف يمكننا تفسير هذا الإقبال الكبير، وخاصـةً في ظـل خطـر محـدق. الإقبـال الـذي حـال أكـثر من مـرة دون توفـير الـدفاع المناسـب؟» هـذا حقيقي للأسـف. لكن هـذا لا يعـود إلى دور يوسـفينا الشـهير. لنتـذكر عندما فَرَّقَ العدو مثل هذا الجمع فجأة، ومات العديـد من أبنـاء وطننـا. قامت يوسفينا الـتي تسـببت في هـذا كلـه، وربمـا أنهـا اسـتدعت العـدو بصراخها، باللجوء إلى أكثر الأماكن أمنًا، وكانت أول من اختفى بهـدوء وبأسرع ما يمكن تحت حماية حاشيتها. لكن الناس جميعًا تعرف هـذا. رغم ذلك يعاودون الهرولة كلما أرادت يوسفينا، فتنهض وتغني. يمكننا أن نستنتج من هذا أن يوسفينا تقـف خـارج القـانون تقريبًـا. يمكنهـا أن تفعل ما تشاء، حتى وإن كان ما تريده يهدد المجتمع، فهو يغفر لها كل شيء. لو كان الأمر كذلك سوف تكون مطالب يوسفينا مفهومـة تمامًـا. بل في إطار هذه الحرية التي منحها إياها الـوطن، في إطـار هـذه المنحـة غير العادية التي لا تُقَدَّم لأحد غيرها، المنحة التي تُخَـالف القـانون. في إطارها يمكننا أن نفسر ما تؤكده هي بنفسها أن الوطن لا يفهمهـا، وأنـه ينظر إلى فنها في ذهول العاجز، ولا يشـعر بأنـه أهـل لهـا. يحـاول دائمًـا بأفعال يائسة أن يُعَوِّض يوسـفينا عن الظلم الـذي لحـق بهـا، وكـان هـو السبب فيه. فيضعها ويضع رغباتها خارج إطار قوانينه، تمامًا مثـل فنهـا الذي صار خارج حدود فهمه. عجبًا! ليس هـذا هـو التفسـير الصـحيح. ربما أن الوطن قد استسـلم أمـام يوسـفينا من خلال التفاصـيل. لكنـه لم يستسلم لها بدون شرط.

منذ القدم، ربما منذ بداية مسيرتها الفنية تسعى يوسفينا إلى أن تتحرر من كل الأعمال لأنها تغني. يجب أن تتحرر من الاهتمام بقوت يومها، وبكل ما يرتبط بصراعنا الوجودي، وتفرض نفسها، كما هو واضح، على الوطن ككيان مستقل. إن المواطن المتعجل وهؤلاء عندنا كُثْر يمكنه أن يحكم على صلاحيته الداخلية بناءً على هذا المطلب الغريب، وبناء على التركيبة الروحية التي استطاعت أن تفكر في هذا المطلب. لكن وطننا يستنتج أشياء أخرى، ويرفض المطلب بكل اطمئنان. لا يجهد حتى نفسه بتفنيد أسباب هذا المطلب. إن يوسفينا تشير، على سبيل المثال، إلى أن المجهود الذي تبذله في العمل سيؤثر سلبًا على غنائها. صحيح أنه قد يكون مجهودًا بسيطًا مقارنة بالمجهود الذي تبذله في الغناء، لكنه يمنعها تمامًا من الاسترخاء بعد الغناء بشكلٍ كافٍ. يمنعها من استجماع قواها استعدادًا للغناء من جديد. فهي تقول إنها تستهلك في الغناء كل شيء، ورغم ذلك لا يمكنها في ظل هذه الظروف أن تصل إلى قمة الأداء. يسمعها الوطن وكأنها لم تقل شيئًا. هذا الوطن الذي يستسلم بسهولة لأهوائه، لا يسمح أحيانًا لأي شيء أن يؤثر فيه. أحيانًا يكون الرفض قويًّا إلى درجة تُصيب يوسفينا بالدهشة. فتنصاع لهم، وتبدأ العمل كما ينبغي. تغني بأفضل ما لديها، لكن فقط لفترة وجيزة، ثم تواصل الصراع بعد ما تكون قد استجمعت قواها وهي قوى كبيرة، لا حدود لها على ما يبدو.

من الواضح إذن أن يوسفينا لا تسعى إلى تنفيذ ما تقوله. إنها إنسانة عاقلة. فهي لا تكره العمل. فكراهية العمل عندنا تُعَدّ أمرًا غير شائع.

بالتأكيد لن تتغير حياتها عن ذي قبل حتى لو انصعنا لمطالبها. لن يعوقها العمل عن الغناء، ولن يصبح غناؤها أفضل وهو ما تسعى إليه. إنه مجرد اعتراف بفنها، تقدير عام، واضح ودائم، وفاق كل ما هو معروف حتى الآن. لكن كل شيء دون ذلك يبدو لها سهل المنال. إنها ترفض هذا الأمر بكل إصرار. ربما كان عليها منذ البداية أن تشن هجومها في اتجاه آخر. ربما اكتشفت الآن خطأها، لكنها الآن لن تنجح. إن التراجع يعني أنها تخون نفسها. لذلك ليس أمامها إلا أن تدافع عن هذا المطلب أو تسقط.

لو أن لها بالفعل أعداء، كما يُقَال، فها هي الفرصة سانحة لأن يلهو بمتابعة هذه المباراة دون أي مجهود. لكن ليس لها أعداء، قد يكون هناك من يتحفظ عليها، لكن مباراة كهذه ليست مصدر سعادة لأي شخص. ليس لأن الوطن هنا يظهر في موقف القاضي البارد. فهذا من النادر أن يحدث عندنا. ولو أن أحدهم تَبَنَّى موقفًا كهذا، فإن فكرة أن الوطن قد يتعامل معه بالطريقة نفسها ليست مقبولة إطلاقًا. لا يتعلق رفض الطلب بالأمر نفسه، لكن الوطن يمكنه أن يُغلق الباب أمام أحد مواطنيه بطريقةٍ مُحكمة، ويكون على النقيض، يكون في حالات أخرى أكثر انفتاحًا في رعايته الدائمة لهذا المواطن، من منطلق أبوي أو أكثر من ذلك.

لو وقف الفرد في مكان الوطن، يمكن القول إن هذا الرجل كان يتراجع أمام يوسفينا طوال الوقت، برغبة جامحة في وضع حد لهذا التدليل. كان يتراجع بصورة تفوق طاقة البشر، وهو على يقين من أن التراجع،

رغم كل هذا، تجاوز حدوده الحقيقية، وأنه تراجع أكثر من اللازم كي يسرع من وتيرة الأمور. ومن أجل أن يدلل يوسفينا أكثر، ويشجعها على المزيد من الطلبات، إلى أن قامت أخيرًا برفع طلبها الأخير. وهنا اتخذ قراره النهائي الذي استعد له طويلًا. لكن الأمر هكذا ليس دقيقًا.

فالوطن لا يحتاج إلى مثل هذه الحيل. كما أن حبه ليوسفينا حقيقي ومؤكد، وطلب يوسفينا كبير؛ حيث إن أي طفل غير مُتَحَيِّز في إمكانه أن يتوقع رد الفعل عليه.

ورغم ذلك من الممكن أن يكون رأي يوسفينا في هذه القضية قد تسببت فيه أفكار مرفوضة أضافت المزيد من الكآبة والمرارة.

ورغم أن لديها مثل هذه الأفكار، فهي لا تثنيها عن المعركة. وقد ضاقت حلقات الصراع في الفترة الأخيرة. وإن كانت تقود حتى الآن هذه المعركة فقط بالكلمات، فها هي تتلمس وسائل أخرى تراها أكثر فعالية، ونراها نحن أكثر خطورة عليها.

لذلك يعتقد الكثيرون أن يوسفينا تُلح في فرض شعور بأنها تتقدم في العمر، وأن صوتها يضعف، لذلك هي ترى أن هذا هو الوقت المناسب لتقود فيه صراعها الأخير من أجل الاعتراف بها. أنا لا أصدق هذا الكلام. لن تكون يوسفينا كما عرفتها لو كانت هذه هي الحقيقة. فهي ترى أنه لا يوجد ما يُسَمَّى بالشيخوخة ولا بضعف صوتها. وإن كانت تطلب شيئًا، فإن ما يدفعها إليه ليست أمورًا خارجية، بل حذر داخلي.

إنها تلجأ إلى آخر إكليل غار، ليس لأنها تسقط في هذه اللحظة، لكن لأنه أعلى الأكاليل. ولو كان في استطاعتها لرفعته إلى أعلى أكثر فأكثر.

إن الازدراء باستغلال المشاكل الخارجية لا يمنعها بالطبع من أن تستخدم أكثر الوسائل احترامًا. إنها لا تشكك على الإطلاق في أنها على حق. وهو يتوقف على نوع الحقوق التي تكسبها، خاصةً أن جميع الوسائل الشريفة في هذا العالم كما تتخيله هي تفشل بالضرورة. ربما لهذا السبب قامت بنقل الصراع حول حقوقها من مجال الغناء إلى مجال آخر أقل قيمة. قامت حاشية يوسفينا بنقل أقوالها إلى العالم. تؤكد فيها أنها مازالت قادرة على الغناء إلى درجة تحقيق متعة حقيقية للوطن في جميع طبقاته، وحتى لدى المعارضة المختفية. متعة حقيقية ليس كما يتخيلها الوطن الذي يؤكد أنه يشعر بها في غناء يوسفينا من البداية، لكنها متعة بناء على رغبة يوسفينا. ويضيف: ولأنه لا يمكن أن نُزَوِّر ما هو نبيل، ونرفع ما هو وضيع، فلابد أن تبقى الأمور كما هي عليه. هذا هو الحال في صراعها من أجل التَّحَرُّر من العمل. صحيح أنه صراع أيضًا حول فنها، لكنها هنا لا تحارب بسلاح الغناء عظيم القيمة بشكل مباشر، وكل وسيلة تستخدمها مفيدة لها. فانتشرت، على سبيل المثال، مقولة إنه لو لم يتم الاستجابة لطلبها سوف تقلل يوسفينا من تنويعات صوتها. أنا لا أعرف شيئًا عن هذه التنويعات، فلم ألحظ في غنائها شيئًا يمكن أن يكون تنويعًا. لكن يوسفينا تريد أن تقلل من تنويعها في الغناء. لن تتوقف عنه، بل ستقلله. لكني لم ألاحظ في هذا أي تغيير عن عروضها السابقة. إن الوطن بصفة عامة كان يستمع كما

هي العادة، دون أن ينطق كلمة عن تلك التنويعات. أيضًا لم يتغيَّر شيء بخصوص طلب يوسفينا. هناك الكثير من الرشاقة في مظهر يوسفينا وبالتأكيد في طريقة تفكيرها أيضًا. أعلنت بطريقة نموذجية بعد انتهاء الحفل وكأن قرارها بشأن التنويعات الصوتية كان قرارًا صعبًا على الوطن أو مُبَاغتًا إنها في المرة المقبلة ستغني بكل التنويعات الصوتية من جديد. لكنها بعد الحفلة الغنائية التالية تراجعت عن قرارها. الآن يقولون إنها توقفت عن تلك التنويعات إلى الأبد، ولن تعود إليها إلا بعدما يُلَبَّى طلبها بالإيجاب. وكأن الوطن لم يسمع هذا التصريح، ولا هذا القرار، أو القرارات الجديدة. تمامًا مثل رجل بالغ لا يستمع إلى جلبة طفله وهو غارق في التفكير، ومغدق في الإحسان، لكن الوصول إليه صعب.

لكن يوسفينا لا تتراجع. مثلًا بدأت تؤكد مُؤَخرًا أنها أُصيبت بجرح في ساقها أثناء العمل. لذلك من الصعب أن تقف أثناء الغناء. وبما أنها لا تستطيع الغناء إلا وهي واقفة فهي مضطرة إلى أن تختصر وقت الغناء. لم يُصَدِّق أحد أنها أُصيبت بالفعل، رغم أنها تعرُج، وتستند على حاشيتها! لو افترضنا أن جسمها الصغير رقيق بشكل خاص، لكننا وطن عامل، ويوسفينا جزء منه. لو أننا عرجنا من كل خدش بسيط، سيصير الوطن كله يعرج إلى الأبد. لتظهر وهم يقودونها مثل الكسيحة، ولتظهر على هذه الحالة المثيرة للشفقة أكثر من أي وقت مضى، سيظل الوطن يستمع إلى صوتها بالوفاء والحماس نفسه كما كان من قبل لكنه لن يعبأ كثيرًا بقضية اختصار وقت الغناء.

لكنها لا يمكن أن تظل تعرج إلى الأبد. تبدأ في ابتكار شيء آخر، فَتَدَّعي الإرهاق، والحزن والوهن. وها نحن أمام حفلة موسيقية وعرض مسرحي في آن واحد. نرى حاشية يوسفينا تسير خلفها، تستدر عطفها، وتستحلفها بأن تغني.

إنها ترغب في الغناء، لكن لا تستطيع. يسترضونها، ويتملقونها، ويكادون يحملونها إلى المكان الذي أعدوه لها مسبقًا لكي تغني فيه. في النهاية توافق وسط دموع غير مفهومة. لكن كيف تغني وهي تجاهد ضد إرادتها. تسقط على المقعد وذراعاها مسترخيتان بخمول بطول جسمها، وليستا مفرودتين كما كان يحدث في السابق، فتعطي انطباعًا بأن ذراعيها ربما قصيرتان. كلما تحاول أن تغني تعجز عن المواصلة. تشير إلى هذا بهزة برأسها. ثم تسقط على الأرض أمام أعيننا. بالطبع بعد ذلك تنهض من جديد وتغني بطريقة أعتقد أنها لا تختلف عن السابق. ربما لو أن لديكم حساسية للفروق البسيطة سوف تستمعون إلى بعض الإثارة غير المعتادة التي تمنح العرض مزيدًا من النجاح. عندما تنتهي، لا يبدو عليها الإرهاق كما كانت من قبل. تنصرف بخطوات قوية لو أمكننا أن نُطلق على طقطقتها هذا الوصف وهي ترفض أي مساعدة من حاشيتها، ثم تُلقي نظرة باردة مُتفحصة على جمهورها الذي يتراجع بكل احترام ليُفسح لها الطريق.

حدث شيء كهذا منذ وقت قريب. لكن الشيء الجديد هو أنها اختفت عندما وقف الجمهور ينتظرها. لم تبحث عنها حاشيتها فقط، لكن الكثيرين عرضوا خدماتهم في البحث عنها، دون مقابل. اختفت

يوسفينا. إنها لا تريد أن تغني، لا تريد أن تقبل توسلات أحد. لقد تركتنا إلى الأبد.

غريب أن هذه المرأة الذكية أخطأت الحساب. أخطأت كثيرًا حتى اعتقدنا أنها لا تجيد الحساب مُطلقًا. استسلمت لقدرها الذي لا يمكن وصفه في عالمنا إلا أنه قدر مُحزن. رفضت بنفسها الغناء، دمرت السلطة التي سيطرت بها على قلوبنا. كيف استطاعت أن تنال هذه السلطة وهي لا تعرف هذه القلوب جيداً. اختفت، وتوقفت عن الغناء. لكن الوطن الهادئ الذي لم يُظهر أي شعور بخيبة الأمل، الوطن السيد، الجمهور القائم بنفسه، هو وحده رغم أن الأمور تبدو غير ذلك هو وحده من يمنح الإحسان، ولا يقبله، ولا حتى من يوسفينا. هذا الوطن يواصل طريقه.

من المؤكد أن يوسفينا انتهت. وقريبًا ستأتي اللحظة التي تنطلق فيها آخر صيحاتها، ثم تصمت. إنها حلقة من حلقات كثيرة في تاريخ وطننا. وسوف يتجاوزها الوطن. لن نتجاوزها بسهولة، وهذه حقيقة. كيف سيلتزم الجمع المتوقع مثل هذا الصمت التام؟ بالطبع سيلتزم. ألم يكن هادئًا مع يوسفينا؟ هل كان صراخها الحقيقي أعلى وأكثر حيوية من ذكراها؟ ألم يكن صوتها وحتى في حياتها مجرد ذكرى؟ ألم يرفع وطننا بكل حكمته صوت يوسفينا إلى الأعالي حتى صار خالداً؟

ربما أننا لن نخسر الكثير بدونها. لكن يوسفينا التي تخلصتْ من عذاب الحياة الدنيا، العذاب الذي لا يَحِلّ، كما قالت، إلا بالمختارين،

اختفت بسعادة وسط حشد الأبطال الذي لا يُحْصى في وطننا. وقريبًا ولأننا لا نكتب التاريخ ستحصل على خلاص أكبر بالنسيان مثل كل أشقائها.

فرانز كافكا

«الأعمال الكاملة»

الجزء الثالث

ترجمة

د. يسري خميس

مقدمة المترجم

كافكا الذي لا نعرفه

من أخطر المزالق التي يمكن أن يقع فيها القارئ/الناقد هو الثبوت عند تَصَوّر مُعَيَّن لكاتبٍ ما. هذا يعني، أن يضع الكاتب في إطار مُحَدَّد لا يحيد عنه. وعلى وجه الخصوص الكاتب المبدع الكبير، الذي يكون من الصعب بل من الخطأ كل الخطأ أن تضعه في كليشيه خاص، لا يمكن أن يخرج من إطاره.

من الضروري أن يُحَاول نُقَّاد الأدب تحديد المصطلح النقدي على مدى تطور المراحل الأدبية المختلفة، بدءًا من «الواقعية» بأشكالها المتعددة؛ «الواقعية النقدية»، «الواقعية الاشتراكية»، «الواقعية السحرية» و «الواقعية الخيالية».. إلخ، حتى الميتافكشن (Metafiction) مرورًا ب«الطبيعية»، «الدادية» و«السيريالية» وذلك للتفرقة بين مدارسها، وإن كان من الصعب، بل من المستحيل أن تفصل هذه المدارس بتلك الحدة داخل الأعمال الأدبية العظيمة؛ حيث تتداخل الطرائق والأساليب الفنية في نسيج العمل الأدبي الواحد، كما تتداخل التناقضات في الحياة نفسها.

ولقد تعرف القارئ العربي على الكاتب الألماني (المجري/ التشيكي الجنسية)، المتفرد ككل الكُتَّاب العظام، أول الأمر على رواياته:

«القلعة»، «المحاكمة»، «التحول»، «أمريكا».

ولقد أذهل النُّقَّاد أول عمل أدبي كبير كتبه كافكا «الحكم» (Das Urteil) سنة 1912 في نَفَسٍ واحد في ليلةٍ واحدةٍ.

يُعتبر فرانز كافكا (1883 ـ 1924)، Franz Kafka أحد روَّاد الحداثة الأوائل في عالم الإبداع الأدبي في القرن العشرين، وهو معروف في عالمنا العربي كروائي وقاص شديد الخصوصية في رؤيته الحادة العصبية المتوترة لخبرة الإنسان المرهقة في هذا العالم. وقد وُصِفَ عالمه الأدبي بأنه «كابوسي» و«عصابيّ»، لذلك يستحق لقب «رائد الكتابة الكابوسية»، أو «العجائبية» و«الغرائبية».

ويتبدى في أعماله كما وصفها أحد الكُتَّاب إحساس عالٍ وعميق بالمرارة والظلمة؛ ففي روايته «التحول» أو «المسخ» يُقَدِّمُ رؤيةً قاتمةً للإنسان.. حيث نرى الموظف المبتئس بوظيفته وقد أرهقته ضغوط احتياجات أسرته التي يعولها، يصحو ليجد نفسه وقد تحول إلى حشرة كبيرة متوحشة، ويصير مصدر إزعاج بعد أن كان مصدر احتفاء من والديه وأخته الذين يتنفسون الصعداء حين تموت تلك «الحشرة»! وكأنما الذي يربط الإنسان بأسرته هي الحاجة المادية التي إن لم يستطع تحقيقها؛ فإن الأسرة تتخلى عنه وتُحَاربه كما تُحَارب أي حشرةٍ ضارة.

وهناك ناقد آخر قال بأن «فرانز كافكا» تنبأ بحسه المرهف والمذهل بجوهر العصر الرأسمالي في مرحلة انحطاطه وتفسخه، والذي صرنا

نعيشه في هذه الفترة المُسَمَّاة ب«عصر العولمة» ذلك النظام العالمي الجديد بقيادة الإمبريالية الأمريكية؛ حيث يتحول البشر تدريجيًا إلى درجات أدنى من البهائم. فلو أفاق «رشيهورش سامسا» (بطل قصة المسخ) صباح ذات يوم ليجد نفسه فجأةً وقد تَحَوَّل إلى حشرة في الظاهر، فإن عملية الانمساخ بدأت(داخليًّا) منذ شعوره باليأس والإحباط، ومعاناته من الاستلاب في ظل العلاقات اللاإنسانية للرأسمالية.

إن القليل من التأمل يضعنا أمام صورتنا الحقيقية؛ حقيقة أنه عبر نشاطنا، أعمالنا، نزهتنا، تمضية أوقات فراغنا وظروف معيشتنا كلها قد استحلنا نُسَخَا مُكَرَّرة من «رشيهورش سامسا». وأن ماكينة الزمن قد صارت آلة استنساخ «رشيهورش سامسا»، بالملايين من النسخ المرعبة. وإن النهايات الفاجعة في أعمال «كافكا» أصبحت نهاياتنا جميعًا، مُلَخِّصَةً الحياة البائسة نفسها التي كان يعيشها «رشيهورش سامسا»، والتي نعيشها نحن أيضًا. وإن اليأس المحدق به، هو نفسه المحدق بنا اليوم. وأن سوداويته هي سوداويتنا. ومثلما كان يعاني الكثير من الحزن والاضطهاد والآلام؛ فنحن الآن كذلك نعاني مثلما كان يعاني، في ظل النظام العالمي الجديد. نحن أيضًا مثل «رشيهورش سامسا»، معذبون، وإن كنا نعمل على ألا ينخر اليأس روحنا وعزيمتنا. ومثل «كافكا» أيضًا صار الغضب الذي يُوَلِّده القلق يَطبَعُ رُوحَنَا بطابِعِه.

لم ألاحظ قط فيما قرأتُ من مؤلفاته وهو ليس بالقليل وليس بالكثير الذي يُمَكِّنني من الحكم أي انعكاس لديانته اليهودية فيها. في الوقت نفسه الذي أكد فيه بعض النقَّاد المتعصبين على يهودية الرجل. وما يعنينا هنا بالنسبة لنا نحن كعرب أنه يجب التفرقة بوضوح بين اليهودية، باعتبارها إحدى الديانات السماوية الثلاث، وبين الصهيونية، التي هي في جوهرها وممارساتها حركة استعمارية، عنصرية، عسكرية، مُنْحَطة، يُمَثِّلها بوضوح الكيان الصهيوني المغتصب لأرض فلسطين بمساعدة دول الاستعمار التقليدية التي كان على رأسها إنجلترا.

في بداية نجاح الثورة البلشفية (1917) بقيادة لينين العظيم، ربط الفكر الماركسي التقليدي الأدب بشعاراته وتوجهاته للوصول إلى حكم الطبقة العاملة (دكتاتورية البروليتاريا) تحت شعار «يا عمال العالم اتحدوا». حلم إنساني عظيم لشاعر وثائر فحل؛ مما أفرز بلا شك أعمالًا عظيمة في تلك المرحلة التاريخية. ومن هنا كانت أعمال «كافكا» بالمقياس الدعائي بعيدة كل البعد عن هذا التَّصَوُّر؛ بل وصل الأمر بالحزب الشيوعي الفرنسي لأن يُطالب بحرق أعمال كافكا. ولكن هتلر قام بالفعل بحرقها في حريق الكتب الشهير (1933) لكل من عارض النظام النازي. ولكن باستقرار الوضع في الاتحاد السوفيتي، ابتدأ نُقَّاد الأدب في إعادة النظر في هذا الموقف ذي البُعد الواحد، وكان أن كتب الفيلسوف والمفكر «روجيه جارودي Roger Garaudy» وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في كتابه «واقعية بلا ضفاف» داعيًا إلى إعادة النظر في كتابات «كافكا»،

كاشـفًا لنـا الرؤيـة الإنسـانية الواسـعة والعميقـة في أعمالـه، وجـوهره ككاتب إنساني، يكتب عن عذابات الإنسان ومعاناته ضد القهـر والظلم والرعب من واقع ظالم مُتَحَيِّز. إنه كافكـا الـذي يـرى أن: «على الكـاتب أن يكـون الفـأس الـتي تكسـر مـا في داخلنـا من جليـد» وهكـذا كسـر «جارودي» جليد الجمـود الفكـري، الـذي يُحَـوِّل الفكـر الماركسـي إلى دوجما Dogma مُقَدَّسة، مما يتعارض في جوهره مع ديالكتيك الفكـر الماركسي وديناميكيته الـتي لا تتوقـف مـع صـيرورة التـاريخ؛ ممـا كـان أحد أسباب فصله من اللجنة المركزية للحزب، واتهامه بالتحريفية.

رغم أن الأعمال الكاملة ل«فرانز كافكا» قد تُرْجِمَتْ في العـالم العـربي؛ ترجمها كُلٌّ من إبراهيم وطفي في سوريا ود. مصطفى مـاهر والدسـوقي فهمي في مصر منذ ستينيات القـرن العشـرين، كمـا تُـرْجِمَتْ لـه أعمـال متفرقة في لبنـان، إلا أنهـا لم تُقَابَـل وقتهـا من أغلب الأدبـاء المصـريين والعرب بالحماس الـذي تسـتحقه. وإن كـان قـد ازداد الاهتمـام بهـا في السـنوات الأخـيرة، وسـط المنـاخ الاجتمـاعي العبـثي الشـديد التنـاقض والتسيب العام واللامنطق؛ حيث وجد فيها الأدباء علاقة موازية بدرجة أو بأخرى مع مـا يـدور حولنـا ويُشَـوِّه حياتنـا ويُفسـدها، ممـا يُـذَكِّرَهم بعالم كافكا الإنساني العميق.

سـتظل أعمـال «كافكـا» تُثـير الكثـير من الإشـكاليات والتسـاؤلات والاستفهامات؛ إلا أنها كتابات عبقرية كان لها أثرها في عـدد كبـير من الأدباء في أرجاء العالم مثل:

«خورخي لويس بورخيس»، و«جابرييل جارسيا ماركيز» الذي يقول: «أثبت لي كافكا، أنه يمكن الكتابة بطريقة أخرى»؛ و«ميلان كونديرا» حين قال: «لقد أثبت لي كافكا، أنه يمكن تجاوز الاحتمالات، ليس على طريقة الرومانتيكيين، للهروب من العالم الواقعي، بل من أجل أن نفهمه بشكل أفضل»؛ والروائي الأمريكي «فيليب روث»؛ و«خوان رولفو» المكسيكي؛ والإيطالي «إيتالو كالفينو» و«هاروكي موراكامي» الياباني؛ والكاتب الشاعر «إلياس كانيتي» الذي يقول: «كافكا شاعر عظيم، إنه أهمّ من عَبَّرَ بوضوح عن قرننا العشرين» وقد تُرْجِمَتْ للعربية العديد من أعمال هؤلاء الكُتَّاب في السنوات الأخيرة، مما لفت نظر أدباؤنا ومثقفينا لإعادة اكتشاف «فرانز كافكا»

يختلف النُّقَّاد بالنسبة لكل عمل أدبي عظيم، يصعب تصنيفه تحت مدرسة أدبية معينة؛ فالأدب العظيم يستحيل تأطيره في حيز ضيق، إنما هو خبرة فنية تحتوي على اتجاهات مختلفة متداخلة وتتضمن رؤى متعددة. وعملية تحديده يمكن أن تكون ضارة، لأنها تُربك العلاقة بين النص والقارئ وتُحِد من انطلاق خياله في عملية التلقي.

إن الأثر الذي تركه «كافكا» اتخذ طابعًا كونيًّا شمل مناطق متباعدة ثقافيًا ولغويًا وجغرافيًا، وفي هذا تفسير وتبرير لمقولة «إن كافكا هو صاحب الظل الأطول بين كُتَّاب القرن العشرين» وقد صدق أحد النُّقَّاد حين قال: «إن كتابات كافكا هي ضربة فأس ضد البحر المتجمد فينا». وهي مقولة مشتقة من فكر كافكا نفسه:

«الكاتب يجب أن يكون الفأس التي تكسر بحر الجليد فينا»

د. يسري خميس

يونيو 2011

فرانز كافكا[14]

طه حسين

مر بهذا العالم مرًّا سريعًا، فلم يعش فيه إلا أربعين عامًا، أنفق جزءًا غير قليل منها في الطفولة والصبا، مُتأثرًا بما حوله غير مؤثر فيه، مُتلقيًا ما ينحدر إليه من أبويه اللذين مَنحاه الحياة، وما يُقدم إليه أبواه أثناء التربية من ألوان التصور للأشياء، والتقدير لها، والحكم عليها، والوقوف أمامها، قابلًا حينًا ورافضًا حينًا آخر، مُتلقيًا كذلك ما تقدم إليه بيئته الخاصة التي تحيط به وبأسرته في مدينة براج، في أواخر القرن الماضي، من ألوان الحضارة وفنون الحياة التي كانت الطبقة الوسطى تحياها في ذلك الوقت.

ثم أنفق بعض هذا الأمد طالبًا في المدارس الثانوية ثم في الجامعة، مندفعًا بميله الأول إلى العلم، ثم مُتَحَوِّلًا عن العلم التجريبي إلى الفقه والقانون، حتى إذا أتم دراسته التمس عملًا يكسب منه القوت، ليظفر بشيءٍ من الحياة المُستقلة، فوجد هذا العمل في شركة من شركات التأمين.

وهو في أثناء ذلك يَتَكَلَّفُ أسفارًا قَصيرة في وطنه وفي ألمانيا وسويسرا، وإيطاليا- وفرنسا. ثم لا يكاد القرن العشرون يتقدم قليلًا، حتى يقضي عليه الموت سنة 1924 وقد وُلِد 1883 فحياته العاملة الظاهرة كما ترى قصيرة جدًّا، بسيطة جدًّا، ليس فيها عوج ولا التواء،

14مقال كتبه د. طه حسين عن «كافكا» في كتابه «ألوان». (بتصرف)

وليس فيها تكلف ولا تعقيد، ومع ذلك فلم يعرف التاريخ الأدبي كثيرًا من الأدباء تعقدت حياتهم النفسية، والتوت بهم طرق الإحساس والشعور والتفكير، كهذا الأديب، والذين يدرسون حياته النفسية هذه في آثاره الكثيرة يَرُدُّون تعقيدها إلى طائفة من المؤثرات، قريبة في نفسها، ولكنها بعيدة أشدَّ البُعْدِ فيما نشأ عنها من ضروب الشعور والتفكير.

فقد كان أديبنا من أسرة يَهودية تعمل في التجارة، مُتَأَثِّرة أشد التأثر، وأيسره في الوقت نفسه، بالتقاليد اليهودية المتوارثة، في شرق أوروبا ووسطها؛ فهي مُحافظة أشد المحافظة على هذه التقاليد السطحية التي يحافظ عليها اليهود، وهي في الوقت نفسه مُتهاونة أشد التهاون في حقائق الدين ودقائقه، ترى أنها قد أدت الواجب على وجهه إذا اختلفت إلى المعبد في أوقات معلومة، فسمعت ما يسمع الناس، وقالت ما يقولون، وأتت من الحركات والأعمال ما يأتون، دون أن يتجاوز شيء من هذا كله أطراف اللسان وأعضاء الجسم، إلى دخائل النفوس وأعماق القلوب فدينُها ظاهر من الأمر، كدين غيرها من عامة الناس، صور وأشكال لا تمس الضمير، ولا تؤثر في السيرة اليومية، ولا توجه الحياة الداخلية والخارجية إلى وجه دون وجه، وإنَّما الحياةُ الداخلية والخارجية مُوَجَّهتان دائمًا بما وجه حياة الناس، على اختلاف أديانهم وعقائدهم.

من هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي تدفع النَّاس إلى العناية بمنافعهم القريبة العاجلة، أكثر من العناية بحقائق الدين

ودقائقه، وبتعمق الحياة وما يكون فيها من الأحداث، وما يُمكن أنْ يكون لها من الأغراض العُليا والغايات البعيدة.

ولذلك لم يلبث أديبُنا أن ضاق بهذه الحياة الدينية الظاهرة المتكلفة، التي تقوم على النفاق أكثر مما تقوم على الإيمان؛ فجحد دينَ الأسُرة والشعب اليهودي أولًا، ثم جحد الدين نفسه بحقائقه ودقائقه بعد ذلك، وأقام حائرًا لا يستطيع أن يعود إلى دين آبائه؛ لأن عقله لا يطمئن إلى هذا الدين، ولا يستطيع أن يستغني عن حياة دينية صادقة تعمر القلب، وتملأ الضمير ثقة واطمئنانًا؛ فهو يُنكر من جهة أشد الإنكار، ويسعى من جهة أخرى أشد السعي، إلى أنْ يَجِد ما يؤمن به قلبه، وترتاح نفسه إليه.

وهذه المحنة القاسية التي امتُحن بها في إيمانه، قد نشأت عنها مِحْنة أخرى ليست أقلَّ منها قسوة وعنفًا، وليست أيسر منها تأثيرًا في حياته الدَّاخلية؛ فقد امتُحن أديبُنا في الصلة بينه وبين أبيه، أنكر سيرة أبيه في الدين؛ لأنه لم يرَ فيها صدقًا ولا إخلاصًا، ثم أنكر سيرة أبيه في الأسرة؛ لأنه رآها تقوم على التسلط والاستطالة وعلى القوة والقهر أكثر مما تقوم على الرَّحمة والحُبِّ وعلى البر والعطف والحنان، ثم أنكر سيرة أبيه في تدبير منافعه التجارية المُختلفة؛ لأنه رآها تقوم على الحرص والأثرة وانتهاز الفرص، أكثر مما تقوم على القصد والعدل والإنصاف، فنظر إلى أبيه على أنه طاغية مُخيف، ولم يستطع أن ينظر إليه إلا على هذا النحو، وأقام الصلة بينه وبين أبيه على الإشفاق والخوف، ثم على

المُصَانعة والمُـدَاراة، ولم يستطع أن يُقيمهـا على شـيء آخـر من هـذا التعاطف الرقيق الرفيق الذي يكون بين الأبناء والآباء.

فهـو إذن مُنكِـر للـدين وسُـلطانه، وهـو في الـوقتِ نفسِـه ضـيِّق بـالأبوة وسلطانها، وهـو لا يلبَثُ أن يوحِّد بين هـذين النـوعين اللـذين يُنْكِرُهمـا من السلطان: سلطان الدين، وسلطان الأبوة. فيقف منهمـا موقفًـا قوامـه القلق والفزع والهول، وهو يَشْقى بهذا المَوقف حياتـه كلهـا، قـد حـاول ما وسعته المُحاولـة، أن يَخلص من الشـك إلى الثقـة، ومن الخـوف إلى الأمن، فلم يجد إلى ذلك سبيلًا.

ثم تنشأ من مِحنته في الدِّين وفي الصلة بينـه وبين أسـرته، محنـة أخـرى ليست أقل منهما قسوة ولا تعقيدًا، وهي المِحْنَةُ الـتي تمس حقـه في أنْ يَحيا حياة الآباء، فيتخـذ الـزوج ويمنح الوجـود للولـد، كمـا اتخـذ أبـوه الـزوج وكمـا منحـه ومنح إخوتـه الوجـود، فهـو يشـعر بأنـه مـدين لأبيـه بوجوده، لا يشك في ذلك، ولا يشك في أن الـدَّيْنَ يجب أن يُـؤدى، ولا يشك في أن الوسيلة الوحيدة إلى أن يُؤدي الابن ما عليه لأبيه من الـدَّيْن إنما أن يمنح الوجود الذي تلقاه من أبيه لأبناء يتلقونه منه ويمنحونه بعد ذلك لأبنائهم، فإذا اتخذ الزوج ورُزق الولد، فليس عليـه لأبيـه دَينٌ. هـو يؤمن بهذا كله، ولكنـه في الـوقت نفسـه يقـف من هـذه القضـية موقفًـا يُشبه موقف أبي العلاء في البيت المشهور:

هذا جناه أبي علي

وما جنيت على أحد

ذلك أنه يرى الحياة التي تلقاها من أبيه شرًّا لا خيرًا؛ لأنَّها لم تمنحه رضا القلب، ولا هدوء النفس، ولا راحة الضمير، ولا هذه الثقة البَاسمة التي تنشأ عنها كل هذه الخصال. هو مَدينٌ لأبيه بالوُجود، وما في ذلك شَكٌّ، وليس أحب إليه من أن يؤدي ما عليه من الدَّين، ولكن بشرط ألا يكون أداء الدين مصدرًا للشر، ولا سبيلًا إلى الأذى، وبِشرط ألا يجني على أبنائه. ما جنى عليه أبوه من هذا القلق المُتَّصل، والخوف المُلِح، واليأس المُقيم.

وإلى جانب هذه المِحَن الثَّلاث، في الدِّين والأبوة والزَّواج، تُضاف مِحْنَةٌ أخرى لَعَلَّها أن تكون هي التي أسبغت لونها القاتم على مِحَنِهِ الأخُرَى كُلها، وهي مِحْنَة المرض، المرض الذي لا يظهر فجاءة ولا يثقل على المريض ثقلًا طويلًا، وإنما يداوره ويناوره، ويَسعى إليه سعيًا خفيًّا بطيئًا مُتلكئًا، يدنو منه لينأى عنه، ويُلمُّ به ليُفارقه، ويقفه من الحياة موقفًا غريبًا لا هو باليأس الخالص ولا هو بالأمل الخالص، وإنَّما هو شيء بين ذلك، يملأ القلب حسرة ولوعة، ويملأ النفس شقاءً وعناءً؛ حتى إذا استبان أنه قد نهك فريسته وكلفها من الجهد أقصاه ولم يبقَ فيها قدرة على المقاومة، أنشب فيها أظفاره، وصب عليها آلامًا ثقالًا وأهوالًا طوالًا، ثم قضى عليها الموت في ساعة من ساعات الليل أو من ساعات النهار.

فأنت ترى أن أديبنا عليلٌ قد ألحت عليه العِلَّة، وأن علته معقدة أشد التعقيد، بعضها يتصل بالدين، وقد عجز أطباء اللاهوت عن علاجه؛ فهو قد قرأ التوراة وتعمق دراسة التلمود، ودرس المسيحية ودرس

فلسفة الفلاسفة المُؤمنين والمُلحِدين، فلم يَجِد لِعِلَّتـه الدينيـة هـذه طبًّا ولا شفاءً.

وبعضها يتصـل بالوراثـة والصـلة بين الابن وأبويـه، فهـو إلى علم النفس التحليلي أقرب منـه إلى أي شـيء آخـر، وقـد عجـز علم النفس التحليلي عن علاجه، فلم يستطع أحد ولم يستطع شـيء أنْ يُصلح رأيـه في أبيـه، أو يُصلح العِلاقة بينـه وبين أبيـه، وإنمـا ظَـلَّ طـول حَيَاتِـهِ واقفًـا من أبيـه مَوقف الطفل الخائف المروع الذي يرى تفـوق أبيـه وتسـلطه، ويُحـاول أن يخلص من سـلطانه فلا يسـتطيع، ويحـاول أن يحبـه وأن يظفـر منـه بالحب فلا يستطيع.

وبعضها يتصل برأيه في الحياة، وموقفه منها، ورغبته في أن يحياها كما تعوَّد الناسُ أن يحيوها، وخوفه مع ذلك من العجز عن احتمال أثقالهـا، وخوفه بنوع خـاص من أن يحمِّل هـذه الأثقـال قومًـا آخـرين أبريـاء، لم يجنوا ما يستحقون من أجله احتمال الأثقال، وهم الزوج والولد.

وبعضُ عِلَّتِـهِ جِسـمي يتصـل بالفسـيولوجيا، وقـد عجـز الأطبـاء عن عِلاجه؛ فما زالَ السل يداوره ويناوئه حتى قضى عليه آخر الأمر.

فإذا قدَّرنا هذه المحن كلهـا، وقـدَّرنا أنهـا لم تُصَـبَّ على رجـل عـادي، وإنمـا صُـبَّت على رجـل ممتـاز لـه من القلـوب أذكاهـا، ومن العقـول أصـفاها، ومن الأذواق أرقهـا، ومن المشـاعر أدقهـا، ومن الحس أشـده إرهافًـا، ولـه بعـد ذلـك إرادة حازمـة صـارمة، وقُـدرة مُدهشـة على الملاحظـة، وعلى مُلاحظـة نفسـه أكـثر من ملاحظـة غـيره من النـاس،

وبراعة خارقة للعادة في أن يجعل نفسه موضوعًا للدرس والبحث والتحليل، وأن يكون هو الدارس الباحث المحلل، وأن يسجل ما ينتهي إليه درسه وبحثه وتحليله، في آثار مكتوبة طوال وقصار، أقول: إذا قدرنا هذا كله، لم نر غريبًا أن يكون أديبُنا هذا بهذه المنزلة التي شغلت الناس، ويظهر أنها ستشغلهم وقتًا طويلًا.

ورُبما كان أخص ما يمتاز به فرانز كافكا أشد الامتياز، أنه كان أصدق الناس لهجة، وأشدهم إخلاصًا، وأبغضهم للتكلف، وأبعدهم عن التصنع، وأعظمهم حظًّا من التواضع الذي يأتي من معرفة الإنسان قدر نفسه بعد الدرس المُتَّصل والاستقصاء العميق، وهو من أجل ذلك كان يكتب لنفسه أكثر مما كان يكتب للناس؛ فقد كان من أشد الناس زهدًا في نشر آثاره وأعظمهم إخفاءً لها وضنًّا، لا لأنه كان يُكْبِرُها أو يُغالي بها، بل لأنَّه كان يَزْدَرِيها كما كان يزدري نفسه.

وقد نُشِر قليل من آثاره أثناء حياته في المجلات، ولم يُنشَر في أكثر الأحيان إلا على كره منه، كان صديقه ماكس برود يختطف هذه الآثار اختطافًا، ويدفعه إلى نشرها دفعًا، فلما أدركه الموت وقرئت وصيته، تبين أنه قد اختار صديقه هذا ـ ماكس برود ـ وصيًّا، وأنَّه يطلب إليه أن يحرق آثاره كلها، وألا ينشر منها في الناس شيئًا.

وقد وقف الوصي من هذه الوصية موقِف الحيرة التي لم تتصل، فشكَّ غيرَ طويل ثم خالف عن أمر صديقه، وأخذ في نشر آثاره مُلْتَمِسًا لذلك ما شاء من العِلَل والمَعَاذير.

وقد مات فرانـز كافكـا سَـنة 1924، ولم تمضِ على وفاتـه أعـوام حـتى كانت آثاره بعيدة الانتشار في ألمانيا، بـل في أوروبـا الوسـطى كلهـا، ثم تجاوزت حدود أوروبا الوسطى إلى أوروبـا الغربيـة، فتلقاهـا الفرنسـيون لقاءً غريبًا.

ورُبَّمـا كـان من طرائـف الأشـياء، أن آثـار فرانـز كافكـا، كـانت تُسـتقبل أحسـن اسـتقبال في غـرب أوروبـا؛ ويُنكَّل بهـا أبشـع تنكيـل في أوروبـا الوسطى؛ فكان الفرنسيون والإنجليز يترجمونهـا ويفسـرونها، على حين كان الألمانيون الهتلريون يَحرقونها جهرة في الميادين.

وقد يكون من الخير أن نُلاحظ، قبل أن نتحـدث عن آثـار فرانـز كافكـا، أن ظـروف الحيـاة الأوروبيـة كـانت ملائمـة كـل الملاءمـة لظهـور هـذه الآثار؛ فقد بدأ كافكا يَشْعُر ويُفكِّر قُبيل الحـرب العالميـة الأولى، فكـان كل شيء من حوله يؤذن بالكارثة، ويدفع إلى البؤس واليأس.

ثم مضـى في تفكـيره وإنتاجـه أثنـاء الحـرب العالميـة الأولى، فكـان في تلاحق الكوارث والفواجع من حوله ما يزيد إمعانه في البـؤس واليـأس، ثم نَظَـر ذات يـوم فـإذا كـل شـيء من حولـه ينهـار؛ فإمبراطوريـة النمسـا والمجر تتفرق أيدي سبا، والإمبراطورية الألمانية العظيمة تلقي السـلاح وتركع مُتلقية شروط المنتصر، فلا يزيده هـذا كلـه إلا إيغـالًا في البـؤس واليأس، ثم يمضي في تفكيره وإنتاجه وقد تم الصلح.

ولم تلبث الإنسانية بعد إمضائه أن استشعرت خيبة الأمل وكـذب الظن، فلم يتحقق العدل الذي قيل إنَّ الحـرب أثـيرت لتحقيقـه، وإنمـا عـادت

الإنسانية بعد الحرب، كما كانت قبل الحرب، بائسة يائسة، مُتَخَبِّطة لا تدري إلى أي وجه تتجه، ولا في أي طريق تسير.

حياة خاصة كُلها نُكر وشر، وحياة عامة كلها بؤس ويأس؛ فأي غرابة في أنْ يَكون الأدب الذي ينتجه فرانز كافكا في هذه الظروف كلها هو الأدب الأسود بأدق معاني هذه الكلمة وأشدها سوادًا وحلوكًا؟!

وواضح جدًّا أنَّ هذا القلب الذكي ذا الحس المرهف والشعور الدقيق، لم يصور الحياة كما رآها من حوله فحسب، وإنَّما صور هذه الحياة، وصور آثارها القريبة؛ فكان في أدبه هذا المُظلم، شيء من التنبؤ المُزعج، بما ستتعرض له الإنسانية من الكوارث والأخطار.

وكان من أجل هذا بَغيضًا إلى الذين كانوا يُريدون أن يُعيدوا الحرب جَذَعة، مُثيرًا للشوق وحب الاستطلاع عند الذين كانوا يَخافون الحرب ويُشفقون من أن يُدفَعُوا إليها كارهين.

ومن أجل هذا كانت آثار فرانز كافكا في وقت واحد تُترجَم في باريس، وتُحرَق في برلين، والآثار الأدبية التي تركها فرانز كافكا كثيرة منوعة، لم تُنشَر كلها بعد، وإنما نُشِر أكثرها، وأظهر ما تمتاز به من الخصائص أنها تُصَوِّر القلق الذي يُوشك أن يبلغ اليأس، وتصور الغموض الذي يضطرُ القارئ إلى حيرة لا تنقضي، ويدفعه إلى كثير من المذاهب في فهم هذه الآثار وتأويلها، وحل ما تشتمل عليه من الألغاز والرموز، فقد كان فرانز كافكا أشد الناس صراحة وأعظمهم إخلاصًا في حياته اليومية، وفيما كان ينشأ من الصلات بينه وبين أصدقائه وذوي معرفته،

وفيما كان يُسجل لنفسه من الخواطر والمذكرات في يومياته المتصلة، ولكنه بعد هذا كله كان أبعد الناس عن الصراحة وأنآهم عن الوضوح، فيما كان ينتج من القصص الطوال والقصار.

وليس المُهِمُّ أنْ نلتمس العِلَل المُختلفة لهذا الغُموض؛ فالأدب الرَّمزي في نفسه ظاهرة سائغة طبيعية، ليست في حاجة إلى أنْ تُلتمس لها العِلل والمَعَاذير، وإنَّما هي أثرٌ من آثار بَعض الأمْزِجة، ولونٌ مِنْ ألوان الفَنِّ، في كثير منَ الآداب القديمة والحديثة، على اختلاف البيئات والعصور.

فقل بعد ذلك إن فرانز كافكا قد أمعن في درس التلمود، وتعمق ما في آداب إسرائيل من الأسرار والألغاز، وتأثر بهذا كله في فنه؛ فهذا حقٌّ من غيرِ شَكٍّ، ولكنه ليس كل شيء، فما أكثر الأدباء الرمزيين الذين يَسْتَمِدُّون رمزيتهم من مزاجهم الفني وحده، لا من دراسة التلمود، ولا من تعمق الأسرار والألغاز في أدب إسرائيل!

والغموض في أدب فرانز كافكا من نوع خاص؛ فالرجل المثقف حين يقرأ هذا الأثر أو ذاك من آثاره، لا يشعر بالغموض لأول وهلة، وإنَّما يُخَيَّل إليه أنه يقرأ شيئًا يَسيرًا سائغًا قريبَ الفهم، لا يَتكَلَّف في تذوقه جهدًا ولا عناءً، ولكنه لا يلبث أن يحس شيئًا من الغرابة، أو قُل شيئًا من الغرابة في هذا الذي يقرأ؛ لأنَّه يرى أشياء مُسرفة في البَسَاطة مَألوفة أشَدَّ الإلف، ليس مِنْ شَأْنِها أن ترتفع إلى حيث تكون أدبًا ينتجه الفن الرَّفيع، وإِنَّما هي من هذه الأشياء التي يَراها الإنسان في كل يوم وفي

كل مكـان، وفي الطبقـات السـاذجة العاديـة من النـاس؛ فيسـأل القـارئ نفسه، أو قُل يقنع القارئ نفسه، بأن الكـاتب لم يُـرد إلى هـذه البسـائط، وإنما اتخذها وسائل قريبة لغايات بعيدة.

وهنا يُدفَع القارئ إلى التماس هذه الغايـات، فيـذهب في التماسـها كـل مذهب، ويسلك إلى استكشافها كل سبيل، وقد يصل إلى شـيء يحسـبه الغاية التي قصد إليها الكاتب، ولكنه لا يكاد يُفكِّر ويـروِّي، حـتى يشـك فيما انتهى إليه، وحتى يسـأل نفسـه ألا يُمكن أن يكـون الكـاتِبُ قـد أراد إلى غاية أخرى أو إلى غايات أُخَر، غير هذه التي انتهى هو إليها؟

وكذلك تستطيع أن تقول: إنَّ قارئ فرانز كافكا، مُعَلَّق دائمًا، يُخَيَّل إليـه أنَّه يفهم ما يقرأ، وهو يفهم معانيـه القريبـة من غـير شـك، ولكنـه يَشْعُر شعورًا قويًّا بأنَّ هذا الذي يفهمه ليس هو الذي قصد الكـاتب إليـه. وإلى جانب هذا الشـعور بـالتعليق المتصـل يجـد القـارئ أثنـاء قراءتـه حرجًـا مُرهقًا وضيِقًا شديدًا؛ لأنه يرى نفسه في بيئة مهما تكن قريبـة في ظـاهر الأمر فهي غريبة في حقائق الأشياء، وهو من أجـل ذلـك لا يُحس يُسـرًا ولا سُهولة ولا سِعة، وإنما هو يَشعر بضِيق الصـدر وقلـق النفس، وهـذا الجهد العنيف الذي يفرض على العقل.

فقارئ فرانز كافكـا في الـدنيا وليس فيهـا، هـو في عـالم غـريب، لا هـو بالواقعي ولا هو بالوهمي، وإنَّما هو شيء بين الواقع والوهم يملأ النفس حيرة وشوقًا وسأمًا وإلحاحًا في وقت واحد.

تأخذ في قراءة القِصَّة فيفاجئك قُربها وتدهشك غرابتها، وأنت لا تكاد تطمئن إلى هذا القرب اليسير المألوف، ولو قد اطمأننت إليه لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب، ورأيت أنك لست في حاجة إلى تكلف الجهد لتفهم ما لا يحتاج إلى فهم، وأنت لا تَطمئن إلى هذه الغَرابة، ولو قد اطمأننت إليها لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب يائسًا من القدرة على الفهم، ضنينًا بوقتك وجهدك على إنفاقهما فيما ليس إلى فهمه سبيل. فأنت إذن مُعَلَّق بين الوضوح الذي يملأ نفسك سأمًا، وبين الغُموض الذي يملأ نفسك شوقًا، وما تزال في هذه الحال المُعلقة منذ تبدأ الكتاب أو القصة إلى أن تفرغ منهما.

وأغرب من ذلك أنك حين تفرغ من القراءة، لا تنتهي إلى ما يحسن الاطمئنان إليه والسكوت عليه، وإنَّما أنت مُعَلق بعد الفراغ من القراءة، كما كانت معلقًا في أولها وفي وسطها، ذلك لأنَّ الكاتب لا يُتِمُّ قصته، وإنما يقتضبها اقتضابًا، وينتهي بها إلى شيء لا يصلح أن يكون غاية لقصة أو كتاب.

ومصدر ذلك في أكبر الظن أنَّ الكاتب نفسه لا يعرف لنفسه غاية يقف عندها أو أمدًا ينتهي إليه، وإنَّما هو يمضي بقصته في طريقها ما وَسِعَه المُضِيُّ، حتى إذا أدركه الإعياء أو انتهى إلى بعض الطريق، وجد أَمَامَه سدًّا مَنيعًا لا يَستَطيع أن يتجاوزه، فوقف حيث ينتهي به السعي، واستأنف السير في طريق أخرى، وانتهى من هذه الطريق الأخرى إلى مثل ما انتهى إليه في الطريق الأولى، فوقف ثم استأنف السير في طريق ثالثة.

فأنتَ ترى إلى الآن أنَّ أدب فرانز كافكا يَقُوم، أو قد يَدور حول هذه الأصول الثلاثة: وهي العجز عن الاتصال بالإله من جهة، والعجز عن فهم الخطيئة والتبرؤ منها مع الثقة بالتورط فيها من جهة ثانية، والعجز عن فهم العلل الغائية لما يكون في العالم من الخطوب والأحداث من جهة ثالثة.

وأنتَ إذا قرأت هذه الآثار الكثيرة التي نُشرت لفرانز كافكا على اختلافها في الطول والقصر، وتفاوتها في الوضوح والغموض، رأيتها كلها تدور حول هذه الأصول، وقد يُلِحُّ هذا الأثر أو ذاك في تجلية هذا الأصل أو ذاك، ولكنَّ مَجموعتها تنتهي بك دائمًا إلى هذه الخُلَاصَة القاتمة السلبية، التي تجعل حياة الإنسان كلها عجزًا وقصورًا ويأسًا أو شيئًا قريبًا جدًّا من اليأس.

ومن أجل هذا وُصِف أدب فرانز كافكا كما وُصِف أدب أبي العلاء بأنه أدب قاتم حالك، يفل العزائم ويثبط الهمم، ويصد الإنسان عن العمل ويرده عن الأمل، ويدفعه إلى نشاط عقلي عقيم، يدور حول نَفْسه أكثر مِمَّا يدور حول غيره، ولا يُحَفِّز الناس إلى طمع أو طُموح، وإنَّما يُمْسِكهم في لون من الخوف المُنكر، الذي لا أمن معه ولا اطمئنان.

ومن أجل هذا حُرِقت كتب كافكا في برلين أثناء الحكم الهتلري، ومن أجل هذا أيضًا كان اليَساريون في فرنسا يبغضون هذه الكتب أشدَّ البُغض، ويودون لو يُحال بينها وبين الشباب، ويُعبرون عن هذا كله

بهذه الجملة التي كثر حولها الحديث في فرنسا أثناء الصيف الماضي: «يجب أن يُحرَق فرانز كافكا»

وواضح جداًّ أنَّ هذه العبارة ليست إلا رمزًا؛ فتحريق الكتب لا يغني شيئًا، ويكفي أن تحرق الكتب ليزداد انتشارها. إنما المهم هو أن هذا الأدب القاتم مُثبط لهمم الشباب، فلا ينبغي أن يُخَلَّى بينه وبين الشباب.

طه حسين

1

حلم مستمر

كانت تسير في الشارع، لم أرها، لاحظتُ فقط، كيف تهتز في مشـيتها، كيف يتطاير شالها، كيف ترفع قـدمها، كنت أجلس على حافة الحقـل أُبحلق في الماء المنساب في الجدول الصغير، وهي تتنقـل بين القـرى، بينما يقف الصبيةُ على الأبواب، يشاهدونها ويراقبونها وهي تبتعد.

2

شعار المدينة

في البداية كانت عملية بناء «برج بابل» على أحسن ما يرام، بل ربما أكثر مما كان مُتَوقعًا، فقد رُوعيت كل التفاصيل وبدقة؛ علامات إرشاد الطرق، مُرشدون سياحيون، مساكن للعمال، طرق المواصلات، كان هناك مئات من فرص العمل. كان الرأي الغالب هو، أنه لا يمكن استمرار العمل بهذا الإيقاع البطيء، فقبل كل شيء يجب وضع الأساس. كان تبرير ذلك هو: أن الشيء الأساسي في المشروع كله هو الفكرة، بناء برج يصل إلى السماء ويُنَاطحها. مقابل هذه الفكرة، تصير كل الأشياء الأخرى ثانوية. فعندما تفكر في عظمة الفكرة وتستوعبها، تتأكد أنها لا يمكن أن تختفي أو تندثر، فطالما هناك بشر، ستظل تلك الرغبة القوية في بناء هذا البرج قائمة. أما بالنسبة للمستقبل، فيجب ألا يُسَاورك القلق، على العكس، فمعارف الإنسانية في تقدم مستمر، وفن البناء في تقدم مستمر هو الآخر، وسيظل يتقدم باطراد خطوةً خطوةً، فالعمل الذي كان يتطلب عامًا بأكمله لكي يُنجز، سوف يُنجز في نصف هذا الوقت بعد مائة عام، بل وبشكلٍ أفضل ومستوى أعلى. لماذا إذن نبذل اليوم أقصى جهد ممكن؟ يكون لذلك معنى، لو أننا توقعنا أن بناء البرج سوف يُنجز في إطار جيل واحد. هذا لا يتوقعه أحد. الاحتمال الأكبر، هو أن الجيل التالي بمعارفه الجديدة، سوف يرى أن عمل الجيل السابق عليه عملًا رديئًا، ويقوم بهدم البرج، ويبدأ

في بناءه من جديد. مثل تلك الأفكار تُثَبِّط من همة العمل في المشروع، وبدلًا من الاستمرار في بناء البرج، يتحول الاهتمام لبناء مدينة للعمـال. كـل صـاحب أرض يريـد أن يبـني منزلـه في أجمـل الأحيـاء، وتبـدأ النزاعـات، وتتصـاعد، وتـزداد شراسـة، وتصـل إلى الاقتتـال وسـفك الـدماء. وتسـتمر النزاعـات ولا تتوقـف، وقـد وصـلت قيـادات هـذه النزاعات إلى منطق جديد: من الضروري أن يعمل على تهدئة إيقاع بناء البرج، فهو يحتاج لتركيز من نوع خـاص، وربمـا من الأفضـل أن يُؤَجَّل المشروع برمته لأجل غير مُسَمًّى، إلى أن تُسَوَّى النزاعات وتُعقد اتفاقية سلام شامل. بالطبع لم يُستهلك الوقت كلـه في النزاعـات؛ ففي فـترات الهدنـة كـانوا يقومـون بتجميـل المدينـة، الشـيء الـذي أثـار الحقـد في نفوس بعضهم البعض، وابتدأت دورة جديـدة من النزاعـات. هكـذا مـر زمن الجيـل الأول، كمـا أن الأجيـال التاليـة لم تكن مختلفـة عن هـذا الجيل، فقط تقدم فن البناء، وتصاعد باستمرار، وتصاعدت معه الرغبة في النزاعات. إلى أن اكتشـف الجيـل الثـاني أو الثـالث أن بنـاء الـبرج لا معنى له أصلًا، كما أن الارتحال من المدينـة لا ضـرورة لـه، فقـد ارتبـط أهل المدينة ببعضهم البعض أكثر فأكثر.

كان كل ما أبدعته تلـك المدينـة من أمثـال وأغـانٍ، يُعَبِّر عن حلم واحـد ينتظره الجميع، أن يأتي يوم تُـدك فيـه مـدينتهم تلـك وتنـدثر، بضـرباتٍ متواصـلةٍ من قبضـةٍ هائلـةٍ جبَّارة. لـذلك، اختـاروا قبضـة اليـد شـعارًا للمدينة.

3

بوسايدون (إله البحر)

يجلس إلـه البحـر «بوسـايدون» أمـام مكتبـه ويقـوم بعمليـات حسـابية. تقـارير عديـدة من مختلـف إدارات الميـاه. كـان يمكنـه أن يسـتعين بمسـاعدين كمـا يشـاء، فعنـده الكثير من المسـاعدين. ولأنـه يُمَـارس وظيفته بجدية زائدة، فهو يقوم دائمًـا بدراسـة ومراجعـة جميـع التقـارير والحسـابات بنفسـه، ونـادرًا مـا يحتـاج لمسـاعديه. لا يمكن القـول إن عمله يُبهجه، فهو ببساطة يقوم بـه لأنـه مُكَلَّف بـه. لقـد حـاول أكـثر من مرة البحث عن عمل آخر أكثر بهجة كما يقول؛ بل قَدَّمَ بالفعل طلبـات عدة للبحث عن عمل جديد، لكنه رَفَضَ وظائف عديدة أكـثر من مـرة، فقد كانت لا تروق له مثل وظيفتـه الحاليـة. لم يكن سـهلًا أن تجـد لـه وظيفة أخرى. كان من المستحيل أن تُحَدِّد له بحرًا بعينه، بصرف النظـر عن أن الحسابات هناك ليست أقل، فلا يمكن ل«بوسايدون» العظيم إلا أن يشغل وظيفة قيادية. ولو أنك عرضـت عليـه عملًا بعيـدًا عن الميـاه، فمجرد الاقتراح يُصيبه بالغثيان، يضطرب تنفسـه الإلهي، ويهـتز قفصـه الصـدري. حقيقـة، علينـا ألا نأخـذ شـكواه على محمـل الجـد، فعنـدما يتذمر عظيم، علينا أن نتراجع في مثـل هـذه الظـروف الـتي لا حـل لهـا، لمجـرد أن يفكـر أحـد في أن «بوسـايدون» يمكن أن يـترك موقعـه. منـذ البدء، كان مُحَددًا له أن يكون إله البحر، ويجب أن يظل في مكانه.

أكثر ما يُثير غيظه — وهذا ضمن الأسباب الأساسية لعدم رضاه عن وظيفته — عندما يسمع ما يُقال عنه، من أنه لا يكف عن التجوال بعربته وسط الأمواج ماسكًا شوكته الثلاثية. حتى أثناء جولته تلك، يجلس في قاع بحار العالم ويقوم بلا توقف بعملياته الحسابية، باستثناء تلك الرحلة التي يقوم بها في فترات متقطعة لزيارة «جوبيتر»، بهدف كسر الملل، رحلة يعود منها غالبًا وهو في حالة حِنْق شديد. فهو لا يكاد يرى البحار والمحيطات إلا بشكلٍ خاطف، وهو في طريق صعوده المتعجل للأوليمب، في حقيقة الأمر لم يقم «بوسايدون» باجتيازها مرةً واحدة. إنه يقول دائمًا، أنه ينتظر حتى تأتي نهاية العالم، سوف تكون هناك لحظة هدوء بكل تأكيد، يُراجع فيها آخر فاتورة بالكاد قبل النهاية، ويتمكن فيها من أن يقوم بجولة سريعة في البحار والمحيطات.

4

خبطة على بوابة السّراي

في يوم حار من أيام الصيف، مررتُ أنا وأختي ونحن في طريقنا للمنزل على السراي. لست أدري، لماذا خبطت أختي على البوابة، على سبيل الشقاوة أو ربما دون أن تقصد أو أنها لَوَّحَتْ فقط بقبضتها في الهواء ولم تخبط البوابة. بعد حوالي مائة متر من الشارع المنعطف على الشمال تُوجد القرية. لم نكن نعرف هذه القرية من قبل، لكن بمجرد اقترابنا من أول منزل، توافد كثير من أهل القرية وهم يُشيروا بأيديهم مُرَحِّبين أو مُحَذِّرين. أشاروا على السراي الذي مررنا عليه في الطريق وهم مذعورين، ولفتوا نظرنا إلى الخبطة على بوابة السراي. سوف يرفع مالك السراي دعوى ضدنا، وسوف يبدأ التحقيق على الفور. كنت هادئًا تمامًا، وعملتُ على تهدئة أختي. أغلب الظن أنها لم تقم بالخبط على بوابة السراي على الإطلاق، ولو أنها فعلت، فلا يمكن تقديم أي دليل على ذلك. حاولتُ أن أوضح ذلك لأهل القرية من حولنا، استمعوا إليّ بإخلاص، لكنهم لم يقولوا رأيا ولم يُصدروا حُكمًا. قالوا إنها ليست أختي وحدها هي المتهمة؛ بل إنني أيضًا مُتهم بصفتي أخوها.

هززتُ رأسي مُبتسمًا.

التفت الجميع برؤوسهم ناحية بوابة السراي، وشاهدوا سحابة من الدخان مُقبلة في انتظار ظهور اللهب. على الفور، شاهدنا جمعًا من

الفرسـان على ظهـور الخيـول وهم يـدخلون من بوابـة السـراي. تصـاعد التراب وغَلَّفَ المشهد كله عدا أسنة الرمـاح وهي تلمـع مُتلألئـة. مـا إن دخل الفرسان من بوابـة السـراي، حـتى أداروا الخيـول وعـادوا ثانيـةً في طريقهم تجاهنا. نصـحتُ أخـتي بالابتعـاد، ورجوتهـا أن تتركـني أُعـالج الموقف وحدي. تلكأتْ ورفضتْ أن تتركـني. أخبرتهـا أنـه يجب عليهـا على الأقـل أن تبـدل ملابسـها حـتى تظهـر أمـام السـادة الفرسـان بـرداءٍ مناسـب. اقتنعتْ وتحـركتْ في الطريـق الطويـل إلى المـنزل. وصـل الفرسان إلينا، وسألوني عن أختي وهم على ظهور الخيل، أجبتُ بهـدوء أنها حاليًا ليست موجودة هنا، لكنهـا سـتعود بعـد فـترة قصـيرة. لم يُلـق الفرسان بالًا لإجابتي، فقد كان واضحًا أنهم يريدونني أنا شخصيًّا.

كانا شخصين اثنين؛ القاضي، شاب ملئ بالحيوية ومسـاعده الصـامت، المعـروف باسـم الرجـل المسـاعد. أُمِـرَت بـأن أدخـل إلى حانـة القريـة، أحـنيتُ رأسـي ودخلتُ ببطء، شـددتُ حَمَّالـة البنطلـون وجلسـتُ في الردهـة في مواجهـة النظـرات الحـادة للـرجلين. كنت مُتيقنًـا، أن كلمـة واحـدة مـني، أنـا ابن المدينـة، تكفي لكي تُحَـرِّرني من هـذا الجمـع من القرويين. ولكن ما إن تجاوزتُ عتبـة الحانـة، حتى قـال القاضـي الـذي كان مُنتظرًا إياي وهـو يقفـز واقفًـا: «هـذا الرجـل حالتـه تـدعو للأسـف والرثاء» كان لا يقصد حالتي الراهنة بلا شك، بل مـا سـوف يحـدث لي بعد ذلك. كانت الحانة تبدو كزنزانة في سجن أقرب منهـا إلى حانـة في قريـة. حيطانهـا من أحجـار ضـخمة سـوداء جـرداء، في مكـانٍ مـا بأحـد الحيطان ثُبتت حلقة معدنية. في وسط الحانة ترابيزة خشـبية تبـدو كمـا

لـو أنهـا ترابـيزة عمليـات جراحيـة. هـل سـيمكنني أن أتنفس هـواءً أقـل لزوجة من هواء هذا السجن؟ هذا هو السؤال الجـوهري، الـذي يُمكـنني أن أطرحه في حالة إذا ما كان هناك أمل في الإفراج.

5

الهجين

أمتلك حيوانًا فريدًا من نوعه، نصفه قط ونصفه الآخر حَمَل. ورثته عن أبي. صار هكذا بعد مُلازمته لي فترة طويلة، قبلها كان حَمَلًا أكثر منه قط. والآن أصبحا متساويين. من القط كان له الرأس والمخالب، ومن الحَمَل حجمه وهيئته، أما العينان فهما من الاثنين، ترتعشان بحذر وخوف ولهما في الوقت نفسه نظرات شرسة. الصوف ناعم وقليل، حركته تقترب من القفز أكثر من التسلل البطيء. تحت أشعة الشمس، يرقد ويقرقر على حافة النافذة، على الحشائش، يقفز برشاقة وحيوية يستحيل معها الإمساك به. إنه يهرب من القطط، ويُهَاجم الحملان الأخرى. في الليالي القمرية، يُفضل المشي على المزراب فوق سطح البيت. إنه لا يموء، ويشمئز كثيرًا من الفئران. يرقد بجوار مزرعة الدجاج ساعات طوال، دون أن يفكر في افتراس إحداها.

أطعمه باللبن المسكر الذي يشتهيه، فهو يشربه بتلذذ واضح في رشفات بطيئة ممطوطة. أما بالنسبة للأطفال، فهو فُرجة عظيمة مُدهشة بالطبع. يأتون إليه وقت الزيارة صباح كل يوم أحد. أضع الحيوان الصغير في حجري، بينما يلتف حولي كل أطفال الجيران. تسمع أروع الأسئلة، التي لا يمكن لأحد أن يُجيب عليها: لماذا يوجد أصلًا مثل هذا المخلوق؟ هل وُجِدَ حيوان بهذا الشكل من قبل؟ ولماذا أمتلكه أنا

بالذات؟ وكيف يُصبح حالي بعد موته؟ هل سأشعر عندئذ بالوحدة؟ لماذا ليس له أولاد؟ وما اسمه؟ وهكذا...

حقيقة، لا أهتم بالإجابة على تلك الأسئلة، لكنني أكتفي بأن أفرجهم على ما أمتلكه. أحيانًا، يحضر الأطفال ومعهم بعض القطط، بل لقد أحضروا ذات مرة حَمَلين اثنين. وحدث ما لم يتوقعوه، مما أزعجهم كثيرًا وأصابهم بالحزن فلم يهتم مطلقًا أحد الحيوانات بالآخر. بحلق كل حيوان في عين الآخر بهدوء، ليس أكثر، مُتقبلين هذا المخلوق كمعجزة ربانية.

وطالما ذلك الحيوان في حجري فهو يشعر تمامًا بالاطمئنان والرضا ولا يود الاستمتاع بلعبة المطاردة. يشعر بالسعادة عندما يتمسح بي. إنه فرد من العائلة، ينتمي بالفعل للعائلة التي نشأ وسطها. هذا ليس بإخلاص غير عادي، لكنها الغريزة الطبيعية لحيوان يرجع تاريخه لأسلاف عديدة، لكنه ربما لا يمت بصلة لأي منهم، مما يجعل وجوده في بيتنا حماية مقدسة له.

أحيانًا، أضحك بصوت عالٍ وأقهقه عندما يتشممني وينحشر بين ساقيّ ويصعب عليّ أن أُبعده. كما لو أنه لا يكتفي بأن يكون قطًا وحَمَلًا، بل يَودّ أن يكون كلبًا في الوقت نفسه. ذات مرة، كنتُ مشغولًا بالعمل لدرجة زائدة، ورأيتُ أنه ليس هناك من مَخْرَج لأنهي كل ذلك، فتركتُ كل شيء كما هو، وعدتُ للبيت وألقيتُ نفسي مُسترخيًا في الكرسي الهزَّاز وجاء الحيوان وقفز إليّ ورقد على حجري، وبينما كنت أُرَبّت

عليه وأراقبه، وجدتُ قطرات سائلة تتساقط من شعر ذقنه، كانت دموعًا!! تُرى هل كانت دموعي أم دموعه؟ هل تمتلك هذه القطة التي لها روح حَمَل الطموح الإنساني كذلك؟

لم أرث الكثير عن أبي، لكن هذه القطعة هي أغلى ما ورثته عنه.

نوع ما من القلق يُسيطر عليه، قلق مُرَكَّب مزدوج، قلق القط وقلق الحَمَل رغم اختلافهما الشديد. لذلك فإن جلده يضيق عليه أحيانًا يقفز على المقعد بجواري ويضع ذراعه على كتفي، يقترب بفمه من أذني، كما لو أنه يقول لي شيئًا ما، ينحني بعدها برأسه للأمام وينظر في عينيّ، حتى يرى رد فعلي على ما قاله. أتظاهرُ بودّ أنني فهمتُ ما يقصد، وأهز رأسي بالموافقة عندئذٍ يقفز فرحًا على الأرض بحيوية شديدة ويتراقص هنا وهناك وهو في حالة ابتهاج زائد.

ربما كانت سكين الجزار هي الخلاص الوحيد بالنسبة لهذا الحيوان، الشيء الذي لا أوافق عليه. لذلك يجب عليه الانتظار حتى النفس الأخير.



6

الجسر

كنتُ مُتصلبًا وباردًا، كنتُ جسرًا، مشدودًا على هوّةٍ واسعة. قدماي من ناحية ويداي من الناحية الأخرى مخرومتين ومُثبتتين في الحافة، أتشبث بهما في طينٍ هش. على جانبيّ تُرفرف ملابسي. في العمق تصطخب مياه الجدول بأسماكه. لا يمرّ أحد، ولو على سبيل الخطأ، بهذا المكان المرتفع الوعر، كما أن الجسر لم يكن مُثبتًا بعد في خريطة دليل المنطقة. وهكذا ظللتُ راقدًا أنتظر، لم يكن أمامي سوى أن أنتظر. لا يمكن لجسر أن يتوقف بأن يكون جسرًا، إلا إذا تحطم وانهار.

في إحدى أمسيات الصيف، بينما كانت أفكاري مُشَوَّشَة ـ للمرة الأولى أو للمرة الألف لا أدري ـ ومياه الجدول تصطخب بقوة تحتي، سمعتُ صوتَ خطوات إنسان تقترب!! تتجه ناحيتي! نحوي!! تَمَاسَك أيها الجسر، شدّ نفسك، استعدّ، استقيمي أيتها الكتل الخشبية التي لا سور لها، قومي بمهمتك! كانت خطواته غير واثقة مُتأرجحة مُهتزة، رآني، فتدحرج مرةً واحدةً على الأرض ككُتلةٍ ضخمةٍ صَمَّاء.

نهض وخبط عليّ بسن عصاه المعدنية المدببة ورفع بها ملابسي وعدّلها. أدخل سن العصا في شعري الكث وتركها لفترةٍ طويلةٍ، ثم تلفت حوله ودون مقدمات، قفز بقدميه وسط جسدي، وأنا أتابعه في صعوده وهبوطه. ارتجفتُ من شدة الألم الوحشيّ، دون أن أعرف من كان ذلك الرجل؟ هل كان شابًا؟ هل كان حُلمًا؟

قاطع طريق؟ شخص يودّ الانتحار؟ مُغَامر؟ مُخرِّب؟ استدرتُ حتى أراه ـ جسر يستدير!!! ما إن استدرت، حتى سقطتُ مرةً واحـدةً، تهـاويتُ، انهرتُ تمامًا. وانغرستْ فيّ حواف الحصى الحادة القاطعة، التي كـانت تنظر إليّ من قبل بودٍّ شديد وسط مياه الجدول الجارية.

7

النسر

هناك نسر ينهش في قدميّ. ها هو قد مَزَّق الحذاء، ثم مَزَّق الجوارب. والآن ينهش في لحم قدميّ بالفعل. ينهش بعنف، يطير مندفعًا لأعلى، يحوّم حولي عدة مرات، ثم يُعاود العمل ثانيةً. مَرّ بنا رجل، تأمل ما يحدث، وسألني لماذا أصبر على هذا النسر وأتحمله. قلتُ له إنه «لا حول لي ولا قوة»، «لقد أتى وابتدأ في النهش، وددتُ لو أنني أبعدته؛ بل حاولتُ بالفعل أن أخنقه، لكنني اكتشفت أن حيوانًا كهذا قوي بالفعل، فلقد حاول أن يقفز في وجهي، ساعتها فَضَّلت أن أُضَحِّي بقدميّ. والآن تمزقتا كليةً» «تترك نفسك تتألم وتتعذب هكذا» قال الرجل، «طلقة واحدة وينتهي الأمر» رددتُ قائلًا: «هكذا؟ وبهذه السهولة؟ وهل ستحضر لي الطلقة؟» «بكل سرور» أجاب الرجل، «يجب عليّ فقط، أن أذهب للمنزل وأُحضر السلاح، هل يمكنك التَّحَمُّل لنصف ساعة أخرى؟» أجبتُ: «حقيقة، لا أدري» حدقتُ لبرهةٍ من شدة الألم والمعاناة وقلتُ له: «أرجوك أن تحاول ذلك، تحت أي ظرف» «سأسرع قدر ما يمكنني» قال الرجل. كان النسر ينصت في هدوء لحديثي مع الرجل، ويتنقل بنظراته بيني وبينه. لاحظتُ أنه فهم كل ما قد قيل، ارتفع طائرًا في الجوّ، تراجع للخلف مسافة طويلة، اندفع بقوة عنيفة تجاهي، وغرز منقاره في فمي كرمح، غرزه داخلي وبعمق. حقيقة، شعرتُ بتحرر ما عندما عاود فعل ذلك، ورأيت كيف غرق في أعمق

أعماقي الطافية بالدماء التي تفيض على كل الشواطئ، وقلتُ إنه هالك لا محالة.

8

الفرار

أمــرتُ السـائس بـأن يُحضـر إليّ حصـاني من الإسـطبل. لم يفهمـني السـائس. دخلتُ بنفسـي إلى الإسـطبل، وضعت السـرج على الحصـان وامتطيته. سمعتُ صوتَ بوقٍ آتٍ من بعيد، سألته مـاذا يعـني ذلـك. لم يجب، كما أنه لم يسمع شـيئًا. اسـتوقفني عنـد البوابـة وسـألني: إلى أين اتجاهك أيها الفـارس؟ أجبتـه: «أنـا لا أعـرف بالضـبط. بعيـدًا عن هنـا. فقط بعيدًا عن هنا. دائمًا بعيدًا عن هنا. وباستمرار. هكذا فقط، يمكنني أن أصل إلى هدفي».

سألني: «واضح أنك تعرف هدفك جيدًا»

أجبته: «نعم. أعرف هدفي جيدًا، سبق وأن أخبرتك به تَوًّا. بعيدًا عن هنا ـ هذا هو هدفي»

9

اصرف نظر عن الموضوع!

في الصباح الباكر، والشوارع خالية ونظيفة، وأنا في طريقي إلى محطة القطار. نظرتُ إلى ساعة البرج وضاهيتها بساعتي، اكتشفتُ أن الوقت قد تأخر كثيرًا عمَّا ظننت، عليّ أن أُسرع، انزعجت كثيرًا من هذه الحقيقة، التي أربكتني وجعلتني غير واثقٍ من الطريق، فأنا بعد لم أتعرف جيدًا على هذه المدينة. لحُسن الحظ، كان هناك شرطي بالقرب مني، فاندفعتُ تجاهه وسألته لاهثًا أن يدلني على الطريق.

سألني مبتسمًا: «تريد مني أنا، أن أدلك على الطريق؟»

قلت له: «نعم، فأنا لا يمكنني أن أستدل عليه بنفسي»

رد عليّ قائلًا: «أنت تُضَيِّع وقتك! اصرف نظر عن الموضوع!» أجابني وراح بعيدًا وهو يقهقه.

10

في الليل

غارقٌ في الليل. يُنَكِّس المرء رأسه، حتى يمكنه التفكير، غارقٌ مُستغرق في الليـل. مُسـتغرق تمامًـا. حولـك من كـل ناحيـة ينـام البشـر. تمثيليـة صغيرة، وَهْم ذاتي بريء يعيشونه، ينامون في منازلهم، على سـرر متينـة، تحت أسقف متينة، مُمَدَّدين أو مُقرفصين على المراتب، على ملاءات، تحت أغطيـة، وجـدوا أنفسـهم مثلمـا كـانوا ذات يـوم من قبـل، ومثلمـا كانوا بعدها، في أمكنةٍ مهجورة، مُعتقل في الهواء الطلق، عدد هائل من البشـر، جيش بأكملـه، شـعب، أُلقي بـه تحت سـماءٍ بـاردةٍ على أرضٍ بـاردةٍ، مثلمـا حـدث ذات يـوم من قبـل: الجبهـة مسـنودة على الـذراع، والوجه مُلتصق بالأرض، يتنفس بهدوء، وأنت مُستيقظ تمامًا، أنت أحد الحـرَّاس. تعـثر على الآخـرين، وأنت تُقَلِّب الخشـب المحـترق وسـط كومة القش. لماذا أنت مستيقظ؟ يجب أن يقوم أحـد بالحراسـة. يجب أن يكون هناك أحد.

11

الربّان

ألست أنا ربّان السفينة؟ قلتُ صائحًا. «أنت؟» تساءل رجل أسود ضخم الجثة، وفَرَكَ عينيه بيديه، كما لو أنه يُبعد حلمًا ما. كنت مُمسكًا بالدفة في ليلة مظلمة، فوق رأسي يهتز ضوء الفانوس الشاحب، والآن يأتي ذلك الرجل يريد أن يُبعدني ويُنحيني جانبًا. لم أتحرك من مكاني، فما كان منه إلا أن وضع قدمه فوق صدري وضغط عليه ببطء، بينما كنت مُمسكًا ومُعَلّقًا بقضبان الدفة، وقعتُ، فانخلعت الدفة. عندئذ أمسك بها الرجل وأعادها إلى مكانها، ودفعني بعيدًا. وعندما استرددت أنفاسي بسرعة، جريت إلى كوة السفينة التي تؤدي إلى قاعة البحّارة وصحت: «يا رجال! يا رفاق! اسرعوا! لقد أبعدني رجل غريب عن دفة السفينة!» جاءوا مُتباطئين، صعدوا سلم السفينة مُترنحين، أشباح قوية التكوين مُجْهَدة. سألتهم: «ألست أنا الرُبَّان؟» فهزوا رؤوسهم، لكن نظراتهم جميعًا كانت في اتجاه الرجل الغريب، انتظموا حوله في نصف دائرة، قال بلهجةٍ آمرةٍ: «لا تزعجوني!» تجمعوا، هزوا رؤوسهم ناحيتي وانصرفوا في اتجاه سلم السفينة. أي شعبٍ هذا؟

ألا يمكنهم التفكير؟ أم أنهم يسعون في الأرض بلا معنى؟!

12

الخذروف

كان هناك فيلسوف يحب التجوُّل دائمًا حيثما يلعب الأولاد. رأى صبيًا في يده خذروف فترصَّد له. ما إن بدأ الخذروف في الدوران، إلا وتابعه الفيلسوف يريد الإمساك به. لم يُلق بَالًا لاعتراض الأطفال وصرخاتهم ومحاولتهم إبعاده عن لعبتهم، وأمسك بالخذروف أثناء دورانه، غمرته السعادة للحظة، ثم ألقى به على الأرض وانصرف.

كان مُقتنعًا تمامًا بأن معرفة جزئية صغيرة مثل خذروف يدور حول نفسه تكفي بأن تقود إلى المعرفة العامة. لذلك لم يشغل نفسه بالقضايا العامَّة، ففي ذلك هدر ما وتضييع وقت. فلو أنك عرفت بالفعل أصغر جزئية، سوف تعرف كل شيء، لذلك رَكَّز اهتمامه فقط، بالخذروف الذي يدور حول نفسه. كان يأمل دائمًا عندما يستعد لتدوير الخذروف أن تتحقق الأمنية ويدور الخذروف، فيتابعه لاهثًا بنَفَسٍ متقطع، عندئذٍ يتحول الأمل إلى يقين، ويظل مُمسكًا بقطعة الخشب البليدة، تزعجه وترن في أذنيه صرخات الصبية، التي لم يكن يسمعها من قبل، وتطرده بعيدًا، حيث يترنح كخذروف يلسعه سوط بليد.

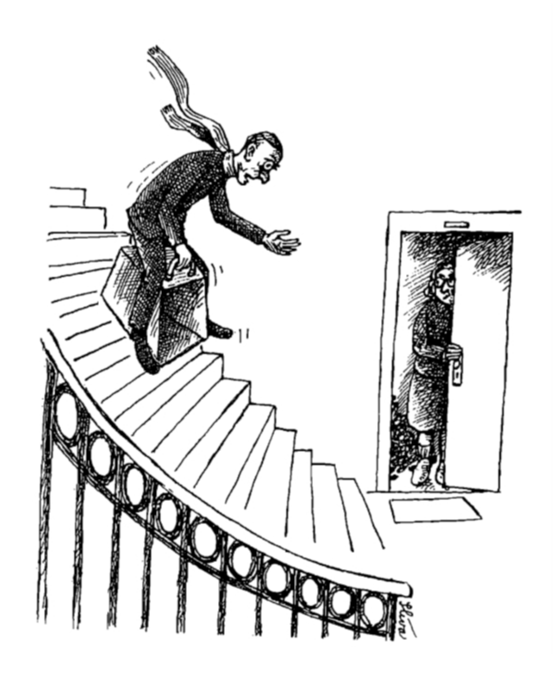
13
أقصوصة خرافية

«شيء مؤسف، فالعالم يزداد ضيقًا يومًا بعد يوم» قال الفأر «في البداية كان العالم واسعًا متسعًا لدرجة كانت تُخيفني آنذاك، كنت أجري وأقفز وأتجول، وكنت سعيدًا، أن أرى عن بُعد هذه الحوائط على يميني وعلى يساري، لكن الآن، هذه الحوائط العالية الممتدة التي تنطبق بسرعة بعضها على بعض، وتُحاصرني، وأجد نفسي الآن في الغرفة الأخيرة، حيث توجد في أحد أركانها المصيدة.»

ـ «عليك فقط أن تُغَيِّر اتجاه حركتك» قال القط وافترسه.

14

راكب الجردل



استهلكت كل ما لدي من فحم، فرغ الجردل حتى آخره، الجاروف بلا معنى، الفرن يتنفس برودة، الغرفة يتراكم على جدرانها الصقيع، أمام النافذة تقف الأشجار متصلبة، السماء درع فضي، تصد به كل من يرغب في مساعدة منها. يجب أن أحصل على فحم، لا يصح أن أتجمد هنا من البرد، خلفي الفرن الذي لا يرحم، أمامي السماء التي لا ترحم هي أيضًا، لذلك يجب عليّ أن أركب الجردل بسرعة، وأذهب لوسط المدينة أطلب العون من بائع الفحم. إنه مُحَصَّن ضد توسلاتي المتكررة، لكن يجب أن أُقنعه هذه المرة، بأنني لا أملك قالب فحم

واحـد، وأنـه يعـني بالنسـبة لي الشـمس في السـماء. يجب أن أكـون كالمتسول الذي يقف على عتبة الباب، ويطلب شيئًا حتى لا يموت من الجوع، فتقرر طباخة السادة إعطاءه بقايا القهـوة يسـد بهـا رمقـه. هكـذا يجب على بائع الفحم، أمام إلحاحي وتمسكي «لا تشارك في موتي»

أن يملأ الجـاروف بـالفحم ويلقيـه في الجـردل. يجب أن أحـدد كيـف سأذهب إلى هناك، سأمتطي الجردل، وأمسك بحافتـه المسـتوية، أهبـط على السلالم بخفةٍ ورشاقةٍ، بينما يستقر الجردل تحتي بعظمة، فخيمًـا، فاخرًا، كإبل تبرك على الأرض، تقف، تهز جسمها تحت عصا الـراعي. خببتُ بإيقاع منتظم خلال الممر المتجمد، غالبًـا مـا كنت أصـعد حـتى الدور الأول للمنزل، لم أهبـط قـط إلى مسـتوى بـاب المـنزل. وصـعدتُ بصعوبة حتى وصلتُ إلى مسـتوى بـدروم بـائع الفحم؛ حيث كـان يقبـع هناك في الأسفل مُنكبًا على دفاتر حساباته، وقد ترك الباب مفتوحًـا من أجل درجة الحرارة المرتفعة بشكل زائد في المكان.

ناديتُ بصوتٍ مجروح من شدة الـبرودة «يـا بـائع الفحم!» بينمـا تلفـني سـحابة من بخـار «أعطـني قليلًا من الفحم يـا بـائع الفحم، أرجـوك. إن جردلي فارغ لدرجة أنني ركبته وجئت بـه إليـك. كن طيبًـا، سـأدفع لـك بمجرد أن أتمكن من ذلك»

وضع البائع يده على أذنه ووجَّه السؤال «هل سمعتِ جيدًا؟» من خلـف كتفه لزوجته التي تجلس قريبة من المدفأة تشتغل تريكـو «هـل سـمعتِ جيدًا؟ زبون؟»

«أنا لم أسمع شيئًا قط»، ردت الزوجة باطمئنان وثقة وهي تدير ظهرها ناحية المدفأة وتواصل شغل التريكو. رفعتُ صوتي صائحًا «نعم أنا، زبون قديم، منضبط تمامًا، لكن حاليًا ليس معي نقود» نادى البائع زوجته قائلًا: «إنه زبون يا امرأة، لا يمكنني أن أخطئ لهذه الدرجة. لابد أنه زبون قديم، قديم جداً، الذي يتكلم معي بهذا الود»

«ماذا بك يا رجل؟» ردت الزوجة وضغطت التريكو للحظات على صدرها وواصلت «لا أحد هناك، الممر خالٍ. كل زبائننا عندهم ما يكفي من الفحم. يمكننا أن نغلق المحل عدة أيام نستريح فيها» «لكنني أنادي هنا وأنا جالس فوق الجردل، تملأ عيني الدموع من قسوة البرودة، فقط انظروا لأعلى رجاءً، سوف ترونني فورًا، أنا لا أطلب غير جاروف واحد من الفحم، ولو أنكم أعطيتموني جاروفين، سوف أكون في غاية السعادة. لقد سمعت هنا وأنا فوق الجردل، أن كل الزبائن عندهم ما يكفيهم»

«أنا قادم»، قال البائع وهو يستعد للصعود على سلم البدروم، لكن المرأة قطعت عليه الطريق وأمسكت بذراعه قائلة: «ستظل في مكانك، لن تنزل. لا تكن عنيداً، سأذهب أنا. تذكر سعالك الحاد ليلة أمس. لكنك من أجل المكسب، حتى إن كان مكسبًا وهميًا، تنسى الزوجة والأولاد وتُضحي بصحتك. أنا ذاهبة.» رد الزوج:

«إذن قولي للزبون، إن كل الأنواع عندنا في المخزن، وسوف أقول لك السعر من هنا بصوتٍ عالٍ» «حسنًا»، قالت الزوجة واتجهت إلى الممر.

بالطبع سوف تراني مباشرةً، ناديتُ: «تحياتي أيتها البائعة، جاروف فحم واحد فقط لا غير، هنا في هذا الجردل، وسأنصرف فورًا، جاروف فحم من أردأ نوع. سأدفع الثمن كاملًا بالطبع، لكن ليس في الحال، ليس في الحال» أي جرس مُمَيَّز لهذه الكلمات «ليس في الحال» وأي معنى تُثيره وهي تختلط بصوت أجراس الكنيسة القريبة!

«ماذا يريد الرجل؟» صاح البائع من المحل. «لا شيء» أجابت المرأة «لا شيء هناك، إنني لا أرى شيئًا، ولا أسمع شيئًا، أسمع فقط صوت دقات الساعة السادسة.

سأغلق المحل. البرودة فظيعة، قاسية، غدًا سيكون يوم عمل طويل»

إنها لا ترى ولا تسمع، ومع ذلك تفك المريلة من على خصرها وتهشني بها بعيدًا. وقد كان لها ما أرادت بكل أسف. حقيقة لقد تحلَّى الجردل بكل صفات الحيوان الطيب، لكنه كان ضعيف التحمل والمقاومة، فهو هش جدًا، مريلة امرأة دفعت قدميه بسهولة من على الأرض.

«أيتها الشريرة!» صحتُ في وجهها وهي تبتعد في طريقها للمحل، بمزيج من الاحتقار والرضا، مُلوِّحًا بيدي في الجو «أيتها الشريرة!» طلبت منك جاروف فحم من أردأ نوع، وأنت لم تعطني إياه» وهكذا مشيتُ وسط جبال الجليد، واختفيتُ بلا عودة.

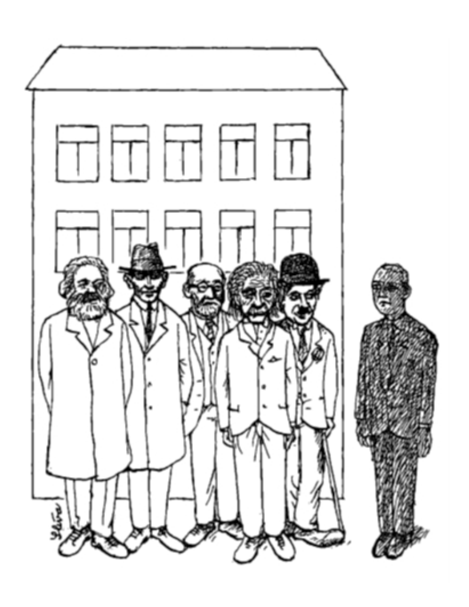
15

عودة

ها أنا قد عدتُ، قطعتُ الممر ونظرتُ حولي. إنه فناء أبي القديم. ما زالت النقرة وسط ساحة الفناء. آلة زراعية قديمة غير مستعملة، أجزاؤها مكومة فوق بعضها، تعوق الطريق للسلالم. قط يموء في ساحة الفناء. فوطة ممزقة، ملفوفة حول عصا كلعبة، تهزها الرياح. ها أنا قد وصلت. من يا ترى سوف يستقبلني؟ من تراه ينتظر خلف باب المطبخ؟ الدخان ينبعث من المدفأة، قهوة العشاء تُعَدّ. هل تشعر بغربة؟ هل تشعر أنك في بيتك؟ لا أدري، إنني حقيقة غير متأكد. هذا بالفعل هو منزل أبي، ينتصب ببرودة.. قطعة جوار قطعة، كما لو أن كل فرد مشغول بما يعنيه من مشاكل، تلك التي نسيتُ أغلبها، ولم أعرف قط بعضًا منها. ماذا يمكنني أنا، أن أقدم لهم؟ ماذا أكون بالنسبة لهم؟ أنا ابن الفلاح العجوز. لم تواتني الجرأة أن أخبط على باب المطبخ، وقفتُ أتنصتُ عن بُعد، شريطة ألا يُفَاجئني أحد، ويرى أنني أتنصت. ولأنني كنت أتنصت من بعيد، فلم أتمكن حقيقةً من سماع شيء، فيما عدا دقات الساعة الآتية من الحديقة بصعوبة، أو ربما اعتقدت أنني أسمعها. ما يحدث في المطبخ، هو سر يحتفظ به الجالسون هناك ويخبئونه عني. وكلما طالت مدة ترددي أمام الباب، كلما تزايد شعوري بالغربة. ماذا سيحدث لو أن أحدهم فتح الباب الآن فجأةً ووَجَّه إليّ الأسئلة؟ ألا أبدو ساعتها أنا الآخر كأنني أُخبئ سرًا؟

16

جماعة



نحن خمسة أصدقاء، ذات مرة خرجنا من المنزل الواحد تلو الآخر. خرج أحدنا ووقف بجوار الباب، ثم خرج الثاني أو بشكل أدق انزلق مثل الزئبق خارج البوابة، ووقف بجوار الأول، ليس بعيدًا عنه، ثم جاء الثالث فالرابع والخامس. وفي النهاية وقفنا جميعًا صفًا واحدًا. تعجب المارة وأشاروا إلينا قائلين: هؤلاء الخمسة خرجوا من هذا المنزل. من يومها، ونحن الخمسة نعيش سويًّا. بإمكاننا أن نعيش حياةً هادئةً، لولا المحاولة المستمرة لدخول سادس وسطنا. إنه لا يفعل شيئًا سيئًا، لكنه يُزعجنا بشكل ما، وهذا يكفي، لماذا يُثقل علينا، عندما يكون غير مرغوب فيه. نحن لا نعرفه، ولا نريده وسطنا. نحن أيضًا لم نكن نعرف

بعضنا في البداية، ومن الممكن أننا لا نعرف بعضنا بما فيه الكفاية حتى الآن، ولكن ما هو ممكن بيننا نحن الخمسة وما نتحمله من بعضنا الآخر، ليس مُمكنًا أن يحدث مع السادس ولا يمكن تحمله. بالإضافة إلى أننا خمسة ولا نريد أن نكون ستة. وما معنى أن يتواجد بعضنا البعض باستمرار، حتى تواجدنا نحن الخمسة باستمرار لا معنى له، لكننا نحن الآن مع بعض سويًّا، وسنظل، ولا نريد علاقات جديدة، بناءً على خبرتنا السابقة. كيف سنُوَضِّح ذلك كله للسادس، إن الشرح الطويل يعني بشكل أو بآخر موافقتنا على انضمامه لجماعتنا، من الأفضل ألا نُوَضِّح له، ولا نضمه إلينا. ولو أنه تذمر، سوف ندفعه بكوعنا، ولو أننا دفعناه بقوةٍ أكثر، سيعود ثانيةً.

17
المحامي

لم أكن متأكدًا قط، إن كان هناك محام، لم أتمكن من معرفة ذلك على وجه اليقين؛ فالوجوه كلها تشيح عني، أغلب الذين مروا أمامي أكثر من مرة في الممرات، كانوا يشبهون النسوة العجائز، يضعن على صدورهن مرايل عريضة، تغطى الجسد كله، لونها أزرق غامق ومُخططة بخطوط بيضاء، يهززن بطونهن ويتحركن بتثاقل جهة اليمين وجهة اليسار، لكنني لم أكن متأكدًا أننا في المحكمة. هناك أشياء تؤكد ذلك وأشياء كثيرة تنفيه. إن أكثر ما يؤكد لي أنها محكمة، هي تلك الضوضاء وهذا الصخب المتواصل الذي يُسمع عن بُعد، والذي من الصعب تحديد مصدره، فهو يملأ جميع القاعات بلا استثناء، لدرجة تجعل المرء يعتقد، أن هذه الضوضاء وهذا الصخب تنبعث من جميع الاتجاهات، أو بشكل أصح من المكان الذي يقف المرء فيه. لكن ذلك غير حقيقي فقد كانت الأصوات تأتي من بعيد.

كانت الممرات ضيقة، مُنبعجة، تؤدي إلى قاعات دائرية، بها أبواب عالية عليها زخارف شحيحة، تصلح كمكان للهدوء العميق، أشبه بممرات متحف أو مكتبة عامة. وإن لم يكن هذا المبنى هو المحكمة، فلماذا أبحث هنا عن محام؟ لقد بحثتُ في كل مكان عن محام، فهو ضروري في كل الأحوال، حقيقة يحتاجه المرء في المحكمة بدرجة أقل عن أي مكان آخر، فالقضاء يصدر أحكامه بناء على القانون، هذا ما

يتوقعه المرء. فلو اعتقد المرء أن الأمور هنا غير عادلة ومستهترة، عندئذ تكون الحياة مستحيلة غير ممكنة، على المرء أن يثق كليةً بالقضاء، وأن تكون لجلالة القضاء مطلق الحرية، فهذا واجبه الأساسي والوحيد، فكل شيء في إطار القانون، الادعاء والمحامي والحكم، وتدخل أي شخص من الخارج يكون إثمًا عظيمًا. يختلف الأمر في التعامل مع وقائع الحكم وحيثياته التي تعتمد على التجاوزات هنا وهناك، مع الأقارب والأغراب، مع الأصدقاء والأعداء، في الأسرة أو خارجها، في المدينة والقرية، باختصار في كل مكان. هنا يستلزم الأمر وجود محام، بل مجموعة من المحامين، الواحد بجوار الآخر، حائط حيّ، فالمحامي بطبعه بطيء الحركة، أما رجال الادعاء، هؤلاء الثعالب الماكرة، النشطة كابن عروس، الفئران المتخفية، التي تتسلل خلال أصغر الثقوب، وبين أرجل المحامين. حذار! لذلك أتواجد هنا كي أبحث عن المحامين. لكنني لم أجد أحدًا منهم، لم أجد غير هؤلاء النسوة العجائز، اللاتي يرحن ويجئن هنا وهناك. لو أنني توقفت عن البحث لداهمني النعاس بكل تأكيد. أنا لست في المكان المناسب، للأسف لا يُمكنني أن أستبعد هذا الانطباع، بأنني لست في المكان المناسب. يجب أن أكون في مكانٍ آخر؛ حيث يتوافد الكثير من البشر، من جهات مختلفة، ومستويات متعددة، من كل المهن والوظائف، ومن أعمار متباينة، أرغب في أن تكون عندي الفرصة لأن أختار بدقة وحذر الأكفاء، البشوشين، الذين يروقونني. ربما كانت السوق السنوية الكبرى أفضل مكان لمثل هذا التجمع. وبدلًا من أن أفعل ذلك، أُضَيِّع

وقتي هنا بين الممرات؛ حيث النسوة العجائز يـرحن ويجئن أمـامي هنـا وهنـاك، دائمًـا نفس النسـوة العجـائز، ورغم حـركتهن البطيئـة، فهن لا تتوقفن أمامي، بل تعبرن كسـحابةٍ ممطـرةٍ وهن منهمكـات ومنشـغلات بشيءٍ غير واضح بالنسبة لي. لماذا إذن أدخل بتعجـل وبشـكل عشـوائي مبـنى مـا، دون أن أقـرأ اللافتـة الـتي على البوابـة، أدخـل مباشـرةً إلى الممرات، وأجلس هناك بإصرار وعنـاد، حتى أنـني لم أعـد أتـذكر أنـني وقفت قـط أمـام هـذا المبـنى، أو صـعدت على سـلالمه ذات مـرة. غـير مسـموح لي بـالعودة، هـذا الـوقت الضـائع، الاعـتراف بـأنني أخطـأت الطريق، أجد ذلك غير محتمل. ماذا؟ في هذه الحياة القصيرة المتعجلة المصحوبة بهذا الصخب وهذه الضوضاء، عليّ أن أصعد السلالم؟ هـذا غير ممكن، مستحيل. وقت قصير هو المصَرَّح لـك بـه، إن فقـدت منـه ثانية واحدة، فقدت حياتك، فهي ليست أطول ممـا هي، طولهـا يتحـدد بقـدر مـا تفقـد من وقت. إذا ابتـدأت في طريـق، واصـل حـتى تُكمله، تحت أي ظرف، هكذا فقط يمكنك أن تـربح، ليس هنـاك من مخـاطرة، ربما تسقط في النهاية، ولو أنك استدرت بعد الخطـوات الأولى ونـزلت السلالم، ربما تسقط أيضًا في البداية، ليس ربما، بل بكـل تأكيـد. إن لم تجد شيئًا في الممرات، افتح الأبواب، إن لم تجد شيئًا خلف الأبـواب، اصـعد للـدور الأعلى، إن لم تجـد شـيئًا هنـاك، لا بـأس، تَخيَّل وجـود سلالم جديدة، وطالما لا تتوقف عن الصعود، فلا تنتهي السـلالم، إنهـا تنمو تحت قدميك الصاعدتين.

18

حارس القبور

مسرحية في فصل واحد – 1916/ 1917

(حجرة عمل صغيرة ذات نوافذ عالية، تطل على جذع شجرة عارية، الأمير جالسًا أمام المكتب، راجعًا بالمقعد إلى الخلف، ينظر من النافذة. الياور بلحيته الكثة البيضاء، مُرتديًا سترة شبابية ضيقة، مستندًا على الحائط بجوار الباب الأوسط).

(صمت)

الأمير:(مُبتعدًا عن النافذة) والآن؟

الياور: لا أنصح بذلك يا معالي الأمير.

الأمير: لماذا؟

الياور: لا يمكنني أن أُعَبِّر بدقة عمَّا أريد. إنه بكل المقاييس، ليس ما أود أن أقول. ـ تمامًا، لو أنني استشهدت بالمثل الشائع الذي يقول: لا تزعجوا الموتى!

الأمير: هذا رأيي أيضًا.

الياور: هذا يعني، أنني لم أفهم تمامًا ماذا تقصد.

الأمير: يبدو ذلك.

(صمت)

الياور: ربما يكمن سبب هذا اللبس في أن التعليمات لم تكن متطابقة، كما عرضتها على سيادتكم من قبل.

الأمير: على كلٍّ، فالتعليمات تُلقي عليّ مسؤولية كبيرة، عليّ أن أتحملها.

الياور: لا مسؤولية على الإطلاق!

(صمت)

الأمير: مرة ثانية. حتى يومنا هذا، والقبر في حديقة فريدريك يقوم بحراسته حارس يُقيم في منزل صغير عند مدخل القبر. ما هو الخطأ في ذلك؟

الياور: ليس هناك خطأ بالطبع. فالقبر يبلغ من العمر أكثر من أربعمائة عام، وقد تمت حراسته بهذه الطريقة طوال هذا الوقت.

الأمير: ربما يكون ذلك مجرد سوء استخدام، لا أعتقد ذلك. هل هو سوء استخدام؟

الياور: إنه تعديل ضروري.

الأمير: هو تعديل ضروري إذن. إنني أُقيم هنا في هذا القصر الريفي منذ فترةٍ طويلة، تعرفتُ فيها على تفاصيل كثيرة، لا يمكن للغرباء أن يعرفوها أو يثقوا بها، فهم يتحفظون عليها بشكل رديء. ولقد وجدت، أن حارسًا واحدًا في الحديقة لا يكفي، بل يجب أن يُزاد عدد الحرَّاس، وأن يُعَيَّن حارس آخر داخل القبر نفسه. لن تكون بالطبع وظيفة مريحة،

لكنه بخبرتنا في الحياة، يوجد دائمًا لكل وظيفة رجالها، وهم مستعدون دائمًا لتقبلها والقيام بها.

الياور: سوف يُنفذ كل ما يراه معاليكم بالطبع، حتى لو أن ضرورة التعليمات لا تتضمن ذلك.

الأمير: ضرورة؟ أية ضرورة؟ هل هناك ضرورة لحارس عند باب حديقة القصر؟

إن حديقة فريدريك جزء من حديقة القصر، فحديقة القصر تحيط بها، وحديقة القصر يقوم بحراستها حُرَّاس عديدون، بل إن الجيش نفسه يقوم بحراستها.

ما الذي يستوجب إذن وجود حراسة خاصة لحديقة فريدريك؟ أليس ذلك مجرد إجراء شكلي؟ مكان هادئ لموت الحارس العجوز المسكين هناك؟

الياور: إنه إجراء شكلي. لكنه ضروري. من الضروري إظهار الاحترام تجاه الموتى.

الأمير: وماذا عن حارس داخل القبر نفسه؟

الياور: من الناحية الأمنية، أرى أنها وظيفة ثانوية، سوف تكون حراسة غير حقيقية، تبتعد عن الجوانب الإنسانية.

الأمير: إن هذا القبر بالنسبة لعائلتنا يُمَثِّل الحد الفاصل بين الإنساني وغير الانساني، وعلى هذا الحد يجب أن يقف حارس. وإنني أرى أن

هذا الإجراء ضرورة أمنية، مثلما تقول، وعلينا عندئذٍ استجواب جميع الحرَّاس. لقد أمرت باستدعائه.

(ينادي) الياور: إذا سمح لي معالي الأمير أن أقول ملحوظة، فإنني أراه رجلًا عجوزًا خرف.

الأمير: كما لو أنك تُبرِّر احتياجنا لحُرَّاس أكثر.

الأمير: حارس القبور!

(الخادم يقود حارس القبور للداخل، مُمسكًا بذراعه،ساندًا إياه حتى لا يقع. عجوز أحمر اللون مُتهالك مُرتجف الأوصال، يضع على صديريته زرائر فضية لامعة وأوسمة متعددة، يمسك بكاب في يده. يرتعش في مواجهة نظرات السادة).

الأمير: أرقدوه على الأريكة!

(يُرقده الخادم على الأريكة وينصرف. صمت. تأوهات خافتة للحارس).

الأمير:(وهو جالس على المقعد) هل تسمعني؟

الحارس (يحاول الرد بصعوبة، لكنه لا يستطيع، فهو في غاية الإنهاك، يسقط من الإعياء).

الأمير: حاول أن تتماسك. نحن في الانتظار.

الياور:(مُنحنيًا على الأمير) بمَ يمكن أن يُخبرنا هذا الرجل، بأية معلومات مهمة يمكن تصديقها. علينا أن نذهب به إلى السرير بأقصى

سرعة.

الحارس: لا، ليس إلى السرير، ما زلت قويًّا بما فيه الكفاية.

الأمير: ربما يكون ذلك أفضل. فأنت ما زلت في الستين، لكنك تبدو ضعيفًا جدًا.

الحارس: سأسترد أنفاسي في الحال، سأسترد أنفاسي.

الأمير: لم أقصد إهانتك. إنني آسف لحالتك السيئة. هل تشتكي من شيءٍ ما؟

الحارس: خدمة شاقة. أنا لا أشكو، إن قوتي تُسْتَهلك في المصارعة كل ليلة.

الأمير: ماذا تقول؟

الحارس: خدمة شاقة.

الأمير: لقد قلت شيئًا آخر.

الحارس: مصارعة.

الأمير: مصارعة؟ مع من تتصارع؟

الحارس: مع الأجداد المرحومين.

الأمير: لا أفهم ماذا تقصد. هل تحلم أحلامًا سيئة؟

الحارس: ليست أحلامًا، إنني لا أنام طوال الليل.

الأمير: احك لي إذن عن هذه المصارعة.

(يصمت الحارس).

الياور:(مُسرعًا تجاه الحارس) يمكن للرجل أن ينتهي في أية لحظة.

(الأمير يقف أمام الترابيزة).

الحارس:(عندما لمسه الياور) ابتعد! ابتعد! ابتعد!

(يمسك بأصابع الياور، يُلقي بنفسه ويبكي).

الأمير: نحن نُعذب الرجل.

الياور: كيف؟

الأمير: لا أدري.

اليـاور: الطريـق إلى القصـر، دخـول القصـر، وقوفـه أمـام معـاليكم، الاستجواب، هذا كثير على الرجل.

الأمـير:(ينظـر بشـكل مسـتمر للحـارس) لا ليس ذلـك (يتجـه ناحيـة الأريكة، ينحني على الحارس، يمسك برأسه الصغير بين يديـه) لا داعي للبكـاء. لمـاذا تبكي؟ نحن نتفهم حالتـك. أنـا شخصـيًّا أرى أن عملـك ليس بالسـهل. لكن من المؤكـد أن عملـك بـالقرب من القصـر، كـان مُفيدًا لك.

الحارس: لكنني أخاف من هذا الرجل هناك (ينظر إلى الياور مُهددًا دون خوف).

الأمير:(للياور) عليك أن تذهب بعيداً، حتى يمكنه أن يحكي.

الياور: أترى يا معالي الأمير، الزبد حول فمه؟ الرجل مريض بشدة.

الأمير:(يُبعده) انصرف إذن، لن يستمر ذلك طويلًا.

(ينصرف الياور).

(يجلس الأمير على حافة الأريكة).

(صمت)

الأمير: لماذا خفت منه؟

الحارس (وقد استجمع أنفاسه): أنا لم أخف منه. أأخاف من خادم؟

الأمير: إنه ليس بخادم، إنه كونت، حُر وثري.

الحارس: ومع ذلك فهو مجرد خادم، وأنت السيد هنا.

الأمير: هذا ما تراه، لكنك قلت إنك تخاف منه.

الحارس: عندي أشياء أود أن أقولها لسيادتكم شخصيًّا، ليس في حضوره. أم ترى أنني قد قلت بالفعل أمامه بعض الأشياء؟

الأمير: هذا يعني أنك تثق بي، رغم أنني أراك اليوم للمرةِ الأولى في حياتي.

الحارس: تراني للمرةِ الأولى، لكنك تعرف منذ زمن أن لي الكلمة الأولى في هذه الوظيفة. بل لقد عَبَّرت عن ذلك أمام الجميع ومنحتني ميدالية «أحمر نار» أترى!

(يرفع الميدالية من على صديريته تجاه الأمير).

الأمير: لا، هذه ميدالية مرور 25 عامًا في خدمة القصر. منحها إياك جدي. لكنني سأكافئك أنا الآخر.

الحارس: افعل ما ترى وما تستحقه خدمتي في هذا القصر. ثلاثون عامًا أمضيتها في خدمتكم كحارس للقبور.

الأمير: ليس في خدمتي، بل في خدمة الحكومة. لقد توليت أنا الإمارة منذ عام واحد فقط.

الحارس(لنفسه): ثلاثون عامًا.

(صمت)

الحارس (مواصلًا حديثه): الليالي تمر هناك كالسنين.

الأمير: حتى الآن، لم يصلني منك التقرير. كيف حال الخدمة؟ ما هي ملاحظاتك؟

الحارس: الوضع نفسه كل ليلة. الوضع نفسه حتى تطق من الملل.

الأمير: هل هي خدمة ليلية فقط؟ خدمة ليلية، تقوم بها أنت أيها الرجل العجوز؟

الحارس: هذا ما يحدث يا معالي الأمير. إنها في الحقيقة خدمة نهارية. وظيفة للكسل والتكاسل. يجلس المرء أمام باب القصر ويفتح فمه لأشعة الشمس. أحيانًا يُرَبِّت كلب الحراسة بكفه على ركبتي، ثم يرقد ثانيةً. هذا هو التغيير الوحيد.

الأمير: هكذا.

الحارس(مُوافقًا): لكنه يتغير في الخدمة الليلية.

الأمير: من الذي يقوم بتغييره؟

الحارس: سادة القبور.

الأمير: هل تعرفهم؟

الحارس: بالطبع.

الأمير: هل يحضرون إليك؟

الحارس: نعم.

الأمير: هل حضروا الليلة الماضية؟

الحارس: نعم.

الأمير: وكيف كان ذلك؟

الحارس (يعتدل في جلسته): كالعادة دائمًا.

(ينهض الأمير واقفًا).

الحارس: كالعادة دائمًا. هدوء كامل حتى منتصف الليل. أتمدد في السرير — عفوًا — وأدخن غليوني. في السرير المجاور ترقد ابنتي. في منتصف الليل أسمع خبطات على النافذة. أنظر في الساعة. دائمًا في الموعد نفسه، وبدقة. ثم يُعَاد الخبط على النافذة مرة أخرى بصوت مرتفع، يختلط مع دقات ساعة البرج. ليست خبطات أصابع بشرية. أعرف ذلك، ولا أتحرك. ثم أسمع صوت نحنحات متذمرة في الخارج،

تتعجب أنني لا أفتح الباب رغم سماعي للخبط على النافذة. على معالي الأمير أن يتعجب! ما زال الحارس العجوز هناك! (يشير بقبضته).

الأمير: أتهددني؟

الحارس (لا يفهم ما يقصد) ليس أنت، بل أولئك الذين خلف النافذة.

الأمير: ومن هم هؤلاء؟

الحارس: تطور الموقف بسرعة. بضربةٍ واحدةٍ، فتحت النافذة على مصراعيها. بسرعة ألقيتُ الملاءة على وجه ابنتي. هبتْ العاصفة داخل النافذة، أطفأتْ النور، الدوق العظيم فريدريك! بوجهه، ولحيته وشعره يملأ النافذة عن آخرها.

كيف تَغَيَّر كثيرًا طوال هذه القرون العديدة. عندما كان يفتح فمه يريد التحدث، كانت ريح العاصفة تضرب لحيته العجوز بين أسنانه، فيعضها.

الأمير: مهلًا. لقد قلت الدوق فريدريك. أي فريدريك فيهم؟

الحارس: الدوق فريدريك. الدوق فريدريك فقط.

الأمير: هكذا كان يُسَمّي نفسه؟

الحارس (بقلق): لا، لم يُسَمّ نفسه.

الأمير: ومع ذلك، فأنت تعرف. واصل حكايتك!

الحارس: أتريدني أن أواصل الحكي؟

الأمير: بالطبع. هذا يهمني جدًا، هناك خطأ في تقسيم العمل، أنت مُثْقَل بالعمل.

الحارس (وهو راكع): أرجوك ألا تأخذ مني وظيفتي يا معالي الأمير. لقد عشت الكثير من الزمن من أجلك، فدعني الآن أيضًا أموت من أجلك! لا تسد القبر قبل أن أموت. إنني أخدمك بكل قلبي وما زلت قادرًا على الخدمة. إن مقابلة كالتي تمت اليوم مع معاليكم، واستجمامي مع السيد الكبير يعطياني القوة للعمل عشرة سنوات أُخر.

الأمير (يُجلسه ثانيةً على الأريكة): لن يأخذ أحد موقعك. كيف يمكن لي تعويض خبرتك! سوف أُعَيِّن حارسًا آخر وسوف تصير أنت كبير الحرَّاس.

الحارس: أليس فيّ الكفاية؟ هل سمحت لأحد مرة بالمرور؟

الأمير: في حديقة فريدريك؟

الحارس: لا، خارج الحديقة. وكل من يرغب في الدخول؟ إن توقف فرد مرةً أمام السور، فبمجرد أن أشيح له بيدي من النافذة، يبتعد مسرعًا. لكن الخروج، الجميع يريد الخروج. بعد منتصف الليل، يمكنك أن تشاهد جميع أصوات الموتى وهم مجتمعون في حجرتي. إنني أظن، أنه لا يمكنهم الدخول من النافذة الضيقة لأنهم يتزاحمون بشدة. وعندما يتأزم الموقف، أُخرج الفانوس من تحت السرير، وأُلَوِّح به عاليًا، فتبتعد هذه المخلوقات الغريبة وهي تضحك وتولول،

وتختفي وسط الدغل هناك بطرف الحديقة حيث أسمع أصواتها وهي تهدر. وبعد فترة يتجمعون ثانيةً.

الأمير: وما هي طلباتك؟

الحارس: أولًا، تُعطي أوامرك، للدوق فريدريك على وجه الخصوص. فلا يجوز الثقة كثيرًا في البشر الأحياء. منذ ثلاثين عامًا، ينتظر كل مساء أن يجدني في حالة انهيار.

الأمير: لو أنه يأتيك منذ ثلاثين عامًا، فلا يمكن أن يكون الدوق فريدريك. لقد مات الدوق منذ خمسة عشر عامًا. لكنه هو الوحيد في هذا القبر بهذا الاسم.

الحارس (وهو مُندمج في السرد): أنا لا أعرف ذلك يا معالي الأمير، فأنا لم أدرس بالجامعة. أعرف فقط كيف يبدأ كل ذلك. «الكلب العجوز» يبدأ بالنافذة. السادة يخبطون على النافذة، بينما أظل راقدًا في فراشي القذر، كانوا يكرهون الفراش بشكل واضح. كل ليلة نُكَرِّر الحديث نفسه. هو بالخارج، وأنا مُقابله مُستندًا بظهري على الحائط. أقول له: «إنني أقوم بخدمة نهارية فقط» يستدير السيد ويردد بأعلى صوته في اتجاه الحديقة «إنه يقوم بخدمة نهارية فقط»؛ فيضحك جمع النبلاء بصوتٍ عالٍ. ويقول الدوق مرةً أخرى: «نحن مازلنا بالنهار»؛ فأرد قائلًا: «أنت مخطئ» يقول الدوق: «نهار أو ليل، افتح البوابة يا رجل» أرد: «هذا ضد التعليمات» وأشير بالغليون على ورقة التعليمات المثبتة على الحائط. يقول الدوق: «أنت حارسنا يا رجل»؛ فأرد:

«حارسكم فعلًا، لكنني مُعَيَّن من قِبَلِ الأمراء الحُكَّام» يرد بغضب: «المهم أنك حارسنا. افتح البوابة وفي الحال» أقول: «لا» يرد: «أنت أحمق. سوف تفقد وظيفتك. لقد دعانا الليلة الدوق ليو».

الأمير:(بسرعة) أنا؟

الحارس: أنت.

(صمت)

الحارس: عندما أسمع اسمك، أفقد توازني. لذلك وعلى سبيل الاحتياط، أقف طول الوقت مُستندًا على الحائط. في الخارج يتغنى الجميع باسمك. «أين هي تلك الدعوة؟» أسأله بصوتٍ منخفض. يصرخ فيّ قائلًا: «أتشك في كلام الدوق يا حيوان؟» أرد: «ليست عندي تعليمات، ولذلك لن أفتح، لن أفتح، لن أفتح!» يصيح الدوق في الخارج: «إذن، إلى الأمام! جميعكم، العائلة بأكملها في اتجاه البوابة! سنفتح هذه البوابة بأنفسنا» وفي غمضة عين، يختفي من أمام النافذة.

(صمت)

الأمير: هل هذا هو كل شيء؟

الحارس: ماذا تقصد؟ الآن تبدأ خدمتي خارج المنزل وحوله؛ حيث أشتبك مع الدوق وأدخل معه في صراع جسدي. هو ضخم الحجم وأنا ضئيل الحجم، هو عريض المنكبين وأنا نحيف. في حقيقة الأمر، أنا أتصارع مع ساقيه، أحيانًا يرفعني عاليًا فيعطيني الفرصة لأتصارع مع

الجزء العلوي. حولنا، يقف جميع رفاقه ويضحكون عليّ. أحدهم، على سبيل المثال، تقدم ذات مرة ومزق بنطلوني من الخلف، وابتدأ الجميع في اللعب بطرف قميصي، بينما أنا مندمج في المصارعة. شيء لا يُصَدَّق. ويُواصلون الضحك، ومع ذلك أفوز دائمًا في النهاية.

الأمير: لكن قل لي كيف يمكنك أن تفوز؟ هل معك سلاح؟

الحارس: في السنوات الأخيرة، ابتدأت بالفعل في حمل سلاح. لكنه لم يفدني بشيء، بل على العكس، كان حِمْلًا ثقيلًا عليّ، كان يثقلني ويحدّ من حركتي. نحن نتصارع بقبضات اليد، وفي الحقيقة نحن نتصارع بقوة النفس والتنفس. وأثناء المصارعة تكون أنت أيها الأمير دائمًا أمام عيني.

(صمت)

الحارس: لكنني كنت واثقًا كل مرة من أنني سأفوز. وأحيانًا ما كنت أخاف من أن يهرسني الدوق بين أصابعه وينسى أننا نتصارع.

الأمير: ومتى يتحقق فوزك؟

الحارس: عندما يأتي الصباح. يُلقي بي من بين أصابعه، ويبصق خلفي. هكذا يعترف بهزيمته. أما أنا فأظل مُستلقيًا على ظهري مدة ساعة حتى أسترد أنفاسي.

(صمت)

الأمير(ينهض): لكن قل لي، ألا تدري ماذا يريدون حقيقة؟

الحارس: يريدون الخروج من الحديقة.

الأمير: لكن لماذا؟

الحارس: لا أدري لماذا.

الأمير: ألم تسألهم؟

الحارس: لا.

الأمير: ولماذا؟

الحارس: لقد خجلت أن أسألهم. لكن، إن كنت ترغب في ذلك، يمكنني أن أسألهم الليلة.

الأمير (مُنزعجًا وبصوتٍ عالٍ): الليلة؟!

الحارس(بهدوء): نعم، الليلة.

الأمير: ألا يمكنك تخمين ماذا يريدون؟

الحارس (مُفكرًا): لا.

(صمت)

الحارس: أحيانًا ـ يجب أن أحكي ذلك أيضًا. أحيانًا يأتيني في البكور، بينما أكون ما زلت راقدًا متقطع النفس، وضعيفًا لدرجة أنه لا يُمكنني أن أفتح عيني ـ يأتيني كائن رقيق، نديّ، أحس بشعره الكثيف، كزائر أخير، تأتيني الكونتيسة إيزابيللا، تتحسسني في أماكن عدة، تمسكني من لحيتي، تمر بجسمها كله على رقبتي، تحت ذقني، ثم تقول:

«الآخرون لا، أما أنا، أما أنا فستتركني أخرج» أهز رأسي بالنفي «قولي للأمير ليو، واعطه يدك» وأستمر في هز رأسي. «لكن أنا، لكن أنا» تردد ذلك وتنصرف. وتأتي ابنتي وتلفني بالأغطية وتنتظر بجواري، حتى أسترد أنفاسي. فتاة طيبة، غير عادية.

الأمير: إيزابيللا! لا أعرف شخصًا بهذا الاسم.

(صمت)

الأمير: تعطيني يدها! (يقف أمام النافذة، ينظر منها. يدخل الخادم من الباب الأوسط).

الخادم: معالي الأمير، الأميرة المبجلة ترجو المقابلة.

الأمير (يصرف الخادم، يُوَجِّه حديثه للحارس): انتظرني حتى أعود (يخرج يسارًا).

(في اللحظة نفسها يدخل الياور من الباب الأوسط، ويدخل كبير أمناء القصر من الباب الأيمن ـ ضابط شاب مُرتديًا لباسه العسكري).

(يختبئ الحارس خلف الأريكة وهو خائف، كما لو أنه رأى أشباح).

كبير الأمناء: هل ذهب الأمير؟

الياور: لقد نادته معالي الأميرة للخارج، تبعًا لنصيحتكم.

كبير الأمناء: هذا جميل (ينحني فجأة وينظر خلف الأريكة) وأنت أيها الشبح التعس، هل تجرأت فعلًا وجئت إلى هنا؟ إلى قصر الأمير؟ ألا

تخشى الرفسة القوية، التي سوف تدفع بك خلال هذه البوابة إلى الخارج؟

الحارس: أنا، أنا...

كبير الأمناء: اخرس! اخرس تمامًا! اجلس هنا في هذا الركن! (للياور): أشكرك على إخبارك لي بمزاج الأمير.

الياور: لقد سألتني ذلك.

كبير الأمناء: بصرف النظر. والآن كلمة صريحة، أمام هذا الشيء هناك. سيدي الكونت، هل تُغَازِل حزب المعارضة؟

الياور: هل أعتبر ذلك اتهامًا؟

كبير الأمناء: بل احتياطًا، في الوقت الحالي.

الياور: في هذه الحالة، يمكنني أن أقول لك، إنني لا أُغازل حزب المعارضة، لأنني لا أعرفه حق المعرفة. فقط أتحسس الاتجاهات والتيارات، لكنني لا أندمج فيها.

إنني من مدرسة السياسة القديمة التي كانت تمارس إبان مرحلة حكم الدوق فريدريك. وقتها، كانت السياسة الوحيدة التي تمارس في هذا القصر هي خدمة الأمراء.

ولقد كان الأمر سهلًا، لأنه كان غير متزوج لكن ذلك ممكن تحت كل الظروف.

كبير الأمناء: كلام حكيم. لكنه كثيرًا ما يصعب على هذه العناصر باعتبار أنها مازالت مخلصة التوصل للاتجاه الصحيح، وتكون مهمتها فقط هي فهم المتغيرات.

يجب أن يُحدد ذلك ويُحسم بشكل واضح. وعلى فرض أن الأمير مُتردد في اختياراته، هل يقوم المرء بخدمته فعلًا، عندما يقوم بطاعته طاعة عمياء، أم عليه أن يُوقفه عند حده؟ بلا شك، واجبه أن يُوقفه بكل احترام!

الياور: لقد جئت معاليكم مع زوجتكم جناب الأميرة من قصر غريب منذ ستة أشهر لا غير، وتحكم بهذه السرعة على علاقات القصر المعقدة: هذا خير وهذا شر!

كبير الأمناء: الذي يُدقق، يرى المشاكل فقط، لكن الذي يفتح عينيه يرى كل شيءٍ بوضوح. الوضوح المقبض، الذي نأمل في الأيام المقبلة أن يكون في طريقه لاتخاذ القرار السليم.

الياور: لا يُمكنني أن أُصدق أن القرارات التي تريد أن تُصدرها، والتي عليّ أن أُعلنها قرارات طيبة. أخاف أنك تُسيء فهم أمراءنا في هذا القصر، بل تُسيء فهم كل ما يحدث هنا.

كبير الأمناء: سواء فهمت أو لم أفهم، فالأمر سيان، والوضع الحالي غير مُحتمل.

الياور: ربما يكون الوضع غير مُحتمل، لكنه نتيجة لطبيعة العلاقات هنا، وسوف نتحمله ونقوم بواجبنا حتى النهاية.

كبير الأمناء: الأميرة لا تتحمله، وأنا لا أتحمله، وكل من هو في صفنا لا يتحمله.

الياور: ماذا تراه غير مُحتمل؟

كبير الأمناء: سأقول لك رأيي بصراحة، بخصوص اتخاذ القرارات بالذات. للأمير وجهان؛ وجه مشغول بالحكومة، مُتَأرجحًا تجاه الشعب، مُتَجَاهِلًا لحقوقه. والوجه الآخر، يبحث بوضوح وبشكل مُتقن عن تقوية مركزه وتثبيته، يبحث عنه في الماضي، دائم التنقيب عنه. يا له من سوء تقدير! سوء تقدير لا يخلو من عظمة، عظمة في تكدسه بالأخطاء، التي هي في حقيقتها أعظم كثيرًا مما تبدو للعين. هل غاب عنك ذلك؟

الياور: إنني لست ضد توصيفك للوضع، لكنني ضد أحكامك.

كبير الأمناء: ضد أحكامي؟ كان عندي أمل كبير في تفهمك لموقفي أكثر مما توقعت، لكنني سأحتفظ بقراري النهائي من أجل حمايتك. إنني أرى أن الأمير لا يحتاج حقيقةً لتقوية مركزه، فلو أنه استخدم سلطاته الحالية، سوف يكتشف أنها كافية لتحقيق كل ما يجب عليه من مسؤوليات أمام الرب وأمام الشعب. إنه يتجنب تحقيق هذا التوازن في أمور الحكم.. إنه في طريقه إلى أن يصير طاغية!

الياور: وماذا عن روحه المتواضعة؟

كبير الأمناء: إنه يتواضع في أحد وجهيه، لأنه يحتاج قوته كلها للوجه الآخر، الشيء الذي ينسف كل الأسس، التي تكفي لنسف برج بابل.

يجب أن يُوقف ذلك، وأن تكون هـذه هي مهمـة الأفـراد، الـذين يهمهم موقعهم الشخصي، كما تهمهم الإمارة، والأميرة، وربما لمصلحة الأمير نفسه.

الياور: ربما عندك حق، أراك تتكلم بصراحة وقلب مفتـوح. وصـراحتك تلك، تجعلني أرتعش أمام إعلان قراري. بـل انـني آسـف أشـد الأسـف، لأنني كنت طوال هذه الفترة مخلصًا لمعالي الأمير وضعيفًا أمامـه لهـذه الدرجة.

كبير الأمناء: الآن، أصبح كل شيء واضـحًا. أنت لا تُغَـازِل فقـط حـزب المعارضة، بل تُشَاركه الرأي وتمد يدك إليه. شيء واحـد فقـط يجب أن نُقَدِّرَه في موظف عجوز بالقصر. أن يظل الأمـل الوحيـد، هـو أن يُثـيرك تصورنا وتتحمس لحلمنا الكبير.

الياور: سأفعل ما يمكنني فعله لكي أُوقفه.

كبير الأمناء: لم يعد يقلقني ذلك (يُشير إلى حارس القبـور) وأنت، أنت تظل هكذا هادئًا في مكانك، هل سمعت وفهمت كل ما قيل أمامك؟

الياور: حارس القبور؟

كبـير الأمنـاء: نعم، حـارس القبـور. أغلب الظن، أنـه يجب أن تـأتي من الخارج، حـتى يمكنـك التعـرف عليـه. أليس كـذلك يـا صـغيري؟ أيتهـا البومة العجوز؟ هل شاهدته مرةً وهو يطير في الغابة ليلًا بمهـارةٍ فائقـة؟ أمَّا في النهار فهو يبحث عن ركن ليختبئ فيه.

الياور: أنا لا أفهم ماذا تقصد.

الحارس (وهو على حافة البكاء): إنهم يتشاجرون معي يا سيدي، لا أدري لماذا! أرجوك، دعني أعود للمنزل. إنني لست شريرًا، بل حارس قبور بسيط.

الياور: أنت لا تثق به.

كبير الأمناء: أثق به؟ لا، إنه أكثر من تافه. لكنني أريد أن أُسيطر عليه. إنني أعتقد أنه ليس مجرد أداة للشر، بل عنصر نشط في ممارسة الشر.

الياور: إنه يخدم بهدوء في البلاط حوالي ثلاثين عامًا، دون أن يقترب مرةً واحدةً من القصر.

كبير الأمناء: هؤلاء الفئران يحفرون أخاديد طويلة قبل أن يظهروا على السطح. (يستدير فجأةً للحارس) قبل كل شيء.. ألقوا بهذا خارجًا!

(مُتحدثًا للخادم) خذه إلى حديقة فريدريك، وابق معه، وامنعه من الخروج حتى صدور أوامر أخرى.

الحارس (وهو خائف بشدة): عليّ أن أنتظر معالي الأمير.

كبير الأمناء: ألق به بعيدًا!

الياور: يجب أن يُعَامل بعناية. إنه رجل عجوز ومريض، والأمير يعتمد عليه كثيرًا.

(ينحني الحارس للياور شاكرًا) كبير الأمناء: ماذا تقول؟ (مُتحدثًا للخادم) عامله بعناية، وألق به خارجًا! أسرع!

(يتقدم الخادم مُمسكًا بالحارس).

الياور (يتدخل بينهما): اذهب واحضر عربة!

كبير الأمناء: هذا هو الجو العام للقصر. لا طعم لشيء. احضر عربة، فأنت تنقل شيئًا غاليًا ثمينًا. وبسرعة، اختفيا أنتما الاثنان من هنا! بسرعة!

(مُتحدثًا للياور) إن موقفك يعني.....

(يُلقي بالحارس في العربة فيصرخ صرخةً خفيضةً) كبير الأمناء (ضاربًا الأرض برجله): هل من المستحيل التخلص من هذا الرجل؟ إذن فلتحمله على ذراعيك إن تعذر ذلك. افهم ونفذ ما يُطلب منك!

الياور: معالي الأمير.

(يفتح الخادم الباب يسارًا) كبير الأمناء: بالطبع! نظرة على الحارس! كان عليّ أن أعرف، أن الأشباح لا يُنقلون بالعربات.

(يدخل الأمير بخطى مسرعة، تتبعه الأميرة، امرأة شابة تتشح باللون الأسود، يعض الأمير على أسنانه، يظل واقفًا عند الباب).

الأمير: ماذا حدث؟

كبير الأمناء: لقد فقد الحارس وعيه، فرأيت أن أبعده.

الأمير: كان عليكم أن تخبروني. هل أحضرتم الطبيب؟

الياور: سأناديه (يخرج مُسرعًا من الباب الأوسط ويعود بسرعة).

الأمير (راكعًا بجوار الحارس): جهزوا له السرير! احضروا النقَّالة! هل الطبيب في الطريق؟ لا يمكنه أن يظل هكذا طويلًا. نبضه ضعيف جدًا، وقلبه لا يمكن سماع دقاته. هذه الضلوع التعيسة. كيف تآكل كل شيء واسْتُهلك (يقف فجأةً، يُحضر كوب ماء بينما ينظر حواليه) الرجل لا يتحرك (يركع ثانيةً، يُبَلل وجه الحارس بالماء) الآن يتنفس، هذا أفضل. سوف يتحسن، فهو عِرْق صَلب، لا يستسلم، حتى آخر نَفَس. لكن الطبيب، الطبيب! (بينما ينظر تجاه الباب، يرفع الحارس يده ويمسح على وجنة الأمير).

(تشيح الأميرة بنظرها تجاه النافذة. يدخل الخادم بالنقَّالة، الأمير يساعد في وضع الحارس عليها).

الأمير: امسكوه برقة! بهذه المخالب! ارفعوا الرأس قليلًا. اقتربوا بالنقَّالة. ضعوا المخدة تحت ظهره، لأسفل، أكثر. الذراع! الذراع! أنتم ممرضون فاشلون.

يومًا ما سوف تصبحون أنتم أيضًا مُجْهَدين مثل هذا الذي يرقد على النقَّالة.

والآن بخطوات بطيئة مُحاذرة ومتوازنة. سأكون خلفكم (مُحَدِّثًا الأميرة عند الباب) هذا هو حارس القبور.

(الأميرة تهز رأسها).

الأمير: كنت أود أن أُعَرِّفك عليه وهو في حالة مختلفة (يخطو جانبًا) ألا تريدين أن تأتي معي؟

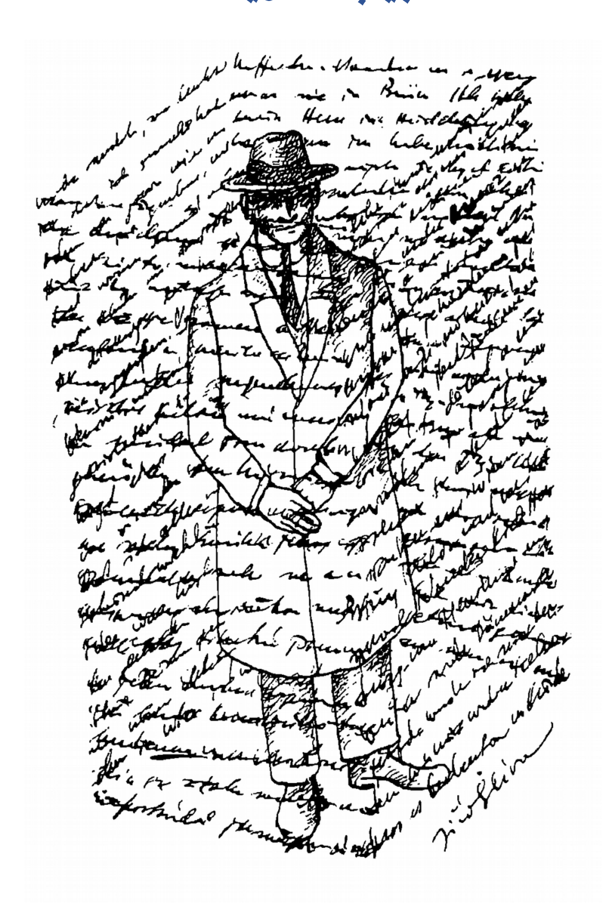
الأميرة: إنني متعبة جداً.

الأمير: سأعود بمجرد أن أقابل الطبيب. وأنتم أيها السادة، انتظروني بتقاريركم حتى أعود(ينصرف).

كبير الأمناء (مُوَجِّهًا حديثه للأميرة): هل تحتاج معالي الأميرة لخدماتي؟

الأميرة: دائمًا. أحتاجها دائمًا. أشكرك كثيرًا على يقظتك. لا تتوقف عنها، حتى لو كانت اليوم بلا نتيجة. الأمر يتعلق بالوضع ككُل. أنت ترى أكثر مني. سأكون في غرفتي. وأعرف أن الأمر سوف يزداد سوءًا، سوف يزداد سوءًا. سوف يكون هذا الخريف خريفًا حزينًا، حُزنًا لا حدّ له.

19
طبيب الأرياف



كنتُ في مأزق حقيقي: أمامي رحلة عاجلة، ينتظرني مريض في حالة حرجة، بقرية تبعد حوالي عشر أميال، المسافة المتسعة بيني وبينه تملأها عواصف ثلجية عنيفة. كانت عندي عربة خفيفة، كبيرة العجلات، مناسبة تمامًا لطرق الأرياف في منطقتنا. تدثرتُ بالمعطف

الفرو، وأمسكتُ بحقيبةِ الفحص في يدي، ووقفتُ في فناء الدار جاهزًا للرحلة، لم يكن ينقصني سوى الحصان، نعم الحصان. لقد مات حصاني الليلة الماضية، نتيجة الإرهاق الشديد من كثرة العمل في هذا الشتاء الجليدي. الآن ذهبت شَغَّالتي إلى القرية تبحث عن حصان نقترضه، بلا نتيجة، توقعت ذلك، بينما كان الجليد لايزال يتساقط بشدة ويتراكم، تجمدتُ في مكاني ووقفتُ هناك في حيرة. ظهرت الفتاة عند البوابة وحدها دون حصان، في يدها المصباح يهتز، أفهم ذلك، فمن يقرض حصانه في مثل هذا الطقس السيئ لرحلة طويلة كتلك؟ قمتُ بقياس الفناء أكثر من مرة جيئةً وذهابًا، مُشتتًا، قلقًا، دون أن أجد مخرجًا ما. اصطدمت قدماي بباب حظيرة الخنازير المكسور، الذي لم يُستعمل منذ سنوات. انفتح الباب وتأرجح. تصاعدت منه رائحة الخيول ودفئها، مصباح شحيح الضوء يتأرجح على حبل ما. رجل يجلس القرفصاء في الحظيرة الخشبية الواطئة السقف، يظهر وجهه بوضوح بعينيه الزرقاوين. «هل أسرج العربة؟» سألني وهو يزحف على أربع. لم أدر ماذا أقول، ودرتُ أفتش في الحظيرة إن كان هناك شيء آخر. قالت الشَغَّالة التي تقف بجواري: «لم يعد المرء يعرف، ماذا يوجد في منزله» ثم ضحكنا نحن الاثنين. «أهلًا بك يا أخي، أهلًا بك يا أختي» قال سائس الخيل وأمامه يتبختر حصانان قويان.. الواحد خلف الآخر، الأرجل ملتصقة بالجسد، الرؤوس جميلة مُقوسة كرؤوس الجِمَال، بصعوبة تمكنا من الخروج من فتحة الباب، لضخامة كفليهما اللذين كانا يسدانه عن آخره. انتصب كل منهما

ورفعا أرجلهما، والتصق جسداهما الساخنين ببعضهما. «ساعديه» قلتُ للفتاة، فأسرعتْ بحماس وناولتْ السائس سيور العربة، وما إنْ اقتربتْ منه الفتاة حتى أمسك بها السائس وانقض بوجهه على وجهها يُقبِّلها. صرختْ الفتاة وفرت هاربة في اتجاهي، وعلى خدها علامات حمراء لصفين من الأسنان. «يا حيوان» صرخت فيه بغيظ «هل تريد الكرباج؟» تماسكت بعدها مباشرةً، وتذكرت أنه رجل غريب لا أعرف من أين أتى، وأنه يعرض عليّ مساعدته بينما خذلني الآخرون. وكما لو أنه قرأ أفكاري، لم يأخذ تهديدي مأخذ الجد، ولم يفعل سوى أنه استدار ناحيتي وهو ما زال مُنشغلًا بالخيول وقال لي «اصعد العربة»، حقيقة كان كل شيء جاهزًا. عربة بمثل هذا السرج الجميل لم أركبها قط. صعدتُ العربة وأنا مبتهج. قلت له: «أنا الذي سوف أقود بالطبع، فأنت لا تعرف الطريق»، رد قائلًا: «مؤكد. فأنا لن آتي معك، أنا سأبقى مع روزا» «لا» صرخت روزا وفرت مسرعة داخل البيت، وهي تتوقع قدرها الذي لا فكاك منه، لقد سمعتُ صوت السلسلة وهي تغلق الباب، وصوت أبواب البيت وهي تصطفق، شاهدتها تجري في الممرات وتطفئ أنوار الغرف جميعها، حتى لا يمكن أن يجدها. «أنت تأتي معي» قلت للسائس «هذا وإلا سألغي الرحلة، فهي ليست ضرورية لهذا الحد. لم أفكر قط أن أعطيك الفتاة ثمنًا للرحلة» «شي! انطلقوا!» صاح الرجل وصفق بيديه، فانطلقت الخيول بالعربة واندفعت كأنها قطعة خشب وسط طوفان مياه. أسمع ما زلت، كيف يطقطق باب المنزل من دقات السائس الهائج التي تكاد تكسره، وامتلأت عيناي

وأذناي بضجيج أفقدني شعوري للحظة، بعدها وجدتُ نفسي أمام بوابة فناء المنزل، منزل المريض. لقد وصلتُ بالفعل، توقفت الخيول وهدأت، كما توقف سقوط الجليد، ضوء القمر يملأ المكان، أسرعت أم وأب المريض لاستقبالي، تتبعهما أخته. كادوا يحملونني حملًا من على العربة، لم أسمع الكلمات المضطربة، كان هواء غرفة المريض فاسدًا، وكانت المدفأة المهملة يتصاعد منها الدخان، كان من الضروري أن أفتح النافذة، لكنني أردت أن أرى المريض أولًا. شاب نحيل، يرقد في السرير، ليس باردًا، وليس ساخنًا، ليس عنده حُمى، له عينان فارغتان، وبدون قميص. اعتدل الشاب من تحت الفراش وتعلق بعنقي هامسًا لي في أذني «دعني أموت يا دكتور» تلفت حولي، لم يسمعه أحد، يقف الأب والأم صامتين ينتظران قراري. أحضرت الأخت مقعداً وضعت عليه الحقيبة. فتحتُ الحقيبة أبحث عن بعض الآلات، بينما ظل الشاب يقرصني من تحت السرير، حتى يُذَكِّرني برغبته. أمسكتُ بجفت، فحصته في ضوء شمعة، ثم وضعته ثانيةً. كنتُ في حالة ضيق، ففي مثل هذه الحالات نحتاج لمساعدة الآلهة، كي ترسل لك الحصان الذي تحتاجه، وترسل بحصان آخر حتى يختصر الوقت، وتتبرع بسخاء بسائس للخيول الآن أتذكر روزا، ماذا عليّ أن أفعل، كيف لي أن أنقذها، كيف أخلصها من سائس الخيول هذا، وبيني وبينها عشر أميال، وخيول لا يمكنني التحكم فيها تجر عربتي؟ هذه الخيول التي فكتْ السيور بشكلٍ ما، وكسرتْ النافذة من الخارج، لا أعرف كيف أدخل كل منهما رأسه من النافذة، وراحا

يتجولان بنظراتهم في الغرفة ويراقبان المريض وسط صرخات الأسرة. من الأفضل أن أعود فورًا، هكذا قلت لنفسي، كما لو أن الخيول تدفعني لذلك، لكن عليّ أن أتحمل؛ فالأخت التي تعتقد أنها خدرتني بالدفء، أخذت مني المعطف الفرو ووضعته جانبًا. ثم صبوا لي كأسًا من الروم، خبط الأب على كتفي بثقة وود، فقد سلَّم ابنه لي. هززتُ رأسي رافضًا، بسبب إصرار العجوز الذي أزعجني وأفقدني الرغبة في الشرب. تقف الأم بجوار السرير وتحاول التودد لي، فاستسلمت لها، بينما تصهل الخيول بصوتٍ عالٍ يهز الغرفة، وضعتُ رأسي على صدر الشاب الذي كان يرتجف تحت لحيتي المبللة. تأكدتُ مما كنت أعرف: الشاب سليم تمامًا، مجرد بعض الاضطرابات الدموية الخفيفة، نتيجة اهتمام الأم الزائد، وكميات القهوة المبالغ فيها التي تغرقه بها، لكنه بشكلٍ عام سليم، يحتاج لدفعة بسيطة لينهض من السرير. أنا لست مُصلحًا للكون، سأتركه راقدًا في سريره. فأنا في نهاية الأمر، لست إلا موظفًا في الدائرة وأقوم بواجبي على أكمل وجه، بل أكثر مما يجب، ورغم ضآلة مرتبي، إلا أنني كريم، أعالج الفقراء دائمًا بلا مقابل. لكنني يجب أن أهتم بروزا، وربما يكون الشاب على حق، فأنا أيضًا أريد أن أموت. ماذا أفعل هنا في هذا الشتاء الذي لا نهاية له! لقد مات حصاني، ولا أحد في القرية يقرضني حصانه. وفي حظيرة الخنازير وجدتُ حظي، فلو أنني لم أجد الخيول صدفة هناك، لكان عليّ أن أسرج الخنازير في العربة. هكذا هو الوضع. أهز رأسي للأسرة. هم لا يعرفون الوضع على حقيقته، ولو أنهم عرفوا لما صَدَّقوا. كتابة

الروشتات عملية سهلة، لكن التفاهم مع البشر عملية شديدة الصعوبة والتعقيد. هنا انتهت الزيارة، لقد تسببوا في ازعاجي ثانيةً دون مبرر، لكنني تعودتُ على ذلك. هُم وجرس منزلي الليلي، الدائرة كلها تزعجني، لكنني هذه المرة عليّ أن أهتم بروزا، تلك الفتاة الجميلة، التي تعيش معي في المنزل، والتي لم أعرها اهتمامًا كافيًا، طوال تلك السنوات تضحية كبيرة، يجب أن أجد طريقة ما تساعدني على التخلص من هذه الأسرة التي لن تُرجع لي روزا بأية حال. وعندما أغلقتُ حقيبتي وأمسكتُ بمعطفي الفرو، وجدتُ الأسرة كلها واقفة في مواجهتي، الأب يتشمم كأس الروم في يده، الأم غير مقتنعة ماذا ينتظر الناس إذن؟ تضغط على شفتيها من الغيظ وعيناها مليئتان بالدموع، بينما الأخت تمسك بمنشفة غارقة في الدم، مما جعلني على استعداد في هذه الظروف أن أقول: إن الشاب مريض بالفعل. ذهبتُ تجاهه، ابتسم الشاب ابتسامة عريضة، كما لو أنني قدمت له هدية نادرة الآن تصهل الخيول من جديد، مما عمل على تخفيف عملية فحص الشاب، وجدتها: الشاب مريض فعلًا. على جانبه الأيمن، في منطقة الخصر أعلى الفخذ، يوجد جرح كبير غائر ورديّ اللون بدرجات متعددة، فعمق الجرح وردي غامق، بينما يخفّ لونه تدريجيًا في اتجاه الحواف، والجرح نفسه ملئ بحبيبات صغيرة، تغطيه طبقة غير منتظمة من الدم المتجلط، مفتوح كما لو أنه فوهة منجم. وعند الاقتراب منه، تزداد الصورة تعقيداً. فمن يمكنه أن يرى ذلك دون أن يُصاب بالغثيان؟ ديدان، ديدان بطول وسمك إصبعي الخنصر، وردية اللون، يتناثر حولها

الدم، تتعلق بقاع الجرح وتتقلب في الضوء برؤوسها الصغيرة البيضاء وأرجلها العديدة. مسكين أيها الشاب، لا أحد يمكنه مساعدتك. لقد وجدت جرحك الكبير، تلك الوردة التي في جانبك. ستكون فيها نهايتك. كانت الأسرة مسرورة وهي تراقبني مُنهمك في العمل؛ الأخت تقول للأم، والأم تقول للأب، والأب يقول للجيران، الذين يتوافدون من الباب مع ضوء القمر، ويقفون على أطراف أقدامهم، فاردين أذرعتهم حتى لا يفقدوا توازنهم. «هل ستنقذني؟» همس الشاب وهو يجهش بالبكاء، مأخوذًا بزخم الحياة يتأجج في جرحه. هكذا هُم الناس في منطقتنا. يطلبون المستحيل من الطبيب، دائمًا. لقد فقدوا المعتقدات القديمة، وجلس القس في منزله يرتق أثوابه القديمة، الثوب تلو الآخر، وعلى الطبيب أن يقوم بكل شيء بيديه.

وهكذا، قدمتُ نفسي لكي أُستهلك في أهدافكم المقدسة، استسلمتُ، ماذا أريد أفضل من ذلك، كطبيب أرياف عجوز سرقوا منه شَغَّالته! وجاءوا: الأسرة وعجائز القرية، نزعوا عني ملابسي. أمام الباب وقف مُدرس يقود كورس أطفال المدرسة وهم يغنون أغنية بسيطة اللحن:

ـ انزعوا ملابسه، حتى يشفى ـ إن لم يشف فاقتلوه ـ إنه مجرد طبيب، إنه مجرد طبيب أصبحتُ عاريًا تمامًا، وضعتُ إصبعي على ذقني وأدرتُ رأسي أتأمل الناس وأنا مأخوذ مندهش، أفكر فيما يحدث. رغم أن ذلك لا يُغَيِّر من شيء، أمسكوا برأسي وبرجلي ووضعوني في السرير، ناحية الحائط، في مواجهة الجرح. ثم خرجوا جميعهم من الغرفة، وأغلقوا الباب. توقف الغناء، غطت السحب القمر، الفراش

يلفني يُدفئني، رؤوس الخيل تتراقص ظلالها أمام النوافذ. «أتعرف؟» سمعته يهمس في أذني «ثقتي فيك ضعيفة جداً، لقد تحررت أنت أيضًا، فأنت نفسك لا تقدر أن تقف على قدميك. بدلًا من أن تساعدني، تضايقني في فراش الموت. أتمنى أن أقلع لك عينيك» «معك الحق» قلت له «إنها إهانة بحق. عار حقيقي. ما أنا إلا مجرد طبيب، ماذا عليّ أن أفعل؟ صَدّقني، لن يكون ذلك سهلًا بالنسبة لي أيضًا.» «أيكفيني هذا الاعتذار؟ أغلب الظن أنه يجب عليّ ذلك. عليّ دائمًا أن أكتفي بما هو قائم. بجرح جميل جئت الى العالم. كان ذلك هو زادي كله. كان ذلك هو كل ما أحتاجه» «صديقي الصغير» قلت له «خطؤك: أنك محدود الأفق. أنا الذي درت في غرف الكثير من المرضى، هنا وهناك، في المنطقة كلها، أقول لك: جرحك ليس سيئًا لهذه الدرجة. بضربتين من الفأس في الزاوية الحادة يحدث ذلك. يفعل ذلك الكثيرون، يُقَدِّم كل منهم جنبه، ويسمعون بالكاد ضربة الفأس في الغابة، ويصمتون عندما تقترب منهم. هل يحدث ذلك فعلًا؟ أم أنك تُخرف من الحمى؟»، «هذا يحدث بالفعل. خذها كلمة شرف من طبيب الأرياف الرسمي. صَدّقني» صَدّقه وصمتْ. والآن حان الوقت لأن أفكر في إنقاذ نفسي من الموقف الذي أنا فيه. الخيول واقفة في مكانها لا تزال. جمعتُ ملابسي ومعطفي وحقيبتي، لم أُرد أن أُضَيّع الوقت في ارتداء الملابس. انطلقت الخيول مسرعة، ووددتُ لو أنني قفزتُ من هذا الفراش إلى فراشي مباشرةً. تراجع أحد الخيول برأسه من النافذة. ألقيتُ بالأشياء في العربة، وقع المعطف بعيداً، علق كمه

بأحد خطاطيف العربة، لا بأس. قفزتُ على الحصان. فككتُ السيور، ربطتُ الحصان بالحصان الآخر، ثم بالعربة خلفهما بسرعة، المعطف يتجرجر في الجليد. صحتُ «شي! انطلقا!»، لكنهما لم ينطلقا كما ينبغي، بل سارا يَتَلَكَآن ببطء في الصحراء الجليدية كرجلين عجوزين. خلفنا كانت تتردد ما زالت لفترة طويلة أصوات الأطفال وهم يغنون أغنية جديدة خاطئة:

ابتهجوا أيها المرضى!

فالطبيب يرقد معكم في الفراش!

لم يحدث أنني عدتُ قط بهذه الحالة إلى منزلي؛ لقد فقدتُ عيادتي المزدهرة، وسوف يسرقني من يحل محلي، بدون فائدة، فهو لا يمكنه أن يأخذ مكاني. في البيت يسب سائس الخيول المقرف ويلعن، كانت روزا ضحيته، لا أريد أن أفكر في ذلك. عار تمامًا، أخوض أنا الرجل العجوز، وسط جليد هذا العصر التعس، بعربة أرضية، تجرها خيول غير أرضية. ما زال معطفي مُعَلقًا بالعربة، لا يمكنني أن أصل إليه، ولا أحد من أشباح مرضاي المتحركة يحاول أن يساعدني. خيانة! خيانة!

إنني تبعت الجرس الليلي هذه المرة مستحيل أن تنصلح الأمور.

20

في الحلبة

لو أن امرأة هزيلة شاحبة تسعل بشكل متقطع وهي تمتطي ظهر حصان يدور بها وسط الحلبة أمام جمهور لا يتعب ولا يمل، تحت رحمة مدير فظ، يفرقع بسوطه في الهواء بلا توقف، الحصان يدور ويدور بها في دوائر لا نهاية لها، وبينما تتأوه المرأة من الألم، توزع القبلات على الجمهور، تحاول التوازن وتواصل اللعبة وسط صخب الموسيقى التي لا تتوقف، وصوت أجهزة التهوية المتواصل المؤدي إلى مستقبل تعس، وتصفيق الأيدي الذي ما إن يتوقف حتى يعود، والذي هو في حقيقته ليس سوى خبطات مطارق في الرأس عندئذٍ، ربما يُسارع شاب من وسط الجمهور، مُهرولًا على درجات السلالم وسط الممرات الطويلة، مُندفعًا إلى الحلبة وسط ضجيج أبواق الأوركسترا التي تتكيف دائمًا مع الموقف وتتلاءم، صائحًا: أوقفوا ذلك!

وحيث إن الأمر ليس كذلك تظهر فجأةً امرأة جميلة في رداء أحمر، وهي تتبختر بين الستارة التي يفتحها لها الخدم المتباهين بزيهم الرسمي، يتتبعها المدير بنظرات كلها شبق وإعجاب، يقف في مُواجهتها مُتخذًا وضعًا حيوانيًّا، يأخذ نفسًا طويلًا، ثم يرفعها بحنان وحذر على ظهر الحصان الأشهب، كما لو أنها حفيدته الغالية المحبوبة وهي تستعد لرحلة خطرة، يتردد في أن يُعطي بسوطه إشارة البدء، يتغلب على نفسه في النهاية، ويُعطي الإشارة بفرقعة عالية من سوطه،

يجري بفم مفتوح لاهثًا بجوار الحصان، مُتابعًا قفزات المرأة بنظراته الملتهبة، مُنبهرًا بمهارتها الخارقة، مُحَذّرًا إياها باللغة الإنجليزية، بينما يغضب الفرسان الآخرون، من هذا الاهتمام الزائد عن الحد بتلك المرأة، ويأمرون الأوركسترا وهي في ذروتها عند لحظة قفزة الموت، بأن تتوقف.

في النهاية، ينزل المدير الصغيرة من على الحصان، يُقَبِّلها على وجنتيها، غير عابئ بصياح الجمهور وتهليله، بينما تقف هي على أطراف قدميها، مُستندة عليه، وسط الغبار المتناثر، مُلقية برأسها للخلف، فاتحة ذراعيها، تود أن تحتضن جمهور السيرك كله وتوزع سعادتها عليهم جميعًا.

وحيث إن الأمر هو كذلك انكفأ الشاب بوجهه على الحاجز الحديدي، واستغرق في المارش الأخير كما لو أنه في كابوس ثقيل، وبكى.

21

أمام القانون

أمام القانون يقف حارس بوابة القانون. أمام هذه البوابة يقف فلاح قروي يتوسل إلى الحارس أن يُدْخِله إلى القانون. أخبره الحارس أنه غير مسموح الآن بأن يُدْخِله. فكر الرجل ثم سأله إن كان سيسمح له بالدخول بعد ذلك. «هذا محتمل» أجاب حارس البوابة «لكن ليس الآن» ولأن بوابة القانون دائمًا مفتوحة، انتحى الحارس جانبًا، فانحنى الرجل لكي يُلقي نظرةً من البوابة على الداخل. عندما لاحظ الحارس ذلك ضحك قائلًا: «لو أن ذلك يهمك لهذه الدرجة، فلتحاول إذن أن تدخل رغم قرار المنع، وليكن في معلومك أنني قوي، وأنني أصغر الحرَّاس هنا، وأنه عند كل قاعة في الداخل، يقف حارس، كل حارس أقوى من الآخر. فمجرد رؤية الحارس الثالث لا يمكنني أنا نفسي أن أتحملها» لم يتوقع القروي كل هذه الصعوبات، فالقانون يجب أن يكون في متناول كل فرد وفي أي وقت، هكذا قال لنفسه، لكنه عندما تأمل الحارس بمعطفه الفرو السميك وبأنفه الضخم المدبب ولحيته التترية الطويلة النحيلة السوداء، قرر أنه من الأفضل أن ينتظر حتى يُؤذن له بالدخول. أحضر له الحارس مقعدًا صغيرًا واطئًا بدون ظهر، وسمح له بأن يجلس عليه بجوار البوابة. هناك ظل جالسًا لأيام ولسنوات. حاول الدخول أكثر من مرة وأرهق الحارس برجاءاته. وكثيرًا ما كان الحارس يسأله باقتضاب عن قريته وعن أشياء أخرى عديدة. كانت

أسئلة دون أي اهتمام حقيقي، مثل تلك الأسئلة التي يطرحها السادة الكبار، وفي النهاية يقول له دائمًا، إنه لا يمكنه بعد أن يسمح له بالدخول. وقد حاول الرجل أن يُقَدِّم للحارس بعضًا من الأشياء الكثيرة التي أحضرها معه في رحلته الطويلة، بل وعرض عليه بعض الأشياء القيمة الغالية الثمن على سبيل الرشوة. كان الحارس يأخذها جميعها ويقول له:

«إنني أقبل هذه الأشياء فقط، حتى لا تعتقد بأنك قصرت في حق نفسك» وطوال هذه السنوات، كان الرجل يراقب الحارس بلا توقف. لقد نسى الحرَّاس الآخرين وكان يرى في هذا الحارس الأول، العقبة الأساسية للدخول إلى القانون. في السنوات الأولى كان يلعن الصدفة التعسة بصوتٍ عالٍ وبدون حذر، وبمرور الزمن عندما تقدم به العمر وصار عجوزًا، كان يُزمجر لنفسه ويُهمهم بأصواتٍ مُبهمة غير مفهومة. أصبح أحمق، لسنوات طويلة، ظل يدرس فيها الحارس بالتفصيل؛ حتى البراغيث التي في ياقة معطفه، طلب منها أن تساعده وتتوسط له عنده. في النهاية ضعف نظر الرجل، وما عاد يعرف ما إذا كان الظلام قد حَلَّ أو أن عينيه لم تعد تُمَيِّز الأشياء بوضوح. لكنه يرى على طول الخط بريقًا يتلألأ في الظلام آتيًا من أبواب القانون. الآن لم يعد أمامه الكثير ليعيشه. قبل موته، تجمعت في رأسه كل خبراته طوال ذلك الوقت وتركَّزت في سؤال واحد، لم يطرحه بعد على حارس البوابة. أشار له بيده، فلم يعد قادرًا على أن ينهض بجسمه المتصلب المهدود. كان على الحارس أن ينحني كثيرًا إلى أسفل حتى يمكنه أن يسمعه،

وهكذا تَغَيَّرت الأوضاع لصالح الرجل «ماذا تريد أن تعرف أكثر من ذلك؟» سأله الحارس «أنت لا تكتفي» «الكل ما زال يلهث وراء القانون» قال الرجل «لكن ما لفت نظري، أنه طوال كل هذه السنوات، لم يطلب أحد الدخول إلى القانون، سواي أنا؟» لاحظ الحارس أن الرجل يُشرف على نهايته، واضطر أن يصرخ بأعلى صوته حتى يمكنه أن يسمعه: «هنا لا يمكن لأحد قط أن يدخل. فهذا الباب كان مُخصصًا لك وحدك. سأذهب الآن لأغلقه»

22

أحد عشر ابنًا

لي أحد عشر ابنًا.

الابن الأول، دميم الخلقة لكنه جاد وذكي. ومع ذلك، فأنا لا أُقَدِّره كما ينبغي، رغم حبي له كبقية الأبناء. يتراءى لي أن تفكيره بسيط للغاية. فهو لا ينظر إلى اليمين ولا إلى اليسار، كما أنه لا ينظر حتى إلى الأمام. إنه يلف ويدور حول نفسه في دائرة فكره الضيقة المحدودة.

الابن الثاني، جميل الطلعة، ممشوق القوام، سليم البنية، يُبهرك إذا ما رأيته في وضع المبارز. له خبرة واسعة بالعالم، فقد رأى الكثير في أسفاره. لذا فإن الطبيعة تثق في التحاور معه أكثر مما تثق في الآخرين، الذين لم يُفارقوا الوطن. لم تكن أسفاره وحدها هي مصدر تلك الثقة، بل كان السبب المباشر هو تفرد ذلك الابن، ذلك التفرد الذي يعترف به الجميع. فعندما يُحَاوِل أحدهم أن يُقَلِّد قفزاته الفنية في الماء، تسعفه الرغبة والشجاعة بالكاد لحد حافة منصة القفز، ثم يجلس هناك، ويرفع ذراعيه معتذرًا عن القفز.

كان عليّ أن أكون فخورًا وسعيدًا بمثل هذا الابن، لكن رغم ذلك كله؛ فعلاقتنا ليست طيبة كما ينبغي. عينه اليسرى أصغر قليلًا من عينه اليمنى، وبها ارتعاشه خفيفة تضطره لأن يغمضها بين الحين والآخر. مجرد عيب بسيط، لكنه يزيد من حدة ملامح وجهه، وبحكم طبيعته

المنطوية، فلا أحد يستنكر هذه العين الصغيرة المرتعشة، حتى أنا، أبوه. لا يُزعجني هذا العيب الجسدي، لكن ما يحز في نفسي حقيقةً، هو ذلك الخلل البسيط في عقله. سم خاطئ ما يجري في دمه، عجز من نوع ما، قصور ما، ذلك القصور الذي أراه مُكملًا لطبيعته التي أعرفها وحدي. ذلك القصور الذي يؤكد أنه ابني الحقيقي، فهذا العيب موجود في جميع أفراد أسرتنا، لكنه واضح بشكل مُلفت في هذا الابن.

الابن الثالث، جميل هو كذلك، لكنه ليس ذلك النوع من الجَمَال الذي أحبه، إنه جَمَال المطربين: الشفتان الممتلئتان، العينان الحالمتان، الرأس التي تحتاج الى ديكور خلفها حتى تُعطي أثرًا كافيًا، الصدر المنتفخ بغير استواء، الأيدي المتشنجة، التي سرعان ما تفتر، الأرجل المدللة، العاجزة عن الحمل. بالإضافة إلى أن صوته ليس بممتلئ، يخدع للحظة، فيجعلك تنصت إليه، ثم يخبو في اللحظة التالية. وبالرغم من أن تلك الصفات تُغريني بأن أتفاخر به، إلا أنني أتجنب ذلك، وهو لا يُبدي أي اعتراض من ناحيته، ليس لإدراكه نواقصه وعيوبه، بل لبراءته. فهو يشعر بأنه غريب في عصرنا هذا، كما لو أنه فرد من أفراد أسرتي، وفي الوقت نفسه يخص أسرة أخرى، فقدها إلى الأبد. مهموم غالبًا، ولا شيء قادر على أن يُبهجه.

أما ابني الرابع، فهو اجتماعي جدًا، ابن حقيقي لعصره، يتعامل بمرونة مع الجميع، يقف معهم على أرضية مشتركة، كلٌّ يحاول أن يتقرب إليه. وربما بسبب هذا الاتفاق العام، تكتسب طبيعته بعض الخفة، وتصير حركته أكثر حرية، وأحكامه سوية. كثيرًا ما يرغب المرء في

ترديد أقواله، بعضها على الأقل، فهو ككل يعاني من خفةٍ زائدة. إنه يُدهشك، فهو أشبه بشخص يقفز برشاقة عصفور يشق الهواء، وما يلبث أن يسقط في ترابٍ مُوحش، في العدم. مثل هذه الأفكار تُقززني من رؤية هذا الابن.

الابن الخامس طيب ومحبوب، أقل كثيرًا مما تتوقع منه، وهو تافه لدرجة، أنك تشعر في حضرته أنك تقريبًا وحدك، لكنه يتمتع بسمعة طيبة. وإذا سألني أحد، كيف حدث ذلك، سوف أعجز عن الإجابة بالتأكيد. فربما تنتشر البراءة في يُسر وسهولة خلال صخب العناصر في هذا العالم، ولقد كان بريئًا، ربما بريئًا أكثر من اللازم. ودودًا مع الجميع، ربما ودودًا أكثر من اللازم. غير أنني لم أكن أحب أن يمتدحه شخص أمامي. رغم أنه على المرء أن يأخذ المديح ببساطة، عندما يكون الشخص يستحق المدح والثناء، مثل ابني.

أما ابني السادس، فيبدو من النظرة الأولى، أنه أكثر أبنائي عُمقًا في التفكير. فاقد الأمل، ومع ذلك كثير الكلام. لذلك، ليس من السهل التعامل معه. عندما يُصيبه سوء، يغرق في حُزن لا حد له. يحافظ على وزنه الثقيل رغم كثرة الكلام. لكنه يتمتع بأريحية إنكار الذات بشكل واضح. يعاني كثيرًا من كثرة التفكير، طول النهار كما في الأحلام. صحته بشكل عام جيدة، لكنه أحيانًا ما يُصاب بدوار خفيف، خاصةً مع اقتراب الغروب لكنه لا يحتاج لمساعدة، فهو عادةً لا يسقط. ربما يرجع ذلك إلى تكوينه الجسدي، فهو كبير الحجم جدًا بالنسبة لسنه،

ممـا يجعلـه ليس جميلًا بشـكل عـام، رغم الجَمَـال اللافت لبعض أعضاءه، كيديه وقدميه.

كمـا أن جبهتـه أيضًـا ليسـت جميلـة، سـواء في جلـدها المتجعـد أو في تكوين عظامها نفسه.

الابن السابع، يخصني أكثر من كل أبنائي الآخرين. العالم لا يُقَدِّره حـق قدره، ولا يفهم طريقته الخاصة في المزاح. إنني لا أبالغ في تقديري له، فأنا أعلم أنه ضعيف بما فيه الكفاية. لو أن خطأ العالم الوحيد، هو أنه لا يُقَدِّره حـق قـدره، لكـان العـالم بلا عيب. لا أود أن أفقـد هـذا الابن في عائلتي، رغم ما يُثيره من قلق وازعاج، واحترام زائد للتقاليد، الـتي يـرى فيها كُلًّا مُحكمًا غير قابـل للجـدل هـذا مـا يـتراءى لي. بهـذا الكـل، لا يعـرف هـو نفسـه كيـف يبـدأ، ويعجـز أن يـدفع عجلـة المسـتقبل، رغم فطرته المتفائلة النشـطة. تمـنيتُ لـو أنـه أنجب أطفـالًا كثـيرين، وأنجب أطفاله أطفالًا أُخرى. لكن يبدو للأسف، أن هذه الرغبة لن تتحقق، فهـو مُكتفٍ بذاته أفهم ذلـك، لكنـه لا يُعجبـني. هـذا الاكتفـاء الـذاتي يُـدين العالم بشدة، ويدفعه للتجول وحيدًا، غير مهتم بالفتيـات، ومـع ذلـك لا يفقد مرحه أبدًا.

أما ابني الثامن فهو ابن الآلام، وأنـا لا أعـرف حقيقـةً سببًا لـذلك. ينظـر إليّ نظرات غريبة، وأشعر تجاهه برباط أبـوي مـتين. لقـد أصـلح الـزمن كثيرًا، أول الأمر، كانت تنتابني رعشة كلمـا فكـرت فيـه. إنـه يـذهب في الطريق الذي اختاره لنفسه. أنهى كل ما يربط بيني وبينه. بإرادته الصـلبة

وجسمه الرياضي النحيل سوف يحقق كل ما يريد. كانت ساقاه ضعيفتان وهو صبي، وربما قد تحسنتا مع مرور الوقت. كثيرًا ما تتملكني الرغبة في أن أسترجعه ثانيةً، في أن أسأله كيف حاله وكيف الحياة معه، ولماذا يبتعد هكذا عن أبيه، وماذا ينوي عمله حقًا لكن العلاقة بيننا تطورت ووصلت إلى هذا الشكل، كما أن كثيرًا من الوقت قد مضى. فلتبق إذن العلاقة كما هي، وليبق الوضع على ما هو عليه. لقد سمعت، أنه الوحيد من أبنائي الذي يُطلق لحيته. هذا ليس جميلًا بالنسبة لرجل صغير الحجم مثله.

ابني التاسع شديد الوسامة، يفتن النساء بنظراته الساحرة، لدرجة أنه يفتنني أنا شخصيًّا، أنا الذي يعرف أن هذا اللمعان الخارق مجرد قشرة هشة تتكسر عند أول لمسة. والغريب عند هذا الابن، أنه لا يقصد قط إغراء النساء ولا يخطر له على بال؛ فهو يكتفي كليةً بأن يظل طوال حياته راقدًا على الكنبة، مُحدقًا مُحملقًا في سقف الحجرة، بل إنه يُفَضِّل أن يغمض عينيه ويُتْرَك في هدوء. وعندما يكون في هذا الوضع الذي يُفَضِّله، يتكلم بحماس شديد وبشكلٍ واضحٍ ومُرَكَّز، في حدود ضيقة فقط، ما إن يتجاوزها وهذا ما لا يمكن تجنبه حتى يصير كلامه فارغًا أجوفَ. في تلك اللحظة، يود المرء أن يُشير إليه بالصمت، لو أنه لاحظ ذلك بعيونه المثقلة بالنعاس.

أما ابني العاشر، فيمكن أن يُقال عنه إنه شخصية غير مخلصة. لا أود أن أوافق بإطلاق على هذا العيب، كما أنه لا يمكنني أن أؤكد ذلك. ولكن من يرى هيبته التي تفوق سنه بكثير، بملابسه الأنيقة، وقبعته السوداء

القديمـة، النظيفـة للغايـة، بـذلك الوجـه الصـارم ذي الـذقن البـارزة، والجفون المنتفخة، ثم من يرى إصبعيه أمـام فمـه وهـو يتكلم يظن أنـه أمام منافق كبير. والآن، فلتسمعه مرةً وهـو يتكلم! بفهمٍ وتـروٍ وتحديـد، مُقاطعًا بأسئلة مُحرجة، وبتوافق مدهش مع العالم ككل، توافق يسـتلزم توتر الجسم وتصلب الرقبة. وقد اجتذب بطريقة حديثه تلك الكثيرين ممن يعتقدون أنهم أذكياء، رغم رفضهم لمظهره، بينما هناك آخـرون لم يتوقفوا عند طريقة أداءه، ويؤكدون أنه منافق كبير. وأنـا كـأب، لا أريـد أن أفصل في الأمر، لكنني أعترف أن الفئة الأخيرة جديرة بـالاحترام عن الفئة الأولى.

أما ابني الحادي عشر، فهو رقيق للغاية. هو أضعف أبنـائي جميعًـا. لكن ضـعفه هـذا مُضـلل بالفعـل، فأحيانًـا مـا يكـون قويًّا محـددًا، لكنـه من المؤكد أن الضعف أساسي في تكوينه بشكل أو بآخر. إنـه ليس بـذلك الضعف الذي نخجل منه، لكنه ذلـك الضـعف الـذي نـراه حولنـا، مثـل ذلـك الضـعف الـذي ينتابنـا قبـل الطـيران؛ حيث يغلب الاهـتزاز وعـدم الثبات وعدم التحديد. ضعف من هذا النوع أراه عند ابني. هذا لا يسعد الأب بالطبع، فمثل هذه الصفات تعني تدهور العائلة وانقراضها.

أحيانًا ينظر إليّ، وكأنه يقول: «سوف آخذك معي يا أبي» سـاعتها أفكـر: «أنت آخر من أثق فيه»؛ فتبدو نظراته قائلة: «أطمـع في أن أكـون الأخـير على الأقل»

هؤلاء هم أبنائي الأحد عشر.

23
جريمة قتل أخوية

ثبت أن جريمة القتل تمت بالشكل التالي:

«شمار» القاتل كان يقف الساعة التاسعة مساء في ليلة مقمرة صافية، على ناصية الشارع منتظرًا «فيزه» الضحية عند خروجه من الممر حيث مكتب عمله، وهو مُتجه إلى منزله.

رغم هواء الليل البارد، كان «شمار» يرتدي قميصًا خفيفًا أزرق اللون، وكان بنطلونه مفتوح الزراير. لم يكن يشعر بالبرودة، فقد كان في حركة مستمرة. كان سلاحه في الجريمة يتكون من سنجة وسكين مطبخ يمسكهما وهو في حالة استعداد. راقب لمعان السكين في ضوء القمر؛ فرأى أنها لم تكن حادة بشكلٍ كاف. قام بسنها على حافة الرصيف الأسفلتية؛ فصدرت عنها شرارات تناثرت في الجو، ثم رفع إحدى رجليه، وانحنى يمرر السكين عدة مرات على نعل حذاءه، كما لو أنه يعزف على الكمان، وهو ينصت تجاه الممر للأصوات المقبلة التي ينتظرها قدرها.

لماذا على «بريفاته بالاس» أن يتحمل كلّ ذلك، وهو يُراقب عن قُرب من نافذته في الطابق الثاني؟ ربما طبيعة الإنسان في المعرفة والبحث عن الحقيقة! رافعًا ياقته، رابطًا بنطلونه حول جسده السمين، هازًا رأسه، يُراقب بعناية كل ما يحدث.

بعد خمسة منازل في مواجهة منزله، تقف «فراو فيزه»، واضعة فرو الثعلب على قميص نومها، في انتظار زوجها الذي تأخر اليوم كثيرًا على غير العادة. أخيرًا، يسمع صوت جرس باب مكتب «فيزه» وهو يُغلق، عالٍ أكثر من المألوف، يرن وسط سكون ليل المدينة واصلًا إلى السماء، يظهر «فيزه» عامل الوردية الليلية النشط، يمشي في الممر، لا يمكن رؤيته، لولا صوت جرس الباب، يخرج من المبنى، يمشي بخطوات متزنة يعرفها جيدًا أسفلت الشارع. انحنى «بالاس» بشدة إلى الأمام حتى كاد يسقط من النافذة، كي لا يفوته المشهد، فهو يريد أن يشاهد كل ما يحدث. أغلقت «فراو فيزه» النافذة، بعد أن اطمأنت لسماعها جرس الباب.

نزل «شمار» على ركبتيه، ضغط بيديه ووجهه على الحائط البارد، لم يكن أمامه في تلك اللحظة بديل آخر، فقد كان يلتهب من التوتر.

عند حدود تقاطع الممرين وقف «فيزه» مُستندًا على عصاه. لحظة انتشاء أثارتها الليلة المقمرة، باختلاط ألوان سماءها.. الأزرق الغامق مع اللون الذهبي. كان يشاهدها دون أن يدري، ودون أن يدري مسح شعره بيده تحت القبعة، لم يكن هناك أي إشارة على ما سوف يأتي به المستقبل المتعجِّل، كان كل شيء في مكانه الغامض غير المعقول. منطقي جدًا أن يتقدم «فيزه»، لكنه تقدم في اتجاه سكين «شمار» «فيزه»! صرخ «شمار» وهو واقف على أطراف قدميه، راجعًا بذراعه للخلف، غارزًا السكين بعنف. «فيزه!» تنتظره «جوليا» دون جدوى!

طعنه «شمار» في الرقبة على اليمين، ثم على اليسار، والثالثة عميقًا في البطن. صدر من «فيزه» صوت أشبه بصوت الفئران عندما تُشق بطونها.

«انتهى» قالها «شمار» وألقى بالسكين الملوثة بالدم عند مدخل البيت المقابل. «نشوة القتل» راحة الضمير، التخفف، التحليق، الانسياب مع تدفق الدم الغريب وهو يسيل! «فيزه»، الشبح الليلي العجوز، الصديق، رفيق المقهى والبيرة، يتسرّب إلى قاع الممر المظلم. لماذا لم تكن ببساطة بالونه مليئة بالدم، لأمكنني عندئذٍ أن أجلس عليك وأفرقعك، فتختفي مرةً واحدةً. لن تتحقق كل الرغبات، لن تتفتح زهرات أحلامنا كلها، هنا ترقد بقاياك الثقيلة، التي لا يمكن لأحد الاقتراب منها.

ماذا يعني ذلك السؤال الصامت الذي تطرحه علينا؟

«بالاس»، واقف على باب منزله، نادى بكل المرارة التي يشعر بها داخله.

«شمار! شمار! لقد شاهدت كل شيء، لم يفتني أي شيء» نظر كل منهما للآخر مُتفحّصًا. شعر «بالاس» بالارتياح، بينما «شمار» لم يصل إلى نتيجة.

اندفعت «فراو فيزه» بوجهها الذي أصابه العجز فجأةً من الانزعاج، اندفعت تجري وحولها عدد غفير من البشر. انزلق الفرو من على جسدها المغطى بقميص النوم، الذي كان يضم الزوجين مثل النجيلة على القبر.

«شمار»، تَحَمَّلَ بكل صعوبة تلك اللحظات الصعبة الرديئة، ضغط بفمه على كتف الحارس، بينما كان يقوده بخطوات خفيفة.

24

حلم

رأى «يوسف ك» في المنام أنه:

كـان اليـوم جميلًا، ورغب «يوسـف ك» أن يخـرج للتـنزه. مـا إن خطى خطوات قليلة، حتى وجد نفسه وسط المقابر، وسط طرق رديئة ملتويـة غير مُمَهّدة، لكنه كان يتنقل وسـطها برشـاقة وخفـة، كمـا لـو أنـه يـنزلق على مياه جارية. شـاهد عن بعـد قـبرًا حـديث البنـاء، فجذبـه هـذا القـبر بشكل خاص، مما جعله يسـرع تجاهـه ويتوقـف أمامـه. كـان يمكنـه أن يـرى القـبر بصـعوبة، فقـد كـانت تحجبـه رايـات كثـيرة ترفـرف بشـدة وتتلاطم مع بعضها البعض، دون أن يرى من يحملها، كما لـو أنـه كـان هناك احتفال كبير.

نظر في البعد، فرأى على امتداد الطريق قبرًا آخر يشبه ذلك القبر تمامًـا. قفز بسرعة على النجيلـة الـتي تُغطي جـزءًا من الطريـق، تـزحلقت قدمـه لعـدم انتظامهـا فـترنح وسـقط على ركبتيـه. خلـف القـبر يقـف رجلان يرفعان سويًّا إلى أعلى حجرًا من أحجار القبور، ما إن رأيـا «يوسـف ك» حتى ألقيا بالحجر على الأرض، فوقـف «ك» مُتحجـرًا في مكانـه. فجـأةً من خلف الشجيرات، ظهر رجل ثالث، رأى فيه «ك» مظهـر فنـان، فقـد كـان يرتـدي بنطلونـًا وقميصًـا مُـزَرَّرًا بشـكل مُهْمَـل، يضـع على رأسـه قلنسوة من القطيفة، ويمسك في يده بقلم رصـاص، يُخطـط بـه أشـكالًا وهمية في الهواء وهو يقترب نحوهم.

جلس الرجل عاليًا فوق الحجر وفي يده القلم الرصاص. كان الحجر مرتفعًا بما فيه الكفاية، فلم يكن عليه أن ينحني، فقط عليه أن يُحَاذر، فقد كان الحجر يفصله عن قبر آخر. وقف على أطراف قدميه واستند بيده اليسرى على سطح الحجر. وبمهارة حرفية، تمكن من أن يكتب بالقلم العادي حروفًا مُذَهَّبة، كتب: هنا يرقد..... كان كل حرف يبدو واضحًا بديعًا، محفورًا بعمق ومُغَطى بالذهب. وعندما انتهى من كتابة الكلمة الثانية، نظر الخطاط إلى «ك»، بينما كان «ك» يتابع باهتمام بالغ ما يكتب دون أن يهتم بالرجل، فلقد كان نظره مُثبتًا على الحجر. وبالفعل، أراد الرجل أن يُتابع الكتابة، لكن شيء ما كان يعوقه بشكل أو بآخر، توقف عن الكتابة واستدار ناحية «ك»، نظر «ك» إلى الفنان ولاحظ أن الرجل في حرج شديد، وأنه لا يقوى أن يبوح بالسبب. هنا اختفت حيويته السابقة، مما تسبب في أن يقع «ك» هو الآخر في حيرة واضطراب نظر كل منهما للآخر بارتباك، هناك بالقطع سوء تفاهم سخيف، لا يمكن التغلب عليه. فجأةً سُمِعَتْ أصوات قرع جرس صغير من فرقة موسيقى القبور، وأشار الفنان بيديه، فتوقفت الموسيقى لفترة، بعدها ابتدأتْ ثانيةً، ولكن بصوت خافت هذه المرة، ثم توقفت من تلقاء نفسها نهائيًّا، كما لو أنها كانت مجرد بروفة. كان «ك» في حالة من الأسف والحزن من أجل الفنان، وابتدأ في البكاء والنحيب مُغطيًا وجهه بيديه. انتظر الفنان إلى أن هدأ «ك»، وقرر أن يواصل الكتابة، فلم يكن هناك من مخرج. كان أول خط في الكلمة بالنسبة ل«ك» خلاصًا حقيقيًّا، بينما كان الفنان يكتبه وهو ممتعض، لم يكن الخط جميلًا،

وكان ينقصه الذهب، كان باهتًا، مهزوزًا، غير واثق، وكبير الحجم جدًا. كان الحرف هو: «ك» وبمجرد أن انتهى من كتابته، ضرب الفنان القبر بقدمه وهو مغتاظ، فتناثر التراب في الجو من حوله. عندئذٍ، فهم «ك» موقف الرجل، لم يكن هناك وقت للاعتذار، حفر «ك» الأرض بأصابعه، لم تكن هناك أية صعوبة، كما لو أن كل شيء كان جاهزًا ومُعَدًا من قبل، مجرد قشرة أرضية رقيقة، أزالها فانفتحت تحتها حفرة كبيرة ذات حيطان منحدرة، تقلب فيها «ك» على ظهره بنعومة، ثم سقط وغرق.

وبينما كان في الحفرة، رفع رأسه عاليًا من القاع، وكتب اسمه على القبر بشكل زخرفي بديع.

عند هذه اللحظة استيقظ «ك» مُندهشًا.

25

مقتطفات من أعمال كافكا غير المنشورة (1916–1918)

كان عليّ أن أهتم بذلك من قبل، كيف أتعامل مع هذه السلالم، وما هي علاقة الأشياء ببعضها البعض، وماذا على المرء أن يتوقع، وكيف عليّ أن أستقبلها. قلتُ لنفسي مُبَرِّرًا، لم تسمع قط بهذه السلالم من قبل، ففي الصحف والكتب ينتقدون باستمرار كل شيء، في كل مكان. لم تقرأ شيئًا عن هذه السلالم. قلتُ لنفسي، ربما لم أقرأ بدقة. فغالبًا ما تكون مُشتتًا، تترك مقاطع كاملة دون قراءة، وتكتفي بالعناوين، ربما كان هناك شيء ما عن السلالم، وأنت لم تلاحظه. والآن، تحتاج بشدة، ما لم تلاحظه من قبل. وقفتُ للحظة، وفكرتُ في صعوبة الموقف. أعتقد أنني تذكرت أنه من المحتمل، أنني قرأت ذات مرة في كتاب من كتب الأطفال عن سلالم تشبه هذه السلالم. لم يكن هناك الكثير لقراءته، مجرد ذِكْر عابر لوجود السلالم، الشيء الذي لم يكن له أية فائدة على الإطلاق بالنسبة لي.

عندما وقع الفأر الصغير الذي كان محبوبًا بشكل خاص في عالم الفئران عندما وقع ذات ليلة في المصيدة، وصرخ صرخة عالية مُضحيًّا بحياته من أجل قطعة دهن، انزعجت جميع فئران المنطقة في جحورها وهي تهتز وترتعش، تنظر لبعضها البعض بعيون مرتبكة، بينما تحتك

ذيولها بالأرض. توافدوا مُترددين، يتعثر بعضهم ببعض ويصطدم كُلٌّ بالآخر، في طريقهم إلى مكان الموت. هناك؛ حيث يرقد الفأر الصغير الجميل المحبوب من الجميع، وأسلاك المصيدة الحديدية منغرزة في رقبته، وساقه النحيلة الوردية مهروسة تمامًا. بحلقوا في الجسد المنهك الضعيف، الذي لم يكن يرغب في غير أن يستمتع بقطعة صغيرة من الدهن. وعلى جانب المشهد، وقف الوالدان بعيداً وحدهما، يتأملان بقايا الطفل.

[...]

بعد تعيين الأمير الشاب في الحكومة الجديدة بمدة قصيرة، وقبل أن يُكمل دراسته لأنظمة العفو، ذهب ليزور سجنًا ما. في السجن كما يتوقع عادة سأل الأمير عن السجين الذي قضى أطول مدة في هذا السجن. كان رجلًا قتل زوجته، وحُكِمَ عليه بالسجن مدى الحياة، خلفه الآن اثنان وثلاثون عامًا قضاها في هذا السجن.

رغب الأمير في أن يراه، اقتيد إلى الزنزانة، وعلى سبيل الاحتياط، قيدوا السجين يومها بالسلاسل.

عند عودتي للبيت في المساء، وجدتُ وسط غرفتي بيضة كبيرة الحجم، كبيرة الحجم جداً، تقترب في حجمها ببطنها المنتفخة إلى مستوى الترابيزة. كانت تهتز بهدوء في مكانها. أثار ذلك فضولي؛ فأحضرتُ سكينًا، وأخذتها بين ساقيّ، وشققتها مُحَاذرًا إلى نصفين. ما إن شققتها، حتى طقطقت القشرة وتساقطت متناثرة في أجزاء صغيرة،

قفز منها برشاقة طائر صغير يشبه اللقلق، عريان بلا ريش، يُرفرف بجناحيه القصيرين في الهواء. وددتُ لو سألته: ماذا تريد في عالمنا هذا؟

انحنيتُ على الأرض لمستوى الطائر ونظرتُ في عينيه المذعورتين، لكنه تركني وابتعد قافزًا يتخبط تجاه الحائط وهو يمشي بصعوبة. قلتُ لنفسي «سوف يساعد كل منَّا الآخر» جلستُ أمام الترابيزة، وفضضتُ لفافة عشاءي وأشرت إلى الطائر، الذي كان يعبث بمنقاره فيما بين كتبي. قفز الطائر تجاهي، جلس على المقعد يبدو أنه قد ابتدأ يتعود تدريجيًّا على المكان وبنَفَس مُتقطع، بدأ في نقر شريحة السجق التي وضعتها أمامه، التقطها ثم أخرجها من فمه ورمى بها على الأرض. قلت لنفسي: «كان ذلك خطًا. ليس طبيعيًّا أن يبدأ طائر بأكل السجق فور خروجه من البيضة مباشرة. هنا تكون النساء أكثر خبرة» اقترب مني، إنه من عائلة اللقالق وهذا يعني أنه يحب السمك. إنني مستعد أن أُحضر له بعض السمك، لكن ليس بدون مقابل. فقدراتي المالية لا تمكنني من إعالة طائر معي في البيت. ولو أنني ضحيت وفعلت ذلك، لاحتجت منه في المقابل خدمة على المستوى نفسه من الأهمية. تساعدني على الحياة. سوف أهتم بهذا اللقلق وأقدم له الأسماك حتى يكتمل نموه ويصير بالغًا، مقابل أن يأخذني معه إلى بلاد الجنوب. منذ زمن، تراودني الرغبة دائمًا، في أن أذهب إلى بلاد الجنوب، لكنني لم أتمكن من ذلك، نتيجة نقص في أجنحة اللقالق. أحضرت في الحال الورق والحبر، غمستُ منقار اللقلق في الحبر دون أدنى مقاومة منه، وكتبتُ:

«أنا الطائر من نوع اللقلق، أتعهد بأن ألزم نفسي حالة أن تطعمني وتغذيني بالأسماك والضفادع والديدان (أضفت الصنفين الأخيرين لرخص سعرهما) حتى أصل لمرحلة البلوغ أتعهد بأن أحملك على ظهري وأطير بك إلى بلاد الجنوب» مسحتُ منقاره ونظفته. وضعتُ الورقة أمام عيني اللقلق، ثم طبقتها ووضعتها في حقيبتي. وهرولت في التوّ لشراء السمك، كان عليّ أن أدفع سعرًا مرتفعًا هذه المرة، بعد أن وعدني بائع السمك، أنه سوف يحتفظ لي في الأيام المقبلة بالأسماك التي على وشك الفساد، وبالكثير من الديدان رخيصة السعر. وهكذا تبدو أن الرحلة إلى الجنوب لن تكون مرتفعة التكاليف. كنتُ أشعر بالسعادة، وأنا أشاهد كيف يستمتع اللقلق بما أُحضره له. كان يلتهم السمك بشراهة إلى أن تمتلئ بطنه الوردية الصغيرة. يومًا بعد يوم، كان الطائر يتقدم في نموه بشكل واضح. ومع أن رائحة السمك النتنة، التي لا تُحتمل لم تبرح غرفتي، ولم يكن سهلًا عليّ أن أقوم باستمرار بالبحث عن بزق اللقلق وكنسه، كما أن برد الشتاء ونار الفحم للتدفئة يحرمانني من تهوية الغرفة كما ينبغي يومًا ما سيأتي الربيع وأسبح في الهواء العليل بالجنوب المشرق كما يحلو لي. نما جناحا اللقلق، وغطاهما الريش، واكتنزت العضلات، وحان الوقت لأن نبدأ التدريب على الطيران. لم يكن هناك أم للقلق لتساعده، ولم تكن تدريباتي كافية، فكان يُعَوِّض النقص في قدراتي كمُدرب بتركيزه الشديد واهتمامه الزائد.

ابتدأنا بالطيران الشراعي. صعدتُ، تبعني. قفزتُ بذراعين مفتوحتين مشدودتين، وهو يرفرف ورائي. وأخيرًا ذهبنا إلى المائدة ثم إلى الدولاب، بينما كان الجناحان مُتسقين مُنتظمين، وكَرَّرنا ذلك مِرَارًا.

فرانز كافكا

«الأعمال الكاملة»

الجزء الرابع

ترجمة

الدسوقي فهمي

عن هذه القصص[15]

من بين العديد من ملامح وميزات وخصائص كتابات فرانتس كافكا الإبداعية، تبدو ميزتان من تلك الميزات تتفردان في وضوحهما واستجابتهما لإشباع حاجتين إنسانيتين:

أولاهما: أنها تلبي المطلب الأزلي الذي يتجدد في إلحاح، وهو الحاجة إلى المشاركة في حرية مع (الداخل) الكامن في أغوار وعي الإنسان، ذلك (الداخل) الذي لا حدود له، والذي يصطرع فيه (الحلم) مع (الأسطورة).

وثانيهما: أن كتابات كافكا تعي بذلك الحاجة أو المطلب الآخر الذي كان قد أُطلق عليه منذ آلاف السنين اسم (الحداثة) أو (الحديث)، والذي يفرض علينا عدم إغفال طبيعة (العالم الخارجي)، حيث يسود غموض وإبهام ما يعرف ب(القدر الأعمى)؛ أو بمعنى آخر أنَّ على المرء أن يبقى يقظًا دائمًا وبلا (أوهام).

ولقد أطلق على كافكا لهذا، وبحق، صفة (الكاتب الواقعي للأساطير)؛ فهو ينتمي إلى عالمين، هما عالم الأسطورة، وعالم الواقع اليومي، ففي الأسطورة تعيد (روح) الإنسان اكتشاف صياغة (شعرية الممكن) الأزلية، وتصوغها بالفعل على صورتها.

---

15 كتاب «استعدادات لعقد قران في الريف وقصص اخري».

حتى الاستغراق في المحظور الرومانسي الذي قد يتمثل في صياغة الروح لقوانينها هي الأسطورية الخاصة بها، في مواجهة قوانين (الطبيعة)، يستفيد كافكا في إنجازه من الرصيد الشعري الموغل في القدم، وذلك باستخدام مشاهد الطبيعة، وتفاصيل الواقع لكي تقوم جميعًا بأداء دور الرموز التي تشير إلى (حالات) العقل؛ البيوت والحجرات كرموز للشخوص، وناس وحيوانات تمثل رموزًا تشير إلى وجهات نظر الذوات الشخصية لتلك الشخوص، وتؤدي كذلك وظيفة تمثيل (القدر)، حيث تقوم الشخوص بتمثيل الوجه الآخر.

كل هذه الخصائص والميزات التي احتفل بها (السيرياليون) على نحو خاص بهم، واستخدموها على أنها اكتشافهم الجديد، وقاموا بصياغتها على أن تكون رؤية جدل ونقاش لصيغة إبداعهم، في إطار إنجاز ما هو (حديث) عامدين بذلك إلى مواجهة (معارضة) عالم الواقع (القديم) توجد كلها بين ما تضمه إبداعات كافكا المتفردة في تناول أصعب القضايا، وفي صياغتها بروح جادة للغاية، وعابثة ساخرة في وقت معًا، وفي لهجة مرح خفيفة الظل، موغلة في الذكاء. وتقدم قصص كافكا هنا، روح هذا الخبث المرح الذي يتصنع الجد، ويتغلّف من الخارج بالموضوعية.

فنجد أنفسنا عند أساس (الكينونة) ـ الوجود ـ في قصتي كافكا (المسخ) و(استعدادات لعقد قران في الريف)، اللتين تتصفان بصفة تجمع بينهما، وهي الرغبة في التراجع والاعتزال، وتمثلان في الوقت نفسه عكس ذلك الاعتزال ونقيضه، وهو محاولة أن يكون للذات

الخالصة في كل منهما السيطرة على العالم، من خلال التواجد التطفلي (العالة) على الغير الخارجي (السحري)، وأن تتطلب هذه الذات لنفسها الحياة في حالة من حالات الاضطرار الوجودي، الذي يحرر النفس من كل الجهد، ومن بؤس المسؤوليات والالتزامات البرجوازية.

وبهذا يكون المسخ في كلتا القصتين هو اتحاد لتناقض؛ إنه يكون في وقت معًا تنازل عن (التواجد الملتزم)، ويكون في الوقت نفسه هو نسمة الحياة الكونية التي تهب (إلى داخل) نافذة حجرة (رابان) في قصة (استعدادات لعقد قران في الريف).

ويلفت الناقد (بينو فون فيزه) الانتباه إلى حالة (وعي) منقسمة في قصة (المسخ)؛ (فالمسخ) في رأيه هو أزمة وجود تشير إلى انقسام بين (الوعي) و(اللاوعي) في حالة (جريجور)، ويتحقق بذلك في شكله الفعلي الذي يتمثل في (حالة الوعي البشري) في داخل (حشرة)؛ كما يتمثل هذا (الشكل) ـ الفورم ـ في لوحات الفنان (تيتوريللي) في رواية كافكا (القضية)، والتي يقوم فيها (تيتوريللي) بتصوير (مناظر خلوية) لا تقدم سوى (أراضٍ بور). ويشتري منه (يوزيف ك.) بطل رواية القضية ثلاث لوحات (للخراب) أو (الأرض الخراب) من مرسمه (في الرواية).

وتجسد (جريته سامسا) شقيقة جريجور قسوة انتصار الحيوية عندما تتمطى في نشوة بجسدها الغض في السطر الأخير من قصة (المسخ)، وهو (الانتصار) الذي يمثله التباين المطلق بين (الفهد) الذي يتوهج

حيويـة في قفص حديقـة الحيـوان، بـدلًا من (فنـان ال«جـوع») الـذي يتمثل في موت (الفنـان) داخـل القفص متلاشـيًا في ثنايـا القش الـذي يملؤه.

ويصف الناقد (هيزلهاوس) قصة (المسخ) بأنهـا قصـة (خيـال مضـادّ) بـدائي، وأنهـا تقـدم تقريـرًا عن (الحيـاة) في العـالم، كمـا لا يجب أن تكون.

وفي رسالة لكافكا من (براغ) بتاريخ 25 أكتوبر 1915، ردًّا على رسـالة مسـؤول النشـر «ج. ه. ميير» لـدار (كـورت فولـف) الـذي صـرّح فيهـا لكافكا بأن الفنان القدير جدًّا (أوتومـار شـتاركه) سـيكون على اسـتعداد للقيام برسم لوحـة الغلاف للطبعـة الأولى، لقصـة «المسـخ»، (الرسـائل 1902ـ 1924 ص135)، ورد فيها ما يلي:

«سـيدي العزيـز، كتبت إليَّ أخـيرًا بـأنّ (أوتومـار شـتاركه) سـوف يقـوم برسم صفحة العنوان لطبعة قصـة (المسـخ). وبالتأكيـد وبقـدر معرفـتي بمقدرة (نابليون) انتابني بعض الجزع؛ قـد لا يكـون جزعًـا يفتقـر غايـة الافتقار إلى ما يبرر ضرورته، ذلك أنه تحديـدًا، بمـا أن (شـتاركه) يـبرع في رسـمه جيـدًا، فمن الممكن أن يـرغب في رسـم الحشـرة نفسـها. لا، أرجو، لا يكون ذلك! إنني لا أريـد تقييـده، حقًّا، إلا أنـني تحديـدًا أطلب هذا الطلب، من رؤيتي «طبعًا» النابعة عن معرفـتي الأفضـل بالقصـة. إن الحشـرة نفسـها لا يمكن أن يجـري رسـمها على الغلاف، إنهـا لا يمكن لها أن تعرض ولو من على البعد البالغ».

وبهذا لم يضم الغلاف الذي رسمه (شتاركه) حشرة، بل «إنسانًا» في هيئته الإنسانية، وإن تكن معتمة للغاية بتفاصيلها الغامضة، وتبدو القاعة كلها معتمة هي أيضًا، على أرضية بيضاء، وخلفية مضيئة، ويشير هذا «الغلاف» إلى بُعد هام، هو أن دلالات قصة (المسخ) لا تخص راوي القصة (جريجور سامسا) نفسه، أو على الأقل لا تخصه وحده، فليس هو وحده المقصود بهذا الحدث الذي تقدمه القصة، وكأن ما حدث لجريجور هو مجرد حادثة عبثية لا معقولة من عالم الخرافة، بل هي دلالة تعبيرية واقعية تتضمن بعداً نفسيًّا، أو أبعادًا (داخلية) هي (انقسام بين الوعي واللاوعي)، وأن من يتعرضون للمسخ، في نمط حياتهم البرجوازية المهمومة، هم بلا حصر، في كل عصر، وفي كل مكان.

الحشرة (رابان) في قصة (استعدادات لعقد قران في الريف)، و«الخنفساء» في «المسخ» (جريجور سامسا).

فجريجور في (المسخ) لا يستطيع مطلقًا أن يتوافق مع الرغبة في (المسخ)؛ لأنه محتفظ «بوعيه» البشري، ولا يتيح له (وعيه) أيّ سلام، ولا بد له من أن يتحمل هذا الإدراك الأعمق ككارثة تحيق به، مندفعة نحوه من (خارجه)، كنازلة ومصيبة نزلت به، لا تحقيقًا لرغبة أو إشباعًا لاعتزال، أو تنازل عن إنسانيته، أو تحققًا كما يتمثل ذلك بالنسبة ل (رابان) في (استعدادات لعقد قران في الريف)، وعلى هذا فإن (رابان) هو (حشرة) جميلة (فراشة مثلًا) وهو يحن إلى مسخه كتحقق، وكإشباع، بينما التحقق في قصة (المسخ) عند جيجور يظل (تحققًا)

لا واعٍ، لا يتفق مع «وعي» جريجور، ومع «تفكيره» المدركِ الذي يظل متصلًا إلى ما قبل النهاية...

وهنا تكمن مبررات قذارة حجرة جريجور، وعالمه الذي يذكرنا بفعل (الكينونة) ـ الوجود ـ فعل (يكون) في اللغة المصرية القديمة، وهو يكتب بصورة «الجعران» الذي ينطلق بحروف أربع ـ في طفولته ـ هي «خبري»، والذي يخرج من المياه عند شروق الشمس (زاحفًا) نحو (النور) و... دائمًا يدفع أمامه (كرة الروث)= (هموم الوجود؟) التي لا تفارقه، فهي الحياة بكل انشغالاتها، يدفعها أمامه دائمًا طوال حياته، ويتبعها، يسير خلفها، وتتجدد يوميًّا عند كل شروق (استيقاظ جريجور) مع أن جرس المنبه لم (يرن)، ولا حياة لشيء إلَّا في وجود (الضوء) الساطع، الذي أكَّد الفنان (شتاركه) سطوعه، حيث يتخذ (الوجود) شكله الذي يعين ويحدد كينونته.

أما (رابان) فيقول:

«سوف أرسل جسدي مرتديًا ثيابه، ليذهب مترنحًا، متعثرًا فوق درجات السلم، في طريقه إلى القرية لعقد القران بدلًا مني، بينما أبقى أنا هنا مستلقيًا في فراشي..».

يحن (رابان) إلى (مسخه) أو (اعتزاله) كتحقق دون أي جهد، ولهذا فإن (رابان) حشرة جميلة.. على عكس (جريجور)، فهو حشرة كريهة مثيرة للاشمئزاز؛ لارتباطه بقمامته المكومة في داخل حجرته (همومه

أو قمامتـه)، وحـرص شـقيقته على أن تتركـه يرتـع في انشـغالاته الـتي تعذب وعيه، اليقظ لا يزال، رغم كل ما حدث له.

(فالمسخ) في كلتا القصتين يمثل (الانسحاب) ـ الاعتزال ـ الذي هـو رفض للحيـاة المهمومـة المسـتلبة في حيـاة المجتمعـات القائمـة على الاستغلال، وفي إطار النظم التي تسحق (الفرد) نفسيًّا وجسديًّا.

كما يشير تعبير (روسيا) الذي يعادل برودة المنفى والوحدة والاغـتراب والصقيع الإنساني ـ كما يتمثل في قصة (الحكم).

وتشـير صـورة (المـرأة) الـتي ترتـدي (الفـراء) بنعومـة ملمسـه، وفـوق (فراش جريجور)، والمنتزعة من إحدى المجلات المصورة، إلى طبيعـة أحلامـه المضـطربة الـتي قـام منهـا ممسـوخًا ـ وهي أحلام ذات طـابع إيروتيكي، يشير إليه (الفـراء) النسـائي بـالطبع، ويقـدم تنويعًـا على رمـز (القطة، أو أبو الهول)، وهي إحالات تدعم الغموض والألغاز.

قصـص... فنـان جـوع، امـرأة صـغيرة، أول حـزن، الصـيَّاد جراكـوس (شذرة) اغتيال أخ: نشر هـذه القصـص الخمس (جمـال الغيطـاني) في (ملـف) بجريـدة (أخبـار الأدب) العـدد (341) بتـاريخ 23/1/2000 مصحوبة برسومي لها.

ونشــرت في (أخبــار الأدب) في العــدد (314) بتــاريخ 18/7/1999 قصة (الصياد جراكوس) مصحوبة برسمي لها.

وفي العـدد (248) من (أخبـار الأدب) نشـرت قصـتا: عن الأمثـولات، الاختبار.

وفي العدد (359) من (أخبار الأدب)، وفي (ملف خاص) نشرت سبع قصص مصحوبة برسومي لها وهي قصص: وكيل الدعاوى الجديد، بوزايدون، مشكلة قوانيننا، تقع مدينتنا، والعقيد الإمبراطوري، في النُّزُل، وبناء مدينة.

وفي العدد (75) يناير 2014، من مجلة (الدوحة) في عام 2014 نشرت قصة (الحيوان في المعبد).

ولأهمية الرسم المصاحب للكتابة الإبداعية، بدءًا من البرديات المصرية القديمة برسومها الملونة التي يستحيل مطلقًا أن تُبارى، لا في قيمتها الفنية فحسب، بل أيضًا في عراقتها وقدمها، واتصال ذلك الإبداع على مستوى العالم كله، وعلى امتدادات الزمن والأمكنة، وحتى عهد (نابليون) بفتوحاته الفنية والأدبية والإبداعية المتعددة، وهو الفنان (أوتومار شتاركه) الذي صوّر غلاف (المسخ) للطبعة الأولى عن دار نشر (كورت فولف) عام 1916، ومنذ عام 1916 قام برسم أغلفة وكتب كتاب من أمثال (شتيرنهايم)، و(ستندال)، و(جوته)، و(سترندبرج)، و(دوستويفسكي)، و(تولستوي)، و(جريلبارتسر)، كما رسم أغلفة رواياته وكتبه هو نفسه، ونقدم منها مع غلاف (المسخ)، رسمه لغلاف كتابه «الشركة الجديدة. ورسم في المجلات الأدبية، وكتب سيرته الذاتية، وعديداً من القصص «البوليسية» حتى، كما كتب (المسرحيات) والتمثيليات الإذاعية و(الكوميدية منها)، كما عمل كمترجم، وكان قد عمل قبل ذلك مصممًا للمناظر والمشاهد المسرحية في ميونيخ، فرانكفورت أمْ ماين، دار مشتاد، وفرايبورج،

وكان قبل ذلك كله قد عمل فنانًا لفن (الحفر) وفنون الطباعة، بعد تخرجه في مدرسة المهن الفنية الملكية في ميونيخ. كما أقام معارض فنية خاصة به، ففي عام 1920 أقام بالمشاركة معرضًا لأعماله الفنية في جاليري (أفريد فليشتهايم)، ثم عرض بعد ذلك، في نفس الجاليري معرضًا خاصًّا بأعماله وحده، ثم انتقل للحياة في باريس عام 1925، وكان على علاقة فنية بفناني (كافيه دي دوم)، وامتدت نشاطاته، وعلى الرغم من عضويته في أهم الاتحادات والنقابات الفنية منذ عام 1933، فقد تمت مصادرة (خمس لوحات من أعماله) في حملة «الفن المنحل» التي شنها النازي ضد الإبداع الفني عام 1937، لهذا لم يكن تصويره وفهمه لدلالة غلاف قصة «المسخ» أمرًا يستند إلى خلفية وخبرة فنية أقل عمقًا واتساعًا من خبرة وتاريخ (نابليون) «أوتومار شتاركه».

الدسوقي فهمي

استعدادات لعقد قران في الريف

الصيغة الأولى (أ)

(1)

عندما تقدم إدوارد رابان نحو مدخل الباب المفتوح، في سيره على امتداد الدهليز، رأى أن الدنيا كانت تمطر، لم تكن تمطر كثيرًا.

وفوق الرصيف أمامه مباشرة، كان كثير من الناس يسيرون في إيقاعات مختلفة، وبين كل حين وآخر، يخطو أحدهم إلى الأمام ويعبر الطريق. وكانت بنت صغيرة تحمل كلبًا صغيرًا متعبًا فوق يديها الممدودتين أمامها، وسيدان كانا يتبادلان معلومات، أحدهما كان يرفع يديه، بكفيه إلى أعلى، رفعًا وخفضًا لهما في حركة منتظمة، كما لو كان يقوم بموازنة حِمل يحمله، ثم التقط أحد الناس مرأى سيدة كانت قبعتها مثقلة بما تحمله من الشرائط والحليات والأزهار، وعلى شكل الإبزيم. وكان يسرع في الطريق العكسي شاب يمسك بعصا رفيعة للسير، ويده اليسرى كأنها مشلولة مفرودة فوق صدره. وبين الحين والآخر وفد بعض رجال كانوا يدخنون، تتحلق ممتدة أمامهم سحابات دخان أفقية صغيرة مستطيلة، وثلاثة من السادة ـ اثنان منهم كانا يمسكان بمعطفين خفيفي الوزن فوق ساعديهما المعقوفين ـ يسيرون مرات عديدة متقدمين من داخل البيوت إلى حافة الرصيف، يمسحون بنظراتهم ما كان يحدث هنالك، ثم ينسحبون ثانية، وهم يتحدثون.

وخلال الفجوات التي بين المارّة، كان باستطاعة المرء أن يرى الأحجار المرصوفة بانتظام لطريق المركبات... هنالك كانت المركبات تنجر في طريقها بواسطة خيول مشرئبة الأعناق، مركبات ذات عجلات دقيقة مرتفعة، وقد حدس الناس الذين في راحة فوق المقاعد المنجدة صامتين في المارة، والمحلات التجارية، والشرفات، وفي السماء. ولو حدث أن لحقت إحدى المركبات بمركبة أخرى، فإن الخيول عندئذ سوف تضغط نفسها أحدها إلى الآخر، وسوف تتدلى معلقة من طقم الفرس، والخيل المشدودة إلى عريش العربة التي تنطلق إلى الأمام مسرعة في خفة، تتمايل بينما تتزايد سرعتها، إلى أن يكون الانحراف قد أدار المركبة حول نفسها، إلى الأمام، وتتحرك الخيل متباعدة، فقط تكون رؤوسها الضيقة الهادئة قد مالت أحدها نحو الآخر.

أسرع بعض الناس قادمين نحو المدخل الخارجي، وتوقفوا على الرصف الحجري المنقوش الجاف واستداروا ببطء، توقفوا محدقين في المطر الذي تساقط مشتتًا مقتحمًا في اضطراب داخل هذا الدرب الضيق.

أحس رابان بالتعب، كانت شفتاه شاحبتين، في لون رابطة عنقه الحمراء الباهتة التي كانت ذات طراز مغربي. وكانت السيدة التي هناك عند عتبة الباب، والتي كانت حتى الآن تتأمل حذاءها، الذي كان مرئيًّا في وضوح تحت ردائها المشدود على جسدها بإحكام، تطلعت إلى رابان الآن، تطلعت إليه بلا مبالاة، وربما كانت على كل حال تتطلع فقط إلى المطر المتساقط أمامه، أو إلى اللوحات المعدنية للشركات،

والتي كانت مثبتة إلى الباب فوق رأسه. ظن رابان أنها تتطلع مندهشة، وتَفَكَّر فيما بين نفسه: «حسنًا، لو كان باستطاعتي أن أخبرها بالحكاية كلها، فسوف تتوقف عن دهشتها. إن المرء يستغرق في العمل على هذا النحو المحموم، حتى يكون قد أصبح فيما بعد متعبًا للغاية، ولا يمكنه لذلك أن يستمتع بإجازاته كما ينبغي. لكن حتى كل هذا العمل لا يمنح المرء حقًّا في أن يلقى الحب في تعامله مع أي شخص، بل على العكس، يكون المرء وحيدًا، غريبًا كل الغربة، ومجرد شيء فقط لإثارة الفضول. وما دام أنك تقول (المرء) بدلًا من أن تقول (أنا) فلا شيء في ذلك، ويمكنك بسهولة أن تسرد الحكاية، لكن بمجرد أن تسلم بأنه هو أنت نفسك، فإنك تشعر كما لو أنك قد أصابك الشلل، ويصيبك الرعب».

وضع الحقيبة أرضًا بغطائها القماشي الأنيق، ثانيًا ركبته وهو يفعل ذلك، وكان ماء المطر يجري بالفعل على امتداد طريق المركبات، في خطوط متصلة بلا انقطاع، كادت على الأغلب تمتد حتى تبلغ البالوعات المنخفضة.

لكن لو أنني كنت أنا نفسي أميِّز بين (واحد) وبين (أنا)، فكيف لي أن أجرؤ على الشكوى فيما يتعلق بالآخرين؟ ربما لا يكون أسلوبهم في التعامل عادلًا، إلا أنني متعب للغاية، حتى يمكنني إدراك هذا كله. أنا متعب غاية التعب حتى إنني لا يمكنني السير كل الطريق المؤدي إلى المحطة بلا مجهود، وهي فحسب مجرد مسافة قصيرة. وعلى هذا

فلماذا لا أبقى في المدينة طوال هذه الإجازات القصيرة حتى أتعافى؟ كم أفتقر إلى التعقل!

إن الرحلة ستؤدي بي إلى المرض، أعلم هذا كل العلم، ولن تكون حجرتي مريحة إلى حد كافٍ، ولا يمكن خلافًا لهذا، في الريف، ونحن الآن لا نكاد نكون في النصف الأول من يونيه. والهواء في الريف يكون باردًا جداًّ على الأغلب لا يزال. ولقد اتخذت احتياطاتي فيما يتعلق بثيابي بالطبع، لكن سيكون عليَّ أن أختلط بالناس الذين يخرجون للمشي، في وقت متأخر من الليل، وتوجد برك موحلة هناك، وسوف يذهب المرء للمشي على امتداد هذه البرك، وسأكون متأكدًا عندئذ من الإصابة بالبرد. وسوف لا أحرز سوى القليل من التوفيق في المحادثة، ولن أكون قادرًا على مقارنة البركة ببرك أخرى في بلاد أخرى قاصية؛ لأنني لم أرحل قط من قبل.

والحديث عن القمر، والإحساس بالرضى، والصعود منتشيًا فوق أكوام من كسر أحجار الدبش، هو في النهاية شيء لا أجدني مع تقدمي في السن، من الممكن أن أفعله دون أن أكون عرضة لضحكات السخرية.

كان الناس يمرون برؤوسهم محنية إلى حد ما، فوقها كانوا يحملون مظلاتهم القاتمة بقبضة متراخية، مرت أيضًا سيارة نقل واطئة، وعلى مقعد السائق، الذي كان محشوًّا بالقش، كان يجلس رجل ساقاه ممدودتان ومنفرجتان بإهمال بالغ، حتى إن إحدى قدميه كانت تكاد تلمس الأرض، بينما قدمه الأخرى تستقر في ثبات فوق القش والخرق.

بدا كما لو كان يجلس في أحد الحقول في جو صحو، إلَّا أنه كان يمسك بالعنان في انتباه، حتى إن عربة النقل التي كانت تحمل قضبان الحديد التي كانت ترن في ارتطام أحدها بالآخر، استطاعت أن تشق طريقها بأمان خلال حركة المرور الكثيفة. وفوق أرضية الطريق المبتلة كان باستطاعة المرء أن يرى انعكاس صورة قضبان الحديد تتلوى وهي تنزلق ببطء من صف من صفوف حجارة رصف الطريق إلى الصف التالي. وكان الصبي الصغير الذي بجوار السيدة التي كانت تواجه ذلك، يرتدي ملابس بائع خمر قديم، وثوبه الذي اتخذ شكل دائرة هائلة عند حافته السفلى، كان يكاد يرتفع إلى ما تحت الإبطين بواسطة سير من الجلد، وكانت قبعته نصف الكروية قد انكبست فوق حاجبيه، وتدلت منها شرّابة كادت تبلغ الأذن اليسرى. كان مسرورًا بالمطر، جرى منطلقًا خارج مدخل الباب، وتطلع إلى أعلى متسع العينين إلى السماء؛ لكي يلتقط مزيدًا من المطر، وغالبًا ما قفز عاليًا في الهواء حتى إن الماء أحدث طرطشة كثيرة، وحذره المارة بشدة، ثم نادته السيدة وأمسكته من يده بعد ذلك، إلَّا أنه لم يبك.

وفجأة عاد رابان إلى وعيه، ألم يصبح الوقت متأخرًا؟ ولما كان قد ارتدى معطفه الخفيف، وسترته المفتوحة، أخرج ساعته بسرعة، لم تكن تعمل، وبارتباك سأل أحد جيرانه الذي كان يقف إلى الخلف أبعد من المدخل قليلًا: «كم هي الساعة؟» كان هذا الرجل مشغولًا في محادثة، وبينما كان لا يزال يتضاحك مع زميله، قال:

«أكيد تعدت الساعة الرابعة»، واستدار مبتعدًا.

وبسرعة فرد رابان مظلته، والتقط حقيبته،، لكنه عندما كان على وشك أن يخطو إلى الشارع، كان طريقه قد شغلته عدة نساء في عجلة، وعلى ذلك ترك النساء يمررن أولًا. وبينما فعل ذلك نظر إلى أسفل إلى قبعة بنت صغيرة، كانت قبعة مصنوعة من قش أحمر اللون ذي ثنيات، وكان لها إكليل أخضر صغير على الحافة المموجة.

ومضى إلى الأمام متذكرًا ذلك حتى عندما كان في الشارع الذي مضى صاعدًا قليلًا أحد التلال في الاتجاه الذي كان قد أراد أن يتخذه، ثم نسيه، ذلك أنه الآن كان عليه أن يجهد نفسه قليلًا، لم تكن حقيبته اليدوية الصغيرة بالغة الخفة، وكانت الريح تهب ضده مباشرة، فتجعل معطفه يرفرف وتثني الأسياخ الأمامية لمظلته.

كان عليه أن يتنفس تنفسًا بالغ العمق. ودقت ساعة في ميدان على مقربة منه، الخامسة إلا الربع، ومن تحت المظلة، رأى الخطوات الخفيفة القصيرة للناس المقبلين نحوه، وأحدثت عجلات عربة صريرًا وفرملتها مضغوطة، وهي تستدير ببطء زائد، ومدت الخيل سيقانها الأمامية الرفيعة في جرأة كحيوانات الشمواه في الجبال.

ثم بدا لرابان أنه سوف يمر خلال الأيام الطويلة السيئة، على مدى الأسبوعين التاليين أيضًا؛ ذلك أنها فترة أسبوعين، أي كان يمكن القول عنها إنها فترة محدودة، وحتى لو كانت المضايقات قد جرت على نحو أكثر إزعاجًا، إلا أن الوقت الذي كان على المرء في خلاله أن يتحملها سوف يزداد قصرًا، وعلى هذا سوف تزداد الشجاعة بلا شك.

«كل الناس الذين يحاولون أن يعذبوني، والذين احتلوا الآن كل المساحة حولي، سوف يتم دفعهم إلى الوراء تدريجيًّا بفضل مرور هذه الأيام، دون أن يكون عليَّ أن أساعدهم في أقل القليل. وكما سوف يكون طبيعيًّا جداًّ، يمكنني أن أكون ضعيفًا وهادئًا، وأدع كل شيء يحدث لي، إلا أن كل شيء، مع ذلك، لا بد أن ينتهي نهاية طيبة، من خلال مجرد حقيقة مرور الأيام».

وعلاوة على ذلك، ألا يكون باستطاعتي أن أتصرف بالأسلوب الذي اعتدت عليه دائمًا كطفل فيما يتعلق بالأمور التي كانت لها خطورتها؟ لست محتاجًا حتى إلى الذهاب بنفسي إلى الريف، هذا ليس ضروريًّا. سوف أرسل جسدي المرتدي ملابسي، فلو أنه ترنح خارجًا من باب حجرتي، فإن هذا الترنح لن يدل على خوف، بل يدل على العدم، عدم وجود هذا الجسد، كما أنه لن يشير إلى إثارة لو أنه تعثر على درجات السلم، فلو أنه رحل إلى الريف، منهنهًا بالبكاء في أثناء سيره، ويتناول عشاءه هناك منخرطًا في الدموع؛ لأكون أنا نفسي في تلك الأثناء مستلقيًا في فراشي مغطى في نعومة بالبطانية الصفراء- البنية، معرضًا للأنسام التي تهب منبعثة خلال تلك الحجرة النادرة التهوية. وتتحرك المركبات في الشارع، والناس يسيرون في تردد فوق أرضية ساطعة الضياء، ذلك أنني لا أزال أحلم. والحوذي والمارة هيَّابون، وكل خطوة يريدون أن يخطونها، يطلبونها مني كمنحة بالتطلع إليَّ. أشجعهم أنا، ولا يواجهون أي عقبة.

«وبينما أستلقي فوق فراشي أتخذ شكل خنفساء كبيرة ذات فكين كقرنين طويلين أو جعران كبير فيما أظن».

وأمام فترينة محل، كانت تعرض فيها قبعات صغيرة للرجال فوق مشابك صغيرة، خلف لوح زجاج مبتل، توقف وتطلع إلى الداخل، وشفتاه مزمومتان، فكر وواصل السير في طريقه: «حسنًا، سوف تظل قبعتي صالحة لفترة الإجازات، وإذا لم يستطع أحد أن يحتملني بسبب قبعتي، فسيكون ذلك هو الأفضل».

«شكل خنفساء ضخمة، نعم. عندئذ سأتظاهر بأن ذلك كان بياتًا شتويًّا، وسوف أضغط سيقاني الصغيرة إلى بطني المنتفخة، وأهمس بعدد قليل من الكلمات، تعليمات إلى جسدي الحزين، الذي يقف ملاصقًا لي، محنيًّا. سرعان ما فعلت ذلك ـ انحنى، ومضى مسرعًا، وسوف يتدبر أمر كل شيء بكفاءة بينما أستريح أنا».

وبلغ في سيره قوسًا مقبيًّا عند أعلى الشارع الواقف الانحدار المؤدي إلى ميدان صغير، حوله كانت تنتشر متاجر كثيرة مضاءة بالفعل، وفي وسط الميدان، كان يوجد نُصب حجري منخفض، غامضًا إلى حد ما بسبب الضوء حول حافته، شكل لرجل جالس مستغرق في التأمل. وتحرك الناس عبر الأضواء كأنهم درفات شيش شباك ضيقة، ولما كانت البرك الموحلة قد نشرت التألق في أنحاء المكان، فقد تبدى المشهد الذي بدا به الميدان متغيرًا بلا توقف.

وظل رابان يتقدم في سيره بعيدًا إلى الأمام، إلى داخل الميدان، لكن كان يتفادى المركبات المندفعة مهتزًّا، قافزًا من حجر جاف من أحجار رصف الطريق، إلى حجر رصف جاف آخر يليه، ممسكًا بالمظلة المفتوحة في يده عالية؛ لكي يتمكن من أن يرى كل شيء حواليه، وأخيرًا عند عمود نور، كان قد أقيم فوق قاعدة خرسانية أعلى ميدان صغير ـ هو المكان الذي يتوقف عنده الترام ـ توقف.

«لكنهم ينتظرون وصولي في الريف، ألن تأخذهم الحيرة بشأني في الوقت الحالي؟ إلا أنني لم أكن قد كتبت رسالة إليها طوال الأسبوع منذ أن كانت في الريف، سوى فقط هذا الصباح، وهكذا فسوف ينتهي بهم الأمر إلى أن يتصوروا أن ظهوري بينهم سيكون مختلفًا كل الاختلاف. وربما اعتقدوا أنني سوف أندفع إلى الأمام عندما أخاطب شخصًا ما، إلَّا أن هذا ليس أسلوبي على الإطلاق، أو ربما اعتقدوا أنني سوف أحتضن الناس عندما أصل، وهذا شيء لا أفعله أيضًا.

وسوف أتسبب في غضبهم إذا حاولت تهدئتهم. آه، لو أنني استطعت فحسب أن أغضبهم كل الغضب عند محاولة تهدئتهم».

عند تلك اللحظة مرت مركبة مفتوحة، غير مسرعة، وخلف مصباحيها المضاءين كان يمكن رؤية سيدتين جالستين فوق مقاعد جلدية غامقة. كانت إحداهما مضطجعة إلى الخلف، ووجهها مختفٍ خلف نقاب، وخلف ظل قبعتها، أما الأخرى فكانت جالسة كالسهم في وضع قائم، كانت قبعتها صغيرة، وحوافها محاطة بريش رفيع، وكان في استطاعة

أي شـخص أن يراهـا، وكـانت شـفتها السـفلى قـد انسـحبت قليلًا إلى داخل فمها.

وبمجـرد أن مـرت العربـة على رابـان، حجب حـاجز مـا رؤيـة الحصـان الأقرب الذي يجر المركبة، وكان حوذي مـا فـوق صـندوق مرتفـع غـير مألوف ـ يرتـدي قبعـة عاليـة كبيرة قـد تحـرك عـابرًا أمـام السيدتين ـ وكان ذلك قد أصبح أبعد كثيرًا ـ ثم تقـدمت مـركبتهم مسـتديرة حـول ناصية بيت صغير، أصبح عندئذ ملحوظًا بصورة لافتة للنظر، ثم اختفت المركبة عن الرؤية، تبعها رابـان بنظرتـه المحدقـة، وقـد انخفض رأسـه، ساندًا يـد المظلـة على كتفـه؛ لكي يتمكن من الرؤيـة على نحـو أفضـل. كان قد وضـع إبهامـه الأيمن في فمـه، وراح يحـك أسـنانه على إبهامـه، وكانت حقيبة يده ملقاة بجواره، وأحد جانبيها على الأرض.

وأسرعت المركبات من شارع إلى شارع عبر الميدان، وأجسـاد الخيـول قد طارت إلى الأمام أفقيًّا، كما لو كـانت قـد ارتمت عـبر الهـواء، إلَّا أن إطراقة الرأس والعنق كشفت الإيقاع والمجهود الذي تمت به الحركة.

وحول حواف أرصفة كل الشوارع الثلاث التي تلاقت هنـا، كـان ينتشـر الكثير ممن يطرقون أحجار الرصف بعصي صـغيرة، وبين المجموعـات الـتي كونهـا هـؤلاء، كـانت هنـاك إبـر صـغيرة، وكـانت فتيـات يصـبون بداخلها الليمونادة، وساعات ثقيلة من سـاعات الشـوارع محمولـة فـوق قضبان رفيعة، ورجال يحملون أمـامهم وخلفهم ألواحًـا كـبيرة تعلن عن ملاهٍ وتسـليات في حـروف متعـددة الألـوان، ثم رُسُـل... (صـفحتان

مفقودتـان، اجتمـاع صـغير. وكـانت عربتـان خصوصـيتان رشـيقتان تتحركـان في سـيرهما على نحـو مـوروب عـبر الميـدان نحـو الشـارع المؤدي إلى سفح التـل، وقـد قطعـا الطريـق على بعض السـادة من هـذا التجمع، لكن بعد المركبة الثانية تشكل ـ وحتى بعد العربة الأولى كانتا قد حاولتا في خـوف أن تفعلا ذلـك ـ أولئك السـادة في مجموعـة مـرة أخـرى مـع الآخـرين، الـذين تقـدموا معهم نحـو الرصـيف في مـوكب طويـل، وتـابعوا طـريقهم خلال بـاب أحـد المقـاهي الغـارق في ضـوء اللمبات المتوهجة المعلقة فوق المدخل.

ومـرت عربـات تـرام كهربائيـة ضـخمة وقريبـة جـدًّا، وأخـرى مرئيـة في غموض، كانت تقف بلا حركة بعيدًا في الشارع. «كم هي مائلة؟» فكـر رابان عندما تطلع إلى الصـورة الفوتوغرافيـة الآن ـ إنهـا ليسـت معتدلـة القامة في الحقيقة، وربما كان ظهرهـا مسـتديرًا، وسـوف يكـون عليَّ أن أنتبه انتباهًا زائدًا إلى هذا، وفمها بالغ الاتساع.

وهنا ـ من دون شك نتأت الشفة السـفلى، نعم، الآن أتـذكر ذلـك أيضًـا. ويا له من ثوب! طبعًـا، أنـا لا أعـرف شـيئًا فيمـا يتعلـق بـالملابس، لكن هـذه الأكمـام الضـيقة الخياطـة تبـدو قبيحـة، أشـق من هـذا، فهي تبـدو كالضمادات، والقبعة حافتها عند كل نقطة تستدير إلى أعلى عند الوجه في منحنيات متباينة ـ لكن عيناها جميلتان، همـا بنيتـا اللـون، إن لم أكن مخطئًا. كل شخص يقول إن عينيها جميلتان.

والآن توقفت عربة ترام كهربائي أمام رابان، وكثير من الناس حوله اندفعوا نحو الدرجات وهم يحملون مظلات مدببة مفتوحة قليلًا.. كانوا يحملونها رأسيًّا، وأيديهم مضغوطة على أكتافهم، ورابان الذي كان يمسك بحقيبته تحت ذراعه كان منجذبًا على طول الرصيف بشدة إلى بركة وحل لا مرئية. وداخل الترام كان هناك طفل يركع بركبتيه على المقعد، ضاغطًا بأطراف أصابع كلتا يديه على شفتيه، كما لو كان يقول إلى اللقاء لشخص ما كان الآن يسير مبتعدًا. وخرج بعض الركاب وكان عليهم أن يسيروا بضع خطوات على امتداد الترام؛ لكي يشقوا طريقهم إلى خارج الجمع، ثم صعدت سيدة إلى درجة السلم الأولى، وكانت نقبتها الطويلة التي كانت قد رفعتها بكلتا يديها، امتدت ملتصقة بشدة حول ساقيها، واستمسك أحد السادة بقضيب نحاسي وبرأس مرفوعة، سرد شيئًا للسيدة، وكان الناس الذين أرادوا أن يركبوا الترام متلهفين. وصاح الكمساري، ورابان الذي وقف الآن على حافة الجماعة المنتظرة، استدار حول نفسه؛ لأن شخصًا ما كان قد صاح مناديًا باسمه.

قال ببطء: «آه، ليمنت».

وأشار بأصبعه الصغير، الذي كان ممسكًا بالمظلة، إلى شاب قادم تجاهه.

ابتسم ليمنت بفمه مغلقًا، ثم قال: «وعلى ذلك، فهذا هو الخطيب في طريقه إلى خطيبته! إنه يبدو عاشقًا بشكل مرعب».

قال رابان: «نعم، لا بد لك أن تغفر لي ذهابي اليوم، لقد كتبت لك رسالة هذه الظهيرة، على أي حال، سوف أكون بالطبع قد أحببت كثيرًا جدًّا أن أرحل معك غدًا، لكن الغد سيكون يوم سبت، وسيكون كل شيء مزدحمًا جدًّا، إنها رحلة طويلة».

«آه، هذا لا يهم، لقد وعدت، لكن عندما يكون المرء في حالة حب.. سيكون عليَّ فقط أن أرحل وحدي». كان ليمنت قد وضع إحدى قدميه فوق الرصيف، والأخرى فوق أحجار رصف الشارع، مدعمًا جسده حينًا على ساق واحدة، وحينًا على الأخرى.

«أنت كنت في طريقك لأن تصعد إلى داخل الترام، وها هو الترام قد ذهب. تعال سوف نمشي، سوف أذهب معك، لا يزال أمامنا وقت طويل».

«أليس الوقت متأخرًا؟».

«لا عجب أنك عصبي، إلَّا أنك لديك وقت طويل حقًّا، لست عصبيًّا إلى هذا الحد، وهذا هو السبب في أنني فقدت جيلمان الآن».

«جيلمان؟ ألن يكون قد ظل بعيدًا هناك أيضًا؟».

«نعم، مع زوجته، إنهما يقصدان الذهاب الأسبوع القادم، وهذا هو السبب في أنني وعدت جيلمان بأنني سأقابله اليوم عندما يغادر المكتب. كان قد رغب في أن يعطيني بعض التعليمات فيما يتعلق بتأثيث منزلهم، وهذا هو السبب في أنني كان من المفترض أن أقابله. لكنني الآن قد تأخرت إلى حد ما، كان أمامي بعض المهام لكي أقوم

بأدائهـا، وبمجـرد أن كنت في حـيرة عمـا إذا كـان عليَّ ألَّا أذهب إلى شقتهم، رأيتـك، وكنت في البدايـة مندهشًـا للحقيبـة، وتحـدثت إليـك. لكن الآن فإن الأمسية كانت قد انقضت منذ وقت طويل بالنسبة للقيـام بأي زيارات، إنه من المستحيل تمامًا أن أذهب إلى جيلمان الآن».

«بالطبع. وعلى هذا فسوف أقابل أناسًا أعرفهم هناك بعد كل شـيء، ولا يعني هذا أنني قد رأيت (فراو جيلمان) على الرغم من ذلك».

«وكم هي جميلـة، إنهـا حسـناء، وشـاحبة الآن بعـد مرضـها، ولهـا أكـثر العيون جمالًا».

«أخبرني من فضلك، كيف تبدو العيون الجميلـة؟ هـل هي النظـرة؟ إني لم أَر قطّ العيون جميلة؟».

«وهـو كـذلك، ربمـا كنت أبـالغ إلى حـد مـا، إلّا أنهـا مـع ذلـك امـرأة جميلة».

وخلال زجاج نافذة مقهى في الدور الأرضـي، وملاصـقًا للنافـذة تمامًـا، كان يمكن رؤية سادة جالسين، يقـرأون ويـأكلون حـول منضـدة ثلاثيـة الجوانب. وأسقط أحدهم صحيفة إلى المنضدة، وأمسك بكـوب صـغير مرفوع، وكـان يتطلـع إلى الشـارع من خلال جـوانب عينيـه. وفيمـا وراء مناضـد النافـذة، كـان كـل الأثـاث وكـل التجهـيزات في المطعم الكبـير مختفية خلف الزبائن، الذين كانوا يجلسون جنبًا إلى جنب في حلقـات صغيرة.

(صفحتان مفقودتان).

«وكما يحدث، مع ذلك؛ لم يكن ذلك أمرًا غير مريح، فهل كان عملًا غير ممتع؟ كثير من الناس قد يقبلون بتحمل مثل هذا العبء فيما أظن».

وصلوا إلى داخل ميدان معتم إلى حد كبير، ميدان كان قد بدأ أولًا على جانب الشارع الذي كانوا عنده، ذلك أن الجانب المواجه كان قد امتد إلى مسافة أبعد. وعلى جانب الميدان الذي مضيا في سيرهما على امتداده، كان يوجد صف غير منقطع من المنازل، من أركان هذه المنازل صفين —في البداية كانا بعيدين لمسافة واسعة— من البيوت امتدت إلى عمق مسافة لا يسهل تمييزها، منها يبدو أن هذين الصفين يتحدان معًا. وكان الرصيف ضيقًا إلى جانب البيوت التي كانت صغيرة في أغلبها، ولم تكن هناك أي متاجر يمكن رؤيتها، ولم تمر أي مركبات هنا. وبالقرب من نهاية الشارع الذي جاءوا منه، كان يوجد عمود حديدي، وفوقه عدة مصابيح كانت مثبتة في طوقين يتعلقان أفقيًّا أحدهما فوق الآخر، وكانت الشعلة التي اتخذت شكل العقلة المتحركة بين المسطحات الزجاجية المتوحدة تتقد في تلك الظلمة الواسعة الشبيهة بالبرج، كما لو كانت تتقد في حجرة صغيرة، مفسحة للظلام تأكيد وجوده لعدد من الدرجات أبعد من ذلك.

«لكنني متأكد الآن من أن الوقت متأخر للغاية، ولقد أخفيت أنت ذلك عني، وسوف يفوتني القطار. لماذا؟».

(أربع صفحات مفقودة)

«نعم (بيركر شوفر) على الأغلب، أيًّا ما كان ما يسعه».

«جاء ذكر الاسم فيما أظن في رسائل (بيتي)، إنه مساعد كاتب ـ سكة حديد، أليس هو كذلك؟».

«نعم مساعد كاتب —سكة حديد وشخص كريه، سوف ترى أنني على حق بمجرد أن تلقي نظرة على تلك الأنف الصغيرة الغليظة. أقول لك إن السير خلال الحقول الموحشة مع ذلك الشخص... على أي حال، كان قد تحوّل الآن، وسيذهب بعيداً عن هناك كما أعتقد وآمل، في الأسبوع القادم».

«انتظر، لقد قلت أنت الآن للتو، إنك نصحتني بأن أبقى هنا لأسبوعين، لقد فكرت في هذا الأمر، لا يمكن أن يتم تدبير ذلك تمامًا، لقد كتبت رسالة لكي أقول بأنني قادم هذا المساء، وسيكونون في انتظاري».

«هذا سهل للغاية، ارسل برقية».

«نعم، يمكن عمل ذلك —إلّا أنه لن يكون جيداً جداًّ إذا لم أذهب ـ وأنا متعب، نعم سوف أذهب بالفعل، فلو جاءت برقية، فسوف يصيبهم الخوف علاوة على ذلك —ولماذا هذا؟ إلى أين سوف نذهب على أي حال؟».

«عندئذ، فمن الأفضل حقًّا لك أن تذهب، كنت فقط أفكر... على أي حال، لم يكن باستطاعتي أن أذهب معك اليوم، بما أنني في حالة نوم، لقد نسيت أن أخبرك بذلك، والآن سوف أقول لك إلى اللقاء، لأنني لا أريد أن أذهب عبر الميدان المبتل معك، كما قد أحب أن أصل إلى

مسكن جيلمان في آخر الأمر. إن الساعة الآن السادسة إلّا ربعًا —وعلى هذا، فالوقت ليس متأخرًا جدًّا بعد كل شيء، للقيام بالزيارات للناس الذين تعرفهم معرفة كافية. وداعًا، حسنًا، رحلة سعيدة، واذكرني لكل شخص.

استدار ليمنت إلى اليمين ورفع يده اليمنى؛ لكي يقول إلى اللقاء، وهكذا للحظة كان رابان يسير على عكس اتجاه ذراع ليمنت الممدودة.

قال رابان: «وداعًا».

من على بعد مسافة قليلة هتف ليمنت إلى خلفه: «أقول، يا إدوارد هل تسمعني؟ هل أغلقت مظلتك؟ لقد توقف المطر منذ زمن، لم تكن لديَّ فرصة لكي أخبرك بذلك».

لم يرد رابان، وأغلق مظلته، وأطبقت السماء فوقه في ظلام شاحب.

فكر رابان: «لو كان لي على الأقل أن أستقل قطارًا خطأً. عندئذ سوف يبدو على أي حال أن المغامرة كلها قد بدأت، وفيما بعد، لو كان لي بعد أن يكون الخطأ قد زال، أن أصل إلى هذه المحطة مرة أخرى في طريق عودتي، فإنني عندئذ سوف أشعر بالتحسن كثيرًا بالتأكيد. وإذا كانت المناظر قد بدت مضجرة، كما يقول ليمنت، فإن ذلك لن يكون عائقًا على الإطلاق، فسوف يقضي المرء مزيدًا من الوقت في داخل المنزل، ولا يكون في الحقيقة على علم مؤكد بمكان الآخرين، ذلك لأنه لو وجدت أنقاض في الحي فسوف يكون هناك ربما إمكانية للسير رغم ذلك إلى هذه الأنقاض، كما قد تم الاتفاق على ذلك بالتأكيد منذ

وقت مضى. ثم لا بد مع ذلك أن يتطلع المرء في توقع؛ لهذا السبب نفسه لا ينبغي لأحد أن يفقد تلك الإمكانية، لكن لو لم يوجد مثل هذا المشهد الذي يمكن رؤيته، فلن تكون هناك مناقشة مقدمًا؛ ذلك أن كل شيء سيكون من المتوقع أن يتجمع بسهولة وإن يكن ذلك فجأة، خلافًا لكل الممارسة المعتادة، وبعثه أكبر مستعد صحيحة ذلك لأن المرء عليه أن يرسل الخادمة إلى مساكن الآخرين، حيث يكونون جالسين لقراءة رسالة أو كتب وهم مبتهجون بهذه الأخبار. حسنًا ليس من الصعب أن يحمي المرء نفسه ضد مثل هذه الدعوات، ومع ذلك لا أعرف ما إذا كنت سأقدر على فعل ذلك؛ لأنه ليس من السهل إلى هذا الحد، كما أتصور ذلك الآن، بينما أنا ما زلت وحيدًا، ولا يزال في مقدوري أن أفعل كل شيء، ويمكنني أن أعود أدراجي راجعًا إذا أردت؛ لأنني لن يكون لي أحد هناك، يمكنني أن أقوم بزيارته وقتما أشاء، ولا أحد قد يكون من الممكن أن أمارس معه مزيدًا من الحملات المتحمسة، لا أحد هناك قد يعرض عليَّ كيفية نضج محاصيل أو محجرًا من المحاجر التي يعمل بها هناك؛ لأنه لا أحد مطلقًا يكون واثقًا حتى من معارف قدامى راسخين من معارفه. ألم يكن ليمنت معي اليوم طيبًا؟ لقد شرح لي بعض الأمور، أما يفعل ذلك؟ ووصف لي كل الأشياء كما سوف تبدو لي. لقد جاءني وتحدث معي، ثم سار معي، على الرغم من حقيقة أنه ليس هناك أي شيء يريد أن يكتشفه مني، وأنه هو نفسه لديه شيء آخر لا يزال عليه أن يفعله. لكنه الآن رحل بعيدًا فجأة، ولم أكن مع ذلك قد أساءت إليه ولا حتى بكلمة واحدة. لقد

رفضت بالفعل أن أمضى الليلة في المدينة، إلّا أن هذا كان طبيعيًّا، لا يمكن أن يكون هذا قد أغضبه؛ ذلك أنه رجل واعٍ.

دقت ساعة المحطة، كانت السادسة إلّا ربعًا، توقف رابان لأنه كان يشعر بشدة خفقان قلبه، ثم سار مسرعًا على امتداد بركة الميدان، ومضى على طول ممر ضيق سيئ الإضاءة، بين أعشاب كبيرة، واندفع إلى داخل مكان مفتوح فيه كثير من الدكك الخاوية مائلة أشجار صغيرة، ثم مضى ببطء أكثر عبر فتحة في السياج إلى الشارع، عبره وقفز خلال مدخل المحطة، وبعد فترة قصيرة عثر على مكتب الحجز، وكان عليه أن يطرق لفترة على الشبكة الحديدية. ثم تطلع موظف إلى الخارج وقال إن الوقت قد حان حقًّا، وتناول الورقة المالية وخبط على الطاولة بالتذكرة التي كان قد طلبها وباقي النقود. وحاول رابان الآن أن يقوم بعد النقدية الباقية بسرعة، وهو يظن أنه قد تناول المزيد أكثر من الباقي له، إلّا أنّ حمّالًا كان يسير على مقربة أسرع به خلال باب زجاجي إلى الرصيف. هنالك تطلع رابان حوله، بينما كان ينادي الحمّال قائلًا: «أشكرك، أشكرك». ولما لم يجد أي حارس، صعد بنفسه درجات أقرب عربة، وفي كل مرة يضع الحقيبة فوق الدرجة الأعلى، ثم يتابع مدعمًا نفسه باستناده إلى المظلة بإحدى يديه، وعلى مقبض الحقيبة باليد الأخرى.

كانت العربة التي صعد إليها مضاءة في سطوع بواسطة الضوء الزائد الصادر عن الصالة الرئيسة للمحطة التي كانت تقف فيها، وفي مواجهة كثير من النوافذ الزجاجية —كانت مغلقة كلها إلى أعلاها— كانت

توجد لمبة على هيئة قوس تئز وهي معلقة عند مستوى العينين تقريبًا، وكثير من قطرات المطر فوق الزجاج كانت بيضاء، وكانت قطرات قد تتحرك من مكانها. وكان باستطاعة رابان أن يسمع أصوات الضجة الصادرة عن الرصيف، حتى عندما أغلق باب العربة وجلس فوق آخر جزء خال من مقعد خشبي بني فاتح اللون، رأى ظهورًا لناس كثيرين، ورأى أقفيتهم؛ وبينهما رأى الوجوه المرتفعة لناس جالسين على المقعد المقابل. وفي بعض الأماكن كان يتصاعد إلى أعلى دخان صادر من الغلايين ومن السيجار، وفي أحد الأماكن كان ينجرف باضطراب متجاوزًا وجه فتاة، وغالبًا كان الركاب يغيرون أماكنهم، ويتناقشون عن هذه الأماكن أحدهم مع الآخر أو أنهم كانوا يحوِّلون متاعهم الذي كان مَلْقِيّ في شبكة زرقاء ضيقة فوق أحد المقاعد فينقلونه إلى شبكة أخرى. ولو كانت عصا، أو كانت حافة الركن المكسو بالمعدن لإحدى الحقائب يبرز إلى الخارج، عندئذٍ كان صاحب الحقيبة يجد انتباهه مشدودًا إلى ذلك، وعندئذٍ يذهب ويعيد ترتيب الأشياء مرة أخرى، وتذكر حقيبته فجرها إلى تحت مقعده.

على يساره إلى جانب النافذة، كان يجلس سيدان أحدهما في مواجهة الآخر، يتحدثان عن أسعار البضائع، تفكر رابان «هما تاجران متجولان»، وبينما يتنفس بانتظام، تطلع إليهما «إن التاجر يرسلهما إلى الريف، وهما يطيعان، ويرحلان بالقطار، وفي كل قرية، يذهبان من محل إلى محل. وأحيانًا يرحلان بواسطة المركبة بين القرى. ولا ينبغي لهما البقاء طويلًا في أي مكان، لأن كل شيء يجب أن يتم عمله

بسرعة، ولا بد لهم دائمًا أن يتحدثا فقط عن بضائعهم، فبأي متعة إذن، يمكن للمرء أن يجهد نفسه في عمل بهذا القدر من التوافق!».

كان الرجل الأصغر قد انتزع مفكرة من داخل جيب بنطلونه الخلفي، وبسرعة فر الأوراق بسبابته مبللة بلسانه، ثم قرأ بعد ذلك إحدى الصفحات، ساحبًا ظهر ظفر أصبعه إلى أعلى الصفحة، بينما يمضي في القراءة. نظر إلى رابان، بينما كان يتطلع إلى أعلى، ولم يدر وجهه في الحقيقة بعيدًا عن رابان عندما بدأ يتحدث عن أسعار الدوبارة، بل كان يحدق، كما يحدق شخص بثبات إلى هدف ما لكي لا ينسى شيئًا مما يود أن يقوله. وفي الوقت نفسه سحب حاجبيه فوق عينيه إلى أسفل بشدة، وأمسك بالمفكرة نصف المغلقة في يده اليسرى بإبهامه فوق الصفحة التي كان يقرأها؛ لكي يمكنه أن يشير إليها بسهولة لو كان في حاجة إليها. وكانت المفكرة تهتز؛ لأنه لم يكن يسند ذراعه فوق أي شيء، وكانت العربة التي كانت تتحرك الآن تدق فوق القضبان مثل مطرقة.

كان المسافر الآخر مائلًا إلى الخلف، يستمع ويطرق برأسه في فترات منتظمة؛ كما كان من الواضح أنه أبعد ما يكون عن الموافقة على كل شيء، وأنه سوف يعلن رأيه الخاص فيما بعد.

وضع رابان يديه المطويتين براحتيهما إلى أسفل على ركبتيه مائلًا إلى الأمام، ورأى بين رأسي المسافرَيْن، النافذة، وعبرها أضواء تومض إلى الخلف وأخرى تومض إلى البعد. لم يستطع أن يفهم أي شيء مما كان

المسـافر يتحـدث عنـه، ولا كـان يفهم إجابـة الآخـر. اسـتعدادات كثير سـتكون مطلوبـة أولًا، لأنـه كـان هنـاك نـاس مشـغولون بالبضـائع منذ شبابهم، لكن لو أن المرء قد أمسك طويلًا إلى هـذا الحـد ببكـرة دوبـارة في يده، ويناولها إلى هذا الحـد غالبًـا لزبونـه، عندئـذ فـإن المـرء يعـرف الثمن، ويمكنه أن يتحدث عنه، وبينما تهب القـرى في اتجاهنـا وتنـدفع إلى الجهـة العكسـية، على حين تسـتدير متباعـدة في الـوقت نفسـه إلى أعماق الريف حيث لا بد لها من أن تختفي بالنسبة لنا. إلّا أن هذه قـرى مأهولة بالسكان، ويوجد بها ربما باعة متجولـون ينتقلـون من متجـر إلى آخر.

وفي ركن عند الطرف الأقصى من العربة وقف رجل طويـل ممسـكًا في يـده بـأوراق لعب وصـاح: «أقـول يـا مـاري، هـل حـزمت القمصـان الزفير؟»، وردت المرأة الـتي كـانت تجلس قبالـة رابـان: «بـالطبع فعلت ذلك». كان يغلب عليها النوم، وكان السؤال يوقظها بين الحين والآخر، فكانت تجيب كمـا لـو كـانت تتحـدث إلى نفسـها أو إلى رابـان. سـألها المسافر الذي تفعمه الحيوية: «أنت ذاهبة إلى السـوق في يونجبنتسـلاو، هه؟»: «يونجبنتسلاو، هذا صحيح». «إنها سوق كبيرة هذه المـرة، أليس كـذلك؟»: «سـوق كبـيرة هـذا صـحيح»، كـانت نعسـانة، وكـانت قـد أسندت كوعها الأيسر إلى بقجة زرقاء ورأسـها يهبـط بتثاقـل على يـدها التي انضغطت في لحم الخد.

قال المسافر: «كم هي صغيرة».

وأخرج رابان النقدية التي كان قد تسلمها من صراف المحطة من جيب معطفه وأعاد عدّها، وأمسك بكل قطعة عملة واضعًا إياها بين أصبعي إبهامه وسبابته لوقت طويل، وحرفها على هذا النحو وذلك على النحو الآخر على راحة سطح إبهامه بطرف سبابته. وتطلع لوقت طويل إلى صورة الإمبراطور على قطعة العملة، ثم فاجأه إكليل الغار والطريقة التي ثبت بها بعقد وأقواس من الشرائط عند خلفية الرأس. وأخيرًا وجد أن المبلغ كان صحيحًا، ووضع النقود بداخل كيس أسود كبير. لكنه الآن وبينما كان على وشك أن يقول للمسافر: «إنهما زوجان، ألا تظن ذلك؟» توقف القطار توقفت حركة الرحلة، وصاح الحراس باسم مكان ما، ولم يقل رابان شيئًا.

وبدأ القطار يتحرك ثانية ببطء بالغ، حتى كان في استطاعة المرء أن يتصور ثورة العجلات لكن بعد لحظة كان القطار يسرع وكأنه في سباق هابطًا منحدرًا، وفجأة على غير توقع كانت القضبان الطويلة لأحد الكباري خارج النوافذ قد انتزعت بعيدًا عن بعضها البعض، وبدا كما لو أنها قد انضغطت معًا.

كان رابان الآن مسرورًا؛ لأن القطار كان ينطلق بسرعة بالغة، ذلك أنه لم يكن راضيًا عن البقاء في المكان الأخير. «عندما تكون الدنيا ظلامًا هناك، وعندما لا يعرف المرء أن أحدًا هناك، وعندما تكون المسافة إلى موطن المرء بعيدة كل هذا البعد. لكن لا بد عندئذٍ أن يكون كل شيء هناك مزعجًا في النهار. وهل يختلف الأمر عند المحطة التالية؟ أو عند المحطات السابقة؟ أو عند القرية التي أنا ذاهب إليها؟».

كان المسافر يتحدث فجأة بصوت بالغ الارتفاع. وقال رابان لنفسه: «إن المسافة طويلة لا تزال». «يا سيدي أنت تعلم تمامًا كما أعلم، أن هؤلاء الصناع يرسلون باعتهم الجوالين ليطوفوا بتلك القرى الصغيرة التي هجرها الرب، إنهم يذهبون زاحفين إلى أردأ أصحاب المحال الصغار، وهل تظن أنهم يعرضون عليهم أسعارًا مختلفة عن تلك الأسعار التي يقدمها لنا كبار رجال الأعمال؟ يا سيدي، خذها مني، هم يقدمون لنا نفس الأسعار تمامًا، أمس فقط رأيتها واضحة كل الوضوح، وأنا أطلق عليها جريمة، إنهم يعتصرون وجودنا، وتحت ظل الظروف الحالية، فإنه ببساطة من المستحيل لنا أن نقوم بعمل تجاري».

مرة أخرى تطلع إلى رابان، لم يكن خجلًا من الدموع التي في عينيه، ضغط مفاصل أصابع يده اليسرى إلى فمه لأن شفتيه كانتا ترتعشان؛ ومال رابان إلى الخلف، وجذب شاربه بضعف بيده اليسرى.

واستيقظت البائعة في مواجهته، وبابتسامة مرت بيديها فوق جبهتها، وتكلم المسافر بهدوء أكثر، ومرة أخرى غيرت المرأة وضعها كما لو كانت تستقر في جلستها لكي تنام، نصف مستندة إلى بقجتها، وتنهدت. وفوق ردفها الأيمن كانت النقبة مشدودة بإحكام. خلفها كان يجلس سيد بقبعة سفر فوق رأسه، يقرأ في صحيفة كبيرة، وكانت الفتاة المواجهة له، والتي ربما كانت من أقاربه، طلبت منه —وكانت مائلة في الوقت نفسه برأسها نحو كتفها اليمنى— أن يفتح النافذة؛ لأن الجو كان شديد الحرارة. قال، دون أن ينظر إلى أعلى، إنه سوف يفعل

ذلك في لحظة، فقط لا بد له أن يفرغ من قراءة مقالة في الصحيفة، وعرض عليها المقالة التي يقصد قراءتها.

لم تستطع المرأة البائعة أن تستغرق في النوم ثانية، اعتدلت في جلستها، وتطلعت خارج النافذة، ثم تطلعت لوقت طويل إلى المصباح الغازي وإلى الشعلة التي تتقد بلون أصفر بالقرب من سقف العربة، وأغلق رابان عينيه لفترة قليلة.

وعندما تطلع إلى أعلى، كانت المرأة البائعة تقضم في قطعة من الكعك مغطاة بمربى بنية اللون، وكانت البقجة التي إلى جوارها مفتوحة. وكان المسافر يدخن سيجارًا في صمت، وظل يطرق السيجار كما لو كان ينفض الرماد من طرفه. وكان الآخر يعالج بطرف سكين أجزاء داخلية لساعة جيب، حتى كان من الممكن سماع صوت الكشط فيها.

وبعينين اقرب إلى أن تكونا مغلقتين، كان لدى رابان وقت لا يزال لكي يرى على نحو غائم، السيد بقبعة السفر قد سحب السير الجلدي للنافذة، وهبت نفحة من الهواء البارد، وسقطت قبعة من القش من فوق أحد الأرفف. وظن رابان أنه كان قد استيقظ، وأن هذا كان هو سبب انتعاش خديه، أو أن أحدًا كان يفتح الباب ويجذبه إلى داخل الحجرة، أو أنه كان على نحو ما مخطئًا فيما يتعلق بأشياء ما، وسرعان ما استغرق في النوم، متنفسًا بعمق.

(2)

درجات سلم العربة كانت مهتزة قليلًا لا تزال، عندما هبط فوقها رابان، وطرقت وجهه في قدومه من هواء العربة قطرات المطر، وأغلق عينيه. كانت تمطر بصخب فوق السطح الحديدي المتموج لمبنى المحطة، لكن في الخارج، في الريف المفتوح كان المطر يسقط على نحو يصدر فيه صوتًا كصوت هبوب الريح الذي لا ينقطع. وجاء طفل حافي القدمين يجري —لم ير رابان جاء ـ وبأنفاس متقطعة طلب من رابان أن يدعه يحمل الحقيبة، لأن المطر كان يسقط، لكن رابان قال: «نعم، إنها كانت تمطر، وأنه على هذا سوف يذهب بالأمنيبوس، وقال إنه لا يحتاجه، وعلى هذا كشر الصبي كما لو يظن أنه من الأنسب أن يمضي المرء في المطر، وتكون حقيبته قد حملها آخر بدلًا من الذهاب بالأمنيبوس، وفي الحال استدار وانطلق في الجري مبتعدًا. وعندما أراد رابان أن يناديه، كان الوقت قد فات.

كانت توجد لمبتان مضيئتان يمكن رؤيتهما، وخرج من أحد الأبواب أحد موظفي المحطة، ومضى بلا تردد يسير تحت المطر إلى القاطرة، وهناك توقف بلا حركة، عاقدًا ذراعيه، وانتظر حتى مال سائق القاطرة إلى حاجزه، وتحدث إليه. وجاء حمَّال كان قد تم استدعاؤه، ثم أرسل من حيث جاء ثانية. وكان يوجد ركاب كثيرون واقفون عند كثير من النوافذ في القطار، ولما كان كل ما كان عليهم أن يتطلعوا إليه مجرد محطة ركاب عادية، كانت نظراتهم ربما بدت كابية. انغلقت جفون

العيون معًا، بينما كان القطار يتحرك. والبنت التي كانت قد جاءت مسرعة إلى الرصيف من الشارع تحت مظلة تزينها زهور مشغولة في أعلاها، وضعت المظلة المفتوحة فوق الأرض وجلست فاردة ساقيها بعيدًا إحداهما عن الأخرى حتى يمكن لجونيلتها أن تجف على نحو أسرع، وراحت تسحب أطراف أصابعها فوق الجونيلة المفرودة. كان يوجد فقط مصباحان مضاءان، فكان يصعب تمييز ملامح وجهها. والحمَّال الذي مرّ بها كان يتشكى من أن البرك الموحلة كانت تتكون تحت الشمسية، ورفع ذراعيه أمامه في شبه دائرة لكي يشير إلى حجم هذه البرك، ثم حرّك ذراعيه في الهواء، واحدًا بعد الآخر، كأسماك تغطس في مياه عميقة، لكي يوضح أن حركة المرور كانت هي أيضًا قد اعترضت طريقها هذه الشمسية.

بدأ القطار في السير، اختفى مثل باب طويل منزلق وخلف أشجار الحور على الجانب الأبعد لمسار الخط الحديدي، كان المنظر الخلوي البالغ الكثافة حتى ليأخذ بالأنفاس. فهل كان منظرًا معتمًا خلال فجوة؟ أو أنها كانت الغابة؟ هل كانت بركة ماء؟ أو كانت بيتًا في داخله ينام الآن كل الناس؟ هل كان برجًا لكنيسة؟ أو كان هوّة بين التلال؟ لا أحد قد يتجاسر على الذهاب إلى هناك، لكن من الذي أمكنه أن يتمالك نفسه؟

وعندما لمح رابان الموظف —كان بالفعل يصعد الدرج إلى مكتبه— جرى أمامه وأوقفه.

«اسمح لي من فضلك، هل المسافة إلى القرية بعيدة؟ فهذا هو المكان الذي أريد الذهاب إليه».

«لا، إنها مسافة تستغرق ربع الساعة، لكن بالأتوبيس، ـ بما أنها تمطر ـ ستكون هناك في خمس دقائق».

قال رابان: «إنها تمطر، إنه ليس ربيعًا صحوًا للغاية».

كان الموظف قد وضع يده على مؤخرته، وخلال المثلث الذي شكله الذراع والجسد، رأى رابان الفتاة، التي كانت قد أغلقت الشمسية الآن؛ فوق المقعد حيث جلست.

«لو أن المرء كان ذاهبًا إلى إجازته الصيفية الآن، وكان ينوي أن يبقى هناك فإنه لا يسعه سوى أن يأسف لذلك. وبالفعل كنت قد فكرت في أنني سوف أجد من يكون في استقبالي». تطلع حوله كي يجعل الفكرة تبدو مقبولة.

«أخشى أن الأتوبيس سوف يفوتك، إنه لا ينتظر طويلًا، لا شيء يمكن أن تشكرني عليه؛ هذا هو الطريق، بين الأسيجة».

لم يكن الطريق خارج محطة السكة الحديد مضاء؛ فقط من خلال ثلاث نوافذ في طابق أرضي في المبنى جاء ضوء ضبابي، إلّا أنه لم يمتد إلى بعيد. سار رابان على أطراف أصابع أقدامه خلال الوحل وصاح: «سائق». و«هيّا أنت هناك». و«أمنيبوس» و«ها، أنا هنا» عدة مرات. لكن عندما استقر وسط برك لا تكاد تنفصل إحداها عن الأخرى في الجانب المعتم من الطريق، كان عليه أن يتجول متقدمًا إلى الأمام،

بكعـوب أقدامـه على الأرض، حـتى لمس جبهتـه فجـأة خطم مبتـل لحصان.

هنالك كان الأمنيبوس، صعد بسرعة إلى داخل الديوان الخـالي، وجلس إلى جوار لوح زجـاج النافـذة خلـف صـندوق السـائق، وحـني ظهـره في الركن، ذلك أنـه كـان قـد فعـل كـل مـا هـو ضـروري. فلـو كـان السـائق مستغرقًا في النوم، فسوف يستيقظ قرب الصباح؛ ولو كان ميتًا، فسوف يجيء عندئـذ سـائق جديـد، أو صـاحب الحانـة، وإذا لم يحـدث ذلـك أيضًا، فسوف يجيء الركـاب في قطـار الصباح البـاكر. نـاس مسـرعون محدثون ضـجة. على أي حـال يمكن للمـرء أن يكـون هادئًا، ويمكن لـه حتى أن يسدل الستائر فوق النوافذ وينتظر الهـزة الـتي لا بـد بهـا أن تبـدأ المركبة في السير.

«نعم، بعد كل شيء أنجزته بالفعل فمن المؤكد أنـني غـدًا سـوف أصـل إلى بيتي وإلى ماما، ولا أحد يمكنه أن يمنعني من ذلك. إلّا أنه صـحيح، وكان من الممكن توقعه حقًّا، أن رسالتي سوف تصـل فقـط غـدًا، حـتى إنه ليمكنني تمامًا، أن أكـون قـد بقيت في المدينـة وقضـيت ليلـة ممتعـة عنـد (إلفي)، من دون أن يكـون عليَّ أن أخـاف من عمـل اليـوم التـالي، وهو ذلك الشيء الذي يدمر ــ خلافًا لذلك ــ كل متعة بالنسـبة لي. لكن انظر لقد تبللت قدماي».

أشـعل عقب شـمعة كـان قـد أخرجـه من جيب معطفـه، ووضـعه فـوق المقعـد المقابـل. كـان الضـوء سـاطعًا بمـا يكفي، والظلام في الخـارج

جعل ذلك يبدو كما لو أن الأمنيبوس كانت له جدران سوداء تفسد أثر الضوء، وبلا زجاج في النوافذ. لم يكن هناك حاجة إلى الظن بأنه كانت هناك عجلات تحت أرضية العربة، وفي الأمام يوجد حصان بين العريشين. حك رابان قدميه كليهما فوق المقعد وجذب جوارب نظيفة، واعتدل في جلسته، ثم سمع شخصًا ما يصيح من المحطة: «هاي، لو كان يوجد أي شخص في الأتوبيس، فربما كان قد قال مثل ذلك». أجابه رابان، مائلًا إلى خارج الباب الذي كان قد فتحه، ممسكًا بعمود الباب بيده اليمني، ويده اليسرى مرفوعة مفتوحة راحتها بالقرب من فمه: «نعم، نعم، وأنه سوف يسره أن يبدأ الرحيل الآن هو أيضًا تدفق المطر إلى أسفل قفاه خلف ياقته».

وجاء السائق ملفوفًا بقماش تيل لجوالين كانا قد انشقا، وانعكاس ضوء فانوس الإسطبل يتنقل فوق البرك عند قدميه، وبدأ يقدم في سرعة مهتاجة تفسيرًا، عندما قال استمع هنا إلى ما حدث، فلقد كان يلعب الورق مع (ليبيدا)، وأنّهما كانا يمضيان لعبهما معًا على نحو رائع عندما جاء القطار. وكان من المستحيل في الحقيقة أن يلقي بنظره إلى الخارج عندئذ، ولم يكن قد قصد مع ذلك أن يسيء إلى أحد لم يكن قد فهم ذلك وبصرف النظر عن هذا، فإن المكان هنا كان بالغ الكآبة، ولم تكن هناك حلول وسط وكان من الصعب أن يرى المرء أي مهمة عمل يمكن لسيد مثل هذا أن يقوم بها هنا، وأنه سوف يكون قد وصل إلى القرية هناك سريعًا بما فيه الكفاية فورًا على أي حال، وعلى هذا فلم يكن بحاجة إلى أن يذهب ليشكو في أي مكان. الآن فقط تحديدًا لو

سمحت هذا هو (هر —بيركر شوفر) الموظف الكاتب المساعد الأصغر —قد جاء، وقد قال إنه ظن أن شابًّا وجيهًا كان يريد أن يذهب بواسطة الأمنيبوس. حسنًا، وعلى هذا، فها هو قد جاء في الحال، وسأل، أم أنه لم يكن قد جاء في الحال وسأل.

كان الفانوس مربوطًا في نهاية عمود العربة، ولما كان الحصان قد تم الصياح له في صوت مكتوم، قد بدأ يجر العربة، وكان الماء فوق العربة، وقد تحرك الآن، قد بدأ يتقطر ببطء من خلال شدخ إلى داخل العربة.

ربما كان الطريق طريق تلال، بالتأكيد كان يوجد وحل يتطاير مرتفعًا إلى ما بين شعاع دولاب العجلات، فتكونت مراوح من مياه الوحل بصوت يندفع خلف العجلات الدائرة، وكان السائق بالجزء الأكبر من العنان المرسل قد ساس الحصان الذي يتقطر منه الرذاذ ـ ألم يكن لهذا كله أن يجري استخدامه كأشكال من التأنيب ضد رابان؟ كثير من البرك قد أُضيئت على غير توقع بواسطة الفانوس المهتز فوق عمود العربة، وانقسمت في تموجات تحت العجلة. حدث هذا فحسب لأن رابان كان راحلًا إلى خطيبته، إلى (بيتي)، فتاة متقدمة في العمر جميلة. ومَنْ إذا كان للمرء أن يتحدث عن ذلك أساسًا، سوف يقدر أي مزايا قد حازها هنا رابان، حتى لو كانت مجرد أنه تحمل تلك الانتقادات التي لا يمكن لأحد بلا شك أن يوجهها صراحة. بالطبع كان هو يفعل ذلك بسرور، كانت (بيتي) خطيبته، وكان مغرمًا بها. وسيكون من دواعي

القرف لو كان لها أن تشكره على ذلك أيضًا، ومع ذلك فالأمر يتساوى في كلا الحالين.

ومن دون أن يقصد ذلك غالبًا ما صدم رأسه في اللوح الزجاجي الذي كان يميل عليه، ثم كان للحظة قد يتطلع إلى أعلى، إلى السقف، وانزلقت يده اليمنى مرة من فوق فخذه، حيث كان يسندها، إلّا أن كوعه ظل في الزاوية بين البطن والساق.

كان الأمنيبوس يرحل الآن بين البيوت هنا وهناك، وكان داخل المركبة قد بلغه نصيب من الضوء صدر عن إحدى الحجرات، وكانت هناك بعض درجات سلم —ولكي يرى أول هذه الدرجات، كان على رابان أن ينهض واقفًا—، ودرجات مبنية لإحدى الكنائس، وخارج بوابة حديقة ميدان كانت توجد لمبة بداخلها شعلة ضخمة تشتعل بداخلها. إلّا أن تمثالًا لأحد القديسين كان قد تبدى في شكل خارجي معتم، بسبب الضوء الصادر عن متجر للملابس، ورأى رابان شمعته التي كانت قد احترقت لآخرها، وكانت قطرات الشمع تتدلى هامدة من المقعد.

عندما توقف الأمنيبوس أمام الحانة، وكان يمكن سماع صوت المطر مرتفعًا و—ربما كانت هناك نافذة مفتوحة—، وأيضًا سماع أصوات الزبائن، تعجب رابان أيهما سيكون أفضل أن يغادر العربة في الحال إلى الخارج، أو أن ينتظر حتى يجيء صاحب الحانة إلى العربة لم يكن يعرف ماذا كانت العادة المتبعة في هذه المدينة، إلا أنه كان من المؤكد تمامًا أن (بيتي) لا بد أنها كانت قد تحدثت مع خطيبها، وتبعًا لكون

وصوله إلى هنا كان رائعًا أو كان استقباله هينًا، فسوف يـزداد الاعتبـار الذي كانت تتمتع بـه هنـا، أو يتنـاقص، وبهـذا مـرة أخـرى سيتم تقـدير مكانته هو أيضًا. لكن بالطبع لم يكن يعرف لا مـا كـان يشـعر بـه النـاس عنها، ولا ماذا كانت هي قد أخبرتهم به، عنه هو، وهكذا كان كل شـيء صعبًا وغير مُرْضٍ. يا لجمال المدينة! وكم هو جميـل طريـق العـودة إلى الموطن. لو أمطرت الدنيا هناك فإن المرء يعود إلى المنزل بـالترام فـوق أحجار رصف مبللة، وهنا يذهب المرء في عربة عامة خلال الوحل، إلى حانـة مـا.ـ المدينـة بعيـدة عن هنـا، ولـو أنـني كنت في خطـر مواجهـة الموت من وحشـة الحـنين إلى المـوطن، فلا أحـد يسـتطيع أن يعـود بي اليوم إلى هناك.ـ حسنًا، على أي حال لا ينبغي أن أموت —لكنني هنـاك أحصل على الوجبة المتوقعة لتلك الليلـة موضـوعة فـوق المائـدة، وإلى يمين طبقي تكون الصحيفة موجودة، والمصباح إلى اليسار، هنـا سـوف أحصـل على طبـق دسـم إلى حـد مخيـف.ـ إنهم لا يعرفـون أن معـدتي ضعيفة، وحتى لو كانوا قد عرفوا —عن صحيفة غير معهودة.ـ كثير من النـاس، الـذين أسـمعهم الآن بالفعـل سـيكونون هنـاك، وسـوف يضـاء مصـباح واحـد للجميـع. فـأي نـوع من الإضـاءة يمكن أن يتيحـه هـذا المصباح؟ ضوء يكفي للعب الورق.ـ لكن لقراءة صحيفة؟

«لن يجيء صاحب الحانة، إنه غير مهتم بالضيوف، هو ربمـا ليس رجلًا ودودًا أو هل هو يعلم أنني خطيب (بيتي)، وهل يمنحه ذلك مبررًا لعدم المجيء لكي يرحب بي في الحانة، سيكون تبعًـا لـذلك أن السـائق كـان قد تركني أنتظر تلك المدة الطويلة عند المحطة. كانت (بيتي) غالبًـا مـا

أخبرتني بعد كل شيء، إلى أي حد كانت تعاني من الرجال الشهوانيين، وكيف كان عليها أن تصد إلحاحهم، ربما أن ذلك هنا أيضًا...».

(وينقطع النصّ)..

الصياغة الثانية (ب)

عندما تقدم إدوارد رابان على امتداد الممر نحو الباب المفتوح، استطاع الآن أن يرى أنها كانت تمطر، لم تكن تمطر كثيرًا.

أمامه على الرصيف مباشرة لا إلى الأعلى، ولا إلى الأوطأ، كان هناك ـ على الرغم من المطرـ كثير من المارّة، وبين كل حين وآخر، كان أحدهم قد يتقدم ويعبر الشارع.

كانت بنت صغيرة تحمل كلبًا رماديًّا فوق ذراعيها الممدودتين، واثنان من السادة يتبادلان معلومات عن موضوع ما، وفي أحيان كانا يديران كل الجزء الأعلى من جسديهما أحدهما إلى الآخر، ثم ببطء يستديران جانبًا كلاهما ثانيًا، كان ذلك مثل أبواب نصف مفتوحة في الريح، أحدهما يرفع يديه براحتيهما إلى أعلى، رافعًا إياهما وخافضًا لهما في حركة منتظمة كما لو كان يوازن ثقلًا محمولًا، يحاول أن يقيس وزنه. ثم لمح أحدهم سيدة نحيلة وجهها يرتعش قليلًا، مثل الضوء المترجرج للنجوم، وقبعتها المسطحة كانت محملة عاليًا، وحتى حافتها، بأشياء يصعب التعرف عليها، وبدا أنها غريبة لكل المارة، دون أن تقصد ذلك، وكما لو كان ذلك طبقًا لقانون ما؛ وكان شاب يمر بهم مسرعًا معه عصا رفيعة للمشي، كانت يده اليسرى، وكأنها كانت مشلولة، ملقاة مفرودة فوق صدره. وكان كثيرون خارجين لأعمال تجارية، على الرغم من حقيقة أنهم كانوا يسيرون مسرعين، كان المرء يراهم وقتًا أطول مما يرى غيرهم، حينًا فوق الرصيف وحينًا آخر تحت

الرصيف، وكانت معاطفهم تبدو غير متناسبة مع أجسادهم، لم يكن يعنيهم كيف يحملون أنفسهم، استسلموا لدفعهم بتدافع الناس، وقاموا بدفع غيرهم أيضًا. وثلاثة من السادة، اثنان يمسكان بمعاطف خفيفة الوزن فوق سواعدهم المعقوفة —ساروا من واجهة المبنى إلى حافة الرصيف؛ لكي يستطلعوا ما الذي يجري حدوثه في مسار المركبة، وفوق الرصيف الأكثر بُعدًا.

خلال الفجوات بين المارة، رأى أحدهم في سرعة، ثم في رؤية متمعنة الأحجار المرصوفة بانتظام لطريق العربة التي كان تسير فوقها المركبات التي تتمايل فوق عجلاتها، كانت تنجر في سرعة بواسطة خيول محنية أعناقها إلى الأمام. وكان الناس الذين جلسوا في ارتياح فوق المقاعد المنجدة يحدقون في صمت إلى المارة المشاة، وإلى المحلات التجارية، والشرفات، وإلى السماء. ولو حدث أن لحقت إحدى المركبات بمركبة أخرى، كانت تنضغط الخيول أحدها إلى الآخر، وسيور العدة تتدلى منها معلقة. كانت الخيول مشدودة إلى أعمدة عريش كل مركبة، وتنطلق المركبة في خفة وتتمايل، بينما تتزايد سرعتها إلى أن يتم الانحراف حول المركبة التي تقدمتها وتكون الجياد قد تحركت متباعدة مرة أخرى عن بعضها البعض وهي لا تزال برؤوسها الضيقة مائلة أحدها إلى الآخر.

وأسرع سيد متقدم في العمر نحو المدخل الخارجي، وتوقف فوق رصيف الموزاييك الجاف، واستدار، ثم حدق عندئذ في المطر، الذي كان قد اندس داخلًا إلى المكان بواسطة ضيق الشارع وتساقط متناثرًا.

وضع رابان حقيبة يده التي يغطيها الغطاء القماش الأسود اللـون، محنيًّا ركبته اليمنى قليلًا وهو يفعل ذلك. وكان ماء المطر يجري بالفعل على امتداد حافة طريق المركبة في شريط امتد على الأغلب إلى البالوعات التي في أسفل.

وقف السيد المتقدم في السن معتدل القامة بالقرب من رابان الذي كان يدعم نفسه قليلًا باعتماده على عمود الباب الخشبي، ومن حين لآخر ألقى نظرة نحو رابان، حتى إنه لكي يفعل ذلك، كان عليه أن يلوي عنقه ليًّا حادًّا. إلا أنه فعل ذلك فقط بدافع من الرغبة الطبيعية. والآن حيث إنه لم يكن منشغلًا بملاحظة كل شيء بالضبط، على الأقل فيما يتعلق بما هو قريب منه. وكانت نتيجة هذه النظرات التي بلا هدف، كانت لأنه كان يوجد كم كبير من الأشياء لم يكن قد لاحظها.

لهذا، على سبيل المثال، فاته أن يلاحظ أن شفتي رابان كانتا شاحبتين؛ ليستا أقل شحوبًا إلى حد يتجاوز الاحمرار الحائل جدًّا لربطة عنقه، التي كانت ذات طراز مغربي لافت للنظر. والآن لو كان قد لاحظ ذلك، لكان بلا شك قد أحدث ضجة حوله، على الأقل داخليًّا، وهو ما كان مرة أخرى لا يعد هو الشيء الصحيح، ذلك أن رابان كان شاحبًا دائمًا، حتى لو كان ذلك حقيقة واقعة؛ أشياء عديدة ربما كانت قد جعلته مرهقًا أخيرًا بصفة خاصة.

قال السيد في صوت خفيض، وهو يهز رأسه في وعي، وهو ما يعد حقيقيًّا، وإن كان ذلك لا يزال في صورة تتصف قليلًا بالخرف: «يا له

من طقس!».

قال رابان بسرعة، معتدلًا تمامًا في هيئته: «نعم، حقًّا، وعندما يكون المرء من المفترض أن يبدأ رحلة أيضًا».

قال السيد، ولكي يتأكد مرة أخرى للمرة الأخيرة انحنى إلى الأمام لكي يتفحص المكان حتى آخر الشارع، ثم لكي ينظر إلى أوله أيضًا، ثم إلى السماء: «إنه ليس نوع الطقس الذي سوف يتحسن، إنه قد يستمر لأيام، وحتى لأسابيع، لأقصى ما يمكنني أن أتذكر، لا شيء أفضل يمكن التنبؤ به لشهر يونيو ولأوائل شهر يوليو.

حسنًا، إنه لا يعد متعة لأي شخص. أنا، على سبيل المثال، يمكنني أن أستغنى عن خرافة رياضة المشي التي أقوم بها، وهي التي تعد هامة إلى أقصى حد بالنسبة لصحتي».

عند هذا تثاءب، وبدا وكأنه قد أصبح منهكًا، بما أنه كان قد استمع الآن إلى صوت رابان ومشغولًا بهذه المحادثة. لم يعد يلقي بالًا بعد ذلك لأي شيء، ولا حتى بالمحادثة.

وقد كان لهذا وقعه على رابان، بما أنه بعد كل شيء، كان هو من توجه السيد إليه بالحديث أولًا، وأنه على هذا كان قد حاول أن يستعرض نفسه قليلًا، على الرغم من أن ذلك ربما قد لا تتم ملاحظته، قال: حقًّا، في المدينة يستطيع المرء بسهولة بالغة أن يستغني عما ليس مفيدًا له، فلو لم يستغن عنه، فلن يكون على المرء عندئذ ألّا يلوم إلا نفسه على العواقب السيئة. سيكون المرء آسفًا، وبهذه الطريقة سوف يمكنه أن

يـرى للمـرة الأولى حقًا، بوضـوح، كيـف يمكن أن يتصـرف في المـرة التالية، وحتى لو في مسائل تتعلق بالتفاصيل.

... (صفحتان مفقودتان)...

«أنا لا أقصـد أي شـيء بـذلك، لا أقصـد أي شـيء مطلقًـا» أسـرع رابـان بقوله أنه مستعد لأن يعذر غياب ذهن السيد بأي طريقة ممكنة، بمـا أنـه في النهاية كان قد أراد أن يتظاهر مزيـدًا من التظـاهر، «إنهـا كلهـا تمامًـا من الكتاب الذي سبق ذكره، والـذي كنت مثـل آخـرين أقـرؤه أخـيرًا في المساء، لقد كنت وحيدًا على الأغلب، نظرًا لظروف عائلية، كمـا تـرى. لكن بصرف النظر عن أي شيء آخر، فإنه كتابًا جيـدًا هـو أكـثر مـا أحب بعد العشاء. دائمًا كنت هكذا. وأخيرًا قرأت في النشرة التمهيدية اقتباسًا من كاتب مـا أو آخـر: «كتـاب جيـد هـو أفضـل مـا يوجـد»، وهـذا حـق بالفعل، إن الأمر هكذا، كتاب جيد هو أفضل صديق في الوجود».

قال السـيد: «نعم، عنـدما يكـون المـرء صـغيرًا —» وهـو لا يقصـد بهـذا القول شيئًا بذاته. مجرد أنه كـان يريـد أن يشـير إلى كيـف كـانت الـدنيا تمطر، وأن المطر كان أكثر غزارة مرة أخرى، وأنها الآن لم تكن بسبيلها إلى أن تتوقف عن المطر مطلقًا، لكن بالنسبة لرابان بـدا الكلام كمـا لـو أن السـيد، في السـتين من عمـره مـا زال يعتـبر نفسـه صـغيرًا ومفعمًـا بالحيوية، واعتبر رابان ذا الثلاثين سـنة من العمـر لا شـيء بمقارنتـه بـه، وكمـا لـو كـان يريـد أن يقـول بالإضـافة إلى ذلـك، بقـدر مـا كـان من الممكن السماح به، إنه في سن الثلاثين كان أكثر حسًّـا من رابـان. وإنـه

يعتقد حتى لو لم يكن لدى المرء شيء ليفعله، مثله هو شخصيًّا على سبيل المثال، هو الرجل العجوز. إلّا أنها كانت تعد حقًّا إضاعة لوقت المرء أن يقف هنا في هذا البهو يتطلع إلى المطر، لكن لو أن المرء قد قضى الوقت، علاوة على ذلك في الثرثرة، فإنه يكون قد أضاع وقته مضاعفًا.

والآن أعتقد رابان أنه لوقت ما، لا شيء قد قاله أناس آخرون عن إمكانياته أو آرائه كان من الممكن أن يؤثر فيه، بل على العكس، إنه كان قد هجر عمليًّا الوضع الذي كان فيه قد استمع بإذعان تام إلى كل ما قيل، حتى إن الناس كانوا الآن قد أخذوا أنفاسهم سواء تصادف أن كانوا ضده أو كانوا معه. وهكذا قال: «إننا نتكلم عن أشياء مختلفة، ما دام أنك لم تكن قد انتظرت لتسمع ما كنت بسبيلي إلى أن أقول».

قال السيد: «من فضلك استمر، من فضلك استمر».

قال رابان: «ليس هناك ما هو بالغ الأهمية، كنت فقط بسبيلي إلى أن أقول إن الكتب مفيدة تمامًا وبكل المعاني، وخاصة في مقام قد لا يتوقعها المرء فيه، ذلك أن المرء عندما يكون بسبيله إلى أن يباشر العمل في مشروع ما، فإن الكتب تحديداً، التي لا تتضمن مطلقًا شيئًا مطلقًا مشتركًا مع المشروع الذي هو الأكثر فائدة. ذلك أن القارئ الذي ينوي في النهاية أن يباشر العمل في ذلك المشروع، أي أن تقول، القارئ الذي قد أصبح متحمسًا على نحو ما (وحتى لو أنه، كما يقال، كان تأثير الكتاب من الممكن أن يتخلل فقط بقدر ما يتيحه له ذلك

التحمس)، فإنه سيجد لديه الحافز بواسطة الكتاب لكل أنواع التفكير التي تتعلق بهذا المشروع. والآن، مع ذلك، ما دام أن مضامين الكتاب هي أشياء تتصف تحديداً بكل اللا مبالاة، فإن القارئ لن يكون قد وجد أي إعاقة في تلك الأفكار، ويكون مروره خلال وسط الكتاب، ومعه هذه الأفكار، كما مرّ اليهود ذات مرة عبر البحر الأحمر، وهذا هو النحو الذي يروق لي أن أقره بخصوص ذلك».

بالنسبة لرابان، كان شخص السيد العجوز كله قد اتخذ الآن تعبيرًا غير سار، لقد بدا له كما لو أنه كان قد انجذب بصفة خاصة لصقًا به —إلّا أن ذلك كان مجرد شيء عارض.

...(صفحتان مفقودتان)...

الصحيفة أيضًا. إلّا أنني كنت على وشك أن أقول، إنني فقط ذاهب إلى الريف، وهذا هو كل شيء، فقط لمجرد أسبوعين، إنني في إجازة، لأول مرة لمدة طويلة تمامًا، وإنها لإجازة ضرورية أيضًا لأسباب أخرى، إلا أنه على سبيل المثال، كتاب كنت، كما قد ذكرت، أقرؤه أخيرًا، قد علمني الكثير عن رحلتي الصغيرة أكثر مما أمكنك أن تتصور».

قال السيد: «إنني أستمع».

كان رابان صامتًا، واقفًا هناك معتدل القامة تمامًا، وضع يديه في داخل جيوب معطفه، والتي كانت بالغة الارتفاع. فقد ـ بعد فترة ـ كان السيد العجوز قد قال:

«هذه الرحلة تبدو رحلة لها أهمية خاصة بالنسبة لك».

قال رابان، وقد دعم نفسه مرة أخرى مستندًا إلى عمود الباب: «حسنًا، أنت ترى أنت ترى...»، الآن فقط كان قد رأى كيف كان الممر قد امتلأ بالناس، كانوا يقفون حتى حول قدم السلم، وأحد الموظفين ـ ذلك الذي كان قد استأجر حجرة في الشقة التي تخص المرأة كما فعل رابان ـ كان عليه أن يسأل الناس أن يفسحوا له الطريق عندما هبط السلم. ولرابان الذي أشار فقط إلى المطر، كان قد نادى عليه من فوق عدة رؤوس استدارت الآن كلها إلى رابان: «رحلة سعيدة لك»، وأعاد ترديد وَعْد، كان قد وعده قبلًا، وهو أن يزور رابان يوم الأحد التالي.

...(صفحتان مفقودتان)...

لتكن لك وظيفة سارة، كان في الحقيقة راضيًا عنها، وكانت دائمًا محفوظة، ومفتوحة فقط من أجله. كانت له قوى التحمل تلك، وداخليًّا. كان بالغ الابتهاج حتى إنه لم يكن في حاجة إلى أحد قد يقوم بمواصلة تسليته، لكن كان الكل يحتاجه. لقد كان بصحة جيدة دائمًا. آه، لا تحاول أن تخبرني».

قال السيد: «لا أنوي أن أجادل».

«أنت لن تجادل، لكنك لن تسلم بخطئك أيضًا، لماذا تلتصق بخطيئتك على هذا النحو؟ ومهما كانت ذاكراتك حادة الآن، فإنك سوف، وأراهن، تنسى كل شيء، لو كان لك أن تتحدث معه. إنك سوف تلومني لكوني لم أدحض قولك الآن بمزيد من الفاعلية. فلو كان

يتحدث إلى هذا الحد الزائد عن كتاب، فإنه لتتملكه النشوة فيما يتعلق بكل ما هو جميل...».

* * *

يوزيفين المغنيِّة أو شعب الفئران مغنيتنا تُسمَّى يوزيفين. وأي شخص لم يسمعها لا يعرف ما هي قوة الأغنية. ولا أحد لم تحمله إلى البعيد بواسطة غنائها، وهي صفة تزداد عظمتها لكوننا ـ بصفة عامة ـ لسنا جنسًا محبًّا للموسيقى. إن سكينة الهدوء هي الموسيقى التي نحبها أفضل. إن حياتنا صعبة، ولم نعد بعد قادرين، حتى في المناسبات التي حاولنا فيها أن ننفض عن أنفسنا مشاغل الحياة اليومية، أن ننهض طامحين لأن نرتفع إلى شيء بمثل عُلُوّ، ويمثل البعد عن رتابة حياتنا المعتادة كالموسيقي. إلّا أننا لا نأسى على ذلك؛ نحن لا نذهب حتى إلى هذا المدى؛ وهو حنكة عملية بعينها، نتفق جميعنا على أننا في أشد الحاجة إليها، نتمسك بها على أنها تعد هي تميزنا الأعظم، وبابتسامة تتولد عن الكثير من الدهاء، نجدنا معتادين على تعزية أنفسنا على كل نقاط ضعفنا، حتى على افتراض —وإن كان لا يحدث لنا ذلك ـ أننا كنا لمرّة يدفعنا الحنين في سبيل ذلك النوع من النعمة التي تتيحها الموسيقى. كانت يوزيفين هي الاستثناء الوحيد؛ فلديها حب للموسيقى، وتعرف كذلك كيف تقوم بترجمة هذا الحب، إنها هي الكائن الوحيد؛ وعندما تموت فإن الموسيقى —من يدري إلى متى ـ سوف تختفي من حياتنا.

ولقد فكرت غالبًا فيما تعنيه حقًّا تلك الموسيقى التي تخصها، ذلك أننا غير موسيقيين بالمرة، وكيف تسنّى لنا أن نفهم غناء يوزيفين أو، بما أن يوزيفين تنكر ذلك، نظن على الأقل أن بمقدورنا أن نفهمها؟ إنّ أبسط إجابة على ذلك ستكون، أنّ جمال غنائها، هو جمال بالغ العظمة حتى إنّ الذين هم من بيننا أشدُّ افتقارًا إلى الحساسية لا يمكن أن تكون لهم آذان صماء لسماعها؛ إلّا أن هذه الإجابة ليست إجابة مقنعة، فلو كانت إجابة مقنعة حقًّا، لكان لغنائها أن يهب الكائن منّا شعورًا فوريًّا وباقيًا، بكونه شيئًا خارجًا عن المعتاد، شعورًا بأنه من داخل حنجرتها يتردد صوت لم نكن سمعناه من قبل، هو صوت لم نكن حتى قادرون على سماعه، شيء يوزيفين وحدها، ولا أحد غيرها يمكنه أن يساعدنا على أن نستمع إليه. إلّا أنّ هذا في رأيي هو بالضبط ما لم يحدث. أنا لم أحس هذا، ولم ألحظ قط أنّ آخرين يحسون بأي شيء من هذا القبيل. ونسلم طوعًا بين بعضنا البعض في محيط الثقة التي تربطنا معًا برباط حميم بأن غناء يوزيفين بصفته غناءً، لا يعد شيئًا خارجًا عن المعتاد.

فهل هو في الحقيقة غناءً من أصله؟ على الرغم من أننا لسنا موسيقيين فإن لدينا تقليدًا في الغناء، ففي الأيام الغابرة كان شعبنا يغني، وقد جاءنا ذكر ذلك في الأساطير، وقد تبقت منها بعض الأغاني بالفعل؛ وهي الأغاني التي لا أحد في الحقيقة يمكنه أن يغنيها الآن. وعلى هذا فإن لدينا تلميحًا إلى ما كان هو الغناء، ولا يتطابق معه حقًّا فن يوزيفين. لهذا فهل هو غناء أساسًا؟ ألا يكون مجرد صفير ربما؟ والصفير هو شيء كلنا نعرف ما هو، إنه هو الإنجاز الفني الحقيقي

لشعبنا، أو أنه بالأصح ليس مجرد إنجاز، بل تعبيرًا مميزًا عن حياتنا، فنحن جميعًا نصفِّر لكن لا أحد منا بالطبع يحلم بإدراك أن صفيرنا هو فن. إننا نصفر دون أن نفكر في ذلك.

بل دون أن نلحظ أننا نفعل ذلك حقًّا، ويوجد الكثيرون من بيننا الذين لا وعي لديهم مطلقًا بأن الصفير هو واحد من خصائصنا. وعلى هذا، فلو كانت يوزيفين لا تغني حقًّا، بل تصفر فحسب، وربما حتى كما يبدو لي على الأقل لا يكاد صفيرها يرتفع فوق مستوى صفيرنا المعتاد —إلّا أن قوتها لعلها ليست حتى مساوية تمامًا لصفيرنا اليومي المعتاد، على حين يمكن لعامل عادي من عمال الأرض أن يواصل ذلك بلا أيّ جهد طوال اليوم بالإضافة إلى قيامه بأداء عمله— فلو كان ذلك كله صحيحًا حقًّا عندئذ، فإن مهارة يوزيفين الشفاهية المزعومة ربما أمكن دحضها، إلّا أن ذلك يفسح المجال فحسب أمام المعضلة الحقيقية التي تحتاج إلى حل —وهي النفوذ الهائل التي تتمتع به.

هو فقط فوق كل شيء نوع من الصفير ذلك الصوت الذي تصدره. فلو اتخذت لنفسك مكانًا تقف فيه بعيدًا عنها تمامًا وتسمعت، أو على نحو أفضل، وضعت حكمك على صوتها في موضع الاختبار، كلما حدث لها أن كانت تغني مع غيرها في وقت واحد، في محاولة لأن تتبيَّن صوتها، فإنك لا شك لن تميِّز شيئًا سوى نغمة صفير عادي تمامًا، صفير لا يكاد يختلف في الأغلب سوى قليل عن أصوات الآخرين بكونه رقيقًا أو ضعيفًا، إلّا أنك إن جلست أمامها، فلن يكون صوتها مجرد صفير، ولكي تدرك فنها، فمن الضروري ليس فقط أن

تسمعها، بل أن تراها. وحتى لو كان فنها الغنائي هو فقط صفير العمل اليومي المعتاد، ففيه قبل كل شيء، هذه الخصوصية التي عليك أن تضعها في اعتبارك، وهو أنه يوجد شيء ما في حالتها هذه يقوم بأداء احتفالي عبر القيام بالصفير المعتاد. وأن تقوم بكسر بندقة، فلن يعد ذلك عملًا فذًّا، وعلى هذا فلا أحد يمكنه مطلقًا أن يخاطر بتجميع جمهور كي يقوم بإمتاعه بالاستماع إلى تكسير بندق. لكن في الوقت نفسه لو أن أحدًا قام بذلك ونجح في إمتاع الجمهور؛ فلن يكون الأمر عندئذ مسألة مجرد تكسير بندق بسيطة، أو أنها تكون مسألة تكسير بندق، إلا أنها تنقلب، حتى إننا نكون قد فاتنا الانتباه إلى فن كسر البندق؛ لكوننا نتمتع نحن أيضًا بنفس المهارة، ذلك وأن هذا القادم الجديد إلى هذا العمل يعرض علينا أولًا طبيعة هذا العمل حقًّا ويجد من المفيد له حتى، لتوضيح تأثيرات ذلك، أن يكون أقل خبرة بالأحرى في تكسير البندق عن غالبيتنا.

ربما كان هذا هو نفس ما يتعلق بغناء يوزيفين، ذلك أننا ليعجبنا فيها ما لا نعجب به في أنفسنا، وقد أقول عن هذا الرأس أنها تتفق معنا فيه. وقد كنت حاضرًا ذات مرة عندما لفت شخص ما انتباهها، كما يحدث بالطبع غالبًا، إلى صفير الشعب المتواصل كله في كل مكان، مشيرًا إليه إشارة متواضعة، إلّا أن ذلك كان أكثر مما يلزم مع يوزيفين. لم أرَ قط ابتسامة بالغة السخرية والتعالي كتلك التي أبدتها عندئذ. إنّها تلك المخلوقة التي تبدو كأنها هي الرقة نفسها، والتي غالبًا ما تتجلى وسط شعبنا الخصب، وتتألق في تلك الصفات الأنثوية، بدت في تلك

اللحظة فظة بالفعل، بل كانت في التو واللحظة على وعي بذلك هي نفسها، بحساسيتها الزائدة بالمناسبة، وتمالكت نفسها، وهي تنكر على أيّ حال أي علاقة بين فنها وبين الصفير العادي. ولديها لهؤلاء الذين يرونها نقيض ذلك الازدراء وحده لهم، والكراهية المضمرة ربما. ليس هذا غرورًا صريحًا، ذلك أنّ من يناقضون ما تراه، والذين أتعاطف معهم أنا أيضًا إلى حد ما، يعجبون بها إعجابًا لا يقل عن إعجاب الجمهور بها، إلّا أن يوزيفين لا تريد مجرد الإعجاب، لأنها تريد أن يتم الإعجاب بها تمامًا بنفس الشروط وبالطريقة التي تفرضها هي لذلك، فمجرد الإعجاب وحده يصيبها بالبرودة. وعندما تتخذ مقعدًا لك أمامها يمكنك أن تفهمها. ذلك أنّ المعارضة تكون ممكنة فقط على البعد، وعندما تجلس أمامها ستعرف أن هذا الصفير الذي تحدثه ليس صفيرًا.

ولما كان الصفير هو أحد عاداتنا الفطرية، فربما يظن المرء أن الناس سوف ينطلق صفيرهم في حضور يوزيفين أيضًا، إن فنها يشعرنا بالسعادة، وعندما نكون سعداء فنحن نصفر؛ إلّا أن جمهورها لا يصفر أبدًا، بل يجلس في سكون يليق بفئران، كما لو كنا نشارك في الأمن الذي نتطلع إليه، والذي يشدنا إلى الوراء فيمنعنا ذلك في أقل القليل عن أن يصدر عنا أي صوت. فهل غناؤها هو الذي يشجينا، أو أنه على الأصح ليس السكون الجليل الذي يطوق صوتها الضعيف الغضّ؟ حدث ذات مرة بينما كانت يوزيفين تغني أن شيئًا ضئيلًا ما، شيئًا سخيفًا بدأ يصفر هو أيضًا بكل البراءة، وكان عندئذ هو تمامًا مثل ذلك

الذي كنا نستمع إليه من يوزيفين؛ كان صوت الصفير الذي كان متعثرًا على الرغم من كل التدريبات، يكاد يبدو أمام الجمهور كصفير طفلة غير واعية بنفسها؛ وكان يكاد يكون مستحيلًا يتم تحديد الفارق، إلّا أننا هسسنا فورًا، وأطلقنا صفير الاستهجان لكي نسكت صوت تلك الطفلة الدخيلة، على الرغم من أن ذلك لم يكن ضروريًّا في الحقيقة؛ لأنها كانت ـ على أي حال ـ ستزحف منسحبة بنفسها بعيدًا في خوف وخجل، على حين أطلقت يوزيفين عاليًا نغماتها الأكثر وثوقًا، وكانت محتدمة غيظًا للغاية، فاردة ذراعيها على اتساعهما، بينما تمد حنجرتها إلى أعلى ما يمكنها أن تبلغه من الارتفاع.

هذا هو الحال الذي تبدو به دائمًا، كل أمر تافه، أي حادثة عارضة، إزعاج، أي صوت يصدر عن الأرضية الخشبية، أي صرير على الأسنان، أيّ خفوت في الإضاءة يحثها على أن ترفع من تأثير أغنيتها، تعتقد بذلك على نحو ما أنها تغني لآذان صماء، لم يوجد نقص في الحماس أو الاستحسان، لكنها كانت قد تعلمت طويلًا ألّا تتوقع فهمًا حقيقيًّا لغنائها كما تتصور هي هذا التفهم. وعلى هذا فهي ترحب جدًّا بأي إزعاج، وبأي شيء خارجي يتدخل لكي يعوق نقاء أغنيتها يمكن أن يتم التغلب عليه بشيء ضئيل من الجهد، أو بلا جهد على الإطلاق بمجرد مواجهته، كان يقوم بإيقاظ الجماهير حقًّا، وكان يعلمهم، ربما ليس الفهم، الاحترام المرتعب.

فلو كانت الأحداث الصغيرة تقدم لها مثل تلك، فكم من الخدمات يقدمها لها ما يقع من جلائل الأحداث. إن حياتنا هي حياة مضطربة

غاية الاضطراب، وكل يوم يجيئنا بالمفاجآت، بالمخاوف، وبالآمال وبالأهوال، وبهذا يكون من المستحيل لفرد أن يتحملها كلها وحده، إن لم تكن له دائمًا نهارًا، وليلًا مساندة رفاقه؛ لكن ـ حتى مع ذلك ـ غالبًا ما يصبح العبء صعبًا جدًّا، وتهتز مرارًا وتكرارًا آلاف الأكتاف تحت وطأة عبء يكون في الواقع ملقى فوق عاتقي ذكَرْ وأنثاه وحدهما، عندئذ تدرك يوزيفين أن وقتها قد حان، فتجدها هنالك تقف تلك المخلوقة الرقيقة وهي تهتز للذبذبات، وبصفة خاصة فيما تحت عظم الصدر، فيشعر المرء بالقلق عليها، وتبدو هي وكأنها قد ركزت كل طاقتها في أغنيتها، وكما لو كان ذلك من خلال كل شيء في كيانها لا تكون مشاركته في خدمة غنائها مشاركة مباشرة، تكون كل قواها قد انحسرت، قوة الحياة كلها على الأغلب، كما لو كانت قد تم الإلقاء بها أرضًا عارية مهجورة، متروكة فحسب لعناية الملائكة الأبرار، كما لو أنها بينما هي على هذا النحو قد تزايلت منسحبة تمامًا كي تعيش في أغنيتها وحدها، ربما تتمكن مجرد نسمة باردة تهب على كيانها من أن تقتلها. لكنها عندما يتبدى لنا ظهورها على هذا الحال، لا نجدنا ـ غير الذين من المفترض أننا معارضوها ـ نفعل شيئًا سوى ترديد قولنا المعهود: «إنها لا يمكنها أن تصفر حتى، وعليها لهذا أن تفرض على نفسها ذلك الإجهاد المرعب؛ لكي تنتزع من داخلها غصبًا ليس أغنية ـ فلا يمكننا أن نطلق على ما تلقيه علينا اسم أغنية— بل شيء ما يكاد يقارب صفيرنا المألوف المعتاد، هذا ما يبدو لنا، إلّا أن هذا الانطباع، على الرغم من أنه محتوم كما قلت، إلّا أنه انطباع عابر وسريع الزوال.

ونحن أيضًا سرعان ما نستغرق في شعور الجمهور، تلك الأجساد الدافئة المضغوطة جسدًا لجسد متسمعة بأنفاس الشهيق منجذبًا إلى داخل صدرها.

ولكي تجمع حولها كل هذا الجمع من شعبنا الذين يشغلهم دومًا الترحال، وينطلقون في ترحالهم عدوًا على الدوام، هنا وهناك لأسباب غير واضحة كل الوضوح، لا تحتاج يوزيفين إلى أن تفعل سوى أن تتخذ وقفتها؛ رأسها ملقى إلى الخلف، وفمها نصف مفتوح، وعيناها قد تحولتا إلى الأعلى، في الوضع الذي يشير إلى نيتها في أن تغني. في وسعها أن تفعل ذلك حيث تشاء، ولا حاجة لها في أن يكون المكان مرئيًّا من على البعد، فأي ركن منعزل يجري اختياره في لحظة نزوة مفاجئة يمكن أن يفي بالغرض. وتطير الأخبار التي تفيد بأنها سوف تقوم بالغناء في كل الأنحاء في الحال، وسرعان ما تكون مواكب شاملة قد اتخذت طريقها إلى هناك. ومع ذلك، فأحيانًا ما تتدخل عقبات، وأكثر ما تحبه يوزيفين هو أن تنهض قائمة للغناء بالضبط عندما تكون الأحوال أشد اضطرابًا، وتجبرنا المشاكل والأخطار عندئذ على أن نتخذ لمواجهتها سبلًا ملتوية، وبأفضل إرادة في العالم لا يمكننا أن نحشد أنفسنا بالسرعة التي تريدنا بها يوزيفين أن نحتشد، وفي أحيان كانت تقف هنالك في حالة احتفالية لوقت طويل من دون أي جمهور كاف —ثم تصبح مهتاجة حقًّا، وتدق الأرض بقدميها، وهي تقسم على نحو أبعد ما يكون لياقة في صدوره عن عذراء. وكانت تعض فعلًا، لكن حتى مثل هذا التصرف لم يسبب ضررًا لسمعتها. وبدلًا من أن تكبح

قليلًا طلباتها الزائدة فإن الناس قد بذلوا جهدهم لتلبية مطالبها، فكان الرسل يُرسلون بعيدًا لكي يستدعوا مستمعين جددًا، وبقيت مبعدة عن العلم بذلك الذي كان يجري عمله من أجلها. وعلى الطرق كان يمكن رؤية حراس واقفين يلوِّحون للقادمين الجدد، يلحون عليهم بالإسراع، ويستمر هذا الجهد حتى يتم جمع جمهور كبير إلى حدٍّ كافٍ.

فما الذي كان يدفع الشعب إلى بذل مثل تلك الجهود من أجل يوزيفين؟ ليست الإجابة على هذا التساؤل بأسهل من الإجابة عن السؤال الأول عن غناء يوزيفين، والذي يرتبط به ارتباطًا وثيقًا. وباستطاعة المرء أن يحذف هذا التساؤل، ويربطهما معًا في التساؤل الثاني، لو كان من الممكن أن يتم الجزم بأن شعبنا بسبب غنائها قد كرس نفسه ليوزيفين تكريسًا بلا شروط. إلّا أن هذا ببساطة ليس هو الحال، فالتكريس بلا شروط لا يكاد يكون معروفًا بيننا. وشعبنا شعب يحب المكر فوق كل شيء. من دون أي ضغينة تأكيدًا، والهمسات الطفولية، والمحادثة، يحب شعبنا المحادثة البريئة الظاهرية بكل تأكيد؛ إلّا أن شعبنا بنوعيته هذه، لا يمكنه أن ينزلق إلى تكريس نفسه بغير شروط، وأن يوزيفين نفسها تشعر بهذا بلا شك، وهو ما يجعلها تحاربه بكل قوة حنجرتها الواهنة.

وبإعلان مثل هذه الآراء الشخصية التعميمية، بالطبع، ليس للمرء أن يبالغ فيذهب في المبالغة بعيدًا كل البعد؛ فشعبنا هو ـ مع ذلك ـ شعب مكرس ليوزيفين، لكنه فحسب ليس تكريسًا بلا شروط. مثلًا لا يمكن للجماهير أن تقدر على الضحك من يوزيفين. ومما يمكن

التسليم به، أن لدى يوزيفين الكثير مما يبعث المرء على الضحك لمجرد الضحك ليس بعيداً عنا قط كل البعد، فعلى الرغم من كل البؤس الذي تترع به حياتنا، فإن الضحك الهادئ هو دائمًا ـ كما يقال ـ في متناول أيدينا، إلّا أننا لا نضحك من يوزيفين. وكم من مرة جاءني الانطباع بأن شعبنا يفسر علاقته بيوزيفين على هذا النحو، بأنها هذه المخلوقة الواهنة التي تحتاج إلى الحماية، وأنها بشكل ما مخلوقة استثنائية، مرموقة في رأيها هي الخاص لموهبتها في الغناء، يعهد بها إلى رعايتهم، وأنهم لا بد أن يولوها بالرعاية؛ وليس السبب في ذلك واضحًا لأيّ فرد، فقط هي حقيقة يبدو أنها قد ترسخت، إلّا أن ما عهد به إلى رعاية، لا يمكن للمرء أنْ يضحك منه، وإن يضحك منه المرء سيكُن إهمالًا للواجب. إن أقصى الحقد الذي قد يكنّه أكثر الحاقدين على يوزيفين، هو أن يقول بين الحين والآخر إنّ: «رؤية المرء ليوزيفين تكفي لكي تجعل المرء يكفّ عن الضحك».

وعلى هذا فإن الشعب يرعى يوزيفين كما يرعى الأب طفلًا امتدت يده الصغيرة —ولا يدري المرء ما إذا كانت هذه اليد قد امتدت تلتمس طلبًا أو تصدر أمرًا ـ إلى هذا الأب، وقد يظن المرء أن شعبنا ليس مؤهلًا لأن يؤدي مثل هذه الواجبات الأبوية، لكن في الحقيقة، تؤدي جماهيرنا هذه الأعباء، على الأقل في هذه الحالة بذاتها على نحو يثير الإعجاب، ولا يمكن لفرد وحده أن يقدر على القيام في هذا الشأن بالعبء الذي يمكن للشعب ككل أن يقدر على فعله. ولا شك أن الفارق في القدرة التي يقدرِ الشعب على القيام بها وبين قدرة الفرد، هو

فارق هائل حتى إنه يكفي الصغير أن ينجذب إلى الاقتراب من دفء الجماهير ويكون بهذا قد وجد الحماية بما يكفي. ويقينًا لا يذكر أحد ليوزيفين مثل هذه الأفكار، فهي عندئذ تقول: «إن حمايتكم لا تستحق منّي أغنية قديمة». نعم، نعم نفس الصفير القديم فيما نظن. وبالإضافة إلى ذلك فإن احتجاجها ليس إنكارًا حقيقيًّا، بل هو طريقة طفولية تمامًا في التكذيب، والاعتراف الطفولي في الوقت نفسه بالجميل، بينما طريقة الأب في تحمل العبء هو ألا يعير ذلك أي اهتمام. إلّا أن ثمة شيء آخر خلف ذلك، وهو ما لا يسهل توضيحه بواسطة هذه العلاقة بين الشعب وبين يوزيفين؛ فيوزيفين ترى نقيض ذلك تمامًا، فهي تعتقد أنها هي التي تحمي الشعب، فعندما نكون في حالة سيئة سياسيًّا أو اقتصاديًّا، فغناؤنا عندئذ إنما يقصد به إنقاذنا، ولا شيء آخر أقل من ذلك، فإن لم يصرف غناؤنا الشر بعيدًا عنا، فهو على الأقل يمنحنا القوة على تحمله. إنها لا توضح ذلك بهذه الكلمات أو بأي كلمات أخرى، فهي لا تقول إلّا القليل على أي حال، إنها صموت وسط من يتحادثون، إلّا أن هذا المعنى إنما يشع من عينها، وفوق شفتيها المطبقتين ـ فالقلائل من بيننا من يقدرون على الاحتفاظ بشفاههم مطبقةـ إلّا أنها كانت تقدر على إطباق شفتيها، ويمكن تبين ذلك في وضوح؛ ففي أي وقت تجيئنا أخبار سيئة وفي أيام كثيرة تجيء الأخبار السيئة كثيفة ومتسارعة في وقت معًا، تنضم إليها أكاذيب أيضًا وأشباه حقائق، تنهض هي في الحال واقفة، على حين أنها عادة ما تجلس على الأرض فاقدة الهمة؛ تنهض واقفة وتمد رقبتها وتحاول أن تتطلع فوق

رؤوس قطيعها كما يفعل أحد الرعاة قبل وقوع عاصفة رعدية، ولا شك أنها عادة من عادات الأطفال، بطريقتهم الجامحة المندفعة في اصطناع دعاوى من هذا القبيل، إلّا أن دعاوى يوزيفين ليست كدعاوى الأطفال بلا أي أساس تقوم عليه. حقًّا هي لا تقوم بإنقاذنا، وهي لا تمنحنا أي قوة؛ وإنه لمن السهل أن يتخذ امرؤ لنفسه وضع المنقذ لشعبنا، متمرسًا مثلهم على ملاقاة المكاره، فهم لا يبخلون بحياتهم، مسرعين في اتخاذ القرار، وعلى معرفة تامة بالموت، هيابون فقط فيما يبدو في غمار أجواء الجرأة الطائشة التي يتنفسونها على الدوام. ومنتجون فضلًا عن ذلك بقدر ما هم مغامرون —وأقول إن اتخذ فرد ما لنفسه بعد وقوع الحدث وضع المنقذ لشعبنا، الذي تمكن دائمًا على نحو ما من أن ينقذ نفسه، على الرغم من ذلك يتم ذلك في مقابل تضحيات تصيب الباحثين المؤرخين بالرعب- ونتجاهل عمومًا في حديثنا كل التجاهل ذكر البحث التاريخي. ومع ذلك فمن الحقيقي أننا ـ فقط في أوقات الطوارئ- نستمع على نحو أفضل من استماعنا في الأوقات الأخرى إلى صوت يوزيفين. فالتهديدات التي تلوح فوقنا تجعلنا أكثر هدوءًا، وأكثر تواضعًا وأكثر خضوعًا لسيطرة يوزيفين، فنحن نحب عندئذ أن نتجمع إلى بعضنا البعض، نحب أن نحتشد أحدنا لصق الآخر، خاصة في مناسبة منفصلة عن الاضطرابات التي تشغل بالنا؛ إننا كما لو كنا نشرب بكل اللهفة. نعم، التعجل ضروري ـ يوزيفين تنسى ذلك مرارًا كثيرة للغاية— نشرب كلنا معًا من كأس مترعة بالسلام قبل المعركة. إنه ليس أداء لأغنيات كتجمع شعبي،

تجمع حيث فيما عدا ما يتعلق بالصوت الصغير المصفِّر في مقدمة الجمع –يسود سكون تام، فالوقت عندئذٍ يكون بالنسبة لنا أكثر خطورة علينا لكي نضيعه في التحادث.

إن علاقة من هذا النوع بالطبع لن تقنع يوزيفين. وعلى الرغم من كل القلق العصبي الذي يملأ يوزيفين؛ لأن وضعها لم يحدث له أن تحدد أبدًا، فهناك لا يزال الكثير الذي لا تراه، وقد أعماها غرورها الذاتي، ويمكن لها بسهولة أن يتم لها صَرْف النظر عن المزيد، فثمة أسراب المتملقين حولها مشغولون دائمًا بإيصالها إلى هذه الغاية، ويقدمون بهذا في الحقيقة خدمة عامة –ومع ذلك لكي تكون فقط مؤدية وقتية مغمورة في ركن في حشد شعبي، من أجل هذا، على الرغم من أنه في حد ذاته لن يكون شيئًا هينًا ـ، لا شك أنها لن تهبنا هبة من غنائها.

إلّا أنها لا تحتاج إلى أن تفعل ذلك؛ لأن فنها لن يذهب دون أثر. فعلى الرغم من أننا في أعماقنا منشغلو البال بأشياء أخرى تمامًا، وأنه ليس فقط من أجل غنائها بالمرة أن السكون يسود، وأن كثيرًا من المستمعين لا يكادون حتى يتطلعون إلى أعلى، بل يدفنون وجوههم كل منهم في فروة الآخر، حتى إن يوزيفين وهي مرتفعة في أعلى تبدو كما لو أنها تجهد نفسها لغير هدف، إلا أن ثمة شيء مع ذلك –لا يمكننا أن ننكر ذلك ـ يشق طريقه إلى أعماقنا برغم أي عائق، شيء من صفير يوزيفين. هذا الصفير الذي يتصاعد في حين يلتزم الصمت كل كائن آخر، شيء يأتي في الأغلب كرسالة من كل الشعب إلى كل فرد؛ فصفير يوزيفين الواهن في غمار القرارات الخطيرة يشبه على الأغلب

وجود شعبنا المستهدف وسط اضطرابات عالم عدواني. إن يوزيفين لتجهد نفسها، وهو ما لا يعد شيئًا من حيث الصوت وهو لا يعد شيئًا قط في الأداء، إنها تؤكد وجودها، وتعبر طريقها إلينا وإنه ليفيدنا أن نفكر في ذلك. هي مغنية، متمرسة حقًّا، لو كان في الإمكان وجود مثل تلك المغنية في وسطنا، فهو ما ليس باستطاعتنا أن نحتمله في مثل ذلك الوقت، وسيكون علينا بالإجماع أن نستدير منصرفين عن انعدام مغزى مثل ذلك الأداء.

وعسى يوزيفين أن تنجو من إدراك أن مجرد حقيقة استماعنا إليها، هي برهان على أنها ليست مغنية، إن حدسًا بذلك لا بد أنه لديها، وإلّا فلماذا تنكر بمثل ذلك الانفعال أننا بالفعل نستمع إليها، إنها تواصل غناء وصفير حدسها إلى أبعد ما يمكنها ذلك، إلّا أن هناك أمورًا أخرى يمكنها أن تجلب لها العزاء؛ فنحن بالفعل نستمتع إليها بمعنى من المعاني، ربما إلى الحد الذي يستمع به المرء إلى مغنية مدربة، وهي تحصل على تأثيرات قد تحاول مغنية مدربة عبثًا أن تحققها بيننا، ويتم لها تقديمها فقط؛ لأن وسائلها لذلك هي وسائل قاصرة للغاية. والمسؤول الأساسي على هذا هو بلا شك، أسلوب حياتنا.

فوسط شعبنا لا يوجد عمر للشباب، ويوجد بالكاد أقصر فترة طفولة، وتقوم، في الحقيقة، بانتظام مطالب بأن الأطفال لا بد من إتاحة حرية خاصة بهم؛ حماية خاصة، وأن لهم الحق في أن يكونوا بعيدًا عن الهمّ قليلًا. وأن يكون لهم، إلى حد ما، طيش بلا معنى، وقليل من وقت اللعب، وأن هذا الحق يجب أن يحظى بالاحترام، وأن تشجع ممارسته.

مثل هذه المطالب قد تم تقديمها، وكل واحد تقريبًا قد وافق عليها، ولا يوجد أي شيء، يمكن لأحد أن يوافق عليه أكثر من ذلك، إلّا أنه لا يوجد شيء هنالك أيضًا في واقع حياتنا اليومية يمكن أن يلقى أقل تسليم به من هذه المطالب؛ إنّ المرء ليوافق عليها، ويبذل محاولات لتحقيقها، لكن سرعان ما تعود كل الأساليب القديمة مرة أخرى. إن حياتنا قد اتفق لها أن تمضي على أنَّ طفلًا ما فيها، ما إن استطاع أن يجري قليلًا هنا وهناك، وما إن أمكنه تمييز أي شيء من آخر، فلا بد له من أن يعتني بنفسه تمامًا مثلما يتوجب ذلك على أي راشد، كما أن المساحات التي فوقها نستقر متناثرين لأسباب اقتصادية هي مساحات بالغة الاتساع، وأعداؤنا عديدون للغاية، والأخطار التي تكمن في انتظارنا في كل مكان لا يمكن حصرها —ولا يمكننا نحن أن نحمي أطفالنا من خوض غمار صراع الوجود، ولو فعلنا ذلك، فلا بد أن يؤدي بهم ذلك إلى قبر عاجل. هذه الاعتبارات المؤسية يزيد من شدتها اعتبار آخر، وهو ليس اعتبارًا محبطًا؛ ذلك هو خصوبة جنسنا. إن جيلًا ـ وكل جيل هو بالغ في تعداده —ليخطو كل منهم فوق حافر كعوب جيل آخر غيره، والأطفال ليس لديهم وقت ليكونوا أطفالًا.

أجناس أخرى غيرنا قد يُربَّى أطفالهم بعناية، قد تقام المدارس لصغارهم، ومن هذه المدارس قد يخرج الأطفال متدفقين يوميًّا، هم مستقبل الجنس، إلّا أن بينهم يكون الأطفال دائمًا أنفسهم الذين يخرجون يومًا بعد يوم على امتداد وقت طويل. ليس لدينا أي مدارس، لكن من جنسنا يتدفق في أقصر الفترات أسرابًا لا عدد لها من أطفالنا،

يلثغـون في هنـاء أو يشقشـقون لهـا مـا دامـوا لا يمكنهم بعـد القيـام بالصـفير، يتـدحرجون أو يتشـقلبون في تقـدمهم بمجـرد القـوة الدافعـة وحدها، ما داموا لا يمكنهم الجري، يحملون على نحو أخرق كل شـيء أمامهم حسب كتلـة وزنـه مـا دام ليس في إمكـانهم الرؤيـة.. هـؤلاء هم أطفالنا! وليسوا هم نفس الأطفال مثل الذين في تلك المـدارس، لا، هم أطفال جدد دائمًـا، المـرة بعـد المـرة، بلا نهايـة، بلا انقطـاع. ومـا يكـاد يظهر طفل حتى إنـه لا يصـبح طفلًا بعـد، على حين أن وجوهًـا طفوليـة جديدة خلفه تكون قد تراكمت بالفعل بغاية السرعة بكثافـة بالغـة حـتى ليصـعب تمييزهـا من بعضـها البعض، متـوردون بالسـعادة. حقًّا أيًّا مـا تكون مبهجة هذه الوجوه، وأيًّا ما تكون كثرة الآخرين الـذين يحسـدوننا عليها، وبحق، أننا لا يمكننـا أن نمنح ببسـاطة طفولـة حقيقيـة لأطفالنـا، وهـذا أمـر لـه عواقبـه. نـوع من الطفولـة الـتي لا تنفـد، والـتي يتعـذر استئصـالها تعم شعبنا؛ في مناقضـة لمـا هـو جيـد فينـا —وهـو إدراكنـا العملي الذي لا يخطئ، ونحن غالبًا مـا نسـلك بأقصـى الحماقـة، تمامًـا بنفس حماقــة الأطفــال، بلا معــنى، بتخــريب، بمبالغــة، بلا تحمــل لمسـؤولية، وكـل ذلـك غالبًـا من أجـل بعض التسـلية العارضـة. وعلى الـرغم من أن اسـتمتاعنا بهـا لا يمكن بـالطبع أن يكـون قلبيًّا مخلصًـا كاستمتاع الطفل، فإن شيـئًا من ذلـك يتبقى في هـذه التسـلية بلا شـك. ومن طفولية شعبنا هذه استفادت يوزيفين أيضًا منذ البداية.

إلّا أن شعبنا ليس طفوليًّا فقط، فنحن أيضًا بمعنى ما عجائز قبل الأوان، فالطفولة وتقدم السن تجيئنا كمـا لا تجيء للآخـرين. فليس لنـا مرحلـة

شباب، وإنما نحن فورًا وفي الحال بالغون، ومن ثم نظل بالغين لوقت طويل جدًّا، وينتشر عن ذلك ملل ما، ويأس يترك خلفه أثرًا عريضًا عبر طبيعة شعبنا، صارمًا وعنيفًا في تعقبه للأمل الذي هو ما يجرجره ذلك اليأس خلفه بصورة عامة. إنَّ افتقارنا إلى هبة الموسيقى لها بالتأكيد ارتباط ما بهذا؛ فنحن شائخون جدًّا بالنسبة للموسيقى، وإثارتها، ونشوتها لا تتناسب مع تثاقلنا، ولهذا فنحن نشيح لها بيدنا كي تبتعد عنا بعيدًا، ونحن نقنع أنفسنا بالصفير؛ قليل من الصفير هنا وهناك، وهذا ما يعد كافيًا لنا. ومن يدري، ربما توجد مواهب موسيقية وسطنا، لكن لو كانت موجودة بيننا، فإن طابع شعبنا سوف يخمد هذه المواهب قبل أن يدركها التفتح. ويوزيفين من ناحية أخرى، يمكنها أن تطلق الصفير بقدر ما يسعها ذلك، أو تغني أو ما يقدر لها أن تسميه، فهذا لا يزعجنا، إن هذا ليناسبنا، وهذا هو ما يمكننا تمامًا أن نتحمله؛ وأي موسيقى قد تكون كامنة فيه تكون قد انخفضت إلى أضعف أثر ممكن؛ لقد تم لنا الاحتفاظ بتراث معين ما من الموسيقى، إلّا أن ذلك لم يترتب عليه أي تبعات قد تقع على عاتقنا. إلَّا أن شعبنا بكونه ما هو عليه، لا يزال يحصل على أكثر من هذا من يوزيفين؛ ففي حفلاتها الموسيقية ـ وخاصة في أوقات الشدة ـ يكون الصغار جدًّا هم فقط من يهتمون بغنائها كغناء، هم وحدهم يحدقون في دهشة، بينما تزم هي شفتيها، وتنفث الهواء بين شفتيها بين أسنانها الأمامية الجميلة، وتنتشي إغماءً في دهش شفاف للأصوات التي تصدرها هي نفسها، وبعد مثل ذلك التزايل الذي ينتابها، يتضخم أداؤها ويعلو إلى

ارتفاعات جديدة ولا معقولة إلى حد زائد لا يكاد يصدقه أحد، بينما كتلة الجمهور الحقيقية ـ ويبدو هذا واضحًا للعيان— يكونون منسحبين تمامًا إلى داخل ذواتهم. هنا في الفترات القصيرة فيما بين صراعاتهم يحلم شعبنا، وإنه كما لو أن أعضاء جسم كل فرد في ذلك الجمهور قد انفكت، كما لو أن الفرد المنهك الذي يضيق بالهجمات المتكررة التي تدفعه وتسوقه أمامها، يمكنه مرة من حين لآخر أن يسترخي ويمدد نفسه على راحته في فراش الدفء الهائل للمجتمع. وفي داخل هذه الأحلام تتساقط نغمات صفير يوزيفين لحنًا فلحنًا، إنها تدعوها قطرات أشبه باللؤلؤ المنظوم. ونسميها نحن قطرات متقطعة لافتقارها إلى الترابط. لكن على أي حال، فها هي هنا في مكانها الصحيح، الذي ليس كأي مكان آخر.. واجدة اللحظة التي تنتظرها كما لا تكاد تعثر الموسيقى مطلقًا على لحظة كتلك، موسيقى فيها شيء من طفولتنا القصيرة البائسة، شيء من السعادة المفقودة التي لا يمكن أن توجد مرة أخرى، بل فيها أيضًا شيء من الحياة اليومية الفعالة، من مسراتها الصغيرة، التي لا تكاد تقبل التعليل، لكنها تنبثق من الأعماق ولا يمكن محوها. وكل هذا حقًّا يتم التعبير عنه لا في لحن تام متجسد، بل بنعومة، في همسات، ودّيًّا، وأحيانًا في بحّة صغيرة. بالطبع هي نوع من الصفير. ولم لا؟ إن الصفير هو حديث شعبنا اليومي، فكم من واحد منا يصفر طوال حياته كلها ولا يدري أنه يفعل ذلك، حيث الصفير هنا يكون قد تحرر من قيود الحياة اليومية،

ويقوم بتحريرنا نحن أيضًا لوقت قصير ما. ولا شك أننا لا ينبغي لنا أن نرغب في الاستغناء عن تلك الأداءات الموسيقية.

لكنها رحلة طويلة، طويلة بدءًا من هذه اللحظة، لدعوى يوزيفين بأنها تمنحنا قوة جديدة وهكذا، و.. ما إلى ذلك. رحلة طويلة بالنسبة للعامة العاديين على الأقل، وليس لقافلتها من المنافقين؛ فهم يقولون بكل الوقاحة المنمقة التي لا تعرف الخجل: «كيف إذن يمكن لك خلافًا لما تقوله أن تعلل تجمع الجماهير الهائلة من المستمعين إليها، خاصة عندما يكون الخطر فوق رؤوسنا أشد ما يكون، والذي يكون مرارًا عديدة زائدة قد أعاق اتخاذ أي احتياطات لازمة في وقتها المناسب لدرء الخطر». إن هذا التقرير الأخير هو الآن ـ لسوء الحظ ـ حقّ، لكنه لا يكاد يكون معدودًا كسند من بين ما يسند ليوزيفين حقها في الشهرة، وخاصة إذا اعتبرنا أن مثل هذه التجمعات الهائلة كانت على نحو غير متوقع قد تم اكتساحها بواسطة العدو، وأن الكثيرين من شعبنا قد انتهى بهم ذلك الاكتساح إلى السقوط موتى، إنّ يوزيفين، التي كانت هي المسؤولة عن ذلك كله، والتي ربما كانت هي التي اجتذبت العدو بصفيرها، وأنها احتلت دائمًا أكثر الأماكن أمنًا، وكانت دائمًا هي أول من ينطلق بعيدًا في هدوء وفي سرعة تحت ستار من مرافقيها. ومع أن كل واحد يعرف هذا حقًّا، إلا أن الجماهير لا تزال تواصل الإسراع إلى أي مكان تقرره يوزيفين فيما تلا ذلك، وفي كل وقت تقرر فيه أن تنهض واقفة لكي تغني. ويمكن للمرء أن يتخذ ذلك برهانًا على أن يوزيفين تكاد تكون على الأغلب مستثناة من القانون، وأنها يمكنها أن

تفعل ما تريده، على حساب المخاطرة بتعريض المجتمع بالفعل للخطر، وأنها سوف تحصل على العفو لكل شيء تقوم بعمله. فلو كان الأمر كذلك، فإن دعاوى يوزيفين ستكون مفهومة تمامًا، نعم، في هذه الحرية التي تتاح لها. وهذه الموهبة الخارقة للعادة التي وهبت لها، وليس لأي أحد غيرها، في انتهاك القوانين مباشرة، يمكن للمرء أن يرى تسليمًا بقضية أن الشعب لم يفهم يوزيفين تمامًا ،كما تزعم هي، وأن الجماهير إنما تعجب بفنها بلا حيلة، ويشعر الجميع بأنهم غير جديرين به، ويحاولون أن يلطفوا الأسف الذي تثيره فيهم بتضحيات يائسة حقًّا من جانبهم لأجلها. وللمدى البالغ نفسه، يشعرون بأن فنها خارج عن مجال إدراكهم، ويعتبرون أن شخصيتها ورغباتها إنما تقع كلها خارج حدود قدرتهم في الحكم على دعاواها. حسنًا، ببساطة هذا ليس صحيحًا على الإطلاق، ربما كأفراد قد يستسلم الشعب بسهولة بالغة ليوزيفين. لكن الشعب ككل لا يستسلم استسلامًا غير مشروط لأي أحد، ولا حتى لها هي أيضًا.

منذ وقت طويل مضى، ربما منذ بداية مشوارها الفني نفسه —كانت يوزيفين تحارب في سبيل إعفائها من كل الأعمال اليومية بسبب غنائها. وأنه ينبغي أن يتم تحريرها من مسؤولية كسبها لخبزها اليومي. وأن تكون لهذا منشغلة في الصراع العام من أجل الوجود. الذي فيما يبدو سوف ينتقل من أجلها إلى الشعب ككل.

وقد يجادل متحمس متسرع —وكان هناك أمثال هذا المتحمس— من مجرد عدم اعتياد مثل هذا المطلب، من وجهة النظر الروحية اللازمة

لتغليف هذا المطلب، إنه مطلب يتضمن مبرره الداخلي، إلّا أن شعبنا يستنتج منه نتائج أخرى ويرفضه في هدوء، كما أنه لا ينشغل كثيرًا بدحض الادّعاءات التي يقوم على أساسها هذا المطلب. وتحاول يوزيفين أن تبرهن مثلًا أن الإجهاد في العمل ضار بصوتها، وأن إجهاد العمل بالطبع لا يعد شيئًا بالنسبة لإجهاد الغناء، إلا أنه يمنعها من أن تكون قادرة على أن تستريح بما فيها الكفاية بعد الغناء، وأن تتعافى بتعويض الجهد لمزيد من الغناء، فعليها أن تستنفد طاقتها تمامًا، إلا أنها في هذه الظروف لا يمكنها أن ترتفع إلى قمة إمكانياتها، ويستمع الشعب إلى جدالها ولا يلقي بالًا؛ فشعبنا الذي يمكنه بسهولة بالغة أن ينفعل، لا يمكنه أحيانًا أن يتأثر على الإطلاق. ورفض جماهيرنا أحيانًا ما يكون رفضًا حاسمًا، حتى إن يوزيفين تصدم لمفاجأتها بهذا الرفض، ويبدو عليها وكأنها تستسلم، وتقوم بأداء نصيبها المقرر من العمل اليومي، وتغني كأفضل ما يمكنها أن تغني، إلّا أن ذلك يكون لفترة ما فحسب، ثم بقوة متجددة —فلهذا الهدف تبدو طاقتها غير قابلة للنفاد، وسرعان ما تشرع ثانية في الحرب.

والآن يبدو واضحًا أن ما تريده يوزيفين حقًّا، ليس بالضبط هو ما عبرت عنه بالكلمات. إن لها كرامة، وليست هي من ينفر من العمل. إن التهرب من العمل في أي حالة ليس معروفًا بيننا بالمرة، فلو أنّ التماسها قد لاقى قبولًا، لكانت تعيش نفس الحياة كما عاشت من قبل، فعملها لن يقف مطلقًا عقبة في طريق غنائها، كما أن غناءها لم يكن ليصبح أفضل بأي حال. إن ما تريده هو الجمهور، تريد اعترافًا

دائمًا، غير ملتبس بفنها، وتريد أن تتخطى أي مسابقة قد عرفت حتى الآن. لكن بينما يبدو كل شيء آخر في متناول يدها، فإن ذلك يراوغ بلوغها إياه بإصرار. ربما كان عليها أن تتخذ خطًّا مختلفًا للهجوم منذ البداية ربما هي نفسها ترى أن تناولها كان خاطئًا، لكنها لا يمكنها الآن أن تتراجع، فأن تتقهقر سيكون خيانة ذاتية، فلا بد لها الآن من أن تثبت في وقفتها أو أن تسقط بالتماسها.

لو كان لها أعداء حقًّا، كما تؤكد، فإن في مقدورهم أن يحصلوا على الكثير من التسلية من مراقبة هذه المعركة، دون أن يكون عليهم أن يرفعوا أصبعًا. إلا أنها ليس لها أعداء. وحتى على الرغم من أنها غالبًا ما يجري انتقادها، هنا وهناك، فإن أحدًا لا يرى هذا الصراع الذي تثيره صراعًا مسليًا، لمجرد حقيقة أن الناس يظهرون هنا في موقفهم البارد اللا مبالي بإصدار الأحكام، وهو الموقف الذي نادرًا ما يرى بيننا. وأيًّا ما كانت موافقة المرء على هذا الموقف في مثل هذه الحالة، فإن مجرد فكرة أن مثل هذا الموقف قد ينقلب على نفسه يومًا ما هو ما يمنع وجود أي تسلية. والأمر الهام سواء في رفض الشعب، أو في التماس يوزيفين، ليس هو الفعل في حد ذاته في كلا الجانبين، لكنه حقيقة أن الشعوب قادرة على أن تمثل جبهة حجرية منيعة لواحد من بينهم، وتعد هذه الجبهة، جبهة عصية للغاية على الاختراق؛ لأن الشعب في نواح أخرى يظهر رعاية أبوية متلهفة، بل يظهر ما هو أكثر من الرعاية الأبوية فيما يخص ذلك الزميل نفسه.

ولنفترض أنه ـ بدلًا من الشعب ـ كان لدى المرء فرد ما ليتعامل معه، قد يتصور المرء أن هذا الشخص كان قد خضع ليوزيفين طوال الوقت، بينما هو في داخله يكن رغبة جامحة لأن يضع حدًّا لخضوعه هذا في يوم مشهود، وأنه قد قام بتضحيات لا يطيقها إلّا من طاقتهم فوق طاقة البشر من أجل يوزيفين، مع اعتقاده الراسخ بأن هناك حدودًا طبيعية لطاقته على التضحية؛ نعم، أنه كان قد ضحى بأكثر مما تتطلبه الحاجة لمجرد أن يقوم بدفع القضية على نحو أسرع، لمجرد أن يفسد يوزيفين. وأن يشجعها على أن تطلب المزيد والمزيد، حتى تبلغ بطلباتها في الحقيقة، ذلك الحد الذي بلغته بذلك الالتماس الأخير الذي التمسته؛ وأنه عندئذ قد قطع عليها طريقها برفض نهائي، رفض مقتضب، لكنه كان رفضًا مكبوتًا في حالة التحفظ الطويلة. والآن فإن هذا بلا شك ليس هو الكيفية التي يقوم عليها الأمر، فالشعب لا حاجة به إلى مثل هذا المكر. علاوة على أن احترام الناس ليوزيفين هو تبجيل قد صمد طويلًا للتجربة، هو تبجيل صادق، وطلبات يوزيفين هي ـ فوق كل شيء ـ طلبات بعيدة المنال، حتى إنّ أي طفل بسيط كان بمقدوره أن يخبرها بما يمكن أن تنتهي إليه طلباتها؛ إلّا أن مثل هذه الاعتبارات تدخل في نطاق طريقة يوزيفين في معالجة الأمر، وبهذا تضيف مرارة بعينها إلى مرارة أنها طلبات قد تم رفضها.

لكن مهما كانت آراؤها عن الموضوع، فهي لم تتح لهم أن يمنعوها من متابعة الحملة، وأخيرًا كثفت هجومها، واستخدمت حتى الآن الكلمات وحدها كأسلحة، لكنها من الآن تبدأ في اللجوء إلى وسائل أخرى، تظن

أنها سوف تثبت فعالية أشد، إلا أننا نظن أنها بذلك سوف تدفع نفسها إلى أخطار أكبر.

يعتقد الكثيرون أن يوزيفين يزداد إلحاحها للغاية؛ لأنها تشعر بأنها تتقدم في العمر، وأن صوتها يتداعى، ولهذا فهي تظن أن الوقت قد حان لأن تشن المعركة الأخيرة من أجل الاعتراف بفضلها. أنا لا أصدق؛ فيوزيفين لن تكون يوزيفين لو كان هذا صحيحًا. فبالنسبة لها ليس ثمة ما يُسمَّى تقدم في العمر، ولا يوجد شيء يُسمَّى تداعي في صوتها. فلو تقدمت بمطالب فليس ذلك بسبب ظروف خارجية، بل بسبب منطق داخلي. إنها تسعى من أجل أعلى إكليل للزهر وليس بسبب أن إكليل زهرها يوجد مؤقتًا في وضع أدنى قليلًا؛ بل بسبب أنه الأعلى؛ فلو كان لها ما تقوله في الأمر، فإنها تتطلب أن يكون أكثر غلوًّا.

هذا الازدراء للمصاعب الخارجية، لا يعوقها بالتأكيد عن استعمال أشد الوسائل بُعدًا عن جدارة الاستحقاق. إن حقوقها تبدو لها غير موضع للسؤال؛ وعلى هذا فماذا يهم كيف يمكنها أن تضمن نيلها؟ وخاصة ما دام أنه في هذه الدنيا، كما تراها هي، يكون مآل استخدام الوسائل النزيهة هو الفشل. ربما يكون هذا هو السبب في أنها حولت المعركة من أجل حقوقها، من حقل الغناء إلى مجال آخر لا تهتم بأمره سوى بالقليل.

وقد أشاع أنصارها، طبقًا لما أعلنته هي نفسها، أنها تشعر بأنها قادرة على الغناء على نحو يمكنه أن يجعل كل مستويات الجمهور ـ وإلى أقصى أركان المعارضين لها حتى ـ يجدون متعة حقيقية، متعة حقيقية ليست بالمقاييس الشعبية؛ ذلك أن جماهير الشعب يؤكدون بأنهم كانوا قد تمتعوا دائمًا بغنائها، لكن سيكون الاستمتاع بمقاييسها هي الخاصة. وتضيف مع ذلك أنها ما دامت لا تستطيع أن تقوم بتزييف أعلى المقاييس كما لا يمكنها أن تسقط إلى أدناها، فإن غناءها سيكون عليه أن يبقى كما هو. إلا أنه عندما يتطرق الأمر إلى حملتها من أجل الإعفاء من العمل، فإننا نحصل على حكاية مختلفة، ذلك أنها بالطبع أيضًا حملة لصالح غنائها، إلا أنها لا تحارب حربًا مباشرة باستخدام السلاح الذي لا يقدر بثمن وهو أغنيتها. وعلى هذا فإن أي أداة تستخدمها هي أداة صالحة بما يكفي.

ولهذا، على سبيل المثال، انتشرت الإشاعة بأن يوزيفين قصدت أن تختصر التلوين الذي تلون به ألحانها، إن لم يتم التسليم بالتماسها. لا أعرف شيئًا عن التلوين اللحني، ولم ألحظ قط أي شيء من هذا التلوين في غناء يوزيفين. إلّا أن يوزيفين، سوف تختصر تلوينها، وهي لا تنوي أن تقتطعها في الوقت الحالي كلية، فقط هي تنوي أن تختصرها، وفيما يبدو فإنها قد نفذت تهديدها، مع أنني كواحد من الناس لم ألحظ أي اختلاف في أدائها. واستمع الشعب ككل على نحو ما اعتادوا في استماعهم إليها، دون أن يبدو من بينهم أي رأي فيما يتعلق بالتلوين اللحني، كما أن ردهم على مطلبها لم يختلف عن سابقه ذرة واحدة.

ولا بـد من التسـليم مـع ذلـك، بـأن طريقـة يـوزيفين في التفكـير بالغـة السحر مثلهـا مثـل شـكلها. وعلى هـذا، على سـبيل المثـال، بعـد قيامهـا بالأداء، تمامًا كما لو أن قرارهـا فيمـا يتعلـق بـالتلوين اللحـني، قـد كـان شديد القسوة، أو أنه كان إجراء بالغ المباغتة ضـد الشـعب، أعلنت أنهـا في المرة التالية سوف تضيف كـل التلوينـات اللحنيـة ثانيـة. إلّا أنهـا في الحفلة التالية غيرت رأيها مرة أخرى. كان لا بد أن توضع بصورة قاطعة نهاية لهذه الأنغام الرفيعة المتضمنة ألحان التلوين، وإلى أن يتم تحقيـق مطلبها صراحة، فإن هذه الألحان لن تعود مـرة أخـرى قـط. حسـنًا، لقـد سـمح الشـعب لكـل هـذه البلاغـات، والقـرارات، والقـرارات المضـادة الصـادرة عنهـا، أن تـدخل من أذن لتخـرج من الأذن الأخـرى، مثـل شخص بالغ مستغرق في أفكاره يسلم أذنًا صمّاء إلى لغو أحد الأطفـال، لغو لهجته ودية، لكنه ليس سهل المنال.

ومع ذلك لم تستسلم يوزيفين؛ فمنذ أيام، على سبيل المثال، زعمت أن قدمها قد أُصيبت أثناء قيامها بالعمل، وعلى هذا كان من الصعب عليها أن تنهض واقفة لكي تقوم بالغنـاء، لكنهـا بمـا أنهـا لا يمكنهـا الغنـاء إلّا وهي واقفـة، فـإن أغنياتهـا الآن سـوف يكـون عليهـا أن تختصـر، وعلى الرغم من أنها تعـرج في مشـيتها وتسـتند على أنصـارها، إلّا أن أحـدًا لم يصدق أنها قد أصابها العرج. وتسـليمًا بـأن جسـدها الـواهن هـو جسـد زائد الحساسية، إلّا أنها مـع ذلـك واحـدة منـا ونحن جنس من العمـال، فلو بدأنا في العرج في كل مرة نصاب فيها بخدش، فإن الشعب كله لن يُقضى عليه جميعه بالعرج قط. إلّا أنها على الرغم من أنها تـترك نفسـها

تساق في تجولها كعرجاء، وعلى الرغم من أنها تظهر في هذه الحالة المحزنة أكثر من المعتاد، فإن الناس ـ على كل حال ـ يستمعون إلى غنائها شاكرين، ومقدرين، تمامًا كما كانوا من قبل، إلا أنهم لم يشغلهم كثيرًا اختصار أغانيها.

وبما أنها لا يمكنها أن تواصل العرج إلى الأبد على نحو بالغ الدقة، فقد فكرت في شيء آخر، فزعمت بأنها متعبة، وأنها ليست في حالة مزاجية للقيام بالغناء، وأنها تشعر بالإعياء، وعلى هذا فقد نلنا منها أداءً مسرحيًّا تمامًا بالإضافة إلى أدائها الغنائي. إننا نرى أنصارها في الخلفية يلتمسون ويستعطفونها أن تغني، وسوف يسرها أن تتفضل بذلك، إلا أنها لا تستطيع. يقومون بترضيتها، وينهالون عليها بألوان النفاق، ويكادون أن يحملوها حملًا إلى المكان المختار الذي يفترض أن تقوم فيه بأداء أغنياتها. وأخيرًا وقد انفجرت دموعها من دون تفسير استسلمت. لكن عندما وقفت لكي تغني، في نهاية كل حيلها فيما يبدو بوضوح، مرهقة، ذراعاها ليستا مفرودتين على آخرهما كعادتها، بل تتدليان إلى أسفل فاقدة الحياة، حتى إن المرء ليتكون لديه الانطباع بأنهما ربما أقصر قليلًا، وبمجرد أن كانت على أهبة أن تستهل الغناء، هنالك لم تتمكن من أن تفعل ذلك في آخر الأمر، وأوضحت لنا هزة لا إرادية من رأسها ذلك العجز، وانهارت أمام أعيننا، وتتمالك نفسها مرة أخرى بالتأكيد وتغني. وتخيلت أنا، كما اعتدت على ذلك كثيرًا، ربما لو أن واحدًا له أذن تلتقط الظلال الأكثر دقة في التعبير، لكان باستطاعته أن يستمع إلى أنها كانت تغني بإحساس غير معتاد، إحساس

يتعالى مع ذلك ليبلغ درجة تشارف الكمال لتبدو هي في النهاية أقل إرهاقًا عما كانت عليه من قبل، وتخطو بخطوة ثابتة ـ لو كان باستطاعة المرء أن يستخدم هذا التعبير ليطلقه على مشيتها المتعثرة ـ تتحرك ماضية في مشيتها، رافضة كل مساعدة من أنصارها، وتقيس بعينين باردتين حجم الجمهور الذي يفسح لها الطريق باحترام.

حدث ذلك قبل يوم أو يومين؛ لكن آخر ما يتعلق بها هو أنها اختفت، بالضبط في وقت كان من المفترض فيه أن تغني. لم يكن أنصارها وحدهم هم من كانوا يبحثون عنها، فالكثيرون كانوا يكرسون أنفسهم في عملية البحث، لكن كان ذلك كله هباءً. لقد اختفت يوزيفين، وهي لن تغني، لن يدفعها التزلف إلى الأغنية، فهي قد هجرتنا تمامًا هذه المرة.

ويبدو من الغريب، كم هي مخطئة في حساباتها، تلك المخلوقة الماهرة، مخطئة للغاية حتى إن المرء ليتخيل أنها لم تقم بعمل أي حسابات بالمرة، بل إنها كانت فقط مدفوعة في طريقها بواسطة قدرها الخاص، الذي لا يمكن في عالمنا أن يكون سوى قدر محزن. من تلقاء نفسها هجرت غناءها، ومن تلقاء نفسها حطمت القوة التي كانت قد اكتسبتها على قلوب الناس. فكيف تسنى لها أن اكتسبت تلك القوة، بما أنها لا تعلم سوى القليل للغاية عن قلوبنا هذه؟ إنها تخفي نفسها ولا تغني، إلّا أنّ شعبنا يواصل طريقه في هدوء، وبلا إحباط ملحوظ، شعب واثق بنفسه، في كامل التوازن، متملك لسلطته، حتى على الرغم

من أن المظاهر مضللة، جماهيره يمكنها فقط أن تهب الهبات، لا أن تتلقاها، حتى من يوزيفين.

طريق يوزيفين مع ذلك، لا بد له أن يكون طريق انحدار. وسوف يجيء الوقت حالًا عندما تتردد ألحانها الأخيرة وتموت في الصمت. إنها حدث صغير عارض في سياق تاريخ شعبنا الأبدي، وسوف يتغلب الشعب على هذه الخسارة، ولا يعني ذلك أن الأمر سيكون سهلًا بالنسبة لنا، فكيف لتجمعاتنا أن تنعقد في صمت تام؟

ومع ذلك ألم يكونوا صامتين حتى عندما كانت موجودة؟ هل كان صفيرها الفعلي واضح الارتفاع، وأكثر حياة أكثر مما ستكون ذكراه؟ هل كانت حتى في أثناء حياتها أكثر من مجرد ذكرى بسيطة؟ وألم يكن ذلك بالأحرى لأن غناء يوزيفين وقد أصبح بفقدانه على النحو ولأنه مضى، أن شعبنا بحكمته قد قدره تقديرًا عاليًا إلى هذا الحدّ؟

ولعلنا على هذا لن نعاني الفقد البالغ بعد هذا كله، بينما يوزيفين وقد أُعتقت من عبء الأحزان الأرضية، التي تكمن حسب تفكيرها في انتظار كل الأرواح المختارة، سوف تفقد نفسها بسعادة وسط الحشد الذي لا حصر لتعداده من أبطال شعبنا، وسرعان ـ بما أننا لسنا مؤرخين ـ ما سوف تسمو إلى أعالى الفداء، وتنسى كنسيان كل إخوانها.

الحُكْم كان صباح يوم أحد في ذروة فصل الربيع، وكان جيورج بندمان، وهو تاجر شاب جالس في حجرته في الطابق الأول من أحد

بيوت صف طويل من المباني الصغيرة المتداعية التي تمتد إلى جوار النهر، والتي لا يكاد يتميز أحدها عن الآخر في شيء سوى الارتفاع واللون، كان قد فرغ لتوه من كتابة رسالة إلى صديق قديم كان يعيش الآن في الخارج، وكان قد وضع الرسالة في مظروف على نحو متباطئ وحالم، وبكوعيه مستندتين إلى منضدة الكتابة، كان يحدق إلى النهر خارج النافذة، وإلى الكوبرى، وإلى التلال على الشاطئ الأبعد بلونها الأخضر الواهن.

كان يفكر في صديقه الذي كان قد فرَّ هاربًا إلى روسيا قبل بضع سنوات؛ لأنه لم يكن يتوقع إمكانية للنجاح في وطنه، وكان الآن يباشر عملًا من الأعمال في سانت بطرسبورج. كان عمله قد انتعش في بدايته، ولكنه أخذ منذ وقت طويل في الانحدار، كما أنه كان يتشكى من ذلك في أثناء زياراته المتزايدة الندرة لوطنه، وعلى هذا فقد كان يستهلك نفسه من غير جدوى في بلد غريبة، ولم تكن اللحية غير المألوفة التي أطلقها قد أخفت تمامًا الوجه الذي كان جيورج قد عرفه معرفة حقة منذ الطفولة، وكانت بشرته قد تزايد اصفرارها حتى لتشير إلى مرض خفي ما. ولمصلحته لم تكن له علاقة منتظمة بمستوطنة المهاجرين أمثاله من مواطنيه هناك، ولا تكاد تكون له أي علاقة اجتماعية مع العائلات الروسية. وعلى هذا كان قد روَّض نفسه على أن يبقى أعزب.

فما الذي يمكن أن يكتبه المرء لمثل هذا الرجل، الذي كان واضحًا أنه قد فرَّ إلى خارج الحدود، رجل قد يأسف المرء من أجله، لكن لا

يستطيع أن يسانده، فهل ينبغي على المرء أن ينصحه بأن يعود إلى الوطن، وأن يعيد استزراع نفسه فيه، وأن يستعيد ثانية أصدقاءه القدماء —لم يكن ثمة ما يعوقه عن أن يفعل ذلك— وبصفة عامة أن يعتمد على مساندة أصدقائه؟ إلّا أن ذلك كان يعد من قبيل إخباره —وكلما كان ذلك بمزيد الرفق، كان عدائيًّا أكثر— بأن كل جهوده حتى الآن قد أُجهضت، وأن عليه أخيرًا أن يستسلم، وأن يعود إلى الوطن، ويكون هدفًا للتحديق في وجهه بأفواه مفغورة من الدهشة التي يتفحصه بها كل شخص بصفته عائد أدراجه بعد أن ضل به السبيل، وأن أصدقاءه وحدهم كانوا هم من يعرفون كل شيء عن كل شيء، وأنه هو نفسه كان مجرد طفل كبير ينبغي له أن يفعل ما يصفه له أصدقاؤه الناجحين الملازمين لوطنهم، وأنه كان مؤكدًا، على ذلك، أن كل الألم الذي قد ينزله به المرء سوف يحقق غرضه؟ ربما حتى لا يكون من الممكن أن يجعله يعود إلى الوطن على الإطلاق. وقد قال هو نفسه إنه كان الآن قد فقد الصلة بالتجارة في وطنه، ثم سيكون هو عندئذ، قد تم نبذه وحيدًا في بلد غريب يعاني المرارة بسبب نصيحة أصدقائه، ومغتربًا عنهم أكثر من ذي قبل، لكن لو أنه اتبع نصيحتهم، ثم بعد ذلك لم يوفق في وطنه —ليس بسبب الحقد بالطبع، بل من خلال قوة الظروف— ، فلم يكن ليطرد توفيقه مع أصدقائه أو من دونهم، ويكون قد أحس بالإهانة، ولا يمكن أن يقال بعد ذلك بأن لا أصدقاء له، ولا وطن ينتمي إليه؛ أفلم يكن من الأفضل له أن يبقى تمامًا كما كان؟ وبوضع هذا كله في

الاعتبار، كيف كان للمرء أن يكون متأكدًا من أنه سوف يحقق نجاحًا في الحياة في وطنه؟

لمثل هذه الأشياء، بافتراض أن المرء أراد أن يواصل مراسلته، لم يكن باستطاعة المرء أن يرسل إليه أي أخبار حقيقية. من قبيل تلك الأخبار التي يمكن أن تقال صراحة لأكثر معارف المرء ابتعادًا عنه؛ فلقد انقضت أكثر من ثلاث سنوات منذ زيارته الأخيرة، وقدم لهذا عذرًا ضعيفًا بأن الوضع السياسي في روسيا كان بعيدًا عن التحدد، وهو فيما يبدو لم يكن ليسمح بأقصر فترة غياب لرجل أعمال صغير، بينما يتيح لمئات الآلاف من الروسيين السفر إلى الخارج باطمئنان. لكن خلال هذه السنوات الثلاث، كانت أوضاع حياة جيورج نفسه قد تغيرت تغيرًا بعيدًا؛ فمنذ سنين كانت والدته قد توفيت، ومنذ ذلك الحين كان هو ووالده قد تشاركا في حياتهما بالمنزل معًا، وكان صديقه بالطبع قد تم إبلاغه بذلك، وكان قد عبّر عن مواساته في رسالة قالت بكلمات بالغة الجفاف إن الأسى الذي سبَّبه مثل هذا الحدث، كان على المرء أن يستنتج منه أنه لا يمكن له أن يحقق النجاح في بلد بعيد. ومنذ ذلك الحين كان جيورج قد انكب على العمل التجاري بإرادة زائدة، كما زوّد نفسه بمثل هذه الإرادة فيما يتعلق بكل شيء آخر.

ربما كان إصرار والده على أن يتناول كل شيء بطريقته الخاصة في العمل التجاري، أثناء حياة والدته، قد أعاقه عن أن يطور أي نشاط حقيقي خاص به، وربما منذ وفاتها كان والده قد أصبح أقل عدوانية. على الرغم من أنه كان لا يزال فعّالًا في العمل التجاري. ولعل ذلك أن

يكون راجعًا في أغلبه إلى تصادف حدوث شوط متصل من وقائع الحظ الحسن، وهو ما كان محتملًا حدوثه حقًّا. لكن بكل المعدلات خلال هاتين السنتين كان العمل التجاري قد تطور على نحو أبعد ما يكون عن التوقع، وكان يتعين أن يتضاعف عدد العاملين، وكان رقم المبيعات قد أصبح خمسة أضعاف ما سبق، لا يوجد أي شك في ذلك، وكان التقدم إلى ما هو أكثر من ذلك تتواجد علاماته أمامهما مباشرة.

لكن لم يكن لصديق جيورج أي معرفة عن هذا التحسن. في سنوات سابقة، ربما لآخر مرة في رسالة العزاء تلك، كان قد حاول أن يغري جيورج بأن يهاجر إلى روسيا، وكان قد بالغ في إمكانيات النجاح بالتحديد في فرع التجارة الذي يعمل فيه جيورج، وكانت الأرقام التي اقتبسها أرقامًا ميكروسكوبية مقارنة بالمعدل الذي تحققه عمليات جيورج الحالية، إلّا أنه ابتعد عن أن يجعل صديقه يعلم شيئًا عن نجاحه التجاري، ولو كان له أن يفعل ذلك الآن على نحو استرجاعي، فسوف يبدو ذلك شيئًا غريبًا بلا شك.

وعلى ذلك فقد حصر نفسه في حدود إعطاء صديقه مفردات من النميمة غير ذات أهمية، من تلك التي تطفو جزافًا في الذاكرة عندما يتابع المرء التفكير لمجرد تمضية الوقت متراخيًا، في أمور عديمة الجدوى، في يوم أحد هادئ. كل ما كان يرغب فيه هو أن يدع جانبًا دون أي تشويش فكرة موطنه؛ تلك الفكرة التي لا بد كان صديقه قد صورها لنفسه وفقًا لما يريحه طوال الفترة الطويلة الممتدة. وهكذا حدث لجيورج أنه لثلاث مرات، في ثلاث رسائل متباعدة كل منها عن

الأخرى تباعدًا زائدًا بين كل منها، كان قد أخبر صديقه بخبر خطوبة شخص غير ذي أهمية إلى فتاة مماثلة له في افتقارها إلى الأهمية، حتى إنه في الحقيقة —وعلى عكس نواياه— بدأ صديقه يظهر بعض الاهتمام بهذا الحدث البارز.

إلّا أن جيورج فضل أن يكتب عن أمور مثل هذه، بدلًا من أن يعترف بأنه هو نفسه كان قد قام منذ شهر بخطوبته إلى فراولين ـ فريدا براندنفلد— وهي فتاة تنتمي إلى عائلة ميسورة، وغالبًا ما ناقش مع خطيبته أمر صديقه هذا، والعلاقة الغريبة التي تطورت بينهما في مراسلاتهما. قالت: «وعلى هذا فهو لن يحضر عرسنا، ومع ذلك فإن لي الحق في أن أعرف كل أصدقائك»، وأجابها جيورج: «إنني لا أريد إزعاجه، لا تسيئي فهمي، إنه ربما سوف يحضر، على الأقل أنا أظن ذلك، إلّا أنه سوف يشعر بأن يده قد تم الضغط عليها، وسيكون في ذلك إيذاء له. وربما كان ليحسدني، وبلا شك لن يكون مرتاحًا. ودون أن يكون في مقدوره أن يفعل أي شيء، فيما يتعلق بعدم ارتياحه، فلعله أن يضطر إلى أن يرحل مرة أخرى وحيدًا. وحيدًا —هل تعلمين ماذا يعني ذلك «لكن هل لم يسمع عن عرسنا ربما بأي طريقة أخرى؟»، «لا يمكنني بالطبع أن أمنع إمكان معرفته، لكن قد لا يكون ذلك هو الحال، إذا نظرنا إلى الطريقة التي يعيش بها حياته».

«بما أن أصدقاءك هم على هذا الحال، فلم يكن لك أبدًا يا جيورج أن تقدم على خطوبة لنفسك على الإطلاق».

«حسنًا، نحن كلانا نلام على هذا، إلّا أنني لن أرى الأمر الآن على أي نحو آخر خلافًا لذلك»؛ وعندما كانت تلتقط أنفاسًا متسارعة تحت وقع قبلاته، ظلت تواصل قولها: «وعلى أي حال، فإنني أشعر بالانزعاج». وكان يفكر بأن الأمر لم يكن ليورطه في المتاعب لو كان له أن يرسل الأنباء إلى صديقه. قال لنفسه: «هذا هو نوع الرجل الذي يماثلني، ولسوف يقبلني كما أنا، لا يمكنني أن أصوغ نفسي على طراز آخر قد يجعلني صديقًا مناسبًا له أكثر».

وكان في الحقيقة قد أخبر صديقه في الرسالة الطويلة التي كان يكتبها في صباح الأحد ذاك، عن نجاحه في الحب بهذه الكلمات: «لقد احتفظت بأفضل أنبائي لنهاية الرسالة، فقد أتممت خطوبتي إلى فراولين «فريدا براندنفلد»، وهي فتاة من أسرة ميسورة، وكانت قد جاءت لتعيش هنا بعد رحيلك بوقت طويل، وعلى هذا فأنت في الحقيقة لا تكاد تعرفها. وسوف يكون هناك وقت لكي أخبرك فيه بالمزيد عنها، لذلك دعني اليوم أقول لك فحسب بأنني سعيد للغاية، وأن الاختلاف الوحيد في علاقتنا، بيني وبينك هو أنه بدلًا من مجرد صديق عادي، سيكون لك في شخصي صديق سعيد. وعلاوة على ذلك فسوف يكون لك في خطيبتي التي ترسل تحياتها الحارة، والتي سوف تكتب إليك هي بنفسها. صديقة أصيلة من الجنس الآخر، وهو ما لا يعد شيئًا قليلًا بالنسبة لشخص أعزب. وأنا أعلم أن هناك أسبابًا عديدة لعدم إمكانك أن تحضر لرؤيتنا، لكن ألن يكون زواجي هو المناسبة الصحيحة تحديدًا كي تتخلص لأجلها من كل العوائق؟ ولا يزال لك

مهما يكن من أمر، أن تفعل ما يبدو حسنًا بالنسبة لك دون أن تضع في اعتبارك أي مصالح سوى مصالحك».

وبهذه الرسالة في يده، ظل جيورج يجلس لوقت طويل إلى منضدة الكتابة، وقد استدار وجهه نحو النافذة. لم يكن قد ردّ بالكاد بابتسامة غائبة تحية لوَّح له بها من بين المارة في الشارع أحد معارفه.

وضع الرسالة أخيرًا في جيبه، ومضى خارجًا من حجرته عبر ردهة صغيرة إلى حجرة والده التي لم يكن قد دخلها منذ شهور، لم يكن هناك في الحقيقة حاجة له لأن يدخلها، كان يرى والده يوميًّا في العمل، وكانا يتناولان غداءهما معًا في أحد المطاعم، وفي المساء كان كل منهما يفعل في الحقيقة ما يروق له، لكن حتى عندئذ، ما لم يكن جيورج قد خرج، كما كان يحدث غالبًا مع أصدقاء له، أو أخيرًا. ومنذ وقت أكثر اقترابًا قد قام بزيارة خطيبته؛ كانا دائمًا يجلسان بعض الوقت، كل منهما مع صحيفته في حجرة جلوسهما المشتركة.

ولقد أدهش جيورج كم كانت حجرة والده معتمة حتى في هذا الصباح المشمس، وهكذا كانت قد زادت عتمتها، كتلك العتمة التي بجوار الحائط المرتفع، على الجانب الآخر للردهة. كان والده جالسًا إلى جوار النافذة في ركن حافل بتذكارات لوالدة جيورج المتوفاة، يقرأ صحيفة كان يحملها إلى أحد الجانبين أمام عينيه في محاولة للتغلب على عيب في الرؤية، وعلى المنضدة كان يوجد بقايا طعام إفطاره الذي لم يكن قد تم تناول الكثير منه.

قال والده: «آه يا جيورج» ناهضًا في الحال لكي يلقاه. وكان رداؤه المنزلي الثقيل قد تأرجح منفتحًا وهو يسير، وكانت حاشية ردائه السفلى قد رفرفت حوله.

قال جيورج لنفسه: «لا يزال والدي رجلًا عملاقًا»، ثم بصوت مرتفع: «إنّ العتمة هنا لا تحتمل».

وأجاب والده: «نعم إنها عتمة بما يكفي».

«وأنت قد أغلقت النافذة أيضًا!».

«إنني أفضلها هكذا».

قال جيورج كما لو كان يكمل ملاحظته السابقة: «حسنًا، إن الجو دافئ بالفعل في الخارج»، ثم جلس.

ورفع والده أطباق الإفطار، ووضعها فوق خزانة ذات أدراج.

وتابع جيورج الذي كان يراقب حركات الرجل العجوز ببلاهة؛ حديثه قائلًا: «أردت حقًّا أن أخبرك أنني أرسل الآن أخبار خطوبتي إلى سانت بطرسبورج»، وسحب الرسالة قليلًا إلى خارج جيبه، ثم تركها تسقط ثانية بداخله.

تساءل والده: «إلى سانت بطرسبورج؟».

قال جيورج محاولًا أن يلتقي بعين والده: «إلى صديقي هناك»، في ساعات العمل يكون مختلفًا كل الاختلاف. كان مستغرقًا في التفكير؛ كم يجلس هنا ساكنًا في رسوخ بذراعيه متقاطعتين.

قال والده في تأكيد غريب: «آه.. نعم. إلى صديقك».

«حسنًا، أنت تعلم يا أبي أنني أردت ألّا أخبره بخبر خطوبتي في البداية بسبب اعتبارات تخصه، كان هذا هو السبب الوحيد. وتعرف أنت نفسك أنه رجل صعب.

قلت لنفسي إنّ أحدًا آخر غيري قد يخبره بخبر خطوبتي، على الرغم من أنه مخلوق وحيد، وأن ذلك لا يكاد يكون ممكنًا أن يحدث —لم يكن باستطاعتي أن أمنع ذلك— لكنني لم أكن أنوي مطلقًا أن أخبره بنفسي».

تساءل والده: «والآن قد غيرت رأيك؟»، واضعًا صحيفته الضخمة فوق عتبة النافذة، وفوقها نظارته التي غطاها بإحدى يديه.

«نعم، لقد كنت أفكر في كل ذلك. قلت لنفسي، لو كان صديقًا حقيقيًّا لي، فإن كوني قد قمت بخطوبتي في سعادة، فسوف يسعده ذلك هو أيضًا، وعلى هذا لن أؤجل إخباره أكثر من ذلك، لكنني قبل أن أضع الخطاب في صندوق البريد، أردت أن أدعك تعلم بذلك».

قال والده وهو يمط فمه الخالي من الأسنان: «استمع إليَّ يا جيورج، لقد أتيت إليّ بخصوص هذا الأمر، لكي تتحدث معي عنه حديثًا نهائيًّا. لا شك أن هذا يشرفك، إلّا أنه لا شيء، إنه أسوأ من لا شيء، إن لم تخبرني بالحقيقة كاملة. إنني لا أريد أن أثير أمورًا لا ينبغي أن يجري ذكرها هنا. فمنذ وفاة والدتنا العزيزة جرى حدوث أمور معينة ليست صوابًا، ربما سيجيء الوقت لذكرها، وربما سيكون الوقت أقرب مما نظن. هناك أشياء كثيرة في العمل التجاري لا علم لي بها، ربما لا تكون

قد حدثت من وراء ظهري، ولست بسبيلي لأن أقول إنها قد تم حدوثها بالفعل من وراء ظهري —هناك أمور لم يعد في وسعي بعد الآن أن أجد لها لديَّ الكفاءة التي تلزمني لمواجهتها. إن ذاكرتي تضعف، ولم تعد لديَّ الآن رؤية واضحة لأشياء كثيرة جداًّ. فهذا أولًا هو نهاية شوط الطبيعة. وثانيًا كانت الضربة التي تلقيتها بوفاة والدتنا العزيزة أشد عنفًا مما أحدثه بك —لكن لما كنا بصدد ذلك الشيء، ما دام أننا نتحدث عن هذه الرسالة، فأرجوك يا جيورج ألّا تخدعني.

إنها شيء عارض ولا تستحق نفسًا نضيعه من أجلها، لهذا لا تخدعني. هل لك هذا الصديق في سانت بطرسبورج؟».

نهض جيورج واقفًا في ارتباك، قائلًا: «لندع أصدقائي جانبًا. وإنّ ألفًا من الأصدقاء لن يعادلوا بالنسبة لي أبي. هل تعلم ما الذي أعتقده؟

أعتقد أنك لا تعني بنفسك العناية الكافية. إلّا أنّ الشيخوخة لا بد لها من عناية. لا يمكنني أن أستغنى عنك في التجارة. أنت تعلم هذا جيداً، لكن لو كانت التجارة ستؤدي إلى تدمير صحتك، فإنني على استعداد لتصفيتها غداً وإلى الأبد، ولن يفيد هذا في شيء. وسيكون علينا أن نحدث تغييرًا في أسلوب حياتك، لكنه سيكون تغييرًا جذريًّا. أنت تجلس هنا في الظلام، بينما هناك في حجرة الجلوس المزيد من الضوء اللازم لك. وتتناول فحسب مجرد قضمة من طعام الإفطار بدلًا من الاحتفاظ بقوتك. وتجلس بجوار نافذة مغلقة، على حين أن الهواء سيفيدك جداًّ. لا يا أبي. سوف أستدعي الطبيب، وسوف ننفذ تعليماته.

سوف نقوم بتغيير حجرتك، يمكنك أن تنتقل إلى الحجرة الأمامية، وسأنتقل أنا إلى هنا، لن تلحظ التغير، فكل أشيائك سوف تنتقل معك. إلّا أنّ هناك الوقت لهذا كله فيما بعد، وسأضعك في الفراش الآن لفترة قصيرة، أنا واثق من أنك في حاجة إلى الراحة. هيا، سوف أساعدك في خلع ملابسك، سوف ترى أنني أستطيع أن أفعل ذلك. أو إذا شئت بدلًا من ذلك، أن تذهب في الحال إلى الحجرة الأمامية؛ فيمكنك أن تستلقي الآن في فراشي، وسوف يكون هذا أكثر تعقلًا من أي شيء آخر».

توقف جيورج ملاصقًا لوالده، الذي كان قد ترك رأسه تتدلى بشعرها الأبيض المشعث فوق صدره.

قال والده في صوت خفيض، دون أن يأتي بأي حركة: « جيورج».

ركع جيورج أرضًا في الحال بجوار والده، ورأى في وجه والده المنهك بؤبؤي عينيه جاحظين يتطلعان إليه في ثبات من جانبي العينين.

«لا يوجد صديق لك في سانت بطرسبورج. لقد كنت تمزح دائمًا، وأنت حتى لم تتراجع عن مزاحك. كيف يمكن أن يكون لك صديق بعيدًا هناك! إنني لا يمكنني أن أصدق هذا مطلقًا».

قال جيورج، رافعًا والده من المقعد، ونازعًا عنه ـ وهو يقف في ضعف واضح ـ رداءه المنزلي:

«تذكر فقط يا والدي ما مضى، لقد أوشكت أن تنقضي الآن ثلاثة أعوام منذ جاء صديقي لزيارتنا في آخر مرة، وأذكر أنك اعتدت على

كراهيتك الزائدة له. مرتان على الأقل حلْتُ أنا فيهما بين رؤيتك له، مع أنه كان جالسًا فيهما بالفعل معي في حجرتي. يمكنني تمامًا أن أتفهم عدم حبك له، فلصديقي صفاته الغريبة. لكن، بعدئذ، مضى الحال بينك وبينه على خير ما يرام؛ وكنت فخورًا لأنك استمعت إليه، وأطرقت برأسك، ووجهت إليه الأسئلة. لو أنك رجعت بذاكرتك إلى الوراء، لتذكرت؛ لقد حكى لنا في ذلك الوقت قصصًا لا يصدقها العقل عن الثورة الروسية. مثلًا عندما كان في رحلة إلى مدينة (كييف) وصادفه تمرد، ورأى في إحدى الشرفات قسِّيسًا قد شق صليبًا عريضًا داميًا في راحة يده، ورفع يده إلى أعلى، وهتف في الحشد. لقد حكيت أنت نفسك هذه القصة من وقت لآخر، منذ ذلك الحين».

في تلك الأثناء كان جيورج قد نجح في دفع والده إلى أسفل مرة أخرى، وخلع عنه بعناية السراويل الصوفية التي كان يرتديها فوق سراويله التيل التحتية، وجواربه، وكان مظهر ملابسه التحتية البعيد عن النظافة إلى حد زائد، قد دفعه إلى أن يلوم نفسه على إهماله.

لقد كان من واجبه بلا شك أن يطمئن إلى أنّ والده قد ارتدى غيارات نظيفة من الملابس التحتية، ولم يكن بعد قد ناقش مع عروسه المقبلة أي ترتيبات قد يلزم اتخاذها في المستقبل بخصوص والده، ذلك أنهما كانا كلاهما ـ في صمت ـ قد اعتبرا أنه من المسلم به أن يواصل الرجل العجوز العيش وحيداً في المنزل القديم. لكنه الآن اتخذ قرارًا سريعًا ثابتًا بأن يأخذه معه إلى مقر إقامته المقبل، ولقد بدا له

بالتفحص عن كثب، أن العناية التي انتوى أن يغدقها هناك على والده، ربما تكون قد تأخرت على الأغلب كثيرًا عن موعدها.

حمل والده إلى الفراش بين ذراعيه، وقد منحه هذا إحساسًا مرعبًا وهو يلاحظ أنه بينما كان يخطو تلك الخطوات القلائل متجهًا به نحو الفراش، كان الرجل العجوز فوق صدره قد راح يلهو بسلسلة ساعته، ولم يتمكن للحظة أن يضعه فوق الفراش؛ لأنه كان قد تعلق بشدة بسلسلة الساعة.

لكنه ما إن تم وضعه في الفراش، حتى بدا كل شيء على ما يرام؛ غطّى نفسه تمامًا، وسحب البطاطين فوق كتفيه إلى حد زائد عن المعتاد، وتطلع إلى أعلى نحو جيورج بنظرة ودودة.

سأله جيورج، وهو يهز رأسه مشجعًا: «بدأت تتذكر صديقي، أليس كذلك؟».

سأله والده، كما لو لم يكن في مقدوره أن يرى إن كانت قدماه تحت الغطاء كما ينبغي أم لا: «هل أنا تحت الغطاء تمامًا الآن؟».

قال جيورج، وقد لفّ البطاطين حوله أكثر: «وهكذا فأنت بالفعل تشعر بالدفء في الفراش؟».

وتساءل الأب مرة أخرى، وهو يبدو حريصًا في إصرار غريب على تلقي الإجابة: «هل أنا تمامًا تحت الغطاء؟».

«لا تخش شيئًا، أنت تحت الغطاء تمامًا».

صاح الأب مقاطعًا، وقد ألقى عنه بعيدًا بالبطاطين بقوة أطارتها كلها في الهواء، في لحظة، وقفز واقفًا في الفراش، إحدى يديه فقط لمست السقف لمسًا هينًا كي تسنده في وقفته: «لا! لقد أردت لي أن أتغطى تمامًا يا غُصَيني الغضّ، أعرف هذا؛ إلّا أنني بعد ما زلت أبعد ما أكون عن التغطية الكاملة. وحتى لو كانت هذه هي آخر ما لديَّ من قوة، فإنها كافية لمواجهتك، بل إنها لتزيد كثيرًا عما يلزم. بالطبع أنا أعرف صديقك؛ وقد كان يصلح ليكون ابنًا لي على ما يهوى قلبي. وذلك هو كل السبب في أنك كنت تتلاعب به لعبتك الزائفة طوال كل هذه السنوات. ولماذا يكون الأمر غير ذلك؟ هل تحسب أنني لم أكن أحس أسفًا من أجله؟ وأن هذا كان هو السبب الذي دفعك إلى أن تغلق على نفسك باب مكتبك —يجب عدم إزعاج رئيس المتجر- وهذا فحسب كي تتمكن من أن تخط رسائلك الصغيرة الكاذبة إلى روسيا. إلّا أن الأب لا حاجة به لحسن الحظ إلى أن يتعلم كيف يعرف حقيقة ابنه. والآن بما أنك قد ظننت أنك قد طرحته إلى أسفل، إلى هذا الحد إلى أسفل؛ حتى يتسنى لك أن تضع مؤخرتك فوقه وأن تجلس عليه، ولا يكون له أن يتحرك، عندئذ قرّ قرار ابني الرائع أن يتزوّج».

حدّق جيورج في صورة أبيه المفزعة، ولاح لخياله كما لم يحدث من قبل صديقه في سانت بطرسبورج. ذلك الذي عرفه أبوه فجأة حق المعرفة، رآه ضائعًا في اتساع روسيا، رآه عند باب مخزن بضاعة خاوٍ تمّ السطو عليه، وسط حطام نوافذ عرض بضائعه، ولفّات أقمشته

الممزقة، ودعائم الغاز المتهاوية، هنالك كان يقف، فلماذا كان عليه أن يرحل بعيدًا كل هذا البعد؟

صاح والده: «لكن هيا لمعونتي».

وانطلق جيورج مسرعًا نحو الفراش، شارد الذهن حتى يتبيَّن له كل شيء، لكنه توقف فجأة في منتصف المسافة.

وبدأ الوالد في العزْف قائلًا: «لأنها رفعت نقبتها إلى أعلى، لأنها رفعت نقبتها هكذا، المخلوقة القذرة، ورفع قميصه كي يقلدها، عاليًا للغاية، حتى كان باستطاعة المرء أن يرى فوق فخذه تلك الندبة التي تبقت عن جرحه في الحرب؛ لأنها رفعت نقبتها هكذا، وهكذا، وعلى هذا النحو، تقربت منها أنت، ولكي تكون معها على حريتك، دون إزعاج، شوهت ذكرى والدتك، وخنت صديقك، ودسست أباك في الفراش؛ كي يعجز عن الحركة، لكنه يستطيع أن يتحرك. أم ترى أنه لا يستطيع؟».

ثم نهض واقفًا دون أدنى معونة بالمرة، ورفس الهواء بساقيه إلى خارج الفراش، وقد تألق لنفاذ بصيرته.

وانكمش جيورج في ركن بعيدًا عن والده غاية البعد بقدر ما أمكنه ذلك. وكان قد قر رأيه في ثبات قبل وقت ليس بالقصير على أن يرقب عن كثب أدنى حركة حتى لا يفاجأ بأي هجوم غير مباشر، بقفزة من الخلف إلى أعلى، وعند هذه اللحظة تذكر ذلك الحل الذي طال نسيانه، ثم نسي ثانية، كمن يجذب خيطًا قصيرًا خلال ثقب إبرة.

صاح والده ـ مؤكدًا فكرته بطعنات من سبابته ـ قائلًا:

«إلّا أن صديقك لم تتم خيانته في نهاية الأمر، ذلك أنني كنت أنوب عنه هنا مباشرة، في نفس المكان».

ولم يستطع جيورج أن يقاوم الردّ بعد أن أدرك مدى الضرر، وعضَّ على لسانه. وقد جحظت عيناه بعد فوات الأوان، حتى اصطكت ركبتاه من الألم، صاح:

«أيها المهرِّج».

«نعم بالطبع، لقد قمت بأداء دوري في ملهاة! ملهاة، هذا تعبير جيد! فأي راحة أخرى كانت قد تبقت لأرمل عجوز بائس؟ قل لي —ولتبق، بينما تجيبني كما أنت، ابني الحيّ- ماذا تبقى لي غير ذلك، في حجرتي الخلفية؛ وقد رزئت بمستخدمين لا يعرفون الوفاء. عجوز حتى نخاع عظامي، وابني يتخطر في أنحاء الدنيا. عاقدًا الصفقات التي كنت قد جهزتها له، متفجرًا بالزهو المنتصر، يتسلل بعيدًا عن والده، بذلك الوجه الجامد، وجه رجل أعمال محترم! هل تظن أنني لا أحبك، أنا من انبثقت منه أنت؟».

وطرأت الفكرة على بال جيورج: «والآن سوف يميل إلى الأمام. فماذا لو تهاوى وحطم نفسه؟»، راحت هذه الفكرة تطن في خاطره.

مال والده إلى الأمام، لكنه لم يتهاو. ولما لم يقترب منه جيورج، كما كان يتوقع، اعتدل ثانية مستقيمًا في وقفته.

«اِبق حيث أنت، لست في حاجة إليك! أنت تظن أنّ لديك قوة تكفي لكي تجيء إلى هنا. وأنك إنما تظل مشدودًا إلى الوراء في مكانك، من

تلقاء نفسك. لا تكن واثقًا من نفسك إلى هذا الحد! إنني ما زلت الأقوى فيما بيننا، وحدي فقط. ربما كان عليَّ أن أخلي الطريق؛ لكن والدتك قد منحتني الكثير جدًّا من قوتها، حتى لقد رسخت أنا علاقة ممتازة مع صديقك. ولديَّ أيضًا زبائنك هنا في جيبي!».

قال جيورج لنفسه: «إن له جيوبًا في قميصه»، وأيقن أنه كان باستطاعته بهذه الملاحظة أن يجعل منه شخصية مستحيلة أمام العالم كله، للحظة فقط ظن ذلك، بما أنه قد استمر في نسيانه لكل شيء.

«خذ فحسب عروسك في ذراعك، وحاول اعتراض طريقي، ولسوف أكتسحها بالفعل من جانبك، ولن يتسنى لك أن تعرف كيف؟».

وظهر على وجه جيورج تعبير ينم عن عدم التصديق. وأطرق والده فقط مؤكدًا صدق كلماته، تجاه ركن جيورج.

«كم عملت اليوم على تسليتي بمجيئك لتسألني إن كان ينبغي لك أن تخبر صديقك بخبر خطوبتك. إنه يعلمه بالفعل، أيها الصبي الغبي، إنه يعرف كل شيء!

لقد كنت أراسله؛ لأنك كنت قد نسيت أن تسلبني أدوات الكتابة التي تخصني؛ وهذا هو السبب في أنه لم يتواجد هنا لسنوات، إنه يعلم كل شيء. يعلمه أفضل مما تعلمه أنت نفسك مئات المرات، وبيده اليسرى يغضِّن رسائلك دون أن يفتحها، بينما يرفع في يده اليمنى رسائلي لكي يقرأها بإمعان».

وفي غمرة حماسه لوّح بذراعه فوق رأسه، وصاح: «إنه يعرف كل شيء، وعلى نحو أفضل ألف مرّة».

قال جيورج كي يسخر من والده، لكن تحولت الكلمات في فمه هو نفسه إلى جدٍّ قاتل:

«عشرة آلاف مرّة».

«لسنوات انتظرتك كي تأتيني بمثل هذا السؤال! هل تظن أنني أشغل نفسي بأي شيء آخر؟ هل تظن حتى إنني أقرأ صحفي؟ انظر!»، وألقى بورقة من صحيفة كان قد أخذها معه إلى الفراش على نحو ما، صحيفة قديمة لها اسم مجهول تمامًا لجيورج.

«كم هو طويل ذلك الزمن الذي احتجته حتى تكبر! كان على والدتك أن تموت، لم تستطع أن ترى اليوم السعيد؛ وصديقك يتمزق إرْبًا في روسيا، ومنذ ثلاث سنوات حتى، كان شاحبًا بما فيه الكفاية، لكي يُلقى به بعيدًا. أما بخصوصي: هل أنت ترى أي حال هي حالي، إنّ لديك عينين في رأسك لكي ترى ذلك!».

صاح جيورج: «وهكذا فقد كنت تكمن في انتظاري!».

قال والده في رثاء، وعلى نحو مسلم به: «أظنك كنت قد أردت أن تقول ذلك قبل الآن، لكن الآن، ليس لذلك أهمية!»، وفي صوت أعلى: «وبهذا فأنت تعلم الآن ما هو ذلك الشيء الآخر الذي كان يتواجد في العالم، بالإضافة إلى نفسك، لم تكن تدري شيئًا سوى نفسك فحسب! طفل بريء نعم، هذا ما كنته أنت حقًّا. لكن ما هو حق أكثر منه، هو

أنك كنت كائنًا بشريًّا شيطانًا! وعلى هذا فلتنتبه... إنني أحكم عليك الآن بالموت غرقًا!».

أحس جيورج بأنه قد تم اقتناصه، منتزعًا إلى خارج الحجرة؛ ذلك أن الصدمة التي سقط بها والده فوق الفراش خلفه كانت تطن في أذنيه لا تزال، عندما انطلق هاربًا، وعلى الدرج الذي اندفع هابطًا فوقه كما لو كانت درجاته سطحًا مستويًا مائلًا، اصطدم بالمرأة الشغّالة التي تقوم بأعمال المنزل في أثناء صعودها؛ لكي تقوم بالتنظيف الصباحي.

صاحت قائلة: «يا يسوع!» وغطت وجهها بمريلتها، إلّا أنه كان قد اختفى فعلًا.

اندفع إلى خارج الباب الخارجي، وعبر الطريق مدفوعًا نحو الماء، وكان قابضًا بالفعل على الدرابزين، متشبثًا به كما يتشبث جائع بطعام، طوح بنفسه فوقه، كأنه الرياضي المرموق الذي كانه ذات مرة في شبابه، مبعثًا لفخر والديه. وبقبضة متهالكة كان لا يزال يمسك بالدرابزين عندما لمح من بين قضبانه أوتوبيسًا قادمًا، كان يمكن لضجيجه أن يغطي بسهولة على صوت سقوطه، وهتف قائلًا في صوت خافت:

«والديّ العزيزين لقد أحببتكما دائمًا، وفي كل حال!».

وترك نفسه يسقط.

في هذه اللحظة بالتحديد، كان تيار لا نهاية له من حركة المرور يتدفق فوق القنطرة.

* * *

امرأة صغيرة

هي امـرأة صـغيرة، نحيلـة حقًّا بطبيعتهـا، وهي أيضًـا محبوكـة الثـوب الدانتيلّا، وترتدي دائمًا نفس الثوب عندما أراها، وهو من قماش أصـفر رمادي، لون أشبه بلون الخشب ومزين في تحفظ بشراريب أو شبه أزرار مـدلاة من نفس اللـون، وهي دائمًـا بلا قبعـة، وشـعرها الـداكن الأشـقر الجميل ناعم وغير مشعث، إلّا أنها سريعة وخفيفة في حركاتها، بل هي على الأصح تبالغ بالفعل في خفـة الحركـة. وهي تحب أن تضـع يـديها في خاصرتيها، وفجـأة تـدير الجـزء العلـوي من جسـدها جانبيًّا بمباغتة تبدو مدهشة، ويمكنني فقـط أن أنقـل الانطبـاع الـذي تتركـه يـديها عليَّ فأقول بأنني لم أر قط يدًا منفصلة الأصـابع، المتباينـة أحـدها عن الآخـر على هذا النحو الحـاد كأصـابعها، إلّا أن يـدها لا تتصـف بـأي مميـزات تشريحية، فهي يد طبيعية تمامًا.

هذه المرأة الصغيرة الآن، غير راضية عني إلى حد زائد؛ فهي دائمًا تجـد فيَّ شيئًا غير مقبـول، فأنـا أسـبب لهـا ضـررًا مـا باسـتمرار؛ أضـايقها في خطوة، فلو كان لحياة المرء أن تتجزأ إلى أصغر القطع الصـغيرة، وكـان لكـل ذرة منهـا أن تُحـاكم على حـدة، فـإن كـل ذرة من حيـاتي سـتكون إساءة إليها. ولقد تعجبت غالبًا لماذا أكـون إلى هـذا الحـد إسـاءة إليهـا، لعل كل ما يتعلق بي أن يكـون عـدوانًا على إحساسـها بالجمـال، وعلى شعورها بالعدل، وعلى عاداتها، وعلى تقاليدها، وعلى آمالها؛ فثمة مثل تلك الطبائع المتنافرة، لكن لمـاذا يزعجهـا ذلـك كـل هـذا الإزعـاج؟ لا

توجد بيننا أي علاقة قد تفرض عليها أن تعاني بسببي، كل ما عليها أن تفعله هو أن تعتبرني شخصًا غريبًا تمامًا، فهكذا أنا، وهو ما لا أعترض عليه، بل إنني لأرحب به في الحقيقة. ولا حاجة بها سوى أن تنسى وجودي، الذي لم أفرضه قط على انتباهها ولا سأحاول فرضه، وستكون كل تعاستها قد انتهت. إنني لا أفكر في نفسي، وأخرج تمامًا من حسابي حقيقة أنني أجد موقفها بالطبع مرهقًا على نحو ما، أخرجها لأنني أدرك أنّ ضيقي هو لا شيء بالقياس إلى الكرب الذي تعانيه. وأنا واعٍ تمامًا على أي حال أن شقاءها ليس شقاء مُحبًّا، فهي ليست مهتمة بأن تقوم بأي إصلاح لي، وإضافة إلى هذا، فمهما كان ما تجده فيّ ممّا لا تقبله، فإنه بطبيعته لا يمنع تطوري. إلّا أنها لا تهتم بتطوري هو أيضًا، هي تهتم فقط بما يهمها هي شخصيًّا في الأمر، وهو أن تنتقم لنفسها من أجل العذاب الذي سببته لها في الحاضر، ولكي تمنع أي عذاب يهددها من ناحيتي في المستقبل. ولقد حاولت بالفعل ذات مرة أن أشير إلى أفضل طريقة لوضع حد لاستيائها هذا، إلّا أن محاولتي نفسها قد أثارت هياجها إلى تلك الدرجة البالغة من العنف، حتى إنني لم أكرر المحاولة قط.

أشعر أيضًا بمسؤولية ما ملقاة على عاتقي، لو شئت أن تعبر عن الأمر على هذا النحو، وذلك لكوننا غريبين أحدنا عن الآخر، كما هي حقيقة حالنا كلينا المرأة الصغيرة وأنا، ومهما كان صحيحًا أن العلاقة الوحيدة بيننا هي ذلك الأذى الذي أتيحه لها، أو بالأحرى الأذى الذي تدعني هي أسببه لها، فلا يجب عليَّ ـ مع هذا ـ أن أترك لشعور اللامبالاة أن

يشغلني عن المعاناة الجسدية المرئية الذي يحدثه بها ذلك الأذى؛ فقد وردت إليَّ بين كل حين وآخر أخبار ازداد تكرارها مؤخرًا، بأنها قد نهضت ذات صباح شاحبة، قد جافاها النوم، وغلبها الصداع، ولم يكن في مقدورها على الأغلب أن تعمل، وبهذا شغلت ذويها بأمرها، فكان التساؤل هنا وهناك عن السبب الذي كان قد أدى بها إلى هذا، ولم يعثروا حتى الآن على الجواب. أنا وحدي الذي أعرفه، وهو ضيقها القديم والمتجدد بسببي حقًّا، إنني لست منزعجًا بشأنها إلى هذا الحد الذي بلغه انزعاج أسرتها، ذلك أنها قوية وعنيدة، وأي شخص يقوى على مثل ذلك الانزعاج القوي، يكون قادرًا أيضًا على تجاوز تأثيراته، ولديَّ ارتياب ما حتى في أن معاناتها، أو بعضًا منها على الأقل —هي مجرد حجة فحسب، قد قامت لكي تجلب ارتيابًا عامًّا فيّ. إنها بالغة الزهو حتى تقر صراحة أي عذاب يمثله لها مجرد وجودي ذاته، وأن تلتمس أي عون من الآخرين ضدي سوف تعده أمرًا أدنى مما يليق بكرامتها، إنه الاشمئزاز وحده، الاشمئزاز المتواصل الفعّال هو ما يدفعها إلى أن تنشغل بي، وأن تناقش علنًا هذا الأمر غير النقي الذي نزل بها، سيكون عارًا بالغًا بالنسبة لها —لكن أن تبقى صامتة كل الصمت حول أمر سيظل يوعز في إلحاح، سيكون هو أيضًا عبئًا ثقيلًا عليها.

وهكذا ـ بمكر أنثوي ـ اتخذت سبيلًا وسطًا، فهي تظل صامتة، لكنها تشي بكل العلامات الخارجية الدالة على أسى سرِّي؛ لكي تلفت الانتباه العام إلى الأمر. وربما تأمل حتى، في أن الانتباه العام، ما إن يتثبت

عليّ، فإن استياءً عامًّا شاملًا سيقوم ضدي، ويستخدم قواه الهائلة لكي يدينني على نحو محدد، بفاعلية وسرعة تتفوق كثيرًا على قدرة استيائها الشخصي الضعيف نسبيًّا على الفعل، وسيكون لها عندئذ أن تتراجع إلى الخلفية، وتتنفس عميقًا في ارتياح، وتدير ظهرها لي. فلو كان هذا حقًّا هو كل ما تأمله، فكم تخدع نفسها؛ ذلك أنّ العلانية لن تعفيها هي من القيام بدورها، وتقوم به بدلًا منها، كما أن علانية الرأي لن تجدني قط مرفوضًا نهائيًّا إلى هذا الحد. حتى عندما تضعني علانية الرأي العام هذه تحت مجهرها البالغ القوة، فأنا لست مخلوقًا يفتقر كل الافتقار إلى النفع كما تحسبني هي، لست أريد أفاخر، ولا أريد ذلك خصوصًا فيما يتعلق بهذا الأمر، لكنني إن لم أكن بارزًا بسبب من قيم نافعة بعينها، فإنني بالتأكيد لست بارزًا بافتقاري إلى تلك الصفات، أبدو هكذا فقط بالفعل في عينيها هي اللتين كادت أشعة الضياء أن تفقدها الرؤية، ولن يكون في وسعها أن تقنع أحدًا غيرها. وهكذا يمكنني أن أطمئن إلى هذا تمامًا، فهل يمكنني ذلك؟ لا، إنني لا أشعر بهذا على الإطلاق، فلو أصبح معروفًا علنًا للجميع أن سلوكي يجعلها بالفعل مريضة، وهو ما لا يبعد بالفعل عن إدراكه بعض المراقبين الذين يحملون إليّ بغاية الاجتهاد أخبارًا عنها، أو يبدون على الأقل وكأنهم يدركونه، وسيضع العالم أمامي تلك الأسئلة: لماذا أزعج المرأة الصغيرة البائسة بتعذيبي لها؟ وهل أقصد أن أدفعها إلى منيتها؟ ومتى أنوي أن أبدي بعض التعقل؟ ومتى سيكون لدي الشعور الإنساني البسيط لكي أكف عن ذلك؟ —فلو كان العالم ليسألني هذه الأسئلة،

فسوف يكون من الصعب عليَّ العثور على إجابة. فهل يجب عليّ أن أسلم صراحة بأنني لا أعتقد كثيرًا في أعراض المرض هذه، فأستدعي بهذا الانطباع غير المقبول بكوني رجل يلوم الآخرين لكي يتحاشى أن يلام هو نفسه، وعلى هذا النحو الذي يفتقر إلى اللياقة؟ وهل يمكنني أن أقول بكل صراحة، إنني حتى لو كنت أعتقد أنها كانت حقًّا مريضة، بأنني لا أشعر بأدنى تعاطف معها، بما أن السيدة غريبة تمامًا بالنسبة لي، وأن العلاقة التي تقوم بيننا هي من صنعها هي، وتقوم فقط من جانبها هي. وأنا لن أقول بأن الناس لن يصدقوني، فهم لن يتوفر لديهم الاهتمام الذي قد يبلغ بهم بالأحرى حدًّا لا يكفيهم لكي يصدقوني، ولا لكي لا يصدقوني. لم يتمكن الكلام من أن يبلغ بهم مطلقًا هذا الحد، قد يسجل المرء فقط الإجابة التي قدمتها فيما يتعلق بتلك المرأة الهشة المريضة، وسيكون ذلك في صالحي إلى حد ما. ومثل أي إجابة أخرى قدمتها هنا، سيعترضها حتمًا عدم قدرة العالم على أن يتخلص من الارتياب، في أن حالة كهذه إنما تتضمن علاقة حب، على الرغم من أنه من الواضح كوضوح ضوء النهار أن مثل تلك العلاقة لا وجود لها، وأنها حتى لو وجدت لكانت بالأحرى قد جاءت من جانبي أنا، بما أنني ينبغي لي أن أكون قادرًا على الإعجاب بالمرأة الصغيرة؛ بسبب السرعة الحاسمة التي تصدر بها أحكامها، وحيويتها المتصلة في القفز إلى نتائج، لو كانت هذه الميزات نفسها لم تتحول دائمًا إلى صراع ضدي، هي على أي حال لا تظهر أثرًا للود تجاهي، وهي أمينة في هذا وصادقة، وفي هذا يكمن أملي الأخير، كما أنه أصبح مما لا يناسب حملتها عليَّ

أن مثل هذه العلاقة بي قد تصبح قابلة للتصديق، إذا كانت إلى هذا الحد تنسى نفسها، فتتيح لأي من هذه الشكوك أن تقوم. إلّا أن العلنية لرأي العامة البليد كل البلادة في شعوره بهذه الوجهة، سوف يبقى على رأيه المسبق ويتخذ قراره ضدِّي دائمًا.

وعلى هذا، فإن الشيء الوحيد الذي بقي لي لكي أعمله، سيكون هو أن أغيِّر نفسي في الوقت المناسب، قبل أن يكون باستطاعة العالم أن يتدخل، أغيِّر نفسي بما يكفي فقط لكي يقلل من ضيق المرأة الصغيرة، لا لكي يجعلها تتخلص منه كلية، وهو ما لا مجال للتفكير فيه. ولقد تساءلت غالبًا عما إذا كنت راضيًا عن ذاتي كما هي حاليًا، إلى حدٍّ لا أجدني معه راغبًا في أن أغيرها، تساءلت عما إذا كنت لن أستطيع محاولة إحداث بعض التغييرات في نفسي، على الرغم حتى من أنني سيكون عليّ أن أفعل ذلك، لا لأنني أجد لهذه التغييرات ما يتطلبها، بل لمجرد أن أسترضي المرأة الصغيرة، ولقد حاولت بأمانة معرضًا نفسي لبعض الاضطراب والحذر، ولقد أفادني ذلك حتى كاد أن يكون تحوُّلًا، وكانت بعض التغيرات التي حدثت لي مرئية حتى من على بعد بعيد، ولم أكن بحاجة إلى أن ألفت انتباهها إليها، فهي تدرك الأمور التي من هذا القبيل كلها بأسرع مما أدركها، يمكنها حتى أن تدرك مقدمًا من طريقة تعبيري ماذا يدور في ذهني، إلّا أن جهدي لم يكلل بأي نجاح. وكيف كان يمكن لجهودي أن تنجح؟ إن اعتراضها عليَّ، كما أعي ذلك الآن، هو اعتراض أساسي، لا يمكن لشيء أن يزيله، ولا حتى

إزالتي أنا نفسي من الوجود، فلو أنها سمعت أنني قد انتحرت، لوقعت فريسة لثورات الغضب.

ولا يمكنني أن أتصور الآن أن هذه المرأة الحادّة الذكاء، لا تستطيع أن تدرك كما أدرك، لافتقار مسار مجهوداتها إلى أيّ أمل للتحقق، ولا هي تستطيع أن تدرك تجردي من أي غرض، لا تستطيع أن تفهم عدم قدرتي مع أفضل النوايا الممكنة في العالم، على أن أتوافق مع مطالبها. بالطبع هي تفهمها، لكن لكونها مقاتلة بطبعها، فإنها تنساها في شغفها الحاد بالقتال، وتستمر نزعتي السيئة الطالع، نزعتي التي لا حيلة لي فيها؛ لأنها نزعتي الطبيعية، تواصل دفعي إلى أن أهمس منبِّهًا في صوت خفيض لأيٍّ ممن يستخف بهم هواهم الحاد العنيف.

على هذا النحو بالطبع، سوف لا نصل إلى تفاهم. وسأواظب دائمًا على مغادرتي للمنزل تقريبًا في ساعات الصباح الأولى الواعدة بالحظ، فقط لكي ألتقي بمحياها، وهي تطأطئ عند رؤيتي، وتجعد شفتيها المفعمتين بالازدراء، وتلك النظرة التي تقيس ما سوف تقع عليه، تلك النظرة الواعية تمامًا بما سوف تجده، والتي تندفع فوقي بقوة، ومع أنها نظرة عابرة، فهي نظرة لا يفوتها شيء، والابتسامة المتهلكة التي تحدد وجنتيها البنُوتيتيْن، وتطلع عينها إلى السماء تتشكيان، وغرس اليدين في الخصرين، كأنما لتدعيم نفسها، ثم بعد ذلك سورة الهياج التي يصحبها امتقاع اللون والرجفة.

قبل وقت ليس ببعيد، تحينت فرصة، ولأول مرة حقًّا، وهو ما تحققت منه بشيء من الدهشة، لأن أذكر الأمر لصديق من أصدقائي، مخلص جدًّا، على نحو عابر فحسب، وبكلمات قليلة عارضة، مهونًا من شأنه إلى أقل حتى من مجرد إطاره الخارجي؛ ذلك لأنه أمر عادي في جوهره، إذا نظر إليه المرء نظرة موضوعية. وكان غريبًا مع ذلك أن صديقي لم يتجاهله، بل لقد علله في الحقيقة بما يزيد على ما كنت قد فعلته أنا، ولم يره مجرد مسألة عارضة، وأصر على مناقشته. إلّا أن ما كان أكثر غرابة من هذا كله، هو أنه قلّل من أهمية ميزة من أهم ميزاته، ذلك أنه قد نصحني جادًّا بأن أرحل بعيدًا لفترة قصيرة. ولم تكن هناك نصيحة أسهل من هذه على الفهم، كان الأمر بسيطًا إلى حدٍّ كافٍ، وأي شخص يمكنه أن يتفحصه بإمعان كان في مقدوره أن يصل إلى ما يتضمنه. إلّا أن مجرد رحيلي لم يكن ليعدل من وضع الأمر كله بهذه البساطة، ولم يكن ليعدل حتى من وضع جانبه الأكبر، بل إن هذا الرحيل على العكس هو بالضبط ما لا بد لي من أن أتجنبه. فلو كان لي أن أتبع أي خطة فلا بد أن تحتفظ هذه الخطة بالمسألة كلها في داخل نطاق حدودها الضيقة الحالية، تلك التي لم تتشابك بعد مع العالم الخارجي؛ أي أنني لا بد لي من أن أبقى حيث أنا، وألّا أدع بقائي يؤثر في سلوكي إلى أي حد قد يبدو فيه هذا التأثير واضحًا، ويشمل هذا عدم ذكر الأمر لأي شخص، لا لأنه سر من الأسرار الخطيرة، مطلقًا، بل فحسب لأنه أمر تافه، ولأنه مسألة شخصية بحتة، وعلى هذا فليس لي سوى أن أتناول هذا الأمر باستخفاف، وليبق في مكانه على هذا

المستوى. وهكذا فلم تكن ملاحظات صديقي في النهاية بغير ذات نفع لي، ذلك أنها إن لم تكن قد علمتني شيئًا جديدًا، فإنها كانت قد زادت من قوة قراري الأصلي.

وبالتفكير في إمعان قد تبدو التطورات التي مر بها الأمر، بمرور الوقت، ليست تطورات للأمر نفسه، بل هي فقط تطورات لوجهة نظري إليه، بقدر ما أصبحت وجهة نظري هذه أكثر هدوءًا من ناحية، وأكثر رجولة، متطرقة إلى مدى أكثر قربًا للغاية من لب المسألة. ومن ناحية أخرى تزايدت زعزعة طبعي تحت تأثير الإجهاد العصبي المتصل الذي لا أقوى على مغالبته مهما كان هيِّنًا.

إنني أقل اضطرابًا الآن بسبب الأمر، حتى لأظن أنني أدرك كيف يبدو من غير المحتمل أن ينتهي إلى أي أزمة حاسمة، جلية، كما كانت تبدو أحيانًا؛ إن المرء، خاصة عندما يكون صغير السن، ميّال بطبعه إلى المبالغة في السرعة التي تصل بها اللحظات الحاسمة، وقد اعتدت كلما كانت قاضيتي الصغيرة تتهاوى مغشيًّا عليها عند مجرد رؤيتها لي وهي تغطس جانبيًّا نحو أحد جانبي مقعد، متشبثة بمسنده الخلفي بإحدى يديها، بينما تجذب بيدها الأخرى خيوط صدريتها ودموع الغضب واليأس تتدحرج فوق خديها، أن أفكر بأن اللحظة قد حانت الآن للرد من جانبي، إلا أنه لم تكن ثمة لحظة حاسمة، ولم تكن هناك أحكام عليّ تتطلب ذلك الردّ، فالنساء يغشى عليهن بسهولة، وليس لدى العالم وقت لكي يلحظ كل ما يفعلنه. وما الذي كان قد حدث حقًّا في كل تلك السنوات لا شيء سوى أن مثل تلك الحالات قد

تكررت، أحيانًا بعنف زائد، وأحيانًا على نحو أقل عنفًا، وأن حصيلتها الكلية قد تزايدت تبعًا لذلك، وأن الناس يتسكعون حولنا عن قرب، وربما راق لهم أن يتدخلوا، لو أنهم كانوا قد وجدوا طريقة ما للتدخل، إلّا أنهم لم يتمكنوا من العثور على طريقة للتدخل، وهكذا فإنهم حتى الآن كان عليهم أن يعوِّلوا على ما يمكنهم أن يتشمموه، ومع أن ذلك وحده مهيأ تمامًا لكي يشغل أصحاب هذه الأنوف، إلّا أنه لم يكن ليبلغ بهم إلى أي شيء أكثر من ذلك، لكن الموقف كان دائمًا على مثل هذا النحو أساسًا، دائمًا مزودًا بالمتفرجين الذين لا لزوم لهم، والمشاهدين الفضوليين، الذين يبررون دائمًا حضورهم بأعذار ماكرة، مفضلين الزعم بأنهم أقارب، ودائمًا يمدون أعناقهم، يتنشقون المتاعب، إلا أن كل ما حققوه هو أنهم ما زالوا يقفون موقف المتفرجين. والاختلاف الوحيد هو أنني قد انتهيت إلى التعرف عليهم، وإلى تمييز أي وجه من وجوههم عن الآخر. وكنت قد اعتقدت ذات مرة أنهم كانوا فحسب قد تقاطروا تدريجيًّا إلى المكان قادمين من الخارج، وأن المسألة كان لها أصداء أوسع، وهي أصداء كانت هي نفسها تفرض وجود أزمة. واليوم أظن أنني أعرف أنّ هؤلاء المتفرجين كانوا حاضرين دائمًا منذ البداية، وأنه لم يكن لهم سوى القليل، أو أنهم لم يكن لهم دخل قط بوشك حدوث أزمة. والأزمة نفسها، ولماذا أبجلها أنا فأطلق عليها هذا الاسم؟ لو كان من الممكن أصلًا للرأي العام —ليس غدًا بالتأكيد ولا بعد الغد، وقد يبدو أنّ ذلك لن يقع مطلقًا— أن يشغل نفسه بالمسألة التي هي، ولا بد لي أن أكرر ذلك، خارج نطاق قدرته، فإنني بلا شك لن أفلت

منه بغير أذى. لكن الناس من ناحية أخرى مقدرتهم أن يضعوا في اعتبارهم أنني لست مجهولًا للجمهور، وأنني قد عشت طوال هذه الفترة في وهج ضوء الشعبية، على نحو لا يفتقر إلى الثقة، وجدير بالمسؤولية، وأن هذه المرأة الصغيرة المحزونة، هذه الوافدة الأخيرة إلى حياتي، والتي، ودعوني أسجل ملاحظتي بالمناسبة، ربما كان أي رجل آخر قد صرفها عنه بفظاظة كقشرة شائكة، وداس عليها بقدمه، وبلا صوت، بصفة خاصة، وأن هذه المرأة قد أمكنها في أسوأ الأحوال فقط، أن تضيف تبجحًا قبيحًا هينًا جدًّا إلى الإجازة التي أجازني إياها الرأي العام منذ وقت طويل، باعتباري عضوًا محترمًا في المجتمع.

هذا هو النحو الذي تقوم عليه الأمور الآن، ولا يبدو أنها تسبب لي أي اضطراب.

إن حقيقةً أنني بمرور السنوات، كنت مع ذلك قد أصبحت مضطربًا إلى حد ما، لا علاقة له بالمغزى الحقيقي لهذه المسألة، إن رجلًا ببساطة لا يمكنه أن يتحمل كونه هدفًا مستمرًّا لضغينة أحد الناس، حتى عندما يعرف معرفة كافية أن الضغينة بلا مبرر، فهو قد يصبح مضطربًا، ويبدأ على نحو جسدي فحسب، في أن يجفل من الأزمات المنذرة بالحدوث، حتى عندما لا يكون معتقدًا كثيرًا شأنه شأن أي رجل أمين بأنها بسبيلها إلى الحدوث. جزئيًّا أيضًا هذا الاضطراب هو عرض من أعراض التقدم في السن؛ فالشباب يضفون ازدهارًا ما على كل شيء، والصفات المربكة لا تتبدى للعين في غمار الفيض اللا نهائي للطاقة الشابة؛ فلو كان لرجل، كشاب، على نحو ما، عين يقظة، فإن ذلك مما

لا يحسب ضده، بل إنها، تلك العين الحذرة، لا تكاد تبدو ملحوظة بالمرة حتى له هو نفسه، لكن الأشياء التي تتبقى الآن في الشيخوخة إنما هي البقايا وحدها، وكل منها ضروري، ولا شيء منها يتجدد، ويكون كل منها تحت الفحص، والعين الحذرة للرجل المتقدم في السن هي عين يقظة في وضوح، وليست مما يصعب إدراكه. فقط هي، كما هو الحال في هذا الشأن، لا تمثل فسادًا فعليًّا لحالته.

وهكذا فمن أي ناحية أنظر منها إلى هذه المسألة الصغيرة يبدو لي، وسألتزم بذلك —أنني إن ظللت أضع يدي فوقها، حتى وإن كان ذلك بخفة كافية، فإنني سوف أواصل، فأحيا في هدوء حياتي الخاصة لوقت طويل قادم، لا يسبب لي العالم إزعاجًا، على الرغم من كل اندلاعات غضب المرأة.

* * *

أوّل حُزْن

كان فنان عقلة متحركة —هذا الفن الذي يمارس عاليًا في جوف قباب مسارح المنوعات الكبرى، من المسلم به أنه أحد أصعب الفنون التي يمكن أن تنجزها البشرية— قد رتب حياته، طالما واصل العمل في نفس المبنى، على ألّا يهبط قط عن عقلته ليلًا أو نهارًا. في البداية كان ذلك فقط بدافع من الرغبة في إتقان مرانه، لكن فيما بعد كانت العادة بقوتها البالغة قد دفعته إلى ذلك؛ فكانت كل حاجاته، وهي حاجات بالغة التواضع، يتم تزويده بها بواسطة مساعدين مناوبين يرقبون من أسفل، وكان يرفع إليه، ويهبط من عنده ثانية، في حاويات مشيدة على نحو خاص، كل ما كان يتطلبه.

لم تسبب هذه الطريقة في الحياة أي متاعب بعينها للعاملين بالمسرح، فيما عدا أنه عندما كان يجري أداء عروض أخرى فوق المسرح، أثبت كونه لا يزال هناك في أعلى، وهو ما لم يكن يسهل إخفاؤه، أنه أمر مشتت للانتباه إلى حد ما، وكذلك أيضًا حقيقة أنه، وإن كان يبقى في مثل هذا الوقت ساكنًا على الأغلب، إلا أنه كان يجذب نظرة شاردة ما هنا وهناك من وسط الجمهور. لكن تجاوزت الإدارة عن ذلك لأنه كان فنانًا خارقًا للعادة، ومتفردًا في أدائه. وكانوا بالطبع قد أدركوا أن هذه الصيغة للحياة لم تكن مزحة خالصة، فبهذه الطريقة وحدها كان يمكنه حقًّا الاحتفاظ بنفسه في حالة مران مستمر، ويظل فنه بهذا في أقصى درجة من درجات اكتماله.

وقد كان الجو أيضًا صحيًّا تمامًا هناك في أعلى، وعندما كان يتم فتح كل نوافذ المسرح حول القبو في فصول السنة الأكثر حرارة، وتتدفق أشعة الشمس والهواء النقي بلا عائق إلى داخل القبوة المعتمة، كان حتى ذلك أيضًا يبدو جميلًا.

كانت حياته الاجتماعية محدودة حقًّا على نحو ما؛ أحيانًا فقط كان فنان أكروبات زميل يتسلق الدرج صاعدًا إليه، وكانا يجلسان معًا عندئذ فوق العقلة، ويتحادثان، أو قد يتبادل معه عمال البناء الذين يعملون في إصلاح السقف كلمات قلائل من خلال نافذة مفتوحة، أو يهتف له الوقاد بينما يتفحص الإضاءة الاضطرارية في البهو العلوي بشيء يبدو مفعمًا بالاحترام، وإن كان مضمونه لا يكاد يتضح، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك ما يزعج عزلته؛ وأحيانًا ربما كان أحد عمال المسرح، في تجواله في أنحاء المسرح الخالي في فترة ما بعد الظهيرة، يحدق إلى أعلى متفكرًا في فراغ ارتفاع السقف الهائل، وهو في خارج مجال الرؤية على الأغلب، حيث يقوم فنان العقلة المتحركة على غير وعي منه بأن هناك من يرقبه، بممارسة فنه، أو يستريح.

كان في استطاعة فنان العقلة المتحركة أن يواصل حياته على هذا النحو في سلام، لولا تلك الرحلات التي لا مفر منها من مكان إلى مكان، والتي وجدها مرهقة إلى أقصى حد. وبالطبع كان مديره الفني قد رتب الأمر بحيث لا تطول معاناته لحظة واحدة زائدة عن الضرورة؛ فبالنسبة للرحلات داخل المدن، كانت تستخدم السيارات السريعة التي كانت تنطلق به ليلًا ـ إن أمكن ـ أو في أول ساعات الصباح. خلال الشوارع

الخالية بأقصى سرعة المطاردة، وإن تكن بالغة البطء مع ذلك بالنسبة لفراغ صبر فنان العقلة المتحركة؛ أما بالنسبة للرحلات بالقطار، فقد كان يتم حجز ديوان بأكمله، بداخله كان يقضي فنان العقلة المتحركة وقته معتليًا رف الأمتعة، بديلًا، وإن يكن متواضعًا لأسلوب حياته المعتاد، وفي المدينة التالية في جولتهما، وقبل أن يصل بوقت طويل، كانت العقلة تعلق عاليًا في المسرح، وكانت كل الأبواب المؤدية إلى خشبة المسرح تفتح على اتساعها، وتترك كل الممرات خالية — إلّا أن المدير الفني لم يكن يعرف قط أي لحظة سعادة حتى يضع فنان العقلة المتحركة قدمه فوق السلم المصنوع من الحبال، وفي غمضة عين، بعد طول انتظار يتعلق عاليًا فوق عقلته.

ذات مرة عندما كانا يرحلان معًا مرة أخرى، وكان فنان العقلة المتحركة مستلقيًا يحلم فوق شبكة رف الأمتعة، وكان المدير الفني يضطجع في مقعد النافذة المقابلة يقرأ كتابًا، وجَّه فنان العقلة المتحركة حديثه إلى مرافقه في صوت خفيض، وانتبه المدير في الحال. قال فنان العقلة المتحركة، وهو يعض على شفتيه، بأنه لا بد من أن يكون لديه من الآن عقلتان إحداهما في مواجهة الأخرى، ووافق المدير في الحال. لكن فنان العقلة المتحركة، وكأنما ليوضح أن موافقته هذه تعادل في قلة جدواها ما يؤدي إليه رفضه، قال إنه لن يقوم بأداء فنه مرة أخرى قط فوق عقلة واحدة، ومهما كانت الحال، وكان مجرد تصور أن ذلك يمكن أن يحدث ولو لمرة أخرى فقط قد جعلته يرتجف.

وقد أكد المدير وهو يتحسس طريقه في انتباه، مرة أخرى موافقته التامة، فعقلتان كانتا أفضل من عقلة واحدة، بالإضافة إلى أن ثمة نفع أيضًا لهذا التجهيز الجديد، فسوف يكون ممكنًا تقديم مزيد من المنوعات في العرض. عند ذاك تفجرت دموع فنان العقلة المتحركة فجأة. وانتفض المدير واقفًا على قدميه في حزن عميق، وتساءل عن الأمر، وعندما لم يحصل على إجابة، صعد فوق المقعد، وربت عليه وخداهما متلاصقان حتى لقد تبلل وجهه هو بدموع فنان العقلة المتحركة. إلّا أن الأمر استلزم كثيرًا من الأسئلة والتهدئة المتوددة حتى نشج فنان العقلة وهو يقول: «تظل فقط العقلة الواحدة هي كل ما في يدي، فكيف يمكنني أن أعيش!» وقد سهل هذا للمدير على نحو ما كيف يتمكن من إرضائه، فوعده بأنه سيبرق من المحطة التالية مباشرة، بأن يتم إحضار عقلة ثانية، وأن يتم تركيبها في أول مدينة في دورتهما، ووجه اللوم إلى نفسه؛ لكونه قد ترك الفنان يعمل طوال هذه المدة كلها فوق عقلة واحدة فقط، وشكره وأثنى عليه بحرارة لأنه أخيرًا قد أشار له إلى خطئه. وهكذا بلغ المدير غايته في إعادة التأكيد لفنان العقلة المتحركة، شيئًا فشيئًا، وأصبح في إمكانه أن يعود راجعًا إلى ركنه. إلا أنه هو نفسه كان قد أصبح أبعد ما يكون عن إعادة الطمأنينة إلى نفسه، فقد ظل يرمق فنان العقلة المتحركة خفية بقلق عميق من فوق حافة كتابه. فهل لمثل هذه الأفكار إن هي بدأت تعذبه على هذا النحو، أن تتركه بعد ذلك ثانية؟ وهل لن يكون لها أن تتزايد في إلحاحها عليه؟ وهل لن يكون لها أن تهدد وجوده ذاته؟ وكان المدير الفني قد اعتقد

حقًّا بأنه قد أمكنه أن يرى خلال النوم الهادئ، في ظاهره، ذلك الذي أعقب نوبة ذرف الدموع، أولى تجاعيد الحرص تحفر نفسها فوق جبهة فنان العقلة المتحركة، الناعمة كجبهة طفل.

* * *

الصيّاد جراكوس

«شذرة»

ـ كيف هذا، هل ظللت أيها الصياد جراكوس مبحرًا بهذا القارب العتيق طوال القرون؟».

ـ «ألف وخمسمائة سنة حتى الآن».

ـ «ودائمًا في هذه السفينة نفسها؟».

ـ «في هذا الزورق نفسه. إن الزورق فيما أعتقد هو الكلمة الصحيحة، إنك لست معتادًا على شؤون الملاحة فيما يبدو، أليس كذلك؟».

ـ «لا؛ إنها اليوم هي المرة الأولى التي أهتم فيها بهذه الشؤون —فقط منذ أن سمعت عنك، منذ أن ركبت سفينتك».

ـ «لا ضرورة لأي اعتذار. إنني آتى من داخل اليابسة أيضًا. أنا لم أكن ملّاحًا، ولم أرغب قط في أن أكونه، فلقد كانت الجبال والغابات عادة هي أصدقائي؛ ولكنني الآن الصياد جراكوس، أقدم الملّاحين؛ الإله الحامي للبحّارة؛ الصيّاد جراكوس الذي يصلي له فتية القمرات، وهم يعتصرون أيديهم، عندما ينتابهم الفزع في أعشاش الغربان، في ليل العاصفة، لا تضحك».

ـ «هل ينبغي لي أن أضحك؟ لا، مطلقًا في الحقيقة، لقد وقفت أمام باب قمرتك بقلب واجف، وبقلب واجف دخلتها. لقد هدأ طبعك الودود من رَوْعي شيئًا ما، على أنني لن أنسى أبدًا في ضيافة من أكون».

ـ «أنت على حق بالطبع، فليكن ما يكون، إنني الصيّاد جراكوس ألا تريد أن تتذوق شيئًا من هذا النبيذ —إنني لا أعرف نوعه، لكنه حلو، وثقيل– إن الراعي يهتم بأمري».

ـ «ليس الآن، شكرًا، إنني في غاية القلق. فيما بعد ربما، لو سمحت لي بالبقاء طويلًا. ولا أجرؤ، فوق ذلك، على أن أشرب من زجاجتك، من هو الراعي؟».

ـ «صاحب القارب. هؤلاء الرعاة هم دون شك، ناس مرموقون. على أنني لا أفهمهم وحَسْب. لا أعني بهذا لغتهم، مع أنني بالطبع غالبًا ما لا أفهم لغتهم هي أيضًا. لكن هذا خارج عن الموضوع —لقد تعلمت ما يكفي من اللغات على مر القرون، وكان باستطاعتي أن أقوم بدور المترجم بين الجيل الحاضر وبين أسلافه. لكن ما لا أفهمه هو طرق تفكير الرعاة، ربما يمكنك أن تشرحها لي».

ـ «لا آمل كثيرًا في هذا، كيف يمكن أن أشرح لك أي شيء، بينما أنا لست حتى مجرد طفل يلغو بالمقارنة بك».

ـ «ليس الأمر كذلك، مرة فقط وبصورة قاطعة ليس الأمر كذلك. إنك إنما تسدي إليَّ معروفًا إذا تحدثت برجولة أكثر قليلًا، لو تحدثت بمزيد من الثقة بالنفس، قليلًا. ما فائدة أن يكون لدى المرء شبح في صورة ضيف؟ إنني لأعصف به خارجًا من باب العنبر، إلى البحيرة. إنني في حاجة إلى تفسيرات عديدة، وأنت الذي تطوف مسرعًا في الخارج، يمكنك أن تقدمها لي. لكن لو شئت أن تجلس مرتعدًا هنا إلى مائدتي،

وتخدع نفسك بنسيان القليل الذي تعرف، فماذا يتبقى إذَنْ، يمكنك أن تغادر هذا المكان حالًا، وإنني لأعني تمامًا ما أقول».

ـ «هناك شيء ما فيما تقول. إنني، في الحقيقة، أتفوق عليك من نواحٍ عدة، وسوف أحاول لهذا أن أتمالك نفسي، فاسأل ما تشاء!».

ـ «هذا أفضل، أفضل كثيرًا، وأنت الآن تجهد نفسك غاية الإجهاد في المضي في الاتجاه العكسي، وتتخيل أنك متفوق في بعض أنواع الأساليب، لكن عليك أن تفهمني فهمًا صحيحًا. إنني بشر مثلك، لكنني فقط أكثر منك نفادًا للصبر بتأثير القرون القليلة التي أكبرك بها في العمر. وعلى هذا دعنا نتحدث عن الرعاة. انتبه، اشرب بعض النبيذ لكي تشحذ قريحتك، لا تكن هيَّابًا، اشرب. توجد شحنة كبيرة باقية لديَّ لا تزال من هذا النبيذ».

ـ «هذا النبيذ ممتاز يا جراكوس، فليهنأ راعيك».

ـ «لقد توفي اليوم للأسف. كان رجلًا طيبًا، ولقد رحل في سلام. لقد وقف أولاده الأصحاء اليافعون حول فراش موته، وانهارت زوجته مغشيًّا عليها تحت قدميه، ومع ذلك كانت أفكاره الأخيرة تدور حولي، رجل طيب، مواطن من هامبورج».

ـ «يا إلهي الطيب، من هامبورج، وتعرف أنت هنا في الجنوب أنه قد مات اليوم؟».

ـ «ماذا؟ لماذا لا يكون لي أن أعرف عندما يموت من يرعاني؟ إنك حقًّا، بسيط التفكير تمامًا».

ـ «هل تحاول أن تهينني؟».

ـ «لا، لا أبدًا، إنني أفعل هذا على الرغم مني، لكن ليس لك أن تبدي هذه الدهشة، وعليك أن تحتسي المزيد من النبيذ، أما فيما يتعلق بالرعاة، فإن الوضع هو كما يلي: أساسًا لم يكن القارب ملكًا لأحد».

ـ «جراكوس، لي طلب. قل لي أولًا باختصار، لكن في صيغة متماسكة، كيف تبدو أمورك؟ فلكي أقول لك الحق، أنا بالفعل لا أعرف. بالطبع، أنت تأخذ كل شيء على أنه أمر مسلم به، وتزعم، كما هي عادتك، أن الدنيا كلها تعرف كل شيء. لكن في حياتنا البشرية القصيرة الأمد هذه، ـ فالحياة حقًّا قصيرة يا جراكوس، حاول أن تدرك ذلك بنفسك ـ تكون يدا المرء مشغولتين في محاولته لأن يصنع شيئًا ما، من نفسه، ومن أسرته. وبقدر ما يعد الصياد جراكوس شخصًا مثيرًا للاهتمام ــ وهذا اعتقاد من جانبي، وليس إطراءً دنيًا ـ إلّا أن المرء لا يجد لديه متسعًا من الوقت لكي يفكر فيه، ولكي يكتشف حقيقته؛ هذا بصرف النظر عن مدى الاستعداد للتورط في أي إزعاج بخصوصه. ربما أمكن للمرء أن يفعل هذا على فراش الموت، مثل صاحبك الذي من هامبورج ــ لكنني لست أدرى. ربما أتيح لرجل مشغول في أول فرصة، أن يقضي وقتًا ينطرح فيه أرضًا، ثم قد يشرد جراكوس الصيّاد الأخضر أخيرًا بعد ذلك مستغرقًا في أفكاره العقيمة. لكن المسألة هي، خلافًا لذلك، على النحو الذي ذكرته لك. إنني لا أعرف شيئًا عنك. ولقد جاءت بي مشاغلي العملية إلى الميناء هنا، ورأيت القارب، وكانت

السقّالة ملقاة فعبرتهـا ـ ، لكنـني أرغب الآن رغبـة شـديدة في أن أعـرف شيئًا متماسكًا عنك».

ـ «آه، شـيئًا متماسـكًا، نفس القصـص القديمـة، القديمـة. كـل الكتب ملأى بهـا؛ والمدرسـون يرسـمونها فـوق السـبورات في كـل مدرسـة، وتحلم بهـا الأمهـات، بينمـا يرضـع الأطفـال أثـدائهن. إنهـا قصـص يتم الهمس بهـا في حـالات المعانقـة، ويقولهـا التجـار لزبـائنهم، والزبـائن يحكونها للتجار، وينشدها الجنود في المسـيرات، والواعـظ يهتـف بهـا في الكنيسة، ويرى المؤرخون في داخل حجراتهم بأفواه مفغـورة، ذلـك الذي حدث قبل زمن طويل، ويصـفونه بلا انقطـاع. إنهـا قصـص تطبـع في الصحف، ويتناقلها الناس من يد ليد، لقد اخترع البرق كي يتاح لها أن تطوف حول الأرض على نحو أسرع، ويتم اكتشافها في الحفائر التي تنقب عن المـدن المدفونـة، وتسـرع المصـاعد بهـا إلى قمم ناطحـات السـحاب، ويعلنهـا ركـاب قطـارات السـكك الحديديـة من نوافـذ القطارات إلى المناطق الـتي يمـرون بهـا في سـفرهم، لكن كـان الصـبح قبل ذلـك قـد عَـوَوْا بهـا نحـوهم، ويمكن قراءتهـا في النجـوم، وتحمـل انعكاسـاتها أسـطح ميـاه البحـيرات، وتهبـط بهـا الجـداول من أعـالي الجبال، وتجلس أنت هنا، أيهـا الرجـل، وتسـألني عن التماسـك. لا بـد أنك قضيت شبابًا ضائعًا بصورة متفردة!».

ـ من الممكن أن يكون ذلك قد حـدث، كمـا هي الحـال الـتي تنقضـي بها كل مراحل الشباب، لكن سيكون من المفيد جدًّا لك، فيمـا أعتقـد، لو تطلعت مرة إلى الدنيا من حولك قليلًا. وكما قـد يبـدو لـك غريبًـا —

وإنني لأكاد أستغربه أنا نفسي، في جلستي هنا ــ على الرغم من ذلك، أنك حقيقة لست موضوعًا للحديث في المدن، ومهما كانت كثرة عدد الأشياء التي تناولتها الأحاديث، فأنت لست من بينها. إن الدنيا تمضي في طريقها، وأنت تقوم برحلاتك، لكنني لم ألحظ قط إلى اليوم، أن هذه الطرق قد تقاطعت أحدها مع الآخر».

ـ «يا عزيزي، هذا ما لاحظته أنت، على حين لاحظ آخرون أمورًا أخرى. ويوجد عند هذه النقطة احتمالات فقط، إما أنك قد احتفظت في صمت بما عرفته عني، وكان لك بفعلك هذا غرض محدد في نفسك. وفي مقدوري، في هذه الحالة، أن أقول لك بصراحة تامة: أنت على الطريق الخطأ. أو أنك من ناحية أخرى تعتقد حقًّا بأنك لا تستطيع أن تتذكر أي شيء عني؛ لأنك قد خلطت قصتي مع قصة شخص آخر. وفي تلك الحالة، كل ما يمكنني أن أقوله لك هو: إنني —لا، لا أستطيع؛ فكل شخص يعرف القصة، ولماذا يتعين عليَّ أن أكون أنا من يحكيها لك؟! لقد كانت كلها في زمن بعيد للغاية، فاسأل عنها المؤرخين؛ فهم يرون في دراساتهم بأفواه مفغورة ذلك الذي حدث منذ زمن بعيد، ويصفونه بلا انقطاع. اذهب إليهم، ثم عد. لقد كان ذلك كله منذ زمن بعيد للغاية، فكيف يكون متوقعًا مني أن أحتفظ به كله بداخل هذا العقل المزدحم غاية الازدحام؟».

ـ «انتظر يا جراكوس، سأسهل لك المهمة، سأوجه إليك أسئلة. من أين أتيت؟».

ـ «من الغابة السوداء، كما هو معلوم في العالم كله».

ـ «بالطبع، من الغابة السوداء، ولقد قمت هناك ببعض أعمال الصيد في القرن الرابع؟».

ـ «هل تعرف الغابة السوداء يا رجل؟».

ـ «لا».

ـ «حقًّا، إنك لا تعرف شيئًا، إن طفل ماسك الدفة الصغير يعرف قدر ما تعرف أنت، وربما يعرف أكثر كثيرًا مما تعرف. من ذا الذي أرسلك إلى هنا؟ لقد كان ذلك محتومًا. كان لتواضعك المتطفل ما يبرره على خير وجه، إنك لغو أملأه أنا بالنبيذ. وهكذا فأنت حتى لا تعرف الغابة السوداء، وكنت أنا قد ولدت هناك، وكنت أمارس الصيد فيها حتى بلغت عامي الخامس والعشرين، فلو لم تقتدني ظبية الشمواه خلفها — وتعرف أنت ذلك الآن ـ لكنت قد قضيت حياة طويلة، ورائعة لصياد، لكن الشمواه اقتادتني، وهكذا سقطت، قتيلًا فوق الصخور.. فلا تسأل أي أسئلة أخرى. هأنذا ميت، ميت، ميت. لست أدري لماذا أنا هنا. كنت في ذلك الحين قد سجيت فوق سطح قارب الموت، وهو ما كان يليق برجل ميت، وكانت المهام الثلاث أو الأربع التي تلزمني قد تم إنجازها، كما يحدث لأي شخص آخر —فما الذي يجعل الصياد جراكوس استثناء؟».

كل شيء كان قد حدث في ترتيبه المضبوط، واستلقيت أنا ممدَّدًا في القارب».

اغتيال أخ من الثابت أن الاغتيال قد تم على النحو التالي:

اتخذ شمار القاتل مكانه في حوالي الساعة التاسعة ذات مساء في ضوء القمر الساطع عند ركن، كان على ڤيزه الضحية أن يستدير عنده قادمًا من الزقاق الذي يقع فيه مكتبه، إلى الزقاق الذي كان يقطنه.

كان هواء الليل مرعش البرودة، إلّا أنّ شمار كان يرتدي فقط بدلة رقيقة زرقاء، وكانت السترة فوق هذا مفكوكة الأزرار. لم يكن يشعر بأي برودة، وكان أيضًا يتحرك في مكانه طوال الوقت، وكان سلاحه وهو نصف سونكي ونصف سكين مطبخ مضمومًا في قبضته بشدة، في وضع مكشوف تمامًا. تطلع إلى السكين في ضوء القمر، تألق النصل، ولم يكن هذا ليكف شمار، فضرب به على أحجار قرميد الرصيف حتى تطاير منه الشرر، فأسف لذلك ربما، ولكي يصونه عن الضرر، سحبه كما يسحب قوس الفيولينة فوق كعب حذائه، بينما كان ينحني إلى الأمام واقفًا على ساق واحدة متسمعًا إلى حفيف السكين فوق حذائه ذي الرقبة، وإلى أي صوت يصدر عن الزقاق الجانبي المرصود في الوقت نفسه.

فلماذا سمح بالاس المواطن المدني الذي كان يرقب ذلك كله من نافذته القريبة من المكان في الطابق الثاني، بأن يحدث ما حدث؟ تقصَّ الطبيعة البشرية! وقف بياقته مطوية إلى أعلى ورداء نومه قد التف حول جسده العريض، متطلعًا إلى أسفل، هازًّا رأسه.

وعلى مسافة خمسة بيوت في الجانب الآخر من الزقاق، كانت «فراو ڤيزه» مرتدية معطفًا من فراء الثعلب فوق قميص نومها، وقد تطلعت خارجًا؛ كي ترقب زوجها الذي كان قد تأخر الليلة على غير المعتاد.

وأخيرًا رنّ صوت جرس الباب أمام مكتب ڤيزه مرتفعًا للغاية بالنسبة لجرس باب، فوق المدينة مباشرة، متصاعدًا نحو السماء، وبرز ڤيزه العامل الليلي المجتهد خارجًا، وإن كان لم يظهر بعد في ذلك الزقاق؛ ينبئ فقط عن خروجه من المنزل صوت الجرس، وردد الرصيف في الحال وقع خطواته الهادئة.

انحنى بالاس أكثر إلى الأمام، لم يكن ليسمح بأن يفوته أي شيء، وأغلقت فراو ڤيزه نافذتها بقرقعة، وقد اطمأنت لسماع صوت الجرس، لكن ركع شمار إلى أسفل، ولما لم تكن أجزاء أخرى من جسده عارية، فقد ضغط وجهه فقط ويديه على أحجار الرصيف، وبينما كان كل شيء آخر يتجمد، كان شمار يتوهج حرارة.

تمامًا عند الناصية التي تفصل بين الزقاقين، توقف ڤيزه، برزت عصاه فقط إلى داخل الزقاق الآخر لكي تدعمه، وهْم مفاجئ أبقاه واقفًا. دعته سماء الليل، بلونها الأزرق الغامق، ولونها الذهبي، ودون أن يدري تطلع إليها في أعلى، وبلا وعي رفع قبعته، وسوّى شعر رأسه، لم يكن ثمة شيء هناك قد تجمع كي يفسر له مستقبله العاجل، ظل كل شيء في مكانه المبهم والخالي من المعنى، كان في ذاته ولذاته فعلًا معقولًا للغاية، أن يتقدم ڤيزه أكثر إلى الأمام، إلّا أن يتقدم نحو سكين شمار.

صاح شمار، وهو يقف فوق أطراف أصابع قدميه، مادًّا ذراعه، وقد انخفضت السكين في حدة: «ڤيزه، ڤيزه؛ سدى انتظرتك يوليا»، وانغرست سكين شمار في يمين الرقبة، وفي يسار الرقبة، ومرة ثالثة عميقًا في جوف البطن.

وينطلق من المياه، وهي تنفجر منشقة، صوت شبيه بذلك الصوت الذي انطلق من ڤيزه.

قال شمار: «انتهى» وطوح بالسكين، وعندها لطخ الدم الزائد الحصا أمام واجهة أقرب منزل.

«نعمة الاغتيال، الارتياح، النشوة المجنحة المنبثقة من إراقة دماء الغير؛ ڤيزه يا ظل الليل العتيد، أيها الصديق، يا رفيق الحانة، ها أنت تنزف ممعنًا في التواري في جوف التربة المظلمة تحت الشارع. فلمَ لمْ تكن قربة دماء فحسب، حتى يمكنني أن أقف فوقها بقدميَّ فأجعلك تتلاشى، فتستحيل عدمًا، لا يتحقق كل ما نريد، لا تحمل كل الأحلام ثمرًا عندما تزدهر، ها هي بقيتك الأثقل وطأة تستلقي هنا، لا تبالي بالفعل بأي ركلة؛ ما جدوى السؤال الأبكم الذي تتساءله؟».

وعلى باب منزله ذي المصراعين عندما اندفع مفتوحًا، وقف باللاس يغص جسده المختنق بالسُّم: «شمار، شمار؛ لقد رأيت كل شيء، لم يفتني شيء».

تفحص بالاس وشمار أحدهما الآخر، وأراحت باللاس نتيجة التفحص؛ ولم ينته شمار إلى نتيجة.

واندفعت فراو ڤيزه، وحواليها جمع من الناس، قادمة؛ وقد شاخ وجهها تمامًا بفعل الصدمة، وانفتح معطفها الفرو، وتهاوت فوق ڤيزه. كان الجسد الذي يضمه الرداء الليلي ينتمي إلى ڤيزه، وكان المعطف المنتشر فوق الزوجين كالأرض المعشبة الملساء حول قبر، ينتمي فراؤه المنغلق إلى الحشد.

وأطبق شمار، الذي كان يغالب بصعوبة غشيانه الأخير، فمه فوق كتف رجل الشرطة الذي قاده، بينما كان يخطو في خفَّة، مبتعداً به.

* * *

الصيّاد جراكوس

كان صبيّان يجلسان فوق سور الميناء يلعبان النرد، وكان رجل يقرأ جريدة فوق درج النصب، يستريح في ظل بطل كان يشهر سيفه عاليًا، وفتاة كانت تملأ دلوها عند النافورة، وبائع فاكهة كان يستلقي بجوار بضاعته، يحدق بعيدًا في البحر. وفي عمق فتحتي النافذة والباب الخاليتين في حانة، كان باستطاعة المرء أن يرى رجلين في الخلفية يجلسان لاحتساء نبيذهما. وكان صاحب المشرب جالسًا إلى منضدة في المقدمة نعسان. وكان قارب يدنو في صمت من المرفأ الصغير، كما لو كان محمولًا فوق الماء على نحو ما. وصعد رجل يرتدي قميصًا أزرق اللون إلى الشاطئ، وجذب الحبل من خلال حلقة، وخلف صاحب القارب كان رجلان آخران في ثوبين داكنين بأزرار فضية يحملان نعشًا، فوقه، كان يستلقي فيما يبدو، رجل، تحت غطاء حريري هائل نسقت رسومه على هيئة الزهور، تتدلى منها الشراريب.

لم يهتم أحد على رصيف الميناء بأمر هؤلاء القادمين الجدد، حتى عندما أنزلوا النعش، كي ينتظروا صاحب القارب، الذي كان لا يزال منشغلًا بالحبل الذي في يده، ولم يقترب منهم أحد، ولم يوجه إليهم أحد سؤالًا، ولا ألقى عليهم أحد نظرة فضولية.

وكان البحَّار قد احتجزته لا تزال امرأة، بطفل فوق صدرها، كانت قد ظهرت الآن بشعرها المفكوك فوق ظهر القارب. ثم تقدم البحَّار وأشار إلى منزل ذي طابقين، يميل لونه إلى الصفرة كان قد قام فجأة إلى

اليسار على جانب البحر، والتقط الحمَّالان حملهما، واتجها به نحو الباب الخفيض ذي الأعمدة الرشيقة. وفتح صبي صغير نافذة، تمامًا في اللحظة المناسبة، ليرى الجماعة وهي تختفي في داخل المنزل، ثم أغلق النافذة ثانية في عجلة. وكان الباب مغلقًا الآن أيضًا، كان مصنوعًا من البلّوط الأسود، بمتانة زائدة. وحطّ سرب من الحمام الذي كان طائرًا حول برج الناقوس، في الشارع أمام المنزل، وتجمع أمام الباب كما لو كان طعامه قد تم تخزينه هناك. وطارت إحدى حمامات السرب محلقة نحو الطابق الأول، ونقرت بمنقارها زجاج النافذة. كانت حمائم السرب طيورًا جميلة صافية اللون، قد لقيت عناية كافية. قذفت إليها المرأة التي كانت بالقارب بالحبوب في دفعة واسعة المدى، فالتقطتها، وطارت تعبر المسافة نحو المرأة.

وهبط رجل يرتدي قبعة عالية مربوطة بشريط الحداد، أحد الحواري الضيقة، البالغة الانحدار، المؤدية إلى الميناء. تطلع حوله بيقظة، وبدا أن كل شيء يسيئه، والتوى فمه لمرأى بعض النفايات في أحد الأركان. كانت قشور الفاكهة ملقاة فوق درجات التمثال، أزاحها بعيداً بعصاه عند مروره بها، وقرع بها المنزل، رافعًا في نفس الوقت قبعته العالية من فوق رأسه بيمناه التي يغطيها قفاز أسود اللون. فُتح الباب في الحال، وظهر حوالي خمسين طفلًا صغيرًا، اصطفوا على امتداد حائطي رواق المدخل، وانحنوا له.

هبط ملّاح القارب الدرج، وحيّا السيد الذي يرتدي الرداء الأسود، واصطحبه صاعداً إلى الطابق الأول، ودار معه حول الشرفة الرشيقة

المضيئة التي كانت تحيط بالفناء، ودخل كلاهما، بينما اندفع الصبية خلفهما عن بُعد يشي بالتوقير، إلى حجرة فسيحة باردة تطل على الخلفية، لم يكن يرى من خلال نوافذها أي منزل آخر، سوى حائط مكشوف صخري يتقاسمه اللونان الأسود والرمادي. كان الحمَّالان مشغولان بتثبيت وإشعال شموع طويلة عديدة عند رأس النعش، إلا أن هذه الشموع لم تبعث ضوءًا، فقط أبعدت الظلال التي لم تكن قد تحركت حتى ذلك الحين، وجعلتها تخفق فوق الجدران، وكانت الملاءة التي تغطي النعش قد طُرحت إلى الخلف، وفوقها كان يستلقي رجل تشوش نمو شعره مختلطًا بتهوش لحيته واصطبغت بشرته باللون البني وبدا شبيهًا بالصياد على نحو ما، كان يستلقي بلا حركة، وكأنه لا يتنفس، كانت عيناه مغلقتان، لكن أوضحت متعلقاته ـ مع ذلك ـ أنه ربما كان ميتًا.

خطا السيد نحو النعش، ووضع يده على جبين ذلك المستلقي فوقه، ثم ركع، وراح يصلي. وأتى ملّاح القارب بإشارة إلى الحمّالين لكي يغادرا الحجرة، فخرجا؛ ودفعا الأطفال الذين كانوا قد تجمعوا في الخارج بعيدًا، ثم أغلقا الباب. لكن حتى هذا لم يبد أنه قد أرضى السيد، فألقى نظرة على ملّاح القارب. وفهم الملّاح، واختفى، من خلال باب جانبي، في الحجرة المجاورة. وفي الحال فتح الرجل المستلقي فوق النعش عينيه، وأدار وجهه في ألم ناحية السيد، وقال: «من أنت؟»، ومن دون أي علامة تدل على الدهشة، نهض السيد من وضعه الراكع، وأجاب: «محافظ مدينة ريفا».

أطرق الرجل المستلقي فوق النعش، وأشار إلى مقعد، بحركة واهنة من ذراعه، وقال بعد أن تقبل محافظ المدينة دعوته: «لقد عرفت ذلك بالطبع يا سيدي المحافظ، لكنني في اللحظات الأولى لاستعادتي وعيي، دائمًا أنسى؛ إن كل شيء يأخذ في الدوران أمام عيني، ومن الأفضل لي أن أتساءل عن أي شيء حتى لو كنت أعرفه. أنت أيضًا ربما تعلم أنني الصيّاد جراكوس».

قال محافظ المدينة: «بالتأكيد، كنت قد أُنبئتُ بوصولك في أثناء الليل، لقد كنا نائمين لفترة طويلة، ثم في حوالي منتصف الليل صاحت زوجتي قائلة: «سلفاتوري—وهذا هو اسمي— انظر إلى تلك الحمامة عند النافذة كانت حمامة حقًّا كبيرة في مثل حجم الديك، طارت فوقي، وقالت في أذني: «غدًا يصل الصيّاد جراكوس الميت، فاستقبله باسم المدينة»

أطرق الصيّاد برأسه، ولعق شفتيه بطرف لسانه قائلًا: «نعم، طارت الحمائم إلى هنا قبلي، لكن هل تعتقد يا سيدي المحافظ، أنني سوف أبقى في ريفا؟»

وأجاب المحافظ: «لا يمكنني أن أقول ذلك بعد. هل أنت ميت؟».

قال الصيّاد: «نعم، كما ترى. منذ سنوات طويلة مضت، نعم لا بد أن سنوات طويلة جدًّا قد انقضت، لقد سقطت من فوق قمة هاوية في الغابة السوداء—وتقع هذه في ألمانيا—، عندما كنت أطارد ظبيًا من فصيلة الشامواه، وأنا ميت منذ ذلك الحين».

قال المحافظ: «ولكنك حيّ أيضًا».

قال الصيّاد: «بمعنى ما، أنا حي أيضًا بمعنى ما. لقد ضلت سفينة موتي طريقها، دورة خاطئة دارتها وجهة الدفة، لحظة شرود ذهن من جانب الربّان، أمنية لأن أستدير منعطفًا في اتجاه بلدي وموطني المحبوب لا يسعني أن أذكر كيف كان ذلك، كل ما أعرفه هو أنني قد بقيت فوق الأرض، وأن سفينتي منذ ذلك الحين، قد أبحرت في مياه أرضية. وهكذا أرحل، أنا الذي لم أطلب شيئًا أكثر من أن أعيش وسط جبالي، بعد موتي عبر بلدان الأرض».

تساءل المحافظ وهو يعقد حاجبيه: «ولا مكان لك بهذا في العالم الآخر».

وأجاب الصيّاد قائلًا: «إنني، وإلى الأبد، فوق السلم الهائل الذي يؤدي إليه صعودًا، فوق ذلك السلم الذي لا حد لاتساعه، أتسلق أنحاءه، أحيانًا إلى أعلى، وأحيانًا أهبط، وأحيانًا إلى اليمين، وإلى اليسار أحيانًا، ودائمًا في حركة. لقد كان الصياد قد تحوّل إلى فراشة، لا تضحك».

قال المحافظ، دفاعًا عن نفسه: «أنا لا أضحك».

قال الصيّاد: «هذا حسن جداً منك. إنني دائمًا في حالة حركة، لكنني بينما أنطلق انطلاقة فائقة، وأرى البوابة تتألق أمامي بالفعل استيقظت فوق سفينتي القديمة، وقد جنحت بي مهجورة لا تزال، في بحر أرضي أو إن الغلطة الأساسية في ميتتي القديمة تلك، إنما تضحك ساخرة مني بينما أستلقي في داخل قمرتي في السفينة. وإن (يوليا) زوجة الربّان،

لتدق على الباب، وتحضر لي، وأنا مستلق فوق نعشي، مشروب الصباح الأرضي من الشواطئ التي يتصادف أن نمر بها. إنني أستلقي فوق برش خشبي، وأرتدي —ولا يمكن أن يكون مرآي باعثًا على السرور— كفنًا قذر وقد وخط الشيب شعر رأسي ولحيتي، وقد طال الشعر في كليتهما على نحو مشتبك، ويغطي أطرافي شال نسائي تنتشر فوقه أشكال هائلة الحجم لزهور كبيرة، وتنتهي أطرافه بأهداب طويلة، وتقوم عند رأسي شمعة قداس تلقي عليَّ ضوئها، وعلى الحائط قبالتي صورة صغيرة ما، واضح أنها لرجل من قبيلة البوشمان يسدد حربته نحوي، ويتدرع محتميًا بقدر ما يسعه ذلك، بدرع تزينه رسوم بديعة ملونة. وعلى سطح السفينة غالبًا ما يكون المرء فريسة لخيالات غبية، إلّا أن هذه هي أكثرها كلها غباء. وفيما عدا هذا لا يكتنف تابوتي الخشبي سوى الخواء التام، وتدخل من خلاله فتحة في الحائط الجانبي أنسام ليل الجنوب الدافئة، وأسمع الماء وهو يلطم القارب القديم.

«لقد استلقيت هنا منذ ذلك العهد، الذي كنت قد طاردت فيه بصفتي الصيّاد جراكوس الذي يعيش في الغابة السوداء أحد ظباء الشمواه، وسقطت من فوق قمة تفضي إلى هاوية. لقد حدث كل شيء في نظام سليم. لقد طاردت، سقطت، نزفت حتى الموت في قاع هاوية، متّ، وكان على هذه السفينة أن تنقلني إلى العالم الآخر. وما زال في إمكاني أن أتذكر كيف مددت نفسي مسرورًا فوق هذا البرش الخشبي للمرة

الأولى. لم يحدث أن استمعت الجبال قط من قبل إلى أغنيات كتلك التي استمعت إليها مني تلك الجدران الأربعة الغارقة في الظلال عندئذ.

«لقد كنت سعيدًا لأنني كنت أحيا، وكنت سعيدًا بموتي، وكنت قبل أن أخطو إلى سطح السفينة، قد طوحت مبتهجًا بكل حمولتي من الذخيرة، وبجعبتي، وببندقية صيدي التي كنت دائمًا فخورًا بحملها، واندسست في داخل كَفَني كما تندس فتاة إلى داخل ثوب زفافها. استلقيت منتظرًا ثم جاءت النكبة».

قال المحافظ، رافعًا يده في حالة دفاع عن النفس: «مصير سيئ، وهل لا تُلام أنت عليه؟».

قال الصيّاد: «لا؛ لقد كنت صيّادًا، فهل كان ثمة خطيئة في ذلك؟ لقد تبعت ما تلقيه عليَّ مهنتي كصياد في الغابة السوداء، حيث كانت هناك ثعالب لا تزال في تلك الأيام، لقد كمنت في مكمني، وأطلقت طلقتي، وأصبت هدفي، وسلخت جلود فرائسي، فهل كان ذلك مما يعد خطيئة؟ لقد كانت أعمالي قد بوركت، وكان الاسم الذي عرفت به هو «صيّاد الغابة السوداء العظيم»، فهل كان ثمة خطيئة في ذلك؟

قال المحافظ: «لست مدعوًّا لحسم هذه المسألة، ولا يبدو لي أيضًا أن ثمة خطيئة في مثل هذه الأمور. لكن، تُرى على من إذَنْ يقع الإثم؟».

قال الصيّاد: «هو إثم صاحب القارب. لا أحد سوف يقرأ ما أكتب هنا، ولا أحد سوف يخف لنجدتي، حتى لو تلقى الناس جميعهم الأمر بمساعدتي كل باب وكل نافذة سوف تبقى مغلقة، وسوف يهرع كل

شخص إلى فراشه، ويسحب الأغطية فوق رأسه، سوف تصبح الأرض كلها نزلًا لبيات الليل، ولهذا معناه الواضح؛ ذلك أن أحدًا لا يعرفني، ولو كان قد عرفني أحد، فلن يعرف أين يمكن أن أتواجد، وإذا عرف أين يمكن العثور عليَّ، فلن يعرف كيف يمكنه أن يساعدني. إن فكرة مساعدتي هي مرض ينبغي على المرء أن يشفى منه بأن يهرع إلى فراشه.

«إنني أعلم هذا، ولذلك فأنا لا أصرخ طالبًا النجدة، مع أنني في بعض اللحظات —عندما أفقد السيطرة على نفسي، كما حدث لي الآن للتو على سبيل المثال— أفكر جدِّيًّا في طلب النجدة، لكن لكي أصرف عن رأسي مثل هذه الأفكار، يلزمني فقط أن أتطلع حولي، وأتحقق في أي مكان أتواجد، وأين كنت —كما يسعني أن أؤكد في أمان— على مدى مئات السنين».

قال المحافظ: «خارق للعادة، هذا شيء خارق للعادة. —والآن هل تفكر في البقاء هنا معنا، في ريفا؟».

قال الصيّاد بابتسامة، ولكي يتدارك التهكم، وضع يده على ركبة المحافظ: «لا أظن ذلك، إنني هنا، أما ما يزيد على هذا، فلا أعرف عنه شيئًا أكثر من أنني لا يمكنني أن أرحل. إن سفينتي بلا دفة ولا تحركها سوى الريح التي تعصف في أعمق مناطق الموت السفلى».

وكيل الدعاوى الجديد أصبح لدينا وكيل جديد للدعاوى، هو د. بوسيفالوس. وفيما يتعلق بمظهره الخارجي لا يوجد سوى القليل، لكي

يـذكر المـرء بـالزمن الـذي كـان فيـه لا يـزال هـو ممثـل الادعـاء على الإسـكندر المقـدوني. إلا أن أي شـخص معتـاد على مثـل هـذه الأمـور يمكنه مع ذلك أن يلاحظ شيئًا ما. ألم أرَ أنـا نفسـي أخـيرًا كيـف يتطلـع إلى المحامي، حتى مجرد تابع محكمة بسيط محدقًا بعين التابع البسيط المحترفة الخبيرة في مضمار سباق، بينما يرفع الآخر ساقيه عاليًا، وهـو يصعد الدرج الخارجي درجة بعد درجة بخطوة تجعل الرخام يرن؟

لقد وافق القضـاء عمومًـا على قبـول بوسـيفالوس. لقـد قـالوا لأنفسـهم ببصيرة مدهشة إن وضع بوسيفالوس تحت نظامنا الاجتمـاعي الحاضـر هـو وضـع صـعب، وإنـه لهـذا —وأيضًـا لأهميتـه التاريخيـة العالميـة— يستحق ملاقاته في منتصف الطريق. ولا وجـود الآن— كمـا لا يسـع أي شخص أن ينكر —للإسكندر الأكـبر. لا يـزال الكثيرون بـالطبع يعرفـون كيف يقتلون؛ كما أنـك لن تعـوزك المهـارة لكي تطعن صـديقك بـرمح فوق مائدة العشاء؛ كما أن مقدونيا ضيقة للغاية بالنسبة للكثيرين، ولهذا لعنـوا فيليب الأب— لكن لا أحـد، لا أحـد يمكنـه أن يقودنـا إلى الهنـد. وحـتى في تلـك الأيـام لم تكن بوابـات الهنـد سـهلة المنـال، لكن كـان اتجاهها قد تحدد بالسيف الملكي.

وقد تم الآن نقل البوابات إلى مكـان آخـر أكـثر ارتفاعًـا، وأكـثر تباعـدًا، ولكن لا يعين اتجاههـا أحـد، يحمـل الكثـيرون السـيوف، لكن لكي يلوحوا بها فحسب، وتتشتت النظرة التي تحاول أن تتبعهم.

وعلى هذا فقد يكون من الأفضل حقًّا، أن يفعل المرء، ربما، كما فعل بوسيفالوس ويدفن نفسه في كتب القانون.

حرًّا، ودون أن ينضغط جانباه بفخذي فارس، وتحت مصباح هادئ، يقرأ، بعيدًا عن صخب حروب الإسكندر، يقرأ ويقلب صفحات كتبنا القديمة.

* * *

بوايدون

جلس بوايدون إلى مكتبه مستغرقًا في حساباته؛ فإدارة كل المياه تلقي على كاهله أعباءً لا نهاية لها. وقد كان في مقدوره أن يتخذ لنفسه من المساعدين ما شاء أن يتخذ لنفسه منهم —وأن لديه بالفعل منهم الكثيرين، الكثيرين— لكنه لما كان قد أخذ عمله بغاية الجدية، فقد تعين عليه أن يراجع كل الأرقام وكل التقديرات بنفسه، ولهذا لم يكن لمساعديه سوى القليل من النفع له. ولا يمكننا القول بأنه وجد متعة ما في ممارسة عمله هذا، فهو قد قام بأدائه فحسب؛ لأنه كان قدر إليه القيام به. وكان، في الحقيقة، قد قدم بالفعل التماسات عديدة انطوى عليها ملفه، التمس فيها، على حد قوله، عملًا أكثر بهجة. لكن محاولة إسناد عمل آخر إليه، كان يتضح في كل مرة أنه لا يناسبه قط عمل، كما يناسبه عمله الحالي. وكان صعبًا على أي حال، صعوبة بالغة، إيجاد عمل آخر يمكن أن يسند إليه القيام به، وفوق هذا كله كان من

المستحيل بالطبع أن تسند إليه إدارة بحر بعينه، بصرف النظر عن حقيقة أنه حتى في تلك الحالة، فإن النتيجة لن تسفر عن تخفيف للعبء عن كاهله، بل عن تقليل لمركزه؛ فبوايدون العظيم لا يمكنه بحال من الأحوال أن يضطلع بمجرد عمل تنفيذي. وعندما قامت ذات مرة فكرة أن يسند إليه عمل بعيد عن البحر، أعيته مجرد الفكرة إلى حد ذاتها؛ ذلك أن أنفاسه الإلهية كانت تضطرب وصدره النحاسي كان يشرع في الخفقان. وبالإضافة إلى ذلك، لم تكن شكاواه تُؤخذ قط مأخذ الجد، فعندما يحدث عادة أن يتكدر أحد الآلهة كانت تقوم شكليات توحي ببذل الجهد الذي لم يكن منه بد لتهدئته، ولقد كانت تقوم هذه المحاولات الشكلية مهما بدت الحالة خطيرة وميؤوسًا منها إلى أبعد الحدود، ذلك أن حركة التنقلات في المناصب فعليًّا، كان أمرًا غير وارد بالمرة بالنسبة لبوايدون؛ لأنه كان قد نُصِّب إلهًا للبحر منذ البداية، وكان عليه أن يظل كذلك.

أما أكثر ما كان يثيره —وهو ما كان يبعثه على أن يسخط على وظيفته— فهو سماعه لتلك التصورات التي تكونت عنه، وعن الطريقة التي كان يتجول بها دائمًا في مركبته خلال حركة المدّ والجزْر، وهو يمسك بصولجانه ذي الشعب الثلاث، بينما كان قد جلس طوال الوقت هنا في أعماق محيط العالم يراجع حساباته بلا إزعاج، فيما عدا رحلة قصيرة كان يقوم بها بين الحين والآخر متجهًا إلى جوبيتر؛ حيث كانت هذه الرحلة هي وحدها ما يقطع اتصال الرتابة ــ رحلة، كان يعود منها فوق ذلك، في حالة هياج. وعلى هذا فهو لم يكن قد أتيحت له حتى رؤية

البحر بالكاد ـ ذلك أنه كان قد رآه رؤية عابرة في سياق اطلاعته المتعجلة إلى جبل الأولمب؛ ولم يكن قد تجول فعليًّا قط في أنحائه. ولقد كان معتادًا على أن يقول إنّ كل ما كان ينتظره، هو انهيار العالم، ثم قد تسنح له قبل ذلك ربما، لحظة ما من لحظات الهدوء على حافة النهاية، وبعد أن يكون قد أتم مراجعة خط أفكاره الأخيرة، قد يسعه فيها القيام بجولة سريعة قصيرة.

كان بوايدون قد أصابه بحره بالسأم، وكان قد ترك صولجانه ذا الشعب الثلاث يسقط من يده، وجلس في صمت على الشاطئ الصخري. وكان أحد طيور النورس، وقد أصيب بالدوخة في حضرته، قد دوّم محلقًا في دورات مترنحة حول رأسه.

* * *

مشكلة قوانيننا

قوانيننا عمومًا ليست معروفة؛ فهي قد ظلت سرًّا من أسرار المجموعة الصغيرة التي تحكمنا من النبلاء، ونحن مقتنعون بأن هذه القوانين القديمة قد تم الالتزام بها بدقة. وعلى الرغم من ذلك، فإنه مما يؤلم إلى أقصى حد أن يحكم المرء بواسطة قوانين لا يعرف عنها شيئًا. ولا تشغلني التناقضات المحتملة التي قد تنشأ عند تفسير القوانين، كما أنني لا أفكر في الأضرار المشتبكة التي يتسبب فيها السماح لقلة فقط من الناس، وليس لكل الناس، بأن يكون لهم رأي في تفسيرها. وربما لا تكون لهذه الأضرار أهمية بالغة؛ ذلك أن القوانين بالغة القدم، وكانت تفسيراتها عبئًا اضطلعت به القرون، واكتسبت هي ذاتها بلا شك منزلة القانون، ومع أنه لا تزال هناك حرية ممكنة للتفسير، إلا أن هذه الحرية قد أصبحت الآن مقيدة للغاية. وعلاوة على ذلك، فإنه من الواضح أن النبلاء ليس لديهم ما يدفعهم إلى أن يتأثروا في تفسيراتهم بالاهتمامات الشخصية الضارة بنا، ذلك أن القوانين كانت قد صُنعت لمصلحة النبلاء منذ بداية البداية، فهم أنفسهم يقفون فوق القانون، ويبدو أن هذا هو السبب في أن القوانين كانت قد عُهد بها بصفة خاصة إلى أيديهم. ثمة حكمة في ذلك بالطبع —من ذا الذي يرتاب في حكمة القوانين القديمة؟

ـ لكن ثمة مشقة لنا أيضًا، وربما كانت هذه المشقة أمرًا لا يمكن تجنبه.

إن وجود هذه القوانين مع ذلك، هـو في الأغلب، مسـألة افـتراض فثمـة تقاليد تقول بأنها موجـودة، وبأنهـا سـر قـد عُهـد بـه إلى النبالـة. إلا أنهـا ليسـت، ولا يمكن أن تكـون أكـثر من مجـرد تقاليـد قـد صـدق عليهـا الزمن؛ لأن جوهر وجود شفرة سرية مـا، هـو أنهـا يجب أن تبقى خفيـة. ولقـد تفحص البعض منـا، من بين الشـعب، بانتبـاه، أفعـال النبالـة منـذ أقدم الأزمان، وامتلك سجلات سجلها أسلافنا الأوائل —وهي سجلات قـد أكملناهـا نحن بـوعي— ويـزعم هـذا البعض منـا أنهم يمكنهم أن يدركوا من بين مـا لا حصـر لـه من أعـداد الحقـائق، اتجاهـات أساسـية بعينها تسمح بهذه أو بتلك الصياغة التاريخية، لكن عنـدما نسـعى طبقًـا لهذه النتائج التي تم تفحصـها بتـدقيق، وتنظيمهـا منطقيًّا، إلى أن نوجـه أنفسنا على نحو ما نحو الحاضر أو المستقبل، يصبح كل شـيء مفتقـرًا إلى اليقين، ويبدو عملنا فقط مجرد لعبة فكرية؛ ذلـك أن هـذه القـوانين الـتي نحـاول أن نفسـرها ربمـا لا تكـون موجـودة على الإطلاق. وثمـة جماعة صغيرة العدد يعتقدون بالفعل هذا الرأي، ويحاولون أن يظهـروا أنه، إذا توجدات أي قوانين، فإنهـا لن تكون سوى هذا: القـانون هـو كـل مـا يـروق للنبالـة أن تفعـل. وتـرى هـذه الجماعـة في كـل مكـان، فقـط الأعمال التعسفية للنبالة، وتنبذ التقاليـد الشـعبية. الـتي تملـك فقـط في رأيهم بعض الميزات الطفيفة الطارئة الـتي لا تقـوى غالبًـا على مواجهـة أضرارها الثقيلة، ذلك أنها تمنح الشعب أمانًـا زائفًـا خادعًـا. زائـد الثقـة بالغير في تصديها للأحـداث الـواردة. ولا يمكن أن ينكـر هـذه الأضـرار أحـد، إلّا أن الأغلبيـة الشـاملة لشـعبنا تعللهـا بحقيقـة أن التقاليـد هي

بطبيعتها أبعد ما تكون عن الاكتمال، ولا بد من أن يتم المزيد من التقصي الزائد في أمرها، ذلك أن المادة المتاحة، على ضخامتها التي تتبدى بها، لا تزال بالغة العقم، وأن قرونًا عديدة لا بد لها أن تمر قبل أن يتم لهذه المادة الكفاية حقًّا. هذه الرؤية التي تبعث إلى هذا الحد البالغ على عدم الارتياح فيما يتعلق بالحاضر، لا يخفف منها سوى الاعتقاد بأن الوقت سوف يحل في النهاية عندما تبلغ التقاليد، وبحوثنا فيها معًا نتائجهما، ويجنيان، كما يقال، هامشًا لالتقاط الأنفاس، عندما يقدر لكل شيء أن يصبح واضحًا، سوف ينتمي القانون إلى الشعب، وسوف تتلاشى النبالة. ولا يستند هذا على شيء من روح الكراهية للنبالة، لا شيء من هذا على الإطلاق، ولا يحس أحد شيئًا منه. إننا ميالون أكثر إلى كراهية أنفسنا؛ لأننا لم نبد جدارتنا بأن نؤتمن على القوانين. وهذا هو السبب الحقيقي في أن الجماعة التي ترى أنه لا يوجد أي قانون، قد بقيت جماعة صغيرة العدد إلى هذا الحد—على الرغم من أن مذهبها هو من نواحٍ بعينها، مذهب بالغ الجاذبية؛ ذلك لأنه يعترف اعترافًا قاطعًا بالنبالة وبحقها في مواصلة الوجود، ويمكن للمرء فعليًّا أن يعبر عن المشكلة فقط في صورة مفارقة من نوع ما؛ أي جماعة قد تجحد، ليس فقط كل اعتقاد في القوانين، بل تجحد النبالة هي أيضًا، سوف تكسب الشعب كله خلفها، إلا أنه لن يتسنى لمثل هذه الجماعة أن تظهر إلى الوجود؛ ذلك أنّ أحدًا لن يجرؤ على أن يجحد النبالة. إننا نعيش فوق حد الموسى هذا. وقد لخص أحد الكتاب الأمر ذات مرة، على هذا النحو: إنّ القانون الوحيد المرئي والذي لا ريب فيه،

ذلك المفروض علينا، إنما هو النبالة، فهل لا بد لنا نحن أنفسنا أن نحرم من هذا القانون الوحيد؟

* * *

تقع مدينتنا

لا تقع مدينتنا الصغيرة على الحدود، ولا بالقرب منها، إنها بعيـدة جـدًّا عن الحدود في الحقيقة، حتى إنّ أحدًا في مدينتنا لم يتواجد قط هنـاك؛ ذلك أنّ ثمة مرتفعات موحشـة لا بـد من عبورهـا، بالإضـافة إلى سـهول خصبة واسـعة، وأن يتصـور المـرء جـزءًا من الطريـق فحسـب، لهـو أمـر مرهق، أما تصور ما يزيد على جزء فهو ما لا يستطيع المـرء أن يتخيلـه. وتوجد أيضًا مدن كبرى على الطريق، كل منها أكبر جدًّا من مدينتنا؛ إن عشر مدن صغيرة مثل مدينتنا تتمدد جنبًا إلى جنب، ولو أقحمت عليهـا من أعلى عشر أخرى، فإنها مع ذلك لن ينتج عنها كلها معًـا واحـدة من تلـك المـدن الهائلـة، البالغـة الاتسـاع. فلـو لم يضـل المـرء طريقـه على امتداد تلـك المـدن الصـغيرة، فإنـه معـرّض لأن يضـيع في تلـك المـدن الكبرى. ويستحيل على المرء أن يتحاشاها بسبب أحجامها.

إلّا أن ما هو أكثر بعـدًا من الحـدود عن مـدينتنا فـوق هـذا، لـو أمكن أن تقوم مقارنة ما أصلًا بين هذه المسافات —فهي مقارنـة من قبيـل القـول بأن رجلًا له من العمر ثلاثمائة عام يعد أكبر سنًّا من آخر عمره مائتان— إنّ مـا هـو أبعـد من مـدينتنا، حـتى من الحـدود، لهي العاصـمة. فبينمـا نحصل على أنباء عن حروب الحدود بين الحين والآخر، لا نعرف شيئًا قـط عن العاصـمة —أعـني لا نعـرف نحن المـدنيين— ذلـك أن مـوظفي الحكومة لديهم بالطبع اتصالات جيدة جدًّا بالعاصمة؛ ففي اسـتطاعتهم

الحصول على أنباء منها في وقت قصير لا يكاد يتعدى الشهور الثلاثة، أو على الأقل هكذا يزعمون.

وإنه لمن الملحوظ الآن، وإنها لتدهشني دائمًا تلك الطريقة التي تخضع بها في مدينتنا في تواضع لكل الأوامر الصادرة في العاصمة. فعلى مدى قرون لم يحدث أي تغير سياسي بواسطة المواطنين أنفسهم.

وفي العاصمة كان حكام عظماء قد خلف أحدهم الآخر—حقًّا، أسرات حاكمة حتى كانت قد تم خلعها أو إبادتها، وبدأت الحكم أسرات جديدة، وفي القرن الماضي كانت حتى العاصمة نفسها قد تم تدميرها.

وكانت عاصمة جديدة قد تم تأسيسها بعيدًا جدًّا عنها. وفيما بعد كانت هذه العاصمة هي أيضًا قد تم تدميرها، وتمت إعادة تشييد العاصمة القديمة، إلّا أن شيئًا من هذا لم يكن له أي تأثير على مدينتنا الصغيرة؛ فموظفينا كانوا قد ظلوا دائمًا في وظائفهم، وكان أعلى الموظفين رتبة قد جاؤوا إلينا من العاصمة، وجاء الذين يلونهم في رفعة المرتبة من المدن الأخرى، والأدنى، كانوا من بيننا نحن أنفسنا—كان ذلك هو الحال الذي سارت عليه الأمور دائمًا، وهو حال كان يرضينا. كان أعلى الموظفين رتبة هو كبير جباة الضرائب، وكانت له رتبة العقيد، وكان يعرف بها. والعقيد الحالي رجل عجوز؛ ولقد عرفته لسنوات؛ لأنه كان بالفعل في رتبة العقيد عندما كنت طفلًا. في البداية ارتقى درجات سلم وظيفته بغاية السرعة، ثم بعد ذلك بدا وكأنه لم يعد يتقدم أي تقدم، وفعلًا بالنسبة لمدينتنا الصغيرة تعد رتبته عالية بما فيه

الكفايـة، ولا محـل لرتبـة أعلى منهـا. وعنـدما أحـاول أن أتـذكره، أراه جالسًا في شرفة منزله في ميدان السوق، مضطجعًا إلى الخلف، وغليونه في فمه، وفوقـه من السـقف يرفـرف العلم الإمـبراطوري، وعلى جـوانب الشرفة البالغة الاتسـاع، حتى لقـد كـانت تـدور في سـاحتها المنـاورات الحربية الصغرى أحيانًا، كـان الغسـيل ينشـر لكي يجـف. ويلعب حولـه أحفاده، في ملابس حريرية جميلـة، فلم يكن مسـموحًا لهم بـأن يهبطـوا إلى ميدان السوق، فالأطفال في هذا الميدان كانوا يعدون غـير جـديرين بهم، إلّا أن الأحفـاد كـان يجتـذب انتبـاههم الميـدان، وهكـذا كـانوا يدفعون رؤوسهم بين أعمدة الدرابزين، وعندما يبـدأ العـراك في أسـفل، كانوا يشاركون في الشجار من مكانهم في أعلى.

هذا العقيـد، إذن يحكم المدينـة. ولا أظن أنـه قـد قـدّم مطلقًـا أي وثيقـة تمنحـه الحـق في هـذا المركـز، والأرجح جـدًّا أنـه لا يملـك مثـل هـذا الشيء. وربما يكون حقًّا كبيرًا لجباة الضـرائب. لكن هـل هـذا هـو كـل شيء؟ هل كونه كذلك يتيح له أن يحكم فوق كل المصالح الأخرى في الإدارة أيضًا؟ حقًّا، إن وظيفته هي وظيفة هامـة بالنسـبة للحكومـة، لكن بالنسبة للمواطنين لا تكاد تكون وظيفة كهذه هي الأكـثر أهميـة. ويكـاد يغلب على المرء أن ينطبع لديه أن الشعب هنا إنما يقول له: «والآن وقد أخذت منا كل ما نملكه، فلتأخذنا نحن أيضًا من فضـلك». وفي الواقـع بـالطبع، لم يكن هـو الـذي أمسـك بالسـلطة، ولا كـان طاغيـة، كـان قـد انتهى الحـال مـع مـرور السـنين، أن كبـير جبـاة —الضـرائب هـو تلقائيًّا الموظف الأكبر، ويقبل العقيد هذا التقليد تمامًا كما نقبله. إلّا أنه بينمـا

يعيش بيننا دون أن يؤكد تأكيدًا زائدًا جدًّا على مركزه الرسمي، غير أنه شيء مختلف كل الاختلاف عن المواطن العادي؛ فعندما يفد إليه وفد كي يقدم له التماسًا، فإنه يقف هناك مثل سور العالم، وليس بعده سوى العدم، ويتصور المرء سماع أصوات تهمس في الخلفية، إلا أنه قد يكون وهمًا؛ فهو في نهاية الأمر، إنما يمثل نهاية كل الأشياء، على الأقل بالنسبة لنا.

عند هذه الاستقبالات، كان يستحق حقًّا أن يراه المرء. كنت حاضرًا ذات مرة وأنا بعد طفل، عندما وصل وفد من الموظفين لكي يلتمسوا منه دعْمًا حكوميًّا لأن أفقر أحياء المدينة كان قد احترق. وكان أبي البيطار، وهو رجل كان يحظى باحترام الطائفة، عضوًا في الوفد، وكان قد اصطحبني معه. ولم يكن ثمة ما هو استثنائي في هذا، فكل شخص يهرع إلى مشاهد من هذا القبيل، ولا يكاد المرء يميز الوفد الفعلي، من الحشد. ولما كانت هذه الاستقبالات عادة ما تتم في الشرفة، فلقد كان هناك من الناس حتى من يصعدون من ميدان السوق بواسطة سلم ويشاركون فيما يجري، بالفرجة من فوق درابزين الشرفة. في هذه المناسبة كان يتم حجز حوالي ربع مساحة الشرفة للعقيد، ويشغل الحشد بقيتها. وكان بضعة جنود قلائل يتابعون الحراسة، يقف بعضهم حوله في شبه دائرة. وقد كان جندي واحد ليكفي بالفعل تمامًا، فإلى هذا الحد نخافهم. لست أدرى بالتحديد من أين جاء هؤلاء الجنود؟ لقد جاؤوا من مكان بعيد على أي حال، وإنهم ليتشابهون جميعًا شبهًا كبيرًا جدًّا، حتى إنهم لا يحتاجون لهذا إلى زي موحد. إنهم ضئيلو

الحجم، ليسوا أقوياء، بل هم أناس سريعو الحركة، وأهم ما يلفت النظر إليهم هو بروز أسنانهم التي تكاد تسد أفواههم، ولأعينهم الصغيرة الضيقة بريق معنى منتفض غير مطمئن، يجعلها مصدر رعب للأطفال، ومبعثًا أيضًا لبهجتهم؛ ذلك أن الأطفال يتوقون المرة بعد المرة أن تخفيهم هذه الأسنان وهذه الأعين، وذلك حتى يكون في وسعهم أن ينطلقوا مسرعين في رعب. وحتى الكبار من المحتمل أنهم لم يفقدوا تمامًا هذا الرعب الطفولي، فهو على الأقل يواصل الاحتفاظ بتأثيره. وهناك بالطبع، عوامل أخرى تسهم في استمرار بقاء ذلك التأثير. ويتحدث الجنود لهجة غير مفهومة لنا بالمرء، ولا يكاد يسعهم أن يعتادوا على لهجتنا —ويسهم هذا كله في إحداث انغلاق معين، صفة لا تقبل التجاوب، تتفق في الحقيقة مع شخصيتهم، فهم صامتون، جادون، وجامدون.

إنهم لا يأتون بالفعل أي عمل شرير، إلا أنه يصعب احتمالهم رغم ذلك، على الأغلب، بمعنى ما من معاني التوجس. يدخل جندي مثلًا أحد الحوانيت، ويبتاع أشياء عارضة، ويبقى في مكانه منحنيًا على الحاجز، يستمع إلى الأحاديث، ولعله لا يفهمها، إلا أنه يعطي الانطباع بالفهم، إنه هو نفسه لا يقول كلمة واحدة، يحدق فقط باندهاش في المتحدث، ثم يعود بنظراته إلى المستمعين، ويظل واضعًا يده طول الوقت فوق مقبض السكين الطويلة في حزامه. إن هذا ليبعث على التمرد، ذلك أن المرء يفقد الرغبة في أن يتحدث، ويبدأ الزبائن في مغادرة الحانوت، وفقط عندما يصبح الحانوت فارغًا تمامًا، يغادره

الجندي هو أيضًا. وعلى هذا فأينما ظهر الجنود، يزداد صمت ناسنا الودودين. وهذا هو ما حدث هذه المرة أيضًا، فكما في كل المناسبات المهيبة، وقف العقيد معتدلًا، ممسكًا أمامه بقصبتين من البامبو في يده الممدودتين. هذه عادة قديمة تتضمن معنى يشير على نحو أو آخر إلى أن العقيد يدعم القانون، وأن القانون يدعمه. ويعلم كل فرد الآن بالطبع، ماذا يتوقعه في تلك الشرفة، في أعلى. ومع ذلك ينتاب الناس جميعًا الخوف ثانية في كل مرة. في هذه المرة أيضًا، لم يكن في مقدور الرجل الذي تم اختياره للكلام أن يبدأ، كان بالفعل واقفًا أمام العقيد، عندما خانته شجاعته، وبينما يتمتم ببضع اعتذارات، شق طريقه راجعًا إلى مكانه وسط الحشد. ولم يكن متيسرًا العثور على أي شخص آخر مناسب راغب في الكلام، على الرغم من أنّ عددًا من الأشخاص الذين لا يصلحون لذلك قد قدموا أنفسهم، وأعقب ذلك ارتباك هائل، وتم إرسال الرسل بحثًا عن مواطنين عديدين كانوا معروفين جيدًا كمحدِّثين. خلال هذا الوقت كله، كان العقيد قد ظل واقفًا هنالك بلا حراك، صدره فقط كان يمكن أن يُرى متحركًا إلى أعلى وإلى أسفل مع حركة تنفسه؛ ليس لأنه كان يتنفس بصعوبة، بل لأنه كان يتنفس في وضوح، تنفسًا أشبه كثيرًا بتنفس الضفادع، فيما عدا أن ذلك أمر طبيعي في حالتها، بينما هو هنا أمر استثنائي. دسست نفسي وسط الكبار، وراقبته من خلال فجوة بين جنديين، إلى أن ركلني أحدهم بعيدًا بركبته. على حين كان الرجل الذي كان قد اختير أصلًا للحديث قد استعاد رباطة جأشه، وراح يلقي حديثه، وقد سانده في وقفته قائمًا

اثنـان من مواطنيـه. ولقـد كـان شـيـئًا مـؤثرًا أن تـراه يبتسـم طـوال ذلـك الخطاب الوقور واصفًا حالة من حالات الخيبة الفاجعة —ابتسامة بالغـة التواضـع جاهـدت عبثًـا لكي تسـتخلص شـيـئًا من ردّ الفعـل الهيِّن على وجه العقيـد. وفي النهايـة صـاغ الالتمـاس،ــ وأظن أنـه إنمـا كـان فقـط يلتمس إعفاءً من الضرائب لمدة عـام، لكن من الممكن أيضًـا أن يكـون التماسًا متعلقًا بالحصول على جذوع أخشاب من الغابات الإمبراطوريـة بسعر مخفض، ثم انحنى انحناءة عميقـة، وبقي في هـذا الوضـع لبعض الوقت، كما فعل كل شخص آخر فيما عدا العقيد، والجنود، وعدد من الموظفين في الخلف. بالنسبة للطفل بدا مضحكًا أن يهبط الناس الذين كانوا قد تسلقوا درجـات السـلم بضـع درجـات قلائـل؛ وذلـك حـتى لا يكونـوا ظـاهرين للعيـان خلال تلـك الوقفـة الـتي كـان لهـا مغزاهـا، ويحدقون بين الحين والآخـر في فضـول نحـو أرضـية الشـرفة. وبعـد أن استمر هذا لفترة لا بأس بها، تقـدم أحـد المـوظفين، وهـو رجـل ضـئيل الحجم نحو العقيد، وحاول أن يبلغ قـدر ارتفـاع قامـة الأخـير بـالوقوف على أطراف أصابع قدميه.

وهمس العقيد، وهـو لا يـزال جامـدًا، بلا حـراك سـوى تنفسـه العميـق، بشـيء مـا في أذن المـوظـف، على حين صـفق الرجـل الضـئيل الحجم بيديه، ونهض كل شخص.

وأعلن الموظف: «لقد تم رفض الالتماس ويمكنكم أن تذهبوا». وسرى في الحشـد إحسـاس بـالخلاص لا سـبيل إلى إنكـاره، وانـدفع الجميـع مـتزاحمين إلى الخـارج، كمـا أن أحـدًا قـط لم يكـد يلـق أي انتبـاه إلى

العقيد، الذي كان كما يقال، قد تحوَّل ثانية إلى كائن بشرى مثل بقيتنا. وما زلت ألتقط لمحة أخيرة واحدة منه حين ترك في صخر، البوصتين اللتين سقطتا إلى الأرض، ثم غاص في المقعد ذي المساند الذي قدمه له بعض الموظفين، وبسرعة وضع غليونه في فمه.

هذا الحدث كله ليس متفردًا، إنه حدث في صميم السياق العام للأمور، حقًّا أنه يحدث بين الحين والآخر أن يتم قبول التماسات صغرى، إلّا أنها عندئذ تبدو كما لو كان العقيد قد فعلها وكأنه شخص مفرد قوي، وعلى مسؤوليته، وكان لها أن تبقى محفوظة سرًّا كلها عن الحكومة — لا بهذه الصراحة القاطعة بالطبع، ولكن هذا هو ما يبدو به الحال. ولا شك في أن عيني العقيد في مدينتنا الصغيرة، بقدر ما يسعنا أن نعرف، إنما هي أيضًا عينا الحكومة، إلا أن ثمة فرق ما مع ذلك يستحيل أن يتم فهمه كل الفهم.

ومع ذلك، ففي كل الأمور الهامة، يمكن للمواطنين دائمًا أن يتوقعوا رفضًا. والحقيقة الغريبة الآن هي أنه من دون هذا الرفض لا يمكن للمرء ببساطة أن يتقدم إلى الأمام، إلّا أن هذه المناسبات الرسمية التي تم تعيينها لكي نتقبل فيه الرفض، ليست مطلقًا في الوقت نفسه مجرد مناسبات شكلية؛ ذلك أن المرء ليذهب إليها المرة بعد المرة مفعمًا بالتوقع وبكل الجدية، ومن ثم يعود، إن لم يكن بالضبط قد ازداد قوة، أو لم يكن قد أحس بالسعادة، إلا أنه على الرغم من ذلك لا يكون قد عاد محبطًا أو مرهقًا. عن هذه الأمور ليس لي أن أستقصى رأي أي شخص آخر، إنني أحسها في نفسي، كما يفعل ذلك كل شخص، كما

أنني لا رغبة لدي في أن أكتشف كيف ترتبط هذه الأمور ببعضها البعض.

ويوجد في الحقيقة، بقدر ما تسعفني ملاحظاتي، مجموعة تنتمي إلى عمر معيَّن ما لا تشعر بالرضى—وهؤلاء هم الشباب الذين تتراوح أعمارهم تقريبًا بين السابعة عشرة والعشرين. أشخاص صغار السن في الحقيقة، ليس في مقدورهم كلية أن يتبصروا بالعواقب التي قد تعقب حتى أقل الأفكار خطورة، ويفتقرون أبعد بعيدًا من هذا، إلى التبصر بعواقب فكرة ثورية ما. على أن التبرم إنما يزحف مندسًّا وسط هؤلاء.

* * *

العقيد الإمبراطوري إن المرء ليخجله أن يقول بأي وسيلة يحكم العقيد الإمبراطوري مدينتنا الصغيرة في الجبال. إن جنوده القلائل يمكن أن ينتزع سلاحهم في الحال، لو أننا أردنا ذلك، أما المساعدة له، حتى لو افترضنا أنه قد أمكنه أن يستدعيها، لكن كيف يتسنى له أن يفعل ذلك؟ لن تأتيه إلا بعد أيام، بل في الحقيقة—إلّا بعد أسابيع.

وهكذا فهو يعتمد كليةً على طاعتنا له، لكنه لا يحاول لا أن يفرضها علينا بوسائل الطغيان، ولا أن يصانعنا من أجلها بواسطة الإخلاص.

وعلى هذا، لماذا احتملنا حكمه الكريه؟ لقد احتملناه، وليس ثمة شك في هذا، فقط بسبب نظرته.

عندما يدخل المرء مكتبه ـ وكان قبل قرن مضى، هو قاعة مجلس الشورى الخاص بآبائنا ـ يجده هناك، يجلس إلى مكتبه في ملابس رسمية والقلم في يده. هو لا يحفل بشيء يتخذ الطابع الاحتفالي، وأكثر من ذلك كثيرًا، عدم اهتمامه بالتمثيل، وهو لهذا لا يواصل الكتابة، كما قد يمكن أن يفعل، تاركًا الزائر ينتظر، بل يقطع عمله في الحال، ويضطجع إلى الخلف، وإن كان يحتفظ بالقلم في يده مع ذلك، وهكذا يحدق في الزائر، بينما هو مضطجع إلى الخلف، ويده اليسرى في جيب بنطلونه.

أما صاحب الالتماس، فيكون قد تولد لديه الانطباع بأن العقيد يرى أكثر من مجرد شخصه، ذلك أنه يرى ذلك الشخص المجهول الذي كان قد برز من وسط الحشد لبرهة قصيرة، وإلّا فلأي شيء آخر يتفحصه العقيد، تفحصًا بكل هذه الدقة، وكل هذا التمهل، وفي صمت؟ كما أنها ليست نظرة حادّة، تسبر الأغوار، ولا هي نظرة نافذة كتلك التي قد توجه إلى فرد محدد بذاته؛ وإنما هي نظرة فاترة هائمة، لكنها ثابتة، نظرة يمكن للمرء أن يلحظ بمثلها، على سبيل المثال، تحركات حشد على البعد. وهذه النظرة الممتدة مصحوبة دومًا بابتسامة لا سبيل إلى تحديدها؛ حينًا تبدو كأنها تهكم، وتبدو حينًا تذكرًا حالمًا.

* * *

في النُّزُل

لم يوجد قط في النزل أي نوم، ولم ينم هناك أحد. لكن إذا لم ينم أحـد، فلماذا يذهب المرء إلى هناك أصلًا؟ لكي يتاح لدواب الحمل قسط من الراحة. كان المكان مجرد ساحة ضيقة فحسب، واحة ضـئيلة المسـاحة لكن كان يشغلها النزل كلها، وكان هذا النزل بالتأكيـد فسـيحًا بلا حـد. كان من المستحيل لغريب، أو هكذا بدا لي على الأقل، أن يجـد طريقـه إلى هناك.

وكانت الطريقة التي بُنِيَ بها هي المسؤولة جزئيًّا عن ذلـك؛ فقـد مضـى المـرء، على سـبيل المثـال إلى الفنـاء الأول الـذي تفـرع منـه عقـدان مستديران، يبعـد أحـدهما عن الآخـر بحـوالي ثلاثين قـدمًا، يؤديـان إلى فناء ثانٍ، ويمر المرء من خلال أحد العقـدين؛ ثم بـدلًا من أن ينتهي إلى قاعة فسيحة أخرى، كمـا يكـون قـد توقـع، يجـد المـرء نفسـه في رحبـة صغيرة مظلمة مربعة بين جدران كانت عالية نحو السماء، وعلى ارتفـاع هائل فوق أحدها، كـان المـرء يـرى مقاصـير مشـتعلة الأضـواء. وهكـذا يكون المرء قد ظن الآن أنه قد ضل طريقـه، ويكـون قـد حـاول أن يعـود أدراجه من خلال العقد، لكن لم يكن المرء، قد مر، كما قد حـدث، من خلال العقد الذي كان قد جاء منه، بل من خلال العقد الآخـر المجـاور له. إلّا أن المرء لا يكون في نهاية الأمر قـد أصـبح الآن في الفنـاء الأول، بـل في فنــاء آخــر أكـثر اتسـاعًا على نحـو زائـد، يمتلئ بالصـخب والموسيقى، وخوار الحيوانات. ويكون على هذا قد ضل طريقه، فرجـع

ثانية إلى الرحبة المربعة المظلمة، وعبر من تحت العقد الأول. ليكون ذلك بلا فائدة، فمرة أخرى أصبح المرء في الفناء الثاني. وكان على المرء لهذا أن يسأل عن الطريق عبر عدد من الأفنية قبل أن ينتهي به ذلك إلى الرجوع إلى الفناء الأول، الذي كان المرء قد ابتعد عنه بالفعل، مع ذلك، ببضع خطوات قلائل فحسب.

أما ما كان لا يبعث الآن على السرور، فهو أن الفناء الأول كان دائمًا مزدحمًا، حتى ليندر أن يجد المرء لنفسه سكنًا فيه. كان قد بدا كما لو كانت كل الأركان في الفناء الأول قد شغلها على الأغلب ضيوف دائمون، إلا أن الأمر لم يكن كذلك في الواقع؛ ذلك أن القوافل وحدها هي التي كانت تتوقف هنا، فمن غيرها يمكن أن يكون قد رغب أو أن يكون قادرًا على أن يعيش في هذه القذارة، وهذا الضجيج، وعلاوة على هذا كله، لم تكن الواحة الصغيرة لتقدم شيئًا سوى الماء، وكانت تبعد بأميال عديدة عن الواحات الأكبر. وهكذا لم يكن هناك من يريد أن يسكن وأن يعيش هنا دائمًا، إلا إذا كان هذا الشخص هو صاحب النزل، ومستخدموه، إلّا أنني لم أرَ هؤلاء الناس، على الرغم من أنني كنت قد زرت النزل عدة مرات، كما أنني لم أسمع قط شيئًا عنهم. وقد كان يصعب عليَّ أن أتخيل أن مالكًا للنزل كان قد تواجد وسمح بمثل هذا الإخلال بالنظام، أو سمح، في الحقيقة، بمثل أفعال العنف تلك التي كانت مألوفة الوقوع هناك نهارًا وليلًا، بل على العكس، كان لديَّ الانطباع أنه مهما كان ما حدث، فإن أقوى القوافل كانت دائمًا هي التي سيطرت على كل شيء هناك، ثم يليها الآخرون، بترتيب تفاوتهم في

القوة. حقًّا، إن هذا لا يفسر كل شيء، فالبوابة الكبرى الرئيسة، مثلًا، كانت عادة مغلقة ومحجوزة بالقضبان، وأن تفتح للقوافل الآتية أو الراحلة كان دائمًا عملًا احتفاليًّا بالضرورة، وكان إتمام ذلك أمرًا غاية في التعقيد. وكان على القوافل أن تنتظر في الخارج تحت وهج أشعة الشمس المتأججة لساعات قبل أن يتاح لها الدخول. هذا بالفعل كان سلوكًا واضح الطيش، إلّا أنّ المرء لم يكن ليستطيع قط أن يكتشف سببًا له. وعلى هذا كان على المرء أن ينتظر في الخارج، وكان لديه الوقت لكي يتأمل الإطار المحيط بالبوابة القديمة؛ حول البوابة كان هناك صفان أو ثلاثة صفوف من الملائكة منقوشة بالنقش البارز ينفخون في الأبواق، وتمتد إحدى هذه الآلات عند قمة العقد مباشرة، في وضوح إلى أسفل امتدادًا يبلغ البوابة ذاتها. أما الدواب فكانت دائمًا في حرص حولها؛ وذلك حتى لا ترتطم بها. ولقد كان غريبًا، وخاصة بالنظر إلى الحالة الخربة للمبنى كله، أن يكون هذا العمل، بكل الجمال الذي تبدى به، لم ينله التخريب على الإطلاق، ولا حتى على أيدي هؤلاء الذين كانوا ينتظرون ذلك الانتظار الطويل في غضب عاجز خارج البوابة.

* * *

بناء مدينة

جاءني بعض الناس، وطلبوا مني أن أبني لهم مدينة. قلت إنهم قليلو العدد للغاية، وإنه سيكون هناك مكان يتسع لهم في منزل واحد. لم أكن أنوي أن أبني لهم أي مدينة. لكنهم قالوا إن هناك آخرين سيجيئون فيما بعد، وإن هناك فوق هذا، من بينهم من هم متزوجون، وينتظرون أطفالًا، وأنه لا حاجة تدعو إلى بناء المدينة كلها في الحال، بل أن يتم فحسب إرساء التخطيط الذي ستقوم عليه المدينة، ويتم تنفيذ الباقي شيئًا فشيئًا.

سألتهم، أين يريدون أن يتم بناء المدينة؟ فقالوا إنهم سيرشدونني إلى المكان في لحظة. ومضينا بطول النهر حتى بلغنا تلًّا عريضًا متوسط الارتفاع، شديد الانحدار في جانبه الذي يطل على النهر، لكنه ينحدر في رفق في الجانب الآخر. قالوا إنهم يريدون أن يتم بناء المدينة هناك في أعلى التل. لم يكن هناك سوى عشب ينمو في ذبول، ولم تكن توجد أشجار، وهو ما كان يروق لي، لكن الانحدار نحو النهر بدا لي شديدًا جدًّا، ولفتت انتباههم إلى ذلك. قالوا أيضًا إنه ليس ثمة ضرر في ذلك، وإن المدينة سوف تمتد في آخر الأمر على امتداد المنحدرات الأخرى، وستكون هناك وسائل أخرى كافية للوصول إلى الماء، وعلاوة على ذلك، ربما وجدت بمرور الوقت وسائل ما لمكافحة شدة انحدار الجرف، ولم يكن ذلك على أي حال، ليشكل أي عقبة أمام إنشاء مدينة في تلك البقعة. يضاف إلى ذلك، أنهم قالوا، إنهم كانوا صغار السن

وأقويـاء ويمكنهم بسـهولة أن يصـعدوا الجـرف، الـذي أعلنـوا أنهم سيشـيرون لي إليـه في الحـال. وقـد فعلـوا ذلـك، وانـدفعت أجسـامهم كأجسام السحالي إلى أعلى وسط الشقوق التي في الصخر، وسرعان مـا أصبحوا عند القمة. صعدت أنا أيضًا، وسألتهم، لمـاذا أرادوا للمدينـة أن تبنى هنا بالتحديد؟ إن المكان لم يتبدَ مكانًا مناسبًا فيما يتعلق بـأغراض الدفاع بصفة خاصة. كانت حمايته الطبيعيـة الوحيـدة في جانبه المطـل على النهر، وهنالك بالتحديد. فـوق ذلـك، لم تكن ثمـة ضـرورة تتطلب الحماية، بل على العكس، فلقد كان هنا هو المكان الذي يود المرء فيـه أن تتاح له سبل الانطلاق بسهولة وحرية، لكن كان بلـوغ الهضـبة سـهلًا من كـل الجـوانب الأخـرى، وكـانت لهـذا السـبب ـ وأيضًـا لامتـدادها الشاسع ـ هضبة يصعب الدفاع عنها. وبصرف النظر عن هذا، فلم يكن قد تم اختبار خصوبة الأرض هنـاك في أعلى الهضـبة. وأن تبقى المدينـة تعتمد على الأراضي المنخفضة، وتظل رهنًا لوسائل المواصـلات، لهـو أمـر كـان يعـد خطـرًا دائمًـا بالنسـبة لمدينـة. وخاصـة في أوقـات الاضطرابات. وبعد هذا لم يكن بعد قد تقرر ما إذا كانت هنـاك الكفايـة من مياه الشرب؟ إن النبع الصغير الـذي أطلعـوني عليـه، لم يبـدُ لي نبعًـا يمكن أن يكون كافيًا للاعتماد عليه.

قال أحدهم: «أنت متعب، إنك لا تريد أن تبني المدينة».

قلت، بعد أن جلسـت فـوق صـخرة كبـيرة بـالقرب من النبـع: «نعم، أنـا متعب».

بلّلوا قطعة من القماش بالماء ومسحوا بها فوق وجهي. شكرتهم، ثم قلت إنني أردت أن أسير حول الهضبة مرة بمفردي، وتركتهم، واستغرق ذلك وقتًا طويلًا، وعندما عدت كان الظلام قد حل، وكانوا جميعًا مستلقين حول النبع، نائمين، وكان مطر خفيف يتساقط.

في الصباح كررت سؤالي. لم يفهموا من فورهم كيف استطعت أن أكرر تساؤل المساء في الصباح. ثم قالوا مع ذلك، إنه ليس في وسعهم أن يقدموا لي الأسباب الصحيحة التي دعتهم إلى أن يختاروا هذا المكان، لكن كانت هناك تقاليد قديمة كانت قد أوصت بذلك المكان، وأن آباءهم الأولين كانوا قد أرادوا أن يبنوا المدينة هنا، لكن لبعض الأسباب التي لم تسجلها التقاليد بدقة هي أيضًا، لم يشرعوا في بناء المدينة في نهاية الأمر. ولم يكن أي وهم طائش إذَنْ هو الذي قادهم إلى هذا المكان، بل كانوا على العكس من ذلك، لا يهتمون كثيرًا بالمكان، وحتى الحجج المضادة التي كنت قد قدمتها، كانت قد جالت بفكرهم بالفعل فيما بينهم وبين أنفسهم، واعترفوا لأنفسهم بأنها حجج لا تدحض، لكنهم قالوا إنه كان هناك ما يدفعهم؛ كانت هناك تلك التقاليد، وأي فرد لم يقتف أثر التقاليد سوف يُباد.

وقالوا إنه لهذا السبب لم يكن في وسعهم أن يفهموا لماذا كنت مترددًا، ولماذا لم أبدأ حقًّا في البناء في اليوم السابق.

قررت أن أبتعد، وهبطت الجرف متجهًا إلى النهر، لكن واحدًا منهم كان قد استيقظ، وأيقظ الآخرين، ووقفوا الآن على حافة الجرف،

وكنت قد أصبحت في منتصف طريق هبوطي، فاحتجوا، ونادوني، لهذا استدرت إلى الخلف، وأعانوني على الصعود، وجذبوني إلى أعلى. ووعدتهم الآن بأنني سوف أبني المدينة، فامتنوا لذلك غاية الامتنان، وقاموا بإلقاء الخطب أمامي، وقبّلوني.

* * *

صمت الحوريات

برهان على أن الإجراءات القاصرة، والطفولية حتى، قد تفعل فعلها في إنقاذ المرء من الهلاك:

فلكي يحمي نفسه من الحوريات سدّ أوديسيوس أذنيه بالشمع وأوثق نفسه إلى صاري السفينة. كان أي وكل مبحر قبله، قادرًا بالطبع على أن يفعل نفس الشيء، فيما عدا هؤلاء الذين تغويهم الحوريات حتى وهم بعيدون عنهن بمسافة شاسعة، إلا أنه كان معلومًا للعالم كله، أن مثل هذه الأمور لم تكن لتفيد بأي حال. إن أغنية الحوريات كان يمكنها أن تخترق كل شيء، وكانت أمنية أولئك الذين أغوتهم الحوريات، في وسعها أن تحطم قيودًا أقوى كثيرًا من الأغلال وصواري السفن. لكن لم يفكر أوديسيوس في التمني، مع أنه ربما كان قد سمع به؛ فلقد وضع ثقته المطلقة كلها في حفنة الشمع التي لديه، وفي مدى لفّات قيوده، وفي زهو ساذج بخطته الدفاعية، أبحر لملاقاة الحوريات.

وتملك الحوريات الآن سلاحًا أشد مضاءً من أغنيتهن، وأعني به صمتهن. ومع أنه من المسلم به أنّ شيئًا من هذا القبيل لم يحدث قط، إلا أنه لا يزال معقولًا أن شخصًا ربما أمكنه أن يفلت من غنائهن، لكن لم يفلت أحد قط من صمتهن بالتأكيد. وأمام إحساس المرء بالانتصار عليهن بقوته الجسدية وحدها، وما يستتبعه ذلك من مديح، يطرح كل ما أمامه أرضًا، لم يكن باستطاعة أي قوة أرضية أن تبقى كما هي بكل عنفوانها.

وعندما اقترب أوديسيوس منهن، لم تغن المغنيات القادرات بالفعل، سواء لأنهن كن قد حسبن أن هذا العدو كان في إمكانهن أن يقهرنه، فقط بصمتهن، أو لأنّ مظهر الغبطة على وجه أوديسيوس الذي لم يكن في باله سوى حفنة الشمع وسوى قيوده، كان قد أنساهن الغناء.

لكن أوديسيوس، لو جاز للمرء التعبير بهذه الطريقة، لم يكن قد سمع صمتهن، كان قد ظن أنهن كن يغنين، وأنه وحده لم يكن قد سمعهن. كان، للحظة عابرة، قد رأى حناجرهن ترتفع وتهبط، وصدورهن تتعالى، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، وشفاههن قد انفرجت إلى حد ما، لكنه كان قد اعتقد بأن هذه جميعًا كانت حركات مصاحبة للأنغام التي تلاشت حوله دون أن تُسمع. وسرعان ما تلاشى ذلك كله عن ناظريه مع ذلك، عندما ركز تحديقه على البعد. كانت الحوريات قد اختفت في مواجهة عزمه، ولم يعد يعلم عنهن شيئًا في اللحظة التي كن فيها أقرب ما كن إليه. لكنهن —وقد تبدين أجمل مما تبدين في أي وقت آخر ـ كنّ قد مددن أعناقهن، واستدرن، وتركن شعورهن الباردة ترفرف منطلقة في الهواء، وأنشبن مخالبهن في الصخور، وقد نسين كل شيء. لم تكن قد تبقت لديهن أي رغبة في الإغواء، كل ما كن يردنه هو أن يمسكن بذلك الضياء الذي كان يهبط عليهن من عيني أوديسيوس الواسعتين لأطول وقت ممكن.

فلو كان لدى الحوريات وعي، لكانت قد تمت إبادتهن في تلك اللحظة. إلا أنهن بقين كما كن، كل ما حدث هو أن أوديسيوس كان قد أفلت منهن.

وقد وصل إلى أيدينا أيضًا تذييلًا على ما سبق. فلقد قيل إن أوديسيوس كان مغرقًا في دهائه، كان هو ذلك الثعلب الذي لم تستطع حتى الآلهة أن تخترق درعه.

ولعله كان قد لاحظ حقًّا، على الرغم من أن الإدراك البشري لا يكون هنا في غور أعماقه، أن الحوريات كن صامتات، وأنه كان قد وجه تصنعه السالف ذكره إليهن وإلى الآلهة، فحسب كدرع من نوع ما.

* * *

ديوجين

يمكن للمرء في حالتي، أن يتخيل ثلاث دوائر، دائرة داخلية قصوى (أ) ثم (ب) ثم (ج).

النواة (أ) تشرح ل (ب) لماذا يتعين على هذا الرجل أن يعذب نفسه ويسيء بها الظن؟ لماذا يجب عليه أن يتنازل؟ لماذا لا ينبغي له أن يعيش؟

(ألم يكن ديوجين مثلًا، مريضًا بهذا المعنى مرضًا عضالًا؟ من منا لم يكن ليشعر بالسعادة تحت نظرة الإسكندر المتألقة؟ لكن ديوجين ترجاه في هوس، أن يتحرك مبتعدًا، كي يخلي الطريق لضوء الشمس. كان ذلك البرميل ممتلئًا بالأشباح).

لم تقدم أي تفسيرات إلى (ج) الرجل الفعال، منزعجًا كان قد تلقى الأمر بذلك فقط بواسطة (ب)، إن (ج) يتعامل تحت أقصى الضغوط، لكنه يفعل بدافع من الخوف أكثر مما يتعامل بدافع من الفهم، إنه يثق، إنه يؤمن بأن (أ) يفسر كل شيء ل (ب)، وأن (ب) قد فهم كل شيء على الوجه الصحيح.

* * *

الزنزانة

صحت في دهشة: «كيف جئت إلى هنا؟».

كانت قاعة فسيحة إلى حد معقول، مضاءة بضوء كهربائي هادئ، وكنت أسير على امتدادها، ملتصقًا بالجدران. ومع أنه كان هناك عدة أبواب ـ لو فتحها المرء لوجد نفسه واقفًا فحسب أمام وجه صخري معتم، أملس، لا يكاد يبتعد عن العتبة سوى بعرض اليد، ويمتد رأسيًّا إلى أعلى، وأفقيًّا على كلا الجانبين، بلا أي نهاية فيما يبدو ـ لم يكن ثمة مخرج من هنا.. فقط كان ثمة باب واحد، كان يؤدي إلى حجرة ملاصقة، وكان المتوقع هناك أكثر إثارة للأمل، لكنه لا يقل في إثارته للرعب عن ذلك الذي يكمن خلف الأبواب الأخرى؛ ذلك أن المرء يتطلع من خلاله إلى جناح ملكي، كانت الألوان السائدة فيه هما اللونان الأحمر والذهبي، وكانت هناك عدة مرايا، ترتفع حتى تبلغ السقف، وشمعدان بلّوري ضخم. لكن لم يكن هذا هو كل شيء.

لم يكن عليَّ أن أعود ثانية من حيث أتيت، فالزنزانة تنفجر مفتوحة، أتحرك، وأتحسس جسدي.

اختراع الشيطان لو تملكنا الشيطان، فلا يمكن أن يكون شيطانًا واحدًا هو الذي تملكنا؛ ذلك أننا سيتعين علينا أن نعيش، على الأقل هنا على الأرض في هدوء كما كنا نعيش مع الرب في وحدة، بلا تناقضات، بلا تأملات دائمًا متأكدين من ذلك الذي وراءنا، لن يرعبنا وجهه، ذلك أننا كمخلوقات شيطانية سنكون —حتى لو كنا حساسين إلى حد ما بالنسبة

لمرآةـ بارعين بما يكفي كي نفضل التضحية بإحدى يدينا، لنخفي بها وجهه. لو كان قد تملكنا شيطان واحد فقط، شيطان لديه معرفة ثابتة، غير مضطربة بطبيعتنا كلها، وكانت لديه الحرية في أن يتخلص منا في أي لحظة؛ فإن هذا الشيطان ستكون له عندئذ قوة كافية لأن يرفعنا في قبضته طوال حياتنا البشرية عاليًا فوق روح الرب التي بداخلنا، ويطوح بنا أيضًا ـ ونحن في قبضته تلكـ إلى الأبد وإلى الخلف، وذلك حتى لا يتسنى لنا أن نلمح أي بصيص من تلك الروح، ولا نتعرض بهذا لأي انزعاج من تلك الناحية.

فقط حشد من الشياطين معًا هم الذين يمكنهم أن يكونوا علة لكل مصائبنا الأرضية. فلماذا لا يبيد أحدهم الآخر حتى يتبقى منهم شيطان واحد؟ لماذا لا يتبع كل شيطان من شياطين هذا الحشد كله شيطانًا عظيمًا واحدًا؟ على أن أي من هذين الطريقين إنما يتوافق مع المبدأ الشيطاني لتضليلنا على أكمل وجه ممكن.

وبافتقارهم إلى الاتحاد، ما هي فائدة ذلك الانتباه المدقق الذي تبديه الشياطين كلها تجاهنا؟ ولا حاجة إلى القول إن سقوط شعرة من رأس إنسان إنما تعني الكثير عند الشيطان، ولا تكاد تعني شيئًا عند الرب، بما أن الشيطان هو الذي يخسر تلك الشعرة في الحقيقة، ولا يخسر الرب شيئًا. لكن ما دام كان الكثير من الشياطين يتلبسوننا، فلن يعيننا ذلك على بلوغ أي حالة من حالات الخير.

* * *

المتوحشون

هــؤلاء المتوحشــون الــذين يُــروى عنهم أنهم لا أمنيــة لــديهم ســوى أن يموتوا، أو أنهم لم تعد لديهم هذه الأمنية حـتى، لكن المـوت هـو الـذي يتمناهم، وقد أسلموا أنفسهم لتلك الأمنية التي يتمناها المــوت، أو أنهم حــتى لم يستســلموا، لكنهم ســقطوا على الشــاطئ فــوق الرمــال، ولم ينهضوا —هـؤلاء المتوحشـون مـا أشـد شـبهي بهم، وإنـني ليحيطـني في الحقيقـة رجـال القبيلـة من كـل الجـوانب، إلا أن الاضـطراب في هـذه المناطق، اضطراب بالغ الشدة، والشغب كالأمواج يرتفع ويهبـط طـوال النهار وطوال الليل، ويترك الإخوة أنفسهم لتحملهم تلك الأمواج. إن ما يسمى في هذا البلد «مد يد المساعدة» إلى شخص ما، كل شخص هنـا هو على استعداد دائمًا لأن يمد هـذه اليـد. إن أي شـخص قـد ينهـار بلا سبب، ويبقى مطروحًا أرضًا، إنما يبعث الـرعب وكأنـه الشـيطان، وهـذا بسبب من القدوة، إنه بسبب نتن رائحة الحقيقة التي ستنبعث منه. فلـو فرضنا أن شيئًا لن يحدث، فإن شخصًـا، عشـرة أشـخاص، أُمَّة بأكملهـا قـد تبقى هي أيضًـا منطرحـة أرضًـا، ولن يحـدث شـيء، وسـوف تجـد الحياة طريقها بكل عنفوانها على أي حال. إن حجرات العلية عنـد قمم المنازل لا تزال مكتظة بالأعلام التي لم تنشر قط، وهذا الأرغن البرميلي لا يسعه أن يصدر سوى نغمة واحدة، لكنها الأبدية ذاتهـا هي الـتي تـدير مقبضه. ومـع ذلـك يبقى الخـوف! فـإلى أي مـدى يمضـي النـاس دائمًـا يحملون بداخلهم أعداءهم الشخصيين، مهما كان العدو أعزل ضعيفًا.

* * *

النسر

كان نسر ينهش في قدميّ، وكان قد مزّق بالفعل حذائي وجوربي مزقًا، وكان قد أصبح ينهش الآن في قدّميّ نفسيهما، كان ينقرهما المرّة بعد المرّة، ثم دار عدة دورات حولي في اضطراب، ثم عاد لكي يواصل عمله. ومرَّ أحد السادة وتطلع لفترة، ثم سألني لماذا تحملت ألم النسر؟ قلت: «لا حيلة لي، عندما جاء وبدأ يهاجمني، حاولت بالطبع أن أدفعه بعيدًا، وحاولت أن أخنقه بيدي، لكن هذه الحيوانات شديدة القوة، لقد كان على وشك أن يقفز إلى وجهي، لكنني فضلت أن أضحى بقدمي. والآن أصبحتا ممزقتين مزقًا».

قال السيد: «تصوّر أن تترك نفسك لتتعذب على هذا النحو! طلقة واحدة وستكون هي نهاية النسر».

قلت: «حقًّا؟ وهل تفعل أنت ذلك؟».

قال السيد: «بكل سرور، عليّ فقط أن أذهب إلى منزلي وأحضر بندقيتي. هل يمكنك الانتظار نصف ساعة أخرى؟».

قلت: «لست واثقًا من ذلك»، ووقفت للحظة جامدًا بفعل الألم قلت: «حاول ذلك على أي حال، من فضلك».

قال السيد: «طيب، سوف أكون مسرعًا بقدر ما أستطيع».

خلال هذه المحادثة كان النسر يتسمع في هدوء، تاركًا عينه تبتعد ذهابًا وجيئة بيني وبين السيد. والآن تحققت من أنه قد أدرك كل شيء،

فرفع جناحه ومال متراجعًا جدًّا إلى الخلف كي يكتسب قوة دافعة كأنه رامٍ لرمح، وشق منقاره عميقًا في فمي، عميقًا. وبينما كنت أتهاوى إلى الخلف، أفقت لأشعر به يغرق بلا رجعة في دمي الذي كان يميت كل عمق، ويفيض مغرقًا كل شاطئ.

* * *

الحيوان في المعبد

في معبدنا يعيش حيوان في حجم النمس، وباستطاعة المرء غالبًا أن يراه رؤية العين؛ لأنه يتيح للناس أن يقتربوا منه لمسافة مترين.

لونه أزرق مخضر حائل، لم يلمس أحد قط فروته حتى الآن، وعلى هذا فلا شيء يمكن أن يقال عنها، ويمكن للمرء على الأغلب أن يذهب إلى حد التأكيد بأن اللون الحقيقي لفرائه غير معروف، وربما كان اللون الذي يراه المرء، قد نتج فقط عن التراب والطين اللذين أطفئا لون فروته. وإن اللون حقًّا ليشبه لون طلاء المعبد من الداخل، وإن يكن فقط أفتح منه قليلًا. وبصرف النظر عن الجبن الذي يتصف به، فهو حيوان هادئ بصورة غير معتادة وذو عادات مستقرة، فلو لم يتعرض للإزعاج الزائد غالبًا، فإنه نادرًا ما كان ليتواجد في هذا المكان على الإطلاق؛ ذلك أن مأواه المفضل هو ذلك الحاجز المتشابك الذي يحجز قسم النساء.

وبمتعة بادية ينشب مخالبه في داخل عيون الشبك المشغول، متمددًا ومحدقًا بنظرته المطرقة إلى داخل القاعة الرئيسة، كان يبدو أن هذا الوضع الجريء يبعث فيه السرور، إلّا أن خادم المعبد كانت التعليمات قد وُجِّهت إليه بألا يتغاضى عن وجود الحيوان عند الحاجز الشبكي، لأنه سوف يعتاد على المكان، ولا يمكن السماح بذلك؛ بسبب النساء الخائفات من الحيوان. أما لماذا هن خائفات، فهو سبب ليس واضحًا.

حقًّا إنه للوهلة الأولى يبدو مخيفًا، وبصفة خاصة عنقه الطويل، ووجهه المثلث، وصفّ الأسنان العليا التي تبرز إلى الخارج بصورة تكاد تكون أفقية، وفوق الشفة العليا خط من الشعيرات الشاحبة الطويلة البادية الخشونة التي تمتد إلى أبعد حتى من الأسنان —كل هذا قد يكون مخيفًا، إلّا أن المرء لا يستغرقه الوقت طويلًا حتى يدرك إلى أي حد لا يبدو هذا الرعب الظاهري كله مؤذيًا. وفوق هذا، فإنه يبقى مبتعدًا عن البشر، إنه أكثر فزعًا من حيوان الغابة، ويبدو أنه لا يرتبط فحسب سوى بالمبنى، ولا شك أن سوء طالعه الخاص قد تمثل في كون هذا المبنى هو معبد يهودي، أي أنه مكان يكون ممتلئًا أحيانًا بالناس. فلو كان قد أمكن فحسب أن يتواصل المرء مع الحيوان، لأمكنه بالطبع، أن يعزِّيه بأن يخبره بأن شعب المعبد في مدينتنا الصغيرة هذه في الجبال يتضاءل عدده عامًا بعد عام، وأنه يواجه بالفعل صعوبة في توفير المال لصيانة المعبد.

وأنه ليس من المستحيل أن المعبد سيكون في الإمكان أن يتحول قبل وقت طويل إلى شونة للغلال، أو إلى شيء من هذا القبيل، وسيحصل عندئذ على السلام الذي يفتقده الآن بمرارة بالغة.

وللتأكيد، فإن النساء وحدهن هن الخائفات من الحيوان، فقد كفّ الرجال عن الاكتراث بأمره منذ وقت طويل، وهو ما بينه جيل للجيل الآخر، فلقد شوهد المرة بعد المرة، وبحلول ذلك الزمن لم يعد أي شخص يبدي اهتمامه بإلقاء نظره عليه، وحتى الأطفال، وإلى الآن وهم يرونه للمرة الأولى، لا يبدون أي دهشة. لقد أصبح هو ذلك الحيوان

الذي ينتمي إلى المعبد —فلماذا لا يكون للمعبد حيوان أليف خاص به لا يوجد في أي مكان آخر؟ فلو لم يكن الأمر يتعلق بالنساء، ما كان المرء ليعي الآن مطلقًا وجود الحيوان بسهولة. لكن حتى النساء لسن خائفات حقًّا من الحيوان، فسيكون الأمر بالغًا في الغرابة بالفعل إن واصل المرء خوفه من مثل ذلك الحيوان يومًا بعد يوم، لسنوات ولعقود من السنين. وعذرهن هو أن الحيوان عادة أكثر قربًا منهن عنه من الرجال، وهذا حق. إن الحيوان لا يجرؤ على أن يهبط إلى حيث يتواجد الرجال، فهو لم يُرَ بعد حتى الآن فوق الأرضية. فلو كان قد تم منعه من بلوغ الحاجز الشبكي لمقصورة النساء، فإنه يريد عندئذ على الأقل أن يكون على نفس الارتفاع فوق الحائط المقابل، فهناك وفوق إفريز ضيق للغاية لا يكاد يبلغ البوصتين اتساعًا، ويمتد حول ثلاثة من جوانب المعبد اليهودي، كان الحيوان معتادًا في أحيان على أن يمرق منطلقًا جيئة وذهابًا، لكن غالبًا ما يجلس في هدوء متكورًا فوق بقعة معينة في مواجهة النساء. ويكاد يكون من غير المفهوم كيف استطاع بمثل هذه السهولة أن يتحايل لاستخدام هذا الممر الضيق. ومما تجدر ملاحظته رؤية الطريقة التي يستدير بها هناك فوق هذا الإفريز المرتفع عندما يبلغ نهايته، ذلك أنه فوق هذا كله، حيوان عجوز جداًّ الآن، إلّا أنه لا يحجم عن الإتيان بقفزة بالغة الجرأة في الهواء، ولا هو حتى يفقد موقع قدمه قط، وبعد أن ينقلب في الهواء مستديرًا، يجري مرة أخرى مباشرة راجعًا من حيث جاء. بالطبع عندما شاهد المرء هذا مرات عديدة، كان المرء قد اكتفى برؤيته تلك له، ولم يعد ثمة ما يبرر أن يواصل المرء تطلعه

إليـه. كمـا أنـه لم يكن الخـوف، ولا الفضـول، هـو مـا يـدفع النسـاء إلى التململ، فلو كن ليصرفن انتباههن أكثر إلى صلواتهن، فربمـا أمكنهن أن ينسين كـل مـا يتعلـق بـالحيوان، إن النسـاء التقيـات كن ليفعلن هـذا لا شك، لو أن الأخريات، وهن الغالبيـة العظمى، تـركنهن وشـأنهن، إلّا أن هاته الأخريـات يحببن دائمًـا الانتبـاه إلى أنفسـهن؛ ويـوفر لهن الحيـوان ذريعة يرحبن بها. فلـو كن قـد اسـتطعن، ولـو كن قـد جـرؤن، لكُنّ منـذ زمن طويل قد أغوين الحيوان بأن يقترب منهن أكثر، عسـى أن يرتعـدن أكـثر من ذي قبـل. لكن لم يكن الحيـوان في الحقيقـة مشـوقًا قـط بـأن يقربهن، فهو ما دام تُرك لحاله، لا يلحظهن سوى ملاحظة قليلة للغايـة، بالضبط بقدر ملاحظته للرجال، وربما كان أكثر ما يروق له هو أن يبقى مختبئًا في مكمنه حيث يعيش في الفترات التي تفصـل بين أوقـات أداء الشعائر، وهو ما قد يبدو في وضوح، فجوة مـا في الجـدار لم نعـثر بعـد على مكانها. وإنه ليظهر فقط عندما يبـدأ أداء الصـلوات، عنـدما تفاجئـه الأصوات. فهل يريد أن يرى ما الذي حدث؟ هل يود أن يبقى متحفـزًا؟ هل يريد أن يكون في خارج مكمنه، متأهبًا للـرب؟ إنـه ليخـرج مرتعبًـا، وإنه ليقفز قفزاته في رعب، ولا يجرؤ على الانسحاب إلا عندما تشـرف الطقوس الدينية على نهايتهـا. وإنـه ليفضـل بـالطبع أن يكـون في مكانـه المرتفع لأنه يراه أكثر الأماكن أمنًا، ويرى أن أفضل الأمـاكن الـتي تـتيح لـه الانطلاق عـدوًا هي الحـاجز الشـبكي والإفريـز، إلا أنـه لا يبقى دومًـا هنالك، ففي أحيان أيضًـا مـا يهبـط قـدمًا نحـو الرجـال، فسـتارة تـابوت العهد تتدلى من قضيب لامع من النحاس الأصفر، ويبدو أن ذلـك كـان

يلفت انتباه الحيوان، فغالبًا ما يزحف نحوها، لكنه عندما يكون عندها فدائمًا ما يكون هادئًا، وحتى عندما يكون ملتصقًا تمامًا بالتابوت لا يمكن القول بأنه يسبب إزعاجًا ما، إنه يبدو محدقًا في حشد المصلين بعينيه اللامعتين اللتين لا تطرفان، واللتين ربما كانتا بلا جفون، لكنه بالتأكيد لا يكون عندئذ متطلعًا إلى أي شخص، إنه يكون حينئذ فحسب في مواجهة مع الأخطار، تلك الأخطار التي يحسها تتهدده.

وقد بدا في هذا المقام، حتى الآن على الأقل، أنه لا يزيد كثيرًا في الذكاء عن نسائنا، فأي أخطار تلك التي قد يخشاها، على أي حال؟

ومن ذا الذي يريد به أي ضرر؟ ألم يُترك تمامًا وشأنه لسنوات طويلة؟

إن الرجال لا يلقون بالًا لوجوده، وغالبية النساء قد يبتئسن لو قدر له أن يختفي. وبما أنه كان هو الحيوان الوحيد في المبنى، فلم يكن له أي عدو من أي نوع. هذا شيء كان عليه حقًّا أن يتداركه مع مرور السنوات. ومع أن الطقوس الدينية، بكل أصواتها، قد تكون مخيفة للحيوان للغاية، إلّا أنها طقوس تُكرر يوميًّا، على نحو أبسط، وعلى نطاق أعظم خلال الأعياد، بانتظام دائمًا، وبلا انقطاع قط، وهكذا فإن أكثر الحيوانات جزعًا، كان يمكنه إلى الآن أن يكون قد اعتاد عليها، وخاصة عندما يرى أن هذه ليست ضوضاء المطاردين له، لكنها بعض الضوضاء التي لا يمكنه أن يفهمها على الإطلاق، إلا أنه يوجد مع ذلك هذا الرعب. فهل هي ذكرى أزمان طويلة ماضية؟ أو هي النذر لأزمان قادمة؟

هل يعرف هذا الحيوان العجوز ربما أكثر مما تعرف الأجيال الثلاثة لهؤلاء الذين تجمعوا معًا في المعبد اليهودي؟

قبل سنوات طويلة مضت، هكذا قيل، كانت ثمة محاولات قد تمت بالفعل لطرد الحيوان، ومن الممكن بالطبع أن يكون ما قيل قد حدث حقًّا، إلّا أن ما يبدو أكثر احتمالًا هو أن هذه القصص كانت محض اختراعات.

وثمة شاهد بأنه في ذلك الوقت كان قد تم بحث مسألة ما إذا كان من الممكن التغاضي عن وجود مثل هذا الحيوان في بيت الرب، ومن وجهة نظر قانون الوصايا.

وكان قد تم استطلاع آراء أحبار عديدين مشهورين. وقد انقسمت الآراء، وكانت الأغلبية مع طرد الحيوان وإعادة تكريس بيت الرب. لكن كان من السهل أن تصدر مراسيم من على البعد، أما في الواقع فكان مستحيلًا ببساطة مجرد الإمساك بالحيوان، ومن ثم كان من المستحيل أيضًا طرده نهائيًّا إلى الخارج؛ ذلك أنه لو كان شخص ما قد استطاع فقط الإمساك به، ومن ثم أخذه بعيداً إلى مسافة نائية، فهل كان باستطاعته أن يكون قد حصل على شيء يقارب اليقين بتخلصه منه.

وكانت قد تمّت حقًّا محاولات قبل سنوات طويلة مضت، هكذا قيل، لطرد الحيوان. ويقول خادم المعبد اليهودي إنه يتذكر كيف كان جده، الذي هو أيضًا خادمًا للمعبد قد أحب سرد القصة. كان جده عندما كان صبيًّا صغيرًا قد استمع عديداً من المرات إلى حديث عن استحالة

التخلص من الحيوان، ولهذا فإنه وهو يتحرق شوقًا، ولأنه متسلق ممتاز قد تسلل إلى الداخل ذات صباح مشرق، عندما كان المعبد كله بكل أركانه وشقوقه معرضًا لضوء الشمس، ومعه حبل ومرجام، وعصا ذات مقبض معقوف.

* * *

الرسل

كانوا قد خُيِّروا بين أن يصبحوا ملوكًا، أو رسلًا للملوك. وعلى النحو الذي قد يتبعه الأطفال، كانوا قد أرادوا جميعًا أن يصبحوا رسلًا. وعلى هذا فهناك ـ فحسبـ رسل يهرعون في كل أنحاء العالم، يهتفون لبعضهم البعض —بما أنه لا يوجد ملوكـ برسائل كانت قد فقدت معناهاـ إنهم يودون أن يضعوا حدًّا لحياتهم البائسة هذه، إلّا أنهم لا يجرؤون على ذلك؛ لأنهم كانوا قد حلفوا أيّمان الخدمة.

* * *

لعبة صبر

كانت توجد ذات مرة «لعبة صبر» صينية، دمية بسيطة، رخيصة لا يزيد حجمها على حجم ساعة جيب، ولا تحتوي على أي نوع من أنواع الاختراع المدهشة. دمية محفورة في الخشب المسطح، المطلي باللون البني المائل إلى الحمرة، وكان بها ممرات زرقاء كالمتاهات تؤدي كلها إلى فجوة صغيرة، وكانت الكرة التي كانت زرقاء هي أيضًا، يتعين عليها أن تصل إلى أحد الممرات بواسطة إمالة الصندوق وهزه، ثم الوصول بها إلى الفجوة، وعندما تصل الكرة إلى الفجوة، تكون اللعبة قد انتهت. وإذا أراد المرء أن يبدأ اللعبة كلها من جديد، فإن عليه أولًا أن يهز الكرة ليخرجها من الفجوة. وكانت الدمية مغطاة كلها تمامًا بغطاء من الزجاج المتين المحدب، وكان في مقدور المرء أن يضع اللعبة في جيبه، ويحملها معه حيثما شاء، وفي أي مكان يوجد فيه، كان باستطاعة المرء أن يخرجها ويلعب بها.

فإذا لم تكن الكرة موجهة في حركتها، فهي تظل أغلب الوقت تتجول هنا وهناك، ويداها معقودتين خلف ظهرها فوق الهضبة، متجنبة الممرات. وقد لفت النظر أنها كانت مشغولة انشغالًا كافيًا تمامًا بالممرات في أثناء اللعبة، وأنه كان لها كل الحق في أن تسترد قوتها فوق السهل المكشوف عندما لا تكون هناك لعبة تقوم الدمية بأدائها. وأحيانًا قد تتطلع الكرة إلى الزجاج المحدب، لكن بدافع العادة فحسب ودون أي نية بالمرة لمحاولة اكتشاف أي شيء هناك في أعلى. إن لها

على عكس ذلك مشية واسعة الخطى، وتتظاهر بأنها لم تكن قد صُنعت للسير في هذه الممرات الضيقة. ولقد كان هذا صحيحًا في جانب منه، ذلك أن الممرات حقًّا لم تكن تكاد تحتويها، إلا أنه كان أيضًا غير صحيح؛ ذلك لأنها كانت في الحقيقة قد تم صنعها بعناية لكي تتفق تمامًا مع عرض الممرات، لكن الممرات بالتأكيد لم تكن قد قُصد بها أن تكون مريحة لها، وإلّا لما كانت قد أصبحت لعبة صبر على الإطلاق.

* * *

بروميثيوس

ثمة أساطير أربع تتعلق ببروميثيوس.

فلقد كان، تبعًا للأسطورة الأولى، موثوقًا إلى صخرة في القوقاز؛ لإفشائه أسرار الآلهة لبني الإنسان، وأرسلت الآلهة عقبانًا تنهش كبده، الذي كان يتجدد على الدوام.

وتبعًا للثانية، ضغط بروميثيوس نفسه، بدافع من الألم الذي يسببه نهش المناقير، عميقًا، عميقًا في داخل الصخرة، حتى أصبح هو والصخرة شيئًا واحدًا.

وتبعًا للثالثة، تم نسيان خيانته بمرور الآلاف من السنين. نسيت الآلهة، والعقبان نسيت، وهو نفسه نسي.

وتبعًا للرابعة، سئم كل امرئ ذلك الأمر الذي لا معنى له، سئمته الآلهة، وسئمته العقبان، واندمل الجرح في سأم، وبقيت هناك كتلة الصخر الغامضة التي لا تفسير لها —حاولت الأسطورة أن تفسر ما لا تفسير له. ولما كان ذلك الغموض قد صدر عن إحدى طبقات الحقيقة التحتية، فقد كان عليه لهذا أن ينتهي بدوره إلى ما لا تفسير له.

بناء المعبد خفّ كل شيء لمساعدته أثناء العمل في البناء. أحضر العمال الأجانب كتل الرخام مصقولة التشكيل، تتوافق كل كتلة في التركيب مع الأخرى وارتفعت الأحجار، واتخذت مواضعها تبعًا لتحركات القياس التي اتخذتها أصابعه. لم يحدث قط أن تواجد أي

مبنى بمثل السهولة التي خرج بها ذلك المعبد إلى الوجود —أو على الأصح، أن هذا المعبد قد خرج إلى حيز الوجود على النحو الذي ينبغي لمعبد أن يخرج به إلى الوجود. وحتى لا تنصبُّ عليه نقمة ما، أو أن يتدنس، أو يتحطم كلية، كانت أدوات تتميز في وضوح بحدتها الفائقة، قد تم استخدامها في خدش شخبطات خرقاء على كل حجر ـ من أي محجر جاءت هذه الأحجار؟ ـ بأيدي أطفال غير واعين، أو الأرجح تدوينات للبرابرة قاطني الجبل، وذلك كي تدوم أبدية تتجاوز وجود المعبد.

* * *

جبل سيناء

يتجول الكثيرون حول جبل سيناء، حـديثهم مشـوش، فهم إمـا يـثرثرون وإما يصيحون، أو يظلون صامتين. إلّا أن أحـدًا منهم لم يحضـر مباشـرة عبر طريـق عـريض، ممهـد حـديثًا، طريـق أملس يقـوم بـدوره في جعـل خطى المرء واسعة، وأكثر سرعة.

* * *

الأشدُّ شراهة

أشدُّ الناس شراهة هم بعض نُسّاك بعينهم، يقومون بإضراب الجوع في كل مجالات الحياة، ظانين أنهم بهذا سوف ينجزون تلقائيًّا ما يلي:

1ـ سيقول صوت ما: كفى، لقد جعتم بما فيه الكفاية، ولعلكم تأكلون الآن كما يأكل الآخرون، ولن يحسب ذلك عليكم على أنه أكل.

2ـ وسيقول الصوت نفسه في نفس الوقت: لقد جعتم طوال هذا الوقت كله تحت الإكراه، ومن الآن فصاعدًا، سوف تجوعون بابتهاج، وسيكون ذلك أحلى من الطعام (وفي الوقت نفسه، مع ذلك، سوف تأكلون بالفعل أيضًا).

3ـ وسيقول نفس الصوت في نفس الوقت: لقد هزمتم العالم، وأنا أعفيكم من ذلك، كما أعفيكم من الأكل، ومن الجوع (وفي نفس الوقت، مع ذلك، سوف تجوعون وتأكلون في وقت معًا).

ويجيء، بالإضافة إلى هذا أيضًا، صوت كان يتحدث إليهم بلا انقطاع طوال الوقت ليقول:

مع أنكم لم تجوعوا جوعًا كاملًا، فإن لديكم العزيمة الجيدة؛ وهي تكفي.

غايتي أصدرت أوامري بإحضار جوادي من الإسطبل إلى هنا. لم يفهمني الخادم. ذهبت بنفسي إلى الإسطبل، وأسرجت جوادي،

واعتليت صهوته. وعلى البعد سمعت نداء نفير. فسألته ماذا كان معنى ذلك؟ لم يكن يعرف شيئًا، ولم يكن قد سمع شيئًا.

وعند البوابة استوقفني، متسائلًا:

ـ «إلى أين تركب يا سيدي؟».

قلت: «لست أدري، فقط بعيدًا عن هنا، بعيدًا عن هنا، دائمًا بعيدًا عن هنا، فإن أفعل ذلك وحده فحسب، أكن قد بلغت غايتي».

تساءل: «وعلى هذا فأنت تعرف غايتك؟».

أجبت: «نعم، ألم أقل لك؟ (بعيدًا —عن ـ هنا)، هذه هي غايتي».

قال: «لكنك لم تتزوَّد بزاد لرحلتك».

قلت: «لا أحتاج لأي زاد، إن الرحلة بالغة الطول حتى إنني لا بد لي من الموت جوعًا إن لم أحصل على أي شيء، على الطريق، ولا يمكن لأي زاد أن ينقذني. ذلك أنها، لحسن الحظ، رحلة ممتدة حقًّا».

* * *

روبنسون كروزو

لو لم يكن روبنسون كروزو قد غادر مطلقًا أعالي، أو على نحو أكثر دقة، أكثر الأماكن في جزيرته وضوحًا للرؤية؛ لرغبته في الراحة، أو بسبب من الجبن، أو الخوف أو الجهل أو الشوق، لكان قد هلك في الحال، لكن ما دام أنه، دون أن يلقي أدنى انتباه للسفن المارة وأجهزة تليسكوباتها الضعيفة، قد شرع في استكشاف الجزيرة بأكملها، واستمتع بذلك الاكتشاف، فقد تمكن بهذا من أن يبقي على حياته، وأمكن العثور عليه في النهاية، وفوق كل شيء، من خلال سلسلة من المصادفات التي كانت بالطبع محتومة منطقيًّا.

* * *

النبع

هو عطشان، وتفصله عن أحد الينـابيع أجمـة فقـط من أعشـاب. إلّا أنـه منقسم على نفسه: يشرف أحد قسـميه على كـل شـيء ويـرى أنـه يقـف هنا، وأن النبع يتواجد تمامًا إلى جواره، لكن قسمًا آخـر لا يلحـظ شـيئًا، ولديه على الأغلب حدْس بأن القسم الأول يرى كل شيء. لكنه بمـا أنـه هو لا يلحظ شيئًا، فهو لا يستطيع أن يشرب.

* * *

حقيقة سانشوبانزا

شق سانشوبانزا طريقه على مر السنين، دون أي تفاخر منه بذلك، من خلال التهامه عددًا كبيرًا من روايات الفروسية والمغامرات في ساعات المساء والليل منحّيًا عن نفسه بها شيطانه ذاك الذي أطلق هو عليه فيما بعد اسم دون كيخوته. فإن كان شيطانه قد شرع في تلك الأثناء، بكامل حريته، في تحقيق أشد المآثر جنونًا، فهو لم يسبب بها ضررًا لأحد، مع ذلك، لافتقاده إلى الهدف المحدد مسبقًا، ذلك الهدف الذي كان لا بد له أن يكون هو سانشوبانزا نفسه.

وكرجل حر، كان سانشوبانزا قد تبع دون كيخوته فلسفيًّا، في غزواته، ربما بدافع من إحساسه بالمسؤولية، ولقد حصل منها على تسلية تثقيفية هائلة، لازمته إلى نهاية أيام حياته.

* * *

الحارس

عدوت مارًّا بالحارس الأوَّل، وكنت مرتعبًا عندئذ، فعـدت ثانيـة عـدْوًا، وقلت للحارس:

ـ «لقد عبرت هـذا المكـان عـدوًا، بينمـا كنت أنت تتطلـع إلى الطريـق الآخر». فتطلع الحارس أمامه محدقًا، ولم يقل شيئًا.

قلت: «أظن أنني لم يكن ينبغي علي حقًّا أن أفعل ذلك».

وبقي الحارس لا يقول شيئًا.

قلت: «هل يشير صمتك إلى التصريح لي بالمرور؟».

* * *

الفهود في المعبد

اقتحمت الفهود المعبد، وجرعت الثمالات التي في جرار القرابين، وتكرر هذا المرة بعد المرة، ليمكن في النهاية تقدير حساب ذلك مقدمًا، ويصبح هذا التقدير جزءًا من الشعائر.

* * *

الإسكندر الأكبر

معقول أنّ الإسكندر الأكبر، على الرغم من نجاحاته الحربية في أيامه المبكرة، وعلى الرغم من الجيش الممتاز الذي كان قد قام بتدريبه، وعلى الرغم من القوة التي أحسسها بداخله تدفعه لكي يغير العالم، ربما كان قد ظل واقفًا على شاطئ الدردنيل. فلم يعبره قط، لا بسبب من الخوف، ولا لنقص في العزيمة، ولا بسبب من ضعف الإرادة، بل لمجرد ثقل وزن جسمه.

* * *

الحوريات

هذه هي أصوات الليل المغوية، ولقد غنت الحوريات أيضًا على هذا النحو. وإن المرء ليظلمهن عندما يظن أنهن أردن أن يمارسن الإغواء، كُنَّ يعرفن أن لهن براثن، وأرحامًا عاقرة، وكُنّ لذلك قد رفعن أصواتهن نائحات، ولم تكن لهن حيلة، إن كان نواحهن قد تناهى إلى الأسماع عذبًا كل هذه العذوبة.

* * *

الإمبراطور

انتاب رجل ما شك في أن الإمبراطور قد انحدر عن الآلهة، ولقد أكد على أن الإمبراطور هو عاهلنا الأعلى بحق، وهو لم يتشكك في رسالة الإمبراطور المقدسة؛ فلقد كانت هذه الرسالة واضحة له، كان النسب الإلهي فقط هو ما تشكك في صحته. ولم يثر تشككه هذا بالطبع حركة زائدة، فعندما تقذف الأمواج بقطرة ماء إلى الأرض، فلا تأثير لهذا على تقلب البحر الأبدي، بل إنه يكون على العكس، إنما حدث بسبب من هذا التقلب.

* * *

التنين الأخضر

انفتح الباب، وكان ما دخل إلى الحجرة، سميناً غضًّا، جانباه منتفخان في تضخم، بلا أقدام، يدفع نفسه إلى الأمام على بطنه كله، هو التنين الأخضر. وبعد تبادل التحيات الرسمية، طلبت منه أن يدخل. وأسف على أنه لا يمكنه أن يفعل ذلك؛ لأنه كان بالغ الطول، وكان هذا يعني ضرورة أن يبقى الباب مفتوحًا، وهو ما كان يعد أمرًا أخرق على نحو ما.

ابتسم في شيء من الارتباك، وشيء من الخبث، وبدأ يقول:

«جئت وقد اجتذبتني إلى هنا أمنيتك، أدفع نفسي مباشرة من بعد قصي، وقد كشطت بطني الآن إلى حد مؤلم للغاية، غير أنني سعيد لأنني جئت. لقد جئت سعيداً، وسعيداً أهب نفسي لك».

* * *

النمر

كان قد أحضر نمر ذات مرات إلى مروِّض الوحوش المشهور بورسـون؛ لكي يبدي رأيه في إمكـان تـرويض الحيـوان، وتم دفـع القفص الصـغير الذي يحتوي الحيوان بداخله إلى داخل قفص الترويض، الذي كانت له أبعاد قاعـة من القاعـات العامـة، وقـد كـان في معسـكر ريفي كبير على مسافة بعيدة خارج المدينة. وتراجع المساعدون؛ كـان بورسـون يـرغب دائمًا في أن يكون بمفرده تمامًا مع حيوان ما عند مواجهته له لأول مرة. استلقى النمر هادئًا، وكان قد تمّ إطعامه للتو في سخاء.

تثـاءب قليلًا، وتفـرس ملـولًا في محيطـه الجديـد، واسـتغرق في النـوم فورًا.

* * *

عن الأمثولات

يتشكى الكثيرون من أن أقوال الحكماء هي دائمًا مجرد أمثولات وغير ما ذات نفع في الحياة اليومية، وهي الحياة الوحيدة التي نملكها. فعندما يقول الحكيم:

«امض قدمًا» لا يعني بهذا القول أن على المرء أن يعبر الطريق إلى مكان ما موجود حقًّا، وهو ما يسعى المرء أن يفعله على أي حال، لو كان ثمة ما يستحق الجهد، بل هو يعني بقوله ذلك مكانًا خرافيًّا ما، موقعه مجهولًا لنا، ولا يمكنه، علاوة على ذلك، أن يعينه لنا على نحو أكثر تحديدًا، ولا يسعه لهذا أن يقدم لنا العون في هذا الصدد مطلقًا.

لقد انبثقت كل هذه الأمثولات لتقول لنا فحسب إن كل ما لا يمكن إدراكه، لا يمكن إدراكه، وإننا لنعلم ذلك بالفعل.

إلا أن همومنا التي علينا أن نصارعها كل يوم.. شواغلنا هذه هي أمر آخر.

وفي هذا الشأن قال أحدهم ذات مرة: «لماذا هذا التقاعس؟ إنكم إن اتبعتم الأمثولات فحسب، لأصبحتم أنتم أنفسكم أمثولات، وبهذا تتخلصون من كل همومكم اليومية.

وقال آخر: أراهن على أن هذه أمثولة هي أيضًا.

فقال له الأول: لقد ربحت الرهان.

قال الآخر: لكنني، لسوء الحظ، قد ربحته فقط في أمثولة.

فأجابه الأول: «لا، بل ربحته في الواقع الفعلي؛ لأنك خسرت الأمثولة».

* * *

الاختبار

أنا خـادم، لكن لا يوجـد لي أي عمـل، إنـني جبان ولا أدفـع بنفسـي إلى المقدمة، إنـني حقًّا لا أدفـع بنفسـي للوقـوف في صـف الآخـرين، إلا أن هذا سبب واحد فقـط من أسباب كـوني عـاطلًا، ومن الممكن حـتى ألا يكـون لهـذا السـبب أي صـلة بكـوني عـاطلًا. وعلى كـل حـال، فالشـيء الأساسي هو أنني لم أُستدعَ لكي أقوم بالخدمة، لقد تم استدعاء آخرين، إلا أنهم لم يبذلوا جهدًا في المحاولة يفوق مـا بذلتـه، وربمـا لا يكونـون في الحقيقة قد أحسوا بالرغبة في أن يتم استدعاؤهم، بينما أحسست أنا بها، أحيانًا على الأقل قوية جدًّا.

وهكـذا أسـتلقي فـوق الـبرش، في قاعـة الخـدم، أحـدق في عـوارض السقف الخشبية، وأستغرق في النوم، وأستيقظ من نـومي لأسـتغرق من فوري ثانية في النوم، وأحيانًا مـا أذهب إلى الحانـة حيث يقـدمون البـيرة القوية، وكنت في أحيان أفرغ الكأس في تقزز على الأرض، لكنني كنت أشربها في أحيان أخرى. أحب الجلـوس هنـاك لأنـني من خلـف النافـذة الصغيرة المغلقة، من دون أي احتمال لاكتشاف أمري، كـان في وسـعي من خلالها أن أعـبر بنظـري إلى نوافـذ منزلنا؛ لا لأن المـرء يـري الكثير جدًّا هناك، فحسب معلوماتي كانت نوافذ الممرات فقط هي الـتي تطـل على الشـارع، وعلاوة على ذلـك، لم تكن تلـك تـؤدي إلى شـقق من يستخدمونني.

لكن من الممكن أيضًا أن أكون مخطئًا، فقد كان شخصًا ما، دون أن أبادره أنا بالسؤال، قد قال لي ذلك ذات مرة، وكان الانطباع العام لواجهة هذا المنزل يؤكد ذلك، فإن فتحها يتم بواسطة خادم قد ينحني على الدرابزين؛ لكي يتطلع إلى أسفل لبعض الوقت، ويترتب على هذا أن هذه ليست سوى ممرات لا يمكن أن يفاجئه فيها أحد، عندئذ وفي الحقيقة فإنني لست شخصيًّا على معرفة بهؤلاء الخدم، فهؤلاء الذين هم مستخدمون بصفة دائمة في الطابق الأعلى، ينامون في مكان آخر غير الحجرة التي أنام فيها.

ذات مرة عندما بلغت الحانة، كان أحد الزبائن يجلس في مكان مراقبتي، لم أجرؤ على التطلع إليه عن كثب، وكنت على وشك أن أستدير في مدخل الباب وأغادر المكان.. ومع ذلك ناداني الزبون، واتضح أنه كان خادمًا هو أيضًا كنت قد رأيته ذات مرة من قبل في مكان ما، لكن دون أن أتحدث إليه.

لماذا تريد أن تهرب؟ اجلس وتناول شرابًا! سوف أدفع لك! ولهذا جلست. سألني عن أشياء عدة، لكنني لم أستطع الإجابة حقًّا، لم أكن حتى قد فهمت أسئلته، لهذا قلت ربما كنت آسفًا الآن على أنك دعوتني، ولهذا فمن الأفضل أن أذهب. كنت على وشك أن أنهض من مكاني إلا أنه مد يده فوق المائدة وضغط علي كي أجلس.

قال: ابق؛ لقد كان هذا فحسب اختبارًا. إن من لا يجيب عن الأسئلة يكون قد اجتاز الاختبار.

* * *

أمريكا

الفصل الأول

العطشجي

عندما توقف كارل روسمان ـ وهو صبي بائس في السادسة عشرة حمله أبواه على الرحيل إلى أمريكا؛ لأنه استجاب لإغراء خادمة، فأنجبت منه طفلًا ـ على ظهر الباخرة التي كانت تدخل ببطء ميناء نيويورك، بدا له كما لو كانت أشعة الشمس قد أضاءت فجأة تمثال الحرية، وعلى هذا فقد رآه في ضوء جديد، مع أنه كان قد تطلع إليه قبل وقت طويل، كانت الذراع القابضة على السيف، قد ارتفعت وكأنها قد انفردت لتوها مرفوعة إلى أعلى، وكانت رياح الأعالي المنطلقة تهب حول التمثال.

قال في نفسه: «ما أشد ارتفاعه!».

بينما كان يقترب تدريجيًّا من الرصيف، يدفعه حشد الحمالين المتدافعين المتزايد؛ لأن فكرة مغادرة الباخرة لم تكن بعد قد طرأت على باله.

وصاح به شاب كان قد تعرف عليه خلال الرحلة وهو يمر به: «لا يبدو عليك الاهتمام كثيرًا بأمر الهبوط إلى الشاطئ، أليس كذلك؟» فأجابه

كارل ضاحكًا: «أوه، إنني على أتم الاستعداد لذلك»، ولما كان نشيطًا، ومنشرحًا، فقد رفع صندوقه إلى كتفه، لكن، بينما كانت عيناه تتعقبان ذلك الشخص، وهو يتدافع ليشق لنفسه طريقًا إلى الأمام وسط الآخرين ويطوح في خفة بعكاز في يده، تذكر في فزع أنه كان قد نسي مظلته أسفل، في قاع الباخرة، فأسرع يرجو ذلك الشخص الذي يعرفه، والذي لم يبد ارتياحًا في الحقيقة لتلبية رجائه بأن يسدي إليه جميلًا بالانتظار دقيقة إلى جوار الصندوق، ثم ألقى نظرة أخرى على الزحام لكي يحسب حساب العودة، وأسرع بالذهاب... وأسفل سطح الباخرة، وجد آسفًا، أن ثمة سقالة، كانت قد مهدت على عجل، للمرة الأولى طبقًا لمعلوماته، ربما للإسهام في هبوط ذلك الحشد الهائل من المسافرين إلى الشاطئ، وكان عليه أن يشق طريقه في جهد هابطًا الدرجات الحلزونية التي لا نهاية لها، وعبر ممرات لا حصر لمنعطفاتها، وعبر حجرة خالية بها مائدة كتابة عارية، ولما كان قد مر بهذا الطريق مرة فقط أو مرتين وسط حشود الآخرين في كلتا المرتين، شعر بضياعه تمامًا، وبالحيرة تستولي عليه، حينما لم يسعه التعرف على أحد، ولم يعد يسمع سوى وقع الأقدام المتتابعة التي لا تهدأ، وقع آلاف الأقدام فوقه، وآلاف الأقدام يأتيه وقعها من بعيد، ويصله كأنه الأنفاس الواهنة، ثم الخفقات الأخيرة للآلات التي كانت قد توقفت في النهاية، فراح بلا وعي يدق على باب صغير كان قد تصادف وقوفه أمامه في أثناء تجوله الذي طال في قاع الباخرة.

وأجابه صوت من الداخل قائلًا: «إنه ليس مغلقًا!»، ففتح كارل الباب في ارتياح. ووجه إليه الرجل الضخم الجثة، السؤال دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليه:

«لماذا كنت تطرق الباب كالمجنون؟» وخلال فتحة ما كان يتسرب ضوء النهار في خفوت، وكل ما كان قد تبقى بعد حاجة الأدوار العليا، كان غارقًا في ظلام تلك القمرة المتواضعة، حيث كان ثمة سرير سفري وخزانة ومقعد، والرجل، كانوا جميعًا قد تكوموا معًا، وكأنهم قد اختزنوا في هذا المكان. قال كارل: «لقد ضللت طريقي! لم ألاحظه في أثناء الرحلة، ثم إن هذه الباخرة ضخمة إلى حد مخيف!»، فأجابه الرجل قائلًا في شيء من الفخر:

ـ «نعم، إنك محق في هذا القول»، بينما كان يعبث طوال الوقت بقفل صندوق سفري صغير، راح يضغط عليه بكلتا راحتيه على أمل أن يسمع صوت انفتاح القفل، ثم استأنف حديثه قائلًا: «لماذا لا تدخل؟ إنك لا ترغب في الوقوف مكانك هكذا خارج الحجرة!».

فقال كارل: «ألا يزعجك وجودي؟».

ـ لماذا، كيف يمكنك أن تزعجني؟ فسأله كارل رغبةً في المزيد من الاطمئنان: «هل أنت ألماني؟» ذلك أنه كان قد سمع عن الكثير من المخاطر التي يتعرض لها الوافدون الجدد إلى أمريكا، وخاصة تلك المتاعب التي يسببها الأيرلنديون.. وأجابه الرجل قائلًا: «نعم، إنني

كـذلك!» وظـل كـارل واقفًـا في تـردد، ثم أمسـك الرجـل فجـأة مقبض الباب، ودفعه فانغلق في حركة خاطفة، دافعًا كارل إلى داخل القمرة.

قال: «إنني لا أحتمل النظرات التي يوجهها إليَّ الآخرون من الممر».. ثم عاد إلى مواصلة محاولاته لفتح الصندوق قائلًا: «إن النـاس لا يتوقفـون عن المـرور، والتحـديق في داخـل القمـرة، وهـذا أكـثر ممـا في مقـدور المرء أن يحتمله!» فأجابه كـارل قـائلًا: «ولكن الممـر قـد خلا تمامًـا».. كان يقف محصورًا بطريقة مرهقة خلف حافـة الفـراش، وقـال الرجـل: «نعم.. خلا الآن منهم!».. قـال كـارل في نفسـه: «لكن «الآن» هـو مـا نتحدث عنه! من الصعب الحديث مع هذا الرجل!».

قال له الرجل: «استلق فوق الفراش، ففيه متسـع لـك، بـدلًا من المكـان الضيق الذي تقف فيه!» زحف كارل إلى الفراش في جهد، وضحك في صوت مرتفع بعد محاولة القفز الأولى الفاشلة التي قـام بهـا للاسـتقرار فوق الفراش، ولكنـه مـا كـاد يصبح فوقـه حـتى صـاح: «يـا إلهي.. لقـد نسيت الصندوق تمامًا!».

ـ لماذا.. أين هو؟

ـ فوق.. على سطح الباخرة، يحرسه شـخص كنت قـد تعـرفت بـه، مـا هو اسمه يا تـرى مـرة أخـرى؟.. وأخـرج بطاقـة من بطاقـات الزيـارة من داخل جيب، كـانت أمـه قـد خاطتـه لـه في بطانـة معطفـه لينتفـع بـه في رحلته، «باتربوم، فرانز باتربوم!».

ـ ألا يمكنك أن تستغنى عن ذلك الصندوق؟

ـ لا.. بالطبع! ـ حسنًا، فلماذا إذن تركته في يدي غريب؟

ـ كنت قد نسيت مظلتي في أسفل الباخرة، فاندفعت مسرعًا لإحضارها ولم أرغب في سحب الصندوق معي.. ولقد ضللت طريقي فوق هذا كله! ـ هل أنت وحيد، بلا أي شخص ليرعى شئونك؟

ـ «نعم وحيد تمامًا!»، ولعلني أنضم إلى هذا الرجل، طرأت الفكرة فجأة على رأس كارل.

«أين عساني أن أعثر على صديق طيب؟».

ـ والآن فقد فقدت الصندوق أيضًا، ولا مجال لذكر المظلة! جلس الرجل أخيرًا فوق المقعد، وكانت مشكلة كارل قد جذبت اهتمامه في نهاية الأمر.

ـ ولكنني أعتقد أن صندوقي لا يمكن أن يكون قد فُقد! فأجابه الرجل قائلًا: «في إمكانك أن تعتقد ما شئت!»، وراح يحك في عنف، شعره القصير، الكثيف، الداكن، ثم استطرد: «على أن الأخلاق تختلف باختلاف كل ميناء جديد تدخله، ففي هامبورج قد يقوم باتربوم الذي ذكرته بحراسة صندوقك، بينما يبدو أنه هنا قد اختفى على الأغلب باختفاء الصندوق!».

ورد كارل قائلًا: «يجب عليّ إذن أن أعود إلى سطح الباخرة فورًا لأتحقق من الأمر!» ونهض، وهو يتطلع حوله ليبحث عن طريقه إلى خارج القمرة. وأجابه الرجل قائلًا وهو يدفعه بيده، بينما كانت يده

الأخرى على صندوقه، دفعة عنيفة، سقط بسببها كارل مستلقيًا مرة أخرى على الفراش: «يجب أن تبقى حيث أنت».

تساءل كارل في حنق قائلًا: «ولماذا أبقى؟».

وأجابه الرجل قائلًا: «لأنه لا حاجة بك إلى الذهاب، كما أنني سأنصرف أيضًا، ويمكننا أن نمضي معًا، إن الصندوق قد سُرق، وعلى هذا فلا حيلة لك الآن في استرداده، وربما يكون الرجل قد تركه حيث هو، وفي هذه الحالة، سنجده في مكانه بسهولة، عندما تفرغ الباخرة من المسافرين، وينطبق الأمر نفسه على مظلتك».

فسأله كارل في شك: «وهل تعرف طريقك بسهولة في ممرات الباخرة؟».

وبدت له فكرة احتمال العثور على حاجياته بسهولة في حالة فراغ الباخرة من ركابها، فكرة مقنعة، وإن يكن ثمة خداع لعله أن يكون خلف هذه الفكرة على نحو ما.

قال الرجل: «وكيف لا أعرف، إنني عطشجي!».

فصاح كارل في اغتباط:

ـ أنت عطشجي! كما لو كان ذلك الأمر قد فاق كل تصوراته، فنهض معتمداً على كوعه حتى يتمكن من تفحص الرجل أكثر عن قرب.

ـ كانت توجد ثمة نافذة صغيرة في مواجهة الحجرة التي كنت أنام فيها مع السلوفاك مباشرة، وكان في إمكاننا أن ننظر من خلالها إلى

غرفة الآلات.

فأجابه العطشجي قائلًا: «نعم.. ذلك هو المكان الذي كنت أعمل فيه».

وقال كارل متعقبًا تسلسل أفكاره: «كان لديّ دائمًا اهتمام بالآلات، وكان في مقدوري أن أصير مهندسًا ميكانيكيًّا في وقت من الأوقات، هذا أمر مؤكد.. فقط لو لم يكن عليّ أن أرحل إلى أمريكا».

ـ ولماذا كان يتحتم عليك أن ترحل إلى أمريكا؟ قال كارل: «آه.. هذه الحكاية!».. متخلصًا من المسألة كلها بطردها بيده..

تطلع إلى العطشجي بابتسامة كما لو كان يرجوه التجاوز عن امتناعه عن البوح.

قال العطشجي: «لا بد من سبب لذلك فيما أعتقد؟».

لم يكن من السهل الفصل فيما إذا كان العطشجي يشجع كارل بهذا القول على البوح، أو لا يشجعه.

قال كارل: «يمكنني أن أصبح وقَّادًا الآن أنا أيضًا، فيستوي عند والدي ووالدتي الحال الذي يؤول إليه أمري!».

قال العطشجي: «إن وظيفتي سوف تخلو».. ولكي يؤكد إدراكه لهذه الحقيقة، دس يديه في جيبيّ سرواله وطوح ساقيه في داخل سرواله الذي يكاد يشبه الجلد، ومددهما فوق الفراش، وكان على كارل أن يتزحزح أكثر ناحية الحائط.

ـ هل ستغادر الباخرة؟

ـ نعم.. لقد حصلنا اليوم على أجورنا.

ـ ولماذا تغادرها، ألا تحب هذا العمل؟

ـ أوه.. إن الأمور تجري على هواها، ولا يتوقف الأمر على حب المرء لعمله، أو عدم حبه له، إلا إنك محق تمامًا، فلست أحب هذا العمل، ولا أعتقد أنك تفكر جديًّا في العمل كوقَّاد، إلا إنها الآن الفرصة المناسبة لك، لو راق لك بالفعل أن تصبح وقَّادًا، ولهذا فإنني أنصحك ألا تفعل، فلو كنت ترغب في دراسة الميكانيكا في أوروبا، فلماذا لا تدرسها هنا؟ إن الجامعات الأمريكية أفضل كثيرًا من جامعات أوروبا! قال كارل: «يمكنني أن أفعل، لكنني لا أكاد أملك شيئًا من المال، لكي أفكر في الدراسة، ولقد قرأت عن شخص ما كان يعمل طوال النهار في باخرة، وكان يدرس في أثناء الليل، حتى صار طبيبًا، ثم محافظًا على ما أظن، إلا أن ذلك يحتاج إلى كثير من المثابرة، ألا يحتاج إلى المثابرة؟ وأخشى ألا يكون لديّ الاستعداد لتلك المثابرة خاصة إنني لم أكن تلميذًا مجدًّا، ولم أجد عناءً شديدًا في نفسي لانصرافي عن الدراسة، وربما كانت الدراسة هنا أكثر صعوبة.. فأنا لا يمكنني أن أتحدث الإنجليزية مطلقًا، ومهما كان الأمر، فالناس هنا متعصبون ضد الأجانب على ما أعتقد.

ـ «وعلى هذا فأنت قد جئت أيضًا على الرغم من هذا كله، هل الأمر كذلك؟ حسنًا إذن. أعتقد أن الأمر كذلك تمامًا، وأعتقد أنك الشخص الذي أبحث عنه، فانظر، إن هذه الباخرة التي نحن عليها الآن باخرة

ألمانية، وهي تابعة لخط «هامبورج ــ أمريكا» الملاحي، فلماذا لا يكـون طاقم البحارة جميعًا من الألمان، إنني أتوجه إليك بهذا السـؤال؟ ولمـاذا كان كبير المهندسين شخصًا من رومانيا، وهو رجل يـدعى شـوبال، من الصعب تصديق ذلك، كلب مصاب بالحصبة مثله يقودنا كالعبيد نحن الألمان الـذين نعمـل على بـاخرة ألمانيـة، لا ينبغي لـك أن تظن ــ وهنـا خانه صوته، فأشار بيديه ــ إنني أشكو لمجرد الرغبـة في الشـكوى، إنـني أعلم تمامًا أن لا نفوذ لك، وأنك لست سوى فتى بائسًا أنت نفسـك، إلا أن هذا الأمر أكثر مما يمكن احتماله!» وهوى بقبضـته عـدة مـرات على المائدة، وعينـاه لا ترتفعـان عنهـا، بينمـا كـان يمضـي في حديثـه قـائلًا: «لقد عملت فـوق العديـد من هـذه البـواخر»، وذكـر في الحـال عشـرين اسمًا، الواحد منها بعد الآخر كما لو كانت جميعًا اسمًا واحدًا، وقد أثار هذا ضيق كارل به للغاية.. «ولقد قمت بعملي على خير ما يـرام، عليهـا جميعًا، وكنت أتلقى المديح، وأحظى بتقـدير كـل قبطـان عملت تحت رئاسته، ولقد كنت أقضي بالفعل فوق أي باخرة شحن من تلك البواخر عددًا من السنوات ملتصقًا بالباخرة كأنني جزء منها، هذا ما فعلته!»، ثم نهض واقفًا على قدميه، كما لـو كـان قـد فـرغ من إنجـاز أهم عمـل في حياته ــ «وهنا فوق هذه «القصـعة» حيث تجـري جميـع الأعمـال طبقًـا لقاعـدة ثابتـة، ولا يضـطرك الأمـر مطلقًـا إلى اسـتخدام ذكائـك، هنـا لا يرضون عنه، أنا هنا شيء تحت أقدام شوبال، وأنـا هنـا مـتراخٍ يجب أن يُلقى به خارجًـا، ولا يحـق لـه أن يتقاضـى أجـره، هـل يمكنـك أن تفهم ذلك؟ إنني لا أفهمه؟».

قال كارل في تأثر: «ألا يمكنك أن تتحمل ذلك؟».. كان قد فقد تقريبًا كل إحساس بأنه مستلق في أعماق باخرة ما، ترسو إلى شاطئ قارة مجهولة، وكان يغلب عليه الشعور بأنه في منزله هنا، على فراش العطشجي، «ألم تتح لك فرصة الالتقاء بالقبطان في مكان ما من هذه الباخرة؟ ألم تطلب منه أن يتيح لك الحصول على حقك؟».

ـ «أوه!.. اخرج من هنا، هيا، انصرف إلى الخارج، لا أريد أن أراك هنا، إنك لا تحسن الاستماع إلى ما أقوله، ثم.. توجه إليّ النصيحة، كيف يمكنني الذهاب إلى القبطان؟!».

وجلس العطشجي ثانية في تثاقل، وأخفى وجهه بين راحتيه.

قال كارل لنفسه: «أليس في إمكاني أن أتقدم إليه بنصيحة أفضل من تلك؟».

ثم دار في رأسه أن أفضل ما يمكنه أن يفعل هو الذهاب للبحث عن صندوقه، بدلًا من تقديم النصيحة التي لا تقابل إلا على أنها غباء، قال له والده عندما أعطاه الصندوق، مازحًا: «كم من الوقت يمكنك أن تظل محتفظًا فيه بهذا الصندوق؟».. والآن ربما كان ذلك الصندوق العزيز قد فقد بالفعل، كان عزاؤه الوحيد الذي تبقى له هو أن أباه لم يكن يسعه أن يعلم بسهولة شيئًا عن حالته الراهنة، حتى لو حاول أن يتحرى عن ذلك. كل ما كان يمكن للبحارة أن يقولوه، لا شيء سوى أنه قد وصل بسلام إلى نيويورك، إلا أن كارل قد شعر بالأسف عندما فكر في أنه لم يكد يستعمل بالمرة، جميع الأشياء التي كان الصندوق يحتويها،

فلقد كان عليه، على سبيل المثال، أن يغير القميص الذي يرتديه بقميص نظيف آخر منذ مدة طويلة، ولكنه لم يفعل، وهكذا ذهب كل تدبيره عبثًا، ولم يحدث ذلك سوى الآن، في بداية عهده بالغربة، حيث كان من الضروري أن يظهر في ملابس نظيفة، كان مضطرًا إلى مواجهة الناس بالقميص القذر الذي يرتديه، إلا أن ضياع الصندوق لم يكن على هذه الدرجة من الخطورة، ذلك أن البدلة التي كان يرتديها كانت بالفعل أفضل كثيرًا من تلك التي كان الصندوق يحتويها، تلك البدلة التي كانت في واقع الأمر شيئًا ينفعه فقط في حالة الاضطرار، كانت أمه قد أصلحتها على عجل قبل أن يرحل مباشرة! ثم تذكر أن الصندوق كان يضم أيضًا قطعة سالامي «لحم حمير» من فيرونيز، كانت أمه قد زودته بها كأكلة شهية إضافية، لم يكن قد أكل منها سوى قطعة ضئيلة؛ لأنه كان قد فقد شهيته تمامًا طوال الرحلة، وكان الحساء الذي كانوا يقدمونه في الباخرة لركاب الدفة، يزيد على حاجته، لكنه كان يود الآن لو كان السالامي في متناول يده، إذن لأمكنه أن يهديه للعطشجي، ذلك لأن أمثال هؤلاء الناس يبهجهم أن يهديهم الآخرون شيئًا ما زهيدًا، كان كارل قد تعلم ذلك من والده الذي كان يدس السيجار في جيوب صغار الموظفين الرسميين الذين كان يتعامل معهم، فكان يكسبهم، بهذا تمامًا. كل ما كان كارل يملكه الآن ليهدي منه، لم يكن سوى نقوده، ولم يكن يرغب في أن يمسها في هذه الآونة بالذات، وخاصة بعد أن فقد صندوقه.. ثم تحولت أفكاره ثانية إلى الصندوق.. ولم يسعه أن يفهم لماذا كان حريصًا على مراقبته، مراقبة شديدة إلى ذلك الحد

طوال رحلته، حتى أنه لم يكن يهنأ بالنوم خوفًا عليه، كل هذا.. لكي يتركه يسرق منه في النهاية، بمثل هذه السهولة، وتذكر الليالي الخمس التي قضاها مركزًا عينيه المرتابتين على فتى سلوفاكي كان سريره يقع إلى اليسار، بعد سريرين، ذلك الفتى الذي كان يتحين الفرصة.. كان كارل واثقًا من ذلك، لكي يسطو على صندوقه، كان ذلك الفتى السلوفاكي ينتظر فقط حتى يغلب النوم كارل، فيستغرق فيه دقيقة واحدة؛ وذلك لكي يتمكن من تدبير أمر السطو على الصندوق، وإخفائه بعيدًا، بسحبه بعصا طويلة مدببة، كان دائمًا يلعب بها، أو يتمرن عليها طوال النهار، كانت البراءة تبدو في أثناء النهار واضحة غاية الوضوح على وجه ذلك السلوفاكي، ولكن ما يكاد الظلام يحل، حتى يكثر من النهوض في فراشه ليلقي نظرات مخبولة على صندوق كارل. لقد رأى كارل نظراته تلك في وضوح تام، ويذكر أنه بين الحين والآخر كان أحدهم يشعل شمعة صغيرة، مع أن ذلك كان ممنوعًا حسب لائحة نظام الباخرة، ومن ثم يحدق بقلق المهاجر في إحدى النشرات الغامضة الخاصة بواحدة من وكالات الهجرة، فلو كانت إحدى تلك الشموع مشتعلة بالقرب منه؛ لأمكن لكارل أن يغفو للحظات، لكن لو كانت تلك الشمعة المشتعلة بعيدة عنه، أو كان المكان مظلمًا تمامًا، كان عليه أن يحتفظ بعينيه مفتوحتين على اتساعهما. لقد أنهكه الجهد الذي كبده إياه هذا العبء، وربما كان ذلك كله قد ضاع الآن عبثًا، آه لو أتيح له مرة أخرى أن يلتقي بباتربوم ذاك! عندئذ، ارتفعت، على البعد، في الصمت المخيم على الباخرة أصوات طرقات قصيرة خافتة، شبيهة

بوقع أقدام الأطفال، وكانت تقترب ويزداد وقعها ارتفاعًا، حتى بدت أقرب ما تكون إلى وقع أقدام الرجال في أثناء سيرهم، رجال في طابور، وهو ما كانت تفرضه طبيعة الممر الضيق.. وصوت اصطدام سواعد، على ما يبدو، كان من الممكن سماعه أيضًا، فنهض كارل الذي كان على وشك أن يسترخي تمهيدًا للنوم متخلصًا من كل همومه التي تتصل بالصناديق، أو السلوفاك، ولكز العطشجي بكوعه لكي ينبهه، ذلك أن مقدمة الطابور كانت تبدو على وشك الوصول إلى باب القمرة:

قال العطشجي: «هذا هو طاقم الباخرة: لقد كانوا يلعبون هناك، أعلى الباخرة، ثم عادوا للتمام.. لقد خلت الباخرة الآن تمامًا، ويمكننا أن نذهب نحن أيضًا! هيا بنا!» وأخذ كارل من يده وانتزع في اللحظة الأخيرة صورة للعذراء موضوعة في إطار، من الحائط الذي يعلو الفراش، ودسها في جيب سترته، وأمسك صندوقه وغادر القمرة في صحبة كارل.

«إنني في طريقي الآن للإدارة؛ لكي أوضح لهم رأيي، لقد ذهب كل الركاب، ولا حاجة بي للتفكير فيما سوف أفعله»، ظل العطشجي يردد هذا القول، مضيفًا إليه بعض التعديلات في كل مرة، وبينما كان يسير في طريقه ركل أحد جوانب الممر بقدمه نحو فأر كان قد اعترض طريقه، لكنه لم يفلح إلا في أن يدفعه إلى الإسراع بالاختباء في داخل جحره، الذي كان قد بلغه في اللحظة المناسبة، كان بطيئًا في جميع أعماله، ومع أن ساقيه كانتا طويلتين، إلا أنهما كانتا ممتلئتين أيضًا للغاية.

واتخذا طريقهما عبر جانب من المطبخ حيث كانت بعض الفتيات اللاتي يرتدين مرايل بيضاء متسخة ـ كن قد لطخنها عمدًا ـ يغسلن أطباقًا في أحواض هائلة، ونادى العطشجي فتاة تدعى «لينا» وطوق خصرها بذراعه، ولما قاومت أحضانه في دلال، جرها معه جزءًا من الطريق قائلًا لها: «إنه يوم القبض، ألن تأتي معي؟»

فأجابته قائلة: «ولماذا أكلف نفسي مشقة الذهاب معك، يمكنك أن تحضر لي النقود هنا!» وعلى حين كانت تتلوى تحت ضغط ذراعه، ثم تنطلق مبتعدة على عجل، صاحت خلفه قائلة: «من أين التقطت هذا الصبي الجميل؟» لكنها لم تكن تنتظر منه جوابًا، وكان في وسعهما سماع ضحكات الفتيات الأخريات، اللائي كن قد توقفن جميعًا عن العمل.

وواصلا سيرهما حتى بلغا بابًا فوقه كورنيش صغير، يرتكز على أعمدة رفيعة مذهبة، منحوتة كلها على شكل جسم امرأة، كانت تبدو بمقارنتها إلى باقي أجزاء الباخرة، مفرطة في الفخامة، وأدرك كارل أنه لم يسبق له المرور بهذا الجزء من الباخرة، الذي ربما كان مخصصًا في أثناء الرحلة لركاب الدرجتين الأولى والثانية..

لكن الأبواب التي كانت تفصله عن بقية أجزاء الباخرة، كانت مفتوحة جميعًا الآن على مصاريعها؛ تمهيدًا لعمليات تنظيف الباخرة، حقًّا، لقد التقيا في طريقهما ببعض الرجال الذين يحملون المكانس فوق أكتافهم، وحيوا العطشجي، وكان كارل مندهشًا للحد الذي بلغه نظام

الباخرة، ولم يكن قد لمح، كراكب من ركاب المؤخرة، سوى القليل من مظاهر هذا النظام، وكانت تمتد بطول الممرات أسلاك التركيبات الكهربائية، وكان ثمة جرس صغيرة يسمع رنينه من حين لآخر..

قرع العطشجي الباب في احترام، وعندما صاح شخص ما قائلًا: «ادخل» طلب في وقاحة من كارل أن يدخل بإشارة من يده، فتقدم كارل إلى الداخل، ولكنه ظل واقفًا إلى جوار الباب. وكان منظر البحر يبدو من خلال النوافذ الثلاث التي كانت في الغرفة، فدق قلبه بصورة أسرع وهو يتطلع إلى حركة الأمواج المنعشة، وكأنه لم يكن يتطلع من قبل إلى البحر بلا انقطاع على مدى أيام خمسة بطولها. كانت البواخر الهائلة تقطع خط سير بعضها مع بعض، مستسلمة لهجمات الأمواج بالقدر الذي يسمح لها به ثقلها البالغ، ولو أن المرء ضَيَّقَ حدقتيّ عينيه لبدت له هذه البواخر وكأنها تترنح تحت ثقل وزنها. ومن صواريها كانت تتطاير رايات مستطيلة ضيقة، وكانت على الرغم من توترها بسبب سرعة طيرانها، ترفرف أحيانًا، وربما كان من الممكن سماع أصوات المدافع التي تنطلق فجأة دفعة واحدة من بعض البوارج الحربية.. وكانت تطلق للتحية، ومرت سفينة حربية من نوع ما، على مسافة غير بعيدة، وكانت فوهات مدافعها تتألق بتأثير انعكاسات ضوء الشمس التي تسقط فوق الصلب، وتبدو وكأنها مسنودة إلى الأمام بحركتها المطمئنة، المنسابة، مع أنها لم تكن تتحرك فوق أحد الصنادل، وكان من الممكن فقط رؤية مشهد عن بُعد للبواخر الأصغر حجمًا، وللقوارب، من مكان المرء عند الباب على الأقل، وهي تندفع

هناك في جماعات خلال المسافات التي تفصل بين البواخر الهائلة، وخلفها جميعًا كانت تقوم نيويورك، وناطحات سحابها تحدق في كارل بمئات الآلاف من عيونها، نعم، في هذا المكان كان في وسع المرء أن يدرك أين هو! كان ثلاثة من السادة يجلسون حول مائدة مستديرة، أحدهم كان ضابطًا من ضباط الباخرة، في زي البحرية الأزرق اللون، وكان الآخران اثنين من موظفي الميناء في زي أمريكي أسود.. وكانت فوق المائدة أكوام من مختلف أنواع الأوراق، انتهى الضابط أولًا من فحصها، وقلمه في يده، ملأ بها حافظتي أوراقهما، إلا عندما كان الأمر يلزمهم باتباع أسلوب أو آخر، من أساليب العرف الرسمي، الذي كان يمليه أحدهما على زميليه، وهو يصدر أصواتًا تشبه الفرقعة بأسنانه، طوال الوقت.

وإلى جوار النافذة الأولى كان يجلس شخص ضئيل الحجم إلى منضدة، وظهره للباب، كان منشغلًا بفحص بعض دفاتر الحسابات الضخمة التي كانت مصطفة فوق رف ضخم في مستوى رأسه، وإلى جواره كانت توجد خزانة حديدية مفتوحة، كانت تبدو للوهلة الأولى على الأقل خاوية. وكانت النافذة الثانية خالية، ويبدو من خلالها أكمل منظر للبحر، لكن بالقرب من النافذة الثالثة كان يقف سيدان يتحدثان في أصوات خافتة، كان أحدهما مستندًا إلى النافذة، وكان يرتدي زي الباخرة، ويعبث بمقبض سيفه، أما الرجل الذي كان الحديث موجهًا إليه، فكان يعطي وجهه للنافذة، ومن حين لآخر كانت تصدر حركة عن صف الزخرفة المفتوح فوق صدر محدثه. كان يرتدي الملابس

المدنية، ويحمل عصا رفيعة من أعواد البامبو، كانت تستند مع كلتا يديه على خاصرته، على الرغم من وقفته المفرودة، كأنه السيف.

لم يكن أمام كارل متسع من الوقت لتفحص هذا كله؛ ذلك لأن أحد المساعدين قد تقدم نحوهما في الحال ووجه السؤال للعطشجي، بنظرة بدت كما لو كانت تبين له، أنه ليس ثمة ما يبرر وجوده الآن هنا، فما الذي يريده، وأجاب العطشجي بأقصى ما يمكنه من الرقة التي تفوق الرقة التي وجه إليه بها السؤال، إنه يريد مخاطبة أمين حسابات الباخرة، فأشار المساعد بيده إشارة تفيد الرفض، لكنه مضى على أطراف أصابعه في الوقت نفسه، نحو الرجل الجالس إلى دفاتر الحسابات متفاديًا الاقتراب من المائدة المستديرة، بدورة طويلة حولها، وتجمد أمين الحسابات تمامًا ــ وقد بدا ذلك واضحًا ــ عند سماعه كلمات المساعد، لكنه دار في النهاية متجهًا نحو الرجل الذي يرغب في التحدث إليه ودفعه بعيدًا في عنف، وأقصى عنه المساعد أيضًا، حتى يخلص نفسه تمامًا من الإزعاج، فتحرك المساعد حينئذ بجانبه منسحبًا متجهًا ثانية نحو العطشجي، وقال في صوت لا يفتقر صاحبه إلى نصيبه هو أيضًا من الثقة بنفسه: انصرف من هنا فورًا.

عند هذا الرد، تحولت عينا العطشجي إلى كارل، كما لو كان كارل هو قلبه الذي يفضي إليه بأساه. ودون أن يتوقف كارل لحظة ليفكر فيما عساه أن يفعله دفع نفسه مباشرة عبر الحجرة، مصطدمًا بالفعل بأحد مقعدي الضابطين، بينما راح المساعد يطارده، ملوحًا بذراعيه المفرودتين كما لو كان يحاول الإمساك بحشرة.

إن كارل كان قد سبقه إلى بلوغ منضدة أمين حسابات الباخرة التي تشبث بها في عنف، استعدادًا لمحاولة المساعد أن يسحبه بعيدًا عنها.

واستيقظ انتباه كل من كانوا بالحجرة، بالطبع، في الحال، قفز الضابط الجالس إلى المائدة واقفًا على قدميه، وتطلع موظفا الميناء في هدوء، ولكن بانتباه، وتحرك السيدان اللذان يقفان أمام النافذة أكثر نحو بعضهما، أما المساعد الذي أدرك أنه لم يعد من شأنه الآن أن يتدخل، بعد أن انتبه رؤساؤه إلى الأمر، فقد تراجع إلى الخلف، وظل العطشجي منتظرًا عند الباب في توتر حتى تحين اللحظة التي يطلب فيها منه أن يتدخل، واستدار أمين حسابات الباخرة أخيرًا دورة كاملة في مقعده.

وانتزع كارل من داخل جيبه السري الذي لم يكن يحفل بأن يطلع عليه هؤلاء الناس، جواز سفره، الذي فتحه، ووضعه إلى المنضدة بدلًا من أية محاولة أخرى لتقديم نفسه، وبدا على أمين حسابات الباخرة، كما لو كان يظن أن جواز السفر غير صحيح؛ ذلك لأنه قد دفعه جانبًا، فتناوله كارل عندئذ ودسه في داخل جيبه، كما لو كانت هذه الخطوة الأولى من الشكليات قد انتهت على ما يرام.

ثم شرع يقول: «هل تسمح لي بأن أقول، إنه في رأيي قد حاق الظلم بصديقي العطشجي. ها هو شخص محدد استبد به شوبال في هذه الباخرة! إن له سجلًا حافلًا بالخدمة المرضية، على عديد من البواخر، في إمكانه أن يسرد أسماءها على مسامعك.. إنه مثابر، شغوف بعمله، وأنه لمن الصعب حقيقة أن يرى المرء لماذا على هذه الباخرة بالذات

حيث لا يتطلب العمل جهداً شاقًّا كما هو في سفن الشحن مثلًا، لا يلقى هذا الشخص سوى هذا الحظ القليل من الاهتمام.. لا بد أنه محض افتراء ذلك السبب الذي ينتهي به إلى تلك الحالة البائسة ويسلبه الاعتراف بالفضل الذي هو أهل له دون شك. لقد التزمت، كما يمكنك أن ترى ذلك بنفسك، بالاهتمام بالأمور العامة، وفي وسعه أن يعرض عليك شكواه الصريحة بنفسه.

بهذا القول كان كارل قد خاطب السادة الحاضرين جميعًا، ذلك لأنهم في الحقيقة، كانوا يستمعون إليه، ولأنه يبدو، بعد هذا، أنه بين كل هؤلاء على الأقل لابد من وجود شخص واحد عادل، وفيما عدا ذلك الشخص الوحيد العادل، يجب على أمين حسابات الباخرة أن يكون عادلًا أيضًا، وأخفى كارل أيضًا في مراوغة حقيقة أنه لم يتعرف على العطشجي إلا منذ تلك الفترة القصيرة فحسب، لكن كان في مقدوره أن يلقي خطبة أفضل بكثير من خطبته تلك التي ألقاها، لو لم يتشبث ذهنه بمواجهة ذلك الوجه الأحمر، وجه الرجل الذي كان يمسك بالعصا البامبو، والذي كان قد أصبح الآن في مجال رؤيته للمرة الأولى.

كان هذا صحيحًا، كل كلمة مما قيل! صرح العطشجي بذلك، حتى قبل أن يسأله أي شخص عن رأيه، ودون أن ينظر في الحقيقة أي شخص إليه. ربما كان ذلك الحماس الزائد الذي أبداه، خطأ شنيعًا لو أن الرجل ذا الزخارف التي تنتشر على صدر ردائه، كما بدا الآن على أنه القبطان بالطبع، لم يكن قد وطّن عزمه نهائيًا، على الاستماع إلى حقيقة الأمر. ذلك أنه فرد ذراعه، وصاح في العطشجي: «تعال هنا» في صوت

قاس كالصخرة. فأصبح كل شيء يعتمد الآن على سلوك العطشجي.. أما عن عدالة قضيته، فلم يكن ثمة ظل من الشك يساور كارل في ذلك بحال من الأحوال.

وظهر لحسن الحظ في هذه اللحظة أن العطشجي كان رجلًا متمرسًا بخبرة لا حد لها.

ففي هدوء يعد مثلًا لرباطة الجأش سحب من داخل صندوقه، في محاولته الأولى لفتحه، حزمة صغيرة من الأوراق، ومذكرة، وتقدم بهما نحو القبطان، كما لو كان ذلك أمرًا متوقعًا.. متجاهلًا أمين حسابات الباخرة تمامًا، ونشر مستنداته تلك على إفريز النافذة. لم يكن يوجد أمام أمين حسابات الباخرة ما يفعله، فلم يجد بدًّا من أن يتقدم هو أيضًا إلى الأمام وقال مفسرًا: «إن هذا الرجل جعجاع خبيث! إنه يقضي في حجرة صرف الأجور، وقتًا أطول من الوقت الذي يقضيه في غرفة الآلات. لقد دفع هذا الشخص شوبال الهادئ إلى اليأس المطبق، استمع إليّ»، وهنا استدار إلى العطشجي: «إنك متشبث إلى حد فظيع بدفع نفسك إلى الأمام. كم مرة من المرات طردت حتى الآن من حجرة صرف الأجور؟ واعترف أيضًا بوقاحتك في طلب أشياء لا حق لك في المطالبة بها حال من الأحوال؟ كم من المرات اندفعت مهرولًا من حجرة صرف الأجور إلى مكتب أمين حسابات الباخرة؟ وكم من المرات قام الآخرون في صبر بتوضيح حقيقة أن شوبال هو رئيسك المباشر، وأنه هو الشخص الذي يتعين عليك أن تتعامل معه وحده؟ والآن جئت أيضًا إلى هنا، بينما القبطان حاضر هنا بنفسه، لتزعجه،

بوقاحتك، وكأن ذلك كله لم يكن كافيًا، حتى تصطحب معك «لسان حال» ليشرح في طلاقة تلك التظلمات الملفقة التي لقنتها له، صبي لم يسبق لي أن رأيته على هذه الباخرة من قبل مطلقًا!».

وتمالك كارل نفسه بقوة حتى لا يقفز مندفعًا إلى الأمام.

إلا أن القبطان كان قد اشترك لحظتها في الحديث بهذه الملاحظة: «من الأفضل أن نستمع إلى ما ينبغي على الرجل أن يواجه به نفسه! إن شوبال قد أصبح في هذه الأيام، أضخم، إلى حد بعيد، بالنسبة لفردتي حذائه! إلا أن هذا لا يعني أن أعتقد أنك محق» كانت الكلمات الأخيرة موجهة إلى العطشجي، كان طبيعيًّا ألا يشترك القبطان في المناقشة منذ البداية، إلا أن كل شيء بدا وكأنه كان يسير في طريقه الصحيح. وبدأ العطشجي في تقرير حالته، وتمالك نفسه منذ البداية حتى أنه كان يطلق على شوبال «مستر شوبال» وشعر كارل بالرضا الزائد، بينما كان يقف بجوار منضدة أمين حسابات الباخرة الخاوية، حتى أنه في غمرة اغتباطه راح يضغط على فتاحة الخطابات إلى أسفل بإصبعه! لم يكن مستر شوبال عادلًا! مستر شوبال يفضل الأجانب! أمر مستر شوبال العطشجي بمغادرة حجرة الآلات، وأرغمه على تنظيف دورات المياه، وهي مهمة ليست من اختصاص العطشجي مطلقًا! وفي إحدى المرات كانت كفاءة «مستر شوبال» هي أيضًا موضوعًا للتساؤل لأنه يبدو في صورة لا تتطابق مع حقيقة أمره. وعند هذا الحد ركز كارل نظراته على القبطان، وحدّق فيه في تبجيل رصين، كما لو كانا زميلين؛ حتى يمنعه من التحيز ضد العطشجي بسبب غلظة أسلوب الرجل في التعبير عن

متاعبه. كما أنه لم يبد كذلك أن شيئًا محددًا قد تمخض عنه تدفق العطشجي في الإيضاح.

ومع أن القبطان ظل مستمرًا في الإنصات، وهو مستغرق في أفكاره، إلا أن عينيه كانتا تنمان عن قراره بالاستماع إلى العطشجي هذه المرة إلى النهاية، وفقد باقي السادة صبرهم، ولم يلبث صوت العطشجي أن غطى الحجرة، فكان ذلك علامة تنذر بالسوء. وكان السيد الذي يرتدي الملابس المدنية، هو أول من أفصح عن نفاد صبره عندما راح يعبث بعصا البامبو، ويقرع بها ــ ولو في رقة ــ أرضية الحجرة.

وظل الآخرون يحدقون إلى أعلى من حين لآخر، لكن موظفيّ الميناء، اللذين كانا يبدو عليهما الضيق لضياع وقتهما، اختطفا أوراقهما ثانية، وشرعا ــ ولو في شرود إلى حد ما ــ في تفحصها، أما ضابط الباخرة فقد استدار إلى منضدته، وصعد أمين حسابات الباخرة الذي ظن الآن أنه قد انتصر اليوم، تنهيدة مفعمة بالاستهزاء.

ومن التشتت العام للاهتمام، بدا أن المساعد كان هو الشخص الوحيد المحتفظ بصفائه، على نقيضهم جميعًا، وهو الوحيد الذي تعاطف إلى حد ما مع ذلك الرجل البائس الذي لاقى الكثير، وأومأ مطرقًا في أسى نحو كارل، كما لو كان يحاول تفسير أمر ما.

بينما، كانت الحياة في الميناء خارج النوافذ تمضي في طريقها، كان صندل للشحن محملًا بجبل من البراميل، التي لا بد كانت قد ربطت بصورة مثيرة للدهشة، طالما أنها لم تتدحرج، كان ذلك الصندل يمضي

مبتعدًا، حاجبًا ضوء النهار تمامًا، وقوارب بخارية صغيرة، تمنى كارل لو أتيح له أن يتفحصها في دقة، لو سمح له الوقت بذلك، كانت تنطلق مبتعدة كالقذيفة، لأقل حركة تبدر من الرجل الواقف أمام العجلة. وهنا وهناك أشياء غريبة تهتز في حرية مع حركة المياه التي لا تستقر.. أشياء كانت قد غاصت ثانية على الفور، وغمرتها المياه أمام عينيه المدهوشتين، وقوارب تابعة لخطوط عابرات المحيط كانت تجدف مبتعدة ببحارتها الذين يتصببون عرقًا، وكانت تمتلئ بالركاب الذين يجلسون في صمت وترقب، كما لو كانوا مرصوصين هنالك. غير أن بعضهم لم يكونوا يتوقفون عن تحريك رؤوسهم للتحديق في المشهد المتغير، حركة بلا نهاية، تنتقل من المعدن الذي لا يكل إلى الآدميين البؤساء، ومشاغلهم.

إلا أن كل شيء كان يتطلب السرعة، والوضوح، والتقرير الدقيق، وما الذي كان العطشجي يفعله؟ لا شك أنه كان مستمرًا في حديثه، حتى لقد تصبب عرقًا، وكانت يداه ترتعشان بشدة، حتى لم يعد في استطاعته أن يمسك بالأوراق التي كان قد وضعها على حافة النافذة. ومن كل النقاط الفرعية كانت تنصب التظلمات التي تتناول شوبال. كانت تبدو كل منها في ذاكرته كافية لإجبار شوبال على التسليم باستبداده وظلمه، إلا أن كل ما كان العطشجي قد تمكن من تقديمه إلى القبطان، لم يكن سوى خليط تعس، كان كل شيء يحتشد فيه في وقت معًا، وبلا مبرر.. وظل الرجل الذي يمسك بالعصا المصنوعة من البامبو، فترة طويلة محدقًا في السقف بينما يصفر لنفسه، واحتجز

موظفا الميناء، ضابط الباخرة على مائدتهما، ولم يبد عليهما ما يدل على استعدادهما للسماح له مرة أخرى بالابتعاد. وكان أمين حسابات الباخرة قد كَبَتَ رغبته في الصياح فقط نظرًا لهدوء القبطان، ووقف المساعد وقفة انتباه، منتظرًا في كل لحظة أن يصدر القبطان أمرًا يتعلق بالعطشجي.

عند هذا الحد لم يتمكن كارل من أن يظل ساكنًا، ولهذا فقد تقدم متباطئًا نحو الجمع، وفي رأسه تجري منطلقة في سرعة، كل الوسائل التي يمكنه بها أن يقبض في براعة على زمام الأمر.

كانت اللحظة، لحظة حرجة دون شك، وكانت قد طالت بعض الشيء وربما طُرد كلاهما فعلًا خارج المكتب، وربما كان القبطان رجلًا طيبًا، وربما كانت لديه أيضًا ـ أو هكذا بدا الأمر لكارل ـ بعض الأسباب الخاصة التي تدفعه في تلك اللحظة إلى التظاهر بأنه سيد عادل، لكنه قبل كل شيء قبطان لا مجرد أداة يلعب بها المرء في طيش، ولقد كان هذا بالضبط هو النحو الذي كان العطشجي يعامله على أساسه، في غمرة السخط الذي أفعم به قلبه.

لهذا قال كارل للعطشجي: «يجب عليك أن تعرض الأمور على نحو أكثر بساطة، وأكثر وضوحًا، إن القبطان لا يمكنه أن يتخذ قرارًا عادلًا بناء على ما تلقيه عليه.

كيف يتسنى له أن يعرف كل الميكانيكيين، وصبيان الباخرة بأسمائهم، فضلًا عن أن يعرفهم بأسمائهم الأولى؟ حتى تنتظر منه عندما تذكر له

هـــذا وذاك، أن يـــدرك على الفـــور من هم الـــذين تقصـــدهم؟ رتب تظلماتـك، واذكـر أهمهـا أولًا، ثم بعـد ذلـك الـتي تليهـا في الأهميـة، ولعلك ترى أنه من غير الضروري حتى أن تذكر معظمها.

لقد سبق أن شرحتها لي دائمًا على نحو أكثر وضوحًا!» وفكـر قـائلًا في نفسه، على سبيل التبرير، إذا أمكن سرقة الصناديق في أمريكا، فلا شـك أن المرء يسعه أن يلقي بكذبة، من حين لآخر، بدوره هو أيضًا.

لكن هل كانت ثمة فائدة قد أسفرت عنهـا نصـيحته؟ لعلهـا لم تكن قـد جـاءت بالفعـل متـأخرة كثيرًا عن وقتهـا. لقـد توقـف العطشـجي عن الكلام فورًا، عندما استمع إلى الصـوت الـذي يألفـه، إلا أن عينيـه كانتـا ممتلئتين بالـدموع.. دمـوع كرامتـه المطعونـة، ودمـوع الـذكرى، وحـزن الحاضر البالغ، حـتى أنـه قـد تمكن بصعوبة من أن يتعـرف على كـارل، فكيف يمكنه عند هذا الحـدـ تحقـق كـارل من هـذا في صـمت، وهـو يواجه العطشجي الصامت أخيرًاـ أن يغـير فجـأة أسـلوبه في الحـديث، عندما بدا واضحًا له، وقد قال كل ما يمكنـه قولـه، دون أن يسـتثير أدنى بادرة عطف، وأنه لم يكن في الوقت نفسه قـد قـال شـيئًا على الإطلاق، ولا يسعه أن يتوقـع من هـؤلاء السـادة أن يستمعوا مـرة أخـرى إلى كـل ذلك اللغـو، وفي مثـل هـذه اللحظـة كـان على كـارل نصيره الوحيـد أن يقطع استرسال حريته بتلك النصيحة الطيبـة المزعومـة، الـتي أوضـحت أن كل شيء قد ضاع.. كل شيء.

قال كارل لنفسه: «لو أنني كنت قد تكلمت قبل ذلك بدلًا من التطلع عبر النافذة!» خافضًا عينيه أمام العطشجي، ومدليًا ذراعيه إلى جانبيه كدليل على أن كل أمل قد انتهى.

إلا أن العطشجي أخطأ فهم هذه الحركة، شاعرًا بلا شك أن كارل كان يضمر له نوعًا من اللوم، وفي رغبة صادقة في إيضاح الحقيقة، كلل العطشجي كل أخطائه الأخرى بالشروع في مشاجرة مع كارل، لحظتها عندما كان الرجال المجتمعون حول المائدة المستديرة قد بلغ بهم السخط مداه، على تلك الثرثرة الفارغة التي كانت تعطل أعمالهم المهمة، وعندما كان أمين حسابات الباخرة قد أخذ يتبين شيئًا فشيئًا أن صبر القبطان، قد أصبح أمرًا لا يمكن فهمه، وعندما كان على وشك الانفجار، وعندما كان المساعد قد تحول مرة أخرى بصورة نهائية إلى صف سادته، وراح يقيس العطشجي بنظرات وحشية، وعندما كان الرجل الذي يمسك بالعصا المصنوعة من البامبو، أخيرًا، ذلك الرجل الذي كان القبطان يرمقه بين الحين والآخر بنظرات ودية، قد ضاق تمامًا بوجود العطشجي، بل أصيب في الحقيقة بالقرف منه، فأخرج مفكرة صغيرة، وانشغل في وضوح بأفكار مختلفة تمام الاختلاف وهو ينظر في مفكرته أولًا، ثم يعود فيوجه نظراته نحو كارل.

قال كارل: «إنني أعرف!» وكان يحاول بصعوبة أن يتفادى التيار الذي كان العطشجي يوجهه الآن نحوه، إلا أنه تمكن من الاستنجاد بابتسامة ودية وجّهَهَا للعطشجي على الرغم من كل الشقاق الذي كان قد قام في نفسه.. «إنك على حق، إنك على حق! إنني لم أشك في ذلك قط!».

ولخوفه من أن ترتطم به يدا العطشجي اللتان كان يلوح له بهما، كان كارل يود لو أمكنه أن يمسك بهما، وإن كان الأفضل أن يسحب الرجل إلى أحد الأركان، حتى يتمكن من أن يسر إليه بما قد يهدئ ثائرته، ويشجعه من الكلمات التي يجب ألا يسمعها الآخرون، إلا أن العطشجي كان قد تخطى كل الحدود، فشرع كارل بالفعل في التماس شيء من العزاء في فكرة أنه في مقدور العطشجي، عند الاضطرار أن يواجه الرجال السبعة الذين تضمهم الحجرة بالعنف النابع من يأسه. لكن على المنضدة، كانت هناك شبكة أجراس تمكن من رؤيتها بنظرة، أجراس عديدة لا حصر لها، كان مجرد الضغط عليها بيد واحدة، كفيلًا بأن يقيم الباخرة كلها، وأن يأتي بكل الرجال العدوانيين الذين تمتلئ بهم ممراتها.

تقدم السيد الذي يمسك العصا المصنوعة من البامبو الآن، على الرغم من التجائه إلى التباعد لضجره البالغ، نحو كارل، وسأله بصوت ليس مرتفعًا غاية الارتفاع، ولكنه كان واضحًا بدرجة كافية، ومسموعًا فوق ضجة هذيان العطشجي: «بالمناسبة ما هو اسمك؟» في تلك اللحظة، وكما لو كان شخص ما خلف الباب ينتظر توجيه هذا السؤال، انبعثت طرقة على الباب، فنظر المساعد عبر الحجرة إلى القبطان، وأومأ القبطان، وعلى هذا توجه المساعد نحو الباب وفتحه. كان يقف في الخارج رجل متوسط الحجم في معطف حربي قديم، لا يبدو عليه مطلقًا أدنى صلة شبه بذلك النوع من الرجال الذين يتعاملون مع الآلات. ومع ذلك فقد كان هو شوبال.. فلو لم يكن كارل قد استنتج

ذلك من تعبير الارتياح الذي أضاء العيون جميعًا، حتى عيني القبطان، فلا شك أنه كان سيستنتجه من الرعب الذي سيطر على سلوك العطشجي الذي ضم قبضتيه على امتداد ذراعيه المفرودتين في حدة جعلت إطباقتهما، تبدو أهم شيء على الإطلاق في وجوده كله، هاتان القبضتان اللتان كان على أتم الاستعداد لأن يضحي في سبيلهما بأي شيء آخر في الحياة. كانت قوته كلها مركزة في قبضتيه، بما فيها تلك القوة التي كانت تحمله على الوقوف منتصبًا فوق قدميه.

وهكذا أصبح العدو هنا هو أيضًا، منتعشًا، ومبتهجًا في ملابس الشاطئ، وتحت ذراعه دفتر ضخم، لعله ينطوي على تقرير عن ساعات العمل، والأجور المستحقة للعطشجي، وكان يتفحص في جرأة وجوه الحاضرين جميعًا، وبدا كما لو كان اهتمامه الأول الذي يجب الاعتراف به في صراحة هو أن يكتشف في أي جانب من جوانب الحجرة كانوا يقفون! كان الرجال السبعة الذين تجمعهم الحجرة أصدقاءه بالفعل، وعلى الرغم من أن القبطان كان قد أثار بعض الاعتراضات عليه قبل قليل، أو أنه قد تظاهر بأنه يفعل ذلك؛ لأنه قد أحس بالأسف من أجل العطشجي، فقد كان واضحًا أنه لا يجد أدنى أثر للخطأ في جانب شوبال. وأن رجلًا كالعطشجي، لا يمكن أن يكون قد أهين بهذه الدرجة من القسوة، ولو كان شوبال لا يلام على شيء، فقد كان هذا الشيء الذي يجب أن يلام عليه هو أنه لم يكبح جماح العطشجي، الميال للاعتراض دائمًا، بصورة كافية، طالما أن ذلك الشخص قد جرؤ على مواجهة القبطان في نهاية الأمر.

إلا أنـه من الممكن الاطمئنـان إلى أن مواجهـة شـوبال والعطشـجي ستنتهي، حتى ولو كانت على يد محكمة من البشر، إلى نفس النتيجة التي ترضاها العدالة السماوية، طالما أن شوبال، حتى ولو نجح في التظاهر بالصلاح، سينهار بسهولة، في نهاية الأمر.

إن توهجًا قصير الأمد لطبيعته الشريرة سوف يكشف عن طبيعته تلك لهؤلاء السادة، ولسوف يمهد كارل لذلك. وأن لديه بالفعل خبرة مباشرة واسعة بالمكر، وبطباع الشخصيات المختلفة التي تجمعها الحجرة، وفي هذا المقام لن يكون الوقت الذي أنفقه بداخلها قد ضاع عبثًا. لقد كان مما يؤسف له أن العطشجي كان يفتقر افتقارًا شديدًا إلى المهارة، إنه لا يبدو مطلقًا أهلًا للفعل الحاسم.

فلو أن شخص دفع شوبال نحوه، فلعله أن يشج جمجمة ذلك الرجل، الشائهة بقبضتيه. إلا أن القدرة على تخطي الخطوتين اللازمتين حتى يصبح شوبال في متناول يده، كانت فوق طاقته. فلماذا لم يتوقع كارل، ما كان يبدو متوقعًا على هذه الدرجة من البساطة، وهو أن شوبال كان سيظهر لا محالة، حتى لو لم يكن قد ظهر تلقائيًا كما حدث، فلا بد أنه كان سيحضر بناء على طلب القبطان! فلماذا لم يدبر خطة محكمة للهجوم بالاشتراك مع العطشجي، بينما كانا في طريقهما إلى هنا، بدلًا من السير في سذاجة، ودون أدنى استعداد، على نحو يبعث على اليأس؟ حتى بلغا أحد الأبواب «كما اتفق لهما أن فعلا؟ فهل كان العطشجي قادرًا على أن يتفوه الآن بكلمة، أو الرد بنعم أو لا، كما يتحتم عليه أن يفعل لو قدر له أن يستجوب الآن، رغم أن

الاستجواب ـ ولا جدال في ذلك ـ كان أمرًا بعيد الأمل في حدوثه، إسرافًا في التفاؤل! ها هو يقف هنالك، ساقاه متخاذلتان، وركبتاه مرتعدتان، ورأسه ملقيٌّ إلى الخلف، والهواء يتردد إلى داخل وخارج فمه المفتوح، كأنما لا توجد للرجل رئتان تتحكمان في حركة الهواء.

كان كارل نفسه يشعر بمزيد من القوة، وصفاء الذهن، ربما لم يسبق له أن أحس بهما على هذا النحو في بيته مطلقًا من قبل، فلو استطاع والده ووالدته فقط أن يرياه الآن، مدافعًا عن العدالة في أرض غريبة أمام رجال ذوي سلطة، ومع أنه لم ينتصر بعد، إلا أنه عازم في إقدام على أن يحوز النصر النهائي! فهل يعيدان النظر في فكرتهما عنه؟ ويستبقيانه إلى جوارهما، ويمجدانه؟ انظر في عينيه أخيرًا، أخيرًا.. هاتان العينان المفعمتان بالولاء لهما؟ تساؤلات مبهمة، ولكن ليس الآن، هو أوان طرحها.

ـ «لقد جئت إلى هنا لأنني أعتقد أن هذا العطشجي قد اتهمني بالغش أو بشيء من هذا القبيل. وقد أخبرتني إحدى فتيات المطبخ بأنها قد شاهدته يفعل ذلك! أيها القبطان وأنتم جميعًا أيها السادة وإنني على أتم الاستعداد لتقديم الإثباتات التي تدحض أيًّا من هذه الاتهامات. ولو شئتم أن أقدم لكم شهادات الشهود غير المنحازين، الذين لا تشوب نزاهتهم الشوائب، هؤلاء الشهود الذين يقفون في انتظار سماع شهاداتهم الآن أمام باب هذه الحجرة».

كان هذا هو التقرير الذي تقدم به شوبال، وقد كان للحق تقريرًا واضحًا جريئًا، وربما خُيل للمرء من التعبيرات التي تبدلت على وجوه المستمعين أنهم قد استمعوا لأول مرة، بعد انقطاع فترة طويلة سادها الصمت، إلى صوت بشري حقًّا. ولا شك في أنهم لم ينتبهوا إلى الفجوات التي كان من السهل أن يتبينها المرء في تلك الخطبة الرائعة. لماذا مثلًا: كانت الكلمة الأولى، المناسبة التي تهيأت له هي «الغش»؟ فهل حدث أن اتهمه أحد بذلك؟ لعله استبدل بها كلمة: التحامل على جنسية من الجنسيات؟ كانت إحدى فتيات المطبخ قد شاهدت العطشجي وهو يمضي في طريقه إلى الإدارة، فتكهن شوبال على الفور بما يعنيه ذلك! فهل كان إحساسه بالذنب هو الذي شحذ إدراكه؟ ثم إنه قد جمع الشهود فورًا، ألم يفعل ذلك؟ ومن ثم يتحول فيصفهم بأنهم غير منحازين، ويصفهم كذلك بالنزاهة، ربما لكي ينتفع هو بهذه الصفات؟ احتيال! ولا شيء سوى محض احتيال! ولم ينخدع هؤلاء السادة جميعًا بذلك فقط، بل قد صادفت فعلته استحسانهم أيضًا.

ثم.. لماذا تعمد التأخير، هذه الفترة الطويلة التي انقضت بين وشاية فتاة المطبخ وموعد حضوره إلى هنا. لقد تأخر في المجيء حتى يترك الفرصة الكافية للعطشجي حتى يرهق السادة، وحتى يكون عزمهم على الحكم الواضح قد تبدد! هذا الحكم الواضح الذي كان شوبال يخشاه قبل أي شيء غيره! كما أنه قد انتظر أمام الباب فترة طويلة، لا شك في أنه قد فعل ذلك، فهل كان قد تعمد عدم الطرق على الباب، حتى سمع السؤال العارض الذي وجهه السيد الذي يمسك عصا البامبو. هذا

السؤال الذي استند إليه، على أمل أن يكون العطشجي قد فرغ بالفعل من مهمته.

كان كل شيء واضحًا الآن وضوحًا كافيًا، كما أن تصرف شوبال العفوي كان يؤكده، لكن لابد من توضيح ذلك لهؤلاء السادة بوسائل أخرى أشد فعالية. يجب أن يهتزوا في عنف، فأسرع إذن الآن يا كارل، واستغل كل دقيقة تبقت أمامك، قبل أن يشرع الشهود في دخول الحجرة، ويقلبوا القضية بأكملها رأسًا على عقب.

إلا أن القبطان كان قد أشاح في تلك اللحظة نفسها لشوبال بيده- طالبًا منه أن ينصرف، فانتحى جانبًا من فوره- وقد رأى أن تدبيره قد تأجل على ما يبدو لوقت ما- وهرع إليه المساعد، حيث راحا يتبادلان معًا حديثًا هامسًا، يتضمن نظرات جانبية عديدة موجهة نحو العطشجي وكارل. بالإضافة إلى حركات وإشارات لها مغزاها.

كان يبدو على شوبال، وكأنه كان يرتب في ذهنه خطبته الرائعة القادمة! وفي الصمت الذي ران على الحجرة، قال القبطان، موجهًا حديثه إلى السيد الذي يمسك بعصا البامبو في يده: «هل ترغب في أن توجه سؤالًا ما إلى هذا الصبي، يا مستر جيكوب؟».

فأجاب الآخر، بانحناءة خفيفة ردًّا على مجاملة القبطان، ثم عاد ثانية، فسأل كارل: «ما هو اسمك؟».

فأجابه كارل الذي ظن أن مهمته الأساسية يمكن أن تتم بصورة أفضل، لو حاز رضا ذلك الشخص الذي يلح بتساؤله.. أجابه مسرعًا، في

اقتضـاب، دون أن يحـاول تقـديم نفسـهـ على عادتـهـ بواسـطة جـواز سفره، الذي كان عليه أن ينتزعه ثانية من داخل جيبه:

ـ كارل روسمان.

ـ حقًّا! قالها السيد الذي دعي باسم جيكوب متراجعًا، بابتسامة مرتابـة وكذلك ابتسم القبطان، وأمين الباخرة والضابط، وحتى المساعد ابتسـم هو أيضًا، وعلت الدهشـة البالغـة وجـوههم جميعًـا عنـد سـماعهم اسـم «كـارل»، كـان موظفـا الميناء وحـدهما، وشـوبال هم الـذين ظلـوا دون مبالاة.

وعاد مستر «جيكوب» مرة أخرى فقال: «حقًّا؟» وهو يتقدم نحـو كـارل بخطوات جامدة، واسـتطرد قـائلًا: «إذن فأنـا خالـك جيكـوب، وأنت... ابن أختي العزيز! لقد كنت مشتبهًا في ذلك طوال الوقت!»، وجه جملته الأخيرة للقبطان قبل أن يحتضن كارل الذي استسلم له في ذهول، وهـو يقبله.

وعندما تخلص كـارل من عنـاق خالـه، سـأله في لطـف.. لكن في بـرود شديد، محاولًا بغاية ما يمكنه أن يحسب النتائج التي قد تتمخض عنهـا هذه التطورات الجديدة لصالح العطشجي، قائلًا: «ومـا عسـى أن يكـون اسمك؟».

لم يكن ثمـة مـا يحتـاج إلى توضـيح أن شـوبال لم يكن يسـعه في هـذه اللحظة أن يخرج من هذا الموقف بأي شيء في صالحه.

ورد القبطان، الذي اعتقد أن مستر جيكوب قد شعر بالإهانة لسؤال كارل؛ لأنه كان قد تراجع في اتجاه النافذة، لا شك لكي يخفي عن الآخرين اضطرابه، وانفعالات وجهه الذي كان يربت عليه بمنديل في يده قائلًا: «ألا تدرك حظك السعيد أيها الشاب.. إنه السيناتور إدوارد جيكوب، ذلك الذي صرح الآن بأنه خالك»، وقال السيناتور إدوارد جيكوب: إن من تدعى «برومر» هذه، أنجبت طفلًا من ابن أختي، صبي يتمتع بصحة جيدة عمدته باسم «جيكوب»، وواضح أنها أطلقت هذا الاسم عليه، تيمنًا بشخصي المتواضع، ذلك أن حديث ابن أختي إليها، الذي كان يشير فيه إليّ من وقت لآخر، كان قد ترك أثرًا عميقًا في نفس تلك المرأة، واسمحوا لي بأن أضيف أن هذا كان من حسن الطالع.. أما والدا الصبي، فإنهما لكي يتخلصا من النفقة، ويتجنبا الفضيحة- وينبغي عليَّ أن أقر بأنني أجهل جهلًا تامًّا طبيعة القوانين التي يسري تطبيقها في هذا الخصوص، وأجهل كل الملابسات التفصيلية وظروف هذه الحالة- أقول إذن إنهما لكي يتجنبا الفضيحة، ويتخلصا من دفع النفقة، قاما بطرد ابنهما- ابن أختي العزيز- وأرغماه على الرحيل إلى أمريكا، دون أن يكون مستعدًا- ويا للعار- لمواجهة أعباء تلك الرحلة.. وهذا ما يسعكم أن تلمسوه بأنفسكم.

فما عسى أن يكون الحال الذي كان سينتهي إليه مصيره، لو لم ترسل إليَّ تلك المرأة هذا الخطاب الذي وصلني في النهاية، بعد أن تأخر طويلًا، أمس الأول، وسردت لي فيه القصة كاملة، وكذلك أوصاف ابن أختي، وفي حكمة بالغة، اسم الباخرة التي رحل عليها أيضًا!! فلو كان

لي أن أشرع في تسليتكم أيها السادة، فلعلني أقرأ عليكم بضع فقرات قصيرة مما جاء في هذا الخطاب، ثم جذب ورقتين كبيرتين من أوراق الخطابات ممتلئتين بالكتابة في خط دقيق، ونشرهما أمامهم:

ـ «ولست أشك في أنكم ستهتمون بالإنصات إليها، ذلك أن هذا الخطاب قد كُتب بأسلوب ينطوي على شيء من الدهاء المتعمد، الساذج، ويشيع فيه الاهتمام البالغ الذي ينم عن الحب ـ لوالد الطفل ـ إلا أنني لا أنوي أن أمضي في قراءة أكثر مما يلزمني في توضيحي لحقيقة الحال، وحتى لا أحرج مشاعر ابن أختي منذ بداية لقائي به، مشاعره تلك المرهفة لا تزال بلا شك، ويمكنه أن يقرأ ذلك الخطاب لمعلوماته الخاصة فيما بعد على انفراد في الحجرة التي تم إعدادها الآن، في انتظاره».

إلا أن كارل لم يَكُنْ يَكِنّ أية مشاعر ليوهانا برومر، وتذكرها ثانية وهو يعود بذاكرته إلى الماضي الذي تلاشى الآن.. تذكرها وهي تجلس في مطبخها إلى جوار منضدة المطبخ تعتمد بكوعها على سطحها.. كانت تتطلع إليه كلما دخل المطبخ لكي يملأ كوبًا من الماء لوالده، أو يقوم بأداء طلب لوالدته. وكانت هي تجلس أحيانًا بلا مبالاة إلى أحد جوانب المنضدة تكتب خطابًا، أو ترسم ملامح وجه كارل من مخيلتها، وفي أحيان أخرى كانت تجلس وهي تخفي وجهها بيدها ولا تكاد تعي شيئًا مما يقال لها.. كانت تركع في أحيان أخرى داخل حجرتها الضيقة الملاصقة للمطبخ مستغرقة في الابتهال أمام صليب خشبي، وكان كارل يشعر بالخجل عندما كان يمر بها، أو يلمحها من خلال فتحة

الباب المـوروب. وكـانت تحـدث ضوضـاء مزعجـة أحيانًـا بـداخل المطبخ، وتتراجع وهي تضحك كالمخبولة، عندما كـان كـارل يقـترب منها، وفي مرات، كانت تغلق باب المطبخ في إثر دخول كـارل وتقبض بيدها على أكرة الباب، ولا تسمح له بالخروج حتى يظل يتوسل إليهـا طالبًا منها أن تسـمح لـه بـالخروج، في أوقـات أخـرى كـانت تحضـر لـه أشياء لم يكن في حاجة إليهـا وتدسـها في يـده.. في صـمت. وذات مـرة نادتـه قائلـة: «كـارل» وبينمـا كـان يقـف متحـيرًا في أمـر هـذه الألفـة المفاجئة، سحبته إلى غرفتها.. وكانت تتنهد، وتـزم ـ في قلـق ـ ملامح وجهها، ثم.. أغلقت البـاب خلفـه، وطـوقت عنقـه بـذراعيها في عنـف، حتى أوشك على الاختناق، وحينما كانت تسأله إن كان عليها أن تخلـع ثيابها، كانت قد خلعت ملابسه هو بالفعل بيديها، وأرقدته في فراشـها، كما لو كانت قد عزمت على ألا تتركه لأي مخلوق آخر، وعلى أن تحنو عليه، وتدلله إلى الأبد.. ثم صاحت قائلـة: «كـارل.. كـارل يـا عزيـزي»، وبدت عيناهـا وكأنهمـا قـد أوشـكتا على افتراسـه، بينمـا لـم تثبت عينـاه على أي شـيء مطلقًـا، وكـان يشـعر بالضـيق، وهـو غـارق في كومـة الملابس الـتي بـدا وكأنهـا كـانت قـد كومتهـا من أجلـه هـو وحـده، ثم استلقت إلى جواره، وطلبت إليه أن يسرَّ لهـا بشـيء، لكنـه لم يسـتطع أن يقول لها شيئًا، فتظاهرت بالغضب، سواء كان ذلك على سبيل المزاح، أو أنها كانت قد غضبت منه بالفعل، وراحت تهزه، وتتسـمع إلى دقـات قلبه.. وأدنت صدرها منه حتى يتمكن من الاستماع بـدوره إلى خفقـات قلبها أيضًا، إلا أنها لم تنجح في أن تحمله على الاستماع إلى أي شـيء،

ثم ضغطت بطنها العارية إلى جسده، وتحسست ساقيه بأصابعها بصورة مقززة، حتى لقد حاول أن ينهض رافعًا رأسه وعنقه عن الوسائد، ثم ضغطت جسدها إلى جسده.. بدت كما لو كانت قد أصبحت جزءًا منه، وربما لهذا كان قد تملكه شعور جارف بالحنين. وعاد أخيرًا إلى فراشه، ودموعه تنهمر فوق خديه، بعد محاولات متعددة قامت بها، لتعود به مرة أخرى إلى داخل حجرتها.. كان هذا هو كل ما حدث، إلا أن خاله قد استطاع أن يحيل ذلك الحادث إلى أسطورة، ويبدو أن الطباخة كانت مشغولة تمامًا به، وأنها أخبرت خاله بوصوله، ولقد كان هذا خير ما قامت به في سبيله، وسوف يبحث هذا الأمر فيما بعد، لو أمكنه أن يفعل..

وصاح السيناتور: «والآن.. أرجو أن تخبرني بصراحة، عما إذا كنت خالك أم لا؟».

فأجابه كارل وهو يقبل يده ويتلقى منه قبلة فوق حاجبيه قائلًا: «أنت خالي وإنني في غاية السعادة لعثوري عليك، غير أنك تكون مخطئًا لو اعتقدت أن والدي ووالدتي يتحدثان عنك بالسوء. وعلى أية حال فلقد وصلتك نقاط عديدة مغلوطة في ثنايا القصة التي بلغتك، وأعني أن الأمر لم يحدث في الواقع بتفاصيله كلها على ذلك النحو، إلا أنك لا تتوقع بالطبع أن تدرك على نحو بالغ الدقة أمورًا تجري في مكان بعيد كل هذا البعد، ولا يخيل لي أن ضررًا ما من الممكن أن يصيب هؤلاء السادة، إذا اتفق لهم أن استمعوا إلى بعض التفاصيل الخاطئة التي تتناثر في ثنايا حدث لا يهمهم في شيء!».

قال السيناتور: «حديث رائع» وقاد كارل نحو القبطان الذي أبدى له عطفه في وضوح وسأله: «أليس ابن أختي رائعًا؟».

قال القبطان: «إنني سعيد غاية السعادة» وانحنى انحناءة نمت عن دقة تدريبه العسكري.. «بالالتقاء بابن أختك يا سيدي السيناتور، ولقد حظيت باخرتي بشرف الاستئثار بهذا المشهد الذي انتهى «بِلَمّ الشمل» وتم في داخلها، إلا أن الرحلة في ذلك الجزء الخلفي من الباخرة لم تكن رحلة طيبة بالمرة، ذلك لأن مختلف أنواع الناس بالطبع يسافرون في ذلك المكان، ونحن نبذل أقصى جهد يسعنا أن نبذله لتوفير الراحة الممكنة لركاب هذا الجانب من الباخرة، بصورة تقترب كثيرًا، مما توفره الخطوط البحرية الأمريكية من الراحة لمثل هؤلاء المسافرين.. أما عن تحويل السفر في هذا الجزء من باخرتنا إلى متعة خالصة فشيء لم يسعنا بعد أن نحققه.

قال كارل: «لم يسبب لي هذا المكان أي ضرر».

وكرر السيناتور قوله ضاحكًا بصوت مرتفع.. «لم يسبب له هذا المكان أي ضرر».

وأكمل كارل قائلًا: «فيما عدا إنني أخشى أن أكون قد فقدت صندوقي». وبذلك تذكر كل ما مر به وما تبقى أمامه ليفعله.. وتطلع حوله فرأى الآخرين ما زالوا يقفون في أماكنهم صامتين تغلبهم الدهشة وتنم نظراتهم عن التبجيل وأعينهم مثبتة عليه.. موظفا الميناء وحدهما، لقسوتهما ووجهيهما اللذين يقطران اعتزازًا واضحًا بالنفس، هما

اللذان أظهرا شيئًا من الأسف لحضورهما في هذا الوقت غير المناسب، وربما كانت الساعة التي استقرت أمامهما على المائدة، أكثر أهمية بالنسبة إليهما من أي شيء آخر حدث في هذه الحجرة، أو قد يحدث.

وكان أول من عبر عن شعوره بعد القبطان ـ وهو أمر غريب ـ هو العطشجي، الذي قال: إنني أهنئك قلبيًّا.. وشد على يد كارل، ووشت حركته تلك، بشيء من الاعتراف بالفضل، لكنه عندما توجه إلى السيناتور بنفس كلماته التي وجهها إلى كارل، انسحب السيناتور متراجعًا إلى الخلف، كما لو كان العطشجي قد بالغ في تجاوز حدوده، فعدل العطشجي في الحال عن نيته.

وأدرك الآخرون، الذين كانوا قد شهدوا الآن ما انتهى إليه الحال، واجبهم فتجمعوا حول كارل والسيناتور في حلقة صاخبة.

وهكذا قدر لكارل أن يتلقى بالفعل تهاني شوبال، وتقبلها، وشكره على مشاعره، وكان آخر المهنئين هما موظفا الميناء، اللذان قالا كلمتين لا أ كثر بالإنجليزية، كان لهما تأثير يبعث على الضحك..

وأحس السيناتور برغبته في ارتشاف آخر قطرة من المتعة التي أتاحها له الموقف، فشرع في تنشيط ذهنه وأذهان الآخرين بالإسهاب في ذكر التفاصيل الثانوية التي تتعلق بالحادث، ولم تقابل هذه التفاصيل بأي نوع من أنواع الضجر، بل قوبلت بالطبع من الجميع بقدر كبير من الاستحسان والاهتمام، وعلى هذا فقد ذكر لهم أنه كان قد خط في مفكرته ـ حتى يتسع أمامه المجال للبحث في حالة الضرورة ـ ملامح

ابن أخته، وصفاته المميزة، كما أوضحتها الطباخة في خطابها، وعندما بدأ يشعر بالضيق الذي سببه له هياج العطشجي، أخرج مفكرته، لمجرد أن يسلي نفسه بتصفحها، ثم راح يقارن ــ لمتعته الخاصة ــ الأوصاف التي ذكرتها الطباخة، تلك الأوصاف التي لم يكن نصيبها من الدقة مما يرضى عنه مطلقًا، أي رجل من رجال المباحث، واستغرق في مقارنتها بملامح كارل عندما واجهه.. وهذه هي الطريقة المثلى للعثور على ابن أخت.. قالها السيناتور في زهو كما لو كان يرغب في تلقي المزيد من التهاني..

تساءل كارل قائلًا: «ما الذي سيحدث الآن للعطشجي؟» متجاهلًا ملاحظات خاله الأخيرة. كان قد تخيل في وضعه الراهن، أن في إمكانه أن يقول كل ما يطرأ على باله.

وأجابه السيناتور قائلًا: «سوف ينال العطشجي ما يستحقه من جزاء، وهو الجزاء الذي يراه القبطان مناسبًا، وأعتقد أننا قد نلنا كفايتنا، بل وأكثر من الكفاية عن موضوع العطشجي.. بالإضافة إلى أن هذا هو ما لا يختلف عليه أحد من السادة الموجودين هنا دون شك».

وقال كارل: «إلا أن هذا ليس هو لب الموضوع، عندما يتعلق الأمر بالعدالة!».

كان كارل يقف بين خاله من ناحية وبين القبطان من الناحية الأخرى.. ولعله كان قد أدرك دوره، في المكان الذي كان يقف فيه، فقد كان يحاول تحقيق شيء من التوازن بينهما.

إلا أن العطشجي كان يبدو وكأنه قد فقد الأمل.. كانت يداه مدسوستين إلى منتصفهما في حزام بنطلونه، حيث بدا حجمهما بالإضافة إلى الجزء الأسفل من السترة العازلة، الذي كان قد تهدل فوق الحزام، كتلة ضخمة بارزة، بصورة لافتة للنظر، في أثناء انهماكه في حملته المهتاجة. إلا أن ذلك مما لا يؤبه به مطلقًا، لقد كشف لهم بؤسه الداخلي، فلينطلقوا الآن إذن إلى الخرق البالية التي تستر جسده أيضًا، ويمكنهم بعد ذلك أن يلقوا به إلى الخارج.

وكان قد استقر في ذهنه أن شوبال سيقدم إليه هذه الخدمة الأخيرة.. بمعونة المساعد. فقد كانا أقل الرجال الموجودين بداخل الحجرة أهمية، وسوف يهنأ شوبال بالراحة حينئذ حيث لا يعود هناك وجود لمن يدفعه إلى «اليأس التام» على حد تعبير أمين الحسابات.. ويصبح في وسع القبطان أيضًا أن يكدس في باخرته حشودًا من عمال رومانيا.. وتصبح اللغة الرومانية هي اللغة السائدة في الباخرة كلها. ولعل الحال أن يصبح عندئذ على أتم ما يرام.. فلن يكون هناك عطشجي ليتسبب بعد ذلك في إزعاج مكتب الإدارة بهياجه! على أن آخر ما قام به من جهود سيظل باقيًا، على الأغلب، كذكرى ودية، بعد أن أعلن السيناتور في وضوح، أن الضيق الذي أصابه كان هو السبب المباشر في تعرفه على ابن أخته. ولقد حاول ابن الأخت أكثر من مرة أن يقدم له يد المساعدة بالفعل. وعلى هذا فقد أتاح له مقدمًا لقاء خدماته جزاء يتعداه بكثير. هو مشهد هذا اللقاء!.. ولم يفكر العطشجي حتى في أن يطلب شيئًا آخر منه الآن، ذلك أنه حتى وإن كان ابن أخت سيناتور،

فقد كان لا يزال بعيدًا عن أن يكون قبطانًا، ولم يكن الحكم القاطع ليخرج إلا من فم القبطان.

وبينما كان العطشجي مستغرقًا في مثل هذه الأفكار، حاول جاهدًا ألا ينظر نحو كارل، رغم أنه ـ لسوء حظه ـ لم يكن يجد شخصًا آخر سواه يمكن ألا تقذى عيناه لرؤيته في هذه الحجرة المليئة بالخصوم.

قال السيناتور لكارل: «لا تسيء فهم الموقف، فربما كانت هذه المسألة مسألة عدالة، إلا أنها في الوقت نفسه مسألة نظام أيضًا، وكلا الأمرين على هذه الباخرة، وخاصة الأخير.. يتوقفان على تقدير القبطان».

غمغم العطشجي الذي كان قد سمعه وأدرك ما يعنيه قائلًا وهو يبتسم في جهد:

ـ «هذا صحيح».

ـ «إلا أننا قد قمنا بالفعل، لفترة طويلة للغاية، بتعطيل القبطان عن أداء واجباته الرسمية التي لا بد له من القيام بها الآن، وقد وصل إلى نيويورك، وقد حان الوقت الذي يجب علينا فيه أن نسرع بمغادرة الباخرة، بدلًا من إضافة خطأ آخر إلى أخطائنا بالتدخل دون مبرر إطلاقًا في هذا الخلاف البسيط بين اثنين من الميكانيكيين، فنخلع عليه بذلك كثيرًا من الأهمية. إنني أدرك تمام الإدراك وجهة نظرك يا ابن الأخت العزيز، وهذا الإدراك يتطلب مني أن أسرع بإبعادك فورًا عن هنا».

قال القبطان: «سآمر بإعداد قارب لكما في الحال»، دون أن يعترض على ما قاله السيناتور مطلقًا، لدهشة كارل الشديدة، حتى لقد بدا له أن

خاله قد امتهن نفسه. واندفع أمين حسابات الباخرة مسرعًا إلى منضدته وأبلغ أمر القبطان إلى البحارة.

وقال كارل لنفسه: «لم يكد يبقى شيء من الوقت، إلا أنني لا يمكنني أن أفعل شيئًا دون أن أتسبب في غضب الجميع. ولا يمكنني في الحقيقة أن أترك خالي الآن في نفس اللحظة التي عثر فيها عليّ، إن القبطان شخص مؤدب دون شك، إلا أن أدبه هذا سرعان ما يتلاشى عندما يتعلق الأمر بمسألة النظام، كما أن خالي لا شك قد قصد ما قاله. ولست أرغب في أن أتحدث إلى شوبال، وإنني ليؤسفني حتى مصافحته. أما بقية الموجودين هنا فلا شأن لهم بالأمر».

وحينما كان يفكر على هذا النحو، تقدم في بطء نحو العطشجي وجذب يد الرجل اليمنى من حزامه، وضغط عليها في رفق بين راحتيه.

سأله قائلًا: «لماذا لا تقول شيئًا؟ لماذا تراجعت عن كل محاولة؟».

لم يجب العطشجي.. بل عقد حاجبيه، كما لو كان يبحث عما ينبغي عليه أن يجيب به، وبينما كان مستغرقًا في ذلك، خفض عينيه.. ونظر إلى يده المستقرة بين راحتي كارل.

ـ «لقد لقيت معاملة ظالمة، لم يلقها أي شخص آخر سواك على هذه الباخرة، إنني أعلم هذا تمام العلم» وحرك كارل أصابعه بين أصابع العطشجي إلى الخلف وإلى الأمام.. بينما تطلع العطشجي حوله وقد تألقت عيناه، كما لو كانت نفسه قد أفعمت بسعادة غامرة، لا يملك أن يحسده عليها أحد.

ـ «وعليك الآن أن تتأهب للدفاع عن نفسك أجب بنعم أو بلا... وإلا فلن يتاح لهؤلاء الناس أدنى فكرة عن الحقيقة. عليك أن تعدني بأنك ستفعل ما أقوله لك، ذلك أنني أخشى، ولديَّ من الأسباب ما يحملني على ذلك، أنه لم يعد في مقدوري أن أقدم لك بعد، يد المساعدة.. ثم انفجر كارل باكيًا بعد ذلك. وقبَّل يد العطشجي ساحبًا تلك اليد المتشققة المتراخية لحظتها في وهن، وضغطها على خده، وكأنها كنز يوشك على أن يتخلى عنه، إلا أن خاله السيناتور كان قد أسرع الآن إلى جانبه، وجذبه مبتعداً به برفق، لكن بحزم.

قال السيناتور وهو يبادل القبطان نظرة خبيرة من فوق رأس كارل:

ـ «يبدو أن العطشجي قد ترك أثرًا سحريًّا في نفسك، لقد شعرت.. بالوحدة، ثم وجدت العطشجي.. وأنت مدين له بالكثير الآن، لا بأس بهذا كله. إنني أؤكد لك، لكنني أرجوك، ولو من أجلي، ألا تشتط مرة أخرى على هذا النحو، وتعلم أن تدرك وضعك».

ارتفع الصخب خارج الباب. كانت قد انبعثت صيحات، بدت مرتفعة كما لو كان شخص ما قد راح يفتح الباب في عنف، ودخل بحار في حالة مضطربة، مشعثًا، وحول وسطه تلتف مريلة فتاة، صاح قائلًا وهو يثني كوعيه كما لو كان لا يزال يشق طريقه وسط الزحام: «يوجد حشد كبير منهم في الخارج..» ـ ثم ثاب فجأة إلى رشده، وحيا القبطان، ولكنه لحظ المريلة المشدودة إلى وسطه عندئذ، فنزعها وطوح بها إلى الأرض، وصاح: لقد تجاوزوا حدودهم، لقد شدوا حول وسطي مريلة

فتاة، ثم دق كعبيه معًا، وأدى التحية للقبطان، وشرع شخص ما في الضحك، إلا أن القبطان صاح في عنف: «تبدو الحال في صورة بديعة للغاية! من بالخارج؟».

تقدم شوبال خطوة إلى الأمام قائلًا: «إنهم شهودي، أرجو عفوك يا سيدي عن سلوكهم الشائن. إن الرجال يفقدون صوابهم أحيانًا، عندما يصلون إلى نهاية إحدى الرحلات».

فأصدر القبطان أمره قائلًا: «أدخلهم إلى هنا»، ثم استدار ناحية السيناتور على الفور في أدب لكن في عجلة:

«هل تفعل خيرًا الآن يا سيدي السيناتور، بأن تصحب ابن شقيقتك وتتبع ذلك الرجل، الذي سيرشدك إلى القارب المعد لك. لست بحاجة إلى توضيح مدى السرور والشرف الذي حظيت به بتعرفي بك، وأود فقط يا سيدي السيناتور أن أنتهز أقرب فرصة لاستئناف حديثنا الذي لم يتصل عن حالة الأسطول الأمريكي. وأرجو أن يقطع حديثنا مرة أخرى أيضًا حدث آخر سار».

ورد خال كارل قائلًا وهو يضحك: «يكفيني ابن أخت واحد، أؤكد لك. والآن تقبل تحياتي الحارة على كرمك، وإلى اللقاء. وأضيف أنه ربما لا يكون من المستبعد أن تتاح لنا فرصة طويلة للقاء، في أثناء رحلتنا المقبلة إلى أوروبا» بينما طوق كارل بذراعه في حرارة.

فأجابه القبطان قائلًا: «يسرني ذلك غاية السرور»، وصافح السيدان بعضهما بعضًا. ولم يكد كارل يتمكن إلا من أن يلمس يد القبطان

مسرعًا في صمت، ذلك أن انتباه الأخير، كان قد شغله بالفعل الخمسة عشر شخصًا الذين أصبحوا الآن في داخل الحجرة يقودهم شوبال، وقد تم تعنيفهم فيما يبدو، إلا أنهم لا يزالون رغم ذلك يصخبون صخبًا شديدًا.

وطلب البحار من السيناتور أن يأذن له في أن يتقدمهما، وأفسح له ولكارل ممرًا خلال الجمع المحتشد، حتى تمكنا في يسر من الخروج بين صفين من الرجال الذين انحنوا لهما.

ولقد بدت على هؤلاء الأشخاص في وضوح، الخفة التي كانوا ينظرون بها إلى هذا النزاع، بين شوبال والعطشجي، فلم ينظروا إلى هذا النزاع إلا على أنه مجرد هزل. ولم يكن حتى وجود القبطان ليفلح في فرض شيء من الجد على سلوكهم.

ولمح كارل بينهم فتاة المطبخ التي تدعى «لينا»، والتي غمزت له الآن في خبث، بينما كانت تشد إلى وسطها تلك المريلة التي كان البحار قد قذفها إلى الأرض، فقد كانت مريلتها.

وبينما كانا يتبعان البحار، تركا الممر وتحول إلى ممر صغير أدى بهما بعد خطوتين إلى باب صغير، هبط منه سلم صغير يوصل إلى القارب الذي كان في انتظارهما.

وأصبح البحار الذي كان يتقدمهما في داخل القارب بقفزة واحدة، ونهض البحارة الذين كانوا في القارب واقفين وأدوا التحية.

وكان السيناتور لحظتها ينبه كارل إلى كيفية الهبوط إلى أسفل، عندما انخرط كارل، الذي كان قد توقف فوق أعلى درجات السلم فجأة في نهنهة عنيفة، ووضع السيناتور يده اليمنى تحت ذقن كارل، وجذبه إليه، وربت عليه بيده اليسرى، وهبطا السلم في وضعهما هذا درجة درجة، وهما ملتصقان ببعضهما. ودخلا القارب حيث وجد السيناتور مكانًا مريحًا لكارل يواجهه مباشرة، وبإشارة من السيناتور دفع البحارة بالقارب بعيداً عن الباخرة، من ثم انطلقوا في التجديف بأقصى سرعة.

لم تكن تفصلهم سوى بضع ياردات قليلة عندما اكتشف كارل، على غير توقع أنهم كانوا في الجانب الذي تطل عليه نوافذ حجرة الإدارة الثلاث.

كانت النوافذ الثلاث تمتلئ بشهود شوبال، الذين حيوهما، ولوحوا لهما بأيديهم في ود بالغ، ولوح الخال جيكوب بالفعل لهم بيده إلى الخلف، وأظهر أحد بحارة القارب براعته.. بأن طير بأصابعه قبلة نحو الباخرة دون أن يخل بإيقاع تجديفه المنتظم، وبدا الآن وكأنه لم يوجد بالفعل أي عطشجي بالمرة. وتطلع كارل بإمعان شديد إلى خاله الذي كانت ركبتاه تكاد تلمسان ركبتي كارل، وخامره الشك في قدرة هذا الرجل على أن يملأ مكان العطشجي. أزاغ خاله بعينيه، وحدق بهما في الأمواج التي كان قاربهما يهتز فوقها.

الفصل الثاني
الخال جيكوب

اعتاد كارل سريعًا أسلوب حياته الجديدة في منزل خاله، وكان خاله قد استجاب في الحقيقة لأقل رغبة من رغباته، فلم يعد كارل مجبرًا على أن يتعلم من خلال التجربة المُرّة التي غالبًا ما ترهق المرء عند بداية تعرفه على بلد من البلدان الأجنبية.

وكانت غرفة كارل تقع في الطابق السادس، من عمارة كانت أعمال خاله تشغل طوابقها الخمسة الأخرى، بالإضافة إلى طوابق ثلاثة أخرى كانت تقع في أسفل العمارة. وكانت حجرته ساطعة الضوء بنافذتيها وبابها الذي يفتح على إحدى الشرفات، حيث كانت الدهشة البالغة تأخذه كل صباح عندما كان يخرج إلى تلك الشرفة ناهضًا من فراشه الصغير.

غرفة ربما لم يكن ليحلم بمثلها مطلقًا، لو أنه كان قد نزل هذا البلد كمهاجر صغير معدم، فضلًا عن احتمال عدم التصريح له بدخول الولايات المتحدة مطلقًا، تبعًا لتقدير خاله، الذي كان على دراية بقوانين الهجرة، بل إنه ربما كان قد أجبر على العودة ثانية إلى وطنه، دون اعتبار مطلقًا لحقيقة أنه كان قد أصبح بلا وطن.

كان التعاطف شيئًا لا يصح لك أن تأمل فيه في بلد كهذا، وكانت أمريكا تتفق في هذا الصدد تمامًا مع ما كان كارل قد قرأه عنها، ما عدا

شيئًا واحدًا، هو أن هؤلاء الذين واتاهم الحظ فيها كان يبدو عليهم أنهم ينعمون هنا بحظهم مختالين بأنفسهم بين أصدقائهم الذين لا يبالون بشيء.

كانت ثمة شرفة خارجية ضيقة تمتد بطول حجرة كارل، لكن ما هي ميزة ذلك المكان المرتفع المتميز الذي لا يتيح له رؤية أكثر من منظر شارع واحد فحسب، يمتد مستقيمًا بين صفين من المباني التي تتخذ أشكالًا مربعة، ويبدو لهذا وكأنه يهرب مبتعدًا إلى حيث تتبدى خطوط إحدى الكاتدرائيات التي تبدو هائلة الحجم وسط ضباب متكاثف! ومنذ الصباح حتى المساء ثم في قلب الليل الحالم، بعد ذلك كان ذلك الشارع يبقى دائمًا مجرى لتيار قلب دائم من الحركة، كانت تبدو له من أعلى مضطربة معقدة، تبدو فيها هياكل كل الناس، في كل لحظة هياكل مضغوطة وحولها سطوح جميع أنواع المركبات التي ترسل إلى الفضاء ضجيجًا آخر أشد إسرافًا وتعقيدًا من ضجيج حركة الشارع، وتتصاعد الأتربة والروائح جميعًا وتنتشر في فيضانات من الأضواء التي ترسلها مختلف الأشياء التي يعج بها الشارع، ترتفع هذه الضجة كلها، ثم تعود فتتراجع لتتجمع في عنف مرة أخرى، فترهق العين المبهورة التي ترى هذا الاختلاط كما لو كان سطحًا من الزجاج يغطي أعلى الشارع ويتهشم في عنف متناثرًا إلى شظايا في كل لحظة.

كانت عيناه مفتوحتين على كل شيء، وكان خاله جيكوب قد نصحه بألا يأخذ شيئًا في الوقت الحاضر مأخذ الجد؛ ليتفحص كل شيء بالفعل ويأخذه في اعتباره، لكن دون أن يجهد نفسه. إن الأيام الأولى

لأي أوروبي في أمريكا تبدو كما لو كانت ميلادًا جديدًا، ولم يكن كارل يحاول أن يشغل نفسه كثيرًا بأمر أيامه الأولى هذه دون داع، ما دام المرء يعتاد على الأشياء هنا بسرعة أكبر من سرعة اعتياد الطفل القادم إلى الدنيا من العالم الآخر لهذه الأشياء، إلا أن عليه أن يضع نصب عينيه أن الأحكام الأولى لا يعول عليها دائمًا، ولهذا فلا يجب على المرء أن يسمح لها بالتأثير على أحكامه المقبلة التي سوف ترتكز عليها في نهاية الأمر حياته في أمريكا، ولقد عرف هو شخصيًّا وافدين جددًا، منهم على سبيل المثال، من نبذوا هذه الافتراضات الحكيمة وراحوا ينفقون أيامهم بطولها في شرفاتهم يحدقون منها نحو الشارع في أسفل كالقطعان الضالة. ربما كان استغراقه وحيدًا على هذا النحو في التحديق المتبلد نحو الحياة المتشابكة لنيويورك يسبب له حيرة بالغة.. إلا أن هذه الحيرة لو تملكت شخصًا وفد إلى أمريكا لمجرد المتعة، فلعلها تتملكه في حدود لا تتعداها. أما أن تتملك شخصًا ينوي البقاء في هذه الولايات، فلا معنى لها عندئذ سوى أنها أداة تدمير فحسب، وهو لفظ مؤثر بلا داع، ولعله ينطوي أيضًا على شيء من التهويل، وكان الخال جيكوب في الحقيقة يكشر في ضيق كلما وجد كارل واقفًا في الشرفة حين يكون في زيارة من زياراته لكارل، تلك الزيارات التي كانت تحدث مرة في كل يوم وفي أوقات مختلفة من النهار، وقد لاحظ كارل ذلك سريعًا، وكان يحرم نفسه بقدر الإمكان من متعة الوقوف لفترات طويلة في الشرفة، ومع ذلك فقد كانت هذه هي المتعة الوحيدة التي كانت في متناول يده. وكان في غرفته مكتب ذو تصميم

رائع على الطراز الأمريكي، نفس المكتب الذي ظل والده لسنوات طويلة يحلم بالحصول على مثله محاولًا الحصول عليه بثمن رخيص من كل أنواع المزادات، دون أن يوفق مطلقًا؛ نظرًا لضآلة دخله. هذا المكتب، لم يكن يربطه بالطبع أي وجه من وجوه المقارنة بذلك الذي كان يطلق عليه مكتب أمريكي الطراز في مزادات أوروبا، فهو يحتوي مثلًا على ما يقرب من مائة درج من مختلف الأحجام، حيث كان يمكن «لرئيس الولايات المتحدة» نفسه أن يجد مكانًا مناسبًا لكل ملف من ملفاته الرسمية، وكان يوجد بالإضافة إلى هذا «منظم» في أحد الجوانب، فلو أدرت مقبضًا ما، أمكنك أن تحدث وضعًا لكل هذه الأدراج غاية في التعقيد، ويمكنك أن تقوم بتبديل الأدراج على سبيل التسلية، أو لكي تتناسب مع حاجتك وتغطس هذه المكعبات في بطء لتشكل أساس مجموعة جديدة أو قمة الأدراج المتدرجة من أسفل إلى أعلى، وحتى بمجرد إدارة المقبض مرة أخرى، فإن ترتيب كل شيء يتغير تغيرًا تامًّا، ويتم التحول بصورة بطيئة، أو في سرعة محمومة تبعًا لدرجة ضغطك على المقبض عند إدارته، لقد كان هذا المكتب اختراعًا جديدًا كل الجدة، وأنه ليذكر كارل تمامًا بمنظر الكريسماس التقليدي الذي كان يعرض على الأطفال المذهولين في ساحة السوق في بلده، حيث يذكر نفسه أيضًا، وقد تدثر جيدًا بملابسه الشتوية، وتوقف مستعبدًا في أغلب الأحيان، يحاول عن كثب أن يقارن بين حركة المقبض الذي كان يديره رجل عجوز، بتغير المنظر، تقدم

الملوك المقدسين الثلاثة مترنحين وإشعاع النجم، صورة المذود المقدس المتواضعة.

ولقد بدا له دائمًا أن والدته عندما تقف خلفه، لم تكن تتابع تفاصيل هذه المشاهد بانتباه كافٍ، فكان يسحبها لتلتصق به حتى يشعر بها تضغط على ظهره ويصيح بأعلى صوته، ويظل يحدد لها كل ما يلاحظه على المناظر، ربما أرنب بري صغير بين الشعب في مقدمة المنظر جالسًا على ساقيه الخلفيتين، ثم ظل رابضًا وكأنه يتحفز للاندفاع ثانية حتى تغلق أمه فمه بيدها ثم تعود فيما يبدو إلى سابق حالها من الشرود، لم يكن المكتب قد صنع لمجرد أن يذكره دون شك بمثل هذه الأشياء، لكن لا بد أن تكون قد وجدت علاقة غامضة ما في تاريخ اختراعه شبيهة بتلك العلاقة التي انبعثت من ذاكرة كارل. ولم يكن الخال جيكوب ـ على عكس كارل ـ راضيًا عن هذا المكتب بالذات، كان يريد أن يشتري مكتبًا كامل المعدات من أجل كارل، لكن كانت كل المكاتب، في هذه الأيام، مجهزة بتلك الأجهزة الحديثة التي تتميز أيضًا بإمكان أن تتحول إلى مكاتب من الطراز القديم بنفقات لا تكاد تُذكر، وعلى كل حال فلم ينس خاله أن ينصحه بألا يستعمل المنظم «مطلقًا».

وقد شفَّع نصيحته بالإشارة إلى حساسية «المنظم» البالغة وسهولة إصابته بالعطب وارتفاع تكاليف إصلاحه ثانية! ليس من الصعب أن يتبين المرء أن هذه الملاحظات كانت مجرد إدعاءات، ومع أن الخال جيكوب كان يمكنه أن يغلق «المنظم» إلا أنه لم يفعل ذلك.

وفي الأيـام القلائـل الأولى الـتي أتيح لكـارل وخالـه أن يتبـادلا خلالهـا عديدًا من الأحاديث، ذكر كارل أنه كـان مغرمًـا في وطنـه بـالعزف على البيـانو مـع أنـه لم يمـارس العـزف عليـه كثـيرًا، ولـم يتلـق دراسـات في العزف عليه فيما عدا تعليمات والدته الفطرية، وكان كـارل واعيًـا تمـام الوعي أن تطوعه بهذه المعلومات، كان في الحقيقة طلبًـا لبيـانو، ولهـذا حدَّق لحظتها بعينيه في خاله، حـتى اتضـح لـه أن خالـه يمكن أن يكـون مسرفًا إلى حـد مـا، ولم ينفـذ هـذا الاقـتراح في الحـال، لكن بعـد مـرور حوالي ثمانية أيام، قال خاله له كما لو كان يصـرح لـه بموافقـة يصـعب عليه إعلانها، إن البيانو قد وصل الآن، ويمكن لكارل لو شاء أن يشـرف على نقله.. ولقد كان ذلك أمرًا هينًا جـدًّا، وإن لم يكن أهـون من عمليـة نقل البيانو نفسها، فقد كانت العمارة تحتوي على مصـعد خـاص لنقـل العفش، يمكن أن يتسع لحمولة عربة كبيرة ممتلئة بالأثاث، وفي داخـل هذا المصعد ارتفـع البيـانو إلى حجـرة كـارل. وكـان في وسـع كـارل أن يصعد هو أيضًـا مـع البيـانو والعمـال في نفس المصـعد، لكن كـان ثمـة مصعد آخر عادي، خال إلى جواره تمامًا.

وهكذا استعمل كارل هذا المصعد الأخير في صـعوده، محتفظًـا بنفسـه دائمًـا على نفس ارتفـاع المصـعد الآخـر، باسـتخدام رافعـة مـا، وكـان يحـدق في تركـيز من خلال المربعـات الزجاجيـة نحـو الجهـاز البـديع، الذي كان قد أصبح ملكًا خاصًّا له الآن! وعندما أصبح البيـانو أخـيرًا في داخل حجرته، وعزف عليه النوتة الأولى، كان قد بلغ به الفرح الأحمـق أقصـاه، حـتى أنـه قفـز واقفًـا، بـدلًا من مواصـلة العـزف ويـداه على

خاصرتيه، وراح يحدق إلى البيانو في طرب، على بعد عدة خطوات، كان الصوت في الحجرة يرن على نحو رائع، وقد تمكن من أن يزيل من نفس كارل شعوره بعدم الارتياح الذي أحس به؛ لأنه يعيش في عمارة مبنية من الصلب، ولم يكن المرء يرى في الحقيقة أي أثر للصلب في داخل الحجرة نفسها، على الرغم من منظر المبنى الخارجي، كما لم يكن في وسع المرء أيضًا أن يكتشف أقل تنافر في أثاثها لا ينسجم مع الكل.

ولقد علق كارل في البداية آمالًا كبيرة على عزفه على البيانو، وكان يحلم أحيانًا، بلا حياء قبل أن يغلبه النوم على الأقل، باحتمال تأثير عزفه على البيانو تأثيرًا مباشرًا على حياته في أمريكا، وعندما فتح نوافذه، ودخلت حجرته ضوضاء الشارع، كان من الغريب حقًّا أن يسمع على البيانو أغنية قديمة من أغاني الجيش في بلده، حيث يتمدد الجنود في إحدى الليالي عند نوافذ الثكنات ويحدقون في مربع من الضوء في الظلام في الخارج، ويغنون بعضهم إلى بعض من نافذة إلى أخرى..

لكن الشارع يبقى كما هو دون تغيير، لو نظر كارل إليه بعد ذلك يبقى عبارة عن جزء صغير في ترس هائل لا يمكن أن تلمسه يد قبل أن يدرك المرء تمامًا كل القوى التي تتحكم في مداره، ولقد أباح الخال جيكوب العزف على البيانو، ولم يتفوه بكلمة واحدة تعبر عن عدم ارتياحه بذلك، وخاصة أن كارل كان يستغرق في العزف عليه عندما يكون وحيدًا تمامًا، ولقد أحضر لكارل بالفعل نوتات بعض المارشات

الأمريكية، وبينها السلام الوطني، إلا أن حب كارل الخالص للموسيقى لم يفلح في أن يفسر له معنى ذلك السؤال الذي وجهه لكارل ذات يوم عندما سأله في جدية تامة، إن كان في نيته أن يتعلم العزف على الفيولينا أو النفخ في البوق أيضًا.

وكان تعلم اللغة الإنجليزية هو أول وأهم واجبات كارل، وكان مدرس شاب في إحدى الكليات التجارية المجاورة، يحضر في السابعة كل صباح إلى حجرته، فيجده عاكفًا بالفعل فوق المكتب على كراسات تمريناته، أو سائرًا يذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا وهو يحفظ المفردات. وقد أدرك كارل في وضوح أنه لو أراد أن يتقن اللغة الإنجليزية، فليس لديه من الوقت ما يضيعه في غير العمل، وأدرك أن هذه كانت أيضًا أفضل فرصة يمكنه أن ينتهزها ليدخل السرور على قلب خاله، بالتقدم السريع في الدراسة، ومع أنه كان يقصر نفسه في البداية على استخدام أبسط التحيات، إلا أنه سرعان ما أصبح قادرًا على أن يستخدم اللغة الإنجليزية في أجزاء كبيرة، كانت تتزايد دائمًا في أحاديثه مع خاله، حينما كان حديثهما والجياد راكضة في مدرسة ركوب الخيل التي أرسله إليها خاله، ولم يكن من الممكن أن يرى المرء سوى ذراع «ماك» المرفوعة عندما كان يشير بأوامره إلى كارل، وبعد انقضاء نصف الساعة المفعمة بالمتعة، التي تنقضي كالحلم، كان يعلن التوقف، وكان «ماك» يبدو حينئذ دائمًا في عجلة شديدة من أمره، فيقول لكارل إلى اللقاء، وهو يربت على خده عدة مرات كما لو كان قد سره بالفعل أن يشاهد ركوبه، ثم يختفي، ثم يصعد كارل ومدرس اللغة الإنجليزية

إلى السيارة، ويعودان إلى دروسهما، خلال الطرق الخالية غالبًا؛ ذلك أنهما لو دخلا في حركة المرور التي تتحرك على امتداد الشارع الرئيسي الذي يؤدي مباشرة من مدرسة ركوب الخيل إلى عمارة خاله، فإن معنى هذا ضياع وقت طويل، وعلى كل حال، فقد تخلى مدرس اللغة الإنجليزية أخيرًا عن القيام بدور الحارس؛ لأن كارل الذي لام نفسه أشد اللوم لإجبار هذا الرجل المرهق دون مبرر، على مرافقته إلى مدرسة الفروسية، وخاصة عندما تبين له أن الإنجليزية التي كان يستعملها في حديثه مع «ماك» خلال التدريب، كانت بضع جمل غاية في البساطة، توسل لهذا إلى خاله أن يعفي الرجل من القيام بهذا الواجب، وبعد تفكير طويل نزل خاله على رغبته.

ولقد انقضى وقت طويل قبل أن يسمح الخال جيكوب لكارل ببعض المعلومات التي تتصل بعمله، مع أن كارل كان قد سأله طويلًا من قبل أن يسمح له بشيء من ذلك. كان عمله نوعًا من القومسيون «السمسرة» والتشهيل أو ما شابه ذلك، على حسب أدق التخمينات التي توصل إليها كارل، ولعل عمله كان نوعًا من العمل الذي لا وجود له في أوروبا؛ ذلك لأن العمل لم يكن يتوقف على نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك أو التاجر، لكنه كان تداولًا لكل أنواع السلع الضرورية، والمواد الخام التي تتداولها الشركات فيما بينها، وبين الاحتكارات الصناعية.. وقد كانت طبيعة العمل تبعًا لهذا هي شكل ما من النشاط الذي يتضمن الشراء، والتخزين، والنقل، والإتجار في الكميات الهائلة من البضائع، كل ذلك في وقت معًا، ولهذا كان لا بد أن تتوافر له

أقصى درجات الدقة، والاتصالات الدائمة التي لا تنقطع، الاتصالات التليفونية والتلغرافية بكل عملائها المختلفين. ولم تكن صالة عمال التلغراف أصغر، بل كانت أكبر كثيرًا من صالة مكتب التلغراف في مدينة كارل، التي أتيح له ذات مرة أن يلقي عليها نظرة، بمساعدة زميل من زملائه في المدرسة، كان له من يعرفونه فيها، وكان من الممكن رؤية أبواب أكشاك التليفونات وهي تفتح، وتغلق من أي مكان اتفق للمرء أن ينظر نحوه، بداخل صالة التليفونات، وكانت الضجة بداخلها تكاد تدفع المرء إلى الجنون.. فتح خاله أول باب من هذه الأبواب، ورأى كارل تحت الضوء الكهربائي الساطع، عاملًا معزولًا تمامًا عن كل صوت يمكن أن يصدر عن الباب.. تطوق رأسه حلقة من الصلب وتضغط السماعتان على أذنيه. كانت ذراعه اليمنى موضوعة فوق منضدة صغيرة، ويبدو كما لو كانت ثقيلة بدرجة غريبة، وكانت الأصابع وحدها تمسك بقلم رصاص، مستمر في الارتعاش بانتظام وسرعة لا إنسانيتين، وكان مقتضبًا من الكلمات التي كان يقولها في «المرسل»، وكان المرء يلاحظ غالبًا، أنه رغم ما يبدو عليه من التأهب طالبًا رفع الصوت أو راغبًا في مزيد من الدقة في المعلومات، فإن الجملة التالية التي يسمعها كانت ترغمه على أن يخفض عينيه، وأن يمضي في الكتابة قبل أن يتمكن من تنفيذ نيته، وعلاوة على ذلك، فإنه لم يكن بحاجة إلى أن يقول شيئًا، كما أوضح ذلك الخال جيكوب لكارل في صوت طيع، ذلك لأن هذه المحادثة نفسها التي يقوم بها هذا العامل، كانت تجري في نفس الوقت بواسطة عاملين آخرين، ويمكن

بعد ذلك بمقارنة التقريرات المختلفة، تجنب الأخطاء قدر المستطاع. وعندما خرج الخال جيكوب وكارل في تلك اللحظة من الكشك، انسل ساع إلى داخله، وخرج بالمذكرات التي فرغ العامل من تدوينها لتوه، وفي داخل القاعة كان يرتفع ضجيج متواصل يسببه الناس الذين يندفعون هنا وهناك، لم يقل أحد إلى اللقاء، كما أن التحيات كانت ممنوعة، وكان كل واحد يقفو أثر خطوات الذي يسبقه متخذًا نفس الوجهة، مركزًا عينيه على الأرض، التي كان عليه أن يقطعها بأسرع ما يمكنه، أو يلقي بنظرة سريعة إلى كلمة، أو علامة هنا أو هناك على الأوراق التي يحملها في يده، والتي يتلاعب بها الهواء في أثناء حركته المسرعة.

ـ «لقد حققت شيئًا خارقًا بالفعل!».

قالها كارل في مرة من المرات التي قام فيها بتجولاته خلال المبنى، الذي استغرقه عدة أيام ليجوس في كل أجزائه، حتى ولو لم يكن عليه سوى أن يلقي مجرد نظرة على كل قسم.

ـ «دعني أذكر لك أيضًا، إنني بدأت في إنشاء هذا كله بنفسي منذ ثلاثين عامًا، وكان عملي محدودًا في ذلك الوقت، بالقرب من أحواض السفن، ولو تصادف وعهد إليَّ بتفريغ خمس عبوات في يوم واحد، فقد كنت أعتبره يومًا عظيمًا، وأعود إلى المنزل منتفخًا بالزهو، واليوم تغطي مخازني ثالث المساحات الكبيرة في الميناء، ومخزني القديم هو

الآن المطعم والمخزن الذي يضم حاجيات الحمالين الذين يعملون لديّ، والذين يشكلون خمسًا وستين فرقة.

قال كارل: «إن هذا مدهش في الحقيقة».

وأجابه خاله منهيًا حديثه: «إن التطورات في هذا البلد سريعة دائمًا».

وذات يوم ظهر خاله فجأة قبل الغداء مباشرة، ذلك الغداء الذي كان كارل يتوقع أن يتناوله وحيدًا كعادته، وطلب منه أن يرتدي بذلته السوداء في الحال، وأن يصحبه لتناول الغداء بصحبة اثنين آخرين من أصدقائه في العمل، وبينما كان كارل يبدل ملابسه في الحجرة المجاورة، جلس خاله إلى المكتب، وتطلع إلى التمرينات الإنجليزية التي كان كارل قد انتهى توًّا من أدائها، ثم أنزل ذراعه إلى جانبه، وصاح في دهشة قائلًا بأعلى صوته: «مستوى من الدرجة الأولى، حقيقة!».

وواصل كارل إبدال ملابسه في ارتياح لا شك فيه، عند سماعه هذه الكلمات التي تمتدحه، إلا أنه على كل حال كان قد أصبح الآن واثقًا تمام الثقة من إنجليزيته.

وفي حجرة طعام خاله، التي ما زال يذكرها منذ اللية الأولى لوصوله، نهض رجلان طويلان متينا البنيان، واقفين، كان أحدهما يدعى «جرين» وكان الآخر، يدعى «بوللاندر»، كما اتضح من خلال الحديث اللاحق، ذلك أن خاله لم يكن يتفوه تقريبًا بكلمة تتناول أحدًا من معارفه، وكان دائمًا يترك الفرصة لكارل، حتى يكتشف من خلاله ملاحظته ما الذي كان مهمًا، أو مثيرًا للاهتمام في أمرهم، وخلال تناول

الغداء، لم يدر بينهم من الحديث سوى ما يتناول أمور العمل، الذي كان يعني بالنسبة لكارل درسًا ممتازًا في المفردات الإنجليزية التجارية، وترك كارل وحيدًا لينشغل بأمر طعامه، كما لو كان طفلًا، ليس عليه سوى أن يجلس معتدلًا وأن يحصر اهتمامه في إفراغ طبقه، إلا أن مستر جرين مال على المائدة نحوه، وسأله بالإنجليزية دون أن يغيب عن باله أن ينطق كل كلمة بأقصى ما يمكنه من الوضوح، ماذا كانت على وجه العموم انطباعاتك الأولى عن أمريكا؟ وبنظرات قليلة جانبية وجهها نحو خاله، أجاب كارل تقريبًا إجابة كاملة في الصمت التام الذي أعقب ذلك السؤال، واستخدم لإرضاء نفسه، وأيضًا كنوع من الامتنان عددًا من تعبيرات نيويورك المتميزة. واندفع الرجال الثلاثة معًا في الضحك عندما نطق بإحدى الجمل، وخشي كارل أن يكون قد ارتكب خطأً ملحوظًا لكن لا، فقد فسر له مستر «بوللاندر» أنه كان قد قال بالفعل لتوه، شيئًا غاية في الظرف. وفي الحقيقة كان المستر «بوللاندر» قد بدا وكأنه قد شغف بكارل بصورة ما بالفعل، وبينما عاد الخال جيكوب، ومستر جرين ثانية إلى التشاور في شئون أعمالهما طلب مستر «بوللاندر» من كارل أن يقترب بمقعده، وسأله أسئلة لا حصر لها عن اسمه، وعائلته وعن رحلته، وأخيرًا، لكي يعطيه فرصة راح في سرعة، وهو يضحك، ويسعل يحكي له عن نفسه، وعن ابنته التي يعيش معها في منزل ريفي صغير على مقربة من نيويورك، حيث يقضي فيه أمسياته فقط؛ لأنه كان مديرًا لأحد البنوك، ولأن عمله يفرض عليه التواجد طوال اليوم في نيويورك، ولقد وجهت لكارل الدعوة بالذهاب إلى

المنزل الريفي في حرارة، ذلك أن أمريكيًا حديثًا على هذا النحو، ويفتقر كذلك إلى التجربة لا بد أن يكون في حاجة إلى استحمامٍ من حين لآخر من «نيويورك». وسأل كارل خاله في الحال، أن يأذن له بقبول هذه الدعوة، فسمح له خاله بذلك في سرور واضح، وإن يكن دون تحديد وقت معين أو حتى دون أن يعيرها كثيرًا من الاهتمام، كما توقع كارل ومستر «بوللاندر».

لكن في اليوم التالي، استدعى كارل إلى أحد مكاتب خاله ـ كان لخاله عشرة مكاتب مختلفة في هذا المبنى وحده، حيث وجد خاله، ومعه المستر «بوللاندر» مضطجعين تقريبًا على نفس الصورة في مقعدين وثيرين.

قال له خاله: إن مستر «بوللاندر» ـ الذي كان من الممكن تمييزه في ظلمة المساء التي كانت تخيم على الحجرة ـ قد حضر لكي يصحبك معه إلى منزله الريفي، كما قيل بالأمس. فأجاب كارل قائلًا: لم أكن أعلم أن ذلك كان سيتم اليوم، وإلا كنت قد أعددت نفسي لذلك.

فقال خاله: إذا لم تكن على استعداد، فلعله من الأفضل أن تؤجل هذه الزيارة إلى وقت آخر.

وصاح مستر «بوللاندر» قائلًا: وما هي حاجتك إلى الاستعداد، إن الشاب يجب أن يكون مستعدًا دائمًا لأي شيء.

فقال خاله مستديرًا نحو ضيفه: لا يتعلق الأمر به، لكن عليه أن يصعد ثانية إلى حجرته، وسوف يسبب هذا تأخيرك.

فقال مستر «بوللاندر»: يوجد متسع من الوقت لهذا، لقد عملت حساب التأخير، وغادرت مكتبي مبكرًا.

فقال الخال جيكوب: هل رأيت مدى الاضطراب الذي أحدثته زيارتك الآن بالفعل؟ قال كارل: إنني في غاية الأسف، إلا أنني سوف أكون هنا ثانية في خلال دقيقة واحدة، واندفع خارجًا.

قال مستر «بوللاندر»: لا تتعجل إنك لا تسبب لي أقل إزعاج، بل على العكس، إنه ليسرني أن تقوم بزيارتي.

ـ سوف يفوتك درس الفروسية غداً.. هل ألغيته؟ قال كارل: لا.. لست أدري..

لقد بدأت هذه الزيارة التي كان يتطلع إليها ترهقه الآن.

وتساءل خاله: وهل تنوي الذهاب على الرغم من ذلك؟ وتدخل مستر «بوللاندر»، ذلك الرجل العطوف، لمساعدة كارل، قائلًا: سوف نتوقف في طريقنا عند مدرسة الفروسية، وندبر أمر كل شيء.

قال الخال جيكوب: ثمة شيء آخر هو أن «ماك» سيتوقع ذهابك!.

فقال كارل: إنه لن يتوقع ذهابي؛ لأنه سوف يذهب على كل حال إلى المدرسة.

فقال الخال جيكوب: حسنًا إذن، وكأن إجابة كارل لم تكن سوى مجرد حجة واهية.

وتدخل المستر «بوللاندر» مرة أخرى لحل المشكلة، قائلًا: لكن.. كلارا.. كانت كلارا هي ابنة مستر بوللاندر، تتوقع حضوره هي أيضًا، وفي هذا المساء نفسه، ولا شك أن لها الأفضلية على «ماك».

قال الخال جيكوب: بالتأكيد.. حسنًا، إذن، أسرع بالذهاب إلى حجرتك.

وبحركة بدت كما لو كانت حركة لا إرادية، دق عدة مرات على ذراع المقعد، وكان كارل قد أصبح لحظتها عند الباب، عندما أوقفه خاله ثانية بسؤاله:

ـ بالطبع، ستكون هنا ثانية، غدًا صباحًا، لتحضر درس اللغة الإنجليزية.

فصاح المستر «بوللاندر» قائلًا: لكن يا سيدي العزيز، وهو يستدير مندهشًا في مقعده إلى الحد الذي سمحت له بها ضخامته:

ـ ألا يمكنه أن يبقى معنا على الأقل حتى بعد الغد؟ ألا يمكنني أن أحضره معي في الصباح الباكر بعد غد؟ فرد الخال جيكوب قائلًا: ليس ثمة مجال للسؤال في هذا الشأن، فلا يمكنني أن أسمح بانقطاع دراسته على هذا النحو، وفيما بعد، عندما يتاح له الحصول على وظيفة ثابتة من نوع ما، سأكون مسرورًا عندما أتركه يقبل هذا النوع من الدعوات الممتدة لوقت أطول.

وفكر كارل في نفسه قائلًا: «يا له من اعتراض».

وقال المستر «بوللاندر» باكتئاب: «لكن فقط لمدة أمسية واحدة، ليلة واحدة؟ إنها لا تكاد في الحقيقة تستحق العناء!».

قال الخال جيكوب: «هذا ما أعتقده أنا أيضًا».

فقال المستر «بوللاندر»: «على المرء أن يقبل ما يتيسر له»، ثم عاد ثانية إلى الضحك، قائلًا: «حسنًا.. سأنتظرك..» ملوحًا لكارل، الذي أسرع مبتعدًا عندما لم يقل خاله شيئًا أكثر من ذلك.

وعندما عاد بعد قليل، مستعدًا للرحلة، وجد مستر «بوللاندر» وحده في الغرفة، كان خاله قد غادرها، وهز مستر «بوللاندر» يدي كارل بكلتا يديه في مرح، كما لو كان يريد أن يؤكد لنفسه كل التأكيد، أن كارل كان ذاهبًا معه في نهاية الأمر. وكان كارل لا يزال مضطربًا نتيجة لتعجله، ومع ذلك فقط ضغط يدي مستر «بوللاندر» بدوره. كان يكاد يطير فرحًا لفكرة الزيارة.

ـ «أليس خالي غاضبًا لذهابي؟».

ـ «لا مطلقًا.. إنه لا يقصد كل ما قال جديًّا.. إنه فقط مهتم بأمر تعليمك اهتمامًا شديدًا».

ـ «هل أخبرك هو نفسه أنه لا يقصد ما قاله جديًّا؟».

ـ «أوه.. نعم»، قالها المستر «بوللاندر»، وهو يضغط على الحروف في بطء، مؤكدًا بهذا أنه لا يمكنه أن ينطق كذبًا..

ـ «إنه من الغريب ألا يكون راغبًا في أن يسمح لي بزيارتك، مع أنك صديقه!».

وعلى الرغم من أن مستر «بوللاندر» هو أيضًا لم يكن يوافق على ذلك، إلا أنه لم يجد تفسيرًا للأمر، وكان كلاهما، وهما ينطلقان بعربة مستر «بوللاندر» خلال المساء الدافئ، قد راحا يقلبان هذا الأمر طويلًا في رأسيهما، على الرغم من أنهما قد تحدثا في أمور أخرى. كانا يجلسان ملتصقين، وكان كارل متشوقًا لسماع أكبر قدر ممكن عن الآنسة «كلارا» كما لو كان نفاد صبره لطول الرحلة يمكن أن يخففه الاستماع إلى القصص التي تجعل الوقت ينقضي في سرعة. لم يسبق له من قبل أن مر في شوارع نيويورك في المساء، لكن على الرغم من ازدحام الأرصفة والشوارع العامة بالحركة التي يتغير اتجاهها في كل لحظة، كما لو كانت زوبعة، وكان الزئير المنبعث عن حركة الشوارع، يبدو أشبه بأصوات كائنات غريبة لا صلة لها بالبشرية مطلقًا. وكان كارل وهو يجهد نفسه في تركيز انتباهه لالتقاط كلمات مستر «بوللاندر» لم يكن يرى شيئًا سوى معطف مستر «بوللاندر» الغامق، الذي كان موثقًا بسلسلة ذهبية... وخارج الشوارع الرئيسية حيث كان رواد المسارح يصخبون لخوفهم الشديد، من أن يكون الوقت قد تأخر بهم، وبينما هم يسرعون في طريقهم بخطوات مهرولة، أو يمرقون في عربات، بأقصى سرعة ممكنة، كانا قد وصلا بسرعة إلى الضواحي، حيث تحولت سيارتهما عن طريقها بواسطة رجال البوليس الذين يركبون الجياد، أكثر من مرةـ إلى الشوارع الفرعية؛ ذلك لأن الطريق الرئيسي كانت

تملؤه مظاهرة قام بها عمال المعادن المضربون، وكان المرور الضروري، يسمح له باستعمال مفترق الطرق. وعندما خرجت سيارتهما من الظلام الذي يخيم على الطرقات الضيقة، عبرت أحد هذه الشوارع المهمة، الفسيحة التي تكاد تكون في اتساع الميادين، وبدا على كل من الجانبين رصيف لا ينتهي، ممتلئ بحشود متحركة من الناس الذين يتقدمون في بطء إلى الأمام، حيث كانت أناشيدهم أكثر تجانسًا من أي صوت إنساني آخر مفرد. وكان يمكن رؤية رجال البوليس على ظهور الجياد في الشوارع العمومية التي ظلت خالية، وهم يتحركون هنا وهناك، أو وهم يجلسون فوق جياد ساكنة لا تأتي بأية حركة، أو حاملي الأعلام أو الأشرطة الممتلئة ببعض الكتابات، تمتد بعرض الشارع فوق رؤوس المتظاهرين، أو زعيم عمالي محاط بالملاء والأعوان، أو ترام كهربائي لم يتمكن من الفرار بسرعة، ولهذا توقف الآن مظلمًا، وخاليًا، بينما السائق والكمساري يستلقيان على الرصيف. وجماعات صغيرة من المتفرجين الفضوليين يقفون على البعد، يرقبون المساعدين، كانوا متسمرين في أماكنهم على الرغم من أنه لم يكن لديهم أدنى فكرة عما كان يجري.

إلا أن كارل كان يضطجع إلى الخلف في سعادة، وكانت فكرة أنه سيكون الآن ضيفًا عزيزًا، في منزل ريفي ساطع الضياء، محاط بأسوار عالية، وتقوم على حراسته كلاب الحراسة المدربة، كانت هذه الفكرة قد ملأته بالرضا البالغ، ومع أنه كان قد بدأ الآن يشعر بالنعاس يغالبه، ولم يعد قادرًا على أن يلتقط تمامًا ما كان مستر «بوللاندر» يوجهه إليه،

أو كان يسمع أجزاء متقطعة من حديثه على الأكثر، فقد راح يلوم نفسه بين الحين والآخر، ويدعك عينيه حتى يرى إن كان مستر «بوللاندر» قد لاحظ نعاسه ذلك! إن هذا كان شيئًا حاول كارل أن يتجنبه بأي ثمن.

الفصل الثالث

منزل ريفي بالقرب من نيويورك

«حسنًا، لقد وصلنا»، قالها مستر «بوللاندر» في لحظة من لحظات شرود كارل. كانت العربة قد توقفت أمام منزل، كأغلب المنازل التي يملكها الأثرياء في ضواحي نيويورك، منزل يتسع ويمتد إلى أبعد مما ينبغي لمنزل ريفي أُعد لسكنى أسرة واحدة فقط. ولما لم يكن يوجد أي ضوء ينبعث منه، سوى بصيص كان ينبعث من أحد جوانب طابقه الأسفل، فقد كان من الصعب أن يقدر المرء مدى ارتفاعه. وكانت تنبعث أمام المنزل أصوات تصدر عن حفيف أشجار جوز الهند، وثمة ـ كانت البوابة قد فتحت على مصراعيها عندئذ ـ ممر قصير يفصل المنزل عن تلك الأشجار، ويؤدي إلى درجات الباب الخارجي للمنزل. أحس كارل بالتعب عند هبوطه من العربة، حتى لقد بدأ يظن أن الرحلة كانت رحلة طويلة على نحو ما، وسمع في ظلام الممر الذي كانت تظلله أشجار جوز الهند، صوت فتاة إلى جانبه، تقول: «هذا إذن هو المستر جيكوب أخيرًا!»، فقال كارل وهو يتناول اليد التي مدتها إليه تلك الفتاة التي لم يتمكن من أن يتحقق من شكلها: «إن اسمي هو روسمان!» وقال مستر «بوللاندر» موضحًا: «إنه ابن أخت جيكوب فقط، أما اسمه فهو كارل روسمان».

فقالت الفتاة التي لم تكن تلتفت كثيرًا إلى الأسماء: «لن يقلل هذا من سرورنا لرؤيته».

وألح كارل هو أيضًا في التساؤل، وهو يسير متجهًا نحو المنزل بين مستر «بوللاندر»، وبين الفتاة: «هل أنت الآنسة كلارا؟».

قالت: «نعم»، وأضاء وجهها في هذه اللحظة شعاع ينبعث من داخل المنزل،و كانت تميل برأسها نحو كارل، وهي تضيف: «إلا أنني لا أريد أن أقدم نفسي هنا في الظلام».

وفكر كارل، وهو يفيق أكثر كلما تقدم في السير، قائلًا في نفسه: «هل كانت تنتظرنا بجوار البوابة؟».

قالت كلارا: «على فكرة لدينا ضيف آخر هذه الليلة».

فصاح «بوللاندر» منفعلًا: «مستحيل!».

وقالت كلارا: «إنه مستر جرين».

فتساءل كارل، وكأن إلهامًا قد تملكه: «متى وصل؟».

ـ «منذ دقيقة واحدة، ألم تسمعا صوت سيارته التي كانت تتقدم سيارتكما؟».

وتطلع كارل إلى أعلى، نحو مستر «بوللاندر» ليرى ما سيفعله في هذا الموقف، إلا أن «بوللاندر» كان قد دس يديه في جيبي بنطلونه، وكانت قدماه قد تسمرتا في أرض الممر:

ـ «لا خير في الحياة خارج نيويورك، فهي لا تعفيك من الإزعاج، وسوف نحاول تدبير منزل لنا في مكان أبعد كثيرًا من هذا المكان، حتى ولو كلفني بلوغه أن أقود سيارتي إلى منتصف الليل».

وظلوا واقفين أمام الدرجات المؤدية إلى باب المنزل الخارجي.

قالت كلارا: «لكن وقتًا طويلًا انقضى بالفعل، منذ زارنا مستر جرين آخر مرة!»، كانت تتفق مع أبيها فيما قال، لكنها كانت تحاول تهدئته، والتخفيف من ضيقه.

قال «بوللاندر»: «ولماذا جاء في هذه الليلة بالذات؟!»، وقد تدحرجت الكلمات فوق شفته السفلى المتهدلة في غضب. كانت ترتجف، كما كان يرتجف كل جسده الثقيل المترهل في وضوح.

قالت كلارا: «لماذا حقًّا؟».

وقال كارل، مندهشًا هو نفسه للتعاطف الذي ربطه بهذين الشخصين اللذين كانا غريبين تمامًا عنه قبل يوم واحد: «ربما لن يلبث حتى يعود ثانية من حيث أتى!».

قالت كلارا: «أوه.. لا، إن أعمالًا مهمة تربطه ببابا، وقد يستغرق بحثها وقتًا طويلًا، فلقد هددني فور وصوله مازحًا بقوله: «إن عليَّ أن أظل واقفة حتى الصباح، إن كان قد راق لي أن أبدو أمامه في صورة المضيفة المهذبة!».

فصاح «بوللاندر»، وكأن شيئًا لم يكن أشد سوءًا مما سمع، قائلًا: «هذه هي القشة الأخيرة.. إذن فهو ينوي البقاء طوال الليل؟».. وأضاف قائلًا: «إنني أشعر بشيء من الرغبة..ـ ووشت عبارته هذه بشيء من القدرة على المرح ـ إنني اشعر بالفعل بشيء من الرغبة يا مستر روسمان، في أن أضعك ثانية في داخل العربة، وأعود بك مباشرة إلى خالك! لقد

ضاعت هذه الليلة الآن مقدمًا، ومن يدري متى يسمح لك خالك بزيارتك لنا هنا ثانية، إلا أنني لو عدت بك ثانية إلى نيويورك الليلة، فلن يكون أمامه أن يرفض السماح لك بزيارتنا في المرة القادمة».

وأمسك بيد كارل، لكي يشرع في تنفيذ فكرته في اللحظة نفسها، إلا أن كارل لم يتزحزح من مكانه، ورجت كلارا أباها أن يتركه، فلن يكونا هي وكارل على الأقل في حاجة إلى السماح لمستر جرين بإزعاجهما مطلقًا. وفي النهاية كان «بوللاندر» نفسه يخشى أن يكون قراره قد أصبح قرارًا حاسمًا بحيث لا يمكنه أن يتحول عن تنفيذه، وفوق ذلك ـ ربما كان هذا هو القرار الحاسم فعلًا ـ كانوا قد سمعوا فجأة مستر جرين، يهتف من أعلى الدرج، إلى الحديقة، قائلًا: «أين أنتم بحق الجحيم؟».

فقال المستر «بوللاندر»: «إننا قادمون!»، وراح يصعد الدرجات، وخلفه كارل، وكلارا اللذان تفحصا الآن بعضهما في الضوء.

قال كارل في نفسه: «ما أشد احمرار شفتيها؟»، وتذكر شفتي مستر «بوللاندر» وكيف تحولتا إلى هذه الصورة الساحرة، في شفتي ابنته! قالت: «سنتوجه بعد تناول العشاء مباشرة، إلى حجرتي، لو رغبت في ذلك، وهكذا يمكننا على الأقل أن نتخلص من مستر جرين، حتى لو تحتم على بابا أن يبقى معه، ولعلك أن تكون لطيفًا لتعزف لي على البيانو، فقد قال لي بابا إن لك مقدرة فائقة على العزف، ويؤسفني أشد الأسف أن أصرح لك بأنني لا أستطيع مطلقًا، أن أتمرن على العزف،

وإنـــني لم ألمس البيـــانو الــذي أمتلكــه مطلقًــا، رغم حــبي الشــديد للموسيقى!».

كان كارل على أتم استعداد لتلبية رجاء كلارا، مع أنه كان يـود لـو كـان في إمكان المستر «بوللاندر» أن ينضم إليهمـا، إلا أن رؤيتـه لهيئـة مسـتر جرين العملاقةـ كان كارل قد اعتاد على رؤية كرش بوللاندرـ عندما بـدت لهم قامتـه في أعلى الـدرج، وهم يصـعدون درجـات السـلم، قـد طردت كل أمل كان قد تبقى لدى كـارل في انـتزاع بوللانـدر بعيـدًا عن هذا الرجل، في تلك الليلة.

واستقبلهم مستر جـرين في لهفـة، وكـأن وقتًـا طـويلًا كـان قـد انقضـى بالفعل دون طائل. تنـاول ذراع مسـتر «بوللانـدر»، ودفـع كـارل وكلارا أمامه نحو حجرة الطعام، التي كانت تبدو مبهجة غايـة البهجـة بالأزهـار التي كانت منسـقة فـوق المائـدة، والـتي كـانت تنبثـق من بين الأغصـان والأوراق الخضراء، فجعلت وجود مستر جرين شـيئًا مؤسـفًا على نحـو مضاعف، كان كـارل يحـدث نفسـه بهـذا، بينمـا كـان ينتظـر إلى جـوار المائدة حتى جلس الآخرون، وكانت تتملكه الرغبة في أن تظل الأبـواب الزجاجية الـتي تفتح على الحديقـة مفتوحـة كمـا كـانت، ذلـك أن شـذًا قويًّا كان يهب إلى داخل الحجرة وكأن المرء كان يجلس تحت تعريشة زهور. عندما نفخ مستر جرين منخاريـه. وانـدفع لإغلاق هـذه الأبـواب الزجاجية نفسـها، منحنيًـا إلى الـترابيس الـتي في أسـفلها. ومرتفعًـا على أطراف أصابع قدميه، مادًّا ذراعه إلى أعلى لإغلاق الترابيس العليا، فعـل ذلك في نشاط الشباب، حتى أن الخادم عندما أسرع إليه، لم يجـد شـيئًا

قد تبقى له ليقوم به، وكان أول ما تفوه به مستر جرين عندما عاد بعد ذلك إلى المائدة، هو التعبير عن دهشته لأن كارل كان قد طلب موافقة خاله على قيامه بهذه الزيارة. ودفع ملعقة ممتلئة بالشوربة إلى فمه، ثم ملعقة أخرى، وراح يشرح لكلارا التي كانت تجلس إلى يمينه، ومستر «بوللاندر» الذي إلى يساره، لماذا كان مندهشًا بهذه الصورة، وكم كان الخال جيكوب قلقًا في اهتمامه بكارل، حتى أن عطفه عليه كان عطفًا بالغًا إلى حد أبعد ما يكون عن عطف خال على ابن أخته! وحدث كارل نفسه قائلًا: «إنه ليس قانعًا بتدخله غير المرغوب فيه هنا، وإنما يصر أيضًا على التدخل بيني وبين خالي..» ولم يتمكن كارل من ابتلاع قطرة واحدة من الشوربة الذهبية اللون، لكنه راح بعد ذلك يصب الشوربة في صمت في داخل حلقه؛ لأنه لم يرغب في أن يظهر ما شعر به من الغضب، واستمر في تناول العشاء في بطء مؤلم.

ولم يظهر مستر جرين الذي كانت كلارا تعاونه على تناول وجبته، شيئًا من الحيوية أو النشاط، وكان يطلق ضحكة عالية بين الحين والآخر كلما سنحت الفرصة، وترك المستر «بوللاندر» نفسه يستغرق في المناقشة مرة أو مرتين، عندما كان مستر جرين يتحدث عن الأعمال، إلا أنه سرعان ما انسحب حتى من الحديث عن الأعمال هي أيضًا، وكان على مستر جرين أن يغريه على الحديث، بالعودة إليه ثانية على غير توقع. وفوق ذلك فقد ظل مستر جرين يكرر قوله بأنه لم يكن ينوي القيام بهذه الزيارة المفاجئة.. وعندما كان مستر جرين يقول ذلك، كان كارل يتسمع كما لو كان شخصًا ما يتهدده، وكانت كلارا قد تشبثت

به، وقالت له إن اللحم المشوي موجود إلى جوار مرفقه، وقالت إنه الآن في حفلة عشاء! ويضيف جرين قائلًا: إن الأمر الذي جاء لمناقشته كان أمرًا ذا أهمية خاصة، إلا أن أهم جزء فيه كان من الممكن أن يتم بحثه في المدينة، في هذا اليوم، مع ترك التفاصيل الثانوية لإتمام بحثها في اليوم التالي أو في أي يوم آخر فيما بعد.

ولهذا فقد استدعى بالفعل إلى مكتب المستر «بوللاندر»، قبل موعد الانصراف بوقت طويل، إلا أنه لم يجد المستر «بوللاندر» في مكتبه، وكان عليه لهذا أن يتصل تليفونيًّا بمنزله، ليخبرهم بأنه لن يعود هذه الليلة، واستقل سيارته بعد ذلك إلى هنا.

فقال كارل في صوت مرتفع، قبل أن يجد أي شخص آخر فرصة للرد على جرين: «إذن، فيجب عليّ أن أعتذر إليك؛ لأنني الملوم على ترك مستر بوللاندر لمكتبه مبكرًا اليوم، وإنني لفي غاية الأسف».

وحاول مستر بوللاندر أن يخفي وجهه خلف فوطة السفرة، بينما ابتسمت له كلارا ابتسامة لم تكن تنم عن عطفها، بل كان تشي برغبتها في التأثير عليه على نحو ما.

وقال مستر جرين وهو يمزق حمامة مشوية بضربات قاطعة من سكينه:

ـ «لم يطلب أحد منك أن تعتذر، بل إنني على عكس ذلك مغتبط جدًّا لقضاء الليلة في هذه الصحبة السارة، بدلًا من تناول العشاء وحدي في منزلي، حيث لا يوجد لدي سوى مدبرة منزل عجوز هي التي أجدها في انتظاري، وإنها عجوز جدًّا، حتى إن أقصى مجهود يسعها أن تبذله هو

أن تنتقـل من بـاب المطبخ إلى المائـدة فحسـب، وأضـطجع أنـا في مقعدي إلى الخلف منتظرًا بضـع دقـائق في كـل مـرة، أرقبهـا فيهـا وهي تقطع رحلتها الشاقة، ولم تتوقف هذه الرحلة إلا أخيرًا عندما أقنعتها في النهاية بأن تـترك مهمـة توصـيل الأطبـاق من المطبخ حـتى بـاب حجـرة الطعام لخادمي، إلا أن الرحلة من باب حجرة الطعام حـتى المائـدة، هي المهمة التي لا تزال تقوم الآن بأدائها على قدر ما يسعني الاستنتاج».

صاحت كلارا قائلة: «يا للسماء، ما أشد إخلاصها!».

ـ «نعم.. لا يزال يوجد أخلاص في هذه الدنيا».

قالهـا المسـتر جـرين، وهـو يضـع شـريحة من الحمامـة في داخـل فمـه، حيث قام لسانه بالتقاطها في الحـال، وتصـادف أن لاحـظ كـارل ذلـك، فـأحس بالغثيـان، ونهض واقفًـا، وأمسـكت بـه كلارا من يـده وأمسـكه مستر بوللاندر من اليد الأخرى.

قـالت كلارا: «لم يحن وقت نهوضـك من على المائـدة بعـد»، وعنـدما جلس ثانية في مكانه، همست له قائلة: «سوف نختفي معًا بعد لحظـات قليلة، فتذرع بالصبر».

وكان مستر جرين في تلك الأثناء يتناول طعامه في هدوء، كما لو كانت مهمـة مسـتر بوللانـدر وكلارا الطبيعيـة هي تهدئـة كـارل بعـد أن أصـابه بالغثيان.

كانت وجبة العشاء تمضـي في بطء، مثقلـة بالإرهـاق الـذي كـان يسـببه تدخل مستر جرين في كل مجال، والذي لم يمنعه من أن يدخر هجومًـا

جديدًا، بدأه في طاقة متجددة، وقد بدأ هجومه كما لو كان قد عزم على أن يستجم من عادات مدبرة منزله العجوز، فراح يزجي المديح المرة بعد المرة للآنسة كلارا، ويطري خبرتها في تدبير المنزل، وقد أرضى هذا المديح غرورها فيما يبدو، وكان كارل على نقيضها يحس برغبته في إيقاف هذا المديح، وكأنه كان هجومًا موجهًا في صورة ما، ومع ذلك فلم يقنع مستر جرين بمهاجمة كلارا على هذا النحو، بل أعلن أسفه عددًا من المرات على شهية كارل الضعيفة- دون أن يرفع رأسه عن الطبق الذي أمامه- تلك الشهية التي تبدو له ضعيفة ضعفًا شديدًا خلافًا لما كان يتوقعه.

ودافع مستر «بوللاندر» عن شهية كارل، على الرغم من أنه كان عليه أن يشجعه على تناول المزيد من الطعام، بما أنه كان هو المضيف. كان كارل قد أصبح في غاية الحساسية بسبب الضيق الذي كان يعانيه طوال فترة تناول الطعام، حتى لقد فسر كلمات مستر بوللاندر، خلافًا لفكرته الطيبة عنه، على أنها نوع من عدم الكرم، وكان هذا سببًا آخر لاندفاعه فجأة إلى تناول الطعام في نهم وبسرعة لا تليق، لمجرد أن يجلس مسترخيًا بعد ذلك بقية الوقت، تاركًا سكينه وشوكته أمامه على المائدة بلا حركة، حتى لقد احتار الرجل الذي كان يقوم بالخدمة على المائدة، فيما كان ينبغي عليه أن يفعل بهما.

قال مستر جرين، وهو يحاول أن يوحي بأن ما قاله من الكلمات إنما تعني رغبته في المزاح، وذلك بأن شدد قبضته على سكينه وشوكته: «سوف أخبر خالك غدًا، كيف أنك قد تسببت في إغضاب الآنسة

كلارا بعدم تناول عشائك»، واستأنف حديثه قائلًا وهو يداعب بأصابعه أسفل ذقن كلارا التي أسلت جفونها وتركته يفعل ذلك: «انظر إلى الفتاة... كيف أطرقت برأسها إلى أسفل!».

ثم صاح، وهو يضطجع في مقعده إلى الخلف: «أيتها الصغيرة المسكينة؟!» ضاحكًا بتثاقل الرجل المتخم بالطعام. وحاول كارل عبثًا أن يجد سببًا لسلوك مستر بوللاندر. كان يجلس ناظرًا في طبقه، وكأن أهم الأحداث كانت تجري لحظتها على صفحته، ولم يجذب مقعد كارل قريبًا منه، وعندما بدأ يتحدث، وجه حديثه إلى المائدة كلها، بينما لم يوجه شيئًا لكارل بصورة مباشرة، وكان كارل يعاني كذلك من أن جرين ذلك الخليع العتيد، من أبناء نيويورك، كان قد تجرأ على أن يدلل كلارا عمدًا، وأن يهينه، وهو ضيف مستر بوللاندر أو يعامله على الأقل، وكأنه كان طفلًا، وأن يمضي على تلك الصورة، في مواصلة سلوكه البشع الذي لم يكن كارل يدري إلى أي حد يسعه أن يحتمله. وعندما نهضوا من على المائدة ـ عندما لاحظ جرين نية الجميع ـ كان هو أول من نهض من عليها، وبدا كما لو كان قد جر الآخرين إلى الاقتداء به، تحول كارل جانبًا إلى إحدى النوافذ الهائلة التي تحيطها إطارات ضيقة بيضاء، وتفتح على الشرفة، والتي كانت في حقيقة أمرها عندما تطلع إليها وهو يقترب منها أبوابًا حقيقية، ترى ما الذي طرأ على كراهية مستر بوللاندر وابنته، تلك الكراهية التي أظهراها في البداية نحو جرين، والتي بدت حينذاك إلى حد ما غير واضحة لكارل الذي لم يتمكن من أن يفهم لها سببًا؟ ماذا طرأ على تلك الكراهية حتى يقفا

الآن مع الرجل، ويومئ إليه، كان الدخان يتصاعد من سيجار مستر جرين الذي أهداه له بوللاندر، سيجار غليظ بالصورة التي كان والد كارل قد ذكرها له في أحيان، على أنها حقيقة، ولعله لم يكن قد رآه بالفعل بعينيه! كان الدخان ينتشر في أنحاء الحجرة، حاملًا تأثير جرين حتى إلى الأركان والزوايا التي لم يطرقها بنفسه، وكان في إمكان كارل أن يشعر من على البعد الذي كان يقف عنده بالدخان وهو يلسع أنفه، وبدا سلوك جرين الذي كان كارل قد حدق فيه بلفتة سريعة من رأسه، سلوكًا مشينًا في رأي كارل، وبدأ كارل يفكر في أنه كان واضحًا كافيًا له الآن أن خاله كان قد عارض قيامه بهذه الزيارة، كل تلك المعارضة؛ لأنه كان يعلم في بساطة مدى ضعف شخصية مستر «بوللاندر»، وتوقع لهذا، احتمال أن يتعرض كارل للإهانة بشكل ما ـ ولم يكن مصيبًا في هذا بالطبع ـ أما بخصوص الفتاة الأمريكية، فإن كارل لم يحبها هي أيضًا، على الرغم من أنها كانت قريبة غاية القرب من الصورة الجميلة التي تخيلها عليها، وكان كارل قد دهش بالفعل للتألق الغريب الذي بدا به وجهها منذ أن بدأت ملاطفات مستر جرين لها، وخاصة التألق الذي ومضت به عيناها المتيقظتان، والثوب المحبوك على جسدها، ذلك الثوب الذي لم ير مثله من قبل، وبعض طيات صغيرة من النسيج الأصفر اللون، وشت بقوة الانفعال، إلا أن كارل لم يبال بشيء من ذلك، وكان يسره أن يتخلى عن فكرة الذهاب إلى حجرتها، لو أمكنه أن يفتح الباب الذي إلى جواره ـ وقد وضع يده على المزلاج محاولًا أن

يفتحه ويقفز بداخل العربة أو ـ لو كان السائق نائمًا بالفعل ـ يسير على قدميه عائدًا إلى نيويورك.

كانت الليلة الصافية بقمرها الساطع، ملكًا خالصًا لكل شخص، وبدا له الخوف من أي شيء في الخارج شيئًا لا معنى له، وتخيل ـ وقد بدأ يشعر بالسعادة في تلك الحجرة لأول مرة ـ كيف سيتمكن في صباح الغد ـ فليس في إمكانه أن يصل إلى نيويورك قبل ذلك الوقت ـ من أن يصيب خاله بالدهشة. حقًّا، إنه لم يسبق له أن دخل حجرة نوم خاله، ولا كان يعلم حتى أين كانت تقع من ذلك المبنى، إلا أنه سرعان ما سيفلح في العثور عليها. ثم يدق على الباب، وعند الصيحة المعهودة: «ادخل» يندفع داخلًا إلى الحجرة، مصيبًا خاله العزيز بالدهشة. خاله الذي يعرفه حتى الآن في كامل ثيابه. وأزراره مغلقة حتى ذقنه، جالسًا في فراشه بملابس نومه. وعيناه المفعمتان بالدهشة مثبتتان على الباب، وقد لا تكون تلك المفاجأة في حد ذاتها أمرًا شديد الأثر، إلا أن المرء عليه أن يقدر النتائج التي قد تترتب عليها. فربما أمكنه أن يتناول فطوره مع خاله لأول مرة، وسيكون خاله في الفراش، ويجلس هو أمامه على مقعد، ويوضع الفطور على منضدة صغيرة بينهما، وربما أصبح هذا الفطور الذي جمعهما. ترتيبًا ثابتًا فيما بعد، وربما تمكنا خلال تناول ذلك الفطور ـ بالفعل ـ أن يتحدثا إلى بعضهما في صراحة أكثر، ولقد كان انعدام الثقة المتبادلة بينهما. في نهاية الأمر، هو السبب في أنه كان يظهر شيئًا من الجموح، أو العناد بمعنى أصح، ولا يزال إلى اليوم يبدو لخاله على هذه الصورة، وحتى لو اضطر إلى قضاء الليلة هنا ـ ويبدو

أن هذا هو ما سيحدث بالفعل، لسوء الحظ، على الرغم من أنهم قد تركوه يقف وحيداً إلى النافذة، ويتسلى بالتطلع خارجها - فلعل هذه الزيارة غير الموفقة، أن تكون هي نقطة التحول في علاقته بخاله، وربما يكون خاله مستلقيًا في فراشه، ومستغرقًا في هذه اللحظات نفسها في نفس الأفكار.

واستدار في شيء من الرضا، كانت كلارا تقف إلى جواره، وتقول له: «ألا يسرك أن تشترك معنا على الإطلاق؟ ألا تحاول أن تشعر نفسك، ولو قليلًا، أنك هنا، في منزلك، هيا.. سأقوم بمحاولة أخيرة معك».

قادته عبر الحجرة، إلى الباب، وكان السيدان يجلسان إلى مائدة جانبية، يشربان في أكواب مرتفعة، سائلًا خفيفًا فوارًا، لم يكن كارل يدري ما هو، وكان يود لو تذوقه. وكان مرفقا المستر جرين معتمدين على المنضدة، وكان وجهه قريبًا جدًّا من وجه مستر بوللاندر، ولو أن امرءًا غيره لا يعرف مستر بوللاندر، فربما ظن أن خطة إجرامية كانت تدبر بينهما، وليس عملًا مشروعًا، بينما تعقبت عينا مستر بوللاندر، كارل، إلى الباب بنظرة ودية، ولم يوجه مستر جرين نظرة واحدة إلى كارل، خلافًا للقاعدة الثابتة، بأن عيني المرء تتعقبان لا إراديًّا ما تتعقبه عينا من يتحدث إليه، وبدا لكارل أن تصرف مستر جرين العدائي الواضح إلى هذا الحد، كان يشير إلى اعتقاده أن عليهما هو وكارل أن يتقاتلا بالفعل، وأن يشتبكا بالأيدي، وإلى أنه من المحتم أن تحسم العلاقة بينهما عن هذا الطريق الذي ينتهي في اللحظة الحاسمة بانتصار أحدهما وانهيار الآخر.

قال كارل في نفسه: «لو كان هذا هو ما يعتقده، فهو أحمق، إنني ـ في الحقيقة ـ لا أريد شيئًا منه، وعليه أن يتركني في سلام».

وما كاد يخطو إلى الردهة، حتى خطر له أنه ربما كان قد بدا فظًّا في سلوكه، ذلك أن عينيه كانتا مركزتين في جمود، على جرين، حتى أن كلارا كان عليها أن تسحبه إلى خارج الغرفة، ومضى في صحبتها الآن طائعًا، وعندما كانا يمران خلال الردهات، لم يسعه إلا أن يصدق عينيه بصعوبة في البداية، حينما كان يرى خادمًا بعد كل عشرين خطوة تقريبًا، في ملابس فاخرة، ممسكًا بشمعدان ضخم، له عمود في غاية الضخامة، حتى كان الخادم يضم كلتا يديه معًا ليتمكن من الإمساك به.

قالت كلارا، وهي تحاول أن تفسر له ذلك: «إن التركيبات الكهربائية الجديدة، قد تم تركيبها هناك في حجرة الطعام فقط، ولقد اشترينا هذا المنزل منذ وقت قريب، وكان علينا أن نقوم بإعادة بنائه كله تقريبًا، وقد كان هذا هو أقصى ما يمكننا أن نقوم به لإعداد منزل قديم كهذا المنزل، بكل ما فيه من الأشياء الغريبة».

قال كارل: «إذن فلديكم في أمريكا منازل قديمة بالفعل، أيضًا!».

فقالت كلارا ضاحكة، وهي تجذبه إلى الأمام: «بالطبع.. إن لديك أفكارًا غريبة عن أمريكا!».

قال في ضيق: «لا يجب أن تضحكي مني!»، فهو في النهاية يعرف أوروبا وأمريكا، بينما لا تعرف هي سوى أمريكا.

وفي أثناء سيرهما، دفعت كلارا أحد الأبواب، فانفتح، بدفعة خفيفة من يدها، وقالت دون توقف: «هذا هو المكان الذي سوف تنام فيه».

كان كارل يريد أن يتفحص الحجرة كلها في الحال، إلا أن كلارا صاحت في نفاد صبر، وارتفع صوتها حتى أوشك على الصراخ، قائلة: إنه سيكون أمامه من الوقت ما يتسع لذلك فيما بعد، وأن عليه أن يمضي معها أولًا، ونشبت بينهما مشادة في الردهة، حتى خطر ببال كارل أنه ليس ملزمًا بأن يفعل كل ما تأمره به كلارا، فخلص نفسه منها، واندفع إلى داخل الحجرة،. وكان الظلام الذي يبعث على الحيرة، كثيفًا خارج الشباك، وتبين في وسط الظلام بعض الأغصان الممتدة من شجرة ضخمة كانت تتطوح في الحديقة، وكان في مقدوره سماع تغريد الطيور، ولم يكن يستطيع تمييز أي شيء في داخل الحجرة، ولا حتى أن يتلمس طريقه خلالها، ذلك أن ضوء القمر لم يكن قد دخلها بعد! وشعر كارل بالأسف لأنه لم يحضر معه بطاريته الكهربائية التي كان خاله قد أعطاها له، ففي هذا المنزل كانت البطارية الكهربائية شيئًا لا غنى عنه مطلقًا، وكان يمكن للمرء أن يرسل الخدم إلى فراشهم بإعطائهم واحدة من تلك البطاريات الكهربائية! وجلس على حافة النافذة، وحدّق في الظلام، وراح يتسمع، وبدا أن طائرًا ما، قد تسبب كارل في إزعاجه؛ لأنه كان يصفق بجناحيه بين أوراق الشجرة العتيقة، وكان صفير قطار من قطارات الضواحي، ينبعث من مكان ما عبر الحقول، وكل شيء كان ساكنًا تمامًا فيما عدا ذلك.

ولم يمض وقت طويل حتى عادت كلارا مندفعة إلى داخل الحجرة، وصاحت في غضب ظاهر: «ما معنى ذلك؟» وضربت قميصها بيدها.

وقرر كارل ألا يرد عليها بشيء، حتى تظهر شيئًا من الأدب، إلا أنها تقدمت نحوه بخطوات واسعة، وهي تصيح في دهشة: «حسنًا.. هل ستأتي معي، أم لا؟» وضربته سواء عن عمد، أو في غمرة ارتباكها، ضربة شديدة على صدره، حتى لقد أوشك أن يسقط خارج النافذة، لو لم يكن في اللحظة الأخيرة، قد انزلق من على حافة النافذة، حتى لامست قدماه أرض الحجرة! قال لها في لوم: «ربما كنت قد وقعت خارج النافذة؟!».

ـ «مما يؤسف له أنك لم تقع، لماذا تبدو غبيًّا إلى هذا الحد؟ سوف أجذبك خارج هذه الحجرة في المرة القادمة».

وأمسكت به بالفعل، وحملته تقريبًا بين ساعديها المدربتين حتى النافذة، وكانت الدهشة قد استولت عليه، فلم يخلص نفسه من بين ساعديها، ثم عاد إلى نفسه، وتملص بجذعه متخلصًا من بين ذراعيها، وأمسك بها بدوره.

قالت في الحال: «أوه.. إنك تؤلمني!».

لكن كارل أحس أنه من الخطأ أن يتركها، وسمح لها بحرية الحركة التي تتيح لها اتخاذ أية خطوات تريدها، لكنه تبعها، ملتصقًا بها بشدة. كان من السهل أن يقبض عليها بشدة بملابسها المحبوكة.

همست: «اتركني»، وكان وجهها المتضرج، قريبًا من وجهه، حتى لقد كان يجهد نفسه لكي يرى وجهها: «اتركني، سوف أعطيك شيئًا لا تتوقعه».

وفكر كارل في نفسه: «لماذا تتنهد على هذا النحو، إنني لا أسبب لها أي ألم، فلست أضغط عليها، إنما أمنعها فقط عن الحركة، فإنني لا أضمن ما قد تفعله؟»، وظل متشبثًا بها، لكن فجأة، في لحظة غفلة، وبعد لحظة من السكون، أحس مرة أخرى فجأة بقواها تصارع جسده، ثم انطلقت متخلصة من قبضته، ثم شلت حركته، بحركة من حركات المصارعة، وضربت قدميه بركلة بارعة من ساقها الممشوقة، حركة غريبة عليه، ألقته أرضًا أمامها في سيطرة مدهشة، ثم وقفت تلهث قليلًا، بجانب الحائط، كانت هناك أريكة بجوار ذلك الحائط، كان هو قد انطرح عليها، وتشبث بها في سقطته، وظلت هي على مسافة كافية من مكانه، وقالت:

«انهض الآن لو استطعت!».

ـ «أيتها القطة... أيتها القطة المتوحشة!». كان ذلك هو كل ما استطاع كارل أن يصيح به، في سورة غضبه، وإحساسه بالعار: «لا بد أنك معتوهة، أيتها القطة المتوحشة!».

قالت له: «احذر ما تقول!»، ومدت يدها إلى حنجرته، التي راحت تضغط عليها بغاية العنف حتى أن كارل لم يتمكن من التقاط أنفاسه إلا بصعوبة، بينما لوحت بقبضتها الأخرى إلى خده، ولمسته كما لو

كانت تجرب صفعه، ثم أعادتها إلى الخلف تدريجيًّا إلى أبعد فأبعد، على استعداد لتوجيه لطمة له في أية لحظة.

وسألته قائلة: «ما قولك، لو أنني عاقبتك على وقاحتك مع آنسة بإرسالك إلى منزلك وقد احمرت أذناك من شدة اللطمات؟ ربما أفادك هذا في أن تصبح شخصًا طيبًا طوال ما تبقى من حياتك، مع أنه لا يبدو عليك الاستعداد لتذكر ذلك. إنني آسفة في الحقيقة من أجلك، فأنت فتى حسن الشكل إلى درجة كبيرة، ولو أنك كنت قد تعلمت المصارعة اليابانية، فربما كنت قد ضربتني، وعلى أية حال.. على أية حال، فإنني أشعر برغبة شديدة في لطم أذنيك الآن، وأنت مستلق أمامي، ولعلني أندم لأنني لم أفعل، لكن لو أنني فعلت ذلك، فدعني أقل لك إنني سأفعله لأنني لا أستطيع مقاومة رغبتي تلك، ولن تكون لطمة واحدة بالطبع تلك التي سأسددها لك، بل إنني سأمضي في تسديد اللطمات إلى أذنيك، ولن أتوقف حتى تغطيك الكدمات الزرقاء والسوداء، وربما كنت واحدًا من هؤلاء الرجال الشرفاء ـ يمكنني أن أصدق ذلك بسهولة ـ وسيشق عليك أن تتحمل العار الذي أصابك بلطمك على أذنيك، وستبتعد في الحال. لكن لماذا كنت فظيعًا في سلوكك معي بهذه الصورة؟ ألا تحبني؟ ألا يستحق مجيئك إلى غرفتي أقل العناء؟ آه.. احذر، إنني سأصفعك الآن فجأة، سأصفعك في التو واللحظة، ولو عفوت عنك في هذه الليلة، فاعمل على أن تسلك سلوكًا أفضل في المرة القادمة. إنني لست خالك حتى أحتمل طبعك الشكس، ومهما يكن الأمر، فدعني أوضح لك، إنني لو تركتك الآن فلعلك لا تحتاج إلى

الظن بأن العار الذي يلحقك يتساوى سواء لطمتك، أو عفوت عنك، سوف أصفعك على وجهك بغاية ما يسعني العنف، وقد لا تظن أنت أنني فعلت ذلك. إنني لا أدري ما الذي سيقوله «ماك» عندما أحكي له عن ذلك كله؟».

وعندما طرأ «ماك» على بالها، تراخت قبضتها، وأحس كارل في انفعاله بأن «ماك» قد أنقذه، وظل فترة قصيرة بعدها يحس بقبضة كلارا، وكأنها تقبض على حنجرته لا تزال، ولهذا تلوى في مكانه لحظة قبل أن يعود إلى سكونه مرة أخرى، مستلقيًا فوق الأريكة.

وطلبت منه أن ينهض، فلم يرد عليها، كما أنه لم يتحرك مطلقًا. وأشعلت هي شمعة في مكان ما، وأضاءت الحجرة، وظهر على السقف شكل متعرج بتأثير ضوء الشمعة، إلا أن كارل بقي ملقيًا برأسه على الأريكة حيث تركتها كلارا، ولم يتحرك قيد أصبع، وتمشت كلارا عبر الحجرة، وكان يسمع حفيف الثوب حول ساقيها وهي تذرع الغرفة، ثم بدا وكأنها قد توقفت فترة طويلة عند النافذة.

وسمعها تسأله في النهاية: «هل انتهيت من عنادك؟»، وتبين كارل أنه من المستحيل أن يجد الراحة في هذه الحجرة التي خصصها له مستر بوللاندر، ليقضي فيها ليلته، وظلت الفتاة تتجول في أنحاء الحجرة، وتتوقف لتتحدث إليه بين الحين والآخر. وكان هو قد ضاق بها من أعماقه، وكل ما كان يتطلع إليه هو أن يستغرق في النوم فورًا، ثم يغادر هذا المنزل بعد ذلك. لم يرغب حتى في أن يذهب إلى الفراش، كان

يريد أن يبقى على الأريكة حيث كان، وكان ينتظر اللحظة التي تغادر فيها تلك الفتاة الحجرة، حتى يقفز إلى الباب خلفها، فيغلقه ويحكم رتاجه، ثم يمدد نفسه ثانية فوق الأريكة، وأحس برغبة شديدة في أن يتمطى ويتثاءب، إلا أنه لم يحب أن يفعل ذلك في وجود كلارا، ولهذا بقي مستلقيًا يحدق في السقف، وهو يشعر بأن وجهه كان يزداد، ويزداد جمودًا، ومرت أمام عينيه بقعة لعلها كانت ذبابة. حامت حوله دون أن يتحقق تمامًا من طبيعتها.

وتقدمت كلارا نحوه، مرة أخرى، وانحنت أمام عينيه، فلو لم يحرك جفونه لأمكنه مع ذلك أن يراها جيداً.

قالت: «إنني ذاهبة الآن، وربما رغبت في أن تأتي لرؤيتي فيما بعد، إن باب حجرتي هو الرابع، بعد باب هذه الحجرة، في نفس هذا الجانب من الردهة، فاترك الأبواب الثلاثة التالية، والباب الذي يليها هو الباب المطلوب! لن أهبط إلى الطابق الأسفل ثانية، بل سأبقى في حجرتي. لقد سببت لي الإرهاق أنا أيضًا، ولن أتوقع مجيئك بالطبع، لكن... لو رغبت في المجيء، فتعال! وتذكر إنك قد وعدت بأن تعزف لي على البيانو، ربما كنت تشعر بأنك قد انطرحت هامداً، وأنك لا تستطيع أن تتحرك من مكانك، حسنًا إذن، ابق حيث أنت، وتمتع بالنوم الهادئ، ولن أذكر لوالدي شيئًا عن عراكنا العارض، لا شيء في الوقت الحاضر، أقول ذلك الآن إذا كنت تحس بشيء من الانزعاج له!»، وعلى الرغم من إرهاقها، الذي كان يبدو واضحًا في حركتها، انطلقت في خفة إلى خارج الحجرة.

وجلس كارل في مكانه على الفور، كان يتعذر عليه مواصلة احتمال ذلك الاستلقاء، نهض، وتقدم نحو الباب لمجرد تحريك أطرافه، وتطلع منه إلى الردهة. كم كانت مظلمة! وشعر بالغبطة عندما أغلق الباب، وأحكم رتاجه، وجلس مرة أخرى على مائدته، على ضوء الشمعة، واستقر رأيه على عدم البقاء لحظة أخرى في هذا المنزل، ورأى أن يهبط إلى مستر بوللاندر، وأن يخبره صراحة بمعاملة كلارا له ـ واضعًا في اعتباره ألا يهتم مطلقًا لمحاولة دفاعه عنها ـ ويطلب منه أن يسمح له بالعودة ـ لهذا العذر الكافي ـ سواء بالعربة، أو سيرًا على الأقدام إلى منزل خاله! ولو أبدى مستر «بوللاندر» اعتراضًا على عودته في نفس الليلة، فسيطلب منه كارل حينئذ أن يأمر خادمًا على الأقل، بأن يقوده إلى أقرب فندق، وربما كان من الثابت أن أحدًا لا يعامل ضيوفه على النحو الذي كان كارل يفكر فيه، إلا أنه من النادر أيضًا أن يعامل الضيوف بالأسلوب الذي عاملته به كلارا، ولقد ظنت بالفعل أنها كانت رقيقة عندما وعدته بأنها لن تذكر شيئًا عما حدث بينهما لمستر بوللاندر، لقد كان ذلك في الحقيقة أمرًا شنيعًا غاية الشناعة. هل كان قد دعي إلى مباراة للمصارعة؟ لو كان قد دعي إلى ذلك، فإنه سيكون خجلًا أيضًا لأن فتاة يبدو أنها قد أنفقت الجانب الأكبر من حياتها في تعلم المصارعة قد طرحته أرضًا، وربما كانت فوق ذلك، قد تلقت تدريبًا على يد «ماك». وفي إمكانها أن تخبر «ماك» بما شاءت، فماك شخص ذكي للغاية، وكارل واثق تمام الثقة في ذكائه، على الرغم من أن الفرصة لم تسنح له ولو لحظة واحدة ليتأكد

من ذلك، إلا أن كارل يعلم أيضًا أنه لو كان قد تلقى تدريبًا على يدي «ماك» بدوره، فلا شك أنه كان سيبدي تفوقًا أبعد كثيرًا مما أظهرته كلارا من التفوق في المصارعة. إذن لحضر إلى هنا مرة أخرى، في يوم من الأيام، حتى بلا أية دعوة، وشرع في دراسة المعركة، دراسة محكمة، تدهش لها كلارا غاية الدهشة، ثم تناول كلارا هذه نفسها، وطرحها على نفس الأريكة التي طرحته عليها الليلة.

وكان عليه الآن أن يجد طريقه ثانية إلى حجرة الطعام، التي كان قد ترك فيها قبعته لارتباكه عندما غادرها، في مكان ما، وسوف يأخذ الشمعة بالطبع في يده، لكن لم يكن سهلًا أن يجد المرء وجهته حتى في ضوء الشمعة، فلم يكن يعرف، مثلًا، موقع حجرته هذه بالنسبة لحجرة الطعام، وكانت كلارا في طريقهما إلى هنا قد راحت تجذبه، فلم تترك له أقل فرصة للتطلع حوله، والتعرف على الطريق. كما كان باله مشغولًا أيضًا بمستر جرين، وبالخدم الذين كانوا يحملون الشمعدانات الضخمة، وباختصار، لم يكن يسعه بالفعل أن يتذكر إن كانا قد صعدا طابقًا أو طابقين، أو أنهما لم يصعدا أي سلالم على الإطلاق، ولهذا فقد حاول أن يقنع نفسه بأنهما كانا قد ارتقيا سلمًا ما، لكنه وجد أمام الباب درجات كان عليه أن يصعدها، فلماذا لا يكون هذا الجزء من المنزل مرتفعًا قليلًا عن مستوى أرض الحديقة هو أيضًا؟ لو أتيح له فقط شعاع من الضوء يتسرب من أحد الأبواب التي تتتابع في تلك الردهة أو صوت يمكنه أن يسمعه على البعد، مهما كان خافتًا؟ كانت ساعته- التي أهداها له خاله- تشير إلى الحادية عشرة،

فأخذ الشمعة ومضى إلى الردهة، وترك باب حجرته مفتوحًا، فإذا لم يوفق في العثور على طريقه، فيمكنه على الأقل أن يعود ثانية إلى حجرته، ويمكنه في حالة الضرورة القصوى أن يصل إلى حجرة كلارا أيضًا، ولكي يضمن عودته إلى الحجرة، وضع مقعدًا في فتحة الباب، فربما انغلق من نفسه. وفي الردهة اكتشف أمرًا سيئًا ـ كان قد استدار إلى اليسار، مبتعدًا بالطبع عن حجرة كلارا ـ فقد اندفع في وجهه تيار هوائي، كان من الممكن رغم أنه كان تيارًا ضعيفًا أن يطفئ شمعته بسهولة، لهذا اضطر إلى أن يحوط بيده على لهب الشمعة، وكثيرًا ما كان يتوقف حتى يعود اللهب الذاوي إلى التوهج من جديد، كان يتقدم في طريقه ببطء، وبدا ذلك وكأنه يضاعف من طول الطريق، وكان كارل قد قطع مسافة طويلة، بطول حائط أصم، خال من الأبواب أو الفتحات، ولم يكن في مقدور المرء أن يتخيل ماذا كان يقع خلف ذلك الحائط، حتى بلغ بابًا بعد آخر، وتتابعت الأبواب، وحاول كارل أن يفتح بعضها، لكنها كانت جميعًا مغلقة، وكانت الحجرات تبدو خالية، كانت مساحة واسعة جدًّا، على نحو غاية في الإسراف، وفكر كارل في الحي الشرقي من نيويورك، ذلك الحي الذي وعده خاله بأن يصحبه إليه، حيث يقال إن عددًا من الأسر كانت تعيش معًا في حجرة صغيرة، وأن منزل الأسرة بأكملها لم يكن سوى ركن من أركان الحجرة الواحدة، يتكدس فيه الأطفال حول والديهم، بينما يظل مثل هذا العدد الكبير من الحجرات الفسيحة خاويًا هنا، ويبدو أن الغرض من وجودها هو فقط ترديد الصوت عندما يدق المرء على باب كل منها. و بدا له

مستر «بوللاندر» شخصًا ضلله أصدقاؤه المزيفون، وتمادى في الهيام بابنته التي تتسبب في خرابه. ولا شك أن الخال جيكوب كان صائبًا في حكمه عليه، وقد كان من مبادئ خاله ألا يحاول التأثير على كارل في حكمه بنفسه على الآخرين، وقد كانت مبادئ خاله هذه، هي السبب في هذه الزيارة، وفي كل هذا التجول الحائر خلال تلك الردهات، سوف يخبر خاله غدًا بصراحة مطلقة عن هذا كله، مدليًا بأحكامه الخاصة على كل شيء، وسوف يسعد خاله دون شك بالاستماع إلى أحكام ابن أخته، حتى عليه هو نفسه، وربما كانت مبادئ خاله هذه، هي الحقيقة، ربما كانت هي الشيء الحقيقي الذي يتمتع به خاله، وربما كانت هذه المبادئ قد أساءت كارل بصورة ما، إلا أن استياءه بدا له الآن على غير أساس.

وفجأة انتهى الجدار القائم على أحد جوانب الردهة، وظهر على امتداده درابزين، بارد جدًّا، من الرخام، وواجه كارل الفراغ الحالك ـ فهل كانت هذه الردهة هي البهو الرئيسي للمنزل؟ ـ كان من الممكن على ضوء الشمعة رؤية سقف مقبيّ ـ فلماذا لم يمرا هو وكلارا بها؟ وما هو الغرض من هذه الحجرة الهائلة الشديدة الارتفاع؟ إن المرء يقف هنا كما لو كان واقفًا في بهو كنيسة من الكنائس! وأسف كارل غاية الأسف لأنه لن يبقى في هذا المنزل حتى الصباح، فقد كان يود لو أطلعه مستر بوللاندر على كل أجزاء المنزل في ضوء النهار، وفسر له كل شيء.

كان الدرابزين قصيرًا للغاية، فلم يلبث كارل حتى وجد نفسه يسير بطول ردهة مغلقة، وباستدارة مفاجئة اندفع مسرعًا نحو الحائط، وكان الحرص الشديد الذي كان يمسك به الشمعة في تشنج قد منعها من السقوط والانطفاء. وبدت له تلك الردهة وكأنها بلا نهاية، ولم تكن بها نافذة واحدة، حتى يمكنه من خلالها أن يتبين أين كان، ولا كان يتحرك فوقه شيء في الطابق الأعلى، ولا تحته. وبدأ كارل يدور في حلقة، وكان لديه أمل ضعيف في أنه سيتمكن من الوصول إلى باب غرفته مرة أخرى، ولكنه لم يتمكن من العودة إلى الحجرة المرتفعة، ولا إلى الدرابزين، وكان قد منع نفسه عن الصياح حتى الآن؛ لأنه لم يكن يرغب في إثارة ضجة في منزل غريب في مثل تلك الساعة المتأخرة، لكنه تحقق الآن أن تجوله لن يوصله إلى شيء في هذا المنزل المظلم، وكان على وشك أن يطلق عقيرته، صائحًا بأعلى صوته: «هالو!» حتى يتردد صدى صيحته بطول الردهة في الاتجاهين، عندما لمح ضوءًا خافتًا يقترب خلفه، في نفس الطريق الذي سلكه، وأمكنه الآن أن يدرك طول تلك الردهة الممتدة في استقامة، كان ذلك المنزل عبارة عن قلعة، لا مجرد منزل فحسب، وكان فرحه لرؤية هذا البصيص المنقذ فرحًا بالغًا، حتى لقد نسي كل حذره، واندفع في اتجاه الضوء، وكان لا يزال ممسكًا بشمعته المطفأة بعد أن خطا بضع خطوات قليلة، لكنه لم يعد يلقي بالًا إليها الآن؛ لأنه لن يكون في حاجة إليها بعد ذلك، فقد لمح خادمًا عجوزًا يحمل فانوسًا ويتقدم نحوه، وسوف يدله هذا الخادم في الحال على الطريق الصحيح.

تساءل الخادم، وهـو يرفـع فانوسـه في وجـه كـارل، فيضـيء وجهـه هـو أيضًا: «من أنت؟»، كان وجهه وقورًا إلى حد مـا، بسـبب اللحيـة الهائلـة البيضاء التي كانت تنتهي فوق صدره في حلقات دائرية. وقال كـارل في نفسه: «لا بد أن يكون خادمًا أمينًا، ما داموا قد سمحوا له بـإطلاق لحيـة كهذه!»، وكان يحدق بإمعان في اللحيـة بطولهـا وعرضـها، دون حـرج؛ لأن الرجل كان يتفحصه هو الآخـر بـدوره، وأجـاب قـائلًا، بأنـه ضـيف على مستر «بوللاندر»، وأنه قد ترك حجرته ذاهبًا إلى حجرة الطعـام، إلا أنه لم يجد الطريق إليها.

قال الخادم: «آه.. نعم، إننا لم ننته من التركيبات الكهربائية بعد».

فقال كارل: «أعلم ذلك!».

وسأله الخادم قائلًا: «ألا تريد أن تشعل شمعتك من الفانوس؟».

فقال كارل، وهو يشعلها: «لو سمحت».

وقال الخادم: «يوجد كثير من هذه التيارات الهوائية في هـذه الردهـات، والشـموع تنطفئ بسـهولة، وهـذا هـو السـبب في أنـني أفضـل الفـانوس عليها».

فقال كارل: «نعم، إن الفانوس عملي أكثر منها».

وقال الخادم، وهو يرفع الفـانوس إلى بدلـة كـارل: «لمـاذا تغطيـك كـل هذه القطرات من الشمع؟».

فصـاح كـارل في انزعـاج، قـائلًا: «إنـني لم ألاحظهـا مطلقًـا!» أحس بالانزعاج لأنها كانت بدلته السوداء التي قال خاله إنها تبدو عليه أفضـل مما عـداها، وهـا هي قـد تلـوثت الآن بهـذه البقـع، كمـا أنهـا لم تسـلم كذلك من مباراة المصارعة التي دارت بينه وبين كلارا. تبين ذلـك الآن أيضًـا، وكـان الخـادم كريمًـا جـدًّا، حـتى أنـه قـام بتنظيـف البدلـة بقـدر المستطاع، وظل كارل يستدير حول نفسه، وهو يشير لـه إلى بقعـة هنـا، وبقعة أخرى هناك، وكان الرجل يزيلها جميعًا في طاعة.

وتساءل كارل عندما استأنفا طريقهما ثانية: «لكن لماذا كانت التيـارات الهوائية هنا بهذه الكثرة؟».

قـال الخـادم: «حسـنًا؛ لأنـه لا يـزال يجب إتمـام الكثير من المبـاني، إن عملية إعادة البناء قـد بـدأت فقـط، في الحقيقـة، إلا أنهـا تسير في بطء شديد، وقد قام عمال البناء أخيرًا بإضراب، ولعلـك تعلم ذلـك، كمـا أن بناء منزل بهـذه الضـخامة يسبب كثيرًا من المشـاكل، بالإضـافة إلى أن عديداً من الثغرات قد حدثت في الجدران ولم يسد أحد تلـك الثغـرات بعد، ولهذا تمرح التيارات الهوائية في كـل أنحـاء المـنزل، ولـو أنـني لم أسد أذناي بقطعتين من القطن، لما كان في مقدوري أن أحتملها».

فتساءل كـارل قـائلًا: «هـل يجب عليَّ إذن أن أتحـدث في صـوت أكـثر ارتفاعًا؟».

قال الخادم: «لا... إن صوتك واضح، لكن عند عودتـك مـرة أخـرى إلى هذا الجانب من المنزل، وخاصة هذا الجزء منه، بالقرب من المقصـورة

التي ستنفصل فيما بعد عن باقي المنزل، فسوف تجد أن التيارات قد اشتدت بصورة لن يسعك أن تحتملها».

ـ إذن فإن الدرابزين الذي على امتداد هذه الردهة، يؤدي إلى مقصورة!».

ـ «نعم».

قال كارل: «لقد ظننت ذلك منذ قليل».

قال الخادم: «إنها مقصورة تستحق الرؤية في الحقيقة، ولعل مستر ماك، لولاها ما كان قد أقدم على شراء هذا المنزل لو كان لي أن أقول ذلك!».

وتساءل كارل: «مستر ماك؟ لقد ظننت أن هذا المنزل ملكًا لمستر بوللاندر؟!».

قال الخادم: «نعم، ملكه دون شك، إلا أن مستر ماك كان هو الذي قام بشرائه، ألا تعرف المستر ماك؟!».

قال كارل: «أوه.. نعم أعرفه، لكن ما هي علاقته بمستر «بوللاندر»؟!».

قال الخادم: «إنه خطيب السيدة الصغيرة».

قال كارل، وهو يتوقف لحظة: «لم أكن أعلم ذلك بكل تأكيد!».

وتساءل الخادم: «أترى الأمر مدهشًا إلى هذا الحد؟!».

فأجابه كارل قائلًا: «إنني فقط أفكر في هذا الأمر، فلو لم يعلم المرء جيدًا حقيقة تلك العلاقات، لكان من السهل أن يتورط في أشد أنواع الأخطاء».

قال الخادم: «أما ما يدهشني أنا، فهم أنهم لم يخبروك بشيء عن هذا!».

فقال كارل، وهو يشعر بالارتباك: «نعم... هذا حق!».

وقال الخادم: «ربما ظنوا أنك تعلم، فهي تعد الآن أخبارًا قديمة بالفعل، لكن ها نحن قد وصلنا..» وفتح بابًا، ظهرت خلفه درجات سلم يؤدي مباشرة إلى الطابق الأسفل، ثم إلى الباب الخلفي لحجرة الطعام التي كانت مضيئة ما زالت، كما كانت عند وصول كارل.

وقبل أن يهبط كارل متجهًا نحو حجرة الطعام، التي كان يصدر عنها صوت مستر بوللاندر، ومستر جرين، وهما مستغرقان في حديثهما الذي لم ينقطع منذ ساعتين، قال الخادم: «سأنتظرك هنا لو شئت؛ لكي أصحبك مرة أخرى إلى حجرتك، فمن الصعب أن يجد المرء طريقه هنا بسهولة في الليلة الأولى».

فأجابه كارل الذي لم يدر لماذا أحس بالحزن الذي دفعه إلى أن يدلي للخادم بهذا التصريح: «لن تراني حجرتي هذه مرة أخرى».

وقال الخادم مبتسمًا في شيء من الرقة، وهو يربت على ذراع كارل:

«لن تجد صعوبة في عودتك إليها، كتلك الصعوبة التي لقيتها هذه المرة!»، ولعل الخادم كان قد فسر كلمات كارل على أنه كان ينوي

قضاء بقية الليلة في غرفة الطعام، يتحدث، ويشرب مع السيدين، ولم يشأ كارل أن يصرح بمزيد من الاعترافات عندئذ، وجال في خاطره أيضًا أن هذا الخادم، الذي أحبه أكثر من أي خادم آخر في هذا المنزل، يمكنه أن يدله على الطريق إلى نيويورك، ولهذا قال له:

ـ «لو انتظرتني هنا، فسوف يكون هذا كرمًا شديدًا منك، وإنني أتقبله شاكرًا، وسوف أعود بعد لحظة، على كل حال، وأخبرك بما سوف أفعله، وأعتقد أنني قد أكون في حاجة إلى مساعدتك».

قال الخادم: «حسنًا»، ووضع فانوسه على الأرض، ثم جلس فوق قاعدة منخفضة لعلها كانت بعضًا من آثار ترميم المنزل «سوف أنتظرك هنا، إذن، ويمكنك أن تترك معي شمعتك أيضًا»، قال ذلك لكارل وهو يهم بهبوط درجات السلم ممسكًا بالشمعة المضاءة في يده.

قال كارل: «إنني لا أعي الآن ما أفعله!»، وأعطى الشمعة للخادم الذي أومأ له فحسب، وكان من الصعب أن يقطع المرء بما إذا كانت إيماءته تلك مقصودة، أو أنها كانت مجرد حركة عفوية صدرت عنه عندما راح يتحسس لحيته بيده.

فتح كارل الباب الذي اضطرب في صوت مرتفع رغمًا عنه، فقد كان عبارة عن لوح واحد من الزجاج، كان يوشك على أن يقفز مخلوعًا من مكانه عندما يفتح في غير احتراس، دفعه كارل متعجلًا من مقبضه، وتركه يتأرجح خلفه في اضطراب مزعج، وكان كارل يريد أن يدخل الغرفة هادئًا غاية الهدوء، وأحس دون أن يستدير نحو الباب بأن الخادم

يقف خلفه، كان قد نهض من جلسته فوق القاعدة وتبعه؛ لكي يغلق الباب خلفه بحذر دون أن يصدر عنه أي صوت.

وجه كارل حديثه للسيدين قائلًا: «اغفرا لي إزعاجي لكما»، فنظرا إليه بوجهين مستديرين، قد علتهما الدهشة، وألقى كارل في هذه الأثناء بنظرة سريعة في أنحاء الغرفة؛ ليرى إن كانت قبعته في مكان ما، إلا أنه لم يعثر عليها، وكانت الأطباق التي فوق المائدة قد رفعت جميعًا، فظن في ضيق أن قبعته ربما كانت قد رفعت أيضًا إلى المطبخ مع الأطباق.

سأله مستر بوللاندر: «لكن أين تركت كلارا؟». بدا أن تهجم كارل لم يسبب له أي إزعاج؛ لأنه كان قد اعتدل في مقعده، وأدار وجهه ناحية كارل، وبدا عدم الاكتراث على وجه مستر جرين الذي أخرج من جيبه كتابًا من كتب الجيب، أضخم في الحجم وعدد الصفحات من أي كتاب آخر من نوعه، وراح يبحث بين صفحاته عن صفحة ما، لكنه ظل يقرأ صفحات أخرى منه في أثناء بحثه عن تلك الصفحة.

قال كارل: «لي رجاء أرجو ألا تسيء فهمه!»، وكان قد اندفع مسرعًا نحو مستر «بوللاندر»، ثم وضع يده على ذراع مقعده، حتى يقترب منه بقدر ما يستطيع.

وتساءل مستر «بوللاندر»: «وما عسى أن يكون هذا الطلب؟!» وكان ينظر إلى كارل نظرة صريحة واضحة، «إنه طلب أوافق عليه مقدمًا!»، ووضع ذراعه حول كارل، وسحبه بين ركبتيه، واستسلم كارل، مع أنه

كان يشعر بأنه كان كبيرًا بالنسبة لهذا التدليل، إلا أن هذه المعاملة جعلت تصريحه بطلبه مع ذلك أكثر صعوبة.

وأضاف مستر «بوللاندر» متسائلًا: «ما الذي أحسست به بصراحة، بوجودك هنا، ألا ترى أن المرء يجد شيئًا من الحرية عند خروجه من المدينة إلى الريف، عادة؟!» ونظر بطرف عينه نحو مستر جرين، نظرة لها معنى لا تخطئه العين، وإن كان كارل قد حجب تلك النظرة عن مستر جرين إلى حد ما: «إن هذا الشعور ينتابني عادة كل مساء».

وحدث كارل نفسه قائلًا: «إنه يتكلم، وكأنه لا يعلم شيئًا عن هذا المنزل الهائل، وهذه الردهات التي لا حصر لها، ولا عن المقصورة والحجرات الخالية، أو الظلام الذي يجثم فوق كل مكان».

قال مستر «بوللاندر»: «حسنًا.. وما هو طلبك؟»، وجذب كارل الذي كان يقف صامتًا إليه في ود.

قال كارل: «أرجو..»، ولم يكن في مقدوره مهما حاول خفض صوته أن يمنع جرين الذي كان يجلس خلفه من سماع كل شيء، وقد كان يسره لو تمكن من إخفاء هذا الطلب عنه، هذا الطلب الذي قد يفسر بسهولة على أنه إهانة موجهة لمستر «بوللاندر»: «أرجو.. أن تسمح لي بالعودة إلى منزلي الآن، رغم تأخر الوقت!».

وما إن تفوه بأسوأ ما في طلبه، حتى انطلقت البقية كلها بعد ذلك، فقال دون أدنى مواربة أشياء لم يكن قد فكر فيها من قبل: «إنني أريد قبل كل شيء، أن أعود إلى منزلي، وسوف يسرني أن أرجع ثانية إلى هنا،

ويسعدني أن أكون حيث تكون يا مستر بوللاندر، لكنني لا أستطيع أن أبقى هنا الليلة بالذات، إنك تعلم أن خالي لم يكن راغبًا في السماح لي بهذه الزيارة، ولست أشك في أنه كان يملك أسبابًا كافية لذلك، كما توجد لديه دائمًا أسباب كافية لكل شيء يعمله، وقد تهيأ لي من الجسارة ما جعلني أفرض عليه بالفعل أن يسمح لي بها، على الرغم من أنه كان على صواب، إنني قد قمت ببساطة باستغلال عطفه عليَّ، إنني لم أهتم مطلقًا باعتراضاته؛ لأنني أعلم تمام العلم، أن تلك الاعتراضات لم تكن لتغضبك يا مستر «بوللاندر»؛ لأنك صديقه المفضل، أفضل أصدقاء خالي جميعًا، ولا يمكن لأي شخص آخر أن يقارن بك مطلقًا من بين أصدقاء خالي، وقد كان هذا هو العذر الوحيد لعدم طاعتي لخالي، مع أنه عذر لا يكفي، ولعلك لا تعرف الكثير عن علاقتي بخالي، ولهذا فسأذكر لك النقاط الأساسية في هذه العلاقة، فإلى أن تنتهي دراستي للغة الإنجليزية، وطالما لم أتحول إلى الحياة العملية كلية، فإنني أعيش معتمداً كل الاعتماد على كرم خالي الذي أقبله، بالطبع، لصلة القرابة التي تربطنا، ولا يجب أن تظن أن بإمكاني حتى الآن أن أكسب عيشي بسهولة، وقد شاء الله أن يحرمني من كل وسيلة أخرى أستعين بها على مواجهة الحياة، وأصرح بأن تعليمي لم يكن تعليمًا عمليًّا يؤهلني لكسب العيش، لقد اجتزت بدرجات متوسطة أربع سنوات دراسية بإحدى المدارس الثانوية بأوروبا، إلا أن هذه الدراسة لا تجدي شيئًا، ولا تنفع المرء بالمرة في مواجهة الحياة؛ ذلك لأن مدارسنا متخلفة غاية التخلف في تدريس أساليب مواجهة الحياة،

وقد تضحك لو أنني أخبرتك بالأشياء التي تعلمتها في تلك السنوات الأربع، ولو أتيح لصبي مثلي أن يمضي في دراسته، فينتهي من الدراسة الثانوية، ثم يلتحق بالجامعة، فربما أفاد ذلك في النهاية، وزوده بمعرفة تامة، تؤهله للقيام بعمل من الأعمال، وتمنحه الثقة في قدرته على السعي وراء الرزق، لكنني ـ لسوء الحظ ـ لم أتمكن من مواصلة الدراسة المنتظمة، ويخيل إليَّ أحيانًا أنني لا أعرف شيئًا بالمرة، وعلى أية حال، فأرقى معلوماتي لا يمكنها أن تعينني على مواجهة الحياة في أمريكا. لقد أدخلت حديثًا بعض الإصلاحات على نظم التدريس ببعض المدارس الثانوية في بلدي، فأصبحت تدرس اللغات الحديثة، وقد تدرس أحيانًا بعض المواد التجارية، إلا أن تلك النظم الحديثة، لم تكن قد وجدت بعد، عندما انتهيت من دراستي الابتدائية، والتحقت بالمدرسة الثانوية، ولا شك أن والدي كان يريدني أن أتعلم اللغة الإنجليزية، لكن لم يكن في مقدوري أن أتنبأ وقتها بسوء حظي، وبأنني سأحتاج إلى استعمال اللغة الإنجليزية في يوم من الأيام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان عليَّ أن أتعلم في المدرسة أشياء أخرى كثيرة، فلم يتسع وقتي لدراسة اللغة الإنجليزية، إنني أذكر هذا كله لكي أوضح لك مدى اعتمادي على خالي، وإلى أي حد أعتبر نفسي مدينًا له، نتيجة لذلك. ولعلك توافقني على أن وضعي، نظرًا لهذه الظروف، لا يسمح لي بأن أسيئه أدنى إساءة، أو أعصي حتى أوامره التي لا يعلنها. فلو كان لي أن أكفر ولو عن نصف الغلطة التي ارتكبتها الآن بالفعل

بمجيـئي إلى هنـا بغـير رضـاه، فيجب عليَّ أن أعـود إلى المـنزل في الحال».

خلال هذه الخطبة الطويلة التي ألقاها «كـارل»، كـان مسـتر «بوللانـدر» يستمع في انتباه، ويضغط على كارل من حين لآخر ضغطًا خفيفًا، لم يكن كـارل يشـعر بـه، وخاصـة كلمـا كـان كـارل يـذكر اسـم (خالـه جيكوب)، وكان يحدق في جدية، مرات عديدة، وكأنه كان يتوقع شيئًا من جرين، الذي كان مشغولًا بكتاب الجيب الذي كان يتصفحه. وكان كارل قد بدأ يشعر بقلقه يزداد، ويزداد، كلما اتضحت له علاقتـه بخالـه أكـثر فـأكثر خلال خطبتـه. وحـاول لا شـعوريًّا تخليص نفسـه من ذراع بوللاندر. كل شيء هنـا كـان يعوقـه. الطريـق المـؤدي إلى خالـه، خلال الباب الزجاجي، وهبوط الدرجات، والسير بطول الطريق، وعلى امتـداد الطرق الريفية، وخلال الضـواحي، إلى الشـارع الرئيسـي العـريض حيث يقوم منزل خاله، تهيأت له كلهـا شـبكة دقيقـة التنظيم، تسـتلقي هنالـك خاوية وملسـاء، وممهـدة، تـدعوه بـأعلى صـوتها. واختلطت رقـة مسـتر «بوللانـدر» بسـماجة مسـتر جـرين. كـان كـل مـا جـاء يرجـوه من هـذه الحجرة الممتلئة بالدخان هو السماح لـه بـالعودة. وأحس بانفصـاله عن مستر بوللاندر، وبرغبته في محاربـة مسـتر جـرين. وكـان كـل مـا حولـه عبارة عن خوف غامض، كانت وطأته قد جعلته عاجزًا عن الرؤية.

وتراجـع خطـوة إلى الخلـف، ثم توقـف على مسـافة متسـاوية من مسـتر بوللاندر، ومستر جرين.

تساءل مستر «بوللاندر» قائلًا، وهو يمسك بيد مستر جرين في توسل، مستديرًا نحوه: «أليس لديك شيئًا تقوله له؟».

وقال مستر جرين: «لست أدري ماذا يمكنني أن أقوله له»، قالها مستر جرين بعد أن أخرج خطابًا من بين صفحات كتاب الجيب أخيرًا، ووضعه أمامه على المائدة، وأضاف قائلًا: «إن رغبته في العودة إلى خاله مسألة تخصه، وبإمكان المرء أن يزعم أن عودته تجلب السرور إلى خاله، ما لم يكن قد تسبب بالفعل في إغضاب خاله غضبًا شديدًا بعصيانه له، ذلك العصيان الذي كان هو كل ما أمكنه أن يقدمه لخاله. ولست أشك في هذه الحالة إنه من الأفضل له أن يبقى هنا. من الصعب أن يقطع المرء بشيء، إننا كلينا صديقان لخاله، وليس من السهل أن يقول المرء إن كانت صداقتي لخاله أوثق، أو صداقة مستر بوللاندر له، ومع ذلك فنحن لا يمكننا أن نعرف ما الذي يفكر فيه خاله الآن، خاصة بينما تفصلنا هذه المسافة، التي تبلغ عدة أميال، عن نيويورك».

قال كارل، وهو يقاوم نفوره، مقتربًا من مستر جرين: «يمكنني أن أفهم مما قلته إنك أنت أيضًا ترى أنه من الأفضل لي أن أعود إلى خالي في الحال؟».

فأجاب مستر جرين قائلًا: «لم أقل شيئًا من هذا!»، وعاد مرة أخرى إلى تأمل الخطاب، وراح يمر بأصابعه على حوافه، ويبدو أنه كان يرى أن مستر بوللاندر قد وجه إليه سؤالًا، وأنه أجاب عنه، على حين لا علاقة له بكارل على الإطلاق.

عند ذلك تقدم مستر «بوللاندر» نحو كارل، واقتاده في رقة مبتعدًا عن مستر جرين، في اتجاه النافذة الكبيرة، ثم قال وهو ينحني على أذن كارل، ويمر بمنديله على وجهه تمهيدًا لما يود أن يقوله، حتى اصطدم المنديل بأنفه، فأفرغه مستخدمًا منديله: «عزيزي مستر روسمان، لا يتبادر إلى نفسك الظن بأنني أريد أن أستبقيك هنا على الرغم منك، هذه مسألة لا مجال فيها للشك، ولا يمكنني أن أضع السيارة تحت تصرفك، إنني أعترف بذلك؛ لأنها قد وضعت في جراج عام يبعد مسافة غير قصيرة من هنا، فلم يتسع لي الوقت بعد لبناء جراج هنا، ولا يزال أمامي أن أعيد بناء كل شيء هنا، كما أن السائق لا يبيت هنا أيضًا، ولكنه ينام في مكان ما بالقرب من ذلك الجراج، ولست أدري أنا نفسي بالفعل أين ينام. وعلاوة على ذلك، فليس الوقت الآن وقت عمله، ولا يتوقع المرء ظهوره إلا في الوقت المناسب فقط، في الصباح. مع إنني لا أعتبر هذا كله عقبات تحول دون عودتك إلى خالك، لأنك لو صممت على ذلك، فسوف أصحبك في الحال إلى أقرب محطة سكة حديد، رغم بعدها عن هذا المكان، حيث لا يمكنك أن تصل إلى خالك في هذه الحالة، قبل وصولك إليه في صباح الغد، في عربتي، إلا بوقت قصير، فسوف نعود معًا إلى نيويورك في السابعة صباحًا».

قال كارل: «سوف أذهب إذن بالقطار يا مستر بوللاندر بالفعل، إنني لم أفكر في استخدام القطار مطلقًا، ولقد ذكرت أنت نفسك أنني يمكنني أن أصل بالقطار قبل وصولي معك في صباح الغد، بعربتك».

ـ «لكن الفارق لن يكون ذا أهمية في هذه الحالة!».

قال كارل: «حتى ولو لم يكن الفارق كبيرًا.. حتى لو حدث ذلك يا مستر بوللاندر، إنني يسرني دائمًا أن أجيء ثانية إلى هنا، ذاكرًا عطفك بالطبع، هذه هي الحقيقة، إذا قدر لك بعد ما رأيته من سلوكي هذه الليلة أن تدعوني لزيارتك مرة أخرى، وربما أمكنني أن أشرح لك في زيارتي القادمة، على نحو أكثر وضوحًا، لماذا كانت كل دقيقة تبعدني عن خالي الآن، مسألة بالغة الخطورة».

وأضاف قائلًا، كما لو كان قد حصل بالفعل على الإذن بالرحيل: «لكنني أرى أنه لا ضرورة لأن تصحبني بنفسك الآن، لا ضرورة لذلك في الحقيقة بالمرة، ويوجد خادم يقف الآن خارج هذه الغرفة، يسره أن يدلني على الطريق إلى المحطة، والآن ينبغي عليَّ فقط أن أبحث عن قبعتي».

وبهذه الكلمات مضى عبر الحجرة، ليلقي نظرة سريعة أخيرة، عسى أن تكون قبعته في مكان ما.

قال مستر جرين: «يمكنني أن أزودك بقبعة»، وأخرج قبعة من جيبه قدمها له قائلًا: «ربما نفعتك الآن هذه القبعة».

وتوقف كارل مندهشًا، ثم قال: «لكنني لا يمكنني أن أنتزع منك قبعتك، ويمكنني بدلًا من ذلك أن أمضي حاسر الرأس، لست في حاجة إلى أي شيء».

ـ «خذها، إنها ليست قبعتي».

قال كارل: «في هذه الحالة، أشكرك!»، وتناول القبعة متعجلًا، حتى لا يتأخر أكثر من ذلك، وارتداها، ولم يتمالك نفسه من الضحك؛ لأنها كانت تناسبه تمامًا، ثم خلعها ثانية، وتفحصها، إلا أنه لم يجد بها العلامة الخاصة التي كان يبحث عنها، كانت تبدو وكأنها قبعة جديدة للغاية، قال: «إنها تناسبني تمامًا!».

صاح المستر جرين، وهو يضغط على المائدة بإبهامه: «إذن فالقبعة تناسبك!».

كان كارل في طريقه إلى باب الحجرة؛ ليبحث عن الخادم، عندما نهض مستر جرين، وتمطى بعد وجبته الدسمة، وراحته الطويلة، وضرب صدره بيده عدة ضربات مدوّية، وقال لكارل في صوت يجمع بين النصيحة والأمر:

ـ «يجب عليك قبل أن ترحل أن تقول وداعًا للآنسة كلارا».

ووافقه مستر بوللاندر، الذي كان قد نهض واقفًا هو أيضًا، قائلًا: «نعم، يجب أن تفعل ذلك!»، ومن طريقة نطقه لهذه الكلمات، كان يمكن للمرء أن يقول إنها لم تكن قد خرجت من أعماقه، وراح يخبط بيده في ضعف على جانب بنطلونه، ويزرر جاكتته، ثم يفك أزرارها مرة أخرى، تلك الجاكتة البالغة القصر، والتي لم تكن تصل إلى عجزه، طبقًا للموضة السائدة، إلا أنها كانت رداء لا يليق برجل ضخم الجثة كمستر بوللاندر. وكان في إمكان المرء أن يلاحظ في وضوح، وهو يقف بجوار مستر جرين، أن سمنة مستر بوللاندر لم تكن مظهرًا من مظاهر

الصحة، كان ظهره السمين محنيًّا إلى حد ما، وبدا كرشه ناعمًا ومترهلًا، كان يبدو عبئًا عليه بالفعل، وكان وجهه السمين شاحبًا، ومهمومًا، وربما كان مستر جرين يبدو أكثر بدانة من مستر بوللاندر، إلا أنها كانت بدانة متناسقة، ومتوازنة في جميع أجزاء جسده، وكان يقف بكعبيه متلاصقين، كأنه جندي، ويرفع رأسه في استقامة مرحة، كان يبدو كرياضي كبير، أو كابتن فرقة رياضية.

واستأنف مستر جرين حديثه قائلًا: «عليك أن تذهب الآن أولًا إلى الآنسة كلارا، فقد يسرك هذا، كما أنه يتناسب تمامًا مع ترتيباتي الزمنية، فلدي في الحقيقة أمر مهم سوف أخبرك به قبل أن تغادر هذا المنزل، أمر لعله يحسم أيضًا مسألة عودتك إلى نيويورك أو عدم عودتك إليها، إلا أنني مضطر لسوء الحظ، بناء على التعليمات التي تلقيتها، ألا أفشي لك شيئًا مما لديّ قبل منتصف الليل، وعليك أن تدرك أنني آسف أنا نفسي لذلك، ففيه إقلاق لراحتي هذه الليلة، لكنني سألتزم بالتعليمات التي تلقيتها، إنها الحادية عشرة والربع الآن، ويمكنني أن أفرغ في خلال الفترة الباقية من الوقت من مناقشة أعمالي مع مستر بوللاندر، تلك المناقشة التي قطعتها أنت، ويمكنك أنت أيضًا أن تقضي وقتًا ممتعًا مع الآنسة كلارا، وعليك أن توافينا هنا في تمام الساعة الثانية عشرة، حيث أنهي إليك بما يتحتم عليك أن تلم به».

فهل كان في وسع كارل أن يرفض هذا الطلب، الذي يفرضه عليه التأدب، والعرفان بفضل مستر بوللاندر، والذي توجه إليه به، علاوة على ذلك، رجل وقح، في حقيقة الأمر، ولا مبال، بينما لم يتدخل

مستر بوللاندر الذي يعنيه هذا الأمر بكلمة، ولا حتى بنظرة؟ وماذا عساها أن تكون تلك الأخبار المهمة التي لم يكن له أن يعلمها قبل منتصف الليل؟ إن لم تكن هذه الأخبار لتعجل بعودته في خلال ثلاثة أرباع الساعة الباقية هذه على الأقل، بدلًا من تضييعها عليه كاملة، فلا شك أنها أخبار لا تهمه في شيء. إلا أن ما كان يحيره أكثر هو تفكيره فيما إذا كان سيجد الجرأة على زيارة كلارا أصلًا، على الرغم من عدائها له، فلو كان معه الآن خنجر كذلك الذي أعطاه له خاله، ليستعمله ثقلًا للخطابات! فلن تكون حجرة كلارا تلك دون شك سوى وكر خطير لا يعرف الأمان. كان يستحيل عليه تمامًا أن يذكر شيئًا يسيء إلى كلارا هنا، فلقد كانت ابنة بوللاندر، وخطيبة ماك أيضًا، كما عرف أخيرًا، فلو كانت قد سلكت معه سلوكًا مغايرًا بعض الشيء، لكان قد أعجب بها في الحقيقة لتلك الروابط التي تربطها ببوللاندر، وماك، كان لا يزال مستغرقًا في كل تلك الخواطر، عندما أدرك أن أحدًا لم يكن ينتظر منه ردًّا على الإطلاق، ذلك أن جرين قد فتح الباب، وقال للخادم الذي هب واقفًا من فوق القاعدة التي كان يجلس عليها «اصحب هذا الشاب إلى الآنسة كلارا».

حدث كارل نفسه، عندما هرول الخادم، وهو يئن لضعفه، واقتاده في صمت تام، نحو حجرة كلارا: «هذا هو إذن الأسلوب الذي يتم به تنفيذ الأوامر هنا!»، وعندما مر كارل من أمام حجرته، التي كان بابها مفتوحًا لا يزال، سأل الخادم أن يتيح له الفرصة لكي يدخلها للحظة، على أمل أن يجمع شتات نفسه، إلا أن الخادم لم يسمح له بذلك.

قال له: «لا.. يجب أن تأتي معي فورًا إلى الآنسة كلارا، لقد سمعت ذلك بنفسك».

قال كارل: «ولكنني أريد دخول الحجرة لمدة دقيقة فقط!» كان يتطلع إلى الاسترخاء، مستلقيًا فترة وجيزة فوق الأريكة، محاولًا إضاعة الوقت حتى يحين منتصف الليل.

فقال الخادم: «لا تحاول أن تعوقني عن أداء واجبي».

وحدث كارل نفسه، قائلًا: «يبدو أنه يظن أن ذهابي إلى الآنسة كلارا هو نوع من العقاب»، وسار بضع خطوات قليلة، لكنه توقف بعدها ثانية في عناد.

قال الخادم: «تقدم أيها السيد الصغير، ما دمت لم ترحل، إنني أعلم أنك ترغب في الرحيل الليلة، إلا أننا لا نحقق عادة ما نرغبه، ولقد أخبرتك بالفعل أن رحيلك يكاد يكون مستحيلًا!».

فقال كارل: «إنني لا أرغب في الرحيل، إلا أنني سأرحل بالفعل رغم ذلك، وإنني ذاهب إلى الآنسة كلارا فقط؛ لكي أقول لها.. إلى اللقاء».

قال الخادم: «هل الأمر كذلك؟!»، ولاحظ كارل أن الخادم لم يكن يصدق ما قال: «فلماذا إذن لا ترغب في أن تقول لها إلى اللقاء؟.. هيا.. تعال!».

جاءهما صوت كلارا، قائلة:

ـ «من الذي في الردهة؟»، وشاهداها وهي تنحني وتتطلع إلى الردهة برأسها، خارج أحد الأبواب القريبة، وفي يدها لمبة مكتب كبيرة لها غطاء أحمر، وأسرع الخادم إليها، وذكر لها سبب وجوده، وتبعه كارل متباطئًا.

قالت كلارا: «لقد جئت متأخرًا!».

ولم يرد عليها كارل في الحال، ولكنه قال للخادم في رفق، لكن في لهجة آمرة فيها شيء من الحزم؛ لأنه كان قد فهم الآن شخصية هذا الرجل: «سوف تنتظرني أمام هذا الباب».

قالت كلارا: «لقد كنت على وشك الذهاب إلى الفراش»، ووضعت اللمبة فوق المنضدة، وأغلق الخادم الباب من الخارج في هدوء: «إنها الحادية عشرة والنصف الآن تمامًا».

فقال كارل متسائلًا وكأن هذا الخبر كان نذيرًا له بالإسراع: «هل تعدت الحادية عشرة والنصف؟»، في هذه الحالة إذن، يجب عليَّ أن أقول إلى اللقاء في الحال؛ لأنني يجب أن أكون في حجرة الطعام في تمام الساعة الثانية عشرة».

قالت كلارا: «وما هو هذا الأمر الذي يدعوك إلى هذه العجلة؟».

كانت تسوي في شرود طيات قميص نومها، وكان وجهها متوردًا، وكانت تبتسم، فرأى كارل أنه لم يكن هناك ما ينذر بوقوع اشتباك في مشاجرة أخرى مع كلارا! وأضافت قائلة: «هل يمكنك مع ذلك أن

تعزف لي قليلًا على البيانو كما وعدني بابا بالأمس، وكما وعدت أنت الليلة؟».

قال: «نعم، ولكن أليس الوقت متأخرًا لذلك الآن؟»، كان يحاول أن يرضيها؛ لأن سلوكها كان مختلفًا الآن عن ذي قبل، كما لو كانت قد ارتفعت إلى مستوى رقة بوللاندر، وماك أيضًا.

قالت: «نعم، إن الوقت متأخر بالفعل». وبدا وكأن رغبتها في الاستماع إلى العزف قد تلاشت الآن؛ لأنها أضافت تقول: «كما أن أي صوت يصدر الآن، سيتردد صداه خلال المنزل كله، وأخشى لو عزفت أن يستيقظ الخدم الذين ينامون في الطابق العلوي».

ـ «لست كما ترين مصرًّا على العزف، وآمل أن أعود مرة أخرى، في أي يوم آخر، أو إذا لم يثقل عليك، أن تقومي بزيارة خالي، وتلقين نظرة على حجرتي أثناء وجودك. فأنا أمتلك بيانو رائعًا، أهداه لي خالي، ولو شئت فسوف أعزف لك حينئذ كل مقطوعاتي، وإن لم تكن كثيرة لسوء الحظ، كما أنها لا تليق أيضًا بذلك البيانو الرائع، الذي يصلح لعازف بارع، لكن ربما أتيح لك الاستماع إلى عزف لا بأس به، لو حددت لي مقدمًا موعد قيامك بهذه الزيارة؛ لأن خالي ينوي إحضار مدرس مشهور لكي أتدرب على يديه.. ولك أن تتخيلي إلى أي حد أترقب حضور ذلك المدرب، ولا شك أن عزفه سيكون جديرًا بأن تشرفيني بزيارتك للحظات خلال درس من هذه الدروس، وحتى أكون صريحًا معك غاية الصراحة، فإنني أعترف لك بارتياحي لتأخر الوقت، وبأنني

لن أعزف لك الآن، فأنا لا أجيد العزف في الحقيقة، ولو عزفت لك الآن، فسوف تدهشين لرداءة عزفي، فاسمحي لي الآن بالرحيل. كما أن موعد ذهابك إلى الفراش، فوق ذلك، لا بد أنه قد حان الآن».

وأضاف قائلًا بابتسامة، عندما كانت كلارا تتطلع إليه في رقة، ويبدو كأنها لا تضمر له أية ضغينة بسبب المشاجرة، ومد لها يده: «في بلدي يقول الناس، نومًا هنيئًا، وأحلامًا سعيدة».

قالت دون أن تتناول يده: «انتظر، فلعلك تريد أن تعزف لي رغم ذلك». واختفت خلال باب جانبي صغير، كان البيانو بجانبه.

وحدث كارل نفسه قائلًا: «وما هو الحل في هذه الحالة.. لا يمكنني أن أبقى طويلًا، حتى ولو بدا سلوكها معي بهذه الرقة!» وانبعثت طرقة على باب الحجرة، وهمس الخادم من خلال فرجة الباب الضيقة، دون أن يجرؤ على فتحه: «اسمح لي، لقد دعيت الآن، ولا يمكنني أن أنتظرك أكثر من ذلك!».

فأجابه كارل، وكان يحس الآن بالثقة في قدرته على أن يجد الطريق إلى حجرة الطعام بمفرده: «يمكنك الذهاب إذن، لكن اترك لي فانوسك أمام الباب، كم الساعة الآن؟».

قال الخادم: «الثانية عشرة إلا الربع تقريبًا».

قال كارل في نفسه: «إن الوقت ينقضي في بطء»، وتذكر كارل حين هم الخادم بإغلاق الباب أنه لم يمنحه بقشيشًا، فأخرج شلنًا من جيبه ــ كان يحمل قطع الفكة المعدنية الآن تشخلل في جيب بنطلونه على

الطريقــة الأمريكيــة، أمــا أوراق البنكنــوت فكــان يضــعها في جيب صديريته ـ وناول الشلن للخادم قائلًا: «خذ هذا مقابل عطفك».

وكـانت كلارا قـد عـادت، وهي تـربت على شـعرها المـرتب بأصـابعها عندما خطر لكارل ألا يترك الخادم ينصرف، وإلا فمن الذي سـيدله على الطريق إلى محطة السكة الحديد؟ حسنًا. لا شـك أن مسـتر «بوللانـدر» سيتمكن من أن يتصيد خادمًا من مكـان مـا، وربمـا كـان ذلـك الخـادم العجوز قد دعي إلى حجرة الطعام، وعلى هذا فسوف يعـود إلى جلوسـه فوق القاعدة التي جلس عليها من قبل.

ـ «ألن تعزف لي حقًّا على البيانو ولو قليلًا؟! إن المرء نادرًا مـا يسـتمع إلى الموسـيقى هنـا، فمن المؤسـف أن يفقـد المـرء فرصـة تتـاح لـه بالاستماع إلى قليل من العزف!».

قال كارل: «إن عليَّ إذن أن أبدأ العزف في وقت غير مناسـب!»، وجلس إلى البيـانو في الحـال، دون أن يضـع في اعتبـاره شـيئًا آخـر سـوى تـأخر الوقت.

وسألته كلارا: «هل تحتاج إلى نوتات موسيقية معينة؟».

فأجابها قـائلًا: «لا.. شـكرًا، إنـني حـتى لا أجيـد قـراءة الموسـيقى قـراءة صحيحة».

وبدأ يعزف...

كانت قطعة صغيرة تلك التي كان يجيد عزفها، وكان يجب أن يعزفها في بطء، حتى يمكن فهمها، وخاصة بالنسبة للغرباء، إلا أنه عزفها مسرعًا في مارش واحد صاخب، وهبط السكون الذي كان قد تشوش في كل أنحاء المنزل مرة أخرى، عندما فرغ كارل من العزف، وظلا جالسين في مكانهما، وكأنهما قد تجمدا من الارتباك، فلم يأتيا بأية حركة.

ثم قالت كلارا: «عزف جيد بالفعل!»، لم يكن يوجد أي شكل من أشكال المجاملة يصلح لإطراء كارل بعد ذلك العرض الموسيقي الذي فرغ منه بأقصى سرعة.

سألها قائلًا: «كم الساعة الآن؟».

ـ «الثانية عشرة إلا الربع».

قال: «إذن فلا يزال أمامي قليل من الوقت!»، وحدث نفسه قائلًا: «ترى ما هي تلك القطعة الأخرى؟»، ثم أضاف قائلًا: «لا يمكنني أن أعزف القطع العشر التي أعرفها جميعًا، إلا أنني يمكنني أن أعزف من بينها لحنًا واحدًا على الأقل بصورة جيدة قدر المستطاع! وبدأ في عزف لحنه المفضل، وهو «أنشودة الجندي»، في بطء شديد، حتى أثار في نفس من تستمع إليه، الرغبة في الاستماع إلى قطعة أخرى، رفض كارل أن يعزفها في البداية، ثم اضطر إلى أن يعزفها أخيرًا على مضض، كان عليه أولًا أن يبحث عن المفاتيح بعينيه كما يفعل عند عزف أي من مقطوعاته، ثم تذكر قطعة أخرى كانت تنتهي بنفس نهاية القطعة التي

يعزفها، فاستغرق في تذكر النهاية الصحيحة. ثم قال بعد أن فرغ من العزف: «لست عازفًا مجيدًا!»، وهو يتطلع إلى كلارا، والدموع تترقرق في عينيه.

ثم انبعث صوت تصفيق من الحجرة المجاورة، فصاح كارل قائلًا وهو يتراجع فجأة إلى الخلف: «يوجد شخص آخر كان يستمع!».

فقالت كلارا برقة: «إنه ماك!»، وسمع كارل بالفعل صوت ماك، وهو يهتف: «كارل روسمان.. كارل روسمان!».

فقفز مطوحًا ساقيه من فوق مقعد البيانو، وفتح الباب! رأى ماك شبه مضطجع في فراش ثنائي ضخم، بينما تنتشر البطاطين فوق ساقيه في اضطراب، ورأى كذلك ستارة من الحرير الأزرق كانت هي الديكور الوحيد للفراش، كانت تشي بذوق تلميذات المدارس، وكان الفراش بسيطًا فيما عدا ذلك غاية البساطة، شائع الطراز، ومصنوعًا من الخشب الرخيص، وكانت ثمة شمعة تحترق فوق المنضدة التي بجوار الفراش، لكن الملاءات، وثياب ماك الليلية كانت بيضاء ناصعة كلها، حتى أن ضوء الشمعة الساقط عليها كان ينعكس على نحو يبهر الأبصار، وكانت الستارة تشع هي أيضًا، عند حوافها على الأقل، بتموجاتها الخفيفة الحريرية، المتهدلة. وكان باقي الفراش إلى جوار ماك مباشرة غارقًا، كما كان يغرق كل شيء آخر في ظلام حالك، ومالت كلارا تستند إلى عمود الفراش، وعيناها مثبتتان لحظتها على ماك.

هتف ماك وهو يمد يده إلى كارل قائلًا: «هاللو.. إنك تعزف عزفًا جيدًا جدًّا، ولم أكن أعلم حتى الآن إلا بموهبتك في ركوب الخيل فقط!».

قال كارل: «لست أجيد لا هذا ولا ذاك!»، ولو كنت أعلم أنك كنت تتسمع لما كنت قد عزفت، لا شك في ذلك، إلا أن هذه السيدة الصغيرة..»، وتوقف كارل عن متابعة حديثه، كان قد تردد في أن يقول «خطيبتك» بعد أن رأى ماك وكلارا يشتركان بالفعل في نفس الفراش! ورد ماك قائلًا: «إلا إنني أدركت وجود تلك الموهبة، وهكذا تحتم على كلارا أن تغريك بالمجيء من نيويورك إلى هنا، وإلا ما أتيح لي أن أستمع إلى عزفك بالمرة، ولا شك أنه عزف هواة، واضح جدًّا، وخاصة في المقطوعتين الأخيرتين، وقد كانتا بسيطتين غاية البساطة، وتمرنت أنت جيدًا على عزفهما، ولقد ارتكبت خطأ أو اثنين، إلا أنهما قد سببا لي سرورًا زائدًا، مع تجاوز حقيقة أنني عادة لا أستخف بالعازفين مهما كان مستوى عزفهم، لكن ألا تجلس؟ ألا تمكث معنا فترة قصيرة؟! قدمي له مقعدًا يا كلارا».

قال كارل في خشونة: «شكرًا، لا يمكنني أن أبقى، وإن كان يسعدني ذلك، ولقد قضيت وقتًا طويلًا في هذا المنزل قبل أن أكتشف وجود مثل تلك الغرفة المريحة».

قال ماك: «سوف أعيد بناء كل شيء على هذا الطراز».

وفي تلك اللحظة دق جرس ما اثنتا عشر دقة في تتابع سريع، كل دقة منها في أعقاب الأخرى، وكان كارل يكاد يحس بهبات الهواء الذي

حركته ذبذبة دقات ذلك الجرس الهائل فوق خديه، أي نوع من القرى تلك القرية التي يوجد بها مثل ذلك الجرس؟..

قال كارل مندفعًا إلى الردهة، وهو يمد يده لماك وكلارا، دون أن يشد على أيديهما: «لقد حان وقت ذهابي».

لم يجد الفانوس أمام الباب، وندم على تسرعه في منح الخادم بقشيشًا، وراح يتحسس طريقه بطول الحائط إلى حجرته، لكنه ما كان يقطع نصف المسافة إليها، حتى رأى مستر جرين، وهو يتطوح مسرعًا نحوه، وقد رفع يده إلى أعلى بشمعة، بينما تقبض أصابع يده نفسها على خطاب.

ـ «روسمان، لماذا لم تأت؟ لماذا تركتني أنتظرك؟ وما الذي أبقاك بحق الجحيم كل هذا الوقت مع الآنسة كلارا؟».

حدث كارل نفسه قائلًا: «يا لها من أسئلة لا حصر لها!»، «ثم ها هو الآن يدفعني إلى الحائط!»، وكان جرين حقًّا قد توقف ملتصقًا بكارل، الذي كان عليه أن يستند بظهره إلى الحائط، وكان جرين قد بدا في هذه الردهة في حجم بالغ الضخامة، فتساءل كارل بينه وبين نفسه، ساخرًا، إن كان جرين قد التهم مستر بوللاندر أيضًا؟

ـ «إنك لست رجلًا يعول في كلمته دون ريب، فلقد وعدت أن تهبط إليَّ في الطابق الأسفل، في تمام الساعة الثانية عشرة، وبدلًا من أن تفعل ما وعدت به، بقيت هنا تحوم حول باب الآنسة كلارا، لكنني كنت قد وعدت بإطلاعك على بعض الأخبار المهمة، وها هي».

ثم سلم كارل الخطاب. وقرأ كارل فوق مظروفه: «إلى كارل روسمان، يسلم له شخصيًّا، عند منتصف الليل، حيثما وجد».

قال مستر جرين، بينما كان كارل يفض الخطاب: «أظن أنني كنت أستحق أن تتقدم إليَّ بالشكر، لمجرد حضوري بالعربة إلى هنا من نيويورك بسببك، بدلًا من أن تنتظر مني أن أطاردك أيضًا في هذه الردهات!».

قال كارل، وهو يستدير إلى مستر جرين، بمجرد أن نظر إلى الخطاب: «إنه من خالي، لقد كنت أتوقعه».

ورد عليه مستر جرين قائلًا، وهو يرفع الشمعة إلى أعلى: «سواء كنت تتوقعه أو لا تتوقعه، فشيء لا يهمني بالمرة، عليك فقط أن تقرأه».

وقرأ كارل على ضوء الشمعة:

ابن أختي العزيز..

إنني في حقيقتي، كما لعلك قد تحققت الآن خلال فترة صداقتنا البالغة القصر، رجل أعمال، وربما كان هذا أمرًا لا يسر، بل لعله أن يكون شيئًا محزنًا، لا يحزن فقط هؤلاء الذين يتصادف احتكاكهم بي، بل إنه ليحزنني أنا نفسي أيضًا، إلا أن أعمالي هي التي صنعتني، وليس لأحد أن يطلب مني أن أتخلى عن طبيعتي، ولا حتى أنت يا ابن أختي العزيز، ولقد كنت أنت اختياري الأول، فلو كان لي أن أقبل شيئًا من قبيل هجومك الشامل على طبيعتي، لكنت انتزعتك عندئذ من وسط الناس جميعًا، بيدي هاتين اللتين تمسكان الآن بهذا الخطاب،

وأجلستك فوق رأسي، لكن لما لم يكن لي أن أفعل شيئًا من هذا، فيجب عليَّ بعد حادثة اليوم، أن أقصيك عني في الحال، وإنني أرجو منك ألا تزورني بنفسك، ولا أن تحاول أن تتصل بي كذلك لا بالكتابة، ولا عن طريق الوسطاء. ولقد قررت أنت هذه الليلة أن تفارقني، على غير رغبتي، فاثبت إذن عند قرارك هذا مدى الحياة، فعندئذ فقط يكون قرارًا جديرًا برجل. ولقد اخترت مستر جرين، أفضل أصدقائي، ليحمل إليك هذه الأخبار، ولا شك أنه سيجد شيئًا من الكلمات المشجعة لكي يقولها لك، ولا تحضرني أنا الآن مثل تلك الكلمات. إنه رجل قادر على التأثير في الآخرين، وسيزودك ولو كمجرد مجاملة لي فحسب، ببعض نصائحه، ومعونته في خطواتك الأولى المستقلة التي تخطوها. وسيفسر لك انفصالنا الذي يبدو لي الآن، مرة أخرى، مستعصيًا على الفهم، وأنا أنهي هذا الخطاب، إن عليَّ يا كارل أن أقول لنفسي المرة بعد الأخرى، إنه ليس لي أن أتوقع خيرًا من أسرتك. فلو نسي مستر جرين أن يسلمك صندوقك ومظلتك، فذكره بهما.

مع أفضل تمنياتي بتوفيقك المقبل.

المخلص لك خالك جيكوب تساءل جرين: «هل انتهيت من القراءة».

قال كارل: «نعم.. هل أحضرت معك الصندوق والمظلة؟».

قال جرين: «ها هو»، ووضع صندوق كارل السفري القديم، الذي كان يخفيه خلف ظهره حتى الآن بيده اليسرى، على الأرض بجوار كارل.

وعاد كارل فسأله مرة أخرى: «والمظلة؟».

قال جرين: «كل شيء هنا!»، وأخرج كذلك المظلة التي كانت مدلاة من أحد جيوب بنطلونه، ثم أضاف قائلًا: «لقد أحضر هذه الأشياء، رجل يدعى شوبال، وهو مهندس في خط هامبورج ـ أمريكا الملاحي، وذكر أنه كان قد وجدها فوق ظهر الباخرة، ولعلك تجد وسيلة لكي تتقدم إليه بالشكر في فرصة ما».

فقال كارل، وهو يضع المظلة فوق الصندوق: «لقد حصلت الآن ثانية على أشيائي القديمة على الأقل».

ورد عليه مستر جرين قائلًا: «لكن عليك أن تهتم بها أكثر من هذا في المستقبل، ولقد طلب مني السيناتور أن أنبهك إلى ذلك!»، ثم أضاف متسائلًا بدافع الفضول الخالص فيما يبدو: «يا له من طراز غريب من الحقائب، هذا الصندوق!».

فأجابه كارل قائلًا: «إنه واحد من تلك الحقائب التي يصحبها الجنود في بلدي معهم عند انضمامهم إلى الجيش، لقد كان حقيبة الجيش القديمة الخاصة بأبي، إنه صندوق مفيد أيضًا للغاية، وأضاف بابتسامة، وهو يتطلب منك لهذا ألا تتركه خلفك في مكان من الأماكن».

فقال مستر جرين: «لقد تلقيت درسًا كافيًا بعد كل شيء، وأظن أنه ليس لك خال آخر في أمريكا، وثمة شيء آخر بقي لك معي، هو تذكرة سفر بالدرجة الثالثة إلى سان فرانسيسكو، وقد قررت أن أرسلك إليها، أولًا لأن فرص كسب العيش تتاح لك بوفرة في الغرب، ولأن لخالك، من ناحية أخرى، يدًا في كل شيء هنا، ستجد له يدًا في أي عمل تراه

مناسبًا لك، ويجب ألا يقع أي لقاء بينكما مطلقًا. ويمكنك في سان فرانسيسكو أن تقوم بما يروق لك من الأعمال، فابدأ إذن من القاع، وحاول أن تشق طريقك شيئًا فشيئًا، صاعدًا إلى أعلى».

لم يجد كارل أي نوع من الخداع في هذه الكلمات، ولقد بلغته الأخبار السيئة، التي ظلت مخبأة في جراب جرين طوال الليل، وبدا له جرين الآن شخصًا مسالمًا ربما أمكن له أن يتحدث إليه في صراحة، لعله لا يستطيع أن يتحدث بها إلى أي شخص آخر. كما أنه كان أفضل شخص أمكن اختياره، على الرغم منه، ليحمل إليه مثل ذلك السر، وتلك الرسالة المؤلمة، وقد كان حتمًا عليه أن يبقى شخصًا مريبًا طالما كان عليه أن يحتفظ بها بينه وبين نفسه.

قال كارل: «سوف أغادر هذا المنزل في الحال!»، وكان يأمل أن يجد قراره هذا تأييدًا من مستر جرين لخبرته في هذا الشأن ثم أضاف قائلًا: «ذلك إنني كنت قد دعيت إلى هذه الزيارة مجاملة لخالي، ولا محل الآن لوجودي هنا كشخص غريب، فهل تتكرم بأن تدلني على الطريق إلى خارج هذا المنزل؟ وأن تخبرني كيف أصل إلى أقرب فندق؟».

قال جرين: «يمكنني أن أفعل ذلك بأسرع مما تتوقع، وأعتقد أنك لا تتحرج من التصريح لي بما تريدني أن أفعله من أجلك، أليس كذلك؟».

توقف كارل فجأة، وهو ينظر إلى الخطوات الواسعة التي كان جرين يخطوها.. إن مثل هذه العجلة تبدو مريبة للغاية، فأمسك لهذا بذيل

معطف جرين، وقد أدرك فجأة حقيقة الموقف، قائلًا: «هناك شيء آخر يجب عليك أن تفسره لي، فعلى المظروف الذي سلمته لي، قد كتب أن عليَّ أن أتسلمه عند منتصف الليل، حيثما تصادف وجودي. فلماذا إذن والأمر كذلك، حجزتني هنا عن الرحيل في الساعة الحادية عشرة والربع؟ لقد خالفت بذلك ما وُجِهَ إليك من تعليمات!».

وشوح جرين بيده، وهو يجيب قائلًا، في ضيق بالغ، اتضح منه مدى سخافة سؤال كارل: «هل كان مكتوبًا فوق المظروف أن عليَّ أن أقتل نفسي من الإجهاد في مطاردتك، والسعي في أثرك، وهل تشير محتويات الخطاب أدنى إشارة إلى أن التعليمات التي تتضمنها يمكن أن تفسر على هذا النحو؟!» إنني لو لم أكن قد حجزتك هنا، لكان عليَّ حينئذ أن أسلمك الخطاب بالتحديد، في الطريق العام!».

فقال كارل في غير اقتناع: «لا.. إن الأمر ليس كذلك، فلقد كتب على المظروف: «يسلم عند منتصف الليل»، وربما يكون التعب قد نال منك عندئذ، فلم يسعك أن تتعقبني بالمرة، ولعلني كنت قد وصلت إلى منزل خالي عند منتصف الليل، ولنفرض مثلًا أن مستر بوللاندر لم يخطر بباله أن شيئًا من هذا يمكن أن يحدث، أو أنه كان من واجبك أنت، باختصار، أن تعيدني إلى خالي بعربتك التي تجاهلت وجودها بالمرة بتلك الصورة المتعمدة، وخاصة أنني كنت متشبثًا بالعودة، ألم يذكر نص الخطاب في غاية الوضوح أن منتصف الليل كان هو الموعد المحدد لي؟ وأنك الملوم وحدك، بعد أن فاتني هذا الموعد!».

نظر كارل إلى جرين نظرة ماكرة، ورأى أن الخجل أمام هذه المواجهة كان قد علا وجه الرجل مختلطًا بالفرح لنجاح تدبيره، حتى تمالك نفسه في النهاية، ليقول محتداً، وكأنه يضع حداً لاتهامات كارل، رغم أن كارل كان قد لاذ بعد ذلك بالصمت لفترة طويلة: «لا تتفوه بكلمة أخرى».

ورفع كارل مرة أخرى صندوقه، ومظلته، وسار بهما نحو باب صغير دفعه، فانفتح أمامه.

ووجد كارل نفسه في الخلاء لدهشته، ورأى درجات سلم خارجي بلا درابزين كان يؤدي إلى الحديقة، كان عليه فقط أن يهبط درجاته، ثم يستدير نحو اليمين حتى يبلغ الممر الذي يؤدي إلى الشارع.

وفي ضوء القمر الساطع استطاع في سهولة أن يتبين طريقه، وكان يصله نباح الكلاب المتزايد التي كانت تنطلق بلا قيد في أرجاء الحديقة تحت ضوء القمر، وتقفز هنا وهناك بين ظلال الأشجار، وكان يسمع في السكون صوت ارتطام تلك الكلاب فوق العشب بعد قفزاتها الهائلة.

وتمكن كارل من مغادرة الحديقة، دون أن تتعرض له الكلاب، ولم يكن يدري على وجه اليقين، في أي اتجاه كانت تقع نيويورك، إلا أنه لم يكن عندما غادر الحديقة، قد انتبه إلى شيء من التفاصيل التي قد تصبح ذات نفع له الآن، ثم قال في نفسه أخيرًا إنه لا يوجد الآن ما يدفعه إلى الذهاب إلى نيويورك، حيث لا يتوقع مجيئه أحد، وحيث

يوجد بالتأكيد رجل معين لا يتوقع مجيئه مطلقًا، وعلى هذا فقد اختار اتجاهًا صادفه، وانطلق سائرًا فيه.

الفصل الرابع
الطريق إلى رمسيس

في الحانة الصغيرة التي بلغها كارل بعد فترة قصيرة من السير، والتي كانت عبارة عن مجرد مطعم صغير، كان سائقو لوريات وعربات نيويورك يتناولون طعامهم فيها، وكانت تستعمل أحيانًا كمأوى ليلي، طلب كارل أرخص فراش يمكنه أن يقضي فيه ليلته، وكان قد رأى أنه يجب عليه أن يبدأ فورًا في التقشف، وعندما كان يقف في انتظار تلبية طلبه، لوح له صاحب الحانة طالبًا منه أن يصعد إلى أعلى الدرج، كما لو كان خادمًا بسيطًا، واستقبلته في أعلى الدرج عجوز شمطاء، شعثاء الشعر، كانت متجهمة لأنها كانت قد نهضت من نومها، وراحت تحذره ـ دون أن تستمع إليه مطلقًا ـ ألا يحدث أية ضوضاء، وأن يتقدم في هدوء بينما كانت تتقدمه حتى بلغت حجرة، أغلقت بابها خلفه، بعد أن همست له قائلة: «هست!».

ولم يتمكن كارل في البداية من أن يدرك هل كانت ستائر النافذة مسدلة أو أنه لم تكن توجد بالغرفة نافذة على الإطلاق، فقد كان الظلام حالكًا، لكنه تبين في النهاية كوة جذب غطاءها، فانتشر بداخل الحجرة قليل من الضوء، ورأى بالحجرة فراشين، كانا مشغولين كليهما بالفعل، فقد كان يستلقي فوقهما شابان، مستغرقين في نوم عميق، لم يكن شكلهما يوحي بالاطمئنان للوهلة الأولى بلا سبب مفهوم، كانا

مستغرقين في النوم بملابسهما كاملة، وكان أحدهما ينتعل حذاءه أيضًا.

رفع أحد الشابين المستغرقين في النوم، عندما كشف كارل غطاء الكوة، ذراعيه وساقيه قليلًا إلى أعلى، فبدا منظره غريبًا، حتى أن كارل لم يستطع إلا أن يضحك في نفسه بالرغم من حذره.

وسرعان ما تحقق كارل من أنه– على الرغم من عدم وجود أي شيء بالغرفة يمكنه أن ينام فوقه، لا فراش ولا أريكة، ولا أي شيء– لن يمكنه أن ينام هنا بحال من الأحوال، فلم يكن في مقدوره أن يجازف بفقدان صندوقه الذي عثر عليه أخيرًا، وبفقدان النقود التي يحملها، إلا أنه لم يرغب في مغادرة المكان أيضًا، فلم يكن يدري كيف يواجه المرأة العجوز وصاحب الحانة إذا غادر المكان بهذه السرعة، ولعله بعد هذا كله، أن يكون آمنًا هنا على الأقل، نفس الأمان الذي قد يتاح له في الخلاء، إذا هو غادر المكان في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولا شك أنه كان من الغريب ألا يجد بالحجرة أي أثاث بقدر ما أمكنه الرؤية في ذلك الضوء الخافت، لكن، ربما كان هذان الشابان خادمين بالحانة، وعليهما أن ينهضا من نومهما في وقت مبكر استعدادًا لخدمة النزلاء، ولعلهما لهذا السبب كانا ينامان بملابسهما، فلم يكن أمامه ما يدعو للفخر في هذه الحالة أيضًا دون شك إن كان عليه أن ينام في حجرتيهما بعد أن يغادراها، لكنه على أية حال أمر يقل فيه عنصر المجازفة، ومع ذلك فليس له أن يستغرق في النوم استغراقًا تامًّا، مهما

كانت الأحوال، حتى يتأكد من صحة افتراضاته هذه بصورة لا تقبل الشك.

وتحت الفراش كانت توجد شمعة بجوارها بضعة أعواد من الثقاب، زحف كارل في حذر، وتناولها، لم يكن يخشى إشعال الشمعة، فقد كانت الحجرة تخصه كما تخص الشابين الآخرين، اللذين كانا قد نعما بالنوم إلى ما بعد منتصف الليل، بالإضافة إلى انفرادهما بالفراشين اللذين كان يعدهما ميزة لا تعدلها ميزة أخرى في تلك اللحظات، ومع ذلك فقد كان يتجول في أنحاء الحجرة بغاية الحذر حتى لا يتسبب في إيقاظهما.

كان يود أولًا أن يفحص محتويات صندوقه، ويجرد أشياءه التي لا يكاد يذكرها الآن بصورة واضحة، تلك الأشياء التي لا شك قد اختفى أهمها بالفعل، فما أن تمتد يد شوبال إلى شيء حتى يكاد يتلاشى الأمل تقريبًا في أن تسترده ثانية كما كان، وربما كان قد توقع بالطبع بقشيشًا كبيرًا من الخال جيكوب، لكن لو أن شيئًا قد فقد بالفعل من محتويات الصندوق، فعليه ببساطة أن يلقي لومه على الحارس الأصلي للصندوق، مستر باتربوم!.

ولقد انزعج كارل عندما نظر في داخل الصندوق للوهلة الأولى، كم من الساعات أنفقها خلال رحلته، في ترتيب، وإعادة ترتيب أشياءه، لكي يجد كل شيء الآن مضطربًا بداخله ذلك الاضطراب الشنيع، حتى أنه لم يكد يدير المفتاح في القفل حتى قفز الغطاء إلى أعلى تلقائيًا.

ثم اكتشف في التو لفرحته، أن السبب الوحيد في تلك الفوضى، هو أن شخصًا ما كان قد أضاف إلى محتويات الصندوق أيضًا بدلته التي كان يرتديها خلال الرحلة، ولم يكن الصندوق بالطبع، ليتسع لها إلا بصعوبة، لم يكن أي شيء من محتويات الصندوق قد فقد ولم يجد في الجيب السري لجاكتته جواز سفره فقط، بل وجد أيضًا النقود التي كان والداه قد زوداه بها، وأصبح لهذا، بالإضافة إلى ما كان يحمل من نقود، مزودًا الآن بقدر كافٍ من المال، وحتى الملابس الداخلية التي كان يرتديها عند وصوله كانت موجودة كذلك بداخل الصندوق وكانت قد غسلت، وتم كيها، وضع نقوده وساعته في داخل جيبه السري الأمين من فوره، وكان الشيء الوحيد الذي أسف له كارل هو أن قطعة لحم السالامي الفيرونيزية التي كانت موجودة في الصندوق، كانت قد خلفت رائحتها على كل الملابس، فلو استطاع أن يجد طريقة لإزالة تلك الرائحة من الملابس التي كان عليه أن يتجول بها في كل مكان لعدة شهور؟ وبينما كان يبحث عن شيء ما في قاع الصندوق- وهو كتاب مقدس في حجم الجيب، وبعض أوراق الخطابات، وصور فوتوغرافية لوالديه- سقطت القبعة من فوق رأسه إلى داخل الصندوق، وتبينها على الفور من حروفها المتآكلة، كانت هي قبعته نفسها، التي كانت والدته قد أعطته إياها ليرتديها في أثناء الرحلة، ولم يكن قد استعملها رغم ذلك على الباخرة من قبيل التوفير، فقد كان يعلم أن الناس في أمريكا يرتدون القبعة المستديرة بدلًا من القبعة العالية، ولم يكن يريد أن يستهلك هذه القبعة لذلك قبل أن يصل إلى أمريكا، وها

هو مستر جرين قد استعملها فقط لمجرد استغفاله، فهل كان الخال جيكوب قد نبه عليه بأن يفعل ذلك أيضًا؟ وبحركة حانقة لا شعورية جذب كارل غطاء الصندوق، فانغلق مدويًّا في عنف.

لم يعد أمامه الآن أية حيلة في الأمر، فقد استيقظ النائمان، تمدد أولهما وتثاءب ثم تبعه الآخر في الحال ففعل نفس الشيء، كانت كل محتويات الصندوق مكومة فوق المنضدة، فلو كان هذان الرجلان لصين، فلم يكن عليهما إلا أن يتقدما نحوه، ويضعا أيديهما على ما يروق لهما، وتقدم كارل وهو يحمل الشمعة في يده نحو الفراشين، كمحاولة لمواجهة هذا الاحتمال، والتأكد من حقيقة وضعه وفسر لهما كيف دخل هذه الحجرة، فلم يبد عليهما أنهما كانا ينتظران أي تفسير، فقد ظلا يحدقان إليه فحسب دون أن يتمكنا من الرد عليه، فقد كان النوم يغلبهما، ولم يجد على وجهيهما أثرًا للدهشة أو استنكارًا لوجوده، كانا شابين، إلا أن العمل الشاق، أو الفقر كان قد أبرز عظام وجنتيهما بصورة ملحوظة، وكانت تتهدل من ذقنيهما خصلات لحيتين شعثاوتين، وكان شعرهما أشعث كذلك، وبدا أنه لم يُحلق منذ فترة طويلة؛ لأنه كان متلبدًا فوق فروتي رأسيهما، ودعكا أعينهما الغائرة التي كان النوم لا يزال يغلقهما.

وقرر كارل أن يستغل جيدًا حالة الضعف المؤقت التي كانا يبدوان عليها في تلك اللحظة فقال: «إن اسمي هو كارل روسمان، وإنني ألماني الجنسية، فاذكرا لي اسميكما لو تفضلتما بذلك، بما أننا نشغل معًا نفس الغرفة، ومن أي بلد جئتما، وأصرح لكما كذلك بأنني لا أتطلع

إلى مزاحمتكما في فراشيكما، فلقد وصلت متأخرًا، وليست لدي أدنى رغبة في النوم، على أية حال، كما أنه لا ينبغي لكما أن تسيئا فهم حالي نظرًا للبدلة الحسنة التي أرتديها. فأنا معدم تمامًا، وبلا أدنى أمل».

وأشار أصغر الرجلين ـ وهو ذلك الذي كان ينام منتعلًا حذاءه ـ بيديه وساقيه وحركة جسده، بما يدل على عدم اهتمامه بهذا كله وبأنه لا يملك وقتًا للاستماع إلى هذه المعلومات، واستلقى ثانية على الفراش، متأهبًا لاستئناف نومه في الحال. لكنه قال ملوحًا بيده قبل أن يعود إلى النوم: «هذا الشاب الذي هناك يدعى روبنسون، وهو أيرلندي، أما أنا فاسمي ديلا مارش، وأنا فرنسي، والآن أرجوك أن تلزم الهدوء!» وما إن فرغ من ذلك، حتى أطفأ شمعة كارل بنفخة شديدة من فمه، وألقى برأسه فوق الفراش.

قال كارل في نفسه، مستديرًا نحو المنضدة: «حسنًا. لقد زال الخطر الآن مؤقتًا!»، فإذا لم يكن نومهما الآن مفتعلًا، فإن كل شيء على ما يرام، وكان الشيء الوحيد الذي لم يرتح إليه، هو أن أحدهما كان أيرلنديًّا، ولم يكن في إمكان كارل أن يتذكر في أي كتاب كان قد قرأ ذات مرة، عندما كان في بلده، أن على المرء إذا قدر له أن يذهب إلى أمريكا، أن يحذر الأيرلنديين. وقد كانت أمامه، عندما كان يقيم في منزل خاله، فرصة ممتازة بلا شك، كان يمكنه أن يستفسر فيها عن ذلك الخطر الأيرلندي، لكنه كان قد اعتقد حينذاك بأنه كان قد تحصن تمامًا ضد كل الأخطار حتى نهاية حياته، فقد أهمل بحث ذلك الأمر تمامًا. ورأى كارل أن عليه أن يلقي الآن على الأقل نظرة فاحصة، على

الرجل الأيرلندي في ضوء الشمعة، التي أشعلها ثانية، ووجد أن الرجل يبدو محتملًا في حقيقة الأمر أكثر من الرجل الفرنسي، كانت وجنتاه لا تزالان تحملان أثرًا من الاستدارة، وكان يبتسم في نومه، بصورة ودود، بقدر ما أتيح لكارل أن يرى، عندما كان يقف على أطراف أصابعه على مسافة بعيدة من الرجل وهو يتطلع إليه.

وقرر كارل بصورة قاطعة ألا ينام على الرغم من كل شيء، وجلس فوق المقعد الوحيد بالحجرة، وأجل إعادة ترتيب أشيائه بداخل الصندوق لبعض الوقت، ثم تناول صورة فوتوغرافية لوالديه، كان يقف فيها والده الشاب منتصب القامة خلف والدته، التي جلست فوق مقعد ذي مسندين، منطوية على نفسها إلى حد ما، وكانت إحدى يدي والده تستند على ظهر المقعد، بينما كانت يده الأخرى المضمومة تستقر فوق كتاب مصور فوق ترابيزة صغيرة كانت بجانبه، وكانت ثمة صورة فوتوغرافية أخرى كانت تضم كارل مع والديه، وكانا يتطلعان إليه فيها باهتمام، بينما كان هو يحملق في الكاميرا كما طلب منه المصور، إلا أنه لم يحضر معه هذه الصورة عند رحيله.

وتفحص الصورة التي أمامه في تركيز، وحاول أن يواجه نظرة والده من مختلف الزوايا، إلا أن والده لم يتجسد أمام عينيه، مهما كان يحاول أن يعدل تعبير وجهه في الصورة بتحريك الشمعة في اتجاهات مختلفة، ولا كان شاربه الكثيف الأفقي، يبدو حقيقيًّا هو أيضًا، لم تكن صورة جيدة إلا أن والدته رغم ذلك كانت قد تبدت له على نحو أفضل، كان فمها مزمومًا كما لو كانت تعاني ألمًا، ولا بد لها مع ذلك أن ترغم

نفسها على الابتسام، وبدا لكارل أن أي شخص ينظر إلى هذه الصورة لا بد سيفاجأ بهذا الشعور، حتى لقد بدأ يدرك أنه كان تفسيرًا مبالغًا فيه، فكيف يمكن لصورة فوتوغرافية أن تشي بالمشاعر الدفينة بهذا الوضوح؟ وحول نظرته قليلًا، بعيدًا عن الصورة وعندما تفحصها ثانية لاحظ يد والدته التي امتدت إلى الأمام، تركت مسند الكرسي وتحركت إلى مقدمة الصورة، فبدت قريبة منه جدًّا، حتى بدا في إمكانه أن يتناولها ويقبلها، وفكر هل من الواجب عليه أن يكتب إلى والديه، مع أنهما قد حذراه ألا يكتب إليهما (وخاصة والده الذي نبه عليه في حزم بالغ بألا يفعل ذلك وهو يودعه في هامبورج)، في تلك الليلة الأليمة، كان قد اتخذ قرارًا حاسمًا بألا يكتب إليهما، عندما أخبرته والدته وهي تقف إلى النافذة بأن عليه أن يرحل إلى أمريكا، لكن ماذا يهم قرار صبي عديم الخبرة، في مثل تلك الحالة؟.. وبعد تلك التطورات الجديدة؟ ولعله كان قد قرر أيضًا حينئذ أن شهرين في أمريكا سوف يتسعان له لكي يبلغ منصب قائد الجيش الأمريكي المرابط، لا أن يقبع الآن هنا في مثل هذا الوكر إلى جانب اثنين من المشردين، في مطعم خارج نيويورك، هذا المكان الذي كان يناسبه تمامًا، طالما لم يكن أمامه سوى أن يقبله، وتفحص وجهي والديه بابتسامة كما لو كان يحاول أن يقرأ في ملامحهما مدى استعدادهما لأن يتلقيا أخبارًا من ابنهما.

وشغله مقدمًا خوفه من أن يدركه الإرهاق في النهاية، وألا يتمكن من البقاء مستيقظًا طوال الليل، وسقطت الصورة من بين يديه، فوضع

وجهه فوقها، واستمتع بملمسها البارد تحت خده، وفي شيء من الارتياح استغرق في النوم.

واستيقظ في الصباح الباكر عندما أحس بلكزة تحت إبطه، كان الرجل الفرنسي قد سمح لنفسه بأن يلكزه تلك اللكزة، إلا أن الأيرلندي كان يقف أيضًا إلى جانب المنضدة، وكانا يتطلعان إليه بلا مبالاة، كتلك التي أبدياها تجاهه في أثناء الليل، ولم يدهش كارل لأنهما لم يوقظاه معهما عندما استيقظا، فلم يكن هناك ما يدعوه إلى الارتياب في حركاتهما المتلصصة؛ لأنه كان غارقًا تمامًا في نومه، وبدا له أنهما لم يبذلا مطلقًا أدنى مجهود في ارتداء ثيابهما، كما بدا له من مظهرهما أنهما لم يغتسلا كذلك.

وقدما إليه نفسيهما الآن في شيء من التكلف على أنهما ميكانيكيان ظلا متعطلين لمدة طويلة في نيويورك، ولهذا كان الحال قد انحدر بهما إلى هذه الصورة، ولكي يبرهن له روبنسون على ذلك، فك أزرار سترته ليبين له أنه لم يكن يرتدي قميصًا فوق جسده، إلا أن المرء كان يسعه أن يخمن ذلك من تهدل ياقة السترة التي كانت قد أحكمت فقط إلى العنق! وقد كانا في طريقهما إلى مدينة صغيرة هي باترفورد، وتبعد مسافة يومين سيرًا على الأقدام من نيويورك، حيث أشيع أن فرص العمل تتوافر بها، ولم تبدر منهما أية اعتراضات على انضمام كارل إليهما، ووعدا بأن يتبادلا حمل صندوقه، وأن يجدا له عملًا أيضًا كصبي، إذا تمكنا من العثور على عمل لهما، وهو أمر يسهل تدبيره إذا توافر العمل أساسًا، ووافقهما كارل على ذلك، فنصحاه في لهجة ودية

أن يخلع بدلته الجيدة التي يرتديها، والتي ستعوقه في بحثه عن عمل، وقد كان في تلك الحانة نفسها فرصة صالحة للتخلص من تلك البدلة؛ لأن المرأة العجوز تتجر في الملابس القديمة، وفي الحال، عاونا كارل ــ الذي لم يكن قد قرر بصورة نهائية ما سيفعله في أمر البدلة ــ على خلعها، واختفيا بها، وعندما خلا كارل إلى نفسه، وكان لا يزال تحت تأثير النعاس، ارتدى في تكاسل بدلته القديمة، وهو يلوم نفسه لأنه قد وافق على بيع البدلة الجيدة، التي قد تعوقه الآن بالفعل عن الحصول على عمل كصبي، إلا أنها تتيح له أن يظهر في صورة حسنة إلى حد كافٍ، عندما يتطلع إلى وضع أفضل في فرصة أخرى، وفتح الباب في الحال لكي يدعو الرجلين إلى العودة بالبدلة، فوجدهما عندما فتح الباب واقفين أمامه، مزودين بنصف دولار وضعاه فوق المنضدة أمامه ثمنًا لبدلته، وفي الوقت نفسه كان يبدو عليهما الانشراح إلى حد أنه كان يصعب على المرء ألا يعتقد بأنهما قد استفادا بشيء من الثمن، وأنهما قد استفادا فائدة كبيرة أيضًا، لشدة قرف كارل.

لكن لم يكن هناك متسع من الوقت حتى يتحدث إليهما كارل في هذا الشأن، فقد اندفعت المرأة العجوز إلى داخل الحجرة، وهي تغالب نومها كما بدت في الليلة السابقة، وراحت تدفعهم جميعًا أمامها إلى خارج الحجرة وهي تقول لهم إن الحجرة يجب أن تخلو الآن لوجود بعض النزلاء الجدد، ولم يكن هناك مجال لبحث هذا الأمر، ولم تكن هناك حاجة إلى القول بأنها كانت تفعل ذلك كمجرد خدعة، وكان على كارل عندما شرع في جمع أشيائه في داخل الصندوق، أن يتطلع

إليها، وهي تجمعها بدلًا منه بكلتا يديها وتقذف بها في عنف إلى داخل الصندوق، كانت تحاول التخلص منهم كما لو كانوا ثلاثة من الحيوانات الكاسرة، تريد أن تطردهم خارجًا بأسرع ما يمكنها، وظل الميكانيكيان يراوغانها، ويدوران حولها ويجذبان طرف ردائها، ويلطمانها فوق ظهرها، لكن لو أنهما كانا يعتقدان أنهما بذلك يساعدان كارل لكانا مخطئين في ظنهما خطأ بالغًا! وعندما أغلقت العجوز الصندوق، ألقت بمقبضه بين أصابع كارل، ودفعت الميكانيكيين، وساقتهم جميعًا أمامها إلى خارج الحجرة وهي تهدد، بأنهم إن لم يسارعوا بالخروج، فإنها لن تقدم لهم القهوة، وبدا واضحًا أنها قد تناست تمامًا أن كارل لم يكن في صحبة الميكانيكيين من البداية؛ لأنها كانت قد طاردتهم جميعًا، ولما كان الميكانيكيان قد باعا لها بدلة كارل، فوق ذلك، فقد وشى ذلك كله بشيء من التضامن بينهما وبينه.

كان عليهم أن يذرعوا الممر ذهابًا وجيئة وقتًا طويلًا، وأقسم الرجل الفرنسي، الذي كان قد أمسك بذراع كارل، في وضوح منقطع النظير مهددًا بأن يطرح صاحب الحانة أرضًا لو جرؤ على الظهور، وضرب قبضتيه المطبقتين في هياج، كما لو كان يستعد للمواجهة، وأخيرًا ظهر صبي ضئيل بريء المظهر، كان صغيرًا للغاية حتى لقد كان عليه أن يقف على أطراف أصابعه لكي يناول القهوة للرجل الفرنسي، ولم يكن هناك لسوء الحظ شيء سوى العلبة الصفيح، ولم يكن في مقدورهم أن يوضحوا للصبي حاجتهم إلى الأكواب.

وهكذا لم يكن عليهم سوى أن يتناوبوا تناول القهوة من العلبة الصفيح، الواحد منهم بعد الآخر، بينما يقف الآخران في انتظار دورهما، ولم يكن كارل ليقبل تناول القهوة على هذا النحو، لكنه لم يرغب أيضًا في إهانة الآخرين، ولهذا رفع العلبة الصفيح إلى شفتيه عندما حان دوره، إلا أنه لم يشرب شيئًا منها رغم ذلك.

وطوح الرجل الفرنسي بالعلبة على الدرجات الحجرية إيذانًا بالرحيل، وغادروا الحانة دون أن يلحظهم أحد، وتقدموا نحو ضباب الصباح الكثيف الضارب إلى الاصفرار، وساروا في صمت جنبًا إلى جنب على حافة الطريق. وكان على كارل أن يحمل صندوقه؛ لأن الآخرين لم يظهرا ما يدل على استعدادهما لحمله ليتيحا له أن يرتاح قليلًا، إلا عندما كان كارل يطلب منهما ذلك، وكانت تندفع من حين لآخر سيارة من خلال الضباب، وكان الثلاثة يديرون رؤوسهم ليتطلعوا نحو السيارة التي تبدو هائلة الحجم، ثم تنطلق كالسهم، حتى أنهم لم يتمكنوا من رؤية أحد بداخلها. ثم أخذت تقابلهم صفوف من العربات التي تحمل التموين إلى نيويورك، تلك العربات التي كانت تندفع في عكس اتجاههم في صفوف خمسة تشغل عرض الطريق، ويستمر ذلك التتابع الذي لا ينقطع، حتى أن أحدًا لم يكن يمكنه أن يعبر الطريق إلى الجانب الآخر، وكان الطريق يتسع أحيانًا حتى يبدو أشبه بميدان، كان يقوم في منتصفه هيكل شبيه بالبرج، يقف بداخل رجل بوليس مهمته الإشراف على حركة كل شيء، وكان يوجه تلك الحركة في الطريق الرئيسي، والطرق الجانبية التي تتصل به، بمؤشر صغير في يده، وكان هذا الرجل

هو المشرف الوحيد على حركة المرور إلى أن تصل تلك الحركة إلى الميدان التالي، وإلى عسكري المرور التالي، ويتم توجيهها في أثناء ذلك بكفاءة، وتلقائية باليقظة الصامتة التي يبديها سائقو اللوريات والعربات، ولقد دهش كارل أشد الدهشة للهدوء الشامل، فلعلك لم تكن لتسمع سوى وقع الأقدام، وطنين موتورات العربات، ولم تكن سرعة تلك العربات بالطبع واحدة على الدوام، وكانت تقوم حركة تنظيم واسعة النطاق للمرور في بعض الميادين بسبب اندفاع حركة السيارات من الشوارع الجانبية، فكانت صفوف طويلة من العربات تتوقف فجأة عندئذ، وهي تهتز عدة بوصات إلى الأمام، لكن بعد لحظات قصيرة، كان كل شيء يندفع إلى الأمام مرة أخرى بسرعة الضوء، ثم تتوقف الحركة كلها ثانية دفعة واحدة، كما لو كانت قد توقفت كلها بفرملة واحدة، وتمضي تلك الحركة كلها في جو رائق، بلا أدنى أثر للغبار الذي يرتفع تحت العجلات من الطريق، لم يكن هناك مارة، ولا بائعات يسرن وحيدات بطول الطريق نحو المدن كما في بلد كارل، لكن من حين لآخر كانت تظهر عربات لوري ضخمة، كانت تقف فوقها ما يقرب من العشرين امرأة بالسلال على ظهورهن، ولعلهن كن بائعات، فقد كن يمددن أعناقهن لينظرن إلى حركة المرور في صبر نافد للإسراع بالسير، وكانت ثمة لوريات تحمل رجالًا يتطلعون حولهم وأيديهم في جيوب بنطلوناتهم، وكانت تلك اللوريات تحمل دائمًا بعض الكتابات المختلفة، وعلى أحدها قرأ كارل بصيحة دهشة: «مطلوب عمال ميناء لوكالة جيكوب للتصدير»، وتصادف أن

كانت تلك السيارة تسير في بطء على نحو ما، وكان رجل ضئيل الحجم، محني الظهر، ودود بصورة ما، يقف على سلمها، وقد وجه هذا الرجل الدعوة إليهم لاعتلاء سطح العربة، واختبأ كارل خلف الميكانيكيين كما لو كان خاله في اللوري، ومن الممكن أن يراه، ولقد ارتاح لرفض زميليه تلك الدعوة، على الرغم من أنه قد وجد ظلًا من الإهانة في الطريقة المستهترة التي رفضاها بها. فهل كان لهما أن يعتبرا أنفسهما قد بلغا من السمو حدًّا يمنعهما من العمل لخاله؟.. ولقد قال لهما شيئًا من هذا في كلمات مقتضبة بالطبع، واستدار ديلامارش إليه وطلب منه عدم التدخل في الأمور التي لا يفهمها لأن تلك الطريقة في جمع الرجال هي احتيال شنيع، كما أن شركة جيكوب شركة سيئة السمعة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، ولم يجب كارل بشيء، إلا أنه، منذ تلك اللحظة ظل ملتصقًا بالرجل الأيرلندي، وطلب منه أن يحمل عنه الصندوق قليلًا، وقد فعل الرجل ما طلبه منه، بعد أن توجه إليه كارل بهذا الطلب عددًا من المرات من قبل، إلى أن اتضح أن كل ما كان يريده من الصندوق هذه المرة عندما قبل أن يحمله، كان لحم السالامي الفيرونيزي، الذي يبدو أنه كان قد لاحظ وجوده قبل أن يغادر الحانة. وكان على كارل أن يفض لفة اللحم لكن الرجل الفرنسي، اختطفها، وشرحها قطعًا صغيرة بسكين أشبه بالخنجر، والتهم الجزء الأكبر منها. وحصل روبنسون على قطعة من حين لآخر فحسب، ولم يحصل كارل الذي أجبر بعد ذلك على حمل الصندوق، على شيء مطلقًا، ولعلهما قد افترضا أنه كان قد حصل على نصيبه من لفة اللحم

مقدمًا، وقد بدا له من السخف أن يرجوهما التفضل عليه بشريحة منـه، فلم يطلب شيئًا، لكنه كان يشعر بالمرارة مع ذلك لسلوكهما نحوه.

وكان الضباب قد تلاشى عندئذ، وتـألق على البعـد جبـل شـاهق، كـان يتراجع كقمم الأمواج، إلى الخلف، صـاعدًا نحـو قمـة متباعـدة يغلفهـا غبش ضوء الشـمس، وعلى جـانبي الطريـق كـانت تمتـد حقـول مهملـة تحيط بالمصانع الكبيرة، التي كانت ترتفع مجللة بالـدخان، في الريـف الرحب، وكانت قطاعات من المساكن المنعزلة قـد شـيدت جزافًـا هنـا وهنـاك، وكـانت نوافـذها الـتي لا حصـر لهـا تمـوج بالحركـة المتزايـدة والأضواء، بينما فوق الشرفات الصغيرة نساء وأطفال مشـغولون بأشـياء عديدة، نصف مختبئين، ونصـف ظـاهرين خلـف الملابس المغسـولة، المعلقة من مختلف الأنواع، المنشورة لكي تجف، والتي كانت ترفـرف حولهم عند هبوب نسيم الصباح، وتتموج بشدة، ولو شردت عينا المرء عن الـبيوت، لـرأى العصـافير في أعلى الفضـاء، وطـائر السـنونو في الأسفل، ينطلق فوق رؤوس المارة.

كان هناك الكثير مما كـان يـذكر كـارل ببلـده، ولم يكن يمكنـه أن يقـرر هـل أصـاب بمغادرتـه نيويـورك، وتجولـه في الـداخل أم أخطـأ، ففي نيويورك يوجد البحر الذي يعني الفرصة للعودة في أيـة لحظـة إلى بلـده، ولهـذا توقـف فجـأة، وقـال لرفيقيـه: إنـه يشـعر برغبتـه في العـودة إلى نيويورك أخيرًا، وعندما بدا له أن ديلامارش كان يسحبه باسـتخفاف إلى الأمام، رفض أن يساق إلى السير، واحتج قائلًا: إن من شأنه هو أن يقرر بنفسه إن كان يرغب في السير أو يرغب في العـودة، وكـان على الرجـل

الأيرلندي أن يتدخل، وأن يوضح أن باترفورد هي مدينة أفضل من نيويورك، وكان عليهما أن يعاملاه باللين البالغ فترة من الوقت، قبل أن يواصل السير معهما في النهاية، وحتى عندما سار معهما، لم يكن قد أذعن، إلا لأنه كان قد قال في نفسه إنه ربما كان من المستحسن أن يوغل في الابتعاد عن نيويورك؛ حتى لا يعود التفكير في العودة إلى وطنه أمرًا سهلًا، وأنه سوف يعمل بلا شك، ويحاول أن يتقدم من حالة إلى حالة أفضل منها، ما لم تعقه تلك الأفكار المثبطة التي توسوس له أحيانًا بالعودة.

وأصبح الآن هو الذي يتقدم الآخرين في السير، وكانا مغتبطين لحماسه، حتى لقد حملا عنه الصندوق بالتناوب دون أن يطلب إليهما ذلك، ولم يستطع كارل أن يتبين كيف أمكنه أن يحقق لهما تلك السعادة، وكانوا قد بلغوا الآن مكانًا مرتفعًا، وعندما كانوا يتوقفون هنا وهناك، كانوا ينظرون خلفهم إلى مشهد نيويورك ومينائها، وهو يمتد متسعًا تحتهم، وشاهدوا الجسر الذي يربط نيويورك ببروكلين، وكان معلقًا في رشاقة فوق النهر الشرقي، ولو ضيق المرء حدقتي عينيه لبدا له ذلك الجسر وكأنه يرتعش، وكان يبدو خاليًا من الحركة، وتحته امتد لسان أملس من الماء، وكانت كلتا المدينتين الهائلتين تقومان هنالك خاليتين، وبلا معنى، وكان من الممكن تمييز المنازل الهائلة من المنازل الصغيرة المنخفضة، وربما كانت الحياة تمضي على عادتها في أعماق الشوارع غير المرئية، إلا أنهم لم يكونوا يشاهدون فوقهم في السماء سوى دخان خفيف، بدا مع ذلك وكأنه واقف لا يتحرك، وكان

يتبدد في سهولة، وكان الهدوء قد عاد إلى الميناء، الذي يعد أكبر موانئ العالم، وكان في مقدور المرء أن يتوهم من حين لآخر، ربما تحت تأثير تذكره لمنظر قريب العهد، أنه يرى باخرة تمخر العباب على مسافة قريبة من الميناء، إلا أنه كان من الصعب تتبع تلك الباخرة وقتًا طويلًا؛ لأنها كانت تخرج عن مجال الرؤية، ولا يعود في الإمكان رؤيتها ثانية.

وقد رأى ديلامارش وروبنسون أشياء كثيرة في وضوح، وكانا يشيران إلى اليمين وإلى اليسار، وأذرعهم ممتدة تتحرك فوق الميادين والحدائق التي ذكروها بأسمائها، ولم يفهما كيف قضى كارل شهرين في أمريكا، ولم يكد يرى رغم ذلك سوى شارع واحد فقط من المدينة، وقد وعداه بأن يصحباه إلى نيويورك، عندما يحصلان على المال في باترفورد، وأن يتيحا له رؤية كل المشاهد التي تستحق الرؤية، وأماكن التسلية والمتعة بالطبع أيضًا، وعندما بلغ به التفكير إلى هذا الحد، بدأ روبنسون يتغنى بأعلى صوته بأغنية شاركه فيها ديلامارش بالتصفيق، وأدرك كارل أنها كانت أحد ألحان الأوبرا المعروفة في وطنه، وقد سره سماعها في ترجمتها الإنجليزية كما لم يتمتع بسماعها من قبل في بلده، وهكذا فقد كونوا جوقة صغيرة في الهواء الطلق، اشتركوا فيها جميعًا، وبقيت المدينة التي كان عليها أن تشاركهم الاستمتاع بذلك اللحن في لا مبالاتها تحت أقدامهم.

وتساءل كارل في إحدى المرات عن موقع وكالة جيكوب، فدفع ديلامارش وروبنسون بأصبعيهما في الهواء مباشرة يشيران إلى الموقع، وربما إلى موقع آخر يبعد عنه بعديد من الأميال، وعندما استأنفوا

سيرهم ثانية سألهما كارل: متى يمكنهم أن يعودوا إلى نيويورك، إذا تمكنوا من الحصول على عمل؟ وأجابه ديلامارش قائلًا:

إن بإمكانهم أن يعودوا إليها في خلال شهر، فالعمل متوافر في باترفورد والأجور مرتفعة، وسيضعون نقودهم بالطبع في رأسمال مشترك، حتى يمكن أن يختفي الفرق الذي قد تسببه الصدفة بين دخولهم، كما ينبغي أن يحدث بين الأصدقاء، ولم ترق لكارل فكرة الرأسمال المشترك، على الرغم من أن أجره كصبي سيقل كثيرًا بالطبع عن أجر العامل الماهر، واستأنف روبنسون الحديث قائلًا: إنهم على أية حال إذا لم يوفقوا في الحصول على عمل في باترفورد، فسوف يتجولون بطبيعة الحال في أماكن أبعد من باترفورد، وربما وجدوا عملًا في المزارع، أو ربما حاولوا الحفر بحثًا عن الذهب في كاليفورنيا، وقد أعجب كارل بهذه الفكرة الأخيرة، بعدما سمعه من حكايات روبنسون عن مناجم الذهب.

تساءل كارل، الذي لم يكن مستعداً لمزيد من الرحلات المرهقة المشكوك في نتائجها، قائلًا لروبنسون: لكن لماذا تعمل ميكانيكيًّا إذا كنت ترغب في العمل في حقول التنقيب عن الذهب؟ فأجابه روبنسون قائلًا: «لماذا أعمل ميكانيكيًّا؟ لكيلا أموت جوعًا، ومع ذلك فالأموال تتدفق وفيرة في حقول التنقيب عن الذهب».

قال ديلامارش: «كانت تتدفق في وقت من الأوقات».

فقال روبنسون: «ولا تزال تتدفق الآن» وراح يحكي حكايات عن أنـاس لا حصـر لهم من معارفـه، أصـبحوا هنـاك الآن من الأثريـاء، ومـا زالـوا يقيمون هناك، إلا أنهم لم يعودوا في حاجـة بـالطبع إلى أن يعملـوا الآن، لكنهم سيسـاعدونه على أن يحقـق الـثراء لصـداقتهم القديمـة بـه، وسيساعدون أصدقائه هم أيضًا بالطبع.

قال ديلامارش: «سنجد أعمالًا في باترفورد دون شك!» وعبر بقوله هذا عن رغبة كارل، مع أن هذا القول لم يكن أمرًا مؤكدًا كل التأكيد.

وتوقفوا في أثناء اليوم مرة عند أحد المطاعم، وجلسوا خارجه في الهواء الطلق، إلى مائدة بـدت لكـارل وكأنهـا قـد صـنعت من الحديـد، وأكلـوا لحمًـا مسـلوقًا كـان من الصـعب تقطيعـه إلى شـرائح، فكـانوا يفرمونـه بسكاكينهم وشوكاتهم، وكان الخبز مصنوعًا على هيئة أسـطوانة، وقـد انغرزت في كـل من الـرغيفين سـكين كبـير، وقـد ضـمت الوجبة أيضًـا خمرًا أسود اللون كان يحرق الحلـق، إلا أن ديلامـارش وروبنسـون كانـا يستسـيغان شـربه، وقـد ظلا يرفعـان كوبيهمـا بعديـد من الأنخـاب، ويقرعان الكـوبين عاليًـا في الهـواء من حين لآخـر، وإلى مائـدة مجـاورة كان يجلس بعض العمال في قمصان صـفراء، يتنـاولون نفس الشـراب، وكانت العربات تمر من أمامهم بأعداد كبيرة، وتثير الغبار فوق المائدة، وكانت صحف كبيرة توزع على الجالسين، وتثور مناقشات حادة حـول إضراب قام به عمال البناء، وكان اسم «ماك» يتردد كثيرًا في خلال تلك المناقشات، وتساءل كـارل عن صـاحب الاسـم، وعلم أنـه والـد «مـاك» الـذي يعرفـه، وأنـه أكـبر مقـاول للمبـاني في نيويـورك، وقيـل إن هـذا

الإضراب قد يكلفه عدة ملايين، وأنه يهدد وضعه المالي بالخطر، ولم يصدق كارل كلمة واحدة مما كان يقوله هؤلاء الناس المضللون، الحانقون.

وقد أفسد استمتاع كارل بتلك الوجبة قلقه لفكرة دفع ثمن تلك الوجبة بأكملها، وأيهم سوف يدفع، وكان من الطبيعي في رأيه أن يدفع كلٌّ منهم ثمن وجبته فقط، إلا أن ديلامارش وروبنسون كانا قد أشارا عرضًا إلى أن أجر مبيتهما عن الليلة الماضية قد أفرغ جيبيهما، ولم يكن لديهما ساعة أو خاتم أو أي شيء ليبيعاه، ولم يستطع كارل أن يواجههما بأنهما كانا قد احتجزا لنفسيهما جانبًا من ثمن بدلته، فقد كانت مواجهتهما بذلك تعد إهانة، وفراقًا إلى الأبد.

إلا أن ما أثار دهشة كارل أكثر، هو أن ديلامارش وروبنسون، لم يزعجا نفسيهما بأمر الدفع، بل على العكس، كانا في حالة معنوية مرتفعة، حتى أنهما راحا يحاولان مغازلة الجرسونة التي كانت تتحرك في خيلاء متبخترة من مائدة إلى أخرى، وكان شعرها يتهدل على كتفيها، وفوق حاجبيها وخديها، فكانت ترميه إلى الخلف بيديها، حتى تقدمت أخيرًا نحو مائدتهم، فظنا أنهما سيفوزان منها ببعض الكلمات الودية، لكنها وضعت يديها فوق المنضدة، وتساءلت: «من الذي سيدفع؟» فأشارت يدا ديلامارش وروبنسون بغاية السرعة إلى كارل، ولم يفاجأ كارل لأنه كان يتوقع ذلك، ولم يجد بأسًا من أن يدفع مرة حساب رفيقيه اللذين ينتظر منهما المساعدة بدوره، على الرغم من أنه كان يفضل بالطبع لو ناقشا معه الأمر بصراحة قبل اللحظة الحاسمة، وشغله كذلك أمر

إخراج النقود من جيبه السري، فقد كان ينوي الاحتفاظ بنقوده لتنفعه في حالة الاحتياج البالغ، ولكي تنفعه الآن أيضًا، فيتمكن من أن يبدو نداًّ لصديقيه. كان التفوق الذي يتفوق به عليهما لامتلاكه هذا المال، وإخفائه كذلك عنهما، يبدو في وضوح تفوقًا راجحًا؛ لأنهما على عكسه، كانا قد عاشا في أمريكا منذ طفولتهما، ولأنهما كانا يتمتعان بالمهارة الكافية والخبرة التي تعينهما على كسب المال، ولأنهما لم يتعودا على حياة أفضل من الحياة التي يمارسانها الآن، ورأى كارل أن خطته في التوفير يجب ألا تتأثر لاضطراره إلى دفع الحساب الآن، فيمكنه ببساطة أن يستغنى عن ربع دولار، يضعه أمامهما فوق المنضدة، ويخبرهما بأنه هو كل ما يملك، وأنه كان ينوي أن يقتسمه معهما في طريقهم إلى باترفورد، ذلك أن ربع دولار يكفي جداًّ لرحلة على الأقدام، إلا أنه لم يكن يدري هل كان ما يحمله من العملات الصغيرة يكفي حتى يخرج من بينها الربع دولار، ولقد كانت العملات الصغيرة التي يحملها موجودة على أية حال في تجويف جيبه السري هي أيضًا إلى جانب أوراق البنكنوت، وكان من الصعب أن يخرج ما يريده دون أن يفرغ كل محتويات جيبه فوق المنضدة، ولم يكن يريد أن يعرف رفيقاه شيئًا عن الجيب السري على الإطلاق، وبدا صديقاه مشغولين رغم ذلك لحسن الحظ بأمر الجرسونة، دون أن يشغلهما مطلقًا بالطبع، كيف سيتمكن كارل من إخراج النقود لدفع الحساب، وكان ديلامارش قد مد يده وسحب الجرسونة بينه وبين روبنسون متعللًا بأن عليها أن تكتب فاتورة الحساب، فلم يكن أمامها لكي تتخلص من توددهما

العنيف إلا أن دفعت وجهيهما بعيداً بباطن راحتيها، عندئذ جمع كارل وهو يتصبب عرقًا بإحدى يديه تحت المنضدة قطع النقود التي تحسسها، وأخرجها من جيبه السري قطعة بعد قطعة بيده الأخرى.

وشعر كارل بالامتنان لهما؛ لأنهما لم يذكرا شيئًا عن نقوده عندما غادر ثلاثتهم المطعم، وقرر كارل في إحدى اللحظات أن يعترف لهما بما يحمله من المال، لكنه تراجع عن ذلك في الحال؛ لأنه لم يجد ما يدعوه إلى هذا الاعتراف. وبلغوا عندما أوشك الليل على الحلول منطقة خلوية خصبة، وكانت الحقول حولهم على امتداد الرؤية لا نهاية لها، كانت تمتد فوق تلال منخفضة تكتسي بالخضرة الزاهية، وفيللات ريفية فاخرة تزين الطريق على الجانبين، وساروا عدة ساعات بين أسوار الحدائق المذهبة، وعبروا نفس المجرى البطيء عددًا من المرات، وكثيرًا ما كانوا يسمعون ضوضاء القطارات التي كانت تنطلق فوق الكباري المرتفعة.

كانت الشمس قد أوشكت أن تختفي خلف قمم الغابات البعيدة، عندما صعدوا مرتفعًا مدرجًا، يعلوه دغل من الأشجار الكثيفة، ومددوا أنفسهم فوق العشب؛ لكي ينالوا شيئًا من الراحة بعد رحلتهم الطويلة، استلقى ديلامارش وروبنسون فوق العشب في استرخاء تام، وجلس كارل وأخذ يرقب الطريق الذي كانوا يرتفعون فوق مستواه ببضع ياردات، وإلى السيارات التي كانت تنطلق فوقه بخفة، والواحدة خلف الأخرى، كما كانت تنطلق طوال اليوم، وكان عددًا هائلًا منها ينطلق باستمرار من مكان ما بعيداً كل البعد، بينما تنتظر سيارات أخرى في

مثل عددها في مكان بعيد آخر، ولم ير كارل طوال اليوم كله أن سيارة منها قد توقفت ولا رأى راكبًا واحدًا هبط من إحدى تلك السيارات.

واقترح روبنسون أن يقضوا الليل في هذا المكان؛ لأنهم كانوا مجهدين غاية الإجهاد، ولأنهم سيتمكنون بمبيتهم هنا أن يواصلوا راحلتهم في الصباح الباكر، كما أنهم لن يجدوا علاوة على ذلك، مكانًا مناسبًا أرخص من هذا المكان لقضاء الليلة، قبل أن يهبط الظلام، وكان ديلامارش يرى نفس الرأي، فاضطر كارل إلى التصريح بأنه يحمل نقودًا تكفي لدفع أجر مبيتهم جميعًا في أحد الفنادق، وأجابه ديلامارش قائلًا: إنهم لا يزالون في حاجة إلى النقود، وأنه يحسن الاحتفاظ بها في الوقت الحاضر، لم يحاول إخفاء حقيقة أنهما كانا يتطلعان إلى الاستعانة بنقود كارل، ومضى روبنسون بعد قبول اقتراحه الأول، فاقترح اقتراحًا آخر، قائلًا إن عليهم قبل أن يتأهبوا للنوم، أن يتناولوا وجبة كاملة؛ لكي تجدد نشاطهم في الصباح، وأن على أحدهم أن يذهب ليحضر طعامًا لثلاثتهم من الفندق القريب الذي يقوم في الطريق الرئيسي، ويحمل اللافتة المضاءة التي كتب عليها «الفندق الغربي».. ولما كان كارل أصغر الثلاثة، ولم يبد أي من الآخرين استعداده للقيام بهذه المهمة، فقد تطوع كارل من فوره بأن يقوم هو بها، وانطلق عبر الشارع في طريقه إلى الفندق، بعد أن أعلن الآخران أنهما يريدان لحم خنزير، وخبزًا، وبيرة.

ولابد أنهم كانوا على مقربة من إحدى المدن الكبيرة؛ لأن أولى ردهات الفندق التي دخلها كارل كانت تمتلئ بضوضاء حشد صاخب، وكان

يقف بداخل البوفيه، الذي كان يمتد بطول تلك الردهـة على الجـانبين، عـدد كبـير من السـفرجية كـانوا يرتـدون مرايـل بيضـاء، ويـنـدفعون بلا توقف هنا وهناك، دون أن يتمكنوا من تلبية كـل طلبـات زبـائنهم الـذين نفـد صـبرهم؛ فـارتفعت اللعنـات في أصـوات صـاخبة، وكـانت دقـات القبضات فوق المائدة تتعالى دون توقف من جميع الجهـات، ولم يلـق أحد بالًا إلى كـارل، ولم يوجـد أي نـوع من أنـواع الخدمـة في الصـالون بأكمله، وكان على الزبائن الذين تجمعوا إلى موائد صغيرة، كانت تتسع كل منها لثلاثة أشـخاص تقريبًـا، أن يبحثوا بأنفسـهم عمـا يريدونـه في البوفيه، وفوق كل مائدة كانت تسـتقر زجاجـة كبـيرة ممتلئـة بـالزيت أو الخـل أو شـيء من هـذا القبيـل، وكـان الزبـائن يصـبون شـيئًا من تلـك الزجاجة فوق الطعام الذي يحضـرونه من البوفيـه قبـل أن يتنـاولوه، فلـو اسـتطاع كـارل أن يبلـغ ذلـك البوفيـه أولًا، حيث سـتواجهه الصـعوبات الحقيقية بعد ذلك؛ لكـثرة عـدد الزبـائن الـذين كـانوا يـتزاحمون عليـه، فربما استطاع أن يشق لنفسه طريقًا بين تلك الموائد التي لا حصـر لهـا، ولم يكن ليصل إلى شيء من هذا بـالطبع مهمـا حـرص دون أن يتسـبب في كثير من الإزعاج للزبائن، الذين كانوا يتقبلـون مـع ذلـك أي إزعـاج بتبلد تام، وحتى عندما اندفع كارل بعنف بجـانب إحـدى تلـك الموائـد فقلبها رأسًا على عقب، مع ثقته بأنه لم يكن هو السبب في انقلابهـا، ثم اعتذر دون أن يفهم أحد على ما يبدو معنى لهـذا الاعتـذار، كمـا أنـه لم يتمكن هـو أيضًـا من إدراك هـدف تلـك الصـيحات الـتي حاصـرته في هياج، لم يجد عند البوفيـه مكانًـا غـير بضـع بوصـات قليلـة في صـعوبة

بالغة، وظل مختفيًا في الزحام لفترة طويلة؛ لأن مرافق الرجال كانت تدفعه من كلا الجانبين، وبدا كما لو كان التقليد المتبع هنا هو أن تضع مرفقك على إفريز البوفيه، وتسند رأسك على يدك، ولم يستطع كارل أن يدفع ذكرى الدكتور كرامبال مدرس اللغة اللاتينية من خياله وكيف كان يكره ذلك الوضع، وكيف كان ينسحب في هدوء ويضرب على غير توقع، مرفقك من فوق الدرج مازحًا، بالمسطرة التي كانت تظهر فجأة من حيث لا تدري.

كان كارل قد انضغط إلى حافة إفريز البوفيه؛ لأنه ما كاد يبلغه حتى وضعت مائدة خلفه، وظلت إحدى القبعات تتحرك خلف ظهره كلما انحنى صاحبها إلى الخلف قليلًا في أثناء حديثه، وبدا كذلك أن الأمل في حصوله على أي شيء من هؤلاء الجرسونات كان قد تلاشى، حتى بعد أن انصرف جاراه الشرسان، وهما يحملان ما طلباه، وتمكن كارل مرة أو مرتين من أن يجذب مريلة أحد الجرسونات عبر حاجز البوفيه، إلا أن الجرسون كان يندفع مخلصًا مريلته من بين أصابع كارل في ضيق، ولم يتوقف واحد منهم ليستمع إليه، مع أنهم لم يكونوا مشغولين إلا بمجرد الاندفاع هنا وهناك، فلو كان أمكن وجود شيء من المأكولات المطلوبة في متناول يد كارل، لحمل ما يريده منها، وسأل عن الثمن، ثم دفعه وتخلص من ذلك الزحام وهو يتنفس الصعداء، لكن لم يكن أمامه سوى الأطباق التي تمتلئ بالأسماك الشبيهة بالرنجة بجوانبها القاتمة، التي تشع بلون ذهبي عند حوافها، وربما كانت تلك الأطباق مرتفعة الثمن، مع أنها لم تكن لتغني من جوع، وكان أمامه

كذلك كثير من زجاجات الروم، إلا أنه لم يرغب في أن يحمل الروم إلى صديقيه؛ لأنهما كانا يتناولان المشروبات الروحية الشديدة كلما واتتهما الفرصة، ولم تكن عند كارل أدنى رغبة في تشجيعهما على التمادي في ذلك.

وهكذا لم يبق أمام كارل إلا أن يبحث عن مكان آخر يمكنه أن يحصل منه على طلبه، فعاد أدراجه ثانية، إلا أن الوقت كان قد تقدم بصورة واضحة، وكانت الساعة المعلقة على الحائط المواجه، تلك الساعة التي كان على المرء أن يدقق النظر إليها حتى يتبين في وضوح عقربيها من خلال الدخان المتكاثف، كانت تشير إلى ما بعد التاسعة، إلا أن بقية الحاجز الذي كان أمام البوفيه كان أكثر ازدحامًا بالزبائن من المكان الذي كان يقف فيه من قبل، ذلك المكان المنعزل في ركن الردهة، وظلت الردهة تزدحم أكثر فأكثر كلما تقدم الوقت، وظل الزبائن الجدد يتدافعون وهم يشقون طريقهم عبر الباب الرئيسي وتتزايد بازديادهم صيحات التهليل المرتفعة، وفي أماكن متعددة أخلى بعض الزبائن الإفريز الذي أمام البوفيه في جرأة، وجلسوا فوقه وراحوا يتبادلون الشراب، وقد كان ذلك الإفريز الذي جلس فوقه هؤلاء، هو أفضل الأماكن في تلك الردهة على الإطلاق، فمن فوقه كان يمكنك أن تشمل الردهة كلها بنظرتك.

وظل كارل يتقدم تحت ضغط الزحام إلا أن أمله في الحصول على أي شيء كان قد تلاشى تمامًا، ووجه كارل اللوم إلى نفسه؛ لأنه تطوع بأداء هذه المهمة، دون أن يكون على دراية بالأحوال هنا على الإطلاق،

ولسوف يصرخ صديقاه في وجهه ـ ومن حقهما أن يفعلا ذلك ـ وربما تبادر إلى ذهنهما الظن بأنه لم يحضر معه شيئًا فقط لمجرد الاحتفاظ بنقوده لنفسه، وكان قد بلغ جانبًا من جوانب الردهة رأى فيه أطباقًا ممتلئة باللحم الساخن، والبطاطس المسلوقة تغطي كل الموائد، وينهمك الزبائن في التهامها، فلم يفهم كيف تمكن هؤلاء الزبائن من الحصول على تلك الأطباق.

ثم لمح أمامه على بعد بضع خطوات سيدة مسنّة، كان يبدو عليها بوضوح أنها تتبع هيئة موظفي الفندق، كانت تلك السيدة تتحدث وتضحك مع أحد الزبائن، وظلت في أثناء حديثها تغرز دبوسًا في شعرها، وقرر كارل في الحال أن يتقدم إلى تلك المرأة بطلباته؛ لأنها كانت تقف متميزة كاستثناء وسط الهرج المختلط، ولأنها كانت هي المرأة الوحيدة في الردهة كلها، ولسبب بسيط آخر هو أنها كانت هي الوحيدة من بين موظفي الفندق التي استطاع كارل أن يصل إليها، هذا إذا لم تندفع مبتعدة عنه لشئونها الخاصة عند أول كلمة يتوجه بها إليها، إلا أن العكس تمامًا هو ما حدث، فما كاد كارل يهم بالحديث إليها بل يحوم حولها فحسب للحظات، عندما نظرت جانبًا ولمحته حتى قطعت حديثها ـ كما يحدث غالبًا في خلال مناقشة من المناقشات ـ لتسأله في رقة، وفي لغة إنجليزية واضحة كوضوح الإنجليزية التي في «كتاب القواعد» إن كان يريد شيئًا.

قال كارل: «نعم، في الحقيقة، فلا يمكنني أن أحصل على شيء من أي مكان في هذه الردهة».

قالت: «إذن تعال معي يا بني»، ثم ودعت محدثها الذي رفع لها قبعته كدلالة على التأدب، لم تكن معقولة مطلقًا في هذه الردهة، ثم أخذت كارل من يده، ومضت نحو البوفيه فدفعت أحد الزبائن جانبًا، ورفعت مصراعًا إلى أعلى، وتقدمت بطول ممر خلف البوفيه، حيث كان عليهما أن يتفاديا الاصطدام «بالجرسونات» الذين كانوا يندفعون هنا وهناك بلا كلل، وفتحت بابًا مزدوجًا كان مخبأً في الحائط، أدى بهما مباشرة إلى مخزن واسع رطب، وقال كارل لنفسه:

«عليك أن ترقب كيف تجري الأمور في هذه الأماكن».

وسألته المرأة وهي تنحني إليه في حنان: «حسنًا ماذا تريد؟» كانت غاية في البدانة حتى أن جسدها ارتعش عندما انحنت، إلا أن وجهها كان بالمقارنة إلى جسدها رقيق التكوين، وأحس كارل وهو يتطلع إلى الأنواع التي لا حصر لها من المأكولات التي رصت في عناية فوق الأرفف، والمناضد، بإغراء هذه الأصناف العديدة يدفعه إلى محاولة التفكير في وجبة أخرى يختارها من وحي اللحظة وأن يحملها بدلًا من طلبه الأصلي، خاصة أنه قد يحصل عليها بثمن رخيص إلى حد ما من تلك السيدة الواسعة النفوذ، إلا أنه في النهاية لم يذكر شيئًا سوى لحم الخنزير، والخبز، والبيرة، ولم يمكنه أن يذكر شيئًا آخر أفضل من هذه الأشياء.

تساءلت المرأة: «ألا تريد شيئًا آخر؟».

فأجابهـا كـارل قـائلًا: «لا شـكرًا.. إلا إنـني أريـد كمية تكفي ثلاثـة أشخاص».

وعنـدما سألته المـرأة عمن يكـون الآخـران؟ أخبرهـا كـارل في كلمـات قليلة مختصـرة عن رفيقيـه، وأحس بشـيء من السـرور لتوجيههـا بعض الأسئلة إليه.

قالت المرأة: «لكن هذا الطعام هو وجبـة السـجون!»، كـانت تنتظـر منـه فيمـا يبـدو أن يطلب شـيئًا آخـر، إلا أن كـارل الـذي أصـبح يخشـى أن ترفض هذه المرأة ثمن الوجبة وأن تمنحه إياها كهدية، ظل صامتًا.

قالت المرأة: «لن يستغرق إعداد هذا الطلب وقتًا طويلًا». وتقدمت نحو إحدى المناضد، في نشاط غـريب على سيدة في مثـل بـدانتها، وقطعت بسكين طويل رفيع حاد قطعـة كبيرة من لحم الخـنزير تمتلئ في غـزارة ببقـع الـدهن، وتنـاولت رغيفًـا من فـوق أحـد الرفـوف، ورفعت ثلاث زجاجات بـيرة من الأرض ووضـعتها جميعًـا في سـلة خفيفـة من القش ناولتها إلى كارل، وأوضحت له بينما كانت تفعل ذلك أنها قد أحضـرته إلى هنا لأن طعام البوفيه على الرغم من أنـه طعـام دسـم بالفعـل، إلا أنـه يفقد طزاجته بسبب الدخان والبخـار اللـذين تمتلئ بهمـا الردهـة، إلا أن أي طعام يعد طعامًا جيدًا بالنسبة لهؤلاء الذين في الخارج، وقد أصـيب كـارل بالـذهول البـالغ عندئـذ؛ لأنـه لم يكن يـدري كيـف تمكن من أن يحوز مثـل تلـك المعاملـة الخاصـة، وفكـر في رفيقيـه اللـذين لم يكونـا ليبلغا هذا المخزن على الإطلاق، على الرغم من خبرتهما الأمريكية، بل

كان عليهما أن يقنعا بطعام البوفيه الذي لا طعم له. لم تكن ضوضاء حجرة الصالون تصل مطلقًا إلى هنا، وربما كانت الجدران سميكة للغاية حتى تحتفظ تلك الحجرة المقبية بهذه الرطوبة، وكان كارل يمسك الآن بالسلة المصنوعة من القش في يده، وكانت قد انقضت بضع لحظات، إلا أنه لم يفكر لا في الدفع ولا في الانصراف إلا عندما همت المرأة بأن تضيف إلى السلة ـ كهبة ـ زجاجة شبيهة بتلك الزجاجات التي تستقر فوق الموائد في الخارج، عندئذ تحرك كارل، وهو يرفضها في رجفة.

وتساءلت المرأة: «هل أمامك رحلة طويلة أخرى أبعد من هنا؟» فأجابها كارل قائلًا: «إلى باترفورد».

فقالت المرأة: «لكن هذه الرحلة رحلة شاقة أخرى عليك أن تقطعها».

قال كارل: «إنها رحلة تستغرق يومًا آخر».

فقالت المرأة: «ألا تستغرق أكثر من ذلك؟».

قال كارل: «أوه.. لا».

ورتبت المرأة بعض الأشياء فوق المنضدة، ودخل أحد السفرجية وتطلع حوله متسائلًا. فأشارت له إلى قصعة هائلة كانت تستقر فوقها كومة عالية من السردين، وقد نثر فوقه قليل من البقدونس فحملها السفرجي عندئذ إلى داخل الصالون بين يديه المرفوعتين.

وتساءلت المرأة قائلة: «ولماذا تقضي الليلة في الهواء الطلق؟لـدينا هنـا متسع لك، فتعال وأقض الليلة معنا في الفندق».

وبدت الفكرة مغرية لكارل جدًّا، وخاصة بعد أن قضى الليلة السابقة مرهقًا غاية الإرهاق، فقال في تردد لكن في شيء من الفخر: «إن أمتعتي هناك في الخارج».

فقالت المرأة: «عليك إذن أن تحضرها إلى هنا، فليست عقبة تعوقك عن المجيء».

فقال كارل: «لكن ماذا عن رفيقيّ»، وكان يدرك بالفعل أنهما عقبة دون أدنى شك.

قالت المرأة: «يمكنهما أن يقضيا الليلة هنا أيضًا، بالطبع، فتعال لا تكن مُتعبًا إلى هذا الحد!».

قال كارل: «إن صديقيّ رفيقان لا بأس بهما، إنهما الآن ليسا في غاية النظافة».

فتساءلت المرأة في تجهم: «ألم تلاحظ القذارة في الصالون، إننا مستعدون تمام الاستعداد لأسوأ الحالات».. حسنًا، سوف أخلي ثلاثة أسِرَّة في الحال، فقط أخشى ألا يوجد مكان إلا فوق السطح؛ لأن الفندق مكتظ بالنزلاء، ولقد كان عليّ أن أنتقل إلى حجرة بالسطح أنا أيضًا، ولكنها على أيّة حال أفضل من قضاء الليلة في الخارج.

قال كارل: «لا يمكنني أن أحضر صديقيّ هنا»، وتخيل بنفسه الضجة التي سوف يحدثها الرجلان في ممرات الفندق الفخم، وسوف يتسبب روبنسون في تلطيخ كل شيء، ولن يتردد ديلامارش في معاكسة هذه المرأة نفسها».

قالت: «لست أدري لماذا لا يبدو ذلك ممكنًا! ولكن إذا كنت تصر على ذلك، فاترك إذن صديقيك، وتعال بمفردك».

قال كارل: لن يحدث ذلك إنهما صديقاي، ولا يمكنني إلا أن أرتبط بهما».

قالت المرأة وهي تدير عينيها بعيدًا عنه: «إنك عنيد جدًّا، فعندما يعاملك الناس، معاملة طيبة، ويبدون شيئًا من الاهتمام بأمرك، تفعل أنت كل ما في وسعك لكي تعوقهم عن ذلك».

وأدرك كارل ذلك كله، إلا أنه لم يجد مخرجًا، وعلى هذا فقد قال:

ـ أشكرك غاية الشكر على كرمك، ثم تذكر إنه لم يدفع ثمن طلباته، فسأل عن المبلغ الذي عليه أن يدفعه؟ قالت المرأة: يمكنك أن تدفع لي عندما تعيد إليَّ السلة، ولابد أن تعيدها إليَّ في صباح الغد على الأكثر».

قال كارل: «أشكرك..» وفتحت له بابًا يؤدي مباشرة إلى الخارج، وقالت له وهو يهم بالخروج منحنيًا: «طابت ليلتك.. وإن كنت لم تفعل ماكان يجب عليك أن تفعله..» وعندما أصبح على بعد بضع ياردات قليلة، صاحت خلفه مرة أخرى قائلة: «إلى صباح الغد».

وعندما أصبح في الشارع، سمع مرة أخرى الصخب الشديد الصادر من الصالون، وكان يختلط الآن بزئير الرياح، وكان سعيداً لأنه لم يخرج عن طريق الصالون المزدحم، وكانت طوابق الفندق الخمسة مضاءة لحظتها وقد أنارت الطريق أمام الفندق حتى الجانب الآخر، وكانت السيارات تمرق في الطريق، وإن لم تكن تتتابع في استمرار، إلا أنها كانت تبدو أسرع منها في أثناء النهار، وهي تتحسس طريقها بواسطة الأشعة البيضاء التي تصدر عن مصابيحها الأمامية، تلك المصابيح التي كان ضوؤها يشحب في المنطقة المضاءة أمام الفندق؛ لكي يتوهج مرة أخرى عندما تندفع بعيداً في داخل الظلام.

وجد كارل صديقيه مستغرقين في النوم، إلا أنه كان منشغلًا بما هو أهم من ذلك، وبينما كان يهم لحظتها بوضع الطعام الذي أحضره بصورة مغرية فوق قطعة من الورق، ويعد كل شيء بصورة كاملة قبل أن يوقظ صديقيه، لمح في فزع صندوقه الذي كان قد تركه مغلقًا في سلام، مفتوحًا وحوله فوق العشب تتناثر حوالي نصف محتوياته.

صاح قائلًا: «انهضا، لقد مر اللصوص من هنا، وأنتما مستغرقان في النوم!».

تساءل ديلامارش: «لماذا؟ هل فقد شيء؟» لم يكن روبنسون قد استيقظ تمامًا لكن امتدت يده على الرغم من ذلك إلى البيرة.

صاح كارل: لست أدري، إلا أن الصندوق مفتوح، وإنه لإهمال بالغ أن تستغرقا في النوم، وتتركا الصندوق هنا تحت رحمة من يشاء!».

وضحك ديلامارش وروبنسون، وقال ديلامارش: «إذن فلا تتغيب طويلًا مرة أخرى في أي مكان، إنها لم تكن سوى خطوة أو خطوتين إلى الفندق، ومع ذلك فقد استغرقت منك ثلاث ساعات أنفقتها لكي تذهب إلى الفندق وتعود ثانية، ولقد كنا جائعين، وظننا إنك ربما كنت تحتفظ بشيء من الطعام في داخل الصندوق، ولهذا فقد داعبنا القفل حتى انفتح، إلا أننا لم نجد شيئًا بداخله في النهاية، ومن السهل إعادة أشيائك إلى داخله مرة أخرى».

قال كارل: «هذا هو الأمر إذن، كان يحدق في السلة التي أفرغت في الحال، ويستمع إلى الضجة الغريبة التي كان يحدثها روبنسون، وهو يشرب، لأن البيرة بدت وكأنها تغطس إلى أسفل حلقه، ثم تفور إلى أعلى مرة أخرى في صوت كالصفير قبل أن تهبط إلى معدته».

تساءل عندما هدأ الآخران ليلتقطا أنفاسهما: «هل نلتما كفايتكما الآن؟».

فتساءل ديلامارش: «لماذا.. ألم تتناول عشاءك في الفندق؟» كان قد اعتقد أن كارل يطالب بنصيبه في الطعام.

وقال كارل، وهو يتجه نحو صندوقه: «إذا أردتما المزيد، فأسرعا إذن!».

قال ديلامارش لروبنسون: «يبدو عليه الحنق!».

فقال كارل: «لست حانقًا، لكن هل تعتقد أنه من الصواب أن تفتحا صندوقي عنوة، وتطوحا بحاجياتي هنا وهناك في أثناء غيابي؟ إنني أعلم أن على المرء أن يتوقع الكثير من أصدقائه، وكنت قد تهيأت

لذلك، إلا أن هذا قد فاق كل ما توقعته، وسوف أذهب لقضاء الليلة في الفندق ولن أرافقكما إلى باترفورد، فانتهيا من تناول العشاء بسرعة لأنني يجب أن أرد السلة!».

قال ديلامارش: «استمع إليه الآن يا روبنسون، إن أسلوبه في الحديث إلينا أسلوب رائع، إنه ألماني بالفعل ولقد حذرتني أنت منه في البداية، إلا أنني أحمق طيب القلب، وعلى هذا فقد سمحت له بالحضور معنا رغم ذلك، لقد منحناه ثقتنا، وصحبناه معنا طوال النهار وأضعنا نصف يوم على الأقل بسببه، والآن ـ لمجرد أن شخصًا ما في الفندق قد خدعه ـ يدير لنا ظهره، يدير لنا ظهره ببساطة، لكن لأنه ألماني كاذب فهو لا يفعل ذلك صراحة، لكنه يتخذ صندوقه علة، ولأنه ألماني خبيث فهو لا يتركنا دون أن يطعننا في شرفنا، ويتهمنا باللصوصية، لمجرد أننا لهونا قليلًا بصندوقه».

قال كارل، وهو يعيد أشياءه داخل الصندوق، دون أن يستدير نحوهما:

ـ كلما تحدثت أكثر، بدا لي فراقي لكما يسيرًا، إنني أعرف تمامًا معنى الصداقة، ولقد كان لي أصدقاء في أوروبا أيضًا، إلا أن أحدًا منهم لم يحدث أن اتهمني بأنني قد سلكت معه سلوكًا زائفًا أو حقيرًا، ولست على اتصال بأي منهم الآن بالطبع، لكن لو أتيح لي الرجوع مرة أخرى إلى أوروبا فسوف يسرون لرؤيتي، وسوف يرحبون بي في الحال كصديق، أما بالنسبة لكما يا ديلامارش وروبنسون فأنا أبدو وكأنني قد خدعتكما، هل فعلت بعد أن تصرفتما معي بهذا الكرم ـ ولن أنسى

ذلك أبدًا ـ فاصطحبتماني، ووعدتماني بالعمل كصبي في باترفورد، إلا أن هذا ليس هو الأمر بالمرة، وإنني لا أنظر إليكما نظرة سيئة لأنكما لا تملكان شيئًا، إلا أنكما تحقدان على الأشياء القليلة التي أمتلكها، وتحاولان أن توجها إليّ الإهانة بسببها، ولا يمكنني أن احتمل ذلك، لقد فتحتما صندوقي عنوة، ولم تقدما كلمة اعتذار واحدة بل إنكما توجهان إليّ الشتائم بدلًا من ذلك، وتسبان جنسي أيضًا، وهذا ببساطة يجعل بقائي معكما مستحيلًا، وعلى الرغم من كل شيء فلا ينطبق عليك هذا الكلام يا روبنسون. في الحقيقة فلست ألومك على شيء سوى اعتمادك البالغ على ديلامارش.

قال ديلامارش: «والآن نراك..» وهو يتقدم نحو كارل، ثم يدفعه دفعة خفيفة، كما لو كان يؤكد قصده: «والآن نراك على حقيقتك، لقد ظللت طوال اليوم تركض خلفي، متعلقًا بذيل معطفي، وتفعل كل ما أفعله، وظللت صامتًا كالفأر، لكن الآن، لأن شخصًا ما في الفندق يؤازرك، بدأت في استعراض قوتك، إنك مخادع تافه، ولست واثقًا من أننا سنتحمل هذا النوع من الخداع، لست متأكدًا تمامًا من أننا سنضطرك إلى دفع ثمن ما تعلمته من مراقبتك لنا طوال اليوم، إننا سنتحمل هذا النوع من الخداع، إننا نحسده يا روبنسون، نحسده ـ هذا ما يقوله ـ على ممتلكاته، إن أجر يوم عمل واحد في باترفورد ـ ولا داعي لذكر كاليفورنيا ـ يتيح لنا أن نحصل على عشرة أضعاف ممتلكاتك الظاهرة لنا حتى الآن، وتلك التي تخفيها أيضًا في بطانة ذلك المعطف، فاحفظ لسانك تمامًا».

ونهض كارل من أمام صندوقه، ورأى روبنسون يتقدم نحوه أيضًا وهو لا يزال تحت تأثير النعاس، إلا أنه كان منتعشًا قليلًا بتأثير البيرة، ثم قال: «إذا بقيت هنا أكثر من ذلك، فربما حدث ما سوف يزيدني دهشة فوق دهشتي، ويبدو لي أنكما تنويان ضربي».

قال روبنسون: «لا يمكن أن يستمر صبر المرء إلى الأبد».

فقال كارل دون أن يرفع عينيه عن ديلامارش: «يجب عليك أن تظل بعيدًا عن هذا الموضوع يا روبنسون، فإنك في أعماقك تعلم أنني على حق، إلا أنك قد نهضت لتتظاهر بتأييدك لديلامارش».

تساءل ديلامارش: «لعلك تفكر في أن ترشوه».

قال كارل: «لم يخطر ببالي، إنني سعيد لأنني سأترككما، ولا أريد أن أرتبط أكثر من هذا بأي منكما، ثمة شيء واحد فقط، أريد أن أقوله لكما وهو أنكما تلومانني لأنني أمتلك نقودًا أخفيها عنكما، فلنفرض إذن أن ذلك كان صحيحًا، فهل ليس من حقي أن أفعل ذلك مع أناس لم أعرفهم إلا منذ بضع ساعات قليلة فقط، وأليس السلوك الذي تسلكانه نحوي الآن هو الدليل الواضح على مدى صحة تدبيري».

قال ديلامارش لروبنسون: «اصمت»، على الرغم من أن روبنسون لم يكن قد تحرك، ثم قال لكارل: «بما أنك تستعرض تقديرك للأمانة هذا الاستعراض الزائد، فلماذا لا تدعم قليلًا أيضًا هذا التقدير بأن تفتح قلبك لنا على نحو ودي، وتخبرنا بصراحة لماذا تريد أن تذهب إلى الفندق؟».

وكان على كارل أن يتراجع خطوة نحو الصندوق، فقد اندفع ديلامارش حتى لاصقه، ولم يكن ديلامارش ليحيد عن غرضه، لهذا ركل الصندوق جانبًا، ثم تقدم خطوة أخرى، ودق قدمه فوق فوطة بيضاء، كانت ملقاة فوق العشب وردد سؤاله مرة أخرى.

وصعد المرتفع رجل يحمل في يده بطارية كهربائية قوية الضوء، وكان ظهوره إجابة مباشرة على سؤال ديلامارش، كان قادمًا من ناحية الطريق، ومتجهًا نحو الثلاثة، كان الرجل واحدًا من سفرجية الفندق، وعندما لمح كارل هتف قائلًا: «لقد بحثت عنك ما يقرب من نصف الساعة، وقد طفت بكل الأشجار التي على جانبي الطريق، فقد أرسلتني المديرة لأقول لك إنها تريد السلة التي أعارتك إياها».

قال كارل في صوت يرتعش من الهياج: «ها هي..».

وانتحى ديلامارش وروبنسون جانبًا متصنعين الوداعة، كعادتهما دائمًا عند ظهور أحد الغرباء ذوي المظهر الرقيق، والتقط السفرجي السلة وقال: «ولقد طلبت مني المديرة أيضًا أن أسألك إن كنت قد غيرت رأيك، وترغب في قضاء الليلة بالفندق، والسيدان أيضًا مسموح لهما بالمبيت، إذا رأيت أن تصحبهما معك.. إن السرر قد أعدت بالفعل لثلاثتكم، إن الجو دافئ الليلة بالفعل، لكن المرء يجب ألا يأمن المبيت في مكان كهذا، فأنت معرض دائمًا للثعابين».

قال كارل: «بما أن المديرة قد تكرمت بهذه الدعوة، فإنني أقبل دعوتها في النهاية».. وانتظر أن يقول رفيقاه شيئًا، إلا أن روبنسون ظل واقفًا

هنالك في صمت تـام، وكـان ديلامـارش يتطلـع إلى النجـوم، ويـداه في جيبيّ بنطلونه، وكانا ينتظران أن يصحبهما كارل معه دونما جلبة.

قـال السـفرجي: «في هـذه الحالـة، فإنـه عليَّ أن أصـطحبك إلى الفنـدق بمفردك، وأن أحمل أمتعتك إلى هناك».

قال كـارل: «أرجـو أن تنتظـر لحظـة من فضـلك»، وانحنى كـارل ليعيـد الأشياء القليلة التي كانت متناثرة فوق العشب، إلى داخل الصندوق.

واعتـدل فجـأة، كـان يبحث عن الصـورة الفوتوغرافيـة الـتي كـان قـد وضعها فوق ملابسه في داخل الصندوق، دون أن يعثر لهـا على أي أثـر، كل شيء آخر كان موجودًا بداخل الصندوق ما عدا تلك الصورة.

قال لديلامارش في توسل: «إنني لا أجد الصورة الفوتوغرافية!».

وتساءل ديلامارش قائلًا: «أي صورة؟».

قال كارل: «صورة والديّ».

فقـال روبنسـون: «إننـا لم نـر صـورًا بـداخل الصـندوق مطلقًـا يـا مسـتر روسمان».

قـال كـارل: «إن هـذا مسـتحيل بالفعـل!»، واجتـذبت نظراتـه الضـارعة السفرجي فاقترب منه، وأضاف كارل قائلًا: «لقـد كـانت فـوق السـطح، والآن لا أثر لها، وأرجو ألا تكونا قد عبثتما بصندوقي هنا وهناك».

قال ديلامارش: «إننـا لم نـرتكب أي خطـأ، ولم يكن هنـاك أي صـور في الصندوق».

قال كارل للسفرجي الذي كان يبحث عن الصورة فوق العشب: «لقد كانت أهميتها بالنسبة لي تفوق كل ما عداها؛ ذلك لأنه لا يمكن تعويضها، فليس في إمكاني أن أحصل على صورة أخرى»، وعندما توقف السفرجي عن البحث اليائس، أضاف كارل قائلًا: «لقد كانت الصورة الوحيدة التي كنت أحملها معي لوالديّ».

فقال السفرجي عندئذ في صوت مرتفع، دون أدنى محاولة لتلطيف الألفاظ:

ـ ربما أمكننا أن نفتش جيوب هذين السيدين.

قال كارل في الحال: «نعم، لابد لي من العثور على الصورة، لكن قبل تفتيش جيوبهما، دعني أقل لهما، إن من يعيد إليّ تلك الصورة طائعًا، ففي إمكانه أن يأخذ صندوقي بكل ما فيه».

وبعد لحظة من الصمت التام، قال كارل للسفرجي: «يبدو إن صديقيّ يفضلان تفتيش جيوبهما، إلا أنني مازلت عند وعدي بإعطاء الصندوق بكل ما فيه لمن توجد في جيبه الصورة، ولا يمكنني أن أفعل شيئًا أكثر من ذلك».

وشرع السفرجي في تفتيش ديلامارش، الذي بدا أن مهمة تفتيشه أصعب من مهمة تفتيش روبنسون الذي ترك كارل يفتش جيوبه بنفسه، قائلًا لكارل: إنه يجب تفتيشهما في وقت معًا، وإلا تخلص أحدهما من الصورة خلسة. وما إن وضع كارل يده في جيب روبنسون حتى عثرت أصابعه على تلفيعة تخصه لكنه لم يخرجها، ونادى على السفرجي قائلًا

له: «لا تنتزع أي شيء يتصادف أن تجده في جيوب ديلامارش، بل اتركه له في مكانه، فلست أريد سوى الصورة، الصورة فقط».

ولامست يد كارل وهو يقوم بتفتيش جيب الصدر في سترة روبنسون، صدر الرجل المسترخي الساخن، فانتابته الخشية من أن يكون قد ظلم رفيقيه، وقد دفعه هذا الخاطر إلى أن يسرع في مهمته ما استطاع. لكن كان ذلك كله عبثًا، فلم يجد أثـرًا للصورة لا في جيوب روبنسون، ولا في جيوب ديلامارش.

قال السفرجي: «شيء سيئ».

وأجابه كارل قائلًا: «لعلهما قد مزقا الصورة وألقيا بقصاصاتها بعيدًا، لقد كنت أحسبهما صديقين، إلا أنهما في أعماقهما لا يريدان لي سوى الشر، ولا ينطبق شيء من هذا على روبنسون، فلم يخطر له قط أن تلك الصورة تهمني إلى هذا الحد، وإنما يقع اللوم على ديلامارش».

وكان كارل يرى الآن السفرجي وحده بلمبته التي تضيء دائرة صغيرة أمامهما، في حين اختفى ديلامارش وروبنسون وكل شيء آخر خلفهما في ظلام حالك.

ولم يعد هناك مجال لدعوة الرجلين إلى الفندق مع كارل، ورفع السفرجي الصندوق فوق كتفه، والتقط كارل السلة وانطلقا في السير، وكان كارل قد بلغ الطريق عندما أفاق فجأة من أفكاره، فتوقف، وصاح في الظلام: «استمعا إليَّ، لو كانت الصورة مع أحدكما ورأى أن

يحضرها إليَّ في الفندق، فمازال وعدي بإعطائه الصندوق قائمًا أيضًا في هذه الحالة، وأقسم أنني لن أهاجمه إطلاقًا».

لم يتلق ردًّا على ذلك، فقط كلمة مكتومة كان من الممكن سماعها كانت بداية صيحة كان روبنسون سيطلقها، إلا أن فمه أُغلق في الحال، أغلقه ديلامارش فيما يبدو، وانتظر كارل طويلًا، لعل الرجلين اللذين فوق المرتفع يغيران رأيهما، وصاح مرة، بعد مرة: «إنني مازلت هنا».

لكنه لم يتلق ردًّا، فيما عدا أن حجرًا تدحرج إلى أسفل لعله لم يكن قد سُدِدَ بإحكام..

الفصل الخامس
الفندق الغربي

واقتيد كارل عندما بلغ الفندق إلى أحد المكاتب، حيث كـانت المـديرة تملي خطابًا، وهي تمسك بمفكرة في يدها، على سكرتيرة شابة، كـانت تجلس إلى آلة كاتبة.

وكان الإملاء بالغ الدقة، والدقات الواثقة الخفيفـة تتتـابع فـوق مفـاتيح الآلة الكاتبة، التي كانت تتسابق مع دقات الساعة المعلقة فـوق الحـائـط المقابـل، الـتي كـانت تُسـمع فقـط من حين إلى آخـر، بينمـا عقربـاهـا يشيران إلى ما بعد العاشرة والربع.

ـ هذا أنت! قالتهـا المـديرة، وهي تغلـق مفكرتهـا، وقفـزت السـكرتيرة واقفـة، ووضـعت الغطاء فـوق الآلـة الكاتبـة، دون أن ترفـع عينيهـا عن كـارل في أثنـاء قيامهـا بتلـك الحركـات الآليـة. كـانت تبـدو كتلميـذة صـغيرة، وكـان معطفهـا مكويًّا في عنايـة، ومثنيًّا بـالمكواة كـذلك عنـد الكتفين، وكـان شـعرها مكومًـا، ومرفوعًـا إلى أعلى، وكـان ممـا يثـير الدهشـة إلى حـد مـا، بعـد ملاحظـة هـذه التفاصـيل، أن تـرى جاذبيـة وجهها! بعد أن انحنت للمديرة أولًا، ثم لكارل، غادرت الحجرة، وألقى كارل نظرة لا إرادية مستفسرة نحو المديرة.

قـالت المـديرة: «إن مجيئـك شـيء رائـع في النهايـة، ومـاذا عن صديقيك؟».

قال كارل: «إنني لم أحضرهما معي».

قالت المديرة، وكأنها تفسر الأمر لنفسها: «إنهما سيرحلان في الصباح المبكر جداً فيما أعتقد».

قال كارل في نفسه: لكن ألا تعتقد أن عليَّ أن أرحل مبكرًا أنا أيضًا في تلك الحالة؟ ولكي يضع حداً لهذا الالتباس، قال: «لقد افترقنا في ظروف سيئة».

وبدا ذلك للمديرة خبرًا سارًّا، فقد قالت: «إذن فأنت حر الآن؟».

قال كارل: «نعم، إنني حر»، وبدا وكأنه لا يوجد أي شيء آخر أتفه من حريته تلك.

تساءلت المديرة قائلة: «قل لي، ألا تحب أن تحصل على وظيفة هنا في الفندق؟».

قال كارل: «أحب جداً، إلا أنني لا أكاد أعرف شيئًا، فأنا مثلًا، لا يمكنني أن أستعمل الآلة الكاتبة!».

قالت المديرة: «لا أهمية لهذا، فسوف تُعطى لك وظيفة صغيرة تبدأ بها حياتك العملية، وسوف يكون شأنك بعد ذلك أن تشق طريقك إلى أعلى عن طريق الكد والانتباه، لكن مهما تكن الأحوال، فإنني أعتقد أنه من الخير لك، ومن الأصوب أن تستقر في مكان ما، بدلًا من التجول على غير هدى، كما تفعل الآن، فلست أعتقد أنك قد خلقت لشيء من هذا!».

قال كارل في نفسه: سوف يرضى خالي عن هذا أيضًا، وأومأ موافقًا، وتذكر في تلك اللحظة نفسها بأنه لم يقدم لها نفسه بعد، على الرغم من أن المديرة قد أبدت مثل هذا الاهتمام بأمره، فقال: «أرجو أن تغفري لي؛ لأنني لم أقدم لك نفسي حتى الآن، إن اسمي هو كارل روسمان».

ـ إنك ألماني، ألست كذلك؟ قال كارل: «نعم، لم يمض عليّ وقت طويل في أمريكا».

ـ من أي مكان أتيت إلى أمريكا؟ قال كارل: «من براغ، في بوهيميا».

صاحت المديرة قائلة بالإنجليزية في تحيز بالغ للألمان، وهي تفرد ذراعيها في الهواء:

ـ لقد توقعت هذا، إذن فنحن مواطنان، فاسمي هو جريتا ميتزلباخ وإنني من ڤيينا، وأعرف براغ جيدًا، فقد عملت نصف عام في «الإوزة الذهبية» في ميدان فنسلاوس، لقد توقعت ذلك بالفعل.

تساءل كارل قائلًا: «متى كان ذلك؟!».

ـ منذ سنوات بعيدة، بعيدة مضت.

قال كارل: «لقد هدم مبنى «الإوزة الذهبية» العتيق منذ عامين».

قالت المديرة: «حسنًا، حسنًا»، وهي مستغرقة تمامًا في أفكارها عن الأيام الماضية! لكنها فجأة انتعشت ثانية، فأمسكت بكلتا يدي كارل، وصاحت: «والآن وقد ظهر أنك مواطن من نفس وطني، فليس لك أن

ترحل من هنا بأي حال من الأحوال، يجب ألا تسيء إليّ بذلك، فما رأيك مثلًا في أن تعمل كعامل مصعد؟ فقط قلها تكن قد أصبحت عامل مصعد، ولو كنت قد اطلعت على شيء من طبيعة هذا البلد، لتحققت من أنه ليس من السهل الحصول على مثل هذه الوظيفة، فوظيفة عامل مصعد هي أفضل بداية في الحياة يمكن أن تحلم بها، فهي تتيح لك الاتصال المباشر بكل ضيوف الفندق، والناس تراك دائمًا، وتعهد إليك بالقيام ببعض المهام الصغيرة، وباختصار فلديك: الفرصة كل يوم لتحسين وضعك، وسوف أرتب كل شيء بنفسي فاترك الأمر لي».

قال كارل، بعد وقفة قصيرة: «أحب جداًّ أن أكون عامل مصعد بالفعل!» كان من الحمق أن يتردد في قبول وظيفة عامل مصعد، نظرًا لدراسته الثانوية، فلديه هنا في أمريكا أكثر من سبب يدفعه إلى أن يخجل من دراسته الثانوية، وبالإضافة إلى ذلك، فكارل كان يُعجب دائمًا بعمال المصاعد، وكان ينظر إلى وضعهم باعتباره مجرد زينة.

تساءل بعد ذلك قائلًا: «ألا يتطلب هذا العمل الإلمام باللغة؟!».

ـ إنك تتحدث الألمانية، ولغتك الإنجليزية سليمة، حسنة. وهذا يكفي تمامًا.

قال كارل، الذي رأى أنه من الأفضل ألا يتجاوز عن هذا العمل الوحيد الذي يدعوه للفخر: «لقد تعلمت اللغة الإنجليزية فقط في خلال الشهرين ونصف الشهر التي انقضت على وجودي في أمريكا».

قالت المديرة: «إن هذا في حد ذاته يعد تزكية كافية! تذكرني بالصعوبات التي واجهتني عند بدء تعلمي اللغة الإنجليزية، كان ذلك بالطبع منذ ثلاثين عامًا، ولقد كنت أتحدث عن ذلك بالأمس فقط، ذلك أن الأمس كان عيد ميلادي الخمسين»، وحاولت بابتسامة أن تقرأ في وجه كارل انطباعه عن مثل هذه السن الوقور.

قال كارل: «إنني أتمنى لك إذن مزيدًا من السعادة».

قالت وهي تهز يد كارل، وتتطلع في كآبة إلى تلك الجملة الألمانية العتيقة التي جاءت تلقائيًا على طرف لسانها: «حسنًا، إن السعادة هي دائمًا النفع»، ثم صاحت فجأة: «إنني أحتجزك هنا، ولابد أنك متعب.. ويمكننا أن نتحدث غدًا عن كل شيء بصورة أفضل، إن سروري بلقاء أحد مواطنيّ قد جعلني أنسى كل شيء آخر، هيا، سوف أدلك على حجرتك».

قال كارل: «أرجو أن تسمحي لي بخدمة أخرى ـ وهو يتطلع إلى التليفون الذي يستقر فوق المنضدة ـ من الممكن في صباح الغد أن يحضر لي صديقاي العابران هذان، صورة فوتوغرافية احتاجها جدًا، فهل تتفضلين بأن تبلغي البواب تليفونيًا بأن يرسل الرجلين إليّ، أو أن يطلبني عندئذ حتى أهبط للقائهما؟».

قالت المديرة: «بلا شك، لكن ماذا لو سلما الصورة إلى البواب؟، وما هي هذه الصورة، لو كان لي أن أسأل؟».

قال كارل: «إنها صورة لوالديّ، ولكنني يجب أن أتحدث بنفسي إلى الرجلين».

ولم تجب المديرة بشيء أكثر من ذلك، وأبلغت أمرها تليفونيًا إلى البواب الذي ذكرت له رقم ٥٣٦، على أنه رقم حجرة كارل.

ثم سارا بعدئذ عبر باب يواجه باب المدخل، وعبر ممر قصير، حيث كان صبي مصعد، صغير السن يستند إلى درابزين أحد المصاعد، مستغرقًا في النوم!، قالت المديرة في رقة، وهي ترافق كارل إلى داخل أحد المصاعد: «قد نفعل ذلك نحن أيضًا!» ثم أضافت بينما يرتفع بهما المصعد إلى أعلى: «فيوم عمل يتراوح بين عشر واثنتي عشرة ساعة، هو بالفعل شيء كثير بالنسبة لطاقة صبي كهذا! إلا أن أمريكا بلد غريب، ولتأخذ هذا الصبي مثلًا، لقد أتى إلى هذا المكان منذ نصف عام فحسب، في رفقة والديه، وهو إيطالي، وهو يبدو الآن، وكأنه لا يتحمل العمل ببساطة، فعلى وجهه يرتسم الإرهاق، وهو ينام في أثناء أداء عمله، مع أنه بالطبع صبي مجتهد جدًّا.. لكن عليك فقط أن تمهله ستة أشهر أخرى، فسوف تراه قادرًا على احتمال عبء العمل في بساطة، وسوف يغدو رجلًا قويًّا، في خلال خمس سنوات أخرى، وفي وسعي أن أنفق الساعات الطوال في سرد مثل تلك الحالات، ولست أنت واحدًا من هؤلاء، لأنك بالفعل فتى قوي الآن، فأنت في السابعة عشر أليس كذلك؟!».

فأجاب كارل: «سوف أتم السادسة عشرة في الشهر القادم».

فقالت المديرة: «لم تبلغ السادسة عشرة بعد أيضًا؟ إذن فلست في حاجة إلى أن تخشى شيئًا!» وفي أعلى المبنى قادت كارل نحو حجرة كانت تبدو واحدة من غرف السطح، ذات سطح مائل ألا إنها كانت تبدو مريحة بالفعل وتضيئها لمبتان.

قالت المديرة: «لا تندهش للأثاث الذي في الحجرة، فليست هذه واحدة من غرف الفندق، لكنها إحدى غرفي الخاصة، ولدي ثلاث غرف منها، وعلى هذا فلن تسبب لي مطلقًا أي ازعاج، وسوف أغلق الأبواب الداخلية التي توصل هذه الغرف بعضها ببعض، وهكذا يمكنك أن تخلو إلى نفسك، وغدًا ستحصل بالطبع على غرفة خاصة بك، كموظف جديد في الفندق، فلو كان صديقاك قد جاءا معك، لكنت قد وضعتكم معًا في الغرفة العلوية الواسعة، حيث ينام خدم الفندق، لكن لأنك بمفردك، فإنني أرى من الأفضل لك أن تبقى هنا، على الرغم من أنه لا يوجد سوى الأريكة لتستلقي فوقها، والآن نم في راحة، واستجمع نشاطك لعملك، ولن يكون الغد في مثل شدة اليوم، وقسوته».

ـ أشكرك شكرًا بالغًا حقًّا على عطفك.

قالت وهي تتوقف عند باب الحجرة: «انتظر، سوف أعمل ترتيبي بحيث لا يوقظك أحد في الصباح المبكر!»، واتجهت إلى باب جانبي يفتح إلى خارج الحجرة، وطرقته، صائحة، «تيريز!» فأجاب صوت السكرتيرة: «نعم يا مدام».

ـ عندما توقظيني في الصباح، فاذهبي إلى حجرتي عن طريق الممر، فثمة ضيف ينام في هذه الحجرة، وهو مرهق غاية الإرهاق، وابتسمت لكارل وهي تقول ذلك:

«هل تسمعين؟!» ـ نعم يا مدام.

ـ حسنًا إذن، طابت ليلتك.

ـ طابت ليلتك.

قالت المديرة، وهي تحاول أن تفسر الأمر لكارل: «لقد عانيت من النوم السيئ لعدة سنوات، ولي في وضعي الحالي كل الحق في أن أرتاح، ولست احتمل الإزعاج في الحقيقة بأية صورة من الصور؛ لأن كل مخاوفي القديمة لا تزال تنتابني حتى الآن، وتحرمني من النوم، فلو قدر لي أن أستغرق في نومي في الساعة الثالثة صباحًا، فإنني أعتبر نفسي سعيدة الحظ، لكن لما كان عليّ أن أنهض بأعباء عملي في الخامسة.. أو الخامسة والنصف على الأكثر، فلابد من أن يوقظني شخص ما، ولابد له من أن يحاول إيقاظي في رفق بالغ، حتى لا يسبب لي مزيداً من تلف الأعصاب، فأعصابي تالفة بالفعل غاية التلف.

وهكذا.. فتيريز توقظني، إلا أنني قد أخبرتك الآن بالفعل بكل شيء يمكن أن أخبرك به، ولم أذهب حتى الآن.. طابت ليلتك!» ومرقت إلى خارج الحجرة، على الرغم من ضخامة حجمها! وكان كارل يريد أن ينام، فقد كان مرهق غاية الإرهاق طوال اليوم، ولم يكن ليتطلع إلى مكان مريح لينام فيه، أفضل من هذا المكان، لم تكن الغرفة غرفة نوم

بلا شك، بل كانت غرفة معيشة المديرة، أو حجرة استقبالها على وجه التحديد، وكان ثمة وعاء للغسيل قد وضع خصيصًا من أجل استعمال كارل في تلك الليلة، إلا أنه لم يشعر برغبة في أن يمس أي شيء من محتويات الحجرة في تلك الليلة، كان يتطلع فقط إلى شيء من الإحساس بوجوده، وكان صندوقه هنالك في انتظاره، ولاشك أنه لم يوضع في مكان آمن كهذا المكان لمدة طويلة، وفوق بوفيه منخفض ذي أدراج ينتشر فوقه غطاء من الصوف كالشبكة كانت تستقر بضع صور فوتوغرافية في إطاراتها، وتوقف كارل أثناء تجوله في أنحاء الحجرة ليتطلع إليها.

كانت صورًا قديمة كلها تقريبًا لفتيات في ملابس عتيقة الطراز، غير مريحة، وكانت قبعة صغيرة محلاة بتاج تزين في إهمال رأس كل فتاة من تلك الفتيات، بينما كانت اليد اليمنى لكل منهم، تستند فوق مقبض شمسية، وكانت تلك الفتيات يواجهن من ينظر إلى صورهن، إلا أن عيونهن لم تكن لتلتقي بعينيه، وبين صور الرجال اصطدمت عينا كارل بصفة خاصة بصورة جندي شاب كان قد وضع قبعته فوق منضدة، وكان يقف منتصبًا بخصلات شعره الثائر، الأسود، ونظرة رضا مكبوتة، تنم عن عنجهية، ويبدو أن شخصًا أعاد تلوين أزرار ردائه بنقط من طلاء ذهبي، لعل هذه الصور كلها تكون قد جاءت من أوروبا، وكان من الممكن أن يتأكد كارل من ذلك بالتطلع إلى ظهر تلك الصور، إلا أنه لم يرغب في أن يمد يده إليها، وكان يود لو يضع صورة والديه في الغرفة التي يشغلها، على نحو تلك الصور الموضوعة هنا.

وكان كارل قد تمدد فوق الأريكة، وتأهب للنوم بعد أن اغتسل من قمة رأسه إلى أصابع قدميه. وكان قد فعل ذلك بغاية الهدوء؛ نظرًا لوجود الفتاة التي تجاوره في الغرفة، عندما خيل إليه أنه سمع طرقًا خفيفًا على أحد الأبواب، ولم يستطع أن يكتشف للوهلة الأولى على أي باب من الأبواب كانت تلك الطرقات، ولعلها كانت ضوضاء غير مقصودة، إلا أنها قد تكررت في الحال، ولم يكن كارل قد استغرق في النوم عندما تكرر ذلك الطرق فوق الباب وكانت طرقة واضحة الآن بكل تأكيد.. وظهر أن تلك الطرقة الأخيرة كانت على الباب المؤدي إلى حجرة السكرتيرة، ومشى كارل على أطراف أصابعه إلى الباب، وتساءل في رقة بالغة. حتى إذا كانت الفتاة التي في الغرفة الأخرى نائمة رغم ذلك الطرق، فلا يتسبب في أن يوقظها: «هل تريدين شيئًا؟» وجاءه الرد في الحال في نفس الصوت الخافت البالغ الرقة: «ألا تفتح الباب؟» إن المفتاح في الجانب الذي أمامك؟ قال كارل: «بلا شك، إلا أنني يجب أن أرتدي شيئًا من ملابسي أولًا».

مضت فترة قصيرة من الصمت، ثم قالت الفتاة: «لست في حاجة إلى أن تفعل ذلك، افتح الباب، ثم عد إلى فراشك ثانية. سوف انتظر قليلًا أمام الباب».

ـ حسنًا، قالها كارل ونفذ اقتراح الفتاة وأضاء النور الكهربائي كذلك، ثم قال عندئذ: «إنني في فراشي الآن!»، في صوت مرتفع إلى حد ما. ثم ظهرت السكرتيرة خارجة من ظلام غرفتها في كامل ثيابها، كما كانت عندما غادرت مكتب المديرة، ويبدو أنها لم تكن قد فكرت في النوم.

قالت: «أرجو أن تسمح لي»، وهي تتهادى بصورة ما أمام أريكة كارل: «وأرجو ألا تذكر شيئًا عن زيارتي هذه لك، ولست أريد أن أزعجك طويلًا، فإنني أعلم أنك مرهق غاية الإرهاق».

قال كارل: «لست مرهقًا إلى هذا الحد، لكنني أعتقد أنه ربما كان من الأفضل أن أرتدي شيئًا من ملابسي!» وكان عليه أن يرقد متمددًا تمامًا حتى يمكنه أن يسحب فوقه الغطاء، حتى عنقه؛ لأنه لم يكن لديه رداء للنوم.

قالت: «سأبقى لحظة فقط!» وهي تتطلع حولها باحثة عن مقعد، ثم أضافت تقول: «هل يمكنني أن أجلس بالقرب من الأريكة؟!» وأومأ كارل بالإيجاب ووضعت مقعدها لصق الأريكة، حتى كان على كارل أن يلتصق بالحائط لكي يتمكن من رؤية وجهها جيدًا. كان لها وجه مستدير، رقيق التكوين، فيما عدا أن حاجبيها كانا يبدوان مرتفعين بصورة ملحوظة، وربما كان ذلك بتأثير تسريحة شعرها التي لم تكن تناسبها، وكانت ملابسها نظيفة جدًّا، ومرتبة، وكانت تعتصر منديلًا في يدها اليسرى.

وتساءلت: «هل ستمكث هنا طويلًا؟!».

فأجابها كارل قائلًا: «لم يستقر الرأي في هذا الشأن بعد، لكنني أعتقد أنني سأبقى».

قالت: «سيكون هذا رائعًا»، ومرت بمنديلها فوق وجهها، «وذلك لأنني أشعر بالوحدة القاسية هنا».

قال كارل: «إن هذا يدهشني، إن المديرة تعطف عليك عطفًا زائدًا، أليس كذلك؟! إنها لا تعاملك كموظفة مطلقًا، ولقد ظننت بالفعل أنك إحدى قريباتها!».

قالت: «أوه.. لا، إن اسمي هو تيريز بيرشتولد، وقد أتيت من بوميرانيا».

وقدم كارل أيضًا نفسه، وتطلعت إليه مباشرة للمرة الأولى، وكأنه بدا فجأة غريبًا أكثر مما كان عندما ذكر لها اسمه، وظلا صامتين لفترة قصيرة، ثم قالت:

«يجب ألا تظن أنني ناكرة للجميل!، فلولا المديرة، لكنت الآن في حال أسوأ كثيرًا من حالتي الحاضرة، ولقد كنت أعمل بين فتيات المطبخ هنا في الفندق، وكنت معرضة جدًّا للفصل من عملي هنا؛ لأنني لم أكن احتمل العمل الشاق، فإنهم يتوقعون منك في المطبخ أن تقوم بمجهودات خارقة، منذ شهر أُغْمِيَ على واحدة من فتيات المطبخ، أُغْمِيَ عليها ببساطة تحت ضغط الإرهاق، وكان عليها أن تمكث في المستشفى أسبوعين، وأنا نفسي لست في صحة جيدة، ولقد كنت دائمة المرض في طفولتي، وكنت بطيئة في النمو لهذا، ولعلك لا تتخيل.. هل تتخيل أنني في الثامنة عشرة؟ إلا أنني أزداد قوة الآن».

قال كارل: «لابد أن العمل هنا شاق بالفعل، ولقد رأيت صبي مصعد في الطابق الأسفل ينام واقفًا فوق قدميه».

قالت: «إن عمال المصاعد قد اعتادوا بالفعل على ذلك! كما أنهم يحصلون على مبالغ كبيرة من منح البقشيش، ومع ذلك فليس عليهم

أن يبذلوا جهداً من قبيل الجهد الذي يتطلبه العمل الذي تقوم به فتيات المطبخ. ولقد كنت سعيدة الحظ بالفعل لأول مرة في حياتي كلها، فقد أرسلت المديرة ذات يوم في طلب فتاة؛ لتقوم بترتيب فوط السفرة استعدادًا لمأدبة، وكان هناك ما يقرب من خمسين فتاة في المطبخ، وتصادف أن كنت أنا التي انطبقت عليها شروط المديرة، فتم اختياري! حسنًا.. ولقد قمت بالعمل الذي أسندته إليَّ بصورة حازت رضاها، فقد كنت ماهرة دائمًا في ترتيب فوط السفرة، وهكذا احتفظت بي إلى جانبها منذ ذلك اليوم، وقامت بتمريني، على مراحل حتى أصبحت سكرتيرتها ولقد تعلمت منها الكثير!».

تساءل كارل: «هل توجد أعمال كتابية كثيرة هنا؟».

وأجابته قائلة: «أوه.. توجد أعمال كثيرة جداًّ أكثر مما يمكنك أن تتصور، ولقد رأيت بنفسك أنني كنت أقوم بعملي حتى الحادية عشرة والنصف هذه الليلة، وهذا أمر عادي جداًّ، ولست أكتب بالطبع على الآلة الكاتبة طوال الوقت، لكنني أقوم أيضًا بعديد من المهمات في المدينة».

تساءل كارل قائلًا: «هل هي مدينة كبيرة؟».

فأجابته قائلة: «كبيرة جداًّ، إنني لم أتمتع بمشاهدتها كلها، لكن.. ألا تريد الآن بالفعل أن تستغرق في النوم؟».

قال كارل: «لا.. لا.. إنك لم تذكري لي بعد لماذا جئت لزيارتي الآن؟».

ـ «لأنني لا أجد من أتحدث إليه، إنني لا أشكو، لكن لا يوجد في الحقيقة من يمكنني أن أتحدث إليه. ويسعدني أنني وجدت شخصًا ما في النهاية، شخصًا يسمح لي بأن أحادثه.. ولقد رأيتك في الصالون، في الطابق الأسفل.. كنت قد دخلت لحظتها أبحث عن المديرة عندما اصطحبتك إلى داخل المخزن».

قال كارل: «إن ذلك الصالون مكان مزعج!».

أجابته: «إنني لا أراه إلا نادرًا في هذه الأيام، لكنني أريد فقط أن أقول إن المديرة تعطف عليّ كما لو كانت أمي، لكن هناك اختلافًا هائلًا بين وضعينا، حتى إنني لا أستطيع أن أتحدث إليها في شيء من الحرية. ولقد كانت لي صديقات من بين فتيات المطبخ، غير أنهن قد غادرن هذا المكان منذ زمن بعيد، ولا أكاد أعرف الفتيات الجديدات اللاتي حللن مكانهن، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه غالبًا ما يبدو لي العمل الذي أقوم به الآن عملًا مرهقًا بصورة تفوق عملي السابق في المطبخ، حتى أنني لا أتمكن من القيام به على خير وجه، كما كنت أفعل في عملي السابق، ويخيل لي غالبًا أيضًا أن المديرة تحتفظ بي فقط بدافع الشفقة، وفوق هذا كله فإن هذا العمل يحتاج إلى دراسة أفضل من الدراسة التي تلقيتها، ولابد لي من ذلك لكي أصلح كسكرتيرة، من الخطأ أن أصرح بذلك، لكنني غالبًا ما أشعر بهذا كله وأحسه إلى حد يوشك أن يؤدي بي إلى فقدان عقلي، «بحق الإله»، واندفعت تتكلم في سرعة وتلمس في حركات خاطفة كتف كارل لأنه كان يخفي يديه تحت البطانية.. «لا تذكر للمديرة كلمة من هذا، وإلا فإنني بهذا أكون

قد قضي عليّ، فلو سببت لها ألمًا، بالإضافة إلى انشغالها بأمري، فسوف يكون ذلك شيئًا يزيد عن طاقتها على أن تحتملني».

فأجابها كارل قائلًا: «لن أذكر لها بالطبع أي شيء..».

قالت: «كل شيء إذن على ما يرام ويجب عليك أن تبقى هنا، فسوف أكون في غاية السرور لو بقيت، ويمكننا أن نصبح صديقين لو شئت، فعندما رأيتك، أحسست بأن في إمكاني أن أثق بك، إلا أنني ـ وتأمل إلى أي حد أبدو ملعونة ـ كنت خائفة أيضًا من أن تجعلك المديرة سكرتيرها بدلًا مني، وتفصلني. ولقد قضيت وقتًا طويلًا وأنا جالسة إلى نفسي في الحجرة المجاورة، أقلب الأمر من كل وجوهه بينما كنت أنت في مكتب المديرة في الطابق الأسفل، حتى انتهيت أخيرًا إلى أنه قد يكون من الخير لك أن تأخذ مكاني، لأنك ستؤدي هذا العمل دون شك بكفاءة لا تتوافر لي، فلو لم ترغب في القيام بالمهمات التي ترسل بسببها إلى المدينة، فسوف أواصل أنا القيام بهذه الخدمات، لكنني فيما عدا ذلك سأكون أكثر نفعًا بعودتي إلى المطبخ خاصة وأنني قد أصبحت الآن أقوى مما كنت..».

قال: لقد تقرر كل شيء الآن بالفعل، فسأكون أنا عامل مصعد وسوف تبقين أنت في عملك كسكرتيرة، لو أنك لمحت للمديرة بخططك هذه، فسوف أخبرها بما قلته لي الآن، وإنني آسف مقدمًا على أنني سأقول لها هذا كله..

وأخافت لهجة كارل تيريز خوفًا شديدًا، حتى أنها ألقت بنفسها أرضًا إلى جوار الأريكة، وهي تبكي وتخفي وجهها في ملابس نومه.

قال كارل: «أوه.. سوف لا أخبرها بشيء، لكن يجب ألا تقولي لها شيئًا أنت أيضًا».

ولم يستطع أن يمنع نفسه الآن من أن يخرج إلى حد ما، من تحت غطائه ويتحسس ذراعها في رقة، إلا أنه لم يجد الكلمات المناسبة التي يمكنه أن يهدئها بها، أمكنه فقط أن يدرك أن حياة هذه الفتاة حياة مريرة، وأخيرًا واساها ما استطاع حتى لقد خجلت من بكائها، وتطلعت إليه في امتنان، ونصحته بأن يستغرق في النوم حتى الصباح، ووعدته أن تأتي إليه في الساعة الثامنة لتوقظه إن وجدت أمامها متسعًا من الوقت.

قال لها كارل: «إنك ماهرة غاية المهارة في إيقاظ الناس».

قالت: «نعم.. يمكنني أن أفعل بعض الأشياء»، ومرت بيدها في رفق فوق ملابس نومه، وكأنها تصافحه مودعة، ثم اندفعت نحو حجرتها.

وأصر كارل في اليوم التالي على أن يبدأ عمله في الحال، على الرغم من أن المديرة كانت قد أشارت عليه بأن يقضي اليوم في زيارة المدينة فأخبرها في صراحة أنه سيجد أمامه فرصًا عديدة لرؤيتها فيما بعد، إلا أن أهم شيء أمامه الآن هو أن يبدأ العمل، فقد كان قد قطع دراسته في أوروبا بلا هدف. وها هو ذا يبدأ الآن مرة أخرى حياته كعامل مصعد في سن لعل الطموحين من أقرانه أن يكونوا قد أصبحوا فيها مهيئين لعمل أكثر خطورة، ولقد كان من الخير، ومن الضروري له أن يبدأ

حياته كعامل مصعد، لكن من الضروري له أيضًا أن يتقدم بغاية السرعة في مثل هذه الظروف.. لم يرق له مطلقًا أن يتسكع في شوارع رمسيس، ولم يقبل أيضًا أن يتمشى قليلًا مع تيريز عندما اقترحت عليه ذلك، إنه لم يكن يستطيع أن يطرد من رأسه تلك الفكرة الثابتة التي تتلخص في أنه ربما هبط، إن لم يعمل بكل قواه، إلى مستوى ديلامارش وروبنسون.

وعدّل ترزي الفندق على مقاس كارل زيًّا كان لواحد من عمال المصاعد! وكان زيًّا مثقلًا للغاية بالأزرار المذهبة والشرائط الذهبية، إلا أنه جعل كارل يرتجف قليلًا عندما ارتداه، فقد كانت الجاكتة القصيرة ضيقة تحت الذراعين بوجه خاص وجامدة تفوح منها رائحة العرق الذي لا حيلة في إزالته، ذلك العرق الذي نضح على الجاكتة من أجساد الصبية العديدين الذين ارتدوها قبله، وكان لابد أن تُعدّل مقاسات الجاكتة حتى تناسب كارل، وخاصة بالنسبة للصدر، لأن جاكتة واحدة من الجاكتات الثماني الأخرى لم تناسب مقاسه.. على الرغم من بعض الإصلاحات الضرورية، ومع أن رئيس الترزية كان يراجع مقاييس تلك الجاكتة، ولقد طوحها إلى الخلف مرتين داخل المشغل، بعد أن كانت قد انتهت على ما يبدو، ورغم ذلك كله، تم الإصلاح والتعديل في نحو خمس دقائق، وغادر كارل حجرة الترزي مرتديًا ـ بالفعل ـ بنطلونًا ضيقًا يناسبه، وجاكتة، كانت محكمة عليه جدًّا بالرغم من كل التأكيدات القاطعة التي كان رئيس الترزية ينفي بها ذلك، فأغرت كارل على الانهماك في القيام بتمرينات التنفس، لأنه كان يريد أن يطمئن إن كان في وسعه أن يتنفس بالفعل وهو يرتديها.

ثم أوضح كارل ذلك لرئيس السفرجية، الذي كان يرأسه، وهو رجل نحيل وسيم، له أنف كبير، ويبدو في العقد الخامس من عمره، ولم يكن لدى رئيس السفرجية وقت لتبادل كلمة واحدة معه، ودق الجرس ببساطة طالبًا أحد عمال المصاعد، الذي تصادف أن كان نفس صبي المصعد الذي رأه كارل بالأمس.

ناداه رئيس السفرجية باسمه الأول جياكومو الذي كان كارل قد قضى وقتًا حتى تبينه، ذلك أنه لم يكن يمكن تمييزه في النطق الإنجليزي، ووجهت التعليمات إلى الصبي بأن يدل كارل على الواجبات التي على عامل المصعد أن يقوم بها، إلا أنه كان صبيًّا خجولًا ومتعجلًا حتى أن كارل لم يكن يفهم شيئًا من تلك المعلومات القليلة التي كان عليه أن يذكرها له. ولاشك في أن جياكومو كان مستاء أيضًا لأنه قد نقل من عمله في المصعد، بسبب كارل فيما يبدو، وتعين عليه أن يساعد الفتيات في ترتيب الحجرات، ذلك النقل الذي بدا له تخفيضًا في وضعه، وكان يدرك هذا بسبب بعض الخبرات الخاصة التي لم يبح بها رغم ذلك. وكأن خيبة الأمل التي أصيب بها كارل هي اكتشافه أن عامل المصعد لا شأن له فيما يتعلق بميكانيكية المصعد، لكن عليه فقط أن يحركه بالضغط فوق بعض الأزرار، على حين يقوم ميكانيكيو الفندق بأداء كل الإصلاحات التي يحتاج إليها أي مصعد في حالة تعطله.. فمثلًا، على الرغم من أن جياكومو قد قضى نصف عام في الخدمة كعامل مصعد، فإنه لم ير مطلقًا بعينيه لا المحرك الموجود في داخل القبو ولا أجزاء المصعد الداخلية التي تسهم في حركته، مع أن ذلك،

كما قال هو نفسه، كان سيسره! وكان العمل في الحقيقة مملًّا ونوبات العمل التي تمتد اثنتي عشرة ساعة وتتغير نهارًا مرة وأخرى ليلًا، تعد نوبات مرهقة جدًّا، حتى أن المرء لا يمكنه ببساطة تبعًا لقول جياكومو، أن يحتملها إذا لم ينم واقفًا على قدميه بضع دقائق من حين لآخر، ولم يعقب كارل بشيء على هذا القول، إلا أنه كان يدرك تمامًا أن هذه الحيلة نفسها هي التي كلفت جياكومو وظيفته.

وكان كارل في غاية السرور لأن المصعد الذي سيعمل به كان مخصصًا للأدوار العليا؛ لأنه لم يكن عليه أن يتعامل مع الضيوف الأثرياء، الذين يعدون أكثر الزبائن إرهاقًا لعامل المصعد وتشديدًا في أوامرهم، ولم يكن له أن يعرف الكثير من المصاعد الأخرى، لهذا بدا له هذا العمل طيبًا كمجرد بداية.

وأدرك بعد انقضاء الأسبوع الأول أنه كان كفئًا تمامًا للوظيفة، وكانت اللوحة النحاسية في مصعده أكثر لمعانًا من مثيلاتها في المصاعد الأخرى، ولم يكن يوجد في أي من المصاعد الثلاثين الأخرى أي شيء يجعله جديرًا بأن يقارن بمصعد كارل، وربما بقي المصعد لامعًا على الدوام، لو أن الصبي الآخر الذي يتناوب معه العمل فيه بذل شيئًا من الجهد يقرب مما يبذله كارل من الجهد الخارق دون أن يزداد إهمالًا كلما ازداد انتباه كارل إلى واجباته. كان هذا الصبي مواطنًا أمريكيا يدعى رينيل، وهو فتى مغرور ذو عينين سوداوين، وخدود ناعمة مجوفة إلى حد ما، وكان يرتدي بذلة خاصة جميلة في الليالي التي كان يخلو فيها من العمل، عندما كان يهرع إلى المدينة متعطرًا، وكان أكثر

من هذا يسأل كارل من حين لآخر أن يقوم بعمله أمسية من الأمسيات متعللًا بأن عليه أن يذهب إلى مكان ما لظرف عائلي، دون أن يلقي بالًا إلى تناقض تلك الحجج التي كان يلفقها مع مظهره المبتهج. ورغم ذلك فقد أحبه كارل، وكان يسره أن يرى رينيل وهو يقف إلى جانب المصعد ببذلته الرائعة قبل أن يغادر الفندق في أحد تلك الأمسيات، وهو يتعلل بالمعازير مرة أخرى، بينما يجذب قفازيه ثم يتسلل خارجًا عبر الردهة. وبالإضافة إلى ذلك فقد رأى كارل أنه من الطبيعي له أن يرضي زميلًا أكبر منه على هذا النحو في البداية. ولم يكن كارل ينوي أن يجعل ذلك تقليدًا ثابتًا، ذلك أن تحريك المصعد إلى أعلى وإلى أسفل، كان عملًا مرهقًا في ذاته إلى حد كاف، وخاصة في الأمسيات، حيث لا يتاح له أن يتوقف لحظة واحدة عن الحركة.

وهكذا تعلم كارل أيضًا كيف يؤدي تلك الانحناءة العميقة السريعة التي يتعين على صبية المصاعد أن يؤدوها، وأن يتناول منح البقشيش بغاية الخفة، فكانت تلك المنح تختفي فورًا في جيب صديريته، دون أن يتمكن أحد من أن يستشف من تعبير وجهه إن كان البقشيش كبيرًا أو زهيدًا، وكان يفتح باب المصعد للسيدات في شيء من الرقة، ويدخل إلى المصعد خلفهن متباطئًا؛ لأنهن في عنايتهن بقبعاتهن وملابسهن وزينتهن، يستغرقن وقتًا طويلًا في الحركة، بخلاف الرجال، إلى داخل المصعد.. ويظل في أثناء تحرك المصعد، ملتصقًا ببابه؛ لأنه أكثر الأماكن حيادًا ويعطي ظهره إلى النزلاء، ويظل ممسكًا في يده بمقبض الباب لكي يكون مستعدًا عند لحظة بلوغ الطابق المطلوب لأن

يفتح الباب على مصراعيه على كلا الجانبين دون تعطيل النزلاء أو مفاجأتهم، وما أن يربت أحدهم فوق كتفه ليسأله في أثناء الصعود عن شيء ما، حتى يستدير إليه في لباقة كما لو كان يتوقع السؤال ويجيبه في صوت مرتفع، وفي أحيان بعد انتهاء حفلات المسرح خاصة، أو وصول أحد القطارات السريعة يكون الزحام شديدًا، على الرغم من وجود كل تلك المصاعد العديدة بالفندق، فلم يكن كارل يفرغ من توصيل مجموعة من النزلاء إلى الطابق الذي يريدونه، حتى يقفل راجعًا مرة أخرى إلى هؤلاء الذين ينتظرونه في الطابق الأسفل، وكان في مقدوره أن يجذب سلكًا كهربائيًا كان يمر خلال المصعد يزيد من سرعة المصعد العادية، على الرغم من أن ذلك كان ممنوعًا طبقًا للتعليمات، وكان يعد أمرًا على جانب كبير من الخطورة، كذلك فلم يكن كارل يفعل ذلك عندما يكون المصعد مشغولًا بالنزلاء، لكنهم ما إن يغادروا إلى الطابق الذي يقصدونه، وتتعين عليه العودة لإحضار عدد من النزلاء الآخرين حتى يجذب كارل ذلك السلك دون أدنى تردد، مصعدًا تنهيدات قوية منتظمة كالبحارة، وكان يعلم بالإضافة إلى ذلك أن صبية المصاعد الآخرين يفعلون ذلك هم أيضًا.

ولم يكن يريد أن يلجأ النزلاء الذين ينتظرونه إليهم، وكان بعض الضيوف الذين يمكثون لفترات طويلة في الفندق ـ وهي عادة شائعة هنا ـ يقولون في ابتسامة، عندما يلمحونه: «إنه هو عامل مصعدهم» وكانت هذه البوادر التي تنم عن العطف تجد قبولًا رزينا من كارل، لا يفتقر إلى الشعور تجاههم بالعرفان، وكان يقوم أحيانًا إذا لم يكن

متعجلًا غاية العجلة كعادته بأداء بعض الخدمات الصغيرة، باحثًا عن شيء أو آخر يكون النزيل قد نسيه في حجرته، ولا يريد أن يتكلف مشقة العودة إلى الحجرة مرة أخرى للبحث عنه، فكان كارل يحلق وحده عاليًا بمصعده الذي يبدو مصعده الخاص بالفعل في تلك الحالات، ويدخل الحجرة الغريبة، حيث تواجهه أشياء عجيبة لم يكن قد رأى شبيهًا مثلها من قبل متناثرة هنا وهناك أو تتدلى من شماعات الملابس، ويشم رائحة مميزة لنوع غير مألوف من الصابون أو العطر، أو معجون الأسنان، ويسرع بالعودة، فلا يتباطأ دقيقة واحدة دون داع، وفي يده الشيء المطلوب، مع أنه لم يكن قد تلقى سوى معلومات غامضة في العادة لا يمكن أن تحدد على وجه الدقة ذلك الشيء المطلوب البحث عنه، وكان كارل يأسف في أحيان كثيرة؛ لأنه لم يكن يعهد إليه بقضاء خدمات تستغرق وقتًا أطول، من قبيل تلك الخدمات التي كان يعهد بأدائها إلى المساعدين بعينهم، أو سعاة مزودين بالدراجات وأحيانا بالموتوسيكلات، وكان أقصى ما كان يكلف به هو عمل من الأعمال البسيطة في حجرة الطعام أو حجرة القمار.

وبعد انتهاء نوبة عمل تستغرق اثنتي عشرة ساعة، يفرغ من أداء عمله في الساعة السادسة مساء لمدة ثلاثة أيام، وفي السادسة صباحًا في الأيام الثلاثة التي تليها، كان كارل يفرغ من نوبة عمله حينئذ مرهقًا غاية الإرهاق، حتى أنه كان يتوجه مباشرة إلى فراشه دون أن يلتفت إلى أي شخص، وكان فراشه في عنبر نوم صبية المصاعد، وكانت المديرة التي تبين له أنها لم تكن تتمتع بكل تلك السلطة التي تخيلها في ليلتها

الأولى، قد حاولت أن تخصص له غرفة مستقلة، ولعلها كانت لتنجح في ذلك، إلا أنه عندما رأى الصعوبات التي واجهت هذه الرغبة.. ورأى أنه كان عليها أن تتصل برئيسه المباشر- رئيس السفرجية- بصورة متواصلة، رفض هو ذلك بنفسه، وأقنعها بصدق نيته في رفض هذه الغرفة المستقلة قائلًا لها: إنه لا يرغب في إثارة حسد الصبية الآخرين له لحصوله على ميزة لم يحققها بالفعل بمجهوده.

وكان العنبر ينقصه الكثير دون شك، حتى يصبح مكانًا هادئًا صالحًا للنوم، فقد كان لكل صبي جدوله الخاص الذي يتضمن مواعيد أكله، ونومه وتسليته والخدمات الطارئة التي قد يعهد إليه في خلال ساعات راحته الاثنتي عشرة، وعلى هذا فقد كان المكان يعج دائمًا بالضجيج فكان بعض الصبية ينام، والبطاطين تغطي آذانهم محاولين أن يتفادوا الصخب الدائر، ولو نهض واحد منهم فإنما ينهض لكي يصرخ في غضب محتجًا على الضوضاء التي يحدثها الآخرون، حتى لقد كان النائمون يستيقظون على صراخه مهما كان نومهم عميقًا، وكان لكل صبي تقريبًا غليون يستغرق في تدخينه كنوع من الرفاهية. وحصل كارل أيضًا على غليون لنفسه، وسرعان ما اعتاد على تدخينه، وكان التدخين بالطبع ممنوعًا في وقت العمل، ونتيجة لذلك كان كل فرد يمارس التدخين في عنبر النوم إن لم يكن نائمًا بالفعل؛ ولهذا كانت سحابة كثيفة من الدخان تحيط بكل فراش وكانت الحجرة كلها تكاد تغرق في ضباب شامل. ومع أن الجميع كانوا قد اتفقوا على إضاءة المصابيح فقط في أحد جانبي العنبر في أثناء الليل، إلا أن تنفيذ ذلك

كان مستحيلًا، فلو كان لهذا الاقتراح أن ينفذ لكـان في مقـدور كـل من يرغب في النوم، أن ينام في هدوء في جـانب العنـبر الغـارق في الظلام.. وقـد كـان العنـبر فسـيحًا يتسـع لأربعين فِراشًـا، بينمـا يمكن للبـاقين أن يلعبوا النرد أو الورق، أو يفعلوا كل مـا يحلـو لهم من أمـور أخـرى يلـزم الضوء لممارستها في الجانب الآخر المضاء، وكان على كل من يـرغب في النـوم، على حين يقـع فراشـه في دائـرة الضـوء، أن يسـتلقي فـوق أي فـراش شـاغر في نصـف العنـبر الغـارق في الظلام، فالأمـاكن الشـاغرة تتوافر دائمًا، ولا يمكن لأحد أن يعـترض على أن يسـتعمل غـيره فراشـه الخاص بصفة مؤقتة، لكن كان من المستحيل الالتزام بهذا النظام، ولـو لليلة واحدة، فقـد يصـادف أن يـدعى اثنـان من الصـبية إلى مكـان مظلم ليختطفا لحظات يستغرقان فيها في النعاس، ثم فجـأة يشـعران بالرغبـة في أن يلعبا دورًا من الورق فوق لـوح من الخشـب يمدانـه في المسـاحة الخالية بين فراشيهما، ويفتحان النور القـريب منهمـا بـالطبع، فيتسـبب الضوء في إيقاظ النائمين، الذين يتصادف أن تتقابل وجوههم مع أشـعة ذلك الضـوء، ويتلـوى الواحـد منهم بطبيعـة الحـال مسـتديرًا على جانبـه الآخر ليبتعد عن مواجهة الضـوء لفـترة قصـيرة، لكنـه لا يجـد أمامـه في نهايـة الأمـر، سـوى أن ينهض ليشـرع بـدوره في لعب الـورق مـع جـاره المرهق، فيضيء ضوءًا آخر، وينتشر بهذا أيضًا تـدخين الغليـون في كـل مكـان. ويوجـد ــ للحقيقـة ــ بعض من يتعمـدون النـوم هنـا وهنـاك ــ وكـان كـارل عـادة من بين هـؤلاء ــ وكـان هـؤلاء يضـطرون إلى دفن رؤوسهم تحت الوسائد بـدلًا من أن يضـعوها فـوق تلـك الوسـائد، لكن

من أين للنوم أن يأتي لأي منهم! إذا نهض من يشغل الفراش المجاور في منتصف الليل، وتأهب للخروج لكي يعربد في المدينة بضع ساعات قليلة يختطفها قبل أن يحل موعد عمله، فيغسل وجهه محدثًا كثيرًا من الضجة، وينثر الماء حول حوض الغسيل المثبت عند رأس كل فراش، ولا يرتدي فردتي حذائه أيضًا إلا في ضجة، بأن يدقهما بقدميه على الأرض لكي يدخل فيهما قدميه جيدًا، وقد كانت أغلب أحذية الصبية ضيقة جداً على الرغم من طرازها الأمريكي، ولكي يتمكن في النهاية من استكمال تأهبه للهو، لا يجد أمامه بدًّا من أن يرفع وسادة من على وجه جاره، تلك الوسادة التي حاول الجار أن يحتمي بها طويلًا حتى يتمكن من النوم منتظرًا أن ينهض ذلك الجار لكي يثور في وجهه محتجًا، وكان الصبية الذين يغرمون بالألعاب الرياضية، صبية صغار السن، مفعمين بالنشاط غالبًا، ويحرصون على ألا تفوتهم الفرصة لأداء التمرينات في مثل ذلك الوقت أيضًا، فإذا حدث أن نهضت فزعًا من نومك في الليل، على هدير أصوات صارخة، فتأكد من أنك ستواجه مباراة كاملة للملاكمة بجانب فراشك في أرضية العنبر، بينما يتحلق تلك المباراة جمع من النظارة الخبيرين بقواعد اللعبة جالسين فوق السرر والنور مضاء في كل مكان.. وقد حدث ذات مرة في مباراة للملاكمة من تلك المباريات التي تحدث في منتصف الليل أن وقع أحد الملاكمين فوق كارل، عندما كان مستغرقًا في النوم، وكان أول ما وقعت عليه عينا كارل عندما استيقظ هو نهر من الدم كان يتدفق من أنف الصبي، فلطخ- قبل أن يجد كارل الفرصة ليتلاشى التلوث-

ملابس كارل وأغطية فراشه، وكان كارل يقضي أغلب ساعات راحته الاثنتي عشرة في محاولة الاستغراق في النوم.. وكان يجد نفسه معرضًا لإغراء شديد في مشاركة الآخرين في استمتاعهم العميق بوقتهم، لكن كان يشغل باله عندئذ أن هؤلاء الآخرين قد تمكنوا في حياتهم العملية من أن يبلغوا حدًّا لم يبلغه بعد، وأن عليه أن يلحق بهم عن طريق العمل الشاق والانصراف عن اللهو بقدر الإمكان.. ومع هذا فعلى الرغم من شوقه وحاجته الملحة إلى أن يحصل على كفايته من النوم لانهماكه في العمل بكل قواه، إلا أنه لم يلجأ إلى الشكوى للمديرة ولا لتيريز عن تلك الأحوال التي تجري في عنبر النوم في الوقت المخصص للراحة، ذلك أن الآخرين يعانون جميعهم من تلك الأوضاع دون أن يتذمروا منها بالفعل، وبالإضافة إلى ذلك فقد رأى كارل أن صعوبة الحصول على الراحة في عنبر النوم كانت جزءًا من الوظيفة التي قبلها شاكرًا عندما عرضتها المديرة عليه.

وقد حدث منذ أسبوع، عند تغيير نوبة عمله، من النوبة النهارية، إلى النوبة الليلية أن حصل على فترة راحة لمدة أربعة وعشرين ساعة، قضى جانبًا منها في زيارة المديرة مرة أو مرتين. وفي تبادل بضع كلمات قلائل مع تيريز في ركن أو آخر كالعادة، أو في الردهة، ونادرًا ما كان يتحدث إليها ــ في الحقيقة ــ في داخل غرفتها، كلما التقى بها بعد فراغها من عملها لدقيقة أو دقيقتين. وقد رافقها في أحيان أخرى كذلك إلى المدينة، حيث كانت تقوم بأداء بعض المهام بها، وكانت تلك المهمات تتم دائمًا في أسرع ما يمكن من الوقت، فكانا يندفعان

إلى أقرب محطة من محطات الأنفاق، في خطوات متعجلة تقارب الجري، وكان كارل يحمل السلة، وكانت رحلة القطار تنتهي في لحظة، وكأن القطار يندفع بهما في الفراغ، فسرعان ما يغادرانه، ويصعدان السلالم جريًا في الجانب الآخر من المحطة دون أن ينتظرا المصعد، الذي كان يعد بطيئًا جداً بالقياس إلى تعجلهما، ثم تظهر الميادين الفسيحة التي تتفرع منها الشوارع، فيبدو الميدان أشبه بالنجمة، بالشوارع التي تتفرع عنه، وتصلهما ضجة المرور المتدفقة على الفور من كل جانب، بلا توقف، إلا أن كارل وتيريز كانا يلتصقان ببعضهما ويسرعان الخطا نحو المكاتب المختلفة، ومحلات الغسيل والكي، ومخازن البضائع، والمحال التجارية؛ لينجزا المهمات التي لم يكن في الإمكان طلبها بسهولة بالتليفون، وغالبًا ما تكون عبارة عن مشتريات بسيطة، أو مجرد تقديم شكاوى عارضة، وسرعان ما لاحظت تيريز أن معونة كارل، كانت معونة لا يستهان بها بالفعل، وأنها كانت تسهل مهمتها في أحيان كثيرة، ففي صحبته لم تكن تضطر إلى الانتظار طويلًا، حتى يلتفت إليها البائعون المنهمكون في العمل، كما كان يحدث لها قبل ذلك؛ لأن كارل كان يتجه مباشرة نحو طاولة البيع ويدق فوقها بقبضته حتى يأتي إليه أي شخص، فيتوجه إليه بالطلبات، في إنجليزيته التي لم يتمكن منها بعد، والتي كانت تتسم لهذا بالحذاقة إلى حد ما، فكان يسهل تمييزها وسط مائة لهجة أخرى، كان يلوح عبر حواجز عالية من البشر، ويتقدم دون تردد نحو الأشخاص الذين قد ينسحبون في غطرسة إلى أركان المحال الواسعة مبتعدين عنه، فكان

يتعقبهم. ولم يكن يفعل هذا كله بدافع الغرور، ولا لعدم تقديره للمصاعب، بل لأنه كان يشعر بأنه في وضع مرموق يمنحه بعض الامتيازات، فلم يكن «الفندق الغربي» زبونًا يستهان به، وكانت تيريز فوق هذا، في أشد الحاجة إلى المعونة على الرغم من خبرتها بهذه الأعمال.

كانت تقول له غالبًا، في سعادة، عند عودتهما من مهمة ناجحة نجاحًا ملحوظًا: «يجب عليك دائمًا أن تأتي معي».

وكان كارل قد دخل حجرة تيريز، خلال فترة الشهر والنصف التي انقضت على وجوده في رمسيس، ثلاث مرات فقط، في زيارات طويلة، كانت تستغرق كل منهما بضع ساعات، وقد كانت حجرة تيريز أصغر بالطبع من حجرات المديرة، وكانت محتوياتها القليلة مكومة حول النافذة، لكن كارل كان قد استطاع أن يقدر مزايا العزلة، في حجرة هادئة خاصة، حق قدرها، بعد خبرته بعنبر النوم، ومع أنه لم يعلن ذلك، فقد لاحظت تيريز إلى أي حد كان يحب البقاء في داخل حجرتها. ولم تكن تكتم عنه شيئًا من أسرارها، ولم يكن من السهل عليها في الحقيقة أن تطلعه على شيء من أسرارها عند زيارته لها في الليلة الأولى. كانت طفلة غير شرعية، وكان والدها ملاحظ عمال بناء، قد أرسل في طلبها هي وأمها من بوميرانيا. وبدا وكأن كل واجب والدها قد انتهى عند هذا الحد، أو كما لو كان التقاؤه بالمرأة المنهمكة بالعمل، والطفلة العليلة في الميناء قد خيبا كل توقعاته، فقد رحل إلى كندا بعد فترة قصيرة من وصولهما إلى أمريكا دون أدنى تفسير لرحيله،

ولم تتلقيا خطابًا منه، ولا أمكنهما أن تتصلا به بصورة من الصور، ولم يكن ذلك يثير شيئًا من الدهشة، في الحقيقة؛ لأنهما كانتا قد ضاعتا، ولم يعد من السهل العثور على مقرهما وسط مساكن الحي الشرقي من نيويورك.

وفي إحدى المناسبات روت تيريز لكارل ـ الذي كان يقف إلى النافذة بجوارها، يتطلع إلى الشارع تحتهما ـ قصة موت أمها، وكيف كانتا تهرولان هي وأمها ذات ليلة شتوية ـ ولابد أنها كانت في الخامسة من عمرها عندئذ ـ خلال الشوارع، وكل منهما تحمل صرة في يدها، باحثتين عن مأوى تقضيان فيه ليلتهما، وكيف أمسكت أمها بيدها في البداية، فقد كانت عاصفة ثلجية قد هبت، ولم يكن من السهل التقدم في السير، حتى تخدرت يد تيريز، ثم تركتها أمها دون مبالاة بما قد يحدث لها، حتى لقد تشبثت الطفلة بذيل رداء أمها، وكانت تيريز تتعثر دائمًا، بل لقد كانت تسقط على الأرض، إلا أن أمها كانت تبدو وكأنها قد غابت عن الوعي، وتابعت سيرها دون أن تتوقف، وأية قسوة تلك التي تواجهها في نهاية الأمر، خلال شوارع نيويورك المستقيمة في أثناء تلك العواصف الثلجية! لم يكن لكارل عهد بالشتاء في نيويورك، فلو سرت في عكس اتجاه الريح، التي تظل تدوم، وتدوم، فلن يمكنك مطلقًا أن تفتح عينيك ولو للحظة، فالريح تسوط وجهك بالثلوج طوال الوقت، وتظل تسير، وتسير، إلا أنك لا تتمكن من أن تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام، كانت تلك الرياح تدفعك إلى اليأس، وتتميز الطفلة بالطبع عن المرأة، ففي إمكان الطفلة أن تنحني تحت الريح، وتنفذ من

خلالها، ولعلها تجد شيئًا من السرور في تلك المقاومة، ولهذا فلم تكن تيريز تدرك حقيقة حال أمها في تلك الليلة، وهي تعتقد الآن اعتقادًا راسخًا، بأنها لو كانت قد سلكت سلوكًا أكثر تعقلًا تجاه أمها ــ لقد كانت بالطبع مجرد طفلة صغيرة جدًّا ــ فلعل أمها لم تكن تلقى مثل تلك الميتة البائسة. لم تكن أمها قد عثرت على أي عمل خلال يومين، وكانت قد أنفقت آخر ما معها من نقود، وأمضيتا اليوم في العراء دون أن تتبلغا بشيء، ولم تكن الصرتان اللتان تحملانهما تحتويان على شيء سوى بضع نفايات لا نفع فيها، ولم تجرؤا على إلقائهما ربما تحت تأثير بعض الأوهام عن احتمال نفعهما.

وكان لدى أمها أمل العثور على عمل في الصباح التالي، في بناء جديد، إلا أن والدة تيريز كانت تخشى ــ كما حاولت أن تشير إلى ذلك طوال النهار ــ من أنها قد لا تتمكن من أن تستفيد من تلك الفرصة، لأنها كانت تحس بالإنهاك الشديد، ولأنها كانت قد تقيأت في ذلك الصباح نفسه كمية كبيرة من الدم في الشارع، أثارت فزع المارة، وكانت تأمل فقط في أن تبلغ مكانًا يتاح لها فيه شيء من الدفء والراحة، وكان من المستحيل في تلك الليلة بالذات أن تجدا ركنًا في أي مكان. وفي أحيان لم يكن البواب يسمح لهما بالدخول إلى مدخل أي منزل، حيث تحتميان إلى حد ما من شدة البرد، على الأقل، لكنهما لو استطاعتا أن تغافلا البواب، فقد كانتا تمرقان حينذاك خلال ردهات ثلجية، مرهقة، وتصعدان درجات لا حصر لها، وتدوران حول شرفات ضيقة، تطل على أفنية، وتطرقان الأبواب عبثًا، ولم تواتهما الجرأة لحظة واحدة في

التحدث إلى أي شخص، ثم كانتا في أحيانًا أخرى تلحان في التوسل إلى كل من تلتقيان به، وجلست أمها مرة أو مرتين، فاقدة التنفس فوق إحدى درجات السلالم المنعزلة الصامتة. وجذبت تيريز التي راحت تتمنع، إلى صدرها. وقبلتها في عنف مؤلم، على شفتيها، وعندما تحققت تيريز فيما بعد، من أن تلك القبلات، كانت هي آخر قبلات أمها لها دهشت جدًّا من غبائها البالغ، حتى أنها لم تتمكن من أن تدرك ذلك في حينه. على الرغم من أنها لم تكن في ذلك الوقت سوى مخلوقة صغيرة للغاية. وانفتحت بعض الأبواب التي مرا بها. لكي يخرج منها ضباب مكبوت، وفي البخار المشبع بالدخان الذي كان يملأ تلك الحجرات، كما لو كانت تحترق، لم يمكنهما أن تتحققا من وجود شيء، سوى مجرد شبح يلوح في الطرقة، لم يشجعهما على أن تتوقعا شيئًا من الضيافة في داخل المكان، لا بصمته البليد، ولا بغمغمته المقتضبة. وعندما تتأمل تيريز الماضي، تتذكر أن أمها كانت تبحث فقط في الساعات الأولى من تلك الليلة عن مأوى بالفعل؛ لأنها لم تتحدث بعد منتصف الليل إلى أحد مطلقًا، مع أنها كانت لا تزال تقف على قدميها. لم توجه حتى كلمة مقتضبة إلى أي مخلوق، حتى الفجر، ومع أن تلك المساكن لم تغلق أبوابها طوال الليل، وكانت خطوات الناس لا تكاد تنقطع إلا أنها لم تكن تقوى على مواجهتهم، ولم تكونا تسيران مسرعتين من مكان إلى مكان، إلا أنهما كانتا تتحركان بآخر ما في وسع قواهما الواهنة أن تسمحا به، بنوع من الزحف المتثاقل في حقيقة الأمر، ولم يسع تيريز أن تحدد إن كانا قد

طافا بنحو عشرين مسكنًا منذ منتصف الليل حتى الساعة الخامسة صباحًا، أم الثانية، أم الواحدة فقط بعد منتصف الليل، كانت ردهات تلك المساكن تتسع، وتتسع في خبث، ويبدو من الصعب أن يجد المرء طريقه عبر تلك المساحات الخاوية، وكم بدا لهما أنهما كانتا تزحفان المرة بعد المرة خلال الردهة نفسها التي لم تكن تتغير، وكأنهما لم تنتقلا من منزل إلى منزل آخر. ولا تكاد تذكر تيريز، سوى ذكرى غامضة، خروجهما من باب ذلك المنزل الذي طافا بردهاته بلا نهاية، فقط لمجرد أن تقفلا راجعتين، أو هكذا بدت لها نتيجة طوافهما، حتى بلغا الشارع، وغابا فيه ثانية. وكان ذلك بالطبع عذابًا لا معنى له بالنسبة لطفلة مثلها، فإن تسحبها أمها أحيانًا، وتتشبث هي في أحيان أخرى بذيل رداء أمها، دون كلمة تشجيع واحدة، كان يبدو لها أمرًا محيرًا، وفي حيرتها تلك، كان التفسير الوحيد الذي كان يسعها أن تتوصل إليه، هو أن أمها تريد أن تهرب منها، ولهذا فإن تيريز خوفًا على نفسها شددت قبضتها على ذيل رداء أمها بإحدى يديها، فلم تتركه، حتى عندما كانت أمها تمسك بيدها الأخرى.

وكانت تنخرط في البكاء من حين لآخر؛ لأنها لم تكن تريد أن تتركها أمها وحيدة وسط هؤلاء الناس، الذين كانت خطاهم تتردد فوق درجات السلالم أمامهما، أو الناس الذين كانوا يأتون خلفهما، أو هؤلاء الذين يختفون في منحنى السلم أسفلهما، أو هؤلاء الناس الذين يتشاجرون في الردهات، أمام أحد الأبواب، ويدفعون بعضهم بعضًا إلى داخله، والرجال السكارى كانوا يتجولون كذلك حول المكان، وهم

يرفعون عقيرتهم بالغناء في كآبة، وكانت أمها محظوظة وهي تنسل وتيريز في يدها من بين أذرعهم الممدودة التي كانت تكاد تسد الطريق. وفي مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل، عندما لا يلقي أحد انتباهًا بالغًا إلى أي شيء، وعندما يصبح تشديد كل امرئ على حقوقه أمرًا لا يستحق العناء، كان يمكنهما دون شك أن تجدا لنفسيهما مكان في أحد الفنادق الرخيصة الشائعة التي يديرها أصحابها، والتي كانا قد مرا بالعديد منها، إلا أن تيريز لم تكن تدرك ذلك، وكانت أمها أبعد ما تكون عن التفكير في الراحة، ووجدهما الصباح، مستندتين في فجر يوم شتوي صحو إلى جدار أحد المنازل، وربما كانتا قد استغرقتا في النوم لفترة قصيرة في مكانهما، وربما كانتا تحملقان حولهما بعيون مفتوحة، واتضح أن تيريز كانت قد فقدت صرتها، وراحت أمها تضربها عقابًا على إهمالها، إلا أن تيريز لم تسمع، ولم تحس بأية صفعة من تلك الصفعات التي تلقتها، ثم سارتا مرة أخرى في طريقهما في الشوارع التي كانت قد بدأت تستيقظ، وكانت أم تيريز تسير بجوار الحائط، وعبرتا إحدى القناطر، حيث ظلت كف أمها تمسح الصقيع من فوق الدرابزين، وتوجهتا، في النهاية ـ وقتها واجهت تيريز ذلك كأمر واقع، إلا أنها الآن لا يمكنها أن تفهمه ـ إلى نفس المبنى الذي كان يتعين على أمها أن تتوجه إليه في ذلك الصباح. ولم تخبرها أمها بما إذا كان عليها أن تنتظرها، أو أن عليها أن تمضي إلى حيث تشاء، واعتبرت تيريز ذلك أمرًا بالانتظار؛ لأن ذلك هو ما فضلت أن تفعله، وهكذا جلست فوق كومة من الطوب، وراحت تتطلع حولها بينما

كانت أمها تفك صرتها، وتأخذ منها قطعة زاهية من القماش، شدتها حول ثوبها الذي قضت فيه ليلتها. وكان الإرهاق قد نال من تيريز حتى أنها لم تستطع أن تعاون أمها. ودون أن تدلي أمها لملاحظ عمال البناء باسمها، كالعادة. ودون أن تستفسر من أحد عن أي شيء، شرعت تصعد السلم، كما لو كانت بالفعل تعلم العمل الذي يتعين عليها أن تقوم بأدائه. ودهشت تيريز لذلك؛ لأن حاملة المونة تعمل عادة على الأرض، تخلط الجير، وتحمل الطوب، وتقوم ببعض الأعمال المتواضعة الأخرى. ولهذا فقد ظنت تيريز أن أمها سوف تضطلع اليوم بأداء نوع مختلف من العمل يعود عليها بأجر أكبر، فابتسمت لها وهي تغالب نعاسها! لم يكن البناء قد ارتفع كثيرًا، كان قد بلغ الطابق الأول فوق الأرضي فحسب، ولهذا فقد كانت السقالة المرتفعة التي ترتفع إلى باقي الهيكل، لا تزال بدون تلك العوارض الخشبية التي تشدها بعضها إلى بعض، وكانت ترتفع عاليًا نحو السماء الزرقاء. وعندما بلغت أمها قمة الحائط، دارت بمهارة حول البنائين الذين راحوا في بلادة يضعون الطوبة فوق الطوبة. فلم يلقوا بالًا إليها لسبب غير مفهوم، وبأصابع رقيقة تحسست طريقها بحذر بطول حاجز خشبي كان يستعمل كدرابزين، وكانت تيريز مندهشة، وهي تغالب نومها أسفل البناء، لتلك المهارة، وتهيأ لها أن أمها كانت ترمقها في عطف، لكن أمها كانت قد بلغت الآن في أثناء سيرها كومة صغيرة من الطوب، كان الحاجز ينتهي خلفها. ويبدو أن الحائط كان ينتهي أيضًا بعدها إلا أنها لم تتوقف عند ذلك الحد، بل سارت في طريقها لا تلوي على شيء،

حتى تجاوزت كومة الطوب، ويبدو أن مهارتها قد زايلتها بعد ذلك لأنها أسقطت تلك الكوم من الطوب وسقطت خلفها إلى الأرض، وسيل من قوالب الطوب في أعقابها، ثم بعد لحظات قليلة، انفصلت كتلة كثيفة من الخشب من مكان ما، وتهاوت فوقها إلى الأرض، وكان آخر ما تذكره تيريز عن أمها هي رؤيتها لها وهي ممددة هنالك في ردائها الذي شدت فوقه تلك الخرقة، ذلك الرداء الذي كانت قد أتت به من بوميرانيا، وكانت ساقاها منفرجتان على اتساعهما في رقدتها، تغطيهما تقريبًا تلك الكتلة الخشبية الثقيلة التي كانت قد سقطت فوق الجزء الأعلى من جسمها، بينما هرع الناس مسرعين من كل صوب، وصاح رجل في غضب، من فوق قمة الحائط.

كان الوقت متأخرًا عندما فرغت تيريز من قصتها. وكانت قد روتها بفيض من التفاصيل، على غير عادتها، وخصوصًا في بعض أجزائها القليلة الأهمية، كما فعلت عند وصفها لأعمدة السقالة وكل منها ترتفع على حدة نحو السماء، وكانت تضطر إلى أن تتوقف من آن لآخر، بينما تترقرق الدموع في عينيها، كانت أدق تفاصيل أحداث ذلك الصباح لا تزال ماثلة في ذاكرتها في قوة بعد مرور أكثر من عشر سنوات، ولأن رؤيتها لوالدتها فوق حائط المنزل غير الكامل، كانت هي آخر ذكرى حية لها، فقد أرادت أن تستحضرها بغاية ما يمكنها من الوضوح أمام صديقها، وحاولت أن تعود إليها بعد أن فرغت من قصتها، لكن صوتها تهدج بعد ذلك، ودفنت وجهها بين راحتيها، ولم تتفوه بكلمة أخرى.

وكانت أمامهما ساعات مرحة كذلك في حجرة تيريز، فقد رأى كارل عند زيارته الأولى لها، كتابًا مدرسيًّا في المعاملات التجارية مُلقى بداخل الحجرة، فسألها أن تعيره إياه، واتفقا في الوقت نفسه أيضًا على أن يقوم كارل بحل التمرينات الواردة بالكتاب، ثم يحضرها إلى تيريز، التي كانت قد درستها بالفعل من خلال ما أملته عليها احتياجات عملها، لتقوم بتصحيحها، وكان كارل يستلقي في فراشه بعنبر النوم، ليالي بطولها، وقد وضع قطعتين من القطن في أذنيه، وراح يتقلب بين الحين والآخر متخذًا كل ما يمكن تصوره من الأوضاع التي قد توفر له الراحة في استلقائه فوق الفراش، ليقرأ في الكتاب، ويكتب حلول التمرينات في سرعة، في مفكرة صغيرة، بقلم حبر كانت المديرة قد أعطته له، كتشجيع على قيامه بعمله بانتظام، وقيامه كذلك بكتابة قائمة جرد طويلة منسقة كلفته بكتابتها، وقد استطاع أن يستفيد من أغلب المضايقات المذهلة التي كان يسببها له الصبية الآخرون، ذلك بأن راح يسألهم دائمًا عن تذليل بعض الصعوبات الصغيرة التي كانت تواجهه في استعمال اللغة الإنجليزية، حتى تعبوا من أسئلته وتركوه في سلام، وغالبًا ما كانت الدهشة تنتابه، وهو يرى أن الآخرين، قد قنعوا بحظهم الحاضر من الحياة، وأنهم لا يشعرون بأن وضعهم هذا يجب أن يكون وضعًا مؤقتًا، وأنهم كانوا لا يستطيعون كذلك أن يدركوا معنى الحاجة إلى اتخاذ قرار حاسم بشأن مستقبلهم، وعلى الرغم من أن كارل كان قدوة لهم، في هذا كله، إلا أنهم لم يقرأوا شيئًا مطلقًا فيما عدا بضع

نسخ قذرة، وبالية، من الروايات البوليسية، كانت تنتقل من فراش إلى فراش.

وفي لقائتهما كانت تيريز تقوم بتصحيح تمرينات كارل، ربما بشيء من العناء أيضًا، وكانت تقوم بينهما خلافات في الرأي، فكان كارل يستشهد بآراء أستاذه العظيم الذي كان كارل يدرس على يديه في نيويورك لتدعيم رأيه، إلا أن آراء السيد لم تلق من اهتمام تيريز أكثر مما كان يلقاه من اهتمامها اختراعات صبية المصاعد- الذين كان كارل يستعين بهم- في قواعد اللغة، ولهذا كانت تتناول القلم الحبر من يد كارل وتشطب الفقرات التي كانت مقتنعة بخطئها، لكن كارل كان في مثل تلك الحالات التي تحتمل الشك، لأنه لم يكن له أن يعرض الأمر على سلطة أعلى من تيريز، ويشطب لمجرد الاحتياط الخطوط التي كانت تخطها تيريز في مفكرته، على نقيض ما كتبه هو، وكانت المديرة تظهر أحيانًا، وتعطي قرارها في المشكلة لصالح تيريز، لكن ذلك لم يكن ليحسم الخلاف بما أن تيريز كانت سكرتيرتها، وكانت تيريز تصدر مع ذلك في الوقت نفسه عفوًا عامًّا، ذلك لأن الشاي كان قد حان موعد إعداده، كما يكون قد تم أيضًا الإرسال في طلب الكعك، ويلح كارل على أن يقص حكايات عن أوروبا، كانت المديرة تقاطعه كثيرًا في أثنائها، فتظل تستفسر، وتندهش، حتى لقد تحقق كارل من مدى التغيير الشامل الذي طرأ على أوروبا في وقت قصير نسبيًّا، ومدى التغيير الذي لعله أن يكون قد حدث منذ رحيله هو عن أوروبا، والتغيير الذي سوف يستمر دائمًا.

وربما كان كارل قد أمضى نحو شهر في رمسيس، عندما قال له رينيل ذات ليلة وهو يمر به، إن رجلًا يدعى ديلامارش قد استوقفه أمام الفندق، وسأله عن كارل، ولما لم يكن ثمة سبب يدعوه إلى الامتناع عن التصريح له بالحقيقة، فقد أجابه رينيل في صدق أن كارل يعمل صبي مصعد، وإن كانت لديه آمال في تحسين وضعه كثيرًا، إلى الأحسن، بسبب الاهتمام الذي تبديه المديرة نحوه، ولاحظ كارل الاهتمام الذي أبداه ديلامارش نحو رينيل؛ لأنه كان قد دعاه بالفعل إلى تناول الطعام في تلك الليلة.

فقال كارل: «لست أريد أن أعرف ديلامارش أكثر من ذلك، ومن الأفضل لك أن تحترس منه أنت أيضًا!».

قال رينيل، وهو يتمطى: «أنا؟»، ثم أسرع مبتعدًا.

كان رينيل أحسن الصبية مظهرًا، في الفندق، وكان يشاع بين الصبية الآخرين ـ مع أن أحدًا لم يعرف من الذي بدأ بسرد تلك القصة ـ أن سيدة كانت قد أقامت بالفندق منذ فترة من الوقت، كانت قد قبّلته في المصعد، وهذا هو فقط الشيء الذي اتضح أمره على الأقل حتى الآن، بين السيدة ورينيل، وكان الذين يعلمون بتلك الشائعة يجدون لذة كبرى في التطلع إلى تلك السيدة المتحررة وهي تمر بخطواتها الهادئة، الخفيفة، ونقابها الرقيق، وجسدها المحبوك في ردائها الدانتيل، ذلك أن مظهرها الخارجي لم يكن يشير أقل إشارة، إلى أن هذا التصرف من الممكن أن يصدر عنها.

وكانت تلك السيدة قد أقامت في الطابق الأول، الذي لم يكن يخدمه مصعد رينيل، إلا أن المرء لم يكن يسعه بالطبع أن يمنع النزلاء من دخول أي مصعد آخر، إذا كان مصعدهم مشغولًا في تلك الأثناء، وعلى هذا فمن حين لآخر كان يحدث أن تستعمل تلك السيدة مصعد كارل ورينيل، لكن فقط عندما يكون رينيل في نوبة عمله، وربما كان ذلك قد حدث مصادفة، إلا أن أحدًا لم يصدق ذلك، وعندما تحرك المصعد بهما، حدثت فتنة بين صبية المصاعد لم يسعهم أن يضبطوا فيها جماح أنفسهم، وكان من الضروري أن يتدخل رئيس السفرجية، وقد فعل، ذات مرة، وأخيرًا سواء كانت السيدة، أو الشائعة هي السبب، فقد بقيت الحقيقة الواقعة وهي أن رينيل كان قد تغير، فأصبح أكثر ثقة بنفسه، وترك تلميع المصعد كلية لكارل، الذي كان ينتظر فقط حتى تتاح له الفرصة المناسبة لسماع تفسير جذري لهذه النقطة، ولم يعد من الممكن رؤية رينيل في عنبر النوم، لم يحدث أن هجر أي صبي آخر مجتمع صبية المصاعد بهذه الصورة، لأنهم كانوا بصفة خاصة- فيما يختص بالعمل على الأقل- يتكاتفون تمامًا بعضهم مع بعض، وكانت لهم جمعية خاصة بهم كانت ترعاها إدارة الفندق.

ومضى كل هذا في ذهن كارل، في نفس الوقت، مختلطًا ببعض الأفكار التي تدور حول ديلامارش، إلا أنه مضى في عمله كالمعتاد، وعند منتصف الليل، كانت تنتظره مفاجأة صغيرة، فقد أحضرت له تيريز، التي كانت تدهشه دائمًا بهداياها الصغيرة، تفاحة كبيرة، وقالبًا من الشيكولاتة! تحدثا معًا للحظات، وهما منتبهان إلى رحلات

المصعد التي كانت تقطع حديثهما من حين لآخر، ثم تحدثا عن ديلامارش. وأدرك كارل أنه لابد أن يكون قد خضع لتأثير تيريز حقًّا، عندما انتهى كما انتهت من الحديث عنه إلى أنه رجل خطير، لأن هذا كان هو رأيها في ديلامارش. بعد أن سمعت ما ذكره لها كارل. وكان كارل يعتقد أنه كان مجرد إنسان عديم التدبير، فقد سمح لعزيمته أن تنهار أمام النحس الذي واجهه. ومن السهل عليه أن ينقذ نفسه من هذا الوضع، إلا أن تيريز عارضته في عنف، وأصرت، بعد أن ألقت عليه خطبة طويلة، على أن يعدها بألا يتحدث إلى ديلامارش مرة أخرى، وبدلًا من أن يعدها راح كارل يجادلها، طالبًا منها أن تذهب إلى فراشها، فقد جاوز الوقت منتصف الليل، وعندما رفضت هددها بأن يترك عمله، ويأخذها إلى حجرتها، وعندما أبدت استعدادها أخيرًا للذهاب، قال: «لماذا تزعجين نفسك إلى هذا الحد، دون داع يا تيريز؟ وعلى أية حال فإنني على استعداد لأن أعدك بألا أتحدث إلى ديلامارش. ما لم يصعب عليّ أن أتجنب ذلك، إن كان وعدي هذا يساعدك على أن تنامي مرتاحة البال».

ثم وصل حشد من النزلاء، وكان الصبي الذي يعمل بالمصعد المجاور قد دعي للقيام بمهمة أخرى، فأصبح على كارل أن يعمل بالمصعدين معًا وتذمر بعض النزلاء لتعطيلهم. وربت سيد كان يرافق إحدى السيدات، بالفعل على كتف كارل. بعصاه التي يتوكأ عليها. في رقة، يطلب منه الإسراع!، تنبيه لم يكن ثمة ما يدعو إليه بالمرة! ولم يكن يضير هؤلاء النزلاء مطلقًا، إذا وجدوا مصعدهم معطلًا، أن يتوجهوا

مباشرة إلى مصعد كارل، إلا أنهم بدلًا من ذلك، اندفعوا إلى المصعد الآخر، وتوقفوا أمامه، وقد أمسك أحدهم بمقبض الباب، وفي أحيان كانوا يدخلون المصعد مباشرة، وهو تصرف كان صبية المصاعد ممنوعون من السماح به لأحد، صراحة، طبقًا للتعليمات، ومهما كانت الظروف.

وهكذا كان على كارل أن يندفع من هذا المصعد إلى ذاك، حتى أُجهد غاية الإجهاد، دون أن يتبادر إلى ذهنه، أنه قد قام بالفعل بأكثر من واجبه، وطلب منه فوق هذا كله، في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، حمَّال عجوز كانت قد ربطته به صداقة وطيدة، أن يؤدي له مساعدة بسيطة، إلا أن كارل لم يتمكن من تلبية طلبه؛ لأن النزلاء كانوا يقفون أمام كلا المصعدين، وكان ذلك يتطلب منه بديهة سريعة لكي يقرر في الحال أي المجموعتين يبدأ بها أولًا، ولهذا ارتاح كارل عند عودة الصبي الآخر، وصاح في وجهه، موجهًا إليه بضع كلمات يلومه بها على غيابه طوال تلك الفترة، على الرغم من أنه، ربما لا يكون مسئولًا عن ذلك التأخير.

وجاءت فترة من الهدوء بعد الساعة الرابعة صباحًا، كان كارل في أشد الحاجة إليها، فاستند مُجهدًا إلى الدرابزين بجوار مصعده، وراح يقضم التفاحة متأنيًا، وفاحت منها رائحة قوية عندما قضمها، وراح يحدق أمامه إلى مدخل غارق في الضوء، تحيطه نوافذ المخازن المرتفعة، التي كانت تتدلى خلفها كميات هائلة من الموز كانت تسطع في خفوت وسط الظلام.

الفصل السادس

مرض روبنسون

ثم ربت شخص ما على كتفه، فدس كارل التفاحة مسرعًا في جيبه، وقد ظن أنه لابد بالطبع نزيل من نزلاء الفندق، وهرول إلى المصعد، دون أن ينظر إلى الرجل.

قال الرجل: «مساء الخير يا مستر روسمان، إنني روبنسون!».

فقال كارل وهو يهز رأسه: «ولكنك تبدو مختلفًا تمام الاختلاف!».

قال روبنسون، وهو يتأمل ملابسه، التي كانت تتألف من قطع مختلفة، قد تبدو كل منها، فاخرة للغاية في حد ذاتها، لكنها كانت غاية في التنافر بعضها مع بعض، حتى لقد بدت رثة بالفعل، وكان أول ما يستدعي الانتباه صديرية بيضاء، كانت تستعمل للمرة الأولى في وضوح، وكانت محلاة بأربعة جيوب صغيرة ذات حروف سوداء، حاول روبنسون أن يلفت إليها انتباه كارل بأن نفخ صدره: «نعم.. لقد تحسنت حالي».

فقال كارل، وهو يتذكر عندئذ بدلته البسيطة الجيدة، التي ربما كان يبدو بها على قدم المساواة مع رينيل، تلك البدلة التي باعها صديقاه اللئيمان: «لكن ملابسك هذه ملابس غالية».

فأجابه روبنسون قائلًا: «نعم، إنني أشتري لنفسي شيئًا تقريبًا كل يوم، ما رأيك في الصديرية؟».

قال كارل: «إنها جيدة جداًّ».

فقال روبنسون: «إلا أن هذه الجيوب، ليست جيوبًا حقيقية لقد صنعت فقط لتبدو كذلك»، وتناول يد كارل، وأدناها من جيوبه لكي يتفحصها بنفسه، إلا أن كارل تراجع من فوره، ذلك أن رائحة لا تطاق، هي رائحة البراندي، كانت تنبعث من فم روبنسون.

قال كارل، وهو يتراجع إلى الدرابزين: «لقد بدأت تشرب ثانية!».

فقال روبنسون: «لا، إنني لا أفرط في الشراب»، ثم أضاف قائلًا في لهجة أخرى، تناقض حالة انبساطه السابقة: «وأي شيء آخر يمكن أن يفعله المرء في هذه الدنيا؟!»، وقطعت حديثهما رحلة للمصعد، وما كاد كارل يعود ثانية إلى الطابق الأسفل، حتى تقدم نحوه عامل تليفون يطلب منه أن يبحث عن طبيب الفندق؛ لأن سيدة في الطابق السابع قد أُغْمى عليها، وخلال قيامه بهذه المهمة، تمنى كارل في نفسه أن يختفي روبنسون قبل عودته؛ لأنه لم يكن يحب أن يراه أحد معه، وعندما تذكر تحذير تيريز، لم يرغب في أن يتصل به ديلامارش أيضًا، إلا أن روبنسون كان في انتظاره، بجمود الرجل الذي أفرط في الشراب، ومر في تلك اللحظة أحد كبار موظفي الفندق، وكان يرتدي الفراك، والقبعة العالية، إلا أنه لم يلتفت لحسن الحظ، على ما يبدو إلى ذلك الدخيل.

قال روبنسون، وهو يغمز لكارل في إغراء: «ألا ترغب في زيارتنا يا روسمان؟ إننا نحيا حياة راقية الآن».

فتساءل كارل قائلًا: «هل هذه الدعوة موجهة إليّ منك، أو من ديلامارش؟!».

قال روبنسون: «مني ومن ديلامارش، من كلينا معًا».

ـ إذن دعني أقل لك، ويمكنك أن تنقل هذا إلى ديلامارش، إن ما بيننا إن لم يكن قد اتضح لك هذا حتى الآن، قد انتهى.

ولقد سببتما لي ضررًا لم يسببه لي غيركما من قبل، فهل عزمتما على ألا تتركاني في سلام، حتى الآن؟ قال روبنسون مشمئزًا، وقد ترقرقت في عينيه دموع سريعة: «ولكننا صديقاك، وقد طلب مني ديلامارش أن أخبرك بأنه يترك لك حرية القبول أو الرفض، إننا نعيش الآن مع برونيلدا، وهي مغنية فاتنة»، وعند ذكر اسمها، شرع في الغناء بصوت راعش مرتفع، إلا أن كارل أسكته في الحال، هامسًا: «أغلق فمك على الفور، ألا تدري أين أنت؟!».

فقال روبنسون فزعًا غاية الفزع لغنائه بذلك الصوت المرتفع:

ـ روسمان، إنني صديقك، إنني صديقك بالفعل، فقل لي ما تشاء، ولكنك تشغل الآن تلك الوظيفة الممتازة هنا، فهل يمكنك أن تقرضني شيئًا من النقود؟!.

قال كارل: «سوف تشرب بها فقط، ولماذا؟، إنني أرى زجاجة براندي في جيبك، ولابد أنك كنت تشرب منها عندما ذهبت أنا، فقد كنت في تمام وعيك قبلها!».

فقال روبنسون: «إنني أشرب فقط حتى يمنحني الشراب شيئًا من العزم، عندما أكون مكلفًا بمشوار خارج البيت».

فقال كارل: «حسنًا، لن أهتم بأمرك أكثر من هذا».

فقال روبنسون وهو يفتح عينيه على اتساعهما: «لكن ماذا عن النقود؟!».

قال كارل متسائلًا، وهو يضع يده في جيب صديريته، لأنه كان قد قرر أن يضحي بما جمعه من البقشيش في تلك الليلة: «أظن أن ديلامارش قد كلفك بأن تعود إليه بالنقود؟ حسنًا، سأعطيك شيئًا منها، لكن فقط بشرط أن تنصرف في الحال، وألا تعود ثانية إلى هنا، فلو أردت أن تتصل بي، فيمكنك أن ترسل لي خطابًا، «كارل روسمان، عامل مصعد، الفندق الغربي»، وسيصلني حتمًا، إلا أنني أخبرك مرة أخرى، بأنه لا يجب عليك أن تأتي مطلقًا إلى هنا للبحث عني، فهذا مكان عملي، ولا وقت لديّ هنا للزوار، حسنًا، هل تقبل النقود بتلك الشروط؟!».

وأطرق روبنسون فقط، ردًّا على ذلك التساؤل الذي وجهه إليه كارل، وهو يتنفس في جهد، فلم يفهم كارل معنى إطراقته تلك، فعاد يسأله: «نعم، أم لا؟!».

وعندئذ أومأ روبنسون إليه، طالبًا منه أن يقترب، وهمس إليه وهو يتلوى بصورة تدل على حقيقة حالته: «روسمان، إنني أشعر بوطأة المرض الشديد».

فصاح كارل: «يا للشيطان!»، وسحبه بكلتا يديه إلى درابزين السلم، واندفع سيل من القيء من فم روبنسون إلى الأرض، وفي اللحظات التي كان يتمالك فيها نفسه، كان يمد يده باحثًا عن كارل في ضعف، وتخبط.

وكان يقول عندئذ: «إنك فتى طيب القلب!، أوه، لقد توقف الآن!»، ولم يكن يقصد بهذا مرضه، رغم ذلك، أو يقول: «الخنازير، أي نوع من الخمر هذا الذي صبوه في جوفي؟!»، ولم يكن كارل يطيل البقاء إلى جانبه لحيرته، واشمئزازه أيضًا، فراح يذرع المكان ذهابًا وجيئة. من الممكن ألا يرى أحد روبنسون لو بقى هنا في ذلك الركن بجور المصعد. لكن ماذا يحدث لو تصادف ورآه أحدهم، واحد من هؤلاء النزلاء الأثرياء الصخّابين، الذين يتأهبون دائمًا للشكوى كلما وقعت عيونهم على أي موظف من موظفي الفندق، فيثور هذا، ناقمًا في ثورته على كل شيء، وماذا لو رآه أحد مفتشي الفنادق، الذين يتغيرون دائمًا، ولا يكاد يتعرف عليهم سوى أعضاء هيئة إدارة الفندق، حتى إن المرء قد اعتاد أن يشتبه في أي شخص يتلفت حوله، ويحسبه مفتشًا من مفتشي الفنادق، مع أنه قد لا يكون سوى مجرد شخص مصاب بقصر النظر؟ وقد يتصادف أن يمر أحد السفرجية الذين في الطابق الأرضي، في طريقه إلى المخازن ليحضر شيئًا ـ ذلك أن البوفيه يعمل طوال الليل ـ فتصدمه رؤية ذلك الخليط المقزز فوق أرضية المدخل، فيتصل بكارل تليفونيًا ليسأله: «بحق الإله» عما حدث! فهل يسع كارل أن ينكر معرفته بروبنسون في تلك الحالة؟ ولو استطاع أن ينكر معرفته به، فهل

يمكن ألا يكون روبنسون من الغباء والانهيار، بحيث لا يتعلق بخناق كارل بدلًا من أن يعتذر؟ وهل من الممكن ألا ينتهي ذلك بفصل كارل من عمله في الحال؟ بما أنه كعامل مصعد، ليس سوى شخص بسيط لا يؤبه به؛ لأنه أقل هيئة من موظفي الفندق الضخمة كلها شأنًا، وأسهلهم جميعًا استبدالًا بغيره، فهل يحتمل وضع كوضعه، أن يسمح لأحد أصدقائه بأن يلوث الفندق؟ بالإضافة إلى أن هذا قد ينتج عنه أيضًا هرب الزبائن؟ فهل يمكن التسامح مع صبي مصعد له مثل هذا الصديق؟ ويسمح له فوق ذلك بزيارته بالفعل في وقت عمله؟ ألا يبدو صبي مصعد على هذه الصورة، سكيرًا هو نفسه، وربما أسوأ من ذلك؟ وقد لا يبدو أي افتراض آخر معقولًا، كأن يظنوا أنه يتخم أصدقاءه بطعام الفندق حتى لا يتمكنوا من أن يمنعوا أنفسهم من التقيؤ، كما فعل روبنسون في كل أنحاء الفندق البالغ النظافة؟ وكيف يمكن أن يحصر صبي كهذا نفسه في حدود سرقة الطعام والشراب، طالما أن فرص السرقة تتوافر له بالفعل بغير حد، نظرًا لإهمال النزلاء البالغ، فالدواليب تظل مفتوحة في كل مكان، والأشياء الثمينة تتناثر فوق المناضد، وعلب المجوهرات تبقى مفتوحة، والمفاتيح تلقى حيثما اتفق؟.

وعند ذلك أحس كارل على البعد بخطوات عدد من النزلاء يصعدون درجات مشرب البيرة في القبو، حيث انتهت لحظتها حفلة من حفلات المنوعات، فتوقف بجوار مصعده، ولم يجرؤ على أن يتطلع نحو روبنسون خوفًا مما قد يراه.

وقد ارتاح كارل قليلًا، عندما لم يسمع صوتًا، ولا حتى نأمة من الناحية التي كان يقبع فيها روبنسون، فخف إلى خدمة النزلاء، وراح يصعد، ويهبط في مصعده، إلا أنه لم يتمكن من أن يتخلص من شروده، وكان يتهيأ، عندما كان يهبط بمصعده إلى الطابق الأرضي، في كل مرة، لمواجهة كارثة مفاجئة.

واتسع لديه الوقت في النهاية، للعناية بروبنسون الذي كان قد خرّ على ركبتيه في وضاعة، في ذلك الركن، وقد أكب بوجهه فوق ركبتيه، وكان قد دفع قبعته المستديرة الجامدة إلى مؤخرة رأسه.

قال له كارل في لين، لكن بشيء من الحزم: «يجب أن تذهب الآن بالفعل، وها هي النقود، فلو أسرعت، فيمكنني أن أجد بعضًا من الوقت لكي أدلك على أقصر طريق للخروج من هنا!».

فقال روبنسون وهو يمسح جبهته بمنديل صغير: «إنني لا أقوى على الحركة مطلقًا، وسوف أقضي نحبي هنا، فلا يمكنك أن تتصور مدى ما أشعر به من المرض، لقد صحبني ديلامارش إلى جميع أوكار الشراب الفاخرة التي يرتادها، إلا أنني لا أكاد أطيق ذلك الشراب الذي يقدمونه هنالك، ولقد قلت له ذلك مرارًا!».

قال كارل: «حسنًا، لا يمكنك ببساطة أن تبقى هنا، تذكر أين أنت، ولو اكتشف أحد وجودك هنا، فسوف تواجهني المتاعب، وسوف أفقد عملي، فهل تريد لي ذلك؟!».

قال روبنسون: «لا أقوى على النهوض فوق قدميّ، وسوف أزحف إلى هذا المكان على أية حال!»، وأشار بيده إلى المكان الخالي بين درابزين السلم، وبئر المصعد:

«سوف أبقى هنالك بقدر ما يمكنني أن أبقى في حالتي هذه، يمكنني أن أحتمل البقاء في هذا المكان، إلا أنني لا أقوى على النهوض، ولقد حاولت أن أنهض عندما صعدت بنزلائك».

فقال كارل وهو يجذب ساقيّ روبنسون قليلًا، لأن روبنسون كان يبدو معرضًا لخطر الاستغراق في النوم العميق في أية لحظة: «إذن فسوف أبحث عن تاكسي ليقلك إلى المستشفى!»، فشرع روبنسون في البكاء، عندما سمع كلمة «المستشفى» التي بدت وكأنها قد أثارت في نفسه مخاوف رهيبة، ورفع ذراعيه نحو كارل، وكأنه يسترحمه.

فقال كارل، وهو يضرب يدي روبنسون الممدودتين نحوه: «اهدأ!»، وأسرع نحو الصبي الذي كان قد قام بعمله في تلك الليلة، ورجاه أن يحل محله لفترة قصيرة بدوره، وعاد مسرعًا إلى روبنسون الذي كان لا يزال ينشج بالبكاء، ورفعه بعنف على قدميه، وهمس في أذنه قائلًا: «روبنسون، لو أردتني أن أساعدك، فيجب عليك أن تتماسك، وتحاول أن تسير بمفردك في توازن، لمسافة قصيرة، سوف أصحبك إلى فراشي، حيث يمكنك أن تبقى إلى أن تشعر بالتحسن، ولسوف تدهش للسرعة التي سوف تشفى بها، لكن عليك أن تتعقل الآن بالفعل، لأن الناس يتجولون في الممرات، كما أن فراشي يوجد في عنبر كبير للنوم، فلو

أثرت انتباه هؤلاء الناس، فلن أتمكن عندئذ من أن أفعل لك شيئًا آخر، كما أنني لا يمكنني أن أحملك فوق كتفي، ولو بدا عليك أنك تشرف على الموت».

قال روبنسون: «سأفعل كل ما تطلبه مني، إلا أنك لن تتمكن من أن تسندني وحدك، فهلا استدعيت رينيل أيضًا ليعاونك؟».

قال كارل: «رينيل غير موجود».

فقال روبنسون: «نعم، بالطبع، إن رينيل الآن مع ديلامارش وقد أرسلني كلاهما إليك، لقد اختلط عليّ الأمر تمامًا!». وراح كارل يدفعه في أثناء انشغال روبنسون بهذا الحديث، وغيره من أحاديثه غير المفهومة التي كان يحدث بها نفسه، إلى الأمام، وتمكن من أن يبلغ به أحد الأركان في سلام، ومن ذلك الركن يبدأ ممر خافت الإضاءة، يؤدي إلى عنبر نوم صبية المصاعد، وهرع أحد الصبية مسرعًا نحوهما، وتجاوزهما بأقصى سرعته لحظتها، وكان كارل وروبنسون قد اشتبكا في بضع مشاجرات بسيطة حتى الآن، وكان الوقت عندئذ بين الرابعة والخامسة صباحًا هو أشد الأوقات هدوءًا، وأدرك كارل أنه إن لم يتخلص من روبنسون الآن، فلن يكون أمامه مطلقًا أدنى أمل في التخلص منه في الصباح الباكر، بعد أن تبدأ نوبة عمل النهار.

وفي أقصى نهاية عنبر النوم، كانت معركة هائلة، أو تسلية من نوع ما، قد قامت على قدم وساق، وكان يمكن سماع التصفيق، ودقات الأقدام المتهيجة، وصيحات التشجيع، وفي الجانب الآخر من العنبر، ناحية

البـاب، كـان عـدد قليـل جـداًّ من الصـبية المسـتغرقين في النـوم في أسرتهم، وكان أغلب الصبية الباقين يستلقون فـوق ظهـورهم، يحـدقون في السـقف، بينمـا كـان هنـا وهنـاك، صـبي يرتـدي ملابسـه، أو صـبي يخلعهـا، حيثمـا اتفـق، أو يقفـز أحـد الصـبية المسـتيقظين من فراشـه ليتطلع إلى ما كان يجري في الجـانب الآخـر من العنـبر.. وهكـذا تمكن كارل من أن يقود روبنسون الذي كـان قـد تعـود الآن على السـير، حـتى بلغا فراش رينيل دون أن يلفتا إليهمـا الأنظـار، فقـد كـان الفـراش قريبًـا جداًّ من الباب، وكان خاليًا لحسن الحظ، أمـا فـراش كـارل، كمـا تبينـه كارل من على البعد، فقد كان يشغله صبي غريب لا يعرفه، قد استغرق في النوم في هدوء، وما إن أحس روبنسـون بـالفراش تحتـه حـتى تـأهب للنوم في الحال، وتدلت إحدى ساقيه خارج الفراش.

وسحب كارل البطاطين حتى غطى بها وجـه روبنسـون تمامًـا، وظن أنـه ليس بحاجة إلى أن يخشى شيئًا الآن؛ لأن الرجل لم يكن ليسـتيقظ قبـل السادسـة، على الأقـل، وسـيكون هـو بنفسـه هنـا وقتهـا، وربمـا أمكنـه بمساعدة رينيل أن يجدا وسيلة من الوسائل لتهريبه إلى خارج الفنـدق.. لم تكن السلطة العليا في الفندق تقوم بأي تفتيش على عنبر النوم إلا في حالات نادرة، وكان صبية المصاعد قد نجحوا منـذ سـنوات عديـدة في إلغاء التفتيش النظامي الذي كان يحدث قبلها، وهكذا فلم يكن ثمـة مـا يدعو إلى الخوف من هذه الناحية.

وعندما عاد كارل إلى مصعده ثانية، تـبين أن مصـعده، والمصـعد الـذي يجاوره كانا قد اختفيا في أعلى الفندق، فـانتظر في رجفـة حـتى يتضـح

الأمر، ووصل مصعده إلى الطابق الأرضي أولًا، وخرج منه الصبي الذي كان قد مرق بجانبه في الممر منذ فترة قصيرة.

قال له متسائلًا: «أنت، أين كنت يا روسمان؟ لماذا تركت مصعدك؟ ولماذا لم تبلغ عن غيابك؟!».

قال كارل وهو يشير إلى الصبي الذي يعمل بالمصعد المجاور، والذي كان قد وصل لتوه: «لقد طلبت منه أن يعمل بمصعدي للحظات، ولقد فعلت ذلك بدلًا منه لمدة ساعتين كاملتين، عندما كانت حركة النزلاء على أشدها!» فقال الصبي المقصود بهذا الكلام: «كل هذا لا بأس به، إلا أنه خطأ، ألا تعلم أنه يجب عليك أن تبلغ عن غيابك عن مكان عملك مهما قصر، إلى مكتب رئيس السفرجية، لقد وضع التليفون هناك من أجل ذلك، ولقد كان يسرني أن أقوم بعملك، لكنك تعلم أنت نفسك أن الأمر لم يكن بهذه السهولة، فقد كان هنا جمع من النزلاء الجدد، وصلوا بقطار الرابعة والنصف السريع، وكانوا يقفون أمام كلا المصعدين، ولم أستطع أن أستعمل مصعدك أولًا وأترك من يقفون أمام مصعدي في الانتظار، هل كان في مقدوري أن أفعل ذلك؟ وهكذا فقد صعدت بمصعدي أولًا!».

قال كارل متوترًا، بينما لجأ الصبيان الآخران إلى الصمت: «حسنًا!».

فقال الصبي الذي يعمل بالمصعد المجاور: «حسنًا، وقد كانت تلك اللحظة بالذات هي اللحظة التي قدم فيها رئيس السفرجية، ورأى الناس ينتظرون أمام مصعدك، ولم يجدك، فاستشاط غضبًا، وسألني عن

المكان الذي ذهبت أنت إليه، ولما لم أكن موجودًا وقت ذهابك، فلم تكن لدي بالطبع أية فكرة عن مكانك، لأنك لم تخبرني حتى عن المكان الذي توجهت إليه، وهكذا فقد اتصل تليفونيًا بعنبر النوم مباشرة، وطلب صبيًّا آخر ليحل محلك في الحال».

وتساءل الصبي الآخر قائلًا: «لقد التقيت بك في الطرقة، أليس كذلك؟!».

وأطرق كارل..

وأكد له الصبي الذي يعمل بالمصعد المجاور: «ولقد قلت له بالطبع في الحال أنك قد طلبت مني أن أحل محلك، لكن هل يستمع هو إلى أي اعتذارات؟ لا يبدو أنك تعرفه، ولهذا علينا أن نخبرك بأن تتوجه إلى مكتبه في الحال، ولا يجب عليك ألا تنتظر أكثر من ذلك، اذهب إلى حجرته، فلعله يعفو عنك في النهاية، فإنك لم تترك مصعدك سوى دقيقتين بالفعل، ويجب عليك أن تصر على أنك قد طلبت مني أن أحل محلك، ومن الأفضل ألا تذكر أنك قد حللت محلي بالمثل قبلها، هذه هي نصيحتي لك، فلا شيء يمكن أن يحدث لي، لأنني كنت قد استأذنت في الغياب، إلا أنه لا داعي لذكر ذلك، وخلطه بهذا الموضوع، الذي لا علاقة له به».

قال كارل: «إنها أول مرة أترك فيها مصعدي!».

فأجابه الصبي الآخر، قائلًا، وهو يهرول إلى مصعده، فقد كان بعض النزلاء قد توجهوا نحوه: «إن الأمر يحدث دائمًا على هذه الصورة، إلا

أن أحدًا لا يصدق ذلك!».

وقال الصبي الذي حل محل كارل في أثناء غيابه، وهو يشعر بالأسف الواضح، من أجل كارل، وكان صبيًّا في حوالي الأربعة عشرة من عمره: «لقد فصلوا صبيانًا من هذا العمل بالفعل، عدد كبير منهم قد فصل في ظروف كهذه، إلا أن المتبع عادة هو أن يحولوك إلى عمل آخر.. وعلى قدر علمي فقد حدث مرة واحدة فقط أن قاموا بطرد صبي ارتكب مثل هذا الخطأ الذي ارتكبته، فيجب عليك أن تجد عذرًا مقبولًا، لكن لا تحاول أن تقول له إنك شعرت فجأة بالمرض، فسوف يدفعه ذلك إلى الضحك فقط، ومن الأفضل أن تقول أن نزيلًا من النزلاء قد أرسلك في طلب عاجل إلى نزيل آخر، وإنك لا تذكر النزيل الأول، ولم تستطع كذلك أن تعثر على الآخر».

قال كارل: «حسنًا، لن يبلغ الأمر هذا الحد من السوء!» لم يمكنه أن يعتقد بعد كل ما سمعه أن الأمر سينتهي بسلام، وحتى لو تم الصفح عن إهماله، فإن روبنسون لا يزال يستلقي هناك في عنبر النوم، كغلطة حيّة، ومن المحتمل جداًّ ألا يقنع رئيس السفرجية المحب للانتقام بالتقصي السطحي للأمر، ولابد له أن يكتشف وجود روبنسون في نهاية الأمر، ولم يكن هناك حقًّا حظر صريح يمنع استقبال الغرباء في عنبر النوم، إلا أن هذا الحظر لم يوجد ببساطة، لأنه لم يوجد ما يدعو لذكر شيء بعيد الاحتمال من هذا القبيل.

وعندما دخل كارل المكتب، كان رئيس السفرجية يحتسي قهوة الصباح، فكان يرتشف رشفة من حين لآخر، وفي نفس الوقت يتفحص قائمة، يبدو أن رئيس البوابين كان قد أحضرها إليه، فقد كان بداخل الحجرة هو أيضًا، وهو شخص طويل، أكرش، كان رداؤه الفاخر المفرط الزينة- حتى الأكمام والأكتاف كانت مثقلة بالسلاسل الذهبية والأشرطة- يجعله يبدو أعرض منكبًا مما هو في الحقيقة، وكان شاربه الأسود اللامع مرفوع إلى قمتين مدببتين على الطريقة الهنغارية، ولا يتحرك لأعنف حركة مفاجئة من رأسه، وكانت ملابسه الثقيلة المنشأة تجعله هي أيضًا يبدو بتلك الهيئة، ولم يكن ذلك الرجل يستطيع الحركة إلا بصعوبة، وكان يقف دائمًا وساقاه متباعدتان جدًّا، حتى يتمكن من توزيع ثقل جسمه فوقهما في شيء من التوازن.

ودخل كارل في جرأة وسرعة كما اعتاد أن يفعل في الفندق، ذلك أن التباطؤ، والوقت الضائع الذي ينقضي في المجاملات بين الأشخاص الفارغين، كان يعد تكاسلًا يتصف به صبية المصاعد، وبالإضافة إلى ذلك، فإنه لا يجب أن يبدو كما لو كان يحس بالذنب في لحظة دخوله، وتطلع رئيس السفرجية في سرعة إلى أعلى، عندما فتح الباب، ثم عاد فورًا إلى احتساء قهوته، وإلى قراءة القائمة دون أن يعير كارل أدنى التفات.. إلا أن رئيس البوابين الذي كان يتلقى بعض التعليمات السرية على ما يبدو، أو كان يكلف بإبلاغها، قد بدا عليه الضيق لوجود كارل، فحملق فيه في غضب، وكان يعاود تلك النظرة الساخطة كل بضع دقائق نحو كارل، برأسه المحني في تصلب، وعندما كانت عيناه

تلتقيان بعيني كارل، ويبدو أنه كان يحرص على ذلك، كان يديرهما في الحال نحو رئيس السفرجية ثانية.. إلا أن كارل ظن أنه لم يكن يريده أن يدخل الحجرة لوجوده هو فيها، ولأن رئيس السفرجية لم يأذن له بالدخول.. كان رئيس السفرجية لا يزال يقرأ القائمة، ويتناول قطعة من الكعك في أثناء قراءته، كان ينفض عنها السكر بين الحين والآخر دون أن يرفع عينيه عن القائمة، وقد وقعت منه في مرة ورقة من أوراق القائمة على الأرض، فلم يحاول رئيس البوابين أن يلتقطها، لأنه كان يعلم إنه لا يستطيع أن ينحني، ولأنه لم يكد يرى ما يدعوه إلى ذلك، لأن كارل كان قد انقض على الورقة، وناولها لرئيس السفرجية، الذي تسلمها في حركة عادية لا مبالية من يده، وكأنها كانت قد ارتفعت تلقائيًا من مكانها على الأرض حتى بلغت يده، ولم تنفع كارل تلك الخدمة البسيطة التي تطوع بها في شيء؛ لأن رئيس البوابين قد مضى في توجيه نظراته الغاضبة نحو كارل.

وكان كارل يشعر الآن برباطة الجأش على الرغم من ذلك.. فلأن خطأه قد بدا غير ذي أهمية بالنسبة لرئيس السفرجية إلى هذا الحد، رأى كارل أنه قد يمكنه أن يعتبر هذا دليلًا طيبًا، بالإضافة إلى أن خطأ كهذا هو شيء تافه، كما أن عامل المصعد كذلك يعد شخصًا قليل الأهمية، وليس له على هذا أن يتمتع بشيء من الحرية، إلا أن قلة شأنه بالذات هي النقطة التي يجب بناء عليها ألا تقوم الدنيا لغلطة بسيطة يرتكبها، وفوق كل هذا، فلقد بدأ رئيس السفرجية نفسه حياته العملية عامل مصعد ــ وأن تقدمه في حياته العملية هو في الحقيقة فخر الجيل

الحاضر من صبية المصاعد- ولقد كان هو أول من نظم جمعية عمال المصاعد- ولا شك إنه هو أيضًا كان يترك مكان عمله من حين لآخر، دون إذن، على الرغم من أحدًا لا يمكنه الآن أن يرغمه على الاعتراف، ومع إنه لا يجب نسيان أن بداية رئيس السفرجية- كصبي مصعد- قد جعلته أشد قسوة في حفظ النظام بين صبية المصاعد- ونزعت من قلبه الرحمة بهم، إلا أن كارل كان يداعب شيئًا من الأمل في خلال تلك الدقائق التي كانت تمر في هدوء.

وكانت الساعة الآن حسب الساعة التي في مكتب رئيس السفرجية، قد تعدت الخامسة والربع، وربما عاد رينيل في أي لحظة- ولعله أن يكون قد عاد بالفعل- لأنه لابد أن يلاحظ أن روبنسون لم يعد حتى الآن، وعلى أية حال فلا يمكن أن يكون ديلامارش وروبنسون في مكان بعيد جدًّا عن الفندق الغربي، وهذا ما خطر ببال كارل، وإلا ما كان لروبنسون في حالته المنهارة، أن يصل إلى الفندق والآن، لو وجد رينيل أن روبنسون ينام في فراشه، وهذا ما قد يحدث، فسوف يكون كل شيء عندئذ على ما يرام، ذلك أن شخصًا عمليًا كرينيل- وخاصة فيما يتعلق بالأمور القريبة من اهتماماته- سوف يجد طريقة أو أخرى لإخراج روبنسون من الفندق، وسوف يسهل عليه ذلك؛ لأن روبنسون لابد أن يكون الآن قد شُفي، وربما كان ديلامارش في انتظاره أمام الفندق لكي يتولى أمره، وما إن يتم التخلص من روبنسون حتى يتسنى لكارل أن يواجه رئيس السفرجية ببال هادئ أكثر، وربما أطلق سراحه عندئذ، بعد شيء من التعنيف الذي سيوجهه إليه رئيس السفرجية،

والذي سيكون ـ بلا شك ـ تعنيفًا قاسيًا، ثم سيتشاور مع تيريز إن كان عليه أن يذكر للمديرة الحقيقة كاملة ـ فهو لم يكن يرى غبارًا على دوره في هذا الأمر ـ ولو أمكن أن يتم هذا، فسوف يتم إنهاء الموضوع كله في النهاية دون أن يكون قد حدث له أدنى ضرر.

وكان كارل لحظتها يطمئن نفسه بهذه الأفكار، وراح يحصي في ارتياح المنح التي تلقاها في تلك الليلة، فقد كان يحس بأن قطع العملة كانت في جيبه الليلة أثقل من المعتاد. عندما وضع رئيس السفرجية، القائمة التي كان يقرؤها أمامه على المنضدة، قائلًا: «انتظر لحظة أخرى يا فيودور، هل يمكنك أن تنتظر؟!»، ناهضًا على قدميه بقفزة واحدة، وصرخ في كارل بأعلى صوته، حتى أن الصبي قد توقف فقط محملقًا، وقد جمده الرعب، في فتحة فمه المظلمة.

ـ لقد تركت عملك بدون إذن، فهل تدري ما معنى هذا؟ إن معناه، الفصل ولن أستمع إلى أية اعتذارات، عليك أن تحتفظ باعتذاراتك الكاذبة لنفسك، وتكفيني حقيقة أنك لم تكن في مكان عملك، فلو تهاونت معك هذه المرة، وأطلقت سراحك، فإن كل صبيان المصاعد الأربعين، سوف ينطلقون على هواهم في خلال أوقات العمل، ويتركونني وحدي لكي أحمل ضيوف الفندق الخمسة آلاف، فوق كتفي، وأصعد بهم درجات السلم!.

لم يقل كارل شيئًا، واقترب رئيس البوابين، وجذب جاكتة كارل من الخلف، كانت متكرشة إلى حد ما، قاصداً بلا شك أن يلفت نظر رئيس

السفرجية إلى إهمال كارل في العناية بزيه.

فتساءل رئيس السفرجية قائلًا في خبث: «ربما كان المرض قد دهمك فجأة؟!».

فألقى عليه كارل نظرة فاحصة، وأجابه قائلًا: «لا!» فصاح رئيس السفرجية في صوت أكثر ارتفاعًا: «وهكذا فأنت لم تكن مريضًا أيضًا، لابد إذن في جعبتك كذبة جديدة رائعة فبماذا ستعتذر؟ هيا انطق!».

ـ لم أكن أعلم أن علي أن أتصل تليفونيًا، لكي أحصل على إذن بترك مكان عملي! قال رئيس السفرجية: «هذا بالفعل رد لا يكلف شيئًا!»، وقبض على كارل من ياقته، ودفعه عبر الحجرة، حتى واجه كلاهما لوحة التعليمات الخاصة بالمصاعد، التي كانت مثبتة فوق الحائط، وجاء رئيس البوابين في أعقابهما.

قال رئيس السفرجية: «ها هي التعليمات، اقرأها!» وأشار إلى إحدى الفقرات، وظن كارل أن عليه أن يقرأها بينه وبين نفسه، إلا أن رئيس السفرجية صاح فيه قائلًا: «ارفع صوتك!».

وبدلًا من أن يقرأ كارل الفقرة في صوت مرتفع، قال لرئيس السفرجية آملًا أن يهدئه: «إنني أعرف كل تلك الفقرات، فقد حصلت على نسخة من التعليمات، وقرأتها في عناية، وهي تعليمات لا يمكن للمرء أن ينسى شيئًا من تفاصيلها، ولقد عملت هنا لمدة شهرين حتى الآن، ولم أترك مكاني مرة واحدة».

فقال رئيس السفرجية: «حسنًا، سوف تتركه الآن!»، وعاد إلى المنضدة، وتناول القائمة مرة أخرى، كما لو كان ليواصل قراءتها، لكنه خبط قبضته فوقها ثانية فوق المنضدة، وكأن شيئًا ما قد ساءه عندما تناولها، وتصاعد الدم فوق جبينه، وخديه، وراح يذرع الحجرة بخطواته ذهابًا وجيئة.

ـ كل هذا الازعاج بسبب صبي أحمق سخيف! كل هذا التعطيل بسبب نوبة عمل الليلة! صاح بهذه الكلمات عديدًا من المرات، وقد ملأه العجب.

ـ هل تعلم من الذي ظل واقفًا ينتظر هناك أمام المصعد، عندما غادره ذلك الشخص الذي يقف أمامك، وذهب على هواه؟! تساءل رئيس السفرجية، مستديرًا نحو رئيس البوابين، وذكر اسمًا، أصيب رئيس البوابين، الذي كان يعرف زبائن الفندق جميعًا دون شك، ويعرف أوضاعهم كذلك، أصيب بالرعب، حتى لقد وجد نفسه ينظر إلى كارل نظرة خاطفة، لكي يؤكد لنفسه أن ذلك الصبي، الذي غادر مصعده، وترك صاحب ذلك الاسم ينتظر دون أن يجد من يخف لخدمته، يوجد بالفعل فوق سطح الأرض.

قال رئيس البوابين: «إن هذا مخيف!»، وراح يهز رأسه ببطء في ذهول نحو كارل، الذي كان يرقبه في شرود، وهو يفكر في أن صدمة هذا الرجل الغبية، خطأ آخر عليه أن يدفع ثمنه.

وواصل رئيس البوابين حديثه قائلًا، وهو يسدد إبهامه الضخم السمين المتصلب نحو كارل:

ـ إنك الصبي الوحيد الذي يرفض أن يؤدي لي التحية، فمن تظن نفسك؟ إن كل صبي يمر بمكتب رئيس البوابين يؤدي لي التحية، يمكن أن تفعل ما يحلو لك مع باقي البوابين، لكنني أصر على ضرورة اتباع أصول اللياقة، وإنني أحيانًا ما أتصنع عدم ملاحظة سلوكك هذا تجاهي، لكن عليك أن تعلم أنني أعرف تمامًا من الذي يقول لي طاب يومك، ومن الذي لا يقولها، أيها الجلف! واستدار مبتعدًا عن كارل، وهو يخطو في عظمة نحو رئيس السفرجية، الذي جلس ليكمل تناول فطوره، ويتفحص جريدة الصباح التي أحضرها له لحظتها أحد المساعدين.

قال كارل، وهو يدرك أن عليه أن يصفي حسابه أولًا مع رئيس البوابين، بينما يتجاهله رئيس السفرجية، ويدرك كذلك أن اللوم الذي يوجهه إليه الآن رئيس البوابين قد لا يتمخض عن أي ضرر، إلا أن عداءه له يضره بصفة عامة:

«سيدي، لاشك أنني قد مررت بمكتبك على الأغلب دون أن أؤدي لك التحية، إلا أنني مازلت حتى الآن حديث العهد بالحياة في أمريكا، فقد قدمت منذ فترة قصيرة من أوروبا، حيث يحيي الناس بعضهم بعضًا بإفراط بالغ، وهذا شيء معروف جيدًا، وبالطبع لم أتمكن من أن أتخلص من تلك العادة، لماذا، لأنني في خلال شهرين فقط قضيتهما

في نيويورك، حيث اتفق لي أن عشت في وسط راق، نبهوني طـويلًا إلى أنني أفرط في توجيه تحياتي للناس، وهأنت ذا تتهمـني بـأنني لا أحييـك دون غيرك، لقد وجهت إليك تحياتي كـل يـوم، عديـدًا من المـرات في اليـوم الواحـد، لكن بـالطبع، ليس في كـل مـرة يتصـادف أن أراك فيهـا، لأنني أمر بمكتبك مئات المرات كل يوم!».

ـ عليك أن تحييني في كل مرة تمر فيها بمكتبي، في كل مـرة بالفعـل، دون اسـتثناء، عليـك أن تقـف وقبعتـك في يـدك، طـوال الـوقت الـذي تتحدث فيه إليّ، ويجب أن تخاطبني دائمًـا «بيـا سـيدي» عنـدما تتوجـه إليّ بالحـديث، ولا تقـل لي: «أنت!» وعليـك أن تفعـل هـذا كلـه دائمًـا، وفي كل مرة، في كل مرة بالحرف الواحد.

فردد كارل قائلًا في لين: «في كل مرة؟!» بشيء من الحيرة، لأنـه تـذكر الآن كيـف كـان يبـدو لـه، طـوال فـترة وجـوده بالفنـدق، ذلـك التعبـير القاسي المفعم باللوم على وجه رئيس البوابين عندما كان يواجهـه، منـذ الصباح الأول، وهـو لا يـزال عـاملًا جديـدًا بالفنـدق، ولا يـزال حـرًا في سلوكه، ومنطلقًا على سجيته إلى حد مـا، فتقـدم إليـه في ذلـك الصـباح مندفعًا، وراح يسأله في إلحاح، وشيء من التشديد إن كـان ثمـة رجلان قد سألا عنه، أو تركا لديه صورة فوتوغرافية، ليسلمها له؟!.

وقـال رئيس البـوابين مسـتأنفًا حديثـه: «وهـأنت ذا تـرى الآن مـا جلبـه عليك ذلك السلوك!»، بينما كان يتقـدم ثانيـة نحـو كـارل، ملوحًـا بيـده

نحو رئيس السفرجية الذي كان لا يزال مستغرقًا في تصفح جريدته، كما لو كان ذلك السيد هو أداة انتقامه من كارل:

ـ سوف تتذكر في عملك المقبل أن تتأدب في معاملة البواب، ولو كان بوابًا لحانة نتنة.

تحقق كارل الآن من أنه قد فقد وظيفته، فقد أشار رئيس السفرجية إلى ذلك منذ لحظات، وها هو ذا رئيس البوابين يكرر ذلك الآن كحقيقة واقعة.. ولا يبدو أن هناك أهمية لتصديق إدارة الفندق عندما يتعلق الأمر بفصل عامل مصعد.. إلا أن الأمر قد حدث في سرعة خارقة لم يكن يتوقعها، فقد عمل هنا لأكثر من شهرين بكل طاقته على العمل، وبصورة أفضل كثيرًا بلا شك من غيره من الصبية الآخرين، لكن يبدو أن مثل هذه الاعتبارات، لا يلتفت إليها في اللحظات الحاسمة، في كل مكان في العالم، لا في أوروبا، ولا في أمريكا.. إن الحكم متعمد ومدبر منذ اللحظات الأولى، من أول كلمة تفوه بها القاضي في ثورة غضبه، وربما كان من الأفضل له أن يغادر المكان، ويرحل في الحال، وربما كانت المديرة وتيريز نائمتين حتى الآن، ويمكنه أن يودعهما بخطاب يرسله إليهما، حتى يجنبهما على الأقل الحزن والأسف اللذين ستشعران بهما عندما يودعهما بنفسه، ويمكنه أن يعد أشياءه بسرعة في داخل الصندوق، ويتسلل خارجًا في هدوء.. فلو قدر له أن يمكث في الفندق سحابة اليوم على الأقل ـ وقد يتسنى له ذلك بأن يأوي إلى النوم بعض الوقت ـ فلن يفيد هذا سوى تضخيم الحادث، ليصبح فضيحة ولومًا يوجه إليه من كل جانب، كما أنه سيفرض عليه رؤية تيريز التي

لن يحتملها، وربما بكت المديرة نفسها، وربما وقع له فوق كل هذا شيء ما على سبيل العقوبة أيضًا، إلا أن أكثر ما أحنقه هو أن يجد نفسه الآن في مواجهة اثنين من الأعداء، يغالطانه في كل كلمة يتفوه بها، فلو كف هذا؛ فلكي يفعل الآخر بدوره ما شاء له العبث بكلمات كارل، ويسيء تأويلها.. ولهذا ظل صامتًا، وارتاح في تلك الأثناء لهدوء الحجرة، فقد كان رئيس السفرجية لا يزال مستغرقًا في قراءة الصحيفة، بينما وقف رئيس البوابين إلى جوار المنضدة، وانهمك في ترتيب أوراق قائمته المتناثرة، تبعًا لتسلسل أرقامها، وهي مهمة كانت تبدو شاقة جدًّا بالنسبه له؛ لقصر نظره الشديد.

ووضع رئيس السفرجية، صحيفته جانبًا في النهاية، وتثائب، وطمأن نفسه إلى وجود كارل في مكانه، بنظرة سريعة إليه ثم أدار قرص تليفونه، وصاح قائلًا عدة مرات: «هاللو..»، إلا أن أحدًا لم يجبه، فقال لرئيس البوابين:

ـ لا أحد يجيب!، وقال رئيس البوابين، الذي كان يتابع المكالمة التليفونية باهتمام زائد، كما لاحظ كارل: «إنها الساعة السادسة إلا الربع الآن، ولابد أن تكون قد استيقظت من نومها، فدق الجرس بشدة أكثر!»، إلا أن التليفون رد لحظتها، دون مزيد من الدق على الجرس، فقال رئيس السفرجية:

ـ أنا إيسباري الذي يتحدث! صباح الخير، أرجو ألا أكون قد أقلقت نومك! إنني آسف، نعم، إنها السادسة إلا الربع، إلا أنني في غاية الأسف

حقًّا، لو كنت قد أزعجتك، ويجب عليك أن ترفعي سماعة التليفون عن الجهاز عندما تأوين إلى النوم، لا.. لا.. لا عذر لي في الحقيقة، وخاصة أن الأمر الذي أريد أن أتحدث إليك بشأنه، أمر تافه للغاية، إنني أريد أن أبحثه معك، لكن لدي بالطبع متسع من الوقت لذلك، وسوف أنتظرك بالطبع، فاتصلي بي لو تفضلت.

وقال رئيس السفرجية لرئيس البوابين مبتسمًا، بينما كان الأخير ينحني على التليفون وقد ارتسم على وجهه تعبير صارم: «لابد إنها قد هرولت إلى التليفون بقميص نومها! لابد أنني قد أزعجتها بالفعل لأن تلك الفتاة التي تكتب لها على الآلة الكاتبة، توقظها عادة، لكن يبدو أنه قد فاتها أن تفعل ذلك هذا الصباح لسبب أو آخر، إنني آسف لإزعاجها، فهي عصبية بطبيعتها إلى حد كاف».

ـ لماذا تركت التليفون، وانصرفت؟! فأجابه رئيس السفرجية، وهو يرفع السماعة ثانية، عندما رن جرس التليفون، «لترى ماذا حدث للفتاة!»، ثم استأنف حديثه قائلًا في التليفون: «سوف تظهر الفتاة في الحال.. فلا تنزعجي لكل شيء إلى هذا الحد، إنك في حاجة إلى الراحة التامة بالفعل، والآن، لنتحدث في موضوعي البسيط، يوجد هنا صبي مصعد يدعى..»، واستدار حوله بنظرة متسائلة، وجَّهَهَا إلى كارل، الذي كان يستمع بانتباه شديد، فأدلى باسمه في الحال، متابعًا: «يدعى كارل روسمان، ولو كنت أذكر جيدًا، فهو الصبي الذي أوليته شيئًا من اهتمامك، ويؤسفني أن أقول لك إنه قد أساء رد جميلك، فقد ترك عمله دون إذن، وورطني بهذا في صعوبات خطيرة، ولا يمكنني أن أذكر

لك النتائج التي قد تترتب على ذلك، وعلى هذا فقد فصلته الآن من العمل، فأرجو ألا يسيئك ذلك، ماذا تقولين؟ فصل؟ نعم، فصل، إلا إنني قد أخبرتك الآن بأنه قد ترك مصعده لا.. هنا لا يمكنني في الحقيقة أن أوافقك يا سيدتي العزيزة، إنها مسألة تتعلق بممارستي لسلطتي، فثمة خطر كبير يترتب على هذا، فصبي مثله من الممكن أن يفسد المجموعة كلها، ولابد من التشدد الذي لا يعرف الرحمة مع صبية المصاعد بالذات، لا.. لا.. لا يمكنني في هذه الحالة أن أجاملك، على الرغم من رغبتي الشديدة في إرضائك، وحتى لو أنني سمحت له بالبقاء على الرغم من ذلك، لمجرد أن أسيطر على أعصابي فحسب، فلن يكون هذا في صالحك، نعم، ليس في صالحك أن تستبقيه هنا، إنك تولينه اهتمامًا لا يستحقه أبدًا، وإنني لأعرفه، وأعرفك أيضًا، وإنني واثق من إنه لن يجلب لك سوى خيبة الأمل البالغة، التي يجب أن تتجنبيها بأي ثمن إنني أقول لك هذا بغاية الصراحة، وتحت سمع الصبي نفسه، لأنه يقف فقط على بعد خطوة واحدة مني، في ثبات هو الوقاحة بعينيها، لابد من فصله، لا.. لا.. لابد من فصله نهائيًا وفي الحال، لا.. لا.. لا يمكن أن أعهد إليه بعمل آخر، فلا فائدة لي منه على الإطلاق، وبالإضافة إلى ذلك فهنا من يشكون منه أيضًا، إن رئيس البوابين مثلًا، نعم فيودور بالطبع! لقد اشتكى فيودور من عدم تأدبه، ومن وقاحته، ماذا، ليس هذا كافيًا؟ يا سيدتي العزيزة إنك تناقضين طبيعتك باستمرارك في مساندة هذا الصبي، لا.. لا يجب عليك في الحقيقة أن تضغطي عليّ إلى هذا الحد!».

وانحـــنى رئيس البـــوابين في تلـــك اللحظـــة، وهمس في أذن رئيس السفرجية بشيء ما، فتطلع إليه رئيس السفرجية مندهشًـا في البدايـة، ثم تحدث مسرعًا في التليفون، حتى أن كـارل لم يتمكن من أن يسـمع مـا كان يقوله، فاقترب منه لهذا، قليلًا على أطراف أصابعه.

قال: «عزيزتي المديرة، لكي أكـون صـريحًا معـك غايـة الصـراحة فـإنني أصرح لك بأنني لم أكن أعتقد أنك تخطئين إلى هذا الحـد في حكمـك على الأشـخاص، فلقـد علمت الآن شـيئًا عن ملاكـك الـبريء، شـيئًا لاشك في أنه سيقلب رأيك فيه رأسًا على عقب، ويؤسفني أن أكـون أنـا الذي أنهي إليك بهذا الخبر.. إن هذا الصبي المدلل الذي تساندينه، هذا المثال الرائع للفضـيلة، ينـدفع إلى المدينـة في كـل ليلـة يخلـو فيهـا من العمل، ولا يعـود إلى الفنـدق قبـل الصـباح، نعم.. نعم، إن لـديَّ الـدليل على صدق ذلك، وهو دليل لا يرقى إليه الشك، نعم، والآن هل يمكنـك أن تخبريني، من أين له بالمال الذي ينفقه على تلك المغامرات الليليـة؟ أو كيـف يمكن أن نتوقـع منـه الالتفـات إلى عملـه كمـا يجب في هـذه الحالـة؟ وهـل تريـدين مـني أن أمضـي في ذكـر تفاصـيل مـا يفعلـه في المدينة؟ إن صبيًّا كهذا لابد من التخلص منـه بأسـرع مـا يمكن، وأرجـو أن تعتبري ذلك نذيرًا بأن تحذري العناية بالصبية الـذين يظهـرون مثلـه، فجأة من حيث لا يدري أحد!».

صاح كارل، وقد ارتـاح لهـذا الخطـأ الـذي تهيـأ لـه أنهم قـد وقعـوا فيـه عندما ظنوا أنه يغادر الفندق ليلًا في أوقات راحته، ذلك لأن هذا الخطأ قد يتمخض عن تقدم غير متوقع للموقف كله: «لكن يا سيدي، لابد أن

خطأ ما قد حدث، لقد فهمت أن رئيس البوابين قد أخبرك بأنني أخرج إلى المدينة كل ليلة، إلا أن هذا ببساطة غير صحيح، إنني أقضي كل ليلة في عنبر النوم، ويمكن أن يؤيد الصبية الآخرون جميعًا كلامي هذا، وعندما لا أكون نائمًا فإنني أنفق وقتي في دراسة المعاملات التجارية، لكنني لم أغادر عنبر النوم ليلة واحدة، إن من السهل إثبات هذا، ولاشك أن رئيس البوابين قد أخطأ فحسبني شخصًا آخر، وأرى الآن أيضًا لماذا ظن أنني أمر به دون أن أحييه».

فصاح رئيس البوابين، وهو يلوح بقبضته بدلًا من إصبعه كما يفعل الآخرون عند التحذير، قائلًا: «هل يمكنك أن تمسك لسانك؟! إذن فقد خلطت أنا بينك وبين شخص آخر؟! هل فعلت ذلك حقًّا؟! كيف لي إذن أن أستمر في عملي هنا كرئيس للبوابين إن كان لي أن أخلط بين شخص وآخر؟ إنني أسألك يا مستر ايسباري، كيف يتسنى لي أن أكون رئيس البوابين هنا لو خلطت بين الناس؟ إنني طوال مدة خدمتي التي امتدت ثلاثين عامًا، لم أخلط مطلقًا بين شخص وآخر، ويمكن أن يخبرك مئات السفرجية الذين كانوا هنا على عهدي، بصدق ذلك، فيبدو كما لو كان عليّ أن أتعلم مهنتي من جديد على يديك، أيها الصبي الحقير! بوجهك هذا الناعم الذي لا يمكن أن يخطئه أحد! وما شأن الخطأ، على كل حال، بهذا الأمر؟ يمكنك أن تتسلل إلى المدينة من وراء ظهري، ولا يتطلب الأمر مني سوى أن أنظر في وجهك حتى أتبين أنك جلف لا تصلح لشيء».

قال رئيس السفرجية الذي بدا أن حديثه مع المديرة قد انقطع فجأة: «كفى يا فيودور، إنه أمر بالغ البساطة، فلا يعنينا في الحقيقة كيف يمضي لياليه، ولاشك أنه يريدنا أن نقوم بمهمة التحري الشامل عن تفاصيل حياته الليلية، قبل أن يغادرنا.. يمكنني أن أدرك أن هذا يسعده جدًّا، وفي وسع كل صبي من صبياننا الأربعين أن يستعرض نفسه، لو توافرت لديه الرغبة في ذلك، وسيقول لك بالطبع إنهم قد خلطوا بينه وبين غيره أيضًا، وهكذا، فلو حاولنا أن نقبل هذا الهراء، لتعين علينا عندئذ أن نسحبهم جميعًا واحدًا واحدًا كشهود، وسيتوقف العمل بالطبع تمامًا في الفندق كله لبعض الوقت، ومع إنه سيطرد في نهاية الأمر، فلابد له من أن يستمتع قليلًا، وعلى هذا فسنتجاوز عن ذلك، لقد خدع المديرة بالفعل حتى الآن، تلك السيدة الطيبة القلب، وسوف نوقفه عند هذا الحد.. ولن أستمع إلى كلمة أخرى، لقد فصلت الآن بسبب إهمالك لعملك، وسوف أعطيك مذكرة للصراف الذي سيدفع لك أجرك حتى اليوم، ودعني أقل لك إنه بعد الخطأ الذي ارتكبته اليوم، فإن موافقتي على أن تتناول أجرك هو محض رحمة بك، وإنني أفعل ذلك فقط، مجاملة للمديرة!».

وقطع حديث رئيس السفرجية، رنين جرس التليفون مرة أخرى، قبل أن يوقع المذكرة، وبعد أن استمع إلى الكلمات الأولى، صاح في دهشة: «لا شي اليوم سوى متاعب صبية المصاعد هؤلاء!» ثم صاح بعد لحظة: «هذا ما لم نسمع به حتى الآن!»، واستدار بعيدًا عن التليفون، قائلًا لرئيس البوابين: «أرجوك يا فيودور، اقبض على هذا الصبي الآن،

فلدينا الكثير مما سنقوله له»، ثم صاح قائلًا في التليفون: «تعال في الحال».

واستطاع رئيس البوابين الآن، أن ينفس عن غضبه الذي لم يكن قد أظهره شفهيًا، فقد قبض بذراعه على كارل في عنف، لكنه لم يتمكن من أن يحكم قبضته عليه، فكان يخفف قبضته من حين لآخر، ثم شيئًا فشيئًا كان يعود فيشددها على كارل بغاية القسوة، فقد كان قويًا جدًا، وبدا ضغطه على كارل وكأنه لن يتوقف، حتى لقد غامت الأشياء أمام عينيه، وفوق ذلك فهو لم يكن يقبض فقط على ذراع كارل، بل كان يضغط جسمه أيضًا، وكأنه قد أمر بأن يفعل ذلك، ويرفعه فوق قدميه بين الحين والآخر إلى أعلى، ويدفعه، وهو يقول طوال الوقت في شبه تساؤل لرئيس السفرجية: «هل يمكنني أن أخلط بينه الآن وبين سواه، هل يمكنني أن أخلط بينه وبين سواه الآن؟!».

وقد تمكن كارل من أن يرتاح من ضغط رئيس البوابين على جسده، إلى حد ما، عندما دخل رئيس صبية المصاعد، وهو شاب سمين يدعى «بست»، كان يلهث، فلفت انتباه رئيس البوابين لبعض الوقت، وكان الإرهاق قد نال من كارل حتى إنه لم يتمكن، عندما حضرت تيريز لدهشته خلف الشاب، يبدو عليها الانهيار، ووجهها شاحب كوجوه الموتى، وملابسها متهدلة، وشعرها مصفف في إهمال، لم يتمكن من أن يغتصب ابتسامه لها إلا بصعوبة بالغة، وسرعان ما همست له وهي تقف إلى جواره:

ـ هل تعلم المديرة؟! فأجابها كارل: «لقد أخبرها رئيس السفرجية بالتليفون» فقالت في سرعة، وقد التمعت عيناها: «إذن فكل شيء على ما يرام.. كل شيء على ما يرام».

فقال لها كارل: «لا، إنك لا تعرفين ما يتهمونني به، لابد لي من أن أرحل، لقد اقتنعت المديرة نفسها بذلك فعلًا.. فأرجوك ألا تبقي هنا، اصعدي ثانية، وسوف آتي لوداعك فيما بعد».

ـ ما الذي تعتزمه يا روسمان؟ يمكنك أن تبقى ما شاء لك البقاء هنا.. إن رئيس السفرجية يفعل ما تطلبه منه المديرة، إنه عشيقها، ولقد اكتشفت ذلك بنفسي منذ وقت قصير، فلا تخش شيئًا.

ـ أرجوك يا تيريز، اذهبي من هنا، فلا يمكنني أن أدافع عن نفسي كما ينبغي في أثناء وجودك هنا، ولابد لي من أن أدافع عن نفسي دفاعًا كاملًا، لأنهم يلفقون لي الأكاذيب، وبقد ما يمكنني أن أهزمهما دفاعًا عن نفسي، كلما اتسعت أمامي الفرصة للبقاء هنا، ولهذا يا تيريز.. لكنه عندئذ لسوء الحظ، أضاف هذه الكلمات لتقلص مفاجئ أصابه، فتألم له ألمًا بالغًا، وإن كان قد قالها في صوت خفيض: «فقط لو يتركني رئيس البوابين! لم تكن لدي أدنى فكرة عن عدائه لي، لكنه لا يكف عن ضغط ذراعي ولويه!»، وفي نفس الوقت كان يفكر قائلًا في نفسه: «لماذا أقول ذلك، لا يمكن ألا تتأثر أي امرأة لسماع مثل هذه الشكوى!»، وبالفعل، وقبل أن يمنعها بذراعه الطليقة، كانت تيريز قد تحولت إلى رئيس البوابين قائلة:

ـ أرجوك يا سيدي، دع روسمان الآن، إنك تؤلمه، إن المديرة سوف تصل إلى هنا بنفسها، بعد لحظة، وسوف ترى عندئذ أن هذا كله كان مجرد خطأ، دعه، فما هي المتعة التي تجنيها من تعذيبه؟!، وجذبت ذراع رئيس البوابين بالفعل، فأجابها هذا قائلًا: «الأوامر يا فتاتي الصغيرة، الأوامر!»، وجذب تيريز إليه، بيده الطليقة في تودد، بينما اعتصر ذراع كارل بيده الأخرى بكل قوته، وكأنه لم يكن يريد أن يؤذيه فحسب، بل كانت لديه خطة معينة، لم تكن قد أنجزت كما ينبغي بالنسبة للذراع التي كان يقبض عليها.

وناضلت تيريز بعضًا من الوقت لكي تخلص نفسها من أحضان رئيس البوابين، وكانت تتأهب لكي تلفت انتباه رئيس السفرجية الذي كان يواصل الاستماع إلى «بست» المتباطئ، الثرثار، عندما دخلت المديرة مسرعة.

فصاحت تيريز: «حمدًا لله!»، وساد السكون الحجرة للحظة، سوى تلك الصيحة المدوية، وقفز رئيس السفرجية، واقفًا على قدميه في الحال، ودفع «بست» جانبًا.

ـ وهكذا جئت بنفسك يا سيدتي العزيزة؟ بسبب هذا الأمر؟ ولقد كنت أخشى بعد حديثنا في التليفون أن تأتي، إلا أنني لم أعتقد أنك ستحضرين بالفعل، ومنذ حديثنا ذاك في التليفون تدهورت الحالة التي تساندينها أكثر فأكثر، وأخشى ألا يكون في وسعي أن أفصله فقط، بل

قد أرسله إلى السجن أيضًا، فاستمعي بنفسك إلى تفاصيل الموضوع، وأشار إلى «بست» لكي يدلي بما عنده.

قالت المديرة، وهي تجلس على مقعد أصر رئيس السفرجية على إخلائه لها: «إنني أريد أولًا أن أتحدث قليلًا مع روسمان!»، قالت: «اقترب مني يا كارل لو سمحت!»، فاقترب منها كارل، أو على الأصح، جرجره رئيس البوابين إلى مكانها.

قالت المديرة ساخطة: «اتركه، ألا تتركه؟ إنه ليس قاتلًا!» فتركه رئيس البوابين في الحال، لكنه قبل أن يتركه سحق ذراعه بضغطة أخيرة بغاية العنف، حتى طفرت الدموع من عينيه هو نفسه، تحت تأثير الجهد.

صاحت المديرة، وهي تضع يداها المطويتان على صدرها في هدوء، بينما أحنت رأسها قائلة في لهجة لم تكن تنم عن الاستجواب مطلقًا: «كارل؟ أريد قبل كل شيء أن أقول لك إنني مازلت أثق بك ثقة كاملة، كما أن رئيس السفرجية هو أيضًا رجل عادل، ويمكنني أن أشهد له بذلك، وإننا نود من أعماقنا أن نستبقيك هنا!»، وهنا تطلعت إلى رئيس السفرجية بنظرة سريعة، كما لو كانت ترجوه ألا يقاطعها، إلا أنه لم يفعل، واستأنفت حديثها قائلة لكارل: «فانس لهذا كل ما قيل لك حتى الآن، وفوق كل هذا، فلا يجب عليك أن تأخذ مأخذ الجد ما قد يكون رئيس البوابين، قد قاله لك، إنه رجل سريع الهياج، ولا عجب في ذلك، إذا نظرنا إلى طبيعة عمله.. إلا أن له زوجة وأطفالًا أيضًا، وهو

يعلم أن الصبي الذي يعول نفسه، لا يحتاج إلى مزيد من العذاب؛ لأن العالم كله سيتحقق من أنه يشارك بمجهود ملحوظ في أعبائه».

كان السكون لا يزال يخيم على الحجرة، ونظر رئيس البوابين إلى رئيس السفرجية، كما لو كان يتوقع منه أن يسانده. وتطلع رئيس السفرجية إلى المديرة، وهز رأسه، وابتسم «بست» رئيس صبية المصاعد في سخرية بلهاء، وهو يقف خلف ظهر رئيس السفرجية، وكانت تيريز قد انخرطت في البكاء بصوت غير مسموع، وقد غلبها الأسى والفرح، وكانت تحاول أن تخفي مشاعرها عن الآخرين! إلا أن كارل على الرغم من أن ذلك كان من الممكن تفسيره كدلالة سيئة، لم يتطلع نحو المديرة، التي كانت تتوقع منه بلا شك أن يفعل ذلك، بل راح ينظر أمامه نحو أرضية الحجرة، وكانت ذراعه لا تزال تؤلمه، وكان كم قميصه ملتصقًا بالكدمات، حتى إنه كان عليه بالفعل أن يخلع جاكتته لكي يتفحص تلك الكدمات..

وكان ما قالته المديرة بالطبع، شيئًا بالغ العطف، كما أنه بدا له على هذا النحو بسبب الطريقة التي انتهجتها في تناول الأمر، ولابد أن الآخرين سيظنون أن عطفها مجرد حماقة، وأن كارل كان يحظى بصداقتها التي قامت على أسس زائفة طوال شهرين، وأنه لهذا لم يكن يستحق شيئًا أكثر من أن يقع بين يدي رئيس البوابين.

واستأنفت المديرة حديثها قائلة: «إنني أقول هذا، حتى يمكنك أن تعطيني جوابًا شافيًا، ولا شك إنك ستتمكن من أن تفعل ذلك مهما

كانت الظروف، لو كنت قد عرفت طباعك حقًّا!».

قال «بست» رئيس صبية المصاعد فجأة في أدب بالغ، لكن في تشويش زائد من الوقت نفسه: «هل يمكنني لو سمحت أن، أذهب؟» ثم تحول إلى المديرة قائلًا: «إن الأمر يتلخص فيما ينزف نزيفًا قاتلًا!».

قال رئيس السفرجية «لبست» الذي اندفع خارجًا في الحال: «اذهب»، ثم تحول إلى المديرة قائلًا: «إن الأمر يتلخص فيما يلي: إن رئيس البوابين لم يكن يقبض على هذا الصبي عبثًا، ففي عنبر نوم صبية المصاعد في الطابق الأسفل، يوجد شخص غريب تمامًا، وثمل للغاية، ولقد اكتشفه الصبية مندسًا في عناية في أحد الأسرة في عنبر نومهم، ولقد أيقظوه بالطبع، وحاولوا أن يطردوه إلى خارج العنبر، ألا أن ذلك الشخص أحدث شغبًا بالغًا، وصاح قائلًا بأن الفراش الذي كان يرقد فوقه هو فراش كارل روسمان، وإنه ضيف روسمان، وإن روسمان هو الذي ذهب به إلى هناك، وإنه سيسحق كل من يتجاسر على أن يلمسه، وبالإضافة إلى ذلك، فإن عليه ببساطة أن ينتظر عودة كارل روسمان، لأنه قد وعد بأن يعطيه نقودًا، وأنه ذهب لإحضارها، وانتبه إلى ذلك أنت أيضًا ياروسمان!» قال رئيس السفرجية هذا لروسمان ملتفتًا إليه من فوق كتفه، بينما التفت كارل إلى تيريز التي كانت تحدق بدورها في رئيس السفرجية مأخوذة، وهي تلقي بخصلة شعر من فوق جبهتها، أو ترفع يدها بصورة آلية إلى حاجبها، لمجرد أن تفعل أي شيء: «ولعلك لست في حاجة إلى أن نذكرك بارتباطاتك، ذلك أن الرجل الموجود بالطابق الأسفل، قال أيضًا إنك بعد عودتك إليه سوف تذهب

بصحبته لقضاء الليلة مع إحدى المغنيات، وهي مغنية لم يتمكن أحد من معرفة اسمها، وإن كنت قد اقتنعت بذلك، لأن الرجل كان يرفع عقيرته بالغناء كلما خطر له خاطر الذهاب إليها».

وتوقف رئيس السفرجية عند هذا الحد، ذلك أن المديرة كان قد شحب لونها بصورة ملحوظة، ونهضت من على مقعدها ودفعته قليلًا إلى الخلف.

فقال رئيس السفرجية: «سوف أعفيك من ذكر بقية التفاصيل!» قالت المديرة وهي تمسك بيده: «لا.. أرجوك، لا.. استمر أرجوك، لابد لي من أن أعرف كل شيء فهذا ما جئت من أجله».

وتقدم رئيس البوابين الآن إلى الأمام، وخبط بصوت مرتفع على صدره، إعلانًا بأنه كان قد توقع كل شيء منذ البداية في الوقت الذي هدأه فيه رئيس السفرجية، مقرًا له بذلك بقوله: «نعم، يا فيودور، لقد كنت على حق تمامًا».

واستأنف رئيس السفرجية حديثه قائلًا: «لا يوجد ما يقال أكثر من ذلك، ولقد ضحك الصبية على عادتهم من ذلك الرجل في البداية، ثم اشتبكوا معه في عراك، ولما كان يتوافر بينهم كثيرون ممن يجيدون الملاكمة، فقد انطرح الرجل أرضًا ببساطة، ولم أجرؤ على أن أسأل حتى أين كان الرجل ينزف، وفي أي الأماكن العديدة كان نزيفه، فلوث تلك الأماكن، ذلك أن هؤلاء الصبية هم ملاكمون في غاية العنف، ويعد رجلًا سكيرًا كهذا، لعبة طيبة في متناول قبضاتهم».

وضعت المديرة يدها على ذراع المقعد، ونظرت إلى أسفل نحو ذلك المقعد الذي كانت قد نهضت من فوقه لتوها، ثم قالت بعد ذلك: «إنني أفهم ذلك الآن، فأرجوك أن تقول شيئًا يا روسمان!» واندفعت تيريز عبر الحجرة، وتشبثت بسيدتها، وهو ما لم يرها كارل تفعله من قبل، وكان رئيس السفرجية يقف خلف المديرة ملتصقًا بها، وراح يرتب في أناقة ياقتها الصغيرة المزينة بالدانتيلا، التي كانت قد تكرمشت على نحو ما، وقال رئيس البوابين الذي كان يقف بجانب كارل: «انطق!»، لكنه تفوه بهذه الكلمة لمجرد أن يغطي اللكمة التي كالها له على ظهره.

قال كارل: «صحيح!» في قليل من الجرأة التي كان ينويها، بسبب تلك اللكمة: «لقد وضعت الرجل في عنبر النوم».

فقال رئيس البوابين موجهًا حديثه إلى الحاضرين جميعًا: «هذا هو كل ما نود أن نعرفه!»، واستدارت المديرة في صمت نحو رئيس السفرجية ونحو تيريز.

ومضى كارل في حديثه قائلًا: «لم أستطع أن أمنع نفسي، كانت سبقت لي معرفة ذلك الرجل من قبل، ولقد حضر إلى هنا لزيارتي، بعد غياب دام شهرين، إلا أنه كان ثملًا للغاية، حتى إنه لم يتمكن من مغادرة الفندق بمفرده، عائدًا من حيث أتى».

قال رئيس السفرجية الذي كان قد وقف إلى جانب المديرة في نعومة، كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «إذن فهو قد حضر لزيارتك، وبعد ذلك

ثمل إلى هذا الحد، حتى لم يتمكن من مغادرة الفندق!»، فهمست المديرة من فوق كتفها، إلى رئيس السفرجية، الذي بدا وكأنه سيعترض، لكنه ابتسم لها، ابتسامة لم تبد عليها أن لها صلة بموضوع كارل على الإطلاق، وضغطت تيريز ـ ثبت كارل عينيه عليها ـ وجهها في يأس تام إلى جسد المديرة، وتحاشت النظر إلى أي شيء، وكان الشخص الذي أرضاه توضيح كارل، هو رئيس البوابين، الذي ردد عديداً من المرات: «هذا صحيح تمامًا، يجب عليك أن تساعد زميلك عندما يكون ثملًا»، وحاول أن يؤكد ذلك التفسير بالنظر إلى الآخرين جميعًا، وتلويح يديه.

قال كارل: «إنني الملوم على هذا!»، وتوقف لحظة، كما لو كان ينتظر كلمة طيبة من قضاته لتمنحه الشجاعة على إكمال دفاعه، إلا أنه لم يسمع شيئًا فقال:

«إنني الملوم على هذا فقط لأنني أخذت الرجل إلى عنبر النوم ـ إنه يدعى روبنسون، وهو أيرلندي ـ إلا أن كل ما قاله بعد ذلك، إنما يرجع إلى أنه كان ثملًا، وهو غير صحيح كله».

فتساءل رئيس السفرجية قائلًا: «إذن فأنت لم تعد بأن تعطيه نقودًا؟».

قال كارل: «نعم!»، فقد أحس بالأسف لأنه نسي ذلك في عجلته واضطرابه، فقد كان عازمًا تمامًا على أن يصرح بكل شيء لتبرئة نفسه: «لقد وعدته بأن أعطيه نقودًا، لأنه سألني أن أعطيه شيئًا منها، لكن لم تكن لدي أدنى نية في البحث عنها، لأنني كنت سأعطيه فحسب المنح

التي حصلت عليها الليلة!»، ولإثبات ذلك، أخرج كارل النقود من جيبه، ورفع يده بقطع العملة الصغيرة التي كانت معه.

قال رئيس السفرجية: «إنك تورط نفسك أكثر فأكثر، فلو قدر لنا أن نصدقك، فعلينا أن نتناسى تمامًا ما قلته قبل ذلك، فأنت أولًا قد اصطحبت الرجل إلى عنبر النوم- وإنني حتى لست مقتنعًا بأن اسمه روبنسون، لأنه لا يوجد أيرلندي بهذا الاسم منذ أن خلقت أيرلندا- أخذته أولًا إلى عنبر النوم، ولهذا وحده، يمكن أن نقذف بك خارجًا، لتدق عنقك خارج الفندق، يمكنني أن أصرح لك بهذا، إلا أنك لم تعد بأن تعطيه نقودًا بالفعل! ليست هذه لعبة محاورة بالسؤال والجواب؛ لأن السؤال عندما طرح عليك، اتضح إنك وعدت بأن تعطيه نقودًا بالفعل، ودعني أذكرك بهذا، ويبدو إنك في حاجة إلى من يوضح لك طبيعة شخصيتك، وفي البداية لم تكن لديك النية في البحث عن النقود؛ لأنك انتويت أن تعطيه المنح التي تلقيتها الليلة، ثم يتضح الآن أنك تحتفظ بهذه المنح معك، وهكذا فلابد أنك قد انتويت أن تحصل على مزيد من النقود لكي تعطيها له، وهو افتراض يدعمه غيابك الطويل.. وبعد كل هذا، فليس غريبًا أن تأخذ بعض النقود من صندوقك لتعطيها له، إلا أن ما يبدو غريبًا بلا شك هو إنك قد أنكرت ذلك بشدة، وإنك ظللت تخفي حقيقة إنك أتحت للرجل أن يثمل هنا في الفندق، وهي حقيقة لا يمكن الشك فيها، لأنك قد صرحت أنت نفسك بأنه كان قد أتى بنفسه إلى هنا، ولكنه لم يتمكن من أن يغادر الفندق بمفرده، كما إنه قد أخبر كل من في عنبر النوم، بأنه ضيفك،

وعلى هذا فلا يبقى سوى شيئين فقط هما اللذان ينحصر فيهما الشك، ولا يمكن تقريرهما بكل دقة دون معونتك، أولهما: كيف تمكنت من أن تدخل المخازن، وثانيهما: كيف وصلت يداك إلى المال الكافي، حتى توزعه على الغير؟».

قال كارل في نفسه: «من المستحيل أن يدافع المرء عن نفسه حيث لا تتوافر النية الحسنة!»، ولم يحر جوابًا بعد ذلك، على أسئلة رئيس السفرجية، وقد آلم هذا تيريز أشد الألم، وقد بدا هذا واضحًا عليها، كان كارل يعلم أن كل ما يمكنه أن يقوله يبدو مختلفًا غاية الاختلاف في نظر الآخرين، وسواء كان هذا حسنًا، أو سيئًا، فإن النتائج التي يمكن استخلاصها من تصرفاته تعتمد أولًا وأخيرًا على أسلوب محاكمته.

قالت المديرة: «إنه لا يرد؟!».

فقال رئيس السفرجية: «إن هذا هو أفضل ما يمكنه أن يفعله!».

وقال رئيس البوابين: «سوف يفكر في الحال في شيء آخر يقوله!»، بينما راح يداعب شاربه بيد بدت حانية الآن، مع أنها كانت قبل قليل في غاية العنف.

قالت المديرة لتيريز: «اهدئي!»، وكانت تيريز قد بدأت تنهنه، وهي تقف إلى جوارها: «إنك ترين إنه لا يجد شيئًا يرد به على ما يوجه إليه من أسئلة، فكيف يمكنني في هذه الحالة أن أفعل له أي شيء؟، وفوق هذا، فلقد كنت أنا التي أخطأت في رأي رئيس السفرجية. فأخبريني يا

تيريز، أترين شيئًا قد قصرت في أدائه، بينما في مقدوري أن أفعله من أجله؟».

كيف يتسنى لتيريز أن تعرف ذلك، وما هو الهدف الذي يدفعها إلى التسليم إلى هذا الحد في وجود هذين الرجلين بهذا السؤال العام، وبدعوتها الفتاة إلى أن تسلم هي أيضًا؟.

قال كارل متمالكًا نفسه مرة أخرى: «مدام»، دون أي غرض، سوى مجرد أن يعفي تيريز من عناء الرد: «أعتقد إنني لم أسبب لكي أي خزي، ولو أن بحثًا دقيقًا قد قام، فإن كل شخص آخر سوف يوافقني على كل ما قلته».

قال رئيس البوابين: «كل شخص آخر!»، وهو يسدد إصبعه نحو رئيس السفرجية: «إن هذا يعنيك يا مستر إيسباري!».

قال مستر إيسباري: «والآن يا سيدتي، إنها السادسة والنصف، ولقد استغرقنا في هذا الأمر وقتًا طويلًا، وأعتقد أن عليك أن تتركي لي الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع الذي عالجناه بكثير جدًّا من الصبر!».

ودخل جياكومو الصغير، متجهًا نحو كارل، لكنه وقد ارتاع للصمت المطبق، توقف، وانتظر.

ولم تكن المديرة قد رفعت عينيها عن كارل، منذ آخر كلمة تفوه بها، كما لم يكن هناك أي دليل على إنها قد سمعت ملاحظة رئيس السفرجية، كانت عيناها مثبتتين مباشرة على كارل، وقد كانتا واسعتين وزرقاوين، لكنهما كانتا كابيتين إلى حد ما بفعل السنين، والأحداث،

وبينما كانت تقف هناك وهي تدفع المقعد في رقة أمامها، كانت تبدو كما لو كانت على وشك أن تقول في اللحظة التالية: «حسنًا يا كارل، إنني عندما أتمعن في الأمر، يبدو لي أن هذه المشكلة لم تتضح كما ينبغي لها الوضوح، وهي تحتاج كما قلت أنت بحق، إلى بحث كامل لكل دقائقها، وسوف نشرع في ذلك البحث الآن، سواء وافق الجميع على ذلك، أو اعترضوا، ذلك أن العدالة يجب أن تأخذ مجراها».

إلا أن المديرة قد قالت بدلًا من ذلك بعد لحظة قصيرة من الصمت، لم يجرؤ أحد على أن ينتهكها، كما أن الساعة دقت لحظتها معلنة السادسة والنصف تأكيدًا لقول رئيس السفرجية، وتبعًا لها، كما يعرف الجميع، دقت كل الساعات الأخرى في الفندق بأكمله، ورنت دقاتها في الأسماع كالنذير، كضربة متضاعفة كوقع الجزء البالغ: «لا يا كارل، لا.. لا.. إننا لن نستمع إلى شيء أكثر مما استمعنا إليه حتى الآن، إن الأمور عندما تكون على حق، فإنها تبدو كذلك منذ الوهلة الأولى، وعليّ أن أعترف بأن ملابسات حالتك، لا تبدو كذلك، إن لي أن أقول ذلك، وعليّ أن أقوله، عليّ أن أعترف بذلك، لأنني كنت أنا التي حضرت إلى هنا منحازة إلى صفك انحيازًا تامًّا، وهأنت ترى أن تيريز تلتزم الصمت هي أيضًا!»، إلا أنها لم تكن صامتة، كانت تبكي.

وتوقفت المديرة، وكأنها قد انتهت فجأة إلى قرار، وقالت: «كارل، تقدم إليَّ هنا»، وعندما تقدم نحوها، بدأ رئيس السفرجية، ورئيس البوابين في الحال حديثًا نشطًا خلف ظهره، وضعت ذراعها اليسرى حوله، وقادته، وتبعتهما تيريز المستسلمة، إلى الجانب الآخر من

الحجـرة، وقـالت: «وإلا فـإنني في الحقيقـة لا أعـرف مـاذا سـأعرف بشأنك، إن بحثًا ربما أمكنه أن يبرر موقفك، في بعض النقـاط الصـغيرة المنفصلة، ولماذا لا يحدث ذلك؟!، وربما كنت قـد قمت بتحيـة رئيس البوابين، إنني أحس دون شك بأنك قد فعلت، كما أن لي رأيي الخـاص في رئيس البوابين، وها أنت ترى إنني مازلت في غاية الصـراحة معـك.. إلا أن هذه التبريرات لن تساعدك مطلقًا في شيء.. وإن رئيس السفرجية الذي تعلمت طوال السنين أن أقدر حكمه على الناس، والـذي هـو أكـثر من عـرفتهم من الرجـال اسـتحقاقًا للثقـة، قـد أعلن في وضـوح إنـك مـذنب، ويجب أن أقـول أن حكمـه يبـدو لي غـير قابـل للإنكـار، وربمـا كنت قد تصرفت بلا تفكير، لكن لعلك أيضًا، لست الصبي الـذي كنت أظنـه، إلا أن..!» وبهـذا قطعت حـديثها، وألقت نظـرة عـابرة من فـوق كتفها إلى الـرجلين: «إنـني لا يمكنـني أن أواصـل الاعتقـاد بأنـك صـبي نبيل في جوهرك!».

قال رئيس السفرجية محذرًا: «مدام، مدام!»، لأنـه كـان قـد لمح نظرتهـا إليهما.

قـالت المـديرة: «سـوف ننتهي في خلال دقيقـة واحـدة!»، وشـرعت في إنـذار كـارل في سـرعة أكـثر: «اسـتمع إليّ يـا كـارل، إنـني من خلال مـا أمكنـني أن أسـتنتجه من هـذا الأمـر، فـإنني راضـية بالفعـل لأن رئيس السفرجية لا يريد أن يبدأ بحثًا في مشكلتك، لأنه لـو كـان لـه أن يفعـل، لكان علي أن أمنعه لصالحك، فلا يجب أن يعلم أحد كيـف ولا من أين حصـلت على الشـراب لـذلك الرجـل الـذي لا يمكن أن يكـون أحـد

صديقيك القديمين، كما أعلنت، لأنك كنت قد اشتبكت في عراك عنيف معهما عندما تركتهما، وعلى هذا فلا يمكن أن تكون على علاقة طيبة إلى هذا الحد بأي منهما الآن، وعلى هذا فلابد أن تكون الصداقة قد ربطتك بهذا الرجل ذات ليلة في أوكار الشراب في المدينة، فكيف أمكنك أن تخفي هذه الأمور عني يا كارل؟! فلو كانت حقيقة، لا تحتمل عنبر النوم، وشرعت في التجول هنا وهناك ليلًا لأسباب غير بريئة كهذه الأسباب، فلماذا لم تذكر كلمة واحدة عن ذلك؟ إنك تعلم أنني قد رغبت في أن أخصص لك حجرة خاصة بك، وإنني عدلت عن الفكرة فقط بناء على رغبتك، ويبدو لي الآن أنك قد فضلت عنبر النوم العمومي، لأنك أحسست بأنك تتمتع بحرية أكثر هناك، كما أنك دائمًا تضع نقودك معي، وتسلمني المنح التي تحصل عليها كل أسبوع، فمن أين بحق السماء، حصلت أيها الصبي على النقود لهذه الجولات، ومن أين كنت تنوي أن تحصل على النقود لصديقك؟ وبالطبع هذه أمور لا يمكنني أن أذكرها لرئيس السفرجية الآن على الأقل، وإلا فإن التحريات في هذه الحالة، قد لا يمكن تجنبها، وعلى هذا فعليك أن تغادر الفندق ببساطة، وبأسرع ما يمكن أيضًا، اذهب رأسًا إلى «بنسيون برينر» ـ ولقد ذهبت إليه بالفعل بصحبة تيريز، عديدًا من المرات من قبل ـ وسوف يستقبلونك في الحال بلا مقابل، إذا أطلعتهم على هذه البطاقة»، وكتبت بضعة سطور فوق البطاقة بقلم من الذهب، انتزعته من داخل بلوزتها، لكن بدون أن تقطع اتصال حديثها:

«وسوف أرسل صندوقك خلفك في الحال! اذهبي يا تيريز بسرعة إلى حجرة أمانات صبية المصاعد، وأحضري صندوقه»، إلا أن تيريز لم تأت بأية حركة، لأنها بعد أن كابدت كل ذلك الأسى، رغبت أيضًا في أن تشارك إلى النهاية هذه المرة في الاستمتاع بالحظ الحسن الذي شاء أن يكون من حسن طالع كارل، وشكرًا لعطف المديرة.

وفتح شخص ما الباب قليلًا، دون أن يظهر من خلاله، وأغلقه ثانية في الحال، ولابد أن كان شخصًا قد أتى ليستعجل جياكومو فقد تقدم جياكومو إلى الأمام قائلًا: «روسمان، أريد أن أتحدث معك».

قالت المديرة: «بعد لحظة!»، ودست البطاقة في جيب كارل، بينما كان يستمع وهو واقف برأسه المحنية إلى أسفل: «وسوف أحتفظ الآن بنقودك، أنت تعلم أنها في أمان بين يدي، فأبق اليوم في غرفتك هناك، وتدبر وضعك، وغدًا ـ فليس لدي وقت اليوم، ولقد احتجزت الآن وقتًا طويلًا للغاية هنا أيضًا ـ سوف أحضر إليك في روبسون برينر، وسوف نرى ما يمكن أن نفعله من أجلك بعد هذا، إنني لن أتخلى عنك، ويجب أن تعلم هذا جيدًا الآن، ولست في حاجة إلى أن تشغل ذهنك بأمر مستقبلك، لكنك في حاجة إلى أن تتفحص وضعك خلال تلك الأسابيع القليلة الماضية»، وربتت على كتفه، ثم مضت نحو رئيس السفرجية! ورفع كارل رأسه، وحدق خلف المرأة الطويلة الهيئة، بينما كانت تبتعد عنه بخطواتها الخفيفة، وسلوكها الواضح.

قالت تيريز التي بقيت إلى جانبه: «حسنًا، ألست مسرورًا، لأن كل شيء قد انتهى، هذه النهاية الحسنة؟!».

قال كارل: «آه.. بالطبع!»، وابتسم لها، إلا أنه لم يفهم كيف يمكنه أن يكون مسرورًا، لأنه قد فصل من عمله كلص، وشعت عينا تيريز بالفرح الخالص، كما لو لم يكن يهم مطلقًا، أن كان كارل قد ارتكب جريمة أو لا، ويستوي كذلك إن كان قد حوكم محاكمة عادلة أو ظالمة، ما دام قد أتيح له فقط أن يهرب خجلًا، أو فخورًا، ولقد كانت تيريز هي التي تسلك نحوه هذا السلوك، تيريز تلك المتشككة غاية التشكك في كل شيء يتعلق بها، فتقلبه في رأسها، وتتفحص لعدة أسابيع أية كلمة تحتمل الشك، قد تقولها المديرة، وفي تصميم حازم قال: «هل سترتبين أشيائي في الصندوق، وترسلينه إليَّ في الحال؟»، وكان عليه على الرغم منه أن يهز رأسه في دهشة، فما أسرع أن التقطت تيريز التضمينات التي توهمت أن سؤاله لها يتضمنها، وفي اقتناعها بوجود أشياء في ذلك الصندوق، لا يجب أن يراها أي شخص، لم تُضِعْ لهذا وقتًا، ولو لمجرد أن تنظر إلى كارل، أو حتى تشد على يده، لكنها همست فقط: «بلا شك يا كارل، في الحال، سوف أرتب الصندوق في هذه اللحظة ذاتها!»، واختفت! إلا أن جياكومو لم يستطع الآن أن يمنع نفسه أكثر من ذلك، وفي اضطرابه لطول انتظاره، صاح قائلًا: «روسمان، إن الرجل قد أثار مشاجرة في الممر، ورفض الخروج من الفندق!، إنهم يريدون أن يذهبوا به إلى المستشفى، إلا أنه يعترض على

ذلك، ويقول إنك لن تدعهم يأخذونه إليها، إنه يقول إن علينا أن نحضر تاكسيًّا، يقله إلى البيت، وأنك ستدفع أجر التاكسي، فهل ستدفعه؟!».

قال رئيس السفرجية: «يبدو أن الرجل يعول عليك كثيرًا!» فهز كارل كتفيه، وأحصى نقوده في كف جياكومو قائلًا: «هذا هو كل ما معي!».

قال جياكومو، وهو يشخشخ بالنقود: «إن عليّ أن أسأل أيضًا إن كنت ستستقل التاكسي معه؟!».

فقالت المديرة: «لا، إنه لن يذهب».

فقال رئيس السفرجية مسرعًا، دون أن ينتظر حتى يغادر جياكومو الحجرة:

«حسنًا يا روسمان، لقد فصلت الآن من هنا!»، وأطرق رئيس البوابين برأسه عدة مرات كما لو كانت تلك الكلمات كلماته هو، وليس رئيس السفرجية سوى الناطق بلسانه: «إن أسباب فصلك هي أسباب لا يمكنني أن أعلنها على الملأ؛ لأنني في تلك الحالة سأضطر إلى أن أرسلك إلى السجن!»، ونظر رئيس البوابين في وحشية شديدة نحو المديرة؛ لأنه كان يعلم تمامًا أنها كانت هي السبب في تلك المعاملة البالغة الرقة: «والآن اذهب إلى «بست»، وبدل ملابسك وسلم إلى «بست» زيك هذا الذي ترتديه وغادر الفندق في الحال، غادره في الحال».

وأغلقت المديرة عينيها، وكأنها قد رغبت بذلك أن تؤكد لكارل ما قاله رئيس السفرجية، وعندما انحنى، وهمّ بالخروج من الحجرة، رأى

رئيس السفرجية، ممسكًا بيد المديرة، وقد راح يتحسسها مداعبًا إياها خلسة، وأوصل رئيس البوابين كارل إلى باب الحجرة بخطوات ثقيلة، ولم يدعه يغلق بابها خلفه، بل أبقاه مفتوحًا، لكي يصيح خلفه قائلًا: «في خلال ربع دقيقة، يجب عليك أن تمر بمكتبي، وأن تغادر الفندق، عن طريق الباب العمومي، فانتبه إلى هذا».

وأسرع كارل بأقصى سرعته، لكي يتجنب أي تكدير عند رحيله، إلا أن كل شيء سار على نحو أكثر بطئًا مما رغب، فلم يجد «بست» أولًا، وفي هذا الوقت، وقت تناول الإفطار كان الفندق يمتلئ بحشود هائلة من الناس، ثم ظهر أن صبيًّا آخر كان قد استعار بنطلون كارل القديم، وكان على كارل أن يفتش كل شماعات الملابس التي بجوار كل السرر تقريبًا قبل أن يعثر على بنطلونه، وعلى هذا فقد انقضت خمس دقائق على الأقل، قبل أن يبلغ الباب العمومي، وأمامه مباشرة كانت إحدى السيدات تسير في رفقة أربعة رجال، واتجهوا جميعًا نحو سيارة كبيرة كانت في انتظارهم، وكان أحد الخدم يفتح الباب بينما فرد ذراعه الطليقة جانبًا، في محاذاة كتفه على امتدادها، وقد بدا ذلك وضعًا بالغ التأثير، إلا أن رغبة كارل في أن يغادر الفندق دون أن يلحظه أحد خلف هذه المجموعة الراقية من النزلاء راحت عبثًا، ذلك أن رئيس البوابين قد أمسكه من ذراعه، وسحبه إلى الخلف من وسط اثنين من السادة، بعد أن وجه إليهما كلمة اعتذار.

تساءل قائلًا وهو ينظر شزرًا إلى كارل، كما لو كان يتفحص ساعة غير مضبوطة:

«هل تعتبر هذه المدة ربع دقيقة؟! تعالَ هنا»، أضاف هذا وهو يدفعه نحو مكتب رئيس البوابين الواسع الذي كان كارل متشوقًا في وقت من الأوقات شوقًا زائدًا إلى أن يتفحصه. إلا أنه قد شمل ذلك المكتب الذي دفعه الرجل إلى داخله دفعًا بنظرة ارتياب، وخلف الباب مباشرة، تملص، وحاول أن يدفع رئيس البوابين بعيدًا، ويهرب.

قال رئيس البوابين: «لا.. لا.. إلى هنا، إلى الداخل»! وهو يدفعه ثانية إلى داخل الحجرة.

قال كارل: «ولكنني قد طردت!» وهو يعني بذلك أن أحدًا في الفندق، لا حق له الآن في أن يصدر إليه أي أوامر، فقال رئيس البوابين: «طالما أنني أقبض عليك، فإنك لم تطرد بعد»!، وكان ما قاله حقًّا بالفعل، وبالإضافة إلى ذلك، فإن كارل لم يجد سببًا فعليًّا لمقاومة رئيس البوابين، فما الذي عساه أن يحدث له في نهاية الأمر، أكثر مما قد حدث له بالفعل؟ كما أن جدران المكتب، كانت أيضًا تتألف من ألواح هائلة من الزجاج، يمكنك من خلالها أن ترى تيارات الداخلين والخارجين من النزلاء في البهو، بغاية الوضوح، كما لو كنت تقف بينهم. نعم، كان يبدو، وكأنه لا يوجد بالحجرة كلها أية زوايا أو أركان يمكن أن يختفي فيها كارل عن أعين هؤلاء الناس، ولا يهم مدى السرعة التي كانوا يندفعون بها في حركتهم خارج تلك الحجرة، حيث كانوا يحملون أمتعتهم فوق رؤوسهم بأذرعهم الممدودة إلى أعلى، ورؤوسهم المحنية، وعيونهم المحملقة، بهذه الصورة، كانوا يشقون طريقهم، وكان كل منهم لا يتمكن من أن يلقي نظرة إلا بصعوبة داخل

حجرة رئيس البوابين، ذلك أن الإعلانات والأخبار كانت معلقة كلها خلف الألواح الزجاجية. تلك الإعلانات والأخبار التي كانت تهم نزلاء الفندق وموظفيه معًا. وقد كان البهو، ومكتب رئيس البوابين، بالإضافة إلى ذلك على اتصال مباشر ببعضهما، ذلك أن اثنين من مساعدي رئيس البوابين كانا يجلسان إلى نافذتين هائلتين متحركتين، وكانا مشغولين دائمًا في توجيه المعلومات في كافة الموضوعات، كان هذان الرجلان مثقلين حقًّا بالعمل. وقد استطاع كارل أن يدرك ببصيرة نافذة، أن رئيس البوابين كان قد اخترع تلك الحيلة، على سبيل ترقية نفسه، كان هذان الرجلان اللذان يقومان بالرد على الاستفسارات — من الخارج لم يكن يسعك في الحقيقة أن تتصور كيف كان يجري عملهما ـ يتحدثان في نفس الوقت إلى عشرة وجوه متسائلة أمام كل منهما على الأقل، ومن هؤلاء العشرة، الذين كانوا يتغيرون باستمرار، كانت ترتفع دائمًا ضجة مكونة من خليط مختلف من اللهجات. كما لو كان كل منهم يستفسرون في وقت واحد عن أشياء مختلفة، بينما كان آخرون يتنافسون أيضًا، بعضهم مع بعض، أكثرهم يريدون أن يودعوا شيئًا في مكتب رئيس البوابين، أو يستردوا منه ودائع كانوا قد أودعوها فيه، ولهذا كنت ترى حركات الأيدي المتشابكة في حركة عنيفة، وهي ترتفع من وسط الجمع، أو رجلًا لا يطيق صبرًا فيتفحص جريدة كانت تنفرد في الهواء للحظة، وهي تصفع الوجوه. كل هذا كان على مساعدي رئيس البوابين أن يتحملاه، لم يكن مجرد الكلام كافيًا لأداء عملهما، كانا يثرثران، وكان أحدهما، بصفة خاصة، وهو رجل

حزين، له لحية داكنة، تكاد تخفي كل وجهه، كان يوزع المعلومات، ويرد على الاستفسارات دون أن يتوقف لالتقاط أنفاسه، ولم يكن لينظر إلى المكتب حيث كان يسلم — بلا توقف ـ عديداً من الأشياء التي أصحابها خارج النافذة، ولا كان ينظر في وجوه المتسائلين، بل ينظر أمامه مباشرة، نظرة لا تحيد، لكي يقتصد في مجهوده على الأغلب، ويحتفظ بقواه، وكانت لحيته أحيانًا ما تشارك في توضيح ردوده، وفي أثناء الفترة القصيرة التي قضاها كارل بداخل تلك الحجرة، استطاع أن يتبين إلى حد ما بعضًا مما كان يقال، بقدر ما أمكنه ذلك، على الرغم من غموض الأساليب المختلفة لنطق اللغة الإنجليزية، وكان القليل مما سمعه أيضًا قد سمعه ببعض اللغات الأجنبية التي كانت تتطلبها اللحظة، وكان الاضطراب بالإضافة إلى ذلك هو السبب في أن الجواب عن أي سؤال من تلك الأسئلة كان ينطق في سرعة بالغة في أعقاب الجواب الآخر، حتى أنه لم يكن من السهل تمييز تلك الإجابة من غيرها، ولهذا كان السائل يستمع في انتباه شديد، معتقداً أن إجابة سؤاله لم تكن قد انتهت بعد، دون أن يتمكن من أن يدرك في اللحظة المناسبة أن إجابة سؤاله كانت قد انتهت، وكان عليك أن تعتاد على ما اعتاده مساعدا رئيس البوابين هذان في عدم طلبهما من الجمهور إعادة أي سؤال، حتى ولو كان غامضًا في نصه، طالما كان من الممكن الإحساس بالمقصود منه عامة، وعندئذ كان المساعد يأتي بحركة من رأسه لا تكاد تبين، معلنًا بها أنه لن يجيب عن هذا السؤال بصيغته الراهنة، وأن من شأن السائل أن يكتشف وجه النقص في السؤال، وأن

يعيد السؤال مرة أخرى في صورة أكثر دقة، وكان هذا يتسبب في تعطيل كثير من الناس لوقت طويل أمام نافذة الاستعلامات، وكان لكل من المساعدين هذين صبي صغير يعمل كساع خاص لمساعدته، كان عليه أن يندفع هنا وهناك ليحضر من خزانة ما، شيئًا يحتاجه المساعد، ويبحث كذلك عن الطلبات في عدد من مختلف الدواليب الأخرى، كانت هذه الوظيفة من أكثر الوظائف أجرًا، وإن كانت أيضًا من أشد الوظائف التي يحصل عليها صبية الفندق إرهاقًا في العمل، وكان الصبية يجهدون أنفسهم إلى حد كبير في تلك الوظيفة، ويتكلفون جهدًا يتفوق كثيرًا على جهد المساعدين اللذين لم يكن عليهما سوى أن يفكرا ويتحدثا، بينما كان على الصبية أن يفكروا وأن يهرولوا هنا وهناك لإحضار الطلبات في وقت معًا، فلو حدث أن أحضر أحدهم شيئًا غير ما طُلب منه إحضاره، فإن المساعد كان يضطر إلى أن يلقي عليه محاضرة طويلة، وبلطشة خفيفة من يده كان يطوح بالشيء الذي أحضره الصبي أرضًا، بعد أن يضعه الصبي على الطاولة التي أمام نافذة الاستعلامات، وكان تغيير نوبات عمل هؤلاء المساعدين أمرًا شائقًا، وقد حدث بعد فترة قصيرة من دخول كارل إلى تلك الحجرة، وكانت تلك التغييرات تحدث كثيرًا في خلال نوبات عمل النهار على الأقل، لأنه ربما لا يتسنى لأي رجل في هذه الدنيا أن يحتمل البقاء أمام طاولة نافذة الاستعلامات تلك أكثر من ساعة، وعند حلول لحظة الراحة يدق جرس ما، فيظهر في الحال من خلال أحد الأبواب الجانبية، المساعدان اللذان حل دورهما الآن في العمل، يتبع كل منهما الصبي المكلف

بمساعدته، فيجلسان عندئذ في تكاسل إلى النافذتين، ويتأملان الناس الذين يقفون خارج النافذتين للحظة، حتى يمكنهما أن يكتشفا على وجه الدقة نوع الأسئلة التي عليهما أن يجيبا عنها، وعندما تبدو اللحظة مناسبة للاستفسار، كان القادم الجديد يربت على كتف المساعد الذي عليه أن يرد على أسئلته، فيجيبه في الحال، على الرغم من أنه لا يكون قد ألقى مجرد نظرة إلى ما كان يجري خلف ظهره، وغادر السائل مكانه، ويحدث هذا كله بغاية السرعة لدهشة الناس الذين يقفون في الخارج، هؤلاء الذين كانوا ينزعجون عندما يفاجأون بشخص آخر غريب أمامهم فجأة، أما الرجلان اللذان تكون قد حلت نوبة راحتهما من العمل، فإنهما يمددان جسديهما ثم يصبان الماء فوق رأسيهما الملتهبين عند حوضين من أحواض الغسيل أُعدا لهما، لكن لا يكون للصبيين اللذين يساعدانهما أن يتمددا مثلهما على الفور؛ لأنهما يكونان مشغولين لبعض الوقت في التقاط الأشياء المتناثرة، المختلفة التي تناثرت في خلال نوبة عملهما، وإعادتها إلى مكانها السابق.

راقب كارل هذا كله بانتباه شديد، عن قرب، في خلال بضع دقائق، ثم أصابه بعد ذلك صداع خفيف فتبع في هدوء، رئيس البوابين الذي قاده إلى داخل الحجرة، وكان رئيس البوابين قد لاحظ في وضوح، التأثير العميق الذي تركه أسلوب ذلك العمل، في الرد على استفسارات النزلاء، فقد لوح بذراعه فجأة قائلًا:

ـ هذه هي الطريقة التي يسير عليها العمل هنا كما ترى!، ولم يكن كارل بلا شك عاطلًا في الفندق، إلا أنه لم تكن لديه فكرة عن هذا

العمـل، وتطلـع أمامـه، وقـد نسـي تمامًـا أن رئيس البـوابين كـان عـدوه اللدود، وأطرق في إعجاب صامت، فبدا هذا مرة أخرى لرئيس البـوابين تقديرًا زائدًا للمساعدين، وتهيأ له في هـذا شـيء من التقليـل من قـدره، فصاح دون أن يحفل بأن الجميع كانوا يسمعونه، محاولًا على مـا يبـدو أن يستغل سذاجة كارل.

ـ إن العمـل هنـا بـالطبع أكـثر الأعمـال غبـاء في الفنـدق بأكملـه، ولا تحتاج لكي تقوم بهـذا العمـل سـوى أن تسـتمع لمـدة سـاعة، لكي تعلم تمامًا كل الأسئلة التي يمكن أن توجه إليك، فيما عدا ذلـك من الأسـئلة فليس عليك أن ترد عليها مطلقًا، ولو لم تكن بمثل تلك الوقاحة، وسوء الطبع، ولو لم تكذب، وتتكاسل، وتعربد، وتسرق، فربما كنت وضعتك أمام إحدى هذه النوافذ، بما أنها وظيفة تناسـب ذوي الـرؤوس الصـماء! وتجاهل كارل الإهانة التي وجهها إليه رئيس البوابين، فلقد كان الأخـير في حالة من السخط، بدا له فيها العمل الشاق، الشريف الذي كان يقوم به المساعدان، شيئًا يمكن الاستهانة به، والسـخرية منـه، مـع أنـه — هـو الـذي يسـخر من هـذا العمـل ـ لـو خطـر لـه أن يجـازف بـالجلوس إلى إحدى هاتين النافذتين، فسـوف يكـون هـدفًا للسـخرية في خلال دقـائق قليلة، ولتعين عليه أن يترك هذا العمل في الحال لعجزه عن احتماله.

قال كارل، وكان اهتمامه بمكتب رئيس البوابين قد أشبع الآن للغاية:

ـ دعني، فلست أرغب في أن يربطني بك أي شيء، أكثر من ذلك.

فقال رئيس البوابين، وهو يسحق ذراع كارل، حتى تخدرت، وهو يجره إلى الطرف الآخر من المكتب، فهل تمكن الناس الذين في الخارج أن يروا هذا التهديد، ولو كانوا قد لمحوه، فماذا كان ظنهم بما قد يترتب عليه، طالما أن أحداً منهم لم يعترض على ذلك، ولا دقّ آخر على الزجاج، لكي يلفت نظر رئيس البوابين إلى أنه يرقبه، وأنه ليس له — أمام كل هؤلاء الناس — أن يعامل كارل كما يحلو له؟ إلا أن كارل سرعان ما فقد الأمل في تلقي أية معونة من هؤلاء الناس الذين يملأون ذلك البهو، فقد جذب رئيس البوابين أحد الحبال، فسقطت في الحال فوق الألواح الزجاجية التي تغطي أحد جوانب حجرة المكتب ستائر سوداء، كانت تمتد من السقف إلى الأرض، بسرعة البرق، وفي هذا الجانب من المكتب كان يوجد أيضًا بعض الناس، إلا أنهم كانوا مشغولين بعملهم، بأقصى سرعة، فلم يكن يسعهم أن يروا أو يسمعوا أي شيء لا يتعلق بعملهم، وكانوا هم أيضًا يتبعون مباشرة رئيس البوابين، ولهذا كانوا على استعداد لإخفاء أي شيء ينوي رئيس البوابين أن يفعله، لقد كان هناك ستة من البوابين المساعدين يجلسون إلى ستة تليفونات، وكان نظام عملهم يتضح من النظرة الأولى، فقد كان واحد من كل اثنين، يدون المحادثات، ويعطي هذه المذكرات لزميله الذي يرسلها عن طريق تليفون آخر، وكانت أجهزة التليفونات حديثة الطراز، فلم تكن تلك الأجهزة في حاجة إلى صناديق؛ ذلك لأن رنين جرس التليفون، لم يكن يرتفع عن مجرد الذبذبة، وكان مجرد الهمس في «المرسل» يتضخم بواسطة أجهزة كهربائية، حتى يبلغ الطرف الآخر من

الخط التليفوني في صوت كقصف الرعد، ولهذا السبب لم يكن المرء يكاد يسمع أصوات الرجال الثلاثة الذين كانوا يتحدثون في التليفونات، وربما ظن المرء أنهم كانوا يهمسون لأنفسهم في المرسل، بالحديث عن تفاصيل بعض الأحداث، بينما كان الثلاثة الآخرون صامتين، وكأنما أسكتهم الصوت القاصف الذي كان يصلهم عن طريق السماعات التي كانوا يضعونها على آذانهم، على الرغم من أن أحدًا سواهم لم يكن يسمع تلك الأصوات الراعدة مطلقًا، وكانوا مطرقين برؤوسهم على الأوراق التي كانوا يدونون عليها ملاحظتهم، وكان ثمة صبي يعمل كمساعد، هنا أيضًا، لكل من الرجال الثلاثة الذين كانوا يهمسون في التليفونات، ولم يكن هؤلاء الصبية الثلاثة يفعلون شيئًا سوى أن يحنوا بالتناوب رؤوسهم نحو رؤسائهم الثلاثة في وضع تَسَمُّع لما قد يقولونه لهم، ثم يتحولون في الحال إلى البحث ـ كما لو كانوا قد لدغوا لمجرد سماعهم بالأوامر الموجهة إليهم ـ عن أرقام بعض التليفونات في دفاتر ضخمة صفراء، وكانت خشخشة تلك الكتل من الأوراق الكثيرة، تكتم في سهولة أي صوت يصدر عن تلك التليفونات.

لم يستطيع كارل أن يمنع نفسه عن مراقبة هذا كله، على الرغم من أن رئيس البوابين الذي كان قد جلس الآن، ظل ممسكًا بتلابيبه، وكأنه يحتضنه.

قال رئيس البوابين، وهو يهز كارل، وكأنه يريد منه فقط أن يدير وجهه ناحيته لكي ينتبه إلى ما سوف يقوله: «إنه واجبي، فلو أن رئيس

السفرجية أهمل في ملاحظة إنجاز أي شيء، لأي سبب من الأسباب، معللًا إهماله، بانشغاله في المشاركة في إدارة الفندق، فإنني أقوم بالإشراف على إنجازه بأقصى ما يسعني من الاهتمام، إننا نبذل أقصى جهدنا، لكي نساعد بعضنا بعضًا، فلو لم يطرد سير العمل على هذا النحو، فليس من الممكن أن يتصور المرء كيف تنسجم هذه الهيئة الهائلة التي تعمل في أنحاء الفندق كله، وقد تقول إنني لست رئيسك المباشر، حسنًا، وأنا أقول لك بدوري إنه يتساوى لدي أن أضطلع بعملي أو بأي أعمال أخرى قد يهملها الآخرون، وبالإضافة إلى ذلك، فإنني كرئيس للبوابين، أعد بصورة ما، أهم من أي شخص آخر هنا؛ لأنني المكلف بحراسة جميع أبواب الفندق، هذا الباب العمومي، والأبواب الوسطى الثلاثة، ولا داعي لذكر باقي الأبواب الأخرى التي لا حصر لها، والفتحات التي لا أبواب لها، وبالطبع يتعين على جميع أفراد طاقم الخدمة الذين يصلهم عملهم بي، أن يطيعوا أوامري، طاعة تامة، ولي بالإضافة إلى هذا أيضًا تصريح من إدارة الفندق، بألا أدع أي شخص ـ يثير مظهره أدنى ريبة ـ يخرج من باب الفندق، وإنك بالتحديد، الشخص الذي يثير ارتيابي، والذي يبدو مريبًا للغاية بصفة عامة». كان فرحًا جدًّا بنفسه، حتى لقد رفع يده، ونزل بها في خبطة موجعة على كارل، وأضاف قائلًا: وقد بلغ الفرح بنفسه حدًّا حسب نفسه معه ملكًا من الملوك «من المستحيل أن تخرج من الفندق، عن طريق أي باب من الأبواب الأخرى، وإنني لم أكلف نفسي بالطبع مشقة إصدار أية أوامر بخصوصك، وحيث إنك الآن أمامي هنا، فسوف أصفي كل

حسابي معك، إنني لم أشك مطلقًا في أنك ستحرص على لقائنا هنا عند الباب العمومي، فمن القواعد الثابتة أن الأشخاص الوقحين، المشاغبين، يبدون في ثوب الفضيلة عندما يتضح لهم أنهم على وشك أن يواجهوا نتائج أعمالهم، ولا شك أنك ستتمكن من ملاحظة ذلك، ملاحظة كافية، من خلال تجربتك الشخصية».

قال كارل، وهو يستنشق الرائحة الغريبة المثيرة، التي كانت تفوح من رئيس البوابين، والتي لم يلاحظها، حتى أتيح له أن يقف ملتصقًا به على هذا النحو، تلك الفترة الطويلة: «لا تتصور أنني تحت رحمتك تمامًا؛ لأنني أستطيع أن أصرخ».

فقال رئيس البوابين، بغاية الهدوء والسرعة، التي ربما كان قد اعتاد أن يصطنعها كلما دعته الحاجة إلى ذلك: «وفى استطاعتي أن أخرس صوتك! هل تظن حقيقة، إذا تسببت بصراخك في إحضار أي شخص إلى داخل هذا المكتب، أن تجد شخصًا واحدًا يمكن أن يصدق كلمة واحدة مما قد تقوله ضدي، ضد رئيس البوابين؟ يمكنك الآن أن ترى أي آمال حمقاء، تلك التي تأملها! ودعنى أخبرك، بأنك كنت تبدو شخصًا محترمًا عندما كنت ترتدي زي الفندق، لكنك الآن في ملابسك هذه، التي لا يمكن أن تصنع إلا في أوروبا»! وجذب كارل من ملابسه التي كانت تبدو ـ مع أنها كانت جديدة تمامًا منذ خمسة أشهر ـ رثة، ومتكرمشة وملوثة أيضًا، بسبب إهمال صبية المصاعد، الذين كان يتعين عليهم طبقًا للتعليمات العامة أن يحتفظوا بنظافة أرضية عنبر نومهم، وتلميعها، وإزالة الأتربة التي تغطيها، لكنهم كانوا

لتكاسلهم، وبدلًا من أن يقوموا بتنظيفها كما ينبغي، كانوا يلطخون تلك الأرضية كل يوم بمختلف أنواع الزيوت، ويلطخون أيضًا جميع الملابس المعلقة فوق المشاجب، وكان في مقدور كل منهم أن يلقي بملابس الآخر حيث يشاء، وكان هناك من لا يستعمل ملابسه الخاصة، لكنه لا يخطئ في العثور على ملابس جاره المخبأة، وسرعان ما يستعيرها في الحال، كان هذا الصبي، هو الذي كان عليه الدور في تنظيف عنبر النوم، اليوم، ولهذا فلم تكن ملابس كارل ملطخة فقط بالبقع الزيتية، بل كانت غارقة فيها بالفعل من أعلاها إلى أسفلها، وكان رينيل هو الشخص الوحيد الذي كان قد اكتشف مكانًا سريًّا، كان يخفي فيه ملابسه الغالية، فكان من الصعب اكتشافها واكتشاف مكانها، ولم يكن الخبث أو البخل الذي يدفع الصبية إلى استعارة الملابس، لكن كان يدفعهم إلى ذلك، التعجل والإهمال، فقد كانوا يرتدون، في بساطة، أي ملابس يتصادف وجودها أمامهم، وكانت بدلة رينيل قد أصابتها بقعة حمراء مستديرة، من الزيت، في وسط الظهر، وكان من السهل في المدينة، أن تدرك العين الخبيرة في وضوح، من تلك البقعة، أن ذلك المتألق الصغير المختال بنفسه، ليس سوى صبى مصعد في نهاية الأمر.

وعندما تذكر كارل هذا كله، قال لنفسه إنه قد عانى ما فيه الكفاية في عمله كصبي مصعد، وكانت معاناته تلك، قد ضاعت عبثًا كلها؛ لأن وظيفته لم تساعده، كما كان يأمل على أن يتقدم خطوة إلى الأمام، بل لقد جرته بدلًا من ذلك، إلى وضع أشد بؤسا من وضعه الأول، ولقد

أوشكت فوق هـذا كلـه أن تـؤدي بـه إلى السـجن، وكـان لا يـزال علاوة على هـذا، في قبضـة رئيس البـوابين، الـذي كـان بلا شـك، يبحث عن الوسيلة التي تتيح له أن يهينه أقصى إهانـة ممكنـة، فصـاح كـارل، ناسـيًا تمامًا أن رئيس البوابين، هو آخـر شـخص يمكنـه أن يحتكم إلى العقـل، ضاربًا جبهته عدة مرات، بيده الطليقة: «وحتى لو فرضنا أنني قد مـررت بك دون أن أوجه إليـك التحيـة، فكيـف يمكن لرجـل ناضـج مثلـك، أن تبلغ به الرغبة في الانتقام، إلى هذا الحد من العنف، لمثل هذا الإهمـال البسيط؟».

قال رئيس البوابين: «لا رغبة لـدي في الانتقـام، ولكـنـي أرغب فقـط في تفتيش جيوبك، وتأكد، من أنني مقتنع تمام الاقتناع، بأنني لن أعثر فيها على أي شيء لأنك ربمـا كنت حـذرًا فسـلمت كـل شـيء إلى صـديقك أولًا بأول، شيئًا فشيئًا كل يوم، لكن لابد من تفتيشك مع ذلك».

ودفع يده داخل أحـد جيـوب معطـف كـارل، بغايـة العنـف، حـتى لقـد تفتقت الخياطـة الجانبيـة للجيب، وقـال: «إذن فلا شـيء هنـا»، وراح يقلب في يده الأشياء الـتي وجـدها بـداخل الجيب، وكـانت تتـألف من نتيجـة جيب يصـدرها الفنـدق، وقطعـة من الـورق عليهـا تمـرين في المعـاملات التجاريـة، وبضـعة من أزرار المعطـف، والبنطلـون وبطاقـة المديرة، ومبرد أظافر، ألقاه إليه أحد الـنزلاء عنـدما قـام بتعبئـة صـندوق ملابسه، ومرآة جيب قديمة، كان رينيل قد أعطـاه إياهـا، كهديـة لقيامـه بعمله حوالى عشر مرات متتالية، وبعض الأشـياء التافهـة الأخـرى، قـال رئيس البوابين ثانية، وهو يلقى بها جميعًا تحت المنضدة، كما لـو كـان

ذلك المكان، هو المكان المناسب لكل ما يحمله كارل من أشياء، ولو اتضح أنها لم تكن مسروقة: «إذن فلا شيء هنا!».

قال كارل في نفسه، ولابد أن وجهه كان قد تضجر: «هذه هي القشة الأخيرة»!، وبينما كان رئيس البوابين قد انتقل إلى تفتيش جيبه الآخر في لهفة، فاندفع كارل مخلصًا كم قميصه من قبضة الرجل، في حركة مفاجئة، وارتطم بأحد مساعدى البوابين، في قفزته العشوائية الأولى، فطرح الرجل في عنف، على تليفونه، واندفع يجري في الحجرة المكتظة بالأشياء المختلفة، نحو الباب، في سرعة ليست خارقة في الحقيقة، كما كان يود، لكن في سرعة كانت كافية لخروجه من الحجرة قبل أن يتمكن رئيس البوابين من أن ينهض من مكانه بمعطفه الثقيل، ولم يكن نظام الفندق بالغ الدقة، ولقد دقت بضعة أجراس، هذا حق، إلا أن السماء وحدها كانت تعلم لأي غرض دقت تلك الأجراس؟ وكان بعض موظفي الفندق قد اندفعوا نحو المدخل في هذا الاتجاه، وفي ذاك، في أعداد كبيرة، حتى كان للمرء أن يظن أنهم قد عزموا على ألا يسمحوا مطلقًا لأي شخص بالخروج لشدة الزحام، ورغم ذلك، فسرعان ما أصبح كارل في الخارج، إلا أنه ظل واقفًا أمام الفندق، لأن سيلًا لا ينقطع تدفقه من السيارات كان يتحرك في بطء أمام مدخل الفندق، فلم يتمكن كارل من أن يبلغ الشارع، وكانت السيارات التي كانت تتأهب للانطلاق إلى الأمام، تلامس بعضها بعضًا بالفعل، وتدفع بعضها إلى الأمام، وكان ثمة من يحاول أن يعبر الطريق هنا وهناك في عجلة، ومن ثم يلقي بنفسه داخل أقرب عربة، كما لو

كانت تلك العربات وسائل عامة لعبور الشارع، دون أن يعبأ مطلقًا بما إذا كان بداخلها سائق أو اثنين فقط من الخدم، أو مجموعة من السادة، كان يبدو هذا السلوك في رأي كارل سلوكًا يتصف بالصلف، ورأى أن على المرء أن يكون واثقًا تمامًا لكي يغامر مثل تلك المغامرة، فربما ألقى بنفسه داخل عربة يتفق أن يستاء راكبوها لسلوكه، فيلقون به خارجها، وقد يحدث شجار بينهم، على أن شيئًا لم يكن ليشغل بال كارل أكثر مما قد حدث له حتى الآن، وما الذي يمكن أن يشغل بال صبي مصعد بائس ومشبوه مثله، وفوق هذا، فإن صف العربات لا يمكن أن يستمر في تدفقه إلى الأبد، وطالما ظل بالقرب من الفندق، أبعد ذلك عنه نظرات الارتياب، حتى بلغ أخيرًا، مكانًا لم يكن صف العربات قد انقطع فيه تمامًا، لكنه كان قد استدار مبتعدًا في وسط الشارع، كما ابتعدت العربات قليلًا بعضها عن بعض، وكان على وشك أن ينسل من خلال حركة المرور التي كانت قد هدأت الآن في الشارع، عندما لفت نظره وجود أشخاص أشد منه إثارة للريبة، وربما كانوا قد أطلق سراحهم حديثًا، ثم سمع من يدعوه باسمه، من مكان قريب، فاستدار، ولمح في مدخل باب صغير منخفض، كان يبدو أشبه بمدخل إلى قبو، اثنان من عمال المصاعد، كان يعرفهما جيدًا، كانا يرفعان، وقد نال منهما الإجهاد، نقالة يستلقي فوقها ــ كما أدرك الآن ــ روبنسون، وكانت رأسه، ووجهه، وذراعاه، مربوطة كلها بالضمادات الكثيفة، وقد فزع عندما رآه وهو يرفع يديه إلى عينيه ليمسح دموعه

بطرف الضمادات، دموع الألم، أو الأسى، أو لعلها أن تكون دموع الفرح لعثوره ثانية على كارل.

صاح قائلًا في عتاب: «روسمان، لماذا تركتني انتظرك طول هذا الوقت، لقد ظللت ساعة كاملة، أصارعهما لكي أمنعهما من الذهاب بي، قبل أن تصل، إن هذين الشخصين ـ ولطم أحد الصبيين على رأسه، كما لو كانت ضمادته تحميه من أن يتلقى منه لطمة ردًّا على لطمته تلك له ـ آه يا روسمان لقد كان عليّ أن أدفع غاليًا ثمن هذه الزيارة!»، قال كارل، وهو يتقدم نحو المحفة التي وضعها الصبيان على الأرض، لكي يسترخيا قليلًا: «لماذا؟، ماذا فعلا بك؟».

فتأوه روبنسون قائلًا: «أتسأل هذا السؤال، بينما ترى حالتي! تأمل منظري، يبدو أنهم قد أصابوني بالعرج الذي سيلازمني طوال حياتي، إنني أعاني آلامًا فظيعة من هنا إلى أسفل، حتى هنا ـ وأشار أولًا إلى رأسه، ثم إلى أصابع قدميه ـ ولقد كنت أريدك فقط أن ترى كيف كان ينزف أنفي، إن صديريتي قد تلفت تمامًا، ولقد اضطررت إلى أن أطوح بها خلفي أيضًا، وبنطلوني أصبح خرقة مهلهلة، إنني الآن في سروالي الداخلي»، ورفع البطانية قليلًا، وطلب من كارل أن ينظر تحتها، «فما هو مصيري بحق الجحيم؟ إنني سوف أرقد في فراشي لعدة شهور على الأقل، ولعلني أقول لك الآن، إنه لا يوجد أحد ليعني بتمريضي سواك، إن ديلامارش قليل الصبر جدًّا، فلا تتركني يا روسمان»!، ومد روبنسون ذراعه إلى كارل الذي تباعد عنه، أملًا أن يحظى بعطفه، عن طريق مداعبته له: «لماذا حضرت يا كارل؟»، ردد روبنسون ذلك عددًا من

المرات، لكي يُذكِّر كارل، بأنه كان مسئولًا إلى حد ما عما لاقاه من سوء، ولم يتطلب الحال من كارل سوى دقيقة واحدة لكي يتبين أن عويل روبنسون لم يكن بسبب جراحه، لكن كان سببه وخمة السُكر المرهقة التي كان لا يزال يعاني منها؛ لأنه بعد أن استغرق في النوم، ثملًا حتى الموت، كان قد أوقظ، ليجد اللطمات لدهشته تنهال عليه في وحشية، حتى أفقدته كل شعوره بالواقع، وكان من الممكن تبين طبيعة جروحه البسيطة من الخرق القديمة التي استعملت كضمادات، والتي كان صبية المصاعد، قد ربطوا جروحه بها، على سبيل المزاح، لفة بعد لفة، في شيء من المبالغة، وكان الصبيان اللذان وقفا على كلا جانبي المحفة قد استغرقا في نوبات من الضحك، إلا أن هذا لم يكن هو المكان المناسب لإعادة روبنسون إلى وعيه، فقد كان الناس يتدفقون حولهم، دون أن يلقوا بالًا إليهم، ولا إلى المحفة، وكثيرًا ما كان بعض الأشخاص يتخطون روبنسون في قفزات بارعة، بينما ظل سائق التاكسي، الذي كان كارل قد دفع أجره، يصيح قائلًا: «هيا.. هيا»!، واستجمع صبيا المصعد قوتهما، ورفعا المحفة، وأمسك روبنسون بيد كارل في مداهنة: «هيا معنا، هيا!»، وعندما تذكر كارل ذلك الشخص الذي كان قد فر من بين يديه الآن! أليس من الممكن أن يأويه ظلام التاكسي بعيدًا عن الأنظار؟ وهكذا ألقى كارل بنفسه إلى جوار روبنسون، الذي أسند رأسه على كتفه، وشد الصبيان على يد كارل في حرارة، من خلال نافذة التاكسي، وهما يودعان زميلًا لهما، قضى معهما فترة من الوقت. واستدار التاكسي في دائرة حادة، إلى

الطريق العمومي، وبدا وكأن حادثة ما لابد أن تقـع، إلا أن سـيل المـرور المتـدفق المختلـط، ذاب بعضـه في بعض، وذاب فيـه كـذلك انـدفاع عربتهما كاندفاع السهم، إلى الأمام.

الفصل السابع

مأوى

بدا الشارع الذي توقف فيه التاكسي شارعًا من شوارع إحدى الضواحي المنعزلة، فقد كان كل شيء هادئًا، وكان الأطفال يجلسون فوق حافة الرصيف، وثمة رجل يحمل فوق كتفه كومة من الملابس القديمة، كان واقفًا ينظر في إمعان إلى نوافذ المنزل التي كانت تعلوه، وراح ينادي على بضاعته، وكان كارل مجهدًا غاية الإجهاد، حتى لقد شعر بوعكة عند هبوطه من السيارة إلى أسفلت الشارع، الذي كان دافئًا، ومتألقًا تحت أشعة شمس الصباح.

وهتف قائلًا لروبنسون الذي كان يجلس بداخل التاكسي: «هل تسكن هنا حقيقة؟!».

وهمهم روبنسون الذي كان قد استغرق في النوم خلال الرحلة كلها، مؤكدًا بكلمات غامضة، وبدا عليه وكأنه كان ينتظر من كارل أن يحمله إلى خارج التاكسي.

قال كارل: «إذن فأنت لا تحتاج إليَّ بعد ذلك، وداعًا»! وهمَّ بالسير، نحو منحدر الشارع.

فصاح روبنسون، وقد انزعج انزعاجًا بالغًا، حتى لقد قام واقفًا في داخل التاكسي، إلا أن ركبتيه كانتا ترتجفان: «لكن يا كارل إلى أين تذهب بحق الجحيم؟!».

قال كارل، وهو يلاحظ تحسن روبنسون السريع: «عليَّ أن أذهب الآن».

فتساءل روبنسون قائلًا: «وليس عليك فقط سوى قميصك!»، فأجابه كارل قائلًا: «سأتمكن في الحال من أن أشتري لنفسي جاكتة»، وأومأ مؤكدًا ذلك لروبنسون، ورفع له يده مودعًا، وهمَّ بالسير في عزم، إلا أن السائق ناداه لحظتها قائلًا: «دقيقة واحدة يا سيدي!».

واتضح لسوء الحظ أن الرجل يطالبه ببقية الأجر، في مقابل الوقت الذي أنفقه في الانتظار أمام الفندق.

وصاح روبنسون من داخل التاكسي، مؤيدًا حق السائق في طلبه: «بالطبع، لقد أرغمتني على انتظارك تلك الفترة الطويلة هناك، ولابد لك أن تعطيه شيئًا علاوة على ما تقاضاه!».

وقال سائق التاكسي: «نعم، إن الأمر كذلك».

فقال كارل: «نعم، فقط لو كان معي أي نقود لكي أعطيها لك» وراح يبحث في جيوب بنطلونه، مع أنه كان يعلم أنه لن يجد شيئًا فيها.

فقال سائق التاكسي، وهو يقف أمام كارل: «ليس أمامي سواك لكي أطالبه ببقية أجري، ولا يمكنني أن أطلب شيئًا من رجل مريض!».

وخرج صبي صغير، له أنف متآكل من باب أحد المنازل، واقترب ووقف على بعد بضع خطوات قليلة، وراح يستمع إلى ما يقال، وأحنى أحد رجال الشرطة في أثناء مروره بهما رأسه، وتفحص الشخص الذي يرتدي القميص، ثم توقف بجواره.

وأخطأ روبنسون الذي كان لاحظ الشرطي، بالصياح نحوه، من نافذة التاكسي الأخرى، قائلًا: «لا شيء في الأمر، لا شيء»!،كما لو كان الشرطي شخصًا يمكن التخلص منه كذبابة، وتركز انتباه الأطفال الذين كانوا يرقبون الشرطي في البداية، أخيرًا على كارل، وعلى سائق التاكسي، واندفعوا جريًا نحوهما، وعند مدخل أحد الأبواب في الجانب الآخر من الشارع توقفت امرأة عجوز ببلادة، وراحت تحملق في الجميع.

وصاح صوت ما من أعلى قائلًا: «روسمان»!، كان صوت ديلامارش، الذي كان يقف في شرفة الطابق الأعلى، وكان من الصعب رؤيته بالتطلع إلى أعلى نحو السماء الزرقاء الشاحبة، لكنه كان يرتدي روبًا منزليًّا، بدا واضحًا، وكان ينظر إلى الشارع من خلال نظارة من نظارات الأوبرا، وبجانبه كانت توجد شمسية حمراء كبيرة، كانت ثمة سيدة تبدو جالسة تحتها، وصاح ديلامارش بأعلى صوته، لكي يسمعه كارل: «هالو! هل روبنسون هنالك أيضًا؟».

فأجابه كارل قائلًا: «نعم، ها هو»! كان كارل قد تشجع للحظة، وصاح روبنسون من داخل التاكسي في صوت أكثر ارتفاعًا: «نعم، ها أنذا!»، فصاح ديلامارش قائلًا: «هالو!، سوف أهبط إليكما حالًا».

ومال روبنسون خارج التاكسي، قائلًا: «ها هو ذا رجل!»، كان يوجه هذا المديح لديلامارش، إلى كارل، وإلى سائق التاكسي، وإلى الشرطي، وإلى كل من يهمه سماع ذلك، ونهض كيان ضخم، في الشرفة العليا،

حيث ظلوا يتطلعون جميعًا، مع أن ديلامارش كان قد غادرها لحظتها، واتضح أنها كانت امرأة بالفعل، وقفت تحت الشمسية، كانت ترتدي رداء فضفاضًا أحمر اللون، ورفعت منظار الأوبرا من على إفريز الشرفة، وراحت تتطلع من خلاله إلى الناس الذين تجمعوا في الشارع حول التاكسي، وبدا هؤلاء يحولون أنظارهم عنها، في بطء، وتطلع كارل إلى باب المنزل حيث يتوقع أن يظهر منه ديلامارش، ثم تطلع إلى الفناء الداخلي، الذي كان يعبره طابور لا يكاد ينقطع من العمال، كان كل منهم يحمل صندوقًا صغيرًا فوق كتفه، لكنه كان ثقيلًا فيما يبدو، وكان سائق التاكسي قد تقدم نحو عربته، واستغل الوقت في تلميع مصابيحها بخرقة قديمة، وأحس روبنسون بدهشة بالغة لتحسن أطرافه جميعًا، فعلى الرغم من فحصه الدقيق لها، لم يستطيع أن يحس إلا ببعض الآلام الخفيفة، ثم انحنى عندئذ، وراح يفك في حذر أحد الأربطة الثقيلة التي كانت تلتف حول ساقه، ورفع الشرطي عصاه السوداء في وضع مائل أمامه، وانتظر في هدوء، بذلك الصبر العميق الذي يتصف به رجال الشرطة، سواء كانوا في واجبهم العادي، أو في نوبة حراستهم، وجلس الصبي ذو الأنف المتآكل، فوق عتبة أحد الأبواب، ومدد ساقيه أمامه، وزحف الأطفال الباقون نحو كارل، مسافة أخرى قصيرة، فقد بدا لهم لحظتها أكثر الموجودين جميعًا في الأهمية، لقميصه الأزرق، مع أنه لم يلق بالًا إليهم.

وكان في استطاعة المرء، في الفترة التي انقضت قبل وصول ديلامارش أن يقدر ارتفاع المنزل، ووصل ديلامارش في عجلة شديدة، وتوقف

لحظة فقط لكي يحكم الرباط حول روبه، وصاح قائلًا: «هذا أنت إذن!»، وكانت لهجته تجمع بين المرح والقسوة، وفي كل خطوة كان يخطوها، كانت تبدو من تحت الروب بيجامته ذات الألوان الفاقعة، ولم يفهم كارل كيف كان ديلامارش يتجول في هذا الزي المنزلي في شوارع المدينة، وفي هذا المسكن الضخم، وفي الشارع العمومي، كما لو كان يتجول في فيللته الخاصة، وكان ثمة تغيير كبير كان قد طرأ على ديلامارش، كما طرأ تغيير كبير كذلك على روبنسون، وكان وجه ديلامارش الأسمر الحليق، البالغ النظافة، باستدارة عضلاته الخشنة، يوحى بالاعتذار، وبالاحترام، وكان لمعان عينيه القاسيتين، اللتين كان قد أغفلهما قليلًا، يشع بنظرة مفزعة، وكان روبه المنزلي البنفسجي اللون يبدو قديمًا بلا شك، وممتلئًا بالبقع، وكان يبدو واسعًا عليه كذلك، لكن كان يبرز أيضًا من تحت هذا الروب القذر، عند العنق، طيات ربطة عنق هائلة من الحرير السميك، الداكن اللون.

تساءل وهو يوجه حديثه إلى الجميع: «حسنًا!»، وتقدم الشرطي قليلًا نحوه، وانحنى على السيارة، وتطوع كارل بتقديم تفسير مقتضب للموقف قائلًا:

«إن روبنسون خائر القوى إلى حد ما، إلا أن في وسعه أن يصعد السلالم بسهولة لو حاول ذلك، أما هذا السائق، فإنه يطلب شيئًا علاوة على الأجر الذي نقدته إياه بالفعل، أما أنا فراحل الآن، وداعًا».

قال ديلامارش: «إنك لن ترحل!».

وأعلن روبنسون من داخل التاكسي، قائلًا: «هذا ما قلته له أنا أيضًا!».

وقال كارل، وهو يخطو بضع خطوات قليلة إلى الأمام: «إلا أنني سأرحل رغم ذلك!».

وكان ديلامارش قد أصبح عندئذ بجانبه، فأمسك به، وجذبه إلى الخلف بشدة، وصاح فيه قائلًا: «ولكنني أقول إنك ستبقى هنا!».

فقال له كارل: «دعني!»، وحاول أن يتخلص منه، مستخدمًا قبضتيه، عند اللزوم، ولم يكن لديه سوى قليل من الأمل في التغلب على رجل مثل ديلامارش، إلا أن الشرطي، كان يقف بجوارهما، كما كان يقف سائق التاكسي أيضًا، ولم يكن الشارع خالٍ كذلك من الناس، كانت تلك المجموعات من العمال تعبره، فهل يتغاضى كل هؤلاء، ويتجاهلونه، لو حدث أن أساء إليه ديلامارش الآن؟ إنه لا يرغب في أن يصبح وحيدًا مع ديلامارش في حجرة واحدة، فلماذا يترك الآن هذه الفرصة تفلت منه، لكي يتخلص من ديلامارش؟ كان ديلامارش يدفع الآن للسائق ما طلبه في هدوء، ووضع ذلك السائق تلك الزيادة التي لم يكن يستحقها، في جيبه، بكثير من الانحناءات التي انحناها أمام ديلامارش، وزيادة في الامتنان، اتجه نحو روبنسون، وراح ينصحه بأفضل الوسائل للخروج من التاكسي، وأحس كارل بأن أحدًا لا يلاحظه، وأن ديلامارش ربما لن يهتم لو انسل هاربًا في تلك اللحظة، وكان يريد أن يتجنب أية مشاجرة معه، إن استطاع أن يتجنبها، ولهذا انسل نحو الطريق محاولًا أن يسرع بالهرب، إلا أن ديلامارش لم يكن

في حاجة إلى التدخل، ذلك لأن الشرطي كان قد رفع عصاه لحظتها، ودفعها في الهواء إلى الأمام، قائلًا: «قف!».

وتساءل وهو يدفع عصاه تحت إبطه، وشرع في انتزاع مفكرة من جيبه ببطء قائلًا لكارل: «ما اسمك؟».

وتطلع إليه الآن، في إمعان للمرة الأولى، كان رجلًا متين البنيان، إلا أن شعره كان يغلب عليه البياض أجابه كارل قائلًا: «كارل روسمان».

وردد رجل البوليس ما قاله كارل، لا شك لأنه كان رجلًا هادئًا، ومدققًا في تقصي الحقائق: «روسمان!»، إلا أن كارل الذي كان يواجه الآن البوليس الأمريكي لأول مرة، لاحظ في تكراره للكلمات التي كان يجيبه بها، شيئًا من الارتياب، وربما كان وضعه في الحقيقة وضعًا مزعزعًا، ذلك أن روبنسون، على الرغم من انشغاله البالغ بمشكلة خروجه من التاكسي، كان يتوسل من داخل السيارة إلى ديلامارش في حركات خرساء، يرجوه بها أن يهرع لمساعدة كارل، إلا أن ديلامارش أبى أن يستجيب إليه بهزة سريعة لا مبالية من رأسه، وتطلع أمامه، دون أن يأتي بأدنى حركة، وقد وضع يداه في داخل جيبي روبه الكبيرين.

وشرح الصبي الذي كان قد جلس على عتبة الباب، لامرأة كانت قد خرجت لحظتها من ذلك المنزل، تفاصيل الموقف كله منذ بدايته، وتوقف الأطفال في نصف دائرة خلف كارل، وراحوا يتطلعون في صمت إلى الشرطي.

قال الشرطي لكارل: «أرني الأوراق التي تثبت شخصيتك؟»، قد يكون هذا مجرد سؤال رسمي، ذلك أن المرء بلا جاكتة، لم يكن بالطبع ليحمل في جيوب بنطلونه شيئًا من الأوراق الرسمية التي تثبت الشخصية، ولهذا ظل كارل صامتًا، وكان قد قرر بينه وبين نفسه أن يجيب عن السؤال التالي إجابة وافية، وإذا أمكنه، فسوف يفسر عندئذ أيضًا عدم وجود تلك الأوراق الرسمية التي تثبت شخصيته، معه الآن.

إلا أن السؤال التالي كان: «إذن فأنت لا تحمل ما يثبت شخصيتك؟!».

وكان على كارل أن يجيب بقوله: «ليست معي الآن!»!.

فقال الشرطي: «لكن هذا أمر سيئ»!، وراح يتطلع حوله، وهو مستغرق في التفكير، بينما كان ينقر بأصبعه على غلاف مفكرته ثم تساءل أخيرًا: «هل لك وظيفة؟».

قال كارل: «كنت أعمل صبي مصعد».

«كنت تعمل صبي مصعد، وعلى هذا فلا عمل لك الآن! وفي هذه الحالة فما الذي تعتمد عليه في معيشتك؟».

«سأبحث عن عمل آخر».

«هكذا، فهل فصلت إذن لتوك؟!».

«نعم، منذ ساعة فقط».

«فجأة؟!».

قال كارل: «نعم»، ورفع يده كما لو كان يعتذر عن ذلك، لم يكن يمكنه أن يسرد القصة كاملة هنا، وحتى لو أمكنه ذلك، فقد كان واضحًا أنه لا جدوى من الاعتقاد بإمكان تجنب الألم الذي قد يعاوده، لو تعرض ثانية لسرد الإساءات التي كان قد عانى مرارتها لتوه، وإذا كان لم يتمكن من أن يحصل على رد اعتباره عندما أعلنت المديرة عطفها نحوه، وواجهها رئيس السفرجية برأيه في الموقف، فليس له بلا شك أن يأمل في أن يحصل على ما فاته هنا، في هذا الشارع، ومن هذا الحشد الذي تجمع حوله الآن!.

وتساءل الشرطي قائلًا: «وهل فصلت دون أن تتمكن من الحصول على جاكتتك؟».

فقال كارل: «نعم»، وهكذا ففي أمريكا أيضًا، من طبع السلطات أن تتساءل عما يتراءى لها، وأن توجه ما يحلو لها من الأسئلة! «كم كان سخط والده، على تلك الأسئلة العقيمة التي راح الموظفون يوجهونها إليه عندما كان يستخرج جواز سفر كارل»!، وأحس كارل بالرغبة في أن يجري، ويختبئ في مكان ما، لكي يتحاشى فقط الإجابة عن المزيد من تلك الأسئلة، لكن الشرطي وجه إليه لحظتها، نفس السؤال الذي كان كارل يخشى أن يوجهه إليه أكثر مما كان يخشى أن يسأله عن أي شيء آخر، ذلك السؤال الذي كان كارل يتوقع سماعه في قلق من ذلك الشرطي، حتى إنه ربما يكون قد سلك سلوكًا أقل حذرًا بسبب قلقه ذاك، وما كان ينبغي له أن يسلكه، وربما يكون سلوكه المضطرب ذاك

الذي لا يدرى كنهه على التحديد، هو الذي عجل بتوجيه هذا السؤال إليه.

أطرق كارل برأسه إلى أسفل، ولم يجب، كان هذا هو آخر سؤال يمكنه الإجابة عنه، ولم يكن يرغب أن يصحبه الشرطي ثانية إلى الفندق الغربي، ليبدأ هناك في الاستفسار عن الحكاية بأكملها، ذلك الاستفسار الذي سيشترك في الإجابة عنه كل أصدقائه وأعدائه، وتنهار كذلك بقية ثقة المديرة فيه، انهيارًا تامًا، بعد أن يتضح لها أن الصبي الذي كانت تظنه الآن في بنسيون برنير، قد جاءها في حراسة الشرطة، في قميصه فقط، وبدون البطاقة الخاصة التي كانت قد أعطتها له، ولعل رئيس السفرجية أن يطرق عندئذ إطراقة تشير إلى إدراكه لهذا كله، وقد يصرح رئيس البوابين بأن يد الله لم تفلت ذلك الشرير في النهاية.

قال ديلامارش، وهو يخطو نحو الشرطي: «لقد كان يعمل في الفندق الغربي»!، وصاح كارل قائلًا: «لا!»، وراح يدق الأرض بقدمه قائلًا: «ليس هذا صحيحًا!»، ونظر إليه ديلامارش، وهو يمط شفتيه في سخرية، كما لو كانت لديه أسرار عديدة يمكنه أن يفشيها، وأثار اضطراب كارل الذي لم يكن متوقعًا، الأطفال الذين تجمعوا خلفه إثارة بالغة، فاصطفوا جميعًا بجوار ديلامارش؛ لكي يتمكنوا من رؤية كارل جيدًا، وأخرج روبنسون رأسه تمامًا، خارج التاكسي وظل ساكنًا تمامًا، حتى أنه لم يأت بأدنى حركة فيما عدا حركة جفنيه التلقائية، وصفق الصبي الذي كان يجلس على عتبة باب المنزل المواجه في اغتباط، ولكزته المرأة التي كانت قد توقفت إلى جواره بكوعها لكي يصمت،

وكـان الحمـالون الـذين كـانوا يـذرعون فنـاء المـنزل الـذي يسـكنه ديلامـارش، قـد توقفـوا لحظتهـا عن العمـل؛ لكي يتنـاولوا إفطـارهم، فتجمعوا وهم يحملون في أيديهم صفائح عديدة صغيرة ممتلئة بالقهوة السوداء، ظلوا يقلبونها بقطع مستديرة من الخبز، وجلس بعضهم على حافة الرصيف، وراحوا يتجرعون جميعًا قهوتهم في صوت مسموع.

سأل الشرطي ديلامارش قائلًا: «هل تعرف هذا الصبي؟».

وقال ديلامارش: «إنني أعرفه معرفة تامة، ولقد أسديت إليه من قبل خدمات لا حصر لها، قابلها هو بقليل من العرفان، ولعلك أن تلاحظ ذلك الطبع فيه، خلال لقائك القصير به الآن!».

قال الشرطي: «نعم، إنه يبدو وغدًا صغيرًا عنيدًا».

فقال ديلامارش: «إنه هكذا بالفعل، إلا أن ذلك ليس هو أسوأ ما فيه مع ذلك!».

فقال الشرطي: «إلى هذا الحد؟!».

فأجابه ديلامارش الذي كان قد تحمس الآن لرأيه في كارل، وهو يطوح بطرف روبه هنا وهناك، بيديه اللتين كان قد دسهما في جيبه: «أوه.. إنه صبي رائع هذا الذي أمامك، ولقد كنا، أنا وصديقي الذي هناك في داخل التاكسي قد التقطناه من الطريق ذات مرة، وكان ضائعًا شريدًا، ولم تكن لديه في ذلك الحين، أدنى فكرة عن الحياة والأحوال في أمريكا، فقد كان قادمًا لتوه من أوروبا، حيث لم يكن يحتاج إليه أحد كذلك، حسنًا! لقد اصطحبناه معنا، واتحنا له فرصة العيش بيننا،

وفسرنا له كل شيء، وحاولنا أن نجد له عملًا، وكنا نظن على الرغم من كل شيء، أن في مقدورنا أن نخلق منه كائنًا إنسانيًّا رقيقًا، إلا أنه فاجأنا في النهاية بخدعته التي خيبت أملنا فيه ذات ليلة واختفى ببساطة، وفي ظروف لن أذكرها الآن، هل هذا صحيح أم لا؟!». تساءل ديلامارش في النهاية، وهو يجذب كم قميص كارل.

وصاح الشرطي قائلًا: «عودوا إلى أماكنكم أيها الأطفال».

فقد كان الأطفال قد زحفوا إلى الأمام، حتى لقد تعثر ديلامارش في أحدهم، واكتشف الحمالون في ذلك الوقت، أن هذا الاستجواب كان أكثر إثارة للاهتمام، مما ظنوه في بداية الأمر فشرعوا في الانتباه إلى تفاصيله، وتجمعوا في حلقة خلف كارل مباشرة، ولهذا لم يكن كذلك من الاستماع إلى ثرثرة هؤلاء الحمالين، التي لم تتوقف، فقد كانوا يهذون في رطانة غير مفهومة لعلها كانت إنجليزية ركيكة تتخللها بضع كلمات من اللغة السلافية.

قال الشرطي: «شكرًا لهذه المعلومات!»، وحيا ديلامارش. «وعلى كل حال، فسوف أصحبه معي، وأسلمه إلى إدارة الفندق الغربي».

فقال له ديلامارش: «هل لى أن أسألك معروفًا، بأن تترك الصبي معي الآن؛ لأن لدي بعض الأمور عليّ أن أسويها معه، وأعدك بأنني سوف أصحبه بنفسي إلى الفندق فيما بعد».

وقال الشرطي: «لا يمكننى أن أفعل ذلك».

فقال له ديلامارش، وهو يناوله بطاقته: «هذه هي بطاقتي!».

وتفحصـها الشـرطي في عنايـة، لكنـه قـال في ابتسـامه مؤدبـة: «لا، لا يمكنني ذلك»، وبقدر ما كان كارل حذرًا من ديلامارش حتى الآن، فقد وجـد لحظتهـا، رغم ذلـك، فيـه خلاصـه الوحيـد الممكن، وقـد كـانت الطريقة التي كان يتفاهم بها مع الشـرطي طريقـة مريبـة بلا شـك، إلا أن ديلامـارش على كـل حـال، من الممكن أن يقتنـع بعـدم تسـليمه إلى الفندق، وهو ما لا يمكن أن ينثني عنه الشرطي، وحتى لو عاد كـارل إلى الفندق في صـحبة ديلامـارش، فلن يكـون الأمـر سـيئًا، إلى الحـد الـذي سيكون عليه من السوء، لو أنـه عـاد إليـه في صـحبة الشـرطي، ولا يجب على كارل في تلك اللحظة بالطبع أن يوضح رغبتـه في عـدم البقـاء مـع ديلامارش بالفعل، وإلا ضاع كل شيء.

وراقب كارل يد الشرطي في شيء من القلق، تلـك اليـد الـتي قـد ترتفـع في أية لحظة لتقبض عليه.

وقال الشرطي أخيرًا: «لابد لى على الأقل من أن أبحث هناك عن السبب الذي فصـل بسـببه!»، بينمـا راح ديلامـارش يتطلـع بعيـدًا، وعلى وجهـه شعور بالاستياء، وهو يطوي البطاقة بين أطراف أصابعه.

وصاح روبنسون لدهشة الجميع قائلًا: «لكنه لم يفصـل مطلقًـا»، وكـان قد انحنى إلى خارج التاكسي، بقدر مـا اسـتطاع أن يظهـر خارجـه، وقـد استند بإحدى يديه على كتف السائق: «إن هذا لم يحدث مطلقًا، إنه لـه وظيفة محترمة للغاية هناك، كما أنه أبـرز الصـبية جميعًـا في عنـبر النـوم بالفندق، ويمكنه أن يستضيـف من يشـاء هنـاك في ذلـك العنـبر، إلا أنـه

فقط مرهق بالعمل، فلو أردت أن تسأله شيئًا، فإن عليك أن تنتظر عودته وقتًا طويلًا، فهو دائمًا في اجتماعات مع رئيس السفرجية، ومع المديرة، إن له وضعًا استثنائيًا هناك! إنه لم يفصل مطلقًا، بلا شك، ولست أدري لماذا قال إنه قد فصل، فكيف يمكن أن يفصل؟ ولقد تعرضت لأشد الأذى في الفندق، ووجهت إليه التعليمات بأن يصحبني إلى منزلي، ولأنه لم يكن يرتدي جاكتته لحظتها، فقد صحبني إلى هنا بدونها، فلم يكن في استطاعتي أن أنتظره حتى يبحث عنها».

قال ديلامارش: «حسنًا، الآن»!، وهو يفرد ذراعيه على امتدادهما في لهجة بدت كأنها لهجة لوم موجهة إلى الشرطي، لعدم فطنته، وبدا وكأن هاتين الكلمتين اللتين نطق بهما، قد أسهمتا في توضيح الأمر وضوحًا لا يقبل الجدل، وكشفتا ما غمض من تقرير روبنسون عن الموقف.

فتساءل الشرطي، وهو يوشك أن يضعف بالفعل: «لكن هل هذا صحيح؟! ولو كان صحيحًا، فلماذا صرح الصبي نفسه بأنه قد فصل؟».

قال ديلامارش: «من الأفضل أن توجه إليه هو هذا السؤال!».

وتطلع كارل إلى الشرطي الذي كان واجبه هو حفظ النظام هنا بين الأجانب، وأن يراعي ما يراه في صالحهم، وأدرك على نحو ما بعض الصعوبات التي كانت تواجه الرجل، وقد جعله هذا راغبًا عن الكذب، ولهذا فقد وقف عاقدًا يديه خلف ظهره بشدة، وظهر في مدخل باب

المنزل الذي يسكنه ديلامارش ملاحظ عمال، فاحتسى هؤلاء ثمالة قهوتهم من العلب الصفيحية التي كانوا يمسكونها، وخيم عليهم الصمت، وهم يجرجرون أقدامهم على مضض نحو ردهة النزل.

وقال الشرطي: «لن نصل إلى أية نتيجة، على هذا النحو..!»، وتأهب للقبض على ذراع كارل، فتراجع كارل قليلًا إلى الخلف دون أن يدري، ولاحظ المسافة الخالية، التي تركها رحيل العمال خلفه، واستدار، وبقفزات قليلة هائلة في البداية، انطلق بأقصى سرعته، وأطلق الأطفال صيحة واحدة، وانطلقوا يجرون بمحاذاته، وقد فردوا أذرعهم، لمسافة قصيرة لا تزيد على بضع خطوات.

وصاح الشرطي في الشارع الطويل الخالي: «أمسكوه!»، وانطلق في ترديد هذه الصيحة بانتظام بين الحين والآخر، وهو يجري خلف كارل، في سرعة أظهرت قوته ومرانه، وكان من حسن حظ كارل أن المطاردة كانت تجري في حي عمالي، فلم يكن لدى هؤلاء العمال شيء من التعاطف مع الشرطة، وظل كارل يجري وسط الطريق، فلم تكن تصادفه كثير من العقبات في وسط الطريق، وكان يرى بين الحين والآخر بعض العمال يقفون في هدوء على الرصيف، ويرقبونه، بينما استمر الشرطي في ترديد صيحته: «أمسكوه»!، وهو يسدد عصاه نحو كارل ويجري بمحاذاته، ملتزمًا في خبث، جانب الطريق الممهد، وكان لدى كارل أمل واهٍ، وإن كان في بعض الأحيان، قد فقد غالبًا ذلك الأمل عندما شرع الشرطي- وكانا قد بلغا أحد مفارق الطرق، حيث من الممكن أن توجد بعض دوريات الشرطة- في إطلاق الصفارات

التي كانت تصم الآذان، وكانت ميزة كارل الوحيدة التي كان يتفوق بها على الشرطي هي خفة ملابسه، فكان يطير، أو بالأحرى، يختفي في منحدر الشارع الذي كان يهبط أكثر فأكثر، لكنه في اضطرابه لقلة نومه في الليلة الماضية،كان يقفز أحيانا قفزات متعثرة، عالية جداً في الهواء، وكان وقته يضيع عندها عبثًا، وكان الشرطي بالإضافة إلى ذلك يرى هدفه ماثلًا أمام عينيه، فلم يكن عليه أن يفكر في شيء، بينما كان على كارل أن يفكر أولًا، وأن يواصل جريه فقط في الفترات التي كان يراها، وكانت خطته، وهي خطة يائسة إلى حد ما، هي أن يتجنب مفترق الطرق الآن على الأقل، لأنه لم يكن يدري ماذا كانت تخبئه له، فقد ينطلق مثلًا، في جريه عندها، مباشرة نحو مركز من مراكز البوليس، وكان يريد بقدر الإمكان أن يواصل جريه في هذا الشارع العمومي، الذي يمكنه أن يشمله بنظراته من أوله إلى آخره، طالما أنه لم يكن ينتهي إلا في نهاية منحدره، إلى كوبري، كان يختفي فجأة في غلالة من الضباب، بينما تسطع الشمس أعلاه، وعندما قرر أن يلتزم بتنفيذ تلك الخطة، اندفع في جريه، دفعة أشد سرعة حتى يتمكن من أن يعبر مفترق الطرق الأول الذي صادفه في سرعة خاطفة، عندما لمح أمامه على مسافة قريبة شرطيًا آخر، كان قد توارى في حذر إلى جوار حائط غارقًا في الظلال، وتأهب للانقضاض عليه في اللحظة المناسبة، فلم يكن أمامه لحظتها بدًا من أن يستدير نحو الشارع المتقاطع، وعندها ناداه شخص ما باسمه في صوت خافت ـ ظن كارل ذلك وهمًا في بداية الأمر، ذلك أن الرنين كان يطن في أذنيه طوال الوقت ـ فلم يتردد

طويلًا واستدار دورة مفاجئة، لكي يباغت الشرطي أقصى مباغتة يمكنه أن يصيبه بها، واستدار إلى اليمين بزاوية حادة على إحدى قدميه متجها نحو الشارع المتقاطع، وما كاد يخطو في ذلك الشارع خطوتين- وكان قد نسي بالفعل أن أحدًا كان قد ناداه باسمه، ذلك الشرطي الآخر، كان ينفخ في صفارته هو أيضًا، وبدا له في وضوح أن بعض المارة النشطين المتباعدين أمامه، كانوا قد أسرعوا في خطواتهم- عندما اندفع ذراع شخص ما من أحد الأبواب الصغيرة، وأمسك به، وانسحب كارل إلى مدخل مظلم، بينما جاءه صوت ما يقول له: «لا تتحرك!»، كان صوت ديلامارش، وكان متقطع الأنفاس هو أيضًا، ووجهه محمر، وشعره متلبد فوق رأسه، ولم يكن يرتدي سوى قميصه وسرواله الداخلي، وكان روبه المنزلي مدسوسًا تحت ذراعه، ولم يكن الباب سوى بابًا جانبيًّا غامضًا، لم يكن من السهل تمييزه، وقد أغلقه ديلامارش وأحكم رتاجه في الحال.

قال: «انتظر لحظة»!، واستند إلى الحائط، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، ورأسه ملقاة إلى الخلف، وكان كارل يكاد يكون مستلقيًا بين ذراعيه، وضغط وجهه في صدر ديلامارش، دون أن يدري ما يفعل.

قال ديلامارش، وهو يتسمع بانتباه، ويشير بإصبعه إلى الباب، كان الشرطيان يبتعدان بالفعل، وكانت أقدامهما تدق الشارع الخالي، كوقع دقات الصلب على الحجر: «لقد ابتعدا»!، وقال موجهًا حديثه إلى كارل الذي كان يجاهد لالتقاط أنفاسه ولا يستطيع النطق بكلمة: «لقد

تورطت في تلك المطاردة»، وأرقده ديلامارش في عناية على الأرض، وركع بجانبه، ومر بيده عدة مرات فوق رموشه، وراح يتطلع إليه.

وقال كارل وهو ينهض متألمًا: «إنني على ما يرام الآن»!.

فأجابه ديلامارش الذي كان قد ارتدى الآن روبه ثانية: «إذن فهيا بنا!»، ودفع كارل، الذي كان مطرقًا برأسه إلى أسفل من شدة الإرهاق، أمامه، وهو يهزه بين الحين والآخر لكي ينشطه، قائلًا: «إنك تقول إنك مرهق؟!، ولقد انطلقت تعدو بطول الشارع كله كالحصان، لكن كان علي أنا أن أجتاز هذه الممرات اللعينة والأفنية، ومن حسن الحظ أنني عداء ممتاز إلى حد ما أنا أيضًا»!، وفي غمرة فخره بنفسه، دفع كارل دفعة شديدة على ظهره: «إن سباقًا كهذا مع رجال الشرطة، يعد مرانًا طيبًا بين الحين والآخر».

قال كارل: «لقد كنت في غاية الإرهاق قبل أن أبدأ الجري»، فقال ديلامارش: «لا يوجد أدنى عذر للجري السيئ، فلو لم أكن قد أسرعت لنجدتك لكانا قد لحقا بك في الحال!».

فقال كارل: «إنني أعتقد هذا أنا أيضًا، وأنا مقدر جدًّا صنيعك».

وأجابه ديلامارش قائلًا: «لا شك في هذا».

واجتازا ممرًا طويلًا، ضيقًا، بالطابق الأرضي، كان مبلطًا، ببلاطات حجرية ملساء، وكان ثمة سلم يبدأ هنا، وسلم هناك على كلا الجانبين، أو ممر يؤدي إلى ردهة فسيحة، وكان من النادر رؤية أشخاص كبار، وكان الأطفال يلعبون فوق درجات تلك السلالم الخالية، وبجانب

درابزين أحد السلالم، كانت تقف طفلة صغيرة، تبكي في حرقة، حتى أن وجهها كانت تغطية الدموع تمامًا، وعندما لمحت ديلامارش، اندفعت صاعدة درجات السلم، وهى تجاهد لالتقاط أنفاسها، وفمها مفتوح على اتساعه، ولم تهدأ إلا عندما بلغت قمة الدرج، بعد أن نظرت من فوق كتفها المرة بعد المرة؛ لكي تتأكد من أحدًا لا يطاردها، أو يهم بمطاردتها.

قال ديلامارش ضاحكًا: «لقد اندفعت تهبط السلم أمامي منذ دقيقة واحدة فقط!»، ورفع قبضته نحوها، فاندفعت ثانية إلى أعلى، وراحت تصرخ. وكانت الأفنية التي مرا بها مهجورة تمامًا، هي أيضًا، وكان ثمة امرأة تملأ جردلًا بالماء من طلمبة، وساعي بريد يدور دورته، ورجل عجوز ذو شارب أبيض قد جلس أمام باب زجاجي، وراح يدخن غليونًا، وساقاه متعانقتان، وكانت السلال يفرغها الحمالون أمام إحدى الوكالات التجارية، بينما كانت الخيل المتكاسلة تهز رؤوسها في رتابة من جانب إلى آخر، ورجل يرتدي «أفرول» كان يشرف على سير العمل، وهو يحمل ورقة في يده، وخلف النافذة المفتوحة في حجرة مكتب، كان يجلس أحد الكتبة إلى مكتبه، وقد رفع رأسه، وتطلع أمامه خارج النافذة مستغرقًا في التفكير، عندما مر به لحظتها كارل وديلامارش.

قال ديلامارش: «إن هذا المكان مكان هادئ، كما يجب أن يكون المكان الهادئ، وقد تضغي عليه الضوضاء في المساء لمدة ساعة أو ساعتين، إلا أنه مثال للهدوء طوال اليوم»!، وأطرق كارل فقد كان

المكان يبدو له هادئًا بالفعل غاية الهدوء، وقال ديلامارش: «إنني لا يمكنني أن أعيش إلا في هذا المكان، ذلك أن برونيلدا لا تحتمل ببساطة أية ضوضاء، هل تعرف برونيلدا؟، حسنًا، سوف تراها الآن، وعلى كل حال، فإنني أنصحك بأن تلزم الهدوء ما استطعت».

وعندما بلغا بداية السلم الذي يؤدي إلى شقة ديلامارش، كان التاكسي قد ذهب لحظتها، وأعلن الصبي ذو الأنف المتآكل، ودون أن تبدو عليه أقل دهشة لعودة كارل، أنه قد ساعد روبنسون في صعود السلم، وأومأ له ديلامارش فحسب، كما لو كان خادمًا قد قام فقط بأداء واجبه، ثم سحب كارل لكي يصعد السلم معه، وكان كارل قد تردد لحظتها وتطلع إلى الخارج نحو الشارع المشمس، وقال ديلامارش مرددًا أكثر من مرة: «سوف نصبح الآن هناك في الحال»، إلا أن نبوءته كانت بطيئة التحقيق، فقد كان يوجد أمامهما دائمًا سلم آخر جديد يعلوهما، يتجه اتجاها آخر، يمكن إدراكه في وضوح قبل بلوغه، وقد توقف كارل بالفعل مرة، لا من التعب، بل من اليأس، أمام تلك السلالم التي لا نهاية لها.

قال له ديلامارش، وهما يواصلان صعودهما: «إن الشقة مرتفعة ارتفاعًا بالغًا، إلا أن لهذا الارتفاع ميزته أيضًا، فهذا الارتفاع، لا يشجعنا على الخروج كثيرًا، ولهذا نظل نتسكع طوال النهار بملابسنا المنزلية في أنحاء الشقة، إنها شقة مريحة جداًّ، وبالطبع، فلا أحد يزورنا قط في تلك الشقة، فليس من السهل أن يصعد الزوار إلى شقة على هذا الارتفاع!».

وفكر كارل في نفسه قائلًا: «ومن هم الزوار الذين يمكن أن يكونوا قد تعرفوا بهما، حتى يقوموا بزيارتهما؟!».

وفي النهاية لمحا روبنسون على بسطة السلم في أحد الطوابق، وهو يقف أمام باب مغلق، وكانا قد بلغا الآن مكانه، ولم تكن السلالم قد انتهت بعد، رغم ذلك، بل كانت تمتد إلى أعلى في الظلام، دون أدنى دلالة تدل على أن نهايتها كانت في مجال الرؤية.

قال روبنسون في صوت لا يكاد يبين، وكأنه لا يزال يعاني من آلامه: «لقد ظننت هذا! إن ديلامارش قد أحضره، روسمان، إلى أين ستذهب بعيدًا عن ديلامارش؟»، كان روبنسون يقف في ملابسه الداخلية، وقد لف حول جسده البطانية الصغيرة التي كان قد حصل عليها من الفندق الغربي، ولم يكن هناك سبب واضح يبرر وقوفه في الخارج أمام باب الشقة ولا يدخلها، بدلًا من أن يقف في مكانه هكذا كأضحوكة لمن يتصادف أن يمر به.

تساءل ديلامارش قائلًا: «هل هي نائمة؟!».

فقال روبنسون: «لا أظن ذلك، إلا أنني رأيت أن من الأفضل أن أنتظر عودتك».

فقال ديلامارش: «يجب أولًا أن نرى إن كانت نائمة!»، وانحنى لكي ينظر من ثقب المفتاح، وبعد أن حدّق خلاله طويلًا، وهو يدير رأسه في هذا الاتجاه، وفي ذاك، نهض واقفًا، وقال: «لا يمكنني في الحقيقة أن

أراها بوضوح؛ لأن الستائر مسدلة، إنها جالسة على الأريكة، وربما كانت نائمة!».

فتساءل كارل قائلًا: «لماذا، هل هي مريضة؟!»، فقد كان ديلامارش يقف في مكانه، كما لو كان في حاجة إلى النصيحة، إلا أنه زام في صوت حاد جدًّا: «مريضة؟!».

وقال روبنسون، محاولًا تهدئة ديلامارش: «إنه لا يعرفها».

وخرجت امرأتان من أحد الابواب التي تعلوهما ببضع درجات، ومسحتا أيديهما في مريلتهما، ونظرتا نحو ديلامارش وروبنسون، وبدا عليهما وكأنهما كانتا تتحدثان عنهما، ثم خرجت فتاة صغيرة من أحد الأبواب، واندست بين المرأتين، وتعلقت بذراعيهما.

قال ديلامارش: «هاتان امرأتان قذرتان!»، وكان صوته خفيضًا، وبدا أنه راعى ذلك حتى لا يتسبب في إزعاج برونيلدا النائمة، «وسوف أبلغ عنهما البوليس إن عاجلًا أو آجلًا، وعندئذ سأتخلص منهما بضع سنوات، لا تتطلع نحوهما»، وجذب كارل وهو يقول له ذلك، إلا أن كارل لم يجد بأسًا في أن يتطلع نحو المرأتين، طالما كان عليه على أية حال أن ينتظر واقفًا في الممر حتى تستيقظ برونيلدا، وهز رأسه في غضب، وكأنه يرفض أن يستمع إلى تحذيرات ديلامارش، بل لقد خطا بضع خطوات في اتجاه المرأتين، لكي يوضح رأيه، عندما أمسك به روبنسون من كم قميصه، قائلًا: «انتبه يا روسمان!»، بينما كان ديلامارش قد عصف به الغضب، بسبب الضحكة التي أطلقتها الفتاة

الصغيرة، حتى لقد قفز، وهو يحرك ساقيه وذراعيه نحو المرأتين، اللتين دخلتا بابهما ثانية، كما لو كانتا قد انجرفتا خلاله في التو واللحظة. وقال ديلامارش عند عودته: «هذه هي الطريقة التي أخلي بها هذا الممر عادة»، ثم تذكر أن كارل قد تمرد عليه، فقال: «إلا إنني كنت أتوقع منك سلوكًا مختلفًا تمامًا، وإلا كان عليك أن تظهر لى عداءك صراحة!».

ثم جاء صوت رقيق من داخل الشقة، متسائلًا في إرهاق: «هل هذا أنت يا ديلامارش؟!».

فأجاب ديلامارش قائلًا: «نعم»، وتطلع في رقة إلى الباب: «هل يمكننا أن ندخل؟!».

وجاءه الجواب: «أوه!.. نعم»، وبعد أن ألقى نظرة على الآخرين اللذين كانا يقفان إلى جانبيه، فتح ديلامارش الباب في بطء.

وتقدم ثلاثتهم في الظلام الحالك، كانت الستارة التي تغطي باب الشرفة - لم تكن هناك أية نوافذ - مسدلة تمامًا، ولم تكن تسمح بدخول سوى القليل من الضوء، إلا أن حقيقة امتلاء الحجرة بالأثاث المتراكم، والملابس المعلقة في كل مكان، كانتا قد أسهمتا إلى حد كبير في إظلام الحجرة، فوق ظلامها، وكان الهواء فاسدًا، وكان في وسع المرء أن يتنفس التراب بالفعل، ذلك التراب الذي كان قد تجمع في الأركان، التي كانت تبعد فيما يبدو عن متناول اليد، وكان أول ما

لاحظه كارل عند دخوله، هو ثلاثة من صناديق الملابس، كانت تستقر بعضها بجوار بعض.

وفوق الأريكة كانت تستلقي المرأة التي كانت تنظر من الشرفة، من قبل، وكان رداؤها الأحمر قد تثني تحتها على نحو ما، وانحدر حتى بلغ الأرض، وكان من الممكن رؤية ساقيها حتى الركبتين، كما كانت ترتدى جوارب صوفية بيضاء سميكة، ولم تكن تنتعل حذاء.

قالت: «ما أشد حرارة الجو يا ديلامارش!»، ومدت ذراعها نحو ديلامارش في وهن، وهي تدير وجهها نحوه، وتناول ديلامارش يدها، وقبّلها، واستطاع كارل أن يرى ذقنها، التي كانت تتكون من ذقنين، والتي كانت تلتف في انسجام مع دوران رأسها.

تساءل ديلامارش: «هل ترغبين في أن أرفع الستارة؟!» قالت في نبرة تبدو يائسة، وهي تغلق عينيها: «أوه.. لا تفعل هذا، فسوف يزيد الجو سوءًا!».

وكان كارل قد تقدم مباشرة إلى الأريكة لكي يرى المرأة جيداً، كان مندهشًا لنواحها؛ لأن الحرارة لم تكن زائدة عن المألوف.

وقال ديلامارش في قلق: «انتظرى فسوف أريحك أكثر».

وفك بضعة أزرار حول رقبتها، وفتح الثوب حول عنقها، حتى تعرى جزء من صدرها، وكانت حروف الدانتلا الناعمة الصفراء التي تزين قميصها الداخلي قد بدت كذلك.

قالت المرأة فجأة، وهي تشير بأصبعها إلى كارل: «من هذا، ولماذا يحدّق نحوي بهذه القسوة؟!».

فقال ديلامارش، وهو يدفع كارل جانبًا: «إنك محسنة كبيرة، ألست كذلك؟!» وراح يؤكد للمرأة قائلًا: «إنه ليس سوى الصبي الذي أحضرته معي لكي يقوم على خدمتك!».

فصاحت المرأة قائلة: «ولكنني لا أريد أحدًا، فلماذا تحضر الغرباء إلى داخل المنزل؟!».

فقال ديلامارش، وهو يركع على الأرض، فلم يكن ثمة مكان له على الأريكة بجوار برونيلدا، بالرغم من اتساعها: «لكنك ظللت تطلبين مني دائمًا شخصًا يتولى خدمتك!».

قالت: «أوه، يا ديلامارش، إنك لا تفهمني، إنك لا تفهمني مطلقًا!».

فقال ديلامارش: «إذن، فليكن الأمر كذلك، فأنا لا أفهمك!»، وتناول وجهها بين راحتيه: «إلا أن ذلك لا يهم في الحقيقة، فيمكنه أن يرحل في الحال، لو شئت!».

قالت أخيرًا: «بما أنه قد جاء، فيمكنه أن يبقى»، وأحس كارل بالامتنان لها، عند سماعه هذه الكلمات، لشدة التعب الذي كان يشعر به، مع أن تلك الكلمات لم تكن فيما يبدو تحمل شيئًا من الكرم، ذلك أن التفكير في تلك الدرجات التي لا نهاية لها، والتي قد يتعين عليه أن يهبطها ثانية، كان أشد ما كان يخشاه، لهذا تخطى روبنسون الذي استغرق في النوم الآن فوق بطانيته، وقال لها، على الرغم من إيماءات ديلامارش

الغاضبة: «إنني أشكرك على أية حال؛ لسماحك لي بالبقاء هنا لفترة قصيرة فقط، لأنني لم أذق طعم النوم طوال الأربع والعشرين ساعة الماضية، ولقد قمت بأشياء كثيرة جداًّ، وقد أزعجتني كذلك بعض الأمور، وكدرتني، إنني مرهق غاية الإرهاق، ولا أكاد أدري أين أنا، لكني بعد أن أغفو ساعة أو ساعتين يمكنك أن تلقي بي خارجًا، وسوف أرحل في الحال مسرورًا».

قالت المرأة: «يمكنك أن تبقى ما شاء لك البقاء»، ثم أضافت قائلة في سخرية: «إن لدينا أكثر من متسع لك هنا، كما ترى» فقال ديلامارش: «إذن من الأفضل أن ترحل الآن، فليست لنا أية حاجة إليك!».

فقالت المرأة جادة هذه المرة: «لا، دعه يبقى».

وقال ديلامارش، وكأنه يلبي أمر المرأة: «حسنًا إذن، فاذهب واستلق في مكان ما».

ـ يمكنه أن يستلقي فوق الستائر، لكن عليه أن يخلع حذاءه حتى لا يتسبب في تمزيقها.

وأشار ديلامارش لكارل إلى المكان الذي قصدته المرأة، فبين الباب والصناديق الثلاثة، كانت توجد كومة هائلة من مختلف أنواع الستائر، ملقاة، وكانت مطوية جميعًا بغاية العناية، الستائر الثقيلة في أسفل، والخفيفة فوقها، وكانت كل القضبان التي تتحرك فوقها الستائر، وكل الحلقات الخشبية المتناثرة خلال الكومة قد أخرجت منها، وربما كانت هذه الستائر تكون في النهاية أريكة لا بأس بها، لكنها كانت في الحقيقة

عبارة عن كومة مهتزة غير صالحة للنوم، وقد استلقى كارل فوقها مع ذلك، في الحال؛ لأنه كان متعبًا غاية التعب ولا يقدر أن ينتظر لكي يعيد ترتيب هذه الكومة من الستائر، وكان عليه، كذلك، أن يحذر المزيد من الأحاديث مع مضيفه، ومضيفته.

ولقد استغرق في النوم العميق، حتى سمع صيحة مرتفعة، وفزع من نومه ليجد برونيلدا تجلس فوق الأريكة، وهي تفرد ذراعيها على آخرهما، وتلقيهما فوق كتفي ديلامارش، الذي كان راكعًا أمامها، وصدم كارل لهذا المشهد، واستلقى ثانية على ظهره، وتكوم على نفسه فوق الستائر لكي يواصل نومه، وقد اتضح أنه لن يحتمل هذا المكان لمدة يومين، لكن كان من الضروري له أن ينام نومًا كافيًا الآن؛ حتى يمكنه أن يستعيد نشاطه، ومن ثم يقرر بعد ذلك ما ينبغي عليه أن يفعله.

إلا أن برونيلدا كانت قد لمحت عيني كارل، اللتين كان الإرهاق قد زاد من اتساعهما، وكانتا قد أفزعتاها بالفعل، فصاحت: « ديلامارش، لا يمكنني أن أحتمل هذه الحرارة، إنني أكاد أحترق، ويجب علي أن أخلع ملابسي، يجب أن أخذ حمامًا، فأخرج هذين الشخصين، إلى حيث تشاء، إلى الممر، أو إلى الشرفة، أو أي مكان آخر لا يمكن أن تقع عليهما فيه عيناي! فهاأنذا في منزلي، ولكن لا يمكنني أن أحصل على الراحة مطلقًا، فلو أمكن لنا أن نكون وحدنا يا ديلامارش! أوه، يا إلهي، إنهما لا يزالان هنا، انظر إلى هذا الوقح المدعو روبنسون، وهو يتمدد في ملابسه الداخلية في وجود سيدة، وانظر أيضًا إلى هذا الصبي، هذا

الغريب الذي يحدّق فيَّ بوحشية، وكيف يتظاهر بأنه قد استغرق ثانية في النوم، لكي يخدعني، اطردهما يا ديلامارش. إنهما عبء على كاهلي، إنهما ثقل فوق صدري، فلو مت الآن فسوف يكون ذلك بسببهما!».

قال ديلامارش وهو يتقدم نحو روبنسون، ويهزه بقدمه التي وضعها فوق صدره: «هيا اخرجا من هنا، اخرجا في الحال!»، ثم صاح موجهها حديثه إلى كارل:

«انهض يا روسمان، اخرجا إلى الشرفة كلاكما، وسوف تكون جنازتكما قد حانت إن دخلتما هنا قبل أن ندعوكما إلى الدخول. والآن تحرك يا روبنسون». وعند ذلك ركل روبنسون بقسوة أشد، وقال: «وأنت يا روسمان، هيا إلى الخارج، وإلا جئت فتصرفت معك أنت أيضًا!»،وصفق بيديه مرتين في صوت مرتفع.

صاحت برونيلدا من مكانها على الأريكة قائلة: «لماذا تتلكآن» كانت قد فردت ساقيها على اتساعهما حيث جلست لكي تتيح مكانًا لجسدها غير المتناسق. بمجهود شديد، وهي تتنفس، وتتوقف كثيرًا لكي تلتقط أنفاسها، حتى استطاعت أن تنحني إلى الأمام لكي تمسك بجواربها، وتخلعها، ولم تستطع أن تخلع ملابسها، فقد كان على ديلامارش أن يقوم بذلك، وكانت تجلس الآن في انتظاره، بفارغ الصبر؛ لكي يخلع عنها ملابسها.

وزحف كارل، وهو يكاد يكون فاقد الوعي من شدة التعب إلى أسفل من فوق كومة الستائر، واتجه في بطء نحو باب الشرفة، وكانت قطعة من قماش الستائر قد التفت حول ساقه، فجرجرها معه بلا مبالاة، وفي شروده قال بالفعل لبرونيلدا، وهو يمر أمامها: «أرجو لك ليلة سعيدة» ثم مر بديلامارش الذي كان يحرك الستائر جانبًا، من أمام باب الشرفة، وخرج كارل إلى الشرفة، ووصل روبنسون في الحال خلفه، وكان يبدو مستغرقًا مثله في النوم؛ لأنه كان يغمغم قائلًا لنفسه: «معاملة سيئة دائمًا، فلو لم تأت برونيلدا لما كان علي أن أذهب إلى الشرفة!».

إلا أنه قد خرج في غاية الوداعة، على الرغم من هذا التصريح، إلى الشرفة، حيث استلقى فوق الأرض الحجرية؛ لأن كارل كان قد تكوم فوق المقعد ذي المساند.

وعندما استيقظ كارل كان المساء قد حل، وكانت النجوم قد ظهرت في السماء، وخلف البيوت العالية المواجهة كان القمر قد ارتفع في السماء، ولم يكن كارل يكاد يدرك أين كان، قبل أن يتفحص الأماكن المهجورة التي كانت تحيط به الآن، وقبل أن يستنشق الهواء الرطب المنعش، وكيف كان قد بلغ به الإهمال حدًّا، أهمل معه نصائح المديرة، وكل تحذيرات تيريز، وكل مخاوفه الخاصة، وهنا حيث كان يجلس في هدوء في شرفة ديلامارش، حيث نام نصف يوم، بدا له وكأن ديلامارش عدوه اللدود لم يكن يوجد بالفعل على بعد خطوات قليلة منه، خلف تلك الستارة، وروبنسون هذا، الضائع الكسول، الذي كان يتمدد على أرضية الشرفة، والذي كان قد راح يشد قدمه، ويبدو أنه

قد أيقظه بهذه الطريقة من نومه، فقد كان يقول له الآن: «كيف يمكنك أن تنام يا روسمان، إن هذا هو تمامًا معنى أن يكون المرء صغيرًا، وعديم المبالاة، وإلى متى تريد أن تواصل النوم، لقد تركتك تستغرق في النوم، إلا إنني كنت قد ضقت أولًا بالاستلقاء فوق أرضية الشرفة، وثانيًا فقد جعت غاية الجوع، هيا، انهض في الحال، فلقد عثرت على شيء كان مخبأً تحت مقعدك، شيئًا من الطعام، وأريد أن أخرجه من مكانه، وسوف أعطيك بعضه».

وعندما نهض كارل، تطلع حوله، بينما زحف روبنسون ـ دون أن ينهض على قدميه ـ على بطنه، حتى بلغ أسفل المقعد، لكي يجذب صينية فضية، كتلك التي تستعمل في حمل بطاقات الزيارة، وكان فوق تلك الصينية قطعة من السجق الأسود، وبضع سجائر رفيعة، وعلبة سردين مفتوحة، لا تزال ممتلئة تقريبًا، ومغطاة بالزيت، وبضع قطع من الحلوى، أغلبها مكومة في قطعة واحدة، ثم ظهرت أيضًا قطعة كبيرة من الخبز، ونوع من زجاجات العطر، يبدو أنها كانت ممتلئة بشيء آخر غير العطر، ورغم ذلك، لأن روبنسون عرضها في رضا زائد على كارل، وهو يمتص شفتيه ويتطلع نحو كارل بنظرة راضية.

قال روبنسون، وهلم يلتهم السردينة بعد الأخرى، ويمسح الزيت بوشاح من الصوف يبدو أن برونيلدا كانت قد نسيته في الشرفة: «انظر يا روسمان، انظر، هذا ما تحتاج إليه في الحقيقة، إن لم تكن تحب أن تتضور جوعًا، وأقول لك، لقد ألقي بك على هامش الحياة، ولو عاملك الناس دائمًا ككلب، فإنك سوف تبدأ، فتظن أنك كلب بالفعل، إنه

شـيء طيب وجـودك هنـا معي يـا روسـمان، فسـوف أجـد على الأقـل شخصًا يمكنني أن أتحـدث إليـه، لا أحـد في هـذا المـنزل كلـه يتحـدث إليّ، إنهم يكرهوننا وكل هـذا بسـبب برونيلـدا، إنهـا امـرأة رائعـة الطبـع، وإننى..!» وهنا أشار إلى كارل بـأن يميـل نحـوه، لكي يهمس إليـه بشـيء مـا: «لقـد رأيتهـا عاريـة ذات مـرة، أوه..» وعنـدما عاودتـه ذكـرى تلـك المتعة، راح يقرص ساق كارل، ويصفعها، حتى صاح كارل فيـه قـائلًا: «روبنسون، لقد جننت!»، ودفع يده في عنف بعيدًا.

قـال روبنسـون: «إنـك مـازلت طفلًا يـا روسـمان!»، وأخـرج من تحت قميصه خنجرًا، كان يعلقه بحبل حول عنقه، وأخرجـه من جرابـه، وراح يقطع به قطعة السجق الجامدة: «إن أمامك الكثير الذي يجب عليك أن تتعلمه، إلا أنك قد جئت إلى أصلح الأماكن التي يمكنك أن تتعلم فيهـا هذه الأشياء، وأنت لا تريـد أن تشـرب أيضًـا! وعلى هـذا فـأنت لا تريـد شيئًا مطلقًا، كما أنك لا تميـل كـذلك إلى الحـديث، إلا إنـني لا يهمـني من الذي أجلس معه في الشرفة، طالما أن هنـاك شخصًـا معي في نهايـة الأمر، ذلك أنني أُطرد دائمًا إلى هذه الشرفة، وتسر برونيلدا سرورًا هائلًا لذلك، وما عليها سوى أن تعلن أية فكـرة تخطـر على بالهـا، كـأن تقـرر مثلًا أنها تشعر بالبرد، أو أنها تشـعر بـالحرارة الشـديدة، أو أنهـا تريـد أن تنام، أو تريد أن تمشط شـعرها، أو تريـد أن تفـك الكورسـيه أو ترتديـه، وهكذا تتسبب دائمًا في طردي إلى الشرفة، أحيانًا تفعـل مـا تقولـه حقًّا، إلا أنهـا في أغلب الأحيـان، تبقى جالسـة فـوق الأريكـة، كمـا هي، ولا تتحرك. وقد اعتدت في بعض الأحيان أن أزيح الستارة جانبًـا، وأسـترق

النظر من خلالها، إلا أن ديلامارش في إحدى تلك المرات- وأنا أعلم تمام العلم، أنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك، وإنه قد فعله فقط، لأن برونيلدا كانت قد طلبت منه أن يفعله- ضربني فجأة على وجهي عديداً من المرات بالسوط- هل يمكنك أن تتبين آثار تلك الضربات؟ ومنذ ذلك الحين، لم أجرؤ على أن أسترق النظر ثانية، وعلى هذا فقد اعتدت على أن أستلقي هنا فقط، في هذه الشرفة، ولا أفعل شيئًا سوى الأكل، والليلة قبل الماضية كنت أستلقي هنا وحيداً طوال الليل، وكنت أرتدي تلك الملابس الفاخرة التي شاء سوء الحظ أن أفقدها في فندقك- فلقد مزق الخنزير، تلك الملابس الثمينة من على ظهري- حسنًا، بينما كنت أستلقي هنا وحيداً، وأتطلع إلى الشارع من خلال الدرابزين، وبدا لي كل شيء بائسًا غاية البؤس، حتى لقد شرعت فجأة في البكاء، ثم حدث- دون أن ألاحظ ذلك- أن خرجت برونيلدا إلى الشرفة في ردائها الأحمر- الذي يناسبها أكثر من بين كل ملابسها الأخرى- وتطلعت إليّ قليلًا، وقالت: «روبنسون، لماذا تبكي؟!»، ثم رفعت ذيل ردائها ومسحت دموعي، ومن يدري ما عساها كانت تفعل أيضًا، لو لم ينادها ديلامارش، وكان عليها أن تعود إلى الحجرة ثانية في الحال، لقد ظننت بالطبع لحظتها أن دوري كان قد حان، وتساءلت من خلال الستارة، إن كان عليّ أن أدخل، فماذا تظن أن برونيلدا قد قالت؟ لقد قالت: «لا!»، ثم أضافت قائلة:

«وما الذي تظنه؟!».

وتساءل كارل قائلًا: «لكن لماذا تبقى هنا إذا كانا يعاملانك على هذا النحو؟!».

فأجابه روبنسون قائلًا: «اسمح لي يا روسمان، أن أقول لك إن هذا سؤال غبي، لأنك سوف تبقى هنا أنت أيضًا، حتى لو عاملاك بصورة أسوأ كثيرًا من هذه، وبالإضافة إلى ذلك فليست معاملتهما لي إلى هذا الحد من السوء!».

قال كارل: «لا.. إنني سأرحل بلا شك، وهذه الليلة نفسها إن أمكن ذلك، إنني لن أبقى معك».

ـ وكيف ستتمكن من الرحيل الليلة؟! تساءل روبنسون، وهو يستخرج لب الرغيف الطري، ويغمسه في الزيت، داخل علبة السردين: «كيف يمكنك أن ترحل إذا كان عليك ألا تدخل الحجرة؟!».

ـ ولماذا لا يجب عليَّ أن أدخل الحجرة؟! فقال روبنسون، وهو يفتح فمه على اتساعه، ويلتهم الخبز المنقوع في الزيت، بينما يتلقى قطرات الزيت المتساقطة في راحة يده الأخرى، كوعاء كان يغمس فيه بقية الخبز من حين لآخر: «لأنه ليس لنا أن ندخل الحجرة، ما لم يدق الجرس، إيذانًا بالدخول، إن الأمور أكثر حزمًا الآن، وقد كانت على الباب في البداية، ستارة رقيقة، لم يكن يمكنك بالفعل أن ترى من خلالها، لكن كان في استطاعة المرء في الأمسيات أن يلاحظ شبحيهما من خلالها، إلا أن ذلك لم يرق لبرونيلدا، وعلى هذا، كان عليّ أن أحول إحدى ملابسها الليلية الثقيلة إلى ستارة، وأن أعلقها على باب

الشرفة بدلًا من الستارة القديمة، فلا يمكنك الآن أن ترى شيئًا بالمرة، ثم كنت في أحد الأوقات أسأل من مكاني هنا، إن كان لي أن أدخل الحجرة، وكان يأتيني الجواب، بنعم، أو لا، حسب الظروف، لكن يبدو أن هذا الوضع كان قد راق لي كثيرًا، فقد كنت أسألها أسئلة متلاحقة في كل مرة، ولم تحتمل برونيلدا ذلك ـ ومع أنها في غاية السمنة، إلا أنها في غاية الرقة، وهي كثيرًا ما تصاب بالصداع، وبالنقرس في ساقيها ـ وعلى هذا فقد تم القرار بعدم السماح لي بالسؤال ثانية، وفي استطاعتي أن أدخل الحجرة فقط عندما يرن جرس ثبتاه فوق المنضدة لهذا الغرض، ويرن هذا الجرس رنينًا مرتفعًا جدًّا، حتى ليوقظني أنا نفسي من نومي، وقد كانت لي قطة في أحد الأوقات، كانت تسليني في وحدتي، إلا أنها قد فزعت من صوت الجرس، فانطلقت تجري، ولم تعد ثانية قط، ولم يرن هذا الجرس اليوم كما ترى، ذلك لأنه عندما يرن، فإنه لا يكون مسموحًا لى عندئذ فقط بالدخول، بل إنه يتحتم علي أن أدخل الحجرة ـ وعندما ينقضي مثل هذا الوقت الطويل دون أن يرن الجرس، فمن الممكن في هذه الحالة ألا يرن بالفعل إلا بعد انقضاء فترة طويلة أخرى».

قال كارل: «نعم، إلا أن ما يوافقك، لا يوافقني بالضرورة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مثل هذا الوضع لا يناسب إلا الذين يمكنهم احتماله!».

فصاح روبنسون قائلًا: «لكن، لماذا لا يوافقك أنت أيضًا؟ بالطبع أنه يوافقك أنت أيضًا، ومن الأفضل أن تستلقي في هدوء معي، هنا حتى يرن الجرس، ثم يمكنك عندئذ، على الأقل، أن تحاول الرحيل».

ـ ما الذي يبقيك هنا حقًّا، إن ديلامارش ببساطة صديقك، أو أنه بالأحرى كان صديقك، هل تسمي هذه حياة؟ ألم يكن من الأفضل لك الذهاب إلى باتر فورد، حيث كنت تنوي الذهاب في البداية؟ أو حتى إلى كاليفورنيا حيث يوجد أصدقاؤك؟».

قال روبنسون: «حسنًا، لم يكن لأحد أن يتوقع حدوث ذلك!»، ثم قال قبل أن يكمل عبارته: «في صحتك الغالية يا عزيزي روسمان». وارتشف رشفة طويلة من زجاجة العطر: «لقد كنا في غاية الضنك، خلافًا للمتوقع، عندما تركتنا إذ ذاك عامدًا، ولم نتمكن من أن نجد عملًا على الإطلاق، في اليوم الأول، أو اليومين الأولين، وبالإضافة إلى ذلك، فلم يكن ديلامارش يرغب في العمل، كان في استطاعته لو شاء أن يحصل على عمل ما بسهولة، إلا أنه كان يرسلني لكي أبحث أنا لنفسي عن عمل، ولم يصادفني الحظ مطلقًا، كان يتسكع فقط هنا وهناك، وكان كل ما أحضره معه في المساء، حقيبة سيدة، كانت حقيبة فاخرة للغاية مصنوعة من اللآلئ، وقد أهداها لبرونيلدا فيما بعد ـ إلا أننا لم نجد فيها شيئًا، ثم قال إنه من الأفضل لنا أن نتسول أمام الأبواب ـ يمكنك أن تحصل على شيء أو آخر بهذه الطريقة ـ وهكذا مضينا في التسول، وكنت أغني أمام أبواب البيوت لكي أجعل أسلوبنا في التسول أفضل قليلًا، ويبدو أنه كان حظ ديلامارش هذه المرة، لأننا ما كدنا نمضي دقيقة أو دقيقتين في التسول، بالتحديد أمام الباب الثاني الذي وقفنا أمامه، وكان باب شقة هائلة في الطابق الأرضي، وغنيت أغنيتين للطاهي، وللساقي، عندما ظهرت أمامنا السيدة صاحبة الشقة،

وقد كـانت هي برونيلـدا نفسـها، ظهـرت على الـدرجات الأولى، وربمـا كانت ترتدي وقتهـا فسـتانًا محبوكًـا جـدًّا من الـدانتيلا، وعلى أيـة حـال فإنهـا كـانت قـد بـدت فـوق تلـك الـدرجات، فكم بـدت رائعـة، يـا روسـمان!، كـانت ترتـدي رداء أبيض اللـون، وكـانت تمسـك في يـدها شمسية حمراء اللون، كنت تشـعر بأنـك تريـد أن تلتهمهـا، تشـعر بأنـك تريد أن تشربها، يا إلهي، لقد كانت فاتنة! يا لها من امرأة! أخـبرني أنت، كيـف يمكن وجـود مثـل تلـك المـرأة؟ ولقـد انـدفع الطـاهي والسـاقي بالطبع نحوها في الحال، وكادا يحملانها من فـوق الأرض، وقـد وقفنـا على كلا الجانبين، ورفعنا قبعتينا، كما يفعل الناس هنـا، ولقـد تـوقفت لبرهة قصيرة، لأنها لم تكن قد التقطت أنفاسها، ولم أدر مطلقًا ما كنت أفعله، وكانت هي أمامي غاية في الوسامة، عريضة الجسـد جـدًّا، لكنهـا كانت رشيقة غاية الرشاقة بسـبب تلـك المشـدات الخاصـة الـتي كـانت تشد بها كل أجزاء جسمها، ويمكنني أن أطلعك على تلك المشدات في صندوق ملابسها، حسنًا، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن ألمس ظهرها، لكن كان ذلك في غايـة الرقـة، أنت تعـرف، مجـرد لمسـة خفيفـة، وأنـه لأمر فظيـع بـالطبع أن يلمس متسـول سـيدة ثريـة، ولقـد كنت فقـط قـد لمستها لمسة خفيفة عارضة، إلا أنني كنت قد لمستها بالفعـل في نهايـة الأمـر، ومن يـدري مـاذا كـانت النهايـة الـتي من الممكن أن ينتهي إليهـا ذلك الحـدث، لـو لم يلطمـني ديلامـارش لحظتهـا على أذني، ثم أتبعهـا بتلك الصفعة العنيفة التي ارتفعت لها يداي إلى وجهي»..

قال كارل: «ياللأمر العجيب!» كان قد استغرق تمامًا في الاستماع إلى القصة، وجلس على أرضية الشرفة: «إذن فقد كانت هذه هي برونيلدا؟».

قال روبنسون: «نعم، لقد كانت هي برونيلدا!».

فتساءل كارل قائلًا: «هل قلت مرة إنها كانت مغنية؟» أجابه روبنسون قائلًا: «بالتأكيد، إنها مغنية، ومغنية كبيرة» وكان يلوك قطعة كبيرة من الحلوى في فمه، وراح يدفع بين الحين والآخر، بقاياها التي كانت تخرج من فمه إلى الداخل، قائلًا: «لم نعرف ذلك بالطبع وقتها، كنا قد أدركنا فقط أنها كانت سيدة ثرية ورائعة للغاية، ولقد تصرفت وكأن شيئًا لم يحدث، وربما لم تكن قد شعرت بأي شيء عندما لمستها، لأنني كنت قد لمستها بالفعل بأطراف أصابعي، إلا أنها ظلت تتطلع إلى ديلامارش، الذي حدق في عينيها مباشرة، كعادته، ثم قالت له: «تعال معي إلى الداخل قليلًا» وأشارت له بمظلتها إلى داخل الشقة، وكان على ديلامارش أن يتقدمها، ودخل، وأغلق الخدم الباب خلفهما، ونسياني في الخارج، ولما كنت أظن أن الأمر لن يستغرق وقتًا طويلًا، فقد جلست على الدرج في انتظار ديلامارش، لكن الساقي خرج إليّ، بدلًا من ديلامارش، وهو يحمل لي وعاء ممتلئًا بالشوربة، قلت في نفسي: «إنه تحية من ديلامارش!»، ووقف الرجل إلى جانبي بعض الوقت، بينما كنت أتناول تلك الشوربة، وأخبرني ببعض الأشياء عن برونيلدا، وعندها أدركت مدى أهمية تلك الزيارة بالنسبة لنا، ذلك أن برونيلدا كانت قد طلقت زوجها، وكانت بالغة الثراء، ومنطلقة تمامًا

على سجيتها!، كان زوجها السابق، وهو صاحب مصنع للكاكاو، وللعلم، فهو لا يزال يحبها، إلا أنها رفضت العودة إليه بالمرة، رغم ذلك.

وكان غالبًا ما ينادي عليها أمام الشقة وهو يرتدي دائمًا أفخر الثياب، كما لو كان متأهبًا للذهاب إلى حفلة زفاف ـ هذا صدق، بكل كلمة فيه، ولقد عرفت الرجل بنفسي ـ لكن رغم المنح الضخمة التي كان يحصل عليها الساقي منه، فإنه لم يكن يجرؤ على أن يخبر برونيلدا، بأنه كان يلتقي بزوجها، لأنه كان قد سألها مرة أو مرتين من قبل إن كان له أن يستقبله، فكانت تلتقط أي شيء تقع عليه يدها، وتقذفه به على رأسه، ولقد صبت فوقه ذات مرة وعاء الماء الساخن الضخم الذي كان يجهز دائمًا من أجلها، وتسببت في تحطيم أحد أسنانه الأمامية، نعم يا روسمان يمكنك أن تحدق في ما شاء لك التحديق!».

وتساءل كارل قائلًا: «وكيف تمكنت من أن تتعرف بزوجها؟!» فقال روبنسون: «إنه يأتي إلى هنا غالبًا».

ـ هنا! وضرب كارل أرضية الشرفة بيده، ضربة خفيفة، لدهشته.

ومضى روبنسون في حديثه قائلًا: «قد تصيبك الدهشة، ولقد دهشت أنا نفسي عندما كان الساقي يقف بجواري خارج الشقة، وهو يحكي لي عن هذا كله، فكر في هذا فقط، فعندما تكون برونيلدا في الخارج، كان الزوج يرجو الساقي دائمًا أن يدخله إلى حجرتها، وكان يأخذ منها دائمًا شيئًا تافهًا أو آخر، كتذكار، ويترك لها بدلًا منه شيئًا نادرًا، وغاليًا، وكان

يحذر الساقي تحذيرًا مشددًا من أن يذكر لها شيئًا عن شخصية من ترك لها تلك الأشياء، لكن عندما ترك لها ذات مرة ـ وقد أقسم لي الساقي بصدق ذلك، وقد صدقته ـ قطعة نادرة من الخزف، لا تقدر بثمن، ولابد أن برونيلدا كانت تحققت منها بصورة ما، إلا أنها قد طوحت بها إلى الأرض في الحال، وداستها بقدمها، وبصقت فوقها، وفعلت فوقها أشياء أخرى أيضًا، حتى أن الخادم، لم يتمكن من أن يرفع حطامها من على الأرض إلا بصعوبة بالغة لشدة قرفه».

فتساءل كارل قائلًا: «وماذا فعل زوجها بعد هذا الحادث؟»، فقال روبنسون: «لست أدري في الحقيقة، إلا أنني لا أظن أنه فعل شيئًا ذا بال، فربما لم يكن قد علم بهذا الأمر وقتها في الحقيقة مطلقًا، ولقد تحدثت معه كثيرًا عن هذا الحادث، وكنت ألتقي به كل يوم في أحد أركان الشارع، لو استطعت أن أخرج لمقابلته، وكان عليّ دائمًا أن أنهي إليه بآخر الأخبار، وإذا لم أتمكن من الخروج إليه، فقد كان ينتظر حوالي نصف الساعة، ثم ينصرف بعد ذلك من حيث أتى، وقد كانت في هذه اللقاءات فائدة كبيرة لي في البداية، لأنه كان يدفع كسيد، ثمنًا لكل ما كنت أوافيه به من الأخبار، لكن بعد أن علم ديلامارش بالأمر، كان عليّ أن أسلم له النقود التي كنت أحصل عليها من ذلك الرجل، وعلى هذا فلم أعد أحرص على الخروج كثيرًا الآن».

تساءل كارل: «لكن ما الذي يسعى إليه هذا الرجل؟ ما الذي يسعى إليه بحق الجحيم، إنه يعلم بلا شك أنها لا تريده!».

تنهد روبنسون قائلًا، وهو يشعل سيجارة، وينفث دخانها عاليًا في الهواء، ويعبث بيده في دخانها المتطاير: «نعم!»، ثم تحول عن رأيه قائلًا: «وماذا يعني هذا الأمر بالنسبة لي؟ كل ما أعرفه هو أنه على أتم استعداد لأن يدفع مبلغًا هائلًا من المال، لكي يتمكن من أن يستلقي هنا في هذه الشرفة مثلنا!».

نهض كارل، ومال إلى الدرابزين، وتطلع نحو الشارع، كان القمر واضحًا الآن، إلا أن ضوءه لم يكن قد نفذ بعد إلى أعماق الشارع، ومع أن الشارع كان خاليًا تمامًا أثناء النهار، إلا أنه كان مزدحمًا الآن بالناس، وخاصة أمام أبواب المنازل، وقد كانوا يتدافعون جميعًا إلى الأمام في بطء وتثاقل، وكانت قمصان الرجال، وملابس النساء الخفيفة، تبدو خافتة وسط الظلام، وكانوا جميعًا حاسري الرؤوس. وكانت مختلف الشرفات التي كانت تطل على الشارع، تمتلئ الآن بالناس، كانت العائلات بأكملها تجلس فيها، تحت ضوء المصابيح الكهربائية، وحول مناضد صغيرة، إذا كانت الشرفة فسيحة بدرجة كافية، أو في صف من المقاعد المتجاورة ذات الذراعين، أو تبرز رؤوسهم فقط من خارج نوافذ الحجرات، وكان الرجال يجلسون في ارتياح، وقد مددوا سيقانهم ودسوا أقدامهم بين قضبان الدرابزين، وهم مستغرقون في قراءة الصحف التي كانت تمتد حتى تبلغ أرضية الشرفات، أو يلعبون الورق، دون أن يتكلموا على ما يبدو، وكان لعبهم يصحبه خبطات عنيفة فوق المنضدة، وكانت حجور النساء تمتلئ بكثير من أعمال التطريز، ولم يكن يفعلن شيئًا سوى أن يوجهن نظرات مقتضبة بين

الحين والآخر على ما يحيط بهن، أو إلى الشارع تحتهن، وكانت ثمة أمرأة رقيقة جميلة في الشرفة المجاورة، قد راحت تتثاءب، وهي تدير عينيها إلى أعلى، وترفع إلى فمها قطعة من الملابس الداخلية، كانت ترتقها، وحتى في الشرفات البالغة الصغر، تمكن الأطفال من مطاردة بعضهم بعضًا، وكانوا يثيرون صخبًا يزعج والديهم، وفي داخل الكثير من الحجرات، كان يمكن سماع أصوات الجراموفونات، وهي تطلق الأغنيات، أو الموسيقى الأوركسترالية، فيما عدا أن رب الأسرة كان يعطي إشارة ما بين الحين والآخر، فيهرع شخص ما إلى داخل الحجرة لكي يضع أسطوانة أخرى، وعند بعض النوافذ كان من الممكن رؤية الأزواج العشاق يقفون بلا حراك، وكان ثمة عاشقان من بين هؤلاء العشاق، يقفان أمام نافذة مواجهة، وكان الشاب يلف ذراعه حول الفتاة، ويعتصر خصرها.

سأل كارل روبنسون، الذي كان قد نهض هو أيضًا واقفًا على قدميه، وقد التف في دثار برونيلدا، عندما شعر بالبرد بالإضافة إلى بطانيته:

ـ هل تعرف أحدًا من جيرانك هنا؟!..

فقال روبنسون: «لا أكاد أعرف أحدًا منهم!» وجذب كارل نحوه حتى التصق به، لكي يهمس إليه قائلًا: «وإلا ما كان أمامي ما أشكو منه الآن، لقد باعت برونيلدا كل ما لديها لكي ترضي ديلامارش، وانتقلت إلى هذه الشقة في هذه الضاحية بكل ما تبقى لديها؛ لكي تهب نفسها كلية

له، دون أن يعكر صفوهما أحد، وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا هو ما كان يريده ديلامارش أيضًا!»، تساءل كارل: «وهل طردت خدمها؟»،

فقال روبنسون: «أجل لقد طردتهم، ومن أين لها ما تنفقه على هؤلاء الخدم هنا؟!، إن أمثال هؤلاء الخدم يتوقعون وجود كل أنواع الخير بلا حساب، ولقد ركل ديلامارش ذات مرة، في شقة برونيلدا القديمة، واحدًا من هذه المخلوقات المرفهة، خارج الحجرة وظل يركله أمامه حتى أصبح الرجل خارج الشقة كلها، وقد انضم بقية الخدم بالطبع إلى جانب زميلهم، وأثاروا شغبًا أمام الباب، ثم خرج إليهم ديلامارش، لم أكن أنا قد أصبحت خادمًا حينئذ، لكنني كنت صديقًا للأسرة فقط، إلا أنني طردت معهم إلى الخارج على الرغم من ذلك، وسألهم ديلامارش قائلًا: «ماذا تريدون؟!».

وأجابه أكبر الخدم سنًّا، وهو رجل يدعى إيزيدور: «لا شأن لك بنا، إننا نعمل في خدمة السيدة!»، أعتقد أنك تدرك من هذا أنهم كانوا يحترمون برونيلدا غاية الاحترام، إلا أن برونيلدا لم تلق بالًا إليهم، وانطلقت نحو ديلامارش ـ لم تكن على تلك السمنة، وثقل الحركة عندئذ، كما هو حالها الآن ـ واحتضنته، وقبلته أمامهم جميعًا، ونادته قائلة: «عزيزي ديلامارش!» ثم قالت: «والآن أطرد هؤلاء الحمقى من هنا!»، الحمقى! ذلك هو ما دعت به خدمها، ولك أن تتخيل التعبير الذي ارتسم على وجوههم، ثم أمسكت برونيلدا يد ديلامارش وسحبتها نحو كيس نقودها، الذي كانت تعلقه في حزامها، ووضع ديلامارش يده في داخل الكيس، وراح ينقد الخدم أجورهم، ولم تفعل برونيلدا

شيئًا، لكنها بقيت واقفة في مكانها هنالـك إلى جـواره، والكيس مفتـوح في وسطها، وكان على ديلامارش أن يضع يـده في داخـل الكيس المـرة بعد المرة، لأنه كان يوزع النقود دون أن يحصيها، ودون أن يسـتمع إلى شكواهم، وفي النهاية قال ديلامارش: «بما أنكم لا شـأن لكم بي، فـأنني أقول لكم باسم السيدة، اخرجوا في هذه اللحظة»، وهكـذا فصـلوا، وقـد كانت ثمة عواقب قانونية فيما بعد، وكان على ديلامارش أن يذهب إلى المحكمة في إحـدى المـرات، إلا أنـني لم أعلم عن هـذا الأمـر أكـثر من ذلـك، فيمـا عـدا أن ديلامـارش قـد قـال لبرونيلـدا، بعـد طـرد الخـدم: «وهكـذا فليس لـك خـدم الآن؟!» لكنهـا قـالت لـه: «ولكن روبنسـون لا يزال موجودًا!»، وعنـدها لطمـني ديلامـارش على كتفي، وقـال: «حسـن جدًّا، إذن، فسوف تصبح خادمنا!»، وعندئذ ربتت برونيلـدا على خـدي، فلو أتيحت لك الفرصة، فقط، ياروسـمان، فلعلهـا أن تـربت على خـدك في يوم ما، وسوف يدهشك كم يبدو ذلك ممتعًا».

فقال كارل، ملخصًا الأمر: «وهكذا فقد تحولت إلى خادم لـديلامارش، أليس كذلك؟!».

ولاحظ روبنسـون الأسـف في صـوت كـارل، فأجابـه قـائلًا: «قـد أكـون خادمًا، إلا أن قليلًا من الناس هم الذين يعلمون بذلك، وهأنت ذا تـرى، فلم تكن تعلم أنت نفسك، على الـرغم من أنـك قـد قضـيت هنـا بعض الـوقت. لمـاذا؟ لأنـك تـرى فخامـة الثيـاب الـتي كنت أرتـديها الليلـة الماضـية في الفنـدق، لقـد كنت أرتـدي أفخـر الملابس، فهـل يرتـدي الخدم مثل تلك الملابس؟ إن الشيء الوحيـد الـذي يضـايقني هـو فقـط

أنني لا أتمكن من مغادرة هذا المكان إلا نادرًا، فيجب أن أكون دائمًا تحت أمرهما، ويوجد دائمًا الكثير مما يجب علي أن أفعله هنا في الشقة، إن رجلًا واحدًا لا يكفي في الحقيقة لكي يقوم بكل العمل، ولعلك قد لاحظت أن لدينا أشياء كثيرة تتراكم في الحجرة، فما لم نستطع أن نبيعه عند انتقالنا إلى هذه الشقة، أحضرناه معنا إلى هنا، وقد كان من الممكن بالطبع إلقاؤه بعيدًا، إلا أن برونيلدا لا تلقي بأي شيء، ويمكنك أن تتخيل معنى أن تحمل هذه الأشياء على السلالم إلى هنا!».

صاح كارل قائلًا: «روبنسون، هل حملت بنفسك كل تلك الأشياء، وصعدت بها السلالم إلى هنا؟».

فقال روبنسون: «ماذا؟ وأي شخص آخر غيري كان هنا لكي يحملها، لقد كان ثمة رجل لمساعدتي في ذلك، إلا أنه كان وغدًا كسولًا، وكان عليَّ أن أقوم بكل العبء وحدي، ووقعت برونيلدا بجوار عربة نقل العفش، وكان ديلامارش هنا لكي يقرر في أي الأماكن توضع الأشياء، وكان عليَّ أن أظل مندفعًا إلى أعلى وإلى أسفل.

وقد استمر العمل لمدة يومين كاملين، وقت طويل، أليس كذلك، لكنك لا تعلم شيئًا عن الأشياء العديدة التي تحتويها تلك الحجرة، إن كل الصناديق الخاصة بالملابس تمتلئ بملابس برونيلدا، وخلف الصناديق تتكوم الأشياء في أنحاء الحجرة حتى تبلغ السقف، فلو كانا قد استأجرا عددًا قليلًا من الرجال لنقل تلك الأشياء لكان كل شيء قد انتهى بغاية السرعة، إلا أن برونيلدا لم تكن تطمئن إلى غيري في حمل

حاجياتها، ولقد كان هذا تملقًا لي بالطبع، إلا أنني قد أهدرت قواي تمامًا خلال هذين اليومين إلى الأبد، وماذا تفيدني صحتي في غير ذلك؟!، إن أقل شيء أحاول أن أقوم بأدائه هنا الآن يسبب لي آلامًا هنا وهناك، وهنا. هل تتذكر هؤلاء الصبية الذين في الفندق، تلك الآلات النطاطة - ذلك أنهم ليسوا سوى مجرد آلات تقفز بغير معنى - إنهم لم يكونوا ليتمكنوا مني لو أنني كنت في كامل صحتي! لكن لما كنت محطمًا بحالتي الراهنة، فلن أستطيع أن أقول كلمة واحدة لديلامارش أو برونيلدا، وسوف أستمر في العمل طالما كان في مقدوري أن أعمل، وعندما لا أصبح قادرًا على العمل، فسوف أستلقي أرضًا، وأموت، وعندئذ سوف تكتشف، متأخرة جداًّ، أنني كنت مريضًا بالفعل، ولكنني رغم ذلك واصلت العمل، وأهلكت نفسي حتى الموت في خدمتها، أوه، يا روسمان»، وانتهى من حديثه مجففًا دموعه في كم قميص كارل، ثم قال بعد برهة: «ألا تشعر بالبرد، وأنت تقف هنا في قميصك هذا فقط؟!».

قال كارل: «استمر في حديثك يا روبنسون، إنك تبكي دائمًا، وأنا لا أعتقد أنك مريض إلى هذا الحد، إنك تبدو صحيحًا إلى درجة كافية، لكنك باستلقائك في الشرفة طول الوقت فإنك تتوهم مختلف الأوهام، وربما كنت تشعر بألم عارض في صدرك، وهذا ما أشعر به أنا أيضًا، ويشعر به كل شخص، فلو بكى كل الناس مثلك لأتفه الأمور، فلن يكون هناك أي شيء سوى البكاء في كل تلك الشرفات».

قال روبنسون، وهو يمسح دموعه بطرف بطانيته: «إنني أعلم جيدًا أنني مريض، إن الطالب الذي يقيم بجوارنا مع صاحبة المنزل التي تطهو طعامنا، قد قال لي منذ فترة قصيرة مضت، عندما كنت أحضر الأطباق: «انتبه يا روبنسون، إنك مريض، ألست مريضًا؟!»، لم يكن لي أن أتحدث مع هؤلاء الناس، وهكذا فقد وضعت الأطباق في بساطة، وغادرت المكان، لكنه تبعني في الحال، وقال: «استمع إليّ يا رجل، لا تدفع الأمور إلى مداها، إنك رجل عليل!» فسألته: «حسنًا إذن، وماذا أفعل في هذا؟!»، فقال وهو يستدير مبتعدًا عني: «هذا شأنك!»، وضحك الآخرون فحسب، ضحك هؤلاء الذين كانوا يجلسون لحظتها إلى المائدة، إنهم جميعًا أعداؤنا، كل من يحيطون بنا، وهكذا فكرت في أنه من الأفضل لي أن أصمت.

ـ وعلى هذا فأنت تصدق أي شخص يحاول أن يستغلك، بينما لا تصدق شخصًا يرجو لك الخير؟!.

فقال روبنسون متعجبًا: «ولكنني أعرف شعوري بالتأكيد!» وشرع في الصراخ، ساخطًا مرة أخرى.

ـ إنك لا تدري في الحقيقة ما يضرك، ولابد لك من أن تبحث لنفسك عن عمل شريف، بدلًا من أن تعمل خادمًا لديلامارش هنا، وإنني أقول لك استنادًا إلى ما قلته أنت نفسك، وإلى ما أراه هنا الآن، إنها ليست خدمة تلك التي تقوم بها، ولكنها استعباد، ولا يمكن أن يتحمل ذلك أحد، وإنني أصدقك في كل ما قلته، إلا أنك تعتقد أنك لا تستطيع أن

تترك ديلامارش لأنك صديقه، إن هذا هراء، فلو لم يكن يـرى أيـة حيـاة حقيرة تحياها، فليس عليك أن تحمل له أقل شعور ودي!.

ـ «إذن فأنت تعتقد يا روسمان أنني من الممكن أن أسترد صـحتي، لـو تركت العمل هنا؟!».

قال كارل: «بالتأكيد».

وتساءل روبنسون ثانية: «بالتأكيد؟!».

فقال كارل مبتسمًا: «بالتأكيد تمامًا».

فقال روبنسون وهو يتطلع إلى كارل: «إذن فإنني من الممكن أن أبـدأ في محاولة استرداد صحتي في الحال!».

فتساءل كارل: «وكيف ذلك؟!».

وأجابه روبنسون قائلًا: «ماذا؟ لأن عليك أن تقوم بعملي هنا».

فتساءل كارل قائلًا: «من الذي أخبرك بهذا، بحق الجحيم؟!».

ـ أوه.. إنهـا خطـة قديمـة، وقـد بحثت هـذه الخطـة أيامًـا طويلـة، وقـد بدأت عندما عنفتـني برونيلـدا لعـدم قيـامي بتنظيـف الشـقة على الوجـه الأكمـل، وقـد وعـدتها بـالطبع بـأن أقـوم بعمـل كـل شـيء على الوجـه الأكمل في الحال، لكن.. حسنًا، لقـد كـان هـذا صعبًا للغايـة، فلم يكن في مقـدوري، مثلًا، في حـالتي الصـحية الراهنـة أن أزحـف إلى كـل الأركـان لكي أكنس الأتربـة، إنـني أتحـرك بغايـة الصـعوبة في وسـط الحجـرة، ولا أكـاد أتمكن من الوصـول إلى مـا خلـف الأثـاث، وأكـوام

الأمتعة، ولـو كـان للحجـرة أن تنظـف تنظيفًـا شـاملًا، فلابـد من نقـل الأثاث كله من مكانه، وكيف لي أن أفعل ذلك بمفـردي؟ بالإضـافة إلى ذلك، فيجب أن يتم هذا كله بغاية الهـدوء، حـتى لا تتضـايق برونيلـدا، وهي نادرًا ما تغـادر الحجـرة، وعلى هـذا فقـد وعـدت بـأن أنظـف كـل شـيء، إلا أنـني لم أسـتطع بالفعـل أن أنظـف كـل شـيء، ولمّـا لاحظت برونيلدا ذلك، أخبرت ديلامارش أن الحال لا يمكن أن يستمر على هذا المنـوال، وأن عليـه أن يسـتخدم مسـاعدًا، يسـاعدني في أعمـال الشـقة، قالت له: «لا أريدك يـا ديلامـارش أن تلومـني في أي وقت من الأوقـات على عدم استطاعتي إدارة شئون البيت كمـا ينبغي، فلا يمكـنني أن أجـد نفسـي مطلقًـا، وأنت تعلم ذلـك تمـام العلم، ولم يعـد روبنسـون كافيًـا للقيام وحده بأعباء العمل، لقد كان نشيطًا في البداية، وكان يقوم بـأداء كل شيء على خير وجه، لكنه الآن متعب دائمًـا، ويجلس أغلب الـوقت في أحد الأركان، لكن حجرة مكتظة بالأشياء كحجرتنا هـذه، في حاجـة إلى أن تكون منظمة باسـتمرار!»، وعلى هـذا فقـد اهتم ديلامـارش بـأمر ترتيبها، لأنه لا يمكن بالطبع أن نسمح بـدخول أي شـخص، مهمـا كـان إلى منزلنا، ولا حتى كمجرد تجربة، طالما أن النـاس جميعًـا من حولنـا، يتجسسون علينا، لكني لما كنت صديقًا مخلصًا لك، وكنت قد سمعت من رينيل عن العبودية التي كان عملك في الفندق قـد كبلـك بأغلالهـا، فقد رشحت اسمك، ووافق ديلامارش في الحـال، على الـرغم من أنـك كنت وقحًـا معـه غايـة الوقاحـة من قبـل، ولقـد سـررت بـالطبع غايـة السرور، عندما تمكنت من أن أكون نافعًـا لـك، ذلـك لأن هـذه الوظيفـة

تبدو كأنها قد خلقت لك، فأنت صغير، وقوي، وسريع، بينما لا نفع فيّ لأحد، لكن لابد لي من أن أخبرك بأنك لم تقبل كخادم هنا بصورة نهائية، فلو لم ترض برونيلدا عنك، فمعنى هذا أن لا مكان لك هنا، وعليك لهذا أن تبذل كل جهدك حتى ترضى عنك، وسأدبر أنا أمر ما يبقى بعد ذلك.

فتساءل كارل قائلًا: «وما الذي ستفعله، لو قبلت هذا العمل؟!».

وكان كارل قد أحس بالحرية التامة بعد أن تخطى الصدمة الأولى التي سببها له تصريح روبنسون، وعلى هذا فلم يكن ديلامارش ينوي به شرًّا أكثر من أن يحوله إلى خادم له، ولو كانت لديه أية نوايا أخرى شريرة، فلا شك أن روبنسون الثرثار كان سيثرثر بها حتمًا، لكن لو كانت هذه هي نية ديلامارش حقيقة، فقد رأى كارل عندئذ أن عليه أن يغادر المكان في تلك الليلة نفسها، ولا يمكن أن يجبره أحد على قبول عمل لا يريده، وعلى الرغم من أنه كان يخشى في بداية الأمر أن يعوقه فصله من الفندق، عن الحصول على وظيفة مناسبة، ومحترمة لو أمكن، بسرعة تحفظه من التضور جوعًا، فقد بدت له الآن كل الأعمال محترمة غاية الاحترام إذا قورنت بهذا العرض، الذي أثار اشمئزازه، ولو لم يجد عملًا، فليبق جائعًا، ومعدمًا، ولكنه لن يقبل هذا العمل، إلا أنه لم يحاول أن يصرح بهذا لروبنسون، خاصة أن عقل روبنسون كان مشغولًا الآن بأمل التخلص من أعبائه، ونقلها إلى كاهل كارل.

وقال روبنسون، وهو يؤكد كلماته، بإشارة من يده تصاحب كل كلمة يتفوه بها: «لكي تبدأ العمل ـ وكان قد اعتمد بمرفقيه على الدرابزين ـ فسوف أشرح لك كل شيء، وأريك كل ما لدينا من أشياء، ولقد تلقيت تعليمًا جيدًا، وأنا متأكد من أن تمكنك من الكتابة مسألة لا جدال فيها، وعلى هذا ففي وسعك أن تعد في الحال قائمة بكل ما لدينا في الشقة من أشياء، ولو كان الطقس صافيًا غدًا، فسوف نسأل برونيلدا أن تجلس في الشرفة، ويمكننا عندئذ أن نتابع عملنا بداخل الحجرة في هدوء، دون أن نسبب لها إزعاجًا، ذلك أن هذا الأمر هو ما يجب أن يكون موضع اهتمامك الأول، يا روسمان، لا يجب إزعاج برونيلدا، إن سمعها حاد جدًّا، وربما كان هذا لأنها مغنية أن أذنيها بالغتا الحساسية، ولنقل مثلًا، إنك تدحرج برميلًا صغيرًا ممتلئًا بالبراندي، وهو يوضع عادة خلف صناديق الملابس، إنه يسبب كثيرًا من الضوضاء لأنه ثقيل، ولأن كل مختلف الأشياء تتراكم حوله على الأرض، ولهذا لا يجب عليك أن تدحرجه لكي تخرجه من مكانه، إن برونيلدا، ولنقل ذلك أيضًا، تستلقي على الأريكة تطارد الذباب، الذي يسبب لها ضيقًا شديدًا، وتظن أنت أنها لا تلقي انتباهًا إليك، وتدحرج هذا البرميل، بينما تظل هي مستلقية هنالك في هدوء تام، لكنها فجأة، ودون أن تتوقع ذلك منها، وبينما لا تصدر بسببك أدنى ضجة، تجدها قد وقفت فجأة، وراحت تضرب الأريكة بيديها، حتى لا يمكنك أن تراها، لكثرة الأتربة ـ فمنذ أن جئنا إلى هنا، لم أنفض الأتربة عن تلك الأريكة، لم أستطع أن أفعل ذلك فهي تستلقي فوقها دائمًا في الحقيقة ـ وتبدأ في

الصراخ بشراسة، وكأنها رجل، وتواصل صراخها لعدة ساعات، ولقد منعها الجيران من الغناء، إلا أن أحدًا لم يستطع أن يمنعها من الصراخ، فلابد لها أن تصرخ، مع أن هذا لم يحدث كثيرًا الآن، ذلك لأننا قد أصبحنا الآن ـ أنا وديلامارش ـ أكثر حذرًا، وقد ساءها هذا للغاية كذلك، وقد أغمى عليها ذات مرة ـ وكان ديلامارش في الخارج عندئذ ـ وكان عليّ أن أبحث عن الطالب الذي يسكن بجوارنا، وقد رش عليها سائلًا ما من زجاجة كبيرة، أعادها إلى وعيها في الحال، إلا أن هذا السائل كانت له رائحة مخيفة، ويمكنك الآن أن تشم أثر هذا السائل، لو وضعت أنفك على الأريكة، ولاشك أن هذا الطالب، هو عدو من أعدائنا، مثله مثل الجميع هنا، ويجب عليك أن تحذره هو أيضًا، وألا تحاول أن تختلط بأي منهم.

فقال كارل: «لكنني أقول لك يا روبنسون إن هذا برنامج حافل جداًّ، وإنها لوظيفة رائعة تلك التي تنصحني بقبولها!».

فقال روبنسون وهو يغلق عينيه، ويهز رأسه، كما لو كان يحاول طرد كل مخاوف كارل: «لا تخش شيئًا، إن لهذه الوظيفة بعض الميزات أيضًا، وهي ميزات لا يمكنك أن تجدها في أية وظيفة أخرى، فسوف تكون دائمًا في حضرة سيدة مثل برونيلدا، وقد تنام أحيانًا في نفس الحجرة التي تنام هي فيها، وثمة كثير من المتعة في ذلك، كما يمكنك أن تتخيل، وسوف تحصل على أجرٍ مجزٍ، إن النقود هنا كثيرة، وأنني لا أحصل على أجر لأنني صديق ديلامارش، لكنني في كل مرة أخرج فيها من المنزل، أتلقى دائمًا شيئًا من النقود، تعطيها لي برونيلدا، لكنك

ستحصل بالطبع على أجرك كأي خادم آخر، هذا هو وضعك في نهاية الأمر، إلا أن أهم هذه الأشياء جميعًا هو أنني سأحاول أن أجعل وظيفتك هذه سهلة جداًّ عليك، ولن أفعل أي شيء بالطبع في البداية؛ لكي أعطي لنفسي فرصة لاسترداد صحتي، لكنني ما إن أتماثل للشفاء، حتى يمكنك أن تعتمد عليّ، وعلى أية حال فسوف أقوم بكل خدمات برونيلدا في أثناء تناول طعامها. وسأقوم كذلك بتصفيف شعرها، وأساعدها على ارتداء ملابسها، وأفعل ما لا يفعله ديلامارش من قبيل هذه الخدمات، وهكذا يكون عليك فقط أن تهتم بأمر نظافة الحجرة، وتحضر لنا ما نحتاج إليه من الخارج، وتقوم بالأعمال المنزلية التي تتطلب مجهودًا».

قال كارل: «لا يا روبنسون. إن هذا كله لا يغريني بالبقاء».

فقال روبنسون وهو يدني من وجه كارل: «لا تكن أحمق يا روسمان، لا تضيع هذه الفرصة الرائعة! أين ستجد وظيفة أخرى بمثل هذه السرعة؟ من يعرفك؟ ومن تعرف أنت من الناس؟ إننا أنا وديلامارش، وكلانا رجل ناضج ذو خبرة عملية وتجربة، قد تجولنا لمدة أسابيع أربعة دون أن نجد عملًا، إن الحصول على العمل ليس أمرًا سهلًا، بل هو صعب في الحقيقة صعوبة شيطانية!».

أطرق كارل وهو يتعجب لأن روبنسون يتحدث بهذا الإدراك، وإن كانت نصيحته تلك أبعد من أن تجد لديه قبولًا، فلم يكن يمكنه البقاء، ولابد من أن يجد لنفسه مكانًا في المدينة الكبيرة، إنه يعرف الليل

جيداً، وكل الفنادق الممتلئة بالنزلاء لدرجة الانفجار، هؤلاء النزلاء الذين يحتاجون إلى الخدمة، ولديه بعض الخبرة في هذا الشأن، ولابد من أن يجد بسرعة وبكل ترحاب وظيفة أخرى، فعبر الشارع مباشرة كان ثمة مطعم في الطابق الأرضي، كانت تنبعث منه الموسيقى، وكان مدخله الرئيسي تغطيه فقط ستارة كبيرة صفراء، كانت تطير في الشارع من حين لآخر، عندما كان يلعب بها الهواء، وفيما عدا ذلك، فقد كان كل شيء هادئًا غاية الهدوء في الشارع كله.

وكانت أغلب الشرفات مظلمة، وعلى البعد، فحسب كان ثمة ضوء ينبعث من هنا، ومن هناك، لكن ما إن يركز المرء بعينيه عليه، حتى ينهض الناس الذين يجلسون تحت هذا الضوء، ويتدافعون إلى داخل مساكنهم، بينما مد الرجل، الذي بقي في الخارج وحده، يده أخيرًا إلى مفتاح النور، وأطفأه بعد نظرة قصيرة إلى الشارع.

قال كارل في نفسه: «لقد تقدم الليل بالفعل، ولو بقيت هنا أكثر من هذا، فسوف أصبح واحداً منهم».

واستدار لكي يجذب الستارة جانبًا عن باب الشرفة، فقال روبنسون وهو يعترض طريق كارل، ويحول بينه وبين الستارة:

«ما الذي تفعله؟!».

قال كارل: «إنني راحل، دعني، دعني».

فصاح روبنسون: «لكنك بالتأكيد لن تحاول أن تزعجها، ماذا تظن، وألقى ذراعيه حول عنق كارل، وتعلق به بكل ثقله، ولف ساقيه حول

ساقي كارل، وهبط به في لمحة فوق أرضية الشرفة، إلا أن كارل كان قد تعلم شيئًا من فنون العراك بين صبية المصاعد، وهكذا فقد سدد قبضته إلى ذقن روبنسـون، دون أن يضـغط عليهـا بكـل قوتـه، حـتى لا يـؤذي روبنسون، وبسرعة بلا أدنى تردد لكمه روبنسون في بطنه بركبته، قبل أن يبدأ في تدليك ذقنه براحتيه، وأطلـق صـيحة مرتفعـة، حـتى أن رجلًا في الشـرفة المجـاورة، قـد صـفق بيديـه غاضـبًا، وصـاح قـائلًا: «اصـمت!» واسـتلقى كـارل سـاكنًا، وعـاجزًا عن الحركـة أمـام الحجـرة الغارقـة في الظلام! كان يبدو وكأن أحدًا لم يكن بداخلها الآن، ولعل ديلامـارش أن يكون قـد خـرج بصـحبة برونيلـدا، ولعـل الطريـق خـال الآن، ذلـك لأن روبنسون الذي كان يسلك ككلب الحراسة تمامًا، كان قد تراخى أخيرًا.

ثم ارتفعت من أقصـى نهايـة الشـارع في انفجـارات واضـحة، أصـوات الطبول والأبواق، وصيحات بعض الأفراد، في وسط الجموع، وسـرعان مـا تحـولت إلى هـدير شـامل، وحـول كـارل رأسـه ثانيـة لـيرى أن كـل الشرفات قد عادت إليها الحياة مرة أخرى، نهض ببطء، ولم يتمكن من أن يقـف معتـدلًا تمامًـا، وكـان عليـه أن ينحـني بتثاقـل إلى الـدرابزين، وعلى الرصيف، كان الصبية الصغار في الشارع يلوحـون بقبعـاتهم على امتـداد أذرعهم، وينظـرون إلى الخلـف من فـوق أكتـافهم، وكـان وسـط الشارع لا يزال خاليًا، وكان بعضهم يرفـع قضـبانًا طويلـة ثبتت بأعلاهـا الفوانيس التي كان يحيطهـا دخـان أصـفر اللـون، وكـان قـارعو الطبـول ونافخو الأبواق ينتظمون في صفوف عريضة، وكانوا قـد بلغـوا الجـانب المضيء من الشارع في حشود هائلة، حتى لقد دهش كارل عندما سمع

أصواتًا تـأتي من خلفه أيضًـا، فاسـتدار ليجد ديلامـارش يرفـع السـتارة الثقيلة، وبرونيلدا تخطو خارج ظلام الحجرة في ردائها الأحمر، وحـول كتفيها وشاح من الدانتيلا، وقلنسوة سوداء فوق شعرها، الذي لعلهـا لـم تكن قد رتبته بعد، كانت فقط قـد جمعتـه في عجلـة، ذلـك أن أطـراف خصلاته الطليقـة كـانت تتطـاير هنـا وهنـاك، وكـانت تحمـل في يـدها مروحة صغيرة، كانت قد فتحتها إلا أنها لم تسـتعملها، وكـانت تضـغط على صدرها.

وتحـرك كـارل جانبًـا ملتصـقًا بالـدرابزين، لكي يفسـح مكانًـا لهمـا، لن يجـبره أحـد بلا شـك على البقـاء هنـا، وحـتى لـو حـاول ديلامـارش أن يستبقيه، فإن برونيلـدا ستسـمح لـه بالـذهاب في الحـال، لـو طلب منهـا ذلك، فهي لا تحتملـه فـوق كـل شـيء، وعينـاه ترعبانهـا، إلا أنـه عنـدما تقدم خطوة نحـو البـاب، لاحظتـه برونيلـدا في الحـال، وتسـاءلت: «إلى أين أنت ذاهب أيها الصبي؟!».

وجمدت نظرة ديلامارش القاسية حركة كارل للحظة، وجذبته برونيلـدا نحوها.

قالت له: «ألا تريد أن تشاهد الموكب الذي في الشارع؟!».

ودفعتـه أمامهـا نحـو الـدرابزين، وهي تقـول: «هـل تعـرف مـا هـو هـذا الموكب؟!».

وسـمعها كـارل تتسـاءل خلفـه، وتفـزع في محاولـة تلقائيـة فاشـلة لكي يتخلص من ضغط جسدها، وتطلع إلى أسـفل في حـزن، كمـا لـو كـان

سبب حزنه يكمن هناك في الشارع.

ووقف ديلامارش لحظة خلف برونيلدا، عاقدا ذراعيه، ثم هرول داخلًا الحجرة، وأحضر لها نظارة من نظارات الأوبرا، وفي الشارع كان الموكب قد وضح للرؤية، تتقدمه جوقة الموسيقى، وفوق كتفي رجل هائل الحجم، جلس سيد، لم يكن يظهر منه على الارتفاع الشاهق سوى البريق الخافت لتاج بسيط.

وكان يرفع فوقه قبعة عالية يحيي بها الجماهير، تحيات متصلة، وحوله كانت لافتات خشبية ترتفع عالية في الهواء، كانت تبدو من الشرفة بيضاء تمامًا، وكانت الجموع تنوى فيما يبدو، أن تقيم متراسًا بشريًّا مستديرًا ينحدر بانحدار الشارع، حول الشخصية الشهيرة التي كانوا يناصرونها فيما يبدو، لكن لما كان حاملو تلك اللافتات، يتحركون إلى الأمام طوال الوقت، فإن حاجز اللافتات ظل يهبط ويرتفع لإدخال بعض الإصلاحات على تلك اللافتات، ثم يعود ذلك الحاجز الذي تكوّنه تلك اللافتات المتراصة ثانية، إلى نظامه السابق وخلف حاجز اللافتات، بقدر ما كان يمكن للمرء أن يرى في الظلام، كان عرض الشارع كله، على الرغم من أن الحشد كان يشغل جزءًا عارضًا من امتداده، يمتلئ بأعوان ذلك السيد، الذين كانوا يصفقون بأيديهم في إيقاع، ويهتفون في نغم غنائي شيئًا ربما كان هو اسم ذلك السيد، وقد كان اسمًا قصيرًا جداًّ، لكنه لم يكن مفهومًا، وكان الأعوان قد انتشروا وسط الحشد في براعة، وكانوا يحملون مصابيح قوية كمصابيح السيارات راحوا يسلطونها إلى أعلى، وإلى أسفل واجهات المنازل على

جانبي الشارع، ولم يكن ذلك الضوء محتملًا على الارتفاع الذي كان يقف عنده كارل. لكن في الشرفات السفلى، كان يمكنه أن يرى الناس وهم يرفعون أيديهم فوق عيونهم، كلما سلط ذلك الضوء على وجوههم.

وتلبية لطلب برونيلدا استفسر ديلامارش من الناس الذين كانوا يقفون في الشرفة المجاورة، عن غرض تلك المظاهرة، وكان كارل شغوفًا بملاحظة الطريقة التي كانوا سيجيبون بها عن سؤاله، وكان على ديلامارش بالفعل أن يكرر سؤاله ثلاث مرات قبل أن يتلقى إجابة، كان قد انحنى على الدرابزين في وضع استفزازي، وكانت برونيلدا قد راحت تدق بقدمها لحنقها على جيرانها. فقد أحس كارل بحركة ركبتها، وأخيرًا سمعوا ردًّا غامضًا، وانطلق كل الناس الذين كانوا في الشرفة المجاورة لحظتها في الضحك بأعلى أصواتهم. وعند هذا صرخ ديلامارش بأعلى صوته ردًّا على إهانتهم له، حتى أن الشارع لو لم يكن ممتلئًا بكل تلك الحشود لحظتها، فإن كل الناس الذين يسكنون تلك المنطقة لابد كانوا سيرهفون أسماعهم في دهشة. وعلى أية حال فقد كان لتلك الصيحة أثر حاسم في إنهاء ذلك الضحك فجأة.

وقال ديلامارش في هدوء تام وهو يستدير نحو برونيلدا: «إن قاضيًا سينتخب غدًا في حيّنا. والرجل الذي يجلس فوق الأكتاف هو أحد المرشحين»، أضاف قائلًا وهو يحتضن كتفي برونيلدا: «أوه، لقد فقدنا كل فكرة، عما يجري في العالم!».

وقالت برونيلدا وهي تعود إلى سلوك جيرانها مرة أخرى: «ديلامارش، كم أكون سعيدة لو تمكنت من أن أنتقل من هنا، لو لم يكن ذلك يكلف مجهودًا كبيرًا، لكنني لسوء الحظ لا أستطيع مواجهة هذا الانتقال إلى مسكن آخر!»، وراحت، وهي تتنهد في عمق، تجذب في قلق وشرود قميص ديلامارش، وعلى الرغم منه، ظل يدفع يدها الصغيرة الممتلئة بعيدًا عنه المرة بعد المرة، وقد كان ذلك أمرًا سهلًا، ذلك لأن برونيلدا، لم تكن تنتبه إليه، وإنما كانت تشغلها أمور أخرى مختلفة تمامًا.

إلا أن كارل كان قد انشغل عنها في الحال، وأحس بثقل ذراعيها فوق كتفيه، ذلك لأن الموكب كان قد استولى على كل اهتمامه، وكانت ثمة مجموعات صغيرة العدد من الرجال يهتفون ويتقدمون الموكب أمام المرشح، بدا أن آراءهم كانت لها أهمية خاصة، فقد كان في إمكان المرء أن يلاحظ وجوهًا عديدة منتبهة تتجه نحوهم من كل الجهات، وقد أعلن أفراد هذه المجموعات قرارهم بالوقوف أمام المطعم الصغير، وأشار أحد أفراد تلك المجموعات إشارة ما، بيده المرفوعة إلى أعلى، فبدت تلك الإشارة، وكأنها موجهة إلى الحشد وإلى المرشح أيضًا، وخيم الصمت على الجماهير، وحاول المرشح عددًا من المرات أن يقف على قدميه، وسقط عدة مرات من فوق الأكتاف التي كانت تحمله، وألقى خطبة مقتضبة، وهو يلوح بقبعته العالية إلى الأمام، وإلى الخلف، بسرعة خاطفة، كان من الممكن رؤيته في وضوح تام، ذلك

لأن كل اللمبات الضخمة كانت مسلطة عليه وهو يلقي خطبته، حتى أصبح في مركز حلقة مشعة من الضوء الساطع.

وكان في استطاعة المرء أن يتحقق الآن أيضًا من الاهتمام الذي بدا على الشارع كله، بهذا الحدث، ففي الشرفات التي امتلأت بأنصار المرشح اشترك الناس في الترنم باسمه، وهم يفردون أذرعهم على امتدادهم خارج الدرابزين، ويصفقون في انتظام آلي، وفي الشرفات المواجهة التي كانت تكتظ بالفعل بالجماهير، ارتفعت صيحات تردد الهتافات باسم المرشح، تلك الصيحات التي لم تكن واضحة منسجمة، لأنها كانت تصدر عن أنصار متنافسين لعدد من المرشحين، إلا أن كل أعداء ذلك المرشح الموجود في الشارع فوق الأكتاف، كانوا قد اشتركوا في صفير استهجان واحد مرتفع، وكان كثير من الجراموفونات قد بدأت ثانية في إذاعة الأغاني، وبين الشرفات المختلفة كانت النزاعات السياسية قد قامت على أشدها، وقد أكد عنفها سكون ذلك الوقت المتأخر من الليل، وكان أغلب الناس يرتدون بالفعل ثياب نومهم، وقد ارتدوا المعاطف فوقها، وكانت النساء تتشح بأوشحة داكنة هائلة الحجم، وكان الأطفال، الذين لم يكن ينتبه إليهم أحد، قد صعدوا فوق أسوار الشرفات على نحو ينذر بالخطر، وكانوا يخرجون من داخل الحجرات المظلمة التي كانوا ينامون فيها في أعداد تتزايد وتتزايد، وكانت تتطاير هنا وهناك أشياء لا يمكن تمييزها، كان يلقيها خاصة أولئك الأتباع المتحمسون نحو خصومهم، وكانت هذه الأشياء تبلغ هدفها أحيانًا، لكن أكثرها يسقط في الشارع، حيث ترتفع

بسببها صيحات الغضب من وسط الجمهور، وعندما ازدادت الضجة حتى لم يعد يحتملها قائد المظاهرة، وأصدر هذا الرجل أوامره إلى الطبول والأبواق لكي تتدخل، فانطلق دويها المتصل عاليًا، حتى غطى على كل الأصوات البشرية، حتى ما كان يصدر منها من شرفات الأدوار العليا، ثم فجأة توقف ذلك الدويّ الهائل، على غير توقع، فبدأت الجماهير التي كانت تملأ الشارع، والتي كانت تنتظر، على ما يبدو، أن تنتهي تلك الضجة المفاجئة، في الهتاف بالأناشيد المختلفة، خلال ذلك الصمت المؤقت، وكان في إمكان المرء أن يرى الأفواه المفتوحة على اتساعها في ضوء اللمبات القوية الشبيهة بمصابيح السيارات، وظلوا على ذلك الصخب، حتى ثاب خصومهم ثانية إلى وعيهم، فانطلقوا في الهتاف عشر مرات متتابعة بأقصى طاقة حناجرهم، من كل الشرفات والنوافذ، وبدا كأن الصمت كان قد أطبق على أتباعهم المنتشرين في الشارع، بعد هذا الانتصار المؤقت مباشرة، أو هكذا بدا الأمر لمن كان يقف على الارتفاع الذي كان يقف عنده كارل.

تساءلت برونيلدا التي كانت تستدير وتتلوى خلف كارل، لكي تحاول أن ترى الموكب جيداً من خلال منظارها: «هل يروق لك هذا المشهد أيها الصبي؟!».

وأجابها كارل فقط بايماءة من رأسه، وقد لاحظ بنظرة من جانب عينه أن روبنسون كان منهمكًا في الحديث إلى ديلامارش على انفراد، ويبدو أن حديثه كان يدور حول نوايا كارل، لكن بدا أن ديلامارش لم يهتم

اهتمامًا ملحوظًا بما قاله روبنسون، لأنه ظل يدفع روبنسون جانبًا بيده اليسرى، وكان قد لف ذراعه اليمنى حول خصر برونيلدا.

وتساءلت برونيلدا، وهي تضرب كارل على صدره، لكي توضح له أنها تعنيه بقولها: «ألا تريد أن تنظر من خلال النظارة؟!».

قال كارل: «إنني أرى جيدًا».

فقالت: «حاول أن تنظر من خلالها، فسوف ترى في وضوح أكثر!».

فأجابها كارل قائلًا: «إن لي عينين قويتين، ويمكنني أن أرى بهما جيدًا!».

ولم يرى كارل في عرضها هذا شيئًا من الاهتمام بأمره، بل اعتبره إزعاجًا ثقيلًا، عندما وضعت النظارة أمام عينيه، وهي تقول له:

ـ «هنا، أنت!» إلا أن كارل لم يستطيع أن يرى شيئًا مطلقًا خلالها.

قال: «لا يمكنني أن أرى أي شيء»، وحاول أن يبعد النظارة عن عينيه، إلا أنها قبضت عليه بشدة، وكان رأسه مضغوطًا إلى صدرها، ولم يستطع أن يحركه إلى الخلف، أو إلى أي من الجانبين.

قالت وهي تحرك المسمار: «قد يمكنك أن ترى الآن!».

فقال كارل: «لا، لا أرى أي شيء!»، وظن أنه قد أراح على الرغم منه ـ في نهاية الأمر ـ روبنسون من أعبائه، لأن نزوات برونيلدا التي لا تطاق كانت قد تركزت الآن عليه.

قالت: «متى، بحق الجحيم، سترى إذن؟» وأدارت المسمار ثانية، وكان وجه كارل معرضًا لتنفسها الثقيل، وتساءلت:

ـ الآن؟ فصاح كارل: «لا.. لا.. لا!»، مع أنه كان قد تمكن من أن يميز كل شيء من خلال النظارة لحظتها بالفعل، وإن يكن في شيء من الغموض، وفكرت برونيلدا، عندئذ في شيء تقوله لديلامارش، فرفعت المنظار بخلاعة أمام وجه كارل، الذي تمكن دون أن تلاحظه من أن يختلس النظرات إلى الشارع من تحت المنظار، ولم تستمر في إصرارها على أن تحمله على النظر من خلال المنظار بعد ذلك، وراحت هي تتطلع إلى الشارع من خلاله.

وخرج من المطعم أحد السفرجية، وكان يندفع في عجلة إلى الداخل والخارج، وهو يتلقى الأوامر من قادة المظاهرة، وكان في إمكان المرء أن يراه، وهو يتلقى الأوامر من قادة المظاهرة، وكذلك وهو يقف على أطراف أصابعه؛ لكي يتطلع إلى داخل المطعم، ويستدعي من يجده من سفرجية المطعم ليعاونه في إعداد ما كان يبدو حفلة شراب بالمجان. ولم يتوقف المرشح عن الكلام، وظل الرجل الذي كان يحمله يدور حول نفسه قليلًا قليلًا، بين الحين والآخر، حتى يبدو المرشح وكأنه يوجه خطابه مباشرة إلى كل أنحاء الحشد، وظل المرشح جالسًا القرفصاء أغلب الوقت، وحاول بتلويح يده الطليقة إلى الخلف، وبتحريك قبعته العالية بيده الأخرى، أن يؤكد كلماته على نحو ما، لكن انطلاقه في الخطابة كان يزداد بعد فترات منتظمة تقريبًا، فكان ينهض فاردًا ذراعيه على امتدادهما، ولا يوجه خطابه عندئذٍ إلى مجموعة

واحدة من الناس، بل إلى الجماهير المحتشدة جميعًا، تحدث إلى كل الناس الذين في مساكنهم، حتى أعلى الطوابق، كان يوجه حديثه إلى من يسكنونها، لكن كان يبدو في وضوح أن أحدًا لم يكن يسمعه حتى سكان الطوابق السفلى، وحتى لو كان في إمكانهم سماعه، فإن أحدًا لم يكن في حاجة إلى الاستماع إليه، ذلك أن كل نافذة، وكل شرفة، كان يحتلها خطيب واحد على الأقل، يتدفق في الصياح، وكان عدد من السفرجية قد حملوا مائدة كبيرة وضعوها خارج المطعم، وكانت هذه المائدة مغطاة بكؤوس مترعة لا حصر لها، وكان حجم تلك المائدة كحجم ترابيزة البلياردو، ونظم قائد المظاهرة عملية توزيع الشراب على الجمهور، فكان الناس يسيرون أمام المطعم في طابور، يمر بتلك المائدة، وعلى الرغم من أن تلك الكؤوس كانت تُملأ ثانيةً المرة بعد الأخرى، إلا أنها لم تكن تكفي الغوغاء الذين كانوا يملأون الشارع، وكان على فرقتين من السقاة، أن تندسا وسط الحشد على كلا الجانبين لكي توزعا المشروبات على أكبر عدد ممكن. كان المرشح قد توقف بالطبع عن الخطابة، وكان قد استغل السكون الذي ساد المكان في استعادة نشاطه، وتقدم الرجل الذي يحمله ببطء إلى الأمام، وإلى الخلف مبتعدًا به قليلًا عن الزحام، وعن الضوء الشديد، وكان يلتف حوله، ويتبعه حيثما ذهب عدد قليل من مساعديه المقربين، ويشيرون إليه بتعليماتهم.

قالت برونيلدا: «انظر إلى الصبي، إنه مستغرق في الفرجة، حتى لقد نسي تمامًا أين هو!»، وأدارت وجه كارل فجأة بكلتا يديها، إلى ناحيتها،

حتى تتمكن من أن تحدق في عينيه، لكن لم يستمر ذلك سوى لحظة قصيرة فقط، فقد أبعد كارل يدها في الحال، في ضيق لأنهم لا يتركونه في سلام، ولقلقه أيضًا، وتطلعه إلى الهبوط إلى الشارع، ومشاهدة المظاهرة عن كثب، وحاول بكل جهده أن يخلص نفسه من قبضة برونيلدا، قائلًا: «أرجوك دعيني أرحل».

قال ديلامارش: «إنك سوف تبقى هنا!»، دون أن يحول عينيه عن الشارع، بينما مد ذراعه فقط لكي يحول بين كارل وبين الخروج.

فقالت برونيلدا، وهي تبعد يد ديلامارش: «اتركه وشأنه، إنه سيبقى بالفعل!»، وضغطت كارل بشدة إلى الدرابزين حتى اضطر إلى أن يجاهد طويلًا لكي يخلص نفسه من ضغطها، وحتى لو تمكن من أن يتخلص منها فما الذي سيجنيه من ذلك، لقد كان ديلامارش يقف إلى يساره، وكان روبنسون قد تحرك الآن إلى يمينه، وكان هو سجينًا بالفعل بينهم.

قال روبنسون، وهو يربت على كارل بيده التي دسها تحت ذراع برونيلدا: «عليك أن تعد نفسك محظوظًا، لأن أحدًا لم يلق بك إلى الشارع!».

فقال ديلامارش: «يلقي به إلى الشارع؟!، لا يمكنك أن تلقي بلص هارب إلى الشارع، وإنما عليك أن تسلمه إلى البوليس، وقد يحدث له هذا بالفعل في صباح الغد، إن لم يلزم الهدوء!».

لم تعد متعة يمكن أن يجنيها كارل من التطلع إلى المشهد الذي يشغل الشارع بعد ذلك؛ لأنه لم يعد يحتمل التطلع إليه، على حين تضغط عليه برونيلدا، ولم يتمكن من أن يقف منتصبًا. ولذا مال إلى الأمام قليلًا نحو الدرابزين، وراح يتطلع في شرود، إلى الذين في الشارع، لاستغراقه في همومه الخاصة. وكان الناس يتقدمون نحو المائدة التي أمام المطعم، في جماعات تتألف من عشرين شخصًا، فيتناولون الكؤوس، ويستديرون حول أنفسهم ويلوحون بها في اتجاه المرشح، الذي كان يستريح وقتها من المجهود الذي قام به، ويهتفون بالشعارات الحزبية، ومن ثم يفرغون الكؤوس في جوفهم، ويضعونها فارغة فوق المائدة في صليل كان يحدث عن تصادم الكؤوس ببعضها ببعض، إلا أنه لم يكن مسموعًا بالطبع، عند هذا الارتفاع، ثم يفسحون في الحال مكانًا للمجموعة التالية الصاخبة الفارغة الصبر، وخرجت الفرقة الموسيقية تلبية لرغبة قادة الحزب، من داخل المطعم، إلى الشارع وكانت آلات النفخ تلمع في الظلام وسط الحشود. إلا أن الموسيقى التي عزفتها تلك الفرقة ضاعت وسط الضوضاء التي كانت تسود الشارع كله، وكان الشارع الآن، في الجانب الذي يقع فيه المطعم على الأقل مزدحمًا ازدحامًا شديدًا بالجماهير، وكان الناس يتدفقون من أعلى التل، حيث جاء التاكسي الذي استقله كارل في هذا الصباح، إلى أسفل الشارع ومن أقصى منحدر الشارع من القنطرة التي كان ينتهي الشارع عندها. كان الناس يصعدون المنحدر نحو المطعم، وحتى الناس الذين كانوا في بيوتهم وقتها لم يتمكنوا من أن يقاوموا إغراء

المشاركة الشخصية في ذلك الحدث، وفي الشرفات، وفي النوافذ لم يكن قد تبقى أحد تقريبًا، فيما عدا النساء والأطفال، على حين كان الرجال يتدفقون من أبواب المنازل إلى الشارع، وكانت الموسيقى والشراب المجاني قد حققا الآن غايتهما، فقد كان الاجتماع هائلًا جدًّا الآن، وأشار واحد من قادة المظاهرة كانت تحيط به اللمبات الشديدة الضوء على كلا جانبيه، إلى الفرقة الموسيقية بأن تتوقف عن العزف، وأطلق صفيرًا، واستدار في الحال الرجل الذي كان يحمل المرشح، مسرعًا، وأمكن رؤيته وهو يتقدم خلال ممر مهده له المساعدون وسط الجماهير.

وكان المرشح قد بلغ باب المطعم تقريبًا، عندما شرع في إلقاء خطبة جديدة في ضوء اللمبات الرئيسية، التي ركزت الأضواء عليه الآن في حلقة ضيقة، إلا أنه لم يكن مرتاحًا في وضعه كما كان من قبل، وكان الرجل الهائل الجسم الذي كان يحمله، كاد يكون عاجزًا عن الحركة الحرة، أمام ضغط الزحام البالغ الشدة، ولم يكن في إمكان مساعديه المقربين الذين بذلوا أقصى طاقتهم من قبل في محاولة تعظيم أثر كلماته في الجماهير، أن يبقوا بالقرب منه إلا بصعوبة بالغة، كان عشرون منهم فقط قد تمكنوا من الاحتفاظ بأماكنهم حول المرشح، أما الرجل الضخم الهيئة الذي يحمل ذلك المرشح فلم يكن يخطو الآن خطوة واحدة بكامل إرادته، وكان من المستحيل أن يفكر في محاولة السيطرة على تلك الحشود المندفعة، ولم يتمكن من أن يستدير ليواجه هذا الجانب أو ذاك، ولم يكن له أن يتقدم إذا شاء، أو يتراجع، كان

الحشد الغوغائي يندفع فقط إلى الأمام وإلى الخلف بلا خطة، أو هدف واضح، وكان كل شخص يدفع جاره، ولم يكن في مقدور أي شخص مطلقًا أن يثبت لحظة واحدة على قدميه، وبدا كما لو كان الحزب المعارض قد حاز عددًا من الأنصار الجدد، كان الرجل الذي يحمل المرشح، قد ترك نفسه ينجرف الآن في كلا اتجاهي الشارع، دون أن يبذل أدنى مقاومة، بعد أن كان قد قاوم للحظة حركة المد والجزر أمام باب المطعم، وكاد المرشح لا يزال يلقي بكلماته، إلا أنها لم تعد واضحة، فهل كان يسرد الخطوط الأساسية لبرنامجه، أو كان يصيح طالبًا النجدة؟!، وما لم يكن كارل مخطئًا، فقد رأى مرشحًا منافسًا قد ظهر، أو عددًا من المرشحين المتنافسين فيما يبدو، ذلك لأن بعض الأشخاص كانوا يرتقون فوق أكتاف الجماهير، هنا وهناك، عندما كان الضوء يسطع فجأة، فيلقون الخطب بوجوههم الشاحبة، وقبضاتهم المضمومة، وكان الجمهور يهلل مبتهجًا لخطبهم التي كانوا يلقونها بلا استثناء.

تساءل كارل قائلًا: «ما الذي يحدث في الشارع بحق الجحيم؟».

واستدار في حيرة إلى حراسه، متقطع الأنفاس.

فقالت برونيلدا لديلامارش، وهي تتناول ذقن كارل لكي تدير وجهه ناحيتها:

ـ كم يثير ذلك اهتمام الصبي!! إلا أن كارل لم يقبل ذلك، وقد دفعه ما كان يجري أمامه في الشارع، إلى شيء من الطيش، فأتى بحركة

مفاجئة، حتى أن برونيلدا لم تتركه فقط بل تراجعت عنه مبتعدة، وتركته في حاله.

قالت له، وقد أغضبها سلوكه على ما يبدو: «لقد رأيت ما يكفيك الآن من هذا المشهد، فادخل إلى الحجرة، ورتب الفراش وجهز كل شيء لليلة!»، وأشارت له نحو الحجرة، وقد كان هذا هو الاتجاه الذي كان يتوق إلى أن يتجه إليه منذ ساعات، فلم يبد اعتراضًا على الإطلاق.

ثم ارتفع من الشارع صوت تحطم زجاج، فلم يستطيع كارل أن يمنع نفسه من العودة، وقفز قفزة سريعة إلى الدرابزين، لكي يلقي نظرة أخيرة إلى الشارع، كان صدام هائل بين الجوانب المتعارضة، ولابد أنه كان صدامًا حاسمًا، وكانت المصابيح الأمامية للسيارات التي كانت مع أعوان المرشح، والتي كانت تلقي ضوءًا شديدًا على الشخصيات الرئيسية على الأقل، وتتيح بالإضافة إلى ذلك، نوعًا ما من الإضاءة العامة التي تسيطر على الموكب كله بصورة ما، قد تهشمت جميعًا في وقت معًا، وكان المرشح والرجل الذي يحمله قد غابا الآن في إضاءة الشارع العمومي الخافتة، التي كان لها فجأة تأثير الظلام الحالك، بعد اختفاء ضوء اللمبات الساطعة الإضاءة، ولم يستطيع أي شخص أن يدرك، ولو على وجه التقريب مكان المرشح، وقد زاد في وطأة الظلام ارتفاع أصوات فرقة كانت تنشد في تآلف نشيدًا ما، وكانت أصوات تلك الفرقة قد ارتفعت فجأة وأخذت تقترب، صاعدة المنحدر، من ناحية القنطرة.

قالت برونيلدا: «ألم أقل لك ما يجب عليك أن تفعله»، وأضافت قائلة، وهي تمد ذراعيها فوق رأسها، حتى برز صدرها إلى الأمام أكثر مما كان عليه بروزه من قبل: «هيا، أسرع، فإنني متعبة!»، وسحبها ديلامارش الذي كانت ذراعه لا تزال تلتف حولها إلى أحد أركان الشرفة، وتبعهما روبنسون لكي يخلي طريقهما من بقايا عشائه الذي كان يتناثر فوق أرضية الشرفة.

ولم يكن له أن يدع تلك الفرصة المواتية تفلت منه، ولم يعد الآن أمام كارل أن يتطلع إلى الشارع، فسوف يرى الكثير مما يجري فيه عندما يهبط إليه الآن، وسوف يرى تلك المظاهرة بصورة أوضح مما يراها عليه الآن من هذا الارتفاع، وفي قفزتين كان كارل قد عبر الحجرة بضوئها الأحمر القاتم، لكن كان الباب مغلقًا، ولم يكن المفتاح موجودًا فيه، لابد إذن من أن يجد المفتاح في الحال، لكن من ذا الذي يتوقع أن يجده وسط هذه الفوضى، وفي فسحة ضئيلة من الوقت الثمين فوق ذلك، وقت ربما كان يمكن لكارل أن يدبر فيه أمره كما يحلو له، كان عليه الآن أن يكون فوق درجات السلم، يجري ويجري، لكنه يبحث الآن عن ذلك المفتاح بدلًا من هذا! بحث في كل الأدراج التي كان يمكن فتحها، وفتش فوق المائدة، حيث كانت تتراكم أطباق عديدة، وفوط سفرة، وقطع من القماش قد بدء في تطريزها، ثم بعد ذلك أغراه البحث في تلك الكومة المضطربة المشوشة من الملابس القديمة التي كانت تتكوم فوق المقعد ذي المساند، فلعل المفتاح أن يكون في طياتها، إلا أنه لم يجد له أثرًا، فاندفع أخيرًا نحو الأريكة، التي

كـانت تفـوح منهـا بالفعـل رائحـة كريهـة، لكي يتحسـس كـل زواياهـا وأركانها بحثًا عن المفتـاح، ثم توقـف عن البحث في وسـط الحجـرة، وقال لنفسـه: «لاشـك أن برونيلـدا تحتفـظ بـذلك المفتـاح في حزامهـا، وعلى هذا فمن العبث البحث عنه في كل تلك الأشياء الملقاة هنا».

واختطـف كـارل سـكينين، دفعهمـا بين مصـراعي البـاب، أحـدهما إلى أعلى، والأخرى إلى أسفل، لكي يضـغط على اللسـان بأقصـى مـا يمكنـه من القـوة من مكـانين مختلفين، لكنـه مـا كـاد يضـغط على السـكينين، حتى انكسر نصلاهما، ولم يكن كـارل يأمـل في شـيء أفضـل من هـذا، فقد كانت بقية النصلين اللذين يمكنه بهمـا أن يضـغط عن قـرب، فـوق لسان الكالون، تضغطان الآن على ذلـك اللسـان بقـوة، ولواهمـا الآن في عنف، وكانت ذراعاه مفـرودتين، وقـدماه متباعـدتين، وكـان يلهث من المجهود، لكنه كان يـرقب البـاب في الـوقت نفسـه بغايـة الاهتمـام، لن يتحمل ذلك اللسان طويلًا هذا الضغط، وقد أدرك كارل ذلـك في فـرح من خلال تحـرك اللسـان بصـوت مسـموع في داخـل الكـالون، لكن من الأفضل أن يتحرك ببطء، فلا يجب أن يتحرك مـرة واحـدة، وإلا سـمعوا من الشرفة صوت انفتاحه، يجب أن ينفتح بالتدريج، واستمر كـارل في محاولته بغاية الحذر، حتى يتم له ذلك، وهو يقترب بوجهه من الكالون أكثر فأكثر.

وسمع صوت ديلامارش يقول: «انظـر إلى هـذا!»، كـان ثلاثتهم يقفـون في داخل الحجرة، وكانت الستارة قد أسدلت بالفعـل خلفهم، ولم يكن كارل قد أحس بهم عندما دخلـوا إلى الحجـرة، وتـرك السـكينين عنـدما

وقع نظره عليهم، إلا أنه لم يكد يجد وقتًا لكي يتفوه بكلمة واحدة على سبيل التفسير أو الاعتذار، فقد اندفع ديلامارش نحوه في هياج أشد مما يتطلبه الموقف، وكان رباط ردائه الليلي المفكوك قد طار في الهواء، وزاغ منه كارل في اللحظة المناسبة متجنبًا هذا الهجوم، وكان في مقدوره أن ينتزع السكينين من بين مصراعي الباب ويحتمي بهما، إلا أنه لم يفعل، وغطس بدلًا من ذلك إلى أسفل، ثم قفز إلى أعلى ممسكًا بياقة رداء ديلامارش العريضة، وجذبها، وراح يجذبها أكثر إلى الأمام، وكان الرداء واسعًا على ديلامارش للغاية، فاستطاع كارل عندئذ لحسن الحظ، أن يمسك برأس ديلامارش، الذي فوجئ، وراح يتخبط بيديه في الهواء، في البداية، ثم بعد دقيقة أو دقيقتين راح يضرب كارل بقبضته، فوق ظهره، لكنه لم يملك في وضعه عندئذ أن يضرب بكل قوته، بينما اندفع كارل إلى صدر ديلامارش لكي يحمي وجهه من تلك الضربات، وتحمل كارل تلك الضربات التي كانت تجعله يتلوى من الألم، والتي كانت تزداد عنفًا، ومع ذلك فقد كان في مقدوره أن يحتملها عندما ظن أن النصر كان يلوح له.

وبيديه حول رأس ديلامارش، وإبهامه فوق العينين، دفع ديلامارش إلى طرف الحجرة المزدحم بالأثاث، وحاول في نفس الوقت بطرف حذائه أن يلف الحبل الذي كان يتدلى من رداء ديلامارش حول ساقيه حتى يتعثر فيه.

ولما كان عليه أن يركز كل انتباهه على ديلامارش، الذي بدأ يشعر بمقاومته له تزداد شيئًا فشيئًا، وكان جسده القوي يرتمي عليه في عنف

متزايـد، كـان قـد نسـي بالفعـل أنـه لم يكن وحيـداً في الحجـرة مـع ديلامارش، فسرعان ما حدث له ما ذكـره بهـذه الحقيقـة عندما طـارت قدماه فجأة من تحتـه، وانـزاح جانبًا عنـدما دفعـه روبنسـون الـذي كـان مستلقيًا يصرخ خلفه، فوق الأرض، وخفـف كـارل قبضـته الـتي كـانت تقبض بشدة على ديلامارش، فتراجع هذا وهو يلهث، وكانت برونيلدا، بساقيها المنفرجتين، وركبتيهـا المخلخلـتين تقـف بكيانهـا الضـخم في وسط الحجرة، وهي تتابع المعركـة بعينيهـا المتـألقتين، كمـا لـو كـانت تشـترك هي أيضًـا فيهـا، فقـد راحت تتنفس في عمـق، وهي تسـدد نظراتهـا، وتمـد قبضـتيها في بطء، وأطـاح ديلامـارش بياقـة ردائـه إلى الخلف، فاستطاع أن يرى الآن جيداً، ولم تعد المسـألة عندئـذ تبـدو في شـكل معركـة، لكن ببسـاطة في شـكل عقـاب، فقـد أمسـك ديلامـارش بصـدر قميص كـارل ورفعـه من على الأرض، ودون أن ينظـر إليـه، لاستخفافه بـه، قذفـه بغايـة العنـف نحـو صـندوق كـان على بعـد بضـع خطوات، حتى لقد ظن كارل في البداية، أن الآلام الـتي كـان يشـعر بهـا في ظهره ورأسه من أثر لكمات ديلامارش، كانت هي النتيجـة المباشـرة لارتطامـه بالصـندوق: «أيهـا السـافل!»، كـان يمكنـه سـماع صـيحات ديلامارش هذه في الظلام، فقد ارتفعت تلك الصيحة أمام عينيه اللـتين تهتز نظراتهما، وبينما كان يتهاوى فاقد الوعي بجوار الصـندوق كـان لا يزال يسمع هذه الكلمات: «انتظر فقط قليلًا!».

وظلت هذه الكلمات تتردد في أذنيه في غموض.

وعندما عاد إليه وعيه، كان الظلام يغطي كل شيء حوله، ويبدو أن الوقت كان وقتًا متأخرًا جداًّ من الليل، ومن الشرفة كان لمعان ضوء القمر الخافت يدخل الحجرة من خلال الستارة، وكان يسمع تنفس النائمين الثلاثة بانتظام، وكانت أعلى أصوات تنفسهم ارتفاعًا، هو صوت برونيلدا، التي كانت تشخر في نومها، كما كانت تفعل أحيانًا في حديثها، لكن لم يمكنه أن يحدد أين كان هؤلاء الأشخاص الثلاثة يستلقون، فقد كانت الحجرة كلها تردد أصوات تنفسهم، ولم يفكر كارل في نفسه إلا عندما تفحص ما حوله للحظة قصيرة، ثم فوجئ بشيء انزعج له انزعاجًا بالغًا مع أنه كان عاجزًا تمامًا، وقد تجمد في مكانه من الألم، إلا أنه لم يكن قد تخيل أنه قد أصيب بمثل تلك الجراح التي سالت منها تلك الدماء، ثم أحس الآن بثقل في رأسه، وفي وجهه كله، وعنقه، وصدره تحت القميص بدا كما لو كان مبللاً بالدم، لهذا يجب عليه أن يذهب إلى الضوء لكي يتفحص حالته تمامًا، فربما كانوا قد أصابوه بالعجز التام، وسوف يكون ديلامارش سعيداً في هذه الحالة عندما يسمح له بالرحيل، لكن ما الذي يأمل فيه لو اتضح أن الأمر كان كذلك، إنه لم يطمح إلى أي شيء على الإطلاق، وتراءى له الصبي ذو الأنف المتآكل، فدفن وجهه للحظة بين راحتيه.

ثم استدار رغمًا عنه إلى الباب الخارجي، وشق طريقه إليه على أطرافه الأربعة، ثم وقعت أصابعه على حذاء، ثم ساق، لابد أن هذا هو روبنسون، فمن غيره ينام منتعلاً حذاءه؟ ولابد أنهما قد أمراه بأن ينام أمام الباب لكي يمنع كارل من الهرب، لكن ألم يلحظا عندئذ الحالة

التي كان عليها كارل؟ لم يكن كارل يفكر الآن في الهرب، كان يريد فقط أن يصل إلى الضوء، فإن لم يستطع لهذا أن يخرج من الباب، فعليه أن يتجه نحو الشرفة.

وفي طريقه وجد أن مائدة الطعام كانت تستقر في مكان مختلف تمامًا عن مكانها في الليلة السابقة، وكانت الأريكة التي اقترب منها بغاية الحذر، خالية لدهشته، لكنه كان قد بلغ كومة عالية من الملابس المضغوطة رغم ارتفاعها، والبطاطين، والستائر، والسجاجيد، وقد ظنها في البداية مجرد كومة صغيرة، كتلك الكومة التي وجدها عند طرف الأريكة في الليلة السابقة، كومة ربما تكون قد سقطت إلى الأرض، إلا أنه اكتشف لدهشته عندما تقدم في زحفه أن حمولة عربة نقل كاملة كانت قد وضعت هنالك، ويحتمل أن تكون قد وضعت لاستخدامها كفراش أثناء الليل، ولابد أنها كانت قد أخرجت من الصناديق التي توضع بداخلها في أثناء النهار، وزحف كارل عن يمين تلك الكومة، وسرعان ما تحقق من أن تلك الكومة كانت تكوِّن فراشًا، فوقه، كما تحسس في حذر، كان ينام ديلامارش وبرونيلدا.

وهكذا أدرك الآن أين كانوا الثلاثة ينامون، فأسرع إلى الشرفة، كانت الشرفة عالمًا مختلفًا تمام الاختلاف في الجانب الآخر من الستارة، ونهض كارل في الحال على قدميه.

وتمشى في الهواء الليلي المنعش عدة مرات في الشرفة ذهابًا وجيئة في ضوء القمر الساطع، وتطلع كارل إلى الشارع، كان هادئًا تمامًا، وكانت

الموسيقى لا تزال تنبعث من المطعم، لكنها كانت الآن أشد تأثيرًا.

وكان ثمة رجل يغسل الرصيف أمام باب المنزل، وفي الشارع الذي كانت الضجة الهائلة تغطيه منذ ساعات قليلة، حتى أن صيحات المرشح، لم تكن مسموعة وسط ضجيج آلاف الأصوات الأخرى، كان يسمع الآن في وضوح حفيف المكنسة فوق البلاطات الحجرية.

وكان الصوت الذي أحدثته أرجل المنضدة في الشرفة المجاورة، قد نبه كارل إلى أن شخصًا كان يجلس في تلك الشرفة، مستغرقًا في القراءة، كان شابًّا له ذقن صغيرة مدببة، وراح يفتلها دائمًا وهو يقرأ، وكانت شفتاه تتحركان بسرعة في أثناء ذلك، كان يواجه كارل في جلسته إلى تلك المنضدة الصغيرة المغطاة بالكتب، وكان قد تناول المصباح الكهربائي الذي كان قد وضعه فوق السور، وأسنده بين كتابين ضخمين، وهكذا كان يجلس الآن في ضوء شديد يبهر المنظر.

قال كارل، الذي ظن أن الشاب كان ينظر إليه: «مساء الخير!» لكن لعله كان مخطئًا في ظنه هذا، فقد بدا أن ذلك الشاب لم يكن يدرك وجوده، فقد وضع يديه فوق عينيه، ليظلهما من الضوء، وراح يبحث عمن تحدث إليه فجأة، ثم رفع المصباح الكهربائي إلى أعلى لكي يلقي بعض الضوء على الشرفة المجاورة، وكان لا يستطيع أن يرى أي شيء.

ثم قال عندئذ بدوره، في نظرة فاحصة، مقتضبة: «مساء الخير!»، ثم أضاف قائلًا: «وماذا تريد؟».

تساءل كارل قائلًا: «هل أزعجتك؟!».

فقال الشاب: «بالطبع، بالطبع!»، وهو يعيد المصباح ثانية إلى مكانه السابق.

ولا شك أن هذه الكلمات لم تشجع كارل على أن يحاول مواصلة الحديث، إلا أن كارل لم يغادر في الوقت نفسه ذلك الركن من الشرفة القريب من الشاب، وراح يرقبه في صمت وهو يقرأ، ويقلب الصفحات، أو يتطلع من حين لآخر إلى شيء ما في كتاب آخر، كان يختطفه دائمًا في سرعة البرق، وكان غالبًا ما يكتب بعض المذكرات في مفكرة، كان يكتبها ووجهه ملتصق بالورقة إلى حد يثير الدهشة.

هل يمكن أن يكون هذا الشاب طالبًا؟ كان يبدو طالبًا لا شك، وكان كارل ـ وإن يكن قد انقضى الآن وقت طويل على هذا ـ يجلس بهذه الصورة تقريبًا في منزله، إلى مائدة كتابة والديه، لكي يكتب واجباته المدرسية، بينما يقرأ والده الصحيفة، أو يؤدي أعماله التجارية، أو مراسلاته الخاصة بالمؤسسة التي يعمل بها، وتنشغل أمه بالتطريز، وهي تسحب الخيط من القماش بيدها إلى أعلى، ولكي يتجنب إزعاج والده، اعتاد كارل أن يضع كراسة التمرينات المدرسية فقط، وأدواته الكتابية على المنضدة، بينما يرتب بقية كتبه على المقاعد عن يمينه ويساره، فكم كان كل شيء هادئًا هناك! وكان كارل وهو طفل صغير يسر دائمًا سرورًا زائدًا، عندما كان يرى أمه وهي تدير المفتاح في الباب الخارجي لتفتحه أحيانًا، لا شك أنها لا تدري الآن شيئًا عن أن كارل قد بلغ به الأمر حدًّا حاول معه فتح أبواب الغرباء بالقوة باستخدام السكاكين.

وماذا كانت نتيجة استذكاره؟ لقد نسي كل شيء، فلو كانت قد أتيحت له الفرصة مواصلة دراسته هنا، فلابد أنه كان سيجدها عبئًا شاقًا، وقد تذكر الآن أنه كان قد مرض ذات مرة، في منزله، مرضًا استمر شهرًا كاملًا، وتذكر كم كلفه انقطاعه عن دراسته في أثناء ذلك الشهر، لقد كلفه مجهودًا مرهقًا حتى تمكن من متابعة دراسته التي انقطعت، مرة أخرى، والآن فها هو ذا لم يقرأ كتابًا واحدًا منذ تلك المدة الطويلة، فيما عدا كتاب المعاملات التجارية الذي كان مكتوبًا بالإنجليزية.

وسمع كارل فجأة صوتًا يقول له: «أيها الفتى، ألا يمكنك أن تقف في مكان آخر؟ إنك تزعجني، غاية الإزعاج، وأنت تحدق فيّ على هذا النحو، فبعد الساعة الثانية صباحًا، لاشك أن المرء يتوقع أن يتمكن من العمل في الشرفة، في هدوء، هل تريد شيئًا مني؟!».

فسأله كارل قائلًا: «هل تدرس؟!».

فقال الشاب، وهو يحاول الاستفادة بهذه اللحظات الضائعة في إعادة ترتيب كتبه:

ـ نعم، نعم.

فقال كارل: «إذن، فلن أعطلك، وسأدخل ثانية إلى الحجرة، وطابت ليلتك على أية حال».

ولم يردّ الشاب مطلقًا، وعاد ثانية إلى كتبه في همة، بعد أن تخلص من ذلك الإزعاج، وكان رأسه يستند بكل ثقله إلى يده اليمنى.

لكن قبل أن يبلغ كارل الستارة، تذكر ما كان قد خرج من أجله، فلم يكن يعلم مدى إصابته، ولم يكن يدري ما الذي كان يحس به ثقيلًا إلى حد ما فوق رأسه، ووضع يده إلى أعلى رأسه، وحملق في دهشة، لم يكن هناك جرح يدمي، كما تصور عندما كان في الظلام داخل الحجرة، لكن فقط عصابة تشبه العمامة كانت لا تزال مبتلة، وتبين من الأهداب الصغيرة التي كانت تتدلى هنا وهناك، والتي اتضح أنها كانت طرف قطعة من الدانتيلا، تبين كارل أنها كانت خرقة قد مزقت من أحد قمصان نوم برونيلدا القديمة، لابد أن روبنسون كان قد لفها في سرعة حول رأسه، إلا أنه كان قد نسي أن يعتصرها، فبينما كان كارل فاقدًا وعيه، كان الماء يقطر فوق وجهه، ويتسرب تحت قميصه، وكان ذلك هو ما سبب له تلك الصدمة.

تساءل الشاب، وهو يحملق فيه عبر الشرفة: هل ما زلت هنا؟ فقال كارل: «إنني ذاهب الآن بالفعل، لقد كنت أريد فقط أن أتفحص شيئًا ما، إن الظلام شديد جدًّا بالداخل»، فقال الشاب وهو يضع قلمه فوق الكتاب المفتوح أمامه، ويتقدم نحو الدرابزين: «لكن من أنت؟ ما هو اسمك؟ وكيف جئت إلى هؤلاء الناس؟ وهل لك وقت طويل هنا؟ وما الذي كنت تريد أن تتفحصه؟ افتح النور الكهربائي هنالك، ألا تريد، افتحه حتى أتمكن جيدًا من رؤيتك».

ونفذ كارل ما طلبه منه، لكنه قبل ذلك، سحب الستارة، وأحكم إغلاقها لكي يمنع من بالداخل من ملاحظة أي شيء، وقال هامسًا: «اعذرني؛

لأنـني لا يمكنـني أن أرفـع صـوتي أكـثر من ذلـك، لأنهم لـو سـمعوني، فسوف تحدث ضجة أخرى».

تساءل الشاب قائلًا: «أخرى؟».

فقال كارل: «نعم لقد حدثت بيـني وبينهم معركـة شـديدة هـذا المسـاء، ولابـد أنـني قـد أصـبت بضـربة شـديدة للغايـة فـوق رأسـي»، وتحسـس مؤخرة رأسه.

وتساءل الشاب قائلًا: «ومـا سـبب تلـك المعركـة؟!»، وعنـدما لم يجبـه كارل في الحال، قـال لـه الشـاب: «يمكنـك أن تصـرح لي في اطمئنـان، بكل ما لديك ضد هؤلاء الناس، فأنـا أمقتهم جميعًـا، وخاصـة السـيدة، وبالإضافة إلى ذلك، فمـا يدهشـني هـو أن أجـدهم قـد حـذروك بالفعـل مني، إن اسمي هو «جوزيف مندل»، وأنا طالب».

قال كارل: «حسنًا، لقد تحدثوا إليّ عنك بالفعل، لكنهم لم يقولـوا شـيئًا سيئًا عنك، فأنت قد عالجت برونيلدا ذات مرة، ألم تفعل؟!».

قال الطالب ضاحكًا: «هذا حق! وهل تفـوح الأريكـة بنتن تلـك الرائحـة حتى الآن؟!».

فقال كارل: «نعم لا تزال!».

وقال الطـالب: «إن هـذا يسـعدني على كـل حـال!»، ومـر بأصـابعه فـوق شـعره، ثم أضـاف قـائلًا: «ولمـاذا وجهـوا إليـك تلـك الضـربات فـوق رأسك؟!».

قال كارل: «لقد نشبت مشاجرة بيننا»، واحتار في كيفية تفسير الأمر كله له، ثم عاد، فألح مرة أخرى متسائلًا: «لكن ألا أسبب لك إزعاجًا الآن؟!».

قال الطالب: «أولًا، لقد تسببت بالفعل الآن في إزعاجي، وإنني لسوء الحظ شخص عصبي جدًّا، حتى أنني أستغرق وقتًا طويلًا جدًّا لكي أعود إلى حالتي التي كنت عليها من قبل، فمنذ أن رحت تتمشى في الشرفة، لم أتمكن من متابعة قراءتي، ومن ناحية أخرى، فإنني دائمًا أستريح، حوالي الساعة الثالثة صباحًا، وعلى هذا فليس لك أن تتردد في إخباري بما سألتك عنه، وبالإضافة إلى ذلك، فإنني مهتم بهذا الأمر».

قال كارل: «إنه أمر غاية في البساطة، فديلامارش يريدني أن أبقى لكي أعمل خادمًا له، لكنني لا أريد ذلك، وكنت أريد مغادرة هذا المكان الليلة، إلا أنه لم يسمح لي بالرحيل، ولقد أغلق الباب، وحاولت أن أفتحه بالقوة، ثم حدثت المشاجرة، وما زلت هنا لسوء الحظ!».

فتسائل الطالب قائلًا: «ولماذا ترحل، هل عثرت على عمل آخر؟!».

فقال كارل: «لا، إلا أن هذا لا يهمني مطلقًا، لو أمكنني فقط أن أغادر هذا المكان».

فقال الطالب: «ماذا! ألا يهمك هذا مطلقًا؟ ألا يهمك؟!» وصمت كلاهما لحظة، ثم قال الطالب متسائلًا في النهاية: «ولماذا لا تريد أن تبقى مع هؤلاء الناس؟».

وأجاب كارل قائلًا: «إن ديلامارش رجل شرير، ولقد اصطدمت به من قبل، فقد تجولت معه يومًا كاملًا ذات مرة، ثم أسعدني أن أتخلص من صحبته، فهل يمكنني أن أصبح خادمه الآن؟!».

فقال الطالب، وبدا وكأنه كان يبتسم: «لو كان كل الخدم مثلك يدققون طويلًا في اختيار سادتهم! استمع إليّ، إنني أعمل بالنهار كبائع، وهي وظيفة بائسة أقوم فيها بتسليم البضائع إلى المشترين، وهي لا تكاد تفترق في شيء عن وظيفة ساع، في مخزن (منتلي) الكبير، إن منتلي هذا هو شخص سافل، لاشك في هذا، إلا أن هذا لا يثيرني، إن ما يهمني بالفعل هو الأجر، وهو أجر حقير مع هذا، فلتضع هذا في اعتبارك!».

فقال كارل: «ماذا؟ هل تعمل في أثناء النهار كبائع، وتستذكر طوال الليل؟».

قال الطالب: «نعم، لا يمكنك أن تفعل شيئًا آخر، ولقد حاولت أن أعمل كل ما يمكن عمله، إلا إنني وجدت أن هذا هو أفضل الطرق جميعًا، إنني لا أفعل سوى الدراسة ليلًا ونهارًا منذ عدة سنوات، وغالبًا لا أستطيع الانتظام في المحاضرات، فالجرأة لا تواتيني بالذهاب في هذه الملابس التي أملكها، إلا أنني انتهيت من هذا كله الآن».

وقال كارل وهو ينظر إلى الطالب في حيرة: «لكن متى تنام؟!».

قال الطالب: «أوه.. النوم!، إنني أحصل على القليل من النوم عندما أنتهي من مذكراتي، وإنني أعمل على أن أبقى مستيقظًا بتناول القهوة

السـوداء!»، واسـتدار حولـه، وتنـاول زجاجـة كبـيرة من تحت المنضـدة وصب القهوة السـوداء من الزجاجـة في قـدح صـغير، وصـبه في جوفـه، كما لو كـانت تلـك القهـوة دواء يتجرعـه حـتى يمكنـه أن يتجنب مـرارة طعمه.

قال الطالب: «رائعة تلك القهوة السوداء!، ومن سـوء الحـظ، أنـك تبعـد عني كثيرًا، وإلا كنت قد أعطيتك بعضًا منها الآن».

قال كارل: «إنني لا أحب القهوة السوداء».

ورد عليـه الطـالب ضـاحكًا: «ولا أنـا، إلا أنـني بـدونها، مـاذا عسـاي أن أفعل؟ فلو لم أتناول تلك القهوة السوداء، لما رآني منتلي دقيقـة واحـدة، وأقول منتلي، على الرغم من أنه بالطبع لا يكاد يشعر بوجـودي، إنـني لا أسـتطيع ببسـاطة أن أدخـل المحـل دون أن أحمـل معي زجاجـة كبـيرة كهذه، أضعها تحت الطاولـة، ذلـك أنـني لا أجـرؤ مطلقًـا على المغـامرة بالإقلاع عن تناول القهوة، وصدقني، فلـو أنـني فعلت ذلـك لتـدحرجت تحت الطاولة في نوم كأنـه المـوت، ولقـد فطن الآخـرون لسـوء الحـظ، إلى ذلك، فأطلقوا عليَّ لقب (القهوة السـوداء)، نكتـة سـخيفة، إلا أنـني واثق من أنها قد دمرت حياتي العملية بالفعل».

وتساءل كارل: «ومتى ستنتهي من دراستك؟».

فقال الطالب مطرقًا برأسه: «إنني أتقـدم فيهـا ببطء»، ثم تـرك الـدرابزين وجلس ثانية إلى المنضدة، ووضع مرفقيه فـوق الكتـاب المفتـوح، ومـر بأصابعه خلال شعره، ثم قال: «قد تستمر سنة أخرى، أو سنتين!».

قال كارل: «إنني أريد أن أدرس أنا أيضًا»، قالها وكأن مجرد تصريحه بهذه الرغبة كان يعطيه الحق في أن يتساوى تمامًا مع الطالب، الذي صمت الآن، عندما تبين أنه قد أصبح قدوة.

قال الطالب: «حقًّا؟!»، ولم يكن واضحًا تمامًا لكارل لحظتها، هل كان يعيد قراءة دروسه، أم كان ينظر إليه في شرود! ثم عاد يقول: «لعلك أن تكون سعيداً لأنك قد تركت دراستك بالفعل، ولقد واصلت أنا دراستي هذه حتى الآن، فقط لمجرد الرغبة في المواصلة، إنني أشعر أحيانًا بشيء من الرضا، ويفعم نفسي في أحيان أخرى أمل واهٍ في المستقبل، فما هو الشيء الذي يمكنني أن أطمح إليه؟ إن أمريكا تمتلئ بالأطباء الدجالين!».

فقال كارل مسرعًا، عندما بدا الطالب وكأنه يفقد اهتمامه بكل شيء: «لقد طمحت إلى أن أكون مهندسًا ميكانيكيًّا».

فقال الطالب، وهو يتطلع لحظة إلى أعلى: «والآن يتعين عليك أن تصبح خادمًا لهؤلاء الناس، وإن هذا يضايقك بالفعل!».

توصل الطالب إلى هذه النتيجة؛ لأنه لم يفهم تمامًا ما كان كارل يقصده، إلا أن كارل أحس لحظتها بأن في إمكانه أن يحول هذه الفكرة لصالحه، ولهذا فقد تساءل قائلًا: «لعلي أجد وظيفة في المخزن أنا أيضًا؟».

وانتزع هذا التساؤل الطالب بعيدًا عن كتابه تمامًا، كانت فكرة مساعدته لكارل في الحصول على وظيفة كتلك أبعد ما تكون عن باله،

فقال: «حاول أن تحصل على هذه الوظيفة، أو لا تحاول، إن حصولي على وظيفة عند منتلي هو أعظم نجاح أحرزته في حياتي، فلو كان لي أن أختار إحداهما، فسأختار الوظيفة بالطبع، ويمكنني أن أتخلى في الحال عن دراستي، لقد أنفقت طاقتي كلها في محاولة حسم التردد في هذا الاختيار».

قال كارل محدثًا نفسه، قبل أن يوجه حديثه إلى الطالب: «إذن فمن الصعب إلى هذا الحد أن يجد المرء وظيفة عند منتلي!».

قال الطالب: «إنني أظن أنه من الأسهل أن يتم تعيينك هنا قاضيًا للحي، من أن تعين بوابًا عند منتلي!».

وصمت كارل، إن هذا الطالب الذي يتمتع بهذا القدر الهائل من الخبرة، والذي يكره ديلامارش لسبب غير معروف، والذي لا يحمل له بلا ريب أية ضغينة، لا يستطيع أن يشير له بكلمة واحدة تحمل أي معنى من معاني التشجيع على مغادرة ديلامارش، وهو لا يعلم مع ذلك أي شيء عن الخطر الذي يهدد كارل من البوليس، هذا الخطر الذي لا يستطيع أن يحميه منه الآن سوى ديلامارش وحده.

ـ لقد رأيت المظاهرة في الشارع هذه الليلة، ألم ترها؟ إن أي شخص لا يعرف ما هي الحال، يمكنه بسهولة أن يتخيل، ألا يمكنه أن يتخيل أن المرشح لوبستر، وهذا هو اسمه، من الممكن أن يأمل إلى حد ما في النجاح، أو على الأقل في النظر إليه كمرشح جدير بالاعتبار.

قال كارل: «لا أفهم في السياسة».

فقال الطالب: «هذا خطأ، لأن لك عينين في رأسك، وأذنين، أليست لك عينان؟ إن الرجل له أصدقاء وله خصوم، وهذا واضح غاية الوضوح، ولا يمكن أن يكون قد فاتك أن ترى هذا، حسنًا، إن هذا الشخص ليس له في رأيي أقل أمل في التراجع، فقد تصادف أنني أعرف كل شيء عنه، ويوجد رجل يقيم هنا، وهو واحد من معارفه، إنه رجل لا تنقصه الكفاية، أما إذا نظرنا إلى آرائه السياسية، وماضيه السياسي فإنه يبدو لنا بالفعل أفضل شخص يناسب وظيفة قاضي الحي، إلا أن أحدًا لا يمكن أن يتصور أنه سيحصل عليها، ولسوف يسقط على أُم رأسه، كما قد يحدث لأي شخص آخر، وسوف تضيع دولاراته في الحملة الانتخابية، وسيكون هذا هو كل ما في الأمر!».

وحدق كارل والطالب بعضهما في بعض، للحظات قليلة، في صمت، وأطرق الطالب بابتسامته، وضغط راحتيه على عينيه المرهقتين.

ثم تساءل قائلًا: «حسنًا، ألن تذهب إلى الفراش الآن، يجب عليّ أن أستأنف قراءتي، انظر، كم من الصفحات علي أن أقرأها!».

وقلب ما يزيد على نصف صفحات الكتاب، لكي يوضح لكارل ضخامة العمل الذي لا يزال ينتظره!.

فقال كارل، بانحناءة: «حسنًا، إذن... طابت ليلتك».

وقال الطالب الذي جلس ثانية إلى المنضدة: «تعال لزيارتنا في وقت ما، لو راق لك ذلك بالطبع، وستجد دائمًا جمعًا من الأصحاب هنا، ولدي دائمًا وقت لاستقبالك من التاسعة إلى العاشرة مساءًا».

فتساءل كارل: «وعلى هذا فأنت تنصحني بالبقاء مع ديلامارش؟!».

فقال الطالب الذي كان رأسه قد انحنى بالفعل فوق الكتاب: «قطعًا!»، وبدا وكأنه لم يكن هو، بل شخص آخر غيره هو الذي قالها، فلقد تردد صداها في أذني كارل، كما لو كانت قد قيلت بصوت فارغ أجوف لايكاد يشبه صوت ذلك الطالب.

ومضى كارل ببطء نحو الستارة، وتطلع مرة أخرى إلى الطالب الذي جلس الآن بلا حراك، تمامًا تحت دائرة الضوء الذي يغرقه فيها مصباحه الكهربائي، محاطًا بالظلام الحالك، ودخل كارل الحجرة، فاستقبلته أنفاس النائمين الثلاثة، وتحسس طريقه بطول الحائط إلى الأريكة، وعندما بلغها، تمدد فوقها في هدوء كما لو كانت هي فراشه الذي اعتاده، ولما كان الطالب الذي يعرف كل شيء عن ديلامارش، وعن الظروف الغريبة التي تحيط به، والذي كان بالإضافة إلى ذلك شخصًا متعلمًا، قد نصحه بالبقاء هنا، فليس لديه الآن أي أثر للشعور بتأنيب الضمير! ليست له مثل ما لهذا الطالب من الأهداف السامية، ولعله لم يكن ليبلغ النهاية في تعليمه، حتى في وطنه، إذا كان صعبًا بالنسبة إليه أن ينهي تعليمه في وطنه، فليس لأحد أن يتوقع منه أن يفلح في بلوغ هذا الهدف هنا في بلد غريب! إلا أن طموحه في الحصول على وظيفة يمكنه أن يحقق من خلالها شيئًا يبعث فيه بعض الرضا سوف يزداد، لو أنه قبل الآن أن يكون خادمًا لديلامارش، ويمكنه من هذا المكان الآمن أن يترقب الفرصة المناسبة، ففي هذا الشارع نفسه يبدو أن هناك العديد من مكاتب الوسطاء، والمكاتب التي تطلب عمالًا

للأعمال المختلفة، وهي عند الحاجة لا يصعب عليها أن تعثر على بغيتها. وسوف يسره أن يقبل وظيفة بواب، عند الضرورة، لكن ليس من المستحيل تمامًا، رغم كل شيء، ألا يتفق له أن يجد عملًا في وظيفة مكتبية، وقد يجلس في المستقبل إلى مكتبه الخاص، ككاتب نظامي، ويحدق من حين لآخر من خلال النافذة المفتوحة في سعادة، كما كان يفعل ذلك الكاتب الذي رآه هذا الصباح في أثناء رحلته عبر الأفنية، وعندما أغلق عينيه كان مستريحًا إلى فكرة أنه لا يزال صغيرًا، وأنه سيتمكن يومًا ما من أن يفارق ديلامارش، فلا شك أن هذا المنزل لم يكن قد أقيم إلى الأبد، وعندما يتفق له الحصول في وقت من الأوقات على عمل في أحد المكاتب، فسوف يركز اهتمامه في عمله المكتبي، ولن يشتت طاقته، كما يفعل ذلك الطالب، وإذا لزم الأمر فسوف ينذر لياليه أيضًا بالإضافة إلى أيامه لعمله المكتبي، وقد يطلب منه هذا في البداية بالفعل، نظرًا لقلة معلوماته عن شئون هذا العمل، ولسوف يقصر تفكيره فقط فيما يفيد المؤسسة التي سيعمل بها، وسيضطلع بكل ما يعهد به إليه من أعمال، وبالأعمال التي قد يهملها الكتبة الآخرون، وتزاحمت النوايا الطيبة في رأسه، وكأن صاحب العمل الذي سيستخدمه في المستقبل، كان يقف لحظتها أمام الأريكة، ويستطيع أن يقرأ هذه الأفكار على وجهه. بمثل هذه الأفكار، استغرق كارل في النوم، وأزعجته في لحظات استغراقه الأولى في النوم، تنهيدة عميقة صعدتها برونيلدا، التي كانت على ما يبدو قد أزعجتها بعض الأحلام السيئة، فتمطت، وتقلبت في فراشها.

الفصل الثامن
مسرح أوكلاهوما

الطبيعي في ركن من أركان أحد الشوارع رأى كارل لافتة كتب فوقها الإعلان التالي: «يقبل مسرح أوكلاهوما أعضاء جددًا للانضمام إلى هيئته اليوم، في ميدان سباق كلايتون، من السادسة صباحًا، حتى منتصف الليل، إن مسرح أوكلاهوما العظيم يناديك! اليوم فقط هو آخر فرصة! فلو فقدت الآن هذه الفرصة، فقد فقدتها إلى الأبد! ولو فكرت في مستقبلك، فإن عليك أن تحرص على الانضمام إلينا! مرحبًا بالجميع! لو أردت أن تكون فنانًا فانضم إلى جماعتنا. إن مسرحنا يمكنه أن يوفر عملًا لكل شخص ومكانًا لكل شخص، فلو قررت الانضمام إلينا فنحن نرحب بك هنا الآن، فأسرع حتى يمكنك أن تبلغ المكان قبل منتصف الليل! وستغلق الأبواب في الساعة الثانية عشرة مساءً، ولن تفتح ثانية! وليسقط كل الذين لا يثقون بنا، فهيا إلى كلايتون» ولاشك أن عددًا كبيرًا من الناس قد توقفوا أمام هذه اللافتة، لكن يبدو أن الكثيرين لم يصدقوا ما تقوله، كان هناك دائمًا الكثير من اللافتات، ولم يعد أحد يصدق تلك اللافتات، وكانت هذه اللافتة، أكثرها جميعًا بعدًا عن التصديق، وفوق هذا، فقد أغفلت هذه اللافتة أمرًا مهمًّا، وجوهريًّا، فهي لم تذكر شيئًا عن الأجر، فلو كان الأجر جديرًا بالذكر، لكانت تلك اللافتة قد ذكرته بالفعل، ولقد كان هذا الأمر هو أكثر ما أثار الانتباه في كل المناقشات التي تناولت ما جاء

بتلك اللافتة، وهي مناقشات لا تنسى، فلا أحد يريد أن يصبح فنانًا، لكن كل شخص يريد أن يحصل على أجر في مقابل ما يؤديه من أعمال.

لكن كان ثمة ما يلفت نظر كارل بشدة في تلك اللافتة، فهي تقول: «مرحبًا بالجميع!»، الجميع؟! إن هذا يعني كارل أيضًا، إن هذه اللافتة تتجاهل كل ما فعله كارل حتى الآن، ويبدو أن أحدًا لن يلومه على شيء، فهي تبيح له الحق في الحصول على وظيفة، لا تثير شيئًا من الخجل، بل هي على العكس من ذلك، وظيفة يعلن عنها على الملأ، وكان الوعد بأنه سيجد هو أيضًا قبولًا من أصحاب العمل، يبدو كذلك، وعدًا عامًّا، وهو لا يطلب شيئًا أكثر من هذا، إنه يريد أن يجد سبيلًا ما إلى بداية حياة نظيفة على الأقل، وربما كانت هذه هي فرصته.

وحتى لو كانت كل التقريرات التي تتصف بالمبالغة، والتي تضمنتها اللافتة، ليست سوى مجرد كذبة، وحتى لو كان مسرح أوكلاهوما العظيم هذا ليس سوى مجرد سيرك بسيط متجول، يريد أن يضم إليه أعضاء جددًا، ففي هذا ما يكفي، ولم يقرأ كارل اللافتة كلها مرة أخرى، لكنه التقط ثانية تلك الجملة: «مرحبًا بالجميع!» وفكر في البداية في أن يذهب إلى كلايتون سيرًا على الأقدام، إلا أن هذا كان معناه، ثلاث ساعات من السير المرهق المتواصل، وربما يصل على كافة الاحتمالات، في الموعد تمامًا، وربما يكتشف أيضًا أنه قد تم شغل جميع الأماكن بالفعل.

لا شك أن اللافتة تشير إلى أنه لا حدّ لمن يمكن قبولهم من الأعضاء الجدد، إلا أن كل الإعلانات التي من هذا القبيل تتحدث دائمًا على هذا النحو، ورأى كارل أنه إما أن ينبذ تلك الفكرة كلية، وإما أن يذهب بالقطار، وأحصى نقوده، التي كانت من الممكن أن تكفيه لمدة ثمانية أيام، إن لم يقم بهذه الرحلة بالقطار، وطوح بقطع العملة القليلة في راحة يده إلى الخلف وإلى الأمام، وربت سيد ما، كان يرقبه، بيده على كتف كارل قائلا: «أرجو لك رحلة طيبة إلى كلايتون!» أطرق كارل في صمت، وأحصى نقوده ثانية، ثم سرعان ما اتخذ قراره، وتناول النقود التي تلزم لأجر السفر، واندفع نحو محطة النفق. وعندما خرج من المحطة في كلايتون، سمع في الحال أصوات أبواق عديدة، كانت تلك الأصوات عبارة عن ضوضاء مشوشة، ولم يكن النفخ فيها ينسجم بعضه مع بعض، إلا أن كارل لم يهتم بهذا، بل لقد اعتبر هذا تأكيداً لحقيقة أن مسرح أوكلاهوما كان مسرحًا هائلًا، لكنه عندما خرج من المحطة، واستعرض ذلك العرض بنظراته، تحقق في الحال مما رآه أمامه، أن ذلك المسرح كان أكبر بكثير جداًّ مما كان قد تصوره، ولم يستطع أن يفهم كيف يتسنى لأية هيئة أن تضطلع بهذا التنظيم الكامل لمجرد أن تستوعب أعضاء جددًا.

وأمام مدخل حلبة السباق، كان قد أقيم ثمة رصيف طويل منخفض، وقفت فوقه مئات من النساء اللاتي يرتدين ملابس الملائكة، وهي أثواب بيضاء، لها أجنحة هائلة على أكتافهن، وكن ينفخن في أبواق طويلة كانت تتألق كالذهب، ولم يكن بالفعل يقفن فوق الرصيف،

لكنهن كن يعتلين قواعد منفصلة بعضها عن بعض، ولم يكن من السهل رؤية تلك القواعد مع ذلك؛ لأنها كانت تختفي تحت الأقمشة الطويلة المزهرة التي كانت تنسدل إلى أسفل، والتي لم تكن سوى أذيال أثواب الملائكة، ولما كانت تلك القواعد، بالغة الارتفاع ـ كان يبلغ ارتفاع بعضها ستة أقدام ـ فإن النساء كن يظهرن، عملاقات، لولا أن صغر رؤوسهن هو ما كان يبعد الإيهام بهذا الحجم الهائل، وكان شعرهن المفكوك، يبدو بالغ القصر، ومتدليًا بطريقة سخيفة بين الجناحين الهائلين، ويحدد وجوههن، وكانت توجد نساء لا يكدن يرتفعن كثيرًا عن ارتفاع الشخص العادي، لكن كانت هناك أخريات بجوارهن، كن يقفن على ارتفاع شاهق، حتى أن المرء كان يشعر بأن أقل لفحة من الهواء يمكنها أن تقلبهن، وكانت القواعد تختلف في أحجامها ومقاييسها تجنبًا للتكرار، وكانت النساء جميعهن ينفخن في أبواقهن.

ولم يكن يوجد كثير من المستمعين، كان هناك فقط حوالى عشرة من الصبية، كانوا يتمشون أمام الرصيف، وقد مُسخت أحجامهم بالمقارنة بأحجام أولئك النساء، وكانوا يلفتون أنظار بعضهم بعضًا إلى هذه أو تلك، لكن لم تكن تبدو عليهم أدنى نية للدخول، وعرض خدماتهم، وكان هناك رجل واحد فقط، كان قد توقف قليلًا في جانب من الجوانب، وكان يصطحب زوجته معه، وطفله في عربة أطفال، كانت الزوجة تمسك عربة الطفل بإحدى يديها، وتعتمد بيدها الأخرى على كتف زوجها، وكان واضحًا أنهما كانا معجبين بالمشهد، إلا أن المرء

كان في إمكانه أن يتبين في الوقت نفسه، أن أملهما قد خاب، وكان يبدو عليهما وكأنهما كانا يتوقعان ما يشير إلى نوع من أنواع العمل، ولقد أثار هذا النفخ في الأبواق سخطهما، وكان كارل يشعر بنفس ما كانا يشعران به، واتجه كارل إلى حيث كان يقف الرجل، واستمع قليلًا إلى صوت الأبواق، ثم قال بعد ذلك: «أليس هذا هو المكان الذي يطلبون فيه أناسًا للانضمام إلى مسرح أوكلاهوما؟!».

قال الرجل: «إنني أظن هذا أيضًا! إلا أننا ننتظر هنا منذ ساعة، ولم نسمع شيئا سوى أصوات هذه الأبواق، ولا يوجد هنا لافتات يمكننا أن نعرف عن طريقها أي شيء، ولا يوجد منادون ولا شخص واحد يمكنه أن يدلك على ما يجب عليك أن تفعله!» فقال كارل: «ربما كانوا ينتظرون حتى يصل أناس كثيرون، إن من وصل إلى هنا حتى الآن، هم في الحقيقة بضعة أفراد قلائل!».

قال الرجل: «قد يكون الأمر كذلك!»، ثم صمتا ثانية، كما أنه لم يكن من السهل أن تسمع شيئًا من خلال الضوضاء التي كانت تحدثها أصوات الأبواق، ثم همست المرأة بشيء ما لزوجها فأطرق هذا، ونادت المرأة كارل في الحال وقالت له: «ألا يمكنك أن تذهب إلى حلبة السباق، وتسأل أين يتم استقبال طالبى العمل؟».

فقال كارل: «نعم، إن عليّ أن أخترق الرصيف، وسط كل الملائكة!»، فتساءلت المرأة قائلة: «وهل يصعب عليك هذا، إلى هذه الدرجة؟».

وتبدو أنها كانت تظن المكان ممرًّا سهلًا لكارل، لكنها لا تريد زوجها أن يذهب ليسأل بنفسه.

قالت المرأة لكارل: «من السهل عليك أنت أن تذهب!»، وتناولت هي وزوجها يد كارل، وضغطاها، واندفع الصبية جميعًا، ينظرون إلى كارل عن قرب، عندما صعد الرصيف، ويبدو أن النساء قد ضاعفن من شدة نفخهن في الأبواق؛ كتحية لأول شخص يرغب في الانضمام إلى هيئة المسرح، وكانت النسوة اللائي كن يقفن فوق القواعد التي مر بها كارل، قد أبعدن الأبواق عن أفواههن وانحنين يتتبعنه بأنظارهن، وعند الجانب الآخر من الرصيف، اكتشف كارل وجود رجل كان يتمشى في قلق، ذهابًا وجيئة، ويبدو أنه كان ينتظر الناس الذين يطلبون الانضمام؛ لكي يعطيهم التعليمات التي يرغبون في الحصول عليها، وكان كارل على وشك أن يبدأه بالحديث، عندما سمع صوتًا يناديه من أعلى، صاحت إحدى الملائكة قائلة: «كارل».

وتطلع كارل إلى أعلى في دهشة منشرحة، انطلق في الضحك فقد كانت «فاني»، صاح قائلًا في دهشة، وهو يلوح لها بيده: «فاني!».

صاحت فاني قائلة: «اقترب، لا يمكن أن تمر بي حقًّا هكذا!»، وأزاحت طرف ثوبها جانبًا، فاتضحت القاعدة التي كانت تقف فوقها، وسلم صغير كذلك كان يؤدي إلى أعلى تلك القاعدة. تساءل كارل قائلًا: «هل يُسمح للمرء بأن يصعد هذا السلم؟».

فهتفت فـاني قائلـة: «ومن ذا الـذي يمنعنـا من أن نتصـافح!»، وتطلعت حولها في غضب، استعدادًا لمواجهة من قد يتـدخل، إلا أن كـارل كـان يصعد السلم لحظتها بالفعل.

وصاحت فاني قائلة: «ليس بهذه السرعة! وإلا انقلبنا، والسلم أيضًـا، إلى الأرض!» إلا أن شـيئًا من هـذا لم يحـدث، وبلـغ كـارل قمـة السـلم في سلام.

قالت فاني: «انظر!» وكان كل منهما قد صافح الآخر: «انظـر أي وظيفـة هذه التي حصلت عليها هنا!».

فقال كارل وهو يتطلع حوله: «إنها وظيفة رائعة!»، وراحت باقي النساء، اللائي كن يلاحظنه يضحكن ساخرات.

وقال كـارل: «إنـك أكـثر ارتفاقًـا منهن جميعًـا! وفـرد ذراعـه محـاولًا أن يقيس الفرق في الارتفاع بين مكانها، ومكان الأخريات.

وقـالت لـه فـاني: «لقـد رأيتـك في الحـال، فـور خروجـك من المحطـة، لكنني في الصف الأخير هنـا، لسـوء الحـظ، ولا يمكن لأحـد أن يـراني، كمـا لا يمكنـني أن أُلـوِّح لأحـد بـدوري، ولقـد نفخت في البـوق بغايـة جهدي، إلا أنك لم تتعرف عليّ رغم ذلك!».

وقال كارل: «إنكن تنفخن جميعكن بصورة سـيئة للغايـة!، دعيـني أنفخ مرة في هذا البوق!..».

فقالت فاني: «كما تشاء!ـ وهي تناوله البوقـ لكن لا تحاول أن تفسد العرض، وإلا تسببت في طردي!».

وبدأ كارل ينفخ في البوق، وكان قد تصوره برفق قديم الطراز، لا ينفع إلا في إصدار الضوضاء فقط، لكنه اكتشف الآن أنه كان آلة قادرة على إحداث أي صوت دقيق، فلو كانت كل الأبواق هنا بهذا المستوى، فلابد أنها كانت تستعمل إذن استعمالًا بالغ السوء، ودون أن يلقي انتباهًا إلى نفخ الأخريات، نفخ بكل طاقة رئتيه لحنًا كان قد سمعه ذات مرة في إحدى الحانات. وأحس بالسعادة لعثوره على صديقة قديمة، ولسماحها له بالنفخ في البوق بصورة ودية، وسعد كذلك لفكرة احتمال عثوره هنا على وظيفة حسنة بغاية السرعة، وتوقفت كثيرات من النساء عن النفخ لكي يستمعن، عندما توقف هو فجأة عن النفخ في البوق، كانت نصف الأبواق تقريبًا هي التي تصدر عنها الأصوات واستمر الحال بعض الوقت على هذا، إلى أن عادت الضوضاء كما كانت من قبل، إلى كامل عنفها.

قالت فاني عندما سلمها البوق ثانية: «ولكنك فنان فعلًا! فاطلب منهم أن يأخذوك كنافخ بوق!».

وقال كارل: «وهل يقبلون الرجال في هذه الوظيفة أيضًا؟!».

فقالت فاني: «نعم، إننا ننفخ لمدة ساعتين، ثم نستريح، ويحل الرجال الذين يرتدون ملابس الشياطين محلنا، نصفهم ينفخون في الأبواق، ويقرع نصفهم الآخر الطبول، إنه مشهد رائع، كما أن المعدات تتوافر

جميعها في سخاء، ألا تعتقد أن ثيابنا جميلة؟! والأجنحة؟!»، وتطلعت إلى أسفل، وراحت تتفحص نفسها.

تساءل كارل: «هل تعتقدين أنني سأجد وظيفة هنا؟».

فقالت فاني: «بكل تأكيد! إنه أضخم مسرح في العالم، يا له من حظ، أن يجمعنا ثانية مكان واحد، إلا أن الأمر يعتمد على نوع الوظيفة التي سوف تسند إليك، لأنه من الممكن ألا نرى بعضنا ثانية على الإطلاق، على الرغم من انضمامنا هنا».

فتساءل كارل قائلًا: «هل المكان واسع بالفعل إلى هذا الحد؟».

فقالت فاني: «إنه أكبر مسرح في العالم، إنني لم أره بعد بنفسي، إنني أعترف بهذا، إلا أن بعض الفتيات الأخريات هنا، أولئك اللائي كن قد انضممن قبلي إلى مسرح أوكلاهوما، يقلن إن هذا المسرح لا حدود له على الأغلب!».

فقال كارل، مشيرًا إلى أسفل نحو الصبية، والأسرة الصغيرة.

ـ لكن لا يوجد كثير من الناس هنا!! قالت فاني: «هذا حق، لكن عليك أن تلاحظ أننا نضم إلينا أعضاء جددًا من كل المدن، وأن جهاز تجنيد الأعضاء للعمل في المسرح، يتجول دائمًا في الطرق، ويوجد الكثير من فرق تجنيد الأعضاء الجدد للمسرح».

وقال كارل: «لماذا؟ ألم يفتتح المسرح بعد؟!».

قالت فاني: «أوه.. نعم، إنه مسرح قديم، إلا أنه يوسع دائمًا».

فقــال كــارل: «انــه ليدهشــني أن أناسًــا أكــثر من هــؤلاء لم يــتزاحموا للانضمام إليه!».

قالت فاني: «نعم، إنه أمر غير عادي!».

قال كارل: «ربما كان هذا العرض الذي يقـوم بـه الملائكـة والشـياطين، ينفر الناس، بدلًا من أن يجتذبهم!».

قالت فاني: «ما الذي يجعلـك تظن هـذا، إلا أنـك قـد تكـون على حـق، فقل هذا لقائدنا، فقد يهمه سماع ذلك!».

فتساءل كارل قائلًا: «أين هو؟!».

قالت فاني: «في حلبة السباق، فوق رصيف التحكيم».

قــال كــارل: «إن هــذا يدهشــني أيضًــا، فلمــاذا حلبـة السـباق لاسـتقبال الراغبين في الانضمام إلى المسرح؟!».

قالت فاني: «أوه.. إننـا نعمـل دائمًـا اسـتعدادًا هـائلًا لاسـتقبال كثـير من الناس، ويوجد متسع للكثيرين في حلبة السباق، وفي كل الأكشاك الـتي تقبل المراهنات في الأيام العادية، تقـام الآن المكـاتب لتسـجيل أسـماء المرشحين للوظائف، ولابد أن هناك حوالي المائتين من هـذه المكـاتب هناك».

فصاح كارل قائلًا: «وهل لمسرح أوكلاهوما مثل هذا الـدخل الضـخم، الذي يسمح له بجمع الناس وإقامة المنشآت على هذه الصورة؟».

قالت فاني: «وما الذي يهمنا نحن من ذلك، من الأفضل لك أن تـذهب الآن، يـا كـارل، حـتى لا يفوتـك أي شـيء، ويجب عليّ أن أواصـل الآن النفخ في البوق، فابـذل كـل جهـدك لكي تحصـل على وظيفـة هنـا، في هذا القسم، وتعال وأخبرني بذلك في الحال، وتذكر أنني سـأنتظر بغايـة القلق حتى تعود إليّ بهذه الاخبار».

وضغطت على يده، ونبهته إلى أن يحترس عند هبوطه السلم، ووضـعت البـوق على شـفتيها ثانيـة، إلا أنهـا لم تنفخ فيـه حـتى رأت أن كـارل قـد هبط إلى الأرض بسلام، ورتب كارل الثوب ثانية، فغطى به السلم، كمـا كان من قبل، وأومأت فاني إلى كارل بتحياتها، واقـترب كـارل، وهـو لا يزال يفكر فيما سمعه الآن، اقـترب من الرجـل الـذي كـان قـد رآه وهـو فوق القاعدة التي تقف عليهـا فـاني، فـاقترب من تلـك القاعـدة منتظـرًا هبوطه.

تساءل الرجل قائلًا: «هل تريد الانضمام إلينا؟ إنني مدير المسـتخدمين، في هذه الفرقـة، وأنـني أرحب بـك!» كـانت لـه انحنـاءة دائمـة، كمـا لـو كانت بدافع الأدب، وكانت ساقاه تتململان، دون أن يتحرك من مكانه، وكان يعبث طول الوقت بسلسة ساعته.

قـال كـارل: «أشـكرك، لقـد قـرأت اللافتـة الـتي وضـعتها فرقتـك، وقـد حضرت إلى هنا، كما جاء بها!».

فقـال الرجـل موافقـًا على مـا قـال كـارل: «هـذا صـحيح تمامًـا، ولسـوء الحظ لا يوجد كثيرون قد فعلوا كما فعلت!»، وطـرأ على بـال كـارل أن

يقول للرجل، إنهم ربما يكونون قد أخفقوا في جمع الكثيرين بسبب فخامة ذلك الاستعراض، إلا أنه لم يقل شيئًا لأن هذا الرجل لم يكن قائد الفرقة، وبالإضافة إلى ذلك فليس من المستحسن له أن يبدأ بتوجيه الاقتراحات التي تستهدف تحسين حال جهاز تجنيد الأعضاء الجدد، من قبل أن يقبل هو نفسه بالفعل كعضو، وعلى هذا فقد قال فقط:

ـ ثمة رجل ينتظر هناك في الخارج، ويرغب في تسجيل اسمه هنا أيضًا، وقد أرسلني لكي أستطلع الأمر أولًا، فهل لي أن أبحث عنه الآن؟ قال الرجل: «بالطبع، من المستحسن هذا».

قال كارل: إن له زوجة معه هي أيضًا، وطفل صغير في عربة أطفال، فهل لهما أن يحضرا أيضًا؟ فقال الرجل، وبدا وكأنه كان يبتسم من تردد كارل: «بالطبع، يمكننا أن نقبلهم جميعًا».

فقال كارل: «سوف أعود في الحال»، وانطلق يجري نحو حافة الرصيف، ولوح بيده للزوجين، وصاح قائلًا: «إن بإمكان كل شخص أن يحضر أيضًا»، وعاون الرجل في حمل عربة الطفل إلى الرصيف، ثم تقدما معًا. وعندما رأى الصبية ذلك تشاوروا بعضهم مع بعض وترددوا إلى اللحظة الأخيرة، وأيديهم في داخل جيوبهم، ثم صعدوا الرصيف ببطء، وتبعوا كارل والأسرة، ثم ظهر عندئذ عدد من الوافدين الجدد خرجوا من المحطة التحتية، ورفعوا سواعدهم في دهشة عندما شاهدوا الرصيف والملائكة، وبدا مع ذلك أن المنافسة من أجل الحصول على

الوظائف ستزداد الآن، وأحس كارل بالسعادة البالغة لوصوله مبكرًا على هذه الصورة، ولعله كان أولهم جميعًا، وكـان الزوجـان يتوجسـان شـرًّا، وتساءلا عديدًا من التساؤلات عما قـد يُطلب منهمـا، وقـال لهمـا كـارل إنـه لا يعـرف شيئًا محددًا بعـد، إلا أنـه قـد أحس بأن كـل شـخص بلا استثناء سوف يُقبل، وظن أنهمـا سيشـعران براحـة البـال عندئـذٍ، وتقـدم مدير المستخدمين نحوهم، والرضا يبدو عليه لوجـود مثـل ذلـك العـدد ممن حضروا يطلبون الانضمام إلى هيئة المسرح، وفرك يديه، وحيا كل واحد من الموجودين بانحناءة خفيفة، ورتبهم جميعًـا في صـف واحـد، وكان كارل على رأس الصف، يليه الزوج، وزوجته، ويليهمـا الآخـرون، وعندما اصطفوا جميعًا ـ ظـل الصـبية يتـدافعون في البدايـة، واسـتغرق الأمـر بعض الـوقت لكي يتم تنظيمهم في الصـف ـ وقـال مـدير المسـتخدمين، بينمـا صـمتت الأبـواق: «إنـني أحـييكم باسـم مسـرح أوكلاهومـا، ولقـد وصـلتم مبكـرين (كـان الـوقت ظهـرًا لحظتهـا)، ولم يحدث زحام شديد بعد حتى الآن، وعلى هذا فإن الشكليات الضـرورية التي تلزم لانضمامكم سوف تتم في الحال، إنكم تحملون معكم بـالطبع الأوراق التي تثبت شخصياتكم».

وجـذب الصـبية في الحـال أوراقًـا من جيـوبهم، وفردوهـا نحـو مـدير المستخدمين ولكز الـزوج زوجتـه، فـأخرجت حزمـة كبـيرة من الأوراق من تحت البطاطين التي كانت في عربـة الأطفـال، إلا أن كـارل لم يكن يحمل أية أوراق، فهل يحول ذلك بينـه وبين الانضـمام؟ إنـه يعلم جيـدًا من خلال خبرته أنه سيسهل عليه أن يتغلب بحل من الحلـول البسـيطة،

على تلك التعليمات، ويبدو أنه سينجح في ذلك، وتطلع مدير المستخدمين إلى الصف كله، وتأكد من أن الجميع يحملون تلك الأوراق، ولما كان كارل يقف بيديه مرفوعتين مع أنهما كانتا خاليتين من تلك الأوراق، فقد تأكد الرجل من أن كل شيء على ما يرام بالنسبة لكارل أيضًا.

قال مدير المستخدمين: «حسن جدًّا!» مؤكدًا ذلك للصبية بتلويح يده لهم، وكان هؤلاء يريدون أن تفحص أوراقهم في الحال: «سوف تفحص أوراقكم في مكاتب الاستقبال، وكما قد لاحظتم بالفعل من لافتتنا، ففي إمكاننا أن نجد وظيفة لكل شخص، لكننا يجب بالطبع أن نعرف ما هي الوظائف التي كنتم تشغلونها حتى الآن، وعلى هذا يمكننا أن نضع كلًّا منكم في مكانه الصحيح؛ لكي نستفيد من خبراتكم!».

وفكر كارل في نفسه مرتابًا: «ولكنه مسرح!»، ثم استمع في انتباه شديد.

ومضى مدير المستخدمين في حديثه قائلًا: «ولهذا فقد أقمنا مكاتب للاستقبال والتسجيل في أكشاك المراهنات على خيل السباق، لكل تجارة أو مهنة مكتب خاص، وعلى هذا فسوف يخبرني كل منكم بوظيفته، وتسجل الأسرة عادة في مكتب توظيف الأزواج، وسوف أصحبكم إذن إلى هذه المكاتب، حيث يراجع المختصون أوراقكم أولًا، ثم صلاحيتكم، وسوف يكون فحصًا قصيرًا للغاية. فلا تخشوا شيئًا، وسوف تسجل أسماؤكم في الحال، بعد ذلك، ثم تتلقون التعليمات

اللازمة، فلنبدأ الآن إذن، هذا المكتب الأول خاص بالمهندسين الميكانيكيين، كما يتضح من الكتابة التي كتبت فوقه، فهل يوجد مهندس هنا بينكم؟».

فتقدم كارل إلى الأمام، كان قد ظن أن افتقاره إلى الأوراق يتيح له أن يتخطى تلك الشكليات بأقصى سرعة ممكنة، وكان لديه كذلك ما يبرر تقدمه إلى الأمام بعض التبرير، فلقد كان قد رغب ذات مرة في أن يصبح مهندسًا ميكانيكيًّا، إلا أن الصبية عندما شاهدوا كارل وهو يتقدم إلى الأمام، ثار الحسد في نفوسهم، ورفعوا أيديهم جميعًا، فنهض مدير المستخدمين على قدميه وقال للصبية: «هل أنتم مهندسون؟!»، فتذبذبت أذرعهم، ثم انخفضت إلى جانبهم، لكن كارل بقي ثابتًا على قراره الأول، ولقد نظر إليه مدير المستخدمين بالطبع في ارتياب، فقد كان كارل يبدو في ثياب خلقة وكان صغيرًا أيضًا حتى يكون مهندسًا، إلا أنه لم يقل شيئًا، ربما كنوع من الامتنان لكارل؛ لأنه كان قد تسبب في رأيه على الأقل، في دخول هؤلاء الذين يرغبون في الانضمام إلى المسرح، ثم التفت مدير المستخدمين نحو الآخرين.

وفي المكتب المخصص للمهندسين، كان يجلس سيدان إلى طرفي طاولة مستطيلة، وهما يقارنان قائمتين طويلتين كانتا موضوعتين أمامهما، وكان أحدهما يقرأ، بينما كان الآخر يضع علامة أمام كل اسم في القائمة، وعندما دخل كارل وحياهما، تركا القائمة في الحال، وتناولا دفترين هائلين، وفتحاهما.

وقال أحدهما، وكان يبدو واضحًا أنه كاتب: «من فضلك أعطني أوراق إثبات شخصيتك».

فقال كارل: «إنني آسف لأنني لم أحضرها معي».

قال الكاتب للسيد الآخر: «إنه لم يحضرها معه!»، بينما كان يكتب في الوقت نفسه تلك الإجابة التي أجاب بها كارل في دفتره، وعندئذ سأله الرجل الآخر، الذي بدا أنه رئيس المكتب: «هل أنت مهندس؟».

قال كارل مسرعًا: «إنني لم أصبح مهندسًا بعد، ولكنني...».

فقال السيد في سرعة تفوق سرعته: «يكفي هذا، فأنت لا تتبعنا في هذه الحالة، وعلى هذا فأرجو أن تتكرم بملاحظة ما كتب هنا على واجهة الكشك!»، وصر كارل على أسنانه، ولابد أن السيد كان قد لاحظ ذلك؛ لأنه قال: «لا حاجة بك إلى أن تخشى شيئًا، ففي إمكاننا أن نقبل كل شخص»، وأشار لواحد من المساعدين، كان يتسكع متكاسلًا بين الأسوار، قائلًا له: «قُد ذلك السيد إلى مكتب الفنيين».

وفسر المساعد ذلك الأمر حرفيًا، فأخذ كارل من يده، ومرا بعدد من الأكشاك على كلا الجانبين، وفى أحد هذه الأكشاك رأى كارل أحد الصبية كان قد انتهى تسجيله بالفعل، فكان هذا الصبي يشد على يد السيد الذي كان يرأس المكتب الذي أُقتيد إليه كارل الآن. كانت الإجراءات شبيهة بتلك الإجراءات التي جرت في المكتب الأول، كما كان كارل قد توقع، فيما عدا أنهما قد أرسلاه الآن الى المكتب الخاص بطلبة المدارس المتوسطة، عندما سمعا أنه كان قد التحق بمدرسة

متوسطة، لكن عندما صرح كارل هناك بأنها كانت مدرسة أوروبية، تلك التي كان قد التحق بها، ورفض الموظفان قبوله، وأرسلا معه من اقتاده إلى المكتب الخاص بطلبة المدارس الأوروبية المتوسطة، وقد كان كشكًا في الطرف الخارجي من الحلبة، ولم يكن كشكًا أصغر فقط، بل أكثر تواضعًا أيضًا من باقي الأكشاك الأخرى، وكان المساعد الذي اقتاده الى هناك غاضبًا غاية الغضب، للمشوار الطويل والرجوع المتكرر الذي كان السبب في حدوثهما في رأيه هو كارل وحده، ولم ينتظر المساعد حتى تبدأ الأسئلة التي سيوجهها أعضاء المكتب إلى كارل، بل رجع في الحال، فلعل هذا المكتب إذن أن يكون هو فرصة كارل الأخيرة! وعندما لمح كارل رئيس المكتب، فوجئ للغاية بالشبه الشديد بينه وبين مدرس، ربما كان لا يزال يدرس في المدرسة التي كان يدرس بها في بلده، ومع ذلك، فقد بدأ الشبه في الحال مقصورًا على بعض التفاصيل المعينة، إلا أن النظارات التي كانت ترتكز فوق أنف الرجل العريض، واللحية الجميلة، وهى تنحدر كجائزة معروضة، والظهر المنحني قليلًا، والصوت المرتفع المفاجئ الذي يصدر فجأة، كلها جمدت كارل من الدهشة لبعض الوقت، ولحسن الحظ لم يكن عليه أن ينتبه انتباهًا شديداً، ذلك أن الاجراءات هنا كانت أبسط كثيرًا منها في المكاتب الأخرى.

ولا شك أن مذكرة ما كانت قد تضمنت أن أوراقه لم تقدم، وقد اعتبر رئيس المكتب عدم وجود تلك الأوراق «شيئًا من الإهمال غير المفهوم!» إلا أن الكاتب الذي بدا، وكأنه هو الذي يسيطر على

المكتب، سرعان ما علق على ذلك، وصرح ذلك الكاتب ـ بعد عدد من الأسئلة التي وجهها رئيسه إلى كارل، وبينما كان السيد يستعد لتوجيه مزيد من الأسئلة المهمة ـ بأن كارل قد قُبِل، واستدار رئيس المكتب مفغور الفم نحو كاتبه، إلا أن الكاتب أتى بحركة حاسمة من يده قائلًا: «قُبِل»، ودون في الحال هذا القرار في دفتره، ويبدو أن الكاتب كان ينظر إلى «طالب أوروبي بالمدارس المتوسطة»، نظراته إلى شخص غاية في الوضاعة، لدرجة لا يصح معها الارتياب في أي كلام يصدر عنه، أو مناقشته فيه، ولم يكن لدى كارل من ناحيته أدنى اعتراض على هذا، ومضى رأسًا نحو الكاتب، وهو ينوي أن يشكره على ذلك، لكن كان هناك ثمة تأخير آخر، فبينما كانا يسألانه عن اسمه، لم يجب كارل في الحال، فقد أحس بالخجل من ذكر اسمه الحقيقي، والسماح لهما بتدوينه، وما دام قد وجد مكانًا هنا، مهما كان ضئيلًا، وقبل أن يشغله راضيًا، فيمكنهما أن يحصلا على اسمه، لكن ليس الآن! كان قد أخفى اسمه الحقيقي طويلًا، بحيث يصعب عليه أن يصرح به الآن! ولما لم يطرأ على باله أي اسم آخر في تلك اللحظة، فقد أدلى لهما باسمه المستعار الذي كان يلقب به في عمله الأخير، «الزنجي».

قال رئيس المكتب: «الزنجي!!»، وهو يدير رأسه، ويأتي بحركة ما، كما لو كان قد بلغ الآن أقصى حدود الريبة، وحتى الكاتب هو أيضًا، نظر إلى كارل، وتفحصه، للحظة، إلا أنه قال بعدئذٍ: «الزنجي!»، ودوّن الاسم.

وصاح به رئيسه قائلًا: «لكنك لا يمكن أن تكون قد كتبت بالفعل كلمة (الزنجي!)» ورفع الكاتب حاجبيه، ونهض بدوره، وقال: «إذن، فإن من واجبي أنا، أن أقول لك، إنك قد قُبلت ضمن هيئة مسرح أوكلاهوما، وإن علينا الآن أن نقدمك إلى قائدنا».

واستدعى مساعدًا آخر، اقتاد كارل إلى منصة التحكيم.

وعند أقدام الدرج، لمح كارل عربة الطفل، وهبط عندئذ الأب والأم، وكانت الأم تحمل الطفل على ذراعيها.

سأله الرجل قائلًا: «هل قبلت؟!» كان أكثر نشاطًا عن ذي قبل، وابتسمت زوجته لكارل من فوق كتفها، وعندما أجاب كارل بأنه كان قد قبل لتوه، وأنه كان في طريقه لكي يُقدم إلى القائد، قال الرجل: «إذن فإنني أهنئك، فلقد قبلنا نحن أيضًا، ويبدو أنه شيء طيب أن ننضم إلى المسرح، على الرغم من أنه لا يمكنك أن تعتاد على شيء مرة واحدة وفي الحال، إلا أن الأمور تسير دائمًا على هذا النحو في كل مكان!».

وقالا لبعضهما: «إلى اللقاء مرة أخرى»، وصعد كارل إلى المنصة، واتخذ دوره، ذلك أن تلك المساحة الضيقة في أعلى المنصة، كانت تزدحم فيما يبدو بالناس، ولم يكن كارل يرغب في المزاحمة والإلحاح، ولهذا توقف لحظة، وتطلع إلى حلبة السباق الهائلة التي كانت تمتد في كل اتجاه نحو الغابات البعيدة، وكانت تملؤه الرغبة في رؤية سباق الخيل، ولم يكن قد أتيحت له الفرصة من قبل لمشاهدة أي سباق للخيل منذ أن جاء إلى أمريكا، وفي أوروبا كان قد ذهب إلى

سباق للخيل ذات مرة، عندما كان طفلًا صغيرًا، إلا أن كل ما يمكنـه أن يتذكره، هو أن أمه كانت قد سحبته خلال الزحام، ولم يرغب الناس في أن يفسحوا له طريقًا لكي يمر، وعلى هذا فلم يكن بالفعـل قـد رأى قَـطّ من قبل سباقًا للخيل.

وكانت خلفه آلة من نوع ما، كانت قد بدأت تطن، واستدار حولـه ورأى فـوق اللافتـة، حيث تظهـر أسـماء الفـائزين من المتسـابقين، هـذه الكلمات: «التاجر كاللا، وزوجته، وطفله»، وعلى هذا فإن أسماء هؤلاء الذين تم قبولهم كانت توزع على مختلف المكاتب من هنا.

وعندئذ هبط بعض السـادة الـدرج مسـرعين، وبأيـديهم أقلام رصـاص، ومفكرات، وكانوا يتحدثون بعضهم إلى بعض باهتمام، والتصـق كـارل بالسـور، لكي يفسـح مكانًـا لمـرورهم، ثم صـعد بعـد ذلـك إلى أعلى المنصـة، حيث أفسـح لـه الآن مكانًـا فوقهـا، وفي أحـد أركـان المنصـة، بسورها الخشبي ـ وكـانت المنصـة كلهـا تبـدو أشـبه مـا تكـون بسـطح منبسط لبرج صغيرـ كان يجلس أحد السادة، وذراعاه مفرودتـان أمامـه فوق السور، ووشاح عريض من الحرير يتدلى على صدره بميـل، وعليـه هذه الكتابة: «قائد فرقـة التجنيـد العاشـرة، لمسـرح أوكلاهومـا»، وكـان فوق المنصـة تليفـون، قـد وضـع لاشـك للاسـتعمال في أثنـاء مباريـات سباق الخيل، ولكنه يستخدم الآن فيما يبدو، لإبلاغ المعلومات المهمـة التي تتعلق بمختلف المتقدمين إلى شغل الوظـائف، إلى القـائـد قبـل أن يقدموا إليه، لأنه لم يبدأ بتوجيه الأسئلة إلى كـارل، بـل قـال لسـيد كـان يجلس بجواره، وساقاه معقودتان، وذقنه بين يديه:

«الزنجي، تلميذ بالمدارس الأوروبية المتوسطة» وكأنما لم يكن أمامه أي شيء آخر يمكن أن يقوله. بعد ذلك لكارل، الذي انحنى له انحناءة شديدة، وتطلع القائد إلى أسفل الدرج ليرى إن كان ثمة قادم آخر، ولما لم يجد أي قادم آخر، أصاغ السمع إلى الحديث الذي دار بين السيد الآخر وبين كارل، لكنه ظل صامتًا طوال الجزء الأغلب من ذلك الحديث، وراح يتطلع إلى حلبة السباق، وهو يربت بأصابعه فوق السور، وقد جذبت هذه الأصابع الرقيقة الطويلة. القوية، انتباه كارل من حين لآخر، مع إنه كان قد أعار كل انتباهه بالفعل إلى السيد الآخر.

وكان هذا قد بدأ حديثه إلى كارل متسائلًا: «هل كنت قد فصلت من عملك؟!»، كان السؤال ككل الأسئلة الأخرى التي وجهت إلى كارل، بسيطة، ومباشرة، ولم يكن هذا السيد يراجع كارل في إجاباته، ولم يحاول استدراجه إلى شيء بسؤال غير مباشر مطلقًا، إلا أن الطريقة التي ينحني بها إلى الأمام لكي يرى أثر تلك الأسئلة، وطريقته كذلك في خفض رأسه فوق صدره في أثناء استماعه إلى الإجابات، وترديده أحيانًا لهذه الإجابات بصوت مرتفع، وتمعنه في أسئلته بصورة لها مغزاها الذي قد لا يدركه المرء، لكنه لا يرتاح رغم ذلك إلى الارتياب فيها.. ولقد أحس كارل عددًا من المرات بشيء كان يدفعه إلى أن يتراجع في إجابته بعد أن يكون قد أدلى بها، وأن يجيب بإجابة أخرى، لعلها تجد قبولًا أكثر، إلا أنه تمكن دائمًا من أن يضبط نفسه، فلم يفعل ذلك، لأنه كان يعلم أي انطباع سيئ قد يعكسه مثل هذا التذبذب، كما لم يمكنه في الحقيقة أن يدرك أثر أغلب إجاباته.. وبالإضافة إلى ذلك

فإن قبوله في هذه الوظيفة، بدا وكأنه قد تقرر بالفعل، وقد شجعه إدراكه لهذه الحقيقة.

وقد أجاب ببساطة عن السؤال الذي وجه إليه، عما إذا كان قد فصل من عمله؟ قائلًا: «نعم».

ثم سأله السيد ثانية: «أين كنت تعمل أخيرًا؟».

وهم كارل بالإجابة، عندما رفع السيد أصبعه السبابة، وكرر قائلًا: «أخيرًا».

ولما كان كارل قد فهم السؤال جيداً، فقد هز رأسه رغمًا عنه، لكي يتحاشى الملاحظة الإضافية المزعجة، وأجاب قائلًا: «في أحد المكاتب!».

كانت هذه هي الحقيقة، لكن، لو أن ذلك السيد طلب منه تحديداً أكثر عما يتعلق بنوع ذلك المكتب، فقد كان سيكذب عليه عندئذ بلا شك.. ومع ذلك، فلم تبد ثمة ضرورة لمثل هذا الطلب، لأن السيد وجه سؤالًا، كان من السهل تمامًا الإجابة عنه، إجابة صادقة: «هل كنت راضيًا في عملك ذاك؟!».

فصاح كارل قائلًا في انفعال: «لا!»، حتى قبل أن ينتهي السؤال، ومن طرف عينه، كان يمكنه أن يلاحظ أن القائد كان يبتسم في وهن، وأسف لشدة انفعاله، إلا أن السؤال كان مغريًا للغاية، حتى لقد اندفع قائلًا: «لا!»، دون أن يدري، ذلك أنه كان يحلم طوال الفترة الماضية من خدمته، بصاحب عمل قد يلتقي به، ويوجه إليه هذا السؤال نفسه..

إلا أن هذا النفي كان من الممكن أن يثير أمامه مشكلة أخرى، لو أن السيد واصل سؤاله، طالبًا منه أن يوضح له، لماذا لم يكن راضيًا في عمله ذاك؟ إلا أن ذلك السيد تساءل بدلًا من ذلك قائلًا: «ما هو نوع العمل الذي تشعر بأنه يناسبك؟»، من الممكن أن يخفي مثل هذا السؤال فخًّا حقيقيًّا، فلماذا يوجه إليه سؤال كهذا، إذا كان قد قبل بالفعل كممثل؟ ومع إنه قد أحس بصعوبة الإجابة عن هذا السؤال، فإنه لم يستطع أن يقول إنه يشعر بأن مهنة التمثيل، على وجه الخصوص، هي المهنة التي تناسبه، وعلى هذا فقد تهرب من الإجابة عن هذا السؤال، وقال مجازفًا بأنه قد يبدو ممتنعًا عن الإجابة: «لقد قرأت اللافتة في المدينة، ولما كانت تقول بأن في إمكانكم أن توفروا عملًا لكل شخص، فقد جئت إلى هنا!».

قال السيد: «نحن نعلم هذا!»، موضحًا بصَمْته المتعمد، إنه لا يزال ينتظر إجابة سؤاله.

فقال كارل في تردد، لكي يتيح للسيد أن يلاحظ أنه قد وجد نفسه في ورطة: «لقد قبلت كممثل».

قال السيد: «هكذا إذن!»، ثم لجأ ثانية إلى الصمت.

فقال كارل: «لا!»، وابتدأت كل آماله في الحصول على وظيفة تهتز: «لست أدري، ماذا إذا كنت أستطيع أن أكون ممثلًا، إلا أنني سأبذل كل جهدي، وسأحاول أن أنفذ التعليمات التي توجه إليّ!».

واستدار السيد إلى القائد، وأطرق كلاهما، وبدا لكارل أنه قد أجاب الإجابة الصحيحة، لهذا فقد تشجع ثانية، وانتصب في وقفته، في انتظار السؤال التالي، وكان كما يلي:

ـ ما الذي كنت تريد أن تدرسه أساسًا؟! ولكي يحدد السؤال في دقة أكثر ـ ويبدو أن هذا السيد كان يلقي أهمية كبيرة على دقة السؤال ـ أضاف قائلًا: «أعني في أوروبا!»، وهو يبعد يده عن ذقنه، في الوقت نفسه، ويلوح بها، كما لو كان ليعين كم هي نائية أوروبا تلك، ومدى عقم أية خطة قد تكون وضعت هناك.

وقال كارل: «كنت أريد أن أصبح مهندسًا ميكانيكيًّا!»، لقد التصقت هذه الإجابة في حلقه، كان سخيفًا منه وهو يعلم جيدًا نوع الحياة التي عاشها في أمريكا، أن يحيا حلم اليقظة القديم، برغبته في أن يكون مهندسًا ميكانيكيًّا، فهل أمكنه أن يصبح مهندسًا ميكانيكيًّا، حتى في وطنه، أوروبا؟، إلا أنه لم يدر بأي جواب آخر يمكنه أن يجيب، وعلى هذا فقد أدلى بهذا الجواب، إلا أن السيد قد تقبل هذه الإجابة في جدية، فقد كان يأخذ كل شيء مأخذ الجد، وقال: «حسنًا، لا يمكنك أن تتحول إلى مهندس، فجأة! لكن ربما يناسبك الآن أن تضطلع بنوع من العمل الميكانيكي البسيط؟».

قال كارل: «بلا شك!»، كان راضيًا تمامًا، حقًّا لو أنه قبل هذا العرض، فسيتحول من مهنة التمثيل إلى الوضع الذي يقل عنه على نحو ما، وهو وضع العامل الفني، لكنه كان مقتنعًا بالفعل من أنه سيتمكن من أن

يكون صادقًا مع نفسه، بقبوله تلك الوظيفة الميكانيكية، وبالإضافة إلى ذلك، فقد ظل يقول لنفسه: «إن الأمر ليس هو نوع العمل، بقدر ما هو ضرورة أن يؤكد المرء وجوده في مكان ما، بصرف النظر عن العمل الذي يؤديه».

وتساءل السيد قائلًا: «هل أنت قوي البنية بدرجة كافية للعمل الجسماني؟».

فقال كارل: «أوه.. نعم».

وعند ذلك أمر السيد كارل بأن يقترب منه، وتحسس ذراعه.

ثم قال عندئذ: «إنه فتى قوي»، وهو يجذب كارل من ذراعه نحو القائد، وأطرق القائد مبتسمًا، وهو يمد يده إلى كارل، دون أن يغير وضعه المتكاسل، وقال:

«إذن، فقد تم إقرار هذا كله، وفي أوكلاهوما سننظر في هذا الأمر ثانية.. فاعلم بأنك قد شرفت جماعتنا المجندة».

وانحنى كارل، واستدار أيضًا، ليقول وداعًا للسيد الآخر، إلا إنه كان قد نهض، وراح يتمشى ذهابًا وجيئة، فوق المنصة، كما لو كانت أعباؤه كلها قد انزاحت الآن عن كاهله، وكان يتطلع نحو السماء. وعندما هبط كارل الدرجات، كانت لوحة الإعلانات إلى جواره، تبدو فوقها هذه الكلمات: «الزنجي، عامل فني».

ولما كان كل شيء يسير هنا بمثل هذا النظام، فقد أحس كارل بأنه لن يهتم لو رأى اسمه الحقيقي فوق تلك اللوحة، لقد كانت هيئة المسرح، هيئة دقيقة النظام بالفعل إلى حد لا يكاد يُصدق، فعند أقدام الدرج وجد كارل مساعداً ينتظره، وثبت حول ذراعه شريطًا، وعندما مد كارل ذراعه ليرى ما كتب فوق هذا الشريط، وجد عليه في خط واضح هذه الكلمات: «عامل فني».

لكن مهما كان المكان الذي سيوجهونه إليه الآن، فيجب عليه أولًا أن يبلغ فاني بما آلت إليه الأمور.. وسمع لأسفه الشديد أن الملائكة والشياطين كانوا قد رحلوا الآن إلى المدينة المجاورة، مع فرق التجنيد المتجولة، ولكي يقوموا بدور الطلائع المتقدمة لوصول الفريق بأكمله في اليوم التالي.. قال كارل: «يا للأسف!»، وكانت هذه هي أول خيبة أمل يصاب بها في هذه المهنة: «إن لي صديقة بين الملائكة!».

قال المساعد: «سوف تراها ثانية في أوكلاهوما، لكن هيا الآن، فإنك الأخير».

واقتاد كارل بطول الجانب الداخلي للرصيف، الذي كانت الملائكة يقفن فوقه، ولم يكن هناك سوى القواعد الخالية.. وقد ثبت الآن توهم كارل بأن النفخ في الأبواق لو كان قد توقف، لكان كثير من الناس قد تقدموا طالبين الانضمام إلى المسرح، ذلك أن أحداً لم يكن يقف الآن أمام الرصيف، فقط بضعة أطفال قلائل يتعارك بعضهم مع بعض، وريشة بيضاء كانت قد طارت بلا شك من جناح إحدى الملائكة،

وكـان صـبي يمسـكها في الهـواء إلى أعلى، بينمـا كـان بـاقي الأطفـال يحاولون إنزال ذراعه التي كانت تمسـك بتلـك الريشـة إلى أسـفل، على حين كانوا يمدون أيديهم الأخرى إلى الريشة.

وصـرف كـارل الأطفـال بعيـداً، إلا أن المسـاعد، قـال لـه دون أن ينظـر ناحيتـه: «هيـا، أسـرع، لقـد تطلب قبولـك وقتًـا طـويلًا، وأظن أنهم لم يكونوا واثقين منك!».

قـال كـارل في دهشـة: «لسـت أدري!»، إلا أنـه لم يصـدق ذلـك مطلقًـا، ومهما كانت الظروف، فلابـد من وجـود شـخص يحـاول أن يسـيء إلى زملائه، لكن نظرا للبشاشـة الـتي بـدت بهـا المنصـة الرئيسـية الـتي كـان يقتربان الآن منها، سرعان ما نسي كارل ملاحظـة المسـاعد.. فقـد كـان يوجد فوق تلك المنصة مائدة طويلة عريضة، قد غطيت بقماش أبيض، وكـان كـل من قُبِلـوا يجلسـون إلى تلـك المائـدة، بظهـورهم إلى حلبـة السباق، يأكلون.. كانوا سعداء جميعًا، وفي غايـة التـأثر، وعنـدما وصـل كـارل أخـيرًا، واتخـذ مكانـه في هـدوء، نهض عـدد منهم، وبأيـديهم الكؤوس التي رفعوها إلى أعلى، وشرب أحدهم نخب قائد فرقة التجنيد العاشرة، الذي دعاه باسم «أبو العاطلين جميعًا»، وقال شخص آخـر، إن القائد يمكن رؤيته من هنا، وبالفعل كانت منصة التحكيم واضـحة على مسافة ليست بالغة البعد، وفوقها السيدان، ورفع الجميع كؤوسـهم الآن في ذلك الاتجاه، وتناول كارل أيضًا الكـأس الموضـوعة أمامـه، وهتفـوا بـأعلى أصـواتهم، إلا أنهم لم يفلحـوا في لفت أنظـار من كانـا يجلسـان فوق منصة التحكيم، فلم يكن ثمة ما يدل على أنهما قد لاحظا شيئًا من

هـذا الحمـاس، ولا كـانت هنـاك على الأقـل أدنى رغبـة في ملاحظتـه، واضـطجع القائـد جالسًـا في ركنـه كمـا كـان يجلس من قبـل، ووقـف السيد الآخر إلى جواره، وهو يضع ذقنه على راحة يده، وتبدو عليه خيبة الأمل إلى حد ما، وجلسوا جميعهم ثانية، وكان يستدير شخص هنـا. أو شخص هناك نحو منصة التحكيم، إلا أنهم سرعان ما انهمكوا في تناول الطعام الوفير، وكان الطعام عبارة عن طيور ضخمة، لم يـر كـارل مثلهـا من قبل، تُحمل إلى المائـدة، وقـد انغرسـت في لحمهـا المحمـر، شـوك عديـدة، وكـان المسـاعدون لا يتوقفـون عن ملء الكـؤوس بالنبيـذ ـ ويصعب عليك أن تلاحظ ذلك، فبينمـا تكـون مشـغولًا تمامًـا بطبقـك، تجد النبيذ يتدفق فجأة ببسـاطة في كأسـك ـ وهـؤلاء الـذين لم يكونـوا يرغبون في المشـاركة في الحـديث، كـان في إمكـانهم أن يتفرجـوا على صور من مسرح أوكلاهوما. كانت توجد في كومة عنـد طـرف المائـدة، وكانت الصور تنتقل من يد إلى أخرى، إلا أن القلائل هم الـذين اهتمـوا بهذه الصور، وهكذا لم تصل منها سوى واحدة فقط إلى يد كارل الـذي كان يجلس في آخر الصف، ورأى كـارل عنـدما بلغتـه تلـك الصـورة أن باقي الصور كانت جديرة هي أيضًا بالرؤية، كانت هـذه الصـورة توضـح الشرفة المخصصة في المسـرح لـرئيس الولايـات المتحـدة، وربمـا ظـن المـرء من النظـرة الأولى إليهـا. أنهـا لم تكن مجـرد شـرفة، بـل المسـرح نفسه، وكـان سـور الشـرفة يمتـد إلى مسـافة كبـيرة، وكـان مصـنوعًا من الذهب حتى أدق تفاصيله، وبين أعمدته الرشيقة، الـتي نحتت في رقـة، وكأنمـا بمقص بـارع. كـانت الأوسـمة المهـداة من الرؤسـاء السـابقين.

تصطف بعضها إلى جانب بعض، وكانت لإحدى الحليات أنف يمتد بصورة ملحوظة وشفتان وعين مغطاة بجفن كامل مستدير، وتنظر إلى أسفل، وكانت أشعة الضوء تسقط على الشرفة من كل الجهات، ومن السقف، وكانت المقدمة غارقة كلها في الضوء، وأرضيتها بيضاء ناعمة، بينما تبدو الخلوة إلى الخلف كمغارة معتمة متوهجة، تغطيها الستائر الدمشقية الحمراء التي تتهدل في طيات مختلفة من السقف إلى الأرض، وتنعقد طياتها بالحبال.. ولم يكن في استطاعة المرء أن يتخيل وجود بشر في تلك الشرفة، بصورتها تلك الملكية، ولم يكن كارل قد انصرف تمامًا عن تناول طعامه، لكنه كان قد وضع تلك الصورة، بجانب طبقه، وراح يتطلع إليها، وكان يسره أن يتطلع إلى صورة على الأقل من الصور الأخرى، لكنه لم يكن يرغب في النهوض لكي يلتقط إحداها بنفسه، فقد كان ثمة مساعد يضع يده فوق تلك الكومة من الصور، ويبدو أنه كان يحاول أن يحافظ على عدم اضطراب تسلسل ترتيبها، وعلى هذا فقد رفع كارل عنقه فقط، لكي يتطلع عبر المائدة، محاولًا أن يرى إن كانت ثمة صورة أخرى تتداولها الأيدي! ولدهشته العظمى- ولقد بدا ذلك شيئًا لا يمكن تصديقه في البداية- تعرف وسط هؤلاء الذين كانوا يميلون فوق أطباقهم، باستغراق، على وجه يعرفه جيدًا، جياكومو، فنهض في الحال، وأسرع نحوه صائحًا: «جياكومو»!، ونهض جياكومو من على مقعده، خَجِلًا كعادته عندما يفاجأ بشيء، واستدار حول نفسه في المساحة الضيقة بين المقاعد، ومسح فمه بيده، وتهلل جدًّا لرؤية كارل، واقترح على كارل أن يأتي

لكي يجلس إلى جواره، أو يغير هو مكانه بدلًا من ذلك، وكان لديهما الكثير ليخبرا به بعضهما، وعليهما لهذا أن يلتصقا طوال الوقت، ولما لم يكن كارل يريد أن يزعج الآخرين، فقد قال إنه من الأفضل لهما أن يحتفظا بمكانيهما الحاليين الآن، فسرعان ما تنتهي الوجبة، وبعد ذلك بالطبع، سيلتصقان ببعضهما.. إلا أن كارل قد تمهل دقيقة أو دقيقتين، لمجرد أن يتطلع إلى جياكومو.. كم من ذكريات الماضي قد طرأت على ذاكرته! ما الذي حدث للمديرة؟ وماذا تفعل تيريز؟ لم يكن قد طرأ على جياكومو نفسه تغيير يكاد يذكر، ولم تتحقق نبوءة المديرة، بأنه سوف يتحول في خلال ستة شهور إلى رجل أمريكي ناضج، فقد كان رقيق المظهر كما كان من قبل، وكانت وجنتاه بارزتان كما كانتا، على الرغم من انتفاخهما الآن بقطعة كبيرة من اللحم، كان يستخرج منها العظم ببطء، ليضعه في طبقه.. وكما استطاع كارل أن يرى من رباط ذراعه، لم يكن قد قُبل كممثل هو أيضًا، لكن كصبي مصعد، ويبدو أن مسرح أوكلاهوما، كان لديه بالفعل مكان لكل شخص! إلا أن استغراق كارل في التطلع إلى جياكومو، كان قد أبعده طويلًا عن مقعده، وعندما فكر في العودة إلى مكانه، كان مدير المستخدمين قد وصل لحظتها، وصعد فوق أحد المقاعد، وصفق بيديه، وألقى كلمة قصيرة، بينما نهض أغلب الموجودين على أقدامهم، أما هؤلاء الذين ظلوا فوق مقاعدهم، غير راغبين في ترك طعامهم، فقد ظل الآخرون يلكزونهم حتى اضطروا هم أيضًا إلى النهوض.

قال مدير المستخدمين: «أرجو..ـ ورجع كارل في تلك الأثناء إلى مكانه على أطراف أصابعه ـ أن تكونوا قد رضيتم عن استقبالنا لكم، وأن يكون قد أعجبكم ما قدمناه لكم من الطعام، إن الفرقة المجندة، ينبغي لها دائمًا أن يكون لها مطعمها الجيد، وآسف لأننا يجب أن نخلي المائدة الآن؛ لأن القطار الراحل إلى أوكلاهوما، سيتحرك في خلال خمس دقائق، وإنها لرحلة طويلة، أعلم هذا، إلا أنه سيوجد من يعتني بشئونكم في خلالها، عناية تامة، واسمحوا لي الآن بأن أقدم لكم السادة الذين يشرفون على إجراءات انتقالكم، والذين نرجو أن تلتزموا بتنفيذ تعليماتهم».

وصعد رجل قصير نحيل إلى أعلى المقعد، بجوار رئيس المستخدمين، وما كاد يجد الوقت لكي ينحني انحناءة سريعة، حتى شرع يلوح بذراعيه في عصبية لكي يوجههم إلى كيفية تنظيم أنفسهم، وتحركوا نحو المحطة.. إلا أنهم قد تجاهلوه في بداية الأمر، فقد خبط الرجل الذي كان قد ألقى خطبته في بداية تناول الوجبة، المائدة بيده، وبدأ في توجيه الشكر في خطبة طويلة، مع أنه كان يعلم ـ ولم يكن كارل مرتاحًا لتلك الخطبة ـ بأن القطار سيتحرك في خلال خمس دقائق، بل إن لا مبالاة مدير المستخدمين الواضحة لم توقفه أيضًا عن إتمام خطبته، وكان مدير المستخدمين يلقي ببعض التعليمات إلى الموظف المسئول عن الانتقال، بينما كان ذلك الشخص قد أقام خطبته على تمجيد الأخلاق العالية التي يتحلى بها موظفو مسرح أوكلاهوما، وعلى وصف الأطباق التي قدمت على المائدة، ثم راح يطلق أحكامه على كل

شخص اتفق له أن التقى به، ثم انتهى إلى هذا التصريح، مشيرًا إلى الأطباق: «أيها السادة، هذا هو الطريق إلى قلوبنا!»، وضحك الجميع فيما عدا السيد الذي كان الحديث قد وجه إليه أساسًا، ولقد كان في هذا التقرير، كثير من الحقيقة، بجانب ما كان يتضمنه في الوقت نفسه من الهزل.

وقد ترتب على تلك الخطبة نوع من العقاب، فقد كان على الجميع أن يقطعوا الآن الطريق إلى المحطة جريًا، وإن لم يكن ثمة صعوبة في هذا ـ كما لاحظ كارل الآن فقط ـ لأن أحدًا لم يكن يحمل أية أمتعة، وكان الشيء الوحيد الذي كان يمكن تسميته بالأمتعة هو عربة الطفل، التي دفعها الأب أمامه في مقدمة الركب، والتي كانت ترتفع مهتزة إلى أعلى وإلى أسفل بعنف، كما لو لم تكن هناك يد تضغط عليها.. يا لهم من أشخاص معدمون، بائسون اجتمعوا هنا معًا، ثم بأي طيبة استقبلوا هنا، ووجدوا شيئًا من العناية! ولابد أن الموظف المشرف على الرحلة، كان قد أوصى برعايتهم كحبة عينه، فقد أخذ الآن دوره في دفع عربة الطفل، ملوحًا بإحدى يديه لكي يستحث الركب على الإسراع، وكان يستعجل الشاردين في مؤخرة الموكب، ويتجول بين الصفوف وهو يرعى من يعجزون عن الجري السريع، محاولًا أن يوضح لهم بذراعيه اللتين كان يلوح بهما طوال الوقت، كيف يمكنهم أن يسرعوا في الجري بسهولة.

وعندما بلغوا المحطة كان القطار يتأهب للرحيل، وأشار الناس في المحطة بعضهم إلى بعض إلى هؤلاء القادمين، وكان المرء يسمع

صيحات التعجب، من قبيل:

«هل ينتمي كل هؤلاء إلى مسرح أوكلاهوما»!، ويبدو أن المسـرح كـان معروفًا أكثر مما كـان يتصـور كـارل، فهـو لم يكن يهتم اهتمامًـا كبـيرًا بشئون المسرح، وكانت عربة كاملة قد تم حجزها لهم، وبذل المشـرف على الرحلة جهدًا يفوق الجهد الـذي بذلـه حـارس القطـار في إدخـالهم إلى تلك العربـة، ولم يجلس ذلـك المشـرف على مقعـده قبـل أن يفتش على كل ديـوان، ويقـوم ببعض الترتيبـات اللازمـة، وتصـادف أن جلس كارل على مقعد يجاور النافذة، وجلس جياكومو إلى جواره.

وهكذا جلسا ملتصقين ببعضهما، متهللين من أعمـاق قلبيهمـا للرحلـة، تلـك الرحلـة المجهولـة إلى أمريكـا الـتي لا يعرفـان عنهـا شـيئًا على الإطلاق.

وعندما بدء القطار في التحرك.. خارجًا من المحطة، لوحا بأيـديهما من النافذة، وقد تسلى الشبان الذين كـانوا يجلسـون قبالتهمـا بهـذا المنظـر، ولكز بعضهم بعضًا، وضحكوا.

واسـتمرت الرحلـة يـومين وليلـتين، وأدرك كـارل الآن فقـط كم كـانت أمريكا واسعة، وتطلع بلا ملل من خلال النافذة، وحرص جياكومو على التشبث بمكانه إلى جـوار كـارل، حـتى ضـاق بـه الآخـرون الـذين كـانوا يشاركونهما نفس الـديوان، عنـدما أرادوا أن يلعبـوا الـورق، وتنـازلوا لـه طوعًا عن المقعد الآخر المجاور للنافـذة، وشـكرهم كـارل ــ فقـد كـان من الصعب فهم إنجليزية جياكومو ــ وبمرور الوقت، كما يحدث دائمًا

بين رفاق السفر، أصبحوا جميعًا أكثر ودًّا بعضهم مع بعض، على الرغم من أن هذا الود كان أحيانًا عبارة عن مجرد ضوضاء وإزعاج، فكلما كانوا ينحنون، مثلًا، لالتقاط ورقة انزلقت إلى أرضية الديوان، لم يكن يمكنهم أن يقاوموا رغبتهم في أن يقرصوا ساق كارل أو جياكومو بصورة مؤلمة، وكان جياكومو يصرخ دائمًا في دهشة متجددة، كلما حدث ذلك، ويرفع ساقيه إلى أعلى، وحاول كارل في إحدى المرات أن يرفسهم ردًّا على ذلك، إلا أنه قاسى بقية الوقت في صمت.. وكان كل شيء يحدث في ذلك الديوان الصغير، كان يتلاشى أمام عظمة المناظر التي تبدو من خلال النافذة.

وقد انطلق بهم القطار في اليوم الأول عبر سلسلة مرتفعة من الجبال، وكتل ضخمة من الصخور الزرقاء الضاربة إلى السواد، كانت تنحدر انحدارًا يكاد يكون عموديًا على الخط الحديدي، وحتى لو مد المرء عنقه من خلال النافذة، فلم يكن يمكنه أن يرى قممها، ووديان، ضيقة، كئيبة، غير ممهدة، كانت تمتد في أحيان أخرى، حاول أحدهم أن يتتبع بأصبعه، الاتجاه الذي كانت تنتهي عنده، وتتلاشى، وكانت تظهر كذلك أنهار عريضة جبلية، تندفع في أمواج هائلة إلى أعماق سفوح التلال، وعلى سطحها تطفو آلاف من أمواج الزبد، كانت تغوص تحت القناطر، التي كان القطار يندفع فوقها، وقد كانت تلك الأمواج قريبة غاية القرب منهما، حتى إن الرذاذ البارد الذي كان يتناثر منها كان يصفع وجهيهما.

تعقيب

لم يكن مخطوط فرانتس كافكا يحمل عنوانًا، وكان قد اعتاد في أحاديثه أن يشير إلى هذه الرواية، على أنها «روايته الأمريكية»، إلا أنه أطلق عليها ببساطة فيما بعد «العطشجي»، وهو عنوان الفصل الأول الذي نشر منفصلًا عام 1913. وكان كافكا يكتب هذه الرواية في سعادة لا حدّ لها، في الأمسيات، ثم بعد ذلك كانت تستغرقه الكتابة فيها حتى أوقات متأخرة من الليل.

ولم تكن صفحات المخطوط تحتوي، مما يثير الدهشة، إلا على القليل جداًّ من التصحيحات، أو الحذف، وكان كافكا يدرك تمامًا، أن هذه الرواية كانت أكثر كتاباته جميعًا، تفاؤلًا، وأبسطها من حيث التركيب والمزاج الذي كُتبت به، وقد تحدث إلى الكثيرين حول هذه الحقيقة.

وربما كان لي أن أقول في هذا الصدد: إن فرانتس كافكا، كان مغرمًا بقراءة كتب الرحلات، والمذكرات، وإن سيرة حياة فرانكلين، كانت أحد كتبه المفضلة، وكان يحب أن يقرأ منه بعض المقطوعات في صوت مرتفع، وإنه كان يحن دائمًا إلى المساحات الشاسعة، والبلاد النائية، وهو لم يرحل بالفعل إلى أبعد من فرنسا، وإيطاليا، ولهذا فإن براءة خياله، تضفي على هذه الرواية التي تصور مغامرة «كارل روسمان في أمريكا» لونها الغريب.

وقد انقطع كافكا فجأة عن مواصلة كتابة هذه الرواية، فظلت ناقصة.. وقد عرفت مما ذكره لي أن الفصل الناقص عن «مسرح أوكلاهوما

الطبيعي»، وهو فصل كانت بدايته بصفة خاصة تمتع كافكا، حتى لقد اعتاد على أن يقرأه بصوت مرتفع في تأثر بالغ.. كان كافكا ينوي أن يجعله خاتمة للرواية، وكان ينتهي بنوع من التوافق الشاعري الحزين مع الحياة.

وقد اعتاد كافكا أن يشير في غموض إلى أنه في إطار ذلك المسرح «الذي لا حدود له»، كان بطله الصغير سيجد مرة أخرى وظيفة، وسندًا، وسيجد حريته، وبيته، ووالديه، كأنما بشيء من السحر العلوي.

وأن الأجزاء التي تسبق مباشرة هذا الفصل الختامي من الرواية «نهاية الفصل السابع» هي أيضًا ناقصة.

وتوجد قطعتان كبيرتان تتعرضان لخدمة كارل في شقة برونيلدا، إلا أنهما لا تصلان السياق.. وقد كانت الفصول الستة الأولى هي فقط الفصول التي قسمها كافكا، ووضع عناوينها بنفسه.

ماكس برود

بنات آوى وعرب

كنا قد ضربنا خيامنا في الواحة، وقد غفا رفاقي. مـرَّ بي القـوام الشـامخ الأبيض لرجل عربي، كان يتفقد الإبل، ويمضي في طريقه إلى مرقده.

استلقيت على ظهري، فوق العشب، حاولت التماس الكرى، لكن النـوم جفاني. فى البعيـد عـوت بنت آوى، فاقتعـدت الأرض ثانيـة، فجـأة دنـا مني، كأشد ما يكون الدنو، ما كان نائياً، فقد تدفقت بنـات آوى حـولي، وعيونهن تلمع بذلك البريق الأصفر الكئيب، وتعـاود الاختفـاء مجـدداً، وأجسادهن اللدنة تتحرك، بتحفز، وعلى نحو منتظم، كما لو كـان ذلـك يحدث استجابة، لقرقعة سوط.

أقبلت إحـــدى بنـــات آوى من خلفي، مندفعـــة تحت ذراعي مباشـــرة، ضاغطة نفسها باتجاهي، كمـا لـو كـانت بحاجـة إلى أن تلتمس الـدفء مني، ثم وقفت أمامي، وراحت تحدثني وجهاً لوجه على التقريب.

- إنني كـبرى بنـات آوى في كـل البقـاع، ويسـعدني أن ألقـاك هـا هنـا، أخيراً، فقد كنت أوشك أن أفقـد الأمـل، إذ انتظرتـك سـنوات لا تنتهي، وانتظرتك أمي وأمها، وكـل أمهاتنـا، منـذ الأم الأولى لبنـات آوى كافـة، هذا صحيح، صدقني!

قلت: ناسياً في غمار حـديثي إذكـاء جـذوة كـوم الخشـب الجـاثم قـاب قوسين أو أدنى، والذي يمكن استخدامه في طرد بنات آوى بعيداً:

- أمر عجيب! يدهشني أشد الدهشة أن أسمع هذا، فالمصادفة المحضة هي الـتي ألقت بي إلى هنـا من الشـمال البعيـد، كمـا أني أقـوم بجولـة قصيرة فحسب في هذه البلاد، فما الذي تردنه إذن يا بنات آوى؟!

أطبقت حلقة بنات أوى عليّ، كما لو كان قد أثار فيها الجرأة هذا التساؤل، الذي ربما كانت نغمة الود فيه قد تجاوزت ما ينبغي، رحن جميعا يلهثن، وقد فغرن أشداقهن.

أنشأت كبراهن تقول:

- إننا نعرف أنك جئت من الشمال، وهذا هو على وجه الدقة ما نعلق آمالنا عليه، فأنتم معشر الشماليين تتمتعون بذلك الفهم الذي لا نظير له في صفوف العرب، وأصدقك القول إنه ما من شرارة واحدة من الفهم يمكن أن تقدح من صلفهم البارد. إنهم يذبحون الحيوانات، ليصنعوا طعاماً منها، ويزدرون الجيف.

قلت:

- لا ترفعي صوتك هكذا! فهناك عرب يرقدون غير بعيد عنا.

قالت بنت آوى:

- إنك غريب ها هنا حتماً، وإلا لعرفت أنه لم يحدث في تاريخ العالم قط أن خافت بنت آوى من عربي. لماذا ينبغي أن نخشاهم؟ أليس في نفينا بين ظهراني مثل تلك المخلوقات ما يكفي من سوء الطالع؟

قلت:

- ربما، ربما، فمثل هذه الأمور البعيدة إلى هذا الحد لا أجدني مؤهلاً للحكم عليها، ويبدو لي الأمر عراكاً بالغ القدم، وأحسب أنه أمر يجري مجرى الدم، وربما لن ينتهي إلا بسفكه.

- إنك أريب للغاية.

قالتها ابنة آوى العجوز، ورحن جميعهن يلهثن بمزيد من السرعة، فيتدفق الهواء من رئاتهن، على الرغم من أنهن ساكنات في مراضعهن. انبعثت رائحة نتنة من أشداقهن، اضطررت لكي أحتملها إلى أن أصر على أسناني. مضت ابنة آوى تقول:

- إنك أريب للغاية، فما قلته تواً يتفق مع أعرافنا القديمة، لذا فإننا سنلغ في دمائهم، فينتهي النزاع.

قلت بصرامة تفوق ما كنت أقصده:

- آه، لسوف يدافعون عن أنفسهم، ويطلقون النار من بنادقهم عليكن، فتسقطن بالعشرات.

قالت ابنة آوى:

- ها أنت تسيء فهمنا، وتلك خصلة بشرية، يبدو أنها توجد حتى في أقصى الشمال، فنحن لا نقترح قتلهم: إذ ليس بمقدور ماء نهر النيل كله أن يطهرنا من ذلك، بل إن مجرد مرأى لحمهم الحي يجعلنا نولي الأدبار، ساعيات وراء هواء أنقى، إلى الصحراء، التي هي لهذا السبب عينه ملاذنا.

وخفضت بنات آوى الملتفات حولي جميعهن، بما في تلك كثيرات أقبلن لتوهن، أخطامهن بين قوائمهن الأمامية، ورحن يمسحنها ببراثنهن، كما لو كن يحاولن إخفاء شعور غلاب بالاشمئزاز، إلى الحد الذي دفني إلى الرغبة في الوثوب فوق رؤوسهن والهرب بعيداً.

- ما الذي تقترحن القيام به إذن؟

قلتها متسائلاً، وأنا أحاول الوقوف، لكني لم أستطع النهوض؛ فقد أطبقت ابنتا آوى فتيتان أنيابهما على معطفي وقميصي.

أوضحت ابنة آوى العجوز الأمر، بجدية تامة، بقولها:

- إنهما وصيفتاك، خصصتا من أجلك، تكريماً لك.

صحت، متلفتا تارة نحو ابنة آوى العجوز، وتارة نحو بنتي آوى اليافعتين:

- لابد لهما من تركي وشأني!

قالت ابنة آوى العجوز:

- ستفعلان هذا بالطبع، بما أن تلك هي رغبتك، لكن ذلك سيستغرق بعض الوقت، ذلك أنهما أحكمتا إطباق أنيابهما، كما هي عادتنا، ويتعين عليهما أن ترفعا أشداقهما قليلًا قليلًا.

وفى غضون ذلك أصفع إلى ملتمسنا:

قلت:

- لم يجعلني تصرفكن أميل إلى هذا تماماً.

قالت، وقد لجأت إلى الكآبة الطبيعية في صوتها:

- لا تأخذ علينا افتقادنا للدماثة، فنحن مخلوقات بائسة، لا حول لنا إلا بأنيابنا وكل ما نريد إتيانه، سواء أكان شيئاً طيباً أم سيئاً، نقوم به مستخدمات أنيابنا.

تساءلت، دون أن تسكن ثائرتي كثيراً:

- طيب، ما الذي تردنه؟

صاحت، وقد راحت بنات آوى تعوين معاً، على نحو ناء، بدا الأمر معه كما لو كن يعزفن لحناً متسق الأنغام.

- سيدي، سيدي، إننا نريدك أن تنهي هذا العراك الذي يقسم العالم، فأنت بالضبط الرجل الذي تنبأ أسلافنا بأنه سيولد للقيام بهذه المهمة، ونحن لا نريد بعد اليوم أن يكون العرب مصدر ضيق لنا، نريد مجالاً لالتقاط الأنفاس، أفقا تم تطهيره منهم، لا مزيد من ثغاء الخراف التي يذبحها عربي، أن ينفق كل حيوان نفوقاً طبيعياً، ولا تدخل إلا بعد أن نستنزف الجثة ونلعق عظامها عقب أن نسلبها اللحم. حياة نظيفة فالنظافة هي كل ما نريد.

عندئذ غرقن جميعا في النواح والبكاء، مضت كبراهن قائلة:

- كيف تتحمل الحياة في مثل هذا العالم، أنت يا صاحب القلب النبيل والنفس المرهفة، قذارة بياضهم، وقذارة سوادهم، وفظاعة لحاهم،

ومرأى محاجر أعينهم يدفع المرء إلى الرغبة في البصق، وحينما يرفعون ذراعا تتثاءب ظلمة الجحيم في آباطهم، ولذا يا سيدي العزيز بيديك القوتين جز أعناقهم بهذا المقص!

واستجابة لإيماءة من رأسها، أقبلت إحدى بنات آوى مسرعة، وهي تحمل مقص حياكة صغير، كساه صدأ قديم يتدلى من ناب في فكها الأعلى.

صاح القائد العربي لقافلتنا، الذي كان قد زحف تحت الريح نحونا، وراح الآن يفرقع بسوطه الهائل:

- ها هو المقص أخيراً، وقد حان وقت التوقف!

سارعت بنات آوى بالهرب، لكنهن تجمعن متقاربات على بعد مسافة محددة، وقد انضمت إحداهن إلى الأخرى، فتصلبن على نحو بدون معه كما لو كان قد ضمهن وهج مستنقعي متضائل في طية واحدة صغيرة.

قال العربي، ضاحكاً، بقدر ما يسمح له تحفظ أبناء جلدته بالمرج:

- هكذا فقد دعيت لشهود هذه التسلية أيضا أيها السيد!

تساءلت:

- إذن فإننا على علم بما تسعى إليه هذه الحيوانات.

قال:

- بالطبع فهو أمر معروف للكافة، وطالما بقى العرب على قيد الوجود فإن هذا المقص سيجوب الصحراء، وسيمضي معنا إلى آخر أيامنا. وقد عرض على كل أوروبي للقيام بالعمل العظيم، وكل أوروبي هو بالضبط الرجل الذي أختاره القدر لهن، إن أشد الآمال جنونا هي محط تعلقهن، هاته المخلوقات الحيوانية، وهن لسن الا حمقاوات، شديدات الحمق، ذلك هو سبب حبنا لهن، فهن كلابنا ويفضلهن خير كلابكم، الآن راقب هذا الأمر، لقد نفق بعير ليلة أمس، وقد أمرت به فأحضر إلى هنا.

أقبل أربعة رجال بجيفة ثقيلة، وألقوا بها أمامنا، فلم تكد تمس الأرض حتى عوت بنات آوى، وكما لو كن قد جذبن بحبال على نحو لا سبيل معه إلى المقاومة راحت كل منهن تتقدم باضطراب إلى الأمام، وزحفن على بطن البعير النافق. كن قد نسين العرب، نسين مقتهن لهم، وسحرهن الحضور الذي يجب ما عداه والنابع من الجيفة كريهة الرائحة. ارتمت إحداهن على عنق البعير، غرست أنيابها مباشرة في أحد عروقه. وشأن مضخة صغيرة حادة تدفع بتصميم يعادل اليأس نحو إخماد نار تتلظى، التوت كل عضلة في جسم ابنة آوى، وكدحت لإنجاز هذه المهمة. في لمح البصر كن قد اعتلين الجيفة جميعا، رحن يعملن أنيابهن فيها، وقد تحولن إلى جبل يعلوها.

عمل قائد القافلة سوطه الباتر، على نحو متقاطع، فوق ظهورهن فرفعن رؤوسهن، وقد أخذ بهن الخدر من فرط النشوة، رأين العرب فوق رؤوسهن، أحسسن لسع السوط على أخطامهن، قفزن وتراجعن قليلاً،

لكن دم البعير كـان متراكمـاً بالفعـل في بحـيرات، وقـد ارتفعت رائحته زاعقـة، وبقـرت الجيفـة في مواضـع عديـدة، فلم يسـتطعن مقاومتهـا، وأطبقن عليهـا من جديـد، ومـرة أخـرى رفـع القائـد ذراعـه بالسـوط، فأمسكت به، وحلت دون أن يهوي بالسوط.

قال:

- إنـك على حـق أيهـا السـيد، لسـوف نـتركهن عاكفـات على عملهن، إضـافة إلى هـذا فقـد حـان وقت الرحيـل. طيب. لقـد رأيتهن، أنهن مخلوقات عجيبة. ألسن كذلك؟ ولشد ما يمقتننا!

رسائل إلى ميلينا

تقديم

في رسائل كافكا إلى ميلينا، كان كافكا مشغولًا انشغالًا بالغًا بنقل أعمق مشاعره إلى إنسان آخر، وكانت ميلينا، التي كانت قد قامت بترجمة بعض قصصه من اللغة الألمانية، التي كان يكتب بها، إلى اللغة التشيكية، امرأة مرموقة لتميزها بميزات عدة ليس من بينها أنها المرأة التي أحبها كافكا. وكان الوسط الذي تتحرك في إطاره ككاتبة صحفية تحرر أبواب «الموضة» إلى جانب كتاباتها الإبداعية القصصية، وترجماتها، وهو الوسط الأدبي في ڤيينا في السنوات التالية مباشرة لعام 1918، ليس هو الجو الذي يمكنها أن تتآلف معه بطبعها القلق، ذلك الذي أشبه ما يكون بقلق دوستويفسكي، وإن يكن عندها قلق يتجاوز في حدته قلق دوستويفسكي نفسه إلى أبعد مدى، وعلى أوسع نطاق. وكانت ميلينا عندما التقت بكافكا امرأة متزوجة، أما كافكا فكانت قد استغرقته بالفعل علاقته ب (دورا ديمانت). لهذا لم يكن لتعلقهما المشبوب أن يبلغ أية غاية سعيدة، بل لقد بدأ هذا الافتتان العاشق يتحطم بالفعل بعد فترة لم تكد تبلغ العام.

أما الرسائل التي نتجت عن هذا التعلق فهي رسائله إليها؛ فقد فقدت رسائلها هي إليه، وهذه خسارة بالغة نتج عنها بتر هذه النجوى الغرامية النادرة. ليست رسائل كافكا هذه إلى حبيبته ميلينا، رسائل مؤثرة غاية

التأثير في ذاتها فحسب؛ بل هي فوق هذا رسائل تتجاوز المتوقع بين كاتب فنان كبير، ومعشوقة فنانة مثقفة قوية الشخصية، متمردة، مضطربة، بالغة الجاذبية؛ ذلك أننا يسعنا من قراءة رسائله هذه بالذات أن نلتقط لمحة من امتداد شخصية كافكا، لا يتاح لنا أن نحصل عليها من قراءتنا لكتاباته الإبداعية التي تخلط الواقع بالحلم، لتنتهي بهذا الامتزاج إلى إنجاز أمثولات أسطورية معلقة في عالم الحياد المتأمل، ومقيدة، مكتوفة في قالب الشكل الحديث المتفرد الذي انفرد به، كما لا يمكن أيضًا الخروج بمثل هذه اللمحة لإمكانيات روحه للمعايشة في «الواقع» والافتتان به إلى هذا الحد، رغم أن هذه الرسائل، مع هذا، على امتدادها كلها من كل أشكال الحلم وكل الصيغ الأسطورية، وتثقلها المفارقات التي تفاجئنا بالدهشة البالغة، لغرابة وواقعية تشكيلها الفني الذي ينصهر فيه الحلم مع الواقع، يستغرق كل الاستغراق في معايشة عشقه لميلينا، ويتجاوزه وهو يخاطبها في نفسها في وقت معًا، فهو (يستخدم) تشبيه (الحفرة) في الغابة كـ (مكان) في إحدى الرسائل؛ ثم يعود ليستخدمه كـ (حدث) في رسالة أخرى، أو كـ (موقف درامي)، ولا يمكننا أن نحصل على هذه اللمحة من قراءة (يومياته) التي كتبها بكل كثافة رؤيته على مدى السنوات من(1910– ـ 1923)، ولا من رسالته الشهيرة (إلى الأب)، أو رسائل رحلاته، ورسائله إلى الأسرة والأصدقاء؛ ذلك أن كافكا يتبدى لنا في رسائله هذه إلى «ميلينا» إنسانًا عذبًا، قد زايله توتره مؤقتًا، يتبدى عاشقًا قد استرخى، في غير انتباه، إلى حين، لآلهات النقمة اللائي يطاردنه، كما يقول أحد نقاده، وهو

(تشارلز أوسبورن) في كتابه (كافكا) في سلسة «كُتَّاب ونقاد» حيث يقول:

من المسلم به أننا نستقبل هذه الصورة فقط عند بداية المراسلة بينهما، عندما يقول كافكا في رسالته إليها من (ميران):

«...إنني أعيش هنا في خير حال، ولا يطيق الجسد الفاني مزيدًا من العناية، وتطل شرفة غرفتي على حديقة يحيطها سور، تزدهر فيها الشجيرات المزهرة. إن النباتات هنا غريبة؛ فالزهور تتفتح في بطء أمام شرفتي، في جو مثل جو براغ تتجمد فيه بالفعل برك المياه، وتتعرض شرفة الغرفة كذلك لأشعة الشمس، أو تتعرض للسماء التي تحجبها السحب إلى ما لا نهاية، كما هو حالها منذ ما يقرب من الأسبوع؛ وتزورني في الغرفة السحالي، والطيور، وأنواع متباينة من الكائنات؛ تزورني أزواجًا أزواجًا. إنني أتوق في لهفة بالغة إلى أن تكوني هنا في ميران......».

ويقف (أوسبورن) في اقتباسه من هذه الرسالة عند (وتزورني في الغرفة السحالي، والطيور، وأنواع متنافرة من الكائنات)، وكان ينبغي له أن يضيف الجملة التالية الدالة، والتي تمثل نتيجة محتومة للمقدمة التي تهيئ المسرح، وتمهد للتشوف؛ «تزورني أزواجًا أزواجًا: إنني أتوق في لهفة بالغة إلى أن تكوني هنا في ميران، لقد كتبت لي أخيرًا عن عدم قدرتك على التنفس، وفيما كتبته تتجاور الصورة مع المعنى إلى حد بعيد، وفي ميران قد تخف وطأتهما بعض الشيء»..

مع أرق تحياتي.

ثم يواصل (أوسبورن) فيقول:

وبينما تتطور علاقتهما، تبدأ دوافع كافكا المهدمة للذات؛ تبدأ دوافعه هذه في نوبة جلد للذات، فتؤكد وجودها بهذا، لتصبح رسائله الغرامية هذه عندئذ أشبه ما تكون بفقرات (يومياته) المحمومة:

« السبب الذي يجعلني أتساءل عما إذا كنت لن تخافي هو أن الشخص الذي تكتبين عنه ليس له وجود، وإن كان الأخير يزيد على الأول في انعدام وجوده، ولم يحدث أن كان له وجود؛ فذاك الذي في ڤيينا لم يكن له وجود، ولا كان لذلك الذي في جموند وجود؛ وإن كان الأخير يزيد على الأول في انعدام وجوده، وستحل عليه اللعنة علاوة على ذلك، وأن تعلمي بهذا لهو أمر مهم؛ لأنه لو كان علينا أن نصل إلى اتفاق فيما بيننا فسوف يعود ذلك الشخص الذي في ڤيينا، أو حتى ذلك الذي من جموند إلى التواجد بكل البراءة، وكأن شيئًا لم يحدث، على حين أن الشخص الحقيقي في أسفل، ذلك المجهول للكل ولنفسه، والذي يقل وجوده حتى عن وجود الآخرين. فلماذا لا يأتي ويظهر نفسه؟ ـ سوف يرفع يده في تهديد، ويحطم مرة أخرة كل شيء».

وعندما تذكر ميلينا (يواصل أوسبورن التعليق) أنها كانت قد أصيبت بالأنفلونزا، فإن طريقة كافكا النموذجية في الربط ذهنيًّا بين هذه

المعلومة وبين حالته الشخصية تؤدي به إلى أن يكتب لها:

«... وعلى هذا فقد أصبت بالأنفلونزا، حسنًا، فليس لي على الأقل أن ألوم نفسي على تمضية وقت مرح هنا بصفة خاصة، أحيانًا لا أفهم كيف اكتشف البشر فكرة «البهجة» ربما كان قد تم تقديرها على أساس أنها نقيض للحزن».

ـ والحياة (يواصل أوسبورن) التي كان قد ظنّا في وقت ما أن بإمكانهما أن يعيشاها معًا، اتضح لهما أنها كانت وهمًا لا يمكن تحققه؛ وأخذت الرسائل تقل، ويتباعد تتابعها، أصبحت أيضًا أكثر تحفظًا؛ ويكتب لها كافكا قائلًا عند بداية هذه الرحلة الأخيرة المؤسية:

«لا يا ميلينا، إن إمكانية الحياة المشتركة التي ظننا أننا قد عشناها في ڤيينا، ليست في الإمكان، تحت أي شرط، ولا هي حتى كان قد أمكن وجودها وقتذاك. لقد تطلعت من فوق حافة سياجي الذي يفصلني، تشبثت بقمة ذلك السياج بيدي، ثم.... سقطت متراجعًا بأيد جريحة متسلخة».

وتكشف الرسائل الأخيرة عن إلحاح متزايد لفقرات الوعي بالذات، والشعور الذاتي، وتحليل الذات، التي يتتابع ورودها بصورة متصلة، ولعلمه بأن (وقته) كان محدودًا، فقد كان مهتمًّا بتقرير طبيعته بأقصى ما يمكن من الوضوح. تتدافع هذه الفقرات خلال معاناته من الإنهاك العصبي (النوراستينيا): «ولا ثانية هدوء واحدة قد ظفرت بها، لم أنل شيئًا... لا يمكنني أن أحمل العالم على كتفيّ، فأنا لا أكاد أحتمل عبء

معطفي الشتوي فوقهما». وتنتهي هذه الفقرات إلى قبول أو تقبل صافٍ، حزين، لحالته المعذبة، ليقول في رسالته التي يشير فيها مرة أخرى إلى (الحفرة) «جرابن» التي كان يتكوم في جوفها (كحيوان في ظلام الغابة) عندما مرت به ميلينا في إشراقها، فيقول:

قبل أن يخرج للنزهة، لم يكن عليه فحسب أن يغتسل، وأن يمشط شعره وما إلى ذلك ـ وهذا وحده أمر مرهق بما فيه الكفاية ـ بل عليه أيضًا (بما أنه يفتقر في كل مرة إلى ما هو ضروري لنزهته)، أن يخيط ملابسه كذلك، وأن يصنع حذاءه، وأن يقوم بتصنيع قبعته، وأن ينحت عصاه التي يتوكأ عليها في سيره، وهكذا.

وبالطبع لا يكون قادرًا على أن يفعل كل هذه الأشياء على نحو جيد جدًّا؛ فلعلها لهذا أن تتماسك كلها إلى بعضها البعض على امتداد بضعة شوارع قليلة، لكنه عندما يبلغ ـ الحفرة ـ (جرابن) مثلًا؛ فإنها تتساقط عنه جميعًا كل منها في ناحية، ليقف هو عاريًا هنالك وسط الخِرَق والأسمال (إشارة إلى حالته في الحفرة ـ في الغابة ـ فهو يختار شارعًا موجودًا بالفعل له اسمه الدال على حاله وسط خرقه وأسماله في ظلمة الغابة، على نقيض إشراق ميلينا وتألقها عندما مرت به في حالته هذه (أو بهذه المرحلة من حياته) و.... «يجيء الآن دور العذاب في جريه راجعًا إلى (ساحة ألتشتايتر)، وربما يندفع في نهاية الشوط وسط غوغاء التأموا في حلقة شرك نصبوه لليهود في حارة «آيزن»).

ـ لا تسيئي فهمي يا ميلينا، فأنا لا أقول بهذا إن هـذا الرجـل قـد ضـاع، لا، أبـدًا، لكنـه قـد ضـاع إن هـو ذهب إلى (جـرابن)ـ الحفـرةـ حيث يجلب الخزي على نفسه، والعار على العالم.

أما «إيريش هيللر» فيؤكد في كتابه (فرانتس كافكا) في سلسلة (أساتذة الأدب الحديث)، على نفس المعنى الـذي أشـار إليـه (أوسـبورن) حيث يقـول في سـياق دراسـته بعنـوان (الـزواج أم الأدب) الـتي تنـاول فيهـا رسائل كافكا إلى خطيبته (فيليسه باور)، في إشارة إلى رسائله أيضًـا إلى ميلينا بقوله:

«في نهاية يناير 1922 تساءل كافكا، وكان قد لجأ إلى منتجع «شبندله» في بوهيميا، كيف يمكن أن يبدو له الحال لو أن ميلينا، تلك المرأة التي كان عشْقها قد سيطر على حياته عندئذ، قد صحبته إلى هناك».

كان من الممكن بالطبع أن يمنحه ذلك قدرًا من البهجـة، لكنـه كـان قـد رآه أمـرًا مزعجًـا: «فسـوف أكـون قـد ألقيت بنفسـي في خضـم عـالم لا أحتمل العيش فيـه»، ثم ينتهي إلى أنـه «لا يبقى أمامـه ـ فقـط سـوى ـ حـل اللغـز الـذي يتمثـل في السـبب في سـعادتي لأربعـة عشـر يومًـا في مارينبـاد». وأيًّا كـان حـل اللغـز، فـإن إجابـة مـا، طبقًـا لإحـدى فقـرات (يومياته) في مارينباد، هوـ أنه لم يكن سعيدًا كل تلـك السـعادة، أو أن سـعادته على الأقـل لم تسـتمر أسـبوعين، وأيًّا كـان مـا أحسـه بهـذا الخصوص قبل سنوات، فهو يقول في هذا التـوقيت (من عـام 1922)، إن «الوقت» كان قـد فاتـه طـويلًا، فلنـدع الآخـرين يحبـون أو يمارسـون

الحب، أما بالنسبه له، فقد أصبح هذا أمرًا غير وارد (الآن) بالمرة. «إنني أبعد عن هذا غاية البعد، إنني منفي طريد بعيداً عن هذا».

ولهذا كان قد كتب إلى ميلينا يقول:

«لا أحد يتغنى بمثل تلك الأصوات الصافية، كما يتغنى هؤلاء الذين يعيشون في عمق أغوار الجحيم، وإن ما نحسبه غناء الملائكة أنفسهم إنما هو غناؤهم».

ويضيف «إيريش هيللر» قوله:

«وكما أن تمثيل (هاملت) لم يكن سوى شفرة تقدم تأثيرًا مسرحيًّا لموقف يضطر فيه (الشخص الذي في الداخل) إلى أن يتحول إلى شخص آخر بمجرد أن يصبح فعالًا في المحيط الخارجي؛ فكذلك كان أسلوب كافكا في (الخداع بلا مخادعة) وهي صيغة أكثر رقة لترجمة العبارة التي شخَّص بها كافكا نفسه، عندما وصف خطوبته الأولى في يومياته (23 يوليو 1914) بأن «فعله كان فعلًا شيطانيًّا في براءتي» ..... كما يتهم (الأب) ابنه في قصة (الحكم) «طفل بريء، هذا ما كنته أنت حقًّا، لكن ما هو حق أكثر منه هو أنك كنت كائنًا بشريًّا شيطانيًّا».

ـ فهذا هو السؤال الذي توجهه رسائل كافكا الغرامية ـ وهي رسائل تختلف كل الاختلاف في (شكلها) عن أية رسائل غرامية في الأدب كله ـ وتوجه رسائله إلى ميلينا هذا السؤال في إلحاح مزعج؛ فما هي طبيعة العلاقة بينه وبين الأشياء التي كان قد قبلها عرفيًّا بشكل ما،

بتعذيبه لذاته، وبميل شبه ديني؛ تلك (الأشياء) التي تؤلف في رؤيته، واقع العالم الخارجي.

وهل كانت حياته الداخلية تنتمي إلى ذلك العالم الخارجي على نحو (طبيعي)؟ أي على نحو قابل للوضوح، أو على نحو يسمح بإمكانية للتعبير عنه في وضوح، أو كان التعبير عنه ممكنًا أصلًا.

لم يكن ذلك التعبير الواضح ممكنًا من خلال (فنّه) وحده، ولا كان حتى ممكنًا عن طريق فنه أن يتواجد ولو في صيغة يكتنفها شكل ما من أشكال الإبهام على نحو ما، ذلك أن فنه هو فن بالغ الحدة، بالغ الإزعاج في إبهامه، يتباين عن كل أشكال الكتابة الأدبية المعروفة.

وحتى (ميلينا) موضع (عشقه) على امتداد تلك الفترة المحدودة، مع كونها أكثر وعيًا، وأكثر ثقافة، وأكثر وضوحًا وتحددًا من خطيبته (فيليسه)، وأكثر منها عمقًا في عنف عاطفتها المشبوبة الملتهبة، وفي نجاحها في إثارة عواطفه الكامنة، مع أنها لم تكن تنتظر، فوق هذا كله، أن يتزوجها، كانت متآلفة غاية الألفة مع هذه الأسئلة، ومتوافقة مع إجاباته النافية السلبية، ذلك أنها كانت تعرف أن (جوهر وجوده) هو (الخوف)، وهو أيضًا ذلك القلق الذي يثور كأنه استنشاق لسموم متصاعدة من تلك (الفجوة) بين «ذات» وبين «عالم».

... فهل لنا أن نتساءل: مثل مَنْ مِن أسلافه العشاق، وعلى درب مَنْ مِن كهنة ذلك المعبد المسمى ب «المرأة» تراه قد سار؟ ومن هو سلفه الأقرب في نوبة العشق اللامعقولة هذه التي انتابته (روحيًّا) وهو على

حافة الموت، والتي استبدل بها، وهو «يحتضر» بالفعل «نوبة عشق» من نوع آخر مع (دورا) في أيامه الأخيرة، في المصحة التي قضى نحبه بها، وإن كان قد حول هذه النوبة الروحية مثل فعل عاشق لا معقول آخر سبقه، إلى صفحات فن أو عشق، مكتوبة نابضة!

فلنعد إلى رسالة دالة من بين رسائله هذه، لنستدل بها، وكنت قد قمت بترجمة شذرة أيضًا من بين ما ترجمت من كتاباته القصيرة بعنوان «إبراهام»، تقدم هي أيضًا قصة (الفداء) اللامعقول في قصة «إبراهيم» الخليل، ومفارقات الأمر الموجه إليه بتقريب (ابنه) (قربانًا ذبيحًا) بالسكين، ثم افتدائه بالكبش أو...... بالكتابة في حالة كافكا، وسلفه العاشق الفيلسوف (سورين كيركجارد) الدانمركي....

ففي (رسالة) أحد أيام الخميس يتحدث كافكا عن (خوف ورعدة) الأنبياء عند سماعهم لنداءات ونذر، ويتحدث إلى ميلينا عن جدارتهم بسماع تلك الأصوات، هذه الجدارة التي قد يكتنفها الشك في أحيان....

ويبدو تأثره (وإن لم يكن تأثرًا مباشرًا) بمدخل رسالة (الخوف والرعدة) «الفلسفية» هذه المرة والتي كان قد كتبها (سورين كيركجارد) بديلًا عن الكبش الذي افتدى به معشوقته (ريچينا) (حتى الاسم وموسيقاه هي أيضًا)، ورأى فيها وحيدته التي افتداها برسالة فلسفية (كانت تستمتع بقراءتها مع زوجها بصوت عال دون أن تدري

مدى المفارقة) عن «العبث» واللامعقول في قصة (إبراهيم وإسحق) «في الكتاب المقدس» و(إبراهيم وإسماعيل) في القرآن الكريم....

و... «لكي يلزم المرء جانب الأمان من الأفضل له أن ينكر مقدمًا، وبشدة تلك الأصوات.....».

... تختلف كل رسالة عن الرسالة التي تليها وترتعد أكثر من الردّ....

كان كافكا قد قرأ كتابات (كيركجارد) في عام 1918، أي أن قراءاته له كانت ما تزال حية في (وعيه) أو في (لا وعيه)، في زمن نوبات عشق حياته الأخيرة تلك...

وقرأت، وأعود مرارًا إلى قراءة (الخوف والرعدة) التي ارتاد فيها «كيركجارد» مواجهة قضية اللامعقول أو (العبث)، مع رسالته الفلسفية المكملة لها (الموت مرضًا) التي واجه فيها قضية (اليأس) في طبعة «أنكور» 1954، في ترجمة (وولتر لوري)، وكنت قد علمت أن مترجم الفلسفة والصديق الذي عرفته في أواخر أيامه، فاشتدت فجيعتنا بفقده، المثقف الكبير «فؤاد كامل» المدير العام الأسبق لإذاعة البرنامج الثاني كان قد ترجم هذه الرسالة الفلسفية بعنوان (الخوف والرعدة) في طبعة يبدو أنها كانت (محدودة) لأنني لم أعثر عليها؛ سمعت فقط بعنوانها فاستخدمته هنا اعتزازًا (الخوف والرعدة). وكان (فؤاد كامل) دقيقًا في تعبيره، وموهوبًا وقديرًا في ترجماته الفلسفية والأدبية، فطالما عرف قراء العربية أو «سمعوا» عن هذا العمل ل (كيركجارد) باسم (الخوف والرعشة).

وكانت أعمال كافكا في الحقيقة تضيف إلى الثقافة اليهودية لأوروبا الوسطى أو تشكلها في قالبه المتحور المظلم والمستحيل، ليصبح بذلك (رائيًا) للأعماق القديمة يكتشفها، ويحاكيها بقوة تتجاوز المعقول، كما يفعل كل مبدع خلاق وهو يعيد صياغة الأشكال الأصلية للاشعور.

وكان كافكا قد تعلق في إصرار ومثابرة بمسرح (اليديش) وهي لغة يهود أوروبا الوسطى والاتحاد السوفيتي السابق، وكان قد (حلم) أيضًا فيما حلم بفلسطين؛ كي يستعيد نقاء حياة نباتية منعزلة، وحلم (بقصر في إسبانيا)، حيث كان يعيش أحد أعمامه حياة باذخة، وإذا كان قد رأى أن «الصهيونية» هي «تجديد» معنوي، فليس ثمة ما يثبت أنه قد شارك فيها بالفعل بنفسه، وربما كان (المرض) هو ما أسرع بمنعه من الانخراط فيها بدوره.

لقد عاش كافكا سجينًا لجذوره اليهودية، مرتبطًا بالخطيئة والفشل والألم والموت، حالمًا معذبًا في (هبوطه إلى القوى المظلمة)؛ كان كاتبًا يحترف تعذيب نفسه (قربانًا) للإبداع.

وكانت تتملكه (الرغبة في الموت) كما كتبت عنه ميلينا نفسها؛ وقد أوضحت «يانا تشيرنا» (ابنة ميلينا) أخيرًا في كتابها عن أمها بعنوان (حياة ميلينا من براغ إلى ڤيينا) (طبعة مارن سل 1988)، تفكك أوروبا الوسطى فعليًّا، وأشارت إلى عدوى الماركسية التي كانت قد أصابت

أمها (ميلينا)، الذكية المستقلة، بتأثير «كوخ»، الذي أعقب كافكا في تأثيره عليها، قبل أن تتكفل النازية بأمر الماركسية في تلك البلاد.

وكان كافكا قد رأى بنفسه (في يومياته) على أنه («صيد» يُشوى على السيخ فوق النار، مهيئًا للطهي والتقطيع... كان قد رأى نفسه «وسط هذه النيران» قطعة غريبة من اللحم).

ومع ذلك، لم يكن (التمساح الصغير) كما أطلق عليه أحد مدرسيه، يفتقر إلى الأسنان والأنياب، وإن كان يدخر أقوى قدراته على (النهش) لإنجازات أخرى...

كان يعمل «بضراوة ساحرة، تدعو للغيظ، وتثير الشفقة» مستهدفًا أن يجثو الآخرون عند قدميه، وكان يحتمي خلف درع من السخرية، محركًا من عمق (جحره) «قرون استشعاره» تحت أنف «والده» (الذي كان يمثل له تجسيداً لكل أشكال السيطرة والتسلط).....

..... وانتهى الحب المستحيل، ولم تبق منه سوى آثار (نبش أظافره المتشنجة)، في (هكذا تحدث إليَّ «جوستاف يانوش»)، ولنا أن نتساءل، مع تسليمنا بغرابة أطواره، هل كان حقًّا قد طلب جادًّا من (ماكس برود) أن يحرق مخطوطات كل أعماله، إشعالًا لنيران الندم تحت قدميه، بما أنه لم يكن له سوى أن يهدم أو يخون.

... أليست هذه (قضية) أخرى؛.... بلا قضاة؟

... ولما لم يكن هناك (ضحية) أخرى غيرنا نحن قراءه، فلنتأمل هذا الجزء الهادئ البديع.... فنمتع أنفسنا بمتعته في... الكتابة.

و.... قد سبق أن نشرت ترجمتي لرسائل كافكا هذه إلى ميلينا في جريدة (المساء) بعنوان (رسائل إلى ميلينا ـ فرانتس كافكا ـ ترجمة ورسوم....) في حلقات يومية متصلة بلغت (115) حلقة، بدءًا من 14/7/1978 وحتى 8/11/1978، ومصحوبة برسومي في كل حلقة من حلقاتها، لأهم الشخصيات الأدبية الواردة بها (بالإضافة إلى رسوم لأفراد أسرة كافكا)، وكنت قد أنجزت في نهاية عام 1973 بعد أن فرغت من إتمام هذه الترجمة كاملة (فيما عدا مسودات لعدد من الرسائل، راجعت ترجمتها أخيرًا) لوحتين بألوان الجواش مع الفحم (بورتريه لكل من ميلينا ييزينسكا ـ بولاك، و«دورا ديمانت») عن صور تضمنها (مع الكثير غيرها) كتاب (كافكا، بقلمه) ل (كلاوس ڤاجنباخ)...

الدسوقي فهمي

القسم الأول

«كتابة الرسائل... معناها أن يتجرد المرء أمام الأشباح. وهـو مـا تنتظـره تلك الأشـباح في شـراهة. ولا تبلـغ القبلات المكتوبـة غايتهـا، ذلـك أن الأشباح تشربها في الطريق»

(كافكا إلى ميلينا)

عرف فرانتس كافكا، (ميلينا ييزينسكا Milena Jesenska) في بداية الأمر باعتبارها مترجمة بواكير أعماله القصيرة إلي اللغة التشيكية، ولعل مآل هذا التعرف إلى علاقة عاطفية، قد تلا ذلك في رسائله من (ميران) في عام 1920 فلم تكن بالفعل سوى لحظة ـ هي تلك اللحظة التي تحقق فيها (كافكا) من أنه ليس حرًّا في اتخاذ قراراته. فلم يكن له أن يعود من (ميران) إلى (براغ) عن طريق (ميونيخ) أو عن أي طريق آخر، كما لم يسعه أن يزور أحد ينابيع المياه المعدنية في (بوهيميا)، بل كان عليه بدلًا من ذلك أن يرحل عن طريق (ڤيينا) ـ لأن (ميلينا) التي كانت تعيش في تلك المدينة كزوجة تنهار حياتها الزوجية شيئًا فشيئًا، كانت قد طلبت منه ذلك، ولم يكن وضع (كافكا) بالفعل مختلفًا عن وضعها، فلم يكن حرًّا هو أيضًا، ذلك أن خطيبته كانت تنتظره في براغ، وكانت تلك الخطيبة تتطلع إلى إتمام القران بأسرع ما يمكن، رغم أن أملها في تحقق ذلك لم يكن يعدو أمل خطيبته السابقة، تلك التي نعرفها فقط باسم (فتاة برلين) وفي كلتا المرتين ـ أو ربما في المرات الثلاث ـ فقد اتضح أنه كان قد خطب فتاة منهما مرتين ـ يبدو أن فسخ الخطبة قد سبب أزمة خطيرة في حياة كل من الفتاتين.

وبدا من ناحية أخرى أن انفصال (ميلينا) البطيء عن زوجها، كان مقدرًا له أن يتم دون أية أزمات، كما حدث بالفعل بعد بضع سنوات.

وتكشف (يوميات كافكا) عمق هذه العلاقة، فاسمها، أو الإشارات التي لا شك في أنها تشير إلى (ميلينا)، تتكرر المرة بعد المرة خلال

عـامي 1921ـ 1922 وقـد بـدأت الإشـارة إليهـا لأول مـرة في أكتـوبر 1921، عندما أشـار (كافكـا) إلى أنـه قـد أعطى (م) يومياتـه كلهـا لكي تقرأها، وأنه بهذا يكشـف أمامهـا في الحقيقـة، قلبـه وضـميره. وفي أول ديسـمبر يشـير إلى أنهـا قـد اتصلت بـه تليفونيًّا أربـع مـرات (في منـزل والديه فيمـا يبـدو)، وإنهـا على وشـك الرحيـل (أهـدأ أربعـة أيـام حافلـة بالعذاب)، ويضيف:

(...إنه طريق طويل يبدأ من حالة اللامبالاة هذه، لينتهي إلى النقطة الـتي عندها سيسبب لي رحيلها أسفًا لا حد له، الأسف، وأعترف بهـذا، ليس هو أقصى الشر)، وفي اليوم التالي: (دائمًا «م» أو ليست «م» لكن مجـرد مبـدأ، ضـوء في الظلام) وفي 18 ينـاير 1922: (مـا الـذي فعلتـه بهبـة الجنس الـتي وهبت لـك؟ لقـد كـانت فشـلًا، أو أن هـذا هـو كـل مـا سـيقولونه في النهايـة. لكن ربمـا نجحت في يسـر.... «م» على حـق، إن الخوف معناه التعاسة).. وفي اليـوم التـالي يظهـر في اليوميـات بوضـوح مسودة رسـالة لعلـه لم يرسـلها إلى «ميلينـا» أو لعـل «ميلينـا» لم نحتفـظ بها: «بسبب عدد من الإشارات العارضـة الـتي أخجـل من ذكرهـا، كـان انطباعي بأن زياراتك الحالية كـانت رقيقـة حقًّا، ونبيلـة، لكنهـا ترهقـك إلى حـد مـا على الـرغم من ذلـك، وهي على نحـو مـا مفروضـة أيضًـا، كالزيارات التي يقـوم بهـا المـرء لمـريض، هـل انطبـاعي صـحيح؟ هـل وقعت في اليوميات على دليل من الأدلة الدامغة ضدي؟).

وفي 23 يناير، كان (ربما في رسالة) قـد أخـبر ميلينـا عن (الليـل). وفي مناسبة أخرى قام بتحليل إحدى ملاحظاتها عنه، ذات مرة في آخر ينـاير

في (شبندلموله)، كتب (لو أن «م» مثلًا، تـأتي إلى هنا فجـأة، لبـدا هـذا مرعبًا)، ذلك أن زيارتها، بعبارة أخرى (وكافكـا صـادق هنـا مـع نفسـه، فعبارته هذه لا تنطـوي بـالمرة على أي معـنى من معـاني المـرح) سـوف ترتفـع إلى أقصـى حـد، قـدره كـ «برجـوازي» في تلـك القريـة الجبليـة البهيجة. ولقد أشار كذلك إلى أنه كان قد نعم بالسعادة من قبل مـع «م» في (مارينباد)، وعلى هذا فسوف يتذوق هذه السعادة مرة أخرى ـ (وإن كان ذلك، لن يتم بالطبع، إلا بعد انهيار الحواجز، المؤلم!).

هنا تبدأ العلاقة بالفعـل في التحلـل: (فمـا تعودنـا على أن نعتـبره خيطًـا فاصلًا أصبح الآن حدًّا، أو سلسـلة من الجبـال، أو على نحـو أكـثر دقـة، قبرًا).

وفي 6 إبريل، نجد ملاحظة غريبة: (رسـالة مفصَّـلة إلى ميلينـا، الطيـور الثلاث، الطيران إلى الغابة، ميلينـا)، وربمـا كـان ثمـة مـا يتعلـق بميلينـا أيضًا في (إيماءة الرفض) ـ اليوميـات، فقـرة 12 فـبراير 1922 ـ الـتي تنتهي بكافكـا إلى (لا يسـعك أن تحبيـني كمـا تـودين لـو تفعلي، إنـك تعسة في حب «حبك لي» إلا أن «حبك لي» ليس في حالة حبي لك).

قـد يكـون مـا تقـدم بضـع فقـرات مميزة من الرسـائل، على الـرغم من قصـرها، على أننـا لا نملـك في تلـك الرسـائل قصـة الحب العنيفـة بأكملها ـ عربـدة اليـأس ـ الهنـاء ـ تمـزق النفس، وإذلالهـا، ذلـك أنـه على الرغم من أنهمـا قـد التقيـا مـرارًا إلا أن غرامهـا لم يكن في جـوهره سوى (رسالة غرام)، كما كان غرام (فيرتر)، أو (كيركجارد).

انحـدرت ميلينـا من واحـدة من الأسـر التشـيكية العريقـة، في مدينـة (بــراغ)، تلــك الأســر الى يمكن أن يطلــق عليهــا لقب أشـــراف تشيكوسلوفاكيا الحقيقـيين، وقـد نقش اسـم أسـرتها بـالحروف الكبـيرة فوق اللوحة الرخامية الهائلـة الى أقيمت في صـدر ميـدان مدينـة (بـراغ) القديمـة تخليـدًا لـذكرى أحـد أسـلافها، وهـو من الأبطـال البـارزين في تـاريخ تشيكوسـلوفاكيا، وقـد أعدمتـه أسـرة الهابسـبورج الحاكمـة في أعقاب المعركة التي دارت فـوق (الجبـل الأبيض)، وأحيانًـا مـا تفـاجئ المـرء هي نفسـها، بطلعتهـا الشـبيهة بطلعـة نبيلـة من نـبيلات القـرن السادس عشر أو السابع عشر، وشخصـيتها الشـبيهة بتلـك الشخصـيات النسائية التي التقطهـا (سـتندال) من تـاريخ إيطاليـا القـديم، ونقلهـا إلى رواياته، من مـثيلات دوقـة (دي سانسـيفيرينا)، أو (ماتيلـدا ديلامـول)، فلقـد كـانت على غـرارهن عاطفيـة، بـاردة وذكيـة في قراراتهـا، لكنهـا طائشة في اختيار الوسائل عندما تضطرم عواطفهـا، ويبـدو أن عواطفهـا في فترة شبابها، كانت متأججة على الدوام، وكانت فياضة في مشاعرها كصديقة، لا يقف حنانها عند حد، كما لم تكن تنضـب لهـا مـوارد وإن ظل مصدر مواردها تلـك غامضًـا في أغلب الأحيـان، ولم تكن مطالبهـا أيضًا تقف عند حد، تلك المطالب التي كـانت تطـالب بهـا أصـدقاءها، وكانت مطالبها تلك تبدو لها طبيعية، وكذلك كانت تبدو أيضًا في نظـر أصدقائها.

ولقـد قاسـت، وتـألمت في بـؤس تحت وطـأة الاضـطراب الوجـداني الثقـافي الـذي كـان يطبـع الأوسـاط الأدبيـة في مقـاهي (ڤيينـا) خلال

السنوات الحالكة التي أعقبت عام 1918، وكانت أجمل سنوات حياتها قد انقضت بلا شك قبل هذه الفترة، في (براغ) عندما كانت لا تزال صبية صغيرة جداً.

بددت (ميلينا) خلال تلك الفترة كل شيء إلى حد بالغ التهور. بددت حياتها، ومالها، وانفعالاتها، وأحاسيسها الخاصة، علاوة على تلك المشاعر التي عُرضت عليها، والتي كانت تعتبرها ممتلكاتها غير المشروعة، وكان يسرها أن تتخلص منها.

وعلى الرغم من ذلك فقد كان (كافكا) يدعوها (الأم ميلينا)، ولم يكن هذا بلا مبرر، ففي هذه الرسائل ذكر (كافكا) ما تتمتع به (ميلينا) من (عدم القدرة على أن تتسبب فيما يدفع غيرها إلى المعاناة) ـ ولقد كانت هذه حقيقة طالما أعلنها (كافكا)، على الرغم من معرفته بسورات غضبها التي كان يتغاضى عنها، والتي كانت انعكاساتها المؤسية، المضحكة، تملأ الرسائل.

ولم تكن (ميلينا) بالطبع، فاتنة بالمعنى الفج ـ بمعنى أنها حاولت إغراء الرجال، أو حاولت حتى إغراء ذلك الرجل ذاته، الذي كانت تعتبره (شاعراً)، ذلك الرجل الذي اكتشفت عبقريته، وأدركتها قبل أن يدركها أغلبية من كانوا يحيطون به، أو يحيطون بها من الناس بوقت طويل. لقد صدمت لأنها كانت تحب؛ ولأن عليها لذلك أن تسلك سلوك العاشقة حتى ولو لم يكن من تحبه سوى مجرد شخص غبي لا قيمة له.

لا شك في أنها قد عانت، ولقد نالت منها المعاناة ـ أولًا: لأنه كان قد عانى؛ وأيضًا لأنها كانت قد أحست أن المعاناة كانت هي السبيل الوحيد الذي قد يتيح لها أن تحقق نوعًا من الحوار الجذري معه. فعلى الرغم من أن المرء قد يتاح له أن يلتقي بروح كروحه في شوارع الضواحي الهادئة، وفي فنادق (ڤيينا)، وفوق المروج الصيفية المعشبة، وفي الغابات التي تحيط (بڤيينا) و(مانند)ـ إلا أنه لم يكن في وسع المرء حقًّا أن يندمج بروحه، على الرغم من ذلك، سوى في الجحيم. ولم يكن مما يبعث على الدهشة أنها كانت معرضة بدورها للإصابة بمرض في الرئة، ولو لم يكن هذا سوى لمجرد أنه كان قد أصيب بذلك المرضـ أو أن هذا ما توهمته على الأقل، ولقد بلغ بها الوهم، حتى أن الدم قد انبثق بالفعل من فمها.

(أنت يا من تعيشين حياتك بمثل ذلك العنف، ومن عمق تلك الأعماق)، هكذا خاطبها (كافكا)، ذات مرة، في إحدى هذه الرسائل، ولا يوجد من هو أجدر منها بهذا الوصف، إلا أنها لم تكن رغم ذلك (مهيأة للمعاناة)، كما لا شك يمكن أن يزعم كاتب تلك الرسائل التي بين أيدينا، فإن كانت قد عانت في تلك الحالة، وكانت قد عانت من خلاله، فقد كانت معاناتها تلك جزءًا من شهيتها للحياة، بل لقد كانت معاناتها تلك جزءًا من استمتاعها بالحياة. وسوف لا نتعقب، فوق ذلك، تلك النزعة السلافية التقليدية إلى التألم، لن نتفحص تلك النزعة، على الأقل، خلال تلك الفترة التاريخية بالذات، كما أنه لم يكن مصادفة أن كان (دوستويفسكي) هو كاتب (ميلينا) المفضل.

فلو كنا أحيانًا ـ أو حتى غالبًا ـ قد تلقينا انطباعًا بأن (ميلينا) في صورتها هذه، تقدم لنا نموذجًا أفضل، وأكثر صراحة، وأوفر صحة وأبلغ إنسانية منه (وسيكون هو بلا شك أول من يوافقنا على ذلك) فليس لنا أن ننسى أنها بكل رغبتها في الحياة، لم تكن على الرغم من ذلك، لتتمكن من أن تتنفس هواءه المثقف ذا التوتر الكهربي العالي، وأنها ـ على الرغم من أنها قد حركت أعمق أعماقه ـ فلقد منحته، لو كان لنا أن نصدق رسائله، حقًّا حياة جديدة ـ ومع ذلك، فغالبًا ما كانت تثير أعصابه بسهولة، حتى كانت النتيجة التي انتهى إليها الأمر في النهاية، أن أصبح استغراقه قليلًا في النوم، أهم كثيرًا عنده من رسائل (ميلينا) المتلهبة.

ولقد قال لي كافكا في أواخر أيامه: (لا بد لي من أن أعترف بأنني قد حسدت شخصًا ما، ذات مرة، حسدًا بالغًا، لأنه كان محبوبًا، ومتمتعًا برعاية فائقة، ومزودًا بالعقل، والقوة، ولأنه كان يستلقي تحت الأزهار، إنني دائمًا سريع الحسد).

ولقد وجد (كافكا) تلك السعادة التي تثير الحسد، في أواخر أيامه، قبل أن يستلقي تحت الزهور، فقد كانت الشهور الأخيرة من حياته، أسعد الفترات التي عاشها.

كان يشيع فيها سلام لم تعهده عاطفته المتأججة الصاخبة، الذابلة، المتلاشية نحو (ميلينا).

أما عن نهاية (ميلينا)، فتقول لنا (فراو مارجريت بوبر_ نويمان) في كتابها القيم «في ظل دكتاتورين»[16]، إنها كانت زميلة «ميلينا» في معسكر التجميع في رافينسبروك، حيث زج بهما وسط المومسات، وعتاة مجرمي «هامبورج» وحيث شهدتا لرعبها، ذلك الاستمتاع السادي الذي كان أطباء النازي يمارسونه، بإجراء التجارب العلمية على أجساد الأحياء من النساء.

وقعت «مارجريت بوبر ـ نويمان» كما وقع غيرها تحت تأثير سحر «ميلينا» الإنساني، ذلك التأثير الساحر، الذي ظل مفعوله قويًا، حتى تلك السنوات المتأخرة التي تخطت «ميلينا» عندها سن الشباب، وازدادت سمنة على نحو ما، تقول «مارجريت بوبر_ نويمان» (كنا صديقتين، ميلينا وأنا، منذ الساعة الأولى التي أمضيناها معًا، ولقد دامت صداقتنا طوال سنوات أربعة مريرة، انقضت في صراع الحياة والموت بداخل المعسكر)، وتضيف قائلة: (إنني أشكر حظي الذي جاء بي إلى رافينسبروك، وأتاح لي فرصة الالتقاء بميلينا. كان يتملكني خوف شديد منذ اليوم الأول للقائنا، كلما تطلعت إلى وجهها الذي كان يرتسم عليه الألم، كانت قد جاءت مريضة إلى المعسكر من سجن الأبحاث في دريسدن، وكانت تظن أنها تعاني من الروماتيزم، كانت يداها متورمتين، وكانت تتألم باستمرار، كما كانت عند تلاوة الأسماء في ساعة التمام ترتعد من البرد في أسمال السجن، ولم تكن تجد تحت

16عنوان الطبعة الألمانية الأصلية للكتاب (حين كان أسرى ستالين وهتلر): Als Gefangene bei Stalin und Hitler ومنه اقتبسنا الفقرات التالية.

البطاطين الرقيقة شيئًا من الدفء، لكنها كانت إنسانة قوية، ولقد نجحت دائمًا في تبديد مخاوفي. وفي عام 1940، كانت ميلينا لا تزال على شجاعتها، كانت أبعد ما تكون عن الانهيار، وكانت تحتفظ بقدرتها على المبادرة. كانت أبعد ما تكون عن اكتساب شخصية السجينة المستكينة وتعقلها، ولم تتحول ميلينا مطلقًا إلى «نزيلة» فحواسها لم تكن لتخمد، ولم تتمكن منها اللامبالاة والتبلد، كما تمكنت من غالبية الآخرين).

ولقد نجت ميلينا لهذا بالفعل من «عزل» المرضى، الذي كان يؤدي مباشرة إلى غرف الغاز والأفران.

وتقول مارجريت بوبر ـ نويمان، في مناسبة أخرى:

(لقد تملكني إحساس هائل بالفزع من توقع موتها، فلقد سمعت أنَّاتها في الليل، وهي تستلقي فوق الحشية المصنوعة من القش).

ـ .. «أه، لو قُدر لي أن أموت دون أن أعاني سكرات الموت. لا تتركيني أهلك وحيدة، كما يهلك الكلب».

.. «ولقد اعتقدت طوال الوقت الذي أمضيته إلى جوارها أحاول أن أهدئها، اعتقدت أنها ستُشفى، وتتمتع ثانية بحريتها، لكنني فجأة في ظلام الزنزانة، رأيت المستقبل في جلاء، وتبينت أنها كانت قد ضاعت سدى».

ولقد تمكنت من مواصلة الحياة لفترة قصيرة، لخوفها الشديد من عمليات عزل المرضى، ومن (الحقن) التي كانوا يرسلون بها المرضى

من النزلاء إلى الراحة الأبدية.

وماتت ميلينا في 17 مايو 1944، من جراء عملية في الكُلى، يبدو أنها كانت قد أجريت بعد فوات الأوان.

تقول مارجريت بوبر- نويمان: (وفي تلك اللحظة، فقدت الحياة معناها بالنسبة لي).

وفي 10 يونيو، بلغت المعسكر أنباء الهجوم الناجح.

(فلماذا أواصل الحياة إذا كانت ميلينا قد قضت؟) بهذه الكلمات تختتم مارجريت بوبر- نويمان مذكراتها عن السنوات الأخيرة في حياة (ميلينا)... فما دامت ميلينا على قيد الحياة، كانت الحرية عندي أن أرى معها ثانية أول مدينة، أن أدخل معها أول غابة...

لقد تأخرت الحرية على ميلينا....

و..... أيضًا تتجدد الذكرى..... «ڤيلي هاس».

من مصنف الرسائل

أتوجه بتحياتي الصادقة أولًا إلى الشاعر (ماكس برود) صديق (كافكا) ومحرر كتاباته بعد وفاته؛ لإسناده تحرير هذه الرسائل إليَّ. وكنت قد تسلمت هذه الرسائل من صديقتي المبجلة (ميلينا) في ربيع عام 1939 في براغ ـ بعد دخول القوات الألمانية بفترة قصيرة، ولما لم أتمكن من أخذ هذه الرسائل معي عند هروبي، فقد بقيت محفوظة في أمان لدى أقاربي في (براغ) خلال تلك السنوات المشؤومة حتى عام 1954، ولديّ كل ما يدعوني إلي أن أقرر مطمئنًا أن (ميلينا) لم تكن لتعترض على نشر هذه الرسائل بعد وفاتها، كما حصلت أيضًا على موافقة زوجها، الذي توفي عندئذ، في وصيته الأخيرة، وقد كان له في هذه المراسلات دور لا يمكن حذفه.

ولما لم تكن هذه الرسائل تحمل تواريخ على الإطلاق، فقد تجشمت عناءً بالغًا في ترتيبها زمنيًّا. إن قيامي بترتيبها المرة بعد المرة بناء على مئات الإشارات، والإيماءات غير المباشرة، واستنادًا إلى بعض المعلومات التي اعتمدت عليها كدليل أهتدي به (كاحتفال ال HUS في براغ، والاحتفال بالعيد السنوي للجمهورية الفرنسية، وعيد ميلاد ميلينا، وترقيم عدد من الرسائل بأرقام مسلسلة إلخ....)، كل هذا اقتضاني جهدًا استغرق شهورًا عدة. لم أضطلع بانجاز هذا العمل وحدي، كما أنني أبعد ما أكون عن الإصرار على نجاح هذا العمل الذي قمت بأدائه، نجاحًا لا يقبل المراجعة في تفاصيله كلها. فليس من

الصعب أن يصدر أحد معاهد اللغة، بمساعدة فهرس خاص من بضعة آلاف من الكلمات، طبعة خاصة تشتمل على تحقيق كامل للنص متضمنًا التواريخ المضبوطة.

ومع ذلك فليس هذا هو هدف نشر هذه الرسائل، التي يهدف نشرها ببساطة إلى تقديم هذا السجل النادر في كتاب مقروء، منقح، ومفسر بأقصى عناية ممكنة.

وعلى القراء أو النقاد الذين يظنون أنهم قد وقعوا في أثناء قرائتهم لهذه الرسائل على أخطاء في الترتيب الزمني من واقع ما تتضمنه من أحداث، على هؤلاء أن يتفحصوا ما يرونه فحصًا دقيقًا، فسوف يكتشفون ـ في أغلب الحالات ـ عندئذ أن إشارة من الإشارات القاطعة، لا تلبث أن تواجهها اثنتان من الإشارات الأخرى التي تناقضها.

إن محرر هذه الرسائل سيكون ممتنًّا غاية الامتنان، على الرغم من ذلك، للاقتراحات التي تقوم على أساس صحيح لإعادة ترتيب هذه الرسائل، حيث يمكن الانتفاع بهذه الاقتراحات في طبعة ثانية. في هذا الخصوص لا يفوتني أيضًا أن أوجه شكري إلى ناشر أعمال كافكا «مستر سالمان شوكين» لاقتراحاته وإشاراته التي تستحق التسجيل.

أما فيما يختص بنص الرسائل، فقد شطب (كافكا) بنفسه فقرات عديدة وردت بها، وربما تكون «ميلينا» قبل أن تسلمني حافظة الأوراق

التي احتوت على هذه الرسائل، قد كتبت بضع فقرات، غير واضحة بالحبر.

وفي حالة نشر طبعة تتضمن تحقيقًا شاملًا لنص هذه الرسائل، يبدو لي أنه لن يكون من الصعب أن يتم نقل هذه الفقرات حتى تتضح قراءتها ببعض الوسائل الكيميائية أو معالجة قراءتها بأشعة (إكس).

ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذه الفكرة لا يمكن الالتجاء إليها. فمن عديد من الفقرات القصيرة والتلميحات التي تبدو معلقة في الفراغ، يمكن أن يستنتج المرء أن عددًا قليلًا من الصفحات، أو عددًا من الرسائل قد فقدت.

أما فيما يتعلق بمن لا يزالون على قيد الحياة ممن تناولتهم هذه الرسائل، فقد كان لا بد من حذف بضع فقرات معينة من الرسائل، ويأسف المحرر لاضطراره إلى هذا الإجراء الضروري، فقد ورد اسم المحرر شخصيًّا في تلك الفقرات المحذوفة عديدًا من المرات، ومحرر هذه الرسائل ـ وهذا موجَّه مقدمًا إلى أي ناشر لهذه الرسائل في المستقبل ـ ليس لديه شخصيًّا أي اعتراض على نشر تلك الفقرات المحذوفة التي تتضمن اسمه، على الرغم من بعض الاستنتاجات الوهمية، والخاطئة التي ربما كان (كافكا) قد استنتجها من إحدى الحوادث المؤسفة. إلا أن ما يفاجئنا بغرابته في هذه الرسائل الغرامية، هو أن (كافكا) لم يكن (بالمعنى المتفق عليه بصفة عامة) يغار من أصدقاء (ميلينا) من الرجال، بل كان يغار من صديقات شبابها المبكر

من الفتيات. ومن الأمور الغريبة أيضًا أنه لم يتبين فيما يبدو بوضوح سبب كراهيته لأناس معينين. ونتيجة هذا هو ما نجده في هذه الرسائل، صور شخصية لبعض الكتاب، أو صور كاريكاتيرية لا علاقة لها بالواقع.

وهي أجزاء لا يمكن نشرها الآن. إن الخطأ العميق الذي قد يترتب على نشر هذه الصور الشخصية هنا. والآن، قد يتأكد مستقبلًا، عند صدور الطبعة الكاملة ـ ونأمل أن يتم ذلك يومًا ما ـ لهذه الرسائل ـ ولأسباب أخرى مماثلة وواضحة، حذفنا كذلك أغلب ما يتعلق بأسرة ميلينا.

وعلى الرغم مما قد يثور من الريبة الشديدة، بالإضافة إلى ذلك، فقد رأيت الإبقاء على أغلب الفقرات التي تشير إلى اليهودية. ذلك أن غرام كافكا اليهودي بامرأة غير يهودية، كان مشكلة خطيرة مؤسية (مثقلة للغاية بالتعقيدات النفسية، ومركبات النكوص)، وقد تبدت أزمته تلك في صورة ثورات بالغة من إذلاله لنفسه كيهودي.

وحذف هذه الفقرات لم يكن ممكنًا دون الإخلال بروح هذه الرسائل كلها، على الرغم من أن تلك الفقرات بالذات تستقطب كل أشكال سوء الفهم، ولقد واجهت هذه الفقرات لحسن الحظ، فقرات أخرى عكست زهوه وثقته بالمستقبل إلى حد بعيد، لكي نؤكد، بعد هذا، صبغة هذا الكتاب غير العلمية، ونبين أن هدفنا هو فقط تيسير قراءته، لم نعين مكان الفقرات المحذوفة.

إن العـذر الوحيـد الـذي يـبرر بـه محـرر هـذه السـطور، عـدم اضـطلاع (ماكس برود)، بتحرير هذا الكتـاب الـذي بين أيـدينا، كمـا فعـل ببـاقي أعمال (كافكا) الأخرى، هو معرفة (المحرر) بميلينـا وحلقـة أصـدقائها التشيكيين معرفة وثيقة دامت أعوامًا عـدة، وكـان على علاقـة شخصـية بهم، وإلا ما كان له أن يتورط في مثل هذه المنافسـة اليائسـة مـع محـرر (كماكس برود) ـ الذي ربطته بكافكا صـداقة دامت العمـر كلـه، تلـك الصداقة الى تمخضت عن اكتشاف عبقرية كافكـا، ودفعهـا، بـإخلاص لا يفوقه إخلاص، وأمانة في عمله كمحرر لكتابات صديقه بعـد وفاتـه، إلا لمجـرد وضـع الخطـوط الخارجيـة لصـورة صـديقة كافكـا النبيلـة (ميلينـا) ذلـك أن صـورتها الشخصـية جـديرة حقًّا بـالظهور إلى حـيز الضـوء، وإن كـان فقـدان رسـائلها إلى كافكـا خسـارة لا سـبيل إلى تعويضها.

لا بد لي من أن أذكر أنني قد استخدمت أعمـال مـاكس بـرود عن سـيرة حياة كافكا ودراسة أعماله، استخدامًا أساسيًّاـ ولا أكـاد أذكـر لآخـرين جهدًا ذا بال استندت عليه في هذا الشأن. ولـديَّ أخـيرًا كـل مـا يـدفعني إلى التعبير عن عميق امتناني لفراو (شتاتزا) الـتي ورد ذكرهـا كثـيرًا في الرسائل.

فيلي هاس

ترويز دورفـ مايو 1952

الرسائل

ميران– أونترميه، بنسيون أوتوبورج

سيدتي العزيزة ميلينا

كتبت لك رسالة من براغ، ثم أخرى من ميران، ولم أتلق ردًّا عليهما، إن الرسالتين لا تتطلبان بالفعل ردًّا سريعًا، على غير العادة. فإذا لم يكن صمتك سوى دليل على السعادة، التي تعكس نفسها غالبًا في صورة رغبة عن الكتابة، فسوف أطمئن عندئذٍ. لكن من الممكن أيضًا – وهذا هو ما يدفعني إلى أن أكتب إليك– أن أكون قد أسأت إليك في رسالتي بصورة ما (فيا لليد الخرقاء، التي تأبى أن تنسجم مع كل ما أضمره!، هل يمكن أن تكون هذه هي القضية؟)، أو ماذا في الحقيقة يمكن أن يكون أكثر سوءًا من هذا؟ لقد اختفت مرة أخرى تلك اللحظة التي أتنسم فيها نسمة هادئة مما تخطه يدك، ويشي هذا بأن وقتًا عصيبًا قد مر بك، ليس لديَّ ما أقوله عن الاحتمال الأول، إنه أبعد مما يمكنني أن أبلغه، أما ما عدا ذلك ففي متناول يدي. أما عن الاحتمال الثاني فلن أنصح– كيف يتسنى لي أن أنصح؟

– لكنني فقط أتساءل: لماذا لا تغادرين ڤيينا لفترة من الوقت؟ ثم، إنك لست بلا وطن، كالآخرين، ألا تمدك رحلة إلى بوهيميا بنشاط، وطاقة متجددة؟ وإذا كان ثمة سبب من الأسباب قد حال دون أن أعلم

برغبتك عن الذهاب إلى بوهيميا، فلماذا إذن لا تذهبين إلى أي مكان آخر، ربما، إلى «ميران» مثلًا، هل تعرفينها؟.

أنا إذن في انتظار أحد أمرين، إما أن تواصلي الصمت، الذي سيكون معناه: «لا تخش شيئًا، إنني في خير حال»، أو بالأحرى بضعة سطور قلائل.

أرق تحيات

كافكا

لم أتمكن من أن أتذكر وجهك، ولا تذكرت شيئًا من ملامحه بصورة واضحة، أذكرك فقط بينما كنت تبتعدين وسط مقاعد المقهى، هيئتك بصفة عامة، ثوبك... ما زلت أذكرهما.

***

سيدتي العزيزة ميلينا

إنك تثقلين على نفسك بالترجمة وسط جو ڤيينا الكئيب، إنه جو مقبض على نحو ما، ويثير الحيرة في نفسي، لعلك قد تسلمت أخيرًا رسالة من ڤولف[17]، فقد كتب إليَّ رسالة وصلتني منذ فترة قصيرة أشار فيها إلى رسالته إليك؛ قال فيها أيضًا إن قصة قصيرة بعنوان (القاتل) ستُنشر في كتيب. إنني لم أكتبها بعد، ولعل الأمر قد اختلط عليه، لكن ما دام يفترض أنها ستكون أفضل قصصي، فلعل هذه أن تكون هي الحقيقة في نهاية الأمر.

يبدو أن القلق والهموم قد زايلتك تمامًا، استنتجت هذا من رسالتيك الأخيرتين، أتمنى لك الخير ولزوجك أيضًا، هذا ما أتمناه لكليكما.

أذكر عصر يوم من أيام الأحد منذ بضع سنوات مضت، كنت أجرجر ساقيَّ على امتداد (فرانتسنزكفه)، ملتصقًا بجدران المنازل، أتقدم نحو زوجك، الذي كان مندفعًا نحوي، في حال ليست خيرًا من حالي، خبيرين في الصداع رغم اختلاف سبيليهما اختلافًا تامًّا. لست أذكر بعد ذلك إن كنا قد سرنا معًا، أو تجنب أحدنا الآخر. ليس الفارق بين الاحتمالين بالفارق الهائل لكن ذلك ماضٍ، ويجب أن يبقى مدفونًا في أعماق الماضي. هل تشعرين بالسعادة في موطنك؟

أرق تحياتي.

17كورت ڤولف، ناشر كافكا.

سيدتي العزيزة ميلينا

الآن فقط انقطع المطر الذي دام سقوطه يومين وليلة، مع أن انقطاعه قد لا يستمر سوى لحظة، لكنه مع ذلك حدث يستحق أن يحتفل به المرء، وهذا هو ما أفعله بالكتابة إليك. وحتى المطر كان محتملًا في الحقيقة، فالمرء غريب هنا في نهاية الأمر، وإن يكن فحسب مجرد غريب على نحو ما، إلا أن ذلك يثلج القلب....

أنت أيضًا، لو صح تعبيري (لقاء قصير، منعزل، شبه صامت، ربما لا يكون تسربه من خيال المرء محض صدفة)، أنت أيضًا تمارسين الاستمتاع بغربتك في ڤيينا، مع أنك قد تفقدين استمتاعك ذاك فيما بعد تحت ضغط الحالات السائدة. لكن، هل تمارسين أنت أيضًا متعة شعورك بالغربة إلى هذا الحد؟ (تلك المتعة، التي قد تكون مصادفة، مجرد دلالة سيئة، وقد لا تحدث).

إنني أعيش هنا في خير حال، ولا يطيق الجسد الفاني مزيدًا من العناية. وتطل شرفة غرفتي على حديقة محاطة بسور، تزدهر فيها الشجيرات المزهرة (إن النباتات هنا غريبة، فالزهور تتفتح في بطء أمام شرفتي، في جو مثل جو براغ، تتجمد فيه بالفعل برك المياه). وتتعرض شرفة الغرفة كذلك لأشعة الشمس، أو بالأحرى للسماء التي تحجبها السحب إلى ما لا نهاية. كما هو الحال منذ ما يقرب من الأسبوع، تزورني في الغرفة السحالي، والطيور، وأنواع أخرى من الكائنات تزورني أزواجًا

أزواجًا: إنني أرغب رغبة شديدة في أن تكوني هنا في ميران، لقد كتبت لي أخيرًا عن عدم قدرتك على التنفس. في هذه الكلمة تتجاور الصورة والمعنى إلى حد بعيد، وفي ميران قد تخف وطأتهما بعض الشيء.

مع أرق تحياتي

المخلص ف. كافكا

***

إذن فهي الرئة. ظللت طوال النهار أدير هذه الجملة في رأسي، ولم أتمكن من التفكير في أي شيء آخر، لم أستطع أن أفكر حتى في أن ثمة نذير كان قد أنذرني بالفعل بهذا المرض، ولعل المرض، وهذا ما نأمله ــ وتشير تلميحاتك إلى هذا ــ يبدو في حالتك في صورة اشتباه عديم الأثر، على أن مرض الرئة الفعلي (ونصف سكان أوروبا الغربية، يعانون كثيرًا أو قليلًا من الأمراض الصدرية)، هذا المرض الذي عرفته من خلال خبرتي الخاصة التي دامت ثلاث سنوات، لعله أن يكون قد أفادني بقدر ما ضرني. بدأ الأمر بالنسبة لي منذ حوالي ثلاث سنوات في منتصف إحدى الليالي بنزيف، نهضت مرتاعًا بسببه، كما يحدث للمرء عندما يواجه شيئًا للمرة الأولى، نهضت (بدلًا من أن أستلقي متمددًا كما تعلمت أن أفعل فيما بعد حسب أوامر الأطباء)، وكنت أيضًا مضطربًا بالطبع. على نحو ما سرت نحو النافذة، وانحنيت متطلعًا خارجها، وقصدت حوض الغسيل، ورحت أتجول في أنحاء الحجرة

وجلست فوق الفراش ـ وكان الدم ينزف بلا توقف ومع ذلك فلم تنل مني التعاسة من جراء ذلك، لأنني شيئًا فشيئًا، علمت بصورة قاطعة أنني سوف أنام، بعد أن انقضت ثلاث سنوات أو أربع هجرني فيها النوم، سوف أنام لأول مرة، بعد أن يتوقف ذلك النزيف، ولقد توقف النزيف بالفعل (كما أنه لم يعاودني منذ ذلك الحين)، واستغرقت في النوم بقية الليلة، وعندما دخلت الخادمة (كان لي في ذلك الحين شقة بالقرب من قصر شوينبورن) في الصباح، وهي فتاة طيبة تكاد تنكر ذاتها في علاقتها بالآخرين، إلا أنها فتاة واقعية للغاية، قالت عندما رأت الدم: «سيدي الدكتور، إنك لن تعيش طويلًا» لكنني أحسست بالتحسن على غير العادة، وذهبت إلى عملي وتوجهت قرب الظهر إلى الطبيب. وليس لبقية القصة بعد ذلك كثير أهمية. لقد قصدت فقط أن أقول إن مرضك ليس هو الذي أفزعني (خاصة أنني أقاطع نفسي باستمرار، لكي أعالج ذاكرتي، مكتشفًا الانتعاش الذي يكاد يشبه انتعاش المرء وسط الحقول، تحت الرقة كلها، لأقرر بيني وبين نفسي قائلًا: لا، إنك لست مريضًا، إنه نذير بالمرض، ولكنه ليس مرضًا بالرئة)، وهكذا فلم يكن ذلك هو ما يرعبني، لكن ما يرعبني هو التفكير فيما لا بد قد سبق ذلك الاضطراب. في تلك اللحظة كنت على وشك أن أتجاهل كل شيء آخر في رسالتك، من قبيل لا يوجد جحيم أفظع ـ شاي وتفاح ـ يوميًّا من الثانية حتى الثامنة ـ هذه كلها أمور لم أتمكن من فهمها، ويبدو أنها لا يمكن أن تفسر لي إلا شفويًّا؛ وعلى هذا فسوف أتجاهل هذه الأمور (مع أنني سأتجاهلها فقط في رسالتي هذه، ذلك أن المرء لا يمكنه أن

ينساها)، وسوف أفكر فقط في التفسير الذي اهتديت إليه لتوي، في حالة مرضي، والذي ينطبق على كثير من الحالات، إن ما حدث هو أن العقل لم يكن ليحتمل مزيداً من الهموم والمعاناة المكوَّمة فوق عاتقه، إنه يقول:

«لقد عجزت عن تحمل ذلك، لكن لا بد من وجود ثمة من يواصل الاهتمام بسلامة كل شيء، ويجب عليه أن يخلصني من بعض عبئي، وستظل الأمور سائرة في طريقها بعضًا من الوقت» ثم تتحدث الرئة، مع أنه قد لا يكون لديها الكثير مما يمكنها أن تفقده، مهما كانت الحال. لعلها أن تكون مناقشات تثير الرعب، تلك المناقشات التي تدور بين العقل والرئة دون أن أعلم عنها شيئًا.

وما الذي تنوين عمله الآن؟ قد يتضح أنه لم يكن سوى أمر عارض، لو أنك أحطت نفسك بشيء من الرعاية وحاجتك إلى شيء من الرعاية أمر لا بد أن يدركه أي شخص مغرم بك، وكل شيء آخر، يجب لهذا، أن يوضع في المحل الثاني، وهل يمكن أيضًا ألا يكون ثمة شيء من العزاء لك في أي شيء آخر؟ كما قلت من قبل ـ لا لست في حالة من حالات المزاح، كما أنني لا أحس مطلقًا بالمرح ولن أكون كذلك حتى تكتبي إليَّ وتخبريني كيف ستحاولين إعادة تنظيم حياتك على نحو جديد، يوفر لك مزيداً من الصحة. لماذا لا تغادرين ڤيينا لفترة قصيرة، هذا ما لم ألح في سؤالك عنه، بعد رسالتك الأخيرة؟ فأنا أفهم الآن لماذا لا يمكنك مغادرة ڤيينا، إلا أن هناك مع ذلك أماكن أخرى رائعة بالقرب من ڤيينا، وكثير من الفرص لتوفير الرعاية لك. لن أكتب على أي شيء

آخر اليوم، فلا شيء ذا أهمية كبيرة يمكنني أن أتحدث عنه. سأكتب عن كل شيء آخر غداً. ومن بين هذه الأشياء الأخرى شكري على المخطوط الذي هزني، وأشعرني بالخجل وبالحزن وبالفرح. لا، ثمة شيء آخر قد تبقى لأقوله لك اليوم: لو أضاعت عليك الترجمة لحظة واحدة من لحظات نومك، فسوف تتحول هذه اللحظة إلى لعنة تحيق بي في (يوم الحساب)، لن يكون ثمة مجال لبحث التفاصيل، لأنه سيكون ببساطة يوم إقرار الحيثيات: لقد حرمها من النوم. عن هذا سوف تثبت إدانتي، وسيكون هذا هو الجزاء العادل. وعلى هذا فإنني أحمي نفسي، عندما أطلب إليك ألا تفعلي شيئًا من هذا بعد الآن.

المخلص لك

فرانتس ك

***

سيدتي العزيزة ميلينا

أريـد اليـوم أن أكتب لـك عن أشـياء أخـرى، إلا أنـني لا أسـتطيع، وليس ذلك لأنني أنظر بالفعل إلى تلك الأشياء نظرة جادة، فلو أنني كنت أنظر إليها عى هذا النحو، لكنت في الحقيقة قد كتبت بصورة أخـرى، لكنـني الآن، وللمـرة الثانيـة أقـول إنـه لا بـد لـك من مقعـد مـريح من القمـاش تسـتلقين فوقـه في أحـد أركـان الحديقـة، ركن تتقاسـمه الظلال وأشـعة الشـمس، ويجب أن توضـع عشـر زجاجـات ممتلئـة بـاللبن في متنـاول يـديك. من الممكن أيضًـا أن يحـدث ذلـك في ڤيينـا، خاصـة الآن في الصيف، لكن بدون جوع ولا قلـق. أليس هـذا ممكنًـا؟ أو هـل لا يوجـد من يمكن أن يجعله ممكنًا؟ وماذا قال لك الطبيب؟

عندما أخرجت المخطوط من المظروف الكبير، أحسست بخيبة الأمـل، فلقـد كنت أريـد أن أقـرأ لـك أنت، لا أن أسـتمع إلى ذلـك الصـوت المألوف، ذلك الصـوت المنبعث من القـبر العتيـد،. لمـاذا تـدخل ذلـك الصوت بيننا؟ ثم ماذا، إنني لا أكاد أصدق أنك قد أخـذت بالفعـل على عاتقك مشقة الاضطلاع بهذا الجهد الهائل، ولقد هزتني حـتى أعمـاقي تلك الأمانة التي أنجزت بها هذا العمل، جملة بعد جملـة، تلـك الأمانـة التي لم أكن أحسبها ممكنة في اللغة التشيكية إلا بالقدر الـذي سـاورتني عنده الريبة في قدرتك على تطويع اللغة على هذا النحو التلقائي الرائـع. هل تتقارب اللغتان الألمانية والتشـيكية إلى هـذا الحـد؟ مهمـا يكن من أمر، فإنها على أية حال، قصة بالغة البؤس، يمكنني أن أؤكد لك هذا يـا

سيدتي العزيزة ميلينا، سطرًا بعد الآخر بغاية اليسر، غير أن النفور يظل رغم هذا مستعصيًا إلى حد ما على البرهان؛ أما عن إعجابك بالقصة فإنه يكسبها بالطبع بعض القيمة، لكنه مع ذلك يساهم في إظلام صورة العالم أمامي. ليس لديَّ مزيد مما يمكنني أن أقوله عنها. سيرسل لك ڤولڤ قصتي (طبيب الأرياف)، لقد كتبت له في هذا الشأن.

إنني أفهم اللغة التشيكية بلا شك، ولقد انتويت أكثر من مرة أن أسألك لماذا لم تكتبي لي بالتشيكية. لا أقصد بهذا أنك لا تجيدين اللغة الألمانية، فأنت تسيطرين عليها في أغلب الأحيان على نحو رائع يثير الدهشة وإذا خانتك قدرتك في أحيان، فإن اللغة الألمانية تنحني عندئذ أمامك طائعة من تلقاء نفسها، وهو أمر يبعث على السرور حقًّا، ذلك أن الألماني نفسه لا يكاد يجرؤ على أن ينتظر هذا من لغته، فهو لا ينتظر من لغته هذه أن تسعفه في الكتابة التي تبلغ هذه الدرجة من الخصوصية، غير أنني أريد أن أقرأك في التشيكية؛ لأنها لا تنفصل عنك، لأن فيها وحدها توجد (ميلينا) بأكملها، (إن الترجمة تؤكد ذلك)، بينما هنا، في اللغة الألمانية، لست سوى مجرد تلك التي في ڤيينا، أو تلك التي تحاول أن تبدو كما لو كانت من ڤيينا. لهذا أرجو أن تكتبي إليَّ بالتشيكية لو تفضلت بذلك. وأرجو أن ترسلي القصاصات التي وعدتني بها، لتكن تلقائية، فلقد تلمست طريقك أيضًا، بنفسك من خلال بساطة قصتي، لست أدري إلى أي مدى. ربما أمكنني أن أفعل هذا أنا أيضًا، فإن لم أتمكن، فسأبقى متمسكًا إذن بأفضل الأهواء.

تسألين عن خطوبتي. لقد خطبت مرتين (ثلاث مرات، إن شئت، ومعنى هذا أنني خطبت فتاة منهما مرتين)، وعلى هذا فقد فسخت خطبتي ثلاث مرات، قبل إتمام الزواج في كل مرة، ببضعة أيام قلائل فحسب. ولقد انتهى تمامًا كل ما يتعلق بالخطيبة الأولى (سمعت أنها قد تزوجت أخيرًا، ورزقت أيضًا بطفل)، أما الخطوبة الثانية، فما زالت قائمة لكن دون أدنى أمل في إتمام الزواج، وهي لهذا خطوبة لا وجود لها في الحقيقة أو أن لها وجودًا مستقلًّا وإن يكن استقلاله هذا على حساب آخرين. ولقد خرجت في النهاية من هذه التجربة، ومن تجارب أخرى غيرها بأن الجانب الأكبر من المعاناة ربما كان من نصيب الرجال، أو لو راق للمرء أن ينظر إلى المسألة من هذه الزاوية، فلعله أن يقول إن مقاومة الرجال أقل في هذا الصدد، وأن النساء يعانين معاناة أقرب إلى البراءة لا بمعنى أنهن (لسن مخطئات)، بل بمعنى أكثر اقترابًا من الحقيقة، لعله يؤدي بنا مرة أخرى، على الرغم من هذا، إلى أنهن (غير ملومات). على أن التفكير في هذه الأمور لا يجدي فهو أشبه بمحاولة المرء أن يحطم مرجلًا واحدًا من مراجل الجحيم. لا جدوى أولًا، من محاولة كهذه، وثانيًا، حتى لو كانت هذه المحاولة ذات جدوى، فسوف يحترق المرء مع ذلك، ويهلك في ذوب اللهيب الذي سيتدفق عند تحطيم ذلك المرجل، هذا... على حين سيبقى الجحيم بكل عنفوانه.

إن على المرء في الحقيقة أن يعالج ذلك بطريقة أخرى.

ونقطة بدايتنا في هذا السبيل، هي بعد هـذا كلـه، أن تسـتلقي في إحـدى الحـدائق وتتخلصـي من المـرض، وخاصـة إذا لم يكن مرضًـا فعليًّا، تخلصـي منـه بأقصـى مـا يسـعك من الاسـتمتاع، فثمـة متعـة بالغـة في تخلص المرء من المرض.

المخلص لك فرانتس ك.

***

سيدتي العزيزة ميلينا

أصرح لك أولًا، في حالة ما إذا كنت قد قرأت ذلك بين السطور، رغم حرصي على ألا تفطني إليه: بأنني أعاني من الأرق المتزايد طوال ما يقرب من الأسبوعين، على أنني لم أهتم اهتمامًا زائدًا بهذا، ففترات الأرق تنتابني وتزايلني، وتتوقف هذه النوبات على عوامل عديدة ثابتة، وإن تكن في غير حاجة إليها (فمن الممكن كما يقول بيديكر أن يكون هواء ميران وحده، سببًا كافيًا تمامًا)، وحتى لو لم يتوافر أدنى أثر لأي من هذه العوامل الخارجية، فسوف يجد المرء نفسه، في بعض الأحيان ثقيلًا كالكتلة، وقلقًا في الوقت نفسه، قلقًا كحيوان في داخل غابة.

عزائي الوحيد مع هذا أنك قد استغرقت في نوم هادئ، وإن كنت ما تزالين تحسين (بغرابة ذلك)، على الرغم من أنك كنت غاضبة جدًّا بالأمس، إلا أنك على الرغم من هذا كله، قد استغرقت في النوم، والآن، عندما يتجاوزني النوم، ويمر في الليل دون أن يحفل بي، فإنني أعرف عندئذ وجهته وأرضاها، وفوق هذا، فمن الغباء أن يثور عليه المرء، فالنوم هو أكثر (المخلوقات) براءة، والرجل الذي يهجره النوم، هو أكثر الرجال ذنوبًا.

إن ذلك الرجل الذي هجره النوم، هو الذي شكرته في رسالتك الأخيرة. فلو قُدر لغريب، لا يعلم شيئًا عن الحقيقة، أن يقرأ هذا فلعله أن يتعجب قائلًا: يا له من رجل!، يبدو عليه في حالته تلك، وكأنه قد حرك الجبال، على أنه في الحقيقة، لم يفعل شيئًا، لم يحرك أصبعًا (فيما عدا

أصبعه التي يضغط بها على القلم). إنه يعيش على اللبن، وعلى أطايب الطعام دون أن يرى الشاي والتفاح، أمامه دائمًا، وهو فوق هذا لا يحاول أن يقحم نفسه في أمر من الأمور، ويترك الجبال كما هي في أماكنها.

هل تعرفين قصة أول نجاح صادفه دوستويفسكي؟ إنها قصة تحفل بأشياء عديدة وأنا أذكر اسم الرجل العظيم فقط تأكيدًا لما أريد قوله، ذلك أنك قد تسمعين هذه القصة من أحد جيرانك، قد تسمعين من هذا الجار أو من غيره قصة لها نفس المغزى، علاوة على أن تلك القصة ليست واضحة تمام الوضوح في مخيلتي، خاصة فيما يتعلق بالأسماء. فبينما كان دوستويفسكي يكتب روايته الأولى (الفقراء)، كان يقطن مع صديق له من الحقل الأدبي، يُدعى جريجوربيف، ومع أن هذا الصديق كان يرى كل يوم صفحات الرواية الكثيرة فوق منضدة الكتابة أمامه، لشهور عديدة، إلا أنه لم يتناول ذلك المخطوط أبدًا، إلا عندما كانت الرواية قد تمت. قرأها، فهزته، ودون أن يقول لدوستويفسكي كلمة واحدة، أخذها، وذهب بها إلى الناقد الشهير عندئذ (نكراسوف) وارتفعت دقات الجرس على باب دوستويفسكي في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي. كان الطارقان هما (جريجوربيف) و(نكراسوف)، اندفعا عندما انفتح الباب إلى داخل الحجرة، فاحتضنا دوستويفسكي، وانهالا عليه تقبيلًا، وأطلق عليه (نكراسوف) الذي لم يكن قد التقى به من قبل لقب (أمل روسيا). وانقضت ساعة ثم أخرى وهما يتحدثان إليه، ودار أغلب حديثهما

حول الرواية. ولم ينصرفا إلا قرب الفجر، وانحنى دوستويفسكى الـذي ظل دائمًا يشير إلى هذه الليلة، على أنها أسعد ليـالي عمـره، انحـنى على النافذة وتبعهما بنظراته، كان الانفعال لحظتهـا قـد أفقـده توازنـه تمامًـا، فشرع في البكاء، وكان الشعور الذي سيطر عليـه، وهـو يبكي، هـو ذلـك الشعور الذي وصفه فيما بعد، لست أدري أين، بهذه الكلمـات: «هـؤلاء الناس الأصلاء، يا لهم من نبلاء، وطيبين، ويا لي من زائـف، آه لـو أتيح لهم فقـط أن ينظـروا في أعمـاقي!، ولـو كـان لي أن أقـول لهم مـا خفي عليهم، فقد لا يصـدقون قـولي!» إن محاولـة دوستويفسـكي عندئـذ لأن يماثلهما لم تكن ببسـاطة سـوى مجـرد حذلقـة، وعلى الشـباب الـذي لا يقهر أن يقتنص الكلمـة الأخـيرة وهـذه الكلمـة لا تنطـوي عليهـا قصـتي هـذه الـتي انتهت عنـد هـذا الحـد! هـل تـبينت يـا سـيدتي ميلينـا، ذلـك المغزى الذي قد لا يتسنى للعقل أن يدركـه؟ إنـه هـذا، على مـا أظن: لم يكن جريجوريـيڤ ونكراسوڤ، بلا جدال، على قدر ما يسعني أن أوجـز القول في هذا المقام، أكثر نبلًا من دوستويفسكي، لكننا لو صرفنا نظرنا عن تلك النظرة الشـاملة الـتي لم يـدعيها دوستويفسـكي أيضًـا في تلـك الليلة، والـتي لا جـدوى منهـا في مثـل تلـك الحالـة الفريـدة ـ ولـو أنـك استمعت فقـط إلى دوستويفسـكي، فسـوف تقتنعين بـأن جريجوريـيـڤ ونكراسوڤ كانا حقًّا أصيلين وأن دوستويفسـكي ليس نقيًّا، وأنـه زائـف إلى غير حد ـ وأنه لن يبلغ بالطبع نصـف علـو شـأوهما ـ ولنـدع جانبًـا احتمال أنه كـان بإمكانـه أن يـرد لهمـا دومًـا عطفهمـا ذاك الهائـل الـذي غمراه به دون أن يستحقه منهما. إن المـرء يوشـك أن يراهمـا من خلال

تلك النافذة، وهما يختفيان في البعد، وبهذا يوحيان باستحالة أن يبلغهما أحد!ـ إن مغزى هذه القصة، لسوء الحظ، قد تبدد نتيجة لضخامة اسم دوستويفسكي!

إلى أين سيؤدي بي سهادي؟

بالتأكد ليس إلى شيء لم يكن مقصودًا بالفعل.

المخلص لك

فرانتس ك.

***

سيدتي العزيزة ميلينا

بضع كلمات قليلة فحسب، وربما كتبت لك غدًا مرة أخرى، أما اليـوم، فإنني أكتب فقـط لصـالحي، لمجـرد أن أفعـل شـيئًا لنفسـي، لمجـرد أن أبعد قليلًا، ذلك الانطباع الذي أحدثته رسالتك، وإلا فإن ذلك الانطبـاع سيبقى مسيطرًا عليَّ ليلًا ونهارًا. إنك في غاية الغرابة، يا سـيدتي ميلينـا، فأنت تعيشـين هنـاك في ڤيينـا، وتقاسـين من هـذا الأمـر، ومن ذاك، ولا يزال أمامك متسع من الـوقت لكي يدهشـك أنـاس آخـرين. أنـا مثلًا، لا أشعر بأنني على ما يرام، وأنني كل ليلة أنام نومًا سيئًا، أسوأ من نومي في الليلة الـتي سـبقتها، ولصـديقاتي الثلاث اللائي يعشـن معي هنـا (ثلاث أخوات أكـبرهن في الخامسـة من عمرهـا) موقـف أكـثر حساسـية، فقـد أردن أن يلقين بي في المـاء، في أقـرب فرصـة، سـواء كنـا بـالقرب من النهر، أو لم نكن، وليس ذلك لأنني قد تسببت في إلحاق أدنى أذى بهن بحال من الأحوال. وعندما يهدد الكبار الأطفال على هذه الصـورة، فـإن الأمـر بـالطبع لا يعـدو أن يكـون سـوى مجـرد مـزاح، دافعـه الحب، ولا يعني سوى شيء من قبيل: على سبيل التسلية، هيا بنا نقول أكثر الأشياء اسـتحالة، لكن الأطفـال جـادون، كمـا أنهم لا يكـادون يعرفـون المستحيلات. إن عشر محاولات فاشلة لطرح أي شـيء أرضًـا لا يمكن أن تقنعهم بأن الأمر لن يتم على نفس الصورة في المرة التاليـة. وهم في الحقيقة، لا يتحققون أيضًا من فشل المرات العشر السابقة. إن الأطفال خبثاء عندما يثقل المرء ألفاظهم ونواياهم بمعلومات الشخص الراشـد.

وعندما تهاجمني تلك الطفلة ذات الأعوام الأربعة ــ التي تبدو كأنهـا لم توجد في هذا العالم سوى لكي تتلقى القبلات والأحضان، تلك الطفلـة الممتلئة كالدبـة الصـغيرة، ببطنهـا الـتي مـا تـزال مسـتديرة من آثـار أيـام الطفولة الماضية ــ وعندما تسـندها شـقيقتاها من اليمين ومن اليسـار، ولا يكون خلفي سـوى الـدرابزين، وأبيهم العطـوف، وتلـك الأم الرقيقـة الجميلة الممتلئة (الـتي توشـك على الوضـع) تبتسـم لهـذا كلـه من على البعـد، دون أن تبـدو عليهـا النيـة في تخليصـي من بناتهـا، عندئـذ أكـاد أشرف على نهايتي، وربما يمكن للمرء أن يصف كيف تم إنقاذه!

إن الأطفـال الحساسـين والملهمين يحـاولون أن يـدفعوني بعيـدًا دائمًـا دون سبب واضح؛ لعلهم يرونني زائدًا على الحاجـة، ولعلهم لا يعرفـون شيئًا عن رسائلك أو عن ردودي.

إن (القصـد الواضـح)، في رسـالتي الأخـيرة، لا يجب أن يخيفـك. لقـد حـدث في نوبـة من نوبـات الأرق، وهي ليسـت نـادرة الحـدوث هنـا أن كتبت لـك تلـك القصـة. إن اسـتغراقي في التفكـير فيهـا كـان يبـدو لي غائبًا، شيئًا يتعلـق بـك على نحـو مـا، لكنـني عنـدما فـرغت من كتابتهـا أحسست بتوتر يشد جانبيّ جبهتي حتى أنني لم أعد أذكر تمامًا ما الذي رويته لك فيها. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان قد تبقى ذلك الشكل غير المتبلور للأشياء التي كنت أنوي أن أرويها لك وأنا مستلقٍ فوق مقعـدي الخشبي خارج غرفتي، في الشرفة. وهكذا لم أجد أمامي ما أفعلـه سـوى أن أشير إلى الشعور الأساسي، ولا يمكنني حتى الآن أن أفعل شـيئًا أكـثر من ذلك.

إن لديك كل ما نشر لي، فيما عدا كتابي الأخير (طبيب الأرياف)، وهو مجموعة قصص قصيرة، سيرسلها لك ڤولف، أو أنني على الأصح قد كتبت له منذ أسبوع لكي يرسلها لك. لا يوجد شيء معد للطبع، كما أنني لا أعرف ما عسى أن يتم، ولا اعتراض لديَّ على أي شيء يروق لك أن تفعيله بالكتب والترجمات. إن ما يؤسف له أنها أشياء ليست ذات أهمية كبيرة عندي حتى يكون تركي لها بين يديك تعبيرًا حقيقيًّا عن الثقة التي أشعر بها نحوك. ومن ناحية أخرى، فلقد أسعدتني قدرتي على أن أقوم بتلك التضحية الصغيرة، التي استلزمتها ملاحظاتك الصغيرة عن «العطشجي».

سوف يكون توقعًا سابقًا لأوانه، توقع تلك اللعنة الأبدية التي تنتج عن التورط مرة أخرى في ممارسة المرء لحياته بعين واعية، ذلك أن أسوأ ما في الأمر، ليس تبصر المرء بأخطائه الواضحة، بل تبصره بتلك الأعمال التي اعتبرها ذات مرة أعمالًا صالحة.

وعلى الرغم من كل ذلك، فالكتابة تفيد المرء، فأنا أكثر هدوءًا الآن مما كنت عليه قبل ساعتين، عندما كنت أقرأ رسالتك، على مقعدي في الشرفة. فبينما كنت أستلقي هنالك، سقطت خنفساء على ظهرها أمامي، على مسافة ياردة من مكاني، وبدا عليها اليأس لعجزها عن أن تعتدل، ووددت أن أساعدها، فقد بدا لي ذلك سهلًا، خطوة واحدة أخطوها، ودفعة بسيطة، كانت ستنهي المشكلة، لكنني نسيتها بسبب رسالتك، كما أنني لم أتمكن من النهوض من مكاني، إلى أن أعادتني إلى وعيي بالحياة من حولي مرة أخرى، سحلية، اتجهت في طريقها

نحو الخنفساء، التي كانت ساكنة في وضعها كما هي، قلت في نفسي، ومع ذلك فلم تكن حادثة تلك التي وقعت لها، لكنه كان صراع الحياة مع الموت، ذلك المشهد النادر لموت الحيوان، ميتة طبيعية، لكن السحلية عندما زحفت فوقها، قلبتها إلى وضعها الطبيعي، ومع أن الخنفساء بقيت مستلقية لفترة قصيرة كما هي وكأنها ميتة، فقد انطلقت بعد ذلك فجأة تجري صاعدة حائط المنزل وكأن شيئًا لم يحدث. ولعل هذا أن يكون قد أعاد إليَّ شيئًا من شجاعتي، فقد نهضت وشربت قليلًا من اللبن، وكتبت لك.

المخلص لك

فرانتس ك

***

غداً سأرسل لك التعليق، وسيكون بالمناسبة تعليقًا قصيرًا للغاية، لن يشغل سوى حيز محدود. إن صدق الترجمة الواضح بذاته، هو بالنسبة لي (عندما أحاول أن أتجاوز ذلك الوضوح) مثار دهشة دائمة، فلا يكاد يوجد التباس واحد، مع أن ذلك حتى لو وُجِد، لن يكون أمرًا بالغ الخطورة. ويقابلني التماسك دائمًا، والفهم الواثق. إن الشيء الوحيد الذي أريد أن أعرفه هو ما إذا كان التشيكيون لن يلوموك على إخلاصك هذا، الذي هو ما أحبه في ترجمتك قبل أي شيء آخر (لا من أجل القصة بل من أجلي). إن إحساسي باللغة التشيكية ـ فإن لي إحساسًا بها أيضًا ـ وهو إحساس قد أشبع تمامًا ـ صار إحساسًا بالزهو البالغ، وأيًّا ما كانت الحال فهل يمكن أن يوجد من يمكن أن يلومك على هذا. حاولي إذن أن تستعيضي عن الإساءة بتقديري.

***

سيدتي العزيزة ميلينا

(لقد أخذ هذا الأسلوب الذي نلتزمه في حديث أحدنا إلى الآخر، يسبب إرهاقًا لكلينا، ولكنه يعد يدًا من تلك الأيدي التي يتشبث بها المريض في دنيانا هذه الغادرة، ولا تعد مثل تلك الأيدي دليلًا على التماثل للشفاء، عندما تتسبب في إرهاق هؤلاء المرضى). لم يسبق لي أن اختلطت بالألمان. إن اللغة الألمانية هي لغة أمي، وهي لغة مألوفة لديَّ لهذا السبب، إلا أن التشيكية تبدو لي أكثر ألفة، لهذا السبب تؤكد رسالتك كثيرًا من شكوكي. إنني أراك بصورة أكثر وضوحًا، حركات جسدك، يديك بالغتي السرعة، الماهرتين غاية المهارة. إن رسالتك تكاد أن تكون لقاء فعليًّا، على الرغم من أنني كلما حاولت أن أرفع عيني إلى وجهك اندلعت النيران عندئذ أثناء قراءتي لرسالتك- يا لها من قصة! فلا يسعني أن أرى شيئًا بعد ذلك، سوى النيران.

من الممكن أن يحمل ذلك أي شخص على أن يقتنع بذلك القانون الذي يحكم حياتك، تلك الحياة التي أهملتها وبأنك لا تريدين أحدًا أن يشفق عليك انسياقًا مع ذلك القانون الذي تقرين بأن احتماله أمرًا ترينه طبيعيًّا، ذلك أن إهمال القانون ليس سوى محض غرور، وخيلاء (وأنا من يتكبد ثمن هذا)، كما أن البراهين التي سقتها لإثبات ذلك القانون، لا تحتاج من ناحية أخرى إلى مزيد من المناقشة. كل ما يسع المرء أن يفعله هو أن يلثم يدك في صمت. أما من ناحيتي، فإنني مؤمن بقانونك، وإن يكن في غير استطاعتي أن أقتنع بأن في مقدوره أن ينقذك،

ويتسلط، على هذا النحو الصارخ، فوق حياتك إلى الأبد. فعلى الرغم من أن هذا يعد تبصرًا من ناحيتك، إلا أنها بصيرة على الطريق، وليست للطريق من نهاية.

وبغض النظر عن هذا كله، فإنه مما يرهق الذكاء البشري المحدود، أن يراك المرء في جوف ذلك الفرن مرتفع الحرارة الذي تعيشين فيه. سوف أتحدث الآن عن نفسي فحسب. ثمة احتمالات ثلاثة لديك فيما يتعلق بي، لو أن المرء نظر إلى الأمر كله كما لو كان واجبًا مدرسيًّا. ففي مقدورك مثلًا، ألا تخبريني بشيء عن نفسك، لكنك ستحرمينني عندئذ من متعة التعرف عليك، بل مما هو أكثر من هذا، من متعة اختبار نفسي عن أساس معرفتي بك. هذا هو السبب في أنك لم تتمكني من إخفاء نفسك عني، ثم إنك قد احتفظت بعديد من الأشياء كأسرار، أو ربما كنت قد تجاهلت ذكرها بالتفصيل، وهذا ما تصرين عليه حتى الآن، لكن ذلك في ضوء ما آلت إليه الأمور الآن هو ما قد أحسه، حتى ولو لم أشر إليه، وهو ما قد يسبب لي ألمًا مضاعفًا. وهكذا فأنت لا يمكنك أن تفعلي هذا أيضًا. ويبقى بعدئذ ثالث تلك الاحتمالات: وهو محاولتك حماية نفسك إلى حد ما، وإن شيئًا من المجهود الذي تبذلينه في هذا السبيل يتبدى واضحًا بالفعل في رسائلك. كثيرًا ما قرأت عن الهدوء والثبات مع أنني غالبًا ما أقرأ الآن عن أشياء أخرى أيضًا، وأقرأ في النهاية حتى عن: «الرعب الحقيقي».

ماذا عن صحتك (صحتي أنا على ما يرام، نومي فقط هو أسوأ شيء في هواء الجبل). إن صحتك لا ترضيني ولا أجد نفعًا في تشخيص الأطباء

لحالتي بصورة عامة، أو أنني أجد أن ذلك التشخيص لا يتمخض عن شيء من النفع أو الضرر، ورد الفعل وحده هو الذي ينجح في توضيح حالة المرء الصحية. لا شك في أن الأطباء أغبياء، أو أنهم ليسوا أكثر غباء من سواهم من الناس، إلا أن ادعاءاتهم تبعث على الضحك، وإن يكن على المرء أن ينتبه إلى حقيقة أن غباءهم يزداد أكثر فأكثر في اللحظة التي يصبح بها بين أيديهم. عندئذ لا يحتاج الطبيب إلى أمر بالغ الغباء، أو إلى ما هو مستحيل. إن المستحيل هو أنك قد أصبحت مريضة بالفعل وأن هذه الاستحالة ستبقى. إلى أي السبل تحولت حياتك منذ أن تحدثت إلى الطبيب؟ ــ هذا هو السؤال الأساسي.

هناك بعد ذلك، بعض الأسئلة الأقل شأنًا، والتي قد تسمحين لي بتوجيهها: لماذا ومنذ متى تحتاجين إلى النقود؟ لماذا رأيت في وقت ما، كما تقولين، أناسًا كثيرين في ڤيينا، ثم لم تعودي ترين منهم أحدًا الآن؟

إنك لا تريدين أن ترسلي إليَّ قصاصاتك، وعلى هذا فليست لديك الثقة في قدرتي على أن أضعها في المكان الملائم من تلك الصورة التي أكونها لنفسي عنك. حسنًا، سوف أغضب منك إذن لهذا، مع أن غضبي لن يكون هنا بالمناسبة، غضبًا بالغًا؛ ذلك أن شيئًا من الغضب يلزم بالفعل لإحداث التوازن، عندما ينزوي في ركن من أركان القلب قليل من ذلك الغضب، متحفزًا ضدك.

المخلص لك

قبل كل شيء يا ميلينا، ما شكل تلك الشقة التي كتبت لي منها يوم السبت؟ هل هي فسيحة وخالية؟ هل أنت وحيدة؟ نهارًا وليلًا؟

لابد أن يكون هذا محزنًا حقًّا، محزن أن تجلسي هنالك وحيدة في ظهيرة يوم السبت الرائع ذاك أمام «شخص مجهول». وجهه ليس سوى «صفحة مكتوبة» كم تحسنت أنا!، فعلى الرغم من صغر مساحة حجرتي، فإن ميلينا الحقيقية، تلك التي زايلتك صراحة يوم السبت، توجد معي هنا، وصدقيني إنه شيء رائع جدًّا، أن أكون معها.

إنك تتشكين من اللا جدوى. في أيام أخرى كان الأمر يختلف، وسيبقى مختلفًا. إن تلك الجملة الوحيدة (في أية مناسبة قيلت تلك الجملة؟) تسبب لك الرعب، إلا أنها غاية في الوضوح مع ذلك، لقد ذكرت تلك الجملة، أو قتلت بحثًا بهذا المعنى، مرات لا حصر لها بالفعل. ويبدو حقًّا أن الإنسان حينما تعذبه شياطينه، يثأر لنفسه بصورة عمياء من أخيه الإنسان. لعلك في مثل تلك اللحظات قد أردت أن تفتدي الآخر تمامًا، فإن لم يتم لك ذلك اعتبرت نفسك عديمة النفع.

من ذا الذي يجرؤ على أن يتجه نحو ذلك الكفر؟ إن أحدًا لم يتمكن من تحقيق ذلك بعد، حتى ولا المسيح، يمكنه أن يقول فقط: «اتبعوني»، ثم ذلك السطر الرائع (الذي اقتبسته لسوء الحظ بصورة خاطئة): اسلكوا تبعًا (لكلمتي)، وسوف ترون أنها ليست كلمة رجل، ولكنها

كلمة (الرب) ويطرد (الشيطان) وحده، بعيداً عن هؤلاء الذين (تبعوه). وحتى ذلك لا يدوم إلى الأبد، ذلك أنهم لو تبعوه، فلن يلبث حتى (هو) أن يفقد التأثير «والهدف». حقًّا ــ وهذه هي النقطة الوحيدة التي أسلم بها ــ إنه قد استسلم هو أيضًا للإغراء.

***

الجمعة

اليوم حتى المساء، قمت وحدي للمرة الأولى بالفعل بجولة طويلة إلى حد ما سيرًا على قدمي،وإلا لكنت قد ذهبت مع آخرين، أو بقيت على الأغلب مستلقيًا في المنزل، ما هي تلك القرية؟ يا للسماء، لو أنك كنت هنا يا ميلينا— أنت «والعقل البائس، العاجز عن التفكير»! إلا أنها ستكون كذبة بالنسبة لي لو قلت إنني أفتقدك. إنه السحر الكامل، المؤلم، إنك توجدين هنا، مثلما أنا هنا، إن وجودك مؤكد أكثر من وجودي، إنك تكونين حيث أكون، وجودك كوجودي، وأكثر كثيرًا من وجودي في الحقيقة. لست أمزح، ذلك أنني أتخيلك أحيانًا، بما أنك هنا، تفتقدينني، وتتساءلين: «أين هو؟، ألم يكتب قائلًا إنه في ميران؟».

ف

هل تسلمت رسالتيّ ردًّا على رسائلك؟

***

سيدتي العزيزة ميلينا

إن النهار بالغ القصر، فكيف يبدو لك؟. إن المرء ما يكاد يفرغ من قضاء بضعة أمور يومية تافهة حتى ينقضي النهار، فلا تكاد تتبقى لحظة واحدة يفرغ فيها المرء للكتابة إلى ميلينا الحقيقية، ما دام أن ميلينا الأكثر حقيقية كانت هنا طوال النهار، في حجرتي هذه، وفي هذه الشرفة، وفي السحب.

من أين أتت تلك الحيوية، وذلك المرح، وخلو البال، التي تطبع جميعها رسالتك الأخيرة؟ هل تغير شيء؟ أم أنني أخدع نفسي، ولا يخرج الأمر عن أن تلك الفقرات النثرية الرفيعة التي خطها قلمك هي التي أحدثت في نفسي هذا الأثر؟ أو أنك قد أخضعت نفسك لشيء من هذا الانضباط، وبهذا أخضعتها كذلك للظروف، ما هي حقيقة الأمر؟

إن رسالتك تبدأ، كما يبدأ حديث القاضي، وأقول هذا جادًّا. إنك محقّة فيما توجهينه من تعنيف «أو لعلك ليس لك كل الحق في ذلك»، بقدر ما كان لك من الحق الواضح فيما يتعلق بذلك (الأمر الذي تعرفينه حق المعرفة). إن هذا واضح. ولو أن القلق البالغ المتصل يسيطر عليَّ، على نحو ما كان يسيطر عليَّ عندما كتبت لك، لما أمكنني، على الرغم من كل العوائق، أن أبقى مستقرًّا فوق مقعدي، ولكنت قد دخلت عليك حجرتك في اليوم التالي ـ وهو البرهان الوحيد على الإخلاص، وما عداه ليس سوى مجرد لغو، بما فيه البرهان الأخير. أو هو لمحات إلى

ذلك الشعور الذي يكمن تحت كل شيء، غير أن هذا الشعور، شعور صامت، ومستكين.

كيف حدث أن عجزت عن استيعاب هؤلاء الناس السخفاء الذين وصفتهم (وقد وصفتهم لهذا بحب يخلب الألباب)، مثلًا، ذلك الشخص الذي توجه بالسؤال وكثير من الآخرين. إن الأمر لك في النهاية، لتحكمي بنفسك والمرأة هي التي تحكم دائمًا في النهاية. (إن أسطورة باريس تترك هذا الأمر مبهمًا على نحو ما، لكن حتى باريس يحكم فقط لصالح أولئك الذين يرى أن أحكام آلهتهم النهائية، هي أقوى الأحكام جميعًا). إن السخافات التي من هذا القبيل لا تهم كثيرًا، فقد تكون سخافات اللحظة، التي تتحول بعد ذلك بصفة عاملة إلى جد وخير- هل هذا هو الأمل الذي يربطك بهؤلاء الناس؟ من الذي يستطيع أن يقول بأنه يعرف الأفكار السرية الى تدور في رأس قاض من القضاة، غير أن انطباعًا يتملكني بأنك تتجاوزين مثل تلك السخافات، التي من قبيل الفهم، الحب، وأنك بحبك تضفين هالة من الشرف على مثل تلك السخافات. إن هذه السخافات ليست سوى شيء من قبيل اهتزازات الكلاب، وحركتها المتعرجة عندما تعدو، بينما السيد يمضي مستقيمًا في طريقه إلى الأمام، لا في الوسط بالضبط، لكن حيث ينفسح أمامه الطريق تمامًا. سوف يبقى مع ذلك، مكان ما لحبك وهذا ما أثق فيه مطمئنًا (على الرغم من أنني لا أستطيع أن أغالب التساؤل، والإحساس بغرابة هذا الاطمئنان الواثق) وهو ما يذكرني، لمجرد أن أؤكد لنفسي وجهًا من وجوهه، بما قاله ذات مرة، موظف معي في

المكتب. اعتدت منذ سنوات عديدة أن أخرج غالبًا للنزهة في قارب صغير، فوق سطح (المولداو)، جدفت في إحدى تلك المرات ضد التيار، ثم تمددت على ظهري، وتركت نفسي للتيار يجرفني تحت القنطرة. ربما كان منظري يبدو مضحكًا جداًّ، لشدة نحافتي، لمن قد يتطلع إليَّ من فوق تلك القنطرة.

وعندما شاهدني ذلك الموظف، على هذا النحو، في إحدى تلك المرات، وبعد أن ألح على الجانب الضاحك في ذلك المشهد بما يكفيه، لخص انطباعه عن ذلك المشهد كما يلي: إنه يبدو مشهداً يسبق (الحساب الأخير) مباشرة، يمثل اللحظة التي ترتفع فيها الأغطية عن الأكفان، بينما يبقى الموتى كما هم بلا حراك.

لقد خرجت في نزهة قصيرة (ليست هي تلك النزهة الطويلة التي حدثتك عنها ولم تتحقق)، وقد ظللت عاجزًا نحو ثلاثة أيام من شدة الإرهاق (لم يكن إرهاقًا خطيرًا) عن عمل أي شيء، عاجزًا حتى عن الكتابة إليك، قرأت فقط الرسالة ـ وقرأت (المقال)[18] عددًا من المرات. وفي اعتقادي أن مثل تلك القطعة النثرية لم توجد، بالطبع في حد ذاتها، لكنها لا بد قد خرجت إلى الوجود لكي تكون شيئًا من قبيل لوحة الإعلانات على الطريق المؤدي إلى شخص ما، على طريق يواصل المرء سيره عليه بسعادة متزايدة، حتى يدرك المرء في لحظة إشراق، أنه لا يتقدم بل يجري بسهولة في صورة دائرية في متاهته الخاصة به، غير أنه يجري بتأثير متزايد، وبانفعال متزايد عن ذي قبل.

18قصاصات ميلينا المنشورة في الصحفة التشيكية.

لكن، أيًّا كانت الحال؛ فليس كاتبًا عاديًّا، ذلك الذي يمكنه أن يخط مثل ذلك المقال.

فعندما قرأته امتلأت ثقة في كتابتك، كثقتي في شخصك. أعرف في اللغة التشيكية (في حدود معلوماتي المحدودة)، موسيقى واحدة فقط تستهويني في تلك اللغة، هي موسيقى لغة (بوتسينا نيمكوفا)[19]، وها هي ذي موسيقى أخرى، إلا أنها تنتمي إلى الموسيقى السابقة في الإرادة والعاطفة والجمال، وتتسم فوق ذلك كله بالذكاء الواعي. هل يمكن أن يكون هذا كله نتيجة للسنوات القلائل الأخيرة وحدها؟ هل تكتبين باستمرار؟ سوف تقولين بالطبع إنني أتحامل عليك بطريقة تثير الضحك، وإنك لمحقة بالفعل، إنني بالطبع متحامل، لكنني لست متحاملًا بما اكتشفته في المقال (وهو بالمناسبة) ليس مقالًا سلسًا، وتشير بعض أجزائه من حين لآخر إلى تأثير الصحافة الضار. لكنني متحامل بما عدت فاكتشفته مرة أخرى في المقال. في إمكانك أن تلحظي على الفور غرابة حكمي مع ذلك، فقد خدعتني فقرتان، فأوشكتا أن تقنعاني بأن أسلوب المقال المبتور يمكن أن يكون من نتاج يدك. أحب جدًّا أن أحتفظ بالقصاصات، ولو لكي أطلع عليها شقيقتي، لكن بما أنك تريدينها في الحال، فسوف أرسلها لك، خاصة، وأنني أرى بعض المذكرات الحسابية في الهامش.

لقد كونت لنفسي صورة أخرى عن زوجك. بدا لي وسط جمع المقهى أشد الأشخاص جدارة بثقة المرء، وأكثرهم قدرة على الفهم، وأكثرهم

19كاتبة تشيكية كبيرة (1820 – 1862) من أشهر أعمالها روايتها (Babicka الجَدَّة)

هدوءًا. بدا لي شخصًا يفيض بمشاعر الأبوة إلى غير حد، على الرغم من أنه شخص غامض أيضًا، لكن ليس إلى الحد الذي يمكن أن يلغي ما قلته عنه الآن، إنني أكنّ احترامًا له دائمًا، أما عما يمكنني أن أراه فيه، أبعد من ذلك، فليست لديَّ الفرصة ولا المقدرة على أن أرى شيئًا فيما عدا ما ذكرته، لكن بعض الأصدقاء، وخاصة ماكس برود، له رأي قيم فيه، ولقد كنت دائمًا على وعي بهذا الرأي عندما كنت أفكر فيه.

لقد أحببت بصفة خاصة في إحدى المرات غرابة طوره التي تتبدى في اهتمامه بأن يُطلب للرد على التليفون في كل مقهى، عدة مرات خلال الليلة، ويبدو أن شخصًا ما، لا بد له، بدلًا من أن ينام أن يجلس إلى التليفون، وهو يغالب نعاسه، ورأسه على ظهر مقعده، ويتفرغ هذا الشخص بين الحين والأخر، لكي يتصل به تليفونيًّا. إنها حالة أفهمها غاية الفهم، حتى أنني أذكرها فقط لهذا السبب.

المخلص لك

فرانتس ك

ماذا تعتقدين؟ هل يمكن أن تصلني رسالة يوم السبت؟ من الممكن ذلك، لكنه مجنون ذلك الشوق إلى استلام الرسائل. ألا تكفي رسالة واحدة؟ ألا يكفي المرء أن يعرف مرة؟ لا شك أن مرة تكفيه. إلا أن المرء على الرغم من ذلك يميل إلى الخلف ويرتشف الرسائل، ولا يتوقف وعيه عند شيء سوى رغبته في ألا يتوقف عن الارتشاف. فسري لي هذا، يا ميلينا! يا مدرستي.

الخميس

لا أريد الآن أن أتحدث عن شيء سوى هذا (لم أقرأ رسائلك بعد جيدًا)؛ فقد حومت حولها كما تحوم الفراشة حول الضوء، واحترقت رأسي عدة مرات. لقد اتضح لي فجأة، وهذا ما اكتشفته الآن فحسب، أنهما رسالتان مختلفتان تمام الاختلاف، إحداهما يجب استنزافها إلى آخر قطرة، والأخرى يجب على المرء أن يتخذها نذيرًا، ولعل الثانية أن تكون هي التي تأخرت.

لو أن المرء التقى بأحد معارفه، وسأله باهتمام عن حاصل ضرب 2×2 فسوف يبدو هذا السؤال عندئذ سؤالًا أبله، لكنه سيبدو في الصف الأول من المدرسة الابتدائية سؤالًا معقولًا للغاية. والآن بسؤالي الذي أوجهه إليك يا ميلينا، يبدو الأمر على هذا النحو الأبله، وإن تضمن في ثناياه سؤال المدرسة الابتدائية ــ إن في سؤالي أيضًا لحسن الحظ شيئًا من جوهر سؤال المدرسة الابتدائية. لكنه بدا لي دائمًا أمرًا غير مفهوم بالمرة، عندما كان يرتبط بي شخص ما، وقد حطمت لهذا عديدا من العلاقات الإنسانية (منها مثلًا علاقتي بفايس)[20]، تبعًا لمزاج عقلي يعتقد دائمًا في خطأ الآخر أكثر مما يعتقد في المعجزات (على الأقل إلى الحد الذي يعنيني).

إنني أعجب، لماذا تعكرين مزيدًا من التعكير مياه الحياة العكرة بالفعل، بمثل هذه الأمور، إنني أرى أمامي امتدادًا لطريق مفتوح، وأدرك

20أرنست فايس، شاعر وروائي من براغ.

كم هي هائلة تلك المسافة التي يشق عليَّ غالبًا أن أقطعها، وإن كان لا بد لي من أن أقطعها بادئًا من وضعي الحالى قبل أن أصبح جديرًا بنظرة عابرة (ألقيها بنفسي على نفسي، فكم يلزمني لكي أحظى بنظرة من الآخرين)ـ ليس هذا تواضعًا بل غرورًا لو أنك تمعنت في الأمر جيدًا ـ والآن لقد تسلمت رسالتك يا ميلينا، فكيف يمكنني أن أعبر عن الفارق؟ رجل يستلقي في القذارة والنتن الذي يفوح من فراش موته، وهنا يحضر ملاك الموت، أجمل الملائكة جميعًا، ويتطلع إليه، فهل يجرؤ هذا الرجل عندئذ أن يموت؟ إنه يستدير إلى الناحية الأخرى من الفراش، ويختبئ في فراشه أكثر، إنه عاجز عن الموت.

باختصار، أنا لا أصدق ما تقولينه، يا ميلينا، ولا توجد أية وسيلة يمكنها أن تثبت لي ذلك ـ كما لم يتسن لأي شخص أن يثبت ذلك لدوستويفسكي في تلك الليلة، وإن حياتي لتستمر ليلة واحدة ـ يمكنني أن أثبت ذلك لنفسي، ويخيل لي أنني قادر على ذلك (بنفس الطريقة التي أتيح لك بها ذات مرة رؤية الرجل الجالس فوق المقعد الخشبي)، إلا أنني لا أصدق ذلك عن نفسي. لقد كان ذلك السؤال لهذا، خدعة غريبة ـ ولعلك قد تبينت هذا في الحال ـ كما يحدث أحيانًا لمدرس، لإرهاقه، ورغبته في الهدوء أن يسمح لنفسه بأن ينخدع بإجابة صحيحة من أحد التلاميذ، فيسمح لنفسه أن يقتنع بأن هذا التلميذ يفهم الموضوع حقًا، بينما هذا التلميذ في الحقيقة يفهمه فقط من زاوية لا علاقة لها بالموضوع أصلًا، ودون فهم كامل للموضوع نفسه دون شك. وليس للمرء أن يحاول شرح الموضوع شرحًا كاملًا لهذا

التلميذ، لأن هذا، هو ما يجب أن يضطلع به المدرس وحده. لا يتم هذا، مع ذلك بواسطة التشكي، والنواح، والتدليل، والتوسل، والأحلام، (هل تسلمت الرسالتين الأخيرتين الخامسة والسادسة، لعلك أن تتفحصيهما، فهما تنتميان إلى الكل) أقول إن الأمر لا يتم بأية وسيلة أخرى سوى... ليبق هذا الأمر معلقًا الآن.

بالتطلع إلى رسالتك، رأيت أنك أيضًا تذكرين الفتاة. لهذا، ولكي لا أدع مجالًا للشك هنا، أقول إنك قد أسديت إلى هذه الفتاة أكبر خدمة ممكنة، بالإضافة إلى ألمك المؤقت، ولا يمكنني أن أفكر في أية وسيلة أخرى سوى هذه الوسيلة التي يمكنها أن تتحرر بها مني. إن لديها بالفعل إحساسًا مريرًا متشائمًا، لكن ليست لديها القدرة على أن تفهم من أين يحصل المكان الذي بجواري على دفئه (على اليسار، وإن لم يكن على يسارها). أذكر أننا كنا نجلس بجوار بعضنا البعض فوق الأريكة في شقة تتكون من حجرة واحدة في فرشوفتز)، ولعل ذلك كان في شهر نوفمبر، وكانت الشقة لنا لمدة أسبوع، كانت سعيدة لعثورها على هذه الشقة بعد عناء بالغ، ولأن زوجها المقبل يجلس بجوارها، (وأكرر قولي بأنني بصفة خاصة كنت أتعجل ذلك الزواج، وكانت هي قد استجابت فقط، ولقد تملكها الخوف، ثم قاومت، لكنها بالطبع روضت نفسها على الفكرة تدريجيًّا) ـ عندما أفكر في هذا المشهد بكل تفاصيله مرات تفوق في عددها ضربات قلب المريض بالحمى، أعتقد عندئذ أنني قادر على فهم أي وهم بشري (في هذه الحالة كان الوهم، وهمي أنا أيضًا لعدة شهور، ولم يكن الأمر بالنسبة لي وهمًا

فقط، بل كان أمرًا من نوع آخر، كما أنه كان من الممكن أيضًا أن يكون زواجًا عقليًّا بالمعنى الصادق للكلمة). أقول إنني أعتقد أنني قادر على فهم أي وهم يمكن تخيله، وأخشى عندئذ أن أرفع كوب اللبن إلى فمي، ذلك أنه قد يرتطم بسهولة مباشرة، تحت عينيّ، لا مصادفة، بل عمدًا، وتتناثر شظاياه في وجهي.

سؤال: مم يتألف اللوم الموجه إليك؟ نعم، لقد سببت أنا أيضًا للناس شيئًا من التعاسة، في بعض الأحيان، لكنني أذكر تمامًا أنهم لم يوجهوا إليَّ لومًا على شيء من هذا في نهاية الأمر. فقد ظلوا صامتين، بل إنني أعتقد حتى أنهم لم يلوموني على شيء فيما بينهم وبين أنفسهم. إنني أتمتع بهذا الوضع الاستثنائي بين الناس.

إلا أن هذا كله لا يهم إذا قورن بفكرة جاءتني مبكرًا في هذا الصباح عندما غادرت الفراش، ولقد استولت عليَّ هذه الفكرة حتى لقد اغتسلت، وارتديت ملابسي دون أن أدري كيف فعلت ذلك، وربما كنت قد حلقت ذقني أيضًا على نفس الصورة، لو لم يزعجني أحد الزوار. إن الأمر هو ما يلي باختصار: لقد تركت زوجك لفترة قصيرة، وليس هذا شيئًا جديدًا بعد كل ما حدث من قبل. إن الأسباب هي: مرضك، وعصبيته (سوف يستفيد أيضًا من هذا)، ثم الأحوال التي تسود ڤيينا بالإضافة إلى ذلك.

إلى أين تريدين أن تذهبي، هذا ما لست أدريه، إن أفضل مكان تذهبين إليه قد يكون أحد الأماكن الهادئة في بوهيميا. ومن الأفضل أيضًا ألا

أتدخل أنا، أو أظهر.

أما المال اللازم لذلك فيمكنك مؤقتًا (يمكننا أن نصل إلى اتفاق بخصوص رده) أن تحصلي عليه مني (أذكر فقط ميزة واحدة إضافية يمكنني أن أجنيها من وراء ذلك، هي أنني سأتحول إلى موظف ذاهل العقل، منهمك في العمل ـ إن وظيفتي، بالمناسبة، هي وظيفة غريبة مضحكة، وسهلة بصورة تدعو للأسف، سهلة سهولة لا يمكنك أن تتخيليها. ولست أدري لماذا يدفعون لي مرتبًا!)، فلو لم يكفك المال الذي أزودك به من حين لآخر على مدى شهر، فليس عليك سوى أن ترفعي المبلغ بإضافة الفارق المطلوب الذي لن يكون بالغًا. لن أقول الآن شيئًا أكثر من هذا مدحًا في هذه الفكرة، لكن لديك فرصة لكي تبيني لي بحكمك على هذه الفكرة إن كان لي أن أثق في أحكامك على أفكاري الأخرى (إنني مقتنع بقيمة هذه الفكرة).

المخلص لك

كافكا

***

ليس من السهل مطلقًا الآن، بعد أن قرأت هذه الرسالة المزعجة بالغة الإزعاج في الحقيقة، أن أشكرك على السرور الذي جلبته لي بوصولها. اليوم إجازة، ولم يصل البريد العادي بعد، ولا يمكنني أن أقطع بما إذا كان ثمة شيء سيصلني منك غدًا الجمعة، وعلى هذا فثمة نوع من

الصمت الذي يبعث على الضيق، على الرغم من أنه لم يكن صمتًا حزينًا على الإطلاق بقدر ما يسعك أن تدركي ذلك. لقد كنت في غاية القوة، في رسالتك الأخيرة، حتى لقد رحت أرقبك، كما لو كنت أرقب متسلقي الجبال من مكاني على مقعدي الخشبي لأرى إن كان في استطاعتي أن أميزهم هنالك في أعلى الجبل وسط الثلوج. ثم، لقد وصلت رسالتك في النهاية، قبل الغداء، كان في استطاعتي أن أتناولها في الحال، أنتزعها من جيبي، وأضعها على المائدة، ثم أضعها ثانية في جيبي على نفس النحو الذي اعتادت الأيدي أن تسلكه في العبث بالرسائل. إن المرء يرقب الأيدي وهي تفعل ذلك، ويعجب بما فيها من طفولة. طوال ذلك الوقت لم أكد أتعرف على الجنرال والمهندس اللذين كانا يجلسان في مواجهتي (شخصين، مهذبين ودودين)، ونادرًا ما كنت أفهمهما، كما أن تناول الطعام الذي استأنفته اليوم ثانية (لم أتناول بالأمس شيئًا من الطعام)، فلا تزيديني خوفًا إذن، فمن الخدع الحسابية التي درستها بعد تناول وجبتي بدت لي المشاكل القصيرة أكثر وضوحًا بالنسبة لي من الحلول الطويلة، التي كان يتخللها رغم ذلك، مشهد من خلال النافذة المفتوحة، كان في مجال رؤيتي ـ منظر أشجار الشربين، والشمس، والجبال والقرية، ومنظر عام لمدينة ڤيينا بالإضافة إلى هذا كله.

لكنني قرأت الرسالة بعد ذلك بعناية، أعني أنني قرأت بعناية رسالة السبت، وسوف أؤجل قراءة رسالة الإثنين حتى تصلني رسالتك التالية، فثمة أشياء في تلك الرسالة لا أحتمل قراءتها بعناية. ويبدو واضحًا أنني

لم أشف شفاء تامًّا، علاوة على ذلك فالرسالة أصبحت رسالة قديمة الآن بالفعل. أذكر طبقًا لإحصاء قمت به أن ثمة رسائل خمس في طريقها إليك حاليًا، سوف تصل منها ثلاثة على الأقل إلى يدك الآن، حتى لو حدث أن فقدت إحدى تلك الرسائل، أو تأخرت الرسائل المسجلة، والآن لا يبقى أمامي بعد هذا سوى أن أطالبك بالرد عليَّ، هنا في الحال، مجرد كلمة واحدة تكفيني، لكنها يجب أن تكون تلك الكلمة التي تكسر حدة اللوم الذي تحفل به رسالة الإثنين وتعينني على قراءة تلك الرسالة. اتفق لي، أن كنت خلال يوم الإثنين ذاك في نوبة صراع عقلي عنيف (وإن لم يصطبغ بصبغة يائسة).

والآن الرسالة الأخرى- إلا أن الوقت متأخر الآن، ذلك أنني كنت قد قبلت بصورة نهائية، بعد عدة وعود غير صريحة، أن أذهب لزيارة المهندس، وأن أتفرج على صورة أطفاله، وهي صورة كبيرة إلى حد لا يسهل معه إحضارها إلى هنا. إنه لا يكاد يزيد عليَّ في العمر إلا قليلًا، وهو باڤاري، صاحب ورشة، مثقف جدًّا، إلا أنه مرح، وحساس، أنجب خمسة أطفال، بقي اثنان منهم فقط على قيد الحياة (ومع ذلك فلن ينجب مزيدًا من الأطفال، بسبب زوجته)، ويبلغ ابنه الآن الثالثة عشرة من عمره، وتبلغ ابنته الحادية عشرة. يا له من عالم!، ومع ذلك أمكنه أن يحتفظ بتوازنه. لا!..... لا تقولي شيئًا يا ميلينا.... ضد التوازن.

المخلص لك

ف

سأكتب لك أكثر غداً، وقد أكتب لك مع ذلك بعد غد، وأرجوك ألا (تكرهي) مرة أخرى، لا تفعلي ذلك.

قرأت رسالة يوم السبت مرة أخرى، فبدت لي أشد إزعاجًا منها عندما قرأتها لأول مرة، يجب على المرء يا ميلينا، أن يأخذ وجهك بين راحتيه، وينظر مباشرة في عينيك، لعلك أن تتعرفي على نفسك في عيني الآخر، فلا تقوين بعد تلك اللحظة حتى على مجرد التفكير في مثل تلك الأشياء التي كتبتها في رسالتك تلك.

***

الجمعة

متى يأتي في النهاية شخص ما، فيقيم هذا العالم المقلوب رأسًا على عقب؟ في أثناء النهار يتجول المرء ورأسه تكاد تحترق- ثمة خرائب رائعة في كل مكان، هنا في الجبال، ويحس المرء عند رؤيته لها بأن عليه أن يصبح هو أيضًا في مثل روعتها - في الفراش، مع ذلك، يقتنص المرء، بدلًا من النوم، أروع الأفكار. اليوم مثلًا، عنَّ لي، بالإضافة إلى اقتراح الأمس، أن بإمكانك قضاء الصيف في الريف مع (شتاشا)[21] التي كتبت لي عنها. سطرت أمس ملاحظة سخيفة، أشرت فيها إلى أنه قد تنقضى بضعة شهور قبل أن تعجز إمكانياتي المالية عن الوفاء بالمطلوب، لقد كان هذا محض هراء، إن المال سيكفي دائمًا.

إن رسالتي صباح الثلاثاء، ومساء الثلاثاء، قد أكدتا لي قيمة اقتراحي، وهو أمر لا يعد مصادفة عارضة. ذلك أن قيمة الاقتراح لا بد من أن يؤكدها كل شيء، كل شيء على الإطلاق. فلو كان ثمة شيء من الخبث في ذلك الاقتراح- وأين هو المكان الذي يمكن ألا يوجد فيه ذلك (الحيوان) الشنيع الذي يمكنه أن يجعل نفسه صغيرًا غاية الصغر حتى لتصعب رؤيته، متى راق له أن يفعل ذلك؟- عندئذ سأعيد النظر في الأمر، ويمكن أن يطمئن إليَّ في هذا زوجك نفسه. إنني ميَّال إلى المبالغة، ومع ذلك فيمكن الثقة بي. لم أرك مطلقًا، لا الآن، ولا فيما

21إحدى صديقات ميلينا.

بعد، وسوف تعيشين أنت في ذلك الريف الذي تحبينه (إننا متشابهان في هذا:

فالريف المنبسط، غير المقفر تمامًا، الريف الذي يزدحم بالغابات والبحيرات، هو ما أحبه غاية الحب).

إنك تبخسين قدر رسائلك يا ميلينا. إن رسائل يوم الإثنين (إنني مشغول بأمرك فحسب)، إنني لم أفرغ بعد من قراءة تلك الرسائل. (ولقد حاولت قراءتها هذا الصباح. لقد تحسنت رسائلك إلى حد ما ـ حقًّا لقد أصبحت بالفعل، شيئًا أقرب إلى التاريخ بفعل اقتراحاتي، إلا أنني ما زلت عاجزًا عن قراءة تلك الرسائل إلى نهايتها).

أما عن رسالة يوم الثلاثاء، فهي (مثلها مثل تلك البطاقة البريدية الغريبة، المكتوبة في أحد المقاهي؟ ليست لديَّ أية إجابة حتى الآن على اتهامك الذي يتناول موضوع ڤيرفل ـ وأخشى ألا أتمكن من الإجابة على أي شيء مما تنتظرين أن أجيبك عليه. إنك تجيدين الرد، على نحو أفضل مني، وهو ما يطمئن له المرء)، جعلتني رسالة الثلاثاء تلك هادئًا هدوءًا تامًّا، وراضيًا على الرغم من ليلة قضيتها في أرق سببه رسالة يوم الإثنين. إن رسالة الثلاثاء لها بالطبع وخزتها هي أيضًا، وهي وخزة تنفذ في الجسم لكنك أنت[22] من تنخسين تلك الوخزات ـ هذا بالطبع هو

22هنا يستخدم كافكا لأول مرة، ضمير الشخص الثاني المفرد (أنت) Du - في مخاطبة حبيبته، بدون تكلف، لكنه سرعان ما يعود ثانية إلى استخدام ضمير الجمع Sie الذي يستخدم في صيغة التحفظ.

مجرد حقيقة لحظة، لحظة ترتعش بالسعادة والألم ـ ، فما هو الشيء الذي يصدر عنك، ثم يصعب عليَّ تحمله؟

ف

لو واتتك الفرصة، ولم تجدي في الأمر غضاضة، أرجوك أن تقولي كلمة رقيقة ل (ڤيرفل) نيابة عني ـ ثمة أسئلة لسوء الحظ لم تجيبني عليها مع ذلك. مثلًا، تلك الأسئلة التي تتناول كتاباتك.

لقد حلمت بك أخيرًا مرة أخرى، ولقد كان حلمًا طويلًا إلا أنني لا أكاد أذكر منه شيئًا. كنت في ڤيينا التي لا أذكر عنها شيئًا، ثم وصلت بعد ذلك إلى براغ ونسيت عنوانك، لم أنس اسم الشارع فحسب، بل لقد نسيت المدينة بأكملها أيضًا، نسيت كل شيء. فقط طفا على سطح ذاكرتي على نحو ما اسم (شرايبر)، إلا أنني لم أر ماذا يمكنني أن أفعل به وعلى هذا فقد فقدتك نهائيًّا. وفي غمرة يأسي قمت بعديد من المحاولات الخبيثة التي لم أدر كيف لم تنجح على الرغم من خبثها في تحقيق أي شيء، ولم أعد أذكر من هذه المحاولات سوى واحدة فقط.

كتبت فوق أحد مظاريف الرسائل اسم (ميلينا)، وتحته (أرجو أن تسلم هذه الرسالة إليها، وإلا فإن وزارة المالية سوف تتكبد خسائر فادحة)، وبهذا التهديد كنت آمل أن تتحرك كل إمكانيات الحكومة للعثور عليك!

الخبث؟ لا تسمحي لنفسك بأن تتهميني به لهذا. لقد كان ذلك في الحلم وحده. إنني لست شريرًا إلى هذا الحد سوى في الأحلام فقط.

لقد أخرجت الرسالة مرة أخرى من داخل المظروف، فثمة متسع لها غيره، أرجوك قولي مرة أخرى فحسب،ـ لا تقوليها دائمًا، فلست أريد ذلك أيضًا ـ، قولى أنت Du فحسب، عندما تخاطبينني، مرة أخرى.

***

إنني أقوم بشيء من قبيل الإحصاء. كتبت هذه الرسالة في يوم السبت، ووصلت يوم الثلاثاء ظهرًا، على الرغم من عطلة الأحد، واليوم الثلاثاء، أنتزع من يد الخادمة ذلك الرباط البريدي البديع، وعليَّ أن أرحل يوم الإثنين، وأتركها، أترك هذه الرسالة.

إنك بالغة الطيبة لانزعاجك بشأني، أنت تنتظرين الرسائل، نعم، في الأسبوع الماضي لم أكتب، انقضت بضعة أيام قلائل، لم أكتب لك فيها، لكنني كتبت لك يوميًّا ابتداء من يوم السبت، وعلى هذا فسوف تصلك الآن ثلاث رسائل، عند مقارنتها بما سبقها من رسائل، سوف تحمدين الفترة التي لم تصلك خلالها أية رسائل مني. ستتحققين من أن مخاوفك قد تحققت بصورة عامة، وإنني غاضب منك أيضًا، وأن ثمة أشياء لا أحبها في رسائلك على وجه الخصوص، وأن القصاصات قد ضايقتني، وهكذا.

لا يا ميلينا، ليس لك أن تخشي شيئًا من هذا كله، ذلك أن العكس هو ما سوف يجعلك ترتعدين.

إنه لأمر بالغ الخطر أن يتسلم المرء رسالتك، وأن يكون عليه أن يرد عليها بعقلي المؤرق. لا يمكنني أن أفكر في شيء يصلح لكي أكتب لك فيه، إنني أتسكع فحسب، هنا بين السطور، تحت ضياء عينيك، وتحت أنفاسك كما لو كنت أتنزه في يوم سعيد صحو، يظل صحوًا وسعيدًا، حتى عندما يكون الرأس متوعكًا، مرهقًا، وعندما يكون على المرء أن يرحل يوم الإثنين عن طريق ميونيخ.

المخلص لك ف

هل عدتِ جريًا، متقطعة الأنفاس إلى المنزل بسببي؟ لكن، ألست مريضة، وهل لم يعد لي بعد أن أخاف عليك؟ إن هذه هي الحقيقة، إنني لم أعد أهتم بأمرك- لا، إنني أبالغ الآن كما سأبالغ فيما بعد، لكنه ذلك الاهتمام الذي كنت سأبديه نحوك لو أنك كنت هنا تحت إشرافي، أسقيك اللبن الذي أشربه، وأنعشك كما أحاول أن أنعش نفسي باستنشاق الهواء الذي يهب عليَّ من الحديقة- لا، سوف يكون هذا قليلًا جدًّا، أعني إنعاشك بصورة تفوق كثيرًا انتعاشي أنا.

قد لا أغادر هذا المكان يوم الإثنين لعدة أسباب، ولعلني أغادره بعد ذلك بقليل، سوف أسافر مباشرة، مع ذلك، إلى براغ، فلقد سيروا أخيرًا قطارًا سريعًا على خط بولتسانو- ميونيخ- براغ. إذا كنت ما تزالين

ترغبين في أن تكتبي إليَّ بضعة سطور، فيمكنك أن تفعلي ذلك، فهل لن تصلني هذه السطور، أظن أنها سوف تسبقني إلى براغ.

فامضي قدمًا في العناية بي.

ف

إن المرء بالغ الحمق حقًّا، إنني أقرأ كتابًا عن التبت، وعندما بلغت وصف إحدى المستعمرات التي تقوم بالقرب من حدود التبت، في الجبال، أخذ قلبي فجأة يزداد ثقلًا. إن هذه القرية تبدو لي مقفرة بصورة موحشة للغاية وهي على هذا البعد من ڤيينا، إن ما أراه حمقًا هو فكرة، إن التبت بعيدة عن ڤيينا، فهل ستكون بعيدة حقًّا؟

***

الخميس

ها أنت ترين يا ميلينا أنني أستلقي فوق المقعد الخشبي في الصباح، عاريًا، نصفي في الشمس، ونصفي الآخر في الظل، بعد ليلة مؤرقة بطولها تقريبًا. وكيف يتسنى لي أن أنام، وأنا، الخفيف كالريشة بالنسبة للنوم، أدور حولك باستمرار، وطالما كنت خائفًا (تمامًا كما كتبت أنت اليوم)، خائفًا حقًّا من ذلك (الذي سقط في طوقي) خائفًا نفس الخوف الذي سمعناه عن الأنبياء، الذين كانوا أطفالًا ضعفاء (خائفين فعلًا، وإن يكن خوفهم هذا ما يزال في بدايته)، حين سمعوا صوتًا يناديهم، فخافوا وشقوا عصا الطاعة، ودقوا أقدامهم في الأرض، وأحسوا لحظتها بخوف يطير له العقل شعاعًا، لابد أنهم قد سمعوا بلا شك، أصواتًا من قبل، لكنهم لم يفهموا كيف تأتَّى لهذه الرهبة أن تصدر عن هذا النداء بالذات، فهل كان ضعف آذانهم، أو كانت قوة الصوت هي السبب؟،كما أنهم لم يدركوا؛ لأنهم كانوا أطفالًا، أن ذلك الصوت كان قد ساد بالفعل، وأكد وجوده بذلك النذير السابق نفسه الذي أحسوه عند سماعه، والذي لم يثبت بعد بحدوثه مع ذلك، أي شيء يتعلق بأمر نبوتهم، ذلك أن الكثيرين قد سمعوا ذلك الصوت، لكن جدارتهم بسماعه هو أمر يكتنفه الشك. فلكي يلزم المرء جانب الأمان، من الأفضل له أن ينكره بشدة، مقدمًا ـ هذه إذن هي حالتي وأنا مستلقٍ هنا عندما وصلتني رسائلك.

ثمة صفة غريبة أظن أننا كلينا نشترك فيها يا ميلينا، ذلك أننا في غاية الخجل، والقلق، وتختلف كل رسالة من رسائلنا عن الأخرى على نحو ما، وترتعد كل رسالة عن الرسالة التي تليها، وترتعد أكثر من الرد. إنك لست كذلك بطبيعتك، من السهل أن يدرك المرء ذلك، وأنا، ربما كنت أنا أيضًا، مخالفًا لذلك بطبيعتي، إلا أن ذلك قد أصبح على الأغلب، هو طبيعتي الثانية بالفعل، إن حالتي هذه تختفي فقط عندما ينتابني اليأس، وأحيانا عندما ينتابني الغضب، ولا حاجة بي إلى أن أقول إنها تزايلني عندما أشعر بالخوف.

ينتابني أحيانًا إحساس بأننا كلينا في حجرة واحدة لها بابان متقابلان، وكل منا يقبض على مقبض أحد البابين، وما إن يطرف جفن أحدنا حتى يكون الآخر خارج الباب الذي يمسك بمقبضه، عندئذ لا يكون على الأول سوى أن ينطق بكلمة حتى يكون الآخر قد أغلق الباب خلفه، فلا تصبح رؤيته ممكنة. إنه سيفتح الباب ثانية بلا شك لأنها حجرة قد لا يتسنى للمرء أن يغادرها، فلو لم يكن الأول يشبه الثاني إلى هذا الحد، لو أنه كان هادئًا، أو لو أنه فقط تعمد ألا ينظر إلى الآخر، لو أمكنه بتؤدة أن يشرع في ترتيب الحجرة كما لو كانت مجرد حجرة كغيرها من الحجرات. لكنه بدلًا من أن يفعل ذلك، فعل ببابه نفس ما فعله الآخر تمامًا، حتى أن كليهما قد يكونان أحيانًا خارج البابين، بينما تبقى الحجرة البديعة خالية.

عن مثل هذه الحالة ينتج الكثير من سوء التفاهم المؤلم. تشكين يا ميلينا من بعض الرسائل التي نفضتها جيداً فلم يسقط منها شيء، إلا

أنها، ما لم أكن مخطئًا، هي تلك الرسائل التي أحسست عند كتابتها أنني قريب منك غاية القرب، وأن دمائي تألفك، وتحاول أن تروض دماءك. إنها تلك الرسائل التي أحسست بنفسي فيها أغوص في أعماق الغابة، وأحسست فيها بغاية الراحة، في ارتياحي، حتى أن المرء لا يريد في الحقيقة أن يقول شيئًا سوى أن هناك في الأعالي، خلال قمم الأشجار، يمكنه رؤية السماء، وهذا هو كل شيء. وطوال ساعة يظل المرء يردد نفس الشيء ولا يوجد في هذا كله حقًّا «كلمة واحدة لم يتدبرها المرء تمام التدبر».

غير أن ذلك لم يدم طويلًا مع ذلك، دقيقة على الأغلب، وسرعان ما ارتفعت ثانية أصوات طبول الليل الساهر.

يجب أن تتدبري أنت أيضًا يا ميلينا، نوع الشخص الذي خطا نحوك، إن رحلة الثمانية والثلاثين عامًا تستلقي خلفه (ولما كنت يهوديًّا فإن الرحلة في حقيقتها أطول بالفعل من ذلك)، فلو أنني عند منعطف عارض تبدى لي في طريقي، قد رأيتك، أنت التي لم أتوقع أن أراك مطلقًا، وأن تجيء رؤيتي لك فوق ذلك متأخرة إلى هذا الحد، عندئذ لا يمكنني يا ميلينا أن أصيح ملوِّحًا لك، ولا أن يهتف لك شيء في داخلي ولا أن أقول آلاف الأشياء الحمقاء، التي لا أجد لديَّ شيئًا منها (وأحذف الحماقات الأخرى التي أحس أن لديَّ منها ما يزيد على حاجتي)، أما عن حقيقة أنني راكع فلعلني لم أكتشف تلك الحقيقة إلا من خلال رؤيتي لقدميك أمام عيني مباشرة، فحسب، ومن تطويقي لهما بذراعي.

ولا تطالبيني بشيء من الإخلاص، يا ميلينا، فلا أحد يمكنه أن يطالبني بالإخلاص أكثر مما أطالب به نفسي، إلا أن أشياء كثيرة قد أفلتت مني. إنني واثق من ذلك، ولعل كل شيء يراوغني غير أن التشجيع في هذه المطاردة لا يدفعني، بل على العكس، فلعلني لا أستطيع عندئذ أن أخطو خطوة واحدة، فكل شيء يصبح على حين فجأة مجرد كذبة، ويحاصر الصيد الصياد، إنني أسير على مثل ذلك الطريق المحفوف بالمخاطر يا ميلينا.

إنك تقفين في ثبات بالقرب من إحدى الأشجار، صغيرة، وجميلة، وعيناك بتألقهما تقهران العالم الذي يعاني الآلام. إننا نلعب لعبة (الاستخفاء) فأنا أزحف من شجرة إلى أخرى في الظلال، إنني أسير في طريقي، وتناديني أنت وتنبهينني إلى الأخطار، وتحاولين أن تبثي الشجاعة في نفسي، أنا المشدوه لخطوتي المتعثرة، تذكرينني أنا (أنا!) بخطورة اللعبة ـ غير أنني لم أستطع أن ألعبها، سقطت، وها أنذا الآن مستلقٍ على الأرض، لا يمكنني أن أستمع في وقت ما إلى ذلك الصوت المزعج الذي يرتفع من أعماقي، وأن أستمع إليك، غير أنه يمكنني أن أستمع إلى الصوت الأول، وأن أستودعه لديك، لديك دون أي كائن آخر سواك في هذه الدنيا.

المخلص لك

ف

هـذه المحاضـرة الـتي تشـغل صـفحتي رسـالتك يـا ميلينـا، تنبعث من أعماق القلب ـ القلب الجريح ـ (لقد جرحني ذلك ـ أليس هـذا مـا كتبته؟ــ ولقد فعلت أنا ذلك حقًّا، لقد جرحتـك) ولقـد بـدا ذلـك أمـرًا بالغ البراءة ومدعاة للفخر، وكأنـه لم يكن القلب وقـد جـرح، بـل قطعـة من الصلب قـد طرقهـا المـرء، يتطلب ذلـك من المـرء سلوكًا واضـحًا، ويسيء تأويل قصده كذلك— ذلك أن «السخفاء» الـذين يحسـبون عليَّ يحسـبون عليـك أيضًـا، ولأوجـه عندئـذ هـذا السـؤال: مـتى حـدث أن تدخلت بينكما؟ أين هو الحكم؟ وكيف يتسنى لي أن أكون لنفسي هـذه الفكرة الخسيسة؟ ومن أنا حتى أدين الغير، أنا الشـخص الـذي أبـدو في أي مجـال يتطلب أن أكـون واقعيًّا كـالزواج ـ العمـل ـ الشـجاعة ــ التضحية ــ النقاء ـ الحرية ــ الاكتفاء الذاتي ـ الصدق، أبدو في صـورة أدنى بكثـير في أي من هـذه الأمـور بالقيـاس إليكمـا، حـتى أن مجـرد الحـديث في ذلـك، يصـيبني بالسـأم. ومـتى حـدث أن تجـرأت أنـا على تقديم المساعدة الفعالة، وإذا كنت قد تجـرأت، فهـل كنت لأقـدم هـذه المساعدة؟

أسـئلة وفـيرة، كـانت مسـتغرقة في النـوم في العـالم السـفلي، فمـا الـذي توسل إليها بالخروج إلى ضوء النهار؟ إنها أسئلة قاتمة وحزينة، وتجعـل المرء مكتئبًا وحزينًا كذلك. لا تقولي لي أن ساعتين من الحياة، تزيـدان قطعًـا على صـفحتين من الكتابـة، (إن الكتابـة أفقـر، ولكنهـا أوضـح) ــ

وعلى هذا فقد أسيء تفسير قصدي، لا يهم، إن المحاضرة قد ألقيت عليّ، وأنا لست بريئًا، إنني لست بريئًا بما يكفي، وهو ما يبدو لي أمرًا بالغ الغرابة، أساسًا لأنه كان يجب الرد على الأسئلة السابقة ب (لا)، وأبدا.

ثم تأتيني برقيتك العذبة، عزاء يعينني على مواجهة الليل، ذلك العدو العتيد (فلو لم تكن برقيتك بالعزاء الذي يفي تمامًا بحاجتي، فلا شك أن ذلك ليس خطأك، لكنها قسوة الليل، فهذه الليالي القصيرة الدنيوية، تبث عميقًا في نفس المرء بذور الخوف من الليل الأبدي). ومع أن الرسالة تحمل إليَّ عزاءً بالغًا ورائعًا، إلا أنها رسالة فريدة مفعمة غضبًا ينتشر في ثنايا صفحتيها. غير أن البرقية مع ذلك تبدو على العكس من تلك الرسالة ولا يبدو عليها أنها تدري شيئًا عن طبيعة الرسالة، غير أنني يمكنني أن أقول هذا يا ميلينا، عن البرقية: لو أنني، دون اعتبار لأي شيء آخر، قد حضرت إلى ڤيينا، وألقيت أنت تلك المحاضرة عليَّ (تلك المحاضرة التي كما قلت الآن لتوي، لا تتجاوزني، بل تلكزني عمدًا، بقوة، وإن لم يكن ذلك بصورة مباشرة)، وجهًا لوجه ـ ولقد كانت تلك المحاضرة ستوجه إليَّ بصورة ما، وإن لم تكن في صورة كلمات، فلقد كانت ستوجه إليَّ في صورة أفكار، تشي بها نظرة، أو رمشة جفن، أو تضمين في ثنايا حديث آخر ـ عندئذ كنت سأنطرح على وجهي أرضًا، ولم يكن ليوقفني ثانية على قدمي أي مجهود من جانبك، تبذلينه في تمريضي. فلو لم يحدث ذلك على هذا النحو، فلست أشك في أنه كان سيحدث بصورة أخرى أشد سوءًا. هل تفهمين، يا ميلينا.

المخلص لك

ف

***

ماذا عن خبرتك بالطبيعة البشرية يا ميلينا؟ لقد انتابني الشك بالفعل في خبرتك بها عددًا من المرات، عندما كتبت عن (ڤيرفل) مثلا. فعلى الرغم من الحب الذي يتبدى فيما كتبته، ولعل ما كتبته عنه لم ينطو على شيء غير الحب، إلا أن ما كتبته لم يكن صحيحًا مع ذلك، فلو تجاهل المرء تجاهلًا تامًّا جوهر شخصية ڤيرفل، وراح يعزف فقط على وتر وحيد هو التعريض ببدانته (التي تبدو لي بالمناسبة، مسألة لا مبرر للتعرض لها على الإطلاق، على أن ڤيرفل يزداد فيما أرى جمالًا وظرفًا من عام إلى عام، وإن كنت في الحقيقة لا أكاد أراه إلا رؤية عابرة)، ألا تعلمين أن البدناء من الناس هم وحدهم أهل الثقة؟ في هذه الأوعية سميكة الجدران وحدها يتسنى لكل شيء أن ينضج نضجًا تامًّا، وهل تعلمين أن هؤلاء (الرأسماليين) الذين يشغلون أكبر حيز من (الفراغ)، محصنون، غاية الحصانة المتاحة للبشر ضد الخوف، والجنون، وأنهم قادرون على أن يمضوا بهدوء في أداء أعمالهم، وأنهم هم وحدهم، كما قيل ذات مرة هم النافعون في أنحاء العالم كله، باعتبارهم مواطنين عالميين، فهم يدفئون في الشمال، ويلقون ظلا عريضًا في الجنوب (من الممكن أن يعكس المرء هذا القول بالطبع، إلا أنه لا يصبح قولًا حقيقيًّا عندئذ).

أما بالنسبة لليهود، أنت تسألينني عما إذا كنت يهوديًّا. ربما كان هذا السؤال مجرد مزحة فحسب، وربما كنت تسألينني فقط عما إذا كنت أنتمي إلى أولئك اليهود القلقين. لا يمكنك على أية حالة باعتبارك مواطنة من براغ، أن تكوني في مثل سذاجة ماتيلدا، زوجة هاينز، في

هذا الصدد. ولعلك لا تعرفين القصة. يبدو لي أن هناك بعض الأمور المهمة عليَّ أن أقصها عليك، ولا شك أيضًا في أنني سآذي نفسي على نحو ما، لا بالقصة، بل بمجرد سردها، غير أنك تستحقين على الرغم من كل شيء أن تستمعي مني مرة إلى شيء جدير بالسماع ـ هذه القصة يحكيها (مايسنر)، وهو شاعر بوهيمي ـ ألماني، وهو ليس يهوديًّا؛ يحكيها في سيرته الذاتية.

فلقد اعتادت ماتيلدا أن تضايقه بهجومها على الألمان، فقد قالت إن الألمان هم قوم خبثاء، صلفون، متعصبون لجنسهم، وتثيرهم توافه الأمور، وإنهم فضوليون، وإنهم باختصار أمة لا تطاق.

حتى قال لها مايسنر أخيرًا ذات مرة: «ولكنك لا تعرفين الألمان مطلقا»!. فهنري، لا يختلط على أية حالة، سوى بالصحفيين الألمان وحدهم، وهم هنا في باريس جميعًا من «اليهود!» فأجابته ماتيلدا قائلة: «أوه.... إنك تبالغ، فربما كان بينهم يهودي هنا، أو يهودي هناك (سيفرت) مثلًا ـ، قال مايسنر: «لا، إنه الوحيد غير اليهودي بينهم»، فقالت ماتيلدا: «ماذا؟ هل تعني بقولك هذا أن يتيليس مثلًا (وهو رجل طويل أشقر، قوي البنية) يهودي؟». قال مايسنر: «بالطبع إنه كذلك»، «لكن ماذا عن بامبيرجر؟» ـ «هو يهودي أيضًا»! و«أرنشتين؟»، «وأرنشتين كذلك!» وهكذا راحا يعددان جميع معارفهما، وأخيرًا استاءت ماتيلدا وقالت: «إنك تحاول أن تغيظني، ولعلك ستنتهي أيضًا إلى أن (كون) هو اسم لشخص يهودي، غير أن (كون) في نهاية الأمر، هو اسم ابن عم هنري، وهنري لوثري كما تعلم!» عند هذا لم يجد

مايسنر شيئًا ليقوله ـ وعلى أية حال، لا يبدو أنك تتوجسين خيفة من اليهود. إننا لو نظرنا إلى الجيل الأخير، أو الجيل الأخير والوحيد من اليهود في مدننا، لبدا لنا الاختلاط بهم ضربًا من البطولة، و ـ لندع المزاح جانبًا ـ لو أن فتاة بريئة قد قالت لذويها «إني راحلة» ورحلت لتختلط بهؤلاء، لكان الأمر عندئذ شيئًا أخطر من رحيل (جان دارك) من قريتها.

قد تلومين اليهود على قلقهم البالغ، غير أن مثل هذا اللوم العام، إنما يكشف عن معرفة نظرية أكثر منها عملية بالطبيعة البشرية. معرفة نظرية أكثر، ذلك أن هذا اللوم، على أية حال، لا يناسب زوجك على الإطلاق بناء على وصفك السابق، وثانيًا لأنني لا أراه لخبرتي منطبقًا على معظم اليهود، وثالثًا لأن مثل هذا اللوم ينطبق فحسب على الأفراد المنعزلين، غير أن هؤلاء أشد حدة، مثلي شخصيًّا. إن أغرب شيء هو أن ذلك اللوم هو لوم لم يصادف محله بصفة عامة. إن وضع اليهود المهدد، ذلك الشعور بعدم الأمان الذي ينبعث من داخلهم وشعورهم بعدم الأمان وسط الآخرين، يوضح جيدًا، وقبل كل شيء ما يقوم في نفوسهم بأنه ليس لهم أن يمتلكوا سوى ما يقع في أيديهم، أو يقبضون عليه بأسنانهم. ذلك الشيء الذي تقع أيديهم عليه، أو تنطبق عليه أسنانهم والذي يتحدد فضلًا عن ذلك في صورة ملكيات صريحة، هو ما يعطيهم وحده الحق في الحياة، بالإضافة إلى شعورهم بأنهم لن يحصلوا مرة أخرى أبدًا على ما يفقدونه ذات مرة، ذلك أن ما يفقدونه يسبح، بدلا من عودته إليهم، مبتعدًا عنهم إلى الأبد. إن اليهود من

جوانب عدة، بعيدة الاحتمال، مهددون بالأخطار، أو لنقل، حتى نكون أكثر دقة، ولنترك الأخطار جانبًا، ونقول إنهم مهددون بالتهديدات. ثمة مثال يتصل بك عن نحو غير مباشر، كنت قد انتويت بالفعل ألا أتحدث عنه (في وقت لم أكن قد عرفتك فيه معرفة كافية)، غير أنني لا أجد ما يثقل ضميري لذكره لك، لأنه لن يحيطك علمًا بجديد، وإن كان سيوضح لك حب الأقارب، وإن كنت لن أذكر الأسماء والتفاصيل ما دام أنني لا أعرفها. كان من المفروض أن أختي الصغرى ستتزوج شخصًا تشيكيًّا، مسيحيًّا، وعندما أخبر ذلك الشخص إحدى قريباتك ذات مرة، بأنه ينوي الزواج من يهودية، قالت: «كل شيء إلا هذا، كل شيء إلا الاختلاط باليهود!» فتصورى هذا ما ميلينا...!

إلى أين تراني أحاول أن أقودك بهذا كله؟، لقد ضللت طريقي إلى حد ما، إلا أن هذا لا يهم، ذلك أنك ربما كنت تتعقبينني، وعلى ذلك فقد ضل كلانا الآن. إن جمال ترجمتك يكمن فحسب في صدقها (انهريني ما دمت صادقة في هذا، في وسعك أن تفعلي أي شيء، غير أن أفضل ما يمكنك أن تفعليه، ربما كان هو التعنيف الذي توجهينه إليَّ. يسعدني أن أكون تلميذك، وأن أرتكب الأخطاء طوال الوقت، فقط لمجرد أن تعنفيني طوال الوقت. إن المرء ليجلس في مقعد الدراسة ولا يكاد يجرؤ على التطلع إلى أعلى فتنحنين أنت عليَّ، ويتألق طرف أصبعك الذي ترفعين به احتجاجاتك، هل هذا صحيح؟) ـ حسنًا أن يكون هذا هو الصدق، وأن يكون لديَّ إحساس باقتيادك من يدك خلفي بطول الممرات الأرضية المظلمة، المنخفضة، الكئيبة، ممرات القصة، التي لا

نهاية لها على الأغلب (وهذا هو السبب في أن العبارات، عبارات طويلة لا نهاية لها، ألم تلاحظي ذلك؟)، تلك الممرات التي لا نهاية لهـا غالبًا (هل قلت شهرين فقط؟)، حتى ينتابـك وهـذا مـا آمـل فيـه، الإحسـاس بالتزايـل عنـد التقائـك بالضـوء السـاطع، في نهايـة الممـر المـؤدي إلى سطح الأرض.

مذكرة لأن أنطلـق اليـوم، أن أرخي اليـوم تلـك اليـد الـتي تسـعدني. غـدًا سأكتب ثانية، وأشرح بقدر ما يسعني أن أضمن ما قد ينتهي إليـه الحـال من ناحيتي، لماذا لن أحضر إلى ڤيينا، ولن أهدأ حـتى أسـمعك تقـولين: إنه على حق.

المخلص لك

ف

أرجو أن تكتبي العنوان بوضوح أكـثر قليلًا، فمـا أن تصبـح رسـائلك في داخل مظاريفهـا، حـتى تصبـح عندئـذ ملكًـا لي على الفـور، وعليـك أن تتناولي ممتلكات الغير بعنايـة أكـثر، بشـعور أكـثر بالمسـئولية (هكـذا!) ولـديَّ أيضًـا انطبـاع مـا، دون أن تكـون لـديَّ القـدرة الكافيـة لتحديـده، انطباع بأن رسالة لي قد فقدت، قلق اليهود!، وهو بـديل عن خـوفي من أن تكون الرسائل قد وصلتني بسلام!

والآن سأقول شيئًا آخر أحمق في نفس الصدد. شيئًا أحمق، ذلـك لأنـني بسبيلي إلى أن أقول شيئًا أعتبره صحيحًا، بصـرف النظـر عن حقيقـة أنـه

سيسبب لي ضررًا ما.

وما تزال ميلينا عندئذ تتحدث عن القلق وتلطمني على صدري لطمة، أو تسألني (ما الذي سيجعل الصوت والإيقاع مترابطًا إلى هذا الحد، موحيًا بنفس معناه في اللغة التشيكية): (Jste Zid) ـ (هل أنت يهودي؟)، ألا تلاحظين كيف تتراجع قبضة اليد في ال(Jste) تتراجع لكي تتجمع قوة عضلاتها؟ ثم في ال (Zid) تهوي اللطمة الخاطفة، المنتعشة التي لا تخطئ هدفها؟ هذه هي الآثار الجانبية التي توحي بها اللغة التشيكية للأذن الألمانية.

لقد سألتني ذات مرة، على سبيل المثال، كيف أمكنني أن أجعل إقامتي هنا تعتمد على استلام رسالة، ورددت على نفسك في الحال بقولك:

«لست أدري» (nechápu)كلمة غريبة في اللغة التشيكية، وهي تبدو أكثر من ذلك غرابة عندما تصدر عن فمك، إنها كلمة بالغة القسوة والجمود، كلمة جافة، عديمة الرحمة وشبيهة فوق هذا كله بكسارة البندق، فالفكان يصران فوق بعضهما ثلاث مرات في أثناء نطقها ـ أو إن شئنا الدقة، فإن المقطع الأول منها يبدو وكأنه محاولة للإمساك بالبندقة، مجرد الإمساك بها فقط، ثم يفتح المقطع الثاني من تلك الكلمة، الفم على اتساعه، فتدخل البندقة في داخله عندئذ، ويكسرها المقطع الثالث في النهاية، ألا تسمعين صرير الأسنان[23]، ثم إغلاق

23ربما كانت المقاطع الثلاث في هذه (الكلمة) تشير أيضًا إلى الحركات الثلاث التي يأتيها (الحواريون) فوق ساعة براغ. الوصول، وإثبات وجودهم ثم الرحيل الغاضب (تذييل كافكا).

الشفتين بعد هذا كله في النهاية، تلك الحركة التي تمنع الآخر من أن يحاول القيام بأدنى اعتراض يحاول به تفسير الأمر، وهو ما يجب حدوثه بالفعل، لو كان الآخر مثلًا، لا يفعل سوى الثرثرة كما أفعل أنا الآن، عندئذ يعتذر الثرثار قائلًا مرة أخرى: «إن المرء، على أية حال، لا يثرثر إلا عندما يشعر مرة بشيء من السعادة».

بالمناسبة لم تصلني منك اليوم رسالة، وما أردت أن أقوله في الحقيقة بعد هذا كله، لم أقله لك بعد، ربما قلته لك في فرصة أخرى. يسرني كثيرًا جدًّا أن أتلقى منك شيئًا غدًا، ذلك أن الكلمات الأخيرة التي سمعتها منك قبل صفق الباب- إن صفق الأبواب أمر بالغ الفظاعة في كل الأحوال- كانت مزعجة.

المخلص لك

ف

***

والآن ها هو التفسير الذي وعدتك به بالأمس:

إنني لا أريد أن (ساعديني يا ميلينا وحاولي أن تفهمي أكثر مما أقوله!) لست أريد أن (ليس هذا ترددًا) أحضر إلى ڤيينا، ذلك أنني لا أحتمل الجهد العقلي، إنني مريض عقليًّا، وإن مرض الرئة ليس سوى فيضان مرضي العقلي. إنني مريض على هذا النحو منذ السنوات الأربع أو الخمس التي انقضت في محاولتي الأوليين للخطبة (في البداية لم أستطع أن أفسر لنفسي بهجة رسالتك الأخيرة، ثم أدركت تفسير ذلك فيما بعد وإن ظللت أتجاهله. فأنت على أية حال، شابة صغيرة للغاية، لعلك لم تبلغي بعد الخامسة والعشرين من عمرك، وربما كنت في الثالثة والعشرين، بينما أنا في السابعة والثلاثين من عمري، أو أكاد أكمل الثامنة والثلاثين على وجه الدقة، أي أنني أكبرك بجيل تقريبًا، وقد ابيضّ شعري بفعل الليالي الماضية وآلام الصداع). لن أعرض عليك قصتي الطويلة بغاباتها المتكاثفة من التفاصيل، تلك التفاصيل التي ما أزال أخافها كطفل، وإن لم تكن لديَّ قدرة الطفل على النسيان. إن ما آلت إليه محاولات خطوبتي الثلاث بصفة عامة لا يعني سوى أنني كنت مخطئًا في كل شيء. لا شك في أنني كنت مخطئًا غاية الخطأ. لقد تسببت في تعاسة الفتاة في كلتا المرتين ـ إنني أتحدث الآن فقط عن الأولى، فلا يسعني الحديث عن الثانية، فهي فتاة بالغة الحساسية، حتى أن أية كلمة، وإن كانت أرق الكلمات، قد تكون من

أقسى الإساءات التي توجَّه إليها، وهو شيء أفهمه حق الفهم- ولأنه لولاها وحدها بالفعل (تلك الفتاة التي لو كانت قد لمست شيئًا من الإصرار من جانبي لكانت قد ضحت بنفسها) ما تسنى لي أن أذوق طعم السعادة المتصلة، ولا عرفت الهدوء، أو التصميم، وقد تلاشت قدرتي على مواجهة الزواج، على الرغم من أنني كنت قد أكدت لها تكرارًا، ومن تلقاء نفسي عزمي على الزواج، وعلى الرغم من أنني أحببتها أحيانًا حبًّا عنيفًا متهورًا، وعلى الرغم من أنني لم أعرف وقتها شيئًا أحب إليَّ من فكرة الزواج في حد ذاتها. ولقد أنفقت خمس سنوات أطرق تلك الفتاة بمطرقتي، أو أطرق نفسي، إذا شئت- حسنًا، كانت لحسن الحظ فتاة يهودية- بروسية، مولدة، غير قابلة للكسر، كانت خليطًا قويًّا لا يقهر بينما لم أكن أنا ذلك الشخص القادر على رفع المطرقة. على أنها على أية حال، لم يكن أمامها سوى أن تعاني فحسب، بينما كنت أنا أهوي عليها بمطرقتي وأعاني.

كفى لا يمكنني أن أكتب أكثر من هذا، ولا أن أشرح أكثر من هذا، على الرغم من أنني قد بدأت فحسب، وعلى الرغم من أنني سأشخص المرض العقلي، وسوف أذكر أسبابًا أخرى لعدم حضوري. لقد وصلتني برقية:

«مكان اللقاء كارلسباد، في الثامن من الشهر. أرجو أن تتصل برسالة»، أعترف بأنني قد صدمت، عندما فضضت هذه البرقية، صدمة شديدة على الرغم من أن من كان يختفي خلف تلك البرقية كانت أكثر المخلوقات تنزهًا عن الأنانية وأكثرهم هدوءًا وأكثرهم تواضعًا، وعلى

الرغم من أن ذلك كله هو ما كنت أريده. لا يمكنني أن أوضح ذلك الآن، ذلك لأنني لا يمكنني أن أشير إلى تشخيص للمرض. غير أنه من المؤكد تمامًا في هذه اللحظة: أنني سأرحل من هنا يوم الإثنين. إنني أتطلع إلى البرقية من وقت لآخر، ولا يمكنني أن أقرأها سوى بصعوبة بالغة كما لو كان ثمة سر يكمن تحت كلماتها، سر يدفع الكلمات إلى السطح لتتضح من تحتها الكلمات الحقيقية التي تتضمنها البرقية: «ارحل عن طريق ڤيينا!» أمر صريح، لكن بدون ذلك الرعب الذي تتركه الأوامر في النفس عادة. لن أفعل ذلك، وإن لم يبد لي أي معنى من الناحية العملية، لاتخاذ الطريق الطويل عن طريق «لنتس» ثم الطريق الأطول منه عن طريق (ڤيينا)، بدلًا من الطريق القصير الذي يمر (بميونيخ). إنني أجري اختبارًا ما، فثمة عصفور في الشرفة، يتوقع أن أقذف إليه ببعض فتات الخبز من على المائدة. توقف الطائر خارج الحجرة وراح يتطلع من هناك إلى الطعام في العتمة، إن التوتر يستولي عليه، إنه يتواجد هنا أكثر مما يتواجد في مكانه من الشرفة، لكن هنا الظلام، وبجانب الخبز أوجد أنا، تلك القوة الغامضة، على أنه قفز مع ذلك إلى العتبة، قفزات قليلة أخرى عليه أن يقفزها، إلا أنه لم يجرؤ على أن يتقدم أكثر من ذلك، وفي خوف مفاجئ طار بعيدًا. لكن أية طاقة تلك التي تدفع ذلك الطائر متواضع التركيب، ذلك أنه لم يلبث أن عاد ثانية بعد فترة قصيرة وراح يتفحص الموقف ونثرت أنا بعضًا من فتات الخبز حتى أسهل عليه محاولته في الحصول عليه، على أنني لو لم أطارده، سواء كنت فعلت ذلك عن عمد أو بغير عمد (وهذه هي

كيفية عمل القوى الغامضة)، بحركتي المفاجئة، لكان قد حصل على الخبز.

الحقيقة أن عطلتي تنتهي في نهاية يونيو، غير أنني أحب كمرحلة انتقال ـ إن الجو يزداد حرارة هنا، وهو أمر لن يضايقني كثيرًا في حد ذاته ـ أن أقضي بعضًا من الوقت في مكان ما غير هذا المكان، في الريف ـ وتريد هي أن ترحل أيضًا، وكان المفروض أن نلتقي هناك الآن، سأبقى بضعة أيام قلائل، وقد أبقى بضعة أيام قلائل أخرى في كونستنتينباد بصحبة والدي، ثم بعد ذلك أذهب إلى براغ. عندما تمر ببالي كل الرحلات، ثم أفكر في حالتي العقلية، أشعر عندما أعقد مقارنة بينهما بنفس ما قد يشعر به نابليون لو أنه، وهو يعد خططه لحملته على روسيا، قد أتيح له أن يعلم مقدمًا بالنتائج الخاسرة لتلك الحملة في لحظة إعداده لها.

وعندما وصلتني رسالتك الأولى، منذ فترة قصيرة، وأظن أن ذلك كان قبل موعد الزفاف المحدد مباشرة (ذلك الزفاف الذي كنت أنا نفسي قد قمت بالفعل بكل ترتيباته) فقد سررت لوصول تلك الرسالة منك، وأطلعتها عليها، وفيما بعد ـ لا لن أمضي في ذلك ولن أمزق رسالتي هذه أيضًا مرة أخرى. يبدو أن لنا بعض الطباع المشتركة فيما عدا أنني لا أجد موقدًا في متناول يدي، وأنني أخشى أن أكون ـ فثمة دلالة على ذلك أو دلالتين ـ قد أرسلت في إحدى المرات إلى الفتاة ردًّا على إحدى رسائلها، رسالة كتبتها على ظهر أحد رسائلي تلك التي لم تتم، ولم أرسلها إليك.

على أن هذا كله لا يهم، فلم يكن يسعني أن أحضر إلى ڤيينا حتى ولو لم تصلني برقية، على العكس، لقد حفزتني البرقية على القيام بالرحلة.

من المؤكد أنني لن أحضر، غير أنني من ناحية أخرى ـ ولن يحدث هذا ـ قد أجدني لدهشتي البالغة في ڤيينا. عندئذ لن أكون في حاجة لا إلى الإفطار ولا إلى العشاء، بل سأجدني في حاجة إلى محفة أستلقي فوقها بعضًا من الوقت.

وداعًا. لن يمر هذا الأسبوع هنا في سلام.

المخلص لك

ف

لـو رغبت في أن تكتـبي إليَّ شـيئًا، فـاكتبي لي على العنـوان التـالي (كارلسباد، شباك البريد). لا، لا تكتبي شيئًا حتى أصل براغ.

ما هو نوع تلك المدارس الهائلة التي تقومين بالتدريس فيها؟ هل تضـم مائتين من الطلبة، أم تراها تضـم خمسـين طالبًا. بـودي أن أجـد لنفسـي مقعـدًا بجـوار إحـدى النوافـذ في الصـف الأخـير، لمـدة سـاعة، أرفض بعـدها أي لقـاء معـك (ذلـك اللقـاء الـذي لن يتم بحـال من الأحـوال)، وأرفض جميع الرحلات، و......ـ كفى، إن هذه الورقة البيضـاء الـتي لا تبدو لها نهاية، تخطف عيني المرء، وهذا هو السـبب في انسـياق المـرء في الكتابة.

كان ذلك في الظهيرة، على حين تقترب الساعة الآن من الحادية عشـرة مساء، لقد رتبت كل شيء على النحو الوحيد الممكن في هذه اللحظـة. لقد أبرقت إلى براغ بأنني لن أتمكن من الحضور إلى كارلسباد، وسـوف أوضح ذلك في شيء من التضـارب، هـو غايـة في الصـراحة من ناحيـة، وإن لم يبد لائقًا من ناحية أخرى، وكنت قد قررت الـذهاب في البدايـة، بسبب حالتي هذه إلى كارلسباد، هذا هو أسلوبي في التعامـل مـع كـائن إنساني حي. إلا أنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي، ذلـك أنـني لا يمكنـني في كارلسباد أن أتحدث، ولا أن أبقى صامتًا، أو أنني على نحو أكثر دقة سوف أتكلم. على أية حال حينمـا أكـون صـامتًا، ذلـك أنـني لسـت الآن سوى كلمة وحيدة، على أنني لا أريد على الرغم من ذلـك أن أرحـل عن طريق ڤيينا، بل عن طريق ميونيخ يوم الإثنين، إلى أين، لست أدري، إلى

كارلسباد، مارينباد، وحيداً على أية حال، وسوف أكتب لك، و(ربمـا)[24] تلقيت رسائلك، خلا ثلاثة أسابيع، في براغ فقط.

24مشطوبة في الأصل.

السبت

إنني أسائل نفسي، إذا كنت قد فهمت أن ردي عليك كان مقدرًا له أن يكون كما اتفق له، نظرًا لحالتي العقلية في صورتها العامة ـ نعم لقد كان ردي غاية في الرقة، وكان غاية في المراوغة، وكان متألقًا غاية التألق بعد هذا كله. إنني أسأل نفسي طوال الوقت، نهارًا وليلًا، هذا السؤال، مرتعدًا أمام ردك، أسأل نفسي عبثًا هذا السؤال، كما لو كنت قد أمرت بأن أدق مسمارًا في قلب حجر أسبوعًا بأكمله دون أن أستريح في أثناء الليل، بل أظل على الدوام طارقًا، ومسمارًا في وقت معًا، يا ميلينا.

يشاع ـ ولست أصدق ذلك ـ أن الاتصالات بالتيرول عن طريق السكك الحديدية سوف تتعطل الليلة بسبب الإضرابات.

***

السبت

لقد وصلت رسالتك، وصلتني نفحة رسالتك، ووجدت في نهاية ما جاء بها ـ أن بها فقرة واحدة رئيسية: أنك قد لا تتمكنين من الكتابة إليَّ بعد الآن في براغ.

هذا هو ما سوف أؤكده قبل أي شيء آخر غيره، حتى يتسنى للعالم كله أن يراه دون بقية ما جاء في رسالتك ـ أنت أيضًا، يا ميلينا. هذا هو إذن ما يهدد به المرء شخصًا ما، ويعرف ـ على الأقل ـ من على البعد، بواعث هذا الشخص أيضًا، ويدعي المرء، فوق ذلك، أنه مغرم بهذا الشخص.

لكنك ربما كنت على حق في ألا تكتبي إليَّ بعد الآن. فقرات عديدة في رسالتك تشير إلى هذا الاضطرار. لا يمكنني أن أتوسل بأي شيء ضد هذه الفقرات. إنها هي نفسها تلك الفقرات التي أعرف عندها حق المعرفة، وأتحقق عند قراءتها على نحو واضح، من أنني معلق على ارتفاع هائل، غير أن الهواء على هذا الارتفاع، يعد لهذا السبب نفسه أمرًا بالغ الخطر بالنسبة لرئتي، وعليَّ أن أستريح.

المخلص لك

ف

سأكتب لك غدًا.

ثمة جديد اليوم لعله أن يفسر عديدًا من الأشياء يا ميلينا (يا له من اسم غني، له وقع ثقيل، في أغلب الأحيان، حتى ليصعب التقاطه، لم أكن أحبه كثيرًا في البداية، ذلك أنه كان يبدو لي اسمًا يونانيًّا أو رومانيًّا قد ضل طريقه إلى بوهيميا، فاغتصبه التشيكوسلوفاكيون، ولفقوا نطقه، لكنه قد تحول شكلًا ولونًا، إلى امرأة، امرأة يحملها المرء بين ذراعيه إلى خارج العالم، وخارج النيران، لست أدري أية نيران، بينما تضغط هي نفسها، راضية مطمئنة، إلى ذراعيك..... اللكنة القوية فقط في ال (ي)[25] سيئة، ألا يواصل ذلك الاسم قفزاته مبتعدًا عنك؟ أو لعلها فقط تلك القفزات التي قفزْتها أنت نفسك بكل العبء الذي يجثم فوق كاهلك؟).

أنت[26] تكتبين نوعين من الرسائل، لست أعني تلك الرسائل المكتوبة بالحبر، وتلك الرسائل المكتوبة بالقلم الرصاص، على الرغم من أن الكتابة بالقلم الرصاص في ذاتها توحي بأشياء عديدة، وتجعل المرء يرهف أذنيه، إلا أن هذا الاختلاف في الحقيقة، ليس اختلافًا قاطعًا. إن الرسالة الأخيرة التي تتضمن خريطة الشقة مثلًا، مكتوبة بالقلم الرصاص، إلا أنها قد أسعدتني، وكان ما سعدت به (قدري سنِّي يا ميلينا، وإنهاك قواي، والخوف الذي يستولي عليَّ فوق هذا كله، وقدري

25التشديد في لفظة (ميلينا)، على المقطع الأول منها.

26هنا يستخدم كافكا مرة أخرى ضمير الشخص الثاني المفرد Du أنت.

شبابك، ونضارتك، وجرأتك، وخوفي الذي يتزايد كما ترين، لأنه يعني الانسحاب من العالم، لهذا تزداد وطأته. ولهذا يتكاثف الخوف، ويشتد، لكن جرأتك على عكس ذلك تعني الزحف إلى الأمام، فلو ازداد ضغط زحفك الذي يدفعك إلى الأمام، ترعرعت جرأتك، وازدهرت)، كان ما سعدت به هي رسائلك المسالمة، حتى ليمكنني أن أجلس عند أقدام تلك الرسائل. سعيداً سعادة لا حد لها، فهي غيث انصبَّ فوق الرأس الملتهبة، لكن عندما وصلتني تلك الرسائل الأخرى، يا ميلينا، حتى ولو كانت طبيعتها أكثر لباقة من سابقتها (لم يمكنني مع ذلك، لضعفي، أن أنفذ إلى ما يشيع فيها من سعادة إلا بعد أيام)، هذه الرسائل تبدأ بألوان التعجب (وأنا، على هذه المسافة البعيدة، مع ذلك)، وتنتهي برعب لا أدري كنهه. عندئذ أبدأ في الارتعاد فعلًا يا ميلينا، كما لو كنت أقف تحت جرس من أجراس الخطر، فلا يسعني قراءة تلك الرسائل، وإن كان لا بد لي من قراءتها. كما يشرب الحيوان العطشان، وهو يشعر بالخوف، بينما يتزايد خوفه أكثر فأكثر، لهذا أبحث عن قطع الأثاث التي يمكنني أن أختبئ تحتها مرتعداً، أُصَلِّي، وأنا لا أكاد أعي شيئًا من صلواتي في أحد الأركان، عساك أن تندفعي طائرةً في الهواء، خارجة من النافذة، كما اندفعت فجأة داخلة من خلالها في رسالتك، ذلك أنني لا يمكنني على أية حال، أن أحتمل عاصفة في حجرتي. في تلك الرسائل لا بد أن يكون لك رأس (الميدوزا) الهائل، ذلك أن ثعابين الرعب تفح حول رأسك، على حين تفح في الحقيقة حول رأسي أنا، ثعابين الخوف فحيحًا أشد ضراوة.

(في الهامش الأيسر): وصلتني رسالة الجمعة يوم الأربعاء، أما الرسائل المسجلة المستعجلة فهي أبطأ من الرسائل العادية.

رسالتك التي وصلتني يوم الأربعاء، وتلك التي وصلتني يوم الخميس. لكنك طفلة، طفلة صغيرة (إنني بالفعل من يخاطب الميدوزا، على هذا النحو)، يبدو عليك كما لو كنت تحملين كل فكاهاتي السخيفة (التي تدور حول- اليهودي- و«لست أدرى»، و«الكراهية») محمل الجد، لقد أردت فقط، على أية حال، أن أضحك قليلًا، على أن كلًّا منّا يخطئ بسبب الخوف، فهم الآخر، فأرجو ألا تجبريني على الكتابة إليك بالتشيكية، لم يكن ثمة أثر مطلقًا للملام في كتابتي، يمكنني بالأحرى أن ألومك لأن لديك مثل هذا الظن الحسن، الذي يبلغ هذا الحد البعيد باليهود الذين تعرفينهم هذه المعرفة الكافية (بمن فيهم أنا) - فثمة يهود آخرون!- أحيانًا أود لو أحشر هؤلاء اليهود جميعًا (وأنا أيضًا بينهم) في أحد أدراج دولاب الغسيل، وأنتظر قليلًا، ثم أفتح الدرج قليلًا، لأرى إن كانوا قد اختنقوا جميعًا، فإن لم أجدهم قد اختنقوا، أغلقت الدرج، و... أمضي في تلك المحاولة إلى نهايتها.

ما قلته عن (محاضرتك) كان قولًا جادًّاErnst في الحقيقة (ها هي لفظة Ernst —[27] تحشر نفسها في الرسالة، المرة بعد المرة)، ربما كنت أظلمه- ولا أحتمل التفكير في هذا- ظلمًا بالغًا، غير أن شعوري بأنني متورط معه الآن أكثر فأكثر، وأنني أشد ما أكون التصاقًا به، إنه شعور مساوٍ في عنفه، لشعوري بأنني أظلمه ظلمًا بالغًا، وغالبًا ما أقول

27

في (الحياة والموت). فلو أمكنني فقط أن أتحدث إليه! إلا أنني أخشاه، فهو متفوق عليَّ. أتعلمين يا ميلينا، إنك عندما تذهبين إليه فإنك تخطين بذلك خطوة واسعة إلى أسفل، بالنسبة لمستواك ـ لكنك إذا خطوت نحوي فسوف تتردين في الهاوية. هل تدركين ذلك؟ لا، لم يكن ذلك هو (مستواي الرفيع) كما جاء في تلك الرسالة، بل (مستواك أنت) ـ كنت أتحدث عن (المحاضرة)، ولقد حملت كلامي عنها أيضًا محمل الجد. إنني واثق من أنني لست مخطئًا فيما يتعلق بذلك.

علمت ثانية بمرضك، لنفرض أن عليك يا ميلينا أن تذهبي إلى فراشك، ولعلك ستأوين إليه، وربما كنت تستلقين فوقه، بينما أكتب أنا هذه الرسالة ألم أكن قبل مضي شهر، رجلا أفضل مما أنا عليه الآن؟، لقد كنت مشغولًا بأمرك (ولم يتعد هذا الانشغال حدود تفكيري فحسب)، وكنت قد علمت بمرضك، ولم أعد الآن كذلك، ذلك أنني الآن أفكر في مرضي وحده، وفي صحتي، مع أنهما كليهما، سواء كان مرضي أو كانت صحتي، هما أنت.

ف

خرجت اليوم في رحلة قصيرة، بصحبة صديقي الحميم، المهندس، لمجرد أن أنتزع نفسي من قلب ذلك الجو الناعس. وكتبت لك أيضًا بطاقة من هناك، غير أنني لم أستطع أن أوقع عليها، ولا أن أرسلها. لا يسعني أن أكتب لك بعد الآن كما لو كنت أكتب إلى غريبة.

***

الإثنين

في وقت مبكر من هذا الصباح، قبل أن أستيقظ بفترة قصيرة (وقد استيقظت أيضًا بعد فترة قصيرة من استغراقي في النوم). حلمت حلمًا مزعجًا، ولا أقول مرعبًا (فقد كان أثر الحلم قد تبخر سريعًا لحسن الحظ). إنني مدين أيضًا، في الحقيقة، لهذا الحلم، بتلك الفترة القصيرة التي استغرقت فيها في النوم، بما أن المرء لا يستيقظ من مثل ذلك الحلم إلا بعد أن يكون الحلم قد بلغ غايته. ولا يمكن للمرء أن ينتشل نفسه منه قبل ذلك، فهو يمسك بالمرء من لسانه.

كان ذلك في ڤيينا، بقدر ما يمكنني أن أتخيلها في أحلام يقظتي، استعدادًا لذهابي إليها (وفي أحلام يقظتي تلك تتألف ڤيينا فحسب، من ميدان صغير هادئ، ويقع منزلك في أحد الجانبين. وفي مواجهته يقوم الفندق الذي سأنزل فيه، وعلى يساره تقوم المحطة الغربية التي وصلت إليها، وإلى يساره (أيضًا) تقوم محطة فرانتس- يوزيف التي سأرحل منها، نعم، ويوجد في الطابق الأرضي من المبنى الذي أقيم فيه، مطعم. بالغ الاستعداد يقدم الأطعمة النباتية. هو المطعم الذي أتناول فيه وجباتي. لا لمجرد تناول الوجبات بل لكي أذهب إلى براغ، وقد ازداد وزني بعض الشيء.

لماذا أقول هذا؟ إنه لا يمت بالفعل إلى الحلم بأية صلة، (إنني فيما يبدو ما زلت أخشى ذلك الحلم)، حسنًا، لم يكن الأمر تمامًا على هذا النحو، فلقد كانت مدينة عادية. وكان الوقت يقترب من المساء، كانت

المدينـة مبتلـة، ومظلمـة، وثمـة إحسـاس بحركـة هائلـة للمـرور في شوارعها، وكان يفصـل المـنزل الـذي أقيم فيـه عن ذلـك الـذي تقيمين فيه، حديقة عامة مربعة الشكل.

لقد وصلت فجأة إلى ڤيينـا، وصـلت على رأس رسـائلي الـتي كـانت مـا تزال في طريقها إليك (وهو ما أحزنني فيما بعد)، ومع ذلك فقد تنـاهى إليك نبأ قـدومي، وكـان المفـروض أن نلتقي، غـير أنـني لم أكن وحيـدًا لحسن الحظ (على الرغم من أنني كنت أضيق بذلك في الوقت نفسه)، فقـد كنت وسـط جماعـة قليلـة العـدد، وكـانت ثمـة فتـاة أيضًـا، كـانت ترافقني فيما أظن، غير أنني لا أعرف شيئًا من التفاصيل التي تتعلق بأمر هؤلاء، فلقد ظهروا أمامي جمعيًا على نحو ما، كشهود في صفي.

فلو كانوا قد لزموا الصمت فقط، ذلك أنهم كانوا يتكلمون بلا انقطـاع، ربمـا يتنـاولون شـئوني الخاصـة في حـديثهم، ولقـد تنـاهت إلى سـمعي همهمة عصبية فحسب، غير أنني لم أفهم منها شيئًا، كما أنـني لم أرغب في أن أفهم شـيئًا. وقفت إلى يمين مـنزلي، على حافـة الرصـيف، أتطلـع إلى منزلك. كان عبـارة عن فيلا منخفضـة، لهـا سـلم جميـل بسـيط من الحجر في واجهتها، ينتهي إلى الطابق الثاني.

والآن، كـان الـوقت فجـأة وقت تنـاول الإفطـار، وكـانت المائـدة قـد وضـعت في الشـرفة، ولمحت من على البعـد كيـف وصـل زوجـك، وجلس إلى اليمين فوق مقعد من الخيرزان، وهو ما يـزال يغـالب نومـه، وكـان يتمطى بذراعيـه المفـرودتين على اتسـاعهما، ثم ظهـرت أنت

وجلست خلف المائدة، بحيث كان من الممكن أن يراك المرء رؤية تامة. ليس بكامل التفاصيل، بالطبع، مع ذلك، فلقد كانت المسافة بعيدة، كان من الممكن رؤية الخطوط الخارجية التي تحدد هيئة زوجك العامة بوضوح أكثر، لست أدري كيف، على حين بقيت أنت كيانًا يتنازعه اللونان الأزرق والأبيض، كيان فياض، متألق، وكانت ذراعاك أيضًا مفرودتين على اتساعهما، وإن لم يتضح من ذلك أنك كنت تتمطين، بل كانت حركة ذراعيك المفرودتين توحي بشيء أبعد من ذلك، كانت حركة ترحيب.

وبعد ذلك مباشرة، لكن.... لقد وجدتني ثانية في الليلة التي سبقت ذلك، وكنت تسيرين في الشارع برفقتي، كنت تقفين على الرصيف، وكانت إحدى قدمي على الطريق، وكنت أمسك بيدك، ثم بدأ بيننا عندئذ حديث ما، سريع مقتضب العبارات، ولا معنى له، وقد اتصل ذلك الحديث في كلمة منك وأخرى مني ردًّا عليها، اتصل بغير توقف حتى نهاية الحلم.

لا يمكنني أن أتذكر ذلك الحوار، وإن كنت أذكر فقط العبارتين الأوليين، والأخيرتين، أما لب الحوار فكان عبارة عن قطعة من العذاب لا يمكن نقلها إليك الآن بواسطة الكلمات.

قلت مسرعًا، بدلًا من التحية التي كان يجب أن أستقبلك بها «لقد كنت تتوقعين أن أبدو في صورة غير التي أبدو بها الآن»، تعبير ما كان قد ارتسم على وجهك، هو ما دفعني إلى أن أتفوه بذلك، وأجبتني أنت

بقولك: «لكي أكون صريحة معك غاية الصراحة»، أقول إنني كنت قد توقعت أن تبدو أكثر ظرفًا، (ولقد استعملت في الواقع تعبيرًا شائعًا في ڤيينا، غير أنني قد نسيته).

كانت هاتان هما العبارتين الأوليين (في هذا المقام يتبادر إلى ذهني هذا السؤال: هل تحققت من أنني لا أحس الإيقاع[28] مطلقًا، وأنني لخبرتي لا أظن أن لمثل عجزي التام عن الإحساس به وجودًا بالمرة في أي مكان؟).

بهاتين العبارتين في الحقيقة كان كل شيء قد تقرر، فما الذي يمكن أن يكون قد تبقى؟ غير أن الجدل كان قد بدأ عندئذ بشأن لقاء آخر، ذلك الجدل الذي كان يتبدى فيما كان يصدر عنك من التعبيرات بالغة الغموض، وفي تساؤلاتي الملحة التي لا تنتهي عند حد.

عندئذ تدخل رفاقي، وصرح أحدهم بأنني كنت قد قدمت أيضًا إلى ڤيينا لزيارة إحدى المدارس الزراعية في ضواحي ڤيينا. وبدا عندئذ أن الوقت سيتسع لي على الرغم من كل شيء للقيام بهذه الزيارة. بدا لي أنهم كانوا يحاولون أن يتخلصوا مني رحمة بي. ومع أنني كنت قد تبينت ذلك إلا أنني على الرغم من ذلك توجهت نحو المحطة لا ألوي على شيء، يداعبني الأمل دون شك، في احتمال أن يكون لإظهار رغبتي الحاسمة تلك في الرحيل تأثير ما عليك، وبلغنا تلك المحطة

28جملة تقابلها في الألمانية satz وهي تعني أيضًا (حركة) في الاصطلاح الموسيقي.

القرية جميعنا، ثم اتضح عندئذ أنني قد نسيت اسم البلدة التي توجد بها تلك المدرسة. توقفنا أمام جداول مواعيد القطارات الضخمة، بينما راح شخص ما يمر بأصبعه على أسماء المحطات وهو يسألني إن كانت هذه المحطة أو تلك، هي المحطة التي أريدها، غير أن المحطة التي كنت أريدها لم توجد بين تلك المحطات جميعًا.

وسنحت لي الفرصة في تلك الأثناء لكي أرقبك بعضًا من الوقت، ولم يكن مظهرك ليغير من الأمر شيئًا في الحقيقة بالنسبة لي. كان الشيء الوحيد الذي يعنيني هو كلمتك. على أنك لم تكوني على أية حال كعهدي بك، كنت تلوحين لي أشد سمرة، بدا لي وجهك نحيلًا، إلا أن من لها مثل هذين الخدين الممتلئين لا يمكن أن تكون في مثل قسوتك (لكن هل كان الموقف قاسيًا بالفعل إلى هذا الحد؟)، ثوبك الذي بدا لي غريبًا جدًّا وكان من نفس قماش بدلتي، وكان أقرب ما يكون إلى القماش الرجالي، لم أحبه لهذا، في الحقيقة، مطلقًا غير أنني تذكرت عندئذ فقرة وردت في إحدى الرسائل (تقول الأغنية لست أمك سوى ثوبين فحسب، لكنني أبدو جميلة ما أزال[29]، إلى هذا الحد البالغ، كانت قوة تأثير عبارتك في نفسي، حتى أنني قد أحببت ثوبك غاية الحب منذ تلك اللحظة.

ثم كانت النهاية، كان رفاقي ما يزالون يبحثون في جداول مواعيد القطارات فتنحينا جانبًا، وتناقشنا.

29

وكان ما انتهت إليه المناقشة شيئًا من هذا القبيل: إن اليوم التالي هو الأحد، بدا لك ذلك أمرًا يكاد يدفعك إلى الكراهية. فكيف أمكنني أن أفترض أن وقتك سيتسع لي يوم الأحد، بدا مع ذلك أنك قد أذعنت أخيرًا، وقلت إنك ستحاولين أن تعطيني من وقتك أربعين دقيقة (لم يكن أشد ما يثير الرعب في نفس المرء في هذا الحديث مجرد كلماته بالطبع، بل كانت لهجته المستخفية، إحساس المرء البالغ باللا جدوى في تلك اللهجة. ذلك الإحساس الذي كان يتأكد في مجادلتك المتصلة (لا أريد أن أحضر، فإذا حدث أن تمكنت من الحضور على الرغم من ذلك فما الذي ستجنيه من حضوري؟، لكنك ما إن قررت تدبير تلك الدقائق الأربعين، حتى وجدتني لا أكاد أقوى على الانفصال عنك، إنك لا تعلمين شيئًا، فعلى الرغم من كل ما بدا عليك من الاستغراق في التفكير، لم يسعك أن تتخذي قرارًا، وتساءلت أنا في النهاية قائلًا: «هل سأنتظرك طوال اليوم؟»، فأجبتني قائلة: «نعم» وتركتني إلى جمع من الناس الذين كانوا يقفون هنالك في انتظارك. كان معنى إجابتك هو أنك لن تحضري مطلقًا وأن الامتياز الوحيد الذي أمكنك أن تقدميه إليَّ هو السماح لي بانتظارك. قلت في صوت خفيض «لن أنتظر»، ولما بدا لي أنك لم تسمعي ما قلت، وأن ما قلته كان هو ورقتي الأخيرة في نهاية الأمر، صحت في يأس مرددًا ما قلته عندما استدرت مبتعدة عني. غير أن ذلك لم يغير من الأمر شيئًا بالنسبة لك، ذلك أنه لم يبد عليك أدنى اهتمام بما قلت فترنحت أنا على نحو ما راجعًا إلى المدينة.

ثم وصلتني بعد مضي ساعتين رسائل وزهور، ودٌّ وسلوى.

المخلص لك

ف

العناوين ليست واضحة مرة أخرى يا ميلينا، ولقد أعاد موظفو البريد كتابتها وإكمالها. كانت العناوين بعد أن التمست منك توضيحها أول مرة مدهشة، كانت مجموعة من النماذج الخطية الجميلة المتنوعة، وإن لم تكن واضحة مع ذلك. فلو كان لمكتب البريد عيناي، لما أمكنه أن يقرأ سوى عناوينك وحدها، لكنه لما لم يكن سوى مكتب بريد...

***

الإثنين

أنت على حق، الآن فقط عندما كنت....ـ لقد وصلت الرسائل، يا للأسف، وصلتني متأخرة في المساء، وأريد في صباح الغد الباكر أن أخرج في نزهة قصيرة مع المهندس إلى (بولتسانو) ـ قرأت اللوم الذي توجهينه إلى (الطفل الصغير)، لقد قلت لنفسي بالفعل: كفى، لا يمكنك أن تواصل قراءة الرسائل الليلة، لا بد لك من أن تنالي قسطًا من النوم، إن شئت أن تمضي في نزهتك القصيرة في صباح الغد الباكرـ انقضى بعض الوقت قبل أن أمضي في القراءة، وقبل أن أفهم، وقبل أن ينحل التوتر، وقبل أن أدفن وجهي بزفرة ارتياح في صدرك، لوجودك هنا (ولست أعني بذلك وجودك الجسدي وحده). إن هذا معناه بلا شك أنني مريض، أليس كذلك؟ إنني أعرفك على أية حال، وأعرف أيضًا أن (الطفل الصغير) ليس أسلوبًا بالغ السوء في مخاطبة شخص ما.

يمكنني أن أعتبر هذه العبارة هي أيضًا مجرد مزحة، إلا أن كل شيء يمكن كذلك أن يتحول بالنسبة لي إلى تهديد. فلو حدث أن كتبت إليَّ قائلة: «لقد أحصيت بالأمس عدد المرات التي وردت فيها (واو) العطف، في رسالتك، ولقد وجدت منها ما يقرب من كذا، فكيف واتتك الجرأة على أن تكتب إلى (و)، وأن تكتبها علاوة على ذلك بمثل تلك الكثرة؟»ـ ثم لعلني أن أكون، ـ بشرط أن تلتزمي بجديتكـ قد

اقتنعت بأنني قد وجهت إليك إساءة ما، وأن أغرق في تعاستي البالغة لهذا.

ولعل ثمة إساءة تكون قد وجهت إليك بالفعل على أية حال، من الصعب أن يراجع المرء نفسه لكي يتأكد من هذا.

كما لا يجب عليك أن تنسي أن المزاح والالتزام بالجد، وإن كان من السهل التفريق بينهما في سهولة، إلا أنه عندما يقع في روع ذوى الشأن من الناس أن حياة المرء الخاصة تعتمد عليهما، هنا لا يبدو التفريق بين المزاح والجد بمثل السهولة التي سبق لها أن تبدى بها. هنا في الحقيقة، تكون مجازفة المرء بالغة الخطورة عندما يمعن في تدقيق نظرته الفاحصة، وما إن تتهيأ للمرء مثل تلك النظرة البالغة التدقيق، حتى يكون قد أسلم نفسه كلية للضياع. في هذا المقام، لم أكن أتمتع بالقوة، حتى في لحظات قوتي، في الصف الأول، من المدرسة الابتدائية، مثلًا. فطباختنا، وهي امرأة نحيلة، ضئيلة، معروقة، لها أنف مدبب، وخدود مجوفة، مصفرة البشرة وإن كانت شديدة، ونشطة ومتفوقة، كانت تقودني كل صباح إلى المدرسة. كنا نعيش في ذلك المنزل الذي يفصل (الساحة الصغيرة) عن (الساحة الكبيرة). وعلى هذا فقد عبرنا (الساحة) أولًا، ثم سرنا عبر (تاينجاسه) واخترقنا نفقًا ذا سقف مقبب في ممر (سوق اللحم)، منحدرين نحو (سوق اللحم). وذات يوم بعد أن انقضى ما يقرب من العام، ونحن نقطع كل صباح نفس الطريق قالت الطباخة في اللحظة التي غادرنا فيها المنزل، إنها سوف تخبر المدرسة بشقاوتي الزائدة في المنزل. ولعل وصف الشقاوة

الزائدة لم يكن لينطبق عليَّ في الحقيقة، فقد كنت عنيداً على نحو ما، وخائبًا وحزينًا، وسيئ الطبع، وكان من الممكن اختلاق شيء ما من بين هذا كله، وتبليغه إلى المدرسة. كنت أعلم هذا، لذا لم يبد لي تهديد الطباخة مما يستهان به، ومع ذلك فقد اعتقدت أن شيئًا ما قد يطرأ على جدية هذا التهديد، في طريقنا إلى المدرسة، ذلك أنه كان طريقًا بالغ الطول (ينبع ذلك القلق، وتلك الجدية العمياء من مثل خفة القلب الصبيانية تلك التي تزداد في مثل تلك الحالة شيئًا فشيئًا، فقط عندما لا تكون الطريق بمثل ذلك الامتداد البالغ). كان الشك يراودني أيضًا، خاصة عندما كنا نجتاز ساحة (ألتشتاتر)، فيما إذا كانت الطباخة، تلك المرأة التي، وإن كانت توحي بالاحترام في أوساط الخدم، ستجرؤ على أن تتحدث إلى المدرسة، تلك الشخصية التي تفرض على العالم احترامها. ربما كنت قد تفوهت بشيء من هذا، على حين كانت الطباخة تجيبني دائمًا باقتضاب، بشفتيها الرفيعتين، القاسيتين، قائلة إنني لا أصدق أنها ستفعل ذلك إلا أنها ستفعله. وفي مكان ما، على مقربة من مدخل ممر سوق اللحم، (هو مكان ما يزال ذا أهمية تاريخية بالنسبة لي بصورة ما،...... في أي حي من أحياء براغ قضيت طفولتك؟)، تملكني تمامًا الخوف من عاقبة ذلك التهديد، كانت المدرسة في حد ذاتها كابوسًا لا أقوى على احتماله، والآن تحاول الطباخة أن تزيد الأمر سوءًا، ورحت أتوسل إليها، فهزت رأسها، وكلما أمعنت في التوسل، اتضح لي هول ما كنت أتوسل من أجله، وتضخم الخطر أمام عيني، فتوقفت في مكاني، ورجوتها أن تغفر لي، جرجرتني

خلفها في الطريق، وهددتها بانتقام والدي، فضحكت، (هنا) بدت لي غاية في القوة، فتشبثت بأبواب الحوانيت، وبأحجار الزوايا، ورفضت أن أخطو خطوة واحدة، ما لم تعلن صفحها عني، وتشبثت بردائها، أجذبها إلى الخلف (ولم تلزم هي الأخرى بدورها جانب الحلم)، بل ظلت تجرجرني خلفها، وهي تؤكد لي بلهجة قاطعة إنها ستخبر المدرسة عن هذا أيضًا، وتأخر بنا الوقت، ودقت ساعة (كنيسة ياكوب) معلنة تمام الثامنة، وبلغت أسماعنا رنات أجراس المدرسة، وأسرع الأطفال الآخرون بالجري، وكان أشد ما يرعبني دائمًا هو خوف التأخير، كان علينا أن نسرع نحن أيضًا بالجري، وكنت طوال الوقت نهبًا للتفكير في أنها: ستقول، لن تقول ـ حسنًا، لم تقل شيئًا، لم تتفوه مطلقًا بشيء، غير أن الفرصة كانت أمامها دائمًا في أي وقت، لكي تقول ما تشاء، بل إن الفرص لتتزايد أمامها يومًا بعد يوم (لم أقل شيئًا بالأمس، لكنني سأقول اليوم حتمًا)، لم تقلع عن ذلك مطلقًا وكانت أحيانًا ـ تصوري هذا يا ميلينا ـ تدق قدمها في الأرض، غضبًا مني، وكان يتصادف وجود بائعة الفحم هناك، تتطلع إليها حينذاك. يا لها من حماقات يا ميلينا!، وكم يبدو ارتباطي بك وثيقًا، بكل الطباخات، والتهديدات، وكل ذلك الغبار الرهيب، الذي أثارته سنابك الأعوام الثماني والثلاثين، حتى استقر في رئتي.

لم أقصد في الحقيقة أن أخبرك بهذا كله، أو أنني على الأقل لم أقصد أن أخبرك به على هذه الصورة. لقد تأخر بي الوقت، ويجب عليَّ أن أكف عن الكتابة، لكي آوي إلى النوم، ولن أتمكن من الاستغراق في

النوم، لأنني قد توقفت عن الكتابة إليك. لو راودتك الرغبة، في أي وقت، في أن تعرفي النهج الذي كانت تسير عليه طفولتي المبكرة، فسوف أرسل إليك من براغ تلك الرسالة الهائلة، التي كتبتها إلى أبي، منذ ستة شهور، وإن لم أسلمها إليه بعد.

وسوف أرد على رسالتك غداً، فإذا تأخر بي الوقت في المساء، فسوف أرد بعد غد.

سوف أبقى بضعة أيام أخرى لأنني قد نبذت زيارة والدي في (فرانتسنباد)، على الرغم من أن أحداً لا يمكنه بسهولة أن يطلق على ذلك (الاسترخاء في أركان الشرفة) نبذاً.

ومرة أخرى أشكرك على رسالتك.

ف

الثلاثاء

اليوم في الصباح الباكر، حلمت بك مرة أخرى. كنا نجلس بجوار بعضنا البعض، وكنت تبعدينني في غير غضب، بل كنت تبعدينني عنك بود، وكنت غارقًا في تعاستي. لا بسبب إبعادك لي، بل كنت أحس التعاسة لأنني كنت أعاملك كأية امرأة صامتة أخرى، ولأنني كنت قد فشلت في أن أسمع ذلك الصوت الذي تناهى إليَّ صادرًا عنك، ذلك الصوت الذي تحدث إليَّ ببلاغة، ولعل تعاستي لم يكن مرجعها فشلي في أن أسمع ذلك الصوت، بل عجزي عن إجابته.

انصرفت مبتعدًا، ويأسي يفوق ما أحسسته من يأس في حلمي الأول. تذكرت في هذا الصدد شيئا كنت قد قرأته ذات مرة، في مكان ما، هو ما يلي، وإن يكن على شيء من الغموض:

«حبيبتي نهر هائج يتدفق فوق سطح الأرض، نهر يطوقني الآن، ومع ذلك فهو لا يصطحب هؤلاء الذين يطوقهم، بل أولئك الذين يتطلعون».

لك (الآن، حتى اسمي فقدته، فقد أخذ
ينكمش طوال الوقت فأصبح الآن: لك)

***

وصلتني رسالتاك معًا عند الظهر، ولم يكن الوقت يسمح بقراءتهما، بل بنشرهما حتى يتسنى للمرء أن يمرغ وجهه على صفحاتهما، وأن يفقد صوابه، وإن بدا لي الآن أنني قد فقدت بالفعل بعضًا من صوابي، وعليَّ لهذا أن أحتفظ بالبقية الباقية منه، لأطول فترة ممكنة. وما يلي هو كيف واجهت سنواتي اليهودية الثماني والثلاثين بسنواتك المسيحية الأربع والعشرين:

كيف يمكن ذلك؟ وأين هي القوانين التي تحكم العالم، وأين هم جند السماء جميعًا؟ لقد بلغت الثامنة والثلاثين من عمرك وقد نال منك التعب كما لم ينل ممن لم يتقدم مطلقًا في العمر، أو أنك على نحو أكثر دقة: لست متعبًا بالفعل، في حقيقة الأمر، لكنك قلق، تخشى أن تخطو خطوة على هذه الأرض، التي تنتشر فوقها الكمائن، التي أعدت لاصطياد الإنسان، وهذا هو السبب في أنك تجهد في أن تظل قدماك كلتاهما في الهواء دائمًا، في وقت معًا. إنك لست متعبًا، لكنك خائف من ذلك التعب اللانهائي، الذي سوف يعقب ذلك القلق اللانهائي، والذي (وأنت يهودي، على أية حال، وتعرف ما هو الخوف!) يمكن تجسيده للرؤية، أوضح ما يكون في صورتك كشخص مختل العقل يحدق أمامه في الفراغ، في حديقة مستشفى المجاذيب، خلف ميدان كارلسبلاتز.

حسنًا، هذا هو إذن وضعك، لقد اشتركت في العديد من المناوشات، وعلى هذا فقد كدرت كلًّا من الصديق والعدو على حد سواء (ولم يكن هنالك بالفعل، سوى الأصدقاء فقط، هم هؤلاء الطيبون الأعزاء، ولم يكن ثمة أعداء لك)، وأصبحت لهذا مريضًا بالفعل، أصبحت واحدًا من هؤلاء الذين يرتعدون عندما تقع أعينهم على مسدس يشهره في وجوههم طفل، والآن، الآن فجأة تشعر بشعور من وجهت إليه الدعوى للاشتراك في معركة لتحرير العالم كله، وسوف يبدو لك هذا أمرًا بالغ الغرابة، أليس كذلك؟

تذكر أيضًا، أنه ربما كانت أفضل فترة في حياتك كلها، هي تلك الفترة التي ربما لم تتحدث عنها بصراحة إلى أي شخص بالفعل، وهي تلك الشهور الثمانية التي قضيتها في إحدى القرى القريبة منذ سنتين، حيث ظننت هناك أنك قد تخلصت من كل شيء، وحيث انشغلت فقط، بما لم يكن بينك وبين نفسك محلًّا للتساؤل. هناك، حيث عشت طليقًا، بلا رسائل، وبغير ذلك الاتصال الذي دام خمس سنوات ببرلين عن طريق البريد، وحيث عشت هناك في حماية مرضك، حين لم يكن عليك أن تغير كثيرًا مما بنفسك، بل كان عليك فقط أن تتعقب مرة أخرى— بمزيد من الحزم— آثار الخطوط الخارجية الضيقة التي تحدد طبيعتك (فوجهك على أية حال، تحت شعرك الرمادي، لم يطرأ عليه تغير ذو بال، منذ أن كنت في السادسة من عمرك).

لم تكن هذه هي النهاية التي انتهيت إليها للأسف، خلال الشهور الثمانية عشرة الأخيرة، لم يكن يسعك ـ بصعوبة بالغة ـ سوى أن

تغطس في هذا الاتجاه إلى عمق أبعد من هذا (أستثني هنا الخريف الماضي الذي ناضلت خلاله مخلصًا من أجل الزواج)، ولم يكن يسعك أن تجرجر خلفك مخلوقًا بشريًّا آخر، فتاة طيبة، تستهلك نفسها في الأنانية، وتهبط بك إلى أعماق أبعد، لا، ليس أبعد، بل هي أعماق لا مخرج منها، حتى ولو إلى القرار.

حسنًا، والآن تدعوك ميلينا بصوت يتطرق إلى عقلك، وإلى قلبك بنفس العمق، ولا تعرفك ميلينا بالطبع، فقد خطفت بصرها بضع قصص قليلة، وبضع رسائل، إنها كالبحر، جبارة كالبحر بمياهه التي تمتد إلى غير حد، وإن كان، وهذا هو عيبه، يتقهقر بكل جبروته، وينزل على رغبة القمر الميت هناك، على ذلك البعد اللامتناهي. إنها لا تعرفك ولعل لديها شعورًا صادقًا خفيًّا يجعلها ترحب بحضورك، وإن حضورك بالفعل سيبهرها في التو، شيء يمكنك أن تتيقن منه، فلعل هذا إذن أن يكون، يا رقيق الروح، هو السبب في رغبتك عن الذهاب، لأنك تخشى أن يحدث لها شيء من هذا؟

لكن لنفرض أن لديك مئة سبب آخر خاص، يمنعك من الذهاب (ولديك بالفعل ما يمنعك)، وأن لديك، بالإضافة إلى ذلك، سببًا آخر لا يتعلق بك وحدك، هو ذلك السبب الذي يتلخص في أنك لن تتمكن من مخاطبة زوج ميلينا، وأنك لن تقوى حتى على مجرد رؤيته، وأنك لن تقوى أيضًا، وبنفس الدرجة، على أن تتحدث إلى ميلينا، أو أن تراها حيث لا يكون زوجها حاضرًا. لو أننا فرضنا هذا كله، لبقي مع ذلك اعتباران آخران ليواجها ما سبق أن سلمنا به جدلًا.

أولهما، عندما قلت أنك ستحضر، لعل ميلينا ألا تكون لديها الرغبة في حضورك، لا لترددها، بل لإرهاقها الواضح، ولعلها ستسمح لك بكل سرور وارتياح أن ترحل لو شئت.

لكن ثانيهما: هو رغبتك في مجرد الذهاب إلى ڤيينا، ولنر ما يحدث! إن ما يشغل بال ميلينا هو فتح الباب! ولسوف يفتح الباب بالفعل، لكن بعد ذلك؟ بعد ذلك سيقف هنالك في فتحته كائن ما، نحيل، على شفتيه ابتسامة ودية (وستعلو وجهه الابتسامة طوال الوقت، ابتسامة ربما كان قد ورثها من إحدى العمات المسنات، اللواتي يبتسمن على الدوام، وإن لم تفعل أي منهن ذلك عن قصد، لكنهن يبتسمن ببساطة لارتباكهن)، وبعد ذلك سيجلس ذلك الكائن حيث اعتزم أن يجلس، وبهذا يكون التكلف قد بلغ غايته بالفعل، ذلك أنه لا يبدو أن ذلك الكائن سيتحدث كثيرًا، فسوف يفتقد الحيوية اللازمة لذلك، (بالأمس قال جاري الجديد على مائدة الطعام في مجال الحديث عن الغذاء النباتي الذي يتناوله الرجل الصامت: «أعتقد أن اللحوم لا غنى عنها مطلقًا، كعنصر أساسي في غذاء من يمارس العمل الذهني»)، كما أن ذلك الكائن لن يشعر، حتى بالسعادة، ذلك أنه سيفتقد الحيوية اللازمة لممارسة مثل ذلك الشعور، أيضًا.

ترين من هذا، يا ميلينا، أنني أتحدث بصراحة، إلا أنك تتمتعين بالذكاء وستدركين طوال الوقت، أنني وإن كنت أقول الحقيقة (الحقيقة الكاملة، الصادقة، بحذافيرها)، إلا أنني أتحدث، على الرغم من ذلك في صراحة بالغة. في مقدوري على أية حال، أن أحضر بدون هذا

الإعلان، وفي مقدوري أن أنبهك، دون أن أتوسل إلى ذلك بمثل هذه الضجة التي أثيرها الآن، فإن كنت لم أفعل ذلك، فلا معنى لهذا، سوى أنه دليل آخر على صدقي، أو دليل آخر على ضعفي.

سأبقى أسبوعين آخرين؛ لأنني أشعر بالخجل، وهو شعوري الغالب، وأخاف من العودة بهذه النتيجة التي انتهى إليها علاجي. إن الضيق الذي أشعر بأنني سأواجهه عند عودتي إلى منزلي، وإلى عملي بصفة خاصة، لن يسببه سوى توقعهم هناك، عند عودتي، شيئًا يقرب من الشفاء التام، في نهاية هذه العطلة.

بالإضافة إلى العذاب الذي تسببه لي تلك الأسئلة: كم بلغ وزنك في هذه المرة؟ على حين أن وزني قد نقص لا. تقتصد! (توجه إليَّ هذه الكلمة، إشارة إلى بخلي)، وإنني أدفع فاتورة البنسيون كاملة، إلا أنني لا أستطيع أن أتناول ما يقدمونه لي من الطعام ونكات عديدة من هذا القبيل.

وجدت أنك ما زلت ترغبين في حضوري، في نهاية الأسبوعين، رغبة صريحة، كتلك التي صرحت لي بها يوم الجمعة، فسوف أحضر عندئذ.

المخلص لك

ف

يجب أن نكف عن كتابة هذه الرسائل التي تشطب بعضها بعضًا، يا ميلينا، إنها تدفعنا إلى الجنون، إن المرء لا يكاد يعرف ما كتبه، ولا ما أجاب به، ويرتعد طوال الوقت، أيا كان الأمر. إنني أفهم لغتك التشيكية غاية الفهم، ويمكنني كذلك أن أسمع الضحكة، إلا أنني أنقب في رسائلك، أنقب حتى بين الكلمة والضحكة، ثم أسمع الكلمة فقط، وعلاوة على ذلك، فإن طبيعتي هي الخوف.

لا يمكنني أن أقطع بما إذا كنت ما تزالين ترغبين في رؤيتي بعد رسالتي إليك يومي الأربعاء والخميس. إن الرابطة التي تربطني بك، هي رابطة أعرفها) فأنت تنتمين إليَّ حتى ولو قدر لي ألا أراك ثانية على الإطلاق)ـ رابطة أعرفها بقدر ما تنقطع صلتها بذلك الشعاع من الخوف الذي لا يمكنني أن أسبر غوره، غير أن ما يربطك بي هو ما لا أعرفه مطلقًا، ذلك أن تلك الرابطة التي تربطك بي، تنتمي كلية إلى الخوف. لكنك لا تعرفينني يا ميلينا، وأكرر هذا القول[30]:

فيما يتعلق بي، لعلك ترين أن ما يحدث لي، هو حدث خطير. إن عالمي يتهاوى، إن عالمي يتعالى، ويرقب (وهذا هو أنا) كيف تحيينه أنت. لست أرثي للانهيار، فلقد كان مجرد انهيار وسط موكب الانهيار،

30(في الهامش الأيسر) لا، أنت لا تفهمينني، أيضًا، يا ميلينا، فلقد كانت (المسألة اليهودية) على أية حال، مجرد نكتة سخيفة.

إلا أن ما أرثي له حقًّا، هو نهوضه، يؤسفني افتقاري إلى القوة، يؤسفني أنني ولدت، أرثي لضوء الشمس.

كيف ستتمكن من أن نواصل الحياة؟ لو أنك قلت (نعم)، ردًّا على رسائلي، فلا يجب عليك عندئذ أن تواصلي حياتك في ڤيينا، فهذا مستحيل.

ميلينا، أنت بالنسبة لي، لست امرأة، أنت فتاة لم أر مثلها أبدًا من قبل، لست أظن لهذا أنني سأجرؤ على أن أقدم لك يدي أيتها الفتاة، تلك اليد الملوثة، والمعروقة، المهتزة، المترددة، التي تتناوبها السخونة والبرودة.

ف

بخصوص ساعي بريد براغ، أراها خطة فاشلة، فسوف تجدين فقط بيتًا خاويًا، هو مكتبي، بينما أكون جالسًا في تلك الأثناء في رقم 6 ساحة ألتشتاتر، في الطابق الثالث، إلى إحدى المناضد ووجهي بين يدي.

من الصعب قول الصدق، فعلى الرغم من أنه لا يوجد سوى (صدق) واحد فقط، لكنه صدق مفعم بالحياة، وعلى هذا فإن له وجهًا متغيرًا، ممتلئًا حيوية: «وهو ليس وجهًا جميلًا على أية حال، ليس جميلًا في الحقيقة، لكنه قد يبدو جذابًا في بعض الأحيان».

لو أنني قضيت الليل كله من مساء الإثنين حتى صباح الثلاثاء في الإجابة على رسالتك، لكان ذلك مرعبًا. لقد استلقيت على فراشي، كما لو كنت قد تمددت فوق آلة تعذيب، لقد قضيت الليل كله في الرد عليك، في الشكوى إليك، قضيته محاولًا أن أخيفك حتى تبتعدي عني، وكنت ألعن نفسي (كان السبب في هذا أيضًا أنني كنت قد تسلمت رسالتك في الحقيقة في ساعة متأخرة من المساء، وأنني كنت وأنا في أحضان الليل، متأثرًا غاية التأثر، ومرتاحًا إلى الإجابة على ما جاء فيها من التساؤلات الجادة).

ثم رحلت في الصباح الباكر إلى بولتسانو، فأخذت القطار الكهربائي إلى كلوبنشتاين، على ارتفاع 1200 متر، واستنشقت، وإن لم يكن بكل طاقتي، هواء نقيًّا يميل إلى البرودة، أمام بداية سلسلة جبال دولومايت، ثم كتبت لك في طريق عودتي ما أنسخه لك الآن، حيث وجدت أن ما كتبته لك، كان شيئًا بالغ الحدة، كما يبدو لي اليوم على الأقل، وعلى هذا فالأيام تتفاوت:

أصبحت وحدي أخيرًا، فقد بقي المهندس في بولتسانو، وأنا في طريق عودتي. إنني لم أتألم كثيرًا من حقيقة أن المهندس والطبيعة كانا قد اندسا بيني وبينك، ذلك أنني لم أكن مع نفسي، لقد أمضيت مساء الأمس حتى الساعة الثانية عشرة والنصف معك، أكتب إليك ثم بعد ذلك كنت معك بأفكاري، ثم ظللت مستلقيًا في فراشي حتى السادسة صباحًا، وكنت قد استغرقت أثناء ذلك في النوم بضع دقائق قليلة فقط، ثم انتزعت نفسي من الفراش، كما ينتزع غريب غريبًا من فراشه، وكان هذا كله حسنًا، ذلك أنني لم أكن لأفعل غير هذا سوى التسكع بلا هدف، وقضاء اليوم هناك في ميران.

لا يعنيني كثيرًا أنني لم أكن في كامل وعيي في أثناء هذه الرحلة، وأن هذه الرحلة ستبقى في ذاكرتي فقط كحلم غامض إلى حد ما. كانت الليلة شبيهة بهذه؛ ذلك أنك برسالتك (إن لك لنظرة ثاقبة وإن لم يبد أن لهذا أهمية خاصة، مع أن الناس يتجولون دائمًا في الشوارع، ويتهجمون على نظرة المرء، لكنك تتمتعين بشجاعة تنطق بها نظرتك في مواجهة ذلك التهجم وتتمتعين فوق هذا كله بالقوة على أن توجهي نظرتك إلى ما هو أبعد من هذا، وهذه النظرة إلى البعيد هي أكثر الأشياء أهمية، وإنك لتتمتعين بقدرتك على توجيه هذه النظرة)، قد أيقظت كل الشياطين القديمة التي تنام بعين مغلقة واحدة، وبعينها الأخرى المفتوحة تتحين الفرصة، تلك الفرصة التي تبدو، على الرغم من الرعب الذي تثيره، حتى ليتصبب المرء عرقًا باردًا (وأقسم لك أن ذلك العرق لا يتصبب من شيء آخر سواها، سوى تلك القوى غير

المحسوسة)، فرصة طيبة على الرغم من هذا، وصحية، وإن المرء ليتطلع إليها، إلى تلك الشياطين ويعلم أنها هناك، ومع ذلك فإن تفسيرك لنصيحتي بأن (عليك أن تغادري ڤيينا) ليس تفسيرًا بالغ الدقة. إنني لم أكتب ذلك دون تدبر، كما أنني لست عاجزًا عن تحمل العبء المادي (دخلي ليس كبيرًا، لكنني أعتقد أنه يكفينا معًا، ولا يعني هذا بالطبع، أن كفايته تغطي أيضًا احتمالات المرض)، كما أنني مخلص، علاوة على ذلك، في حدود قدرتي على التفكير والتعبير (ولقد كنت هكذا دائمًا على الرغم من أنك كنت أول من شملني بنظرة العطف التي شجعتني على أن أبقى هكذا). إن ما أخافه، ما أخافه وعيناى مفتوحتان على اتساعهما، بعد أن غرقت في أعماق خوفي، عاجزًا حتى عن محاولة النجاة (لو أمكنني أن أستغرق في النوم، كما أغرق في خوفي على هذا النحو، فلن أكون حينئذ على قيد الحياة) هو تلك المؤامرة التي تقوم في داخلي ضد ذاتي، تلك المؤامرة وحدها هي ما أخشاه، وهذا ما سوف تفهمينه بصورة أوضح بعد قراءة رسالتي إلى أبي، وإن كنت لن تفهمي ذلك منها تمام الفهم مع ذلك؛ لأن تلك الرسالة قد وجهت في إحكام بالغ نحو هدفها) وهي مؤامرة لعلها قد قامت على أساس أنني في مباراة الشطرنج الهائلة، التي لا دور لي فيها سوى دور حصان، بل دور أهون منه بكثير، أجدني الآن خلافًا لكل القواعد المتبعة في اللعبة، وعلى حسب اللعبة، راغبًا في احتلال مكان الوزير- أنا (الحصان) وذلك الشيء الذي لا وجود له، والذي لا أهمية مطلقًا لدوره في المباراة- وربما كنت راغبًا أبعد من هذا في أن أحتل مكان

(الملـك) نفسـه، وربمـا راودتـني الفكـرة في أن أحتـل وحـدي رقعـة الشطرنج كلها، وهكذا لو أنني كنت حقًّا قد أردت ذلك، لكان حتمًا أن يتم هذا بطريقة أخرى أبعد ما تكون عن الإنسانية.

هذا هو السبب في أن الاقتراح الذي اقترحته عليك، له بالنسبة لي أهمية تفوق كثيرًا أهميته بالنسبة لك، ذلك أن هذا الاقتراح هو الشيء الوحيـد المؤكد الآن، الخالص من الشوائب، وهو الشيء الوحيد الذي يسـعدني سعادة كاملة.

كان هـذا هـو الحـال بـالأمس، سـأقول لـك اليـوم مثلًا، إنـني لن أحضـر قطعًا، إلى ڤيينـا، لكن لمـا كـان اليـوم هـو اليـوم، وكـان الغـد هـو الغـد، فسوف أسمح لنفسـي بشـيء من الحريـة. لن يدهشـك أمـري بحـال من الأحوال، كما أنني لن أتـأخر عن الحضـور أكـثر من يـوم الخميس، فلـو وصـلت إلى ڤيينـا فسـوف أرسـل لـك برقيـة (لا يمكـنني أن أقابـل أحـدًا سواك، أعلم هذا)، من المؤكد أنـني لن أصـل قبـل يـوم الثلاثـاء، سـوف أصل إلى المحطة الجنوبية وإن كنت لا أعلم حتى الآن إلى أين سأذهب بعد ذلـك عنـدما أبلغهـا، وعلى هـذا فسـوف أبقى بـالقرب من المحطـة الجنوبية. يؤسفني أنني لا أعرف أين تقومين بإلقاء دروسك في المحطة الجنوبية، فيمكنني أن أنتظرك هناك في الساعة الخامسة (لا بـد أنـني قـد قرأت هذه الجملة من قبـل في إحـدى القصـص الخرافيـة، في مكـان لا يبعد كثيرًا عن الجملة التاليـة: إن لم يكونـوا قـد مـاتوا فلا شـك أنهم مـا يزالون اليوم على قيد الحياة).

رأيت اليوم خريطة لڤيينا، فبدا لي، للحظة أنه مما يستعصي على الفهم، قيامهم بتشييد مثل تلك المدينة على حين أنك تريدين فقط، حجرة واحدة.

ف

***

قرأت بإمعان تلك اللحظة التي تتعلق بالطعام، نعم، هذا أيضًا سوف يترتب تلقائيًّا، لقد أصبحت ذلك الرجل المهم الآن- وأنني أقرأ الرسالتين بنفس الطريقة التي يلتقط بها العصفور الفتات في حجرتي، مرتعشًا مرهفًا سمعه، متفحصًا ما حوله، نافشًا كل ريشه.

***

الخميس

يكون المرء أشد يقظة بعد ليلة يقضيها مسهداً، منه بعد ليلة يستغرق فيها في النوم. بالأمس استغرقت في نوم عميق إلى حد ما، ثم كتبت في الحال تلك الحماقات عن رحلتي إلى ڤيينا. ليست هذه الرحلة، في نهاية الأمر بالشيء الهين، إنها ليست موضوعًا للتسلية. تيقني من أنني لن أفاجئك بحال من الأحوال، إن مجرد التفكير في ذلك يجعلني أرتعد، لست أنوي مطلقًا الحضور إلى شقتك. إذا لم تصلك برقية مني حتى يوم الخميس فسوف أكون قد ذهبت حينئذ إلى براغ.

سأصل بالمناسبة، بناء على ما بلغني، إلى المحطة الجنوبية (أظن أنني قد كتبتها في الليلة الماضية المحطة الجنوبية)، إلا أن هذا لا يهم. وعلاوة على هذا فلست شخصًا شاردًا، ولا متبلدًا ولا مهملًا إلى أقصى حد ـ بل لقد استغرقت قليلًا في النوم بعد أن فرغت من ترتيب كل شيء. فلا تخشي شيئًا في هذا الخصوص، ذلك أنني إن خطوت إلى داخل العربة قاصداً ڤيينا، فلن أغادرها إلا في ڤيينا، غير أن الصعود إلى العربة يثير بعضًا من الصعوبات. إلى اللقاء إذن (وقد لا يكون اللقاء في ڤيينا، فمن الممكن أيضًا أن نلتقى في الرسائل).

ف

لا علاقـة لاسـم ميلينـا على أيـة حـال بالچرمانيـة أو اليهوديـة، وإن من يجيدون فهم اللغة التشـيكية (فيمـا عـدا اليهـود التشـيكيين بـالطبع) هم السادة الذين ينحدرون من أصل چرماني، ويليهم قراء المجلة، ثم يليهم المشتركون فيها، وأنا واحد من بين هؤلاء المشتركين.... أقول لك هـذا لأن علاقـة اسـم ميلينـا باللغـة التشـيكية لا تتعـدى تصـغيره (ميلينكـا)، وسـواء راق لـك هـذا التصـغير أو لم يرقـك، فهـو مـا يقوله[31] فقـه اللغـة (الفيلولوچي).

لو أنني وصلت إلى ڤيينـا فعلًا، فسـوف أكتب لـك، أو أرسـل لـك برقيـة على مكتب البريد يوم الثلاثاء أو الأربعاء، لقد وضعت الطوابع بالتأكيـد فوق مظاريف الرسائل جميعًا، ألا يبـدو لـك أنهـا قـد انـتزعت من فـوق المظروف؟

***

31يرى كافكا أن اسم (ميلينا)، اسم لاتيني الأصل، إلا أن تصغيره (ميلينكا) هو اسم تشيكي أصيل، على الرغم من ذلك، ومعناه (الحبيبة)، ويرى كافكا لهذا أن التركيب الصحيح للاسم في اللغة التشيكية هو (ميلادا).

مساء الجمعة

كتبت لـك بغبـاء صـباح اليـوم، والآن وصـلتني رسـالتاك الغاليتـان الفياضتان، وسوف أرد عليهما شفويًّا، فسأصل إلى ڤيينا يوم الثلاثاء، ما لم يقـع مـا ليس في الحسـبان، ظـاهرًا كـان أو باطنًـا. وربمـا كـان من الأصوب، لو استطعت أن أحدد لـك الآن في أي مكـان سـأنتظرك (أظن أن يوم الثلاثاء عطلة، وقد يكـون مكتب البريـد الـذي سأرسـل لـك إليـه رسالتي أو برقيتي، مغلقًـا) على أنـني، لـو اسـتطعت أن أعين لـك اليـوم، وفي هذه اللحظة مكانًا، لا بد لي أن أراه بعين الخيال شاغرًا طوال ثلاثـة أيام، وثلاث ليالٍ مقدمًا، في انتظار وصولي يوم الثلاثاء في ساعة معينـة لاختنقت لهذا قبل أن أبلغه. فهـل يوجـد يـا ميلينـا، ثمـة مكـان في هـذه الدنيا يسعه أن يطيق معي صبرًا. حدثيني عن هذا يوم الثلاثاء.

ف

***

(بطاقة بريدية، خاتم بريد *19/2/20*
(ڤيينا)

الثلاثاء — الساعة العاشرة

قد لا تصلك هذه البطاقة في الثانية عشرة، أو أنها بالأحرى لن تصلك قطعًا في ذلك الموعد، فالساعة الآن تمام العاشرة. ستصلك إذن في الغد وقد لا تصلك أيضًا في الغد، ذلك أنني أنا أيضًا على الرغم من وجودي في ڤيينا الآن، جالسًا في مقهى بالقرب من محطة الجنوب (ما نوع هذه الشيكولاتة؟ وأية بقلاوة هذه؟ هل هذه هي الأطعمة التي تعيشين عليها؟)، إلا أنني لم أصل بالفعل في الحقيقة إلى مكاني هذا الذي أجلس فيه الآن، فلم أذق للنوم طعمًا طوال ليلتين، وإن كنت لا أكاد أصدق أنني سأستغرق في النوم، في الليلة الثالثة، التي سأقضيها في (فندق ريڤا) بالقرب من محطة الجنوب، حيث تطل حجرتي على أحد الجاراچات. لن أصادف ما يطيب لي أكثر من: إنني سأنتظرك صباح الأربعاء في العاشرة، أمام الفندق. أرجوك يا ميلينا ألا تفاجئيني بالقدوم من أحد الجانبين، أو من الخلف، وأعدك بأنني لن أفعل ذلك بدوري أيضًا. ربما نظرت اليوم إلى المشاهد التي تحيط بي: شارع (ل)[32]، ومكتب البريد، والساحة الخارجية التي تمتد من محطة الجنوب إلى شارع (ل) وبائعة الفحم، وغير ذلك — بقدر ما أسعفتني الرؤية.

32حيث تقطن ميلينا.

لك

***

من براغ

الأحد[33]

اليوم ميلينا، ميلينا، ميلينا ـ لا يمكنني أن أكتب شيئًا آخر. لكنني سأكتب. وعلى هذا فإنني أكتب ميلينا اليوم فقط متعجلًا مرهقًا، شاردًا إلى حد ما (أما ميلينا الثانية فسأكتبها غدًا بالفعل، هي أيضًا) كيف يمكن ألا ينال الإرهاق من المرء؟ لقد وعدوا المريض بثلاثة شهور إجازة ومنحوه فقط أربعة أيام وجزءًا من الثلاثاء ومن السبت، وحتى الأمسيات والفترات الصباحية قد فقدها. ألست محقًّا لهذا في ألا أتماثل تماما للشفاء؟ ألست محقًّا في هذا؟

ميلينا (همسة، همستها في أذنك اليسرى، بينما كنت تستلقين هنالك فوق الفراش المتواضع، مستغرقة في إغفاءة عميقة، يشغلك شاغل يبدو ملحًّا، وبينما كنت تستديرين في بطء، لا شعوريًّا من اليمين إلى اليسار، نحو شفتي).

الرحلة؟ في البداية بدا الأمر بسيطًا غاية البساطة، وكان من المستحيل أن يبتاع المرء الصحف من نافذة القطار. مجرد عذر للخروج، غير أن عيني لم تقعا لك على أثر. تبينت هذا تمامًا ثم دخلت إلى العربة ثانية، وتحرك القطار وشرعت في قراءة الصحف. كان كل شيء ما يزال على ما يرام، وتوقفت عن القراءة بعد لحظة، لكنك فجأة لم تكوني معي، أو

33 كانا قد التقيا في فيينا في ذلك الوقت.

أنك كنت معي، فهذا ما كنت أشعر به بكل كياني، غير أن وجـودك معي على هذا النحو، كان يختلف مع ذلك اختلافًا بالغًا عن وجودك بجانبي خلال تلك الأيام الأربعة، وكنت قد اعتدت على ذلك في أول الأمر. شرعت مرة أخرى في القراءة إلا أن صفحة اليوميات التي يكتبها (بار)[34] بدأت بوصف (حمام الصليب) بالقرب من (جراين). انصرفت عن القراءة عندئذ وعندما تطلعت إلى الخارج مر بنا أحد القطارات وفوق إحدى عرباته وقعت عيناي على كلمة (جراين). سحبت نظراتي إلى داخل الديوان. كان يجلس أمامي شخص يقرأ نسخة الأحد الماضي من جريدة (نارودني ليستي)، لمحت بها مقالًا بقلم روتسينا بيزينسكا، فاستعرتها وبدأت في قراءته شاردًا، ثم وضعت الجريدة جانبًا، وبقيت بعد ذلك، جالسًا في مكاني، ووجهك يتبدى لي، تمامًا كما بدا لي في لحظة وداعنا في المحطة. بدت لي لحظة وداعنا تلك على رصيف المحطة ظاهرة طبيعية لم أشهد لها مثيلًا من قبل أبدًا، فلقد غشي ضوء الشمس قتامة لم تسببها الغيوم، كان ضوء الشمس قد خفت من نفسه.

ماذا عساي أن أقول أيضًا؟ إن حلقي لا يطاوعني، ولا تطاوعني يداي.

لك

غدًا يصلك وصف الحكاية الغريبة، لبقية الرحلة.

34يوميات هيرمان بار، التي كانت تظهر في طبعات الأحد من جريدة (نويه فاينر).

الأحد ـ بعد قليل من كتابة الرسالة السابقة[35]

أحضر ساعي البريد هذه الرسالة المغلقة (أرجوك أن تفضيها في الحال، وكذلك الرسالة التي أرسلها ماكس)[36]، إنه يريد ردًّا عاجلًا، لهـذا أكتب له قائلًا إنني سأكون هناك في الساعة التاسعة، إن ما ينبغي أن أقوله شيء بالغ الوضوح، أما كيف سأقوله، فلست أدري كيف؟ فلترحمني السماء، لـو أنـني كنت متزوجًا وعـدت إلى مـنزلي فلم أجـد سـاعي البريـد، بـل وجدت فراشًا من المستحيل أن أختبئ فيه، دون أن أجد سردابًا يصـلني بڤيينا!

أقـول لنفسـي هـذا، حـتى أقنعهـا بمـدى سـهولة تلـك الصـعوبات الـتي تواجهني.

إنـني أرسـل إليـك تلـك الرسـالة كمـا لـو كـان يسـعني بـذلك أن أدعـوك للمجيء وحدك ـ لكي تكوني بجواري، وأنـا أتمشـى ذهابًـا وجيئـة أمـام ذلك المنزل.

***

35الرسائل التالية من براغ.

36الشاعر ماكس برود.

(3) الأحد – الساعة الحادية عشرة والنصف

أرقم هذه الرسائل على الأقل، حتى لا يتاح لأي منها أن تضل طريقها إليك إلا بقدر ما يمكنني أن أفتقدك في الحديقة وقتئذ.

لا فائدة على الرغم من أن كل شيء، كان في نهاية الأمر، واضحًا غاية الوضوح، وأنني كنت من جانبي قد أوضحته غاية الوضوح. لا أريد أن أخوض في التفاصيل، سوى أنها لم تتفوه بكلمة واحدة تشي بشيء من الغضب فيما يتعلق بك أو بي. ولست أشعر لهذا الوضوح الصريح بأدنى شعور بالأسف. كل ما يمكنني أن أقوله صادقًا، إن شيئًا بينها وبيني لم يتغير ولا يبدو أن شيئًا سيتغير على الإطلاق فيما عدا — لا شيء، إن هذا مخيف كله، إنها مهمة تتطلب جلادًا ليضطلع بعبئها، وليست هي بالمهمة التي أقوى عليها. يبقى أمر واحد يا ميلينا، هو احتمال أن تمرض مرضًا خطيرًا (فهي لا تبدو مطلقًا في صحة حسنة ويسيطر عليها يأس بالغ، ولا بد لي من أن أذهب لزيارتها مرة أخرى بعد ظهر الغد)— حسنًا، هل سيدهمها المرض، أو أن شيئًا آخر غيره سيقع لها، لم يعد لي بعدُ أي سلطان عليها، فلا يمكنني سوى أن أواصل إخبارها فقط بالحقيقة، غير أن الحقيقة ليست هي مجرد الصدق، لكنها شيء أكثر من هذا، ذلك أن تلك الحقيقة تتحلل في

داخلي، بينما أسير إلى جوارها — لهذا، عليك إذن أن تحضري يا ميلينا مرة أخرى، لو حدث شيء.

ف

يا له من هراء! لن يمكنك بالطبع أن تحضري، (لنفس) السبب.

غدًا سأرسل (رسالة الأب) على عنوان شقتك، فأرجوك أن تعتني بها، فلعلني أن أعطيها لوالدي يومًا ما. ولا تسمحي لغيرك بقراءتها لو أمكنك هذا، وحاولي أن تفهمي أثناء قراءتها كل حيل رجال القانون، فهي رسالة كتبها أحد رجال القانون. ولا تتخلي في أثناء ذلك عن لا مبالاتك البالغة.

صباح الإثنين الباكر

أرسل لك (عازف الكمان الفقير)[37] ـ لا لأن لها أهمية خاصة عندي، مع أن تلك الأهمية كانت لها عندي قبل سنوات ـ بل أرسلها لك لأنها قصة تنتسب إلى ڤيينا كل الانتساب؛ ولأنها بالغة البساطة— وتكاد تدفع المرء إلى البكاء لأنه ينظر إلى أسفل، ينظر إلينا في الحديقة العامة (إلينا؛ لأنك كنت يا ميلينا، تسيرين إلى جانبي، فتصوري هذا، تصوري أنك تسيرين إلى جانبي!) ولأنه بيروقراطي إلى أقصى حد، ولأنه كان يحب فتاة، كانت تجيد عملها.

***

(4) صباح الإثنين

تسلمت رسالة الجمعة في ساعة مبكرة من هذا الصباح، ثم وصلتني بعد ذلك رسالتك التي كتبتها مساء الجمعة، كانت الرسالة الأولى رسالة بالغة الحزن، يتبدى على صفحتها وجهك الحبيب الحزين على رصيف المحطة، كانت رسالة حزينة، ليس لما كان يشيع فيها من الرضا، بل لأنها لم تصل في حينها..... لأنها تنتمي إلى الماضي، إلى الغابة المشتركة والضاحية المشتركة والرحلة المشتركة، إلا أن مسيرتنا معًا، قدمًا إلى الأمام، عبر الطريق الحجرى، لم تنته، ولا انتهت عودتنا بطول الشارع تحت شمس المساء، لم ينته شيء من هذا، وإن كانت

37قصة قصيرة بقلم فرانتس جريلبارتسر.

مجرد نكتة سخيفة عندما يقول المرء إن ذلك لم ينته. ثمة وثائق، هنا في متناول يدي، هي بضع رسائل قليلة انتهيت الآن من قراءتها، رسائل تتضمن تحيات ودية من المدير (لم أفصل إذن من العمل)، وتحيات من آخرين هنا وهناك، ويرن في أذني وسط هذا كله، ناقوس صغير يقول: «إنها لم تعد بعد معك»!، على الرغم من أن ناقوسًا آخر أكثر ارتفاعًا يرن من مكان ما، في السماء، قائلًا «إنها لن تتركك»!،إلا أن رنات الناقوس الصغير تدوي في داخل أذني، وها هي مرة أخرى رسالة المساء، وهي رسالة لا يكاد المرء يدرك شيئًا مما بها، رسالة مستغلقة حتى ليتسع صدر المرء وينقبض في قوة محاولًا أن يتنفس تلك الأنفاس التي تشيع فيها. رسالة لا يكاد المرء يصدق، لانغلاقها، أنه من الممكن أن يكون بعيداً عنك إلى هذا الحد.

إلا أنني لست أشكو، على الرغم من ذلك، ليس هذا كله نواحًا، بعد أن بلغتني كلماتك.

أحكي لك الآن قصة الرحلة، ولعلك تواصلين بعدها القول، بأنك لست ملاكًا: في طريق عودتي عرفت أن تأشيرة دخولي إلى النمسا كانت قد انتهت مدتها بالفعل قبل شهرين، لكنهم كانوا قد قالوا في ميران، إن أحدًا لن يلتفت إلى تأشيرة الدخول في حالة دخولي إلى النمسا عابرًا، ولم تواجهني بالفعل أية صعوبات عند اجتياز حدود النمسا. وكانت هذه السهولة هي السبب في أنني قد نسيت هذا الإهمال نسيانًا تامًّا، أثناء وجودي في ڤيينا. ومع ذلك فقد اكتشف، في جموند، أحد موظفي مكتب جوازات السفر ـ وهو شاب قاسي القلب ـ هذا الإهمال للوهلة

الأولى واحتجزوا جواز سفري، وأصبح في مقدور كل شخص أن يجتاز المنطقة الجمركية ما عداي. كان هذا أمر سيئًا للغاية (لم أنعم طوال الوقت بلحظة راحة واحدة خالية من الإزعاج، وهذا هو أول يوم لي في مقر عملي، على أية حال، فلم أصبح بعد مجبرًا على الاستماع إلى أحاديث الغيبة التي تجري في المكتب، إلا أن شخصًا أو آخر لا يكف عن الدخول، ويحاول أن يصرفني عنك ـ أي يبعدك عني إلا أنهم لن ينجحوا في ذلك، يا ميلينا، هل ينجحون في ذلك؟ لن ينجح واحد منهم) كان هذا هو ما حدث، غير أن سحرك كان قد بدأ مفعوله في الحال. جاء حارس من حرس الحدود، رجل ودود، صريح، نمساوي، رحيم، مخلص، واقتادني، فارتقينا درجًا وعبرنا ممرات إلى حيث مفتش الحدود، وهناك كانت تقف أيضًا امرأة يهودية من رومانيا، وبيدها جواز سفر تنقصه أيضًا تأشيرة الخروج، وكانت، ويا للغرابة البالغة، واحدة هي أيضًا من مبعوثيك الودودين، أيتها الملاك الحارس لليهود، غير أن القوى المضادة كانت لها اليد العليا ما تزال. أمسك المفتش العظيم ومساعده الضئيل ـ وكان كلاهما شاحب اللون، نحيلًا، متكدرًا، في تلك اللحظة على الأقل، بجواز السفر، وكان القرار الذي انتهى إليه المفتش من فوره هو «عد إلي ڤيينا واحصل على تأشيرة الخروج من قسم البوليس!» ولم أقو سوى على أن أقول:

«إن هذا شاق بالنسبة لي»! وأجابني المفتش أيضًا مرات عديدة في تهكم وهياج قائلًا: «إن هذا الأمر يبدو لك شاقًّا فقط»، «ألا يمكن طلب التأشيرة ببرقية؟» «لا» «حتى ولو كان المرء مستعدًّا لدفع كل ما يلزم

من النفقات؟» «لا!» «ألا توجد أية سلطة أعلى هنا؟» «لا». هنا تـوجهت المرأة التي كانت قد شعرت بعـذابي، والـتي كـانت تلـزم الصـمت التـام طـوال الـوقت، إلى المفتش تسـأله أن يسـمح لي، على الأقـل، بـالمرور. كان المجهـود بـالغ الضـعف يـا ميلينـا! لم يكن هـذا هـو السبيل الـذي يمكنني أن أسلكه، وكان عليَّ أن أقطع الطريق الطويل راجعًا مرة أخـرى إلى مكتب جوازات السفر بحثًا عن أمتعـتي. ذلـك أن فرصـة السـفر في ذلك اليوم كانت قد ضاعت نهائيًّا. وكنـا نجلس معًـا عندئـذ في حجـرة مفتش الحدود، وحتى الحارس كان لديه عـزاء بسـيط يمكنـه أن يقدمـه لنا، فيما عدا أن صلاحية أوراقنا من الممكن أن يمد أجلها، أو أي شـيء من هـذا القبيـل. وكـان المفتش قـد قـال كلمتـه الأخـيرة وانسـحب إلى مكتبه المنعزل، وكان الحـارس النحيـل، هـو وحـده الـذي كـان قـد بقي هنالك. ورحت أحسب الأمر: إن القطار التالي المتجه إلى ڤيينا، يتحـرك في الساعة العاشرة بعد الظهر، ويصـلها في الثانيـة والنصـف. وكنت مـا زلت أعاني من اللـدغات الـتي نـالتني من البـق الـذي يملأ فـراش فنـدق ريڤا، فكيف ستكون حال حجرتي في فندق محطة فرانتس ـ يوزيـف؟ إلا أنني لن أحصل على حجرة فيه على أية حال، حسنًا، ثم سـأتجه بعـد ذلك)نعم، في الثانية والنصف صباحًا) إلى شارع ل.

وأسأل عن مأوى (نعم، في الخامسة صباحًا). لكن أيًّا كان الأمـر، فعليَّ أن أذهب وأحصل على التأشيرة اللازمة في صباح الإثنين، على أية حالة (وهل سأتمكن من الحصـول على تلـك التأشـيرة في الحـال، وليس في يوم الثلاثاء؟)، ثم أذهب إليك، وأصيبك بالدهشة في فرجة الباب الـذي

ستفتحينه لي، يا للسماء! هنا توقفت أفكاري، غير أنها واصلت تدفقها ثانية: كيف سيكون مظهري بعد انقضاء الليلة في القطار؟ وسيكون عليَّ في المساء أن أقفل راجعًا في الحال رحلة الستة عشرة ساعة، ففي أية صورة سأبلغ براغ؟ وما الذي سيقوله المدير الذي يتعين عليَّ الآن أن أبرق له طالبًا مهلة لرحيلي من هنا؟ قلت لنفسي، لا شك أنك لا تريد هذا كله؟

لكن ما الذي تريده إذن؟ ليس أمامك مخرج آخر من ورطتك هذه. كان العزاء الوحيد الذي تبدَّى لي، هو أنني سأمضي الليلة في جموند، ومن ثم أتجه إلى ڤيينا في صباح الغد الباكر، وعلى هذا، وبينما كنت مرهقًا غاية الإرهاق، سألت المساعد الصامت عن موعد أحد القطارات الصباحية المتجهة إلى ڤيينا. هناك واحد ـ يتحرك في الخامسة والنصف صباحًا، ويصلها في الحادية عشرة، حسنًا، هذا هو القطار الذي سأصحب السيدة الرومانية إليه، لكن الحديث اتجه في تلك اللحظة اتجاهًا مختلفًا فجأة لست أدري كيف. على أية حال اتضح من الحديث أن المساعد الضئيل يحاول مساعدتنا، فلو أننا قضينا الليل في جموند، فسوف يحاول عندما يكون بمفرده في المكتب في الصباح الباكر، أن يسمح لنا سرًّا بركوب قطار الركاب إلى براغ، وسنبلغ براغ عندئذ في الرابعة بعد الظهر. وعلينا أن نتظاهر أمام المفتش بأننا سنأخذ القطار الصباحي إلى ڤيينا، رائع! إنه في الحقيقة، أمر بالغ الروعة، ذلك أنه ما يزال في مقدوري أن أبرق إلى براغ. ليكن، وجاء المفتش وقمنا بتمثيل مهزلة صغيرة تدور حول قطار الصباح الذاهب إلى ڤيينا، ثم

طلب منا المساعد أن ننصرف، وكان علينا أن نلتقي به سرًّا في المساء لنناقش بعض الترتيبات التالية. لقد اعتقدت أنا اعتقادًا قاطعًا بأن هذا كله هو من صنع يديك، على حين لم يكن ذلك في الحقيقة سوى الهجوم الأخير للقوى المعادية. عند هذا سرنا، أنا والمرأة مبتعدين في تثاقل عن المحطة (كان القطار السريع الذي سيحملنا إلى براغ، ما يزال واقفا في المحطة، ذلك أن تفتيش أمتعة الركاب يستغرق وقتًا طويلًا) كم تبعد المدينة عن هنا؟ ساعة واحدة. هذا أيضًا! ثم اتضح لنا أن ثمة فندقين بالقرب من المحطة، سوف نذهب إلى أحدهما، وكان ثمة قطار من قطارات البضاعة تكاد آخر عربة من عرباته تبلغ مكانًا يقرب من الفندقين، وكان علينا أن نعبر إلى الجانب الآخر، وكنت أوشك على أن أعبر الخط مسرعًا، عندما تشبثت المرأة بي، تجرني إلى الخلف عندئذ، ذلك أن أحد قطارات البضاعة كان يقترب من مكاننا في تلك اللحظة، ثم توقف قطار البضاعة أمامنا، وكان علينا أن ننتظر. كان ذلك إضافة قليلة أخرى تضاف إلى حظنا التعس، هذا ما جال بخاطرنا. غير أن ذلك الانتظار وحده، الذي لم أكن بدونه لأصل إلى براغ يوم الأحد، كان هو نقطة التحول في رحلتي.

ويبدو كأنك كنت قد هرولت عندئذ ــ كما هرولت من فندق إلى آخر عند محطة الغرب ــ من بوابة من بوابات السماء إلى الأخرى، تتشفعين لي، ذلك أن حارسك كان يسرع خلفنا في تلك اللحظة متقطع الأنفاس، صائحًا بنا من الطريق الذي خلفناه وراءنا إلى المحطة: «عودا بسرعة إلى المحطة، فإن المفتش يسمح لكما بالسفر!» «هل يمكن أن

يحدث هذا؟» إن مثل تلك اللحظة تأخذ بخناق المرء، ورجونا الحارس عشر مرات أن يقبل منا نقودًا، وكان علينا أخيرًا أن نسرع عائدين جريًا ونبحث عن أمتعتنا في مكتب المفتش، ونندفع بها نحو مكتب جوازات السفر، ومنه إلى الجمرك، غير أنك كنت فيما يبدو قد رتبت بنفسك كل شيء منذ تلك اللحظة ـ فعندما لم أجد لديَّ القدرة على أن أقبض على أمتعتي وجدت في الحال، حمالًا إلى جانبي بالصدفة، وعندما اندفعت نحو أحد الأركان في مكتب جوازات السفر، أفسح لي الحارس الطريق، وعندما فقدت الصندوق الذي يحتوي على أزرار القمصان الذهبية في الجمرك، دون أن أتبين ذلك، كان أحد الموظفين قد عثر عليه، وسلمه إليَّ. وصعدنا إلى القطار الذي تحرك في الحال وأصبح في مقدوري أخيرًا أن أجفف العرق من على وجهي وصدري، أرجوك أن تكون دائمًا بجواري!

ف

***

(5) أظن الإثنين

بالطبع سوف آوي إلى النوم، فالساعة الآن الواحدة صباحًا، وكان يجب عليَّ أن أكتب لك من قبل، في المساء، لكن ماكس كان هنا، وكنت أترقب أن تسنح لي فرصة لقائه بفارغ الصبر، غير أن ما كان يحول بيني وبين الذهاب لزيارته إلى الآن، كانت هي الفتاة، وقلقي بشأنها.

لقد بقيت إلى جوار الفتاة حتى الثامنة والنصف، ووصل ماكس في التاسعة، ثم تجولنا معًا حتى الساعة الثانية عشرة والنصف. تصوري أن ما ظننته، كنت قد أوضحته وضوحًا بالغًا في رسائلي، هو أنك، أنت، أنت، أنت ـ مرة أخرى تضطرب كتابتي بعض الشيء ـ التي كنت أتحدث عنها، إلا أنه لم يدرك ما كنت أرمي إليه، لقد عرف اسمك الآن فقط (بالطبع لم أكتبه في رسائلي إليه، فربما كانت زوجته تقرأها).

فيما يتعلق بالفتاة، تبدو الحال اليوم أحسن، لكنني لم أسمح لها بالكتابة إليك إلا بعد عناء بالغ. وإنني آسف لذلك غاية الأسف. إن ما يدل على خوفي عليك هو البرقية التي أرسلتها اليوم إليك على مكتب البريد (إن الفتاة تكتب إليك فردي عليها برقة و ـ هنا قصدت بالفعل أن أضيف بغاية الحزم، ولا تتخلي عني). كانت الأمور جميعًا أكثر هدوءًا اليوم، ولقد قسرت نفسي على أن أتحدث في سلام عن ميران، ذلك أن الجو كان أقل تهديدًا، غير أن الموضوع الرئيسي عندما أثير مرة أخرى ـ ارتعد جسد الفتاة كله بجانبي لبضع دقائق في ميدان كارل ـ كان في استطاعتي فقط القول بأن كل شيء آخر بمقارنته بك مهما بقي

دون أن يطرأ عليه أدنى تبديل يختفي ويتحول إلى لا شيء. ووجهت هي سؤالها الأخير، الذي أجدني أمامه دائمًا بلا حيلة ـ وهو «لا يمكنني أن أتركك، لكن لو أنك أبعدتني عنك، فسوف أبتعد، فهل تبعدني عنك؟» (ثمة أمر بالغ الفظاعة، بصرف النظر عن الغرور، فيما يتعلق بحقيقة ما يدفعني إلى أن أحكي لك هذا الذي أحكيه لك الآن، لكنني أحكيه لك بدافع مما أحسه من قلقي عليك، وما هو الشيء الذي لا أفعله لقلقي عليك؟ فتصوري إذن، أي خوف غريب جديد، خوفي هذا!)، أجبتها: «نعم»، على حين أجابتني هي بقولها: «غير أنني لا يمكنني أن أتركك على أية حال!» وعندئذ، راحت تلك المخلوقة العزيزة الطيبة تقول، في ثرثرة تتجاوز حدود طاقتها، إنها لا يمكنها أن تفهم الأمر كله، وهو أنك تحبين زوجك، على حين تتحدثين سرًّا إليَّ، وما إلى ذلك. ولكي ألتزم الحقيقة، أقول إنه كانت هنالك ثمة كلمات سيئة أيضًا تناولتك من بين ما قالته، ولقد أوشكت بالفعل أن أضربها عندما تفوهت بها أمامي، لكن ألم يكن عليَّ أن أفسح أمامها الفرصة لكي تصب شكواها على الأقل في تلك المناسبة الوحيدة؟ ولقد صرحت بأنها أرادت أن تكتب إليك سرًّا، وسمحت لها أنا بذلك، لالتزامي أمامها، ولثقتي التي لا حد لها بك. سمحت لها به على الرغم من أنني أدركت أن ذلك سوف يكلفني عديدًا من الليالي، إلا أن ما أزعجني، هو أن ما هدأ من ثائرتها كان هو مجرد سماحي لها بذلك. فكوني رقيقة، وقاسية، بل كوني معها أشد قسوة مما تبدينه لها من الرقة. لكن ما هذا الذي أقوله؟ ألست أعرف أنك ستكتبين فقط ما

سوف تقدرين على كتابته في هـذه الحـال، وأليس خـوفي، من أنهـا، في غمرة يأسها، قد تكتب شيئًا يتصف بالغـدر فتقلبـك بهـذا عليَّ. ألا يعـد مثل خوفي هذا إساءة لك. لكن ما الذي يمكنني أن أفعلـه لـو ظـل ذلـك الخوف ينبض في جسـدي بـدلًا من القلب؟ لم يكن لي في الحقيقـة أن أسـمح لهـا بـذلك. حسـنًا، غـدًا أراهـا مـرة أخـرى، غـدًا الجمعـة عيـد (هوس)[38] وقـد طلبت في إلحـاح أن نخـرج معًـا في نزهـة قصـيرة، بعـد الظهـر، وأنـه لن يكـون عليَّ طـوال بقيـة الأسـبوع أن أذهب لزياتهـا بعـد ذلك، لعلني أستطيع أن أقنعها بالعدول عن كتابـة رسـالتها إليـك، إن لم تكن قـد كتبتهـا بالفعـل، لكنـني، قلت لنفسـي عندئـذ: لعلهـا تريـد حقًّا تفسـيرًا فقـط، وربمـا كـان لكلمتـك الرقيقـة رغم قسـوتها أن تهـدئها، ربمـا ـ هذه هي الطريقة التي تدور بها أفكـاري في هـذه الأيـام ـ خـرت على ركبتيها أمام رسالتك.

فرانتس غير أن هنالك سببًا آخر لسماحي لها بالكتابة إليك، فقـد أرادت أن تطلـع على رسـالتك إليَّ، إلا أنـني لم أسـتطع أن أتيح لهـا أن تطلـع عليها[39].

***

38يوم (يان هوس) وهو عيد قومي في عهد جمهورية تشيكوسلوفاكيا.

39(في الهامش الأيمن) ورغم كل ذلك، فإنني أعتقد أحيانًا أنه لو أمكن أن يهلك شخص ما بفعل السعادة، فإن ذلك ما سوف يقع لي، ولو قدر لامرئ، أن يموت، وأمكن للسعادة أن تعيده إلى الحياة، فسوف أبقى على قيد الحياة.

(6) الثلاثاء ـ في الصباح الباكر

لطمة صغيرة تلقيتها: هي برقية من باريس تفيد أن واحدًا من أعمامي المسنين، وهو شخص أهيم به إعجابًا في الحقيقة، يعيش في مدريد، ولم تتح له فرصة زيارتنا هنا منذ سنوات عديدة، سوف يصل مساء الغد، لطمة لأن هذه الزيارة سوف تستنفد جزءًا من وقتي، ولأنني في حاجة إلى وقتي كله، وإلى الآلاف من الأوقات التي تماثله، علاوة على كل ما يمكن أن يتوافر من الزمن، لك، التفكير فيك واستنشاق نفحاتك. أما الشقة هنا، فسوف ينتابها الاضطراب بدورها أيضًا، وسوف تفسد الأمسيات، فكم أتمنى أن أكون في أي مكان آخر، أشياء عديدة أود لو أنها تتغير عما هي عليه، أما عملي الرسمي فكم أود لو أنه لم يوجد على الإطلاق، ثم أرى مرة أخرى أنني أستحق اللطمات على وجهي، عندما أتفوه برغباتي التي تتجاوز هذه اللحظة، هذه اللحظة التي تخصك.

لا يمكنني بصورة ما أن أكتب المزيد عن أي شيء آخر سوى ما يتعلق بنا، ما يتعلق بنا وسط اضطراب العالم، نحن فحسب. كل شيء آخر هو شيء بعيد، خطأ!

خطأ! غير أن الشفاه تغمغم، ووجهي يستلقي في أحضانك.

ثمة شيء من المرارة تبقت من ڤيينا، هل لي أن أذكرها؟ هناك في الغابة، في يومنا الثاني، أظن أنك قد قلت شيئًا بهذا المعنى: «إن

المعركة التي تدور حول الحجرة السابقة لا يمكن أن تستمر طويلا جدًّا» والآن تكتبين، في رسالتك الوحيدة الأخيرة من ميران[40]، عن مرضك فكيف يتسنى لي أن أجد لنفسي مخرجًا بين هاتين الحقيقتين؟ لست أقول هذا بدافع الغيرة، لست أعاني من الغيرة يا ميلينا، كما أن العالم ليس ضئيلًا لهذا الحد، ولا نحن بهذه الضخامة، وإن كنا نملأه تمامًا على أية حال، ممن تراني أغار؟

***

40يبدو أنها رسالة سبقت.

مساء الثلاثاء

ها أنا الآن يا ميلينا، أرسل لك الرسالة بنفسي، ولست أدري حتى ماذا بها، وهذا هو ما حدث. لقد وعدتها بأن أكون أمام منزلها اليوم بعد الظهر في الساعة الثالثة والنصف، وكنا قد اتفقنا على أننا سنخرج للنزهة بالباخرة، غير أنني في الليلة الماضية، كنت قد أويت إلى فراشي في وقت متأخر جداً ولم أكد أنعم بشيء من النوم، ولهذا فقد كتبت لها برقية، قلت لها فيها إنني سوف أنام في فترة الظهيرة وسأحضر في الساعة السادسة، وفي قلقي الذي لم تكن لتهدئه الرسائل أو البرقيات جميعًا، أضفت: «لا ترسلي الرسالة إلى ڤيينا، حتى نتناقش بشأنها» لكنها كانت قد كتبت الرسالة بالفعل في الصباح الباكر، معتمدة على أفكارها الخاصة في نصف ما جاء بها ـ إنها لم تقل حتى ما الذي كتبته في رسالتها تلك ـ وأرسلتها في الحال، وعندما تلقت برقيتي، امتلأ قلب الفتاة المسكينة بالرعب وانطلقت تجري إلى مكتب البريد الرئيسي واستطاعت بصورة ما، أن تحصل على الرسالة، وقد أسعدها ذلك حتى أنها منحت الموظف كل ما كان معها من النقود (وقد ارتاعت فيما بعد لضخامة المبلغ)، وأحضرت لي الرسالة في المساء، فما الذي ينبغي لي أن أفعله الآن؟ إن أملي في الاهتداء إلى حل عاجل، وبالغ التوفيق، يعتمد في نهاية الأمر على هذه الرسالة، وعلى تأثير ما تردين به عليها. لقد سمحت بذلك، حقًّا، وإنه لأمل مجنون، غير أنه أملي الوحيد، فلو أنني فضضت الرسالة الآن وقرأتها، فسوف أؤذيها بذلك، كما أنني من

المؤكد ثانيًا أنني لن أكون قادرًا على إرسالها، ولهذا فإنني أضعها مغلقة كما هي بين يديك، وأسلم نفسي أيضًا بين يديك في آن معًا.

إن الجو موحش في براغ على نحو ما، فلم تصلني رسالة منك بعد، والقلب مثقل بعض الشيء. من المستحيل بالفعل أن تصلني أية رسالة الآن، لكن حاولي أن تشرحي هذا للقلب.

ف

(8) الثلاثاء ـ في ساعة متأخرة من الليل

لم أكد أرسل الرسالة حتى تبادر إلى ذهني ما يلي: كيف أمكنني أن أسألك شيئًا من هذا القبيل؟ فبصرف النظر عن حقيقة أنه من شأني بصفة خاصة، في نهاية الأمر، أن أفعل ما يبدو لي صحيحًا وضروريًّا في تلك الحالة، ربما كان يستحيل عليك أن تكتبي ردًّا من هذا القبيل، وتأتمني عليه شخصًا غريبًا. حسنًا، أرجوك يا ميلينا أن تغفري لتلك الرسائل والبرقيات، وأن تنحي بالملامة على عقلي الضعيف، عقلي الذي أضعفه بعدي عنك. لن يحدث شيء إذا لم تردي على رسالتها، فثمة حل آخر يمكن أن يوجد، أرجوك ألا تنزعجي لهذه الرسالة، إنني متعب بالفعل غاية التعب من تلك النزهات (نزهة اليوم على منحدر فيشيرادر)، هذا هو حالي، وغدًا أيضًا سيصل عمي، وسوف تتضاءل فرصتي للانفراد بنفسي.

ولنتحدث عن شيء أفضل: هل تدركين متى كنت قد بلغت غاية الأناقة في ڤيينا، وكنت جميلة حقًّا جمالًا لا يكاد يصدق؟ ليس هناك أدنى جدل في هذا الخصوص، فقد كان ذلك يوم الأحد.

***

(9) مساء الأربعاء

فقط بضع كلمات متعجلة للغاية لتدفئة شقتي الجديدة، كلمات متعجلة جداًّ، ذلك أن والديَّ قد وصلا في الساعة العاشرة من فرانتسنباد، وفي الساعة الثانية عشرة وصل عمي من باريس، وكان عليَّ أن أستقبل الجميع: أما الشقة الجديدة، فلأنني قد انتقلت إلى شقة أختي الخالية، حيث توجد أختي الآن في مارينباد؛ لكي أفسح مكانًا لنزول العم. إنها شقة خالية فسيحة، وهو أمر سار حقًّا، إلا أن الشارع أكثر ضجة ـ لهذا كم بدت لي مبادلة بالغة السوء. ولا بد لي من الكتابة إليك، يا ميلينا، لأنك يمكنك أن تستخلصي من رسائلي الأخيرة التي تمتلئ بالنواح (لقد مزقت أسوأ هذه الرسائل صباح اليوم بدافع الخجل، تصوري أنه لم يصلني منك شيء حتى الآن، غير أن الشكوى من الخدمة البريدية ستكون أمرًا سخيفًا، فما هو شأني بالخدمة البريدية؟) إن ثقتي قد تزعزعت فيما يتعلق بك، وإنني خائف من أن أفقدك، لا، إن الشك فيك لا يتسرب إليَّ، فهل يمكن أن تكوني بالنسبة لي في الموضع الذي تتربعين فوقه الآن لو لم أكن واثقًا فيك؟ إن الشيء الذي سبب لي هذا الشعور هو قربك الجسدي القصير، والفراق الجسدي المفاجئ. (لماذا كان ذلك يوم الأحد بالذات، ولماذا في الساعة السابعة بالذات؟ ولماذا كان ذلك بالمرة؟) إن هذا قد يسبب اضطرابًا للحواس إلى حد ما، اغفري لي! وفي هذا المساء لك مني،

كتحية للمساء، فيض وجودي كله، وكل ما لـديَّ، وكـل مـا هـو سـعيد مبارك، ليستقر في أعماقك.

***

(10) صباح الخميس الباكر

الشارع غارق في الضجيج، وثمة بناء يجري بناؤه، على ناحية، في مواجهتي، ولا أرى أمامي الكنيسة الروسية، بل توجد بدلًا منها شقق تمتلئ بالناس، وأن أكون وحيدًا في حجرة، ربما كان هو على أية حال، شرط الحياة، وأن أكون وحيدًا في شقة ـ مؤقتًا، حتى أكون دقيقًا ـ هو شرط من شروط السعادة (شرط واحد فقط، ذلك أنني لا أرى خيرًا في وجود الشقة، إذا لم أكن أنا حيًّا، إذا لم يكن لي بيت يمكنني أن أستريح فيه، مثلًا عينان زرقاوان متألقتان تمتلئان بالحياة، تمتلئان بالحياة خارقة الجمال) لكن الشقة لما كانت تنتمي إلى سعادتي بطبيعة الحال، فإن كل شيء هادئ، الحمام، والمطبخ والبهو، والحجرات الثلاث الأخرى، على خلاف الحال في تلك الشقق المشتركة، حيث الضجة، والفسق، وهتك الداعر لمحارمه، وحيث الأجساد، والأفكار، والرغبات المنفلتة من إسارها، بحيث توجد الأمور المحرمة الخارجة عن الاحتشام في كل ركن، وبين كل قطع الأثاث، وتقع الأحداث المباغتة، ويولد أطفال غير شرعيين، وحيث لا تسير الحياة كما تسير في ضاحيتك الهادئة الخالية يوم الأحد، بل تسير كما تسير في الضواحي، البدائية، المزدحمة، المختنقة في ليلة سبت لا يكدر صفوها شيء.

لقد قطعت شقيقتي كل ذلك الطريق الطويل، لكي تجيئني بإفطاري (الذي لم يكن ضروريًّا، ذلك أنني كان يجب أن أذهب إلى المنزل) وقد

ظلت بضـع دقـائق تطـرق البـاب قبـل أن تتمكن من أن توقظـني من استغراقي في هذه الرسالة ومن شرودي.

ف

إن الشـقة لا تخصـني بـالطبع، فلسـوف يعيش فيهـا بين الحين والآخـر زوج أختي أيضًا.

***

(11) صباح الخميس

رسالتك أخيرًا، مجرد كلمات قليلة متعجلة حول الموضوع الرئيسي، حتى ولو نتج عن هذه العجلة قليل من الأخطاء التي سآسف عليها فيما بعد: هذه هي حالة لا أعرف لها مثيلًا، في علاقتنا الخاصة التي نشترك فيها ثلاثتنا في وقت معًا، وعلى هذا فلا يجب أن تضطرب بتفاصيل تجارب الحالات الأخرى. (الجثث، العذاب الثلاثي، عناؤنا الثنائي، الاختفاء على نحو ما). إنني لست صديقًا له[41] إنني لم أخن صديقًا. لست مجرد واحد من معارفه. كما أنني لا أرتبط به بعلاقة وثيقة، وإنني من كثير من النواحي قد أكون له أكثر من صديق، وأنت من ناحية أخرى لم تخونيه، لأنك تحبينه، مهما قلت، ولو كان لنا أن نتحد (أشكرك، أيتها الأكتاف!) فسوف يتم ذلك على مستوى آخر لا ينتمي إلى مجال نفوذه. والنتيجة هي أن هذا الموضوع، لعله ألا يكون موضوعنا كلية، حتى يبقى سرًّا، ولعله ليس عذابًا مطلقًا، وخوفًا، وألمًا، وحسرة— (لقد أخافتني رسالتك بسبب الهدوء النسبي الذي لا يزال باقيًا من اجتماعنا معًا، والذي ربما تحول الآن مرة أخرى إلى دوامة ميران، على الرغم من وجود أسباب قوية تقف في وجه العودة إلى أحوال ميران) ـ غير أنها الصراحة ــ التي يتبدى بها ارتباطنا الواضح ثلاثتنا، حتى لو فضلت أن تلتزمي الصمت بعضًا من الوقت، إنني، أيضًا، أعارض التفكير التي تدفع إليه الاحتمالات ـ إنني أعارضه لأنني

41عن الزوج.

أحس بأنك لي، فلو أنني كنت وحدي لما أمكنني أن أتوقف عن التفكير في الأمرـ لو زج المرء بنفسه الآن في خضم المستقبل بالفعل، فكيف سيتسنى للأرض الخراب أن تحمل بيت المستقبل؟

لست أعرف المزيد فيما يتعلق بذلك الآن، هذا هو يومي الثالث في مقر عملي، ولم أكتب بعد سطرًا واحدًا، ولعل الأمر أن يتحسن الآن.

في الحقيقة، لقد زارني ماكس، بينما كنت أكتب هذه الرسالة، كان صمته أمرًا يمكن للمرء أن يعول عليه، يعرف الجميع ما عدا شقيقتي، ووالدي، والفتاة، وهو إنني قد حضرت إلي هنا عن طريق لنتس.

ف هل يمكنني أن أرسل إليك بعض النقود؟ ربما عن طريق ل، الذي سأقول له إنني كنت قد اقترضت بعض النقود منك في ڤيينا، والذي سيرسل لك هذه النقود مع مكافأتك عن الكتابات التي ينشرها لك.

(في الهامش الأيسر): إنني خائف بعض الشيء أنا أيضًا مما أعلنت أنك تكتبينه إليَّ عن الخوف.

(12) الجمعة

تبدو لي الكتابة عبثًا كلها ـ وإنها لكذلك بالفعل. إن ما يمكنني أن أقوم به ربما كان الحضور إلى ڤيينا لكي آخذك بعيدًا، وربما فعلت ذلك، أيضًا، على الرغم من معارضتك الشديدة له. يوجد في الحقيقة احتمالان فقط كل منهما أجمل من الآخر، فإما أن تحضري إلى براغ أو إلى ليبتزج. إن الريبة في تراث اليهود القديم قد بعثتها بالأمس في نفس ل. فقد لحقت به مباشرة قبل رحيله إلى ليبتزج، وكانت معه رسالتك إلى شتاشا، إنه شخص ممتاز، مرح، صريح، ذكي، يأخذ بذراع المرء، ويتحدث في رقة، وهو على استعداد لكل شيء، ويفهم كل شيء وربما فهم أكثر قليلًا، مما يلزم، كان ينوي الرحيل برفقة زوجته إلى فلوريان[42] الذي يعيش على مقربة من برنو، ومن هناك إليك في ڤيينا، في هذه الظهيرة يعود هو ثانية إلى براغ، وهو بسبيله لأن يحصل على رد شتاشا، وسوف ألتقي به في الثالثة بعد الظهر، وسأبرق لك بعدها. اغفري لي اللغو الذي جاء في رسائلي الإحدى عشرة، ألقي بها جانبًا. والآن تأتي الحقيقة التي هي أكبر وأفضل. إن الشيء الوحيد الذي يخشاه المرء الآن هو، فيما أظن، حبك لزوجك. وبقدر ما يتعلق بالأمر بالعبء الجديد الذي كتبت لي عنه، فإنه بلا شك أمر صعب، لكن لا تبخسي قدر الطاقات التي أعطانيها قربك. ومع أنني لم أكن نائمًا منذ وقت قريب، إلا أنني أكثر هدوءًا مع ذلك، مما كنت أظنه في إمكاني في الليلة

42الكاتب والناشر الكاثوليكي المعروف- وابن زوجة ليون بلويز، وكانت شتاشا تعمل لديه في ذلك الوقت.

الماضية بعد أن تسلمت رسالتيك (كان ماكس موجودًا بالصدفة الأمر، الـذي لم يكن طيبًـا بالضـرورة، ذلـك أن الأمـر كـان في النهايـة، أمـرًا يخصني وحدي، آه، هنا بالفعل تبدأ غيرة الرجل الذي لا يغار، يا ميلينـا المسكينة!)، كذلك أصابتني برقيتك التي أرسلتها اليوم بشيء من تجـدد الثقة. لا أشعر بخصوص زوجك في هذه اللحظة، في هذه اللحظـة على الأقل، بالكثير. لا أحس انزعاجًا بالغًا. لقد أخـذ على عاتقه عبئًا هـائلًا، وقـد أنجـزه جزئيًّا، وربمـا كـان قـد أنجـزه كليـة، بأمانـة، وأشـك في أنـه يمكنه أن يطيق احتمال ذلك العبء أكثر من ذلـك، ليس لأنـه لا يملـك القـوة (فمـا هي قـوتي بمقارنتهـا بقوتـه؟)، بـل لأنـه يحمـل أعبـاء ثقـالًا للغايـة، ولأنـه بـالغ الأسـى، ولأنـه يفتقـر تمامًـا إلى التركـيز المطلـوب لذلك، بسبب كل ما ظل يحدث حتى الآن، ربمـا أمكن، بصـرف النظـر عن كل شيء آخر، أن يكون في هذا عزاء له؟ فلماذا لا أكتب إليه؟

ف

***

(13) الجمعة

بضع كلمات قلائل عن رسالة شتاشا ـ ذلك أن العم، مع أنه بالغ السحر حقًّا، إلا أنه مزعج الآن إلى حد ما، ما زالت تتبقى أمامي. حسنًا، إن رسالة شتاشا هي رسالة ودية، ولطيفة، غير أن بها بعض الخطأ مع ذلك ـ بعض الأخطاء البسيطة ـ ربما الشكلية (لا أعني أن الرسائل التي لا تتضمن أخطاء من هذا القبيل تكون أكثر ودًّا، بل العكس هو الصحيح)، وعلى أية حال فثمة شيء ينقص تلك الرسالة، أو لعل شيئًا ما يزيد على الحاجة فيها. ربما كان ذلك الشيء هو قوة الانعكاس، الذي يبدو بالمناسبة أنه قد انعكس عن زوجها، ذلك أنه كان قد تحدث إليَّ بالأمس على هذه الصورة، لكن كيف يتحدث حقًّا على هذا النحو هؤلاء الناس الطيبون؟ الغيرة، إنها في الحقيقة هي الغيرة، لكنني أعدك يا ميلينا، بأنني لن أعذبك بعد ذلك بغيرتي هذه، سأعذب نفسي فقط، سأعذب نفسي فقط، يبدو ثمة سوء فهم، مع ذلك، في الرسالة ـ فأنت، في نهاية الأمر، لست في حاجة إلى نصيحة شتاشا، ولست في حاجة إلى أن تذهب لتتحدث إلى زوجك، إن ما تريدينه منها حقًّا في هذه اللحظة ـ هو شيء لا يمكن استبداله بأي شيء آخر سواه: هو حضورها أو على الأقل هذا ما بدا لي.

ما زلت آمل في الحصول على شيء ما منك اليوم. إن المرء هو بالصدفة رأسمالي لا يدرك كل الأشياء التي يمتلكها. في هذه الظهيرة عندما

كنت أسأل عبثًا عن أخبار في المكتب تسلمت رسالة منك كانت قد وصلت في الحال بعد رحيلي عن ميران. وكانت قراءتها تبدو لي غريبة.

لك

***

(14) السبت

هـذا سـيئ، أمس الأول وصـلتني رسـالتاك التعيسـتان، وأمس فحسـب وصـلتني البرقيـة (على الـرغم من أنهـا كـانت تعيـد تأكيـد ذلـك، فإنهـا كـانت مرممـة مـع ذلـك إلى بعضـها قليلًا، كمـا هي طبيعـة التلغرافـات عادة)، ولم يصلني منك اليوم شيء بـالمرة. ولم تكن هـذه الرسـائل، في نهاية الأمر، مريحة بالنسبة لي على أي وجه من الوجوه، وأوضحت هذه الرسائل أنك ستكتبين ثانيـة في الحـال، لكنـك لم تكتـبي. ومنـذ ليلـتين أرسـلت لـك برقيـة عاجلـة نفقـات ردهـا خالصـة، وكـان على الـرد أن يصلني منذ وقت طويل. وأعيد نصها: لم يكن أمام المرء ما يفعله سوى هذا، فكوني هادئة، فـأنت هنـا في منزلـك، ج، وزوجتـه قـد يصـلان إلى ڤيينا في خلال أسبوع، كيف يمكنني أن أرسـل النقـود؟ إلا أن الـرد على هذا لم يصلني. قلت لنفسي: «اذهب إلى ڤيينا»، لكن ميلينا لا ترغب في ذلك، إنها لا ترغب في ذلك بصورة مؤكدة، عليك أن تتخذ قـرارًا، إنهـا لا تريـدك، إنهـا تقلـق، وتنتابهـا الوسـاوس، وهـذا هـو مـا يجعلهـا تريـد شتاشا. وعلى الرغم من هذا فقد رغبت في السفر، غير أنـني لسـت على مـا يـرام، على الـرغم من أنـني هـادئ، هـادئ نسـبيًّا، هـدوءًا لم يحـدث خلال تلك السنوات الأخيرة أن ساورني الأمل في أن أجربه ثانية، وإنـني أسعل مع ذلك سعالًا سيئًا في أثناء النهـار، وفي الليـل أحيانًـا لمـدة ربـع ساعة في المرة الواحدة. وربما كان الأمر هو فحسب تكـرار هـذه الأيـام الأولى، التعود من جديد على مناخ براغ، وعواقب الأوقات العصـيبة في

ميران قبل أن أعرفك، وقبل أن أتطلع إلى عينيك. كم أصبحت ڤيينا مظلمة، وكانت قد تألقت ذلك التألق لمدة أربعة أيام، ما الذي كان يدبر لي هناك وأنا جالس هنا. وبينما أقطع كتابتي لكي أضع وجهي بين راحتي؟

ف[43]

ثم تطلعت إلى أعلى بينما كنت جالسًا في مقعدي عبر النافذة المفتوحة خلال المطر. وبدا لي عدد من الاحتمالات ـ أن تكوني مريضة، أو متعبة، أو مستلقية في فراشك، وأن السيدة شتاشا كان يمكنها أن تتوسط، ثم عندئذ، وعلى نحو بالغ الغرابة، كان أكثر تلك الاحتمالات اقترابًا من الواقع وكان أكثرها وضوحًا هو أن ـ يفتح الباب وأن تكوني أنت واقفة في فتحته.

***

43(في الهامش الأيسر): لا، أنت لا تفهمينني، أيضًا، يا ميلينا، فلقد كانت (المسألة اليهودية) على أية حال، مجرد نكتة سخيفة.

(15) الإثنين

مر يومان بالغا الإزعاج، هذا أقل ما يمكن قوله في وصفهما، لكنني أرى الآن أنك كنت بريئة، غاية البراءة، ذلك أن شيطانًا خبيثًا كان يمسك كل رسائلك، منذ يوم الخميس حتى الآن. تسلمت يوم الجمعة برقيتك فقط، ولم أتسلم شيئًا يوم السبت، لم أتسلم شيئًا أيضًا يوم الأحد، وتسلمت اليوم أربع رسائل، هي رسائل الخميس والجمعة والسبت. وإنني لفي غاية التعب، حتى أنني لا يمكنني أن أكتب كما ينبغي. في غاية التعب حتى أستخلص من الرسائل الأربع، من جبل اليأس هذا، جبل العناء والحب، ما يتبقى لي منه. إن المرء يكون بالغ الأنانية عندما يكون متعبًا، وقد استهلك نفسه لمدة يومين وليلتين مستغرقًا في أشد الأفكار إرعابًا.

لكن على الرغم من ذلك ــ ويعود هذا مرة أخرى إلى قدرتك على منح الحياة، أيتها الأم ميلينا ــ على الرغم من ذلك، فإنني أساسًا لست متضعضعًا تمامًا، كما لعلني كنت خلال تلك السنوات السبع الأخيرة، فيما عدا تلك السنة التي قضيتها في القرية.

لماذا لم توجد أية إجابة على برقيتي العاجلة، في مساء الخميس، هذا ما لست أفهمه حتى الآن. ثم أرسلت برقية إلى السيدة ك، ولم أتلق ردًّا أيضًا. ليس لك أن تخافي من أن أكتب إلى زوجك، فليست لديَّ بالفعل رغبة شديدة في أن أفعل ذلك. إن الرغبة الوحيدة التي تتملكني، هي رغبتي في أن أحضر إلى ڤيينا، إلا أنني لن أفعل هذا أيضًا، حتى ولو

لم تكن هناك تلك العقبات، من قبيل اعتراضك على تلك الرحلة، ومصاعب جواز السفر، وعملي الرسمي، والسعال، والإرهاق، وعقد قران شقيقتي (الخميس). على أية حال سيكون من الأفضل أن أرحل، بدلًا من أن أمر بمثل فترات الظهيرة تلك التي من قبيل ظهيرتي السبت والأحد. ففي ظهيرة السبت، تجولت قليلًا مع عمي، وتجولت قليلًا مع ماكس، وكنت أمضي إلى مقر عملي كل نحو ساعتين لأسأل عن البريد، وفي المساء كانت الأحوال أفضل، فقد مضيت لزيارة ل، فلم أجد لديه أخبارًا سيئة منك، وذكر رسالتك التي جعلتني سعيدًا، واتصل تليفونيا ب ك الذي يعمل في (الصحافة الجديدة الحرة)، فلم يكن يعلم هو أيضًا أي شيء، لكنه لم يشأ أن يستفسر عنك من زوجك، وكان من المفروض أن يتصل الليلة تليفونيًّا مرة أخرى، وعلى هذا فقد جلست مع ل، وسمعت اسمك يذكر عدة مرات، وكنت مدينًا له لهذا بالكثير.

إنه ليس أمرًا سارًّا، من ناحية أخرى، ولا سهلًا، أن أتحدث معه، فهو كالطفل، كطفل غير بالغ التألق، فهو يتباهى، ويكذب، ويبدو أبله كالطفل، ويشعر المرء، شعورًا بالغًا بالخبث، وبعدم الإخلاص بصورة مقززة، عندما يجلس المرء هناك هادئًا يستمع إليه، وخصوصًا وأنه ليس طفلًا فقط، ولكنه في كل ما يتعلق بالخير، والحب، والميل للمساعدة، هو شخص كريم، وشخص مسئول بصورة جادة للغاية. ليس ثمة سبيل إلى التوفيق بين هذه الأحاسيس المتناقضة، ولولا أن المرء كان يقول لنفسه طوال الوقت: «مرة أخرى، مرة أخرى فقط،

أرغب في أن أسمع اسمك!» لكنت قد رحلت منذ وقت طويل. ولقد تحدث أيضًا عن عقد قرانه (الثلاثاء) بنفس الطريقة.

أما يوم الأحد فقد كان أشد الأيام سوءًا، كنت في البداية أنوي الذهاب إلى الجبانة، وكان هذا هو الشيء الحق الذي يصح فعله، لكنني قضيت فترة الصباح كلها في فراشي، وكان عليَّ في الظهيرة أن أذهب إلى حموي شقيقتي، حيث لم أذهب إليهما من قبل، وكانت الساعة قد بلغت السادسة، عندما عدت مرة أخرى إلى مقر عملي لأسأل إن كان ثمة برقية تنتظرني فلم أجد شيئًا. في العمل عندئذ؟ قلت لنفسي، اذهب وألق نظرة على برنامج المسرح، ذلك أن ج. في عجلته، كان قد ذكر في نحو عارض تمامًا أن شتاشا ستذهب لمشاهدة أوبرا لفاجنر يوم الإثنين، وها أنا أقرأ الآن أن البرنامج يبدأ في الساعة السادسة، وفي السادسة كان موعدنا سيئ، وما هو العمل الآن؟ أذهب وأتطلع إلى ذلك المنزل في ممر الفاكهة، إنه ساكن، لا أحد يدخله، ولا يخرج منه، وينتظر المرء برهة إلى جانب المنزل، ثم في الجانب الآخر، ولا شيء، مثل هذه البيوت تبدو أكثر حكمة من الناس الذين يتطلعون إليها!

والآن، في داخل مبنى لوسيرنا حيث جرت العادة على أن يقام معرض (دويرى ديلو)[44]، فلم أجد ثمة معرض هناك، وعلى هذا فإلى شتاشا، وهي مغامرة يمكن القيام بها حيث إنها ليست في منزلها الآن بكل تأكيد. منزل هادئ جميل، وحديقة صغيرة خلفه، وفوق باب الشقة قفل، وعلى هذا ففي وسع المرء أن يرن الجرس دون خوف من

44أتيليه للفن التطبيقي.

العقاب، وفي أسفل الدرج جرت مناقشة قصيرة مع حارسة الباب لمجرد أن أنطق الكلمات «ليبتزج». و«ج» ذلك أنه «يا ميلينا» لم يكن هناك للأسف أدنى فرصة، والآن؟ الآن يقع أشد الأمور غباء على الإطلاق، لقد ذهبت إلى مقهى أركو[45]، حيث لم أذهب منذ سنوات طويلة، لعلني أجد أحداً يعرفك، ولحسن الحظ لم يكن هناك أحد، وكان في مقدوري أن أغادر المكان في الحال، لا تكثري من مثل أيام الآحاد هذه، يا ميلينا![46]

ف

***

45مقهى في (هيبيرنسكا أوليتشي)، يؤمُّه الكتاب والفنانون.

46(في الهامش الأيمن): لم أستطع بالأمس أن أكتب، كل ما في ڤيينا كان شديد التجهم أمامي.

(17) الثلاثاء،

بعد ذلك بوقت قليل كم يبدو عليك التعب البالغ من رسالتك التي وصلتني مساء السبت، كان لديَّ الكثير مما يمكنني أن أقوله لتلك الرسالة، لكنني لن أقول شيئًا من اليوم لتلك الفتاة المتعبة، فأنا أيضًا متعب، وقد أحسست بالفعل منذ مجيئي من ڤيينا للمرة الأولى برأسي المرهقة إرهاقًا شديدًا، رأسي المعذبة، لن أخبرك بشيء، بل سأجلسك في المقعد ذي المساند (أنت تقولين إنني لم أكن رقيقًا معك إلى حدٍّ كافٍ، لكن هل يمكن أن يكون هناك المزيد مما أحظى به من الحب والشرف، أكثر مما تحظين به أنت منهما بجلوسك هناك، وسماحك لي بالجلوس أمامك، وبأن أكون في صحبتك). وهكذا فأنا أجلسك الآن في مقعدك ذي المساند، ولست أدري كيف يمكنني أن أنال تلك السعادة بالكلمات والعيون، والأيدي، والقلب البائس، والسعادة بأنك هنا، وأنك تنتمين إليَّ. ولعلك لست أنت من أحبها حقًّا، بل هو الوجود الذي وهبتنيه يداك.

عن ل، لن أذكر شيئًا اليوم، ولن أذكر شيئًا عن الفتاة، سوف يأخذ هذا كله مجراه على نحو ما ـ كم يبدو هذا كله بعيدًا.

ف

كل ما تقولينه عن «عازف الكمان البائس» صحيح، وعندما قلت إنها لا تعني شيئًا بالنسبة لي، قلته فقط بدافع الحذر، ذلك أنني لم أكن متأكدًا

كيف سيمكنك أن تمضي بها إلى نهايتها، وأيضًا لأنني كنت خجلًا من القصة، وكأنني قد كتبتها بنفسي. لقد بدأت بالفعل بداية خاطئة، إن بها عددًا من الملاحظات الغريبة، الهابطة ـ الخاطئة وبها فقرات متكلفة تجعل المرء يحمر خجلًا (يلاحظ المرء ذلك خاصة عندما يقرأها بصوت عال، يمكنني أن أشير لك إلى تلك الفقرات)، وهذا النوع من التمرين الموسيقي، هو حقًّا اختراع غريب بائس، يكفي لكي يستفز الفتاة حتى تلقي ـ في غضب زائد، سوف يشاركها فيه العالم كله وأنا قبل الجميع ـ نحو تلك القصة، بكل شيء تصل إليه يداها في حانوتها، حتى تتلاشى تلك القصة التي لا تستحق شيئًا أكثر من ذلك، وتتحلل إلى عناصرها الأولى. ويجب الاعتراف كذلك، بأنه ليس هناك مصير لقصة أجمل من أن تختفي هذه القصة، وأن تختفي على هذا النحو. إن القاص أيضًا، هذا المحلل النفسي غريب الأطوار، سوف يوافق في أعماقه على ذلك، فلعله أن يكون هو ذلك العازف الحقيقي البائس، الذي عزف هذه القصة بغاية ما أمكنه من النشاز؛ فنال على ذلك ثناءً مبالغًا فيه، بالدموع التي ندت عنها عيناك.

***

لقد كتبت تقولين ـ نعم، أنت على حق، إنني أحبه، لكنني أحبك أيضًا يا فرانتس، إنني أقرأ هذه الجملة بغاية العناية، كل كلمة ـ خاصة تلك ال «أيضًا» وأتوقف قليلًا، كل شيء على ما يرام، إنك لن تكوني ميلينا حقًّا، إن لم يكن كل شيء على ما يرام، وأي وجود سيكون وجودي، لو لم توجدي، كما أنه من الأفضل أيضًا أنك قد كتبت هذه الرسالة من ڤيينا، ولم تكتبيها من براغ. كل هذا أفهمه حق الفهم، وربما كنت أفهمه أكثر مما تفهمينه أنت، وإن كنت لشيء من الضعف، لم أستطع أن أحس بشيء من الألفة مع هذه الجملة، إن قراءتها لا تكاد تنتهي وإنني أكتبها لك مرة أخرى أيضًا؛ حتى يتاح لك أن تطلعي عليها، ونتمكن من قراءتها معًا، بينما يتلامس خدانا (شعرك يلامس خدي).

كنت قد كتب هذا عندما وصلتني كل من رسالتيك المكتوبتين بالقلم الرصاص. هل تتخيلين أنني لم أكن أعرف أنهما ستصلان؟ كنت في أعماقي أعرف هذا حقًّا، غير أن المرء لا يعيش دائمًا هناك، ويفضل بدلًا من ذلك أن يعيش فوق الأرض، كأشد المخلوقات بؤسًا. لست أدري لماذا تخشين من أن أفعل شيئًا بمفردي، ألم أكتب لك بوضوح كافٍ في هذا الشأن؟ وأنني بعد كل شيء قد أبرقت فقط للسيدة ك. ولأنني كنت على الأغلب طوال أيام ثلاثة تعسة، بلا أخبار، ولا رد على برقيتي، وكنت مدفوعًا على الأغلب إلى أن أعتقد بأنك كنت مريضة.

ذهبت بـالأمس لزيـارة طبيـبي، فوجـدني على نفس حـالتي الـتي كنت عليها قبل ذهابي إلى ميران. إن الشهور الثلاثـة قـد مـرت بالرئـة دون أن تترك أثرًا، على الأغلب، يوجد المرض في أعلى الرئة اليسرى نشطًا كما كان من قبل. وقد اعتبر الطبيب هذه النتيجة، فشلًا، ورأى أنني في حالة حسنة، ذلك أنني كان من الممكن أن أكون في حال أسوأ، لو أنـني كنت قد قضيت المدة نفسها في براغ! وهو يظن أن وزني لم يزدد مطلقًا، وأيًّا كـان الأمـر، فقـد ازددت، وفقًـا لحسـاباتي نحـو ثلاثـة كيلـو جرامـات، وسـوف يقـوم الطـبيب في الخريـف بتجربـة بعض الحقن، وإن كنت لا أظن أنني سأحتمل ذلك. عندما أقارن هذه النتيجة بالصـورة الـتي بـدت بها صحتك أنت أيضًا ـ ذلك أنني لا أكاد أجدني بحاجة إلى أن أضـيف ذلك، لأسـباب ضـرورية جـدًّا، بـالطبع ـ يبـدو لي أحيانًـا، عندئـذ، أننـا سـنتمكن بـدلًا من الحيـاة معًـا، أن نسـتلقي فحسـب في رضـا، أحـدنا بجانب الآخر لكي نستقبل الموت. لكن مهما يحـدث من أمـر فسـيكون ذلك إلى جوارك.

أعرف ـ في الحقيقة، خلافًا لما يراه الطـبيب، أنـني لكي أُشـفى إلى حـد ما، فإنني أحتاج فقط إلى الهدوء، وإن يكن نوعًـا خاصًـا من الهـدوء، أو لو نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى، لبدا لي أن ما أحتاجه هو نوع خـاص من القلق.

إن اليوم، هو يوم عيد فرنسي قومي، وفي الشارع تحتي قوات راجعة من الاستعراض[47]، إن لهاـ وأحس بهذا وأنا أتنسم نفحات رسائلكـ شيئًا

47كان يحتفل بيوم 14 يوليو أيضًا في براغ.

ما يوحي بالعظمة، ليس هو الأبهة، ولا الموسيقى، ولا الخطوات العسكرية، ولا المظهر التقليدي الذي يتخذه الرجل الفرنسي، وأنه قد خرج لتوه من قالب (شمع ألماني)، في سراويله الحمراء، ومعطفه الأزرق، وهو يتقدم فرقته، لكن ثمة مظهرًا للقوة، ينادي من الأعماق: «ومع ذلك، أيتها المخلوقات الخرساء، المتحركة السائرة التي توحي بالثقة إلى درجة العبودية مع ذلك لن نتخلى عنك مهما اشتدت حماقتك، بل إننا لن نتخلى عنك بسبب حماقتك قبل أي شيء آخر»، ويحدق المرء بعينين مغلقتين في تلك الأعماق، على حين يكون غارقًا فيك.

لقد أحضروا لي أخيرًا كومة الملفات التي ظلت تتراكم في انتظاري. تصوري، لقد كتبت منذ عودتي إلى مكتبي ست رسائل عمل بالضبط، ولقد صبروا على ذلك، ومما يرضيني رضا بالغًا، أنني لم أتمكن من أن أبدأ كل ذلك العمل الذي ينتظرني حتى اليوم بسبب الكسل الذي انتشر في المؤسسة حتى تراكم كل ذلك العبء في انتظاري. لكن ها هو العمل أمامي الآن. لا شيء من هذه المسائل، رغم انشغالي بها، قد حرمني من أن أنال قسطًا كافيًا من النوم. اليوم، مع ذلك، ما يزال الأمر سيئًا إلى حد ما.

ف

***

الخميس

سأكتب سطرًا آخر قبل الذهاب إلى عملي، فلم أكن أقصد إلى ذكره، ذلك أنه كان يمسك بخناقي طوال ثلاثة أيام، لم أقصد أن أذكره لك الآن على الأقل، بينما تخوضين أنت هذه المعركة الرهيبة هناك. لقد تعمدت أن أبقى صامتًا غير أن هذا بدا مستحيلًا، إنه جزء منها، وهي على أية حال معركتي، ولعلك قد لاحظت أنني لم أتذوق طعمًا للنوم ليالي عديدة، إنه «الخوف» ببساطة، إن ذلك حقيقة أمر يجردني من إرادتي، ويطوح بي هنا وهناك كما يحلو له. لم أعد أستطيع التمييز بين الأعلى والأسفل ولا بين اليسار واليمين، وبالإضافة إلى ذلك، فإن رسائلك الأخيرة تتضمن ملاحظتين أو ثلاثًا أسعدتني، وإن كنت سعيداً فقط بصورة يائسة، ذلك أن ما ذكرته أنت في هذا الصدد قد أقنع العقل في الحال، والقلب، والجسد، وإن كان هناك ثمة مكان أبلغ عمقًا، لست أدرى مكانه، لا يمكنه فيما يبدو أن يقتنع بأي شيء. كما أن ما يساعد، أخيرًا على إضعافي هو ذلك الأثر المهدئ، ذلك التأثير العجيب الذي يبعثه فيَّ قربك الجسدي الذي يتلاشى بمرور الأيام. فلو أنك فقط كنت هنا إلى جانبي بالفعل! لكن لما لم يكن شيء من هذا، فإنني وحدي هنا الآن، لا أحد معي سوى الخوف وحيدين نتخبط معًا خلال الليالي. ثمة ما هو مهم للغاية، في الحقيقة، في أمر هذا الخوف (الذي يبدو وكأنه قد اعتاد دائمًا أن ينزع نحو المستقبل فحسب، لا، ليس هذا صحيحًا) شيء يمكن تفسيره، بمعنى ما، بتلك الحقيقة التي

يشير لي إليها باستمرار، وهي ضرورة التسليم التام: إن ميلينا، هي أيضًا، مجرد كائن بشري. إن ما تقولينه في هذا المجال، هو في الحقيقة قول بالغ الجمال وصادق حتى أن المرء يود لو لم يسمع شيئًا آخر سواه مطلقًا، بعد أن استمع إليه، غير أن تصريحك بأن ما يحدث هنا ليست له أهمية بالغة، هو تصريح لا يزال موضع خلاف شديد. ليس هذا الخوف، مع ذلك، هو خوفي كله- إنه مجرد جانب منه فقط. ومما يؤسف له أنه حقًّا كذلك- وإن يكن أيضًا هو الخوف الذي يلازم كل أشكال الإيمان منذ بدء الخليقة.

إن استمراري في الكتابة لك عن هذا، يبعث البرودة في رأسي بالفعل.

الخميس، بعد قليل

وصلتني رسالة الليل وـ «الديك الأبيض»[48]، ورسالة الإثنين، والرسالة الأولى هي رسالتك الأخيرة فيما يبدو، وإن لم يتأكد لي ذلك تمامًا. لقد قرأتهما فقط قراءة أولى مسرعة. ويجب عليَّ أن أبعث إليك بالرد في الحال، وأن أسألك ألا تسيئي الظن بي. ليست هي الغيرة، إن الأمر لا يخرج عن أن أفكاري تتواثب حولك، لأنني أردت أن أمسك بك من كل الجوانب، ومنها جانب الغيرة أيضًا، وإن كان ذلك أمرًا سخيفًا، لن يحدث مرة أخرى، فمرجع ذلك فقط إلى الأحلام المرضية التي تسببها الوحدة. وتساورك أيضًا الأفكار الخاطئة عن ماكس، بالأمس أبلغته أيضًا على الرغم مني تحياتك إليه (انظري إلى ما سبق) ذلك أنه كان يتلقى تحياتك باستمرار. ولما كانت لديه التفسيرات لكل شيء، فقد قال إنك ربما كنت ترسلين إليه بتحياتك المتصلة، فقط لأنني لم أبلغك من قبل بتحياته الحارة لك، وكان عليَّ لهذا أن أبلغك أخيرًا بتحياته، على حين، أؤكد لك هذا مرة أخرى، قد أعود إلى إهمال هذا الواجب، على أنني سأحاول أداء هذا الواجب ما أمكنني.

أما في غير ما يتعلق بهذا، فلا تقلقي عليَّ بحال من الأحوال، فسوف يكون قلقك عليَّ هو القشة الأخيرة. فلو لم يكن ذلك «الخوف» الذي ظل يمسك بخناقي لعدة أيام، والذي شكوت لك منه هذا الصباح، لكنت على الأغلب، على غاية ما يرام. بالمناسبة، ماذا كان السبب، في

48«الديك الأبيض» هو مطعم في ڤيينا، كانت ميلينا تتناول فيه وجباتها من حين لآخر.

قولك عندما كنا معًا في الغابة إنك أيضًا، لم تكوني قد تصورت الأمر على نحو يخالف ذلك؟ كان ذلك هناك في الغابة، في اليوم التالي. إنني أرتب الأيام في وضوح ـ كان اليوم الأول هو الشك وكان الثاني هو الثقة البالغة، والثالث كان الشعور بوخز الضمير، وكان اليوم الرابع هو أجمل تلك الأيام الأربعة.

عليَّ الآن أن أذهب لحضور حفل قران شقيقتي ـ لماذا، بالمناسبة، أكون كائنًا بشريًّا في الوقت الذي أتحمل فيه كل عذابات هذا الوضع بالغ الاضطراب، الذي يرزح تحت هذه المسئولية المرهقة؟ لماذا لا أكون، مثلًا، ذلك الدولاب السعيد في حجرتك، ذلك الدولاب الذي يتطلع إليك مباشرة عندما تجلسين في المقعد ذي المساند، أو عندما تجلسين إلى مكتبك أو عندما تستلقين، أو تأوين إلى النوم (نومًا هنيئًا)، لماذا لا أكون ذلك الدولاب؟ ذلك لأنني سأنهار تحت وطأة الأسى، لو أنني اطلعت على آلامك، في خلال تلك الأيام الأخيرة الماضية، وربما حدث لي ما هو أكثر من ذلك ـ هل تغادرين ڤيينا.

ف

إن شعوري بأنك ستحصلين قريبًا على جواز سفر، يعزيني كثيرًا.

***

الخميس

وضعت بعد الظهر، زهرة ريحان، في عروة سترتي، وكنت في حالة عادية تقريبًا على الرغم من رأسي المرهق (الفراق، الفراق!) أحسست بالألفة خلال وليمة العرس، وسط شقيقات زوج أختي الطيبات ولقد تحطمت مع ذلك، الآن.

أية حياة سهلة تلك الحياة التي سنمضيها معًا ـ تصوري الكتابة عن حياتنا هذه معًا. إنني لست سوى شخص أحمق! ـ سؤال وجواب، وأحدنا في مواجهة الآخر.

والآن عليَّ أن أنتظر على الأقل حتى يوم الإثنين حتى يصلني ردك على رسالتي التي كتبتها لك صباح اليوم.

حاولي أن تفهميني، واحتفظي بي في قلبك.

ف

***

الإثنين

لقد أسأت فهم عدة أمور، يا ميلينا:

أولًا: أنا لست مريضًا إلى هذا الحد، وعندما استطعت أن أنام قليلًا، أحسست بتحسن لم أحسه في ميران. إن أمراض الرئة هي عادة، أحب الأمراض جميعًا وخاصة في صيف دافئ. كيف سيتسنى لي أن أقاوم الخريف القادم، هذا سؤال آخر أيضًا. لديَّ في هذه اللحظة بضع شكاوى قليلة بسيطة منها، مثلًا، أنني لا أستطيع القيام بأي عمل رسمي في المكتب، وعندما لا أكون جالسًا للكتابة إليك، فإنني أستلقي في مقعدي ذى المساند، وأحدق من خلال النافذة، وتتاح لي الرؤية الواضحة؛ لأن المنزل الذي يواجهني يتكون من طابق واحد فحسب. لا يمكنني أن أزعم بأنني أحس انقباضًا خاصًّا عندما أتطلع من خلال النافذة على هذا النحو ـ لا، لست أشعر بشيء من هذا مطلقًا، إن ما أشعر به هو أنني لا أستطيع أن أخلص نفسي من مواصلة التطلع عبر النافذة على هذا النحو.

ثانيًا: إنني لست في حاجة مطلقًا إلى النقود، إن لديَّ منها ما يزيد على حاجتي، بعض هذه النقود ـ النقود المخصصة لإجازتك مثلًا ـ تضايقني فعلًا ـ بوجودها معي.

ثالثًا: إنك تسهمين مرة أخرى مساهمة فعالة في شفائي، وأنت تواصلين الإسهام بذلك كل لحظة، في رعايتك لي بأفكارك[49].

رابعًا: إن كل ما قلته أنت في شيء من الشك عن رحلة براغ، كان حقًّا بالفعل. كان «حقًّا» كذلك ما أبرقت لك به، على الرغم من أن ذلك كان يدور حول حديثك إلى زوجك وأن ذلك كان بالفعل هو الشيء الوحيد الذي كان «يحق» لي أن أفعله، اليوم، في الصباح الباكر، مثلًا، انتابني «الخوف» فجأة «الخوف» بدافع الحب.

انتباني «الخوف» البالغ من أن تحضري فجأة إلى براغ، يدفعك إلى ذلك وهم طارئ. لكن هل يمكن حقًّا لوهم أن يدفعك أنت يا من تعيشين حياتك بهذا العنف، إلى أن تحسمي أمرًا، أنت يا من يدفعك العنف الذي تعيشين به حياتك إلى أعمق أعماق هذه الحياة؟ إن وهمًا لم يكن ليضلك حتى في أيام ڤيينا. فهل لم يكن لنا حتى عندما كنا هناك، أن نعزو أمورًا كثيرة إلى أملك اللاشعوري في رؤيته[50] ثانية في المساء؟ ليس لديَّ المزيد مما يمكنني أن أقوله في هذا الشأن. أو أن لديَّ هذا فحسب. حقيقتان جديدتان علمت بهما أخيرًا من رسالتك: أولهما خطة هيدلبرج، والأخرى، خطة باريس، وفكرة البنك[51]، يتبين لي من الأولى أنني أنتمي في نهاية الأمر إلى صفوف «المنقذين»

49(في الهامش الأيسر): عليك بعد هذا، أن ترتاحي مطمئنة، كاطمئناني، سأبقى منتظرًا في آخر يوم، كما انتظرت في اليوم الأول.

50عن الزوج.

51خطة الزوج، فقد كان موظفًا في أحد البنوك، لكنه لم يكن راضيًا عن عمله فيه.

و«المغتصبين»، وإن كنت من ناحية أخرى لا أنتمي إلى صفوف هؤلاء، ويتبين لي من الأخرى أن هناك أيضًا، على الرغم من كل شيء، حياة مدخرة للمستقبل ـ خططًا، واحتمالات، وآمالًا، وآمالك أيضًا.

خامسًا: جانب من تعذيبك البالغ لنفسك ـ وهو العذاب الوحيد الذي انعكس عليَّ ـ لمسته من كتابتك إليَّ كل يوم، قللي من كتاباتك إليَّ، وسوف أواصل كتابة بضعة سطور كل يوم لك، لو شئت، وسوف يتحقق لك أيضًا مزيد من الهدوء اللازم للعمل الذي يوفر لك المتعة.

أشكرك على رواية (دوناديو)[52] (هل يمكنني أن أرسل إليك بعض الكتب؟) لعلني لن أتمكن من قراءتها الآن، وهذه أيضًا شكوى صغيرة أخرى: لا أستطيع القراءة، وإن كان هذا من ناحية، لا يضايقني بصفة خاصة. إن القراءة مستحيلة بالنسبة لي وحسب. ثمة مخطوط ضخم كتبه ماكس بعنوان (اليهودية، والمسيحية، والوثنية ـ كتاب رائع) عليَّ أن أقرأه، وهو يلح عليَّ بالفعل لكي أقرأه، إلا أنني لم أكد أشرع في قراءته، حتى جاءني اليوم شاعر شاب بخمس وسبعين قصيدة، بعضها يستغرق صفحات عديدة، ولن أشك في أنني سأجعل منه عدوًّا لي مرة أخرى، كما اتفق لي أن أثرت عدواته لي مرة من قبل.

إنني أضمِّن رسالتي هذه رد الفتاة، الذي يمكنك على ضوئه أن تعيدي بناء رسالتي من جديد، وعلى هذا يمكنك أن تتبيني إلى أي حد قد

52(ماري دوناديو) رواية لتشارلس - لويس فيليب.

خُذلت ـ وليس معنى هذا أنه لم تكن لديَّ البصيرة بذلك. إنـني لا أقـدم بعد مزيداً من الردود.

لم يكن ظهر الأمس أفضل كثيرًا عن ظهر يوم الأحد الماضـي، لقـد بـدأ الأمر بالفعل بداية طيبة للغاية، وعنـدما غـادرت المـنزل لكي أذهب إلى الجبانة ـ كانت درجة الحرارة قد بلغت 36 درجة في الظل، وكان عمـال الترام قد قاموا بإضراب، وإن كنت قد ارتحت لهذا بصفة خاصة ؛ لأنـني كنت أنوي السير على الأغلب، كمـا سـبق أن قطعت الطريـق سـيرًا على قدمي يوم السبت ذاك إلى الحديقة الصغيرة التي بجوار البورصة، لكنـني عنـدما بلغت الجبانـة لم أتمكن من العثـور على المقـبرة، وكـان مكتب الاستعلامات قد أغلـق أبوابـه، فلم أجـد موظفًـا واحـدًا ولا عـثرت على امـرأة تعـرف أي شـيء، فلجـأت إلى كتـاب، غـير أنـه لم يكن الكتـاب المطلوب، وعلى هذا أنفقت بضـع سـاعات متجـولًا في أرجـاء الجبانـة وأخذتني الحيرة من طوال قراءتي للنقوش التي فـوق شـواهد القبـور، ثم غادرت الجبانة ـ والحيرة ما تزال تسيطر عليَّ.

ف

***

أمامي الآن البرقيتان اللتان بعثت بهما إليَّ، إلا أن ما هو أهم من ذلك هو أنني أخيرًا، بعد ليلة قضيت أغلبها ساهرًا أجلس أمام تلك الرسالة التي أرى لها أهمية بالغة بالنسبة لي، لم يكن لي أن أكتب لك رسالة واحدة من تلك الرسائل التي كتبتها لك من براغ، أو أنه لم يكن لي على الأقل أن أكتب رسائلي تلك التي كتبتها لك أخيرًا بصفة خاصة. هذه الرسالة هي فقط الرسالة الوحيدة التي كان يجب عليَّ أن أكتبها لك، أو أنه كان ينبغي لي أن أكتب إليك، ما كتبته من رسائل، فلن يغير هذا من الأمر شيئًا، غير أن هذه الرسالة ستظل على رأس تلك الرسائل جميعًا ولن أتمكن لسوء الحظ من أن أقول لك أقل جانب مما قلته لك بالأمس، أو ما قلته لك في أثناء الليل أو في هذا الصباح، ومع ذلك، فإن الأمر الرئيسي هو: أيًّا كان ما قد يقوله عنك الآخرون الذين يلتفون حولك في حلقة واسعة في وحشية مهما اتسم قولهم بالحكمة الرفيعة، (وإن كانت الوحوش لا تتخذ هذا المظهر)، وفي إلحاح، وفي تعاطف شيطاني، ومحبة مدمرة ــ فإنني أعرف، يا ميلينا، أعرف حتى آخر قطرة من دمي أنك مهما تفعلين، فإن ما تفعلينه لن يكون سوى الصواب، سواء بقيت في ڤيينا أو قدمت إلى هنا، أو ظللت تحلقين بين براغ وڤيينا، أو تفعلين الآن ذلك، وذاك بعد حين. ماذا يمكنني في النهاية، أن أفعل معك إذا لم أعرف ذلك؟ إن الحال معك كما هو الحال مع البحر العميق، فلا توجد أقل بقعة في أعماقه لا يقع عليها دائمًا نفس الضغط

الرهيب ولا هذا هو حالك، غير أن أية حياة أخرى هي عار، ينتابني السقم عندما تمر بخاطري، حتى ظننت أخيرًا أنني لن أستطيع أن أحتمل الحياة، أو أطيق الناس، وكنت أشعر بالخجل البالغ من ذلك، لكنك تؤكدين لي الآن أنها لم تكن الحياة، تلك التي بدت لي غير محتملة.

لك[53].

53(في الهامش الأيسر): إنني في غاية الامتنان لخطة شيكاغو على شرط أن يكون ثمة مكان هناك أيضًا للصبية الذين يعهد إليهم بأداء الخدمات التي لا يستطيعون القيام بها.

بعد الظهر

لقد نجحت في الانصراف عن هذه الرسالة في أثناء الوقت الذي قضيته في مقر عملي، إلا أن العناء الذي تكبدته في محاولة انصرافي عنها لم يكن يسيرًا. ففي هذه المحاولة كنت قد استهلكت تقريبًا طاقتي كلها فلم يتبق لديَّ منها شيء أبذله في العمل. عن رسالتك إلى شتاشا:

جاء ج صباح الأمس لزيارتي، وقال إن رسالة منك قد وصلت، وأنه قد رآها موضوعة فوق المائدة عندما غادر منزله في وقت مبكر من الصباح، إلا أنه لم يعرف بعد ما الذي تتضمنه، وأن شتاشا ستخبرني بذلك في المساء، لقد أحسست بشيء من عدم الراحة أمام صداقته، على حين كنت أفكر في كل الأشياء، التي كنت السبب فيها على نحو ما، والتي قد تكون واردة في رسالتك، وقد اتضح في المساء، مع ذلك أنها كانت رسالة ودودة، وأنها قد بعثت فيهما الرضا، على الأقل إلى الحد الذي كانت توحي به لهجتها الودودة (إنني لم أطلع على الرسالة)، وفوق هذا كان ثمة كلمة شكر للزوج، لعلها قد ذكرت أمامي فقط من باب العلم، ولقد أسعدت هذه الكلمة شتاشا حقًّا، وتألقت بها عيناها إلى حد أكثر قليلًا من المعتاد. وعلى أية حال، ينبغي لي أن أقول إنهما شخصان رقيقان، وأن شتاشا بدت غاية في الجمال للحظة، عندما راحت تتأمل صورتك الفوتوغرافية، للحظة بدت فيها طويلة بصورة غير معقولة وكان يسيطر عليها الانتباه كذلك، والصمت والجدية. ربما ذكرت لك المزيد عن هذه الأمسية في وقت آخر، لقد كنت متعبًا،

خاويًا، ضجرًا، مستسلمًا للهزيمة، فاتر الهمة، وكنت منذ البداية لا أرغب في شيء قدر رغبتي في الذهاب إلى الفراش (لقد طلبا مني أن أرسل إليك القصاصة المرفقة، وهو رسم رسمته شتاشا، بصحبة تفسير كتبه ج ـ كنا نتحدث عن وضع الحجرات في شقتك).

نصحتك بالأمس بعدم الكتابة إليَّ يوميًّا، وما يزال ها هو ما أراه اليوم وسوف يكون هذا خيرًا لكلينا، ومرة أخرى أعود إلى هذا الاقتراح اليوم، وفوق ذلك فإنني أطلبه بمزيد من الإلحاح ـ فقط، أرجوك يا ميلينا ألا تلتزمي بهذا الاقتراح، بل اكتبي إليَّ يوميًّا، على الرغم من ذلك، قد تكتبين في اختصار شديد، رسائل أقصر من الرسائل التي ترسلينها إليَّ الآن، سطرين فقط، أو سطرًا واحدًا، المهم هو أن حرماني من هذا السطر الواحد، سيكون معناه عذابي الرهيب.

ف

***

يستطيع المرء أن يحصل على نتائج خاصة في نهاية الأمر، لو أن المرء توافرت له فقط الشجاعة اللازمة لذلك.

أولًا: لعل جروس[54] ليس مخطئًا إلى هذا الحد، بقدر ما أفهمه، فقد بلغه على الأقل أنني ما زلت على قيد الحياة على الرغم من أنني، تبعًا للتوزيع الخاص الذي توزعت عليه قواي الداخلية، كان ينبغي لي أن أكون قد مت بالفعل منذ وقت طويل.

ثانيًا: كيف ستتطور الأمور فيما بعد، ليست هي المشكلة، كل ما يمكنني أن أقول إنني متأكد منه هو أنني بعيدًا عندك لا يمكنني أن أحيا إلا بالاستسلام للخوف، والاستسلام له أكثر مما يلزم، وهذا ما أفعله عن طيب خاطر، بكل الفرح أصب نفسي في الخوف.

إنك على حق في لومك لي باسم الخوف، على سلوكي في ڤيينا، غير أن الخوف في هذا المقام هو أمر غامض حقًّا، لا أعرف قوانينه الخاصة، كل ما أعرفه هو قبضته وهي تضغط على حنجرتي، وهذه هي حقًّا أشد الأمور التي مرت بي أو يمكن أن تمر بي إزعاجًا.

ربما نتج ذلك عن أننا كلينا متزوجان، أنت في ڤيينا، وأنا متزوج هنا في براغ من خوفي، وأنك لست وحدك فقط الموثوقة بزواجك في غير طائل، بل إنني موثوق إليه أنا أيضًا في غير طائل، ذلك أنك لست أنك

54أوتوجروس محلل نفسي وفيلسوف كان يعيش في ڤيينا في ذلك الحين.

يا ميلينا لو أنك كنت مقتنعة بي تمامًا في ڤيينا (وحتى لو أنك كنت توافقينني على تلك الخطوة التي ترتابين في حكمتها)، فإنك حينئذ لن تكوني موجودة بعد في ڤيينا على الرغم من كل شيء، أو أنه لن يكون هناك بالأحرى معنى لكلمة «على الرغم من كل شيء». ذلك أنك ببساطة ستكونين في براغ، وسيكون كل ما تعزين به نفسك في رسالتك الأخيرة، هو في نهاية الأمر مجرد عزاء، ألا تظنين هذا؟

فلو حدث أن حضرت إلى براغ في الحال، أو لو قررت على الأقل أن تحضري إليها في الحال، فلن يكون هذا بالفعل برهانًا لك، فلست في حاجة إلى براهين لك، فأنت أبعد وضوحًا ويقينًا بالنسبة لي، بل سيكون ذلك برهانا كبيرًا لي من كل شيء آخر، وهذا ما أفتقده الآن. على مثل هذا الخاطر يتغذى الخوف أيضًا، من وقت لآخر وربما كان الأمر، في الواقع، أسوأ من هذا كأن أكون أنا (المنقذ) أكبلك في ڤيينا على نحو لم يفعله سواي من قبل.

(إذن فقد كانت تلك هي العاصفة التي كانت تهددنا طوال الوقت، عندما كنا في الغابة في ذلك اليوم، غير أننا كنا سعيدين مع ذلك. فلنواصل حياتنا إذن تحت تهديدها، ما دام أنه لا يوجد أمامنا مفر آخر، لست أدرى ما الذي تأخذينه على رسالة الفتاة. إن هدفها، ولأحاول أن أدفعك قليلًا إلى الغيرة، قد تحقق في نهاية الأمر. فماذا إذن؟

في المستقبل، سوف أخترع من وقت لآخر، رسائل مثل تلك الرسالة، وأكتبها لك بنفسي، وقد أخترع لك رسائل أفضل من تلك الرسالة،

لكنها لا تتضمن رفضًا قاطعًا.

أرجوك أن تكتبي لي بضع كلمات عن عملك! كستا؟ ليبا؟ كمن؟ بوليتيكا[55]؟ ثمة شيء آخر أردت أن أقوله، لكن شاعرًا ناشئًا كان هنا مدة أخرى، لست أدري لماذا ما إن يحضر إليَّ شخص ما حتى أتذكر مستنداتي، ولا أستطيع طوال الزيارة أن أفكر في أي شيء آخر- إنني مرهق ـ ولا أستطيع أن أفكر في أي شيء، وأريد فقط أن أدفن وجهي في صدرك، وأحس بيدك، وهي تمسح على رأسي، وأن أظل هكذا إلى نهاية الأبدية.

لك

***

نعم، هذا هو ما أردت أن أقوله: ثمة حقيقة هائلة (بين غيرها من الحقائق) في رسالتك (أنك أساسًا شخص ليست لديك أدنى فكرة عن تلك الأشياء التي هي من قبيل...) إن هذا حق بكل ما فيه. فلم يكن كل شيء سوى قذارة، وبغضاء وضيعة، وهبوط إلى الجحيم وإنني لهذا أقف بالفعل أمامك وكأنني طفل قد أتى أمرًا بالغ السوء، وهو يقف أخيرًا أمام أمه يصيح، ويصيح ويعدها قائلًا: لن أفعل هذا مرة أخرى، غير أن الخوف إنما يستمد قوته من كل هذا قائلًا: «بالضبط، بالضبط،

55مجلات وصحف تشيكية كانت تصدر في ذلك الحين.

«إنه لا يدري شيئًا»! إن شيئًا لم يحدث بعد! وعلى هذا فما يزال من الممكن إنقاذه!».

أفزعني رنين التليفون! إنها مكالمة من المدير! هذه هي المرة الأولى التي أدعى فيها منذ رجوعي إلى براغ إلى عمل رسمي. لقد انتهى الغش الآن أخيرًا! إنني لم أفعل شيئًا طوال ثماني عشرة يومًا سوى كتابة الرسائل، وقراءة الرسائل، ثم أتطلع بعد هذا عبر النافذة وأرفع الرسائل في يدي ثم أضعها، ثم ألتقطها مرة أخرى، وأستقبل أيضًا بعض الزوار، ولا شيء غير ذلك. غير أنني عندما هبطت الدرج في طريقي إليه، وجدته ودودًا، كان يبتسم، وذكر لي شيئًا يتعلق بالعمل وإن كنت لم أفهمه، ثم ودعني لذهابه في إجازة ـ رجل رقيق على نحو لا يصدق (همهمت أنا في الحقيقة قائلًا في غير وضوح أنني قد فرغت تقريبًا من إنجاز كل شيء وسوف أشرع في الغد، في إملائه)، وها أنا الآن أخط سريعًا تقريرًا بهذا كله إلى ملاكي الحارس.

***

السبت

إنك تسيئين فهمي يا ميلينا إلى حد ما؛ إنني أوافقك على الأغلب موافقة تامة، ولن أوضح لك هذا بالتفصيل.

لا يمكنني أن أقول بعد إن كنت سأحضر إلى ڤيينا، أو أنني بالأحرى أظن أنني لن أحضر، فبينما كانت لديَّ ذات مرة أسباب عديدة تمنعني من الحضور، فإن لديَّ اليوم سببًا واحدًا فقط هو الذي سيمنعني ـ هو أن ذهابي قد يكون فوق طاقتي الروحية على الاحتمال، وعلى هذا يكون من الأفضل لنا جميعًا، وربما كان هذا سببًا آخر يترتب على ما سبقه، أن نبقى على ما نحن عليه، لكن يجب عليَّ أن أضيف قائلًا بأن بقاءنا على هذه الحال سيكون بقدر الإمكان ـ لا، إن الأمر سيكون فوق طاقة احتمالي لو أنك حضرت إلى ڤيينا الآن، على الرغم من الظروف التي أوضحتها بنفسك، «حتى يكون هناك من ينتظرك».

لست أشعر بحاجة ماسة إلى أن أعرف ما أردت أن تخبريني به عن الشهور الستة. إنني مقتنع بأنه أمر مزعج، وإنني مقتنع أيضًا بأنك قد جربت أو حتى أتيت أمورًا مزعجة، ومقتنع بأنني كشريك لك في هذا لم أكن لأحتمل ذلك (على الرغم من أنه كان يمكنني أن أحتمل كل شيء تقريبًا، حتى منذ سبع سنوات)، وأنني مقتنع أيضًا بأنني لن يمكنني أن أحتمل ذلك حتى في المستقبل باعتباري شريكًا ـ حسنا، لكن ما هي أهمية هذا كله؟ فهل ما يهمني هو أعمالك وتجاربك أو أن ما يهمني بالأحرى ليس هو شخصك أنت؟ لكنني أعرفك معرفة تفوق

كثيرًا معرفتي لنفسي بصرف النظر حتى عن التقرير، الذي لا أقصد من خلاله أن أقول إنني لست معتادًا على الحال التي تبدو عليها يداي. إن رسالتك لا تعارض اقتراحي، بل هي على العكس من ذلك، لأنك تقولين: «إن أفضل ما يروق لي هو أن أجد طريقًا ثالثًا لخلاصي، طريقًا لا يؤدي إليك، ولا يلزمني بالسير إلى جانبه، طريقًا ينتهي بي على نحو ما إلى الوحدة»، إنه اقتراحي أنا ولعلك قد كتبته في نفس اليوم الذي كتبته فيه إليك.

لا شك في أنه لن يمكنك، لو كان المرض قد بلغ هذ المرحلة أن تتركي زوجك ولو مؤقتًا وإن كان ذلك في نهاية الأمر، كما قلت أنت ليس مرضًا بلا نهاية، لقد تحدثت عن بضعة شهور، انقضى منها الآن بالفعل ما يزيد على الشهر، لكنه قد يصبح في غنى عنك بعد شهر آخر لبعض الوقت، حينئذ سيكون في شهر أغسطس، أو سبتمبر على الأكثر.

أعترف بالمناسبة أن رسالتك هي من تلك الرسائل التي لا أستطيع أن أقرأها في الحال، ولو أنني كنت على الرغم من ذلك قد التهمت سطورها أربع مرات، المرة بعد الأخرى، لما أمكنني على الأقل أن أنتهي الآن إلى رأي فيما جاء بها. ومهما يكن من أمر، فإنني أعتقد أن ما كتبته الآن له نصيب من الصحة.

لك

***

الأحد

بالإشارة إلى ما كتبته إليك بالأمس:

أحاول فيما يتعلق برسالتك أن أرى الموقف كله من زاوية أخرى كنت قد تجنبتها حتى الآن، من هذه الزاوية يبدو كل شيء غريبًا:

لم يكن الأمر، أننا كنا نتقابل أنا وزوجك من أجلك، إن هذا القتال قد قام فقط في نفسك، فلا كان القرار يتوقف على قتال بيني وبين زوجك، لكان كل شيء قد تقرر منذ زمن بعيد. إنني لا أبالغ في قدر زوجك على الإطلاق، بل لعلني أن أكون أقلل من قدره، إلا أنني أعرف شيئًا واحدًا، فلو أنه أحبني فإن حبه لي سيكون شيئًا من قبيل حب الثري للفقر (وهو شيء لا تخلو منه أيضًا علاقتك بي). فلست حقًّا بالنسبة للحياة التي تعيشينها معه، سوى «الفأر» في «الدار العامرة» لا يتاح له سوى مرة واحدة فقط في العام، أن ينطلق فوق السجادة على هواه.

هذا هو النحو الذي يبدو عليه الأمر، وإنه لأمر غريب، وإن كان لا يدهشني. إن ما يدهشني وربما بدا لي أمرًا لا يمكن فهمه مطلقًا هو حقيقة أنك أنا يا من تعيشين في هذه «الدار الكبيرة» وتنتمين إليها بكل حواسك، وتستمدين منها أقوى ما في حياتك، وتمارسين إحساسك بأنك ملكة عظيمة في إطارها ــ قد تجدين، مع ذلك (وأدرك هذا على وجه اليقين) القدرة ليس فقط على أن تحبيني، بل أكثر من هذا، على أن تكوني لي، وأن تنطلقي مسرعة فوق سجادتك أنت.

غير أن هذا مع ذلك ليس هو غاية ما يدهشني. فما يدهشني ينحصر في حقيقة أنك لو كنت قد رغبت في المجيء إليَّ، وأنك على هذا لـو كنت قـد رغبت ـ بعـد تـدبر مـتزن للأمـر ـ في أن تنبـذي العـالم بأكملـه في سبيل أن تهبطي إليَّ، إلى تلك الأعماق التي لن يتراءى لك فيهـا، عنـدما تتطلعين إليهـا من مكانـك الممتـاز، ليس فقـط القليـل، بـل إنهـا سـوف تتكشف لك بالفعل عن لا شيء، وأنك لهذا الغرض ـ ويـا للغرابـة، يـا للغرابـة الشـديدة ـ لن يكـون عليـك أن تصـعدي إلى تلـك الأعمـاق السفلى، بل سيكون عليـك أن تتجـاوزي ذاتـك، على نحـو يفـوق طاقـة الإنسان العادي، ستجاوزين نفسك بغاية القوة، حتى إنـك وأنت تفعلين هذا، قد تتمزقين إلى أشلاء، وتتعثرين، وتتلاشـين (وسـوف يحـدث لي هذا، معـك أيضًـا بلا شـك). كـل هـذا، لكي تبلغي مكانـا لا يتمتـع بأيـة جاذبية، هو المكان الذي أسـتقر أنـا فيـه، في غـير سـعادة أو تعاسـة، بلا فضل ولا جريرة، وإنما أستقر فيه فحسب، لأنـني وجـدتني قـد وُضِعت فيـه. لسـت أحسـب نفسـي في وضـع يخـالف في قليـل أو كثـير، وضـع بقال، قبل الحـرب، في إحـدى الضـواحي الـتي تحيـط بـك، بـالنظر إلى مراتب البشر (لست عازفًا أيضًا، حـتى هـذا لا أحسـبني منـه في شـيء). فلو أنني كنت قد حصلت على مكاني هذا بالقتـال ـ ولم يحـدث لي أن قاتلت لبلوغه ـ فلن يعد هذا فضلًا يحسب لي.

إن ما كتبته إليَّ عن الجـذور، شـيء بـالغ الوضـوح، إنـه يبـدو لي كـذلك حقًّا. ذلك أن الواجب الرئيسـي في (تورنـاو) لم يكن سـوى البحث أولًا عن الأفـرع، وانتزاعهـا. فـإذا مـا تم العثـور في لحظـة مـا على الجـذر

الأساسي، عندئذ يكون العمل الحقيقي قد تم إنجازه حقًّا، ذلك أن كل ما على المرء أن يفعله لم يكن حتى الآن سوى أن يواصل ضرب هذا الجذر بجاروف، وأن يفرغ من تحطيمه تمامًا. وما يزال في وسعي حتى الآن أن أسمع صرير تحطمه يتردد في أسماعي. في ذلك الوقت كان انتزاعه سهلًا بالطبع، ذلك أنها كانت شجرة يعرف المرء أنها سوف تواصل نموها مترعرعة في تربة أخرى، على أنها لم تكن على أية حال شجرة بعد، بل كانت طفلًا.

تحدثت بالأمس مرة أخرى إلى ل، وأظن أننا قد اتفقنا في الرأي بقدر ما سمحت له به درجة ارتباطه بالأمر. ثمة أشياء عديدة تحسب له، منها مثلًا أنه كان يلم شتات نفسه على نحو ما عندما كان حديثنا يتناولك، نعم، إن له على أية حال، قلبًا طيبًا. ما الذي قاله لي؟ حسنًا، لقد التقيت به مرتين، وقد ذكر لي أساسًا في كلتا المرتين نفس القصة، بكثير من التفاصيل الثانوية، وموضوع قصته هي فتاة، مخطوبة لشخص ما، جاءته بقصد الزيارة، وعلى الرغم من ضيقه البالغ بها، بقيت معه فترة تتراوح بين ثماني وعشر ساعات (فتاة في شقته الخاصة في الصباح، والأخرى في مكتبه الصحفي ليلًا، هذه هي طريقته في توزيع الأضواء). أوضحت له أنه لا بد أن تناله، وأنه إن رفض ذلك فسوف تلقي بنفسها من النافذة. وقد رفض هو طلبها في الحقيقة، وأفسح لها الطريق إلى النافذة. وبالرغم من أن أيًّا من الفتاتين لم تقفز من النافذة فإن شيئًا مخيفًا بدلًا من ذلك قد حدث، انتابت إحدى الفتاتين نوبة من الصراخ الهيستيري، على حين أن الفتاة الأخرى ـ لقد نسيت الآن في الحقيقة

ماذا جرى لها.... ولست أنكر في نهاية الأمر أن يكون هذا كله، أو حتى ما هو أسوأ منه، قد حدث بالفعل. غير أن الشيء الوحيد الذي لا يمكنني أن أفهمه هو لماذا بدا لي ذلك أمرًا يبعث على الضيق.

ثمة فقرة جيدة، بالمناسبة، قد وردت في تلك الحكايات التي تدور حول فتاته المخطوبة تلك، فوالدها يعاني منذ سنتين من داء السوداء، وتقوم هي على تمريضه.

وكان لا بد أن تبقى نافذة حجرة المريض مفتوحة دائمًا، لكن ما إن تمر بها إحدى العربات حتى يتحتم إغلاقها بسرعة للحظة. ذلك أن الأب لا يحتمل الضوضاء، وكانت الابنة هي التي تقوم بإغلاق تلك النافذة. أضاف ل. عندما ذكر لي هذا قائلًا: «تصور! أخصائية تاريخ الفن هذه!» (إنها بالفعل متخصصة في تاريخ الفن).

وقد أطلعني كذلك على صورتها الفوتوغرافية، فرأيت فيها وجهًا يهوديًّا. قد يكون جميلًا، وإن بدا لي سوداويًّا. ذا أنف مفرطحة، وعينين متثاقلتين. ويدين طويلتين ورقيقتين، وكانت ملابسها غالية.

تسألينني عن الفتاة، ولست أعرف شيئًا جديدًا عنها، منذ أن سلمتني رسالتها إليك، لم أرها حتى الآن. ولقد كنت بالفعل على موعد معها، لكن كان ذلك عندما بدأت تصلني رسائلك الأولى التي تتناول مناقشاتك مع زوجك. لم أجد ما يدفعني إلى الحديث إليها؛ ولهذا أرجأت لقائي بها موضحًا لها الأسباب الحقيقية التي دفعتني إلى ذلك، وإن كنت قد أوضحت لها تلك الأسباب بصورة ودية كما بدا لي. ثم

كتبت إليها فيما بعد رسالة أخرى، لكن اتضح لي أنها قد أساءت فهمها.

فلقد تلقيت منها ردًّا عبارة عن رسالة تهذيبية كرسائل الأمهات (طلبت مني فيها، بين أشياء أخرى أن أخبرها بعنوان زوجك) ولقد أرسلت إليها في الحال ردي الذي يقتضيه ذلك بالبرق. حدث هذا بالفعل منذ أكثر من أسبوع، ولم يصلني منها شيء آخر بعدئذ، وعلى هذا فلست أعرف حتى ما الذي رددت به أنت عليها، ولا ماذا كان وقعه عليها.

تقولين في رسالتك أنك قد تحضرين إلى براغ في الشهر القادم، وأحس على الأغلب برغبتي في أن أقول لك لا تحضري... امنحيني الفرصة كي أعيش على أمل أنك، لو قدر لي ذات مرة أن أطلب منك أن تحضرى، عندما تمس حاجتي إليك، سوف تحضرين في الحال، لكن من الأفضل ألا تجيئي الآن، فمجيئك الآن معناه فقط أنك سوف ترحلين ثانية[56].

فيما يتعلق بأمر المتسولة، لم يكن بلا شك ثمة ما هو حسن أو ما هو سيئ، فقد كنت ببساطة إما شاردًا غاية الشرود، أو كان يستغرقني الانشغال بأمر ما، حتى أسلك على نحو آخر، سوى سلوكي الذي يتصل بذكريات غامضة. بين ما أذكره في هذا الشأن، على سبيل المثال، ما يقول: «لا تعط المتسولات الكثير، فسوف تندم على ذلك فيما بعد». حصلت ذات مرة عندما كنت صبيًّا صغيرًا جداًّ، على قطعة عملة من

56(في الهامش الأيسر): أعرف ردك لكنني أرغب في أن أراه كتابة.

فئة ال (زشسرل) (1)، وأحسست برغبة شديدة في أن أعطيها لمتسولة عجوز كانت تجلس بين الساحتين الكبيرة، والصغيرة. لكن المبلغ بدا لي ضخمًا، مبلغ لعل متسولة لم تتلق مثله من قبل مطلقًا ـ لهذا أحسست بالخجل وأنا أقف أمام المتسولة لإقدامي على الإتيان بأمر كهذا لم يسمع بمثله من قبل. لكنني كنت أحس بأنه لا بد لي من أن أمنحها إياه؛ لهذا استبدلت تلك القطعة بعشرة كرويسترات ومنحت المتسولة واحدة منها، ثم أسرعت، فدرت حول مبنى مجلس المدينة الهائل دورة كاملة، واخترقت البواكي القريبة من الساحة الصغيرة، وعدت من الناحية اليسرى، وكأنني محسن جديد آخر، ومنحت المتسولة قطعة أخرى من العملات الصغيرة، وانطلقت أجري مرة أخرى، وقمت بهذه الجولة بالفعل عشر مرات (ولعلني لم أتم دوراتي عشرًا بالضبط، ذلك أن المتسولة فيما أعتقد نفد صبرها بعد ذلك واختفت). كنت على أية حال، قد أرهقت قواي إرهاقًا شديدًا عندما كنت أوشك على إتمام مهمتي، ورغبتي في الإحسان كانت قد خبت هي أيضًا، حتى وجدتني أتجه مباشرة إلى منزلي، ورحت أصرخ حتى أعطتني أمي قطعة أخرى من نفس الفئة عوضًا عن تلك التي فقدتها.

(1) قطعة عملة تساوى 10 كرويتسر، في عهد الحكم النمسوي الهنغاري.

ترين من هذا أنني سيئ الحظ مع المتسولات، لكنني مع ذلك أصرح لك بأنني على أتم الاستعداد لأن أمنح كل ثروتي الحاضرة والمقبلة، بعد إبدالها بأصغر العملات الورقية المتداولة في ڤيينا، لمتسولة تقف

على باب الأوبرا، على شرط أن تكوني أنت موجـودة عندئـذ، وأن أحس بقربك.

فرانتس

الثلاثاء

بين الإملاءات التي انتهيت منها أخيرًا اليوم:

تسلمت رسائلك القصيرة المرحة أو التلقائية على الأقل كرسالتيك اللتين تسلمتهما اليوم. في هاتين تفوح بالفعل في الغالب (في الغالب، في الغالب، في الغالب، في الغالب) رائحة الغابة، وريحها في أكمامك، فيهما كذلك لمحة من ڤيينا. ما أجمل أن أكون برفقتك يا ميلينا!

أرسلت الفتاة لي اليوم رسالتك دون أدنى تعقيب، فقط خطت تحت بضعة أسطر قلائل منها بالقلم الرصاص. من الواضح أنها غير مقتنعة بها ـ حسنًا؟ مثل كل الرسائل المغطاة بالعلامات المكتوبة بالقلم الرصاص، كان بهذه الرسالة بعض الأخطاء، وعند التطلع إليها بدا لي كم كان مستحيلًا ذلك الذي طلبته منك الفتاة بتلك الرسالة، وأسألك المرة بعد المرة أن تغفري لي، سوف أسألها أن تغفر لي في الحقيقة، هي أيضًا، ذلك أنه أيًّا كان النحو الذي كُتبت عليه تلك الرسالة فإنه كان مقدرًا له أن يؤلمها. وعندما كتبت أنت مثلًا، بغاية الحرص: «لأنه لم يحدث له مطلقًا لا أن كتب لي عنك، ولا تحدث عنك إليَّ» فلا بد أن ذلك قد سبب لها أذى، كما يمكن أن يسبب لها عكس ذلك، الأذى هو أيضًا، اغفري لي، مرة أخرى.

لقد ساعدتني بالمناسبة مساعدة بالغة برسالة أخرى، هي رسالتك إلى شتاشا.

***

الخميس

إنها ملاحظة بالغة السحر، تلك الملاحظة التي أبدتها شتاشا، وإن يكن في غير استطاعة المرء أن يستنتج من تلك الملاحظة أنها كانت تختلف في تلك الأيام عما هي عليه الآن، فلا أثر لوجودها الشخصي في هذه الملاحظة. إنها تتحدث نيابة عنك، وثمة رباط لا يكاد يصدقه المرء بينها وبينك، رباط يكاد يكون مقدسًا، مثلها كمثل شخص، لأنه هو نفسه لا يكاد ينعكس عليه أدنى أثر (ذلك أنه لا يجرؤ على أن يكون أكثر من مجرد وسيط) ينقل ما قد سمعه، وما ينقله بالطبع ـ إن هذا الشعور مهم، وإليه يرجع كبرياء وروعة الأمر كله ـ ليس سوى ما كان مسموحًا له بأن يسمعه وأن يدركه. غير أنني لا أظن أنها قد تغيرت منذ تلك الأيام، ويمكنها في ظروف مماثلة أن تكتب ملاحظة كهذه الملاحظة التي كتبتها اليوم.

غريب أمر ما يتعلق بتلك القصص. ليس كونها قصصًا يهودية هو ما يحزنني، ولا أنا حزين لأن الطبق إن وضع ذات مرة فوق المادة، تعين على كل يهودي أن يتناول نصيبه من الطعام المخيف السام، ذلك الطعام المشترك القديم أيضًا، والأبدي أساسًا ـ ليس هذا هو السبب في أن تلك القصص تحزنني. ألا تمدين لي يدك على الرغم من هذا كله، وأن تتركيها في يدي وقتًا طويلًا، طويلًا؟

عثرت بالأمس على المقبرة. لو أنك بحثت عنها بخوف فإنه ليستحيل عليك على الأغلب أن تعثري لها على أثر. إنني لم أتحقق من أنها مقبرة

أقارب والدتك، كما أنه ليس في مقدور المرء أن يقرأ النقوش على شاهدها ـ لقد كاد الذهب أن يتقشر تمامًا على الأغلب ـ ما لم ينحن المرء إلى أسفل في اهتمام. ولقد أنفقت وقتًا طويلًا هناك، إنها مقبرة جميلة لا تبدو أحجارها قابلة للبَلْي، وهي تفتقر من ناحية أخرى إلى الزهور افتقارًا تامًّا، على أنه ما نفع كل تلك الزهور على المقابر ـ إنني لم أتمكن مطلقًا من أن أفهم تلك النقوش التي على شاهدها فهمًا تامًّا.

لقد وضعت بعضًا من القرنفل متعدد الألوان على حافة المقبرة مباشرة. ولقد أحسست بالراحة في الجبانة على نحو لا أحسه في المدينة؛ ودام هذا الإحساس أيضًا؛ ولوقت طويل واصلت سيري عبر المدينة كما لو كنت أسير عبر جبانة.

يينتشيك، هل كان هذا هو شقيقك الصغير؟

وهل أنت حقًّا على ما يرام؟ في تلك الصورة الفوتوغرافية التي من (نويه فالديج) تبدين حقًّا مريضة؛ ربما كان ذلك مبالغًا فيه، لكنه يبقى مع ذلك أمرًا مبالغًا فيه فحسب. مازلت أفتقر إلى صورة فوتوغرافية جيدة لك، ففي إحدى الصور تبدين فتاة صغيرة متميزة رقيقة، حسنة الملبس، يبدو عليها أنها سرعان ما ستغادر الدير في خلال عام أو عامين (إن زوايا الفم في الحقيقة، تبدو مرفوعة إلى حد ما، غير أن هذه هي مجرد علامة على السمو والطاعة الدينية)، أما الصورة الثانية فهي صورة دعائية مبالغ فيها: «هذا هو الحال الذي نعيش عليه في ڤيينا»،

بالمصادفة في هذه الصورة الثانية تبدين مرة أخرى شديدة الشبه بصديقي الأول الغامض، سأحدثك يومًا ما بشأنه.

لا، لن أحضر إلى ڤيينا، ظاهريًّا، من الممكن أن يتم هذا بكذبة، بإبلاغ العمل بأنني مريض، أو أنه يمكن أن يتم خلال إجازة لمدة يومين متتابعين، غير أن هذه هي فقط عقباتك الظاهرة يا بني (مناجاة ذاتية [عبر الصفحة بميل]: لقد كتبت لك يوميًّا ولعلك تتسلمين الرسائل ما تزالين.

البرقية، شكرًا، شكرًا، شكرًا، إنني أسحب كل ما أوجهه من ملام، ذلك أنه لم يكن ملامًا، وإنما هو مجرد ربت بظهر اليد، وقد كانت لتثير الحسد لوقت طويل.

كان الشاعر والفنان الحفار (في الحقيقة هو موسيقي أساسًا) معي الآن للتو؛ إن الفنان الحفار يتردد عليَّ دائمًا، واليوم أحضر لي قطعتين من الحفر على الخشب (تروتسكي والقطعة الأخرى اسمها بشارة «بشرى»، ترين من هذا أن عالمه ليس محدودًا)، وحاولت لأجل خاطره أن أبدو مهتمًّا بعمله اهتمامًا أكبر، بأن أسرعت فأقمت صلة لك بالأمر، وأخبرته بأنني سوف أرسلها إلى صديقة لي في ڤيينا، فكان من نتيجة ذلك غير المقصودة أن حصلت على نسختين بدلًا من نسخة واحدة (سأحتفظ لك بنسختك هنا، أم هل تودين أن أرسلها في الحال؟). ثم وصلتني عندئذ برقيتك، وبينما كنت أقرأها، وأعيد قراءتها، ولا أستطيع لفرحتي وامتناني لك أن أفرغ منها، شرع هو يتحدث بلا انقطاع (على

أنه في الوقت نفسه لم يكن يقصد إزعاجي بحديثه ذاك، لا؛ مطلقًا، فعندما أقول إنني مشغول، عندما أقولها بصوت مرفوع حتى يتاح له أن يفيق إلى نفسه، فإنه يصمت في الحال في منتصف جملة، ويسرع بالابتعاد، دون أن يغضب بالمرة).

أخبارك كلها بلا شك غاية في الأهمية، لكن التفاصيل ستظل أكثر أهمية. لكن فوق هذا كله، كيف يتسنى لك أن تتخلي عن نفسك؟ إن ذلك لمن المستحيل بالتأكيد، بالنسبة لي على الأقل لا يمكن لطبيب أن يقول شيئًا أكثر من هذا افتقارًا إلى المعنى. آه، إنه لأمر سيئ بلا شك، لكن على أية حال، شكرًا، شكرًا.

***

السبت

لمدة حوالي نصف الساعة الآن بالفعل كنت مستغرقًا في قراءة الرسالتين والبطاقة البريدية، (بصرف النظر عن المظروف- إنني ليدهشني أن مصلحة البريد بكامل هيئتها لم تحضر لكي تعتذر لك)، وتحققت الآن فقط من أنني كنت مستغرقًا في الضحك طول الوقت، فهل وجد هنالك في تاريخ العالم بأكمله ثمة إمبراطور كان أسعد حالًا مني؛ فهو يدخل حجرته، ليجد هنالك الرسائل الثلاث، وكل ما ينبغي عليه أن يفعله هو مجرد أن يفضها فحسب- يا للأصابع المتكاسلة! - وأن يضطجع إلى الخلف- وليس ذلك لكي يكون في وسعه أن يتأكد من أن ذلك الحظ السعيد، إنما يتحقق له هو. لا، إنني لم أضحك طوال الوقت، لن أقول شيئًا عن «حمل الأمتعة» لأنني لا أصدق ذلك، ولو أمكنني تصديقه، فلا يمكنني أن أتصور ذلك، ولو أمكنني أن أتصور ذلك، فإنك ستكونين بالغة الجمال عندئذ - لا، لم يكن ذلك مجرد جمال فحسب، فلقد كان ذلك تحولًا من السماء على غير توقع- كما في يوم (الأحد)، وإنني لأفهم (السيد) (فلعله كان قد دفع عشرين كرونينا، وانتظر أن يرد إليه ثلاثة كرونينات)[57]. على أنني ما زلت لا أصدق ذلك، وحتى لو كان ذلك قد حدث فإنني أقر بأنه لا بد كان مزعجًا بقدر ما كان رائعًا. لكن بخصوص أنك لم تتناولي طعامًا بالمرة، وأنك جائعة (بينما أنا أطعم هنا إلى درجة التخمة بدون أية

57في أثناء التضخم كانت النساء تعملن (حاملات للأمتعة) في محطات ڤيينا.

شهية)، وأن لديك تحت عينيك دوائر (وأنه لا يمكن لهـذه الـدوائر رغم كل شـيء أن تظهـر بواسـطة المصـور الفوتـوغرافي)، ذلـك أنهـا تـذهب بنصف السعادة التي تنطق بها الصورة، على الرغم من أنه ما يزال يتبقى ما يكفي، وما أحب بسببه أن أقبل يدك مـا دام أنـك لن تكـوني قـادرة ـ في حياتك مطلقًا على أن تستخدميها مرة أخـرى لا في الترجمـة ولا في حمل الأمتعة من المحطة ـ هذا لا يسـعني أن أغفـره ـ لن أغفـر لـك، ولا بعد مائة عام حتى، منذ الآن، وسـوف أوجـه لـك نفس اللـوم، بينمـا نكون جالسين أمام كوخنا، لا إنني لست أمزح، ثم ما هو هذا التناقض؟ إنـك تصـرحين بحبـك لي، وتكـونين (لي) بنـاء على هـذا، بينمـا أنت تتضورين أمامي، على حين توجد النقود التي لا جدوى منها هنا، وهناك يوجد (الديك الأبيض) = (حيث تتناول ميلينا طعامها).

ما تقولينـه عن رسـالة الفتـاة سـوف أغفـره لـك في الحـال، ذلـك لأنـك تناديني (أخيرًا) بالسكرتير (إنني أدعى سكرتيرًا لأن كل ما أفعله هنا منذ ثلاثة أسابيع هو أمر غايـة في السـرية)؛ وإلا فإنـك أيضًـا على حـق. لكن هل يكفي أن تكوني على حق؟ وفوق ذلـك كلـه: فلسـت أنـا محقًّا، أفلا تريدين على هـذا أنت أيضًـا أن تتحملي جانبًـا صـغيرًا من خطـئي ـ من الممكن ذلك، أعرف ذلك، إنها فحسب مسألة قـوة إرادة ـ وذلـك بـأن ترسلي إليَّ تلك الرسالة اللامبالية التي أرسلتها الفتـاة، وبـأن تستخلصـي منها خطئي ذلك المسـطور هنالـك في كلمـات هائلـة وقويـة؟ وبصـرف النظر عن هذا فإنني أنـا أيضًـا راغب فحسـب في ألا أسـتمع إلى المزيـد عن هـذه المراسـلات الـتي تسـببت فيهـا دون رؤيـة. لقـد أعـدت إليهـا

رسالتك مع بضعة سطور ودية، وما دام أنه لم يصلني أي شيء؛ لم أستطع أن أحمل نفسي على أن أقترح لقاء ما! وآمل أن ينقشع كل شيء في صمت، وبصورة ودية.

أنت تدافعين عن رسالة شتاشا، وقد كنت أنا من يتوجب عليه أن يشكرك من أجلها. هل كنت في (نويه فالديج)؟ وأنا أيضًا كنت هناك مرارًا؛ من الغريب أننا لم نتقابل على أنك كنت تتسلقين، وتنطلقين في الجري بغاية السرعة، حتى أنك ربما حدث وانزلقت أمام ناظري كما حدث في ڤيينا. يا لهذه الأيام الأربعة من أيام؛ لا بد أنها كانت غريبة! معشوقة خارجة من السينما، وحمالة أمتعة بسيطة تقف على الرصيف- وكان مقدرًا لها أن تكون أيامًا أربعة؟

سيحصل ماكس على رسالتك اليوم. لم أقرأ منها ما يزيد على ما يمكن اختلاسه منها اختلاسًا.

نعم إن حظك سيئ مع (لاندراو)[58] وما يزال حظك حسنًا في الألمانية؟ ما الذي جنيته منها أيتها الطفلة البائسة (ولا أقول أيتها الطفلة الصغيرة لا سمح الله!) تعذبت واضطربت بك الحال كما فعلت بك الرسائل؟ ألست على حق في ظني بأن رسائلي تسبب لك اضطرابًا؟ لكن أي نفع يمكن أن يوجد فيها حتى تكون كما ينبغي أن تكون عليه الرسائل؟ إنني أكون بخير ما حصلت على رسائل، وينطبق هذا أيضًا على كل شيء

58الكاتب المعروف، وأحد المشتركين في جمهورية ميونيخ الاستشارية، قتل عام (1919)..

آخر، أما إذا لم تصلني رسائل فإنني لن أكون بخير، كما أنني لن أكون معدودًا بين الأحياء، ولن أكون أي شيء بالمرة.

نعم، الحضور إلى ڤيينا!

أرجوك أن ترسلي لي الترجمة، فلا يمكنني أن أجد بين يدي الكثير من نفحاتك.

***

الجمعة

أنت دائمًا تريدين أن تعرفي يا ميلينا، ما إذا كنت (أنا) أحبك، غير أن هذا السؤال هو من أصعب الأسئلة في نهاية الأمر، لا يمكن الإجابة عليه في رسالة (ولا حتى في رسالة الأحد الماضي) سأخبرك بالرد على هذا السؤال عندما نلتقي في المرة القادمة بلا شك، بشرط ألا يخونني صوتي. لكن لا يجب عليك أن تكتبي عن رحلتي إلى ڤيينا، فإنني لن أحضر، وإن كانت أية إشارة إلى هذه الرحلة أحسها وكأنها شعلة صغيرة من النيران تقربينها من جلدي العاري، إنها (مَحْرَقة) بالفعل، لا تحترق لكنها تظل تدخن ما وسعها ذلك، بنفس قواها! بل بقوى زائدة في الحقيقة، وهذا ما لا ترغبين في حدوثه.

إنني في غاية الأسف بخصوص الزهور التي وصلتك. إن الأسف ليمنعني حتى عن توضيح أي نوع من أنواع الزهور كانت. والآن فإن تلك الزهور توجد في حجرتك، فلو أنني حقًّا كنت أنا الدولاب، لكنت جرجرت نفسي خارجًا من الحجرة إلى ضوء النهار الساطع، على الأقل كنت أبقى في حجرة الانتظار المقابلة حتى تذبل تلك الزهور. لا، ليس هذا حسنًا. إن هذا كله لبعيد بعدًا بالغًا، وإن كان مقبض بابك قريبًا، أمام ناظري في مثل قرب محبرتي.

حسنًا، ليكن لقد تسلمت برقيتك التي أرسلتها بالأمس، التي أرسلتها أمس الأول، حتى وقتئذ لم تكن الزهور قد ذبلت بعد، ولماذا أنت مسرورة بها إلى هذا الحد؟

فلو كانت هذه الزهور هي زهورك (المفضلة) لكان ينبغي أن تسرك كل مثيلاتها من الزهور التي توجد على وجه الأرض، لماذا إذن تسرك فقط هذه الزهور وحدها؟

على أنه ربما كان هذا أيضًا سؤالًا صعبًا في غاية الصعوبة؛ وأنه يمكن الإجابة عنه فقط شفويًّا. لكن أين أنت؟ في ڤيينا؟ وأين ذلك؟ لا، لا يمكنني أن أتخلص من الزهور- شارع كيرتنز- حسنًا، إنها لقصة خرافية أو أنها حلم في يوم كأنه الليل، غير أن الزهور هي زهور حقيقية، وإنها لتملأ الفازات؛ «لا جدوى» تقولين هذا، وتضمينها إلى صدرك- والمرء ليس له حتى أن يلقي بها؛ لأنها بعد كل شيء هي زهورك (المفضلة). فانتظري إذن أيتها الزهور، فسوف أحملك خارجًا في اللحظة التي تغادر فيها ميلينا الحجرة، وألقي بك أيتها الزهور في الحوش[59].

لماذا أنت مكتئبة إلى هذا الحد؟ هل حدث شيء؟ ولم تحدثيني عنه؟ لا، ليس هذا ممكنًا.

إنك تسألينني عن ماكس، لكنه قد رد عليك منذ وقت طويل، وإن كنت لا أعرف بماذا، غير أنه أرسل الرسالة يوم الأحد في وجودي، هل وصلتك بالمناسبة رسالتي التي أرسلتها يوم الأحد؟

كان الأمس يومًا قلقًا للغاية، لم يكن قلقه معذِّبًا، لكنه قلق وحسب، ولعلني أخبرك بذلك قريبًا. فوق كل شيء لديَّ برقيتك في جيبي، وأن

59(في الهامش الأيسر): ولماذا أنت حزينة؟

أتجـول وهي في جيـبي أمـر يمنحـني إحساسًـا غريبًا. ثمـة رقـة إنسـانية خاصة لا يعلم عنها الناس شيئًا. يتمشى المرء مثلًا تجاه قنطـرة تشـيك، وينـتزع البرقيـة، ويقرأهـا (إنهـا جديـدة دائمًـا، وبعـد أن يتشـربها المـرء تصبح الورقـة بيضـاء، ولكن مـا أن يضـعها المـرء ثانيـة في جيبـه حـتى تصبح مكتوبة مرة أخرى وهي في مكانها هنالـك بأسـرع مـا يمكن)، ثم يتطلع المرء حوله ويتوقع أن يرى وجوهًا غاضبة، ليست حاسدة تمامًـا، ولكنهـا على الـرغم من ذلـك تسـدد إليَّ نظـرات تقـول: مـاذا؟ أنت دون الناس جميعًا قد تسلمت هذه البرقية؟ سوف نرسـل تقريـرًا عن هـذا في الحال إلى هناك، فثمة زهور على الأقل (ملء حضن منها) سوف ترسـل فورًا إلى ڤيينا. ونحن على أيـة حـال مصـممون على ألا نتسـاهل في أمـر البرقية.

وبعيدًا عن تلك النظـرات فـإن كـل شـيء هـادئ بقـدر مـا تمتـد أمامـك الرؤيـة، فالصـيادون بالسـنانير يواصـلون صـيدهم، ويواصـل المتطلعـون تطلعهم، والأطفـال يلعبـون كـرة القـدم، ويجمـع الرجـل الجـالس عنـد القنطرة الكرويتسات. وبالمراقبة عن كثب أكثر يكتشف المرء توترًا مـا، ذلك أن الناس إنما يرغمون أنفسهم على أن يركزوا على مـا يقومـون بـه من أعمـال حـتى لا يتسـنى لهم أن يشـوا بشـيء من أفكـارهم. على أن مجرد تلك الحقيقة، حقيقة أنهم يرغمون أنفسهم على هـذا النحـو على الانصراف إلى مـا يقومـون بـه من أعمـال، لهي جـديرة بـالحب إلى غـير حد. إن ذلك الصوت الذي يتحدث بلسان حالهم كلـه إنمـا يقـول: «من الصحيح أن البرقية تخصك، إننـا نوافقـك على هـذا، إننـا لا نجـادل في

حقك في أن تحصل عليها. إننا سنغلق أعيننا عنها، ويمكنك أن تحتفظ بها»، ثم قد يظن أحدهم، متى انتزعتها ثانية من جيبي بعد فترة قصيرة، أن ما يسخطهم عليَّ أنني على الأقل قد بقيت هادئًا، وأنني لم أختبئ.

لا، إنهم ليسوا ساخطين وإنما هم يبقون على حالتهم التي كانوا عليها[60].

في المساء تحدثت ثانية إلى يهودي فلسطيني- أظن أنه من الممكن في رسالة أن أجعلك تدركين أهميته بالنسبة لي- رجل ضئيل، نحيف على الأغلب، هزيل، ملتح، أعور، غير أن تذكري له قد كلفني نصف الليلة. سأحدثك بالمزيد عن هذا الأمر في الحال.

إذن فليس لديك جواز سفر، ولن تحصلي على واحد؟

***

60(في الهامش الأيسر): ولماذا أنت حزينة؟

ميلينا، أيتها المجتهدة، إن حجرتك تتغير في ذاكرتي، المكتب، ويبدو على كل شيء أنه غير معتاد على أن يحب العمل كثيرًا، لكن يوجد ثمة الكثير من العمل الآن، ويمكنني أن أشعر بذلك، وإنه ليرضيني، ولا بد أن كل شيء في حجرتك يبدو دافئًا على نحو رائع، ومنعشًا ومرحًا. فقط يبقى الدولاب أخرق كما هو دائمًا وأحيانًا لا يعمل القفل، ولا يسمح بالحصول على شيء من داخل الدولاب، وإنما يبقى بمجهود هائل مغلقًا ويرفض أن يسمح بخروج الثوب الذي كنت ترتدينه يوم (الأحد). إن هذا ليس دولابًا على الإطلاق، فلو راودتك مرة أخرى فكرة أن تشرعي في تأثيث منزل، فإن علينا أن نلقي به خارجًا.

إنني آسف لعدة أمور قد كتبتها لك أخيرًا، فلا تتخذيها ضدي. وأرجوك ألا تعذبي نفسك طوال الوقت بفكرة أن تلك الغلطة هي غلطتك كلية، أو أنها حتى غلطتك بالمرة؛ إنك لا يمكنك أن تحرري نفسك منها. إنها غلطتي أنا أكثر مما هي غلطتك، وسأحدثك عن هذه الغلطة يومًا ما.

الخميس بعد ذلك لهذا، ولكي لا يكون ثمة شك يا ميلينا:

ربما لم تكن حالتي هذه حتى، هي أفضل الحالات الممكنة، وربما كنت أحتمل ما أزال المزيد من السعادة، والمزيد من الأمان، والمزيد من الوفرة ــ وعلى الرغم من أن هذا ليس مؤكدًا على الإطلاق، على الأقل في براغ. وعلى أية حالة، فبالنظر إلى المعدل الذي يسير عليه

الحال أقول إنني أشعر بالتحسن والمرح والحرية؛ التحسن الذي لا أستحقه بالمرة، التحسن المخيف، كما لو كانت الأحوال الحاضرة لتبقى لفترة قصيرة بدون اضطرابات هائلة للغاية، وتلقيت كلمة منك كل يوم دون أن أراك معذبة من خلالها إلى هذا الحد، وهذا وحده لعله أن يكون كافيًا عندئذ لكي يؤدى بي إلى منتصف طريق العودة إلى الصحة.

والآن يا ميلينا أرجوك، لا تعذبي نفسك بعد ذلك، أما فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية فإنني لم أفهمها البتة بحال من الأحوال (أكثر ما فهمته منها هو ما يدور حول العمود النارى، تلك هي الفيزياء، أفليست كذلك في نهاية الأمر؟) و(مقاييس العالم النسبية) هي ما لم أفهمها أيضًا، ولا شك أن تلك المقاييس قد فهمتني هي أيضًا بدورها بقدر ما فهمتها (ما الذي يمكن أن تفعله مثل تلك النسب الهائلة بوجودي الذي لا يتجاوز 55 كيلو جرام عاريًا، إن تلك النسب قد لا تلحظه، فهو وجود أقل مما يلزم لكي تحركه هذه النسب) وإنني لأتواجد هنا تمامًا كما كنت في ڤيينا ويداك في يدي بقدر ما تتركينهما في يدي.

(فرانتس) خطأ، (ف) خطأ (لك) خطأ، ولا شيء آخر، الصمت، أعماق الغابة، تبدو قصيدة (ڤيرفل) كصورة تحدق في كل من يتطلع إليها، إنها تحدق فيَّ أنا أيضًا، وفوق كل شيء تحدق حتى في ذلك (الشرير) الذي كتبها هو نفسه.

لم أستطع أن أفهم تمامًا ملاحظاتك عن العطلة، إلى أين ستذهبين.

***

لا، إنها لم تكن حقًّا بهذا السوء، وعلى أية حال كيف يتسنى للروح أن تخلص نفسها على نحو آخر، من عبء ما، إن لم يكن ذلك بواسطة خدعة صغيرة؟ وعلاوة على ذلك، فإنني أعتبر كل شيء كتبته صحيحًا. لقد أخطأك فهم بضعة أشياء، منها على سبيل المثال ما يتناول «العناء الوحيد» ذلك أن (عناءك الشخصي) لهو هذا «العناء الوحيد» وليست رسائلك التي تعطيني كل صباح القوة لأن أحتمل مواجهة اليوم، ولكي أحتمل مواجهته على أحسن وجه، حتى أنني لا يسعني أن أنبذ رسالة واحدة من رسائلك تلك، (ولا رسالة واحدة من تلك الرسائل، وهذا واضح) في يوم من الأيام.

ولست غيورًا على الإطلاق، صدقيني، لكن يصعب عليَّ أن أدرك أنه (لا جدوى) من أن أكون غيورًا. إنني أنجح دائمًا في ألا أكون غيورًا، لكن فقط في أحيان أنجح في فهم (عقم) الغيرة.

والآن في النهاية لديَّ شيء أقوله لماكس. هو نقدك الحقيقي القصير لكتابه العظيم، إنه بالمناسبة يسأل عنك طوال الوقت، كيف حالك، وما الذي يحدث لك ـ كل شيء يتعلق بك يهتم به من قلبه. غير أنه لا يكاد يوجد لديَّ شيء أخبره به، ولحسن الحظ أن اللغة وحدها تجعل ذلك مستحيلًا. لا يسعني مجرد أن أتحدث عن أية ميلينا في ڤيينا، ثم أواصل حديثي قائلًا: (إنها) تعني، وتقول، وتفعل هذا وذاك. ذلك أنك في نهاية الأمر لست (ميلينا)، كما أنك لست (هي)، إن هاتين

الكلمـتين همـا محض هـراء؛ وكنتيجـة لـذلك لا يمكـنـي أن أقـول أي شيء.

إن هذا طبيعي للغايـة حتى أنـني لا آسـف لـه. نعم، أن أتحـدث عنـه إلى الغرباء، لا شك أن هذا ما لا يمكنني أن أفعله، وإن يكن ذلك في الـوقت نفسه يعد أحيانًا متعة رائعة. فلو سـمحت لنفسـي أن أجعـل من حـديثي ذاك عنك قطعة كوميدية صغيرة وإنها لمغرية غاية الإغـراء، فـإن المتعـة لتكـون أعظم عندئـذ. لقـد قـابلت منـذ فـترة ليسـت بالطويلـة (رودلـف فوخس)[61]. إنني أحبه، غير أنه من الطبيعي ألا تكون متعة لقائـه هي تلـك المتعة البالغة، ولا أنا استطعت أن أضغط على يده بمثـل تلـك الحـرارة. وعـرفت في الـوقت نفسـه أن النتيجـة لن تكـون هائلـة للغايـة ــ قلت لنفسـي، حسـنًا، حـتى لـو كـانت النتيجة بسيطة! وتطـرق الحـديث في الحال إلى ڤيينا، والمجتمع الذي زاره هناك، ولقـد كنت مهتمًّا بسـماعه يذكر الأسماء ولقد بـدأ يعـددها، إنـني لم أقصـد أن أسـمعه يعـددها، لا إنني لم أقصد أن أسمعه يعددها على هذا النحـو، لقـد رغبت في سـماع مـا يتعلـق بأسـماء النسـاء. نعم، يوجـد هنـاك ــ على سـبيل المثـال ــ ميلينا ــ التي أظن أنك تعرفها، (نعم، ميلينا)، كررت ذلك وأطـرقت إلى أسـفل، إلى شـارع فرديناند، لكي أنظـر مـا الـذي يمكن أن تقولـه (هي) لذلك الشارع، ثم تعاقبت أسماء أخرى، وانتـابتني نوبـة السـعال العتيـدة ثانية، وأخفق الحديث (فكيف السبيل إلى إحيائـه؟»، (هـل يمكنـك أن تخبرني في أية سنة من سنوات الحرب كنت أنـا في ڤيينـا؟»، «1917»،

61(شاعر من براغ، ومترجم بارع للشعر التشيكي وخاصة أشعار برتسينا وبتسروك).

«ألم يكن (إ ب)[62] في ڤيينـــا، في ذلـــك الحين؟» «لا» وهكـــذا جـــرى الحديث بيننا. وبعدها كان بوسعي أن أجعله يخبرني بالقليل عنك، غير أنني لم أجد لديَّ القوة اللازمة لذلك.

ما الذي تفعلينه بخصوص (أقـراص الـدواء) هـذه الأيـام؟ إنـك تكتـبين للمرة الأولى عن نوبات الصداع من جديد.

هـل يمكنـك أن تقـولي بضـع كلمـات قلائـل عن خطتـك بخصـوص بـاريس؟، وإلى أين سـتذهبين الآن؟ (وهـل هـو مكـان جيـد الاتصـال البريدي؟)، ومتى؟ ولكم من الوقت؟

ستة شهور؟

أرجوك أن تخبريني دائمًا في الحال عن المجلات التي تظهـر بهـا بعض كتاباتك.

كيف خططك بالفعـل لتنفيـذ رحلتـك الـتي تسـتغرق يـومين إلى بـراغ؟ (إنني أتساءل فقط بدافع الفضول).

شكرًا لتعبير (مع ذلك)، كلمة سحرية، تتجه مباشرة إلى مجرى دمائي.

62زوج ميلينا.

بعد ظهر الجمعة

وجدت هذه الرسالة في المنزل، لقد عرفت الفتاة لـوقت طويـل، ولعلنا أن نكـون أقربـاء من بعيـد أو أن يكـون لنـا نسـب مشـترك، ابن العم ذاك الذي ذكرته، ذلك الذي كان مريضًا للغاية في براغ حيث كانت تمرضـه لمدة شهور هي وأختها، إنها غير مقبولـة لي من الناحيـة الجسـدية، فـإن لها وجهًا مسـتديرًا ضـخمًا للغايـة، ذا خـدين محمـرين وجسـدًا صـغيرًا مستديرًا وحديثًا هامسًا يثير السخط، لكنني قد سمعت عنها أشياء طيبـة خلافًا لذلك، أعني أن الأقارب قد قدحوا فيها من خلف ظهرها.

منذ شهرين كان ردي على مثل تلك الرسالة سيكون ببساطة هـو: لا، لا، لا! بينما لا أجد لديَّ الحق في هذه الأيام لأن أقول ذلـك. ليس بـالطبع، لأنني أظن أنني أستطيع أن أساعدها بحال من الأحوال. كان بسمارك قد تعامل بالفعل مع مثل هذه الرسائل ذات مرة، وأشار إلى ذلك بقوله بأن الحياة هي مأدبة أُسيء إعـدادها؛ خلالهـا ينتظـر المـرء فاتحـات الشـهية بفارغ الصبر، بينما يمر به الشواء الأساسي الضخم في صمت، وأن على المرء أن يهيئ نفسه تبعًا لذلك. آه، كم تبدو هذه المهـارة غبيـة، كم هي بالغة الغباء! إنني، لأجلي شخصيًا أكثر مما هو لأجلهـا، أجـدني بسـبيلي لأن أكتب إليها، وأخبرها بأنني على اسـتعداد للقائهـا. ثمـة شـيء مـا قـد وضـعته أنت في يـدي، يـا ميلينـا، وأحس بـأنني لا أجـرؤ على أن أبقى مطبقًا عليه، في يدي تلك!.

غداً يرحل العم، وسأجدني مرة أخرى في الهواء الطلق، سأجدني في الماء، سأجدني في خارج المدينة؛ إنني لفي أشد الحاجة إلى ذلك.

لقد كتبت هي تقول عساي أن أقرأ الرسالة فحسب، وقد استجبت لهذا الطلب عندما أرسلت الرسالة لك، أرجوك أن تمزقيها. ثمة فقرة جيدة بها، بالمناسبة، «إن النساء لا يحتجن إلى الكثير».

***

مهما قلب المرء رسالة اليوم، هذه الرسالة الحلوة الصادقة المرحة، الموفقة فإنها مع ذلك رسالة (منقذة)، ميلينا ضمن (المخلصين)! (فلو كنت أنا أيضًا ضمنهم، ولو أتاح لها هذا إذن أن تكون معي؟ لا، لا شك أنها لن تكون معي عندئذ) ميلينا ضمن المخلصين، تلك التي تمارس التجارب طوال الوقت على نفسها، التجارب على أن المرء يمكنه أن ينقذ الآخر فقط بمجرد تواجده ولا شيء آخر سوى ذلك. ولقد أنقذتني بالفعل بوجودها وتحاول الآن بالإضافة إلى ذلك أن تفعل نفس الشيء بأدوية أخرى صغيرة لا حصر لها. لو أن شخصًا أنقذ من الغرق شخصًا آخر فإنه سيكون عملًا عظيمًا بلا شك، لكن لو أنه بعد ذلك أعطى لذلك الشخص الذي تم إنقاذه على يديه اشتراكًا في دروس للسباحة، فما هو الخير الذي سيتمخض عنه ذلك؟ لماذا يحاول المنقذ للآخرين أن يجعل الأمر بهذه البساطة بالنسبة لنفسه؟

لماذا لا يرغب في أن يواصل إلى الأبد إنقاذ الآخر بوجوده، بوجوده المستعد أبدًا؟ لماذا يحاول أن يحول العبء إلى مدرب السباحة، أو إلى صاحب الفندق في (دافوس)؟ ثم إن ما هو أكثر من ذلك، هو أنني أزن 55 كيلو جرامًا! فكيف يمكنني أن أطير مبتعدًا عندما نكون متماسكين أحدنا بالآخر باليدين؟ ولو أننا طرنا معًا إلى البعيد، فما الذي سيحدث عندئذ؟ وعلى أية حال، فإن هذه لهي الفكرة الحقيقية التي تختفي تحت الفكرة السابقة ـ لن أتحرك ثانية مطلقًا إلى هذا الحد بعيدًا

عنك. وفوق هذا كله، فلقد وصلت الآن لتوي من مناجم رصاص ميران.

السبت، مساء

بعد أن تمت كتابة ما جاء أعلاه، فقد قصدت اليوم أيضًا أن أكتب لك عن أشياء أخرى، لكن ليس لديَّ ثمة ما أقوله، لقد عدت إلى المنزل، ورأيت في الظلام على المكتب، الرسالة غير المتوقعة، وألقيت نظرة مستعجلة عليها، ودعيت في الحال إلى العشاء، وأكلت شيئًا ما كان لسوء الحظ لا يمكن له أن يختفي من الطبق إلا بالتهامه، ثم قرأت الرسالة بأكملها، متباطئًا متعجلًا، مهتاجًا، سعيدًا، مندهشًا، لا يمكن للمرء أن يصدق ذلك، غير أنها تقف هنالك على حين لا يصدق المرء ذلك بعد إلا أن المرء ليقع مغشيًّا عليه فوقها وإن يكن هذا أيضًا اعتقادًا ما. وأخيرًا، يائسًا، يائسًا، يائسًا تتسارع نبضات قلبه «لا يمكنني أن أحضر»، لقد عرفت هذا عند قراءة السطر الأول، وعرفته في النهاية، لكن فيما بين هذا وذاك كنت قد وجدتني في ڤيينا مرات عديدة كما يحلم المرء في ليلة مؤرقة ساهرة عشرة أحلام في حوالي نصف دقيقة. ثم مضيت إلى مكتب البريد وأرسلت لك برقية، وهدأت قليلًا، والآن ها أنذا جالس هنا، أنا أجلس هنا مثقلًا بعبء يرثى له، هو عبء أن أثبت لك أنني لا يمكنني أن أحضر. حسنًا، أنت تقولين إنني لست ضعيفًا وإنني قد أنجح، قد أنجح بعد كل شيء في اجتياز الأسابيع القادمة التي تحدق فيَّ بتكشيرة، في كل ساعة من ساعاتها، وإنها لتفعل ذلك الآن أيضًا، متسائلة: «وعلى هذا فأنت لن تذهب إلى ڤيينا؟» أنت لن تذهب إلى ڤيينا؟، لقد تسلمت هذه الرسالة، ولم تذهب إلى

ڤيينا؟؟» إنني لا أفهم الموسيقى، غير أنني أفهم هذه الموسيقى لسوء الحظ، أفهمها أفضل مما يفهمها كل الموسيقيين مجتمعين.

لا يمكنني أن أحضر، لأنني لا يمكنني أن أكذب على من في العمل لسببين فقط، إما بدافع الخوف (وإنها ميزة بالفعل من ميزات العمل، إنها ميزة تنتمي إلى من يعملون في هذا المكان، فأنا هناك أكذب أكاذيب غير مجهزة سلفًا، أكاذيب من القلب، أكاذيب ملهمة)، أو.... بدافع الضرورة الشديدة، ثملًا، لنفرض أن (إلزا كانت مريضة) إلزا، إلزا[63]، لست أنت يا ميلينا، إنك لا تسقطين مريضة، ذلك أن هذه ستكون ضرورة بالغة القسوة، ولن أتحدث عن هذا حتى مجرد الحديث) وعلى هذا فبدافع الضرورة يمكنني أن أكذب في الحال، ثم إنني لن أكون في حاجة إلى إرسال تلغراف. إن الضرورة من الممكن أن يصادفها المرء في مقر العمل، وفي هذه الحالة فإنني أرحل سواء أكان ذلك بتصريح أو بدون تصريح.، لكن في كل الأحوال، سيكون من بين الأسباب التي ستتوافر لديَّ للكذب، سبب أيضًا هو السعادة، إن ضرورة السعادة لهي السبب الأساسي، حيث لا يسعني هنا أن أكذب، لا يمكنني أن أفعل ذلك إلا بقدر ما يمكنني أن أرفع ثقلًا حديديًّا يزن 20 كيلو جرامًا. فلو أنني ذهبت إلى المدير بتلغراف «إلزا»، فإنه سوف يسقط بلا شك من يدي، ولو أنه سقط فلا شك أنني سأتجاوزها، سأتجاوز الكذبة، وبعد أن أفعل ذلك، فلا شك في أنني سأنطلق جريًا راجعًا، تاركًا المدير دون أن أسأله عن أي شيء. يجب عليك أن تتحققي يا

63يحتمل أن يكون هذا اتفاقًا تلغرافيًّا «إلزا مريضة» وقد تعني «احضر!».

ميلينا. إن مقر عملي ذاك ليس سوى مجرد مؤسسة غبية عتيقة (على الرغم من أنها كذلك، أيضًا، وأن هذه الصفة تتوافر لها على نحو بالغ، غير أن هذا ليس هو الموضوع. فهي في حقيقتها مؤسسة خيالية للغاية أكثر منها مؤسسة غبية). لكنها كانت هي حياتي حتى الآن، ولا يمكنني أن أنتزع نفسي بعيدًا عنها. ومع أن الأمر قد لا يبدو بالغ السوء على الرغم من ذلك، لكنها حتى الآن إنما هي حياتي، ولا يمكنني أن أعاملها بوضاعة، وأن أعمل أقل مما يعمل غيري (وهو ما يحدث)، وأن أتقبل العمل (وهذا ما يحدث)، وأن أنجح على الرغم من ذلك في أن أبدو مُهِمًّا (وهذا ما يحدث)، وأن أتقبل في تعاملي أعلى اعتبارات التقدير التي يمكن تصورها في مقر عملي ذاك، أن أتقبلها في هدوء على أنها حق لي، ـ لكن الكذب، ومن أجل أن أسافر فجأة كرجل حر طليق، وأنا لست في نهاية الأمر سوى مجرد موظف رسمي فحسب، أرحل إلى مكان ما، إلى حيث لا يوجد أي شيء آخر سوى (نبضات قلبي) الطبيعية التي تقودني ـ حسنًا، على هذا النحو، لا يسعني أن أكذب، لكن ثمة شيئًا أردت أن أقوله لك حتى من قبل أن أتسلم رسالتك ـ هو أنني بالفعل سأحاول هذا الأسبوع تجديد جواز سفري أو أن أحصل بدلًا من ذلك على تأشيرة على جواز سفري الحالي تفيد صلاحيته. وذلك حتى يمكنني أن أحضر في الحال، لو كان عليَّ أن أفعل ذلك.

إنني أتفحص هذا الذي كتبته. ولم أقصد في الحقيقة أن أكتبه على هذه الصورة، ومن الواضح أنني لست «قويًّا» ما دام أنني لم أكن قادرًا على أن أعبر عن ذلك كما ينبغي (ثمة شيء بالإضافة إلى ذلك: ربما كان من

الأصعب بالنسبة لي أن أكذب في مقر عملي على نحو أشد صعوبة مما يجده شخص ما (ومعظم الموظفين على هذه الحال) يؤمن بأنه يتعامل على نحو مجحف، ذلك أنه يعمل فوق طاقته ــ فلو كان لديَّ مثل هذا الاعتقاد فإنه على الأغلب لن يعني عندئذ سوى قطار سريع إلى ڤيينا ــ إن أي شخص يعتبر مكتب العمل مجرد آلة غبية دائرة ــ آلة عليه أن يديرها على نحو أفضل ــ آلة يعمل بها، نظرًا لغباء الإدارة في مكان غير مكانه الصحيح، فهو تبعًا لقدراته ينبغي أن يكون عجلة عليا ــ عليا وهكذا، لكنه هنا عليه أن يدير طاحونة مياه سفلى وهكذا، لكن بالنسبة لي وهذا ما كانت عليه المدرسة الابتدائية، والمدرسة الثانوية والجامعة، والأسرة وكل شيء — بالنسبة لي فإن (مكان العمل) هو شخص حي يتطلع إليَّ حيث أكون بعيونه البريئة، شخص أرتبط به على نحو ما لست أعرفه، على الرغم من كونه غريبًا بالنسبة لي أكثر من أولئك الناس الذين أسمعهم في هذه اللحظة يعبرون الميدان في سياراتهم. إنه غريب بالنسبة لي إلى درجة اللامعقول، إلا أن هذه الغربة نفسها تتطلب اعتبارات ما، إنني لا أكاد أبذل أدنى مجهود لكي أخفي حقيقة كوني غريبًا ــ لكن متى تتحقق مثل تلك البراءة من هذا — وباختصار: (لا يمكنني أن أكذب) لا لست قويًّا، ولا أستطيع أن أكتب، لا يمكنني أن أفعل شيئًا. والآن يا ميلينا، حتى أنت تستديرين مبتعدة عني، لن تبتعدي طويلًا، أعرف هذا، لكن تذكري أن إنسانًا لا يمكنه أن يعيش طويلًا بدون نبضات قلبه، فهل يمكنه أن ينبض ما دمت أنت بعيدة عني؟

فلو اتصلت بي برقيًّا بعد هذه الرسالة؟ إن هذا لهو تعجب أتعجب له فحسب، ذلك أنه ليس طلبًا أطلبه ـ فلو أنك استطعت أن تفعلي ذلك بمحض رغبتك، عندئذ فحسب قد تلاحظين أنني حتى لا أضع خطًّا تحت هذه الكلمات.

لقد نسيت مناسبة ثالثة يكون الكذب فيها ممكنًا لي: وذلك في حالة ما لو كنت أنت بجواري، ذلك أنها ستكون أكثر صور الكذب براءة في العالم، وذلك لأنه لن يكون هنالك شخص آخر سواك في مكتب المدير.

***

الأحد

مـا الـذي سـتقولينه ردًّا على رسـالة مسـاء السـبت، لسـت أعـرف، ولن أعرف لوقت طويل، والآن على أيـة حـال، فـإنني جـالس في المكتب في عملي ليـوم الأحـد (هي مؤسسـة غريبـة حيث يجلس المـرء هنـا أيضًـا وآخرون كثيرون في عملهم يوم الأحد، وهو عمل أقـل من المعتـاد، أمـا بالنسبة لي فالعمل كما هو بالنسبة لي دائمًـا). إن الجـو كـئيب، وأحيانًـا تحاول السماء أن تمطـر، وأحيانًـا مـا يضـايقني ضـوء السـحب في أثنـاء الكتابة، حسنًا، إن الجو تمامًا كما هو، حزين، وثقيـل، وعلى الـرغم من أنك قد كتبت تقولين إن لديَّ (تذوقًا للحياة) فـإنني اليـوم لا أكـاد أجـد لها طعمًا، ما الذي يحتفظون به لي — اليوم ليلة، واليوم يوم؟ أساسًا لقد حصلت عليه، وإن كان القليل منها (الحياة) يبدو مع ذلك (دائمًا تعـود مرة أخرى تلك الكلمة العزيـزة) على السـطح. وعلاوة على ذلـك فـإنني أحب نفسـي إلى هـذا الحـد القليـل. هنـا أجلس أمـام بـاب المـدير، إن المدير ليس موجودًا، لكنني لن أدهش لو أنه خرج فجأة وقال لي: «إنـني لست أحبك أنا أيضًا، وهذا ما أحب أن ألفت نظـرك إليـه»، وسـأقول لـه «شكرًا» إنني أريد أن أسمع هذا منك بفارغ الصبر فهو يلزمني لرحلة إلى ڤيينـا وسـوف يقـول: «هكـذا، الآن أنـا أحبـك من جديـد، وأسـحب ملاحظـتي» وسـأقول: «آه، الآن لا يمكنـني أن أقـوم بالرحلـة»، وسـوف يقول هو: «أوه ــ نعم، ذلـك أنـني مـرة أخـرى لا أحبـك، وإلى هـذا إنمـا ألفت نظرك» وهكذا ستظل القصة بلا نهاية…

في الليلة الماضية فكرت للمرة الأولى منذ أن أصبحت في براغ، حلمت بك، حلمًا استمر حتى الصباح، قصيرًا، وعميقًا، سوف أنال قسطًا من النوم بعد ليلة سيئة.

وأتذكر القليل من ذلك الحلم، لقد كنت أنت في براغ، وكنا نسير معًا في شارع فردينانـد في مواجهة (فيليميك) أو نحو ذلك، في اتجاه الميناء، وقابلنا على الجانب الآخر من الشارع بعض معارفك يسيرون في عكس اتجاهنا، واستدرنا بعد ذلك وتحدثت أنت عنهم، وربما كان ثمة حديث أيضًا قد تناول (كراسا)[64]. (إنه ليس في براغ هذا ما أعلمه، وسوف أسأل عن عنوانه)، ولقد تحدثت أنت على نحو عادي، لكن كان ثمة عنصر رفض خفي لا يدرك في حديثك، إنني لم أذكر ذلك، لكنني لعنت نفسي، وبذلك إنما أعلنت فحسب اللعنة التي حلت بي، ثم كنا في مقهى، لعله مقهى الاتحاد (لقد كان في طريقنا)، وإلى مائدتنا جلس رجل وفتاة لا أتذكرها على الإطلاق، ثم رجل يشبه دوستويفسكي تمام الشبه، لكنه أصغر سنًّا، ذو لحية وشعر أسود فاحم، كل شيء حتى الحواجب على سبيل المثال، وكان بناء عظم الوجه فوق العينين ناتئًا للغاية، ثم كنت أنت وأنا هناك، مرة أخرى لم يكن هناك ثمة ما يشي بهيئتك الرافضة، غير أن الرفض كان موجودًا. كان وجهك ـ لم يكن يسعني أن أشيح بعيني عن الغرابة المعذبة ـ مدهونًا بالبودرة، ولقد كانت البودرة مبالغًا فيها للغاية على نحو أخرق، وسيئ، وربما كانت أيضًا ساخنة، وهكذا كانت كل الأشكال التي صنعتها

64(هانز كراسا، الموسيقي الذي مات في أحد معسكرات التجميع).

البـودرة على وجنتيـك. إنـني مـا زلت أرى ذلـك أمـامي الآن. وانحـنيت المـرة بعـد المـرة إلى الأمـام لكي أسـألك لمـاذا وضـعت هـذه البـودرة؟ وعندما لاحظت أنت أنني على وشك أن أسألك عن ذلك، تساءلت أنت رغمًا عنك ـ لم يكن يمكن ملاحظة الرفض كما قد قلت ـ «مـا الـذي تريده؟» لكنني لم أستطع أن أتساءل، لم أجرؤ، في نفس الوقت، خمنت أنا على نحو ما أن وضع البـودرة ذاك كـان امتحانـًا لي، امتحانـًا حاسـمًا لي ـ ذلك أنني كان عليَّ أن أتساءل، أن أتساءل، ولقد قصدت أن أفعل، لكنني لم أجرؤ على هذا فقد تجاوزني الحلم الحزين، وفي الوقت نفسه كان الرجل الشبيه بدوستويفسكي قـد عـذبني هـو أيضـًا، فلقـد كـان في سلوكه نحوي شبيهًا بك، لكنه كان مختلفًا في سـلوكه ذاك إلى حـد مـا. وعندما سألته عن شيء ما، كان غاية في الرقة، والمشاركة، وانحـنى إلى الأمـام، كـان صـريحًا، لكنـني عنـدما لم أسـتطع أن أفكـر في شـيء آخـر أتسـاءل عنـه أو أقولـه ـ وهـذا مـا كـان يحـدث لي في كـل لحظـة ـ انسحب بـاهتزازة مـا، واسـتغرق في قـراءة كتـاب، ولم يعـد يـدري بـأي شيء آخر عن العالم وليس عني فقط، اختفى في شعر ذقنه وشـعر رأسـه ولست أدري لماذا لم أكن أحتمل ذلك، فالمرة بعد المـرة لم أسـتطع أن أحتمل ذلك، وكان عليَّ أن أجذب انتباهه إليَّ بسـؤال، غـير أنـني فقدتـه المرة بعد الأخرى بسبب غلطتي.

وكان لديَّ عزاء صـغير وحيـد، لا يجب أن تنكريـه عليَّ اليـوم، ذلـك أن (تريبونا)[65] كانت ملقاة أمـامي، ولم يكن عليَّ حـتى أن أشـتريها بنفسـي

65مجلة تشيكية أسبوعية شهيرة كانت ميلينا تكتب فيها ضمن آخرين.

خلافًا للتعليمات، فقد استعرتها من زوج أختي، لا — لقد أعارني إياها زوج أختي— أرجوك اسمح لي بهذه المتعة. في تلك اللحظة لم أكن مهتمًّا حتى بما كانت تحتويه. لكنني كنت أسمع الصوت، صوتي من خلال جحر العالم، اسمح لي بهذه المتعة، والمقالة كلها أيضًا، مقالة بالغة الجمال، لا أدري كيف حدث ذلك، قرأتها فحسب بعيني، فكيف عرف دمي ذلك في الحال، وحمله على الفور، وهو يحترق في داخله؟ ولقد كان مرحًا كذلك أيضًا.

إنني أنتمي إلى المجموعة الثانية بالطبع: هذا الثقل فوق القدمين هو ما أملكه غالبًا، وإنني لست مسرورًا على الإطلاق؛ لأن شئوني الخاصة قد نشرت. لقد قال شخص ما ذات مرة، إنني أسبح كالبجعة، غير أنها لم تكن مدحًا قولته تلك، وإن يكن لها تأثير أيضًا، إنني أشعر وكأنني مارد يمنع عنك الجمهور بعيدًا بذراعيه المفرودتين ـ ولقد مر به وقت عصيب، فلقد أراد أن يحجب الجمهور بعيدًا عنك، ولم يرد في الوقت نفسه أن يفقد كلمة واحدة، أو لحظة واحدة من وجودك ـ ربما كان هذا جنونًا، وغباء مطبقًا، أما ما هو أكثر من ذلك، فإنها جماهير النساء اللاتي يصحن بلا شك: «أين هي الموضة؟» ألن تظهر «الموضة»؟ إن ما قد رأيناه إلى أبعد مدى للرؤية لم يكن سوى «ميلينا» فحسب! فقط، وعلى هذه (الفقط) إنما أعيش أنا، أما بقية الدنيا فإنني آخذها كما أخذ مونشهاوزن مدافع جبل طارق، وألقى بها في خضم البحر الهائل، ماذا؟ كل ما يتبقى؟ واقتراف الكذب؟ أنت لا يمكنك أن تكذب في مقر العمل؟ حسنًا، ها أنذا أجلس هنا. إن الجو لكئيب كما كان من قبل،

وغداً لن تكون ثمة رسالة، وسيكون الحلم هو آخر ما يصـلني عنـك من أنباء.

***

حسنًا، أسرعي، ذلك هو ما في الإمكان، إننا نحصل على هذه الإمكانية كل أسبوع، فتصوري أن ذلك لم يعن لي من قبل! بالطبع، يجب عليَّ قبل كل شيء أن أحصل على جواز السفر، وليس هذا بالسهولة التي تتصورينها، وبدون (أوتلا)[66] سيكون ذلك مستحيلًا على الأغلب: سأرحل من هنا بعد ظهر السبت بالقطار السريع، وأصل في حوالي (غدًا سأستفسر عن الوقت المحدد للوصول) الثانية صباحًا إلى ڤيينا، وفي تلك الأثناء ستكونين أنت قد اشتريت تذاكر قطار الأحد السريع إلى براغ يوم الجمعة، وتتصلين بي برقيًّا لتخبريني بأنك قد حصلت على هذه التذاكر، وبدون هذه البرقية لن يمكنني أن أغادر براغ، وسوف تلتقين بي على المحطة، وسيكون أمامنا أكثر من أربع ساعات نقضيها معًا، وفي الساعة السابعة من صباح الأحد أرحل ثانية.

وعلى هذا، فهذا هو ما في إمكاننا، قليل من الحزن، لكي نحصل فقط ساعات أربع ليلية مرهقة معًا (وأين؟ في فندق بالقرب من محطة فرانتس- يوزيف؟)، لكنها مع ذلك إمكانية قد يمكن تحسينها تحسينًا كبيرًا- لكن هل هذه الإمكانية موجودة بالفعل؟- بحضورك إليَّ لنلتقي في جموند، ونقضي فيها الليل. إن جموند مدينة نمساوية — أليست كذلك؟ وعلى هذا فأنت لست في حاجة إلى جواز سفر. سوف أصل إلى هناك في حوالي العاشرة مساء، وربما أصل إليها قبل ذلك،

66شقيقة كافكا التي لعبت دورًا مهمًا في حياته.

وأغادرها يوم الأحد بالقطار السريع (أظن أنه من الممكن أن يجد المرء مكانًا يوم الأحد بالقطار) في الساعة الحادية عشرة صباحًا. وربما لو كان ثمة قطار ركاب مريح فيما بعد، فأغادر جموند إذن فيما بعد. وإنني لأتساءل من ناحية أخرى كيف ستصلين أنت إلى هناك، وكيف ستعودين، أخشى أنني لا أعرف كيف سيتم لك ذلك.

حسنًا، ماذا تظنين في ذلك؟ من الغريب أن أسألك الآن، بينما أنا أتحدث إليك طوال اليوم.

عنوان (كراسا) هو — مارينباد، فندق شتيرن.

***

الإثنين

حسنًا، لم تكن البرقية هي الرد، لقد كان الرد هـو رسـالة مسـاء الثلاثـاء، وعلى هذا فقد كان ثمـة جـزاء لمـا عانيتـه من أرق، وثمـة عـزاء للحـزن المحض الذي عانيته هذا الصباح، هـل زوجـك على علم بـأمر (انبثـاق الدم)؟، لا يجب على المرء أن يهول المسألة، فلعل الأمر ألا يكـون أمـرًا ذا بال، ذلك أن الدم ينبثق لأسباب متعددة، إلا أنه دم على أية حال، ولا يمكن للمـرء أن ينسـى ذلـك، وأنت بـالطبع تعيشـين حياتـك البطوليـة المرحة باندفاع في اتجاه انبثـاق الـدم ذاك، إنـك تعيشـين كمـا لـو كنت تغرين الـدم بالانبثـاق، كأنـك تقـولين لـه: حسـنًا، انبثـق إذن، لتنبثـق في نهاية الأمر!، وعندئـذ بـالطبع ينبثـق الـدم. أمـا مـا يمكنـني أن أفعلـه هنـا فيبدو وكأنه لا يعنيك بالمرة، وأنت لست (طفلة) بالطبع وتعـرفين مـاذا تفعلين، لكنك تريدينني أن أقف في مكاني هنا على شـاطئ بـراغ، بينمـا أنت تغـرقين عامـدة أمـام عيـني في بحـر ڤيينـا. وإذا لم يكن لـديك مـا تأكلينه أفلست هذه حاجة (في حد ذاتها)؟ أم تظنين أن هذه حاجتي أنـا أكثر مما هي حاجتك؟ حسنًا، إنـك على حـق إذن، وأنـا لن أكـون قـادرًا لسوء الحظ على أن أرسل لك نقودًا بعد ذلك، إنني سأذهب في الظهيرة إلى المنزل لكي أضع النقود عديمة النفع في موقد المطبخ.

وعلى هذا فيبدو أننا قد انفصلنا تمامًا يا ميلينا كل في ناحيـة، ويبـدو أن الشـيء الوحيـد الـذي نتقاسـمه هـو الرغبـة الشـديدة في أنـك يجب أن تكوني هنا، وأن وجهك ينبغي أن يكون في مكان ما أقرب مـا يكـون إلى

وجهي. لكن الرغبة في الموت، نحن بالطبع نتقاسمها معًا هي أيضًا، تلك الرغبة في موت مريح، على أن هذه الرغبة لهي بالفعل تلك الرغبة التي يرغب فيها الأطفال الصغار؛ مثلي في طفولتي، على سبيل المثال، عندما كنت قد رأيت المدرس في أثناء حصة الرياضيات، في مكانه هناك يقلب صفحات كراسة مذكراته ربما، بحثًا عن اسمي، وقارنت أنا افتقاري إلى المعرفة، ذلك الافتقار الذي لا يتصوره عقل، بذلك المشهد الذي يمثل القوة والرعب، والحقيقة فلقد رغبت لخوفي في شبه حلم، في أن يكون في استطاعتي أن أنهض من مكاني كشبح، وأن أندفع كما يندفع الشبح وسط المقاعد، ثم أنطلق طائرًا مبتعدًا عن المدرس بخفة كتلك الخفة التي تتميز بها معلوماتي في الرياضيات، وأنسحب على نحو ما خارجًا من الباب، وفي الخارج ألم شتات نفسي لأصبح حرًّا في الهواء الحبيب، هواء العالم كله ذلك الذي لا أجهله، ذلك الهواء الذي لا يعرف أشكال التوتر تلك التي تحتويها حجرة الدراسة، نعم كم كان ذلك ليبدو «مريحًا» غير أن الأمر لم يجر على هذا النحو. فقد نودي عليَّ وكُلفت بأداء واجب ما، كان حله يحتاج مني إلى كتاب اللوغاريتمات، وكنت قد نسيت كتاب اللوغاريتمات، لكنني كذبت قائلًا إنه موجود بداخل درجي (لأنني ظننت أن المدرس سيعيرني كتابه)، لكنه أرسلني إلى مكاني لكي أحضره، ولاحظت بنذير حقيقي (لم يسبق لي أن أحسست في المدرسة مطلقًا بنذير زائف) أنه لم يكن موجودًا! وناداني المدرس قائلًا (كنت قد قابلته أمس الأول): «أنت أيها التمساح» وأردفها في الحال بكلمة: «البائس». وكانت تلك

الكلمة بالفعل قد أراحتني، ذلك أنني كنت قد استقبلتها فحسب كتقرير شكلي، ومناف للعدل؛ علاوة على ذلك (فمع أنني كنت قد كـذبت، إلا أن أحـداً، لم يكن في وسـعه أن يثبت ذلـك، فهـل يعـد هـذا مجانبًـا للعدل؟) لكن بالإضافة إلى ذلـك كلـه لم يكن لي أن أكشـف عن جهلي المخجل، وعلى هذا فقد كان هذا أيضًا بالإضـافة إلى الموقـف بأكملـه (مريحًا) تمامًـا، وقـد أوضـح أن المـرء يمكنـه في الظـروف الملائمـة أن «يختفي» في داخـل الحجـرة نفسـها، وأوضـح أن الإمكانيـات اللازمـة لذلك هي إمكانيات لا محدودة، وأن للمرء أن «يمـوت» حـتى، وهـو مـا يزال على قيد الحياة.

(بالقلم الأزرق عـبر هـذه الكتابـة، وعلى الصـفحة السـابقة): إنـني أثرثـر على هذا النحو فقـط لأنـني، على الـرغم من كـل شـيء، أحس التحسـن بقربك.

إمكانية واحدة فقـط لا وجـود لهـا، ويتضـح ذلـك فـوق ثرثـرتي كلهـا ـــ وهي إمكانية أن تدخلي أنت في هذه اللحظة، وتكوني هنا، ونناقش معًـا بصورة شاملة مسألة شفائك! إن مجرد تحقق هذه الإمكانية ستكون هي أشد الأمور إلحاحًا.

كنت قد قصدت اليوم أن أخبرك بأشياء كثيرة قبل أن أقرأ الرسائل، لكن ماذا يمكن للمرء أن يقول عندما يواجه (الدم)؟. أرجوك أن تخبريني في الحال، بما قاله الطبيب، وما نوع شخصية ذلك الطبيب؟

أنت تصفين الندم الذي يتعلق بمحطة السكة الحديدية وصفًا خاطئًا، فأنا لم أتردد لدقيقة واحدة، بل كان كل شيء طبيعيًّا للغاية، وحزينًا، وجميلًا، وكنا وحدنا تمامًا، حتى أنه قد بدا مضحكًا إلى حد لا يكاد يصدق كيف نهض الناس (الناس الذين لا وجود لهم في نهاية الأمر) فجأة بأسلحتهم مطالبين بأن ترفع الحواجز عن الرصيف.

لكن في مواجهة الفندق، كان الأمر حقًّا كما تقولين. كم كنت أنت جميلة هناك! ربما لم تكوني أنت على الإطلاق تلك التي كانت هناك؟ ذلك أنه ليبدو غريبًا بالفعل لو أنك كنت قد نهضت مبكرة على ذلك النحو. لكن لو لم تكوني أنت، فكيف عرفت عن ذلك الأمر كل هذا؟

***

الإثنين

فيما بعد أوه، وعلى هذا فهذه الكمية الكبيرة من المستندات قد وصلت الآن لتوها. ثم من أجل ماذا تراني أعمل، أعمل برأس لم تذق للنوم طعمًا فوق هذا كله! لأي هدف؟

أمن أجل موقد المطبخ.

ويجيء الآن فوق هذا كله دور الشاعر، الشخص الأول، إنه هو أيضًا حفار على الخشب، ورسام حفار، وهو لن يرحل، وهو إلى هذا الحد مفعم بالحياة حتى أنه ليلقي إليَّ بكل شيء ويراني أرتعش لنفاد صبري، كما ترتعش يداي فوق هذه الرسالة، إن رأسي ليستلقي بالفعل على صدري، وهو لا يرغب في الرحيل، إن الصبي المفعم بالحياة، السعيد، التعس الذي يعد استثناء، إلا أنه الآن بالذات ليس سوى ضوضاء مريعة بالنسبة لي، و.... ينبثق الدم من فمك!

ونحن نكتب كلانا بالفعل نفس الأشياء طوال الوقت، أسألك في مرة عما إذا كنت مريضة، ثم تكتبين لي عن ذلك، وفي حين آخر أكتب لك عن رغبتي في الموت، ثم أريد الآن أن أصرخ أمامك كطفل صغير، وأنت أيضًا تريدين أن تصرخي أمامي كطفلة صغيرة، ومرة، ومرات عشر، وألف مرة، وطوال الوقت أريد أن أكون معك، وأنت تقولين نفس الشيء، كفى... كفى...

ومـا أزال لم تصـلني رسـالة عمـا قالـه لـك الطـبيب، أنت أيتهـا العربـة البطيئـة، أنت أيتهـا الكاتبـة السـيئة للرسـائل، أنت أيتهـا المشـاغبة، أنت أيتها العزيزة، أنت — حسنًا، ماذا بعـد؟ لا شـيء سـوى أن أسـتلقي هادئًا على صدرك.

***

سوف أكون كاذبًا إذا لم أكن بسبيلي لأن أقول أكثر مما قلته في رسالة الصباح هذه، خاصة لك، من يمكنني أن أتحدث إليها بحرية لا يمكنني أن أتحدث بها إلى أحد سواك، ذلك أن أحدًا سواك لم يضع نفسه في مكاني بكل ذلك التفهم، وبكل تلك الرغبة كما فعلت أنت، على الرغم من كل شيء. افصلي تلك ال (على الرغم من كل شيء) الهائلة، لتمييزها عن تلك ال (مع ذلك) الهائلة.

إن أجمل رسائلك كلها (وذلك يعني أن الكثير منها رسائل جميلة، ذلك أنها جميلة كلها تقريبًا في مجملها، في كل سطر من سطورها،.إنها أكثر ما صادفني من أشياء جميلة في حياتي كلها) هي تلك الرسائل التي توافقينني فيها على خوفي، وتحاولين في الوقت نفسه أن تفسري لي أنني لست في حاجة إلى أن أكون خائفًا إلى هذا الحد. ذلك أنني أيضًا، حتى ولو كنت أبدو في بعض الأحيان وكأنني مدافع مرتش عن (خوفي)، ربما أوافقك على ذلك في أعمق أعماقي، إن خوفي حقًّا لهو جزء مني، وربما كان هو أفضل الأجزاء، وبما أنه أفضل أجزائي، فربما كان أيضًا هو ذلك الجزء الوحيد الذي تحبينه فيَّ، وإلا فما هو الذي يستحق الحب غير ذلك ويمكن أن يوجد لديَّ، لكن ذلك هو ما يستحق الحب.

وعندما سألتني أنت ذات مرة كيف أمكنني أن أعد يوم السبت ذاك «يومًا طيبًا» مع ذلك الخوف الذي في قلبي، لم يكن من الصعب عليَّ

أن أفسر لك ذلك ما دام أنني أحبك (وإنني لأحبك بالفعل، أنت أيتها الحمقاء، كما يحب البحر حصاه الذي في أعماقه، تلك هي الكيفية التي بها يغرقك حبي تمامًا)، ـ فهل لي بدوري أن أكون الحصاة بالنسبة لك، لو تسمح السماء؟، إنني أحب الدنيا كلها، ويشمل ذلك كتفك الأيسر أيضًا «لا» لقد كان هو كتفك الأيمن في البداية، وأنا أقبله لهذا عندما أحس رغبة في ذلك (فماذا لو تبلغ بك الطيبة حدًّا تجعلك تكشفين عنه البلوزة)، ويشمل ذلك أيضًا كتفك الأيمن ووجهك فوقي في الغابة، واستنادي إلى صدرك الذي يكاد يكون عاريًا تمامًا، وهذا هو السبب في أنك محقة في قولك بأننا كنا بالفعل شخصًا واحدًا، وأنني لست خائفًا من كوننا شخصًا واحدًا، بل إنها لسعادتي الوحيدة وإنه لزهوي الوحيد، وإنني لا أحد ذلك مطلقًا بحدود الغابة وحدها.

غير أنه بالذات بين (يوم الدنيا) ذاك، وتلك (النصف ساعة في الفراش)، تلك التي قلت عنها ذات مرة باحتقار إنها (أمور الرجال)، بينهما إنما تكمن بالنسبة لي هوّة لا يمكنني أن أجتازها ربما لأنني لا أريد ذلك. ذلك أن ثمة ما يتعلق بالليل فوق هذه الهوة، بالشمول، وبكل المعاني التي تتعلق بالليل: فها هو العالم هنا وإنني لأمتلكه، ومن المقدر لي أن أقفز عبره إلى الليل لكي أمتلكه مرة أخرى، فهل يمكن لامرئ أن يتملك أي شيء مرتين؟ أليس معنى هذا أن يفقده؟ ها هو العالم الذي أمتلكه هنا، وقد يتهيأ لي أن أقفز عبره سعيًا إلى سحر شيطاني أسود، إلى الشعوذة، إلى حجر الفلاسفة، إلى السيمياء

(الكيمياء الخرافية)، إلى خاتم الأماني، سحقًا لها جميعًا؛ إنني أخافها أشد الخوف.

وأن يحاول المرء، ويتلبسه السحر الأسود ذات ليلة، بسرعة وبأنفاس ثقيلة، وبلا حيلة وفي ذهول، أن يحاول الحصول بواسطة السحر الأسود على ما يقدمه كل نهار للعيون المفتوحة! «ربما» لم يكن للأطفال أن يولدوا بطريقة أخرى، «وربما» كان الأطفال سحرًا أسود هم أيضًا. دعينا ندع جانبًا هذه المسائل الآن. هذا هو السبب في أنني أشعر بالامتنان إلى هذا الحد (لك ولكل شيء) وطبيعي لهذا أنني أشعر (إلى جوارك) بالهدوء البالغ، وأشعر بالقلق البالغ، أشعر بغاية الاستقرار، وبكل الحرية، وهذا هو السبب أيضًا في أنني بعد هذا التحقق قد نبذت كل أشكال الحياة الأخرى، فلتتطلعي إذن في عيني!

إذن فقد كان ينبغي على السيدة ك. أن تخبرني بأن الكتب قد انتقلت من المنضدة الجانبية إلى المكتب. لا شك في أنه كان من الواجب استشارتي أولًا عمَّا إذا كنت أوافق على هذا التغيير ولقد كنت سأقول. لا!

وليكن لي امتنانك الآن، ذلك أنني قد كبَت بنجاح رغبتي في أن أضيف شيئًا أحمق إلى هذه السطور الأخيرة (شيئًا غيورًا بحماقة). لكن يكفي هذا وأخبريني الآن عن إميلي.

***

۱۳۹۵

مساء الإثنين

إن الوقت يعد متأخرًا الآن بالفعل، بعد يوم كان إلى حد ما كئيبًا على الرغم من كل شيء، وقد لا تصلني رسالة منك غدًا، ولقد تسلمت رسالة السبت، ورسالة كتبت يوم الأحد يمكن أن تصل فقط بعد الغد، وعلى هذا سيكون اليوم خاليًا من التأثير المباشر لرسالة من رسائلك: كم هو غريب أن تذهلني رسائلك يا ميلينا، لقد أحسست لمدة أسبوع أو أكثر أن شيئًا قد حدث لك، شيئًا مفاجئًا، أو على مراحل، شيئًا أساسيًّا، أو عرضيًّا، شيئًا واضحًا، أو مجرد نصف واع، المهم أن شيئًا ما هنالك، وهذا ما أثق في وجوده. لا يمكنني إلى حد بعيد أن أكتشف ذلك الشيء من التفاصيل التي تملأ الرسائل، على الرغم من أن هناك مثل هذه التفاصيل أيضًا، أما عن حقيقة أن رسائلك تمتلئ بالذكريات (وإنها لتمتلئ بكل الذكريات الخاصة)، ومن حقيقة أنه على الرغم من أنك تجيبين على كل شيء كالعادة، لكنك لا تجيبين تمامًا على كل شيء، وإنك لحزينة بلا سبب، وتحاولين أنت ترسليني إلى (دافوس)، وأنك فجأة بهذه الصورة تريدين هذه المقابلة (لقد تقبلت في الحال نصيحتي لك بألا تحضري إلي هنا، ولقد صرحت بأن ڤيينا لا تصلح للقاء، ولقد كتبت لي بأننا لا ينبغى لنا أن نلتقي قبل رحلتك، وهذا التسرع الآن في رسالتين أو ثلاث رسائل)، ينبغي لي أن أكون في غاية السعادة لهذا التسرع، لكنني لا أستطيع أن أكون كذلك، ذلك أنه في

مكان ما من رسائلك يوجد خوف غامض، لست أدري ما إذا كان ذلك الخوف خوفًا عليَّ أو خوفًا مني.

وهناك خوف أيضًا في هذه المفاجأة، وذلك التسرع اللذين بهما تريدين هذا اللقاء، وأنا على أية حال في غاية السرور لأنني قد وجدت إمكانية ما، وأنه من المؤكد أنها إمكانية، ألن يكون في مقدورك أن تقضي ليلة خارج ڤيينا، من الممكن أيضًا أن يتم ذلك لو أننا ضحينا معًا ببضع ساعات تأخذين قطار يوم الأحد السريع إلى جموند في حوالي الساعة السابعة صباحًا (كما فعلت أنا في ذلك الوقت)، وتصلين إلى هناك في الساعة العاشرة صباحًا، وسوف أقابلك. ولما كنت سأرحل فقط في الرابعة والنصف مساءً، فيكون أمامنا ما تزال ست ساعات نقضيها معًا، ثم تأخذين بعد ذلك قطار الليل السريع عائدة إلى ڤيينا، فتبلغينها في الحادية عشرة والنصف، رحلة قصيرة ليوم الأحد.

وإليك السبب في أنني لا أشعر بالراحة، أو أنني بالأحرى لا أشعر بانعدام الراحة. فكم هي هائلة طاقتك. وبدلًا من كوني أشعر بالمزيد من انعدام الراحة الذي يتجاوز راحتي القلقة، سببه أنك، في صمت، تلزمين الصمت، فيما يتعلق بأمر ما، أو أن عليك أن تبقي صامتة، أو أنك تبقين صامتة سهوًا، وعلى هذا فبدلًا من أن أصبح أكثر قلقًا لهذا السبب، فإنني أبقى هادئًا. فكم هي هائلة ثقتي فيك على الرغم من حالاتك التي تتبدين عليها. فلو ظللت صامتة بخصوص أمر ما، فإن هذا الصمت أيضًا سيكون صوابًا، فيما أعتقد. لكنني بعد، لسبب آخر، سبب حقيقي، وغير عادي، أبقى هادئًا تجاه هذا كله. إن لك طورًا غريبًا (وأظن أنه

يكمن عميقًا في طبعك، وأنه «لخطأ الآخرين» إن لم يحدث طورك الغريب هذا فعله في كل مكان) طورًا غريبًا لك لم أعثر بعد على مثيل له لدى أي شخص آخر، وإنه لهو حقًّا هذا الطور الغريب، الذي رغم أنني قد عثرت عليه هنا، إلا أنني لا يمكنني في الحقيقة أن أتصوره. إنها لغرابة طورك التي تتمثل في كونك غير قادرة على أن تتسببي في أن يعاني أحد، ولا يكمن دافع الشفقة وراء عدم قدرتك على التسبب في دفع الناس إلى المعاناة، لكن السبب هو أنك غير قادرة على أن تفعلي ذلك، لا.

إن ذلك شيء خيالى! ولقد أنفقت فترة ما بعد الظهيرة كلها وأنا أفكر على الأغلب في ذلك، لكنني الآن لا أجرؤ على أن أدون أفكاري. ولعل الأمر كله لا يزيد في كثير أو قليل على أن يكون مجرد علة واضحة الإخفاق تتضمن رغبتي في أن أضمك إلى أحضاني.

والآن إلى الفراش، وإنني لأعجب ماذا تراك تفعلين الآن في الساعة الحادية عشرة، مساء؟

***

وهكذا عليك بالقليل من المعرفة البشرية، يا ميلينا. لقد قلت هذا دائمًا، لتكن إلزا مريضة، ربما أمكن هذا، وربما تمكن المرء لهذا السبب من أن يحضر إلى ڤيينا ـ لكن العمة كلارا مريضة (للغاية)؟ هل تتصورين أنني يسعني بصرف النظر عن كل اعتبار آخر، أن أذهب إلى المدير لأخبره ـ دون أن ينتابني الضحك، عن العمة كلارا (طبعًا، وإنك لتظهرين في هذا شيئًا من المعرفة بالطبيعة البشرية، طبعًا فيما يتعلق بأمر اليهود فإن لكل منهم عمة كلارا، لكني عمتي أنا كلارا قد ماتت، منذ وقت طويل)، وعلى هذا فإن هذه الفكرة مستحيلة تمامًا، ولا نحتاجها لحسن الحظ بعد الآن. فدعيها تموت، فهي ليست وحدها في نهاية الأمر، ذلك أن أوسكار معها، ومن هو أوسكار، من ناحية أخرى؟، إن العمة كلارا هي العمة كلارا، لكن من هو أوسكار؟ على أية حال، إنه معها، فدعينا نأمل في ألا يسقط مريضًا هو أيضًا، ذلك المنقب في أحراش التراث[67]!

رسالة بعد هذا كله، ويا لها من رسالة! إن ما قلته لك في البداية ليس صحيحًا بالنسبة لرسائل المساء، لكن هذا الاضطراب (كما قلت: الهدوء)، ما إن يوجد ذات مرة، فإنه لا يمكن إقصاؤه، ولا حتى بهذه الرسائل.

---

67 كانت ميلينا قد اقترحت فيما يبدو أنها ستبرق قائلة: العمة كلارا مريضة للغاية فاحضر في الحال يا أوسكار.

كم هو طيب أننا سيرى أحدنا الآخر! ولعلني أبرق إليك غدًا أو بعد غد، (لقد ذهبت أوتلا لإعداد جواز السفر)، بما إذا كان في وسعي أن أحضر إلى جموند هذا السبت (الوقت متأخر بالفعل للغاية بالنسبة لقيينا هذا الأسبوع، ذلك أنه كان ينبغي أن يكون قد تم حجز تذكرة السفر بقطار السبت السريع)، ردي عليَّ برقيًّا، إذا كان يسعك أن تحضري أنت أيضًا. أرجوك أن تذهبي إلى مكتب البريد في المساء أيضًا، حتى يمكنك أن تحصلي على البرقية في الحال، إنها ستكون كما يلي: «إنني سأرسل برقية أقول فيها «مستحيل» ومعنى هذا أنني لا يمكنني أن أحضر هذا الأسبوع، في تلك الحالة لن أتوقع منك ردًّا بالبرق، وسوف نناقش البقية عن طريق الرسائل (بالنسبة للأسابيع الأربعة المقبلة سوف يعتمد اللقاء بالطبع على المكان الذي ستذهبين إليه في الريف، فربما رحلت بعيدًا عن المكان الذي سأذهب إليه ـ حسنًا، عندئذ لن يتمكن أحدنا من رؤية الآخر لمدة شهر) أو أنني سأرسل برقية بدلا من ذلك قائلا: «هل يمكن أن يكون السبت في جموند»، على هذا سأتوقع ردًّا إما ب «مستحيل»، أو ب «سيكون السبت في جموند» أو «سيكون الأحد في جموند»، في الحالتين ستكون المشكلة قد تم حلها، وسوف لا تتطلب أية برقيات علاوة على ذلك، وسوف نرحل كلانا متجهين نحو جموند، ونرى أحدنا الآخر هذا السبت أو الأحد. إن هذا كله يبدو في غاية البساطة.

لا، بل لكي أؤكد لك أن برقيتك قد وصلتني، فسوف أنوه بها، ساعتان على الأغلب قد ضاعتا، وكان عليَّ أن أضع الرسالة جانبًا، لقد كان

(أوتـو- بيـك) هنا[68]، إنـني مرهـق، مـتى سـيرى أحـدنا الآخـر؟ لمـاذا انقضت ساعة ونصف ولم يسمع المرء اسمك يتردد سوى ثلاث مرات فقط؟ أين أنت؟ على الطريق إلى القرية، أين يوجـد الكـوخ؟ إنـني أيضًـا في طريقي إلى هناك، إنها لرحلة طويلة، لكن أرجـوك ألا تـرهقي نفسـك بهذا الشأن، ومهمـا حـدث فإننـا في طريقنـا، ولا يمكن للمـرء أن يفعـل سوى أن يبدأ في الرحيل.

***

68شاعر من براغ: ومحرر جريدة براغ، وصديق قديم من أصدقاء كافكا.

الثلاثاء

أين هو الطبيب؟ إنني أفتش في الرسالة دون أن أقرأها لمجرد أن أعثر على اسم الطبيب فيها، أين هو؟ إنني لست نائمًا. لست أقصد أن أقول إن هذا هو السبب في أنني لست نائمًا، الناس العاديون الذين لا يحسون الموسيقى لا تسلبهم الهموم الحقة نومهم كما تسلبهم إياها أمور أخرى، ومع ذلك فإنني لم أنم، هل الرحلة إلى ڤيينا قد مضى عليها الآن وقت طويل؟ وهل أنا أوفي حظي تقديرًا زائدًا عن حقه؟ وهل اللبن والزبد والسلطة سيئة؟ وهل أحتاج حقًّا إلى غذاء هو مجرد وجودك؟ ربما لا يكون السبب شيئًا من هذا كله ولكن الأيام ليست مبهجة. وعلاوة على ذلك، فلم يتح لي حسن الطالع لمدة ثلاثة أيام حتى الآن أن أنعم بخلو الشقة، إنني أعيش في المنزل (إن هذا هو أيضًا السبب في أنني تسلمت البرقية في الحال). ربما لم يكن خلو الشقة هو الذي يوفر لي هذه الراحة، أو لعله على الأقل ألا يكون هو أول الأسباب، بل لعل امتلاك شقتين إحداهما للنهار. والأخرى أكثر بعدًا عنها أخصصها للأمسيات والليل، هل تدركين هذا؟ إنني لا أفهمه أنا نفسي، إلا أنه لكذلك.

نعم الدولاب، ربما سيكون هو الموضوع الوحيد لقتالنا الأول، وقتالنا الأخير، فسوف أقول: «دعينا نلقيه خارجًا» وسوف تقولين: «يجب أن يبقى في مكانه» وسوف أقول:»عليك أن تختاري أحدنا أنا أو

الدولاب»؛ وستقولين في الحال: «فرانك وشرانك»[69] ذلك أن اللفظتين تحققان إيقاعًا ما. إنني أختار الدولاب، وسأقول:

«حسنًا» وفي تثاقل، أهبط الدرج (أي درج؟) وإذا لم أكن قد وجدت قناة الدانوب، فسوف أبقى اليوم على قيد الحياة.

وإنني في الحقيقة، لأقف كلية في صف الدولاب، فقط لا ينبغي لك أن ترتدي ذلك الثوب، ذلك أنك سوف ترتدينه حتى يستحيل مزقًا، وما الذي سيبقى لي عندئذ؟

غريب، ذلك القبر، لقد بحثت بالفعل عنه في ذلك المكان، لكنني فعلت ذلك في وجل، وبدلًا من ذلك وجدتني في ثقة هائلة أقترب أكثر فأكثر. وأخيرًا درت دورات واسعة حوله، لأجدني في نهاية الأمر قد قصدت مقصورة مختلفة كلية، ظننتها هي القبر المقصود.

إذن فسترحلين، وأنت لم تحصلي بعد على جواز سفرك أيضًا، (وبهذا يكون التأكيد لي بأنك ستأتين في حالة الضرورة فورًا) فهل ما زلت تتوقعين مني الآن أن أنام؟

والطبيب؟ أين هو؟ ألم يعد له هنالك وجود بعد؟

لم توجد أية طوابع خاصة (بمجلس النواب)، لقد ظننت أنا أيضًا أنها لا بد أن توجد، وقد وصلتني اليوم لخيبة أملي البالغة طوابع (مجلس النواب)، إنها طوابع بريد عادية فوقها علامة (المجلس) البريدية، وهي حتى بحالتها هذه وبسبب هذه العلامة البريدية وحدها، كان من

69لفظة دولاب بالألمانية.

المفروض أن تكون ذات قيمة ما، إلا أن هذا ما قد لا يدركه الصبي. وسوف أضمن كل رسالة طابعًا واحدًا في كل مرة، أولًا نظرًا لقيمة هذه الطوابع، وثانيًا، لكي يصلني سطر يعرب لي عن الشكر كل يوم.

ترين أنك في حاجة إلى رأس، لماذا لم نستفد أكثر من وقتنا في ڤيينا؟ لماذا، لماذا لم نقض وقتنا كله في (فندق المحطة)؟ لقد كان وقتنا رائعًا هناك، وكنا جد قريبين أحدنا من الآخر؟ وآمل ألا تكوني قد قرأت فكاهاتي السخيفة للدولاب بصوت مرتفع؟ فأنا أحب في نهاية الأمر كل شيء في غرفتك، أحبه إلى درجة الشرود.

والطبيب؟

وهكذا فأنت غالبًا ما ترين جامع الطوابع البريدية؟ ليس هذا تساؤلًا خبيثًا، على الرغم من أنه يبدو كذلك. فعندما لا ينام المرء نومًا طيبًا، فإن المرء ليتساءل الأسئلة دون أن يدري عن ذلك شيئا، ويود المرء لو يظل يتساءل إلى الأبد. إن انعدام النوم لا يعني شيئًا سوى التساؤل: فلو أن المرء حصل على إجابة لنام.

وهذا التصريح بانعدام المسئولية الأخلاقية هو حقًّا غاية في السوء، آمل أن تكوني قد حصلت على جواز السفر؟

***

الثلاثاء

رسالة أحد أيام الجمعة: إذا لم يكن ثمة شيء قد تمت كتابته في يوم الخميس، فليكن إذن، ما دام أن شيئًا لم يفقد.

إن ما كتبته عني أراه غاية في المهارة، ولست أريد أن أضيف شيئًا، فليبق ما كتبته كما هو تماما دون أن يُمس، شيء واحد فقط، يتضمنه هو أيضًا ما قد كتبته، وهو ما أود أن أقرره بمزيد من الوضوح إلى حد ما: ذلك أن سوء حظي هو أنني أعتبر كل البشر، وفوق الكل بالطبع هؤلاء الذين يبدون لي أكثرهم سموًّا ـ أعتبرهم جميعًا طيبين، بعقلي وبقلبي أراهم جميعًا طيبين (وقد دخل الآن للتو رجل، كان مذعورًا، ذلك أنني شكلت في الفراغ وجهًا يعكس هذا الرأي)، جسدي فقط لا يمكنه إلى حد ما أن يقتنع بأنهم حقًّا يمكنهم عند الضرورة أن يكونوا طيبين. إن جسدي خائف، ولا يمكنه أن ينتظر (بهذا المعنى) نتيجة اختبار انعتاق العالم الحق، ويفضل أن يزحف في بطء على الحائط.

إنني بسبيلي مرة أخرى، في ليلة أخيرة، إلى تمزيق الرسائل. إنك غاية في التعاسة من أجلي، ولعل ثمة أشياء أخرى تسهم في ذلك، ذلك أن كل الأشياء تؤثر في بعضها البعض، فلتقوليها إذن بصراحة المرة بعد المرة، لأن ذلك لا يمكن أن يتم بالطبع دفعة واحدة.

ذهبت بالأمس لزيارة الطبيب، وعلى عكس توقعاتي لم يبين لي، لا هو ولا الموازين التي يستخدمها إن كنت قد تحسنت، كما لم يبينوا لي من

ناحية أخرى أنني قد ازددت سوءًا أيضًا، لكنه يظن أنني يجب أن أرحل، وعند ذكر جنوب سويسرا، التي أدرك في الحال بعد توضيحي أنها مستحيلة، أوصى للتو، دون أي تأثير من جانبي بمصحتين في جنوب النمسا باعتبارهما أفضل المصحات، مصحة (جريمنشتاين) (دكتور فرانكفورتر)، ومصحة (فاينر فالد) (غابة ڤيينا)، مع أنه لم يكن يعرف وقتها العناوين البريدية لا لهذه ولا لتلك، فهل يمكنك إذا وجدت الفرصة أنت تستعلمي عنهما من إحدى الصيدليات، أو أحد الأطباء، أو عن طريق دليل تلغرافي؟ لا داعي للعجلة، كما أن هذا لا يعني أنني سأذهب إلى أي منهما. إن هذه المصحات هي مصحات صدرية بصفة خاصة، مساكن تسعل بكاملها، وترتعد، وتنتفض بالحمى نهارًا وليلًا، حيث يتناول فيها المرء اللحم، وحيث يخلع الجلادون السابقون أذرع المرء إذا عنَّ للمرء أن يقاوم الحقن، وحيث تجدين الأطباء اليهود الذين يربتون على لحاهم، قساة على اليهودي قسوتهم على المسيحي، فتدبري هذا.

في أحد رسائلك الأخيرة، كتبت شيئًا (لست أجرؤ على أن أخرج هذه الرسائل، ولعلني بينما أجيل فيها البصر قد أسأت فهم أمر من الأمور، وهذا هو أكثر ما يبدو لي قربًا من الصحة)، كتبت أنت في أحد رسائلك الأخيرة تلك شيئًا يفيد بأن موقفك هناك يقترب من نهايته الختامية. كم كان في الكثير منها ما يبدو (أحزانًا تذكارية)، وكم كان فيها من الصدق الذي لا يتزعزع؟

مـرة أخـرى قـرأت خلال رسـالتك لأنسـحب (منزعجًـا)، وعنـد إعـادة التفكير يتضح لي افتقـاد بعض الأشـياء، وتهويـل للبعض الآخـر، وعلى هذا فهي ماهرة تمامًا. إنه لغايـة في الصـعوبة حقًّا للبشـر أن يلعبـوا لعبـة (الاستخفاء) مع الأشباح.

هل رأيت (بلاي)[70]، ما الذي يفعله؟ كـان الأمـر سـخيفًا كلـه، فهـذا مـا يمكنـني أن أصـدقه تمـام التصـديق وأن المـرء قـد يبقى حـائرًا بين النقيضين بخصوص ذلك هو ما أعتقده كـذلك. وإن لم يكن ثمـة شـيء في أنه كان هنـاك مـا هـو جميـل في الأمـر، فيمـا عـدا أنهـا كـانت تبعـد مسـافة خمسـين ألـف ميـل، وأنهـا تـرفض الاقـتراب، وأن أجـراس سالسبورج لو أنها كلها بدأت تدق فإنها سوف تـتراجع متباعـدة، بـدافع الحذر، بضعة آلاف أخرى من الأميال.

***

هل تعرفين قصة هرب كازانوفا من زمرة (الرواد)؟ نعم، أنت تعرفينهـا، إن أكثر معاني السـجن رعبًـا تجـدينها موصـوفة هنالـك باختصـار، ففي أعمـــاق القبـــور في الظلام وفي الرطوبـــة، وعلى نفس مســـتوى المسـتنقعات، يخـر المـرء على ركبتيـه على أرضـية ضـيقة مخنوقـة، يحاصرها الماء غالبًا، وفي أوقات المد العـالي، وأوقـات الجـزر يصـلها المـاء بالفعـل، على أن أسـوأ مـا في الأمـر لهـو فـئران الميـاه الوحشـية، وصرخاتها في أثناء الليل، ونتشاتها، وقرصاتها (أعتقد أن على المرء أن

70الكاتب فرانتس بلاي.

يصارعها انتزاعًا لطعامه)، وفوق هذا كله انتظارها بفارغ الصبر أن يسقط الرجل الواهن القوى من فوق أرضيته الضيقة، هذا كما تعلمين وما تشبهه تلك القصص التي تضمنتها هذه الرسالة، الإرعاب، وما لا يمكن إدراكه، وفوق ذلك كله تجدينها أقرب ما تكون وأبعد ما تكون في وقت معًا، كما يجد المرء ماضيه!

وهنالك ينحني المرء إلى حد لا يعود بعده ظهر المرء جميلًا، وتتقلص قدما المرء في تشنج، ويرتعد المرء، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا، سوى أن يرقب الفئران السوداء الضخمة بينما هي تحدق النظر إليه وسط ظلام الليل، وفي النهاية لا يعود المرء يعرف إن كان ما يزال جالسًا هنالك أعلاهم على أرضيته، أو أنه وسطهم بالفعل في أسفل، بينما تفح تلك الفئران بخراطيمها، المفغورة، وأسنانها المشرعة. هيا هيا، لا تعودي إلى ذكر أمثال تلك القصص، فما فائدتها؟ سوف أتركك مع مثل تلك الحيوانات الصغيرة، لكن فقط على شرط أن تطارديها إلى خارج المنزل.

ولم يعد ثمة ذكر للطبيب على الإطلاق؟ وأنت قد وعدت وعدًا حارًّا بأنك ستذهبين لزيارته على أنك تحفظين وعدك على الدوام فهل لمجرد أنك لم تعدي تلاحظين بعد أثر الدم، كان هذا هو السبب في عدم ذهابك إليه؟ إنني لا أريد أن أتخذ من نفسي نموذجًا تحتذينه، إنك أكثر مني صحة بما لا يقاس، وسوف أبقى أنا إلى الأبد السيد الذي يدع حقيبته تُحمل عنه. وهو ما لا يشكل على الرغم من ذلك تغييرًا في المرتبة، ذلك أنه يجيء قبل كل شيء السيد الذي يدعو الحمال ثم يأتي

الحمال، وبعد ذلك فحسب يأتي السيد الذي يسأل الحمال أن يحمل حقيبته، وإلا فإنه سينهار إن لم يحملها عنه، حتى أنه حدث أخيرًا- أخيرًا بينما كنت أسير عائدًا إلى المنزل من المحطة أن الحمال وهو يحمل حقيبتي قد شرع من تلقاء نفسه دون أن أشير إلى أي شيء يدعوه إلى ذلك شرع يعزيني من تلقاء نفسه قائلًا، إنه متأكد من أنني أعرف كيف أقوم بأداء الأعمال التي لا يمكنه هو أن ينجزها، وأن حمل الحقائب كانت مهنته التي لم يكن قد قصد إلى أن يمتهنها... إلخ، وكانت هناك في حقيقة الأمر ثمة أفكار تمر بخاطري كان حديثه ذاك جوابًا- لا يكفي بالمرة - للرد عليها، إلا أنني لم أكن قد عبرت عنها في وضوح- وعلى هذا فإنني لن أقارن نفسي بك في هذا المقام، إلا أنني لا يسعني أن أكف عن التفكير فيما حدث لي، وأن هذه الأفكار مرهقة، وعليك أن تذهبي إلى الطبيب. لقد كان ذلك منذ ثلاث سنوات مضت، ولم أكن قد أصبحت مصابًا بالسل بعد، ولم يكن ليرهقني شيء، وكان يمكنني أن أواصل السير إلى الأبد، ففي تلك الأيام لم يكن السير ينتهي بي إلى حدود طاقتي (وكان التفكير يشغلني من ناحية أخرى طوال الوقت)، عندما بصقت فجأة في شهر أغسطس، وكان الجو حارًّا، جميلًا، وكل شيء خارج رأسي كان غاية في النظام، وبينما كنت في حمام السباحة الأهلي، بصقت شيئًا أحمر اللون. كان هذا شيئًا غريبًا، ومثيرًا، ألم يكن كذلك؟ ونظرت إليها فترة، ثم نسيتها بسرعة. ثم حدثت مرارًا بعد ذلك، وكان في استطاعتي كلما أردت أن أبصق! أن أبصق شيئًا أحمر اللون، وكان ذلك يتوقف على رغبتي. ثم لم يعد

ذلك الأمر مثيرًا للاهتمام، بل لقد أصبح باعثًا على الضيق، ثم نسيته مرة أخرى، فلو أنني كنت في ذلك الوقت قد ذهبت في الحال إلى الطبيب، حسنًا، ربما كان كل شيء قد أصبح على ما يرام، كما قد كان الحال بدون الطبيب فيما لو أن أحدًا في ذلك الوقت لم يكن قد علم بأمر الدم، ولا حتى أنا نفسي كنت قد علمت بأمره في الحقيقة، ولم ينزعج أحد، لكن ثمة شخصًا ما قد رُوِّعَ الآن، ولهذا أرجوك أن تذهبي إلى الطبيب.

غريب من زوجك أن يقول إنه سيكتب لي هذا وذاك، وماذا عن ضربي، وعن خنقي؟ إنني لست أفهم هذا، حقًّا إنني أصدقك بالطبع تمام التصديق، لكنه من المستحيل بالنسبة لي استحالة بالغة أن أتصور ذلك، حتى أنني كنتيجة لذلك لا يمكنني أن أشعر بشيء يتعلق بالأمر، كما لو لم يكن الأمر سوى قصة غريبة للغاية، وبعيدة، كما لو أنك كنت هنا وقلت «والآن، في هذه اللحظة! إنما أنا في ڤيينا، وأن هنالك صرخات ـ وهكذا»، وأننا قد تطلعنا معًا من النافذة في اتجاه ڤيينا وبالطبع لم يكن ليوجد هناك أدنى سبب يدعو إلى الهياج.

ثمة هنالك شيء آخر: عندما أتحدث عن المستقبل، ألم يحدث لك أحيانًا أنني نسيت أنني يهودي؟ «في وضوح، وبغير تعقيد» إن اليهودية لتظل خطرة، حتى وهي تحت قدميك.

***

إنني سوف أتجاوز ما كتبته عن رحلتي بقولك: «إنك لتنتظر حتى تصبح ضرورية بالنسبة لك»، سوف أتجاوزه، أولًا: لأنه أمر قد انقضى وقته، وثانيًا: لأنه أمر مؤلم، على الرغم من أن له في الحقيقة بعض ما يبرره، وإلا فلماذا إذن كانت رسائل مساء السبت وصباح الأحد يائستين إلى هذا الحد؟ وثالثًا: لأننا ربما يرى أحدنا الآخر يوم السبت، (لا يبدو عليك أنك قد تسلمت أولى البرقيات الثلاث في صباح الإثنين، وآمل أن تكوني قد تسلمت البرقية الثالثة في حينها).

إنني أفهم اليأس الذي تعانينه بخصوص رسالة والدك بقدر ما يتاح لأية تأكيدات جديدة أن تحيي في نفسك اليأس بشأن صلة الدم المباشرة هذه، اليأس إلى هذا الحد بالغ الإرهاق، والذي استمر بالفعل لهذا المدى الطويل.

أنت لا يسعك حقًّا أن تقرأي في هذه الرسالة حقائق جديدة، ولست أستطيع أنا نفسي، وأنا لم يحدث لي قط أن قرأت رسالة من والدك، أن أقرأ أي شيء جديد فيها. إنها لتصدر عن القلب، وإنما لمستبدة، وأعتقد أنه لا بد لها أن تكون مستبدة، وذلك لكي تفعم القلب. ليس للتوقيع حقًّا سوى قليل أهمية، إنه لينوب عن الطاغية فحسب، وفوق التوقيع، بالإضافة إلى ذلك تقوم لفظة (أسف) ولفظتا (حزين للغاية)، وإنها لتمحو كل شيء.

وربما يكون قد أصابك الخوف من ناحية أخرى، بسبب التفاوت بين هذه الرسالة وبين رسالتك، حسنًا، أنا لم أر رسالتك، لكنني أرجوك أن تلاحظي التفاوت بين تأهبه (الطبيعي) وبين عنادك (غير المفهوم).

والآن تساورك الشكوك بخصوص الرد؟ أو أن الشكوك بالأحرى لتنتابك بالفعل، ذلك أنك قد كتبت بأنك تعلمين الآن ما الذي ينبغي عليك أن تجيبي به على تلك الرسالة. إن هذا لغريب. فلو كنت قد أجبت عليها بالفعل، وكان عليك أن تسأليني: «ما الذي تظنني قد كتبته ردًّا عليها؟» لكنت أقول بلا تردد إنني أرى ما قد أجبت أنت به.

ليس ثمة شك بالطبع في أنه ليس ثمة أي اختلاف من وجهة نظر والدك بين زوجك وبيني، ذلك أننا كلينا لنا فيما يرى الأوروبيون نفس الوجه الزنجي، لكن بصرف النظر عن هذه الحقيقة التي ليس ثمة ما يمكن أن يقال بشأنها الآن على نحو محدد، لماذا كان لهذا أن يكون جزءًا من إجابتك (ردك على والدك)، ولماذا يكون من الضروري أن تكذبي؟

أعتقد أنه كان يمكنك أن تجيبي فقط بما يمكن للشخص ـ الذي يرقب حياتك باهتمام زائد، وبقلب نابض، ويكاد يلغي في سبيل ذلك كل اهتمام له بأي شيء آخر ـ أن يقوله لوالدك، لو كان له أن يتحدث عنك بنفس المزاج، ذلك أن «كل الاقتراحات»، وكل «الشروط المحددة» ليس لها ثمة معنى، لأن ميلينا إنما تحيا حياتها، ولا يمكنها أن تحيا حياة أخرى غير حياتها هذه. فعلى الرغم من أن حياة ميلينا،

إنما هي حياة حزينة، إلا أنها مع ذلك «حياة صحية وهادئة كالحياة في مصحة!

وأن كل ما ترجوه منك ميلينا هو أن تتقبل هذا وإلا فإنها لا تسألك شيئًا ـ وإنها لا تنتظر منك قط (تدبيرًا ما). إن الشيء الوحيد الذي تسألك إياه، هو ألا تنغلق على نفسك عنها عمدًا، بل تسألك أن تتبع قلبك، وأن تتحدث إليها حديث إنسان إلى إنسان، حديث الند للند. لتفعل هذا مرة، وسوف تخلص ميلينا من الكثير من (الحزن) الذي يشيع في حياتها، ولن يكون عليك بعد أن تكون (آسفًا) من أجلها».

ما الذي تعنينه بقولك إن توقيت ردك على والدك يصادف يوم عيد ميلادك؟ إنني بدأت أخاف حقًّا من عيد الميلاد، وأرجوك سواء رأينا أحدنا الآخر يوم السبت أم لا؛ أن تتصلي بي بالبرق على أية حال في مساء العاشر من أغسطس.

لو أمكنك فقط أن ترتبي الأمر بحيث يمكن لك أن تتواجدي في جموند يوم السبت أو يوم الأحد على الأقل!

إن ذلك لهو حقًّا أمر ضروري للغاية.

في هذة الحالة ستكون رسالتي هذه هي بالفعل الرسالة الأخيرة التي تتسلمينها قبل أن يرى أحدنا الآخر وجهًا لوجه، وستراك عيناي اللتان لا يشغلهما شيء لمدة شهر (حسنًا، نعم ستشغلهما قراءة الرسائل، والتطلع من خلال النافذة).

إن المقال ليفضل كثيرًا أصله في الألمانية، على الرغم من أنه لا تزال به بعض الفجوات، وإلا فإن المرء ليتقدم في قراءته كما لو كان يسير في مستنقع، فكل قدم ترفع تشكل صعوبة بالغة. لقد قال لي أحد قراء (تريبونا) أخيرًا إنه يظن أن عليَّ أن أقوم بدراسات مطولة في مستشفي للأمراض العقلية، قلت له: «في مستشفاي الخاصة للأمراض العقلية»، على حين أكمل هو حديثه قائلًا في محاولة لمدحي: «مستشفاي الخاصة للأمراض العقلية». (ثمة موضعان أو ثلاثة يلتبس فيها المعنى في الترجمة).

***

الآن فقط في حوالي الساعة العاشرة مساءً، كنت في المكتب، وكانت برقيتك هناك، لقد وصلت بغاية السرعة، حتى لقد راودني الشك في أن تكون هي ردك على برقيتي التي أرسلتها إليك بالأمس. ومع ذلك فهي تقول: «أرسل الأربع ثمان، الساعة الحادية عشرة صباحًا»، ولقد كانت هناك بالفعل في الساعة السابعة صباحًا، وعلى هذا فقد استغرق وصولها ثماني ساعات فقط. إن أحد أوجه العزاء التي تمنحني إياها تلك البرقية في حد ذاتها هي أننا على الأقل من الناحية الجغرافية، ما زلنا قريبين تقريبًا أحدنا من الآخر: ذلك أنني يسعني أن أتسلم ردًّا منك في أقل من أربع وعشرين ساعة، وليس لهذا الرد أن يكون دائمًا: لا ترحل.

يتبقى هنالك ما يزال ثمة احتمال: ربما لم تتسلمي بعد رسالتي التي شرحت فيها أنه ليس عليك أن تقضي الليلة بعيدًا عن ڤيينا، لكن عليك أن تحضري إلى جموند، لكن لعلك أن تكوني قد اكتشفت هذا بنفسك، وفي هذه الحالة فإنني ما زلت أتعجب، ما إذا كنت بناء على هذا الاحتمال الضئيل سأحاول أن أضمن لنفسي تذكرة قطار سريع، وتأشيرة صالحة لمدة ثلاثين يومًا (هي رحلة عطلتك).

لعلني لا أريد أن أفعل ذلك، فعلى الرغم من أن برقيتك بالغة التحديد، إلا أنه يبدو أن لديك ثمة اعتراضات على الرحلة، ليس من السهل أن تتحولي عنها فانتبهي الآن يا ميلينا، إن الأمر حقًّا ليس بالغ الأهمية،

فـإنني وحـدي لم يكن يسـعني أن أجـرؤ (في الحقيقـة لمجـرد أنـني لم يسعني مطلقًا أن أقـدر كيـف يمكن بهـذه البسـاطة، أن يتم تـرتيب لقـاء لنا)، لم يكن يسعني أن أجرؤ على أن أحلم بمحاولة رؤيتـك مـرة أخـرى (بالفعل) بعد أربعة أسابيع، فلو تم لقاؤنا فأعزو الفضل فيه كلية إليـك، وعلى هـذا يكـون لـك الحـق (بصـرف النظـر عن حقيقـة أنـك إن لم تحضري، فلن يمكن احتمـال ذلـك، وهـذا مـا أعلمـه) لهـذا السـبب في إلغاء ذلـك الاحتمـال نفسـه الـذي خلقتـه أنت ـ هـذا مـا لا أجـدني في حاجة إلى ذكره. إن المشكلة هي فقط في أنه إذا كان في الإمكـان أن يتم بمثل ذلك الفرح حفر ذلك السـرداب المسـتقيم المـؤدي إليـك منطلقًـا من الفجوة المظلمة، وأنه لو تسنى لكل ما يمكن أن يكون عليه المرء أن يكون قد تم إلقاؤه تدريجيًّا في داخـل ذلـك السـرداب الـذي ربمـا (بـل بالتأكيد، بالتأكيـد، بالتأكيـد، يقولهـا السـرداب فـورًا في حماقـة)، ربمـا يؤدي إليك، والذي قد يؤدي بي فجأة إلى جحر لا يمكن اختراقه، بـدلًا من أن يؤدي بي إليك أنت؛ فأرجوك إذن ألا تحضري! إذا كانت النتيجة التي تنتهي الآن إليها، أن المرء بكل ما قدر له أن يكـون عليـه، عليـه مـرة أخرى أن يقفل راجعًا في تلكؤ متسكعًا بطول السرداب (ذلك السرداب الذي كان قد تم حفـره بتلـك السـرعة البالغـة)، وأن يردمـه، وهـو يقفـل راجعًا.

حسنًا، إن في هذا ما يؤلم إلى حد ما، إلا أنه لا يمكن أن يكون سـيئًا إلى هذا الحد، ما دام يسـمح للمـرء بـأن يتناولـه بالكتابـة تفصـيلًا على هـذا

النحو، وسيصنع المرء ثانية ممرات جديدة في نهاية الأمر ستحفرها دودة الخلد العتيدة تلك، التي هي أنا!

أسوأ من ذلك كثيرًا حقيقة أن اللقاء سيكون لقاءً بالغ الأهمية، لأسباب أعتقد أنني قد أشرت إليها بالأمس. وبهذا الخصوص لا يمكن استبدال اللقاء بأي شيء آخر. وهذا هو في الحقيقة السبب في أنني حزين بخصوص البرقية. لكن ربما تضمنت رسالتك إليَّ بعد الغد، شيئًا من العزاء.

لي طلب واحد فقط: في رسالتك التي تسلمتها اليوم. توجد جملتان غاية في القسوة، الأولى– «وأنت لن تأتي لأنك تنتظرين يومًا يكون حضورك فيه ضرورة بالنسبة لك»، هذه الجملة لها عذر ما، وإن كان أبعد من أن يكون مبررًا كافيًا، أما الجملة الثانية فهي– «وداعًا يا فرانتس»، ثم يعقب ذلك، حتى يمكنك فقط أن تتسمعي وقع الجملة: «وما دام أنه ليس ثمة فائدة هنالك ترجى من إرسال البرقية الزائفة، فإنني لن أرسلها»– [فلماذا أرسلتها إذن؟]، وهذه ال (وداعًا يا فرانتس) ليس لها أيضًا ما يبررها. هاتان هما الجملتان. فهل يمكنك يا ميلينا على نحو ما أن تسحبيهما؟، اسحبيهما رسميًّا، ويمكنك أن تسحبي جملتك الأولى جزئيًّا إذا شئت ذلك، أما الثانية فتسحبيها كلية مهما يكن من أمر!.

لقد نسيت أن أرفق بهذا رسالة والدك هذا الصباح. اغفري لي، وقد لاحظت أيضًا، بصورة عارضة إنها كانت رسالته الأولى إليك في ثلاث

سنوات، وفهمت الآن فحسب ذلك الانطباع الذي لا بد قد تركته في نفسك. إن هذه الحقيقة، تجعل رسالتك إلى والدك بالطبع، ذات مغزى أعمق، ولا بد أن يكون ثمة ما هو جديد فيها أساسًا في نهاية الأمر.

نعم، ثمة هنالك ما تزال جملة ثالثة في رسالتك لعلها أن تكون موجهة ضدي، أكثر مما هي موجهة ضد هؤلاء الذين ورد ذكرهم في رسالتك، إنها تلك الجملة التي تتحدث عن الحلوى التي تضايق المعدة.

الخميس

وعلى هذا فاليوم، وعلى نحو غير متوقع بالإضافة إلى ذلك، هو يوم مذعور لا رسائل فيه، وعلى هذا فرسالتك يوم الإثنين كانت تعني بغاية الجد أنه لم يكن ليسعك أن تكتبي في اليوم التالي. حسنًا، لقد اعتبرت برقيتك شيئًا أتساند إليه.

(في الهامش الأيسر): لست أعارض مطلقًا رحلة عطلتك، كيف يمكنني أن أعارضها، وما الذي يجعلك تظنين هذا؟

***

رهيبة بدون رسائلك. إذن لما كان ذلك صحيحًا، ذلك أنها لتكون مرعبة الثقل فقط، كان ثقل السفينة بالغًا، وكانت جرتها في المياه عميقة غاية العمق، ومع ذلك فلقد أبحرت مع تيارك عندما ارتد جزرًا. شيء واحد فقط لا يمكنني احتماله يا ميلينا، دون عونك الخاص: ذلك هو «الخوف»، وإنني لضعيف غاية الضعف بالنسبة لهذا، حتى أنني لا أجدني قادرًا حتى على أن أرى نهاية ذلك الخوف الرحب، ذلك أنه يجرفني بعيدًا.

إن ما قلته أنت عن يارميلا، لهو مجرد نوبة من نوبات الضعف هذه التي تنتاب القلب، لقد توقف قلبك لدقيقة واحدة عن أن يكون مخلصًا لي، ثم إنك لتدركين فكرة من هذا القبيل. فهل ما زلنا اثنين بهذا المعنى؟ وهل «خوفي» أنا يمكن أن يكون شيئًا ما من الأشياء، يختلف اختلافًا بعيدًا عن خوف امتهان النفس؟

وها أنذا أقاطع استرسال الحديث مرة أخرى، ذلك أنني لن يسعني أن أكتب لك بعد ذلك، أثناء وجودي في مقر عملي.

إن الرسالة الكبيرة التي أعلنت عنها لتبعث الخوف في نفس المرء، لو لم تكن هذه الرسالة مؤكدة كل هذا التأكيد، فما الذي سوف تتضمنه؟

إذا وصلتك النقود، فدعيني أعلم ذلك في الحال، فإذا كانت قد فقدت، فإنني سوف أرسل المزيد، فإن فقدت هذه أيضًا فسوف أرسل المزيد

مرة أخرى، وهكذا؛ حتى لا يتبقي لدينا منها شيء وعندئذ فحسب، سيكون كل شيء على ما يرام.

ف

إنني لم أحصل على الزهرة، ويبدو أنك في اللحظة الأخيرة قد اعتبرت عدم حصولي عليها أمرًا حسنًا للغاية بالنسبة لي.

***

وهكذا فأنت تشعرين بالمرض كما لم تشعري به منذ أن عرفتك؟ وهذه المسافة التي لا يمكن اجتيازها، بالإضافة إلى آلامك لتجعلني أشعر كما لو كنت أنا في حجرتك وأنك لا تكادين تتعرفين عليَّ، وأنني أتجول بلا حيلة ذهابًا وجيئةً بين الفراش والنافذة، ولا توجد لديَّ ثقة ما في أي شخص، ولا في أي طبيب، ولا في أي علاج، ولا أعرف شيئًا، وأحدق في السماء الكئيبة التي بعد كل مرح السنوات المنقضية وبهجتها، تتبدى للمرة الأولى في يأسها الحقيقي، عديمة الحيلة، مثلي تمامًا. إنك تستلقين في الفراش؟ فمن الذي يحضر لك طعامك؟ وما نوع هذا الطعام؟ وإذا سنحت لك الفرصة، اكتبي شيئًا عن نوبات الصداع هذه التي تنتابك.

ذات مرة كان لي صديق، يهودي شرقي، كان يعمل ممثلًا، وكانت تنتابه كل ثلاثة شهور نوبة صداع تستمر أيامًا عدة، أما فيما عدا ذلك فقد كان في صحة جيدة، لكنه عندما كانت تداهمه أيام الصداع تلك، كان يحدث له أن يتوقف في وسط الشارع، ويستند إلى حوائط المنازل، ولم يكن هناك ما يمكن للمرء أن يفعله من أجله سوى أن يتمشى ذهابًا وجيئة طوال نصف الساعة تلك، وأن ينتظره.

إن الرجل المريض ليهجره الصحيح، لكن الشخص الصحيح يهجره المريض أيضًا! هل هي متكررة بانتظام هذه الآلام؟ وماذا عن الطبيب؟ ومنذ متى أصابتك هذه الآلام؟ ولعلك تتناولين الأقراص الآن أيضًا؟ إن

هذا لسيئ، سيئ، ولعله ألا يكون مسموحًا لي حتى بأن أقول يا طفلتي الصغيرة.

مما يؤسف له أن رحيلك قد تأجل مرة أخرى، والآن فسوف ترحلين فقط يوم الخميس، أسبوع! حسنًا، إنها لمتعة أن أراك تستردين صحتك هناك بين البحيرة والغابة، والجبال، لن يكون من حسن طالعي أن أتمتع بهذا. لكن إلى أي حد أبعد من هذا تراني أرغب في الاستزادة من حسن الطالع، إنني لرجل شره، شره؟

وإنه لمما يؤسف له أنه سيكون عليك أن تواصلي تعذيب نفسك إلى هذا الحد البالغ في ڤيينا.

عن دافوس، سوف نتحدث في وقت آخر، لست أريد أن أذهب إلى هناك لأن المكان بعيد غاية البعد، وباهظ النفقات، ولأن الذهاب إلى هناك لا يشكل ضرورة قصوى. فإذا قُدر لي أن أغادر براغ، ولربما غادرتها، فإن أفضل ما قد أفعله سيكون أن أذهب إلى إحدى القرى، ولكن من ذا الذي سيستضيفني من ناحية أخرى؟

إنه ليتعين عليَّ ما يزال أن أتدبر هذا، على أنني لن أرحل قبل أكتوبر.

التقيت الليلة الماضية بشخص يدعى (شتاين)[71]. ربما تعرفينه عن طريق المقاهي، طالما كان يقارن دائمًا بالملك ألفونسو. إنه مساعد المدعي العام الآن، قال لي إنه في غاية السعادة للقائي، وكان في حاجة

71محامي من براغ، هو دكتور باول شتاين.

إليَّ لكي يتحدث معي حديثًا يتعلق بمهنتنا، وقد انتوى أن يتحدث إليَّ تليفونيًّا، في اليوم التالي:

«حسنًا، عن ماذا؟» ـ «عن حالة من حالات الطلاق، لك بها أنت أيضًا ثمة علاقة» ـ أعني أنه كان يسألني أن أتدخل. «كيف؟»، كان عليَّ حقًّا أن أضع يدي على قلبي ثم اتضح بعد ذلك أنها كانت حالة طلاق أحد والدي «الشاعر» وأن الأم التي لا أعرفها، قد طلبت من دكتور شتاين، أن يطلب إليَّ أن أستخدم نفوذي لدى «الشاعر» لكي يعاملها (الأم)، على نحو أفضل قليلًا، وألا ينتهرها بمثل تلك القسوة التي ينتهرها بها.

وإنه لزواج غريب بالمناسبة. تصوري، كانت المرأة قد تزوجت بالفعل مرة من قبل، وخلال ذلك الزواج السابق أنجبت طفلًا (هو نفسه الشاعر المذكور سابقًا) من زوجها الحالي. وعلى هذا يحمل الشاعر اسم الزوج الأول، ولا يحمل اسم والده. ثم تزوجا (تزوجت الأم بالأب)، وقد تم طلاقهما الآن ثانية بعد سنوات طويلة من حياتهما الزوجية، بناء على رغبة الأب، والد الشاعر، (ولقد تم التصريح لهما بالطلاق بالفعل)، لكن لما كانت المرأة، في ظروف أزمة المساكن الحالية، لم تتمكن من العثور على شقة، فإنهما يعيشان معًا لهذا، كزوجين،إلا أن الزوج، وعلى الرغم من تلك الحياة الزوجية التي يمارسانها معًا (لعدم وجود شقة أخرى) يرفض الصلح معها، أو أنه يرفض حتى على الأقل أن يتخلى عن متابعة الإجراءات الخاصة بإتمام الطلاق. ألا تبلغ بنا عواطفنا نحن البشر درجة المهزلة؟

وأنني لأعرف الأب، وهو شخص رقيق، حساس، قدير للغاية، ورحيم.

أرسلي إليَّ مهما كان الأمر قائمة بكل ما تريدينه، وكلما طالت محتويات تلك القائمة، كان ذلك أفضل. ولسوف أتجول زاحفًا على صفحات كل كتاب تطلبينه، وسأتسلق كل ما سوف يرد في قائمتك هذه، لكي يتسنى لي أن أرحل في كل جزء منها إلى ڤيينا (ليس ثمة اعتراض لدى المدير على رحيلي على هذا النحو)، فاسمحي لي بكل إمكانيات الارتحال إليك بقدر الإمكان، ويمكنك أن تعيريني مقالاتك التي ظهرت أخيرًا في (تريبونا).

إن أمامي ما أتطلع إليه غالبًا بالمناسبة، وهو عطلتك تلك، فيما عدا الاتصال البريدي السيئ. سوف تكتبين إليَّ باختصار، وتصفين لي تلك العطلة، ألن تفعلي ذلك ـ هل ستكتبين لي عن حياتك، وعن شقتك، وعن نزهاتك، وعن المنظر الذي تطلين عليه من نافذتك، وعن طعامك، وذلك حتى يتاح لي أن أشاركك حياتك، مشاركة ما ولو صغيرة.

***

السبت

إنني شارد في هذه اللحظة وحزين، فلقد فقدت برقيتك ــ أعني أنها لا يمكن أن تكون قد فقدت، لكن حقيقة أن عليَّ أن أبحث عنها، لهي حقيقة سيئة بما يكفي.

إلا أنها غلطتك أنت في الواقع، لو لم تكن البرقية بالغة الجمال إلى ذلك الحد لما ظللت ممسكًا بها في يدي طوال الوقت.

إلا أن ما ذكرته أنت فيها عن الطبيب هو فقط ما أراحني، وعلى هذا فليس الدم أمرًا ذا بالــ حسنًا، لقد أعربت أنا نفسي عن ارتيابي بالمثل، وأنا رجل الطب العتيد، والآن ما الذي قاله الطبيب عن علة الرئة؟ إنني واثق من أنه لم يصف لك التضور جوعًا، أو حمل الأمتعة كعلاج لها. أما عن مواصلتك العناية بأمري، فهل وافقك هو على ذلك؟ أو أنه لم يرد ذكري على الإطلاق؟ لكن ماذا يمكن أن يرضيني إذا لم يكن الطبيب قد عثر لي على أي أثر؟

وهل الأمر ليس أمرًا خطيرًا حقًّا؟ وهل لا يوجد لديه ما يمكن أن يقال فيما عدا أن يرسلك إلى الريف لمدة أربعة أسابيع؟ إنه لأمر هين في الحقيقة.

لا، ليس لديَّ المزيد مما يمكنني أن أعترض به على الرحلة أكثر مما لديَّ من اعتراض على حياتك في ڤيينا، فارحلي، ارحلي أرجوك! فلقد

كتبت لي ذات مرة عن أملك الذي تعلقينه على هـذه الرحلـة، وإن هـذا ليعد مبررًا كافيًا لي أنا أيضًا حتى أريد لك القيام بتلك الرحلة.

ثم الرحلـة إلى ڤيينـا مـرة أخـرى. إن الأمـر ليصـبح أكـثر سـوءًا، عنـدما تكتـبين إليَّ عنهـا جـديًّا، عندئـذ تشـرع الأرض هنـا حقًّا في الارتجـاج، وأجدني أنتظر قلقًا لأرى إذا كـانت سـتقذف بي خارجًـا، إلا أن شـيئًا لا يحدث. أما فيما يتعلق بالعقبات الخارجية ـ ذلك أنني لن أتحـدث عن العقبات الداخلية ذلـك أنهـا وإن كـانت أقـوى، فهي لا تعوقـني، لا لأني قوي، بل لأنـني أبلـغ من الضـعف حـدًّا لا يسـعني معـه أن أتيح لهـا بـأن تعوقـني ـ لقـد كتبت الآن لتـوي أن تلـك الرحلـة يمكن أن تتم بالفعـل بمجرد كذبة، وأنا أخاف الكذب، ليس كما يخافـه الرجـل الشـريف بـل كما يخافه تلميذ، ولديَّ إحساس، بصرف النظر عن هذا، أو أنني أخمن على الأقـل إمكانيـة احتمـال أن يجيء وقت مـا يكـون عليَّ فيـه ـ بـدون شروط، وبصورة محتومة ـ أن أجيء إلى ڤيينا بنـاء على رغبتـك أو بنـاء على رغبتي، لكنني مرة أخـرى لا يمكنـني أن أكـذب، ولـو حـتى كتلميـذ طائش، وعلى هذا فـإن التحفـظ الـذي أتحفظـه لهـو احتمـال أن أكـذب كذبة ما، وإنـني لأحيـا متحاشـيًا هـذه الكذبـة، كمـا عشـت على وعـدك بالحضور في الحال! إن هذا لهو السبب في أنني لن أحضـر الآن، وبـدلًا من اليقين الذي كان متوافرًا في هـذين اليـومين، وأرجـوك ألا تصـفيهما لي يا ميلينا، فإنك لتوشـكين على تعـذيبي بـذلك (ذلـك أنهـا لا تشـكل بعد ضرورة ما، وإنما تشكل احتياجًـا بلا حـد) ـ بـدلًا من ذلـك اليقين الذي توافر لي في اليومين المذكورين، لدى إمكانيتهما الأبدية.

أما عن الزهور؟ فإنها قد ذبلت الآن بالطبع؟ هل لم يسبق أن كانت لديك زهور (اتجهت في الطريق الخطأ)، كما فعلت هذه الزهور في حالتي هذه؟ إن هذا أمر لا يسر بالمرة، ولكنني لن أقول لك هذا.

لا أريد أن أتدخل في المعركة الدائرة بينك وبين (ماكس)[72]: سأقف على جانب لأرى وجهة نظر كل منكما ـ وأبقى سالمًا ـ لا شك أنك على حق فيما تقولينه، إلا أننا نتبادل أماكننا الآن. إن لك وطنك، ويمكنك أيضًا أن تنبذيه، ولعل هذا أيضًا أن يكون هو أفضل ما يمكن أن يفعله المرء بموطنه، وخاصة ما دام المرء لا يمكنه أن ينبذ في وطنه تلك الأشياء التي لا يمكنه أن ينبذها. لكنه لا وطن له؛ ولهذا فليس لديه ما ينبذه، وعليه أن يفكر طوال الوقت في البحث عنه أو إقامته، طوال الوقت، سواء كان يتناول قبعته من على مشجب، أو كان مستلقيًا في الشمس في حمام السباحة، أو بينما هو يكتب ذلك الكتاب الذي يتعين عليك أن تقومي بترجمته ـ وربما يكون في هذه الحالة أقل ما يكون توترًا. لكن بالنسبة لك أنت أيتها العزيزة البائسة، كم هو هائل عبء ذلك العمل الذي ترهقين به نفسك، إن عنقك عار، وأنا أقف خلفك، وأنت لا تدرين بذلك. أرجوك ألا تنزعجي لو أحسست بشفتي تلثمان عنقك من الخلف، لست أعني أن أقبلك؛ ذلك أن حبي لك إنما هو حب عديم الحيلة ـ نعم، إن على ماكس أن يفكر في ذلك طوال الوقت، وحتى وهو يكتب رسالة إليك.

72ماكس برود وهو صهيوني نشط على الدوام.

والغريب هو أنك قد هزمت أمامه في التفاصيل، على الرغم من أنك بصفة عامة قد تحصنت ضده تمام التحصين. لقد كتب لك بوضوح عن حياتي مع والدي، وكتب لك عن دافوس. وما كتبه في الحالتين خاطئ. لا شك أن حياتي مع والدي هي حياة سيئة، لكنها ليست الحياة اليومية فقط، ليست الاستكانة لتلك الحلقة من الحنان والحب ـ نعم إنك لا تعرفين شيئًا عن رسالتي إلى والدي ـ طنين الذبابة وهي على غصن الليمون. وعلى الرغم من أن لهذا أيضًا جانبه الطيب، فإنه لا يخرج عن أن رجلًا ما يحارب في الماراثون، بينما يحارب الآخر في غرفة الطعام. إن إله (الحرب) وإلهة (النصر) ليوجدان في كل مكان، لكن ما هو الخير الذي يمكن أن ينطوي عليه الرحيل تلقائيًّا عن المكان، خاصة لو أنني واصلت تناول طعامي في المنزل، وهو ما يبدو الآن بلا شك أفضل بالنسبة لي. أما عن دافوس فسأكتب لك يومًا آخر. إن الشيء الوحيد الذي أؤيده فيما يتعلق بدافوس، إنما هو تلك القبلة عند رحيلي.

***

السبت

عطوف، وصبور، هل هذه حقيقتي؟ إنني لست أدري حقًّا أن مثل هذه البرقية قد أنعشت الجسد كله حقًّا، إنني أعلم هذا، وإن الأمر لهو في النهاية مجرد برقية، وليست يدًا ممتدة إليَّ.

إلا أن ذلك يبدو حزينًا أيضًا، يبدو كصوت متعب صادر عن فراش المرض وإنه لسيئ أيضًا، ولم تصلني منك رسالة، يوم آخر بلا رسالة، فمن الذي يضمن لي أنك قد أرسلت البرقية بنفسك، وأنك لا تنفقين اليوم بطوله في الفراش، هنالك في تلك الحجرة التي أعيش فيها أكثر مما أعيش في حجرتي؟

في الليلة الماضية ارتكبت جريمة قتل من أجل خاطرك، حلم مخيف، وليلة سيئة، سيئة، وإن كنت لا أكاد أذكر شيئًا من التفاصيل.

والآن فحسب وصلتني رسالة في آخر الأمر، وإنها لواضحة حقًّا، حقًّا إن الرسائل الأخرى لم تكن أقل وضوحًا منها، غير أن المرء لم يكن ليجرؤ على أن يتخلل ثنايا وضوح تلك الرسائل. بالمناسبة، كيف أمكنك أن تكذبي؟ ليس هذا الجبين مما يمكنه أن يكذب.

إنني بالتأكيد لا أنحي باللائمة على ماكس، مهما كان ما تضمنته رسالته، فقد كان ما تضمنته خاطئًا، لا شيء، لا أحد، ولو كان هو أفضل الناس جميعًا، يمكنه أن يتدخل بيننا. إن هذا أيضًا لهو السبب في أنني قد ارتكبت جريمة قتل في تلك الليلة الماضية.

شخص ما، أحد أقاربي، قال في سياق حديث لست أذكره، لكن يعني بصورة أو بأخرى أن هذا الشخص أو ذاك لا يمكنه أن ينجز شيئًا ـ وعلى هذا فقد علق هذا القريب في النهاية ساخرًا بقوله: «حسنًا، لعل ميلينا يمكنها»، وعلى هذا فقد قتلته على نحو ما، وحضرت إلى المنزل في هياج شديد، بينما تجري أمي خلفي طول الوقت، حيث كان يجري هنا أيضًا حديث مماثل، وفي النهاية صحت، وقد نال مني الغضب:

«لو قال أحد شيئًا سيئًا عن ميلينا، ولو كان هو (الأب) مثلًا، أبي، فسوف أقتله هو أيضًا أو أقتل نفسي»، ثم استيقظت من النوم، غير أنه لم يكن نومًا، ولا كانت يقظتي منه يقظة.

وأعود ثانية إلى الرسائل السابقة، فهي أساسًا تشبه شبهًا شديدًا تلك الرسالة المرسلة إلى الفتاة، ولم تكن رسائل الأمسيات سوى أحزان على رسائل الصباح ـ وذات أمسية كتبت أنت أن كل شيء قد يكون محتملًا فيما عدا فقداني لك ـ وكأن ما يلزم بالفعل ليس سوى ضغطة خفيفة، فيحدث المستحيل، ولعل هذه الضغطة كانت حقًّا في الإمكان، وربما كانت قد حدثت بالفعل.

على أية حال، إن هذه الرسالة لهي عزاء، وكان ثمة بين الرسائل الأولى رسالة كانت وكأنها قد دفنت حية، وإن كانت تظن أنه ينبغي على المرء ألا يحرك ساكنًا!

ذلك أنني ربما كنت ميتًا حقًّا.

ولهذا فلا يدهشني هذا كله، إنني أتوقعه، ولقد هيأت نفسي بقدر ما يسعني؛ لكي أحتمله عندما يقع. والآن وقد وقع هذا فإن المرء بالطبع ليس على ما ينبغي من الاستعداد، ورغم عدم استعدادي فإنني لم أنطرح أرضًا، ومن ناحية أخرى فما كتبته عن موقفك من الأمور الأخرى، وعن صحتك لهو أمر مزعج غاية الإزعاج، ويزيد كثيرًا على طاقتي على الاحتمال، حسنًا، لسوف نتحدث عن ذلك عندما تعودين من رحلتك، ولعل المعجزة التي تتوقعينها أن تحدث لك هناك بالفعل، أو تتحقق لك المعجزة الجسدية على الأقل.

ولديَّ بالإضافة إلى ذلك في هذا الخصوص من الثقة فيك، ما أرغب معه في حدوث أية معجزات أخرى، وإنني لأستودعك أيتها المخلوقة المعجزة، المندفعة، المصونة، إلى الغابة، وإلى البحيرة، وإلى الطعام، إن لم أكن أستودعك حقًّا إلى كل شيء آخر.

وعندما أتمعن في رسالتك ـ فلقد قرأتها مرة فقط على أية حال ـ وما كتبته عن حاضرك وعن مستقبلك، وما كتبته عن والدك، وما كتبته عني فإنما يترتب على هذا فقط (ما قلته لك ذات مرة بوضوح تام) أن نكبتك الحقيقية ليست أحدًا آخر سواي، سواي أنا وحدي ـ على حين أوضح أنا مجددًا ذلك بأنني أعتبر نفسي (سوء حظك) الخارجي فحسب ـ ذلك أنني لو لم يكن لي وجود، فلعلك أن تكوني قد غادرت ڤيينا بالفعل منذ ثلاثة شهور، فإن لم تكوني قد غادرتها منذ ثلاثة شهور مضت، فلعلك بلا شك كنت تغادرينها الآن. إنك لا تريدين أن تغادري ڤيينا. إنني لأعلم هذا وإنك لم تكوني لترغبي في مغادرتها إذا لم أكن

قد وُجِدت في حياتك إلا أن المرء ليمكنه أن يقول عن هذا السبب بالذات ـ ناظرًا إلى الأمر من قمة منظور عين الطائر ـ إنه سيكون بالطبع سببًا ضمن أسباب أخرى، ذلك أن أهميتي العاطفية بالنسبة لك لتتألف من حقيقة أنني أجعل من الممكن لك أن تبقي في ڤيينا.

إلا أنه ليس للمرء أن يبعد بهذا الشوط بعيداً كل هذا البعد، وليس له أن يستسلم لمثل تلك المراوغات المعقدة، ذلك أنه ليكفي جداًّ أن يضع المرء في اعتباره حقيقة أنك قد انفصلت بالفعل ذات مرة عن زوجك، وأنه في وسعك تحت الضغط المتزايد الذي يضغطه عليك الحاضر، أن تنفصلي عنه بسهولة، لكنك ستنفصلي عنه بالطبع فحسب لمجرد الانفصال، وليس بسبب شخص ما آخر.

على أن كل هذه الاعتبارات لا تؤدي حقًّا إلى أي شيء آخر سوى الصراحة.

سوف أحضر الأشياء طبعًا بكل سرور: أعتقد فحسب أنه سيكون من الأفضل لي أن أشتري (الصدرية) من ڤيينا، ذلك أنه سوف يلزمني هنا إذن تصدير بخصوصها (فحتى الكتب لم يقبل إرسالها أحد مكاتب البريد هنا أخيرًا، بدون إذن تصدير، على حين أنهم يقبلونها في نفس الوقت في مكتب بريد آخر دونما ضجيج) ـ حسنًا، ربما أمكنني أن أجد في المكتبة من أستشيره في هذا الشأن ـ وسوف أضمِّن رسائلي دائمًا بعض النقود. وعندما تقولين (كفى)، فسوف أكف عن ذلك في الحال.

شكرًا لتصريحك لي بقراءة (تريبونا). رأيت أخيرًا، يوم الأحد فتاة تشتري (تريبونا) في ميدان فينتسل، طبعًا من أجل مقال (المودة)، لم تكن تبدو الأناقة على تلك الفتاة على نحو خاص، لا لم تكن بعد قد أصبحت أنيقة. ويؤسفني أنني لم أتفحصها بعناية أكثر، ذلك أنني قد لا يمكنني لهذا أن أرقب تطور أناقتها. لا، إنك مخطئة في استخفافك بقيمة مقالاتك عن (المودة). إنني لأشعر بالامتنان لك حقًّا لأنني يتاح لي الآن قراءتها علنًا (فلا بد من أن أقول، إنني كنت أقرأها مرارًا في السر، وهو ما أخجل له الآن).

***

لقد عرفت للتو ما الذي سوف تتضمنه الرسالة، ذلك أن ما سوف تتضمنه كان موجودًا في خلفية رسائلك، كان واضحًا في عينيك ــ فما الذي يمكن أن تصعب ملاحظته في أغوارها الصافية؟ ــ وهو كان مخطوطًا كله أيضًا على صفحة جبينك. ولقد أدركت ما سوف تتضمنه كما يدرك ذلك شخص كان قد أنفق النهار بطوله، يستغرقه حلم نائم خائف خلف مصراعي نافذة مغلقين، وعندما يقوم هذا الشخص بفتح النافذة في الليل، فلن يدهشه بالطبع شيء، ذلك أنه يكون قد عرف أن الليل قد حل، يكون قد عرف أنه قد هبط الآن الظلام ــ وإنه لظلام رائع عميق. وأرى كذلك فيما سوف تتضمنه تلك الرسالة كيف تعذبين نفسك، وكيف تتلوين ألمًا، ولا تنعمين بالخلاص و ــ لنلقي اللهب في داخل وعاء مسحوق البارود ــ وأنك، لن تنعمي أبدًا بالخلاص، وإنني

لأرى ذلك، ومع ذلك، فلعلني لا أقول لك، ـ ابقي حيث أنت. إلا أنني لم أقل عكس ذلك أيضًا، وإنما أقف في مواجهتك، وأتطلع في عينيك الغاليتين البائستين (نعم، إنها لتثير الشفقة، تلك الصور التي أرسلتها إليَّ، رغم كل شيء، وإنه لعذاب أن يتطلع إليها المرء، عذاب يكابده المرء مائة مرة في اليوم، ولا يزال، للأسف، هو ما أملكه، وما أشعر بأن لديَّ القدرة لكي أزود عنه في وجه عشرة من الرجال الأشداء، وإنني لقوي حقًّا كما تقولين ـ ثمة قوة لدي من نوع خاص، لو شاء المرء أن يصفها باختصار، وفي غموض، لقال إنها إنما تكمن في أنني لست منسجمًا متآلفًا كائتلاف الموسيقى، غير أنها ليست بالغة قوتي تلك، على الرغم من ذلك حداًّ يحملني على مواصلة الكتابة، على مواصلة الكتابة فحسب الآن على الأقل؛ ذلك أن فيضًا من الأسى ومن الحب يطبق بخناقي ويحملني بعيداً عن الكتابة.

***

ليلة الإثنين

شيء واحد ظل يزعجني لفترة طويلة في مجادلاتك، شيء يتضح بصفة خاصة في رسالتك الأخيرة، إنه خطأ لا يمكن إنكاره ويمكنك أن تتفحصيه بنفسك... عندما قلت إنك تحبين زوجك جداً (وهو أمر حقيقي أيضًا) وإنك لا يمكنك أن تتركيه (لو أن ذلك كان ليحدث بسببي أنا فقط، أعني أن ذلك سيكون مزعجًا لي لو أنك فعلت ذلك على الرغم من حبك له) فهذا ما أعتقده أنا أيضًا، وأصدقك عندما تقولينه، وعندما قلت إنك على الرغم من أنك يمكنك أن تتركيه، إلا أنه على الرغم من ذلك يحتاجك في أعماقه ولا يمكنه أن يحيا بدونك، وأنك على هذا لا يمكنك أن تتركيه، فإنني أصدقك عندئذ أيضًا، وأوافقك أيضًا عليه، لكنك عندما تقولين إنه فيما يبدو لا يمكنه أن يمضي في خضم الحياة بدونك، وأنك لهذا (وتجعلين من هذا سببًا أساسيًّا) لا يمكنك أن تتركيه، هنا تكونين قد قلت هذا إما لتغطية الأسباب السابق ذكرها (لا لتدعيم تلك الأسباب، ذلك أن تلك الأسباب ليست بحاجة إلي أدنى تدعيم)، وإما أن يكون ما قلته ليس سوى واحدة أيضًا من تلك المداعبات العقلية (من قبيل تلك المُزَح التي كتبتها في رسالتك الأخيرة)، تلك المداعبات التي يتلوى تحت وطأتها الجسد، وإن لم يكن الجسد هو وحده ما يتلوى لإيلامها.

***

الإثنين

كنت على وشك أن أكتب المزيد في نفس سياق الأفكار التي أملت عليَّ ما سبق أن كتبته، عندما وصلتني منك رسائل أربع، وإن لم تكن قد وصلت معًا بالمناسبة، فقد وصلتني أولًا رسالتك التي تأسفين فيها على أنك قد ذكرت لي خبر حالة الإغماء تلك التي أصابتك، ثم بعد ذلك بقليل تلك الرسالة التي كتبتها على الفور بعد أن أفقت من إغمائك، تصحبها تلك الرسالة ـ حسنًا، بصحبة تلك الرسالة بالغة الجمال، ثم أخيرًا بعد ذلك تلك الرسالة التي تتعلق بإميلي، ولم أستطع أن أتبين تسلسل رسائلك تلك في وضوح، فأنت لم تعودي بعد تذكرين الأيام التي تكتبين فيها رسائلك.

حسنًا، سأحاول أن أجيب عن سؤال (الخوف ـ الرغبة)، وسوف يصعب عليَّ النجاح في ذلك من أول مرة، لكن لو أنني عدت إلى محاولة ذلك في رسائل عدة، فلعلني أن أوفق إلى ذلك، وسوف يساعدني على بلوغ ذلك مساعدة هائلة، أن تكوني قد قرأت رسالتي إلي أبي (وهي بالمناسبة رسالة سيئة ولا أهمية لها).... وربما أحضرها لك معي إلى جموند.

لو كان للمرء أن يحدد (الخوف) و(الرغبة) كما فعلت أنت في رسالتك الأخيرة، فلن يكون نفس السؤال سهلًا عندئذ، بل ستكون الإجابة عنه غاية في البساطة، ويحضرني (الخوف) في هذه الحالة، وذلك على النحو التالى:

أذكر أول ليلة، وكنا نسكن في ذلك الوقت في ممر (تسلتن) في مواجهة (محل أزياء)، اعتادت أن تقف في فتحة بابه فتاة تعمل بالمحل، وكنت أنا في الدور الأول ـ كنت قد تجاوزت العشرين من عمري بقليل ـ أتمشى ذهابًا وجيئة في الحجرة يشغل بالي إدراكي الذي يوتر أعصابي، بتراكم الحقائق، التي تبدو لي فارغة من المعنى، والتي يلزمني استيعابها استعدادًا لأول امتحان عام.

كان ذلك في الصيف، وكان الجو شديد الحرارة، ولا يكاد يُحتمل، وكنت أتوقف بين كل فترة وأخرى أمام النافذة، وبين أسناني القانون الروماني المثير للقرف، حتى انتهينا أخيرًا إلى التفاهم بلغة الإشارات، وكان عليَّ أن ألتقي بها في الساعة الثامنة مساء، لكنني عندما هبطت ذاهبًا إليها في المساء، كان ثمة شخص آخر معها بالفعل ـ حسنًا، لم يكن هذا قد غير من الأمر شيئا؛ فقد كنت خائفًا من الدنيا كلها، وعلى هذا فقد كنت خائفا من ذلك الرجل هو أيضًا، حتى لو لم يكن واقفًا هنالك، فقد كنت لأخافه أيضًا. وعلى الرغم من أن الفتاة قد أمسكت بذراعه، فإنها قد أشارت لي مع ذلك بأن عليَّ أن أتبعهما، وعلى هذا فقد بلغنا جزيرة (شوتزن)، حيث احتسينا البيرة، وكنت أجلس أنا إلى المائدة المجاورة لهما، ثم سرنا، وتبعتهما متباطئًا، حتى بلغنا شقة الفتاة في مكان بالقرب من (سوق اللحم)، وهناك قال لها الرجل: إلي اللقاء. وأسرعت الفتاة تجري إلى داخل المنزل، وانتظرت قليلًا حتى خرجت ثانية، ثم مضينا إلى فندق في (الساحة الصغيرة)، وكان هذا كله ساحرًا، ومثيرًا، ومرعبًا حتى قبل أن ندخل إلى الفندق، ولم يكن

الأمر يختلف عن ذلك عندما أصبحنا في داخل الفندق. وعندما كنا في طريق عودتنا والصباح يوشك على الطلوع (وكان الجو ما يزال حارًّا، وبديعًا) فوق قنطرة كارل، كنت سعيدًا بالفعل، لكن تلك السعادة كانت قد جاءتني من حقيقة أنني أخيرًا قد نعمت بشيء من السلام، حققه لي جسدي الذي لا تهدأ له أشواق. وكانت هذه السعادة فوق لك كله قد نشأت عن الارتياح لأن التجربة كلها لم تكن أكثر رعبًا مما كانت عليه، ولأنها لم تكن بالغة الفحش. ووجدتني مع الفتاة مرة أخرى (بعد ذلك بليلتين فيما أظن) ومر كل شيء على ما يرام كما مر في الليلة الأولى، لكنني عندما رحلت بعد ذلك مباشرة لقضاء إجازات الصيف، حيث لهوت قليلًا هنا وهناك مع فتاة أخرى، لم يعد في استطاعتي بعد ذلك أن أتطلع إلى فتاة محل الأزياء في براغ، ولم أتبادل معها أية كلمة أخرى، ذلك أنها كانت قد أصبحت (من وجهة نظري) ألد أعدائي، مع أنها كانت فتاة حسنة، ودودة، وظلت تتابعني طوال الوقت بنظراتها التي توحي بعدم استطاعتها إدراك ما يحملني على تجنبها، ولن أقول إن السبب الوحيد لعدائي لها كان حقيقة (وأنا واثق بأن هذا لم يكن هو السبب) أن الفتاة كانت قد أتت أثناء وجودنا معًا في الفندق، ببراءة تامة، أتت بحركة يسيرة مثيرة للاشمئزاز (وإن كانت لا تستحق الذكر)، إلا أن أثر تلك الحركة اليسيرة ظل باقيًا، وقد عرفت في تلك اللحظة أنني لن يمكنني أن أنسى تلك الحركة، وعرفت في نفس الوقت، أو تهيأ لي أنني قد عرفت أن هذا السلوك المثير للقرف، وأن هذه البذاءة، وإن لم تكن ظاهريًّا ضرورية، إلا أنها كانت باطنيًّا

لازمة بالضرورة رغم ذلك، في علاقتها بالأمر كله. وأن هذه الإثارة للاشمئزاز والفحش (التي كان عرضها الضئيل هو فقط مجرد تلك الحركة اليسيرة، وتلك الكلمة العارضة)، كانت هي ما قد جرفني بمثل ذلك الاندفاع الرهيب إلى داخل ذلك الفندق، الذي لولاها لكان لي أن أتجنبه بكل ما تبقى لدي من قوة.

ولقد ظل ذلك التأثير الذي انعكس عليَّ وقتئذ باقيًا دائمًا على ما كان عليه. على أن جسدي الذي قد يبقى هادئًا لسنوات طويلة، ليهتز ثانية مع ذلك إلى حد لا يمكنني أن أحتمله، تهزه هذه الرغبة، لشيء ضئيل، لحركة منكرة، ذات نوعية خاصة للغاية، يهتز رغبة في شيء قليل من إثارة القرف، الارتباك، والفحش، وأنه حتى وسط القليل مما تبقى لي، ثمة شيء من ذلك، ثمة أثر واهن لرائحة قذرة ما، أثر لرائحة شيء من الكبريت، شيء من الجحيم. إن هذا الدافع ليتضمن في ثناياه شيئًا من اليهودي الأبدي المسحوب بلا إرادة، الضال بلا وعي، خلال عالم قبيح فاقد الوعي.

لكن كان ثمة بعدئذ أوقات أيضًا لا يكون فيها الجسد على هدوئه، عندما لا يكون ثمة شيء هادئ بالفعل، وإن كان ذلك يحدث بينما لا يكون هنالك ثمة ما أعانيه من قسر. كانت حياة طيبة هادئة لا يقلقها سوى الأمل فحسب (هل تعرفين اضطرابات أخرى أفضل؟) خلال تلك الفترات، وعلى امتداد تلك الفترات، كنت وحيدًا دائمًا.

وها أنا الآن أمر بمثل تلك الفترات، لكنني لست وحيدًا! هذا هو السبب في أن قربك الجسدي ليس هو فقط، بل هو فقط، بل أنت نفسك من تبعثين فيّ الهدوء القلق. وهذا هو السبب في أنني لا أجد لديَّ أدنى رغبة في القبح (خلال النصف الأول من الفترة التي قضيتها في ميران، قمت على الرغم من إرادتي الحرة، ليلًا ونهارًا، بتدبير خطط تدور حول الكيفية التي أستطيع بها أن أتمكن من إغراء خادمة الحجرة. وأسوأ من هذا، وقرب نهاية فترة إقامتي في ميران، اتفق أن صادفتني فتاة لديها استعداد بالغ، وأقول إنه كان لا بد لي من أن أترجم كلماتها إلى لغتي أنا قبل أية محاولة من جانبي لكي أفهمها أساسًا)، ولم أر ببساطة أية بذاءة هنالك، لم أعثر في حديثها على شيء يمكنه أن يحدث تأثيرًا خارجيًّا، لكنني وجدت بدلًا من ذلك كل ما يمكنه أن يبعث الحياة من داخلها.

وباختصار كان ثمة شيء جديد هنالك، من قبيل الهواء الذي كان قد استنشقه الإنسان في الجنة قبل السقوط. إن بعضًا من هذا الهواء ليوضح لماذا تتصف الرغبة بالنقص على حين أن كل ذلك الهواء، إنما يوضح لماذا يوجد الخوف. وهكذا فها أنت تعرفين الآن، وعلى هذا، فرغم أنني قد (عانيت الخوف) ليلة ما في جموند، فقد كان خوفي على الرغم من ذلك، هو (خوفي) المعتاد فحسب (آه ـ وإن خوفي المعتاد ليكفيني) ذلك الذي أعانيه هو أيضًا في براغ، وليس خوفًا خاصًّا بجموند.

والآن حدثيني عن إميلى، فما زال في مقدوري أن أحصل على الرسالة في براغ.

لن أضمِّن رسالتي شيئًا اليوم. غدًا فحسب. ذلك أن هذه الرسالة، هي رسالة مهمة، وأريدك أن تتسلميها في أمان.

إن الإغماء هو مجرد عرض من بين أعراض عديدة. أرجو أن تتأكدي من حضورك إلى جموند. هل لن تتمكني من الحضور إذا أمطرت صباح الأحد؟ حسنًا، على أية حال سأكون في صباح الأحد أمام محطة جموند. هل لن تحتاجي بالتأكيد إلى جواز سفر؟ هل استفسرت بالفعل عن ذلك؟ هل تحتاجين إلى شيء يمكن أن أحضره معي؟ ذكر شتاشا، هل تقصدين أن عليَّ أن أذهب لزيارتها؟ لكنها لا تكاد تتواجد الآن في براغ (وحتى عندما تتواجد في براغ يكون الذهاب لزيارتها أكثر صعوبة)، لن أفعل شيئًا في هذا الخصوص حتى تذكري ذلك مرة أخرى، أو حتى نلتقي في جموند.

(في الهامش الأيسر) تصلين أنت بعد الساعة التاسعة بقليل، فلا تسمحي لهم لأنك نمساوية بأن يحتجزوك في الجمرك، ولا يمكنني في هذه الساعة أن أواصل ترديد الجملة التي أنوي أن أحييك بها.

أما الملاحظة التي تتعلق ب «ل» (يا لها من ذكرى! ليس هذا سخرية، بل غيرة، هي ليست غيرة، بل نكتة سخيفة) فلقد أسأت فهمها. لقد صدمت فحسب لأن كل الناس الذين ذكرهم هو كانوا إما «حمقى» أو (مخادعين) أو إناثًا ممن «يقفزن من النافذة»، بينما كنت أنت «ميلينا» فحسب، وأكثر من هذا كنت «ميلينا» رفيعة المقام، ولقد سررت لذلك، وكان سروري هو سبب كتابتي لك، ولم يكن ذلك مطلقًا دفاعًا

منك أنت، بل كان دفاعًا منه هو عن كرامته. وكان هناك، لكي أكون دقيقًا، ثمة استثناءات قلائل أخرى أيضًا ـ زوج أمه (المقبل وقتها)، وزوجة شقيقه وزوج شقيقته، وخطيب خطيبته السابق، وهم جميعًا أشخاص «مدهشون» حقًّا.

أما رسالتك التي وصلتني اليوم، فهي رسالة حزينة للغاية، وتنطوي فوق هذا كله على ألمك منطويًا على نفسه بإحكام حتى لقد أحسست به، وكأنه قد تم استبعاده تمامًا. وعندما كان يعن لي أن أغادر حجرتي من حين لآخر، كنت أهرع صاعدًا أو هابطًا الدرج، وأظل على هذه الحال فقط على أمل أن أعود في إحدى المرات لأجد البرقية التي تقول «سأكون أيضًا في جموند السبت »، إلا أن هذه البرقية لم تصل بعد....

***

البرقية. نعم، ربما يكون من الأفضل لـو التقينـا، ومن ناحيـة أخـرى، كم من الوقت يلزمنـا كي نتمكن من أن نضـع الأمـور في مكانهـا الصـحيح! ومن أين جاءت كل هذه المتـاعب الـتي قـامت بيننـا. إن المـرء لا يكـاد يرى خطوة واحدة إلى الأمام. وكم عانيت أنت لا بـد من هـذه المتـاعب وسط غيرها من كل أشكال المتاعب الأخرى.

وربما كان لي أن أضع حدًّا لهذه المتاعب منذ وقت طويل، كانت العين صافية الرؤية بما يكفي، لكن كان الجبن أكثر شدة. كما أنـني لا أكـذب بردودي على رسائل (وكأنها كانت تخصني) كنت قد أدركت بوضـوح أنها رسـائل لا علاقـة لهـا بي؟ وآمـل أن ردودي لم تكن (بهـذا المعـنى) من قبيـل تلـك الـردود «الكاذبـة» الـتي اغتصـبت منـك رحلتـك إلى جموند[73].

لست حزينًا أبدًا ذلك الحزن الذي قد يبدو لك من هذ الرسـالة، كـل مـا هنالك أنه لا يوجد أي شيء آخر يمكن أن يقال في هـذه اللحظـة، ذلـك أنها قد أصبحت لحظة هدوء تام، ولا يجرؤ المـرء على أن يتفـوه بكلمـة في هذا السكون.

73تشير هذه الرسالة إلى موقف غريب كان قد قام في براغ: فقد تلقى أشخاص رسائل من مجهول،ومع أنها كانت مكتوبة بخط واضح، إنه خط ميلينا، إلَّا أن ميلينا، لم تكن هي من كتبتها.

حسنًا، سنكون معًا يوم الأحد لمدة خمس ساعات أو ست، وهي فترة لا تتسع للحديث، ولكنها تكفي للصمت، تكفي لتماسك أيدينا، وتكفي لكي يتطلع أحدنا في عيني الآخر.

***

الإثنين

حسنًا، حسب جدول المواعيد، يبدو لي الأمر أفضل كثيرًا مما ظننت، وآمل أن يكون جدول المواعيد مضبوطًا، ويبدو لي الأمر على النحو التالي:

1 ـ إمكان في حده الأدنى المقبول:

أن أرحل من هنا في الساعة الرابعة والدقيقة الثانية عشرة بعد ظهر السبت لأصل في الحادية عشرة وعشر دقائق بعد الظهر إلى ڤيينا، وستكون أمامنا سبع ساعات نقضيها معًا، بعدها سأرحل يوم الأحد في السابعة صباحًا، وسوف تتوقف هذه الساعات السبع بالطبع، على أن أكون قد نمت قليلًا في الليلة التي تسبقها (وهو ليس إنجازًا سهلًا)، وإلا فإنك سوف لا تجدين في مواجهتك سوى مجرد حيوان مريض بائس.

2 ـ إمكان بالغ الروعة، استنادًا إلى جدول المواعيد:

أرحل من هنا أيضًا في الساعة الرابعة والدقيقة الثانية عشرة، لكنني أصل إلى جموند بالفعل (بالفعل، بالفعل) في الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين، وحتى لو كان عليَّ أن أرحل يوم الأحد بقطار الصباح السريع، فلن يكون ذلك قبل الساعة العاشرة والدقيقة السادسة والأربعين، وعلى هذا فسيكون أمامنا ما يزيد على الخمس عشرة ساعة، يمكننا أن ننفق جانبًا منها أيضًا نائمين. إلا أن ذلك حتى في هذه الحالة

سيكون أفضل، ولن يكون عليَّ حتى أن أستقل هذا القطار، ففي الساعة الرابعة والدقيقة الثامنة والثلاثين بعد الظهر يوجد أيضًا قطار ركاب متجه إلى براغ، وسوف أستقل هذا القطار. وعلى هذا فسوف يتيح لنا هذا إحدى وعشرين ساعة نقضيها معًا، ونظريًّا على الأقل، سيكون باستطاعتنا الحصول عليها (تصوري) كل أسبوع.

ثمة كسب واحد فقط في هذا، لكنني لا أظنه كسبًا مهمًا، وعلى أية حال سيكون عليك أن تتحققي منه، ولا بد لك من أن تتحققي من أن محطة جموند، هي محطة تشيكية، لكن المدينة التي تتواجد بها هذه المحطة هي مدينة نمساوية، فهل من الممكن أن يمتد السخف المسمى بجواز السفر إلى المدى الذي يستلزم معه أن تسعى مواطنة من أهل ڤيينا للحصول على جواز سفر لكي يمكنها أن تعبر محطة سكة حديد تشيكية؟ في هذه الحالة سيتعين على أهل جموند الذين يريدون الذهاب إلى ڤيينا الحصول على جواز سفر بتأشيرة تشيكية. إن هذا شيء لا أستطيع أن أصدقه، شيء سيكون بمثابة صفعة موجهة إلينا مباشرة، ويكفيني من السوء أنني ربما تعيَّن عليَّ أن أضيع ساعة في الجمرك في جموند قبل أن يتم السماح لي بمغادرة المحطة، وعلى هذا فسوف يحدث اختصار لتلك الساعات الإحدى والعشرين.

وبعد إقرار هذه الحقائق المهمة، لا يوجد في الحقيقة المزيد مما يمكنني قوله. وأشكرك كثيرًا على كل حال لأنك لم تتركيني بدون رسالة منك، وحتى اليوم. لكن غدًا؟ لن أتصل تليفونيًّا لأن ذلك سيكون مثيرًا للغاية أولًا. وثانيًا لأنه سيكون مستحيلًا (ولقد استفسرت عن

إمكان ذلك بالفعل ذات مرة)، وثالثًا لأننا سنرى أحدنا الآخر عاجلًا، ولسوء الحظ لم يتسع الوقت ل (أوتلا) اليوم للذهاب إلى مركز البوليس بخصوص جواز السفر — غدًا، نعم لقد رتبت أنت أمر الطابع بصورة ممتازة (ولسوء الحظ قد أخطأت أنا في وضع طوابع البريد السريع، ولقد أوشك الرجل أن يبكي بالدموع عندما حدثته عنها)، لا شك أنك قد يسرت على نفسك أن تقدمي لي الشكر على الطوابع، لكنني قد سررت لهذا أيضًا، سررت سرورًا زائدًا بهذا حتى أنني سوف أرسل لك، تصوري، بعضًا من طوابع الفيلق الحربي، أما بخصوص سرد الحكايات الخرافية، فلست اليوم في مزاج يصلح لهذا؛ لأن رأسي أشبه ما تكون بمحطة سكة حديد، تغادرها قطارات، وتصلها أخرى، وتفتيش جمركي، ويكمن كبير مفتشي الحدود في انتظار تأشيرتي. التأشيرة صحيحة هذه المرة — ها هي: «نعم، إنها تأشيرة صحيحة، ها هو الطريق إلى خارج المحطة». هل تتفضل أيها السيد كبير مفتشي الحدود بأن تزيد في كرمك معي، فتفتح لي باب الخروج، إنني لا أقوى على أن أفتحه بنفسي. هل من الممكن أن يبلغ بي الضعف هذا الحد البالغ، لأن ميلينا تنتظر في الخارج؟ فيقول: «آه، بالطبع، لم أكن أعلم هذا» ويندفع الباب مفتوحًا.

***

الثلاثاء

أخشى ألا يكون في وسعي أن أستعد استعدادًا جيدًا جدًّا لمناسبة عيد ميلادك، فلقد كان نومي أسوا حتى من المعتاد، ورأسي ملتهبة، وعيناي محتقنتان، وصدغي يؤلمني، بالإضافة إلى السعال، وأخشى ألا يكون في مقدوري أن أقوم بتلاوة تهنئة مسهبة لا يقطعها السعال. ولحسن الحظ أنه ليس ثمة ما يدعو لتهنئة، فقط عبارات الشكر على أنك تتواجدين في هذه الدنيا، حيث لم يكن لي منذ الوهلة الأولى أن أرتاب في أن وجودك كان ممكنًا (وبهذا ترين أنني لا أملك معرفة كافية بالدنيا؛ أيضًا — فيما عدا أنني على نقيضك، أسلم بها كما هي). وأنا أشكرك على وجودك (هل يعد هذا الشكر امتنانًا؟)، أشكرك بقبلة شبيهة تحديدًا بتلك التي فزت بها على محطة السكة الحديدية. وإن كنت لم ترضي عنها (لكنني اليوم أكثر عنادًا) لم أشعر بسوء حالتي إلى هذا الحد طوال الفترة الأخيرة، فمن حين إلى آخر كنت أشعر أحيانًا حتى بأنني في صحة جيدة جدًّا، إلا أن أمجد أيام حياتي قد صادفني منذ حوالي أسبوع، فمع كل ما كنت عليه من فقدان للقدرة، كنت أواصل السير بلا نهاية حول البركة في داخل مدرسة تعليم السباحة، وكان الوقت يقترب من المساء، ولم يكن قد بقي هناك الكثير من الناس، وإن يكن ما يزال يوجد عدد لا بأس به منهم، عندما اتجه نحوي مساعد مدرس السباحة (الذي لا يعرفني) وتجول بنظراته العاجلة فيما حوله كما لو كان يتطلع باحثًا عن شخص ما، ثم انتبه إلى وجودي، أو

بوضوح اختارني، ثم سألني: «هل تحب أن تقوم بشوط تجديف؟» يبدو أنه كان هناك رجل ما، أحد المضاربين في العقارات فيما أعتقد، كان قد وصل لتوه من جزيرة صوفيا، وكان يبحث عمن يوصله إلى «الجزيرة اليهودية» حيث يوجد مبنى هائل فوق تلك الجزيرة الأخيرة، حسنًا، لا ينبغي على المرء أن يبالغ في الأمر كله، لقد لاحظ معلم السباحة وجودي، وقرر أن يتيح للصبي البائس (الذي هو أنا) التمتع بنزهة مجانية بالقارب. ومع ذلك، فمراعاة لرجل المباني المهم كان عليه أن يختار صبيًّا يبدو عليه أنه أهل لأن يعوّل عليه ليس فقط من حيث قوته ومهارته فحسب، لكن أيضًا أن يكون صبيًّا لن يستغل القارب بعد ان يفرغ من أداء مهمته، في نزهات مختلسة، بل يعيده في الحال. كل هذا كان هو قد ظن أنه قد عثر عليه في شخصي. وانضم إلينا ترنكا العظيم (صاحب حمام السباحة الذي لا بد لي من أن أحدثك بالمزيد عنه يومًا ما) وتساءل إن كان الصبي يقدر على السباحة، فأكد له ذلك معلم السباحة الذي كان قد استطاع بوضوح أن يتكهن بكل شيء فقط بمجرد النظر إلى وجهي. ولم أكن قد تفوهت بكلمة. وجاء الراكب الآن وانطلقنا، وكصبي حسن السلوك، لم أكد أتحدث. قال هو إنها كانت ليلة سارة، وأجبت (نعم)، ثم أضاف قائلًا إنها على الرغم من ذلك كانت تميل إلى البرودة، وقلت (نعم). أخيرًا قال إنني كنت أجدف بسرعة شديدة، وهو ما لم أستطع امتنانًا أن أجد ردًّا عليه. ولا حاجة بي إلى القول بأنني قد بلغت شاطئ الجزيرة بأفضل أسلوب ممكن، وغادر هو القارب، وشكرني، لكنه نسي أن يمنحني بقشيشًا،

وهو ما سبب لي إحباطًا (نعم، ما دمت لست فتاة). جدفت بالقارب راجعًا مباشرة كالسهم. وكان ترنكا العظيم مندهشًا وهو يراني راجعًا بمثل هذه السرعة ـ حسنًا، لم يحدث قط أن كنت مفعمًا بالزهو لفترة طويلة من الزمن كما كنت في تلك الأمسية، أحسست وقتها بأنني قد ازددت جدارة بك، مجرد زيادة قليلة جداً في جدارتي، إلا أنني كنت عندها أكثر قليلًا في جدارتي من المعتاد. وكنت أنتظر في كل أمسية منذ ذلك الوقت، في مدرسة تعليم السباحة، مترقبًا عابرًا آخر، لكن لم يظهر واحد حتى الآن.

في الليلة الماضية، وخلال شبه إغفاءة قصيرة تراءى لي أنه كان ينبغي لي أن أحتفل بعيد ميلادك بزيارة كل الأماكن المهمة في حياتك. وفيما بعد مباشرة، وبدون أي مجهود، وجدتني أمام المحطة الغربية. كانت مبنى بالغ الصغر، كما لم تكن تتسع في داخلها بمساحة تكفي أي قطار سريع يصلها لتوه، ولعربة واحدة، لم يكن يوجد مكان لها، فكانت تبدو كلها في خارج المبنى. كنت مسرورًا جداً لحقيقة أنه أمام المحطة كانت تقف ثلاث فتيات في ثياب لائقة تمامًا، وإن كن في غاية النحافة (كانت لإحداهن ضفيرة شعر طويلة) كن ثلاث حمّالات للأمتعة. أدركت عندئذ أن ما كنت تقومين بعمله لم يكن في الحقيقة أمرًا غير معتاد ـ على أنني كنت مسرورًا جداً لأنك لست هناك معهن ـ على أنني كنت، أيضًا قد حزنت لأنك لم تكوني هناك. لكن كنت من قبيل التأسي لحزني قد عثرت على حقيبة يد صغيرة كان أحد الركاب

قد نسيها، وجذبت، لدهشة الركاب الواقفين المحيطين بي، بعضًا من الأثواب الكبيرة من داخل الحقيبة.

الجزء الثاني بصفة خاصة من «تيبوس» ممتاز، حاد، وغاضب، ومعاد للسامية، ورائع، وحتى وقت قريب لم أكن قد أدركت مدى الدهاء الذي ينطوي عليه نشر المرء لما يكتبه. إنك تتحدثين إلى القارئ برصانة بالغة، وبحميمية زائدة؛ وبكل هذا الانشغال الملح، فلقد نسيت كل شيء آخر في الدنيا، واستغرق القارئ وحده كل اهتمامك، لكنك في النهاية تقولين فجأة: «هل ما كتبته شيء حسن؟، نعم، هو شيء حسن؟ حسنًا، لقد سررت، إلّا أنني مع ذلك بعيد عنك كل هذا البعد في المكان، ولن أتلقى منك أية قبلات كمكافأة؟».

وهذه هي النهاية في الحقيقة، فلقد مضيت عني بعيداً.

هل تعلمين، بالمناسبة، أنك كنت قد أعطيت لي كهدية، بمناسبة (تثبيتي) (هناك أيضًا شيء ما يشبه تثبيتًا يهوديًّا)؟ لقد ولدت عام 83، وكنت بهذا في الثالثة عشرة من عمري عندما ولدت أنت. إن عيد الميلاد الثالث عشر هو مناسبة خاصة. ففي أعلى هناك بالقرب من المذبح في المعبد، كان عليَّ أن أتلو قطعة حفظتها عن ظهر قلب بصعوبة بالغة، ثم كان عليَّ في المنزل أن أقوم بتوجيه خطبة قصيرة (محفوظة أيضًا عن ظهر قلب). تلقيت أيضًا هدايا كثيرة. لكنني أتصور أنني لم أكن راضيًا بذلك كل الرضا، فثمة هدية خاصة كنت أفتقدها

عندئـذ، ولقـد طلبتهـا من السـماء؛ فـترددت إلى أن وهبتهـا لي في 10 أغسطس.

بالطبع سوف أعيد قراءة الرسائل العشرة الأخيرة بسرور، على الرغم من أنني أعرف ما تحويـه كـل المعرفـة في الحقيقـة. لكن عليـك أن تعيـدي قراءة رسائلي أنت أيضًا، وسوف تجـدين فيهـا تسـاؤلات مدرسـة بنـات بأكملها.

سوف نتحدث عن الأب في جموند.

واجهتني «جريته» وكالمعتاد عنـدما أواجـه بفتيـات، أكـون عـاجزًا. هـل كانت لديَّ قـط حـتى الآن فكـرة مـا تتعلـق بـك؟ لا أسـتطيع أن أتـذكر. أحب أن أمسك بيدك في يدي، وأحب أن أتطلع في عينيك. هذا هو كل ما يدور حولك، فلتغربي يا «جريته»!؛ وبقدر ما يتعلق الأمر ب («عـدم كسـب» ـ «لا يمكـنـني أن أفهم كيـف أن شخصًـا كهـذا...») يواجهـني نفس اللغز أنا نفسي؛ إنه لغز، لا أظن أننا سنتمكن من حل مغزاه ـ حتى لو اشتركنا معًا في ذلك. وهو علاوة على ذلـك يعـد تجـديفًا. وعلى أيـة حال، فأنا لا أنوي أن أبدد دقيقـة واحـدة بشأنه في جمونـد ـ إنـني أدرك الآن أنه سـيكون عليـك أن تكـذبي، أكـثر ممـا سـيتعين عليّ أن أكـذب. وإنني لأشعر لهذا بالضيق.

فإذا حدث أن كان ثمة عقبة جدية، فلتبق في ڤيينا أيًّا كان الحال ـ حتى بدون أن تتيحي لي أن أعلم بذلك، وسـأكون قـد قمت فحسـب بمجـرد رحلـة قصـيرة إلى جمونـد، وسـأكون أقـرب إليـك بمـا يسـاوي ثلاث

ساعات. لقد حصلت بالفعل على تأشيرة جواز السفر. أخشى أنك لن تتمكني من الاتصال بي برقيًّا؛ على الأقل ليس اليوم، بسبب إضراباتكم.

***

الأربعاء

لا أفهم التماسك للصفح، فلو كان الأمر قد انتهى، فليس هناك ما يدعوني إلى القول بأنني أصفح عنك. لقد كنت صارمًا فقط ما دام الأمر لم يبلغ بعد نهايته، وفي ذلك الوقت لم تكوني تنزعجي بشأنه. وكيف كان لي ألّا أصفح عنك بخصوص أمر قد انقضى؟ وإلى أي حد تبدو عليه الأشياء مضطربة لا بد، في عقلك، حتى يكون، يكون في مقدورك أن تصدقي شيئًا مثل هذا!

لا أحب المقارنة بيني وبين والدك، على الأقل في الوقت الحاضر. هل أخسرك أنت أيضًا؟ (ثقي بأنني لا أتمتع بالطاقات التي يتمتع بها والدك، والتي يتطلبها ذلك) لكن لو كنت تصرين على عقد المقارنة، فمن الأفضل عندئذ أن تعيدي إليّ الصدار الصوفي.

إن شراء وإرسال الصدار الصوفي كان بالمصادفة، قصة استمرت على مدى ثلاث ساعات، وهي القصة التي ـ كنت في أشد الحاجة إليها

وقتها ــ أنعشتني، والتي أشعر بالامتنان لك بسببها. إنني متعب فلا أقوى على سردها لك اليوم، فهذه هي الليلة الثانية التي أقضيها بدون نوم. هل أنا أضعف من أن أتماسك قليلًا حتى أحظى بمدحك لي في جموند؟

تخيلي نفسك تحسدين تلك السيدة المسافرة إلى أمستردام! لا شك أن ما فعلته كان شيئًا حسنًا، لو كان ما فعلته قائمًا على اقتناع منها بذلك، لكنك ارتكبت خطأ واحدًا منطقيًّا. ذلك أن الشخص الذي يعيش على هذه الحال، تعد الحياة بالنسبة له إرغامًا، وأما بالنسبة للشخص الذي لا يمكنه أن يعيش على هذا النحو، فسوف تكون الحياة حرية. إن الحال على هذا النحو نفسه في كل مكان. وفي التحليل الأخير فمثل هذا (الحد) ليس سوى رغبة في الموت.

وبقدر ما يتعلق الأمر ب «ماكس»، لك أن تفعلي ما تشائين. لكن بما أنني أعرف الآن تعليماتك الموجهة إليه، فسوف أرغم نفسي، عندما تبدأ النهاية في الاقتراب، على الذهاب إليه، وأعرض عليه القيام برحلة قصيرة تستغرق عدة أيام «لأنني أشعر بالقوة الزائدة على نحو خاص» ثم بعدئذ أزحف عائدًا إلى منزلي؛ لكي أتمدد هنالك للمرة الأخيرة.

هذه بالطبع هي الكيفية التي أتحدث بها ما دام أنها لم تنته إلى صميم الموضوع، لكن ما إن تبلغ درجة حرارتي 37.5° (38° في المطر) فإن سعاة الرسائل البرقية سيتعثرون أحدهم في أعقاب الآخر صاعدين درجات سلمك الممتد. وآمل يكونوا مشاركين في إضراب عن العمل

عندئذ، وليس في لحظة كتلك التي يناسبها الإضراب الآن، في مناسبة عيد ميلادك.

لقد استقبل مكتب البريد بغاية الحرفية تهديدي بعدم إعطاء طوابعي للرجل. وقد أزيل طابع البريد المستعجل بالفعل قبل أن يصلني. بالمناسبة، يجب أن تفهمي ما الذي يسعى الرجل خلفه، ولا ينبغي لك أن تظني أنه يجمع طابعًا واحدًا من كل سلسلة من الطوابع، إن لديه صفحات واسعة لكل سلسلة منها، ولديه مجلدات كبيرة الحجم تضم هذه الصفحات، وعندما تمتلئ إحدى صفحات سلسلة من هذه السلاسل، يلحق بها صفحة جديدة، وهكذا. وفي كل فترة من فترات ما بعد الظهر يجلس إلى هذه الصفحات، وبهذا يكون بدينًا، ومرحًا، وسعيدًا، ومع كل سلسلة يكون لديه سبب جديد للسعادة. اليوم مثلًا بخصوص الطوابع ذات الخمسين «هيلر»: فسوف تزداد أثمان طوابع البريد قريبًا (أيتها المسكينة ميلينا) وسوف تصبح الطوابع ذات الخمسين «هيلر» أكثر قيمة!

يعجبني ما تقولينه عن (كرويتسن) (وليس عن «أفلير» التي هي مصحة حقيقية لأمراض الرئة؛ إنهم يحقنون المرضى هناك، أفّ! فلقد كانت هي المحطة الأخيرة لأحد الكتبة في مؤسستنا قبل وفاته بالسل). إنني أحب هذا النوع من الأماكن الريفية، كما أنها أماكن لها أيضًا ذكريات تاريخية، لكن هل تظل مفتوحة في أواخر الخريف وهل يقبلون فيها الأجانب، وهل مثل هذه الأماكن ليست باهظة الثمن بالنسبة للأجانب؟

وهل أي شخص فيما عداي يمكنه أن يفهم لماذا كان عليّ أن أذهب إلى بلد التضور جوعًا لكي أزداد سمنة؟

إلا أنني سأكتب إليهم.

بالأمس تحدثت مرة أخرى مع ذلك ال (شتاين). إنه أحد هؤلاء الذين حاقت بهم المظالم العامة. لست أدري لماذا يضحك منه الناس. إنه يعرف كل شخص، يعرف كل التفاصيل الشخصية، وهو في الوقت نفسه متواضع، وأحكامه تقوم على اهتمام شديد، وتتدرج في مهارة، ويفعمها الاحترام؛ فإن كانت واضحة بدرجة زائدة قليلًا، وخاوية للغاية في براءتها، فهي إنما تزيد في قيمته، هذا على فرض أن المرء يعرف حقيقة الأشخاص المزهوين الغامضين الشهوانيين الإجراميين. بدأت أتحدث فجأة عن «هاس»، وتسللت إلى ما وراء «يارميللا»، وتوصلنا بعد قليل إلى زوجك، وأخيرًا ـ وليس صحيحًا بالمناسبة أنني أستمتع بسماع التقارير التي تتناولك، فقط أريد أن أسمع اسمك المرّة بعد المرّة، طوال النهار. ولو كنت قد سألته لكان قد أخبرني أيضًا بالكثير عنك، لكن ما دام أنني لم أطلب منه ذلك فقد قنع بتقرير حقيقة (ندم مخلصًا على إعلانها لي) أنك لا تكادين تشعرين بالحياة، وأن الكوكايين كاد أن يدمر حياتك (كم كنت ممتنًّا في تلك اللحظة؛ لكونك ما زلت في عالم الأحياء)، وأضاف حذرًا، وفي تواضعه المعهود، بأنه لم يشهد ذلك هو نفسه بعينيه، وإنما فقط قد سمع به. أما عن زوجك فقد تحدث، وكأنه يتحدث عن ساحر غلّاب. كما أضاف أيضًا اسمًا جديدًا على سمعي، يرجع إلى عهد (براغ): لبعض الوقت،

لكنني استأذنت في مغادرته، كنت قد أحسست بالغثيان قليلًا، ومن نفسي أيضًا علاوة على ذلك؛ لأنني كنت أسير هنالك بجواره صامتًا، أستمع إلى أشياء لم أكن قد أردت سماعها، ولا كانت تتعلق بي.

أكرر: إذا حدث أن قامت أية عقبة أمكنها أن تسبب لك أدنى معاناة– فلتبقي في ڤيينا– إذا لم يكن من ذلك بد، حتى بدون أن تحيطيني علمًا بذلك. لكن لو غادرتها بالفعل، فعليك أن تجتازي حاجز الحدود في الحال. فلو حدثت مصادفة ما، في تلك اللحظة التي لا يمكن التنبؤ بها بالمرة، ولم أتمكن من المغادرة ولم أستطع الوصول إليك في ڤيينا (وفي مثل تلك الملابسات سوف أتصل برقيًّا بالسيدة ك.)، فسوف تجدين برقية في انتظارك في فندق المحطة في جموند.

هل وصلتك الكتب الستة كلها؟

في أثناء قراءتي قصتك «المقهى» كان قد جاءني إحساس مماثل عند استماعي إلى شتاين فيما عدا أنك تسردين قصة أفضل كثيرًا مما يفعل، فمن ذا الذي يحكي قصة بمثل هذه الجودة؟ لكن لماذا تحكينها لكل شخص ممن يبتاعون صحيفة ال «تريبونا»؟، في أثناء قراءتي لها أحسست كما لو أنني كنت أسير ذهابًا وجيئة أمام المقهى، نهارًا وليلًا لسنوات؛ وفي كل مرة يصل إليها أو يغادرها أحد روادها كنت أقنع نفسي من خلال النظر إلى بابها المفتوح أنك كنت ما تزالين بداخلها، ومن ثم كنت أواصل التجوال، وكنت أنتظر. ولم يكن انتظاري حزينًا،

ولا كان مجهدًا، فأي حزن أو إجهاد في أن أنتظر خارج مقهى تجلسين بداخله!

القسم الثاني

الخميس

كون مونشهاوزن قد قام بـأداء مهمتـه كمـا يجب، لهـو أمـر قـد أبهجـني كثيرًا جدًّا، وهو في الحقيقة كان قد أنجز مهام أكثر كثيرًا في صـعوبتها قبل الآن. وهل ستنال الورود أيضًا العناية بها مثل الزهور الأخرى؟ ومـا هي أنواع تلك الزهور؟ ومن هو مصدرها؟

سؤالك عن جموند، كنت قد أجبته من قبـل أن توجهيـه إليّ. حـاولي أن تقللي من إيلامـك لنفسـك إلى أقـل حـد ممكن، فعندئـذ سـوف يكـون إيلامك لي أقل. لم أدرك كمـا ينبغي لي أنـه كـان عليـك أن تكـذبي كـل هـذا الكـذب، لكن كيـف يمكن لزوجـك أن يظن أنـني لا أقـوم بكتابـة الرسائل لك، وأنني لا أود رؤيتك بعد أن أتيحت لي رؤيتك ذات مرة؟

أنت تكتبين لي قائلة بأنك أحيانًا ما تشعرين بالرغبة في وضـعي موضـع الاختبار. ولقد كانت هذه الفكرة هي مزحـة فحسـب، ألم تكن كـذلك؟ أرجو ألّا تفعليها. إن عملية التعرف في حد ذاتهاـ تستلزم طاقـة كافيـة، فأي قدر من الطاقة زيادة على ذلك يستلزمه العجز عن التعرف؟

إنني مسرور للغاية لأن الإعلانات[74] قد راقت لـذوقك. فلتـأكلي، عليـك فقط أن تأكلي! ربما لو بدأت في التوفـير اليـوم، وانتظـرت أنت عشـرين عامًـا، وأصـبح الفـراء أرخص ثمنًـا (لأنـه في ذلـك الحين ربمـا تكـون

74يبدو واضحًا أنها إعلانات عن تجار الفراء في ڤيينا.

أوروبا قد أصبحت خرابًا، وراحت حيوانات الفراء تجري في أنحاء الشوارع)، ربما يكون ممكنًا عندئذ وجود ما يكفي من النقود لشراء فراء.

وهل تعلمين بالمناسبة، متى سأحصل في النهاية على بعض النوم؟ ربما في ليلة السبت أو ليلة الأحد؟

حسنًا، لمعلوماتك، هذه الطوابع مرتفعة الثمن ـ كانت هي رغبته الخاصة (ليس لديه شيء سوى رغبات «خاصة») ـ يقول إن «هذا جمال، هذا جمال»، فأية أشياء يجب أن يراها في هذه الطوابع؟!

والآن سوف آكل، ثم أذهب إلى (مكتب التحويلات) ـ ويعمل صباحًا.

***

الجمعة

لست أدري تمامًا لماذا أكتب، ربما بدافع من العصبية، كما كان بدافع العصبية أن أرسلت لك هذا الصباح ردًّا برقيًّا أخرق على الرسالة المستعجلة التي تسلمتها الليلة الماضية. وبعدما أستفسر عن (شنكر) بعد ظهر اليوم سوف أرسل إليك ردًّا فوريًّا.

إن المراسلة بيننا حول هذا الموضوع تعيد المرء المرة تلو المرة إلى الخلاصة بأنك قد ارتبطت بزوجك بكل الروابط فيما عدا رباط الزواج المقدس الوثيق (كم أنا عصبي المزاج، لا بد أن سفينتي قد فقدت دفتها على نحو ما، خلال هذه الأيام الأخيرة)، وارتبطت أنا بزواج مماثل أيضًا ب... لست أدري بمن، إلّا أن عين تلك الزوجة المرعبة غالبًا ما تستقر عليّ؛ وإنني لأشعر بهذه النظرة. والشيء الغريب أنه مع أن كلًّا من هاتين الزيجتين تعد رباطًا وثيقًا لا انفصام له، حتى أنه لا يبقى شيء يمكن أن يقال عن الموضوع، إلا أن عدم قابلية إحدى الزيجتين للانفصام، على الرغم من ذلك تشكل استعصاء الزيجة الأخرى على الانفصام، أو على الأقل توثق رباطها والعكس بالعكس، هو ما يحدث في حالة الزيجة الأخرى. إلا أن ما يبقى هو لا شيء سوى الحكم كما تمت صياغته بمعرفتك.

«ذلك لن يكون أبدًا»، ودعينا لا نتحدث ثانية أبدًا عن المستقبل، فقط عن الحاضر.

هذه الحقيقة هي حقيقة مطلقة راسخة، وهي العمود الذي تستقر فوقه الدنيا، ومع ذلك فإنني أعترف أنه، في إحساسي (في إحساسي وحده مع ذلك، تبقى هذه الحقيقة، حقيقة مطلقة)، هل تعرفين إنني، عندما أحاول أن أكتب شيئًا من قبيل ما يلي، تبدأ السيوف التي تحيط بي حوافها في دائرة، في الاقتراب ببطء من الجسد، ويكون العذاب أقصى ما يكون، عندما تبدأ هذه الحواف في كشط جسدي. لا أقصد وخزه؛ وإنما عندما تشرع فحسب في كشط جسدي، تبدو مرعبة بالفعل غاية الرعب، حتى أنني أخونك فورًا، وعند الصرخة الأولى، وأخون نفسي، وأخون كل شيء- وأنني على أساس من هذا الوهم وحده أعترف أن مثل هذه المراسلة حول هذه الموضوعات تبدو لي في إحساسي (أكرر مرة أخرى، وبحياتي، أنها تبدو لي فقط في إحساسي) كما لو كنت أعيش في مكان ما في أفريقيا الوسطى، وأنني قد عشت هناك حياتي كلها، محاولًا أن أنقل لك، أنت التي تعيشين في أوروبا، آرائي الراسخة فيما يتعلق بالتطور السياسي المقبل. إلا أنها مجرد مجاز: مجاز غبي أخرق، زائف، عاطفي، بائس، أعمى عن عمد. صدقيني، سيوفي ليست شيئًا آخر.

أنت على حق في اقتباسك لي من رسالة زوجك، وإن كنت لا أفهم كل شيء فهمًا تامًّا (لا ترسلي إليّ الرسالة)، وأكثر ما أدركه- أن هذه الرسالة قد كتبها رجل (غير متزوج) يريد أن يتزوج. ما أهمية «عدم وفائه» العرضي، الذي لا يعد حتى انعدامًا للوفاء، ذلك أنكما كليكما باقيان على الطريق نفسه، فيما عدا أنه يتفق له على هذا الطريق أن

يضل قليلًا إلى ناحية اليسار؟ أية أهمية لهذا «الانعدام للوفاء» الذي لم يتوقف قط علاوة على ذلك عن صب أعمق مشاعر السعادة حتى في غمار أشد حالات حزنك؟ أية أهمية لهذا «الانعدام للوفاء» عند مقارنته بعبوديتي الأبدية؟

لم أسئ فهمك فيما يتعلق بأمر زوجك. أنت تصبين سر تماسكك الذي لا سبيل إلى تحطيمه، تصبينه كله، هذا السر الثري الذي لا ينفد، المرة بعد المرّة في القلق الذي يشغلك بشأن حذائه ذي الرقبة. شيء ما في هذا الانشغال يعذبني، لست أدري بالضبط ما هو. إن الأمر في النهاية غاية في البساطة: فلو كان لك أن تتركيه لكان عليه إما أن يعيش مع امرأة أخرى، أو أن يذهب ليعيش في نُزل، وسوف يتم تنظيف حذائه ذي الرقبة بعناية أفضل مما يلقاها الآن. هذا أمر سخيف، وهو ليس سخيفًا أيضًا، لست أدري ماذا يعذبني إلى هذا الحد كله في هذه الملاحظات، ربما تعرفين أنت؟

لم يكن يوم عيد ميلادك ليضيع لو كنت قد كتبت لي قبل حلوله. بخصوص النقود سوف أحضرها معي ــ ويحتمل ألا يرى أحدنا الآخر على أية حال، في هذا الاضطراب الذي قد يحدث بسهولة.

ثمة شيء آخر. أنت تكتبين عن الناس الذين يقضون أمسياتهم وصباحاتهم معًا، وعن أولئك الذين لا يفعلون ذلك. ويبدو لي أن وضع الناس الأخيرين هو الوضع الذي أفضله أكثر، لقد فعلوا أمرًا سيئًا يقينًا أو احتمالًا، وقذارة هذا المشهد تستمد وجودها أساسًا كما تقولين

بحق، من كونهم غرباء، وإنها لهي قذارة مادة، تشبه قذارة شقة لم يشغلها سكان قط، ثم تنفتح فجأة على اتساعها. هذا سيئ حقًّا، إلا أن شيئًا حاسمًا لم يحدث؛ لا شيء حاسم حقًّا، لا في السماء و لا فوق الأرض، لا شيء بالفعل سوى (لعب بكرة) كما تسمينه أنت. إنه كما لو كانت حواء عندما قطفت التفاحة حقًّا من الشجرة (أحيانًا ما أعتقد أنني أفهم سقوط الإنسان كما لم يفهمه غيري) كانت قد فعلت ذلك على أية حال لمجرد أن تريها لآدم ـ لأنها أعجبتها. لكن كان قضم التفاحة هو الفعل الحاسم ـ أما اللعب بها، وإن لم يكن مسموحًا به، إلا أنه لم يكن مع ذلك ممنوعًا.

***

وعلى هذا فلن أحصل على رد لهذه الرسالة لعشرة أيام أخرى أو أربعة عشر يومًا. وبمقارنة ذلك بالماضي القريب، يكاد يبدو هذا وكأنه هجر، أليس كذلك[75].

وأشعر الآن بالذات كما لو كان لا بد لي أن أخبرك بعدة أشياء، لا يمكن التعبير عنها، ولا كتابتها، ليس لكي أحاول بواسطتها إصلاح شيء أفسدته في جموند، ولا لكي أنتشل شيئًا ما من الغرق؛ بل لكي أساعدك على أن تتفهمي بعمق طبيعة أحوالي، وذلك حتى لا تهربي مذعورة بعيدًا عني ـ وما أود أن أخبرك به هو، على الرغم من كل شيء، ما يمكن أن يحدث بين الناس، أحس أحيانًا كما لو كنت أحمل تلك الأثقال الزائدة من الرصاص حتى ليتعين عليّ في كل لحظة أن أغطس متجرجرًا إلى أعماق البحار، وأن الشخص الذي يحاول أن يمسك بي، أو حتى يحاول أن (ينقذني)، سوف يكف عن محاولته، ليس لضعفه، ولا حتى ليأسه، بل لمجرد الضيق المحض. ولا يقال هذا بالطبع لك، بل يقال لانعكاس واهن لشخصك، انعكاس لا تكاد تتحقق منه رأس مرهقة خاوية (ولا أقول رأسًا تعسة أو متهيجة، لأنها حال يوشك المرء على الامتنان لها لو كانت كذلك).

حسنًا، ذهبت بالأمس لزيارة «يارميللا»، ولما كانت هذه الزيارة قد بدت لي زيارة مهمة بالنسبة لك فلم أرد تأجيلها، حتى ولو ليوم واحد،

75كانت ميلينا في سانت جلجلن.

أيضًا، ولكي أكون صادقًا فإن فكرة أنه سيتعين عليّ الآن أن أتحدث إلى «يارميللا» كانت قد جعلتني قلقًا، ولهذا فضلت أن أنتهي منها في الحال، على الرغم من كوني لست حليقًا (ولم يكن نمو شعري عندئذ مجرد قشعريرة فوق مسام الجلد، وهو ما ظننت بقدر ما يتعلق بذلك نجاح مهمتي أنه لن يؤدي إلى أي ضرر). ذهبت إلى هناك حوالي الساعة السادسة والنصف، ولم يرن جرس الباب، ولم تكن هناك فائدة من الطرق على الباب، ولم تكن توجد نسخ من صحيفة (نارودني لستي) في صندوق البريد، وكان واضحًا أنه لا يوجد أحد بالمنزل، ظللت واقفًا في المكان لفترة قصيرة، ثم اقتربت امرأتان قادمتان من الفناء، كانت إحداهما هي «يارميللا»، وربما كانت الأخرى أمها.

عرفت «ي». في الحال، على الرغم من أنها لم تكد تشبه الصورة الفوتوغرافية، ولم تكن تشبهك على الإطلاق.

غادرنا المنزل على الفور ولمدة عشر دقائق، رحنا نتمشى ذهابًا وجيئة خلف الأكاديمية الحزبية السابقة. وكان أكثر ما دهشت له حقيقة أنها كانت على عكس تنبؤك ثرثارة جدًّا، وإن يكن فحسب على مدى هذه الدقائق العشر، تكلمت بلا انقطاع على الأغلب. ولقد ذكرتني كثيرًا جدًّا بتلك الثرثرة التي غلبت على رسالتها تلك التي أرسلتها أنت لي ذات مرة، ثرثرة كانت تبدو مستقلة كل الاستقلال عن المتحدثة. ولقد كانت هذه الثرثرة لافتة للنظر لأنها لم تكن تتناول تلك التفاصيل العينية كالتي وردت بتلك الرسالة. كان اضطرابها مما يمكن تفسيره جزئيًّا بحقيقة أنها، كما أوضحت، كانت قد أثيرت لأيام بخصوص

«المسألة»[76]، وكانت قد أبرقت ل «هاس» بخصوص (ڤيرفـل) (دون أن تتلقى ردًّا حـتى الآن؛ وكـانت قـد أبـرقت، وكتبت رسـالة عاجلـة لـك، وأحرقت الرسائل في الحال بناء على اقتراحك، ولم يكن في استطاعتها أن تفكـر في أيـة وسـيلة يمكنهـا بواسـطتها أن تهـدئ خـواطرك بسـرعة، وبهذا كانت قد رأت أن تحضر لزيـارتي في هـذه الظهـيرة لكي تتحـدث على الأقل إلى شخص ما على علم هو أيضًا بالأمر كله.

(إنها فيما يبدو واقعة تحت تـأثير الانطبـاع بأنهـا تعـرف مكـان إقـامتي، والسبب في هذا هو ما يلي: ذات مرةـ وأظن أن ذلك كان في الخريف أو كان في الربيع، فلست متأكدًا، كنت قد ذهبت للتجديف مع «أوتلا» والصـغيرة «روزنكـا» وهي البنت الـتي كـانت قـد تنبـأت في قصـر (شونبورن) باقتراب نهايتي، وأمام ال (رودولفينوم) قابلنا «هاس» ومعه امرأة لم أكن حتى قد لاحظت وجودهـا وقتهـا: وكـانت هـذه المـرأة هي «يارميللا» وذكر «هاس» لها اسمي، وتذكرت «يارميللا» أنها كـانت قـد تحدثت مع شقيقتي قبل سنوات في حمام السباحة المـدني. ولمـا كـان حمام السباحة المـدني مكانًـا مسـيحيًّا جـدًّا في تلـك الأيـام، فقـد بقيت «أوتلا» ماثلة في ذاكرة «يـارميللا» باعتبارهـا حالـة يهوديـة، نـادرة. وفي ذلك الوقت كنا نقطن في مواجهـة حمـام السـباحة، وكـانت «أوتلا» قـد أطلعتهـا على شـقتنا، وبهـذا فهـذه هي القصـة بأكملهـا، وكـان هـذا هـو السـبب في أنهـا كـانت بالغـة السـعادة، من أعماقهـا؛ لأنـني كنت قـد حضرت، وبالغة الحيويةـ ولم تكن سعيدة فوق هذا، فيما يتعلق بتلـك

76فيما يبدو بخصوص (مسألة) الرسائل بلا توقيع.

التعقيدات، التي كانت بكل تأكيد، بكل تأكيد، قد بلغت غايتها، تلك التعقيدات التي كما أكدت هي لي في انفعال، أنها تعقيدات لن يكون لها بكل تأكيد، بكل تأكيد، أية عواقب لاحقة. ولم أكن قد أشبعت طموحي مع ذلك؛ كنت قد رغبت ـ في الحقيقة، دون أن أدرك أهمية المهمة التي كان عليّ أن أقوم بها، إلا أنني كنت قد استغرقت في القيام بها كل الاستغراق ـ في إحراق الرسائل بنفسي، ونشر رمادها من أعلى الشرفة.

أما عن نفسها فلم تذكر سوى القليل؛ وأنها تجلس في المنزل طوال الوقت ـ ويبرهن وجهها على ذلك ـ وأنها لا تحادث أحدًا، وأن مغادرتها للمنزل لا تتعدى مرة من وقت لآخر تذهب فيها لتبحث عن شيء في إحدى المكتبات، أو لكي تقوم بإرسال رسالة من وقت لآخر. وفيما عدا ذلك، فقد تحدثت فقط عنك (أو لعلني أنا الذي كنت قد تحدثت عنك، يصعب على المرء أن يميز حقيقة ذلك فيما بعد)، وعند ذكري للسعادة الهائلة التي كان قد سببّها لك تصورك، من خلال قراءاتك للرسالة التي وصلتك من برلين ـ إمكان قيام «يارميللا» بزيارتك؛ قالت إنها لا تكاد تفهم إمكانية السعادة، وآخر ما يخطر على بالها أن تفهم أن ثمة من يمكن أن تتيح له هي أن يسعد. ولقد بدا ذلك بسيطًا ومقنعًا. قلت إن الأزمان القديمة لا يمكن لها أن تنمحي تمامًا، وببساطة؛ وإنها تتضمن دائمًا إمكانيات يمكنها أن تعود إلى الحياة. قالت: نعم، ربما أمكن أن يحدث هذا لو كان لكما أن تتواجدا معًا، وإنها بدأت أخيرًا تتطلع تطلعًا زائدًا إلى رؤيتك؛ ولقد بدا لها أنه من

الطبيعي للغاية، ومن الضروري أن تتواجدي هنا ــ أشارت عدة مرات أمامها إلى الأرض، وكانت يداها أيضًا مفعمتين بالحيوية ــ هنا، هنا، هنا.

وأمام المنزل ودّع أحدنا الآخر بكلمات مقتضبة. قبل هذا، كانت قد أثارت ضيقي على نحو ما بقصة معقدة عن صورة فوتوغرافية لك جميلة على نحو خاص، كانت تريد أن تريها لي. وأخيرًا اتضح أنها مباشرة قبل رحلتها إلى برلين، عندما كانت تقوم بإحراق كل أوراقها ورسائلها، كانت قد ثبتت هذه الصورة على الحائط، وإنها في هذه الظهيرة بالذات كانت قد بحثت عنها ثانية بلا جدوى.

ثم أرسلت لك برقية تتصف بالمبالغة في الكيفية التي تم بها تنفيذ تعليماتك. لكن هل كان يسعني أن أفعل أكثر مما فعلت؟ وهل أنت راضية عني؟

لا معنى لأن أستعطفك، بما أنك لن تتسلمي هذه الرسالة قبل أسبوعين، لكن ربما أمكن فقط إضافة صغيرة ما إلى افتقار الالتماس من كل معنى: أرجوك لا تدعي نفسك للخوف يبعدك عني، فلو كان من الممكن أصلًا في هذه الدنيا المقلقة (حيث إنه إذا حدث أن انجرف المرء بعيدًا، فهو إنما يكون قد انجرف بعيدًا، ولا حيلة له في ذلك) ــ لا تدعي نفسك للخوف يبعد بك عني، حتى لو خيبت أملك مرة أو ألف مرة، أو خيبت ظنك الآن بالذات أو ربما الآن بالذات دائمًا. في الحقيقة

ليس هذا التماسًا، ولا هو موجَّه إليك، ولا أدري إلى أين يتخـذ وجهتـه. هو ليس سوى التنفس الذي ضيق عليه الصدر المقهور.

***

رسالتك في صباح الإثنين، حتى منذ صباح ذلك الإثنين أو حتى منذ ظهر الإثنين، عندما كان التأثير الخير للترحال (وكل رحلة بعيداً عن أي شيء آخر، هي في ذاتها، راحة، هي شعور المرء بأنه قد أخذ بخناقه، بأنه قد اهتز كيانه، واهتز) قد بدأ يتلاشى على نحو ما ـ منذ ذلك الحين، كنت قد رحت أغني لك بلا انقطاع أغنية واحدة، هي أغنية مختلفة باستمرار، ودائمًا هي نفسها، ثرية كالنوم بلا أحلام، مضجرة ومنهكة حتى أنني كنت في أثنائها أحيانًا ما أستغرق في النوم. فلتسعدي لأنه ليس عليك أن تسمعيها، اسعدي بأنك مصونة ضد رسائلي طوال كل هذا الوقت.

آه، المعرفة بالطبيعة البشرية! ما الذي عليّ أن أتخذه ضد قيامك بتلميع الأحذية ذات الرقبة تلميعًا له كل هذا الجمال! قومي بتلميعها تلميعًا جميلًا بكل ما في وسعك، ثم ضعيها في أحد الأركان، وتخلصي من هذا الأمر. المسألة فقط هي أنك تقومين بتلميعها في عقلك طوال اليوم، يعذبني هذا أحيانًا (ولا ينتهي بتنظيف الأحذية ذات الرقبة).

***

الخميس

ظللت متطلعًا إلى سماع عبارة أخرى، هي هذه: «أنت لي». ولماذا هذه العبارة بالذات؟ إنها حتى لا تعني الحب، بل تعني بدلًا منه القرب والليل.

نعم، كانت الكذبة هائلة وشاركت أنا فيها، لكن ما كان أكثر منه سوءًا هو أنني كنت مع نفسي، في الركن، أتصنع البراءة.

ولسوء الحظ دائمًا ما تعطينني أنت تعليمات تكون قد تم تنفيذها بالفعل عندما أصل إلى هناك، هل ثقتك بي قليلة إلى هذا الحد أو أنك إنما تحاولين أن تمنحيني بعضًا من الثقة بالذات؟ إنها محاولة تبدو لي في هذه الحالة بالغة الشفافية.

لا أفهم ما علاقة برقية «يارميللا» (والتي كانت قد أرسلتها أصلًا قبل لقائي بها) بي أو حتى بالغيرة. بدا أن زيارتي حقًّا قد جلبت لها السرور (وهذا في صالحك)، ولكن رحيلي قد جلب لها من السرور قدرًا أكبر بكثير (لصالحي، أو بالأحرى لصالحها).

كان في مقدورك بالفعل كتابة كلمات قلائل أخرى عن نوبة البرد. هل أصبت بها في جموند، أو في طريق عودتك إلى المنزل، من مشروب القهوة؟ هنا، بالمناسبة، لا يزال الجو صيفًا جميلًا، حتى لقد أمطرت فقط يوم الأحد في جنوب بوهيميا.

كنت مختالًا، فقد كان في وسع الدنيا كلها أن ترى من ملابسي الغارقـة في البلل أنني كنت قادمًا من اتجاه جموند.

***

الجمعة

بالقراءة على مسافة ملاصقة للعين مباشرة لا يسع المرء أن يفهم مطلقًا هذا البؤس الذي تعيشين فيه هذه اللحظة، لذا يتعين على المرء أن يمسك الرسالة على مسافة أبعد قليلًا، لكن حتى في هذه الحالة أيضًا لا يكاد يبدو الفهم ممكنًا.

لقد أسأت فهم تلك الملاحظة عن المخالب ـ ولقد كانت في الحقيقة ملاحظة مبهمة. وما تقولينه عن جموند هو حق بأوسع المعاني. أذكر على سبيل المثال، سؤالك لي عما إذا كنت قد أخلصت لك في براغ، لقد كان سؤالًا نصفه مزاح، ونصفه جد، ونصفه لا مبالاة (ومرة أخرى هذه الثلاثة أنصاف، فقط لأنه كان مستحيلًا)، إن لديك رسائلي ومع ذلك تسألين مثل هذا السؤال. فهل كان هذا سؤالًا ممكنًا؟. لكنني وكما لو لم يكن هذا كافيًا، قد جعلته أنا أكثر استحالة. قلت، نعم، لقد كنت مخلصًا لك، فكيف يتسنى للمرء أن يتحدث بمثل هذا؟ وفي ذلك اليوم تحدثنا واستمع أحدنا للآخر، غالبًا، ولوقت طويل وكأننا غريبان.

بالأمس مع اقتراب المساء جاءت يارميللا لزيارتي (لست أدري كيف عرفت عنواني الحالي). لم أكن بالمنزل، فتركت رسالة لك، وكلمة بالقلم الرصاص تطلب مني فيها أن أرسل لك الرسالة؛ لأنها وإن كانت تعرف عنوانك في الريف، إلا أنه لا يبدو لي عنوانًا آمنًا بما يكفي بالنسبة لها.

***

حسنًا، لم تستغرقا وقتًا طويلًا جدًّا، على كل حال، فلقد تسلمت الرسالتين القادمتين من سالزبورج، ولعل الأمور أن تسفر عن خير في جلجن، وأؤكد بأن الخريف قد حل هنا بالفعل، وهذا ما لا يمكن إنكاره.

أحس بسوء حالتي، كما أشعر بتحسنها، تبعًا للكيفية التي يراها بها المرء. آمل أن تستمر صحتي وقتًا ما إلى داخل فصل الخريف، وسيكون لنا أيضًا أن نكتب أو نتحدث عن جموند ـ وهذا جزء من شعوري بسوء حالتي. أرفق مع رسالتي هذه رسالة يارميللا. ولقد رددت على زيارتها بإشارة لاسلكية قائلًا إنني بالطبع سأرسل رسالتها بكل سرور، لكن على ألا تكون قد تضمنت أي شيء عاجل؛ لأنني لم أكن أظن أنني سأهتدي إلى عنوانك في أقل من أسبوع، ولم تكتب هي ثانية.

(في الهامش الأيمن): لو أمكن، أرجو أن ترسلي رؤية عينية لشقتك.

***

قرأت أولًا الرسالة المكتوبة بالقلم الرصاص، وفي رسالة الإثنين، تطلعت إلى فقرة فيها تحتها خط، ثم قررت أن أتركها بعضًا من الوقت، كم أنا قلق، ويا لها من حال تثير الرثاء عندما لا يكون في مقدور المرء أن يلقي بنفسه وبكل كيانه إلى كل كلمة، حتى لو أن هذه الكلمة قد

تعرضت لهجوم ما، لأمكن للمرء أن يحمي نفسه بكاملها أو أن يتحطم كلية، لكن هنا، أيضًا، لا يوجد الموت وحده، بل توجد أيضًا الأمراض.

وحتى قبل أن أفرغ من قراءة الرسالة ـ تذكرين شيئًا مماثلًا قرب نهايتها ـ طرأ على بالي إن لم يكن ممكنًا بالنسبة لك أن تمكثي هناك مزيدًا من الوقت، وقتًا يمتد بقدر ما يسمح الخريف. ألا يمكن ذلك؟

وصلت الرسائل من سالزبورج بسرعة، أما الرسائل القادمة من جلجن فقد استغرقت بعضًا من الوقت. إلا أنني حصلت أيضًا على أخبار أخرى هنا وهناك. صورة قلمية سريعة كتبها (بولجار)[77] في الصحيفة، تصف البحيرة، هي صورة حزينة إلى غير حد إلا أنها محيرة؛ لأنها صورة مرحة مع ذلك ـ حسنًا ـ ليس هذا بالكثير، إلا أن ثمة أخبارًا عن سالزبورج، عن الاحتفال، عن الجو غير المستقر ـ وهذا بدوره لا يتصف بالمرح، ولقد رحلت أنت متأخرة للغاية في نهاية الأمر، ثم دفعت أنا ماكس إلى أن يخبرني بما يعرف عن (ڤولڤجانج) وعن (جلجن)، لقد عرف السعادة الغامرة هناك في صباه، ولا بد أن الحال كانت أفضل في قديم الأيام، إلا أن هذا كله لن يعد شيئًا ذا بال، لولا ال « تريبونا» فتطلعي كل يوم إلى احتمال العثور على شيء لك، ثم العثور بالفعل على كتابات لك هنا وهناك، هل تستائين من حديثي عن الصحيفة؟ مع أنني أستمتع كثيرًا بقراءاتها. ثم من الذي سيتحدث عنها إن لم يكن أنا، أفضل قرائك؟ وحتى من قبل، قبل أن تذكري أنك أحيانًا ما تفكرين فيَّ أثناء الكتابة، كنت قد أحسست بها تتعلق بنفسى ـ أعني، أنني كنت قد

77ألفريد بولجار الكاتب الڤييني الشهير.

ضممتها إلى نفسي، والآن بما أنك قد قلت ذلك بصراحة، فإنني ما زلت ربما أكثر قلقًا بشأنها، مثلًا، عندما قرأت فيها عن أرنب وسط الثلوج كدت أن أجد نفسي وقد انطلقت جريًا إلى هناك.

(في أعلى الهامش الأيسر): نعم، كنت أعرف أنني قد تجاوزت عن شيء في رسالتك، وبدون أن أجد القدرة على أن أنساه، لا أجدني قادرًا على تذكره: درجة الحرارة؟ درجة الحرارة الحقيقة؟ هل تدركين ما أعني؟

أخيرًا فرغت من قراءة الرسالة الأخرى، لكنني حقًّا قد بدأت قراءتها بالفقرة التي تقول: «لا أريدك أن ترد على ذلك». لست أدري ما الذي سبق هذه الفقرة لكنني اليوم ورسائلك تواجهني، وتعززك على نحو لا يدحض، أجدني مستعداً للتوقيع عليها دون أن أقرأها مقرًّا بصحتها حتى لو كانت ستتخذ بهذا قرينة ضدي أمام المحكمة العليا، إنني قذر يا ميلينا، قذر بلا حد، وهو ما يجعلني أحدث كل هذه الضجة الهائلة حول النقاء، ولا يتغنى من الناس بمثل تلك الأصوات النقية، كما يتغنى من يعيشون في عمق أغوار الجحيم، وما نسميه نحن شدو الملائكة، إنما هو غناؤهم.

قبل أيام قليلة انتهيت إلى أن (الخدمة الحربية) ــ أو على نحو أكثر صحة حياة (المناورة)، التي اكتشفتها منذ سنوات، هي أكثر ما يلائمني في أحيان بعينها، النوم في الفراش في فترة ما بعد الظهيرة لأطول مدة ممكنة، ثم التجوال سيرًا على الأقدام لمدة ساعتين، ثم البقاء مستيقظًا

لأطـول مـدة ممكنـة، لكن العقـدة إنمـا تكمن في هـذه (الأطـول مـدة ممكنة)، «إنها غير ممكنة لمدة طويلة»، غير ممكنـة فيمـا بعـد الظهـيرة، ولا في الليل، ومع ذلك فإنني أكـون بالفعـل قـد ذبلت عنـدما أبلـغ مقـر عملي في الصباح، وتكمن الجائزة الحقيقية خفية في أعماق الليـل، في الساعة الثانيـة، الثالثـة، الرابعـة، لكنـني حاليًـا إن لم آو إلى الفـراش عنـد حوالي منتصـف الليـل مـع أقصـى تـأخير، لضـاع الليـل، وضـاع النهـار، وضـعت أنـا نفسـي، ومـع ذلـك فلا شـيء من هـذا يهم، في (كـوني في الخدمة) هو أمر جيد، حتى ولو لم يسفر عن أية نتائج. ولم يكن له حتى أن ينتهي إلى نتيجة، إنني في حاجة إلى عام كهذا العام لكي «أفك عقـدة اللسـان» قبـل أي شـيء، ثم لكي أتحقـق من أن الأمـر قـد قضـي وأن السماح بأن (أكون في الخدمة) قد بلغ غايتـه، لكن هـذا كمـا قلت: هـو أمر جيد في حد ذاته، حتى لو تـدخل السـعال بطريقـة طاغيـة فاسـتغرق وقتًا طال أو قصر.

بالطبع لم تكن الرسائل سيئة إلى هذا الحد. لكنـني حقًّا لا أسـتحق هـذه الرسالة المكتوبـة بـالقلم الرصـاص، فهـل يوجـد شـخص في السـماء أو على الأرض يستحقها؟

***

مساء الخميس

اليوم لم أكد أفعل شيئًا، سوى الجلوس في أنحاء المكان، أقرأ قليلًا هنا، وقليلًا هناك، لكنني أساسًا لم أفعل شيئًا، أو رحت أتسمع إلى ألم طفيف ما، بينما كان يحدث تأثيره في جانبي جبهتي. كنت مشغولًا طوال اليوم برسائلك، معذبًا، عاشقًا، متوحشًا، وفي حالة خوف غير معلوم من شيء غير محدد، يتألف لا تحدده في معظمه من حقيقة أنه يتجاوز حدود طاقتي. ولم أكن في الوقت نفسه قد جرؤت على قراءة الرسائل قراءة أخرى، ولم أكن قد جرؤت على قراءة نصف صفحة حتى في المرة الأولى، فلماذا لا يستطيع المرء أن يسلم نفسه إلى حقيقة أن حياته في هذا التوتر الانتحاري المعلق، الخاص، هي عدل.

(تذكرين أحيانًا، شيئًا مماثلًا لهذا ولقد حاولت أن أضحك على ذلك وقتها؟)، ولماذا يقوم المرء بدلًا من ذلك عمدًا بفك وثائق حياته هذه؛ لينطلق خارجًا منها كما ينطلق حيوان لا يعقل (ويحب حتى لا معقوليته هذه كحيوان) ويوصل بفعله هذا كل الكهربية الممزقة، المعربدة إلى داخل الجسد، وذلك حتى توشك أن تنتهي بالمرء إلى الاحتراق؟

لا أعرف بالتحديد ما الذي أريد أن أقوله بهذا الفعل، أريد فقط على نحو ما أن أحكم قبضتي على أشكال اللوم، لا المعلنة؛ بل الصامتة تلك التي تخرج من رسائلك، ويمكنني أن أحكم قبضتي عليها، ذلك أنها ملكي، وأن يكون في مقدورنا حتى هنا في الظلام أن نكون معًا إلى هذا

الحد عقلًا واحدًا، لهو أكثر الأمور غرابة، ويمكنـني بالفعـل أن أؤمن بـه فقط للحظة، بعد لحظة أخرى غيرها.

***

بدلًا من النوم، قضيت الليلة (وإن لم يكن ذلك عن طواعية تامة) مع الرسائل، ومع ذلك، فليست الأمور في أقصى حالاتها سوءًا الآن بالتحديد. لم تصل في الحقيقة، أية رسالة، لكن حتى هذا لا يهم في ذاته.

في هذه اللحظة من الأفضل كثيرًا ألا أكتب يوميًّا، ولقد أدركت أنت ذلك سرًّا قبل أن أدركه أنا. إن الرسائل اليوم تسبب الضعف أكثر مما تبعث القوة. في السابق كان المرء يشرب الرسالة حتى آخر قطرة تحتويها، وكان المرء في الوقت نفسه (أتحدث عن براغ وليس عن ميران) أقوى عشرة أضعاف، وأكثر عطشًا بعشرة أضعاف.

لكن الرسائل الآن قد أصبحت بالغة الجدية، الآن يعض المرء شفتيه عندما يقرأ رسالة، ولا يكون ثمة شيء أكثر تأكيدًا سوى الألم الطفيف في الصدغين. لكن حتى هذا لا يهم، ويبقى شيء واحد فقط: «لا تستسلمي للمرض يا ميلينا. لا تمرضي». لا بأس من عدم الكتابة (ما عدد الأيام التي قضيتها في مقاومة مثل رسالتي الأمس هاتين؟ أسئلة غبية، وهل يمكن للمرء أن يقاومهما في أيام؟) لكن لا ينبغي أن يكون المرض هو السبب، إنني أفكر بالطبع، في نفسي فحسب. ما الذي سأفعله؟ سأفعل على الأرجح نفس ما أفعله الآن، لكن كيف سأفعله؟ لا، لا أريد أن أفكر في هذا الفعل. وفي الوقت نفسه عندما أفكر فيك تكون رؤيتي أوضح ما تكون دائمًا، هي تلك التي تبدين فيها راقدة في

الفـراش، كمـا كنت ترقـدين في المـرج، في تلـك الأمسـية في جمونـد (هناك حيث حكيت لك عن صـديقتي، ولم تسـتمعي إليَّ كثيرًا) وليس هذه مطلقًا رؤية مؤلمة بل هي بالفعل أفضل رؤيـة أجـدها في مقـدوري في هذه اللحظـة وهي أنـك راقـدة في الفـراش، وأنـني أقـوم بتمريضـك، وأنصـرف عنـك، لأعـود إليـك مـرة أخـرى، وأضـع يـدى فـوق جبهتـك وأغرق في عينيك عندما أطرق متطلعًا إليك، وأحس بنظرتك تحدق فيَّ بينما أتجول في أنحاء الحجرة عارفًا طوال الـوقت بخيلاء لم يعـد قـابلًا للترويض أنني إنما أحيـا من أجلـك، وبـأنني قـد حـزت السـماح لي بـأن أفعل، وأنني في بدء امتناني لحقيقـة أنـك كنت قـد وقفت ذات مـرة إلى جانبي، ووضعت يدك في يدي. وسيكون فقط مرضًـا عـابرًا سـرعان مـا يزول ويتركك أكثر صـحة عمـا كنت عليـه من قبـل، بينمـا سـأكون أنـا أحسن حالًا وفجـأة (وآمـل ألّا يكـون ثمـة ضوضـاء ولا ألم) أزحـف في بـاطن الأرضـ ـ حسـنًا، كـل هـذا لا يسـبب عـذابًا بالغًـا، لكن فكـرة أن عليك أن تقعي فريسة للمرض هي التي أراها أبعد ما تكون.

أنت أيضًا تحبين سائقي الترام، أليس كذلك؟ نعم، ذلك السائق القييني الأمثـل، المـرح، وإن يكن منهكًـا بـالغ الهـزال، في تلـك المـرة! إلا أنهم نـاس طيبـون هنـا أيضًـا، ويريـد الأطفـال أن يصـبحوا سـائقي تـرام لكي يكونوا مثلهم أقوياء ومحترمين، وأن يتولوا القيادة، وأن يقفوا فوق سـلم الترام لكي يتمكنوا من الانحنـاء إلى أسـفل فـوق رؤوس أطفالنـا ومعهم أيضًا خرَّامة تذاكر، وكميـات كبـيرة من تـذاكر الـترام، بينمـا أنـا ـ على حين تروعـني كـل هـذه الإمكانيـات ـ أحب أن أكـون سـائق تـرام لكي

أكون في مثل مرحه وتكون لي مثل قدرته على المشاركة في كل شـيء. كنت أسير ذات مرة خلف ترام يسير ببطء وكان السائق ـ (لقد وصل الشاعر لكي يخرجني من مقر عملي، فلينتظر حتى أفرغ من السائقين) ـ ينحني بجسمه كثيرًا إلى الخارج من فوق سلم الترام الخلفي، قد راح يصيح بي بشيء ما (لم أتمكن من سماعه بسبب الضوضاء في «يوزيف بلاتس»)، وظل يأتي بحركات متهيجة بكلتا ذراعيه، كان من الواضح أنها تعني الإشارة إلى شيء ما، إلا أنني لم أفهم معناها. وطوال الوقت ظل الترام يتحرك أكثر وأصبحت حركاته يائسة أكثر فأكثر ـ وأخيرًا فهمت: كان دبوس المشبك الذهبي في ياقة قميصي قد انفك ـ وكان السائق، يحاول أن يلفت انتباهي إليه. لقد تذكرت هذه الحادثة هذا الصباح، عندما صعدت الترام منهكًا من الليلة الماضية وكأنني شبح مريض، وأعاد لي السائق فكة الكرونات لكي يبعث البهجة في نفسي (لا لكي يبعث البهجة في نفسي على وجه الدقة، لأنه لم يكن حتى قد تطلع إليَّ بل لكي يبعث البهجة في الجو بصفة عامة) قد أتى بملاحظة ودية (فاتني إدراك مغزاها) عن أوراق (البنكنوت) التي كان يردها ثانية إليَّ ـ على حين كان يقف إلى جواري أحد السادة، ابتسم لي هو أيضًا نتيجة لهذا التميز، وهو ما لم أرد عليه من جانبي سوى بالابتسام، وبهذا كان كل شيء قد تحسن قليلًا. فعسى أن تتمكن هذه الحكاية من أن تبعث البهجة في السماء المطيرة فوق سانت جلجن!.

***

السبت

رائع الجمال، رائع الجمال يا ميلينا، رائع الجمال، لا شيء في رسالة «الثلاثاء» رائع الجمال مثل الهدوء، الثقة، الوضوح، الذي صدرت عنه الرسالة.

لم يأت في الصباح شيء. كنت سأتوافق بسهولة مع هذه الحقيقة في ذاتها؛ لكن يختلف الحال الآن كل الاختلاف مع تسلم رسائل. ومع ذلك، فمع كتابة الرسائل لم يكد يتغير شيء، فالدفاع يستمر، وتستمر معه متعة أن يكون على المرء أن يكتب، وعلى هذا سأتصالح مع هذه الحقيقة.

وما حاجتي إلى رسالة، عندما قضيت بالأمس، مثلًا، اليوم بطوله والمساء، ونصف الليلة في حديث معك، حيث كنت فيه مخلصًا وجادًّا مثل طفل، وكنت أنت فيه جادة وواعية كأم (ولم أكن قد رأيت قط في الواقع مثل هذا الطفل ولا مثل هذه الأم)، وكان لهذا كله أن يكون على ما يرام، فقط ينبغي لي أن أعرف السبب في عدم كتابتك؛ لا ينبغي لي أن أراك مريضة في الفراش طوال الوقت، في الغرفة الصغيرة وأمطار الخريف خارجها، وأنت وحيدة تمامًا، في درجة حرارة (كتبت أنت عنها)، ومع نزلة برد (كتبت لي عنها)؛ علاوة على العرق ليلًا، والإعياء (كتبت لي عن هذا كله)ـ فإذا هذا كله لم يعد له وجود، فهو خير إذن، ولا أريد شيئًا في هذه اللحظة أفضل من هذا.

لن أشرع في إجابة على الفقرة الأولى من رسالتك، ولا أعرف بعد حتى الفقرة الأولى سيئة الذكر من رسالتك السابقة، فهذه كلها أشياء عميقة التعقيد ولا تجد حلًّا لها إلا من خلال مناقشة بين أم وطفل، ويمكن سماعها عندئذ، ربما فقط لأن هذه التعقيدات في هذه الحالة لا يمكنها أن تحدث. لن أشرع في تناول هذه الفقرة لأن الألم يكمن في صدغي متربصًا. فهل كانت «نبلة» كيوبيد قد صوبت في اتجاه صدغي بدلًا من تصويبها نحو قلبي؟ كما أنني لن أكتب بعد ذلك مزيدًا عن جموند، عن قصد على الأقل، سيكون هناك الكثير مما يمكن أن يقال عنها، لكن في النهاية سيكون كل ما ستنتهي إليه، هو أن اليوم الأول في ڤيينا كان من الممكن أن يكون أفضل قليلًا مما كان لو كنت قد رحلت في المساء. وعلى الرغم من أن ڤيينا تتميز حتى على جموند، بأنني قد بلغتها في شبه حالة إعياء، من الخوف والإنهاك، وكنت قد ذهبت إلى جموند (على غير وعي مني بذلك ـ «فلست سوى أحمق») واثقًا على نحو بديع، كما لو أن شيئًا لا يمكن أن يقع لي ثانية أبدًا. لقد وصلت كصاحب بيت؛ ووجه الغرابة هو أن ذلك الفتور كان ممكنًا أن يقع لي رغم كل شكوكي التي تهزني باستمرار، وربما كانت هذه هي غلطتي الحقيقية، في هذا الموقف، وفي مواقف أخرى.

الساعة الآن الثالثة إلا الربع، وقد تسلمت رسالتك قبل تمام الثانية مباشرة، ولعله من الأفضل لي الآن أن أتوقف هنا وأغادر المكان وآكل.

ترجمة الجملة الأخيرة جيدة جدًّا، كل جملة في هذه القصة، كل كلمة، كل ـ لو كان لي أن أقول هذا ـ موسيقى ترتبط ب «الخوف».

بهذه المناسبة انفتح الجرح للمرة الأولى أثناء ليلة واحدة طويلة، وفي رأيي، تلتقط الترجمة الترابطات باكتمال بتلك اليد السحرية التي هي يدك.

ترين ما الذي يسبب كل هذا العذاب في تسلم الرسائل ـ حسنًا، لا حاجة بي إلى أن أقول لك اليوم بين رسالتك ورسالتي يوجد، ـ بقدر ما يسمح بذلك الإمكان، مع وضعنا لعدم اليقين من ذلك في الاعتبار، يوجد قرب رائق، طيب، عميق التنفس. والآن عليَّ أن أنتظر الردود على رسائلي الأسبق التي أتخوف منها.

كيف يمكنك بالمناسبة، أن تتوقعي رسالة مني يوم الثلاثاء، بينما حصلت أنا على عنوانك فقط يوم الإثنين؟

الأحد غلطة غريبة بالأمس. كنت في ظهيرة الأمس سعيدًا سعادة بالغة بخصوص رسالتك (رسالة الثلاثاء) وعندما قرأتها ثانية في المساء، وجدت أنها لم تكد تختلف في طبيعتها عن الرسائل الأخيرة، (يكون تعسًا بما يتجاوز كثيرًا ما تسمح به). تثبت الغلطة إلى أي حد أفكر فقط في نفسي. لقد استغلقت في داخل نفسي، كيف ألتصق فقط بذلك الجزء منك الذي يمكنني أن أتشبث به، وإلى أي حد أتوق إلى أن أنطلق هاربًا به إلى الصحراء، حتى لا يقدر على أن ينتزعه مني أحد؛ لأنني كنت قد عدت لتوي إلى حجرتي من الإملاء، لأنه كانت تقبع هناك لدهشتي رسالتك؛ لأنني شملتها بنظرة في سعادة وبنهم، لأنه لم يبد بها أي شيء موجه ضدي بأحرف كبيرة، لأنه بالصدفة وحدها كان صدغاي

ينبضان بهدوء؛ لأنني كنت خفيف القلب إلى حد يكفي لأن أتخيلك راسخة في عمق غابة بحيرة أو جبال ــ لكل هذه الأسباب ولأسباب قلائل أخرى فوقها حتى، ليس لأي منها أدنى علاقة برسالتك ووضعك الحقيقي، بدت رسالتك لي باعثة على البهجة ـ ونتيجة لذلك رددت عليها بحماقة.

***

الإثنين

ترين يا ميلينا، إلى أي حد يفتقر المرء إلى التحكم في نفسه، إلى أي حد يتطوح ذهابًا وجيئة في بحر- بدافع من الحقد وحده- لا يبتلع المرء في جوفه.

طلبت منك أخيرًا ألا تكتبي إليَّ يوميًّا، وكنت مخلصًا في طلبي، كنت خائفًا من الرسائل، وعندما لم تصلني أحيانًا أية رسالة كنت أكثر هدوءًا، وعندما رأيت رسالة ملقاة فوق المائدة كان عليَّ أن أستجمع كل قواي لكنني لم أجد قواي في متناولي بما يسعفني- واليوم كان مقدرًا لي أن أكون تعسًا لو أن هذه البطاقات (لقد فزت بكليهما) لم تكن قد وصلتني. شكرًا.

من بين الكتابات التعميمية التي قرأتها حتى الآن عن روسيا، أحدثت المقالة المرفقة بهذه الرسالة أشد التأثيرات عليَّ أو على وجه أكثر تحديدًا، أحدثت أشد التأثيرات على جسدي، على أعصابي، على دمي. حقًّا، لم أكن قد أخذتها تمامًا كما كتبت؛ لكنني كنت قبل كل شيء قد قمت بتنويعها وفقًا للأوركسترا الخاصة بي (قطعت نهاية المقالة، فهي تحتوي على اتهامات ضد الشيوعيين، وهذه النهاية، لا تتفق مع هذا السياق، والمقالة على كل حال هي مجرد شذرة فحسب).

***

رسائلك في يوم الأحد والإثنين، وبطاقة قد وصلت. أرجوك أن تحكمي على الموقف حكمًا صحيحًا يا ميلينا. إنني أجلس هنا في عزلة زائدة، على مسافة بالغة البعد، وإن كنت أجلس في سلام وتمر عبر رأسي أشياء كثيرة ــ الخوف، عدم الارتياح، وهكذا فأنا أكتبهما وإن كانا لا يفيدان الكثير من المعنى، وأنا عندما أتحدث إليك أنسى كل شيء حتى أنت، وعندما تصلني مثل هاتين الرسالتين، أصبح مرة أخرى فحسب على وعي بالكل.

شيء واحد من بين هواجسك بخصوص الشتاء لا أفهمه بالمرة. فلو أن زوجك مريض إلى هذا الحد، أو يعاني حتى من مرضين، ولو أن الحال يمثل خطرًا، فهو عندئذٍ بالتأكيد لا يمكنه أن يذهب إلى مقر عمله، ولا يمكن بالطبع أن يفصل بصفته موظفًا معينًا على وظيفة دائمة؛ وبسبب من مرضه فسوف يكون عليه أيضًا أن يرتب حياته على نحو مختلف. وبهذه الطريقة سيتم تبسيط كل شيء ليصبح أسهل خارجيًّا على الأقل، والمحزن أن يكون الحال كله خلافًا لذلك.

إلا أن واحدًا من أكثر الأشياء التي تفتقر تمامًا إلى المعنى في هذه الدنيا الواسعة، إنما هو التناول الجاد لمشكلة الذنب، على الأقل هكذا يبدو لي. فليس فقط التلفظ بعبارات اللوم هي التي تبدو لي بلا معنى، ولا شك في أنه عندما يلم بالمرء كرب ما، فإنه يلقي بالملامات في كل الاتجاهات (مع أنه بالطبع لا يفعل ذلك عندما تلم به أشد حالات

الكرب هولًا. فهو لا يتلفظ عندها بأي لوم)، أيضًا من المفهوم أن المرء يتشبث بمثل هذا الملام في وقت الهياج والاضطراب، لكن أن يكون على المرء أن يعتبر أنه من الممكن أن يتناقش بشأنها كما يسعه أن يناقش أية مسألة رياضية عادية من المسائل التي تبدو بالغة الوضوح حتى لتسفر عن نتائج يتم استخدامها في السلوك اليومي، فهذا ما لا أفهمه على الإطلاق. بالطبع يقع عليك اللوم، وبعد ذلك يقع اللوم أيضًا على زوجك، ثم بعد ذلك عليك مرة أخرى، وبعدها يقع عليه ثانية، بما أنه لا يمكن أن يكون الحال خلافًا لهذه الصورة في الحياة المشتركة للكائنات البشرية، ويتكوَّم الملام في تتابع لا ينتهي حتى يبلغ الخطيئة الأصلية الرمادية؛ لكن أية فائدة يمكن أن يقدمها لي في يومي الحالي أو في الزيارة للطبيب في (إشل) كي ينبش في الخطيئة الأزلية؟

وطوال الوقت يتساقط المطر في الخارج، ولا يبدو قط أنه سوف يتوقف. ولا يزعجني المطر على الإطلاق لوجود سقف يحميني، لكن ما يربكني فقط هو أن آكل (إفطار الشوكة)[78] أمام نقاش المنزل الذي يقف في هذه اللحظة فوق السقالة أمام نوافذي، وفي هياجه بسبب المطر الذي لا يتوقف إلا وقتيًّا عن الهطول وبسبب كمية الزبد التي أضعها فوق خبزي يطرطش الطلاء فوق النوافذ بلا انقطاع (وهو ما قد يكون أيضًا تخيلي أنا، بما أن انشغاله بي يقل بلا شك عن انشغالي به مائة مرة). لا، إنه الآن حقًّا منهمك في صب المطر والرعد.

78كان معتادًا في النمسا القديمة على أنه إفطار ثانٍ بما أن الإفطار الأول لا يعد وجبه تامة.

سـمعت أخـيرًا بعضـًا من الأخبـار الجديـدة عن (ڤـايس)، وأنـه ليس مريضًا، ربما، لكنه بلا نقود. وأيًّا كـان الأمـر، فقـد كـان حالـه هكـذا في الصـيف. كتبت إليـه في (الغابـة السـوداء) بالبريـد المسـجل منـذ ثلاثـة أسابيع ولم يرد، إنه الآن بالقرب من «بحر ستارنبرجر» بصحبة صـديقته الي تكتب بطاقات مكتئبة جادة (هذه هي طبيعتها) إلى (باوم)[79] قبل أن تغادر براغ (حيث حققت نجاحًا بالغًا على المسرح). منذ حوالي شـهر، كان لي حـديث قصـير معهـا. كـانت تبـدو في مظهـر رث، وهي عمومًـا ضعيفة ورقيقة، لكنها تتصـف بالصـمود، وكـانت منهكـة القـوى نتيجـة للجهد الذي أنفقته في التمثيل.

تحدثت عن (ڤـايس) تقريبًـا كمـا يلي: «إنـه في هـذه اللحظـة في الغابـة السوداء، وهو لا يشعر بالراحة هناك، لكننا الآن سنكون معًا، عند (بحـر ستارنبرجر) وستكون الأمور أفضل».

***

79كاتب براغ الأعمى (أوسكار باوم)، وهو صديق قديم لكافكا.

هل ما أردت أن تكتبيه لي هو الموضوع الرئيسي لهذه الرسالة يا ميلينـا، أو أنه في نهاية الأمر هو الثقة الضمنية؟ لقد كتبت بالفعـل عنـه مـرة من قبل، وكان ذلك في إحدى الرسائل الأخيرة إليَّ في مـيران الـتي لن أعـد قادرًا على الرد عليها.

كـان على روبنسـون كمـا تـرين أن يوقـع بالموافقـة، وأن يقـوم بالرحلـة الخطرة، وكان عليـه أن يعـاني لتحطم سـفينته ولأشـياء كثـيرة أخـرى ـ وليس أمامي فقط سوى أن أفقدك وسأكون عندها روبنسون بالفعـل، إلا أنني سأكون روبنسون أكثر منـه؛ ذلـك أنـه مـا تـزال لديـه الجزيـرة ويـوم الجمعة وأشياء كثيرة وأخيرًا السفينة التي حملته منها وكـادت أن تحيـل كل شيء مـرة أخـرى إلى حلم ـ ولن يكـون لي أنـا شـيء من هـذا، ولن يكون لي اسم حتى، فهذا أيضًا أعطيته لك.

وهذا هو السبب في أنني بمعنى ما، مستقل عنك، فقط لأن الاسـتقلالية قد بلغت ما وراء كل الحدود. إن خيار (إما/أو) خيار رهيب للغاية، فإما أنك لي وسيكون الخيـار خيرًا في هـذه الحالـة، أو أفقـدك، وهي الحالـة التي تكون فحسب سيئة، بل تكـون لا شـيء. في تلـك الحالـة لن توجـد غيرة ولا معاناة ولا قلق ـ لا شيء، وبلا شك ثمة ما يتصف بالتجديف والجحود في بناء كل هذا الصـرح الهائـل بلا حـد على أسـاس شـخص واحد، وهذا أيضًا هو السبب في أن الخـوف يزحـف حـول الأسـاسـات. ومع ذلك فليس ذلك كله هو الخوف بخصوصك بقدر مـا هـو الخـوف

بخصوص الجرأة على أن يقوم المرء بالبناء على هذا النحو أصلًا. وهذا هو السبب في أنه للدفاع عن النفس (ولعله أن يكون دائمًا على هذا النحو، يختلط الكثير جداً من الصفات القدسية مع الصفات البشرية في ملامح وجهك العزيز).

والآن، على هذا كان شمشون قد أخبر دليلة بسرّه، وكان في وسعها أن تقص شعره الذي كان دائمًا ما تجعده سلفًا. لكن لتفعل! فما دام أنها ليس لديها سر مماثل، فلا شيء يهم بعد ذلك.

على امتداد ثلاث ليال كنت أنام نومًا سيئًا جداً بلا أي سبب واضح. آمل أن تكوني في خير حال؟

رد سريع لو أمكن أن يعد ردًا. وصلت البرقية لتوها. جاءت على نحو مفاجئ للغاية (ومفتوحة أيضًا) حتى أنني لم أجد وقتًا لأتخذ أهبتي. هي بالفعل ما أريده اليوم بالضبط، فكيف عرفت؟ إنها الطريقة الطبيعية التي يرد بها من عندك ما هو ضروري دائمًا.

***

سوء فهم ـ لا، إنه أسوأ من مجرد سوف فهم، بكل معنى الكلمة، يا ميلينا ـ وإن كنت بالطبع تفهمين السطح فهمًا صحيحًا ـ لكن ماذا هناك لكي يفهم أو لا يفهم؟

إنه سوء فهم يظل قادرًا على التكرر، فقد حدث بالفعل مرة، مرتين في ميران. لم أكن في النهاية أطلب منك النصيحة، وهو ما قد أطلبه من الرجل الجالس على المكتب المقابل لمكتبي. لقد كنت أتحدث إلى نفسي، أسأل نفسي النصيحة، في سبات عميق، وأيقظتني أنت.

لا أدرى ما إذا كنت قد فهمت ملاحظتي عن المقالة التي تدور حول البلشفية. وما اعترض الكاتب عليه هو بالنسبة لي أعلى تقريظ ممكن على وجه الأرض. لو كان لي الخيار في الليلة الأخيرة (كانت الساعة الثامنة مساء، عندما نظرت من الشارع إلى حجرة المأدبة في «قاعة المدينة» اليهودية، حيث كان يقيم أكثر كثيرًا من مائة من اليهود المهاجرين الروس ـ كانوا ينتظرون تأشيرات سفرهم الأمريكية ـ كانت الحجرة مكتظة بهم كما تبدو في أثناء أحد الاجتماعات العامة؛ وبعد ذلك في الساعة الثانية عشرة والنصف رأيتهم جميعًا نيامًا هناك، الواحد تلو الآخر، كانوا ينامون حتى وهم فوق المقاعد، وهناك كان شخص ما يسعل، أو يتقلب على جانبه الآخر، أو يتلمس طريقه بحرص خلال الصفوف، وظل النور الكهربائي مضاء طوال الليل) ـ فلو كان لي الخيار لأن أكون كما أردت، لكنت قد اخترت أن أكون صبيًّا

يهوديًّا شرقيًّا صغيرًا في ركن الحجرة، وبلا أثر للانشغال كان الأب في الوسط يتناقش مع رجال آخرين، والأم ملتفة في لفافات ثقيلة تمد يدها باحثة في جوف بقجة السفر، والأخت تثرثر مع البنات وهي تهرش في شعرها الجميل ـ وفي غضون أسابيع قليلة سوف يكون المرء في أمريكا. لم يكن الأمر بهذه البساطة بالطبع، فلقد كانت توجد بينهم حالات دوسنتاريا، وكان هناك ناس في الشارع، يهتفون بتهديدات خلال النوافذ، وكانت هناك مشاجرات حتى بين اليهود أنفسهم، فلقد هاجم اثنان بالفعل أحدهما الآخر بالسكاكين. لكن لو كان المرء صغيرًا، لو كان المرء يملك الإدراك ويحكم على كل شيء بسرعة، فما الذي كان ليحدث للمرء؟

وكان هناك الكفاية من الصبية كهذا الصبي يهرولون جريًا في أنحاء القاعة يتسلقون الحشيات، ويزحفون تحت المقاعد في انتظار الخبز الذي كان شخص ما ـ هم شعب واحد ـ يقوم بتوزيعه مع شيء ما. كل شيء يصلح للأكل.

***

الثلاثاء

وصلت اليوم رسالتان، والبطاقة البريدية المصورة. فضضتها في تردد. إما أنك طيبة إلى حد يفوق التصور أو إنك تجيدين التحكم في نفسك بدرجة تفوق التصور، ويشير كل شيء إلى الاحتمال الأول، وتشير أشياء عديدة أيضًا إلى الثاني.

أكرر: لقد كنت محقة كل الحق. وإذا كنت قد ـ وإنه لمستحيل ـ أوقعت بي شيئًا متهورًا بالمثل، محجوبًا مدى النظر، سخيفًا في طفولية، مغرورًا، ومفتقرًا حتى إلى التفكير كالذي أوقعته بك بالتحدث إلى ف. لكنت قد جانبت صوابي، وليس فقط في لحظة إرسال البرقية[80].

قرأت البرقية فقط مرتين، مرة سطحيًّا بعد أن تسلمتها، ثم بعد ذلك بأيام قبل أن أمزقها.

من الصعب أن أصف القراءة الأولى. أشياء كثيرة جداًّ تدافعت نحوي في الحال. كانت هذه هي الصفعة.

لا، لا يمكنني اليوم أن أكتب عن هذه القراءة بالتفصيل، ليس لأنني متعب خاصة، بل بالأحرى، لأنني «أشعر بالثقل» إن ال «لا شيء» الذي كتبت عنه قد أطلق عليّ أنفاسه.

80كان كافكا قد ساوم بالنيابة عن ميلينا في صفقة مالية حرجة، ولقد أدى هذه المهمة السرية فيما يبدو ببراعة فائقة وبلباقة- ليس إرضاء لميلينا مع ذلك، وتأنيب ضميره له وإحساسه بالذنب لا يمكن أن يقوم على أساس الصفقة نفسها.

إن الأمر كله سيكون مبهمًا لو ظننت أنني قد فعلت ما فعلت أعلاه مذنبًا. عندئذ كان يجب أن أعاقب بالضرب لسبب يستوجب عقابي. لا، إننا مذنبان كلانا ــ كما أننا كلينا لسنا بمذنبين.

ربما، بعد التغلب على كل المقاومة التي لها ما يبررها، ستكونين قادرة على أن تصالحي نفسك في النهاية مع رسالة (ف) التي ستجدينها في ڤيينا. ذهبت في ظهيرة اليوم الذي وصلتني فيه البرقية لأسأل عنها في منزل والدك. في أسفل البرقية كان قد كتب (أ. شودي) وكنت دائمًا قد اعتقدت أن هذا هو الطابق الأول، فكان أن وجدته الآن في أعلى المنزل تمامًا.

فتحت الباب خادمة صغيرة جميلة ومرحة، وكما توقعت لم تكن (ف) موجودة ولكنني كنت قد جئت فقط لكي أجد لنفسي شيئًا أفعله؛ بالإضافة إلى أن أعرف متى ستصل في الصباح. وفي الصباح التالي انتظرتها أمام المنزل ــ أعجبت بها ــ ذكية، عملية، صريحة. لم أقل أكثر من أنني قد أخبرتك في برقيتي.

(في هامش أيسر) هواجسك عن والدك، يمكنني جزئيًّا أن أبددها في المرة القادمة.

قبل ثلاثة أيام جاءت يارميللا لتراني في مقر عملي، لم تكن قد حصلت على أية أخبار منك لمدة طويلة، ولم تكن قد عرفت شيئًا عن الفيضانات، وجاءت لتستفسر عنك. وانتهى ذلك على ما يرام. مكثت

وقتًا قصيرًا فقط. ونسيت أن أنقل إليها رجاءك بخصوص كتاباتك، وكتبت لها بضعة أسطر قليلة عن ذلك فيما بعد.

لم أقرأ الرسائل بعد بعناية، وعندما أفعل، سأكتب لك ثانية.

والآن وصلت البرقية أيضًا. حقًا، حقًّا؟ ولم تعودي تندفعين إلى مهاجمتي بالهجاء؟

لا، لا يمكنك أن تكوني سعيدة بذلك. هذا مستحيل، إنها برقية هذه اللحظة، مثل البرقية التي سبقتها، والحقيقة لا هي هنا، ولا هي في البرقية التي سبقتها.

أحيانًا عندما يستيقظ المرء في الصباح يعتقد أن الصدق موجود بالقرب من الفراش- ولكي أكون أكثر دقة أقول إن قبرًا فوقه بضع زهور ذابلة؛ مفتوح، وجاهز لكي يستقبل المرء.

لا أكاد أجرؤ على قراءة الرسائل. يمكنني أن أقرأها فقط خطفًا، لا يمكنني أن أتحمل الألم الذي تسببه لي قراءتها.

ميلينا- ومرة أخرى أفرق لك شعرك، وأرتبه إلى جانب- هل أنا حقًّا، ذلك المخلوق الشرير، شرير تجاه نفسي، وبالتحديد شرير بالمثل تجاهك. أو أنه لن يكون أكثر صحة أن أقول إن الشر إنما يكمن خلفي، يدفعني إلى الأمام؟ لكنني لا أجرؤ حتى على أن أقول إنه يبدو لي كذلك عندما أكون منهمكًا في الكتابة إليك، ويكون هذا هو ما أقوله.

وإلّا فإنه كما قد كتبت تمامًا في الحقيقة. عندما أكتب إليك لا تكون هناك مسألة تتعلق بالنوم سواء قبل الكتابة أو بعدها؛ وعندما لا أكون مشغولًا بالكتابة إليك فإنني أنام على الأقل نومًا سطحيًا للغاية، متقطعًا لساعة أو ساعتين في كل مرة. وعندما لا أكتب، أكون متعبًا فحسب، حزينًا وثقيلًا؛ وعندما أكتب فإنني أتمزق إربًا بفعل القلق والخوف.

يبدو كما لو أننا كلينا يطلب أحدنا من الآخر أن يرثي له؛ أطلب أنا منك ذلك، فربما يتاح لي الآن أن أخبئ نفسي، وتطلبين أنت مني - إلا أن حقيقة إمكان ذلك هي أكثر المفارقات إثارة للرعب.

تسألين، لكن كيف يكون ذلك ممكنًا؟ ما الذي أريده أنا، وما الذي أفعله؟

إن المسألة تقريبًا على هذا النحو: أنا، حيوان من الغابة، كنت في ذلك الوقت أكاد أتواجد في الغابة، أستلقي هناك في مكان ما في حفرة قذرة (قذرة فقط نتيجة لوجودي بداخلها بالطبع). ثم رأيتك في خارج الحفرة، في الخلاء - أكثر شيء إثارة للدهشة رأيته على الإطلاق. نسيت كل شيء تمامًا، نسيت نفسي، نهضت من مكان، اقتربت - ومع خوفي وسط هذه الحرية الجديدة المألوفة مع ذلك - اقتربت على الرغم من ذلك، حتى بلغت مكانك؛ وكنت أنت بالغة الطيبة، فربضت على ركبتيّ محنيًّا إلى جوارك، كما لو كان ذلك من حقي، ودسست وجهي في يدك، كنت سعيدًا غاية السعادة، ومختالًا جدًّا، وحرًّا من كل القيود، وهائل القوة، ومؤتنسًا آمنًا - أكثر فأكثر ثانية هذا: آمنًا

مستأنسًا ـ لكنني أساسًا كنت ما أزال حيوانًا فحسب، كنت أنتمي ما زلت فقط إلى الغابة، عشت هنا في الخلاء فقط بفضلك، وقرأت دون أن أدرك ذلك، (ذلك أنني في نهاية الأمر، كنت قد نسيت كل شيء)، قدري في عينيك. لم يكن يمكن لهذا أن يستمر، ومع أنك قد ربت عليَّ بأرق الأيدي، فقد كان عليك أن تدركي ما في ذلك من غرابة كانت توحي بالغابة، من حيث قفزت خارجًا، وإلى حيث كنت أنتمي حقًّا. ثم جاءت المناقشات المحتومة حول (الخوف)، تكرر نفسها على نحو لا مفر منه، فعذبتني (وعذبتك، ولكنها عذبتك ببراءتك) حتى بلغت الدرجة التي لمست معها العصب العاري. واتضح لي أكثر فأكثر إلى أي حد كنت أنا طاعونًا ملوثًا، وإلى أي مدى كنت عقبة في طريقك، أعوقك في كل مكان ـ وأستند إلى سوء التفاهم ذلك مع ماكس، وكان واضحًا بالفعل في جموند؛ ثم جاء فهم وسوء فهم يارميللا؛ ثم في النهاية ذلك التعامل الغبي، الأخرق، الذي تكفل به الإهمال مع (ف.)، والكثير من أشكال سوء الفهم الصغيرة الأخرى بين هذا كله. تذكرت من أنا، لم أعد أرى أي خداع في عينيك، وعانيت الرعب الحالم (للسلوك كما لو كان المرء أليفًا على سجيته في مكان لا ينتمي المرء إليه). هذا الرعب عشت تجربته الواقعية، وكان عليّ أن أعود إلى الظلام، لم يكن في مقدوري أن أحتمل الشمس، كنت قانطًا، حقيقة كحيوان ضال. شرعت في الانطلاق جريًا بأسرع ما أمكنني، ودائمًا كانت الفكرة هي: «لو أمكنني فحسب أن آخذها معي!» والفكرة المضادة: «هل ثمة أي ظلام حيث تكون هي؟».

تتساءلين كيف أعيش؛ هذه هي كيفية حياتي.

الرسالة الأولى كانت قد أرسلت بالفعل عندما وصلت رسالتك، وبصرف النظر عن أي شيء قد يتواجد في أسفل ـ تحت أشياء من قبيل «الخوف» وما إليها ـ وهي الأشياء التي تصيبني بالغثيان، لا لأنها مقززة، بل لأن معدتي بالغة الضعف.

وبصرف النظر عن هذا فقد تكون المسألة أسهل حتى مما تقولين. على هذا النحو مثلًا: إن النقص في حال الوحدة ينبغي أن يتم تحمله خلال كل لحظة، حتى حين يكون النقص الذي يشارك فيه اثنان لا يُطاق. أفليس للإنسان عينان لكي يخلعهما، وله قلب لنفس الغرض؟ على أن المسألة ليست سيئة، إنها مبالغة كلها، وكذبة؛ كل شيء هو مبالغة، فقط التوق هو الحقيقي، فهذا لا يمكن أن تحدث له مبالغة. لكن حتى حقيقة التوق ليست هي صدقه، بل هي بالأحرى تعبير عن الكذبة في كل شيء آخر.

قد يبدو هذا جنونيًّا لكنه هكذا.

كما أنه ربما لن يكون هو الحب في الحقيقة، عندما أقول إنك الأحب إليّ، إن الحب بالنسبة لي هو أنك السكين التي أديرها مغروسة في داخلي. وعلاوة على ذلك، فأنت نفسك تقولينها: «(الناس) الذين لم يؤتوا القوة على أن يحبوا؛ ألا ينبغي أن يكون هذا تمييزًا كافيًا بين «حيوان» وبين «كائن بشري؟»».

لا يمكنك أن تفهمي حق الفهم يا ميلينا، ما هي حقيقة الأمر كله، أو أن تفهمي جزئيًّا ما هو مداره. إنني حتى أنا نفسي لا أفهمه، إنني ارتعش فحسب تحت وطأة الهجوم، أعذب نفسي إلى درجة الجنون، لكن ما هو، أو ما الذي يريده في المدى البعيد، فهذا ما لا أعرفه. كل ما يتطلع إليه فقط في هذه اللحظة هو السكون، الظلام، الزحف إلى مكان للاختباء، أعرف هذا ولا بد لي من أن أطيع، لا يمكنني أن أفعل سوى ذلك.

إنه اندلاع، وهو يأخذ مجراه، ولقد قطع جزءًا من شوطه، إلّا أن الطاقات التي بعثته إنما ترتعش في داخلي طوال الوقت، قبل الاندلاع وبعده ـ في الحقيقة ـ حياتي، وجودي، إنما يتألف من هذا التهديد السفلي، فلو توقف هذا التهديد لتوقف أيضًا وجودي. إنه طريقتي في المشاركة في الحياة؛ فلو توقف هذا التهديد، أهجر الحياة، بمثل سهولة وطبيعية إغلاق المرء لعينيه. وهل لم يكن موجودًا منذ أن عرف أحدنا الآخر، وهل كنت لتتطلعي إليَّ حتى ولو خلسة لو لم يكن هذا التهديد موجودًا؟

بالطبع لا يمكن للمرء أن يدير الموضوع إلى هذه الوجهة ويقول:

والآن لقد مر هذا التهديد ولم أعد إلَّا هادئًا وسعيدًا وممتنًّا في حالة وجودنا كلينا معًا الجديدة. لا يجرؤ المرء على أن يقولها على الرغم من أنها تكاد تكون صادقة (الامتنان صادق كلية ـ أما السعادة فهي حقة

بمعنى ما ـ إلّا الهدوء فلا صحة لوجوده مطلقًا) ذلك أنني سوف أكون مرتعبًا من نفسي قبل كل شيء.

تذكرين الخطبة وأشياء مماثلة كانت بالطبع بسيطة للغاية، لكن لم تكن المعاناة بسيطة، بل كان البسيط هو أثرها. ويبدو كما لو أن المرء قد عاش دائمًا حياته منهمكًا في الشهوات، وأن المرء الآن قد تم اقتناصه، وعقابًا له على كل ما اقترفت يداه من عربدة وضعت رأسه بين ذراعي منجلة أحدهما ينضغط على صدغه الأيمن، وينضغط الآخر في الصدغ الأيسر، والآن بينما تنضغط المسامير اللولبية ببطء يكون للمرء أن يقول: «نعم، سوف أواصل حياتي المعربدة» أو «لا، سوف أقلع عنها». وبالطبع يجأر المرء ب «لا» حتى تنفجر رئتاه.

أنت أيضًا على حق في وضع ما فعلته للتو على خط واحد مع الأشياء القديمة، ويمكنني بعد كل شيء أن أبقى فقط كما أنا، وأن أمر بنفس التجارب. والاختلاف الوحيد هو أنني قد حصلت بالفعل على بعض التجارب، حتى أنني في هذه الأيام لا أنتظر لكي أصرخ، إلى أن تدور المسامير اللولبية لتصل إلى حد إكراهي على الاعترافات، بل أبدأ بالفعل في الصراخ لمجرد إحضارها، أصرخ في الحقيقة عندما يتحرك شيء ما على البعد؛ وبهذا أصبح وعيي منتبهًا زائد التيقظ ـ لا، ليس زائد الانتباه، بل هو لم يصبح بعد منتبهًا بما يكفي إلى حد بعيد.

إلا أن هناك فرقًا آخر ما يزال: لك وليس لأي شخص آخر يمكن للمرء أن يقول الحقيقة خالصة من أجل خاطر هذا الشخص نفسه، ومن أجل

خاطرك؛ وفي الحقيقة فمن خلالك يمكن للمرء بالفعل أن يكتشف حقيقته هو نفسه.

لكن عندما تتحدثين بمرارة يا ميلينا، عن طلبي منك بكل هذا الإلحاح ألا تتركيني، فلست في حديثك هذا على حق. لم أكن مختلفًا، في هذا الخصوص عندئذ، عما أنا عليه الآن. كنت أحيا من نظراتك (لا يعد تأليهًا خاصًّا لشخصك، فبنظرة كتلك يمكن لكل شخص أن يصبح سماويًّا)، لم تكن لي أرضية حقيقية تحتي، وكان هذا هو ما كنت أخافه دون أن أدركه في وضوح، لم أكن حتى على وعي بالمدى الذي بلغته في طفوي فوق سطح أرضيتي. لم يكن هذا حسنًا، لا بمفهومي ولا بمفهومك. كلمة صدق محتوم واحدة كانت كافية، وجذبتني بالفعل خطوة واحدة إلى أسفل، كلمة واحدة أخرى، بخطوة واحدة أخرى- حتى لم يعد هناك في النهاية أي توقف وغاص المرء في أسفل، وانتابه الشعور بأن حركته إلى أسفل بطيئة ما تزال. إنني لا أقتبس عن قصد أية أمثلة ل «كلمات الصدق» تلك، لأن هذا لا يؤدي إلّا إلى التشوش، ولأنه ليس صحيحًا تمامًا.

أرجوك يا ميلينا، اخترعي لي إمكانية أخرى لكي أكتب إليك اليوم. فأن أرسل لك بطاقات تمتلئ بالأكاذيب لهو أمر بالغ السخف، كما أنني لا أعرف دائمًا أية كتب يفترض أن أرسلها لك؛ وأخيرًا فكرة أنك قد تذهبين ذات مرة إلى مكتب البريد بلا طائل هي فكرة لا تحتمل، فأرجوك اخترعي إمكانية أخرى.

***

مساء الإثنين

وهكذا فسوف تذهبين الأربعاء إلى مكتب البريد، ولن تكون هناك أية رسالة في انتظارك ـ آه، نعم، رسالة السبت. لم أتمكن من الكتابة في مقر عملي لكنني كنت قد انتويت أن أعمل، ولم أتمكن من أن أعمل لأنني كنت أفكر في علاقتنا معًا. ولم أتمكن في فترة ما بعد الظهيرة من مغادرة الفراش، ليس لأنني كنت شديد التعب، بل لأنني كنت (ثقيلًا) ثقلًا بالغًا ـ مرة بعد أخرى هذه الكلمة، إنها الكلمة الوحيدة التي تناسبني، فهل تفهمين هذا أصلًا؟ إنه شيء شبيه ب «ثقل» السفينة التي فقدت دفتها، والتي تقول للأمواج: «بالنسبة لنفسي أنا ثقيلة جداً، وبالنسبة لك أنا خفيفة للغاية» إلا أن الحالة ليست تمامًا كذلك أيضًا، ولا تستطيع المقارنات أن تعبر عنها.

لكن أساسًا السبب في عدم كتابتي هو الشعور الغامض، هو أن لديّ الكثير جدًّا من الأشياء بالغة الأهمية إلى أقصى حد، كي أقولها لك، وأن أي قدر من الوقت الخالي لن يكون خاليًا بما يكفي لكي ألم شتات كل الجهد المطلوب لتحقيق ذلك، وهذه هي حقيقة الأمر.

وإذا كنت لا أستطيع أن أقول أي شيء عن الحاضر، فإلى أي مدى شاسع يبدو عجزي عن قول أي شيء عن المستقبل؟ لقد نهضت في الحقيقة الآن فحسب من «فراش المرض» («فراش مرض» منظور إليه من الخارج)، إنني ما زلت متشبثًا به، وأكثر ما أفضله هو أن أعود إليه، على الرغم من أنني أعلم ما الذي يعنيه هذا الفراش.

ما كتبته عن الناس، يا ميلينا ـ «الذين لم تعط لهم القوة على الحب» ـ كان صحيحًا، حتى وإن كنت وأنت تكتبينه لا تعتبرينه صحيحًا. ولعل موهبتهم للحب إنما تتألف فقط من القابلية لأن يكونوا محبوبين. وحتى في هذا يتواجد تميز في التأهيل لهذه القابلية عند هؤلاء الناس. فلو قال أحدهم لمحبوبته: «إنني أثق في أنك تحبينني»، فإن هذا يكون عندئذ شيئًا مختلفًا كل الاختلاف، وأقل كثيرًا عن قوله: «أنا محبوب بواسطتك». هؤلاء بالطبع، ليسوا عشاقًا بل نَحْويُّون.

أخشى أن تكوني قد أسأت فهم ملاحظتي عن «النقص في حالة اثنين». فبهذه الملاحظة لم أكن قد قصدت أن أقول أي شيء أكثر من: إنني أعيش في قذارتي، فهذا هو ما يشغلني. لكن أن أجرجرك إلى داخلها أيضًا، فهذا شيء مختلف تمامًا ـ لا كمجرد إساءة إليك، فهذا جزء عرضي من ملاحظتي (ولا أعتقد أن إساءة ضد أي شخص آخر، بقدر ما يتعلق ذلك فقط بالآخر، يمكن أن تكدر نومي). وعلى هذا فهي ليست هكذا. إن الشيء المزعج هو شيء بعيد بالأحرى حيث إنني من خلالك أصبح أكثر وعيًا بقذارتي على نحو زائد، و ـ فوق كل شيء ـ أنه من خلال وعيي يصبح الخلاص أكثر كثيرًا في صعوبته بالنسبة لي ـ لا، بل أكثر كثيرًا في استحالته (وإنه لمستحيل على أية حال، لكن في هذه الحالة تتزايد الاستحالة). وينتج عن هذا عرق الخوف البارد فوق الجبهة؛ ولا محل لكون هذا نتيجة لأي خطأ ينسب السبب فيه إليك. لكنها كانت ملاحظة خاطئة ولقد ندمت ندمًا شديدًا لأنني في رسالتي الأخيرة عقدت مقارنات مع أشياء أسبق. فهيا نَمْحُ هذا معًا.

وهكذا فأنت حقًّا لست مريضة؟

بالتأكيد، يا ميلينا، أنت تمتلكين أملاكًا هنا في براغ، ولا أحد أيضًا يجادل في ذلك، ما لم يكن الليل هو الذي يحارب منازعًا لك فيها؛ لكن الليل يحارب منازعًا على كل شيء، وأية أملاك هذه مع ذلك! إنني لا أقلل من شأنها، فهي شيء ما؛ بل هي في الحقيقة عقارات بالغة الضخامة حتى ليمكنها أن تحجب قمرًا تامًّا هناك في أعلى، داخل حجرتك. ولن يخيفك الظلام البالغ؟ الظلام بدون دفء الظلام؟

وحتى يمكنك أن تري شيئًا من (انشغالاتي) أرفق بهذا رسمًا. فهذه أعمدة أربعة، خلال العمودين الأوسطين قد دُست قضبان شدت إليها يدا «المذنب»، وخلال العمودين الخارجيين دست قضبان من أجل القدمين. وبعد أن تم شد وثاق الرجل على هذا النحو يجري سحب القضبان ببطء إلى الخارج حتى يتم شق الرجل جزئين عند المنتصف. وأمام العمود يرتكن المخترع الذي أضفى على نفسه، وقد عقد يديه وساقيه، كبرياء زائدة مصطنعة. كما لو كان هذا كله هو اختراعه الأصيل، بينما هو قد قام فقط بنسخ صورة عن عمل الجزار الذي يمدد الخنزير المنتزعة أحشاؤه مشدودًا على واجهة حانوته.

السبب في سؤالي عما إذا كنت لن تشعري بالخوف هو أن الشخص الذي تكتبين عنه لا يوجد، ولم يحدث أن وجد قط من قبل؛ فذلك الذي في ڤيينا لم يوجد؛ كما لم يوجد ذلك الذي في جموند، وإن كان الشخص الأخير قد زاد في انعدام وجوده، وأن اللعنة سوف تلاحقه،

وأن تعلمي ذلك هو شيء مهم لأنه إن كان لنا أن نلتقي فإن الشخص الفييني أو حتى ذلك الشخص الذي من جموند سيعاود الظهور بكل البراءة، كما لو أن شيئًا لم يكن قد حدث، بينما الشخص الحقيقي في أسفل ـ ذلك الشخص المجهول للجميع ولنفسه والذي يقل وجوده حتى عن وجود الآخرين، لكنه في تظاهراته بالقوة أكثر حقيقة من كل الآخرين (فلماذا لا يخرج في النهاية عن غيابه ويعرض نفسه؟) سوف يرفع يده المتوعدة ليحطم بها كل شيء مرة أخرى.

نعم، ميتسي ك. كان هنا، وانقضى كل شيء تمامًا على ما يرام. لكن لو كان ذلك ممكنًا حتى، فإنني لن أكتب مزيدًا عن الناس الآخرين، فلقد كان اختلاطهم في رسائلنا هو الذي سبب كل الاضطراب. وهذا ليس مع ذلك هو السبب الحقيقي الذي من أجله لم أعد أرغب في أن أكتب عنهم (فهم في النهاية، لم يقوموا بإحداث ضرر، بقدر ما مهدوا الطريق للحقيقة؛ ولما كان له أن يعقبها). لا أعني بهذا أن أعاقبهم ـ على فرض إمكاني أن يعد ذلك عقابًا لهم ـ بل يبدو لي فحسب أنهم لم يعودوا ينتمون إلى هنا. فهنا الظلام، شقة مظلمة، ليس فيها سوى أهلها، ولا يمكنهم سوى أن يجدوا طريقهم في أنحائها بصعوبة.

ما إذا كنت قد عرفت أنها سوف تمر؟ لقد عرفت أنها لن تمر.

عندما كنت وأنا طفل قد فعلت شيئًا سيئًا جدًّا، شيئًا ليس بالغ السوء بالمعنى العام، لكنه سيئ جدًّا بالمعنى الخاص عندي (وحقيقة أنه لم يكن سوءًا عامًّا، لم يكن فضلًا يحسب لي؛ لكنه كان العمى أو السبات

الذي اتصف به العالم)ـ عندئذ كنت أصاب بالدهشة الشديدة لأن كل شيء قد واصل سيره في طريقه بلا تغيير، وأن الكبار، وإن كانوا قد بدوا عابسين قليلًا، إلا أنهم قد واصلوا سيرهم حولي بلا تغيير، وأن أفواههم التي كنت قد أعجبت بها هادئة ومغلقة طبيعيًّا من مكاني المنخفض منذ بواكير طفولتي الأولى، قد واصلت البقاء مغلقة. من كل هذا استنتجت، بعد مراقبتها لفترة، أنه لم يكن بمقدوري بعد هذا كله، أن أكون قد فعلت شيئًا سيئًا بأي معنى، وأن كوني قد خشيت عاقبة ما لم يكن سوى خطأ طفولي، وأنني على هذا كان يمكنني أن أبدأ من جديد من حيث أقلعت عن الفعل عند الصدمة الأولى.

وفيما بعد، تغيرت تدريجيًّا هذه الفكرة التي تتعلق بالعالم المحيط، فقد بدأت أعتقد في البداية أن الآخرين كانوا على وعي كامل تمامًا بكل شيء، وأنهم بالفعل قد عبروا أيضًا عن رأيهم فيّ وضوح، وأنني فقط الذي لم أكن حتى ذلك الوقت قد امتلكت عينًا حادة بما يكفي لإدراك ذلك ـ وهو شيء قد حصلت عليه الآن بغاية السرية، لكن برودهم ثانيًا، وحتى لو كان له أن يوجد، بدا لي، وإن كان باعثًا على الدهشة، إلا أنه لم يكن مع ذلك دليلًا على براءتي. حسنًا، إذن فهم لم يلحظوا أي شيء؛ لا شيء في وجودي يدخل في عالمهم؛ كنت في عيونهم نقيًّا بلا عيب، طريقة حياتي، طريقي قد مرّ على هذا النحو خارج عالمهم، فلو كان هذا الوجود مجرى مائيًّا، فلقد مرّ رافد قوي على الأقل عندئذ خارج عالمهم.

لا يا ميلينا، أتوسل إليك مرة أخرى أن تخترعي إمكانية أخرى لكتابتي إليك. لا ينبغي لك أن تذهبي إلى مكتب البريد عبثًا، حتى ساعي بريدك الصغير- من هو؟ لا ينبغي له أن يفعل ذلك، ولا يجب حتى على رئيسة مكتب البريد أن يوجه إليها السؤال بلا ضرورة. فإذا كنت لا تجدين أية إمكانية أخرى، فعلى المرء إذن أن يتحمل ذلك، لكن على الأقل، ابذلي مجهودًا في العثور على إمكانية واحدة.

في الليلة الماضية حلمت بك، أما ما الذي حدث بالتفصيل فلا أكاد أذكره. كل ما أعرفه هو أننا ظللنا نندمج أحدنا بالآخر؛ كنت أنا أنت، وكنت أنت أنا؛ وفي النهاية اشتعلت فيك النيران على نحو ما. ولأنني تذكرت أن شخصًا ما كان قد قام بإخماد النار بالملابس، أخذت معطفًا قديمًا ورحت أضربك به، لكن تحولاتنا بدأت ثانية، ولقد قطعت في تغيرها شوطًا بعيدًا حتى أنك لم يعد لك وجود؛ وبدلًا منك أصبحت أنا الذي فيه النيران، وكنت أنا أيضًا الذي رحت أضرب النيران بالمعطف لأطفئها، إلَّا أن ذلك لم يجد شيئًا، وكان هذا الضرب بالمعطف قد أكد خوفي القديم من أن مثل هذه الأشياء لا يمكنها أن تطفئ حريقًا. وفي تلك الأثناء، مع ذلك، وصل رجال الإطفاء، وتم إنقاذك على نحو ما. لكنك كنت مختلفة عن ذي قبل، أصبحت شبحية كما لو كنت مرسومة بالطباشير على السواد، وتهاويت بلا حياة، أو ربما كنت قد سقطت مغشيًّا عليك في أحضاني فرحًا بنجاتك. لكن تدخل هنا أيضًا الشك الذي لازم قابلية التحول، فربما كنت أنا من سقط بين ذراعي آخر.

الآن فقط كان هنا (أ.) هل تعرفينه؟ فلو فقط أمكن أن تتوقف الزيارات. كل شخص يتمتع بحيوية أبدية، وهو خالد في الواقع، ربما ليس في اتجاه الخلود الحق، لكن إلى أسفل نحو عمق أعماق الحياة الفورية المباشرة لكل منهم. إنني أخافهم خوفًا شديدًا، وبسبب الخوف أحب أن أتوقع مقدمًا أية رغبة يرغبها الواحد منهم، وأن أقبل قدميه اعترافًا بالجميل! فقط لو انصرف بدون أية دعوة منه لرد الزيارة. وحدي تمامًا ما زلت حيًّا، لكن ما إن يصل زائر فإنه يوشك بزيارته أن يقتلني لكي يكون قادرًا على أن يبعثني حيًّا بما لديه من طاقة، لكنه لا يمتلك مثل هذه الطاقة الزائدة، يوم الإثنين من المفروض أن أذهب لزيارته، وإن رأسي ليطن بهذا الافتراض.

لماذا يا ميلينا، تكتبين عن مستقبل مشترك لم يكن لنا قط في نهاية المطاف، أو أن هذا هو السبب في أنك تكتبين عنه؟ لقد حدث بالفعل ذات مساء في ڤيينا عندما تحدثنا عن هذا المستقبل باقتضاب أن تملكني الإحساس بأننا كنا نقوم بالبحث عن شخص ما عرفناه معرفة عميقة وافتقدناه كثيرًا، وكنا لهذا نناديه بأعذب الأسماء إلا أننا لم نتلق أي رد؛ فكيف كان له أن يرد ما دام أنه لم يكن موجودًا هناك، ولا كان موجودًا في أي مكان آخر حولنا على بعد أميال؟

قليلة هي الأشياء المؤكدة، وأحدها هو أننا لن نعيش معًا مطلقًا، في نفس الشقة، جسدًا لجسد، ونجلس إلى نفس المائدة، أبدًا، ولا حتى في نفس المدينة.

أوشكت أن أقول الآن بالذات إن هذا يبدو لي يقينًا كيقيني بأنني في صباح الغد لن أنهض من النوم (لقد رفعت نفسي بدون مساعدة! في مثل تلك اللحظات أرى نفسي من زاوية رؤية تحتية، وكأنني تحت صليب ثقيل، مضغوط على بطني إلى أسفل، كان عليّ أن أعمل جاهدًا قبل أن أتمكن حتى من أن أنحني عندما رفعت الجثةُ التي فوقي نفسها قليلًا) ولن أذهب إلى عملي. هذا صحيح بالفعل، لن أنهض بالتأكيد، لكن لو جاوزت عملية النهوض الطاقة البشرية قليلًا فحسب، فإنني سأظل عندئذ أجهد نفسي في متابعة القيام بها، سأرفع نفسي هذه الزيادة القليلة فحسب فيما وراء الجهد البشري. لكن لا تأخذي هذا الكلام عن النهوض حرفيًّا إلى هذا الحد، فليس الأمر بكل هذا السوء؛ فعن أنني سأنهض غدًا أمر على أية حال يفوق في تأكده أغلب الاحتمالات البعيدة الأخرى التي تحفل بها حياتنا مجتمعة.

ولا تظني أيضًا يا ميلينا عكس ذلك عندما تتفحصين نفسك وتتفحصينني و«البحر» الذي بين «ڤيينا» و«براغ» بأمواجه العالية التي لا تقهر.

أما بخصوص تلك القذارة، فلماذا لا ينبغي لي أن أمضي في عرضها، وهي ملكيتي الوحيدة (الملكية الوحيدة لكل الناس، فقط أنا لست على كل هذا الوعي بها)؟

بدافع من التواضع، ربما؟ حسنًا، سيكون هذا هو الاعتراض الوحيد المبرر.

وعلى هذا ففكرة الموت ترهقك؟ إنني لا أخشى فقط، في رعب، سوى الآلام. إن هذه دلالة سيئة، فأن يريد المرء الموت ولا يريد الآلام لهي دلالة سيئة؛ لأنه خلافًا لهذا يمكن للمرء أن يغامر بالموت. لقد كان المرء قد أطلق إلى الخارج كحمامة الكتاب المقدس، فلم تجد أثرًا لخضرة فانزلقت راجعة إلى ظلام الفُلْك.

لقد تلقيت النشرات المرسلة من المصحتين، وكنت قد عرفت أنهما لا يمكن أن تتضمنا أية مفاجآت، وأهم ما تضمنتاه كان عن النفقات على الأغلب، وعن مدى بعدهما عن ڤيينا، وفي هذا الخصوص فكلتا المصحتين تقريبًا متساويتان وهما باهظتا النفقات للغاية، أكثر من (400) ك. في اليوم، وربما (500) ك.، وحتى هذه الأسعار عرضة للتغير. والمسافة حوالي ثلاث ساعات بالقطار من ڤيينا، ثم نصف الساعة بعد ذلك بالعربة، وبهذا تعد رحلة طويلة هي أيضًا. وبالمناسبة، تبدو مصحة (جريمينشتاين) مع ذلك أقل في أسعارها إلى حد طفيف، وبهذا يمكن أن يقع عليها الاختيار في حالة الضرورة؛ لكن فقط في حالة الضرورة.

ترين يا ميلينا، إلى أي حد لا أفكر فقط إلا في نفسي طوال الوقت - أو بالأحرى في الشريحة الضيقة المشتركة من الأرضية التي تعد طبقًا لشعوري وقصدي حاسمة بالنسبة لنا - وكيف أهمل كل شيء آخر حولي. إنني لم أشكرك بعد حتى عن «كمن» و«تريبونا»، وإن كنت مرة أخرى قد أنجزت ذلك على نحو جميل. سوف أرسل لك نسختي التي معي هنا على المائدة، لكن ربما كنت تريدين أيضًا بعض التعليقات

عليها، وفي هذه الحالة يتعين عليّ أن أعيد قراءتها ثانية وليس هذا سهلًا. إلى أي حد أستمتع بقراءة ترجماتك للكتابات الأجنبية! هل كان حديث تولستوي ترجمة عن الروسية؟

وعلى هذا فقد أصبت بالأنفلونزا؟ حسنًا، على الأقل لا يمكنني أن ألوم نفسي على أنني قد استمتعت بوقت مرح هنا بنوع خاص (أحيانًا لا أفهم كيف اكتشفت الكائنات البشرية فكرة «الانشراح»، ربما كان قد تم تقديرها على أساس أنها نقيض للحزن).

كنت قد اقتنعت بأنك لن تعاودي الكتابة إليّ بعد ذلك، إلا أنني لم أكن مندهشًا ولا كنت حزينًا بهذا الخصوص. لم أكن حزينًا لأن ذلك بدا لي ضروريًّا على نحو يتجاوز كل حزن؛ ولأنه في العالم كله ربما لا توجد أثقال ميزان تكفي لرفع ثقلي الضئيل البائس، ولم أكن مندهشًا؛ لأنني لم أكن لأدهش حتى في الماضي، لو كنت قد قلت: «لقد كنت حتى الآن مترفقة بي، إلا أنني سأكف عن ذلك الآن، وسأذهب بعيدًا». لا يوجد في العالم سوى أشياء تثير الدهشة، إلا أن هذا كان سيعد واحدًا من أقل الأشياء إثارة للدهشة؛ فكم يفوقه إثارة للدهشة، مثلًا، أن ينهض المرء من نومه كل صباح. كما أن هذه، علاوة على ذلك، ليست دهشة باعثة على الثقة بالنفس، بل هي بالأحرى فضول أحيانًا يثير الغثيان.

فهل لا تستحقين كلمة طيبة يا ميلينا؟ من الواضح أنني لا أستحق أن أقولها لك؛ وإلا لأمكنني أن أقولها.

هل سيرى أحدنا الآخر مبكرًا عما أظن؟ أنا أكتب (يرى)، وتكتبين (نعيش معًا) لكنني أعتقد (وأرى اعتقادي مؤكدًا، في كل مكان، وفي أشياء لا علاقة لها به، وأسمع كل الأشياء تؤيد اعتقادي هذا) بأننا سوف لا يكون لنا، ولن يكون في مقدورنا مطلقًا أن نعيش معًا، و(مبكرًا عن) بدلًا من (مطلقًا)، هي مرة أخرى (مطلقًا).

(جريمينشتاين) هي الأفضل في نهاية الأمر. إن الفرق في النفقات ربما كان حوالي (50) ك. في اليوم، وعلاوة على ذلك، ففي المصحة الأخرى على المرء أن يحضر معه كل شيء لعلاج الاستراحة (فروة لغطاء القدمين ـ وسادة ـ بطاطين، إلخ، ولا يوجد لديَّ شيء من هذا)، على حين أنه يمكن للمرء في مصحة (جريمينشتاين) أن يستعيرها. في مصحة (فينر فالد) على المرء أن يودع مبلغًا كتأمين، لكن في (جريمينشتاين) ليس هذا مطلوبًا، علاوة على أن (جريمينشتاين) تقع على ارتفاع أعلى، وعلى أية حال فلست ذاهبًا إليها الآن؛ ومع ذلك فلقد أحسست بسوء حالتي واضحًا لمدة أسبوع (بعض الارتفاع في درجة الحرارة وتلك الصعوبة في التنفس، حتى أنني كنت أخشى أن أنهض من أمام المائدة، وأيضًا سعالًا زائدًا)، لكن يبدو أن هذا كان فقط نتيجة لمشوار طويل سيرًا على الأقدام تحدثت خلاله كثيرًا إلى أحد ما؛ وحالتي الآن قد أصبحت أفضل كثيرًا، حتى أن المصحة قد أصبحت مرة أخرى حاجة أقل إلحاحًا.

ولديَّ النشرات الآن هنا: ففي (فينر فالد) أقل سعر لحجرة تطل على الجنوب، وبها شرفة هو (380ك.)، وفي (جريمينشتاين) تكلف أغلى

غرفة (360ك.)، إن الفرق بالغ للغاية، وسعرهما كلاهما مرتفع بصورة مرعبة. كما أن احتمالات الاحتياج إلى الحقن يجب أن توضع في الاعتبار، فالحقن على حدة لها تكلفتها الإضافية.

إنني أود الذهاب إلى الريف، وأفضل أكثر حتى أن أبقى في براغ، وأتعلم إحدى الحرف، وأقل من هذا كله رغبتي في الذهاب إلى مصحة. فما الذي سأفعله فيها؟

هل سيمسك بي كبير الأطباء بين ركبتيه و«يزغط» قطعة اللحم التي يضعها في فمي، بأصابعه التي تفوح بحمض الكربوليك حتى تنزل من حلقومي؟

الآن بالذات كنت مستلقيًا على الأريكة لمدة ساعتين، ولم أكد أفكر خلالهما في شيء آخر سواك.

لا يبدو عليك أنك تدركين يا ميلينا، أننا نقف معًا جنبًا إلى جنب، نرقب ذلك المخلوق فوق الأرض، الذي هو أنا، لكنني كمتفرج لا يكون لي وجود عندئذ.

بالمناسبة، إن الخريف يتلاعب بي هو أيضًا، فأنا في أحيان أكون دافئًا بطريقة باعثة على الريبة، ويريبني كذلك إحساسي بالبرودة، إلا أنني لم أكشف عن حقيقة هذا الأمر، فلن يكون هذا أمرًا سيئًا للغاية هو أيضًا. في الحقيقة كنت حتى قد وضعت في الاعتبار المرور مباشرة عبر ڤيينا، لكن فقط لأن الرئة هي بالفعل في حالة أسوأ مما كنت عليه خلال الصيف ـ وهذا طبيعي للغاية في نهاية الأمر ـ والحديث في الشارع

صعب بالنسبة لي، وله نتائج غير سارة. فلو كان عليّ أن أغادر هذه الحجرة، لرغبت في أن ألقي بنفسي بأسرع ما يمكن على المقعد القماش في (جريمينشتاين) ومن ناحية أخرى، فلعل الرحلة في حد ذاتها أن تكون ذات نفع لي مثلها مثل الهواء في ڤيينا الذي فاجأني ذات مرة عندما تنفست فيه نسمات هواء الحياة الحقيقية.

قد تكون (فينرفالد) أقرب، لكن هناك ثمة فرقًا كبيرًا في المسافة، والمصحة لا تقع في (ليبرزدورف)، بل تقع على مسافة أبعد منها، ومن المحطة إلى المصحة مسافة أخرى تبعد نصف ساعة بالعربة. وعلى هذا فلو كان لي أن أرحل من هذه المصحة إلى بادن بدون مصاحب ـ لأن ذلك سيكون بالتأكيد مخالفًا للتعليمات ـ فسيكون في مقدوري بالمثل أن أرحل أيضًا من (جريمينشتاين) إلى (فينر ـ نويشتات)، ولن يكون في هذا فرق كبير لا بالنسبة لك ولا بالنسبة لي.

كيف حدث يا ميلينا؟ أنك ما زلت لا تحسين أي خوف أو نفور مني، أو شيء من هذا القبيل؟ وإلى أي مدى تبلغ جديتك وقوتك؟.

إنني أقرأ كتابًا صينيًّا هو (قصص أشباح). وأذكره لأنه يهتم بصفة خاصة بالموت. رجل يستلقي على فراش موته، وفي حالة الاستقلال التي يتيحها له إشرافه على الموت، يقول: «لقد قضيت حياتي محاولًا أن أحارب الشهوة وأن أضع نهاية لها». ثم يسخر تلميذ من مدرسه الذي لا يتحدث عن شيء سوى الموت قائلًا له: «إنك تتحدث عن الموت طوال الوقت، لكنك لا تموت حتى الآن»، ويرد عليه المدرس:

«وسأموت مع ذلك، لكنني أغني فقط أغنيتي الأخيرة؛ فأغنية رجل ما أطول، وأغنية غيره أقصر. والفرق مع ذلك لن يكون مطلقًا أكثر من بضع كلمات قلائل».

هذا حق، ومن غير العدل أن يبتسم المرء وهو ينظر إلى البطل الذي يستلقي فوق خشبة المسرح، يغني وهو يعاني جراحه المميتة لحنًا من الألحان. فنحن جميعًا نستلقي فوق الأرض ونغني لسنوات.

قرأت أيضًا «رجل المرآة»[81]، فأية وفرة في الطاقة الحيوية! فقط في أحد المواضع يتبدى المرض قليلًا، لكن تتزايد في كل موضع آخر غزارتها الحيوية، وحتى المرض مفرط القوة. لقد قرأتها في نهم حتى النهاية في ظهيرة واحدة.

ما هذا الذي يعذبك الآن «هناك»؟ لقد ظننت دائمًا أنني كنت عاجزًا حيال هذا في الماضي، لكنني إنما أعاني العجز الآن فحسب؛ وعلاوة على ذلك، فأنت غالبًا جدًّا ما تكوني مريضة.

مررت الآن على المدير، كان هو قد استدعاني. وكانت (أوتلا) قد ذهبت لمقابلته ضد رغبتي في الأسبوع الماضي، وضد رغبتي فحص طبيب العمل حالتي، وضد رغبتي سوف أحصل على إجازة.

اصفحي عني يا ميلينا، فلقد كتبت لك باختصار زائد ربما، في الفترة الأخيرة، بينما كنت ساخطًا عند حجز الغرفة بالمصحة (التي اتضح الآن أن حجزها لم يتم)؛ وعلى الرغم من ذلك، فأنا أنوي الذهاب إلى

81مسرحية لـ (فرانتس ڤيرفل).

(جـر.)، لكن مـا تـزال هنـاك بعض المعوقـات الصـغيرة الـتي كـان من الممكن أن يتغلب عليها قبل وقت طويل شخص يتمتع بقـوة جسـمانية متوسـطة، إلا أنـني فحسـب لم أسـتطع (وبـالطبع من ذا الـذي لا يـود الـذهاب إلى (جـر.). وقـد علمت للتـو أيضًـا، أنـه خلافًـا لتأكيـدات المصحة، يلزمني تصريح إقامة من السلطات التي ربما تسمح بهـا، لكن ليس قبل أن أرسل طلبًا لذلك بلا شك.

لقد قضيت فترة ما بعد الظهيرة كلها في الشوارع، أتلـوى ملتقطًـا الطعم من سنارة اليهود؛ (رعاع أقذار) سـمعت أحـدهم ينعت بهـا اليهـود منـذ بضعة أيام. أليس السلوك الطبيعي هو أن يغادر المرء المكان الـذي تبلـغ الكراهية له فيه هذا الحد؟ (لهذا السبب، لا حاجة بنا إلى الصـهيونية، أو الشعور القومي). إن البطولـة الـتي تتمثـل في البقـاء على الـرغم من كـل هذه الكراهية، هي بطولة الصراصير التي يتعذر أيضًا إبادتها من الحمّام.

الآن فحسب تطلعت خارج النافذة: البوليس المحلي على ظهـور الخيـل (الجنـدرماري)، متـأهب للهجـوم بالسـناكي، والحشـد الصـارخ يتبـدد هاربًا، وفي النافذة هنا في أعلى العار الكريه للحيـاة طـوال الـوقت تحت الحماية.

كانت هذه الرسالة ملقاة هنا لبعض الوقت، إلا أنني لم أعقد العـزم على إرسالها، كنت منغلقًا للغاية في داخل نفسيـ أيضًـا، يمكنـني أن أفكـر دائمًا في السبب الوحيد لعدم كتابتك لي.

لقد أرسلت الطلب فعلًا إلى السلطات، وعندما يتم قبوله فسوف تتم البقية (حجز الغرفة وجواز السفر) عاجلًا، ثم سأحضر بعد ذلك. تريد شقيقتي أن تذهب إلى ڤيينا، وربما تحضر في الحال، إنها تريد أن تقضي يومًا أو يومين في ڤيينا؛ لكي ترافق في رحلة قصيرة، طفلها الذي يبلغ الشهر الرابع من عمره الآن.

إيرنشتاين[82] ـ حسنًا، مما كتبه لك، يتضح أن له عينًا فاحصة أكثر مما ظننت. وعلى هذا الأساس أحب أن أعيد النظر في الانطباع الذي كنت قد كونته لنفسي عنه، لكن ما دام أنني لا يمكنني أن أراه الآن فلن يكون ذلك بإمكاني. أحسست معه ـ وإن لم يكن ذلك قد استمر لأكثر من ربع الساعة ـ بالارتياح الزائد، ولم يكن هذا غريبًا بالمرة، وإن لم يكن ذلك على مستوى أكثر ارتفاعًا في الوقت نفسه ـ لقد كان الارتياح، وعدم الإحساس بالغربة هو الإحساس الذي أحسسته عندما كنت تلميذًا تجاه الصبي الذي كان يجلس إلى جواري. أحببت ذلك الصبي، لم يكن بإمكاني الاستغناء عنه، كنا حليفين في اجتيازنا لكل أهوال المدرسة؛ وكان تصنعي معه أقل منه مع أي شخص آخر ـ فأية علاقة مثيرة للشجن كانت علاقتنا تلك أساسًا. لقد كان هذا هو نفس الشيء مع (إيرنشتاين)، لم أشعر معه بأي تبادل مشترك للقوة الداخلية. كان ما يعنيه جيدًا جدًّا، وكان يتحدث جيدًا، ويبذل جهدًا هائلًا، لكن لو قدر لمثل هذا المتحدث أن يقف على ناصية كل شارع فلن يكون لهؤلاء المتحدثين على أي نحو، أن يعجلوا بمجيء «يوم الحساب»؛ لكنهم

82ألبرت إيرنشتاين، الشاعر الڤييني.

سيجعلون أيام الحاضر تستعصي أكثر مما هي عصية، على قدرتنا على احتمالها. هل تعرفين (تانيا)[83]، تلك المحادثة بين القس الروسي وبين تانيا؟ إنها، دون أن يقصد لها أن تكون؛ مثال لهذا النوع من العون العاجز وتموت تانيا أمام أعيننا تحت وطأة عبء هذا الارتياح الهائل.

ربما يكون (إ.) في ذاته شخصًا شديد القوة، وما قرأه منذ عدة ليال، كان جميلًا جمالًا نادرًا، وإن يكن مرة أخرى باستثناء فقرات معينة في كتاب «كراوس»[84]. وله كما قلت من قبل عين نافذة.

في الحقيقة، يكاد يكون (إ.) قد أصبح بدينًا على الأغلب، هو هو جسم على أية حال (وأيضًا جميل بصراحة؛ فكيف أخطأك أن تلاحظي ذلك!)، ويعرف عن النحاف من الناس، ما يزيد قليلًا على معرفته بكونهم نحاف البنية، وأصارحك القول بأن معرفته هذه تعد كافية بالنسبة لغالبيتهم؛ فهي كافية مثلًا، بالنسبة لي.

لقد تأخرت المجلات، وسأذكر لك السبب في وقت آخر، إلَّا أنها في الطريق.

لا يا ميلينا، لا توجد إمكانية حياة مشتركة ظننا أننا كنا قد عشناها في ڤيينا، تحت أي ظرف، ولم يحدث أن وجدت تلك الحياة وقتذاك، كنت قد تطلعت «من وراء سوري»، كنت فحسب قد شببت نحو قمة السور متشبثًا بها بيديّ، ثم سقطت من عندها ثانية بيدين ممزقتين. هنا بالطبع إمكانات أخرى، إلَّا أنني لم أعرفها بعد.

83دراما شاعر براغ (إرنست فايس).

84كتيب إيرنشتاين، عن الكاتب الفييني الساخر «كارل كراوس».

أسعدتني بالجدول. إنني أدرسه وكأنني أدرس خريطة. هناك ثمة يقين إلّا أنني واثق من أنني لن أحضر قبل أسبوعين، وربما بعدهما. عدة أشياء ما زالت تعوق انطلاقي في مقر عملي؛ والمصحة التي اعتادت الرد عليَّ فورًا، قد صمتت الآن، ولم ترد على تساؤل عن التغذية النباتية، وعلاوة على ذلك فإن نهوضي للقيام بالرحلة يكاد يكون كنهوض أمة؛ طوال الوقت هنا وهناك يحتاج الأمر إلى شيء من الإرادة؛ وهذا الشخص وذاك ما يزال ينبغي تشجيعه، وفي النهاية يصبح كل شخص مستعدًّا لكنني لا أتمكن من الرحيل لأن طفلًا راح يبكي. وأكثر من ذلك، فإنني أكاد أخاف الرحلة؛ فمن ذا الذي سيحتملني مثلًا في فندق، عندما أنخرط في السعال مثل الليلة من العاشرة إلّا الربع (لقد انقضت سنوات منذ أن تواجدت في الفراش في العاشرة إلّا الربع) حتى حوالي الحادية عشرة بلا انقطاع، ثم أتهيأ للنوم، وفي الثانية عشرة عندما أتقلب من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر، أبدأ في السعال ثانية وأستمر في السعال حتى الواحدة صباحًا؟ لا شك أنني لن أجرؤ على أن أرحل ثانية في قطار نوم، كما فعلت في العام الماضي بلا صعوبات.

ليس الأمر تمامًا على هذا النحو يا ميلينا. إن من يكتب لك الآن، تعرفينه من ميران. كنا عند ذاك شخصًا واحدًا، لم يكن قد أصبح هناك ثمة سؤال عن معرفة أحدنا بالآخر، ثم انفصلنا بعد ذلك ثانية.

وأود أن أقول ما هو أكثر في هذا الشأن، غير أنه لا يمكنه أن يخرج من حلقي الجاف.

أن الأمر هو أيضًا على هذا النحو معي. غالبًا ما أفكر قائلًا لنفسي: يجب أن أخبرك بهذا، غير أنني لا أستطيع أن أخبرك بشيء في نهاية الأمر. ربما كان الباشجاويش (بيركنز) ولا يمكنني إلّا عندما يترك يدي لدقيقة أن أكتب لك بسرعة كلمة في السر.

إن ترجمتك لهذه الفقرة بالذات تدل على تشابه في المزاج، نعم، إن التعذيب يهمني غاية الأهمية، إنني لا يشغلني شيء سوى أن أتعذب وأن أتسبب في عذاب الغير. لماذا؟ لنفس السبب الذي كان يدفع الباشجاويش بيركنز، ومثله أيضًا أفعل ذلك بلا تفكير، تلقائيًّا وانسياقًا مع العرف ــ أعني لكي أتعلم الكلمة اللعينة من الفم الملعون. كنت قد عبرت ذات مرة عن الغباء المتأصل في هذا (فالتحقق من الغباء لا ينفع بشيء) كما يلي: «ينتزع الحيوان السوط من السيد ويسوط به نفسه، وذلك كي يصبح هو نفسه سيدًا، ولا يدرك أن ذلك ليس سوى خيال صورته له عقدة جديدة أخرى في سوط السيد».

وإن التعذيب ليثير الشفقة بالطبع؛ ولهذا لم يقم الإسكندر بتعذيب «العقدة الجوردية» عندما استعصت على أن تنفك.

في هذا الصدد يبدو أن ثمة عرف يهودي موجود أيضًا، فال (ڤنكوف[85])، التي تكتب كثيرًا ضد اليهود في هذه الايام، قد أوضحت في مقال بارز أخيرًا أن اليهود يفسدون كل شيء ويصيبونه بالانحلال، وحتى أنه يفترض أنهم قد أفسدوا حركة (التسوط) التي كانت معروفة

85الصحيفة لسان حزب الفلاحين المحافظ.

في القرون الوسطى! ولسوء الحظ لم يرد بالمقال مزيد من التفاصيل عن هذا، فقط كانت به فقرات مقتبسة من كتاب إنجليزي. أشعر «بتثاقل» بالغ يعوقني عن الذهاب إلى مكتبة الجامعة، إلا أنني أود جداً أن أعرف حقيقة علاقة اليهود بهذه الحركة التي كانت (خلال العصور الوسطى) قد بعد بها العهد عنهم جداً. وربما وجد بين معارفك باحث يعرف شيئاً عن هذه الحركة.

لقد أرسلت الكتب، وأصرح لك بوضوح، أن ذلك لم يضايقني، بل إنه على العكس من ذلك هو الشيء الوحيد الذي يكاد يكون له معنى والذي قمت به منذ وقت طويل. كتاب (ألس)[86] قد نفدت طبعته، وسوف تظهر الطبعة الجديدة منه في عيد الميلاد. وقد اشتريت بدلًا منه كتابًا ل(تشيخوف). وأخشى ألا تكون طبعة (بابيكا) واضحة للقراءة، فلعلك لم تكوني لتشتريها لو رأيتها، لكن كانت التعليمات قد وجهت إليَّ.

هل قرأت شيئًا عن تفاصيل حريق المصحة؟ على أية حال ستكون مصحة (جريمنيشتاين) قد ازدحمت الآن وأصبحت بعيدة عن متناولي. وكيف سيتمكن (ه.) من زيارتي هناك؟ ظننت أنك قد كتبت لي أنه موجود في ميران.

إن رغبتك في ألا أقابل زوجك من الممكن ألا تكون أقوى من رغبتي في ذلك، لكن لو لم يحضر هو بالفعل لزيارتي ـ ولا أكاد أظن أنه

Ales86 فنان مصور وحفار تشيكي.

سيفعل ذلك ـ فسوف يكون لقاؤنا عندئذ مستحيلًا.

تأجلت الرحلة مرة أخرى لأن لديَّ أعمالًا عليّ أن أقوم بها في المكتب. ترين من هذا أنني لست خجلًا عندما أكتب إليك قائلًا إن لديّ «أعمالًا عليّ أن أقوم بها».

بالطبع من الممكن أن تكون هذه أعمال كأية أعمال أخرى غيرها؛ لكنها بالنسبة لي شبه إغماءة، أقرب إلى الموت كقرب النوم منه. فقول «ڤنكوف» صحيح تمامًا.

هاجري يا ميلينا، هاجري.

تقولين يا ميلينا إنك لا تفهمين ذلك، حاولي فهمه بأن تسميه مرضًا. إنه واحد من كثير من الأعراض المرضية الذي يظن التحليل النفسي أنه قد كشف عنها. إنني لا أسميه مرضًا وأعتبر الجانب العلاجي من التحليل النفسي غلطة ميئوس من إصلاحها. كل هذه التي تدعى أمراضًا، مهما بدت بائسة، هي أمور تتعلق بالعقيدة، هي جهود للأرواح المكروبة في محاولاتها لبلوغ مرافئ في تربة أمومية على نحو ما؛ وعلى هذا يعتبر التحليل النفسي أيضًا أصل الأديان (في زعمه) ليس سوى ما يسبب للفرد «الأمراض». ونفتقد في أيامنا هذه بالطبع الإحساس بالمجتمع الديني بصفة عامة؛ فالمِلل لا حصر لها، ومحصورة في أشخاص فرادى ـ وربما يبدو ذلك على هذا النحو فقط للعين المتأثرة بألوان الحاضر.

ومع ذلك فمثل هذه المرافئ التي تتشبث بالأرض الصلبة حقًّا، هي في النهاية ليست ملكية للإنسان منعزلة قابلة للتبادل، بل هي خلافًا لذلك موجودة قبلًا في طبيعته، وهي تواصل عملها في تشكيل طبيعته (كما تعمل عملها في تشكيل جسمه أيضًا) في هذا الاتجاه، والأمل أن يكون هنا مجال العلاج؟

أما في حالتي فعلى المرء أن يتخيل ثلاث دوائر: دائرة داخلية هي (أ)، ثم (ب) ثم (ج)، وتفسر الدائرة المركزية (أ) للدائرة (ب) لماذا يتعين على هذا الرجل أن يعذب نفسه ويتشكك فيها، ولماذا يتعين عليه أن يرفض (إنه ليس رفضًا؛ لأن ذلك سيكون من الصعب جداًّ، ولكنه فقط مجرد وجوب لأن يرفض)، ولماذا قد لا يكون له أن يعيش؟ (وألم يكن ديوجين مثلًا، مريضًا بهذا المعنى مرضًا عضالًا؟)، ومن منا من لن يسعده لو أشرقت علينا في النهاية من أعلى عين الإسكندر؟ غير أن ديوجين قد استعطفه في إلحاح بالغ أن يتيح له الحصول على الشمس ـ تلك الشمس المرهقة، الإغريقية، التي يبعث حريقها على الجنون. لقد كان هذا الحوض مليئًا بالأشباح. أما عن (ج) الشخص الفعال، فلا شيء عنده يجد تفسيرًا حتى الآن، فهذه الدائرة تتلقى الأمر من (ب). إن (ج) إنما يفعل تحت أقصى الضغوط عنفًا، عندما يتصبب عرق الخوف باردًا (هل ثمة عرق آخر يتفصد فوق الجبهة، والخدين، والصدغين وفروة الرأس ـ أو باختبار من كافة جوانب الجمجمة كلها، هذا هو حال (ج))، وعلى هذا فإن (ج) يعمل بفعل الخوف أكثر مما يعمل على أساس من الفهم؛ إنه يصدق ويعتقد أن (أ)

قد فسر كل شيء ل (ب) وأن (ب) قد فهم، وأوصل إليه كل شيء بالضبط.

إنني لا أفتقر إلى الإخلاص يا ميلينا مع أن لديّ انطباعًا بأن خط يدي في الكتابة قد دأب على الازدياد صراحة ووضوحًا؛ فهل هو كذلك؟ كما أنني قد بلغت في إخلاصي آخر مدى تسمح به (تعليمات السجن) وهذا كثير، كما أن «تعليمات السجن» أيضًا تزداد تراخيًا في صرامتها؛ لكنني لا أقدر على الثبات في الالتزام بخطاها، «فالثبات» مستحيل.

إن لي ميزة أتميز بها، وإن كانت في جوهرها لا تفرق كثيرًا بيني وبين معارفي، وإن كانت تزداد في حالتي كثيرًا في الدرجة. كلانا يعرف في النهاية نماذج نمطية كثيرة من اليهود الغربيين؛ وأعد أنا بقدر علمي أكثر هذه النماذج نمطية بينهم. ومعنى هذا في شيء من المبالغة أنه ليس لي أن أطمع في ثانية واحدة من الهدوء؛ لا شيء لي من هذا مطلقًا، وعليّ أن أكتسب كل شيء؛ ليس فقط الحاضر والمستقبل، بل عليّ أن أكتسب الماضي أيضًا ـ وثمة شيء فوق هذا ربما يكون قد اكتسبه كل كائن على نحو ما بالوراثة؟ هذا الشيء أيضًا عليّ أن أكتسبه. ولعل هذا أن يكون هو أشق ما يتعين عليّ أن أنجزه.

وعندما تسير الأرض نحو اليمين ولست متأكدًا من أنها تفعل هذا ـ يكون قد تعين عليّ عندئذ أن أستدير أنا إلى اليسار؛ لكي أعوض ما فاتني من الماضي. ولما كنت لا أملك أدنى ذرة من القوة للاضطلاع بهذه الالتزامات، فلست أقوى على حمل الدنيا فوق كتفي؛ ولا أنا

أحتمل حتى ثقل معطفي فوقهما. وهذا الافتقار إلى القوة، هو بالصدفة شيء لا يتعين على المرء بالضرورة أن يتباكى عليه؛ فأية قوة إذن تكفي للاضطلاع بهذه الأعباء. إن أية محاولة للمضي في هذا السبيل استنادًا إلى قوتي الحالية هو جنون، وستكون عاقبته هي الجنون. لهذا السبب من المستحيل أن (أثبت) في خطاي، كما تقترحين. وحدي لا يمكنني أن أمضي في الطريق الذي أريد المضي فيه، وفي الحقيقة لا أستطيع حتى أن أريد أن أمضي فيه. باستطاعتي فقط أن أهدأ؛ لا أستطيع أن أرغب في أي شيء آخر، كما أنني لا أريد أي شيء آخر.

إن الأمر لا يخرج عن كونه، كما لو أن شخصًا ما، لم يكن عليه فقط قبل أن يخرج في كل مرة للتريض أن يغتسل ويمشط شعره وما إلى ذلك- وهذا في حد ذاته مرهق حقًّا بما فيه الكفاية- بل يتعين عليه أيضًا (بما أنه في كل مرة يفتقر إلى ما هو ضروري لنزهته) أن يخيط ثيابه هي أيضًا وأن يضع أحذيته وأن يقوم بتصنيع قبعته، وأن ينحت عصاه التي يتوكأ عليها في سيره، وهكذا. وبالطبع لا يكون قادرًا على أن يصنع كل هذا على نحو جيد جدًّا، فلعلها أن تتماسك كلها إلى بعضها البعض على امتداد بضعة شوارع قليلة؛ لكنه عندما يبلغ ال «جرابن»[87] مثلًا، تسقط جميعًا كل منها في ناحية، ليقف هنالك عاريًا وسط الخرق والأسمال، ويجيء الآن دور العذاب في جريه راجعًا إلى

87شارع عمومي في براغ.

(ساحة ألتشتايتر)[88]. وفي النهاية ربما يندفع وسط غوغاء التأموا في حلقة شرَك لليهود في «حارة (آيزن)».

لا تسيئي فهمي يا ميلينا، فأنا لا أقول بهذا إن هذا الرجل قد ضاع، لا، أبدًا؛ لكنه يكون قد ضاع إن ذهب إلى (جرابن)، حيث يجلب الخزي على نفسه و العار على العالم.

تسلمت رسالتك الأخيرة يوم الإثنين، وأرسلت ردي عليها أيضًا في الحال يوم الإثنين.

يخيل إليّ أن زوجك قد قال هنا إنه ينوي الرحيل إلى باريس، فهل هذا تطور جديد في إطار الخطة القديمة؟

وصلتني اليوم رسالتان. بالطبع أنت على حق يا ميلينا، فلا أكاد أجرؤ على فض ردودك خجلًا من رسائلي، ورسائلي صادقة كما هي، أو على الأقل في طريقها لأن تكون صادقة ـ تصوري ما كنت سأفعل عندما واجهتني رسائلك، لو كانت رسائلي كاذبة! الجواب سهل: كنت سأصاب بالجنون. وعلى هذا فقول الحقيقة ليس فضيلة كبيرة جدًّا؛ بل هي أيضًا بالغة الصغر أيضًا، إنني أحاول طوال الوقت أن أنقل إليك شيئًا لا يمكن نقله؛ أن أشرح لك شيئًا لا يقبل التفسير، أن أخبرك بشيء يسكن في عظامي ولا يمكن أن تعاني تجربة معرفته فقط سوى هذه العظام وعسى ألا يكون ذلك في الأساس شيئًا سوى ذلك الخوف الذي تحدثنا عنه مرارًا بالفعل، إلا أن الخوف قد امتد إلى كل شيء، الخوف

88حيث كان يقطن والد كافكا.

من عظائم الأمور كالخوف من التوافه ـ الخوف، الخوف المتشنج كي لا ينطق كلمة. ومن ناحية أخرى مع ذلك، فلعل هذا الخوف ألا يكون خوفًا فقط، لكنه توق أيضًا في الوقت نفسه إلى شيء هو أكبر من كل الأشياء التي تبعث الخوف.

ـ «كان قد انقلب ضدي» ـ هذا شيء لا معنى له على الإطلاق. غير أنني أنا الملوم، فهي تتألف من قليل جدًّا من الصدق في جانبي، قليل جدًّا جدًّا من الصدق، ويتألف أغلبها من أكاذيب، أكاذيب نابعة من الخوف من نفسي ومن الخوف من الناس! وهذه الجرة كانت قد انكسرت قبل أن تذهب إلى النبع بوقت طويل[89].

والآن سوف أمسك لساني؛ حتى يتسنى لي أن ألزم قليلًا جانب الصدق. إن الكذب أمر مخيف، لا يوجد عذاب عقلي أسوأ منه، وهذا هو السبب في أنني أستعطفك:

أرجوك دعيني أصمت في الرسائل الآن، وأتوقف عن الكلمات في ڤيينا.

تكتبين قائلة: «لقد انقلب ضدي»، لكنني فقط أرى أنك تعذبين نفسك، وأنت كما تقولين تجدين السلام فقط في الشوارع، بينما أجلس أنا هنا، في حجرة دافئة، مرتديًا ملابسي المنزلية، وشبشبي، هادئًا بقدر ما يتيح لي ذلك (رقّاص ساعتي) و(إنه لا بد لي من «تحديد الوقت»).

89من المثل الألماني: «الجرة تذهب مرارًا وتكرارًا إلى النبع حتى لقد رجعت في النهاية إلى البيت مكسورة».

يمكنني أن أعرف متى سأرحل فقط بعد أن أتسلم التصريح بالإقامة. ذلك أن الإقامة لمدة تزيد على ثلاثة أيام تتطلب تصريحًا خاصًّا من السلطات، وقد قدمت طلبًا لذلك منذ أسبوع.

ـ «لقد انقلبت ضدي» ـ إنني أفكر مرة أخرى في هذه الجملة فهي خاطئة تمامًا مثلًا، بقدر ما تعبر عن الإمكانية المضادة.

ليس هذا خطئي، ولا هو خطأ الغير. هو فحسب أن منزلي إنما يتواجد في الهدوء الأهدأ، وهذا هو ما يصح بالنسبة لي.

لقد قصصت هذا الموضوع لأجلك من الصحيفة (ليفين)[90] قد أطلق عليه الرصاص في ميونيخ، هل لم يحدث له ذلك؟

***

اليوم هو الخميس. حتى يوم الثلاثاء، كنت قد قررت جادًّا أن أرحل إلى جريمينشتاين على الرغم من أنني عندما أفكر في ذلك أحس أحيانًا بتهديد داخلي، وأدركت أيضًا أن تأخير الرحلة كان إلى حد ما يرجع إلى هذا السبب، وعلى الرغم من ذلك، اعتقدت أنه من السهل إمكان أن أتغلب على الأمر كله. وفي يوم الثلاثاء بلغني من شخص ما أنه ليس من الضروري أن أنتظر في براغ لاستلام تصريح الإقامة، ذلك أن بإمكان المرء أن يحصل عليه في ڤيينا، في يسر. وعلى هذا كان الطريق مفتوحًا أمامي. وقد قضيت إحدى فترات الظهيرة بأكملها ممددًا فوق

90مفوض الشعب خلال عهد جمهورية ميونيخ المستشارية.

الأريكة أعذب نفسي، وفي المساء كتبت لك رسالة، غير أنني لم أرسلها لك؛ ذلك أنني ما زلت أظن نفسي قادرًا على أن أتغلب على الأمر. غير أنني قضيت الليلة المؤرقة كلها غالبًا وأنا أتلوى من العذاب.

إن هذين اللذين يكمنان في داخلي، ذلك الذي يريد الرحيل، والآخر الذي يخاف أن يرحل، كل منهما كان جزءًا مني، ولقد كانا وغدين كليهما، وكانا يتصارعان بداخلي، وفي الصباح نهضت كما أستيقظ وأنا في أسوأ حالاتي.

ليست لديّ القوة لكي أرحل، إن فكرة الوقوف في مواجهتك لا يمكنني مقدمًا أن أحتملها، لا أتحمل الضغط على ذهني.

تظهر رسالتك بالفعل خيبة أمل لا سبيل إلى مقاومتها، وإحباطًا لا حد له بداخلي- وتظهر رسالتي هذه ذلك أيضًا. تكتبين قائلة إنه لا أمل لديك، لكنك تملكين الأمل في أن يكون في مقدورك أن تتركيني تمامًا.

لا يمكنني أن أوضح لك، ولا لسواك كيف أشعر بذلك في داخلي. كيف أوضح كيف كان الأمر هكذا؟ لا يمكنني أن أوضح هذا حتى لنفسي، ومع ذلك، فليس هذا هو الشيء الأساسي- فالشيء الأساسي واضح: أن يعيش امرؤ حياة إنسانية في الجو الذي يحيط بي، مستحيل؛ إنك تدركين ذلك، ومع ذلك فأنت لا تريدين أن تصدقيه؟

***

مساء السبت

لم أتسلم بعد الرسالة الصفراء، وسوف أعيدها لك مغلقة.

سأكون مخطئًا خطأ بالغًا إن لم يتضح أن فكرة أننا قد توقفنا الآن عن الكتابة أحدنا إلى الآخر، هي فكرة جيدة. إلَّا أنني لست مخطئًا يا ميلينا.

لن أتحدث عنك، ليس لأن هذا ليس من شأني، فهو شأني، إلا أنني لا أريد أن أتحدث عنه.

وعلى هذا فسأتحدث فقط عن نفسي: إن ما تمثلينه بالنسبة لي يا ميلينا، هو بالنسبة لي شيء يتجاوز كل العالم الذي نعيش فيه، شيء لا يوجد في القصاصات اليومية من الأوراق التي ظللت أكتبها لك. هذه الرسائل في حقيقتها لا نفع فيها سوى أنها تسبب العذاب، فلو كانت لا تسببه لكانت عندئذ أشد سوءًا. إنها لا يمكنها أن تفعل سوى أن تقدم يومًا في جموند، سوى أن تنتج أشكالًا من سوء التفاهم، والإذلال، دائمًا الإذلال المتصل. أريد أن أراك في مثل الوضوح الذي رأيتك عليه أول مرة في الشارع، إلَّا أن الرسائل تشوش أكثر مما يفعل كل شارع (ل.)، بكل ضوضائه.

ومع ذلك، فليس هذا شيئًا حاسمًا حتى؛ إن ما هو حاسم هو عجزي، الذي تزيده الرسائل وأن أبلغ إلى ما وراء الرسائل؛ هو العجز تجاهك، بالإضافة إلى العجز تجاه نفسي ـ ألف رسالة في جانبك، وألف رغبة في جانبي لا يمكنها أن تدحض ذلك بالنسبة لي ـ وما هو أكثر من

ذلك حسمًا هو الصوت القوي الذي ربما كان هو سبب هذا العجز، غير أن كل الأسباب إنما تقبع في الظلام، بما أنه كان صوتك أنت الذي يرجوني أن أظل صامتًا.

ويبقى الآن كل ما يتعلق بك ولم يحدث له بعد أن قيل، على الرغم من أنه موجود في كل رسائلك (وربما في الرسالة الصفراء أيضًا، أو أفضل: فهي تبدي نفسها في البرقية التي طلبت أنت بواسطتها، ولك كل الحق في طلبك بالطبع، إعادتها إليك)، ويوجد مرارًا في الفقرات التي تخوف منها أنا، والتي أتجنبها كما يتجنب الشيطان مكانًا مقدسًا.

غريب، لقد أردت أنا أيضًا أن أرسل لك برقية، ولقد داعَبْتُ هذه الفكرة لوقت طويل، في الفراش، خلال الظهيرة، فوق الشرفة في المساء، إلا أنها لم تكن سوى مجرد سطر واحد لا غير: «سؤال عن رد محدد، ومؤكد على الفقرات التي تحتها خط في الرسالة الأخيرة».

وأخيرًا، مع ذلك باغتتني ريبة لا أساس لها؛ قبيحة تكمن في ثنايا هذا السطر فلم أرسله.

ها أنذا أجلس الآن لقراءة تلك الرسالة ـ لا أفعل شيئًا سواها ـ حتى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ـ لقد حدقت فيها، وحدقت فيك من خلالها.. أحيانًا وفي غير ما حلم، أرى هذه الرؤيا: وجهك وقد غطاه شعرك، وأنجح في فرق الشعر، وإزاحته إلى اليمين وإلى اليسار، ويتبدى وجهك، وأدرت جبهتك وجبينك على الجانبين؛ كي آخذ وجهك الآن بين راحتيّ.

(في الهـامش الأيمن): لـو ذهبت إلى مصـحة، فسـوف أخـبرك بـذلك بالطبع.

***

الإثنين

أردت أن أمزق هذه الرسالة، ولا أرسلها، ولا أرد على البرقية، فالبرقيات بالغة الغموض؛ لكن وصلت البطاقة الآن والرسالة، هذه البطاقة وهذه الرسالة. لكن حتى تجاهما يا ميلينا، حتى لو كان اللسان الذي يتوق إلى الحديث كان عليه أن يتمزق مزقًا ـ فكيف يمكنني أن أعتقد أنك تحتاجين إلى رسائل الآن، بينما لا تحتاجين إلى شيء سوى الهدوء، كما قلت مرارًا في شبه غيبوبة. وهذه الرسائل ليست في النهاية سوى عذاب؛ وليدة العذاب، العذاب الذي لا شفاء له، وتخلق فقط العذاب، العذاب الذي لا شفاء منه، ما فائدتها ـ وإنها لتزداد سوءًا حتى ـ خلال هذا الشتاء؟

وأن يكون المرء صامتًا، لهي الطريقة الوحيدة لكي يحيا هنا وهناك، في حزن، حسنًا، أية أهمية لذلك؟ إنها تجعل النوم أكثر طفولية، وأكثر عمقًا. لكن العذاب معناه دفع محراث في عمق النوم ـ وعبر النهار ـ وهذا لا يحتمل.

***

ليس هناك قانون يمنعني من الكتابة إليك مرة أخرى، ومن أن أشكرك على هذه الرسالة التي تتضمن ربما أجمل سطر على الإطلاق أمكن أن تكتبيه إليَّ، وهو هذا:

«إنني أعرف أنك...».

إلا أن خلافًا لذلك كنتِ متفقة معي لوقت طويل على أننا ينبغي لنا الآن ألا يكتب أحدنا بعد الآن إلى الآخر. وحقيقة أنني قد اتفق لي أن كنت أنا من عبر عن هذه الفكرة، هي مجرد صدفة. فقد كان من المحتمل بالمثل أن تكوني أنت من عبر عنها، وما دام أننا قد اتفقنا عليها فليس من الضروري أن نفسر لماذا سيكون من الخير عدم الكتابة.

إن السيئ هو فقط أنه (من الآن فصاعدًا لا ينبغي لك أن تسألي في مكتب البريد) لن يكون لي غالبًا أية إمكانية للكتابة إليك؛ أو سيكون لي فقط إمكانية أن أرسل لك بطاقة بدون كتابة، ستعني بهذا أن رسالة مني تنتظرك في مكتب البريد. ويجب أن تكتبي إليَّ دائمًا عندما يبدو ذلك ضروريًّا للغاية، إلا أن هذا لا يحتاج إلى إيضاح.

لقد عالجت الصفقة بالفعل مع (ف.) بطريقة سيئة جدًّا، لا شك في ذلك، إلَّا أن تعاملي بشأنها لم يكن بالغ السوء إلى هذا الحد الذي بدا لك عند الصدمة الأولى.

قبل كل شيء لم أكن قد ذهبت كمن يلتمس التماسًا، وأقل من ذلك استخدامي لاسمك. كنت قد ذهبت كشخص لا ينتمي إلى جهة ما، ويعرفك معرفة جيدة، شخص قد عاين بعض الأحوال في ڤيينا، وكان قد تلقى الآن رسالتين حزينتين منك أيضًا.

لن أقول وداعًا، فليس ثمة وداع، ما لم تجتذبني تلك الجاذبية المتربصة في الانتظار، فتهوي بي تمامًا إلى أسفل. لكن كيف يكون لها أن تفعل بي ذلك ما دمت على قيد الحياة؟

***

سيدتي العزيزة ميلينا[91]

أظن أنه من الأفضل ألا يتحدث المرء كثيرًا عن تغطية ظهره، وما يرتبط بـذلك، إلا بقـدر مـا يمكن للمـرء أن يتحـدث عن الخيانـة العظمى في وقت الحرب، فهذه في النهايـة هي أشـياء لا يسـتطيع المـرء أن يفهمهـا كل الفهم، ولا يسعه في نهاية المطاف سـوى أن يخمنهـا، إنهـا أشـياء لا يكون المرء فيما يتعلق بها سوى «أمـة» بأكملهـا، وليس مجـرد فـرد، إن للمرء تأثيره على الأحـداث، ذلـك أنـه بـدون «أمـة» لا يمكن لحـرب أن تُدار ومن هنا ينتحل المرء لنفسه الحق في أن يشارك في المناقشة، لكن الحقـائق الواقعـة إنمـا يتم تقريرهـا فقـط بواسـطة الصـلاحيات الـتي لا تحصى للسلطات العليـا. فلـو كـان للمـرء أن يـؤثر على الأحـداث حقًّا، بكلمة منه، ولو بالصدفة، فلن ينتج عن ذلك فحسب سوى الضرر. ذلك أن الكلمات هي في النهاية كلمات غـير متخصصـة، وتصـدر بلا رابـط، كما لو كانت تصدر في أثنـاء النـوم. والعـالم يمتلئ بالجواسـيس الـذين يسمعون، في هذا المقـام يكـون أفضـل سـلوك هـو ذلـك الـذي يتصـف بالوقار الهادئ الذي لا يتأثر بالاستفزاز.

وكل شيء هنا في الحقيقة استفزاز، حتى العشـب الـذي تجلسـين فوقـه بجوار القناة الممتدة ـ بلا أدنى مسئولية بالمناسبة، في وقت أخشـى أنـا فيه أن أصاب بنزلة برد، بينما الموقد مشتعل، ألـزم الفـراش تحت ملاءة للتدفئة وبطانيتين ولحاف محشو بالريش. ويمكن للمرء فقط في النهاية

91الرسائل التالية كانت قد أرسلت إلى شقة ميلينا وهنا يعود كافكا إلى استخدام ضمير الشخص الثاني الجمع «SIA» (حضرتك).

أن يقرر إلى أي مدى يمكن للمظهـر الخـارجي أن يـؤثر في العـالم، وفي هـذا المقـام أتمـيز أنـا بمرضـي على كـل نزاهاتـك الـتي يـتردد صـداها المخيف، ذلك أنـني لـو أتحـدث بهـذا المعـنى عن مرضـي فلن يصـدق حديثي أحد في الحقيقة؛ وفي الحقيقة ليس حديثي هذا سوى مزحة.

سوف أبدأ في الحال في قـراءة (دونابيـه)، وإن كنت ربمـا أرسـلها إليـك قبل أن أقرأها، فأنا أعرف ما الـذي تعنيـه رغبـة ملحـة كهـذه؛ وأن المـرء يكن ضغينة في داخله ضد من يحتجز لنفسه كتابًا كهـذا؛ كنت متحـيزًا مثلًا ضـد عـدة أشـخاص لأنـني ودون أن أسـتطيع الإثبـات، كنت قـد ارتبت في حصول كل منهم على نسخة من (بعد الصيف)[92]، وجـاء ابن (أوسكار باوم) إلى المنزل مسرعًا من مدرسة بـالقرب من فرانكفـورت، جاء أساسًا لأن كتبه لم تكن معه هناك، وخاصة كتابـه الأثـير (سـتوكلي وشركاه) ل «كبلنج» الذي كان قد قرأه فيما أعتقد 75 مـرة، فلـو كـانت الحالة على هذا النحو بخصوص «دونادييه» فسوف أرسلها، إلا أنني أود أن أقرأها.

لو كانت لي صفحات التسلية في المجلة فلن أقـرأ مقـالات «الموضـة»، فأين كانت هـذه المقـالات يـوم الأحـد الماضـي؟ ستسـعدينني جـداً إذا أشـرت دائمًـا إلى التـواريخ. سـأبحث عن «الشـيطان» عنـدما أتمكن من الخروج ثانية، ففي هذه اللحظة ما زال لديّ بعض الألم.

92رواية لـ «أدالبرت شتفتر».

جيورج كايزر ـ عرفت القليل بواسطته، ولم أشعر برغبة في معرفة المزيد، على الرغم من أنني لم أكن قد رأيت أي شيء من كتاباته على المسرح. قبل سنتين كنت متأثرًا تأثرًا بالغًا بدعواه القضائية ـ قرأت تقارير عنها في (صحيفة «تاترا») ـ وخاصة الدفاع الرائع الذي أعلن فيه عن حقه الذي رآه غير قابل للاعتراض أو الجدل في الحصول على ملكية أجنبية، مقارنًا وضعه في التاريخ الألماني بوضع لوثر، وطالب في حالة إدانته بأن الأعلام ينبغي لها أن تُنكس في ألمانيا.

وهنا بجوار فراش نومي تحدث أساسًا عن ابنه الأكبر (لديه ثلاثة أبناء) وهو صبي في العاشرة من عمره، وهو الذي لن يرسله إلى المدرسة، والذي لن يعلمه بنفسه هو أيضًا؛ والذي كنتيجة لذلك، لن يكون قادرًا، لا على أن يقرأ، ولا على أن يكتب. ومع ذلك فقد كان يرسم بموهبة جيدة جدًّا، وينفق أيامه متجولًا في أنحاء الغابة وعلى البحيرة (هم يعيشون في منزل ريفي منعزل في (جرونهايده)، بالقرب من برلين، وعندما قلت لكايزر، عندما هم بالانصراف: «على أية حال إن هذا مشروع هائل!» أجابني بقوله: «إنه بالفعل المشروع الوحيد، وكل شيء آخر هو شيء عارض على نحو أو آخر». غريب أن يراه المرء على هذا النحو، ولا يفتقر هو إلى القدرة على الإمتاع عندما يراه المرء على هذا النحو ـ نصف رجل أعمال من برلين طائش مرح، نصف مجنون. وهو لا يظهر قط، وقد بدا عليه الاهتزاز في كيانه كله، وعميقًا، على الرغم من أنه جزئيًّا في الحقيقة هكذا إلى حد بعيد. وهم في النهاية يقولون إنها كانت هي تلك المناطق وحدها التي دمرته، ولا شيء غيرها (وكان

قد التحق بإحدى الوظائف في مرحلة شبابه في أمريكا الجنوبية، وعاد من هناك مريضًا، واستلقى لمدة ثماني سنوات متكاسلًا فوق الأريكة، ثم بدأ عندئذ في العودة إلى الحياة في مصحة). هذه النصفية تعبر عن وجودها أيضًا في وجهه- وهو وجه مسطع بعينين خاويتين لونهما أزرق لامع، يبدوان مع ذلك مثل تفاصيل عديدة أخرى في وجهه، بينما تنتفضان في سرعة إلى الأمام، وإلى الخلف. بينما تبقى الأجزاء الأخرى في وجهه بلا حراك، كما لو كانت مشلولة. وفي الحقيقة لدى ماكس انطباع عنه يختلف عن هذا كل الاختلاف، فهو يعتبره مستفزًّا محركًا، وربما كان هذا هو السبب في أنه بعطفه قد أرغم كايزر على أن يجيء لزيارتي. والآن ها هو قد استولى على الجانب الأغلب من هذه الرسالة. وكنت أنوي أن أقول عدة أشياء أخرى. المرة القادمة.

***

سيدتي العزيزة ميلينا،

لا بد أن أعترف بأنني ذات مرة حسدت شخصًا ما حسدًا بالغًا جدًّا؛ لأنه كان محبوبًا، ومحاطًا برعاية طيبة، يتولى حراسته العقل والقوة، ويرقد في سلام تحت الأزهار. إنني دائمًا سريع الحسد.

أعتقد أنني على حق في الاستنتاج من مجلة (تريبونا) (التي لم أكن أقرأها بانتظام، بل بين الحين والحين) أنك قد مضيت صيفًا طيبًا، لقد حصلت ذات مرة على (تريبونا) على المحطة في (بلانا)؛ وكانت سيدة من المتواجدات بالمنتجع الصيفي تتحدث إلى أخرى، وهي تمسك في يدها بالمجلة خلفها، مسددة نحوي ـ عندئذ استعارتها شقيقتي ل. فإذا لم أكن مخطئًا، فقد كان لك مقالة مرحة جدًّا بها، ضد منتجعات المياه المعدنية الألمانية. وذات مرة كتبت عن مسرات الحياة الصيفية في مناطق السكك الحديدية النائية، وكانت هذه المقالة أيضًا مقالة جيدة؛ أو أنها كانت هي نفس المقالة؟ لا أظن ذلك. وكالعادة عندما تظهرين في ال (ناروني ليستي)، وتتركين مدرسة (الموضة) اليهودية خلفك؛ فقد كانت المقالة حول واجهات العرض متفوقة بصورة مدهشة. ثم قمت بترجمة تلك المقالة عن الطهاة، لماذا؟ وكانت ال «عمّة» غريبة على نحو ما ـ ففي إحدى المرات كتبت أن الرسائل ينبغي أن تلصق عليها طوابع البريد عل النحو الصحيح، ثم أن على المرء ألَّا يلقي بأي شيء خارج النافذة، وكلها حقائق مسلم بها، ومع ذلك فهي صراعات يائسة، لكن المرة بعد الأخرى، لو أن المرء ألقى انتباهًا لائقًا فإن شيئًا

عذبًا، مؤثرًا، وحسنًا يزحف إلى داخله على الرغم من ذلك؛ لكنها لا ينبغي لها أن تكره الألمان كل هذا الكره الزائد، إن الألمان رائعون، وسوف يظلون هكذا، هل تعرفين قصيدة آيشندورف: «آه، أيتها الوديان الواسعة، آهٍ أيتها الأعالي!»، أو قصيدة (يوستينوس كيرنر) عن (ورشة نشر الخشب؟)[93]، إذا كنت لا تعرفينها فسوف أنسخها لك ذات يوم.

ستكون هناك أشياء عديدة أقولها عن (بلانا)، لكن الآن انقضى وقتها. كانت أولًا غاية في العذوبة معي، على الرغم من أنه بالإضافة لي لديها أيضًا طفل. كانت رئتي جميلة على الأقل هنا في الخلاء، وهنا حيث بقيت طوال الأسبوعين الماضيين؛ لم أذهب بعد لزيارة الطبيب. لكن يمكن أن يكون ذلك بالغ السوء، إذا اعتبرنا مثلًا، أنني كنت قادرًا ـ أيها الغرور المقدس إن عليّ أن أقوم بتقطيع الخشب لمدة ساعة أو تزيد دون أن يصيبني التعب، وكنت مع ذلك سعيدًا للحظات. أشياء أخرى، النوم، والاستيقاظ الذي يرتبط به، كانا أحيانًا أسوأ.

وماذا عن رئتك؟ هذه المخلوقة القوية المعذبة الرزينة؟

لك ك

***

لقد انقضى وقت طويل منذ أن كتبت لك، يا سيدتي ميلينا، واليوم حتى أكتب فقط كنتيجة لحادث، فعلًا، ليس لي أن أعتذر عن عدم كتابتي

93«الجوَّال عند منشر الخشب» وهي قصيدة غالبًا ما اقتبس منها كافكا.

لك، فأنت تعرفين فوق كل شيء، إلى أي حد أكره الرسائل. كل سوء الحظ في حياتي كلها ـ لا أرغب في التشكي، بل أود أن أقدم ملاحظة إرشادية عامة ـ كل سوء الحظ هذا إنما يستمد وجوده كما يسع المرء أن يقول، من الرسائل، أو من إمكانية كتابة الرسائل. إن الناس لم يكادوا قط أن يخدعوني، لكن الرسائل قد فعلت ذلك دائمًا ـ وفي الحقيقة ليست فقط رسائل الآخرين، بل فعلته رسائلي أنا نفسي. وسوء الحظ في حالتي، هو سوء حظ خاص، لن أزيد في الحديث عنه، لكنه في الوقت نفسه سوء حظ عام أيضًا.

إن إمكانية السهولة التي تتصف بها كتابة الرسائل لا بد أنها مرئية من زاويتها النظرية فحسب ـ قد جذبت إلى الدنيا تحلُّلًا مرعبًا للنفوس. إنها، في الحقيقة محادثة مع الأشباح، وليس فقط مع شبح المستلم للرسالة، بل أيضًا مع شبح المرء نفسه، ذلك الذي ينمو بين سطور الرسالة التي يكتبها المرء وحتى يزيد في تلك التنمية في سلسلة من الرسائل حيث تعزز إحدى الرسائل الرسالة الأخرى، ويمكن أن تشير إليها كشاهد. فكيف أمكن قط أن حصل أي شخص على فكرة أن الناس يمكنهم أن يتواصل أحدهم مع الآخر بواسطة رسالة! يمكن للمرء أن يفكر في شخص بعيد، ويمكنه أن يمسك بالشخص الذي يكون قريبًا منه ـ أما كل ما عدا ذلك فهو يتجاوز مجال القوة البشرية. كتابة الرسائل، مع ذلك، تعني أن يجرد المرء نفسه أمام الأشباح، وهو شيء تنتظره تلك الأشباح في نهم. والقبلات المكتوبة لا تبلغ غايتها، ذلك أن الأشباح تشربها في الطريق. على هذه التغذية الوافدة تتكاثر الأشباح

على نحـو هائـل، وتـدرك البشـرية ذلـك بإحساسـها، وتجاربـه، ولكي تتخلص بقدر ما تستطيع من العنصر الشبحي بين الناس، ولكي تخلق تواصــلًا طبيعيًّا، هــو ســلام الأرواح، اخــترعت الســكك الحديديــة، والسيارة، والطائرة، إلا أنها لم تسفر عن أي خير، فهـذه هي اختراعـات من الواضح أنها قد تم إنجازها عند لحظة التحطم. والجانب المعـارض هو جانب أكثر هدوءًا إلى حـد بـالغ وأشـد قـوة، وبعـد الخدمـة البريديـة اخـترعت البشـرية الـبرق، والتليفـون والراديـو جـراف. إن الأشـباح لن تقضي نحبها جوعًا، لكننا نحن سوف نهلك.

إنني مندهش لأنك لم تكتبي عن ذلك بعد. ليس لكي تمنعي أو تحققي شـيئًا بنشـره؛ لأن ذلـك قـد أصبـح متـأخرًا جـدًّا؛ بـل لكي تظهـري لهـا (الأشباح) أنها قد تم التنبه لوجودها.

ويســتطيع المــرء أيضًــا أن يتعــرف «عليهم» مصــادفة، بواســطة الاستثناءات، ذلك أنهم أحيانًا يسمحون لرسالة بـأن تمـر بـدون تـدخل، وتصل الرسالة كأنها يد صديقة، فتضع نفسها، خفيفـة وعطوفـة في يـد المرء. حسـنًا، فهـذا أيضًـا ربمـا يبـدو فقـط، وكأنـه كـذلك؛ ومثـل هـذه الحالات ربما تكون أكثرها خطـورة، وينبغي على المـرء أن يـزداد حـذرًا منهـا على حـذره من غيرهـا. لكن لـو كـانت هـذه خـداعًا فإنهـا عندئـذ ستكون على أي الأحوال خداعًا كاملًا.

شيء من هذا القبيل حدث لي اليوم؛ وهذا هو السبب في الحقيقة الذي من أجله خطر لي أن أكتب إليك. تسلمت اليوم رسالة من صديق[94] تعرفينه أنت أيضًا؛ لم نكن قد كتب أحدنا للآخر منذ وقت طويل، وهو شيء بالغ الحساسية والإدراك. ويلي ما سبق قوله إن الرسائل هي علاج تام للنوم، فأية حالة تلك التي يصلون في أثنائها! حالة، مجدبة، خاوية، مستفزة، بهجة اللحظة أعقبتها معاناة طويلة الأمد. بينما أقرأهم، ينسى المرء نفسه، وينهض النوم القليل الذي يتملكه المرء، ينهض، ويطير من خلال النافذة المفتوحة ولا يعود لوقت طويل. هذا هو السبب في أننا لا يكتب أحدنا إلى الآخر. إلا أنني أفكر فيه غالبًا، وإن يكن على نحو عابر للغاية. كل تفكيري هو تفكير عابر للغاية.

لكن في الليلة الماضية تملكني التفكير فيه طويلًا، لساعات؛ قضيت ساعات الليل في الفراش (وهي عزيزة عليّ للغاية بسبب عدائها) أكرر له المرة بعد المرة بنفس الكلمات في رسالة خيالية عدة حقائق كانت قد تبدَّت لي في تلك اللحظة بالغة الأهمية. وفي الصباح وصلتني رسالة منه بالفعل، واحتوت علاوة على ذلك، على تلك الملاحظة، بأن الصديق كان قد تواجد لديه، لشهر ـ أو على نحو أفضل، منذ شهر ـ الشعور بأنه ينبغي عليه أن يأتي لزيارتي، وهي ملاحظة تطابقت على نحو غريب مع أشياء كنت قد مررت بتجربتها.

حادثة الرسالة هذه دفعتني إلى كتابة رسالة، وربما أنني كنت قد بدأت بالفعل، فكيف كان بإمكاني ألَّا أكتب لك أنت أيضًا يا سيدتي ميلينا

94من ميلينا نفسها فيما يبدو.

التي تمتعني (الكتابة إليها أشد المتعة بقدر ما يمكن للمرء أن يتمتع بكتابة الرسائل التي تخاطب مع ذلك الأشباح فقط التي تحاصر مائدتي في نهم).

لقد انقضى وقت طويل قبل أن أرى أي شيء من كتاباتك في المجلات، فيما عدا مقالات (الموضة) التي بدت لي، أخيرًا، فيما عدا استثناءات صغيرة، هادئة ومرحة، وبصفة خاصة المقال الأخير عن الربيع. وحتى ذلك الحين، حقًّا، لم أكن قد قرأت ال (تريبونا) لمدة ثلاثة أسابيع، لكنني سأحاول أن أطلبها. لقد كنت في (شبندلوله)، ثم وصلت رسالتك، وإنه لغريب في هذه الأيام أن ترد في كتابتي إليك: ينبغي لك، متى لم تفعلي؟ ـ فلتصبري عليّ. لسنوات لم أكن قد كتبت رسائل لأي شخص، وفي هذا المجال، كنت تمامًا وكأنني ميت؛ أفتقر إلى أية رغبة في أن أتواصل، كنت وكأنني لست من هذا العالم، ولا من أي عالم آخر أيضًا. كان ذلك كما لو كنت خلال كل هذه السنوات، قد فعلت كل شيء كان قد طُلب مني بطريقة آلية، وفي الحقيقة انتظرت فقط صوتًا ما كي يناديني، حتى ناداني المرض في النهاية من الحجرة الملاصقة، فهرعت إليه جريًا وأعطيت نفسي له أكثر فأكثر. إلَّا أن الظلام يخيم على تلك الحجرة وليس المرء متيقنًا تمامًا إن كان ما بها هو المرض.

على أية حال، أصبح التفكير والكتابة صعبة بطريقة متزايدة، وأحيانًا في الكتابة تمر فارغة عبر الصفحة. وما تزال تفعل؛ وعن التفكير لن أتحدث بالمرة (أذهل المرة بعد المرة لميزة الالتماع في تفكيرك،

وكيف تتجمع مجموعة من العبارات معًا، ويلتمع البرق). وعلى كل حال، لا بد لك من الصبر، فهذا البرعم يتفتح ببطء وإنه كبرعم فحسب لأن المرء يمنح اسم البرعم لما هو مستغلق على نفسه.

لقد بدأت قراءة رواية (دوناديه)، لكنني حتى الآن قرأت فيها قليلًا جدًّا، لا أستطيع أن أنغمس فيها تمامًا. وحتى القليل الذي قرأته له[95] من قبل لم يحركني كثيرًا جدًّا. لقد نال الثناء لبساطته، إلا أن البساطة تجد ترحيبًا بها في ألمانيا وفي روسيا. إنه ساحر هذا الجد، لكنه يفتقر إلى القوة التي تمنع المرء من تجاوزه منصرفًا عنه أثناء القراءة. إن ما قد قرأته حتى الآن (فأنا ما زلت في ليون) يبدو لي من خصائص فرنسا المميزة، أكثر من كونه من الخصائص المميزة لفيليب، ثمة انعكاس واهن ل (فلوبير)، مثلًا الجذل المفاجئ عند ركن أحد الشوارع ((هل تذكرين بالمصادفة تلك الفقرة؟). أما الترجمة فتبدو وكأنها قد تمت بيدي اثنين من المترجمين، أحدهما جيد جدًّا لفترة ما، ثم مرة أخرى سيئ إلى درجة انعدام القابلية للفهم (ثمة ترجمة جديدة ل (ڤولڤ) على وشك أن تنشر)، وعلى كل حال فإنني مستمتع جدًّا بقراءتها. لقد أصبحت قارئًا جيدًا إلى درجة كبيرة وإن كنت بطيئًا. إن ما يزعجني في هذه الرواية هو ضعفي الذي أصبح مرتبكًا بسببه ارتباكًا شديدًا عندما أواجه الفتيات الصغيرات، ويبلغ هذا الارتباك مدى أبعد فيجعلني لا أؤمن بفتيات الكاتب؛ لأنني لا أؤمن بأن في وسعه الجرأة على أن يقترب منهن. إن ذلك يبدو لي كما لو أن الكاتب كان قد صنع دمية

95شارل - لويس فيليب.

وأطلق عليها اسم (دوناديه) لا لشيء سوى أن يصرف انتباه القارئ عن (دوناديه)، الحقيقية التي تختلف كل الاختلاف وتتواجد في مكان آخر.

وبالفعل من داخل سنوات البنوتة هذه بكل عذوبتها تتطلع نحوي صيغة جامدة ما كما لو كان ما قيل هنا لم يكن حقًّا قد حدث، لكن فحسب ما أعقبه، وأنه كان قد تم اختراعه فيما بعد كمفتتح طبقًا لقوانين الموسيقى، وجرت مطابقته على الواقع.

وهناك روايات يتصل فيها هذا الإحساس ويبقى إلى النهاية ـ منها «على الطريق الواسع»[96] لا أدري.

أحب تشيخوف كثيرًا جدًّا، وفي أحيان أحبه بجنون تام. حسنًا لا أعرف شيئًا عن (فون دِرْ مُولِهْ)، ولا عن (ستيفنسون) فيما عدا أنه كاتبك المفضل. سوف أقرأ (فرانتسي)[97]. لكنني فيما عدا فقرات صغيرة معينة بها، أثق أنك لن تعجبي بها. ويمكن تفسير ذلك بواسطة نظريتي التي تتلخص في أن الكُتَّاب الأحياء تكون لهم ارتباطات حية برواياتهم. فبوجودهم في حد ذاته يحاربون من أجل أو يحاربون ضد هذه الروايات. والحياة الحقيقية المستقلة للرواية تبدأ فحسب بعد وفاة الكاتب؛ أو، على نحو أكثر صحة، بعد وفاته بوقت ما، ذلك أن هؤلاء الرجال التواقين يواصلون الحرب لفترة ما من أجل رواياتهم فيما وراء موتهم. ثم بعد ذلك تصبح الرواية وحيدة ويمكنها أن تستند فقط إلى

96«على الطريق الواسع» ربما كان عنوانًا لإحدى الروايات.

97رواية لـ (ماكس برود).

القوة التي تستمدها من نبضات قلبها. وهذا هو السبب في أنه كان من المعقول جداًّ ل (مايربير) مثلًا، أن يحاول ويدعم نبضات القلب هذه بأن يترك تركة لكل أوبرا من أوبراته تتدرج ربما تبعًا للثقة التي أحسها بالنسبة لكل منها. عن هذا هناك المزيد، وإن لم يكن مهمًّا جداًّ، من الأشياء التي يمكن أن تقال.

وبتطبيقها على رواية (فرانتسي)، فإنما يعني هذا أن رواية الكاتب الحي هي حقًّا حجرة النوم الكائنة في نهاية شقته، والمخصصة للقبلات، إن كان يستحق القبلات، أو التي تختص بالإزعاج إن لم تكن حالة هكذا. وإنه لا يكاد يكون حكمًا على الرواية إذا قلت أنا إنها تعجبني أو قلت أنت- وربما لا تقولين- عكس ذلك.

اليوم أقرأ جزءًا أكبر من رواية (دوناديه)، إلا أنني لا أستطيع أن أتقدم في قراءتها، كما لا يسعني أن أتقدم اليوم في تفسيرها، ذلك أن شقيقتي في داخل المطبخ المجاور لي تتحدث إلى الطاهية، وهي محادثة يمكنني أن أقطعها بسعال قصير واحد، إلا أنني لا أريد أن أقطعها، ذلك أن هذه الفتاة- ولقد عملت معنا منذ أيام قليلة فقط- في التاسعة عشرة من عمرها قوية البنية بدرجة هائلة، تزعم أنها أتعس مخلوقة في الدنيا، بلا سبب، وأنها تعيسة فقط لأنها تعيسة، وفي حاجة إلى مواساة شقيقتي (التي تصادف أنها بحكم عادة قديمة، كما يقول والدي: «تفضل أن تجلس مع الخادمة»)، وأيًّا كان ما أقوله عن الرواية مما يتبدى لي ظاهرًا سوف يكون مجافيًا للعدل، ذلك أن كل الاعتراضات تجيء من النواة، وليس من نواة الكتاب. فلنفترض أن أحدهم قد

ارتكب جريمة قتل بالأمس- ومتى كان باستطاعة هذا الأمس أبدًا أن يتحول إلى يوم آخر قبل الأمس؟

- عندئذ فهو لن يطيق أن يقرأ اليوم قصصًا عن القتل. فهذه القصص ستكون بالنسبة له هي كل شيء تلقائيًّا في وقت معًا: مؤلمة، مضجرة، وباعثة على الغيظ. إن انعدام الوقار أو التهريج الوقور والصفاقة المرتبكة، والسخرية المثيرة للإعجاب، والتي تتصف بها الرواية جميعًا- لا شيء منها يعجبني. فعندما يغوي رافائيل (دوناديه)، فإن ذلك يكون غاية في الأهمية بالنسبة لها، لكن أي عمل استلزم وجود المؤلف في حجرة الطالب، وحتى من هو أقل الجميع اهتمامًا بها، وهو الشخص الرابع أو القارئ، إلى أن تتحول الحجرة إلى قاعة محاضرات لكلية الطب أو علم النفس. وبالإضافة إلى ذلك لا يوجد في الرواية غير هذا سوى القليل جدًّا، فيما عدا اليأس.

ما أزال غالبًا أفكر في مقالتك، وبغرابة كافية، أعتقد- لكي ندع الحوار المتخيل يدخل في ثنايا حوار حقيقي: اليهودية، اليهودية!

- أعتقد أنه توجد أشياء من قبيل زيجات لا تقوم على أساس من اليأس الناتج من كون المرء وحيدًا، وما هو أكثر من ذلك، وهو أن هذه الزيجات تكون زيجات متفوقة واعية، وأظن أن الملاك يعتقد في ذلك جوهريًّا هو أيضًا.

بالنسبة لهؤلاء الذين يعقدون زواجًا بدافع من اليأس- ما الذي يجنونه؟ فلو أن الوحدة أضيفت إلى وحدة فلن يؤدي ذلك مطلقًا إلى

تآلف، بل يؤدي إلى (كاتورجا)[98] فكل وحدة منهما ستعكس نفسها في الوحدة الأخرى، حتى في أعمق وأحلك الليالي. ولو ربط أحد وحدة إلى أمن، فسوف تكون أسوأ حتى بالنسبة للوحدة (ما لم تكن وحـدة رقيقـة، مراهقة، لا واعية).

إن الـزواج يعـني بـالأحرى_ إذا كـان للمـرء أن يحـدد الحالـة بحـدة وصرامة_ أن يكون المرء آمنًا.

لكن في هذه اللحظة أسوأ شيء هو_ حتى أنـا لم أكن توقعتـه_ أنـني لا أستطيع أن أواصل كتابة هذه الرسائل، ولا حتى هـذه الرسـائل المهمـة. إن الساحر الشرير لكتابة الرسائل قد بدأ يحطم لياليّ_ تلك الليالي التي تحطم نفسها حتى؛ بنفسها على أية حال_ يحطمها أكثر مما حطمها لي من قبل. لا بد أن أتوقف، لا يمكنني أن أكتب بعد هذا. آه، إن انعدام نومك يختلف في نوعه عن أرَقي. أرجوك فلنكف عن الكتابة بعد هذا.

***

98كلمة روسية تعني مدة سجن طويلة يعقبها النفي.

بطاقة بريدية من دوبريتشوڤيتشي

علامة بريدية 230509

شكرًا جزيرًا لتحياتك. أما بالنسبة ليل، فلقد خرجت قادمًا إلى هنا لأيام قليلة، فالأمور في براغ ليست على ما يرام كثيرًا. إلَّا أنها ليست رحلة بعد، إنها مجرد خفق لجناحين لا فائدة منهما بالمرة.

ك.

***

بطاقة بريدية من دوبريتشوڤيتشي

علامة بريدية 230509

آمل أن تكوني قد تسلمتِ بطاقتي من دوبريتشوڤيتشي، إنني ما زلت هنا، لكني سأغادر المكان في غضون يومين أو ثلاثة ايام راجعًا إلى موطني، إنه مكان باهظ التكاليف جداً، ولا يكاد النوم يعرف طريقه إليه، وهكذا وإن كان من ناحية أخرى مكانًا جميلًا فوق كل وصف. أما بالنسبة للرحلات التالية، فهذه الرحلة قد جعلتني ربما أكثر قابلية للسفر إلى حد ما، حتى لو كانت الرحلة لا تعني أكثر من البعد لمسافة نصف الساعة عن براغ، إنني أخشى فقط، أولًا، التكاليف ـ فهذا المكان بالغ التكاليف وإن يتاح للمرء إن يبقى هنا على مدى الأيام الأخيرة فقط قبل وفاته، فإنه لن يكون قد تبقى معه شيء ـ وثانيًا أخشى ـ السماء والجحيم وغير هذا، فإن العالم كله مفتوح أمامي.

مع أرق تحيات

المخلص لك

ك

***

(بالقلم الرصاص، عبر وفوق وتحت البطاقة)

إنهم سيئون أيضًا في إعطاء المرء الفكة الصحيحة، فتكون حينًا أكثر من اللازم جداًّ، وفي حين آخر أقل من اللازم بكثير، ومن الصعب عدها؛ فالساقي سريع جداًّ.

بالمناسبة، إنها المرة الثالثة منذ عرف أحدنا الآخر التي حذرتني فيها فجأة، في لحظة قصوى محددة، أو هدأتني - أو أيًّا ما كانت الكلمة التي يروق للمرء أن يعبر بها عن ذلك - بأسطر قليلة.

بعد لقائنا الأخير، عندما اختفيت أنت[99] فجأة (وإن لم يكن ذلك مما يثير الدهشة)، لم أتلق منك أية رسائل ثانية حتى بداية سبتمبر - على نحو كان بالنسبة لي طريقة بالغة الإزعاج. في تلك الأثناء، في يوليو - كان شيء مهم قد حدث لي - أية أشياء هذه التي توجد إن كنت قد ذهبت إلى (موريتز) على بحر البلطيق بمساعدة شقيقتي الكبرى، بعيداً عن براغ على أية حال، بعيداً عن الحجرة المغلقة. في البداية لم أشعر أيضًا بتحسن، ثم في (موريتز) تطورت إمكانية برلين على غير توقع، كنت قد انتويت بالفعل الذهاب إلى فلسطين في أكتوبر، أظن أننا تحدثنا عن ذلك، بالطبع لم تكن هذه النية لتتم، لقد كانت وهمًا تخيله شخص كان مقتنعًا بأنه لن يغادر فراشه ثانية قط. فإذا كنت لن أغادر فراشي ثانية قط، فلماذا لا أرحل حتى أبلغ مكانًا كفلسطين؟ إلَّا أنني في

99هنا يعود كافكا مرة أخرى إلى استخدام ضمير الشخص الثاني المفرد «DU» أنتِ.

(موريتز) كنت قد اتصلت بمستعمرة صيفية لجماعة من برلين تسمى موطن الشعب اليهودي، وكان أغلبهم من اليهود الشرقيين. وقد اجتذبتني جدًّا، وقفت في طريقي، وبدأت أفكر في إمكانية الانتقال إلى برلين. في ذلك الوقت لم تكن هذه الإمكانية تزيد في واقعيتها عن خطة فلسطين، إلا أنها أخذت تزداد قوة. وأن أعيش وحدي في برلين كان مستحيلًا بالطبع، من كل الوجوه، ليس فقط في برلين، بل ولا في أي مكان آخر في هذا الصدد. ومن أجل هذا، قدم لي أحد الحلول[100] نفسه في (موريتز)، (كان حلًا مدهشًا بطريقته الخاصة) ثم في منتصف أغسطس، ذهبت إلى براغ، ثم فيما بعد قضيت أكثر من شهر مع شقيقتي الصغرى في (شيليسن). وهنا سمعت بالصدفة عن الرسالة المحترقة فانتابني اليأس، وكتبت لك رسالة في الحال لكي أخفف عن نفسي، لكنني لم أرسلها في النهاية؛ لأنني لم أكن قد عرفت شيئًا عنك، أخيرًا أحرقت هذه الرسالة هي أيضًا قبل أن أغادر برلين.

وعن الرسائل الثلاث الأخرى التي ذكرتها، لا أعرف شيئًا حتى اليوم، كنت قد فقدت صوابي بسبب عار كان قد ألصق بشخص ما، لم أعرف بالضبط على أي من الثلاثة المعنيين، إلا أن اليأس بالطبع حتى لو كان مختلفًا في نوعه، فلم أكن لأهرب تحت ضغط أي ظرف من الظروف، ولا حتى لو كنت قد تسلمت الرسالة بالفعل في (موريتز).

ثم في نهاية سبتمبر غادرت المكان متجهًا إلى برلين. وبعد مغادرتي بفترة قصيرة، تسلمت بطاقتك من إيطاليا، أما بخصوص الرحيل فقد

100يشير كافكا هنا إلى «دورا ديمانت» رفيقته خلال شهوره الأخيرة.

قمت بتنفيذه بآخر رمق من القوة أمكنني أن أستدعيه، أو على نحو أكثر صحة قمت بتنفيذه بالفعل بدون أدنى قوة، على نحو أشبه تمامًا بالحالة الجنائزية.

والآن ها أنا هنا؛ وحتى الآن تبدو الأمور في برلين بالغة السوء كما يبدو أنك تظنينها؛ إنني أعيش في الريف غالبًا، في فيلا صغيرة، وحديقة، ويبدو لي أنني لم يكن لي من قبل قط مثل هذه الشقة الجميلة، وإنني لواثق كل الثقة بأنني سوف أفقدها حالًا ـ فهي زائدة الجمال بالنسبة لي، وبالمصادفة فهي بالفعل الشقة الثانية التي أقمت فيها هنا. وحتى الآن لا يكاد الطعام يختلف جوهريًّا عنه في براغ، وإن يكن طعامي وحده. ونفس الشيء صحيح بالنسبة لصحتي. وهذا هو كل شيء.

ولا يمكنني أن أجرؤ على قول المزيد بعد هذا، وما قلته هو بالفعل كثير جدًّا، إن الأرواح النجمية تشربها بالفعل في نهم من خلال حناجرها الشرهة. وأنت تقولين أقل حتى من هذا في رسالتك. هل الحالة العامة حالة جيدة محتملة؟ لا يمكنني أن أحل لغزها. بالطبع لا يمكن للمرء حتى أن يفعل في حالته هو الخاصة؛ وبهذا ف «الخوف» ليس شيئًا آخر سوى هذا.

ف.

***

عزيزتي ميلينا،

لـوقت طويـل كـان جـزء من رسـالة ملقى هنـا جـاهزًا لك[101]، إلا أن الاسـتمرار ليس سـهلًا؛ لأنـه حـتى هنـا عـثرت عليّ الآلام القديمـة وهاجمتني وطرحتني أرضًـا على نحو مـا. في مثـل تلـك الأوقـات، كـل شيء قد تحول إلى جهـد، كـل لمسة بـالقلم، كـل شـيء أكتبـه يبـدو لي مهمًّا جدًّا، بنسبته إلى قوتي، وعنـدما أكتب (مـع أرق تحيـاتي) ـ فهـل لهـذه الكلمـات القـوة حقًّا لكي تصـل إلى (ل. شتراسـه) «الشـارع» الحضـري، الصـاخب، الوحشـي، الرمـادي، حيث لا أسـتطيع أنـا أو مـا ينتمي إليّ أن يتنفس؟

وهكـذا أجـدني في النهايـة لا أكتب على الإطلاق، إنـني أنتظـر أوقاتًـا أفضل، أو حتى أسوأ، أما فيما يتعلق بالبـاقي فأنـا بخير وفي حمايـة هنـا إلى أقصى حدود الإمكانات الدنيويـة. وعن الـدنيا أتعلم فقـط، وإن يكن على نحـو أكـثر شـدة وتأكيـدًا، من خلال ارتفـاع تكـاليف المعيشـة. لا تصلني أية صحف من براغ، أما صحف بـرلين فهي غاليـة الثمن جدًّاـ فماذا عن إرسـالك مـرة من حين لآخـر بعضًـا من قصاصـات (نـارودني ليستي) تلك الـتي طالمـا منحتـني كثـيرًا من السـعادة. بالمصـادفة، كـان عنواني في الأسابيع القليلة الأخيرة هو:

شتجلتس، جرونيڤالد شراسة 13، س/و، هرـ زايفيرت.

101ضمير المخاطب «ك» هنا بصيغة التحفظ Sie الشخص الثاني الجمع.

والآن، مع ذلك «مع أرق تحياتي»، فما أهمية إن كانوا قد هبطوا بالفعل عن طريق بوابة الحديقة، ربما تكون قوتك أشد ما تكون.

لك

لك.

***

انتهت

الفهرس